



سلسلة الدراسات الكبرى

الدكتور موسى لقبال
أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الجزائر

دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية

منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (11 م)



الدكتور موسى لقبال
أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الجزائر

دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية

منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (١١م)

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
الجزائر

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ©
الجزائر ، 1979

الإهداء

ـ الى المؤمنين بوحدة شعوب المغرب العربي ضرورة حيوية ومرحلة تمهيدية لعمل أوسع واشمل .

ـ الى الذين يؤمنون بأن حاضر الامة مرتبط بماضيها ، فى اطار عربي اسلامي تقدمي .

ـ الى الصامدين فى مواقفهم النضالية المبدئية من اجل تحقيق تعريب جذري .

ـ الى الذين يهبون طاقات خلاقة ، وجهودا مظفرة للوطن فى هذا الميدان ، لازالة بعض المعوقات ، وعلاج بعض العقد تدريجيا .

ـ الى العاملين بوعي ، على غرس ، وترسيخ القيم النضالية والثورية والروحية فى النشء .

ـ الى الذين يملؤهم الايمان والتصميم ، لتجديد « روح نوفمبر » 1954 ، واحياء عصر الشباب « فى الثورة » ، بدعم المؤسسات والشرعية الدستورية ، وبعث « فرحة الحياة » بين المواطنين ، و « السلام الاجتماعي » بين الجماهير العريضة .

الى هؤلاء جميعا

اهدي كتابي .

المؤلف

خطة وهدف

هـذا امـــير المؤمنــين تضعضعت لقدومــه اركـــان كــل امـــير
هذا الامـام الفـاطمي ومـن بـــه امنت مغاربهـــا مـــن المحـــذور
والشرق ليس لشـامه وعــراقه من مهـرب مـن جيشــه المنصـور
حتى يفوز مـن الخلافـــة بالمنـى ويفـاز منـه بعدلـــه المنشـــور

سعدون الورجيني
ت بعد 322 هـ / 934 م

بسم الله الرحمن الرحيم

التصدير

بقلم
دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
استاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية آداب
جامعة القاهرة

من دواعي فخر كل عربي ان حركة التحرير فى الجزائر جاءت مصحوبة برغبة صادقة فى تعريب البلاد . واذا كان الاستعمار عندما ثبت أقدامه فى القرن الماضي فى هذا القطر الشقيق قد بذل أقصى ما وسعه الجهد لمحو الطابع العربي للجزائر ، فان صمود الجزائر فى وجه الاستعمار انما نتج أساسا من تمسكها بعروبتها واسلامها ورفضها ذلك الطلاء ذا البريق الزائف من الحضارة الغربية حتى نجحت ثورة الجزائر التحررية وعندئذ وجد الجزائريون فى التراث العربي الاسلامي خير عاصم يحمي كيانهم ويستعيدون فى ظله مجد بلادهم .

وكان ان بدأت سياسة التعريب على نطاق واسع فى التعليم ، ووفد فى الخمسينات من هذا القرن بعض أبناء الجزائر يتلقون تعليمهم فى جامعات مصر العربية ليعودوا رسلا للعروبة والتعريب فى بلادهم . ومن هؤلاء صاحب هذه الرسالة الدكتور لقبال موسى بن علاوة ، الذي تتلمذ على أيدينا بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، حتى اذا ما تخرج وواصل دراسته العليا كان لنا حظ مناقشته فى هذه الرسالة التي تقدم بها للحصول على الدكتوراه فى التاريخ الاسلامي من جامعة عين شمس .

وطوال هذه السنوات التي عرفنا فيها السيد لقبال موسى ، عهدناه رجلا ناضجا بكل معاني الكلمة ، فى فكره وخلقه وسلوكه . والحق انه كان دائما أبدا يمثل الثمرة اليانعة من شباب الثورة الجزائرية ، ويعطى صورة صادقة للرجل الجزائري الشديد الايمان بالله وبوطنه وبعروبته ، وهذه كلها صفات جعلته موضع حب وتقدير كل من عرفه واتصل به من قريب .

وهذا الكتاب الذي الفه الدكتور لقبال موسي وحصل به على درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الاولى له دلالة قومية وطنية ، فوق ما له من أهمية علمية . ذلك انه يمثل بحثا ضخما يعالج صفحة خطيرة من صفحات العروبة والاسلام ، كتبه والفه شاب جزائري بأسلوب عربي سليم ، وأجازته جامعة من كبرى الجامعات العربية . وبعبارة أخرى فان هذا الكتاب يعبر عما بلغه تيار العروبة من تقدم فى الجزائر الحرة الثائرة ، ويبشر بما سيبلغه هذا التيار من قوة وازدهار بفضل سياسة القائد البطل هواري بومدين ورفاقه حتى يزول تماما ذلك الطلاء الغريب الزائف الذي حاول الاستعمار طوال قرن من الزمان تثبيته ، ليمحو الشخصية العربية الاسلامية لهذا الجزء الأصيل من الوطن العربي الاسلامي .

ومن ناحية أخرى ، فان الدكتور لقبال موسى نجح فى بحثه هذا فى أن يعالج مسألة لها أهميتها فى التاريخ الاسلامي بوجه عام وفى تاريخ المغرب بوجه خاص ، هي دور قبيلة كتامة فى تاريخ الدولة الفاطمية . ولا يخفى على الباحثين فى حقل التاريخ الاسلامي ان هذا الدور ظل حتى الآن يشوبه الغموض ويكتنفه الابهام ، فلم يحاول أحد من المؤرخين قبل الدكتور لقبال موسي أن يتصدى لعلاجه ، نظرا لصعوبة مسالكه وتشعب دروبه . ولكن كافة هذه الصعوبات لم تقف حائلا فى وجه الدكتور لقبال موسى ، فتصدى لعلاج الموضوع فى شجاعة وظل أعواما يبذل الجهد الشاق فى السعي وراء الحقائق ، تارة فى أعماق المصادر المعاصرة من وثائق ومخطوطات ، وتارة أخرى فى آراء الباحثين المحدثين يمحصها ويقارن بعضها ببعض حتى يصل الى لب الحقيقة وجوهر الموضوع .

وهكذا نجح الدكتور لقبال موسى فى أن يلقي أضواء جديدة على صفحة خالدة من صفحات تاريخ الآباء والاجداد ، وفى أن يسد ــ بهذا الكتاب ــ الذي يقدمه اليوم للباحثين ثغرة كانت ملموسة فى المكتبة العربية ، فله مني ومن جميع الحريصين على تاريخ العروبة والاسلام كل ثناء وتقدير ، سائلين الله أن يوفقنا جميعا لخدمة تاريخ الآباء والاجداد .

المقدمة

يحمل تاريخ قبيلة كتـامة ، وعلاقتهم بالحركة الاسماعيلية منذ القرن الثالث للهجرة عدة معان ودلالات هامة منها :

ان عملهم يعبر عن فترة حاسمة فى نهضة الفروسية الاسلامية فى بلاد المغرب ، وهو ايضا يمثل دورا ايجابيا للاسلام الشيعي ، ثم لقبائل البرانس فى افريقية والمغرب الاوسط فى التاريخ الاسلامي ، وفى العلاقات السياسية والمذهبية لمدى قرنين . ثم ان ما أسفر عنه هذا العمل فى النهاية ، تمثل فى نجـاح حركة التحدي للاسلام السني ، الذي يمثله العباسيون ، الذين اضطروا تحت ضغط أولياء الفاطميين من كتـامة ، الى الاعتراف بالامر الواقع وبتعديل الحدود السياسية ، وبنوع جديد من العلاقات بين المغرب والمشرق .

ولم يكن دافع الكتاميين عقائديا فحسب ، وانما يبدو أن الاحساس بضرورة رد الجميل لما قام به عرب المشرق لفائدة سكان المغرب ، منذ عصر الفتوح ، كان وراء حركة التوسع التي أخذت طريقا عكسيا .

وبفضل عمل كتـامة ، سرى تيار الوحدة ، وأصبحت أصداؤه هي المسموعة فى ارجاء المغرب والمشرق ايضا .

كما ان نشاطهم خاصة فى ميدان المغرب ، قد ساعد على ظهور حركات تطهيرية تمثلت فى مهدويات المرابطين ، والموحدين ، وفى نهضة حركة الأشراف بعد ذلك . وتاريخ كتـامة ، يمثل زاوية هامة لدراسة أهم فصول العلاقة فى نطاق دار الاسـلام ، ودار الحرب على السواء .

ومن الواضح أن منزلة كتـامة ، واهميتهم بالنسبة للخلافة الفاطمية ، لا تشبهها الا منزلة الخراسانية والاتراك فى حياة الخلافة العباسية ، مع فارق هام ، هو أن كتـامة ، كانوا عنصر التاسيس ، والتدعيم ، وكلب الحراسة ، ورفيق النصر ، والهزيمة منذ بداية قيام الدولة حتى سقوطها .

ومع كل هذه المعاني ، التي يمثلها تاريخ حلف كتـامة ، وارتباطهم بنظام الخلافة الفاطمية العتيد ، فلم يلقوا من العناية ما لقيه فرعا صنهاجة في الشمال والجنوب ، ثم حلف مصمودة ، وبعض فروع زنـاتة ودولهم .

وقد نسب بعض الجغرافيين والرحالة الى كتـامة بعض تقاليد خاصة ، وأهملهم المؤرخون وغطوا محاسنهم ، تأثرا بالسياسة ، وبالمذهبية ، وخوفا من الحكام ، وتملقا لجماهير السكان الذين غدوا سوط عذاب بالنسبة لكتـامة بعد تدهور شأنهم ، بحيث وجد بقايا كتـامة من جور الحكام وتعسفهم ، واضطهاد العامة ، وكراهيتهم ، واهمال المؤرخين وتجاهلهم ما أثر على تاريخهم وشخصيتهم ، فضلا عن وضعيتهم الاجتماعية ، فبقي اسم كتـامة مصطلحا يكاد يكون غامضا ، ولغزا محيرا ، غير انه في نفس الوقت كان محوطا بأسرار ضخمة اشبه بتلك التي واكبت فتـرة في تاريخ الائمة الاسماعيلية . واستمر اهمال تاريخهم قاعدة ، شذوذها ، محاولات متأخرة لتوضيح بعض بيوتاتها في الاندلس تنسب لابن حزم ، واخرى عن مجمل فروعها ومضاربها وبقاياها ووضعيتها وهي تنسب لابن خلدون ، وهذه المحاولات الاخيرة غدت اساسا ، أو عمدة الباحثين المحدثين حتى ان ما جاء في دائرة المعارف الاسلامية ، لا يعدو ان يكون ترجمة نصية مختصرة لمضمون ما جاء في كتاب العبر .

ولم توجد دراسة مستقلة تعرف بقبيلة كتامة وبفـروعها وعـلاقاتها ببعض القبائل التي يتضمنها مدلول كلمة البرانس في المغرب الاوسط ، ولا محاولة للبحث عن بعض من يمثلها الآن في مضاربها القديمة . ولعل عذري وهو عذر الباحثين قبلي ، أن التأريخ للقبائل محوط بالاخطار ، ومظنة لتجنب سبيل الاعتـدال ، عكس التاريخ للدول ، أو للظواهر السياسية .

ويزيد مهمة مؤرخ القبائل صعوبة وتعقيدا ، ندرة النصوص المعاصرة ، أو عدمها أو عبث الاهواء بالموجود منها خاصة بالنسبة لكتـامة التي انتحلت مذهبا شاذا في نظر الجماهير ، وطبقات المثقفين أيضا . ولكل هذه الاعتبارات التي أسلفناها . تأتي محاولتنا المتواضعة ، لكشف النقاب عن « دور قبيلة كتـمة في تاريخ الخلافة الفاطمية » وكأنها فريدة والأولى من نوعها ، باعتبار أن حلف كتـامة هو محور الدراسة واساسها ، وان دورهم درس بوضوح وعناية ، على أساس أنه دور شامل ومتكامل الحلقات ، تتصل أولاه وهي التي كانت في قلعة ايكجان وافريقية والمغرب بأخراه ، وهي التي وقعت في مصر وبلاد الشام ، أي منذ ان انطلقت شرارة الدعوة

فى دار الهجرة بايكجان ، الى الوقت الذي تدهور فيه شأن كتامة ، وصارت ضمن الرعية فى القرن الخامس الهجري .

وتوزعت مواد الدراسة على خمسة فصول ، تتصل ببعضها اتصالا وثيقا ، فالتعريف الشامل بمسرح الأحداث فى المغرب ، وبفروع كتامة ، وعلاقاتهم بأهم القبائل البرنسية التي تأثرت بالحركة وأثرت فيها ، وبالامارة الأغلبية حتى القرن الثالث الهجري ، كان موضوعا للفصل الأول .

تلاه شرح مستفيض عن جهود فروع كتامة فى سبيل نشر الحركة الاسماعيلية حتى نجاحهم بقيام الخلافة الفاطمية فى رقادة ، فى الفصل الثاني .

أما نشاط كتامة فى ميادين التوسع ، والحياة المذهبية ، منذ قيام الخلافة ، حتى بعد منتصف القرن الرابع الهجري ، فقد تضمنه الفصل الثالث .

أما محاولات كتامة نقل النفوذ الفاطمي الى المشرق ، بعد اقرار الأوضاع فى بلاد المغرب ، فقد كانت موضوع الفصل الرابع .

ولأن حادث انتقال الخلافة من المهدية الى القاهرة ، خلق وضعا خاصا لبلاد المغرب ، ولأن ابعاد الحركة الجديدة فرضت أعباء ومسؤوليات على رجالات كتامة خاصة فى ميدان العلاقات مع الزيريين ، فقد خصص الفصل الخامس لتوضيح دور كتامة فى هذه العلاقات .

وانتهى البحث بخاتمة عن آفاق الدراسة ، تلتها ملاحق من نصوص خطية تكتسي طابعا خاصا فى الاهمية هو الذي سنشير اليه ، أثناء بحث المصادر والمراجع .

وعسى أن أكون بهذه الدراسة ، قد أسهمت بجديد فى حقل التاريخ الاسلامي ، وأن يكون التوفيق حليفي ، فى معظم الآراء التي انتهيت اليها ، والا تكون هفواتي فوق ما قدرت أو أقوى من حسناتي .

والدراسة قبل كل شيء مدينة لجهود السلف ، سائرة على درب الخلف ، شكورة للباحثين الذين انعكست آثارهم عليها ، وفخورة بأن استفادت من خبرة ومناقشة جمهرة من الباحثين والمؤرخين النقاد ، فى مقدمتهم عبد المنعم ماجد ، وعبد الهادي شعيرة ، وسعد زغلول ، وسعيد عاشور ، وحسن محمود . فالله يجازيهم ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، أحمده ، فى البدء وفى الختام .

نقد المصادر

مصادر اصلية ـ كتب الرحلة والجغرافية ـ كتب الأنساب ، والطبقات والملل والنحل ، كتب التاريخ العامة والخاصة بالمغرب ، او بمصر الاسلامية ، المراجع الحديثة ,

تركز دراستنا حول قبيلة كتامة وعلاقاتها بالفاطميين على مجموعة من المصادر والمراجع والدراسات يهمنا في هذا المجال ـ توضيح مدى أهميتها ، ومساهمتها ، في نطاق ما ينفرد به كل مصدر عن آخر . وليس فيما كان قدرا مشتركا بينها وهو الذي ترك تسجيله لهوامش البحث وحواشيه .

ويلاحظ أنه من بين المصادر الأصلية التي بقيت ، تحتل اعمال افقه فقهاء الشيعة وأعلم علمائهم أبي حنيفة النعمان بن محمد بن حيون التميمي (1) (ت 363 هـ / 974 م) منزلة كبرى ، اذ أن أهمية هذا المؤلف تبدو في أكثر من ناحية ، فهو رجل مخضرم ، أي عاش لفترة طويلة سنيا ، حيث كانت له ارتباطات برجال السنة ، وعلاقات جاهد للابقاء عليها بعد انضمامه الى الحركة الاسماعيلية والى خدمة الخلفاء الفاطميين في بلاد المغرب ، وهو معاصر لما سجله من أحداث عن هؤلاء وأولئك ، وبحكم ارتباطاته المختلفة كان مطلعا على الآراء وعلى سير الوضع ، وعلى الوثائق أيضا ولم تكن أعماله الأدبية والتاريخية وفي ميدان العقائد تلقائية ، وانما كان معظمها قد تم بوحي ومراقبة أشهر خلفاء الدور المغربي وأبي خلفاء الدور المصري وهو المعز لدين الله .

---

1 ـ محمد الجودي : تاريخ قضاة القيروان . ورقة 20 ب ، 21 عن ترجمة حياته وقصته مع ابى محمد عبد الله بن هاشم المعروف بابن الحاج وكيف ان النعمان سلم عليه فرد الفقيه بقوله حسبنا الله ونعم الوكيل ، « عدة مرات » فانصرف النعمان عنه ولما اغضبه المشارقة بقوله « تكون قاضي قضاة السلطان وداعيته تسلم على صبي فما رد عليك اذلت نفسك واذللتنا » رجع اليه لكنه لم يتعرض له بسوء وقال لهؤلاء المشارقة « هذا ليس من اهل الدنيا فيتم ما تريد » ، ابن خلكان الوفيات 5 : 48 . كامل حسين : أدب مصر الفاطمية 63 وما بعدها عادل العوا : منتخبات اسماعيلية 4 . ومن ضمن المنتخبات : تربية المؤمنين او تاويل الدعائم . انظر ص 20 وما بعدها .
E.I. ART ; AL NUMAN, T 3, p. 1019-20, yahya EL. KHACHAB : NASIRE HOSROW, p. 87-89.

وبفضل التشجيع تمحضت جهود النعمان ــ كما أراد المعز لدين الله ، لخدمة الدولة ، وأنصارها ، في ميدان القضاء والدعوة ، وفى تنشيط حركة التاليف .

والنعمان بعد كل ما سبق هو عربي ، ومن قبيلة تميم ، عصبية الامارة الاغلبية ومن ثم يصعب أن يتهم بأنه عنصري ضد العرب أو متحامل على الاغالبة ، اذا ما صور أخبارهم ، أو عرض جوانب من مساويء أمرائهم ، مثل ابراهيم بن أحمد ، وأبى العباس عبد الله ، وابنه زيادة الله ، واطنب فى ذكر محاسن ومزايا أولياء الدولة الكتاميين .

ودليل موضوعيته فيما كتب عن أحداث الفترة ، رغم تشيعه واخلاصه للدولة تأثر المؤرخين المغاربة ، السنيين بروايته ، واعتمادهم على أهم كتبه ، وهو افتتاح الدعوة وابتداء الدولة الذي يعتبر قصة متكاملة عن الحركة الاسماعيلية منذ أن ابتدأت فى المغرب ، بفضل جهود الدعاة الاوائل الذين جاؤوا من مركز الدعوة فى اليمن الى أن تطورت الى نظام خلافة عتيدة . وفى هذا الكتاب : اشارات عن تنظيمات الداعي فى كتامة ، وعن أحداث المنطقة ، وردود الفعل المختلفة ، لانتشار الحركة الاسماعيلية سواء كان مصدرها فروع حلف كتامة ، المعارضين ، أو الامراء الاغالبة ، وفيه أيضا عرض يصور فن البطولة الكتامية ، التي تجلت فى الميدان الداخلي ــ فى كتامة والزاب ، كما تجلت فى الميدان الخارجي فى افريقية وأرض المغرب .

وعلى رواية النعمان ــ حول أحداث قبيلة كتامة وافريقية فى هذه الفترة اعتمد كل من ابن الاثير ، وابن خلدون والمقريزي والنويري ويبدو التأثير واضحا فى أكثر من موطن ويرقى حتى الى استخدام نفس العبارات التي جاءت فى افتتاح الدعوة للنعمان ، ومن ذلك ان الاخير مهد للحديث عن معركة الاربس (2) الحاسمة بقوله « ولما دخل فصل الربيع وطاب الزمان جمع أبو عبد الله » (3) ، هذه العبارة نجدها بنصها ، فى المقريزي (4) ،

2 ــ قرية توجد بجوار مدينة الكاف شمال مدينة تونس

3 ــ افتتاح الدعوة ورقة 146 خ. مكتبة جامعة القاهرة رقم 24088

4 ــ اتعاظ الحنفا 1 : 63 ط . 1967

نقلها مباشرة عن النعمان ، أو عن ابن الاثير (5) ، الذي يصرح المقريزي بالنقل عنه (6) أو نقلها عن شيخه ولي الدين عبد الرحمن ابن خلدون (7) ، الذي تتفق روايته مع رواية النعمان فى مواطن كثيرة ، وبالجملة فتأثير النعمان لم يقتصر على هؤلاء فقط ، بل يتجاوزهم الى غيرهم من مؤرخي المغرب ، والمشرق . « وكتاب افتتاح الدعوة » وثيقة هامة فى ميدانها ولا يؤثر على جانب الموضوعية فيها أو ينقص من قيمتها ، المذهب الخاص أو كون النعمان تحت تأثير وضغط معاصرته لأعظم الخلفاء الفاطميين فى المغرب ، الذي حرص النعمان ــ ارضاء له ــ على تسجيل ، وجمع اقواله ، وروايته عن أقوال الائمة السابقين له ، التي كانت تلقى فى مجالس الدعوة الحكمية ، فى كتابه « المجالس والمسايرات والمواقف والتوقيعات » عن الامام المعز لدين الله وعن آبائه صلوات الله عليهم (8) .

ويعتبر هذا الكتاب أيضا وثيقة هامة عن الدور المغربي للخلافة الفاطمية، فقد تضمن صورة صحيحة عن سياسة خلفاء هذا الدور ، تجاه ثوار المغرب ، سواء كانوا من كتامة أو من مكناسة ، أو زناتة ، وعن علاقاتهم المختلفة ، بالأمويين فى الأندلس ، والروم وسكان اقريطش وعن نظرتهم للخلفاء العباسيين ، ويتسع الكتاب لعرض شتى المشاكل التي عانى منها الخلفاء (9) ، وتسبب فيها ، أما أعداؤهم أو غلاة الاسماعيلية وجهلة الدعاة وأولياؤهم الكتاميون كما يتسع لأدق المعلومات وأوفاها عن نظرة الخلفاء لهؤلاء وامتيازات كتامة فى نظام الدولة ، ومراحل قوتهم وضعفهم وحماسهم أو فتورهم ، وجهاد الخلفاء ضد المنحرفين منهم أو من غيرهم ، وتبرؤهم مما ينسب اليهم بهتانا كل هذه نجدها فى ثنايا هذا الكتاب الهام ، الذي يزيده اعتبارا وأهمية صبغته العلمية المتزنة ، وبلاغته ، وكونه صورة لكلام المعز ولكلام آبائه كما رواها عنهم ، وسجلها النعمان بكل دقة وامانة .

وفى الرسالة المذهبة (10) ، وهي تنسب الى النعمان ــ ما يفيد تبرؤ الائمة ممن يدعى ألوهيتهم أو ينسب اليهم ما ليس لهم من خوارق وصفات ،

---

5 ــ الكامل فى التاريخ ، 8 : 16

6 ــ اتعاظ الحنفا 1 : 226

7 ــ المقريزي : الخطط 3 : 136 ط 1325 هـ ، وعن علاقة المودة بينهما انظر : السخاوي الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ 151 .

8 ــ مخطوط : مكتبة جامعة القاهرة رقم 26060

9 ــ انظر مثلا: 1 ، 179 ، 183 ، حيث يقول المعز « فليس يعلم ما نقاسيه من ذلك الا الله » .

10 ــ توجد ضمن « خمس رسائل اسماعيلية » نشرها عارف تامر

كما أن كتابه **الهمة فى آداب اتباع الائمة** ، يعتبر شرحا مستفيضا لأهم واجبات المريدين نحو الامام المعصوم وهي الطاعة المطلقة (11) .

ولقد استفدنا من أعمال المقريزي ت 1442/845 م ، فمن خلال كتابه **المقفى الكبير** (12) اتضحت لنا تراجم بعض شخصيات قسنطينة (13) ، وبعض حقائق تاريخية هامة عن بعض رجالات بني خزر الزناتيين (14) كما أن ((**أتعاظ الحنفا**)) فى صورته الجديدة (15) ، يعتبر بحق — أهم وثيقة تاريخية عن العصر الفاطمي ، بدوريه المغربي والمصري ، حيث يتناول أحداث الفترتين منذ أن بدات محاولات نشر الدعوة الاسماعيلية فى كتامة الى نهاية عهد المستنصر بالله ومن خلال هذا الكتاب يبدو دور كتامة متكاملا ، ابتدات حلقاته الأولى فى المغرب وانتهت حلقاته الأخيرة فى مصر وبلاد الشام ، كما أن سياسة الخلفاء نحوهم ونحو بقية الطوائف المذهبية وموقف الكتاميين من الخلفاء ، ومن غيرهم تبدو هي الأخرى ، استمرارا للذي عرف فى بلاد المغرب . — ولقد اتسمت اشارات المقريزي فى كتاب اتعاظ الحنفا عن بعض حوادث بلاد المغرب فى العصرين الفاطمي والزيري بقدر كبير من الضبط والدقة والوضوح مأتاها ، سعة آفاقه ، ، وتأثره بالمدرسة المغربية حيث يلاحظ انه أشار فى بعض المواطن الى مؤرخ صنهاجة وبلاد المغرب فى القرن الرابع للهجرة وهو ابراهيم الرقيق القيرواني (16) .

ولكتاب ((**الخطط**)) اهمية خاصة فى توضيح آثار كتامة وميزة بعض قادتها والحوادث التي ساهمت فيها فى مصر ، وموقف بعض الخلفاء منهم ، فمن هذا المصدر عرفنا أن جيش بن الصمصامة أوصى بأمواله للحاكم بأمر الله الذي تنازل عنها بعد أن أطلع على الوصية — الى ورثته الحقيقيين وهم

---

11 — انظر ص 39 ، 78 — 79 تحقيق كامل حسين — دار الفكر .

12مخطوط دار الكتب رقم : 5372 تاريخ

13 انظر 1 : ورقة 239

14 — انظر 1 ورقة 243 حيث يوضح ان زعيم زناتة محمد بن الخير بن محمد بن خرز الزناتي ، هو الذي قتل نفسه بسيفه ، ربيع الآخر 360 هـ . انظر ايضا ج 3 : ورقة 22 ، عن ترجمة ابن حافي راسه الزناتي ثم 11 عن ترجمة ابن خيرون الزاهد المشهور .

15 — حقق النص الجديد لهذا الكتاب اعتمادا على نسخة قبوسراي — ونشر منه حتى الآن جزآن ، الاول سنة 1967 بعناية الشيال وينتهي عند وفاة العزيز بالله . اما الثاني فنشر سنة 1971 بعناية محمد حلمي وينتهي بوفاة المستنصر بالله وقد تم نشر هذا العمل تحت اشراف لجنة احياء التراث بالمجلس الاعلى للشئون الاسلامية وعن شمول النص القديم لكل حوادث العصر الفاطمي انظر السخاوي المصدر السابق 131 .

16 — اتعاظ 2 ، 171 — 172 .

أبناؤه . ومن المقريزي عرفنا كيف تقلبت السبل بابنه أبي عبد الله محمد حتى أصبح شبه مجذوب ، يصرح بعدائه للدولة فى عصر الظاهر لاعزاز دين الله . كل ذلك من اثر الظلم والفقر وكيف أنه بعد أن سجن وعذب أطلق سراحه مجاملة لكتامة ومراعاة لدور أبيه فى خدمة الدولة (17) . ومنه عرفنا بعض فترات الصفاء والتعاون بين كتامة وعامة السكان الذين انضموا اليهم ضد الاتراك (18) .

ومن خلال « **كتاب اغاثة الأمة بكشف الغمة** » الذي هو أشبه ببعض جوانب مقدمة ابن خلدون — انما فى اطار اقليمي ، يقتصر على مصر ، عرفنا أخبارا عن أزمة غلاء ومجاعة وقعت فى سنة 387 هـ ، أي فى عهد وساطة ابن عمار ، وسيطرة كتامة ، وذلك بسبب عدم وفاء النيل (19) .

ومن خلال « **كتاب البيان والاعراب** » عرفنا أن بني الشعرية وهم من البربر كانت مضاربهم مع أحلاف كتامة ، وهم مزاته ، فى منطقة المنوفية . كما أشار الى حقيقة نسبة كتامة الى فرع البرانس (20) .

ويمدنا « **كتاب شذور العقود فى ذكر النقود** » بمعلومات طيبة عن مظاهر التطور التي دلت عليها الشعارات الجديدة التي حملها أول دينار فاطمي ضرب فى مصر بعد فتحها على يد جوهر الصقلي (21) .

وقد أوضح ابن ظافر (ت623هـ/1226م) فى «**اخبار الدول المنقطعة**» (22) دور كتامة فى المؤامرة التي دبرها الشيعي ضد المهدي ، الذي عرف بابن البصري (23) . هنا كما عرف بذلك فى الطبري وصلته لعريب بن سعد كما لا حظ أن جبر بن القاسم ، ولى الوساطة بعد نكبة بن كلس ، وفيه

---

17 — نفسه 2 ، 164 — 165 .

18 — نفسه 2 ، 177 ،

19 — اغاثة الامة 13 حمص 1956 ، وعن وفاء النيل وزياداته انظر عبد اللطيف البغدادي الافادة والاعتبار 44 — 45 طبـ وا ي النيل 1286 ، أبو الصلت امية : الرسالة المصرية 19 وما بعدها . ابن اياس الحنفي : نبذة من نشق الاخبار فى عجائب الامصار 121 وما بعدها وهنا نلاحظ وجود جدول عن زيادات النيل منذ سنة 20 هـ/640م حتى 825 هـ / 1421 م .

20 — انظر : 56 من كتاب البيان والاعراب .

21 — انظر : ص 34 — 35 منه . عبد الرحمن فهمي ، موسوعة النقود العربية : 197 — 199ـماجد : النقود العربية — مقال حوليات كلية الاداب — جامعة عين شمس مجلد 2 ، 1953 ،نظم الفاطميين 1 ، 125 — 130 ، النويري نهاية الارب ج . 26 ورقة 41 .

22 — مخطوط دار الكتب رقم 890 تاريخ .

23 — انظر : ورقة 43 منـه .

اشارات عن طابع علاقة الخلفاء المصريين بالامراء الزيريين حتى عصر المعز ابن باديس ، وعن ميل الخلفاء الى التعلق بمبدأ الوحدانية واظهار الصبغة الدينية لحكمهم وظهر ذلك حتى فى الشمارات التي نقشوها على الخواتم ، فكان نقش المعز « بتدبير الاله الصمد دعا الامام معد » ، أو « لتوحيد الاله العظيم دعا الامام أبو تميم » ونقش العزيز بالله نصه « بنصر العزيز الجبار ينتصر الامام نزار » ونقش الحاكم « بنصر العلي الولي ينتصر الامام أبو علي » (24) ، كما تضمن شرحا للاسباب التي أدت الى الخلاف بين الحاكم واخته ست الملك (25) ، أما القصة بكل تفاصيلها مع توضيح دور ابن داواس الكتامي فى المؤامرة التي حيكت ضد الحاكم ، فنجدها فى مخطوط « **اللمعة** » لمؤلف مجهول (26) وينفرد ابن العماد الحنبلي (ت 1089 هـ 1679 م) فى كتابه « **شذرات الذهب فى أحوال من ذهب** » برواية أن ابن دواس الكتامي فى المؤامرة التي حيكت ضد الحاكم ، فنجدها فى مخطوط بست الملك (27) ، أما عبد الله الشرقاوي فى « **التحفة** » فألصق التهمة بالحاكم نفسه ، واعتبرها سببا لتآمر أخته عليه (28) .

ويتفق القضاعي (ت 454 هـ / 1062 م) فى مخطوط « **عيون المعارف وفنون اخبار الخلائف** » مع ابن ظافر وابن أيبك الدواداري فى« **الدرة المضية** » وابن خلكان فى « **وفيات الأعيان** » والنويري فى « **نهاية الأرب** » على رواية موت المهدي فى سجلماسة بتأثير اليسع بن مدرار ، بينما لا نجد اثرا لها فى بقية المصادر التاريخية مثل **سيرة** الحاجب جعفر التي تصف دور كتامة فى تخليص صاحب الدعوة من سجنه . ويوصف الخلفاء الفاطميون فى مخطوط القضاعي ، « بالادعياء » كما يوصفون بذلك فى **البداية والنهاية** لابن كثير الدمشقي (ت 774 هـ / 1372 م) أو بالعبيدين ، والرافضة فى **تاريخ** الخلفاء لجلال الدين السيوطي (911 هـ / 1505 م) ويشير القضاعي الى وجهات النظر حول نسب الفاطميين (29) ، كما يشير الى حملة جوهر ضد مصر ، والى قطع الدعوة اليهم فى بلاد المغرب فى عهد المستنصر بالله ، ويبدو أن تأثير القضاعي من خلال تآليفه فى التاريخ وفى الخطط لم يقتصر

---

24 ـ انظر : ورقة 50 ، 65 من اخبار الدول المنقطعة ، اتعاظ الحنفا 1 ، 235 ، 292 ، ج 20 ، 122 .

25 ـ انظر : ورقة 64 من اخبار الدول المنقطعة .

26 ـ انظر :ورقة9ويلقب ابن دواس فى اللمعة بشرف الدولة انظر النويري المصدر السابق ورقة 58 .

27ـ انظر : ج 3 : 143 .

28 ـ انظر : ورقة 61 من كتاب التحفة ـ مخطوط مكتبة جامعة القاهرة رقم 21432 .

29 ـ انظر : النويري ـ نهاية الارب 26 ورقة 21 .

على مؤرخي مصر الاسلامية ، بعد القرن الخامس للهجرة (11 م) وانما تجاوزهم الى بعض مؤرخي المغرب الاسلامي ومنهم ابن عذارى المراكشي (أواخر القرن السابع الهجري / 13 م) الذي ينقل عنه فى أكثر من مكان فى ثنايا كتابه **« البيان المغرب »** (30) .

وفى كتاب ابن ظهيرة (ق 9 هـ) **« الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة »** اشارات لطيفة حفل بمثلها كتاب عمر بن محمد بن يوسف الكندي **« فضائل مصر »** عن مزايا مصر ، وخراجها بعد فتح جوهر ، وكيف أنه ارتفع فى بداية العصر الأيوبي وتضمن رواية عن أسباب فتح مصر . لكنه ينفرد بالقول بأن المعز لدين الله تحاشى أن يقود الحملة بنفسه قصدا لأنه خشى أن ينهزم فلا تحصل له مصر ، وتضيع عليه بلاد المغرب (31) .

وقد تضمن كتاب بيبرس الدوادار (ت 725 هـ / 1325 م) **زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة** (32) . حوادث هامة جرت فى العصر الفاطمي وكان لكتامة دور رئيسي فيها ، مثل حملة جوهر ، 347 هـ 958 ـ 959 م وثورة ابن واسول ، وولاية الكلبيين ونشاطهم ضد الروم ، وضد الأمويين واستعرض نشاط كتامة فى بلاد الشام وعلاقتهم بسكانها ، وبعنصر الاحداث وثوراتهم فى بلاد المغرب ، ضد أبي الفتح المنصور ، وهي التي أشير اليها فى ابن عذارى وابن الأثير والمقريزي والنويري 732 هـ / 1332 م فى نهاية الأرب ، وهنا نجد أخبارها مفصلة (33) كما انفرد النويري بالقول بأن ابن الصائغ لم يكن متشيعا ، وذلك على خلاف كثير من المؤرخين . ويصرح النويري أيضا باعتماده على الرقيق القيرواني وأبي محمد عبد العزيز بن

---

30 ـ انظر : ج . 1 : 126 ، 313 ط . بيروت . وعن توليه لمنصب القضاء وسفارته الى تيودرا امبراطورة بيزنطة سنة 447 هـ ، من قبل المستنصر بالله وكيف أنه كان سببا لنقض سياسة الصلح بين الامبراطورية والخلافة الفاطمية التي استاءت من اعلان الخطبة فى جامع القسطنطينية باسم القائم بأمر الله العباسي أنظر : اتعاظ الحنفا 2 : 230 ابن ميسر أخبار مصر 2، 7 مشرفة : نظم الحكم 24 ـ 25 ، ومما يلاحظ انه رغم كونه على غير مذهب الدولة فقد ولى منصب القضاء والسفارة مما يشير الى حقيقة تسامح الخلفاء الفاطميين .

31 ـ أنظر : ورقات 67 ، 73 ـ 74 ، وقد طبع الكتاب أخيرا 69 بعناية السقا وكامل المهندس مثل فضائل مصر لابن الكندي الذي نشر بعناية ابراهيم العدوى 1971 .

32 ـ وهو مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقمي 26 . 24 ـ 27 . 24 .

33 ـ أنظر ورقات . 5400 من القسم 22 مخطوط دار الكتب رقم 549 معارف عامة ويوجد تحت أرقام مختلفة فى المكتبة الاهلية بباريس . 1576 وتضمن الدعوة الطالبية وصراع القرامطة مع الفاطميين وموت جعفر ابن فلاح 78 ـ 79 ثم رقم 1577 وفيه أخبار فتح المغرب ودولة الاغالبة ورقم 1760 وفى ثناياه عصر الحاكم من ورقة 207 وحارات القاهرة 8 ـ 10 .

شداد بن تميم بن المعز فى كتابه **الجمع والبيان فى اخبار المغرب والقيروان** (34) . ولم يتضمن كتاب الاسحاقي (ت 1032 هـ) فى **لطائف اخبار الاول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول** (خ . باريس رقم 1839 ـ ط . العثمانية 1304 هـ وبهامشه تحفة الشرقاوي) معلومات ذات قيمة عن « الفواطم » سوى قوله عن الحاكم « انه : كان يروم أن يدعى الألوهية » وعن نسب الفاطميين يقول : « انهم يدعون الشرف وهم فى الحقيقة موضوعون » (35) . كما أن ابن غلبون فى كتابه **التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار** (خ . باريس رقم 1889 هـ ط 1963م) ردد آراء الطاعنين فى نسبهم ، وفيه اشارات عما صحبه المعز لدين الله معه من أموال وتحف الى مصر وعما صار اليه الوضع بالنسبة للشيعة فى عصر سميه ابن باديس ، الذي كان على علاقة طيبة بأبي القاسم أحمد الجرجاني (ت 436 هـ / 1044 ـ 1045 ر) والذي يلاحظ أن ابن غلبون يصرح باعتماده على كتاب **تاريخ افريقية والمغرب** للرقيق (36) .

وقد أفادني الذهبي ت (748 هـ / 1347 م) فى **تاريخ الاسلام** (37) (ج. 3) بمعلومات عن دور كتامة فى محاولات الفاطميين الأولى لفتح مصر ، وهي التي نجد عنها اشارات فى تاريخ **الأمم والملوك** للطبري ، (38) **وصلته** لعريب بن سعد القرطبي **والولاة والقضاة** للكندي ت (350 هـ / 961 م) وفى نهاية الأرب للنويري وفى البيان لابن عذارى وفى المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد الذي يشير الى محاولة الجانبين الفاطمي والاخشيدي ، وفى عصر القائم بأمر الله ربط علاقات سلمية بناءة وذلك بعد أن فشلت الأعمال العسكرية ضد مصر ، كما تعرض الذهبي لما صار اليه حال ابن دواس الكتامي بعد اشتراكه فى قتل الحاكم بأمر الله ، كما أشار الى بعض رجالات كتامة وأسرهم فى دمشق مثل أسرة ابن منزو .

وفى مخطوط « عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » للعيني (ت 855 هـ 1451 م) لاسيما جزؤه 19 ، بأقسامه (1 ـ 2 ـ 3 ـ 4 ـ 5 معلومات هامة عن جيش بن الصمصامة ، والحسن بن عمار (39) وعن علاقة كتامة بالمعز بن باديس وموقف المغاربة من عبد الوهاب البغدادي المالكي الذي ورد مصر عصر الظاهر لاعزاز دين الله فوجد الترحيب منهم (40) .

---

34 ـ انظر : قسم 22 ورقة 42 ثم القسم 26 ورقات 22 ـ 25 .
35 ـ انظر : ص 114 ـ 115 .
36 ـ انظر ورقة 10 ـ 11 من التذكار .
37 ـ مخطوط دار الكتب رقم 396 تاريخ .
38 ـ عن ترجمته انظر ابن خلكان الوفيات 3 : 332 .
39 ـ انظر : ج . 19 « القسم الثالث » ورقات 462 ، 507 .
40 ـ نفسه ق : 5 من عقد الجمان ورقة 789 .

وينفرد برواية أن بني الشهيد في مدينة نابلس في عصره هم من نسل الزاهد النابلسي الذي اشتهر بمواقفه العدائية ضد كتامة والفاطميين فقتل في القاهرة في عصر المعز لدين الله وقد ترجم له عياض اليحصبي (41) في **ترتيب المدارك** ، ضمن فقهاء وزهاد المالكية وقد لاحظ سبط ابن الجوزي (ت 654 هـ / 1257 م) في مخطوط « **مرآة الزمان** » تأييد كتامة للمستنصر بالله ، أثناء فتنة ابن حمدان ، وتعاون أسرة ابن منزو الكتامية في دمشق مع سكانها ومع عرب بني كلب ضد بدر الجمالي والى الخليفة المستنصر بالله (42) والقت قطعة من كتاب ابى الاصبغ عيسى بن سهل (43) ت 486 هـ 1093 م **الاعلام بنوازل الاحكام وفقر من سير القضاة والحكام** (44) اضواء كاشفة عن صفحة هامة من الصراع الحاسم بين الأمويين والفاطميين ، تجلت فيها قمة نجاح دعاة الفاطميين في غزو الأفكار في كثير من كور الاندلس وأقاليمها ، في عهد الحكم المستنصر الأموي وردود فعل فقهاء المالكية الذين تصرفوا بحزم تجاه الداعي أبى الخير وانصاره انما في نطاق الأحكام الشرعية .

وجانب العلاقات بين الأمويين والفاطميين نجد اشارات عنها في مخطوط **زبدة الفكرة لبيبرس الدوادار** وفى البيان المغرب لابن عذاري وفى العبر لابن خلدون وفى **النجوم الزاهرة** لابي المحاسن وفى **يتيمة الدهر** للثعالبي وفى تاريخ أبي الفداء وتكملته لابن الوردي وفى **نفح الطيب** للمقري ت 1041 / 1631 م — 1632 م . أما رسائل الحاكم التي عرفت أيضا بسجلات موحدية (**نسخة تونس**) فتنسب الى مجموعة من الدعاة منهم محمد بن اسماعيل الدرزي وحمزة بن علي الذي لقب بالهادي أو هادي المستجيبين في الرسائل وقد ورد مصر سنة 408 هـ ، (45) فاهميتها :

انها تلقي ضوءا على فصل مجهول من فصول العلاقة بين الفاطميين والقرامطة بعد سنة 386 هـ وقبيل سنة 411 هـ / 1020 م .

---

41 — عن ترجمته انظر : ابن خلكان المصدر السابق 3 : 152 .

42 — انظر : ج . 12 من مرآة الزمان ق . 2 ورقة 120 (احداث 462) مخطوط دار الكتب رقم 551 تاريخ .

43 — عن ترجمته انظر : ابن بشكوال ، الصلة ج . 2 : 415 ترجمة رقم 942 : Levi PROVENÇAL : Hist. de l'Esp. Mus. T 3, p. 116, N° 2.

44 — وتوجد صورة لمخطوط الاعلام في الخزانة العامة بالرباط وفى المكتبة العامة بالجزائر . وتوجد نسخة على ملك حسن حسني عبد الوهاب وهي التي اخذ منها النص .

45 — المقريزي : اتعاظ الحنفا 2 : 113 ، ابن عذارى البيان 1 : 413 وهنا لقب حمزة بلقب المهدي . انظر E. I ; Art Hamza, t. 2, p. 270-271. حيث يشير الكاتب الى مجيء حمزة الى مصر بين سنتي 405 — 406 هـ .

وتحمل احدى الرسائل عنوان « ميثاق ولي العهد » وهي التي وضعت فيما يبدو لولي عهد المسلمين الجديد عبد الرحيم بن الياس بن احمد بن المهدي الذي ارتضاه الحاكم حجة له واماما بعده ، واذن بتكريمه وبجلوسه للمظالم ثم ولاه دمشق (46) .

وكان هذا التدبير يعني التغيير في النص لفائدة الاقارب وحرمان الابناء وهي السابقة الاولى من نوعها في هذا العصر لأن ما حصل في عهد المعز لدين الله انما كان انشاء للنص بالنسبة لأحد ابنائه وهو نزار بعد وفاة أخيه ولي عهد المسلمين عبد الله (47) ، كما أن ما حصل بعد وفاة المستنصر بالله من ولاية المستعلي بالله ، وحرمان أخيه نزار لا يعدو كونه تفضيلا للاصغر على الاكبر لظروف خاصة ولم يرق الى ابعاد النص عن الابناء كما حصل في عصر الحاكم . ولم يكن عبد المجيد (الحافظ) غير كفيل لحمل منتظر ثم حول النص لفائدته في ظروف خاصة وعلى غير رضى من المحافظين على التقاليد . وقضية النص على عبد الرحمن بن الياس وردت في مصادر تاريخية كثيرة منها ابن القلانسي وابن عذاري والمقريزي والنويري وأبو المحاسن والعيني وفي اللمعة لمجهول (48) . وقد قضى على هذه السابقة الخطيرة تدبير معاكس نفذته ست الملك التي تآمرت على الحاكم وعلى ولي العهد أيضا (49) وقد اشار المستشرق سلفستر دي ساسي الى بعض رسائل الحاكم في كتاب **الانيس المفيد** وترجم نص رسالة القرامطة ورد الحاكم عليهم في مقدمة كتابه : Exposé de la religion des Druzes T, 1, PCC XXIII - V كما اشار الى فحواها سامي النشار في كتابه نشأة**التفكير الفلسفي** » .

ومن خلال كتب وأعمال الاباضية ، الدرجيني (ق 7 / 13 م) في **الطبقات** وابي زكرياء (ق 5 هـ / 11 م) في **السيرة** تبدو وجهة نظر الطائفة حول انشقاقات الاباضية ، وأحداث الامامة الرستمية قبيل سقوطها وشخصية أبي يزيد النكاري « الملعون » وحملة وارقلان في عصر المهدي . ويشير الوارقلاني ت 570 هـ / 1174 م في كتابه **الدليل لأهل العقول** (50)

46 – انظر النويري المصدر السابق 26 ورقة 57 .

47 – المقريزي اتعاظ الحنفا 1:217 ، 229 .

48 – ذيل تاريخ دمشق 69 – 70 البيان 1 ، 375 ، اتعاظ الحنفا 3 ، 101–102 النجوم الزاهرة 4 ، 35 عقد الجمان ج 19 (ق 4) ورقة 683 اللمعة ورقة 9 ، النويري نهاية الارب 26 ورقة 57 . ماجد : الحاكم بامر الله 176 – 179 .

49 – المقريزي اتعاظ الحنفاء 2 ، 115 – 116 ، 183 ابو المحاسن : النجوم الزاهرة 4 ، 193 – 194 .

50 – وعن ترجمته انظر : الشماخي : السير 443 – 445 الزركلي الاعلام 9 ، 281 .

الى وجهة نظر الاباضية فى الشيعة كما يشير الشماخي (القرن العاشر ه) فى **السير** الى عدة حقائق معتبرة عن الطائفة وعن الحياة السياسية فى تاهرت ، كتلك التي سجلها فقيه مالكي عاصر بعض الائمة الرستميين وعاش فى كنفهم وهو ابن الصغير المالكي (ت بعد 281 هـ) فى **سيرة الائمة** (51) والباروني فى **الازهار الرياضية** . وتبدو أهمية الشماخي فريدة فى اشارته لبعض علماء وشيوخ صدغيان وسدويكش الاباضية فى جزيرة جربة (52) .

* * *

ولكتب الرحلة والجغرافية دورها فى الميادين الاقتصادية والاجتماعية والثقافية (53) واهميتها فى بحثنا انها أمدتنا بمعلومات قيمة عن اقليم كتامة وخصائصه وثرواته ومعالمه التاريخية ومراكزه الساحلية والداخلية وعلاقاته المختلفة ، فاليعقوبي (ت 284 هـ) فى كتاب **« البلدان »** أشار الى معظم مدن كتامة فى اطار اقليم الزاب باستثناء قلعتي ايكجان وتازروت كما أشار الى أغلب مراكز ومدن العلويين الداخلية والساحلية ، فى عدة جهات فى المغرب الاوسط وهي حوض الشلف وساحل تنس ومنطقة متيجة وتلمسان (54) .

أما ابن خرداذبة (ق . 3 هـ) فى **المسالك والممالك** فقد اكتفى بالاشارة الى بعضها مثل ايزرج التي كانت بيد ابراهيم بن محمد البربري المعتزلي ثم تلمسان (55) وتميز مثل الادريسي فيما بعد بأن ذكر قالمة ـ فى اطار قبائل البربر ، غير كتامة وهي فعلا موجودة وشهدت منطقتها أحداثا هامة أثناء توسع الداعي فى منطقة الزاب ، كما امدنا ابن خرداذبة بالصيغة الخاصة التي كان يحيا بها أمراء بني أمية فى قرطبة قبل عبد الرحمن الناصر وهي « السلام عليك يا ابن الخلائف » والهدف من ذلك كما أوضح

---

51 ـ انظر : اعمال المستشرقين 14 لسنة 1905 القسم الثاني من المجلد الثالث .

52 ـ انظر : السير 576 .

53 ـ عن كتب الرحلة والجغرافيا انظر آدم ميتز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع هـ . ج 2 ص 1 ـ 8 . كراتشوفسكي الادب الجغرافي جزآن ، الترجمة العربية . بلاشير : منتخبات من آثار الجغرافيين فى القرون الوسطى . باريس 1932 .

54 ـ البلدان 102 وما بعدها .

55 ـ المسالك والممالك ص 188 المكتبة الجغرافية ط . بريل ـ ليدن 1967 .

الرحالة احترامهم للقب الخلافة الذي لا يستحقه الا من ملك الحرمين الشريفين (56) .

ولم يقتصر ابن حوقل النصيبي (ق 4 هـ) في كتابه « **صورة الارض** » على وصف مراكز كتامة ومدنها في الزاب وافريقية وانما اشار ايضا الى بعض عناصرهم من لهيصة في بالرم في جزيرة صقلية وهو اول جغرافي ينسب الى بعض فروع كتامة عادات اجتماعية غريبة تحت ستار المبالغة في اكرام الضيف ، ويبدو أن مبالغته في وصف ثراء بلاد الأندلس (57) وتقديم صورة سلبية عن شجاعة سكانها (58) ، الذي أستنتج منه دوزي كونه عينا للفاطميين وتلقف الفكرة عنه بعض الباحثين ولم يناقشوها (59) فانها لا تعدو كونها انطباعا خاصا يصور حقيقة البلاد وسكانها من وجهة نظره مثل سائر أوصافه عن البلاد الاخرى ومن الصعب أن يستدل منها على اتجاه مذهبي معين وأن لم يكن مستغربا أن يكون الجغرافي ذا ميول شيعية أو عباسية أيضا باعتباره كان مواطنا عباسيا وقد نهض في القرن 7 هـ (13 م) مواطن أندلسي هو ابن سعيد (ت 685 هـ / 1268 م) فهاجم آراء ابن حوقل وانطباعاته عن رحلته الاندلسية لكنه لم يشر الى تهمة التشيع (60) ، كذلك يلاحظ أن أحدا لم يتهم المقدسي (ت 378 هـ 988 م) الذي قدم مسودة كتابه الى الخليفة الفاطمي بالتشيع وبأنه جاسوس للفاطميين رغم أنه كان مبغضا من المعاصرين (61) كما لم يتهم بتهمة التجسس لفائدة النورمان ، الشريف الادريسي مع أنه عاش في كنفهم وكان حديثه عن روجر أو الملك المعظم كما يصفه مليئا بالود وبالتقدير .

---

56 - نفسه ص 90 اما بعض الامراء العلويين في المغربين الاوسط والاقصى فيسلم عليهم بصيغة « السلام عليك يا ابن رسول الله » ويسلم على ميمون الرستمي بالخلافة حسب رواية الرحالة انظر 87 ، 89 .

57 - انظر صورة الارض 112 .

58 - نفسه 113 ونص ما قاله (وليس لجيوشهم حلاوة في العين لسقوطهم عن اسباب الفروسية وقوانينها وان شجعت انفسهم ومرنوا بالقتال فان اكثر حروبهم تتصرف على الكيد والحيلة ، وما رايت ولا رأى غيري بها انسانا قط جرى على فرس فاره او برذون هجين ودجلاه في الركابين ولا يستطيعون ذلك ولا بلغني عن احد منهم .

59 - انظر ، كراتشوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي 1 ، 204 مشرفة نظم الحكم 32 علي مكي التشيع فيالاندلس 115 مختار العبادي سياسة الفاطميين في المغرب والاندلس 205، زكي حسن الرحالة المسلمون 41 .

60 - نفسه 1 ، 205 ، نيقولا زيادة الرحالة العرب 103 - 104 .

61 - يعترف المقدسي بذلك في قوله (رايت دول الميادين واتبعني الارذلون وعاندني الحاسدون وسعيى بي الى السلاطين) احسن التقاسيم 44 - 45 ، 8 - 9 مشرفة المرجع السابق 372 - 373 وعن ترجمته انظر زكي حسن المرجع السابق 42 ومابعدها .

أما عبيد الله البكري (ت 487 هـ / 1094 م) في **المغرب** في وصف بلاد افريقية والمغرب ، الذي هو جزء من كتابه « **المسالك والممالك** » فيعتبر ثمرة لنضج المدرسة الاندلسية الجغرافية التي كان عمادها محمد بن يوسف الوراق القيرواني (363هـ/973م) واحمد بن عمر العذري (ت478 هـ) (62) ولقد تضمن كتاب البكري معلومات ذات فائدة كبرى عن اقليم كتامة وثرواته ومميزاته ومراسيه الهامة وموقع جبال الرحمن منه ، ومراكز كتامة في الزاب (63) والمغرب الاقصى ومنازل العلويين في تنس وتلمسان (64) وفي ثنايا كتابه الهام نعثر على حقائق تاريخية معتبرة تتعلق بثورات كتامة ضد أبي الفتح المصور وبتخريب سور سطيف بواسطة كتامة منذ عصر التوسع الشيعي ولقد أوضح ان المهدي كان يستحب من طرائف الزاب تمر اللياري والملح وكلاهما في مدينة بسكرة النخيل (65) ولسوء الحظ لم نعثر في ثنايا كتابه الثاني « **جغرافية بلاد الاندلس** » على ما يتصل ببيوتات كتامة وزواوة في بعض كور الاندلس التي أشار اليها مواطنه ابن حزم الظاهري في **جمهرة أنساب العرب** . ورغم أن البكري لم يفارق قرطبة الى المغرب فان وصفه للمناطق المغربية كان دقيقا لأنه اعتمد على الوراق (66) وابن يومر الهواري ، كما استفاد من سجلات قرطبة (67) .

وقد ظهر تأثير البكري واضحا في مؤلف كتاب « **الاستبصار في عجائب الامصار** » الذي لم يختلف عن البكري في مستوى المعلومات ولم يضف شيئا جديدا بقدر ما اختلف معه في ترتيب المادة وتصنيفها . ويلاحظ ان ما لم يذكره البكري عن كتامة مثل أيكجان وتازروت أهمله صاحب الاستبصار أيضا لكن ميزته انه على عكس البكري ــ وصف بلاد المغرب ــ بعد أن رآها فكأنه بذلك يقدم تطبيقا عمليا لما حفل به كتاب مسالك البكري ، كذلك نقل في كتابه رواية جديدة عن كيفية بدء الدعوة الاسماعيلية في بلاد المغرب كما أشار الى بعض أحداث العصر .

62 ــ كراتشوفسكي المرجع السابق 1 ، 169 ، 273 زكي حسن المرجع السابق 44 .
63 ــ انظر : المغرب ص 33 ، 83 .
64 ــ نفسه 108ـ110 ، 61ـ76ـ78 وغيرها .
65 ــ نفسه 52 ، 63 ــ 64 ، 76 .
66 ــ انظر : المغرب 53 ، 160 وعن ابن يومز انظر 160 .
67 ــ كراتشوفسكي : المرجع السابق 1 ، 275 ، حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الاندلس 59 ــ 60 مجلد 7 ، 8 ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية مدريد 1959 ــ 1960 .

وإذا كنا لم نعثر فى ثنايا كتابه على وصف ايكجان فان الشريف الادريسي (ت 560 هـ / 1166 م) فى قطعة من نزهة المشتاق بعنوان : **وصف افريقية الشمالية والصحراوية** لم يقتصر على ذكر هذه القلعة ضمن مراكز كتامة وانما زودنا بمعلومات عن موقعها الجغرافي ضمن الاقليم وبجوار سطيف ، كذلك تفرد بحقيقة هامة حول احصائية نادرة عن بقايا كتامة فى القرن السادس للهجرة (68) وهي حقيقة لم نظفر بها عند أي رحالة أو جغرافي آخر وقد لاحظنا كيف أن رغبة الداعي الشيعي فى معرفة عدد كتامة فى القرن الثالث للهجرة لم تسفر عن شيء محدد يفيده .

ولاحظ الادريسي (69) وجود بطون من كتامة وزواوة فى جبال الونشريس وحول فاس ثم عناصر من دنهاجة (فرع من كتامة) فى قصر عبد الكريم بالمغرب الاقصى واذا كان قد اشار مثل ابن حوقل — الى بعض عادات اجتماعية شاذة فى كتامة فالذي يلاحظ انه أشار الى ما يشبهها فى مناطق أخرى غير كتامية كما انه نفاها عن سكان سطيف وحصرها فقط فى سكان جبال القل البدائيين ولقد أعتبر الادريسي مرسى الزيتونة هو أول جبال الرحمن الساحلية فى اقليم كتامة (70) .

أما الرحالة الذي ذكر قلعة باسم تازروت فى نطاق أراضي المغرب وفى خارج اقليم كتامة فهو المقدسي فى « **أحسن التقاسيم** » الذي اشار الى وجود قلعة بهذا الاسم فى اقليم سجلماسة وفيما عدا ذلك فقد ذكر ايكجان بجانب سطيف ومرسى الدجاج وميلة وقسنطينة وجيجل وتايزيت ، ثم سوق حمزة ، وسوق دار ابراهيم وهما من مراكز العلويين ولاحظ ان سوق الكتامي يوجد فى نطاق أرض المغرب الاقصى (71) .

وقد افادنا الرحالة الفارسي ناصري خسروه الذي زار مصر بين (437 هـ / 1045 م و 444 هـ / 1052 م) بمعلومات عن فرقة كتامة فى الجيش الفاطمي فى عهد المستنصر بالله حيث كانت أولى الفرق العسكرية التي رآها بمناسبة فتح الخليج وقد بلغ عددها 20 الف فارس تليها فرقة الباطلية وهم من المغرب أيضا .

---

68 — انظر : وصف افريقية ص 70 .

69 — انظر عن ترجمة الادريسي زكي حسن المرجع السابق 64 نيقولا زيادة المرجع السابق56 وما بعدها .

70 — انظر : وصف افريقية الشمالية 73 .

71 — انظر : احسن التقاسيم 56 — 57 ، 218 المكتبة الجغرافية 1967 .

اما العبدري (ق 7 هـ / 13 م) فيقدم للباحث صورة قاتمة عن أهم حواضر اقليم كتـامة وهي ميلـة وقسنطينة وبونة . والسبب انه لم يـر فيها ما يشار اليه بالنباهة والعلم لان نزعته أن يروي عن علماء كل بلـد وفقهائه ويسجل مروياته عنهم ضمن رحلته (72) .

وينفرد ياقوت الحموي (73) (ت 626 هـ/1229م) فى ((**معجم البلدان**)) بذكر بعض مراكز كتـامة فى الجزيرة الخضراء من ساحل الاندلس الجنوبي أي فى مواجهة مركز قصر عبد الكريم فى ساحل المغرب الاقصى الشمالي كما يشير الى بعض علمائه الذين ارتبط معهم برباط الصداقة والمعرفة (74) وفى كتابه ((**ارشاد الاريب الى معرفة الاديب**)) الذي يعرف **بمعجم الادباء** حقائق هامة منها اشارته الى أن الكاتب والمؤرخ الرقيق القيرواني كان هو سفير ابي مناد باديس الى الحاكم بأمر الله سنة 388 هـ ، وأن كتابه عن تاريخ افريقية والمغرب كان معروفا لديه ، مثلما عرف ياقوت أيضا كتاب ابن الجزار عن تاريخ الدولة الفاطمية ، الذي لاحظ أنه كان يقع فى عدة مجلدات ، وهذان الكتابان يعتبران من بين المصادر التاريخية الهامة عن الخلافة الفاطمية وعن الامراء الزيريين (75) . وقد لاحظ ياقوت أيضا أن ابن ابي الصلت امية مؤرخ صنهاجة وصاحب كتاب ((**الديباجة فى مفاخر صنهاجة**)) (76) الذي الفه للحسن بن علي بن تميم بن المعز بن باديس ، قد ورد مصر فى عصر الآمر بأحكام الله واتصل بوزيره الارمني الافضل شاهنشاه (77) .

---

72 ـ كراتشوفيسكي : المرجع السابق 1 ، 367 ـ 368 العبدري : الرحلة 28 ـ 30 تحقيق احمد بن جدو .

73 ـ عن ترجمته انظر : ابن خلكان المصدر السابق 5 ، 178 .

74 ـ انظر ج . 7 ، 106 ، 109 .

75 ـ نشرت قطعة من كتاب الرقيق فى تونس سنة 1968 بعناية الكعبي وقد عثر عليها فى الخزانة العامة بالرباط وعن الرقيق القيرواني انظر : ياقوت معجم الادباء 1 ، 216 ج، 2 ، 136 ـ 137 ، السخاوي الاعلان بالتوبيخ 122 لقبال : حول تاريخ افريقية والمغرب للرقيق القيرواني مقال مجلة تاريخ وحضارة المغرب عدد 5 ، 1968 .

76 ـ عنه انظر : مفاخر البربر (المجهول) 51 ـ وهو غير مخطوط ((النبذ المحتاجة باخبار ملوك صنهاجة لابي عبد الله محمد بن علي بن حماد ومخطوطته يملكها المستشرق شاربونو ومنه اقتبس ميشيل امارى : المكتبة الصقلية 317 ط . المثنى نصا هاما عن وصف المظلة عند الفاطميين وكيف انهم اختصوا بها دون سواهم انظر : ابن حماد أخبار ملوك بني عبيد 14 ـ 15 . وكان للمظلة موظف خاص يعرف بحامل المظلة وهو من موظفي القصر ومن أشهر حاملي المظلة شفيع الصقلبي فى عصر المعز لدين الله وزيدان فى عصر الحاكم انظر المقريزي اتعاظ الحنا 1 ، 138 ، ج 2 ، 39 ، ماجد ، نظم الفاطميين 2 ، 28 .

77 ـ انظر معجم الادباء 7 ، 52 وما بعدها .

ورغم ان معرفة ياقوت بأحوال المشرق الاسلامي كانت أفضل بكثير من معرفته بأحوال المغرب الا أن معلوماته عن هذا الجزء من العالم الاسلامي كانت هامة ودقيقة وطريفة أيضا . وقد أوحى كتابه **« معجم البلدان »** لصفي الدين عبد المؤمن البغدادي (ت 739 هـ / 1338 م) بموجز واف سماه **« مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع »** (78) وقد رجعنا اليه في اماكن كثيرة . وللرحالة المغربي ابي القاسم الزياني (ت 1249 هـ/1809م) اهمية محدودة حيث استفدنا منه ما يشير الى بقاء كتب **« انساب البربر »** حتى وقته في مدينة تلمسان ، وهي التي الفها النسابة المحليون الذين اعتمد عليهم ابن حزم في جمهرة أنساب العرب وابن خلدون في كتاب **« العبر »** وأبو علي صالح عبد الحليم في **« الأنساب »** كما عثرنا في ثنايا كتابه **« الترجمانة الكبرى »** على وصف قصر كتامة في بلاد المغرب الاقصى وعلى اسم جديد للجزء المتوسط من بلاد المغرب العربي وهو اسم الواسطة .

أما الحسين بن محمد الورتيلاني (ت 1193 هـ / 1779 — 1780 م) وهو رحالة متصوف ينتمي الى قبيلة زواوة فقد قصر اهتمامه أثناء رحلته الى الحج على شرح مزايا اقليم زواوة ومناقب علمائه وصلحائه وعدد مشاهده وزواياه ، كما أشار الى ظاهرة الشرافة التي يدعيها بعض فروع هذه القبيلة التي تعتبر حليفا لكتامة ومن نفس أصلها (79) وقد قصد أبو العباس الغبريني (ق 7 هـ / 13 م) وهو من بني غبرين من زواوة دائرة مدينة العزازقة حاليا في كتابه **« عنوان الدراية »** تقديم صورة عن الحياة الثقافية في عصره في مدينة بجاية وما اتصل بها في اقليم زواوة وفي الكتاب حشد كبير من علماء زواوة وصلحائها الذين تميز بعضهم بالمستوى الثقافي الرفيع الذي اكتسبوه نتيجة الرحلة والاقامة في مصر وبلاد الحجاز وغيرهما من بلاد المشرق العربي .

* * *

ولكتب الأنساب والمناقب والطبقات والنحل دورها الهام في توضيح شكل الكلمات وتحقيق نسبة القبائل ثم في رسم صورة عن مستوى التدين وسير الحياة الثقافية والعقائدية .

ولأول وهلة يلاحظ ان ابن القيسراني (80) (ت 507 هـ / 1113 م) في كتابه **« الانساب المتشابهة »** لا يذكر في اطار لقبي الشيعي والصنعاني ،

---

78 — انظر : كراتشوفيسكي المرجع السابق 1 ، 343 .

79 — يصرح الورتيلاني بانه اعتمد على كتاب النبذ المحتاجة في اخبار ملوك صنهاجه انظر ص 4 من رحلته .

80 — عنه انظر : ابن خلكان المصدر السابق 3 : 415 — 416 .

ابا عبد الله الداعي (81) . كما لم يذكره السمعاني (ت 562 هـ) فى كتابه ((**الأنساب**)) وان اشار الأخير الى لقب الكتامي (بالضم) ونسبة كتامة وصنهاجة الى حمير ، كذلك ذكر بعض علماء كتامة وهو (ابن مليكة) الذي هاجر الى صنعاء اليمن للرواية ثم رجع الى بلاده (82) . وقد حظى معجم الانساب للسمعاني بعناية فائقة من المؤرخين فاختصره ابن الأثير فى كتاب سماه ((**اللباب فى تهذيب الأنساب**)) كما اختصر الأخير جلال الدين السيوطي فى كتاب سماه ((**لب اللباب**)) وفى هذين الكتابين توضيح لضبط كلمة كتامة ونسبتها الحميرية كما جاءت فى الانساب للسمعاني (83) أما ابن رسول فى ((**الطرفة**)) فلا يقتصر على الاشارة الى نسبة كتامة لحمير فقط ، بل يلاحظ وجود بطن من قبيلة قضاعة باسم ((**الفاطميين**)) وطائفة من أشراف اليمن يعرفون بالحمزيين غير أولئك الذين ينتسبون الى حمزة بكتامة وعرفت حارة الحمزيين فى القاهرة بهم (84) .

وروى القلقشندي (ت 821 هـ / 1418 م) فى ((**نهاية الارب فى انساب العرب**)) نسبة بني كتامة الى فروع البرانس بجانب راي الطبري ، الذي ينسبهم الى حمير (85) كما أشار الى بقايا هوارة وصنهاجة فى مصر لكنه سكت عن بقايا كتامة فى عصره ولم يشر اليهم فى كتابه ((**قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان**)) . (86)

ويدور كتاب ((**الأنساب**)) لأبي علي صالح عبد الحليم (87) حول انساب البربر وكتامة اعتمادا على كتب النسابة المحليين ، ومنه اقتبس ليفي بروفنسال نصا بعنوان ((**نبذة عن مفاخر البربر فى العصور الوسطى**)) تضمن معلومات كثيرة عن مناقب البربر وعن شخصيات كتامة الهامة مثل

---

81 ـ كراتشوفسكي 1 ، 319 ـ 320 وهنا يلاحظ اعتماد السمعاني عليه ، انظر الانساب المتشابهة 84 ـ 85 ، 87 ـ 90 ط : المثنى .

82 ـ السمعاني : الانساب ورقة 474 ب ، وعن السمعاني انظر : كراتشوفسكي 1 : ـ 355 ـ 356 .

83 ـ السيوطي : لب اللباب 219 ط المثنى . ويوجد لب اللباب مخطوطا تحت رقم 2237 تاريخ تيمورية دار الكتب .

84 ـ انظر طرفة الأصحاب 12 ، 13 ، 94 ـ 95 .

85 ـ انظر : نهاية الارب 405 ط 1963 .

86 ـ انظر : قلائد الجمان 167 ـ 168 ، 170 ـ 171 .

87 ـ ينسب لابي حيان مع ان اسم المؤلف وهو : عبد الحليم قد صرح به فى ورقة 22 من نص المخطوط ((قال عبيد الله صالح عبد الحليم)) انظر المنوني المصادر الدفينة فى تاريخ المغرب ص 10 مقال مجلة البحث العلمي عدد 10 ـ مايو 1966 وعن عبد الحليم انظر : مفاخر البربر 75 ابن عذارى 2 ، 5 ط بيروت ، ويبدأ كتاب مفاخر البربر الذي استخرجه ليفي بروفنسال من ورقة 58 من نص مخطوط الانساب . خ : الخزانة العامة بالرباط رقم 1275 ك .

عروبة بن يوسف وجعفر بن فلاح وحباسة وأبي حدو وغيرهم وقد أشرت من قبل الى أن ابن حزم (88) فى جمهرة انساب العرب يشير الى بيوتات كتامة وزواوة فى كور الاندلس فى القرن الخامس الهجري وهو فى ذلك يعتمد على نسابة محليين ، كانوا معاصرين له ومنهم أبو يكني البرزالي الاباضي .

وميزة كتب الطبقات انها تقدم معلومات مفصلة عن حركة الجدل وموضوعاته ورجاله . وهي الحركة التي كانت فى العصر الاغلبي ثم استمرت بعد ذلك فى عنف وشدة فى العصر الفاطمي .

فابو العرب تميم (ت 333 هـ / 944 ـ 945 م) فى **طبقات علماء افريقية** يشير الى ذلك والي المالكية والأحناف الذين اشتهروا بالجدل والمناظرة وبحرارة الدفاع عن المذهب السني ، رغم موجة الاضطهاد وفيه ايضا اشارات الى أولئك الذين ضعفوا وافتتنوا بالمذهب الاسماعيلي واصبحوا متشرقين فى نظر معاصريهم واشتركوا فى حركة اضطهاد السنة ، وفى الضغط على رجالها بمختلف الوسائل والاغراءات ومنها المال والجاه والدعوة والاكراه .

ويلاحظ الخشني « ت 361 هـ / 971 ـ 972 م » فى كتابه « **قضاة قرطبة وعلماء افريقية** » كيف أن حركة الجدل المذهبي اشتدت والتجأ الفاطميون الى استخدام سلطاتهم المادية للاقناع والارهاب . فمهدوا بذلك بسبب اصرار المالكية على مذهبهم لعصر جديد هو عصر المحنة والشهادة ، حيث غدا المضطهدون فى مذهبهم وقتلى الشيعة « شهداء » عند أهل المذهب وما أكثر هؤلاء الشهداء فى كتب طبقات المالكية .

ويمدنا الخشني ، بصورة مشرقة عن دور المالكية فى الدفاع عن مذهبهم بالجدل والحجة الواضحة والاقناع . ويذكر مجالس المناظرة التي جمعت دعاة الشيعة مع فقهاء السنة وكيف أن أبا سعيد عثمان بن الحداد ، لم ينجح فى دوره كمدافع عن المذهب فحسب بل اجتذب كثيرا من الشيعة

---

88 ـ عن ترجمته انظر : ابن خلكان المصدر السابق 3 ، 13 ـ 17 ، وقد ابتدا حياته شافعيا ثم اخذ بمذهب داود بن علي الظاهري فاصبح يعرف بلقب الظاهري ، يؤخذ عليه مغالاته فى التشيع لبني امية واعتقاد صحة خلافتهم انظر ابن بسام الذخيرة فى محاسن الجزيرة ق : 1 مجلد 1 ، 140 ومابعدها .

الذين أعجبوا بذكائه وشجاعته وصراحته وقوة حجته وكان الـداعي
أبو عبد الله يخصه بتقدير كبير (89) .

ويحفل كتاب **رياض النفوس** لأبي بكر المالكي (ق 5 هـ / 11 م) وكتاب
((معالم الايمان)) للدباغ بمعلومات كثيرة عن عصر الشهادة والشهداء المالكية
ويلاحظ الدباغ كيف أن الوضع انقلب لفائدة المالكية فى عصر المعز بن باديس
الذي تفاضى عن اضطهاد الشيعة وكان ابن أبي الرجال والخولاني وابو عمران
الفاسي فى القرن الخامس الهجري نماذج حسنة لزعماء المالكية الذين
واصلوا سيرة أسلافهم فى النضال ضد مظاهر السلطة الشيعية ، لمحوها
وتصفية آثارها (90) .

ومن كتاب ((**ترتيب المدارك**)) للقاضي عياض اليحصبي السبتي (91)
(ت 544 هـ 1149 م) استفدت عدة حقائق عن بقايا كتامة المالكيـة
وعلمائهم مثل ابن العجوز وكان قد هاجر أسلافهم من قبل واستقروا فى
سبتة وطنجة ودمنة عشيرة وغيرها . ومن كتاب عياض استخرج محمد
طالبي – مجموعة نصوص اعطاها عنوان ((**تراجم اغلبية**)) وحقيقتها انها
تضمنت تراجم لشخصيات عاشت فى العصر الفاطمي أيضا ، ومن بينهم
أفراد أسرة أبي المنهال العراقية ، الذين اسهموا مع أفراد أسرة النعمان
فى خدمة القضاء . ولقد فضل ابو طالب احمد بن أبي القاسم محمد بن
أبي المنهال قاضي المنصورية الانتقال الى مصر فى عصر العزيـز باللـه
فاستجيب له (92) .

ومن بين كتب الملل والنحل يقدم شمس الدين بن طولون (ت 953 هـ
/ 1546 م) فى كتاب **الشذرات الذهبية** نصا هاما عن تاريخ الائمة الاثني
عشرية ، وأحمد حميد الدين الكرماني (ت 411 هـ / 1020 م) فى كتابه
المصابيح فى اثبات الامامة ، معلومات هامة عن قضية النص وانه فى علي

---

89 – يشير النويري : 26 ورقة 31: الى نهي الداعي ابي عبد الله لاخيه ابي العباس المحطوم
عن التشدد وتنفيذ فكرة نفي الفقهاء المخالفين للشيعة بقوله : (ان دولتنا دولة حجة
وبيان وليست دولة قهر واستطالة فانزل الناس على مذاهبهم) وعن ترجمة محمد ابن
حارث الخشني انظر : ياقوت معجم الادباء 18 ، 111 .

90 – انظر الدباغ معالم الايمان : 3 ، 209 ، 241 – 245 وقد نهى أبو عمران الفاسي
المعز بن باديس عن انتحال لقب الخلافة بقوله (ولانك ان فتحت هذا الباب تسمى
به كل من اردت التفوق عليه ممن صاقبك وغيرهم فبطل ما اختصصت به) انظر ابن
حزم نقط العروس فى تواريخ الخلفا 77 .

91 – انظر عنه ابن خلكان المصدر السابق 3 : 152 .

92 – المقريزي اتعاظ الحنفا 1:247 .

وفى ابنيه الحسن والحسين ثم اسماعيل من بين أبناء جعفر الصادق والأهم والطريف فى هذا الكتاب أن مؤلفه خصص المصباح السابع من المقالة الثانية (93) للتدليل على وجوب امامة الحاكم بأمر الله كأن الامر يقتضي التدليل على امامته وحده ، ولا أدري اذا كان ذلك تم بسبب المعاصرة ، أو هو نوع من الرد على ما تضمنه محضر القدح فى نسب الفاطميين الذي تم بأمر الخليفة القادر بالله العباسي فى (402 هـ 1011 ــ 1012 م) .

واتخذ الكرماني ميل الحاكم الى البساطة فى العيش ، ثم اجراءاته الحازمة لمحاربة المنكر والانحراف دليلا على وجوب طاعته (94) ولقد فند الكرماني فى الرسالة الواعظة آراء مدعي الوهية الحاكم وشدد النكير عليهم خاصة على الحسن الفرغاني الاخرم الذي تقبه بالاجدع (95) . وفى كتاب المصابيح اشارة الى القرامطة أو « السادة بالاحسان من أولاد الجنابي » ضمن الذين كانوا يدعون الخلافة فى عصره ومنهم الامويون فى الاندلس والعباسيون فى بغداد (96) .

وقد لا حظ الكرماني فى البرهان الثالث عن الحاكم قوله (لما كانت الامامة لا تصح الا بالنص والتوقيف وكان النص من النبي جاء فى على ، ومن علي جاء فى الحسن ومنه فى الحسين ، ومنه فى علي ومنه فى محمد ومنه فى جعفر يقوم خلف مقام سلف وكان النص منتهيا الى الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين والنص موجود ، كان الحاكم بأمر الله مأير المؤمنين أماما مفترض الطاعة (97) .

ومما تضمنه كتاب **الملل والنحل** للشهرستاني (98) (548 هـ / 1153 م) ومقدمات كتب : **المجالس المستنصرية والهمة والسيرة المؤيدية**

---

93 ـ انظر : المصابيح فى اثبات الامامة 140 ــ 155 ط : بيروت 1969 تحقيق مصطفى غالب .

94 ـ نفسه : 150 ــ 151 وعن شخصية الحاكم واجراءاته انظر عبد المنعم ماجد الحاكم بامر الله الخليفة المفترى عليه 89 وما بعدها ، عبد الله عنان الحاكم بامر الله 129 وما بعدها، المقريزي اتعاظ الحنفا 2 ، 53 وما بعدها ابن ظافر المصدر السابق ورقة 56 ، النويري المصدر السابق 26 ورقة 52 ــ 53 .

95 ـ انظر : صفحة 7 ــ 10 من الرسالة الواعظة ومقدمة كامل حسين الذي يميل الى تصديق شبهة ادعاء الالوهية بسبب عدم معاقبة الحاكم للغلاة ولنقمته على أهل مصر بسبب قتلهم الأخرم ثم لمساعدته الدرزي فى الفرار الى الشام .

96 ـ انظر كتاب المصابيح فى اثبات الامامة 148 .

97 ـ نفسه : 146 .

98 ـ انظر عنه : ابن خلكان المصدر السابق 3 ، 403 ــ 404 .

وسيرة جوذر والسجلات المستنصرية استفدنا حقائق هامة عن الشيعة وعن فرقة الاسماعيلية وخلافاتها . واتضحت هذه الحقائق فى كتب أدب مصر الفاطمية ، وطائفة الاسماعيلية لكامل حسين ثم فى نظم الفاطميين وظهور خلافة الفاطميين لعبد المنعم ماجد . وفى أبحاث مصطفى غالب فى اعلام الشيعة وتاريخ الاسماعيلية كما أمدنا كتاب الحاكم لعنان والصليحيون فى اليمن للهمداني وتاريخ التفكير الفلسفي للنشار . وتاريخ فلسفة الاسلام فى الشما ل الافريقي ليحيى هويدي وفاطمة الزهراء للعقاد بمعلومات ذات قيمة فى هذا الشأن .

ونلاحظ أن ابن حزم الظاهري فى كتابه الفصل يصدر حكما عنيفا ضد الاسماعيلية حيث يرميهم بالالحاد والمروق عن الدين . ومثله يحي بن حمزة العلوي (ت 745 هـ / 1344 م) . فى كتابه ((الافحام لافئدة الباطنية الطغام)) . وأبو حامد الغزالي (ت 505 / 1111 م) فى كتابه ((فضائح الباطنية)) حيث فند اراءهم حول النص ، وعصمة الائمة والتأويل الباطني للنصوص المقدسة .

* * *

وتحفل كتب التاريخ العامة والخاصة بالمغرب او بمصر الاسلامية باشارات متنوعة ومفيدة فى موضوع تاريخ كتامة وأهمية دورهم فى تاريخ الفاطميين ، فأهمية ابن قتيبة فى الامامة والسياسة انه أشار الى كتامة فى عصر الفتح الاسلامي وبخاصة فى عهد موسى بن نصير (99) وفى قطعة من كتاب ((تاريخ افريقية والمغرب)) للرقيق القيرواني لاحظنا كيف أن اقليم كتامة وقلاعه كانت هامة كمراكز لجوء توفر الحماية للقادة والثوار منذ ولاية يزيد بن حاتم وهو من الولاة المهالبة فى افريقية (100) الاسلامية . وقد لاحظت بأن الرقيق القيرواني تأثر به كثير من المؤرخين فى المغرب والمشرق أيضا مثل ابن الاثير والمقريزي وابن خلدون وابن عذارى والنويري .

وقدم ابن عذارى فى كتابه ((البيان المغرب)) صورة واضحة لوجهة نظر المدرسة المغربية فى القرن السابع الهجري (101) عن كيفية انتشار الحركة الاسماعيلية فى اقليم كتامة وما نتج عنه من قيام الخلافة الفاطمية التي نشرت نفوذها على بلاد المغرب بملحقاته الطبيعية ورنت ببصرها نحو شبه

---

99 — انظر الامامة والسياسة 2 ، ص 66 ط 3 : 1963 .

100 — انظر تاريخ افريقية والمغرب ، قطعة منه 161 — 162 .

101 — وعن عصره انظر البيان المغرب 1 ، 294 س 16 — 17 وهنا يذكر ابن عذاري تطور وضع مدينة القيروان فى عصره فيقول (وهي الآن فى وقتنا هذا وهو آخر المئة السابعة قد ابتدات فى العمارة) .

جزيرة الاندلس ورواية ابن عذارى تخالف ما جاء فى النعمان وابن خلدون وابن الاثير وتجد عنده تفاصيل كثيرة لاحداث لم يشر اليها هؤلاء ومعلومات لطيفة عن حوادث العصر الفاطمي وعن علاقات الخلفاء مع كتامة ومع جماهير السنة ثم مع الامراء الزيريين . ومن خلال كتاب البيان يظهر دور كتامة دورا رئيسيا وموجها لحوادث العصر منذ قيام الدولة حتى القرن الخامس الهجري وقد اشار الى تطور وضع كتامة فى مصر فى عصر العزيز بالله بقوله عن ابن كلس انه « اذل كتامة وقهرهم وقدم الترك » (102) كما أشار الى حوادث بلاد المغرب اثناء ثورة أبي الفهم الخراساني (103) والى سائر السفارات المتبادلة بين الأمراء الزيريين والخلفاء الفاطميين منذ عصر المعز حتى نهاية عصر الآمر بأحكام الله ويروي ابن عذارى خبر قتل سيف الدولة ذي المجدين حسين بن علي بن دواس الكتامي بأمر الظاهر الفاطمي وبتدبير عمته ست الملك التي يسميها هنا بلقب « السيدة الشريفة » (104) .

وينفرد ابن عذارى بين المؤرخين بالاشارة الى ان شيخ حجيج كتامة فى مكة كان يميل الى مذهب النكارية الاباضية (105) اما الباجي المسعودي فى « **الخلاصة النقية** » فيلاحظ أن الرجلين أبا عبد الله الشيعي وشيخ الحجيج تقاربا فى المذاهب بعد أن تباحثا (106) ويعني ذلك أن الشيخ كان يميل الى المذهب الشيعي شأن معظم المغاربة الذين يميلون الى حب آل البيت جبلة كما لاحظ ذلك ابن ابي الضياف فى كتابه **اتحاف اهل الزمان**.

واهمية ابن عذارى تظهر ايضا فى نواحي اخرى منها اهمية مصادره بالنسبة لحوادث المغرب والمشرق على السواء فهو ينقل عن الوراق والبكري والعذري وابن القطان والرقيق وابن شرف وابي الصلت والقضاعي ايضا (107) ، ويحفظ كتابه البيان شذرات من تاريخ الرقيق وقطعا من نظم الجمان لابن القطان ومن تكملة الطبري لعريب بن سعيد القرطبي (108) والأهم من ذلك انه يقدم ملخصا وافيا لكتاب أبي عبد الله محمد بن سعدون ابن علي المالكي (ق 5 هـ / 11 م) وهو **تعزية اهل القيروان بما جرى على**

---

102 ـ انظر البيان 1 : 339 النويري 26 ورقة 49 .
103 ـ نفسه 1 : 345 .
104 ـ نفسه 1 : 391 ثم انظر النويري 26 ورقة 60 ـ 61 .
105 ـ نفسه 1 : 166 ـ 167 وقارن ذلك بما ورد فى النويري 26 ورقة 25 الذي يشير الى ان وفد حجيج كتامة كانوا من الشيعة .
106 ـ انظر الخلاصة النقية ورقة 28 ا مخطوط تونس رقم 459 وقد طبعت 1283 هـ .
107 ـ انظر : البيان 1 : 126 ، 313 .
108 ـ وعن مصادر ابن عذارى انظر البيان 1 ، 13 ، 36 ، 351 ، 395 ، 401 ، 402 ، 404 .

البلدان من هيجان الفتن وتقلب الازمان (109) الذي تضمن رواية جديدة عن أصل الحركة الاسماعيلية ونبذا من سيرة الخلفاء الفاطميين فى المغرب وفى مصر حتى بداية عهد المستنصر بالله (110) وفى ثنايا هذا الملخص الذي يعكس وجهةنظر المالكية أعداء الحركة الاسماعيلية بعد انتعاش السنة نلاحظ تركيزا مقصودا على نقط الضعف فى الخلفاء الفاطميين فالمعز لدين الله ادعى النبوة والعزيز بالله سب الصحابة والحاكم ادعى الربوبية من دون الله وجعل داعيا يدعو اليه هو حمزة الهادي (111) أما الظاهر فكان مدمنا على شرب الخمر وعلى التزين بزي النساء والمستنصر كان ميالا الى الطرب واللهو فاذا مشى « كان بيده الشبابة ومن ينشد الشعر » .

وامدنا **كتاب العبر** (112) لابن خلدون بمعلومات مستفيضة عن انساب البربر وكتامة كما يراها النسابة العرب مثل ابن حزم والنسابة البربر مثل هانيء بن مصدور الكومي وفيه وصف لاقليم كتامة وحدوده ومدنه ولفروع كتامة ومضاربهم واهمية ابن خلدون انه وثيقة هامة بالنسبة لبقايا كتامة فى عصره وقد لاحظ ان سدويكش وبني ثابت من بقايا كتامة كما لاحظ تدهور شأنهم وسجل نظرة العامة والحكام اليهم كأحفاد لقوم ناصروا من قبل نحلة شاذة وفرضوها على جمهور السكان بالارهاب وفى كتاب « سيرة جوذرت 361 هـ » لابي منصور العزيزي الجوذري معلومات قيمة عن حياة كتامة فى افريقية بعد قيام الدولة وعن علاقاتهم بالسكان وبرجال الدولة وبالخلفاء لاسيما المنصور الذي نوه بأهمية دورهم أثناء حركة أبي يزيد ثم المعز لدين الله الذي أشرف على تكوين جيل جديد من شبابهم وفى الكتاب عرض عن سير الحياة السياسية والادارية فى بلاد المغرب حتى رحيل المعز الى مصر وعن أهمية طبقة الفتيان ودور الأسر العربية الكبيرة مثل أسرة الكلبيين وبني حمدون وفى الكتاب كثير من العقائد الاسماعيلية منها ما يتعلق بقضية النص على الحجة واقامة مستودع له وقد ولي جوذر هذه المهمة عدة مرات (113) ومنها ما يتعلق بصدى الخلاف فى صميم الأسرة الفاطمية الذي ابتدأ قبيل وفاة المهدي واستمر حتى رحيل المعز

---

109 — نفسه 1 : 405 — 406 .

110 — نفسه 1 : 414 .

111 — وقد عرف فى كتاب ابن سعدون بالمهدي وهو الذي كتب سنة 410 هـ كتابا يدعو الى الوهية الحاكم منه قوله (الحمد لمولاى الحاكم وحده باسمك اللهم الحاكم بالحق) ويخاطب حمزة الناس بقوله (وامرني باسقاط مالا يلزمكم اعتقاده من الاديان الماضية والشرائع الدارسة) انظر البيان 1 ، 413 — 414 .

112 — يصفه السخاوي بانه ليس (الا من المصنفات التي سارت القابها بخلاف مضمونها) ويلاحظ ان المقريزي بالغ فى مدح كتاب العبر بسبب رابطة الصداقة بينه وبين ابن خلدون انظر الاعلان بالتوبيخ 151 .

113 — انظر : سيرة جوذر 39 — 40 ، 139 .

لدين الله حيث يلاحظ أن قريبه احمد بن المهدي يشنع عليه ويتأخر فى الهجرة معه الى مصر ومن نسل أحمد بن المهدي الذي وصفه المعز بالشقي ، عبد الرحيم بن الياس ولي عهد المسلمين فى عهد الحاكم بأمر الله (114) .

والكتاب بعد كل هذا وثيقة معاصرة ونموذج رفيع لبلاغة الخلفاء ومهارتهم الخاصة فى صياغة التوقيعات اما خطب المنصور بالله فتعتبر فى الكتاب آية فى الروعة وفى الجمال (115) وتضمن كتاب **الاشارة فيمن نال الوزارة** لابن الصيرفي (ت 542 هـ / 1147 م) تراجم لبعض شخصيات وقادة كتامة أظهرهم أمين الدولة ثم على بن جعفر بن فلاح الذي تقلب فى عدة مهمات ادارية وعسكرية قبل أن يلي خطة الوساطة للخليفة الحاكم بأمر الله . وفى كتاب **رفع الأصر عن قضاة مصر** لابن حجر العسقلاني (ت 853 هـ / 1449 م) كما فى الملاحق التي أضيفت الى كتاب **الولاة والقضاة للكندي** معلومات مستفيضة عن دور آل النعمان فى الدعوة وفى القضاء فى مصر الفاطمية .

اما كتاب ابن القلانسي (ت 555 هـ / 1160 م) « **ذيل تاريخ دمشق** » فيعتبر بحق أهم وثيقة عن حوليات العصر الفاطمي فى بلاد الشام منذ أن فتحت على يد جعفر بن فلاح الى أن سقطت فى القرن الخامس الهجري فى أيدي أتسز بن أوق (الاقسيس) اثر فرار واليها الكتامي معلى بن حيدرة بن منزو .

ويتسع ذيل تاريخ دمشق لسياسة ولاة كتامة فى بلاد الشام سواء كانوا من آل ابن فلاح أو من أسرتي ابن الصمصامة وابن منزو ولموقفهم من السكان ومن عناصر الشغب وهم الأحداث والاشراف . وقد اتضح كيف أن جيش بن الصمصامة استدرج هؤلاء ونكل بهم كما نكل بثوار مدينة صور وحلفائهم الروم كما اتضح أيضا مدى تأثر وضع كتامة فى الشام بالاحداث التي تجري فى مصر خاصة أثناء وساطة ابن عمار حيث لاحظنا أن كتامة فى بلاد الشام فقدت زمام المبادرة وتخلت تدريجيا عن الدور القيادي اثر سقوط ابن عمار وفرار أبي تميم سليمان بن جعفر بن فلاح من الشام (116) . ولأبي المحاسن (ت 874 هـ / 1496 م) فى

---

114 ـ نفسه 105 ـ 106 .

115 ـ نفسه 55 وما بعدها ومما جاء فيها قوله يخاطب كتامة (يا اهل دعوتنا يا انصار دولتنا يا كتامة احمدوا الله واشكروه) وقد اثنى عليهم وطيب خاطرهم بقوله : (اللهم اني اصبحت راضيا عن كتامة لاعتصامهم بحبلك وصبرهم على الباساء) .

116 ـ انظر النويري : المصدر السابق 26 ورقة 50 وما بعدها .

مطالبهم ويعاد اليهـم اعتبارهم فى الدولة وقد حفظ ابن ميسر (122) والمقريزي (123) صورة عن مطالبهم وموقف الحاكم منها .

وفى ابن خلكان كما فى « **يتيمة الدهر** » للثعالبي « **والبداية والنهاية** » لأبي الفداء ابن كثير (ت 732 هـ / 1331 – 1332 م) اشارات عن بعض رجالات كتامة مثل جعفر بن فلاح وابنه أبي تميم سليمان .

ومن سيرة الحاجب جعفر بن علي (124) لمحمد اليماني استفدنا حقيقتين هامتين أولاهما تتعلق برغبة المهدي فى التوجه الى كتامة مباشرة لولا اكتشاف أمره الذي جعله يواصل السير الى سجلماسة وذلك مالاحظه أيضا يحي بن سعيد الأنطاكي فى تاريخ الذيل (125) أما الثانية فتتعلق بوجود مجموعة من كتامة كانوا يرافقون المهدي أثناء رحلته من سلمية الى بلاد المغـرب وانهم الذين رافقوا أبا العباس المخطوم بقصد ان يوصلوه الى أخيه أبي عبد الله فى ايكجان وفى كتاب ابن العديم (660 هـ / 1261 – 1262 م) **زبدة الحلب فى تاريخ حلب** معلومات ذات اهمية عن دور بعض قادة كتامة فى الشام مثل جعفر بن كليد فى حمص وبني ثعبان فى حلب وقد قاموا بدور لفائدة الخلافة الفاطمية فى عهدي الظاهر والمستنصر ضد عرب بني مرداس وأمرائهم وصدى أعمالهم نجدها أيضا فى ابن الأثير وابن خلدون والمقريزي (126) .

ويحتفظ ابن الخطيب (ت 776 هـ / 1374 م) فى كتابه **أعمال الاعلام** بنص رسالة ابراهيم بن أحمد الاغلبي الى ابي عبد الله الداعي عندما كان مقيما فى قلعة ايكجان ثم رد الداعي عليها ، أما ردود الفعل الاخرى ضد الحركة الاسماعيلية فقد حفلت بها مصادر اخرى مثل ابن عذارى وابن خلدون والنعمان والنويري وفى **مجموعة الوثائق الفاطمية** (127) اشارات

---

122 – انظر اخبار مصر 2 ، 53 – 54 .

123 – انظر اتعاظ الحنفا 2 ، 4 – 5 .

124 – سيرة جعفر 116 وجعفر بن على هو اخو المهدى من الرضاعة وهو غير جعفر ابن منصور اليمن الذي لم يتصل بالمهدي ، انظر سيرة جعفر 107 – 110 ، سيرة جوذر 126 – 127 ولقد حظى جعفر بن منصور اليمن بمكانة كبيرة عند المعز الفاطمي الذى مدحه بقوله (انه اجل اوليائنا المسعود برضى الله ورضى مواليه) .

125 – انظر تاريخ الذيل 751 وقد نشر فى :
Patrologia Orientalis T. 18 et 23 Paris 1924-32.

126 – انظر اتعاظ الحنفا 2 ، 147 ، 172 وعن حيدرة بن ثعبان متولي الصعيد انظر 137 منه .

127 – نشرها الشيال والقسم الاول منها يتضمن 23 وثيقة ، 10 وثائق عن الخلافة وولاية العهد و 13 عن الوزارة .

كثيرة يهمنا منها وثيقة تضمنت تظاهر الحاكم بأمر الله أمام شيوخ كتامة بعد أن قتل برجوان الصقلبي بان عصرا جديدا قد بـدأ في حياتهـم وان اعتبارهم عاد الى سالف عهده مثلما كانوا (شيوخ الدولة وأولياءها) . والذي يلاحظ عن هذه الوثائق انها خلت من عهود الأمراء الزيريين مع انهم كانوا نوابا عن الخلفاء الفاطميين في بلاد المغرب كله وأهميتهم بدون شك كانت تتجاوز دور حكام الأقاليم والاطراف وقد دل عليها أعلار الحاكم لأبي مناد باديس بقضية النص على عبد الرحيم بن الياس .

* * *

وقد انار لي الطريق جهد مجموعة من مؤرخي مصر الاسلامية كما كان فضل مجموعة من مؤرخي المغرب الاسلامي كبيرا .

ولقد أفدت كثيرا من مكتبة حسن حسني عبد الوهاب الخطية التي آلت الى المكتبة العامة في تونس ثم من أعماله المنشورة وأهمها كتاب **ورقات عن الحضارة ومجمل تاريخ الأدب التونسي** . ويعد من أعماله الخالدة انشاؤه لمتحفين أحدهما خاص بالعملة التونسية ويوجد في مدينة تونس وثانيهما متحف أسد بن الفرات في قصر الرباط بمدينة سوسة وفيه نماذج للدراهم فاطمية ضربت في المهدية سنة 325 هـ / 936 ـ 937 م ولدنانير ضربت في عصري المعز والعزيز ولطراز فاطمي يرجع الى عصر العزيز بالله ثم نسيج من الكتان هذا فضلا عن نماذج من الزجاج الذي صنع في صبرة (المنصورية) ثم طبق من خزف ذي بريق معدني يرجع الى القرن الرابع الهجري (128) .

ويكتسي كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث لمبارك الميلي أهمية خاصة لأن المؤرخ من البيئة فمعلوماته عنها موثوق بها نسبيا كما أن أبحاث توفيق المدني تمتاز بأنها انبنت على معرفة جيدة بالمنطقة ومن هذه الزاوية فكتاب **« قبائل المغرب »** لعبد الوهاب ابن منصور يعتبر أحدث ما كتب عن الموضوع انما في اطار تقليدي قديم والرجل من بيئة المغرب الأوسط ومن احدى قرى العلويين في منطقة تلمسان (صبرة) ويملك تحت حوزته وثائق قديمة كما تجول لفترة طويلة في انحاء البلاد وهو الآن ومنذ فترة يقيم في المغرب الاقصى ، ويحظى بلقب شرفي هو « مؤرخ المملكة » الذي استحقه على كتابه السابق .

---

128 ـ انظر : عبد الرؤوف علي يوسف : خزافون من العصر الفاطمي واساليبهم الفنية مقال المجلة التاريخية المصرية مجلد 20 ج 2 ديسمبر 58 .

انما يؤخذ على المؤلف أنه يعتبر كل قبيلة بربرية بمثابة شعب قائم بذاته ويبدو ذلك فى عناوينه ، شعب صنهاجة شعب مصمودة ، وهكذا ..

ومن بين المراجع الأجنبية التي استشرتها استفدت من كتاب جوتيه :

Le passé de l'Afrique du Nord. Paris 1942. عن نقش « فج فيدول » الذي عثر عليه فى مكان بين ميلة ، وجيجل وتضمن اسم الأكوتوماني « Ucutemani » وهي الصيغة اللاتينية لاسم كتامة فى العصر البيزنطي الذي يبدو انه ورد بصيغته الاغريقية عند الجغرافي بطليموس الفلوذي (129) .

وقد لاحظ جوتيه نأ اقليم كتامة يقع فى اطار موريطانيا السطيفية فى العصر البيزنطي وبالاعتماد على معلومات شفوية استقاها من جورج مارسيه أشار الى أن قلعة ايكجان انما تقع بجوار قرية بني عزيز (130) .

وقد أكد كريستيان كورتوا فى كتابه :

Les Vendales et l'Afrique. Paris 1955.

أن الاكوتوماني عرفوا كمجموعة او قبيلة منظمة يشرف عليهم أمير منهم فى جنوب منطقة جبل بابور ، أي فى نفس مجال كتامة (131) .

وبهذا الرأي أخذ محمد طالبي فى كتابه (132) .

L'Emirat Aghlabide. Paris 1966.

كما حاول أن ينسق بين الآراء المقترحة حول تحديد قلعة ايكجان (133) .

وفى كتاب شارل جوليان :

Histoire de l'Afrique du Nord. Paris 1961.

ما يشير الى حياد اقليم كتامة اثناء الفتن والحروب التي تسبب فيها الخوارج وبالتالي لم تكن قبيلة كتامة خارجية وبقيت على مذهبها السني حتى السنوات الأولى من حكم ابراهيم بن أحمد الاغلبي وذلك عندما تبنت

---

129 – Cf. 338.
130 – Cf. p. 343 n° 2, 341.
131 – Cf. p. 121.
132 – Cf. p. 594.
133 – Cf. p. 600 n° 4.

الحركة الاسماعيلية التي بثها الدعاة الأوائل (134) وأكد حقيقة حياد كتامة في كل ما جرى من فتن مذهبية رينيه باسيه في مقاله عن كتامة في دائرة المعارف الاسلامية :
Art. Ketama T. 2 p. 909.

وتعرض روجر ادريس في كتابه عن الأمراء الزيريين :
La Berberie Orientale sous les Zirides. Paris 1962.
الى علاقة هؤلاء الأمراء بالخلفاء
الفاطميين والى دور كتامة في بعض الأحداث الخاصة والى اهميتها لحراسة النفوذ الفاطمي في بلاد المغرب . كذلك استفدت من كتاب فوندرهايدن عن الأغالبة :

M. Vonderheyden : La Berberie Orientale sous la Dynastie des Banou L. Arlab. Paris 1927.

ومن كتابي جورج مارسيه عن شمال افريقية والمشرق
في العصور الوسطى ثم عن العالم الشرقي منذ سنة 395 الى 1081 م :
La Berberie Musulmane et l'Orient au Moyen Age. Paris 1946, et le Monde Oriental de 395 à 1081 2e Edition 1944.

كما رجعت الى كتاب عبد الله العروى المغربي :
L'Histoire du Maghreb. Paris 1970.

وافدت من رحلة الحسن الوزان المعروف بليون الافريقي (ت 944 هـ / 1537 م) عن وصف اقليم كتامة ومدنه المشهورة مثل جيجل وسطيف وسكيكدة وميلة . وقد تعرض لها في ثنايا القسم الخامس من كتابه : (135)
Description de l'Afrique, nouvelle édition E. Epaulard. Paris 1956.

وقد لاحظت أثناء وصفه لموقع مدينة قسنطينة قوله انه يوجد بجوارها نهر سوفقمار « Sufegmar » والكلمة بربرية تعني وادي الرمل وهو الاسم الذي جاء في النصوص العربية ومعنى ذلك أن (سوق جمار) الذي قيل ان بعض الدعاة الأوائل نزل فيه واضطربت النصوص حول ضبطه وموقعه ان هو الا الكلمة المحلية التي تعني وادي الرمل ، وبذلك يكون أوائل الدعاة وهو الحلواني قد نزل في عمق أرض كتامة بجوار حاضرة كبرى من حواضرها وهي قسنطينة (136) .

---

134 – Cf. T. 2, p. 55.
135 – Cf. p. 361 Sqq. (5e partie).
136 – Cf. p. 365 n° 34, A. Benachenhou opcit. P. 174 E.F. Goutier opcit 354.

ومن كتاب وصف افريقية للحسن الوزان اختار عبد الحميد بن اشنهو نصوصا عن بلاد المغرب وقبائلها بعنوان : L'Algérie en 1515. Alger 1969.

وقد رجعت اليها فى كثير من المواطن لأنها صورة طبق الأصل . وبقطع النظر عن النصوص العربية التي اختارها سلفستر دوساسي بعنوان **الأنيس المفيد للطالب المستفيد وجامع الشذور** من منظوم ومنثور » و
Christomathie Arabe. Paris 1826 et 1827.

التي تضمنت بعض رسائل الدعاة (137)
خاصة رسالة القرمطي ، ورد الحاكم عليها (138) فان ترجمة البارون دوسلان للجزئين السادس والسابع (139) من كتاب العبر بعنوان :
Histoire des Berbères et des Dynasties Musulmanes de l'Afrique Septentrionale. Nouvelle édition publiée sous la direction de Paul Casanova Paris 1925.

قد افادتنا فى ضبط بعض الأعلام وفى تصحيح الأخطاء التي توجد فى طبعتي بيروت وبولاق .

ويعتبر من المقالات الرئيسية التي رجعت اليها فى دائرة المعارف الاسلامية ما كتبه موتلنسكي عن الاباضية وشخصياتهم وكرادفو ، عن **الداعي والباطنية** وجورج ايفر عن بعض مدن **كتامة وزواوة** واقليم الزاب ، وديمونبين عن **الأغالبة** وجورج مارسيه عن **الرستميين** ، **والرباط** وجرايف ثم كنار عن **الفاطميين** وكلود كاهين عن طائفة **الاحداث** وهيوارث عن **العلويين** وجورج كولان عن **سجلماسة** الى غير ذلك من المقالات الهامة التي يضاف اليها مجموعة اخرى تضمنتها الدوريات العربية والأجنبية وتنسب لباحثين مختصين .

---

137 – Cf. p. 67 Sqq.
138 – Cf. p. 81-82 et 205 sq.
139 – Cf. T. 1 p. 291 Sqq.

الفصل الأول

حلف كتامة وبرانس افريقية والمغرب الأوسط في العصور الوسطى

البربر ـ التقسيمات الاجتماعية : فرع البرانس ، مضارب برانس ، المغرب الاوسط ، ازداجة ـ عجيسة أوربة ، هوارة ، صنهاجة ، بقاياهم وآثارهم ـ كتامة ، الاسم ومدلولاته ، الاصل النسبي ـ ضبط الكلمة ـ حدود اقليم كتامة وخصائصه وبعض عادات سكانه ـ فرعا كتامة : غرسن ـ يسوده ، بطون كل منهما ـ زواوة فرع من كتامة ـ بطونهم مناشة راي ابن خلدون حول كتامة وزواوة بيوتاتهم فى الاندلس ـ احصاء كتامة فى عصر الادريسي وتوجيهه ، بقايا كتامة وزواوة فى عصر ابن خلدون ـ علماء وفقهاء كتامة وزواوة مراكز كتامة فى افريقية والمغرب الاوسط : مرسى الخرز ـ بونه ، سكيكدة ـ القل ـ جيجل ـ بجاية ـ مرسى الدجاج ـ مرسى بني جناد ـ تدلس ـ قسنطينة ـ ميله ـ سطيف ـ ايكجان موقعه . تيجس ـ توبوت ـ باغاية ـ أوراس ـ الزاب ـ مراكز كتامة فى المغرب الاقصى والاندلس : قلعة ابن خروب سوق كتامي ـ قصر دنهاجه ـ البصرة ـ اصيلا ـ قصر كتامة فى الجزيرة الخضراء ـ كتامة من خلال المصادر التاريخية حتى أواخر القرن الثالث بعد الهجره ـ آفاق المرحلة التالية .

من الكلمات ما شاع اطلاقه خطأ على غير أهله ورغم رفضهم له بقي علما بالغلبة عليهم عند أكثر المؤرخين حتى عند أولئك الذين تحروا الدقة وحثوا غيرهم على توخيها (1) ولا يتبين هذا المعنى فى كلمة بقدر ما يتبين فى كلمة البربر فى عرف اليونان والرومان التي عرف بها سكان شمال افريقية الاقدمون ولم تكن من قبل علما على جنس معين أو فصيلة معينة . وكان من الحق أن ترتبط ببعض شعوب أوربا من القبائل الجرمانية المهاجرة

---

1 ـ ابن خلدون : تاريخ الدول الاسلامية 1 ، 106 ط دوسلان ، 6 ، 175 ـ 176 ط : بيروت وفى مواطن كثيرة من الجزئين 6 ، 7 من كتاب العبر ، مفاخر البربر (المجهول 1 وما بعدها ابن حزم : جمهرة انساب العرب 461 :

Encyclopédie de l'Islam. (Art Berbères) T. 1 p. 716 Sqq.

ومن ضمنها ونــدال شمال افريقية الذين كانوا حربا على العمران وعلى مظاهر الحضارة الرومانية بدرجة يستحقون معها أن تلصق بهم كلمة البربر لا بسكان شمال افريقية المسالمين الذين ارتضوا لأنفسهم اسما محليا يدل على طبيعتهم واتجاههم وهو اسم مــازيــغ (2) الذي نطق به وفدهم أمام الخليفة عمر بن الخطاب عند ما سألهم عن نسبهم بين الشعوب . وبقيت قبائل منطقة زكــار تحتفظ به حتى عهود متأخرة (3) . واشبه الكلمات بمصطلح البربر عند الاغريق كلمتا « عجم » و « علوج » عنــد العــرب فقد أطلقوا الكلمتين على الشعوب التي لا تتكلم لغتهم ولو كانت من التي لها ماض عريق فى الحضارة مثل الفرس والاتراك (4) .

وقد ورد فى القــرآن الكريم لفظ الاعجمي « فى مقابل كلمة » العربي فى قوله تعالى (ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء . سورة فصلت 42) ووصف القــرآن مرة بأنه « غير ذي عــوج » لأنه بلغة العرب فى قوله تعالي (قــرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون . الزمر : 26) . ووصف مرة اخرى بأنه مفصل الآيات واضح القسمات فى قوله تعالى (كتاب فصلت آياته قــرآنا عربيا لقوم يعلمون . فصلت : 1) .

وذكر أبو التاريخ اليوناني (هيرودوت) فى ديباجة كتابه « أن الغرض من أبحاثه الدقيقة هو أن يحفظ من النسيان وقائع الاجيال الماضية والحاضرة وعظائم الاغريقيين والبربر وأعمالهم العجيبة » (5) . فجــاءت كلمة البربر فىمقابل كلمة الاغريق لتشمل كلالشعوب والفصائل غير الاغريقية وهذا ان دل على شيء فانما يدل قطعا ، على خطأ فى التقدير وعلى انحراف عن المفهوم الصحيح .

وأساس ذلك استعلاء جنسي وثقافي كان يشعر به سكان شبه جزيرة اليونان ، وعنصر الاغريق عموما ، تجاه غيرهم من الشعوب .

---

2 ـ ابن خلدون المصدر السابق 1 ، 107 ، السلاوي : الاستقصاء 1 ، 35 ابن منصور قبائل المغرب 1 ، 26

Christian Courtois : Les Vendales et l'Afrique p. 119 n° 4.

3 ـ Ibid. p. 120.

4 ـ فازيليف : العرب والروم ، ترجمة شعيرة . دار الفكر 1934 م .

5 ـ هيرودوت : تاريخه 11 هامش 2 من الكتاب الاول وعنوانه « كليو » ترجمة عربية بعناية حبيب ستريس بيروت 1886 م ، ارسطو : السياسيات 6 هامش 2 ، 7 ، 8 وغيرها ترجمة عربية بعناية اوغسطيس بربارة بيروت 1957 .

وأصبح ذلك من سمات ورثة حضارتهم المباشرين وهم الرومان والروم البيزنطيون ، كما لم يسلم من ذلك من تأثر بهم وأخذ عنهم ، وهم العرب الذين صدروا فى اطلاق كلمة « العجم » (6) على شعوب أخرى ، لكل منها اسمه الخاص ، وتراثه وتاريخه عن أحساس بالتفوق السياسي أو الثقافي عن الاتراك ، والفرس وغيرهم من الشعوب غير العربية .

وقد يبرر اطلاق كل من كلمتي البربر والعجم فى عرف الاغريق والرومان والعرب ، عمن سواهم من الشعوب المجاورة والبعيدة ، سلطان سياسي واسع ورصيد حضاري قوي اكتسبته اللغات اليونانية واللاتينية والعربية فى عصر ازدهار الحضارة الاغريقية والرومانية والاسلامية هذا بالقياس الى بدائية لغات بعض الشعوب الاخرى أو انحلال سلطانها السياسي ونضوب معين لغاتها القومية تبعا لضآلة قوة الدفع السياسي فى بلدانها .

ولعل مما يؤيد وجود فكرة الاحساس بالتفوق وتبادل التأثير وراء اطلاق كلمتي بربر وعجم وحدة معناهما فى اللغات العربية واليونانية واللاتينية وتدور حول انعدام الفصاحة فى النطق والخلط فى الكلام ، وما يلازمهما عادة من الانفعال السريع ، والتأخر الفكري .

واغلب هذه المعاني تظهر فى قول الشاعر العربي القديم (7) :

بـربـرت كنعـــان لمـا سقتهـا   من بلاد الضنك للخصب العجيب

اي أرض سكنـوهـــا ولقـد   فـازت البربر بالعيش الخصيب

ثم فى الآيات القرآنية التي أشرنا اليها من قبل .

واذا تجاوزنا بعض الاعتبارات التي أملت اطلاق اسم البربر على سكان شمال افريقية وحدهم حتى أصبح علمـا بالغلبة عليهم ولصقا بهم ، يعرفون به دون سائر أخوانهم أبناء مازيغ ، وهم سكان النطاق الجغرافي الذي يمتد من خليج العرب أو بحر القلزم الى البحر المحيط وهو التحديد الذي أكده وفـد عن البربر فى الصدر الاول من عصر الاســلام أمام الخليفة عمر بن الخطاب (8) .

---

6 ـ امين واصف : الفهرست والخريطة التاريخية للممالك الاسلامية 16 ـ 17 ويرادف كلمة عجم عند العرب كلمة علوج .

7 ـ ابن خلدون : المصدر السابق 1 ، 111 ط دوسلان ، ابن منصور : المرجع السابق 1 ، 268 .

8 ـ ابو حيان : الانساب ، ورقة 104 خ الخزانة العامة بالرباط رقم 1257 ، ومنـه استخرج ليفي بروفنسال نبذا عن مفاخر البربر فى العصور الوسطى ، وخبر الوفد رواه ابو عبد الله محمد بن ابي المجد القيلي فى تاليفه عن « الانساب » .

وقد لا يستبعد أن يكون وفد مغراوة من قبيلة زناتة البترية برئاسة « اقليدها » وهو الامير خزر بن حفص صولات بن وزمار قد ذكر له ذلك فيما بعد ، فى مجلس الخليفة عثمان بن عفان فاثبته ، ولم يضف اليه ، لأن بعض النصوص التاريخية تشير الى اسلامه فى هذه المناسبة بين يدي الخليفة وصيرورته منذ ذلك اليوم مع سائر قبيلة زناتة من موالي عثمان ومن شيعة بني امية بصفة عامة (9) .

واذا تجاوزنا ذلك ـ لاحظنا عدة أمور هامة منها :

1 ـ أن اسم البربر يعتبر أقدم اسم ذي مدلول شامل يظهر منذ بدء عصر التاريخ وينطوي تحته سائر سكان شمال افريقية ، وبلاد المغرب سواء كانوا من أهل السواحل ، أو من أهل الدواخل ، من سكان الصحراء ، او من أهل التلول والجبال والسهول من ذوي البشرة البيضاء أو الزنجية بحيث لا تماثل كلمة البربر فى مدلولها الشامل فى حدود منطقة المغرب أية كلمة قبل ظهور العرب المسلمين فى الناحية اذا ـ استثنينا ـ كلمة « ليبي » فى العصر القديم .

اما بعد أن تمكن المسلمون من ناصية الامور وفتحوا بلاد المغرب فتحا سياسيا وثقافيا ، فقد أصبح لكلمة « مسلم » فى المنطقة نفس الدلالة الشاملة التي تتجاوز قطعا معنى ومدلول كلمة « عربي » كما تتجاوز أيضا مدلول كلمات «نوميدي» و «موريطاني» و «جيتولي» (10) التي أطلقت على مناطق محدودة من شمال أفريقية فى عرف المؤرخين والرحالة غير المسلمين .

2 ـ ثم ان دور العرب المسلمين ، نسابة ومؤرخين ، فى تسمية السكان بالبربر اقتصر فقط على تبني المصطلح كاسم جامع شامل لكل السكان محاكاة لمن سبقوهم فى المنطقة ، ويعني هذا انهم لم يكونوا أول من ابتدعه ، او أطلقه ، أما سر تمسكهم به ، فهدفه التيسير والالتزام بالعرف المألوف دون أن يكون فى اعتبارهم ملاحظة المعنى السيء الذي كان يلازم الكلمة فى اذهان القدماء ، ويلازمه الآن عند بعض المحدثين .

---

9 ـ ابن خلدون المصدر السابق 2 ، 4 ـ 5 (ج 7 ط بيروت وبولاق) ابو حيان المصدر السابق ورقة 30 ويلاحظ ان هناك من الباحثين من يرى ان الانساب ، لابن عبد الحليم وليست لابي حيان .

10 ـ يلاحظ جوتيه ، ان من بين بقايا الجيتوليين فى الواحات المغربية والجزائرية مجموعة الحارطان المزارعين ، ثم بعض سكان مرتفعات التبستي (التبو وهم من الزنوج ويعرفون قديما باسم (Melano Getules) انظر الصحراء 189 ، ترجمة عربية ، سلسلة (1000 كتاب) رقم 117 .

3 ـ ثم ان نسابة البربر وجلهم قد نبه ذكره ، وازدهر انتاجه وتفتقت ذهنيته فى ظل الاسـلام ، قد استساغوا الكلمة واخذوا بها وأقروها فى كتبهم دون ما شعور بالنقص أو بالهضيمة ، وانطلقوا منها ، الى آفاق أخرى حول فرعي البربر وتحقيق نسب كل منهمـا .

ومما يلاحظ أن كتب هؤلاء النسابة والمؤرخين المحليين ، كانت متداولة ، ولم تضع الا فى العهود المتأخرة وآية ذلك أن أصداءها تظهر فى العديد مما دونه المؤرخون المسلمون منذ بدء حركة تدوين التاريخ الى عصر مؤرخ الدولة العلوية الشريفية فى المغرب الاقصى وهو أبـو القاسـم الزيـاني (ت 1249 هـ / 1809 م) .

فقد سجل هذا المؤرخ والرحالة المغربي ، ضمن ذكرياته ومشاهداته فى مدينة تلمسـان احدى قواعد زناتـة البترية ، انه نزل بجوار ضريح الغوث أبي مدين (ت 594 هـ / 1197 ـ 1198 م) وهو من مشاهد المدينة . وطلب من خطيب المسجد بعض ما يفيده ويسليه ، فأتحفه بكتب تاريخية هامة منها : الكتب التي ألفها مشاهير نسابة البربر وهـم : سليمان بن اسحاق المطماطي ، وهانيء بن مصدور الكومي وكهلان بن أبي لؤي الاوربي . هذا عـدا تاريخ العقبـاني عن دولة بني زيـان وتاريخ ابن مرزوق عن مناقب السلطان المريني أبي الحسن والمعروف « بالمسند الصحيح **الحسن فى محاسن أبي الحسن » و « واسطة السلوك فى سياسة الملوك »** لأبي حمو موسى وهو من سلاطين دولة بني زيان (11) .

وفيما عدا الاخير والذي قبله من هذه الكتب ، لا يوجد أي أثر للكتب وللاعمال السابقة خاصة منها أهمها ، وهي كتب النسابة المحليين اذا استثنينا بعض النصوص والفقرات المقتبسـة والتي نجدها فى ثنايا وتصانيف ما كتبه النسابة ، والمؤرخون المسلمون مثل محمد بن يوسف الوراق ، وابن حزم وابن عذارى ، وأبي المجد ، وابن عبد الحليم الذي يظن انه هو صاحب كتاب الانساب الذي أختيرت منه نبذة عن مفاخر البربر ، وابن خلدون وأبي العباس السلاوي (ت 1315 هـ / 1897 م) الذي يرجح انه استفاد كثيرا من كتب هؤلاء النسـابة ومن غيرها ، نظرا لقصر الفارق الزمني بين عصره وعصر أبي القاسم الزياني .

وقد ترعرع كل منهما فىعصر الدولة العلوية الشريفية ، وينتسب أحدهما وهو الزياني الى البربر .

---

11 ـ **الزياني : الترجمانة الكبرى فى اخبار المعمور برا وبحرا 144 ، نشرها الفيلالي ـ الرباط 1967 وعن ابي القاسم الزياني المؤرخ انظر : ليفي بروفنسال فى :**
E I, Art Zayani T 4 P. 1269-70.

4 ـ لم ينكر الباحثون المحدثون كلمة البربر وحتى أولئك الذين ينتسبون الى عنصر البربر ، نلاحظ أنهم يبدون اهتماما خاصا بالتسمية . وربما فاق اهتمام الباحثين القدماء ونراهم يتمسكون بالكلمة اعتزازا وفخرا ، ويتصيدون منها الدليل على انفصالهم وتفردهم بمميزات الامة المستقلة على غيرها . وقد لا يختلف اعتزاز هؤلاء بالكلمة ، عن مستوى اعتزازهم وتغنيهم بكلمة أخرى ، وهي مازيغ ومشتقاتها وتعني فى نظرهم الشرف والنبالة وتعشق الحرية الفردية .

وهنا قد يعرض للباحث سؤال هام فحواه ، كيف غدت كلمة البربر علما بالغلبة على سكان المغرب الاقدمين ؟

ولتوضيح المقصود من السؤال لابد من الاشارة الى عدة ملاحظات هامة :

أ) أولاها ما أشار اليه المؤرخون من أن افريقش بن قيس بن صيفي بن سبأ وهو من ملوك التتابعة ، الذي غزا المنطقة ، وباسمه سميت افريقية هو الذي سمى السكان باسم ـ البربر ـ عندما سمع رطانتهم ولهجاتهم المتنوعة ، وقد تصيد النسابة كلمة البربر من قوله لهم متعجبا ما أكثر بربرتكم !!

انما يؤخذ على هذه الرواية ان الملك الحميري لم يأت ارض المغرب غازيا ، لاستحالة ذلك عادة . وان صح افتراض مجيئه ، فكيف لا يفهمهم وهو قائدهم الذي نصرهم فى أرض الشام حسب الرواية نفسها ... وبهم فتح الامصار فى أرض المغرب ، فكيف يصح أن يقبل تعجبه من رطانتهم فى هذا المكان . وكان قد سبق له أن عرفهم فى أرض الشام وسافر بهم هذه المسافة الطويلة . (12)

ب) أما الملاحظة الثانية فتتمثل فى طبيعة العلاقة السياسية بين المتجاورين فى بلاد الشام ، وما كان يحدث بينهم من نزاع وحروب فى المنطقة خاصة بين الكنعانيين أهل البلاد ، وبين العبرانيين الطارئين ، الذين انتظم امرهم بقيادة « يوشع بن نون » النبي وحاربوا خصومهم واجلوهم عن وطنهم واستمر اضطهاد من بقي فى عصر طالوت (شاؤول) (1095 ق.م) أول ملوك بني اسرائيل بعد عصر القضاة ، كما استمر أيضا فى عصر داوود النبي .

وهؤلاء المضطهدون هم الذين كانوا نواة للهجرات الكنعانية الى أرض المغرب فلعل العبرانيين الذين وجدناهم يجلون الكنعانيين عن بلدهم ، هم الذين أرادوا المبالغة فى الاساءة اليهم ، فأطلقوا عليهم

12 ـ ابن خلدون : المصدر السابق 1 ، 110 .

كلمة البربر ــ تشنيعا ، فلما هاجر هؤلاء الى بلاد المغرب حملوا معهم هذا الاسم . (13)

وهذا الافتراض ربما يؤكده ميل اليهود الى الالتواء وسلوكهم سبيل التحريف حتى فى الكتب المقدسة ، كي يرضوا ما فى انفسهم ضد أي خصم من خصومهم أو معاند لهم ، ولو كان قريبا منهم فى الاصل ، ويشترك معهم فى الشجرة النسبية . وأوضح مثال على ذلك اقصاء اليهود للكنعانيين خصومهم عن نسب سام بن نوح ، والحاقهم حسب جدول الانساب الوارد فى التوراة ، بنسب أخيه حام . وهدفهم من وراء ذلك تحقير الكنعانيين واذلالهم لأن حاما فى زعمهم على عكس سام ــ كان ابنا عاقا ، وغير مطيع لأبيه (14) ورغم أن بعض المؤرخين المسلمين ومنهم ابن خلدون ــ قد أخذوا بنسبة كنعان لحام ، فان بعض الباحثين المحدثين قد أبدى الشك فى مدى صحة جدول الأنساب الوارد فى التوراة ، على أساس أن اليهود أقصوا بني عمومتهم عمدا لأسباب سياسية ودينية . (15)

جـ) وقد يكون سبب اطلاق كلمة البربر على السكان ما يفيد معنى نسبتهم الى أحد أجدادهم القدامى . لأن بعض المؤرخين المسلمين ذكروا انهم من ولد : بربر بن كسلوجيم ، أو بر بن مازيغ أو بربر بن تملا . (16)

د) ولا يستبعد أيضا أن تكون كلمة البربر العربية هي نفس الكلمتين اليونانية (Barbaros, Barbaroi) واللاتينية (Barbarus, Barbari)

---

13 ــ نفسه 1 ، 112 ، مفاخر (لمجهول) 1 .
ابن العبري : تاريخ مختصر الدول 35 ــ 48 .
E.F. GAUTIER : Le passé de l'Afrique du Nord. P. 41-42.
(نقلا عن بروكوبيوس) .

14 ــ ابن خلدون العبر 2 ، 11 ط بيروت ، ابن منصور المرجع السابق 1 ، 226 ، ابن حزم المصدر السابق 461 ، نور الدين عبد القادر ، صفحات فى تاريخ مدينة الجزائر 34 ، الطبرى : تاريخ الامم والملوك 1 ، 97 ، 102 .

15 ــ نفسه 11 ، 21 وهنا يبدو واضحا اعتماد ابن خلدون على جدول الانساب المذكور ونراه ينفي فكرة التحريف ويحملها على التاويل او التبديل فى الكلمات غفلة وقلة ضبط وجهلا ، وعلى حين يذكر من ابناء سام فارسا يحكي الاتفاق على بنوة كنعان لحام ويؤكد كنعانية البربر وهجرتهم ثم يستدرك فينسبهم لمازيغ ــ ابن منصور المرجع السابق 1 ، 256 ، نقلا عن تاريخ اللغات السامية لبروكلمان عبد الوهاب حموده : نظرية الانساب فى الميزان ص 123 ــ 124 مقال مجلة كلية الاداب ــ جامعة القاهرة 1952 .

16 ــ نفسه : 1 ، 110 ــ 111 ط . دوسلان سعد زغلول تاريخ المغرب 24 هامش 1 حيث يذكر افتراضا آخر عن سبب تسمية البربر ، ابن منصور 1 ، 266 .

بدون تحريف وان الاغريق واللاتين كانوا يسمون بها كل من لم يعرف لغتهم ، وحضارتهم أو عاداهم ولم يخضع لسلطانهم السياسي ومن هؤلاء سكان بلاد المغرب الذين قاوموا الحكم الروماني ، والبيزنطي مقاومة عنيفة ، ولم يقم المؤرخون المسلمون بشيء غير نقلهم الكلمة الى العربية كما فعلوا ذلك بالنسبة لاسماء أجنبية أخرى ، مثل أطرابلس ، وبنطابلس وافريقية .

هـ) ثم ان كلمة البربر أطلقت أيضا على الشعوب الجرمانية ، الذين اشتهروا بتخريب مظاهر الحضارة والعمران فى كثير من ولايات الامبراطورية الرومانية الشرقية والغربية ومن هؤلاء فرع الوندال الذين سلكوا سلوكا وحشيا مع سكان شبه جزيرة ايبريا ، وشمال افريقيا (17) حتى غدا اسمهم علما على التخريب والتدمير فى لغات العالم (Vendalisme)

ويبدو أن الاعمال التي ارتكبها الوندال فى شمال افريقية ضد السكان ومظاهر العمران ، فى القرن 5 م ، هي التي جعلتهم جديرين فى نظر الامبراطورية بلقب البربر بكل ما يتضمنه من معان سيئة وقد الصقت الكلمة تبعا لهم برعاياهم فى ذلك الوقت وهم سكان البلاد الاقدمون ، وعندما أختفى من ميدان شمال افريقيا كيان الوندال كأمة وكدولة وسيقوا عبيدا وحشما الى القسطنطينية فى عصر جستنيان ، حيث ذابوا وسط المجتمع البيزنطي بقي التاريخ يعي من ذكراهم فضلا عن معاني التخريب والوحشية كلمة البربر التي بقيت فى ذاكرة الشعوب وتجري على السنتها انما على غير مستحقيها . (18)

* * *

وعن أصل البربر بين شعوب العالم القديم ، نلاحظ أن النسابة العرب والبربر ، والمؤرخين القدماء والمحدثين جالوا فى كل مجال ، وافترضوا كل افتراض ولم يتركوا سلالة من سلالات البشر الا وظنوا أن البربر منها مما يجعل من المتعذر الاعتماد على رأي أو على نقل فى مثل هذه المشكلة .

ولقد تميزت طريقة القدماء من المؤرخين والنسابة المسلمين بالاعتماد على الروايات والنقول الخاصة بالانساب التي تعتمد فى أغلبيتها على شجرة الانساب الواردة فى التوراة .

17 ـ امين واصف المرجع السابق 16 ـ 17 سعيد عاشور : تاريخ اوربا العصور الوسطى 1 ، 65 ـ 66 ، 89 ـ 90 .

18 ـ سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق 21 ـ 22 .
سعيد عاشور : المرجع السابق 1 ، 47 وما بعدها .

والذي يلاحظ على الروايات التي سيقت عن أنساب البربر القلق والاضطراب والتناقض ودورانها على فكرة أن هؤلاء البربر كلا أو بعضا غير أصلاء فى بيئتهم المغربية ، أي انهم طارئون عليها من المشرق أتت بهم الهجرات فى ظروف تاريخية غامضة وفى فترة غير محددة ، ثم تختلف الآراء بعد ذلك حول أي البلاد كانت منطلقا لهجرة البربر ؟

فعلى رواية أنها مصر ، فهم أذا أبناء مصر ايم ، أو قبط بن حام ، وان كانت من الشام فهم أبناء كنعان بن حام وأخوة الفلسطينيين ، وعلى راي أن تيار الهجرة انطلق من شبه الجزيرة العربية وبلاد اليمن منها بنوع خاص يكون البربر من حمير ، أي من عرب الجنوب ، أو من بعض قبائل مضر ، الشماليين .

وقد بدا لبعض المتأخرين من المغاربة وهو مالك بن المرحل أن يوفق بين هذه الآراء فظهر بفكرة أن البربر خليط جنسي من العناصر السابقة كلها مع من انضاف اليها من عناصر سامية أو حامية . (19)

ويبدو لي أن هذه الآراء كلها مجتمعة تعبر عن أثر ما من الحقيقة التي ينشدها الجميع وان بقيت هذه الحقيقة غير معروفة فى ظل اضطراب الآراء وتناقضها . ورغم اقتناعي بأن البحث عن أصل البربر بحث عقيم وغير مجد ومسدود المنافذ الا أن ما يظهر لي ملاحظته هو أن هذه الآراء السابقة تعبر اما على نوع الجاليات والشعوب التي كانت لها صلة احتكاك بالمنطقة وبسكانها القدماء ، أو على الجماعات التي ترسبت فى المنطقة واستقرت بجوار سكانها السابقين وبطول العهد تناسى الناس أصلها الاول ، فأصبحت كغيرها من سكان البلاد ذات طابع قومي لا يلتفت أحد الى مواطن انطلاقها القديمة ، ولعل هذا هو منشأ الخلط فى الروايات السابقة بدرجة لا تتضح معها الحقيقة ، وتوضيح جانب من هذه الحقيقة ، يؤدي الى أن البربر فيما يرجح ، هم من سكان البلاد الأصلاء وقد انحدر جانب

---

19 ـ الطبري : المصدر السابق 1 ، 106 وهنا ينسبهم الى حام وفى مكان آخر ص 105 يرجعهم الى العاصمة ، وهم من سام . ابن خلدون المصدر السابق 1 ، 115 ـ 117 ابن حزم المصدر السابق 461 ، ابن حوقل : صورة الارض 97 ، اليعقوبي البلدان 1097 أبو الفداء : المختصر فى اخبار البشر 1 ، 97 ، ابن منصور المرجع السابق 1 ، 266 وما بعدها سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق 28 ، وقد لاحظ هذا المؤرخ ان الهجرة من بلاد الشام تعبر فيما يبدو عن هجرة الفينيقيين الى شمال افريقية وهذه ثابتة تاريخيا ، ابو حيان : المصدر السابق : ورقات 110 ، 111 ، 106 ، 167 وانظر عبد الحميد بن اشنهو فى النصوص التي اختارها من ليو الافريقي بعنوان : A. BENNACHENOU : *L'Algérie en* 1975, p. 89-90.

منهم من آخر سلالة الانسان القديم ، الذي عرفته شمال افريقية ، كما عرفته بلدان أخرى في عصر ما قبل التاريخ . (20)

وان سماتهم الخلقية واهمها الشعر ، بروز الانف وسواد العيون واعتدال القامة لا تخرج عن تلك التي تتميز بها مجموعة سكان حوض البحر الابيض المتوسط ، وجنوب غرب آسيا .

ولقد انضافت اليهم في أزمنة لاحقة ، وعن طريق الهجرات التي انطلقت عبر الصحراء أو البحر ، بواسطة المنافذ المؤدية الى شمال افريقية وهي باب المندب وبرزخ السويس ، ومضيق جبل طارق ، عناصر أخرى وموجات بشرية بعضها من السلالة السامية والبعض الآخر ينتمي الى السلالة الحامية وبذلك نصل الى حقيقة أن البربر قدماء في بلادهم وفدت عليهم من الخارج عناصر مهاجرة ، وامتزجوا بهم عن طريق التزاوج فأصبح السكان في المنطقة خليطا (21) .

ويلاحظ أن ظاهرة اختلاط الاجناس هي السمة العامة في سائر البلدان اذ النقاء في الجنس البشري ، سواء في العالم القديم أو الحديث لا وجود له تقريبا ، مع وجود المصاهرة والجوار وتدفق سيل الهجرات في موجات بشرية مستمرة وابن خلدون رغم أنه غرق في بحر من الروايات المتناقضة ، وانساق وراء النقول المختلفة ، ولم يستخدم ما قرره في المقدمة من ضرورة التمحيص والنقد ، نلمس عنده اتجاها لرفض فكرة الهجرة خاصة منها هجرة البربر من الشام أو من اليمن ويعني هذا أنه يميل بقوة الى تأييد فكرة أصالة السكان في منطقتهم وذلك نلحظه من خلال نصوص كثيرة نكتفي منها بقوله في معرض اقامة الدليل على رفض فكرة الهجرة « لأن مثل هذه الامة المشتملة على أمم وعوالم ملات جوانب الارض لا تكون منتقلة من جانب آخر وقطر محصور ولأن البربر معروفون في بلادهم وأقاليمهم ، متميزون بشعارهم من الامم منذ الاحقاب المتطاولة قبل الاسلام » .

---

20 - شارل اندريه جوليان : تاريخ شمال افريقية 1 ، 67 - 68 ترجمة عربية بعناية محمد مزالي وابن سلامة تونس 1969 .

21 - دوزي : تاريخ مسلمي اسبانيا 1 ، 140 - 141 انظر هامش 6 الذي يوضح تشابه العرب والبربر في الطباع وقد ترجم الكتاب حسن حبشي ، ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية 1 ، 226 ابن منصور المرجع السابق 1 ، 267 - 268 شارل جوليان : المرجع السابق 1 ، 166 وما بعدها : حليمي عبد القادر جغرافية الجزائر 123 وما بعدها :

E.F. GAUTIER : Le passé de l'Afrique du Nord. P. 41-42.
A. LAROUI : L'histoire de Maghreb. P. 21, S99.

وفى مناسبة أخرى يستهل حديثه عن البربر بقوله « ان هذا الجيل من الآدميين هم سكان المغرب منذ القديم » .

وفى معرض حديثه عن زناتة يذكر انها كغيرها من البربر فى مضاربها « منذ أحقاب متطاولة لا يعلم بدءها الا الله » . (22)

ويؤكد هذا المعنى بوضوح فى قوله : « لم تزل بلاد المغرب الى طرابلس بل الى الاسكندرية عامرة بهذا الجيل منذ أزمنة لا يعرف أولها ولا ما قبلها » (23) .

ثم نلاحظ انه عندما يستبعد فكرة الهجرة الحميرية وينفي النسبة السامية عن البربر ، ينتهي الى رأي يعتبره الحق ، والصواب وفحواه انهم أبناء مازيغ بن كنعان وهم ذوو رحم مع الفلسطينيين ، لذلك انتصروا لهم ضد جموع بني اسرائيل فى الحروب التي نشبت بين الطرفين (24) .

وابن خلدون لم يمنعه رفضه لفكرة الهجرة الخارجية من رواية بعض آراء النسابة المسلمين التي تنسب بعض قبائل المنطقة الى أصل حميري ، أو مضري وانما ساق الرواية فى كتابه ، لكي يدحضها ، ويؤكد أن جميع قبائل المنطقة بحكم لهجاتها المتشابهة ومضاربها المتقاربة تجمعها وحدة الاصل وتقارب الطباع ، وهي أقرب الشعوب الى العرب ، فى انماط الحياة الاجتماعية وفى وجوه الكسب وغيرها (25) .

والذي يبدو لي أن رفض ابن خلدون لمبدأ الهجرة غير سليم لأن المنطقة كانت مفتوحة على ثلاث قارات ، والقول بأن هذه القبيلة أو تلك تنتمي الى هذا الصقع أو ذاك ، انما يعبر على تأييد فكرة الهجرة ، غير أن وجود بعض الفوارق الاجتماعية ، بين قبائل المنطقة التي تبرز أحيانا بشكل واضح هي التي دفعت البعض لاستنتاج انها ناشئة فعلا عن فارق سلالي ،

---

22 ـ ابن خلدون : المصدر السابق ، 2 ، 8 (ط دوسلان) يرى جوتيه أنظهور زناتة مرتبط بظهور الجمل فى الصحراء ، وزناتة هم سكان الواحات ويرى انهم كانوا متاثرين باليهودية : الصحراء 123 ـ 124 .

23 ـ نفسه : 1 ، 131 .

24 ـ نفسه : 1 ، 117 ، مفاخر البربر (لمجهول) 68 وهنا يذكر صاحب المفاخر ان مازيغ اسم بلدة داخلية فى منطقة الاطلس المتوسط ومثلها ايمازيغن لكنها تقع على الساحل ، سعد زغلول : المرجع السابق 26 .

25 ـ نفسه .

ولا ننسى أن تفوق بعض النزعات القبلية فى الميدان السياسي مدعاة لانجذاب بعض القوم اليها فينتحلون نسبها او يرتبطون معها برابطة الحلف والولاء .

وقد لا يبدو مستبعدا ان شعورا بالنقص فى وقت ما هو الذي حمل بعض نسابة البربر على انتحال انساب غيرهم حتى يمحوا عن انفسهم ذل المغلوب ولينعموا بممارسة الحياة السياسية الجديدة على قدم المساواة مع العرب الفاتحين (26) .

ويذهب بعض الباحثين المحدثين من المغاربة مذهبا خاصا فى أصل البربر يتمثل فى ان منطقة شمال افريقية خلال تاريخها الطويل قد داهمتها موجات من الهجرات البشرية من جهات مختلفة استطاعت هذه العناصر المهاجرة أن تمكن لنفسها فى مهجرها الجديد وتختلط وتتكامل وتندمج مع مجموعة السكان السابقين بحكم رابطتي الجوار والمصاهرة والحياة المشتركة فى بيئة واحدة . وبطول المدة تكون من هؤلاء وأولئك شعب ذو ميزات خاصة (27) .

وهذا الراي فضلا عن كونه يؤكد فكرة الهجرة ولا ينفي النسب العربي عن بعض قبائل البربر هو أقرب الآراء لفكرة مالك بن المرحل التوفيقية .

* * *

لم يهتم الحكام الذين توالو على شمال افريقية قبل الاسلام بالمنطقة ولا بسكانها الا بقدر ما يحفظ السكينة ، ويضبط الامن فى الداخل ويجعل الجباية مستمرة وطريق التجارة والتموين آمنا غير مخوف لا فرق فى ذلك بين القرطاجيين وبين الرومان والوندال والروم . فأغلبهم كان غريبا عن المجتمع الذي فرض نفسه حاكما عليه ، فلم يفهم انماط حياته ولا حاول أن يختلط او يرتبط بسبب من الاسباب به بل أن الحكام الاجانب بقي أكثرهم فى اغلب الاحيان قابعين فى المراكز والمدن الساحلية أو متمركزين فى معسكرات محصنة معزولة عن الداخل ، لا يتسرب اليها شيء ، من سكان داخل البلاد اذا استثنينا غارات الهدم والنهب والترويع التي كانت تستهدف لها هذه المعسكرات :

وهكذا بقي الحاجز قائما وتبادل التأثير ضعيفا ، بين سكان البلاد وحكامهم الفينقيين والرومان والبيزنطيين ، ولهذا لم نلحظ وجود تقسيمات للبلاد وسكانها حسب اعتبارات اجتماعية او ثقافية ، لان

---

26 — ابن خلدون : المصدر السابق 1 ، 127 . حسن محمود : قيام دولة المرابطين 37 .
27 — ابن منصور : الرجع السابق 1 ، 260 ، 279 .

ذلك لا يهمهم بقدر ما يهمهم تقسيمها الى مناطق ووحدات ادارية تكبر أو تصغر حسب الحاجة وحسب الظروف ، ومن ثم وجدنا أسماء كثيرة تعتبر من نتاج هذه العصور ، وتدل على جهات معينة من بلاد المغرب فافريقية ونوميديا وموريطانيا وجيتوليا كلها تعبر على نطاقات جغرافية غير قارة اذ سرعان ما تقسم كل منها الى أجزاء صغيرة « وتفتت الى وحدات صغرى ويخترع لكل منها اسم يميزه اداريا عن غيره ، وهكذا وجدنا افريقية القديمة بجانب افريقية الجديدة ونوميديا الشرقية بجانب الغربية والجديدة والعسكرية ثم موريطانيا وهي طنجية وقيصرية وسطيفية هكذا الى أقسام أخرى وجدت فى ظروف معينة وروعى فى التقسيم دائما تسهيل الامر على الجباة وعلى الجنود والتفريق بين ما هو مخلص للنظام وما هو دائب الثورة عليه .

ويعتبر جهل الشعوب الحاكمة ، بالحياة القبلية لبعدها عن البداوة ثم عدم توغل حكامها فى داخل البلاد ، وترفعهم عن السكان استعلاء ، واعتبارهم بربرا دون ــ تمييز ، أو محاولة جدية لتفهم أسلوب حياتهم ولهجاتهم وعاداتهم ورفض الاختلاط بهم أو معاملتهم على قدم المساواة والاعتراض عن قبولهم فى الفرق الرومانية تعتبر هذه من العوامل التي نفرت السكان من الحكام الاجانب وبالتالي قضت على حكمهم بالفشل بعد أن صار السكان فى أغلبهم البا واحدا ضدهم .

ويعتبر العرب المسلمون انجح حكام عرفتهم البلاد ، وأكثرهم استفادة من أخطاء الذين تواردوا على هذه المنطقة .

فالي جانب الف المسلمين للحياة البدوية وللحياة المستقرة فى بيئتهم الاصيلة وهو أمر سهل عليهم فهم حياة السكان . نلاحظ انهم الوحيدون الذين استطاعوا أن ــ يتوغلوا بنفوذهم السياسي والروحي الى أعماق البلاد وبالاعتماد على مخالطة السكان وفهم حياتهم وتقاليدهم تمكنوا من تكوين تجمع جديد على نهج جديد ، فالعرب المسلمون لم يأنفوا من مصاهرة السكان ، أو من قبول ولائهم أو التحالف معهم بل ساروا شوطا بعيدا ، فى التمهيد لاندماج العنصرين فى تكتل جديد . وقد نجحوا فى ذلك ايما نجاح لأن أهدافهم لم تكن مادية ومبادئهم لم تكن معقدة ، وانما كان همهم الوحيد نشر لواء الاسلام واللغة العربية وأحلال السلام العربي فى أرض كان يسودها التمزق والاضطراب فى ظل السلام الروماني . وقد أهمل المسلمون أغلب التقسيمات والاسماء الادارية القديمة ، وأوجدوا تقسيما لم يراعوا فيه غير اعتبار واحد هو قرب المنطقة أو بعدها عن مركز الفتوح فى مصر ، أو عن قاعدتي الخلافة الاسلامية فى دمشق وفى بغداد .

ومن ثم حل محل الاسماء الكثيرة التي شاعت فى العهود الوثنية مصطلحات اسلامية قليلة هي المغرب الادنى أو افريقية والمغرب الاوسط أو الواسطة والمغرب الاقصى (28) .

* * *

وظهر العرب المسلمون لأول مرة بتقسيم اجتماعي فريد لسكان بلاد المغرب لم يكن معروفا قبلهم ، ذلك هو تقسيمهم الى مجموعتين كبيرتين تسمى احداهما :

مجموعة البرانس أو حلف البرانس ، وتسمى الاخرى :

مجموعة البتر ، أو حلف البتر .

ومازال الباحثون فى حيرة من أمر هذا التقسيم (29) واشتد اختلافهم حول الاساس الذي لوحظ اعتباره فى هذا التقسيم .

وقد اتسعت الافتراضات وتشعبت الآراء حول هذا التقسيم البدائي لسكان المغرب ، فهل أن أساس التقسيم هوملاحظة اختلاف أساليب الحياة الاجتماعية بين مجموعتين كبيرتين من السكان ، وهنا يلاحظ أن اغلب قبائل البتر (30) تعيش وفق انماط وأساليب المجتمع البدوي من النقلة لانتجاع الماء والكلا ، وسكنى الخيام ، وامتلاك النوق والجمال والميل الى قطع السابلة والاغارة على مراكز الاستقرار والعمران والاعتصام بالصحراء ، أو بالاماكن النائية عن مراكز السلطة السياسية فى قنن الجبال أو فوق الهضاب والتلول .

---

28 ـ الزياني : المصدر السابق 148 ، وفيه اشارة لاسم الواسطة علما جديدا على المغرب الاوسط ، حسن محمود ، المرجع السابق 28 ابن منصور : المرجع السابق 1 ، 292 ، سعد زغلول : المرجع السابق 9 ـ 12 .

29 ـ ابن خلدون المصدر السابق 1 ، 107 (ط دوسلان) ابن حزم المصدر السابق 461 ابن عذاري : البيان المغرب فى اخبار المغرب 1 ، 73 ط المناهل بيروت المفاخر (لمجهول) 64 ، سعد زغلول : المرجع السابق 30 ، (نقلا عن ابن خلدون)
E.F. Gautier op. cit. p. 227 Sqq. Julien His. de l'Afrique du Nord T. p. 22. Nomades
ويلاحظ ان البرانس تعني المستقرين Sédentaires والبتر تعني البدو

30 ـ لاحظ بعض الباحثين ان كلمة بتر ربما اشتقت من الكلمة اليونانية بوتروس Botros وتعني الرعاة والبدو وهم اهل الوبر فى راى ابن خلدون انظر : نور الدين عبد القادر المرجع السابق 35 .
E.F. GAUTIER : Op. cit. P. 229.

وبعكس البتر ، البرانس (31) ، فأغلبهم مستقرون فى القرى الساحلية أو التلية ومنتشرون فى السهول للفلاحة وللغراسة ويحترفون سائر المهن التي اعتاد ممارستها المستقرون ومنها مزاولة النشاط التجاري والصناعي . والبرانس بحكم استقرارهم هم قريبون من مراكز السلطة السياسية ومن ثم فهم يتأثرون بكل ما يطرأ على البلاد من هجرات وثقافات وحروب .

وهنا نلاحظ أن سمة البداوة كما تبدو وحيدة بالنسبة لبعض فروع البتر من زناتة كبني خزر من مغراوة وتوجين ، بحيث لا تترك مجالا لغيرها من السمات ، كذلك سمة الاستقرار بالنسبة لبعض فروع البرانس مثل كتامة وزواوة وصنهاجة الشمال ، فلم يحدث أن فرعا من كتامة أو زواوة سلك سبيل البداوة أو عرف بذلك أو أشير اليه فى ماضي حياته كما لم يحدث نأ استقر بنو توجين أو بنو عبد الواد ، أو بعض فروع مغراوة فى غير الصحراء وحتى عندما تمكن بعض هؤلاء من تأسيس ملك وراثي حول عاصمة سياسية بقيت صفة البداوة غالبة عليهم ، وبيئة الصحراء تجذبهم ، ومواشيهم وانعامهم وخيولهم هي خير ما يملكون .

ويرد على هذا الاعتبار الاجتماعي للتقسيم جملة ملاحظات منها :

أن العرب المسلمين لم تجر عادتهم فى مثل هذه الحالات بملاحظة الأسس الاجتماعية سواء فى تصنيفهم لأنفسهم أو لغيرهم من الشعوب .

ثم أن ظاهرتي النقلة ، والاستقرار بالنسبة لقبائل البربر ، مسألة نسبية ، قد تكثر هنا ، وتقل هناك حسب الظروف .

وقد اشتهرت بعض قبائل البتر بالحياة المستقرة للزراعة واحتراف مهن المستقرين مثل قبيلة كومية بفروعها الثلاثة ندرومة وصعارة وبني يلول ، وتعرف كوميه بصطفوره أيضا ومضاربها حول جبال ترارة الواقعة على سيف البحر شمال غربي تلمسان وارشقول وعلى ساحل هنين . وكومية هي قبيلة عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين وهانيء بن مصدور النسابة المشهور (32) .

---

31 ـ يرى بعض الباحثين أن برانس ، ربما كانت من كلمة برانوس اليونانية (Baranos) ومعناها المستقرون او اهل المدر فى مصطلح المؤرخين المسلمين ـ نفس المرجع السابق والصفحة :

E.F. Gautier Op. Cit. P. 236 sqq. Hady Roger Idris : la Berberie Orientale sous les Zirides 1, p. 4.

32 ـ البكري : المغرب فى وصف بلاد افريقية والمغرب 80 ط دوسلان ، ابن خلدون المصدر السابق 1 ، 150 ط دوسلان ، حسن محمود : المرجع السابق 30 ، ابن منصور المرجع السابق 1 ، 309 ، سعد زغلول عبد الحميد المرجع السابق 32 .

وقبيلة جراوة أيضا ، اشتهرت بمضاربها فى كتلة الاوراس ، وهي قبيلة الكاهنة التي أسست فى ظل زعامتها نظاما سياسيا قبليا وقف يدافع عن البلاد ضد التيار العربي الاسلامي .

وكانت نفوسة ايضا معروفة بمضاربها فى اقليم طرابلس واليها ينسب الجبل الذي يقع جنوب مدينة طرابلس (33) .

هذا بينما عرفت بمظاهر الحياة البدوية النقية بعض قبائل البرانس ، مثال صنهاجة الجنوب ، وهم أهل اللثام ، ومنهم مسوفة ولمتونة ، وجزولة وجدالة ، رعاة الابل والمهاري الذين عرفوا بالاباله ، وبالرعاة الكبار تمييزا لهم عن رعاة الغنم والمعزى الذين اختصوا بلقب الرعاة الصغار (34) .

وقد بقيت فروع صنهاجة الجنوب يضربون فى قلب الصحراء المغربية حتى القرن الخامس للهجرة . عندما تأسس لهم ملك وراثي فى المغرب والاندلس ، على انقاض حكم مغراوة ، وغيرها من فروع زناتة .

ومما له علاقة بهذا الاساس الاجتماعي فى تقسيم البربر ، مالاحظه بعض الباحثين من أن السبب فى التسمية ربما يعود الى المظهر الخارجي .

فالبرانس يشتمل لباسهم الخارجي على غطاء للرأس ذي شكل مخروطي، مازال يستعمل حتى الآن فى الثوب المعروف فى بلاد المغرب بالبرنس ، والقشابة أو الجلابة أما البتر فسموا بذلك لأن لباسهم الخارجي لا يشتمل على هذه الاضافة التي تغطي الرأس ، ويكاد يشبهه فى وقتنا لباس سكان جزيرة جربة ، والساحل التونسي المعروف محليا بالكدرون . واذا فقد ميز فرع البتر عن فرع البرانس كما ميزت خطبة زياد ابن أبيه بين الخطب المشهورة فعرفت بالبتراء .

ويلاحظ أن هذا الاعتبار مردود لسببين :

أولهما ان قبائل صنهاجة الجنوب من فروع البرانس قطعا ، ومع ذلك فهم لا يلبسون البرنس ولم يثبت انهم لبسوه فى يوم ما ثم هجروه الى غيره ، كما انه يصعب ايجاد علاقة ما بين غطاء الرأس فى البرنس ، وبين اللثام عند قبائل صنهاجة الجنوب .

---

33 ـ ابن خلدون المصدر السابق 1 ، 143 وما بعدها . ابن منصور المرجع السابق 1 ، 308 .
E.F., Gautier Op. Cit. p. 225.

34 ـ سعد زغلول عبد الحميد الرجع السابق 33 ، ابن منصور المرجع 1 ـ 293 ، حسن محمود نفس المرجع السابق والصفحة . Marcais : La Berbérie Musulmane et L'Orient au Moyen Age. P. 36.

ثم ان البرنس فى وقتنا هو سمة للفروسية ، ولباس للفرسان المحليين وهؤلاء أغلبهم من البتر ، ومن يتخذونه لباسا اليوم انما هم أولئك الذين ينسبون بأصولهم الى فرع البتر ، وأخصهم فروع زناتة مثل بني يفرن فى وقتنا .

هذا بينما نلاحظ أن بعض فروع البرانس مثل كتامة وزواوة لا يلبسون البرنس الا نادرا بينما يداومون على لباس القشابة (35) .

وقد افترض بعض الباحثين المحدثين أن يكون أساس التقسيم ثقافيا ولغويا (36) على اعتبار أن البرانس بحكم استقرارهم تاثروا بالمؤثرات الاجنبية ، وتميزوا بلهجات خاصة ، لا تخلو من تأثير خارجي ، واخذوا بمظاهر الحضارات القديمة ، التي عرفها المغرب سواء كانت سامية أو آريه ، الامر الذي لاحظه الجغرافيون ، والرحالة المسلمون ومنهم اليعقوبي الذي اشار الى « أن البرانس أصحاب عمارة وزرع وضرع » (37) ، هذا بخلاف أغلب البتر الذين لم يتأثروا بالتيارات الاجنبية بحكم البداوة والعزلة ، وعدم الاستقرار ، وتجافيهم عن سكنى المدن والامصار ، بدعوى انها تؤثر على طباعهم ، وتقاليدهم القائمة على أساسين : العصبية والمحافظة على الانساب . ومن ثم بقوا بمنأى عن كل دخيل واحتفظت لهجاتهم بأصالتها ونقائها .

أما ابن خلدون (38) فيفهم من كلامه عن فرعى البربر ، أن الفارق بين الفرعين سلالي عرقي ، ودواعي ذلك فيما يبدو لي ، انه عبر بالجـذم ، وهو الاصل النسبي الجامع ، واطلق كلمة الشعوب بازاء كل جذم . ثم حكى اتفاق النسابة على نسبة البربر الى جذمين عظيمين ، يختلفـان فى الاب المباشر ، لكنهما يرجعان فى النهاية الى أصل واحد ، فأحد الأبوين يسمى مادغيس الابتر ، ومنه اشتق اسم سلالته فعرفوا بالبتر ، أما الأب الثاني فهو برنس ، ومن اسمه اشتق اسم أبنائه فعرفوا بالبرانس .

---

35 — E.F., Gautier Op. Cit. P. 241-42
ويلاحظ ان هذا التقسيم ربما يرقى الى القرن 8 م ، ان اصله سيظل غامضا . سعد زغلول عبد الحميد الرجع السابق 34 — 35 ابن منصور : المرجع السابق 1 ، 294 .

36 — حسن محمود : المرجع السابق 30 ، ابن منصور المرجع السابق 1 ، 293 .

37 — البلدان : 352 ، مجلد 7 من المكتبة الجغرافية ليدن . ونشير هنا الى ان ابن خلدون يعبر عن هذه المعاني ، عندما يصف المستقرين بانهم عبيد للجباية وخول للدول ، ومستضعفون أيضا .

38 — المصدر السابق 1 ، 107 وما بعدها (ط دوسلان) :
H.R. Idris : Op. Cit., T. 1, p. 4-5.

ويؤكد وجود فكرة الفارق السلالي فى نظري عدة اعتبارات منها :

أ ــ اعتقاد نسابة البربر وهم اعرف بأحوال أمتهم ــ أن البرانس هم ابناء مازيغ بن كنعان أما البتر فهم فى نظرهم ، مضريون من قبيلة قيس بن عيلان (39) .

ب ــ وقد مال بعض النسابة والمؤرخين للقول بأن بعض قبائل المغرب ، من سلالة عرب الجنوب ، أي من حمير ، أو من كندة .

جـ ــ واشعار بعض الرحالة المغاربة الى أن بعض قبائل المغرب واهمها زناتة ، انما شاعت بينهم لهجة زناتية غير عربية ، وتبربروا بسبب طول المجاورة للسكان الاقدمين وقد كان نسبهم فى الاول عربيا صريحا (40) .

د ــ ولاحظ بعض الباحثين المحدثين أن مظاهر التقسيم بين البربر ، الى برانس وبتر ، باقية فى كل قرية من قرى الطوارق ، وان بين المتساكنين فى كل قرية احساس بالبغض المتبادل ربما على اعتبار ملاحظة اختلاف الفريقين فى العرق وفى السلالة الجنسية ويغذي ظاهرة التباعد نظام الطبقات الذي هو سمة بلاد الطوارق ثم الشعور بالاصالة عند أحد الفريقين (41) .

هـ ــ والواقع أن الظاهرة الاخيرة ، وهي التنافر ، ملحوظة نسبيا حتى فى غير بيئة الطوارق ، فعدم الانسجام بين أحفاد البتر : الشاوية مثلا وأحفاد البرانس قبائل جرجرة مثلا ، الذي يزيده قوة عدم تفاهمهما فى الناحية اللغوية واختلافهما فى الطباع وفى وجوه الكسب أمر لا يغيب عمن يهتم بهذه النواحي فى بلاد المغرب الاوسط .

---

39 ــ ابن حزم : المصدر السابق 232 ، وما بعدها لا يذكر هذا النسابة من ابناء عيلان ابن مضر ابنا اسمه بتر وانظر 461 منه حيث يعلق على هذه الفكرة بالنفي كما يرد قصة الهجرة الحميرية بقوله (وما علم النسابون لقيس عيلان ابنا اسمه بتر اصلا ولا كان لحمير طريق الى بلاد البربر الا فى تكاذيب مؤرخي اليمن) .

40 ــ الادريسي : وصف افريقية الشمالية والصحراوية ، 61 ابن عذاري المصدر السابق 1 ، 283 ، ويلاحظ أن النسبة الى حمير يعترف بها ملوك بني زيري ويعتزون بها كما فعل المنصور وانظر أيضا 243 منه ، كما أن قبائل زواوة فى عصرنا تفتخر بالنسب الحميري ، ابن خلدون المصدر 2 ، 4 .

41 ــ عبد الجليل الطاهر : المجتمع الليبي 91 ــ 92 ، 106 جوتيه : الصحراء 81 ــ 82 ، حسن محمود المرجع السابق 30 ــ 31 الاروائي : السعادة الابدية ورقة 9 ــ 10 ويؤكد النسبة الحميرية للطوارق .

و ـ ويخيل الى ان احساس بعض القوم بأصالتهم فى المنطقة دون سواهم ، ووجود التناقض الداخلي ضمن القبيلة الواحدة احيانا ، بادعاء بعض فروعها التفوق أو الشرافة ، يعتبر أثرا من آثار التقسيم التقليدي ، لمجتمع البربر حسب الرواية العربية وينبغي بعد ان ناقشنا التقسيم وما قيل حوله أن نلاحظ :

ان التقسيم منسوب للمؤرخين والنسابة المسلمين ، ولم تجر عادتهم فى مثل هذه الحالات كما أشرنا أن يلاحظوا غير اعتبار الفارق السلالي . وقضية الاصل الواحد أو الأب الواحد تلعب دورا كبيرا فى الانساب العربية وتؤثر على علاقات القبائل العربية ببعضها سواء فى أرض الجزيرة أو فى خارجها . فاذا قال النسابة هؤلاء برانس ، فالمعنى أنهم ينسبون الى أصل قديم هو برنس ، واذا قالوا : البتر ، فالمعنى واضح ايضا .

ولم يخرج النسابة العرب المسلمون عن هذا الاعتبار فى تقسيمهم للعرب الى جذمى عدنان وقحطان ، فكيف يسلكون طريقا غير هذا بالنسبة لسكان بلاد المغرب ؟

هذا مع ملاحظة أن اغلب قبائل فرع قحطان مستقرة ومتحضرة ومتفتحة على المؤثرات الاجنبية مثل فرع البرانس ، وتفصلها عن قبائل فرع عدنان اللغة واللهجات المتفرعة عن هذه القبائل ومع ذلك لم يراع نسابة العرب غير تسلسل قبائل هذا الفرع ، ورجوعها الى أصل واحد جامع ، هو يعرب ابن قحطان ، نظير الفرع الآخر الذي تتصل قبائله فى سلسلة نسبية حتى تنتهي الى معد بن عدنان والفرعان معا يشتركان فى بنوة سام بن نوح .

وتتسلسل قبائل فرعى البتر والبرانس أيضا وينتهي الفرعان معا الى بر بن مازيغ . والفرعان معا يشتركان أيضا فى بنوة حام بن نوح على أرجح الاقوال .

ـ ثم ان ما انتهى اليه بعض الباحثين حول تفسير الاساس الاجتماعي للتقسيم مقبول فى الجملة ، لأنه موجود فعلا وانبنى التفسير على ملاحظات واقعية انما يلاحظ قصور بعض الآراء عن تصوير الحقيقة كاملة فمثلا ، ينفي بعض الباحثين وجود علاقة بين غطاء الراس واللثام مع ان المقصود بالوقاية هو الراس كلا أو بعضا ، كما يمكن اعتبار اللثام غطاء مختصرا قصر على الفم ، لأهميته واكتفى القوم بالنسبة للراس بثنيات من القماش

حوله منفصلة عن اللثام أو متصلة مما هو مشاهد فى عصرنا الآن بين رجال الطوارق (42) .

ـ وفيما يتصل بقضية التأثر بالمؤثرات الأجنبية بالنسبة لفرع البرانس ، وعدمه بالنسبة لفرع البتر .

نلاحظ أن العرب المسلمين لا يعتبرون ذلك حسب عاداتهم ، هذا بالاضافة الى أن هناك من قبائل البتر من لم يسلم من التأثر بالتيارات الاجنبية السياسية والفكرية ولدينا مثال من واقع قبيلة نفوسة البترية التي رأيناها تقف ضد التيار العربي الاسلامي لأول الفتح وتذهب بمجموعها نجدة لمدينة طرابلس التي حاصرها العرب وضيقوا الحصار على سكانها وكانوا ينتمون الى مختلف جنسيات وتجار اقليم البحر الابيض المتوسط . والسبب فى ذلك فيما يبدو انها حسب رواية بعض المؤرخين المسلمين كانت نصرانية ولا يستبعد أن تكون لها مصالح وعلاقات خاصة مع بعض جاليات المدينة من الروم والافارقة ونص عبارة ابن عذارى (وتوجـه « أي عمر » الى طرابلس فافتتحها ، بعد ما استغاث أهلها بقبيل من البربر يقال لهم نفوسه ، اذ كانوا دخلوا معهم فى دين النصرانية) (43) .

ثم هناك مثالا آخر من واقع قبيلة جراوة البترية التي قيل انها كانت يهودية ، وكان لكبيرة الاقطاعيين فى منطقتها وهي الكاهنة ، علاقات قوية مع الروم والافارقة حتى قيل أن أحد ابنيها كان روميا . وقد فسر جوليان حدة مقاومتها لحسان بن النعمان ، على أساسين : العصبية القومية ، والدين اليهودي (44) .

ونلاحظ أن بعض فروع البرانس ، ومنها صنهاجة الجنوب ، عاشوا فى عزلة تكاد تكون تامة عما يجري حولهم أو بعيدا عنهم من تطورات وأحداث الا مع بعض قبائل السودان الغربي .

واحتفظوا بأنقى صور البداوة فلم يعرفوا فى المعاش غير الحليب والقديد والتمر هذا بينما كانت فروع من البتر خاصة من زناتة يعيشون حيـاة مستقرة مترفة فى جهات من المغرب والأندلس .

---

42 ـ يشير جوتيه : الصحراء 182 ، الى أن اللثام عند الطوارق لا صلة له بالصحة العامة وانما يستعمل ليحول دون خرافة اتصال الارواح الشريرة بنفوسهم عن طريق الفم ، والانف .

43 ـ البيان المغرب 1 ، 1 ط المناهل بيروت .

44 ـ نفسه 1 ، 37 . الرقيق القيرواني : قطعـة من تاريخ افريقية والمغـرب 58 ، Ch. A. Julien : Op. Cit. T. 2 P. 21., E.F. Gautier Op. Cit. P. 225.
ويلاحظ تقارب اسمها مع اسم كوهين .

وهكذا يستخلص الباحث من هذه الأمثلة ان قضية التأثر ، نسبية وغير ملحوظة فى تصور النسابة المسلمين ، خصوصا بعد أن دان البربر برانس وبتر بالاسلام وأخذوا بمظاهر الحياة العربية وبشعارات العرب .

ولو سرنا مع القائلين بغير الاعتبار النسبي فى التقسيم لأمكن ان نقول :

ان العرب المسلمين فى تقسيمهم للمجتمع البربري ، يكونون قد ميزوا بين نوعين من السكان احدهما تعاون معهم ولم يستمر فى عناده بعد أن ثبتت الحجة عليه ، والآخر قاوم وعاند أو نافق بعد أخذه بالاسلام واستمر فى نهجه المعادي حتى تم اخضاعه ، وتمت الغلبة على من يحركه فى المنطقة .

وهنا نشير الى أن اغلب البرانس لسبب أو لآخر كان هواهم ضد العرب المسلمين . وعلى نقيضهم ، وربما اغاضة لهم مالأ البتر العرب ، وناصروهم وتكاملوا معهم واخذوا بلغتهم وبمذهبهم وشعاراتهم . ومن ثم اصبح الاستعراب فى بيئتهم اكمل منه فى بيئة البرانس .

وقد ثار البرانس لأنفسهم من البتر عندما سبقوهم للاخذ بناصر الحركة العلوية الادريسية . ثم الحركة الاسماعيلية الفاطمية بحيث لم يبق امام البتر غير التوجه شطر الأندلس الأموية لربط أواصر الصلة معها . وهكذا استمر السباق والعداء وانقلب الى معارك حامية سقط فيها من الفريقين خلق كثير ، وانقلبت بسببها الوضعية واصبحت المنطقة نارا .

وليس من البعيد فى نظري ـ أن يكون الاختلاف فى اللهجات بين الفرعين اساسا فى التقسيم وفيما يوجد حتى الآن من تنافر وتباغض ربما يرقى الى عصور قديمة .

وهكذا فاللهجات الزناتية التي يتفاهم بها فى وقتنا من أحفاد البتر : الشاوية وبنو ميزاب . والشعانبة وبعض سكان جبال الونشريس تختلف عن تلك التي يتخاطب بها سكان جرجرة من زواوة والطوارق ، وشلوح المغرب الأقصى وهم من أحفاد البرانس .

وهذا الاختلاف اللغوي الى جانب الاختلاف فى المنهج السياسي وفى فلسفة الحياة الاجتماعية ، وهي العقبات الكبرى التي حالت دون ظهور وحدة قومية فى المنطقة ، فترك الباب مفتوحا لكل من يريد الكيد والتآمر او استخدام فريق دون فريق لتحقيق اغراضه . والا فاي تفسير معقول لانصياع اغلب البرانس وراء صنهاجة وكتامة للشيعة الفاطميين وخدمتهم اغراضهم فى بلاد المغرب وفى خارجها ضد اقربائهم وجيرانهم حتى كان

بلكين زيرى يقول « لا امان عندي لبربري ركب فرسا او نتج خيلا أبدا حيثما سلك من البلاد . » (45)

وما هو التفسير المقبول لاستجابة قبائل زناتة البترية ، لداعي الامويين فى الاندلس أثناء صراعهم على مناطق النفوذ فى بلاد المغرب ، مع الشيعة الفاطميين واشهارهم الحرب ضد صنهاجة وكتامة من البرانس ؟ وقد بلغ بهم العداء والتشفي من صنهاجة انهم لم يكتفوا بقتل أميرها زيري بن مناد فى احدى المعارك الكبرى ، بل احتزوا رأسه وحمله وفد منهم الى قرطبة الاموية كي يرضوا كبرياء مستخدميهم وحلفائهم المزيفين (46) .

* * *

ومهما يكن من أمر طبيعة هذا التقسيم ، والاعتبارات التي لوحظت فيه فان حلف البرانس (47) فى هذه المجموعة البشرية الكبرى هم السكان الذين يتفق النسابة العرب والبربر على اعتبارهم من ابناء برنس بن بربن مازيغ بن كنعان بن حام .

ومن ثم فكل ما يدور من افتراضات حول احتمال اصالة البربر او عدم اصالتهم فى المنطقة فى نظر هؤلاء النسابة ، انما يقصدون به هم وحدهم دون مجموعة احلاف البتر ، الذين اقصاهم نسابة البربر عنهم وجعلوهم مضريين شماليين من قيس عيلان ، هذا بصرف النظر عما قيل حول أصل هذه القبيلة أو تلك . ويبدو أن القول بأصالة بعضهم فى المنطقة أمر مقبول مبدئيا ، لأنه لا يتعارض مع طبائع العمران ، بل هو التفسير القريب بسبب كثرتهم وتوزعهم فى المنطقة على نحو عجيب بحيث لم يقتصر وجودهم على المناطق الساحلية أو الهضبية أو التليه القريبة منها ، بل توغلوا فى داخل البلاد ، وانساحوا فى السهول وفى الصحاري .

وقد اشتهروا بقراهم وبمراكزهم المزدهرة هناك ، حتى توهم بعض المؤرخين انهم وحدهم يبلغون ثلثي البربر جميعا ، وهذا فقط للاشعار بكثرتهم الساحقة ووجودهم فى كل مكان .

وهذا الأمر افصح عنه ابن خلدون نفسه عندما سجل عن هذه المجموعة فى عصره « بأنهم كانوا على عهده ، من أوفر قبائل البربر ، وأكثر أهل المغرب ، فلا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم فى جبل أو بسيط ، حتى

---

45 ــ مفاخر البربر (لمجهول) 4 .

46 ــ ابن خلدون : المصدر السابق 1 ، 196 وما بعدها .

47 ــ كلمة البرانس بقيت علما على مكانين أحدهما شمال تازة ، وثانيهما فى ناحية بسكرة بينما اختفت كلمة البتر .

زعم كثير من الناس انهم الثلثان من البربر وكان لهم فى الحروب ذكر ، وفى الخروج على الأمر شأن . (48)

ويمتاز فرع البرانس فضلا عن الكثرة وسعـة الانتشار ، بالاستقرار للزراعة والعناية بالفراسة . ولقد جادت الطبيعة عليهم بتربة طيبة ، وأرض صالحة وامطار وفيرة ، وساعدهم تنوع بيئتهم ، وقربهم من السواحل على الاهتمام بغير الزراعة والغراسة وتربية الفصائل الجيدة مـن المواشي ، واشتهروا أيضا بالغنى وبالثروة الطائلة ، وبرقي المستوى الحضاري نتيجة مواردهم الداخلية ومصادر الدخل الخارجية من الاسهام فى حركة التجارة مع غيرهم .

ولقد اخذوا قسطا معتبرا من الثقافة وتأثروا ببعض ما شاهدوه عند المستقرين المجاورين لهم من الأجانب والطارئين أيضا . ومن ثم نمت الروح القومية عندهم فى وقت مبكر ، وظهرت نزعتهم فى حب الأرض ، والارتباط بها والدفاع عنها ضد كل طارىء جديد ، لا غرابة فقد قاسى منهم العرب المسلمون أثناء حركة الفتح مقاساة مرة كما أشرنا .

وبين فرع البرانس ظهرت محاولات مبكرة غايتها تكوين أنظمة سياسية قومية قبل الاسلام وبعده .

وقد أدركت أوربة وكتامة وصنهاجة ومصمودة مجدا سياسيا عريضا فى ظل الاسلام ، سواء بتكوينها لامارات مستقلة ، تنتظم حول قاعدة سياسية وأمير وطني،أو بموالاتها للحركات السياسية والمذهبية التي أسستأنظمة سياسية فى جهة ما من جهات المغرب العربي الواسع الأرجاء . ويمكن القول أيضا بأن فرع البرانس ، هو الذي قدم لسائر البربر فى المنطقة شخصيات فذة ، وزعامات قديرة على مستوى رفيع ، تجاوزت بتأثيرها أحيانا نطاق بلاد المغرب ، الى ما بعد عنه وكانت لها علاقات واسعة ومثمرة مع بعض الأنظمة السياسية فى العالم الخارجي .

وعن مجموعة حلف البرانس ، تتفرع سبع قبائل كبرى مشهورة هي :

ازداجة (وزداجة أيضا) وأوربة ، وأوريغة ، وصنهاجة ، وكتامة ، ومصمودة وعجيسة .

---

48 ـ العبر 6 ، 152 (ط بيروت) . الأصطخري : مسالك الممالك 44 ، ونص كلامه (وسائر البربر الذين هم من البرانس فمفترشون فى سائر المغرب من شرقي بحر الروم) حسن محمود : المرجع السابق 35 ابن منصور المرجع السابق 1 : 301 .

اما القول بأن سابقا المطماطي وهو من نسابة البربر ، قد اضاف الى بطون البرانس : لطة ، وجزولة ، وهسكورة ، فقول ليس فيه جديد وبشيء من التأمل يتضح ان هذه البطون الثلاثة آنما هي فروع لحلف صنهاجة الكبير ، مثل غمارة وهرغة وتينمل بالنسبة لحلف مصمودة الكبير (49) .

ـ **وازداجة** من برانس المغرب الأوسط على أرجح الأقوال وان توزعت مضاربهم فى أماكن كثيرة فى خارجه تبعا لظروف خاصة .

ومن بطونها : فرع بني مسكن (مسقن) وفرع مسطاسة ونظرا لأن بني مسقن استجابوا للدعوة الشيعية منذ وقت مبكر ، يرجع لعهد ولاية أبي حميد دواس بن صولات اللهيصي علي تاهرت ، فانهم لعبوا دورا كبيرا فى حركة الصراع بين الأمويين والفاطميين . وفى تمصير مدينة وهران 290 هـ / 902 ـ 903 م ، التي أصبحت من كبريات مراكز ازداجة وفرع بني مسقن ، اذ يشير بعض الجغرافيين المسلمين الى ان بناء مدينة وهران ، كان نتيجة جهد مشترك لجماعة من الأندلسيين البحريين على رأسهم محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون وفرع بني مسقن يساعدهم بعض أفراد من قبيلة نفزة (50) .

ومن يومئذ استقر بنو مسقن بجوار مدينة وهران برضا سكانها حتى اضطروا لمغادرتها قهرا ، والالتجاء الى قبيلتهم الأم وزداجة بجبل قيدر لتدفع عنهم الضيم . وتعرضت وهران للتخريب والدمار من طرف بعض المغيرين فى ذي الحجة 297 هـ / يوليه ـ 910 م ، ولم ترجع اليها نضارتها وعمرانها الا بعد أن استقر أبو حميد دواس بن صولات فى تاهرت ، التي أصبحت تشرف على المنطقة ، فأمر برعاية شئونها وكلف محمد بن أبي عون ، بمراقبة المدينة ، واستمر الوضع طبيعيا فيها حتى منتصف جمادي الأولى، سنة 343 سبتمبر 954 . وهي السنة التي انهزمت فيها جموع ازداجةفى فى جبل قيدر (جيدر) أمام يعلى بن محمد بن صالح اليفرني الزناتي ،

---

49 ـ ابن خلدون : المصدر السابق 1 ، 107 وما بعدها (ط دوسلان) مفاخر البربر (لمجهول) 64 ، وقد انهاها الى ثلاث عشرة قبيلة ، يتداخل بعضـــها فى بعض . ابن منصور : المرجع السابق 1 ، 302 ، حسن محمود : المرجع السابق 39ـ40 ، سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق 30 ، وقد انهاها الى عشر ايضا . امين واصف المرجع السابق 24 ـ 25 ومن كتامة فرع زواوة ، ومن الكلمة الاخيرة اشتقت كلمة زواف (Les Zouafes) H.R., Idris Op. Cit. P. 4 n° 4.

50 ـ ابن عذارى : المصدر 1 ، 184 البكري : المصدر السابق 70 .

فأصبحت مدينة وهران فى متناول سلطانه ، فاستبد بها وهجر سكانها الى مدينته المعروفة بفكان (51) فى ذي القعدة 343 هـ فخربت وانحط شأنها عدة سنين (52) .

ولازداجة مراكز كثيرة ، غير وهران ، منها : بلد نكور ، الذي تغلبت عليه واخرجت منه بني جرثم من ذرية سعيد بن صالح ، واستمر تحت سلطان بني يعلى بن الفتوح الازداجي حتى سنة 460 هـ /1067—1068م وهوعصر البكري (53) . ثم تانسالمت قرية بقرب وهران وهي طرف جبل جيدر معتصم قبيلة ازداجة . ثم سوق عبيدون بن سنان الأزداجي ، ثم قصرابن سنان نفسه (54) ويشير البكري الى مراكز استقرار اخرى لقبيلة وزداجة فى اقليم باجة . ومثله اليعقوبي ، الذي لاحظ أن عناصرها لا يؤدون الطاعة للامراء الاغالبة فى القيروان (55) اما بطن مسطاسة فلم يكن له ظهور فى الفتن التي شهدتها المنطقة فى عصر الفاطميين وتوجد أوزاع منه فى المغرب الأقصى ، وتحتفظ بعض الأسر بلقب المسطاس والى مسطاسة ينسب شجرة بن عيسى ، وأبو دليم بن خطاب .

ويذكر الرحالة بعض مضارب مسطاسة فى الطريق بين سبتة وفاس . وفى أرض غمارة ، يوجد حصن يعرف بحصن مسطاسة ، يبعد عن حصن تازكا بمسافة نصف يوم ومن حصن كوكال فى نفس الطريق بحوالي خمسة عشر ميلا (56) ويشير البكري الى قبيلة مسطاسة أثناء رسمه حدود بلد نكور (57) .

---

51 — البكري : المصدر السابق 79 وفكان كانت من بين أسواق زناته وقد مصرها لاول مرة يعلى بن محمد بن صالح اليفرني سنة 338 هـ ، وعمرت بسكان من تاهرت وبني واطيل ووهران وغيرها وتوجد بقرب مدينة معسكر الحالية ، الاستبصار (لمجهول) 135 .

52 — نفسه 70 — 71 ، ابن خلدون المصدر السابق 1 ، 182 وما بعدها مفاخر البربر (لمجهول) 63 . الاستبصار (لمجهول) 133 — 134 وفيه وردت — صيغة بني مسكين ، فرع وزداجة ابن حزم المصدر السابق 463 وما بعدها ، محمد ابن عبد القادر : تحفة الزائر فى تاريخ الجزائر 18 — 19 .

53 — البكري 99 ، وفيه قوله « ثم غلب على بلد نكور يعلى بن الفتوح الازداجي واخرجوا ابني جرثم من جميع بلاد نكور ، وهي اليوم بايدي ذرية يعلى بن الفتوح » .

54 — نفسه 71 ، وانظر ايضا 141 — 142 منه ، عن قرى وعمارات متصلة لازداجه قرب حوض وادي سبو .

55 — نفسه 56 ، اليعقوبي : المصدر السابق 101 .

56 — الادريسي : المصدر السابق 110 .

57 — البكري : المصدر السابق 90 ، وعن اخبار وزداجة انظر ابن منصور : المرجع السابق 1 ، 313 ومن مسطاسه فى الدوسن — الزاب انظر Léon L'A.F., P. 316.

ـ اما قبيلة عجيسة فقد أشار ابن خلدون الى انهما تمتاز بالكثرة وبالظهور فى الحوادث الكبرى وهي موزعة على أرض المغرب الأوسط ومضاربها تجاور مضارب قبيلة صنهاجة الشمال ومن مراكزهم نواحي دلس ، وجبال الحضنة الشرقية وناحية القلعة ، كما أشار غيره ، الى وجود عناصر من عجيسة ضمن جند دولة بني نصر فى غرناطة فى جنوب شبه الجزيرة (58) .

وقد اكتفى ابن خلدون بذلك ، ولم يذكر كعادته ، لهذه القبيلة فروعا وبطونا تتميز بأسماء خاصة ، ربما لقلة معلوماته عنها ، وذوبانها فى غيرها من القبائل المجاورة لها ، مثل كتامة وصنهاجة وزواوة .

وآثار وبقايا عجيسة توجد بقلة فى المغرب الاوسط واهمها .

ـ قبيلة تحمل نفس الاسم القديم جنوب غربي بجاية ، على ستة وعشرين ميلا .

ـ ثم قبيلة اخرى فى منطقة الحضنة الشرقية ، تحمل أيضا نفس الاسم القديم ، وهي تقع بالتحديد فى دوار الجزار ـ (مشتى) مركز أولاد سليح الآن بقرب مدينة بريكة الحالية ، أو مدينة طبنة القديمة .

ـ ثم قرية أخرى باسم عجيسة فى أرض بني تيلالن ، وتقع بين مدينتي القل ، وقسنطينة وهي فى مضارب كتامة .

ـ قبيلتا الاعراش والساحل القبلي ضمن دوار الكركور بالمغرب الأوسط ولقد كانت منطقة عجيسة فى وقت ما مركزا هاما للاحداث السياسية التي قررت مصير الفاطميين فى المغرب ، وترتبط بعصر المنصور اسماعيل الذي اقتفى اثر النكاري مخلد بن كيداد حتى الجاه لمضارب عجيسة حيث أقام بجوارهم معتصما باحدى قلاعهم الجبلية الحصينة التي عرفت بقلعة كناية. لكن اعتصامه لم يفده . وسقط أسيرا فى النهاية ربما لأن عجيسة التي اسلست قيادها من قبل للفاطميين وللحركة الشيعية ولأنصارها من كتامة وصنهاجة قد أدت دورها كاملا . ويبدو أن امتناع الثائر بقلعة عجيسة لفترة طويلة عن يد المنصور ، هو الذي أوحى فيما بعد لحماد بن بلكين بأهمية المنطقة من الناحية الاستراتيجية وهو أمر لم يخف على عبيد الله المهدي ، وولي عهده القائم بأمر الله اللذين أذنا بقيام حاضرة المحمدية (المسيلة) (59) 313 هـ / 925 ـ 926 م .

---

58 ـ ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطه 1 ، 142 تحقيق عبد الله عنان القاهرة 1955 .

59 ـ البكري المصدر السابق 59 الاستبصار (لمجهول) 71 ـ 72 ابن عذاري المصدر 1 ، 268 ، وتولى بناءها علي بن حمدون بن حماد الجذامي المعروف بابن الاندلسي وبقربها جبل عجيسة .

أما حماد فقد أسس فى وقت لاحق ، فى أعلى قمة جبل تاقربوست فى مضارب قبيلة عجيسة ، قاعدته الانفصالية الأولى التى سماها القلعة لأن مكانها قلعة أبي طويل القديمة (60) ، وعرفت به ونسبت الى أبنائه من بعده فأضحت قلعة بني حماد . وسرعان ما أثبتت هذه القلعة انها جديرة بالاسم وبالمهمة التي ارتبطت بها،سواء أثناء النزاع الاسري بين الحماديين والزيريين أو أثناء انسياح عرب بني هلال فى المنطقة (61) وقد حاولت عجيسة أكثر من مرة غزو القلعة ، ففشلت وفشلها فى مشروعها ضد القلعة هو الذي قضى عليها بالشتات من موطنها الأصلي ، بالاضافة الى ضغط هجرات عرب بني هلال بحيث تفرقت فى افاق المغرب الاوسط حيث تركت الآثار السابقة الذكر . أما مواطنها فقد استقر فيها بطن عياض من عرب بني هلال ، الذين أعطوا اسمهم للجبل المحيط بالمنطقة فأصبح يعرف بجبل عياض . وبقبيلة عياض تحقق الاستعراب الكامل للمنطقة . ويبدو أن اسم عياض ناله شيء من التحريف ، حيث صار ينطق به معضادا ، واصبح السكان يعرفــون فى وقتنا بالمعاضيد وجبل عجيسة القديم ، أو جبل عياض فيما بعد أضحى يعرف بجبل المعاضيد الآن .

ويذكر بمجد عجيسة السياسي والثقافي فى مهجرها الجديد ، أسرة نابهة فى العلم والرئاسة بمدينة تلمسان ، هي أسرة ابن مرزوق .

وأشهر رجالها : الخطيب (710 ـ 781 هـ / 1311 ـ 1380 م) وهو محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن مرزوق الملقب بشمس الدين والجد ، والحاجب أيضا(62)ثم الحفيد وهو محمد بن احمد...بن أبي بكر بن مرزوق (766 ـ 842 هـ / 1364 ـ ـ 1438 م) (63) ومن تأمل ترجمته نتبين سعة

60 ـ البكري 51 ، 54 ، 82 يصف بجاية وهي القاعدة الحمادية الثانية بان مرساها هو ساحل قلعة ابي طويل . لان موقع القلعة كان داخليا ، بعيدا عن البحر الاستبصار (لمجهول) 167 .

61 ـ ابن خلدون : المصدر السابق 1 ، 184 ابن منصور : المرجع السابق 1 ، 336 سعد زغلول المرجع السابق 41 ، ويذكر تاييد عجيسة لحركة ابي يزيد :
Ch. Feraud : Histoire des villes de la Provence de Constantine, p. 107.
مبارك الميلي : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث 1 ، 70 .

62 ـ ابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني : البستان فى ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان 184 وما بعدها .

63 ـ نفسه 201 ـ 214 .

علمه وافقه وكثرة طلبته ومنهم من قبيلة زواوة حليفة عجيسة فى العصر الفاطمي : نصر الزواوي وابراهيم بن قائد الزواوي (64) . ثم ابن مرزوق الكفيف (901 هـ (65) 1495 ـ 1496 م) وهو محمد بن محمد وحفيده محمد بن مرزوق الذي عرف أيضا بالخطيب (ت 918 هـ (66) 1512 ـ 1513 م) ويذكر احد المؤرخين بعض علماء آخرين يعرفون بالعجيسي نقل عنهم أبو العباس المقري فى كتابه نفح الطيب (67) .

ـ اما قبيلة أوربه فهي أيضا من برانس المغرب الاوسط ومن مراكزها فيه : المنطقة القريبة من تلمسان وكتلة اوراس ثم منطقة الزاب .

وقد هاجر فروع أوربه فيما بعد الفتح فى ظروف تاريخية معينة واستقر اغلبهم فى منطقة الريف الى جوار غمارة ، واستولوا على مدينة وليلى أو قصر فرعون بناحية جبل زرهون أي فى اطار ما كان يسمى موريطانيا الطنجية فى العصر الروماني (68) .

ولهم أوزاع اخرى فى عدة جهات من بلاد المغرب اشتهروا بأنهم مسيحيون ومتأثرون بمظاهر الحضارة البيزنطية ولهم صلات مع الروم ، ومع الأفارقة وربما كان لهم نوع من الزعامة على بني قومهم فى العصر البيزنطي استمرت بعد مجيء طلائع الفتح العربي الى البلاد حتى كانت لهم فى وقت ما ممارسة الزعامة لا على حلف البرانس فقط ، وانما على حلف البتر أيضا ، وما ذلك الا لقوة بأسهم وكثرة عددهم وحكمة ومرونة أمرائهم .

ومن اشهر امراء اوربه فى أول الفتح سكرديد بن زوغي (رومي) بن تازرت بن برزيات الذي قيل انه توفي فى سنة 71 هـ / 690 ـ 691 م بعد ولاية استمرت ثلاثا وسبعين سنة دون أن تشير مصادر الفتح أثناء هذه المدة الى حركة يكون قد قام بها ، أو دور يكون قد مثله أما لفائدة أو ضد العرب المسلمين .

---

64 ـ ابن مريم البستان 209 ـ 210 وانظر 295 عن ترجمة نصر الزواوي ، ومن تلامذته ايضا أبو الفضل المشذالي ، (ت 864 هـ) واحمد بن موسى القسنطيني (ت878هـ)
انظر العدوي : تبادل الاساتذة بين الجزائر ومصر فى القرن 15 م .
مقال مجلة كلية الآداب ـ الجزائر عدد 2 ، 1970 .

65 ـ نفسه 249 .

66 ـ نفسه 258 .

67 ـ ابن حمدون بناني : تاريخه ورقه 3 ب (خ بمكتبة المجاجي بالبروافية) .

68 ـ جوليان (شارل) تاريخ افريقية الشمالية 1 ، 238 ـ 239 الترجمة العربية .

وقد آلت زعامة أوربة وحلف البرانس الى كسيلة بن لمزم ربما لأن سكرديد ، قد طعن فى السن ، وأصبح لا ينهض بأعباء القيادة .

وقصة كسيلة مع كل من أبي المهاجر دينار مولى الأنصار ، وعقبة بن نافع الصحابي المولد ، مشهورة لا تحتاج الى بيان (69) .

ومن غير المستبعد حسب رواية تاريخ وفاة سكرديد ، أن يكون حلف البرانس وقبيلة أوربة قد قدموا للولاية كسيلة بعد أن تنحى عنها سلفه ربما برغبة رجال أوربه البارزين ، لأنهم رأوه سلبيا أمام الأحداث التي جدت على المنطقة خصوصا وقد كبرت سنه ، والامر يقتضى زعامات شابة وقوية .

ولما قتل كسيلة فى معركة ممس 69 هـ / 688 ــ 689 م وتشتت شمل أوربه وأحلافها لم تشر النصوص الى الأمير سكرديد حتى وهو يترك البلاد مع فلول قبيلته وهذا مما يضعف رواية خبر وفاته فى سنة 71 هـ .

ولم نجد الا اشارة خفيفة عن موقفه من التطور الجديد اذ يذكر ابن خلدون انه أسلم مع كسيلة وقبيلة اوربة وارتد معه بعد ولاية أبي المهاجر دينـــار ومن الصعب لو كان هذا الامير حيا فعلا ، كما تشير الرواية السابقة ، أن لا يعبر عن رايه فى التطور الجديد ، الا بالصورة التي جاءت فى بعض مصادر الفتح وهي أنه أسلم مع كسيلة ثم ارتد كأنه تابع من أتباعه وفصل من أفصاله مع أن الحقيقة انه اظهر منه شخصية وأقدم رئاسة وأكثر حنكـــة .

وقد بقي مهاجر وأوربةفىمنطقة الريف يعيشون فى نطاق الاسلام ممابنفي شبهة الردة عنهم وعن زعمائهم انما بقوا فى عزلة تكاد تكون تامة عما يجري فى المنطقة من أحداث حتى ظهر ادريس بن عبد الله الحسني سنة 172 هـ / 788 ــ 789 م ،وعندئذ اهتبلوا الفرصة وظهروا على المسرح مناصرين له ومؤيدين ، فآووه فى وليلي حاضرتهم الكبرى (Volubilis) وضمنـــوا تأييد غمارة ، وكثير من قبائل البتر للحركة العلوية الادريسـية .

---

69 ــ ابن خلدون : المصدر السابق 6 ، 146 (ط بيروت) وانظر ايضا 297 ــ 216 منه وهنا نلاحظ أن ابن خلدون يذكر اسلام الرجلين لاول الفتح وردتهما عند ولاية ابي المهاجر ثم يؤكد دعوة ابي المهاجر كسيلة للاسلام بعد اللقاء فى تلمسان ولكنه لا يشير الى سكرديد ــ ابن عذارى المصدر السابق 1 ، 18 ــ 19 الدباغ : معالم الايمان فى معرفة اهل القيروان 1 ، 48 المالكي : رياض النفوس 1 ، 25 ابن ابي زرع الفاسي : روض القرطاس 7 ط حجريه السلاوي : المرجع السابق 1 ، 37 حسن محمود : المرجع السابق 59 ــ 60 سعد زغلول : المرجع السابق 152 ، 166 ــ وما بعدها . عبد العزيز سالم : المغرب الكبير 2 ــ 215 وما بعدها .

وكان زعيم أوربة فى هذا الوقت أو باعث حركة الوحدة السياسية والمذهبية حول ادريس العلوي أو فاطمي القرن الثاني من الهجرة هو أبو ليلى عبد الحميد بن محمد بن اسحاق . (70)

ولقبيلة اوربة عدة بطون منها : ديقوسة ، ورغيوة ، وزهجوكة (زهكوجة عند ابن خلدون) ولجاية وانفاسة ونيجة ، ومزياتة ، وفيما عدا بطون : ديقوسة وانفاسة ونيجة ، التي لا تعرف مضاربها بالتحديد ، نلاحظ أن بقايا وربة فى عصرنا ربما تمثلها قبيلة وربة فى ناحية رباط تازا ، كما تزعم قبيلة آيت وربيل انها من نفس قبيلة أوربة الام » .

— ومن بين بطون اوربة المعروفة ، توجد رغيوة حتى هذا الوقت ، شمال أقليم فاس وتعرف بنفس الاسم القديم كما يوجد فرع منها مندمجا فى اطار قبيلة التلاغمة دوار وادي سقان قرب قسنطينة .

— وزهجوكة توجد اليوم بجهات مدينة قصر الكبير فى المغرب الاقصى وبها سميت احدى القرى فى الجهة وينطق بها محليا جهجوكة وهي مشهورة بين قبائل الجهة بحبها للفن ، وحذقها له خاصة الرقص والغناء .

— ولجاية تعرف باسمها شمال أقليم فاس ، وبقرب وادي ورغية ومثلها مزياته التي توجد فى نفس الاقليم وتعرف الآن بمزيات . (71)

وعلى خلاف القبائل الثلاث السابقة ، وهي وزداجة ، واوربة وعجيسة التي اتفق على نسبتها البربرية الى فرع البرانس بصفة خاصة ، نلاحظ أن قبيلة اوريغة (وريغة — ريغة اختصارا) وقع جدل كبير حول نسبها .

هل ترجع الى اصل يمني حميري ؟ او الى عاملة من بطون قضاعة ؟ أو الى كندة ؟ ويجمعها النسابة مع جزولة وهسكورة ولمطة ، فى أصل واحد ويسمونهم جميعا « بني ينهل » ويشيرون الى اختلاطهم ببعض

---

70 — الاستبصار : (لمجهول) 194 ويسميه باسحاق بن محمد الاوربي ويصفه بانه كان معتزليا ، البكري المصدر السابق 100
Gautier Op. Cit. p. 302.

71 — البكري : المصدر السابق 114 ويذكر ان زهجوكة مدينة ابراهيم بن محمد وهو من الادارسة وقد انطلق منها لاخذ طنجة ابن خلدون المصدر السابق 1 ، 185 — 187 ط دوسلان — مفاخر البربر (لمجهول) 64 ، ابن منصور : المرجع السابق 1 ، 303 — 314 حسن محمود : المرجع السابق 69 سعد زغلول : المرجع السابق 414 — 416 عبد العزيز سالم : المرجع السابق 2 ، 469 ياقوت معجم البلدان 1 ، 371 .
E. I Art Baranis. T. 1 P. 10680 2ème Edit.

فروع البتر ، عن طريق المصاهرة كما امتزجوا ببعض فروع البرانس ايضا . (72)

وتعرف أوريغة أحيانا بهوارة ، نسبة لهوار أكبر ابناء أوريغ واكثرهم شهرة وعلى هذا الاعتبار ، تكون التسمية من باب التغليب .

ومضاربهم الاولى ، كانت فى عصر الفتح نواحي طرابلس وبرقة ثم توزعوا فيما بين تبسة ومرماجنة الى اقليم باجة فى أرض افريقية .

وبسبب حركات الفتح ، وتدفق سيل الهجرات العربية انتشروا فى جيوب كثيرة من بلاد المغرب وتوغلوا حتى الصحراء حتى أن بعض النصوص التاريخية تشير الى أن أم أبي يزيد النكاري ، وتعرف بسبيكة ، كانت جارية من هوارة السودان .

وفى منطقة أوراس يوجد بطن من هوارة (73) . وفيما بين وهران وتاهرت وبين قبائل اقليم فاس (74) ، وعلى مسافة غير بعيدة من أشير يوجد سوق هوارة (75) وبقرب عنابة ، وفى تيفاش يوجد بطن من هوارة أيضا (76) .

وفى قبيلة هوارة بطون آهلة مستقرة ، وأخرى تعودت الحركة والهجرة شأن بعض فروع البتر ، بحيث يوجد داخل القبيلة أسلوبان للحياة الاجتماعية ربما لا تنفرد بها فروع هوارة عن سائر قبائل البرانس الاخرى . (77)

---

72 ـ ابن خلدون : المصدر السابق 1 ، 176 (ط دوسلان) مفاخر البربر (لمجهول) 71 وما بعدها ، ابن حزم المصدر السابق 461 ويذكر من بطونها بني كلان ، ابن خرداذبه : المسالك والممالك « القسم 4 من المكتبة الجغرافية » 90 ، و (66 ، 67 فى الترجمة) الاصطخري المصدر السابق (القسم 8 المكتبة الجغرافية) 44 ، ابن منصور المرجع السابق 1 ، 314 ، اليعقوبي المصدر السابق 98 ـ 99 : انظر :
E. I Art. Hawara T. 2, p. 371-72

73 ـ اليعقوبي : المصدر السابق 102 ، ويذكر هوارة بجوار باغاية وتيجس .

74 ـ البكري : المصدر السابق 117 .

75 ـ نفسه 60 .

76 ـ وعن تيفاش القديمة التي توصف بالظالمة انظر : البكري المصدر السابق 53 ،
A. Benachenhou Op. Cit. Islsq 181, Sq
وينسب اليها ابو العباس أحمد بن يوسف ، التيفاشي الملقب شهاب الدين ت 651 هـ ـ 1253 م وله كتاب : ازهار الافكار فى جواهر الاحجار ، أنظر : El Art Al Tifashi, T. 4, p. 790. كما ينسب اليها ميمون بن فتوح التيفاشي المتشيع انظر العزيزي : سيرة جوذر 113 .

77 ـ ابن خلدون المصدر السابق 1 ، 177 وما بعدها .

وفي مصر الفتح الاسلامي تمكن عمرو بن العاص من احراز نصر سريع ضد هوارة ، واحلافها من زواغة ونفوسة فى مراكز سرت وطرابلس وصبرة وودان هذا بعد أن كانت طرابلس قد استعصت عليه ثم على خلفه فى مصر وفى فتح المغرب عبد الله بن أبي سرح ، الذي تركها الى أرض افريقية وهكذا لم تتمهد أمور طرابلس ولم تصبح رباطا عربيا ثابتا وراء برقة الا بعد حملة معاوية بن حديج (45 هـ / 665 ـ 666 م) .

وقد لا حظنا بعدذلك أن الفاتحين كانوا يتوغلون فى أرض افريقية والمغرب مما يشعر بأن قبائل المنطقة ومنها هوارة قد هدأت واستكانت للتطور الجديد .

ولقد اسهم رجال من هوارة الى جانب الفاتحين فى المجهودات التي بذلت من أجل نشر الاسلام فى بلاد المغرب ، فاشتركوا الى جانب طارق بن زياد الليثي فى فتح الأندلس حيث أصبح لهم فيها عقب ، ومنهم : بنو عامر ابن وهب أمراء رندة ، وبنو ذي النون أمراء طليطلة ورندة أيضا ، وبنو رزين أمراء السهلة .

كما اشتركوا الى جانب أسد بن الفرات قاضي افريقية وقائد جيشها فى فتح جزيرة صقلية ومن أشهرهم قائدهم : زواوة بن نعيم . (78)

وفى وقت مبكر ، وكدليل على تمكن الاسـلام منهم وانتشـار حركة الاستعراب فشت بينهم الحركة الخارجية فى شكلها الصفري والاباضي فكانوا عدة عبد الواحد بن يزيد الهواري فى عصر حنظلة بن صفوان الكلبي ، ويحيى بن فوناس فى عصر يزيد بن حاتم المهلبي ومع أبي الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافري وعبد الرحمن بن رستم أحد حملة ودعاة المذهب الاباضي الى أرض افريقية ، ضد ولاة العباسيين .

وبقيت هوارة ضمن القبائل التي يعتمد عليها نظام الامامة الرستمية سواء فى تاهرت مركز الامامة ، أو فى اقليم جبل نفوسة الموالي للرستميين .

وبين فرع هوارة جبل أوراس (79) واحلافها الاباضية عاش فقيههم وعالمهم محكم الهواري الذي عينه الامام أفلح الرستمي على راس القضاء والفتيا فى جبل نفوسة ، وكان قبل ذلك يقيم فى منطقة أوراس .

---

78 ـ ابن خلدون المصدر السابق 6 ، 286 ـ 287 (ط بيروت) ابن منصور : المرجع السابق 1 ، 315 .

79 ـ ابن عذارى 1 ، 305 .

ورغم أن بعض أقارب الامام خالفه الراي فى هذا التعيين فانه أصر عليه وسفه رأي أخيه فيه . (80)

أما هود ابن هذا العالم الهواري فهو الذي ينسب اليه الاباضية أقدم محاولة لتفسير القرآن الكريم فى بيئة المغرب العربي ويقع فى مجلدين كبيرين ويتوفر بعض علماء الاباضية على تحقيقه تمهيدا لنشره . (81)

ويعد من رجال هوارة باعتبار المولد ابو يزيد مخلد بن كيداد النكاري والثائر المشهور لأن أمه سبيكة كانت ــ كما أشرنا ــ من هوارة السودان وكان أبوه يختلف الى بلاد السودان للتجارة ، فتزوج من هوارة وبينهما ولد أبو يزيد فى اقليم كوكو (82) .

ومن قبيلة هوارة بنو خطاب أمراء زويلة وبنو اسحاق رؤساء فرع من هوارة فى الجبل المعروف بجبل هوارة الذي يطل على مدينة البطحاء بالمغرب الاوسط ومن رجالها أيضا : أبو علي عمر بن موسى الهواري نزيل آزمور ، وعياض بن وهب ومجاهد بن مسلم أحد قادة عبد الرحمن بن حبيب الفهري، ثم مؤمن بن يومر الهواري وهو أحد مصادر محمد بن يوسف الوراق ، وأبي عبيد الله البكري فى كتاب المسالك والممالك . (83)

---

80 ـ ابراهيم البرادي : الجواهر المنتقاة فى ذكر ما اهمله صاحب الطبقات 175ـ176 (الشماخي : السير 194 ، ابن الصغير : اخبار الائمة الرستميين 23 ـ 24) .

81 ـ نفسه 219 ونص كلامه (ومن تاليف اصحابنا اهل المغرب ، التفسير الذي لهود بن محكم الهواري فى سفرين كبيرين الشماخي المصدر السابق 381 ، 595 . واقدم التفاسير بالنسبة لأهل السنة فى المغرب هو تفسير يحي بن سلام ، وتوجد منه قطعة مكتوبة على الرق نسخت سنة 383 هـ ، كانت فى مكتبة ح . ح . عبد الوهاب ورقمها فى العطارين 18653 وتوجد النسخة الكاملة تحت رقم 7447 . اما يحي بن سلام فهو بصري استوطن القيروان ، عاصر مالك بن انس واخذ عنه ويعد من المحدثين والرواة توفى بمصر سنة 200 هـ . انظر عنه : ابو العرب الطبقات 37 ـ 39 المالكي رياض النفوس 1 ، 122 ـ 125 .

82 ـ ابن الاثير : الكامل فى التاريخ 8 ، 150 أبو على منصور العزيزي الجوذري : سيرة الاستاذ جوذر 44 هامش 36 ابن خلدون المصدر السابق 2 ، 17 (ط : دوسلان) عن هوارة التي توجد فى زويلة من ارض السودان انظر الاستبصار 146 E. 1. Art Abu Yazid T. 1, p. 115-116.

83 ـ مفاخر البربر (لمجهول) 72 ابن خلدون : المصدر السابق 1 ، 177 وما بعدها البكري : المصدر السابق 60 وهنا يذكر مدينة الغدير قرب نهر سهر وهو نهر المسيلة (المحمدية) كاحدى مراكز هوارة حيث يبلغ عددهم هنا حوالي ستين الفا وانظر 160 منه حيث يشير الى ابن يومر كاحد مصادره الاساسية وانظر 86 ـ منه ايضا .

وفروع قبيلة اوريغة هي : ملـد ، ومقـر ، وقلـدن ، الى جانب هوار اشهر اخوته لذلك سميت سائر الفروع باسمه (84) .

ولكل فرع من هذه الفروع اثار وبقايا في بلاد المغرب الاوسط ، فمن بقايا ملـد بطن ورفل ويظن أن منها بطن ورفلة المندمج الآن في اطار قبيلة أولاد سيدي يحيى ، ويضربون حول مدينة تبسة ومرسط ، ويرجعون لدوار ابن الكفيف ومثلها قبيلة نيفـن أيضا وقد عقدت زعامتهم في عصر ابن خلدون لأبناء بعرة بن حناش منهم ، وهم على التوالي أولاد سليم ثم أولاد زيتون ثم اولاد دحمان .

ومن آثار مقـر في المغرب ناحية تحتفظ حتى الآن باسم ابو مقر بين بريكة ونقاوس كما تطلق كلمة مقـر او مقار على الاسواق والمعارض التي تقام في تندوف في الصحراء الجزائرية ، ومنها زمور أيضا واليها فيما يبدو تنتسب منطقة زمورة دائرة البرج وتنتشر القاب الزموري أيضا في غير هذه الدائرة من أرض المغرب الاوسط .

ومن بقايا مقـر منداسة في ولاية وهران واليهم ينتسب وادي منداسة بالجهة ثم الشاعر سعيد بن عبد الله المنداسي صاحب قصيدة العقيقة في مدح الرسول (85) ، وأحد المعاصرين للسلطان اسماعيل العلوي أوضح سلاطين الاسرة الشريفية شخصية وأشهرهم في التاريخ (ت 1139 هـ / 1726 - 1727 م) .

وفرع ورجين بجهة عنابة من بقايا مقـر ويحتفظون حتى اليوم باسمهم القديم وهو بنو ورجين . (86)

اما بقايا بطن هوارة في المغرب الاوسط فتمثلها زكارة وتقع بناحية شرشال (ايـول القرطاجية - قيصرية الرومانية) في ولاية الاصنام .

واليها ينسب جبل زكار بدائرة مليانة . وهو مركز لاستغلال المعادن الآن . وقد جاءت كلمة زكارة (87) في ابن خلدون زكاوة بالواو ويظهر أن ذلك من خطأ النساخ بدليل الواقع ، كالذي حدث في زواوة حيث كتبت

---

84 - ابن حزم : المصدر السابق 462 وما بعدها ابن خلدون : المصدر السابق 1 ، 177 - 181 ابن منصور المرجع السابق 1 ، 315 .

85 - سركيس معجم المطبوعات العربية والمعربة 2 ، 641 .

86 - ابن منصور : المرجع السابق 1 ، 316 .

87 - وردت بصيغة نكار في كتاب : الاستبصار في عجائب الامصار : انظر 171 وما بعدها .

زوازة ، مع أنه لا يعرف في الواقع ، في اطار ارض المغرب اسم لقبيلة بهذا الشكل ، وهكارة ، وتضرب حول منطقة الهكار بالصحراء الجزائرية من هوارة أيضا . ويظن ان اصل كلمة (هكـارة) هو : هوارة ، انما حدث ابدال حرف بآخر على غير مألوف اللغة العربية .

والاسم الأخير ، وهو هوارة الذي تنتظم حوله سائر الفروع بقي يطلق على قلعة في الغرب الجزائري تسمى بقلعة هوارة وتعرف حاليا بقلعة راشد . وفي منطقة وهران وفي غيرها تشيع القاب الهواري ويوجد في داخل المدينة مسجد قديم يعرف بمسجد سيدي الهواري حتى اليوم . (88)

وقد صور ابن خلدون بدقة وضع هوارة الاجتماعي والسياسي في عصره في قوله « ومن قبائل هوارة هؤلاء بالمغرب أمم كثيرة ، من مواطن من أعماله ، تعرف بهم وظواعن شاوية تتجمع لسرحها في نواحيه وقد صاروا عبيدا للمغارم ، في كل ناحية وذهب ما كان لهم من الاعتزاز والمنعة » (89) .

ـ ولا ريب أن أكبر مجموعات فرع البرانس كتلة صنهاجة او حلف صنهاجة القوي ، وقد اختلف المؤرخون والنسابة حول نسبها .

فهل ترجع الى أصل عربي جنوبي؟ او الى أصل أمازيغي من كنعان بن حام؟

والى الرأي الاول ، مال اغلب المؤرخين والنسابة المسلمين . وبينما الرواية المشرقية التي يمثلها الطبري ، وابن الكلبي (ت 204 هـ / 819 م) تجعلهم من نسل افريقش بن قيس ، وهو من ملوك التبابعة ينفرد ابن النحوي وهو من مؤرخي فرع صنهاجة في الاندلس ، برواية تجعلهم من نسل مالك بن عامر بن حمير الاصغر بن سبأ ، والفرق الوحيد بين الروايتين أن الاخيرة تجعلهم من فرع عربي موغل في القدم يرقى الى سبأ وهي اقدم من قبائل حمير . (90)

أما نسابة البربر فيرون ان صنهاجة مثل غيرها من فروع البرانس تنتسب مباشرة الى برنس بن برين مازيغ بن كنعان ، وابن خلدون بعد أن استعرض كل هذه الآراء مال الى جانب الرأي الثاني واعتبر ما سوى

---

88 ـ ابن منصور المرجع السابق 1 ، 317 الاستبصار في عجائب الامصار (المؤلف مجهول) 171 ، 178 الاسكندرية 1958 جوتييه : الصحراء 184 يشير الى قبيلة الهقار ضمن الطوارق ، ويلاحظ أن عددها لا يتجاوز 400 فارس .

89 ـ ابن خلدون : المصدر السابق 1 ، 181 (ط دوسلان) .

90 ـ ابن خلدون المصدر السابق 1 ، 194 مفاخر البربر (المجهول) 51 ، ابن منصور المرجع السابق 1 ، 328 وما بعدها : H.R. Idris Op. Cit. T. 1, p. 6.

ذلك سواء ، بالنسبة لصنهاجة أو لغيرها من قبائل البربر فى المنطقة آراء فطيرة وأساطير ومزاعم لا أساس لها من الحقيقة التاريخية وقد دعم رأيه وتأييده للقول الثاني بجملة من الاعتبارات منها :

- قرب مواطن هذه القبائل من بعضها البعض .

- ثم اشتراكها فى لهجات أعجمية بعيدة عن اللسان العربي ، ربما تنم عن تفرعها على أصل لغوي واحد .

- ثم ملاحظة بعد مجالاتها ومضاربها عن مجالات العرب .

وعلى ذلك فلا داعي فى نظر ابن خلدون للتفريق بين قبيل وآخر فى الاصل النسبي لأن ما صح بالنسبة لأغلب سكان المنطقة يصدق أيضا على بعضهم اذ الاحتمالات قائمة بالنسبة اليهم جميعا والا أضحى فى الامر قدر غير يسير من التحكم بدون براهين واضحة . ولخص رأيه هذا بوضوح فى قوله : « فالحق الذي شهد به الموطن والعجمة انهم بمعزل عن العرب الا ما تزعمه نسابة العرب فى صنهاجة وكتامة ، وعندي أنهم من اخوانهم » . (91)

ومميزات كتلة صنهاجة هي :

وفرة عددهم منذ القدم ، وحتى عصر ابن خلدون الذي لاحظ انهم ينتشرون انتشارا واسعا ، فى المناطق السهلية الداخلية والصحراوية ، وفى المناطق الساحلية وفى المرتفعات الجبلية أيضا ، ومن ثم قيل انهم يبلغون وحدهم مقدار ثلث مجموع البربر . وقد لاحظنا من قبل أن البرانس وحدهم يمثلون ثلثي مجموع البربر كلهم ، ومعنى ذلك أن كتلة صنهاجة وحدها ، تظفر بنصف مجموع البرانس .

اما الكتلة الصغيرة نسبيا فهي كتلة البتر التي لم يبق لها حسب هذا التقدير الاجمالي غير ثلث مجموع السكان .

ومن مميزات صنهاجة ، وجود طابعي الاستقرار والبداوة فى بعض بطونها مثل هوارة . فبينما عاشت صنهاجة الشمال حياة مستقرة متطورة وبنت الامصار والمدن وعرفت الانماط الحضارية المتقدمة والتفكير السياسي المبكر ، فى ظل حكومة الامراء الزيريين من بطن تلكاتة ، حتى وصفهم ابن خلدون بأنهم « أهل مدر ومواطن » . (92)

---

91 - ابن خلدون 1 : 117 وقارن بما ورد فى ج 6 ، 192 من العبر (ط بيروت) .
92 - المصدر السابق 1 ، 195 .

نلاحظ ان صنهاجة الجنوب بفروعها التي تضرب فى الصحراء ، وتتاخم نهري النيجر ، والسنغال والبحر المحيط ، بقيت فى اطار الحياة البدوية ، فالرحلة على ظهور المهاري ، والبساطة فى العيش ، وفى الحياة الاجتماعية والسياسية والمدنية من صفاتهم ، ولذلك استحقوا لقب « أهل الوبر » عند شيخ المؤرخين المغاربة للاشعار بأنهم يهتمون بالابل وبالانعام ، لانها أساس حياتهم الاقتصادية والاجتماعية .

وهكذا حرم فرع صنهاجة الجنوب ، الذي هاجرت بطونه من الشمال الى الصحراء فى ظروف تاريخية غير واضحة ــ من نعيم الحضارة ، وبريق المدنية ، ولذة الاستقرار التي نعم بها فرع صنهاجة الشمال فى المغــرب الاوسط وهم اخوانهم فى الارومة وفى المواطن الاولى .

وابن خلدون على حق حين يؤكد رابطة الاصل المشترك لفرعي صنهاجة فى قوله : « وكان الملك فى صنهاجة فى طبقتين الطبقة الاولى تلكاتة ملوك افريقية والاندلس ، وهم أهل مدر ، فى المغرب الاوسط وافريقية . والثانية مسوفة ولمتونة وجدالة وشرطة بالصحراء ، من الملثمين ملوك المغرب . المسمين بالمرابطين وهم أهل وبــر » . (93)

وقد حدد ابن حوقل ملامح صنهاجة الجنوب عندما وصفهم بنقاء الابدان وجمال الالوان وبالفروسية وبالسرعة فى اختراط السيوف وقوة الاجساد وصحتها . وأشار الى أن ركابهم المهارى وهي أقوى تحملا ، واشد عدوا من الجمال فى الصحراء . ولم يلحظ الرحالة من وجوه القوم غير عيونهم وذلك لانهم يلبسون اللثام وهم أطفال وينشأون على ذلك ، ومن ثم سموا بالملثمين وأهل اللثام ، ومن أعجب ما رواه عنهم أنهم « يزعمون أن الفم سوءة تستحق الستر كالعورة لما يخرج منه » .

وعن سلطانهم على الصحراء ، ومراقبتهم للحياة التجارية بين منابع التبر فى السودان الغربي وبين بلاد المغرب وغيرها أشار الى أن « لهم لوازم على المجتازين عليهم بالتجارة من كل جمل ، وحمل ، ومن الراجعين بالتبر

93 ــ نفسه ج 6 ، 311 ، 370 (ط . بيروت) ابن ابي زرع : المصدر السابق 85 (ط . حجرية) نور الدين عبد القادر : المرجع السابق 32 . حسن محمود : المرجع السابق 36 وهنا يفسر مؤرخ صنهاجة بفرعيها سبب انقسام كتلة صنهــــاجة بين الشمال والجنوب بعامل خارجي ، ربما كان حسب رايه غزوا بتريا ساحقا جوتييه : الصحراء 190 ويلاحظ ان اسم صنهاجة قديم ورد عند بطليموس مع قبيـــلة اخرى هي (Zenagus) ربما هي زناتة فيما بعد ومن صنهـــاجة اشتق اسم السينغال (Sénegale)

من بلاد السودان وبذلك قوام بعض شؤونهم » (94) . أما بالنسبة لفرع صنهاجة الشمال فقد ذكر كثيرا من فروعها ، والطريف عنده انه يميز بين نوعين منها ، نوع يسميهم الخلص ، ونوع آخر يسميهم الاخلاط (95) ؛ والميزة الاخرى لكتلة صنهاجة هي سعة مضارب فروعها وتنوعها فهي فقط بالنسبة لفروع صنهاجة فى الصحراء ، تمتد مسيرة ستة أشهر ولا شك أن مضارب المستقرين فى غير الصحراء من صنهاجة متسعة أيضا . ففي المغرب الاوسط تمتد من المسيلة وبجاية الى جزائر بني مزغنة بحرا ، وعمقا ومنها فى الداخل الى أشير فى سفوح جبال تيتري عبر متيجة والمدية ومليانة ، أما فى المغرب الاقصى فمجالاتهم الناحية الواقعة من نهر كرط ، ومنطقة الريف الى البحر الابيض المتوسط ، وفى الصحراء تمتد البلاد ، من غدامس الى نهري السنغال والنيجر « وحد بلادهم فى القبلة مسيرة 7 اشهر طولا ومسيرة 4 اشهر عرضا من نول لمطة الى قبلة القيروان من بلاد افريقية وما يحيط بين بلاد البربر ، وبلاد السودان » (96) .

واكثر مدن صنهاجة فى المغرب الاوسط توجد فى ولاية تيتري وهي أشير بني زيري وجزائر بني مزغنة ، والمدية ، ومتيجة ومليانة ، ثم حمزة والمسيلة وازفور وهي حد صنهاجة هذا بالاضافة الى المراكز والقرى الصغيرة التي تنتشر بين هذه الحواضر الكبرى .

---

94 ــ صورة الارض 98 ــ 99 القزويني : آثار البلاد واخبار العباد 18 ، 19 ، 24 ، 26 ، 58 ــ وفيه اشارات عن بلاد التبر. شميرة : المرابطون ــ تاريخهم السياسي 160 ــ 23 ، عن منابع التبر ، نور الدين عبد القادر نفس المرجع السابق والصفحة .

95 ــ نفسه 101 ــ 102 .

96 ــ ابن اي ذرع : المصدر السابق 86 ابن منصور : المرجع السابق 1 ، 329 حسن محمود : المرجع السابق 36 ــ 37 . وعن نول لمطة وهي آخر بلاد الاسلام واول العمران من الصحراء تبعد عن وادي السوس ثلاثة ايام انظر البكري : 86 ، وهي فى مجال جزولة ولمطة ولها نهر يصب فى المحيط ومنها الى وادي درعة ثلاث مراحل ، وهي على ساحل المحيط ايضا انظر : 172 منه ويصف بني لمتونة من صنهاجة بقوله : « ظواعن رحالة فى الصحراء ، مراحلهم فيه مسيرة شهرين فى شهرين ما بين بلاد السودان وبلاد الاسلام وهم الى بلاد السودان اقرب ، وليس يعرفون حرثا ولا زرعا ولا خبزا ، انما اموالهم الانعام وعيشهم من اللحم واللبن ينفذ عمر احدهم وما راى خبزا ولا أكله الا ان يمر بهم التجار من بلاد الاسلام او بلاد السودان » 164 منه .

ثم يضاف اليها بعض مراكز فروع صنهاجة التي اندمجت فى مضارب بعض القبائل الاخرى (97) ، ومن مميزات صنهاجة فى الناحية السياسية ادعاء بعض المؤرخين ولاءها لعلي بن ابي طالب ولرهط العلوية كما ادعوا بالنسبة لمغراوة الزناتية ولاءها لعثمان بن عفان ورهط العثمانية . (98)

فكانت صنهاجة فى نظر هؤلاء علوية النزعة بقدر ما كانت مغراوة وسائر زناتة أموية النزعة .

واذا كان هؤلاء المؤرخون قد تصيدوا سببا مقبولا فى الجملة ، لولاء مغراوة وتمثل كما أشرنا فى اسلام جدها الاول وزمار على يدي عثمان بن عفان الذي قلده ولاية قومه فى تلمسان فان الحيلة أعوزتهم فى ابتكار سبب معقول أو مقبول شكلا لقصة ولاء صنهاجة لعلي بن ابي طالب .

وعلى كل حال فقضية الولاء هدفها سياسي صرف بل هي لعبة سياسية دفع الى ابتكارها انتقال الصراع السياسي والمذهبي بين الامويين والعلويين من أرض المشرق الى أرض المغرب والاندلس .

واذا كان لابد لانصار حزب الامويين من ايجاد نقط ارتكاز يعتمدون عليها فى المنطقة ، خدمة لاغراضهم السياسية فقد وجدوا فى مغراوة الزناتية البترية ، ميلا الى تصديق قصة الولاء ، ارضاء لكبريائهم القومي بل انسياقا وراء تبعاتها ونتائجها يدفعهم الى قبول ذلك نزاع قديم بين البتر والبرانس.

وهل يبقى الحزب العلوي مكتوف الايدي أمام تحايل الامويين وأشياعهم من الرواة والاخباريين ؟

وقد تأمل رجاله طبيعة العلاقة الاجتماعية بين السكان فى المنطقة فلم يركنوا الى تقريب قبيلة أخرى من فرع البتر لتعذر تنازع القوم من أجل

---

97 — اشير مدينة حصينة فى مجال صنهاجة بناها زيرى بن مناد وليس فى جهتها ما هو احسن منها ولا ابعد متناولا ومراما بين جبال شامخة محيطة بها دائرة عليها بنى سورها بلكين 367 هـ . وخربها يوسف بن حماد بن بلكين واستباحها ورجع الناس الى عمرانها بعد 455 هـ بداخلها عينان ترثان عين سليمان وتالانيرغ — البكرى المصدر السابق 60 الاستبصار (لمجهول) 170 ابن عذاري : المصدر السابق 1،306 وعن جزائر بني مزغنة انظر 66 منه . وكتاب E. 1, Art Askir T. 1, p. 439-90. الاستبصار 132 وفيه جاءت (بني مزغنان) وبجوارها فحص متيجة وعين مليانة انظر البكري 61 والاستبصار 171 E. 1, Art. Alger T.E. p. 250-260. وفحصها يشقه نهر شلف الذي سمي باسم مدينة شلف المندثرة . القزويني المصدر السابق 273 .

وعن سوق حمزة وهي بضاحية واوزفوروهى حد لها والمدية ومتيجة وتعرف بقزرونة انظر : البكري 65 ابن خلدون المصدر السابق 6 ، 314 (ط . بيروت).

98 — ابن خلدون 1 ، 195 ، ط دوسلان وانظر 6 ، 311 (ط. بيروت) :
H.R. Idris Op. Cit. p. 8.

الغير لدافع العصبية البترية ، والاحساس القومي بالقرابة الدموية ولذلك تخير رجال العلوية لخدمة قضية الشيعة فى المنطقة اقوى فروع البرانس كلهم وهو حلف صنهاجة ، وأشاعوا بين رجال القبيلة وامرائها فكرة الولاء المزعوم لعلي الذي يصور دائما على انه هو صاحب الحق الشرعي فى الامامة بعد الرسول وقد اغتصب منه حقه باتفاق القوم ضده حسدا أو مكرا .

والامويون يصورون عثمان فى صورة الخليفة الشرعي المظلوم الذي لا يستبعد أن يكون على من بين أركان التآمر ضده فى نظرهم .

وعلى هذه الصورة تلتئم الحلقة ، فمغراوة وزناتة كلها ، بل فرع البتر ذوو نزعة أموية حادة يقفون ضد صنهاجة وتلكاتة منها وضد سائر البرانس خدمة لاهداف سياسية بعيدة .

ونجحت الحيلة وعاشت منطقة المغرب والاندلس منذ بداية القرن الرابع للهجرة حياة قاسية من جراء الفوضى التي تسبب فيها تنازع البتر والبرانس ، ممثلين فى زناتة وحلفائها من جهة وصنهاجة وحلفائها من جهة اخرى .

والميزة الاخرى التي تضاف الى ما سبق ذكره هي قوة الرابطة الدموية بين فرعي صنهاجة فى الشمال والجنوب بسبب احساس القوم بوحدة الاصل واللهجة والتراث (99) ، ووجود العدو المشترك لكليهما وهو قبائل زناتة ولذلك لاحظنا أن الزعامة لما عقدت لفرع الشمال، وهم تلكاتة انتقم رجاله من قبائل زناتة ، أعدائهم التقليديين وربطوا بين تصفية نفوذ زناتة أتباع المروانية من المنطقة وبين التأييد التام لحزب العلويين وهم الشيعة الفاطميون . (100)

وحروب صنهاجة مع زناتة ، هي السبب فى انهيار وتشتت هذه الاخيرة فى المغربين الاوسط والاقصى وفى الاندلس وبالتالي نستطيع أن نقول أن عمل صنهاجة الشمال سهل على اخوانهم فرع صنهاجة الجنوب وهم الملثمون فيما بعد ، مهمتهم فى القضاء على ما بقي لمغراوة الزناتية وغيرها من نفوذ فى المغرب الاقصى .

ومما له دلالة خاصة أن المرابطين لم يتجاوزوا فى اطار توسعهم فى المغرب الاوسط حدود مدينة الجزائر ربما تقديرا منهم للرابطة العرقية التي تربطهم بالزيريين ولقد كان فى امكانهم لو أرادوا أن يصفوا نفوذ الزيريين والحماديين فى افريقية وفى المغرب الاوسط كما فعل بعدهم الموحدون الذين

---

99 ـ حسن محمود : المرجع السابق 38 ، 39 سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق 31 .

100 : ابن خلدون : المصدر السابق 1 ، 196 وما بعدها .

ينتمون الى مجموعة حلف مصمودة ولا سبب لذلك غير انعدام صلة القربى بين فرعي صنهاجة وكتلة مصمودة الكبرى التي ظهرت لتتوسع على حساب الاثنين ولتعفي على آثارهما فى المغرب والاندلس . (101) ويذكر المؤرخون والنسابة لصنهاجة الشمال رجالا نبغوا فى العصر الذي تلا عملية انتهاء الفتح الثقافي والسياسي فى بلاد المغرب العربي منهم : ثابت بن وزريدن ، الذي تشير الرواية الى ثورة تزعمها فى المنطقة بعد سقوط نظام الدولة الاموية فى المشرق وفى بداية عصر أبي العباس السفاح ، ثم منقوس وهو جد الزيريين الاول ، وابنه مناد الذي تشير بعض النصوص الى أنه حكم جزءا من افريقية والمغرب الاوسط تحت طاعة العباسيين وبواسطة ممثليهم وأتباعهم فى افريقية ومنطقة الزاب ، وهم الاغالبة كما تذكر بعض النصوص أنه ذهب الى الحجاز للحج سنة (201 هـ / 816 ـ 817 م) أي فى نفس السنة التي ذهب فيها يونس مجدد نحلة برغواطة . ويبدو أنه أمضى فترة فى حكم احدى القلاع القريبة من سجلماسة مستقلا عن اي نفوذ ، وهي التي احتفظت باسمه وأصبحت تعرف بالمنادية (102) ، ومن رجال صنهاجة زيري بن مناد ، الذي اختط أشير فى سفح جبل تيطري ، وانحاز للفاطميين منذ عصر القائم بأمر الله . (103)

ويضاف الى هؤلاء القادة السياسيين مجموعة من رجال العلم والادب والتصوف منهم أبو عمر بن ميمون بن خطاب الذي رفع نسبه الصنهاجي الى قحطان ، وأحمد ومنصور اللذان وصفا بـ « الشيخين الفقيهين » وكانا فيما يبدو مرابطين ، بمكان يعرف بمازيغين على ساحل صنهاجة ، ثم أبو العباس بن العريف ، وكان من رجال القرن السادس للهجرة ، وقد ترك انتاجا أدبيا منه كتاب عرف ، بمحاسن المجالس ، ثم أبو عبد الله محمد

---

101 ـ شعيرة : المرجع السابق 96 ـ 97 ، وهنا يشير الى أن ضرورة تصفية زناته تلمسان والونشريس هي التي دفعت بحركة توسيع المرابطين الى ميدان المغرب الاوسط . فالامر فيه تامين من جهة ، وخدمة لاهل العصبية من جهة اخرى . حسن محمود : المرجع السابق 35 .

102 ـ ابن خلدون : المصدر السابق 1 ، 196 ـ 198 . 6 ، 312 ـ 313 ط . بيروت مفاخر (لمجهول) ويعتمد هذا الاخير على مصادر منها : الديباجة فى مفاخر صنهاجة والنبذ المحتاجة فى تاريخ صنهاجة والاول لابي الصلت الفه للحسن صاحب المهدية ـ البكرى المصدر السابق 137 ابن عذارى : المصدر السابق 1 ، 321 وهنا يشير خطا الى ان قلعة المناديه هي قلعة حماد H.R. Idris Op. Cit. p. 8.

103 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا 1 : 78 . القاهرة 1967 ـ نشر جريدة للشيال .

بن محوت (104) وابو عمرو ميمون بن ابي جميل الذي يوصف في بعض النصوص بأنه ابن اخت طارق بن زيـاد . ثم ابو عبد الله بن القاضي الصنهاجي الذي اشتهر في ميدان الادب ، وابو محمد عبد الوهاب الذي شغل خطة الخطابة لفترة في جامع قرطبة بالاندلس ثم أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد وابن عيسى بن أبي بكر الصنهاجي وهو اصلا من قرية حمزة وقد تفقه على شيوخ من بلده ، وانتقل الى القلعة والى بجاية للدراسة والتدريس ، حيث اخذ عنه كثيرون . وقد تولى القضاء في سلا ، واقليم الجزيرة الخضراء كما وليه في أزمور لأنها أيضا من مضارب صنهاجة .

وينسب اليه انتاج تاريخي عن قبيلة صنهاجة عرف « النبذ المحتاجة في أخبار صنهاجة بافريقية وبجاية » كما اختصر تاريخ الطبري وشرح مقصورة ابن دريد في الحكم وكان معاصرا للغوث أبي مدين دفين تلمسان ، وتوفي بعد سنة 628 هـ / 1230 – 1231 م بعد حياة حافلة بالنشاط العلمي والاداري (105) .

ومن الطريف أن ابن خلدون قسم كتلة صنهاجة الكبرى الى أهل مدر وهم المستقرون في الشمال وسماهم كما اسلفنا أهل الطبقة الاولى ، والى أهل وبر وهم الرحالة الملثمون في الجنوب وسماهم أهل الطبقة الثانية . أما فروع صنهاجة المنتشرون في شمال المغرب الاقصى (منطقة الريف) فسماهم أهل الطبقة الثالثة ، وقسمهم الى :

أ – صنهاجة العز ، وهم الذين يعتصمون بالاماكن المرتفعة ، حيث لا تنالهم ايدي الجباة والسعاة ، ومن هؤلاء بنو زروال وسكان الجبال المطلة على تادلا (106) .

ب – وصنهاجة البز ، وهم الضاربون حول نهر ورغة ويشتغلون بالحياكة وبالزراعة والفراسة وقد تم استعرابهم ، على عكس غمارة التي تجاورهم .

---

104 – مفاخر (لمجهول) – 65 – 71 الادريسي : المصدر السابق 48 حيث يذكر مرسى مازيغن على مسافة خمسة وستين ميلا من مرسى انفا بالمغرب الاقصى .

105 – مفاخر البربر 63 ، ابو العباس الغبريني : عنوان الدراية 128 – 129 ، جلول بدوي : ابن حماد الصنهاجي مقال الاصالة . وعن ابي مدين شعيب الاندلسي الاصل الذي توفي في 594 هـ /1197–1198 م في مكان العباد بجوار تلمسان انظر :
E.I. Art Abu Madyan : T. 1, p. 100-101.

106 – ابن خلدون : المصدر السابق 6 ، 425 وعن قبيلة بني زروال انظر : محمد البشير بن عبد الله ، قبيلة بني زروال – مظاهر حياتها ، ابن حزم : المصدر 499 .

جـ ـ وصنهاجة الذل ، وهم سكان نواحي مدينة أزمور وقد سموا بهذا الاسم اشارة الى أن الاحكام تنالهم ، ويد الجباة عليهم مبسوطة ، وخضوعهم للسلطة المخزنية ظاهرة مألوفة (107) .

أما صاحب كتاب « الانساب فى معرفة الاصحاب » فيقسم صنهاجة التي تجاور المصامدة الى قسمين :

صنهاجة الظل : وهم سكان الجبال الظليلة والاراضي المرتفعة المليئة بالاشجار والعمران ، فهم اشبه بصنهاجة العز ، وصنهاجة القبلة (108) وهم سكان الاماكن السهلية المنبسطة القريبة من وادي درعة المعرضة دوما لحر الشمس المحرقة وهم أشبه بصنهاجة البز .

وآثار هذا التقسيم تبدو الآن فى بقايا صنهاجة فى شمال المغرب الاقصى الذين يميز فيهم بين :

ـ صنهاجة غدو شمال اقليم تازة . وهم مستقرون .

ـ صنهاجة السراير باقليم الحسيمة .

ـ صنهاجة مصباح شمال فاس وهذه بدورها يميز فيها بين صنهاجة الشمس وصنهاجة الظل (109) .

ـ لم تكن صنهاجة فى الواقع مجرد قبيلة ، بل كانت حلفا عظيما تعددت قبائله وافترشت فروعه جهات كثيرة من بلاد المغرب ، حتى قيل أن عددها بلغ سبعين فرعا (110) تحت كل فرع منها عمائر ، وبطون وأفخاذ اهمها فى المغرب الاوسط :

ـ تلكاتة ، وينتسبون لتلكات بن كرت ، وكانت لهم الزعامة على سائر فروع صنهاجة الشمال ، ولهم منزلة بينها أشبه بتلك التي تبوأتها لمتونة ، ورهط بني ورتنطق منها ، بين صنهاجة الجنوب . وأظهر فروع تلكاته بنو

107 ـ نفسه 6 ، 426 ـ 427 وعن مدينة ازمور : انظر :
E.I. Art Azmmur : T. 1, p. 539.

108 ـ ابو بكر الصنهاجي (البيذق) : اخبار المهدي ابن تومرت 44 ـ 46 نشر ليفي بروفنسال باريس 1928 وكتاب الانساب هو القسم 2 منه .

109 ـ ابن منصور : المرجع السابق 1 ، 329 وقد اعتمد على ابن خلدون وعلى كتاب الانساب ثم على ما يوجد الآن فى المنطقة من اسماء دارجة . الاستبصار (لمجهول) 186 ، وهنا يشير الى ان بلاد تازة هي أول بلاد المغرب الاقصى وآخر المغرب الاوسط .

110 ـ ابن خلدون : المصدر السابق 1 ، 195 ط . دوسلان ، 6 ، 311 (ط . بيروت) ابن حوقل : المصدر السابق 101 ـ 102 .

مناد بن منقوس الذين مثلوا دورا سياسيا رئيسيا فى بلاد المغرب والاندلس ومنهم الزيريون وبنو حماد .

ومن آثارهم قلعة المنادية باقليم سجلماسة ومدن أشير وبنية (منزه وقلعة بنت السلطان) ، ومليانة ولمدية وجزائر بني مزغنة ومتيجة فى المغرب الاوسط (111) .

ـ وبجاية وتوجد فى المناطق الجبلية غرب وادي الصومام ولها منفذ مأمون على البحر وقرب مرسى قديم لهذه القبيلة ، بني الناصر بن علناس الحمادي مدينة سماها الناصرية سنة 460 هـ / 1067 ـ 1068 م وقد جاءت فى الشعر والنثر لكن اسم القبيلة ـ وهو بجاية ـ بقي شائعا وغالبا ، على مدينة الناصر بن علناس .

ومن فروع بجاية ، بنو ورياكل ، ومضاربهم حول ضاحية ملالة التي نزل بها لأول مرة ابن تومرت مهدي الموحدين عند رجوعه من المشرق العربي فأكرموه ، وحموه من بطش العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس الحمادي ، بسبب ما بلغه عنه من أنه يحتسب على الناس ويباشر تغيير المنكر جهارا ، ويعزر المخالفين امام الملا ، وفى ملالة ، ابتسم له الحظ ، عندما اتصل بأحد العشرة المقربين من أصحابه ، وهو أبرزهم ، وورث المجد السياسي بعد وفاة المهدي ذلك هو عبد المؤمن بن علي الكومي (112) .

ويظهر ان رهطا من بجاية هاجروا الى افريقية (تونس) لأننا لاحظنا فى شمال تونس ، اسم بجاوة ، وينتسب اليها كثير من النبهاء فى عصرنا . والنسبة اليها كالنسبة الى بجاية (بجاوي) وعلى ذلك ان صحت نسبتها الى بجاية الأم فى المغرب الاوسط ، تكون هي واسم مدينة بجاية آخر ما بقي من آثار هذه القبيلة الصنهاجية العتيدة .

وبقرب بجاية وفى المنطقة بينها وبين مدينة تيزي وزو الحالية يوجد من بقايا صنهاجة .

ـ فرع بني خليل ، وعرفوا فى الجهة باسم « بني خليلي » كما ذكر بعض الرحالة فرعا باسم بني أبي خليل فى منطقة الونشريس (113) . ويوجد بنو جعد قرب حمزة (البويرة حاليا) .

---

111 ـ نفسه 1 ، 196 وما بعدها . نور الدين عبد القادر : المرجع السابق 37 .
H.R. Idris : Op. Cit, p. 7.

112 ـ ابن خلدون : المصدر السابق 6 ، 467 (ط : بيروت) .

113 ـ الادريسي : المصدر السابق 58 .

ـ وبنو وارث (بنو وارثن بالبربرية) يوجد أثرهم بجهة بجاية ويعرفون بمشتاهم (أيت وارث واعلي) وقد أشار البكري (114) الى فرع منهم في الطريق بين تامدلت وأودغست ثم في الطريق من درعة الى الصحراء . وهم هنا مندمجون في اطار أبناء عمومتهم صنهاجة اللثام .

ـ بنو عمران على مقربة من بجاية هم من صنهاجة ايضا ، وهم في دوار ابرارين ومنهم في قرية الاربعاء وقرب برج منايل ، أما بنو عمران الجبالة والسفلية فهم قرب مرسى جيجل غير بعيدين عن مضارب كتامة .

ـ ومن فروع صنهاجة الباقية فرع بطيوة ، وآثاره توجد قرب مدينة أرزيو ناحية وهران بالاضافة الى قرية وقبيلة بهذا الاسم في نفس الجهة ، ويبدو أن فريقا منها هاجر الى تونس للرباط ، حيث عثرنا على اسم محرس بطوية ضمن محارس ورباطات مدينة صفاقس ويعتبر هذا المحرس أهمها ، ويشتمل على منار فريد للكشف يصعد الى قمته بعد مائة وست وستين درجة (115) كما أشير الى مضارب لهذه القبيلة قرب اقليم نكور (116) .

وترغة (تاركة ج توارك ، توارق) من بقايا صنهاجة اللثام وآثارها في جبل الهقار في المغرب الاوسط ومن كبرى قواعدهم الآن تامنراست ويحتفظون حتى اليوم باسم التوارق وبهم فيما يبدو سميت مدينة ترغة وهي في مجال اقليم سجلماسة واقدم منها لكن بتمصير سجلماسة 140 هـ خلت ترغة ، كما اقفرت مدينة زير ايضا بعمارتها وتمصيرها (117) .

ـ وقبيلة جزولة هي الاخرى توجد بقاياها في جهات من المغرب الاوسط ويدل عليها شيوع لقب الجزولي ، واشارة الجغرافيين والرحالة الى وجود جبل باسم جزول أو كزول تقع عليه أو في سفحه مدينة تاهرت (118).

---

114 ـ المغرب 157 ، 164 وبين تامدلت وسجلماسة احدى عشرة مرحلة . وبينها وبين اودغست اربعون مرحلة وبين اودغست والقيروان مائة مرحلة وعشر انظر 159 منه .

115 ـ البكري المصدر السابق 20 .

116 ـ نفسه 94 .

117 ـ نفسه : 148 . عبد الجليل الطاهر : المرجع السابق 89 ـ 90 وقد اشار الى ان معنى كلمة التوارك ، الذين تركوا عبادة الله واعرضوا عن دينه ، وقد يكون معناها ، شعب الرمل ، وقد تكون القرابة بينهم وبين شعب الجارامنت القديم في منطقة جرمة وهي مدينة فزان العظمى ـ انظر البكري 13 ، 167 .

118 ـ نفسه 66 .

– ووانوغة من فروع وبقايا صنهاجة أيضا قرب الجزائر ، وقد اندمجوا فى احدى القبائل ومنها قبيلة بني مكلا قرب قرية يسر ، واليهم ينسب بعض الفقهاء والعلماء واهمهم الوانوغي شارح المدونة فى الفقه المالكي . وتذكر بهذه القبيلة كتلة جبلية حول مدينة سور الغزلان تعرف بجبال وانوغه . ومتنان (متنه) تضرب عشائرها بقرب قرية عين بسام (ولاية تيطري) ويوجد فرع لها هاجر فى ظروف غير محددة فى الطريق الذي يربط بين طنجة وسبتة ، ويحتفظ بنفس الاسم التاريخي القديم (119).

– وفرع مزغنة من صنهاجة كان يضرب حول الاخضرية ، ومدينة الجزائر ، قبل تأسيسها ولذا اخذت المدينة نفس اسم القبيلة ، وعرفت عند الرحالة بجزائر بني مزغنة (مزغناي أو مزغنان) ، وتندمج مزغنة فى قبيلة بني سليمان الشراقة ، مع احتفاظها بالاسم القديم ، وتضرب الآن على ضفة وادي يسر غير بعيد عن قرية الاربعاء (120) .

وفرع ملوانة (آيلوانة باللهجة المحلية) من صنهاجة ، ويوجدون – قرب مدينة الجزائر – وفى أرضهم توجد حمامات معدنية طبيعية للاستشفاء تعرف بحمامات ملوان .

ويوجد فرع بني حميد ، فى أطار قبيلة يسر الغربي شرقي الجزائر وربما فرع بني عثمان أيضا . أما بقايا بني سليب فآثارها فى ناحية قالمة من مضارب كتامة ، كما أن فرع مليانة على العدوة الشرقية لنهر شلف وفرع لمدية فى جبال التيتري والزناكة فى تلمسان وبني دركول بناحية زمورة قرب مدينة غليزان ، وبني زروال (بني رزويل أحيانا) بقرب البيض فى الصحراء الغربية من بقايا صنهاجة الشمال ، والى بني زرويل ينسب أبو الحسن علي بن أحمد مصباح وهو الفقيه الزرويلي الذي يعتبر احد مصادر كتاب « تحفة الناظر وغنية الذاكر فى حفظ الشعائر وتغيير المناكر » لمحمد بن أحمد العقباني التلمساني .

أما بنو الفلظ ، وبنو دراج قبيلة الشاعر احمد بن دراج القسطلي ، فيمثلون فروعا من صنهاجة الشمال التي استقرت فى بيئة الاندلس (121) .

---

119 – نفسه 108 بقرب نهر اليان ، وعلى هوامش ارض غمارة ومصمودة .

120 – البكري المصدر السابق 82 انظر الاستبصار لمجهول : 132 ، ويلاحظ انها ربما حرفت عن كلمة ايمازيغن اي امازيغ) انظر :

A. Benachenhou : Op. Cit., p. 156, n° 1.

121 – ابن خلدون : المصدر السابق 6 ، 412 ، 414 ، 314 ، (ط : بيروت) الادريسي : المصدر السابق 58 ، البكري : المصدر السابق : 90 ، 108 ، 148 ، 157 ، 164، ـابن حزم : المصدر السابق 466 . ابن منصور المرجع السابق : 330 وما بعدها احمد المكناسي : أهم مصادر التاريخ والترجمة فى المغرب 87 .

ويلاحظ أن بعض فروع صنهاجة احتفظت بالاسم العام للقبيلة وهو : صنهاجة اشعارا بأصلها القديم ، واعتزازا به ، ومن هذا القبيل فرعان : فرع فى المنطقة بين عنابة وسكيكدة ، على عدوتي الوادي الكبير ، كما توجد أيضا محطة باسم صنهاجة قرب عنابة . أما الفرع الآخر فيضرب حول وادي يسر ، جنوب شرقي مدينة الجزائر .

ويظن أن أسرة ابن باديس باعث الحركة الاصلاحية السلفية فى المغرب الاوسط من بقايا قبيلة صنهاجة الكبرى .

والذي يستخلصه الباحث من كل ما سبق عن فرع البرانس :

ــ الكثرة العددية الظاهرة بالنسبة لمجموع قبائل المغرب ومظاهر الغنى والعمران ملحوظة فى بيئتهم ، باستثناء سكان الجنوب .

ــ وقد قامت معظم قبائل البرانس بتمثيل أدوار سياسية رئيسة فى المنطقة وفى خارجها .

ــ ويبدو أن أكبر كتلة للبرانس فى عصرنا ، توجد مضاربها فى نطاق المغرب الاوسط بل ربما كانت كذلك قبل هذا الوقت .

ــ ومحبة آل البيت وتأييدهم ، ودعم قضية الشيعة الفاطميين ، ظاهرة بارزة فى مجموعهم ، وارتبطت بالعصبية القومية وبالشرف .

ــ ويلاحظ أن الاستعراب فى بيئتهم ــ رغم بقاء جيوب تحتفظ بلهجاتها ــ يكاد يكون كاملا .

ــ أما أخذهم ببعض شعارات العرب ، فى البداوة ، فقد لاحظه بعض المؤرخين والجغرافيين فابن خلدون أشار الى بعض القبائل البربرية التي تبدت بعض فروعها بتأثير مجاورتها لبدو العرب حتى نسوا رطانتهم الأعجمية .

أما الادريسي فلاحظ أن قبائل العرب كصنهاجة تبربروا بالمجاورة للبربر .

ومثله البكري فيما نقله عن ابن عذارى من أن زناتة عرب صراح تبربروا بالمجاورة والمجالبة للبربر (122) . وهكذا فالحياة المشتركة فرضت تأثيرا متبادلا بين الحيين العربي والبربري ، ولم يقتصر على فرع البرانس . بل شمل البتر أيضا .

122 ــ ابن خلدون : المصدر السابق 6 ، 204 (ط.بيروت) الادريسي : المصدر السابق 35 . ومنه نستنتج كيف صار الفريقان جنسا متكاملا . ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 283 .

ـ كما يلاحظ أن البقايا التي تمثل كتلة البرانس ، منتشرون بكثرة في جهات المغرب الاوسط .

ـ وكثير من مدن البرانس وحواضرهم في الداخل وعلى الساحل مازالت تمثل دورا رئيسيا في حياة البلاد السياسية والاقتصادية .

وكل ما لاحظناه يبدو أنه مطابق تماما ، وبنسبة مرتفعة على واقع قبيلة كتامة وفروعها ، التي لم نشر اليها حتى الآن ، لانه يجب أن نوليها كثيرا من العناية فيما يأتي من حديث (123) .

* * *

أما كتامة فهي مجموعة قبائل مستقرة تنتمي الى فرع البرانس ، حسب التقسيم التقليدي للمجتمع الامازيغي .

وهي مثل غيرها ، من قبائل الجهة في نظر نسابة البربر ، سميت باسمها ، نسبة لجد أعلى لسائر فروعها ، ربما كان اسمه « كتام » وقد يكون « كتم » والافتراضان معا مطروحان عند النسابة المحليين .

وكتام ، أو كتم ، هو ابن برنس بن مازيغ بن كنعان بن حام .

ويفترض النسابة ان له فرعين هما :

ـغرسن ـ ويسوده (124)،ومنهما تناسلت كل بطون كتامةالمعروفين‌عند المؤرخين(125) وعلى هذا الراي فهم عناصر محلية أصيلة ، وقد ارتبطوا بهذه البلاد وعرفوا على اديمها منذ فجر التاريخ . ولم تأت بهم الهجرات البشرية ، التي كان شمال افريقية مسرحا لها بواسطة عدة مراكز في العالم القديم ، وان لم يسلموا فيما بعد مثل غيرهم من سكان بلاد المغرب ، من

---

123 ـ لم نشر الى مصمودة ، لانها من برانس المغرب الاقصى ، ولا علاقة لها بالموضوع ومصمودة حلف كبير تنتظم حوله قبائل شتى تكون في مجموعها سكان المغرب الاقصى الجبليين الذين احتفظوا بعزلتهم وهي قسمان : مصموده الشمال وهم غمارة في الريف ومصمودة الجنوب ، في جبال درن على ساحل المحيط : وهذه تشتمل على حاحة ورجراجة وصادة وهنتاته وهيلانه وربكة وتينمل وهرغة وسكـان تامسنـا (بين نهري سلاوام الربيع) الاخذين بنحلة برغواطة . انظر ابن خلدون ـ العبر 6 ، 427 ـ 437 حيث يجعل برغواطة من الجيل الاول . حسن محمود المرجع السابق 34 ـ 35 .

124 ـ مفاخر البربر (لمجهول) 51 ، ابن خلدون : المصدر السابق 6 ، 301 (ط.بيروت)
M. Talbi : L'Emirat aghlabide : P. 595.

125 — E.I. (Art Ketama) T. II, p. 909, De Slane ; Histoire des Berbères : T. 1, p. 292.

عناصر طارئة اختلطت بهم واندمجت معهم بحكم المصاهرة أو الحلف ، أو طول الجوار .

وقد ورد فى بعض النصوص التاريخية مصطلح « بني كتامة » الذي قد يشعر الى حد ما بميل لتأييد فكرة بنوة فروع كتامة لجد أعلى هو كتام ، أو كتامة كما جاء فى هذا المصطلح (126) .

وهناك اعتبار آخر لتوضيح سبب تسمية كتامة باسمها المشهور يمكن ان يشار اليه هنا ، وهذا الاعتبار فى نظر دعاة الاسماعيلية فى المنطقة هو الكتمان اذ زعم أبو عبد الله الداعي أمام ملا من وجوه كتامة ، أن اسمهم مشتق من الكتمان (127) .

والكتمان فضلا عن كونه مبدأ أساسيا عند الشيعة الاسماعيلية ، وغيرهم . وقد أراد الداعي أن يعرف به رجال كتامة ، هو اتجاه الساعة ، وقد كان غرض الداعي أن يوحى الى القوم بما يطلبه منهم ، ويفرضه الاتجاه الجديد ، وما يجب عليهم الالتزام به فى مثل هذه الفترة الدقيقة من حياة الدعوة الاسماعيلية فى بلاد المغرب .

ومما له علاقة ما باسم كتامة ، مصطلحان هامان ، ورد أحدهما عند مؤرخ مغربي مشهور ودرج الثاني على ألسنة العامة فى أكثر من جهة فى بلاد المغرب الأوسط . وله أصل اشتق منه ، معروف فى اللغة العربية .

فأما الأول فهو كلمة « الكتيم » (128) التي وردت لأول مرة ، عند ابن خلدون وقد تفرد بها عن سائر من أرخو للمغرب ، لتكون علما على سكان شبه جزيرة ايطاليا من اللاتين ، وذلك أثناء حديثه عن علاقة القرطاجيين بالرومان ، فى الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، وما نتج عن صراعهما فى نهاية الأمر ، من تخريب قرطاجنة 146 ق م ، ثم اعادة بنائها

---

126 ـ القلقشندي : نهاية الارب فى معرفة انساب العرب 405 ط القاهرة 1959 تحقيق الابياري ، ونص ما جاء فيه « بنو كتامة ، بطن من البرانس من البربر وهم بنو كتامة بن برنس بن بربر » ابن منظور : لسان العرب : انظر 412 (فصل الكاف ، وحرف الميم) امبرتوريزيتانو : تاريخ الادب فى صقلية 53 حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية 80 : المقريزي : اتعاظ الحنفا 1 : 55 هامش 1 ط 1967
M. Talbi : Op. Cit., p. 594. E.I., (Art Mahdi) : T. 3, p. 125-126.

127 ـ ابن الاثير : المصدر السابق 8 ، 12 .

128 ـ ابن خلدون : المصدر السابق 2 ، 398 ، 402 ـ 404 ـ وقد حرفت الكلمة فى (ط.بيروت) : الكيتم . ويلاحظ أن المصطلح لم يات عند المسعودي رغم انه تحدث عن تاريخ الرومان والروم ـ انظر مروج الذهب 1 ، 315 وما بعدها ط . 1965 بيروت .

فى وقت لاحق ، على أيدي الرومان أنفسهم . ونص كلامه « الخبر عن فتنة الكتيم ، مع أهل افريقية ، وتخريب قرطاجنة ، ثم بنائها على يد الكتيم ، وهم اللاتينيون » .

ويبدو ان العلاقة بين اسمي كتامة والكتيم ، هي فقط فى وحدة الاشتقاق وفى تشابه الحروف ، لأن ابن خلدون عندما فسر فى كلامه ما يقصده بكلمة الكتيم ، لم يترك مجالا لافتراض آخر . وقد أشار الى كلمة « الرومانيين » ، أثناء حديثه عن طابع العلاقة الثانية بين روما وقرطاجنة ، وهذا ربما يشعر بأن كلمة الكتيم عند ابن خلدون ذات دلالة شاملة لسائر سكان شبه جزيرة ايطالية بما فيهم عنصر الرومان .

اما المصطلح الثاني فهو كلمة « قطيم » التي تبدو فى الظاهر ، ودون اعتبار الفارق الشكلي فى رسم أوائل الحروف ، أقرب لكلمة (الكتيم) .

وقطيم ، فى عرف العامة تعني مدلولا سيئا ، ينصرف لنوع من السلبية والسلوك الفردي غير السوي ، بحيث لا يذكرها العامة ، الا عندما يكون أحدهم فى سورة غضب على غيره بسبب كونها مستهجنة وتنبو عن السمع ، والذوق فهل هي نفس كلمة « كتيم » وقد نالها التصحيف بواسطة النطق الشعبي ؟ وقد ترسبت فى المنطقة بسبب علاقاتها بالرومان ، فى جملة ما ترسب عن هذه العهود ، ونظرا لكراهية السكان لهم ولكل دخيل أطلقوها على من لا ترضى سيرته من السكان ، وبطول العهد اكتسبت الكلمة معاني جديدة تدور كلها حول الأخلاق الفردية . أو انها كلمة مصغرة لكتام جد كتامة ، وقصد بذلك التحقير ؟ وقد أطلقها على قبيلة كتامة ، أعداؤها تنقيصا من سمعتها ، لأنها أخذت بمذاهب يعتبرها جمهور السكان شذوذا وانحرافا ، أو لما أشيع عن بعض فروعها من انتشار عادات خاصة بينها تخالف عادات مجموع السكان .

أما فى ميدان اللغة فالفرق واضح بين كلمتي : كتيم ، وقطيم ، فمعنى الأولى أن شيئا معطلا عن أداء وظيفة ما ، فالجمل الذي لا يرغو ، والقوس التي لا تشق كلاهما كتيم فى المعنى اللغوي . اما الثانية فتعني الميل الى الشهوة الجنسية ، وحب الاهتياج فكل مشته شيئا ما ، فهو قطم أو قطيم ، وكل ما لا يؤدي ما هو مهيأ له عادة فهو كتيم والمدلولان معا يعبران عن العجز ، اما عن ضبط النفس ، أو عن أداء الوظيفة . وكلا الأمرين غير محمود فى الناس ، ومن ثم فكلتا الكلمتين كتيم ، وقطيم ذات أصل عربي فصيح .

واطلاق احداهما وهي الكتيم على اللاتين يبدو انه مصطلح خاص لمؤرخ من المؤرخين واطلاق الثانية على غير ممدوح الفعال اطلاق فى محله من

الناحية اللغوية وقد خص بها فريق كتامة ربما من طرف أعدائهم والمتنكرين لفضلهم كما أشرنا .

وآخر الاعتبارات فى محاولة تفسير اسم كتامة تتمثل فى توضيح الصلة بين كلمة كتامة العربية من جهة وكلمتي (Ucutamii) أو Ucutumani اللاتينيتين من جهة أخرى،وقد وردت فى بعض النقوش اللاتينية التيترجع الى العصر البيزنطي وتدل على وجود مجموعة من سكان قبائل جنوب منطقة جبل بابور ، يعيشون فى اطار نظمهم المحلية وتحت سلطة أمير منهم ، وهذه المنطقة فى نفس مضارب قبيلة كتامة .

وقد ورد شبيه لهذه الكلمة عند بعض مؤرخي وجغرافي الاغريق ومنهم بطلميوس القلوذي فيما يبدو ويعتبر بعض المؤرخين الاوربيين أن «الاكوتوماني » هم أصول قبيلة كتامة (129) .

ويلاحظ ان هذا النقش عثر عليه فى فج فيدول (Col de fedoules) الذي يقع بين ميلة وجيجل اي فى بيئة كتامة الاصلية (130) وبين حواضرها الكبرى .

ويبدو قياسا على أخذ العرب لكلمات أجنبية قديمة ومنها افريقية وطبنة ، ومقره، وطرابلس، واتطابلس، وغيرها ان كلمة الاكوتوماني ، وهي صيغة جمع فى اللغة اللاتينية ، هي نفس الكتاميين فى العربية وقد تصيد المؤرخون والرحالة المسلمون كلمة كتامة منها ، كما تصيدوا كلمة بربر ، وشاعت فى كتاباتهم واصبحت ذات طابع عربي وتلمسوا لها بعد ذلك أصولا نسبية كعادتهم وصرفوا النظر عن أصولها الأجنبية الأولى ، عند الأمم التي سبقتهم فى هذه البلاد .

اما الرواية الثانية الخاصة بأصل كتامة. فهي رواية النسابة والمؤرخين العرب (131) ومنهم الطبري وابن الكلبي ، وتنبني على أساس انهم من أصل عربي حميري جاءوا ضمن الجيش ، ثم ترسبوا فى المنطقة نتيجة تدبير

---

129 - Chr. Courtois : Les Vendales et l'Afrique. P. 121. M. Talbi : Op. Cit., p. 594.

130 - E.F. Gautier : Op. Cit., p. 339.

131 - ابن خلدون المصدر السابق 6 ، 301 الطبري . المصدر السابق 1 ، 105 - (ط.بيروت) : القلقشندي : المصدر السابق 405 ابن منظور : المصدر السابق والصفحة ، السمعاني : كتاب الانساب 356 عمر بن رسول : طرفة الاصحاب 12 . H.R. Idris : Op. Cit., p. 6. المقريزي : البيان والاعراب عما بأرض مصر الاعراب 50-51 وهنا يشير الى انهم من أبناء قيدار بن اسماعيل ، وهي رواية جديدة .

خاص ، بعد نجاح الحملة التي قام بها احد ملوك التبابعة ضد المنطقة وهو اما افريقش بن قيس بن صيفي ، واما افريقش بن ابرهة ذي المنار ، الذي مهد البلاد فسميت باسمه ومعنى هذه الرواية انهم طارئون على المنطقة أتت بهم الهجرة الحميرية والحروب وبقوا فى المنطقة بجوار سكانها لمراقبتهم وحفاظا على المكاسب السياسية التي تحققت على يد احد ملوكهم ، ومن يومئذ وهم فى أرجاء البلاد يملكون ما ملكوه فعلا بحق الفتح ولا يستبعد أن تكون قد وفدت عليهم هجرات أخرى ، دعمت جانبهم فى البلاد ربما يؤيدها أن الرواية تشير الى عدة حملات تنسبها لكثير من ملوك التبابعة ، وعلى ذلك فلا يستبعد توارد موجات بشرية أخرى .

ويطول العهد ، اندمج هؤلاء المهاجرون فى السكان ، واختلطوا بهم عن طريق المصاهرة والولاء أو الحلف وضاعت فكرة اعتبار الأصول الأولى ، الا من ذاكرة النسابة والمؤرخين .

أما ابن خلدون فقد اعتبر حملات التبابعة ضد بلاد المغرب ، من الاخبار الواهية ومن القصص ، والأحاديث الموضوعة لسببين :

أحدهما ، بعد المسافة بين بلاد اليمن والمغرب . وثانيهما تعذر وصول ملوك ــ اليمن ، الى هذه البلاد التي تفصلهم عنها بحار ، وعوالم برية وانظمة سياسية قوية دون أن يضموا هذه المناطق ، أو يذكر عنهم انهم اصطدموا بحكام هذه البلاد وبسكانها أو اتفقوا معهم على حرية العبور ، وعلى تسهيل التموين (132) .

واذا تأكد هذا حسب رأي ابن خلدون تسقط رواية أن بعض سكان البلاد من عرب حمير ، وقد بقوا فى المنطقة ويبقى بعد ذلك البحث عن أصل قبيلتي كتامة وصنهاجة فى اطار البحث عن أصل بقية اخوانهم سكان المنطقة كلها ، اذ الجميع فى نظره ذوو رحم ، وأصول واحدة (133) .

وابن خلدون فى هذه الآراء يبدو أنه متأثر بآراء ابن حزم الاندلسي لأن هذا الأخير يعتبر رواية حملات التتابعة فى بلاد المغرب ، من أكاذيب مؤرخي اليمن وقد نقل عن هؤلاء غيرهم من ذوي النزعة القحطانية ومن ثم شاعت من باب المبالغة والتفاخر اسطورة الغزوات الحميرية حتى فى بلاد الصين .

وميزة هذا النسابة الأندلسي ، أنه نبه الى حقيقة أخرى : هي الشك فى نسب التبابعة ، ووجود الخلط فى تاريخهم والمبالغة غير المقبولة فى تصوير

---

132 ــ ابن خلدون : المقدمة 16 ــ 18 ، هنري بريس : المنتخب من المقدمة وكتاب العبر 18 ــ 19 .

133 ــ نفسه 6 ، 192 هنري بريس : المصدر السابق 82 .

أعمالهم ، لدرجة يصعب معها تمييز شيء يتصل بهم وقد عبر عن هذه الحقيقية بقوله « وفى انسابهم اختلاف وتخليط ، وتقديم ، وتأخير ونقصان وزيادة ولا يصح من كتب التبابعة وانسابهم الا طرف يسير لاضطراب الرواة وبعد العهد » (134) .

* * *

وضبط كلمة كتامة له نوع من الأهمية بسبب أن أغلب الباحثين ينطقها بالكسر مثل صنهاجة ، والقليل من الباحثين ينطقها بالضم مثل غمارة .

ويظهر بعد تصفحنا لكثير من كتب اللغة والأنساب أن الضم هو النطق الصحيح وبه اخذ الباحثون القدماء . وهو الشكل المناسب لصيغتها اللاتينية التي جاءت فى النقوش (Ucutamii) بل أن بعض اللغويين والنسابة لا يكتفون فقط بالتعريف بها كقبيلة ضمن قبائل المغرب بل يشيرون الى كيفية نطقها تفصيلا رفعا لكل لبس ، واتقاء للتحريف فى النطق .

فالسمعاني يذكر فى ضبط الكتامي ــ أنه « بضم الكاف ، وفتح التاء ، والنسبة لكتامة ، وهي قبيلة من البربر ، نزلت ناحية من بلاد المغرب » ومثله ابن منظور فى « اللسان » ، والفيروز بادي فى « القاموس » وعمر بن يوسف بن رسول فى « الطرفة » والسيوطي فى « لب اللباب » .

وعلى أساس الضم ضبطها أغلب الباحثين الأروبيين ومن ثم كتبت (Ko-ku) أما القلة منهم ، ومن غيرهم فنطقوا بها بالكسر ، قياسا على جواز ذلك فى غيرها (135) ومهما يكن ضبط الاسم . فان المؤرخين الذين كتبوا عن كتامة كقبيلة وصفوها بالشهرة بين القبائل ، وبالكثرة العددية ، وبقوة اليأس والأصالة فى الملك ، والتمكن من أساليب الحضارة ، ثم الاعتزاز بالأصل والامتناع فى حمى البيئة عن الطوارىء وعن العناصر الأجنبية ، اكتفاء بالحياة الاجتماعية التقليدية واحترازا من تحكم الغير فيها واخضاعها للمغارم والاحكام .

ويشير ابن خلدون الى أنها كانت قبل الاسلام تنتشر فى جهات من بلاد المغرب كلها . وهذا الراي ان صح ربما يفسر الى حد ما بقاء جيوب كتامية فى غير أرض افريقية والمناطق الشرقية من ارض المغرب الأوسط الآن ،

---

134 ــ ابن حزم : المصدر السابق 411

135 ــ السمعاني : المصدر السابق 474 ، السيوطي : لب اللباب فى تحرير الانساب 219 ، الزركلي الاعلام 6 ، 71 ، عمر بن رسول : المصدر السابق 12 ط . دمشق ، 1949
E.F. Gautier : Op. Cit., p. 350-51 sq.
E.I. (Art Kabyles) : T. 2, p. 638.

حيث مضاربهم الأصلية التي اشتهروا بها منذ عصر الفتح الاسلامي (136) حتى وقتنا الحاضر .

ويضيف أن بقاياهم بعد « تغريبة » كتامة الى مصر ، وبلاد الشام ، كانت موجودة فى الجبال والبسائط بعضها ظل محتفظا باسمه القديم والبعض الآخر افتتن فغير اسمه ، وانتحل غير نسبه .

وبينما احتفظ الجبليون بتمنعهم عن أوامر السلطة . بعزهم القديم خضع سكان السهول ، للجبايات ، وطبقت عليهم الأوامر المخزنية .

ومن الفريق الأول سكان جبل بني زندوي ، وجبال جيجل ، وزواوة . ومن الفريق الثاني مجموعة قبائل سدويكش (137) .

وحدود منطقة كتامة — كما رسمها ابن خلدون فى عصره « تنتهي عند بجاية غربا ، وعند كتلة أوراس جنوبا ، الى سيف البحر عند بونة شمالا ، ويجمل ذلك فى قوله « من حدود جبل أوراس الى سيف البحر ، ما بين بجاية وبونة » .

وعيب هذا التحديد ، أنه يترك الحد الشرقي لمنطقة كتامة دون توضيح كما يجعل منطقة زواوة خارجة عن الاطار ، مع أنه يقرر هو نفسه ، أن زواوة جزء من كتامة . ويعني ذلك أن ما بين هذه الحدود التي عبر عنها ابن خلدون « بأرياف قسنطينة » هي مجالات كتامة ومضارب فروعها المختلفة منذ عصر الفتح حتى القرن الثامن الهجري . وينبغي أن نلاحظ بالنسبة لموضوع حدود كتامة ، أن وفد الحجيج الكتاميين ذكر للداعي الشيعي ، أن حد بلادهم خمسة أيام طولا ، وفى ثلاثة أيام عرضا ، كما وصفوا الأمصار القريبة منهم ، وهي بلزمة وسطيف وميلة بأنها على حدودهم (138) . أي أن مجال كتامة على هذا التحديد أصبح أقل اتساعا مما ذكره ابن خلدون .

ويمكن تحديد امتداد منطقة كتامة شمالا بخط وهمي على الساحل يبدأ من نقطة ما قرب مرسى الخرز (القالة) الى ماوراء مرسى تدلس فى أرض زواوة (139) .

---

136 — ابن خلدون : المصدر السابق 6 ، 301

137 — ابن خلدون : المصدر السابق 6 ، 302 — 303 ابو الفدا المصدر السابق 1، 97ط. مصورة من طبعة الحسينية .

138 — النعمان بن محمد : افتتاح الدعوة : ورقة 30 غ مكتبة جامعة القاهرة ، ويذكر المستشرق رينيه باسيه نقاوس ، وباغاية وتيجس وبلزمة وسطيف ضمن مدن كتامة انظر : E.I. (Art Ketama), T. 2, p. 909.

139 — تعرف الآن بدلس ، وهي تبعد عن مدينة الجزائر بحوالي 100 كم .

وفيما بين هذين الحدين توجد مواني : القالة وعنابة ، والقل وسكيكدة وجيجل وبجاية ودلس .

أما الحد الجنوبي فيمكن اعتبار جبل أعالي الناس من سلسلة جبال الأوراس وهو بين مركز انوغيسن قرب آريس ، وبو حمامة قرب خنشلة ، ثم جبال الحضنة الشرقية حدودا ينتهي عندها امتداد منطقة كتامة ، اما في جهة الشرق فالحد يبدأ في نقطة ما على الساحل قرب القالة ، ويمر عبر جبال النمامشة في اتجاه الجنوب تاركا تبسة ومسكيانة خارج الحد .

أما في الغرب فالحد يبدأ من نقطة ما على الساحل تقرب من دلس ثم ينزل بحذاء جبال تيتري ، حيث مضارب صنهاجة ، تاركا كتلة جرجرة التي تعرف بجبال زواوة داخل مجالات كتامة وضمن فروعها .

وفي داخل هذا العمق توجد قرى زواوة الجبلية ، ومراكز ومدن كتامة وهي :

قالمة ، وسوق أهراس ، وسطيف وايكجان ، وميلة ، وقسنطينة الهواء .

هذا عدا القرى الجبلية والسهلية والقصور المنتشرة هنا وهناك (140) ويتضح من هذا التحديد التقريبي لمجالات كتامة :

انها ذات حدود ساحلية تشرف على البحر ولها عليه عدة مواني‌ء معتبرة تكفل لها الاتصال بالعالم الخارجي ، وبالمراكز الحضارية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، فلم تكن من هذه الناحية تعيش في عزلة كالتي تفرضها عليها حدودها البرية ، التي تتضمن كتلا جبلية وهضابا هي النمامشة ، وأوراس والحضنة . وتحتضن بيئة كتامة كتلة جبال شمال قسنطينة وبابور وتابابور وتجاورها كتلة جرجرة ، ومعنى ذلك أن بيئة كتامة وبعض حدودها تشتمل على مراكز عزلة وأماكن نائية ، وتستعصي عمن يرومها وتفرض سيادتها الكاملة عمن يسكنون حولها ، وتغذي فيهم الى جانب روح العزلة ، روح التمرد أيضا وهذا ما قصده المؤرخون من قولهم أن هذه القبيلة تحرص على تقاليدها وتأبى الضيم ، وتمتنع عن الخضوع للسلطة .

ويصح نظرا لما لاحظناه من كثرة الكتل الجبلية حول ارض كتامة وفي داخلها أن نقول انها بيئة جبلية في مجموعها (141) .

---

140 — عن بيئة كتامة ، ومميزاتها . وفرع زواوة في منطقة جرجرة انظر :
E.F. Gautier, *op. cit.*, p. 338-39.

141 — Ibid, p. 341.

ولا تتوفر لهذا السبب الا على نسبة ضعيفة من السهول العالية الضيقة . ومع ضيق السهول ، فالطبيعة تجود بالأمطار الغزيرة ، ولذلك اشتهرت سهول عنابة وسكيكدة وسطيف ، بالخصب ، وبانتاج أجود الحبوب والفواكه والكروم ، والحوامض وتربية الفصائل الجيدة من المواشي .

اما المناطق الجبلية التي تتلقى كميات كبيرة من الأمطار والثلوج فان اهميتها تظهر فى الثروات النباتية والمعدنية ، وتتمثل الأولى فى الغابات التي تغطي مساحة كبيرة من شمال المغرب الأوسط ، وأهم انواع الأشجار هي : الفلين : (Chênes lièges) . الذي يكثر خاصة فى مناطق جيجل ، وبجاية والقالة وسكيكدة وعنابة والقل وجبال زواوة « جرجرة » وتقوم معامل لصنع السدادات وغيرها فى كثير من مدن المنطقة وتبلغ نسبة انتاج المنطقة نحو 85٪ من مجموع انتاج البلاد كلها وتليها أشجار الصنوبر البحري والحلبي فى منطقة جيجل وراس بوقرعون وهو يوفر مادة هامة فى البناء وفى بعض المصنوعات لا سيما الصمغ الذي يدخل فى صناعة الصباغة ، ويستخدم من الصنوبر ، الأعمدة التي تحمل الأسلاك الكهربائية .

وتوجد غابات أشجار البلوط (Chênes verts) أيضا فى جبال بابور ، والأوراس كما توجد أشجار الأرز (Cèdres) فى جرجرة وبو طالب والأوراس ، ونبات الحلفا يوجد فى منطقة البيبان ، وفى أشراف الحلفا فى منطقة أوراس وفى دائرة تبسة التي توجد على هامش منطقة كتامة ، وأشجار الزيتون تغطى مساحة كبيرة من جبال زواوة كما توجد فى قالة وسكيكدة أيضا وهما من مدن كتامة .

وتستغل غابات الجهة فى استخراج الفحم والأخشاب والأعشاب التي تدخل فى تركيب بعض الأدوية .

وتتوفر منطقة كتامة أيضا على انتاج ضخم من الحبوب . وأقاليم الحبوب هي نواحي سطيف ، وقسنطينة ، وقالمة ، وسوق اهراس ، ويظفر اقليم قسنطينة بالدرجة الأولى فى انتاج القمح ويقل انتاجه فى الكروم ، ومناطق غرس الكروم هي حوض وادي الصفصاف فى منطقة سكيكدة ثم سهل عنابة .

وتنتشر أشجار التين فى جرجرة وفى بجاية . كما تنتشر الحوامض فى عنابة وسكيكدة وبجاية أيضا (142) .

ويلاحظ أن التين المجفف ، وزيت الزيتون والخمور ، والحوامض . سلع تصدر الى الخارج .

---

142 ـ عبد القادر حليمي : جغرافية الجزائر 89 وما بعدها .

واهمية المناطق الجبلية فى كتامة ، تظهر ايضا فى وجود كثير من المناجم المستغلة . واهم المعادن فى الجهة ، الحديد والفوسفات والنحاس والرصاص والزنك واللازورد الجيد ، والجص ، كما يصاد المرجان فى بعض سواحلها .

وقد لاحظ الرحالة والجغرافيون الذين زاروا المنطقة وجود بعض هذه المعادن منذ عصر قديم (143) .

وهكذا نلاحظ : ان مجالات كتامة غنية بالمعادن غناها بالغابات وبالثروات النباتية والحيوانية وبالمواني الهامة التي تضمن حركة التصدير ، والاتصال بالخارج .

وينبغي فى هذا المجال ، أن نشير الى ملاحظات ختامية عن بيئة كتامة ومميزاتها واولاها :

— ان الطبيعة الجبلية الوعرة للمنطقة هي الظاهرة السائدة ، لهذا فالسكان يتصفون عموما ببعض خصائص سكان البيئة الجبلية ، من فقر ، وضيق أفق وعزلة عن التيارات ، ومحافظة على القديم .

— وتعتبر المنطقة قليلة الثروة والغنى ، لهذا السبب ، اذا قيست بمصادر الثروة الطبيعية والصناعية فى غرب البلاد (الجزائر) .

— ومنطقتها تعتبر أكثر ازدحاما بالسكان من غيرها . ومنطقة زواوة هي النموذج الأول للمناطق المزدحمة فى كامل البلاد (الجزائر) .

— وقد لعب موقعها الجغرافي ، وقربها من افريقية (تونس) والشرق نسبيا دورا كبيرا فى توجيهها الثقافي والروحي . فانتشر الاسلام ومظاهر الحضارة العربية منذ وقت مبكر ، بحيث يصح اعتبارها أكمل استعرابا من وسط البلاد يستثنى من ذلك منطقة زواوة ، التي لم تتمكن حركة الاستعراب فيها ، لصعوبة البيئة وعزلتها ، بسبب كتلة جبال جرجرة .

— ومنطقة كتامة تدخل فى اطار اقليم نوميديا بمفهومها الواسع . وحسب آخر التقسيمات الرومانية ، أصبحت فى اطار موريطانيا السطيفية ومركزها سطيف ، وهي على صلة قوية بسيرتة (قسنطينة) وعن طريقها تتلقى التأثير . ويمثل وادي امزاقة ، (الوادي الكبير) الذي يمر بجوار قسنطينة ويصب فى البحر ، فى مجالات كتامة دورا كبيرا فى جعل منطقة كتامة اكثر احتكاكا بالعناصر الاجنبية ، وبالتيارات الخارجية (144) ، واكثر استعدادا

---

143 — البكري : المصدر السابق 82 — 83 الادريسي : المصدر السابق 69 ابن حوقل : المصدر السابق 76 .

144 — E.F. Gautier : Op. Cit., 341.

لصنع الاحداث وتوجيهها . ولا غرابة فالمنطقة انجبت فى العصرين الوثني والمسيحي ماسنيسا ، ويوغرطة وجوبا الثاني، والقديس واغسطين والقديس دوناتوس الذين ارتبطت بهم اتجاهات الوحدة النوميدية ، والمقاومة ضد الاجنبي والتفتح على التيارات الخارجية (145) ومعنى كل ذلك ، ان التربة فى اقليم كتامة ، كانت صالحة للبذر ، وكان سكانها أرهف احساسا من غيرهم ، واميل لتقبل كل جديد ، ومن ثم لاحظنا أن سكانها كانوا ممن اخذوا بالاسلام ودانوا به ، بواسطة بعوث صغيرة ، ولم تطرقهم فيما يبدو الحملات الكبيرة .

ولم يؤثر أنهم ارتدوا عن الاسلام ، او نافقوا ، أو ثاروا ضد دعاته ، وربما ساعدنا هذا على التعرف على بعض الاسباب الصحيحة لاختيار بيئة كتامة كمنطقة لجوء أو مركز دعوة فى العصر الاسلامي .

* * *

والرحالة المسلمون الذين اهتموا بمنطقة كتامة وخصائصها ، اشاروا الى وجود نبع فى الجبال التي يوجد بقربها مرسى سبيبة ، أي فى الطريق الساحلي الذي يربط بين جيجل وبجاية ، وهذا النبع لا يظهر ماؤه الا خمس مرات على عدد صلوات اليوم وفى نفس وقت الصلاة وعرف هذا النبع بسبب ذلك ، عين الاوقات (146) .

ويشير بعض هؤلاء الرحالة الى وجود عين بهذا الاسم فى قلعة ايكجان (147) ينقطع جريانها فى غير وقت الصلاة وبالنسبة لغير المصلين ايضا .

بينما ذكر بعض الرحالة ، شبيها لهذين النبعين فى غير أرض افريقية وانما فى جزيرة صقلية وبالتحديد فى قلعة تعرف بشكلة (148) .

---

145 ـ الجيلالي : تاريخ الجزائر العام 1 ، 83 وما بعدها . الميلي : المرجع السابق 1 ، 131 ـ 163 : E.I. (Art Berbères) : T. 1, p. 716-717.

146 ـ البكري : المصدر السابق 33 وينسب القصة لاحد اطباء كتامة وهو ابو جعفر احمد بن محمد بن ابي خالد . انظر 82 ، 83 منه الاستبصار (لمجهول) 128 .

147 ـ المقدسي : احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم 241 : شارل بلا : وصف المغرب 52 (مستخرج من المقدسي) .

148 ـ ميشيل اماري : المكتبة الصقلية 156 ـ 157 (ط المثنى ببغداد) والنص من مسالك الابصار فى ممالك الامصار لابن فضل الله العمري ، الذي تلقف القصة بدوره من ابن منقذ سفير صلاح الدين الايوبي الى بلاط ابي يعقوب المنصور الموحدي ، وعن هذه السفارة انظر : الاستبصار (لمجهول) 107 المقرى نفح الطيب 4 ، 70 : 73 هامش 1 .

وفى مجال العادات والتقاليد ، نلاحظ ان الشجاعة وحماية اللاجىء ، وتوقير اهل العلم واكرام الضيف ، والثبات على المبدأ من اظهر صفات سكان كتامة منذ القديم (149) الامر الذي لم يخف على كثير من الرحالة والجغرافيين (150) .

والذي يلفت النظر أن بعض هؤلاء الرحالة ، انفرد برواية غريبة عن بعض عادات مألوفة فى جهات من منطقة كتامة (151) ويقصد بذلك عادة تقديم الكتاميين ابناءهم لمن أراد من الضيوف والنزلاء لا يمتنع من ذلك أحد منهم ، مهما كانت منزلته والقصد من ذلك اظهار المبالغة فى الكرم ، وأن يتلقى الصبيان الارادة الحسنة من النزلاء على حد ما رواه بعض هؤلاء الرحالة .

ويبدو أن رواية هؤلاء الرحالة تفتقر الى الاساس الصحيح ، ولا يوجد ما يبررها بين اناس أخذوا الاسلام دينا ، وتفقهوا فى مسائله والتزموا قواعده ، ولم يكن ينقصهم العلم بحرمة ذلك فى الشرع لوجود علماء وفقهاء فى بيئتهم ولا يجهلون أن ذلك مستهجن عادة ومخالف للذوق وللاخلاق السليمة .

واذا فرض ان ما قيل ، يتضمن شيئا من الحقيقة ، وانه ربما يرقى الى عادات قديمة قبل الاسلام ربما جلبها بعض المهاجرين من اقليم وجزر البحر المتوسط الذين عرف عن بعضهم بيع الاولاد لسداد الديون ، فلا داعي للاشارة الى ذلك كعادة خاصة ببعض السكان فى أرض كتامة .

هذا بالاضافة الى أن الشذوذ ظاهرة اجتماعية مرضية ، لم تسلم منها كل شعوب المعمورة ، ولا يصح فى المنطق السليم ، أن يقال : أن هذه الظاهرة المرضية تنتشر فقط بين هؤلاء السكان فى هذا المكان وتنعدم فيما سوى ذلك .

والاعتبارات التي تضعف هذه الرواية كثيرة نقتصر منها على أهمها :

أ) وفى المقدمة يلاحظ الباحث أن المؤرخين بدون استثناء حتى الذين اشتهروا منهم بقلة الضبط والتحري ، لم يشيروا الى هذه الظاهرة اطلاقا ، فى معرض حديثهم عن البربر ، وعن منطقة كتامة .

---

149 ـ ابن خلدون: المصدر السابق 6 ، 207 ، 211

150 ـ البكري : المصدر السابق 82 وما بعدها .

151 ـ الادريسي : المصدر 70 ، القزويني : المصدر السابق 163 ـ 164 : ابن حوقل : المصدر السابق 91 وما بعدها . M. Talbi : Op. cit., P. 598.

ولو وجد شيء من هذا القبيل لما أهمله مؤرخ البربر المشهور عبد الرحمن بن خلدون اثناء تعرضه لعادات البربر وتقاليدهم التي تقصاها في فصل كامل ذكر فيه خاصة انهم اشتهروا بالتدين وباقامة رسوم الشريعة وتوفرت بيئتهم على علماء ونبهاء .

ب) كذلك لم يشر الى هذه العادة ، من بين الرحالة على كثرتهم غير الادريسي الحمودي وابن حوقل ، والقزويني .

وكانت رواية ابن حوقل مضطربة وذات مسحة عامة اذ اثبتها لبعض من سكان سطيف ، ثم تراجع ، ونفاها عنهم أصلا (152) .

اما القزويني ، فلم يخص بها جهة معينة من كتامة ، وانما ذكرهـا صفة عامة لسائر البربر ، وهذا بدون شك مما يضعف روايته ، ويجعلها فاقدة للسند الصحيح ، والى الدقة في النقل . وكتاب القزويني حفل بأشياء غريبة عن غير كتامة لا يصدقها العقل ، وهذا ما يفقد الثقة في معظم ما يرويه .

ويظهر ان الشريف الادريسي راح ضحية النقل عن ابن حوقل الذي سبقه في العصر وان لاحظنا ان هذا الجغرافي ينفي هذه العادة عن سكان جهة سطيف ، ويلصقها بسكان جهة القـل (153) .

جـ) ثم أن البكري الذي اشتهر بالتحري والدقة ، واخذ وصف بلاد المغرب بأمانة عن محمد بن يوسف الوراق القيرواني ، ذكر من صفات كتامة اكرام الضيف لكنه لم يشر الى شيء مما أدعاه ابن حوقـل وتابعه فيه الادريسي والقزويني ، كذلك لـم يشر « اليعقوبـي » وهو اقدم رحالة زار المنطقة ولا العبدري الذي جرت عادته أن يتصيد العيوب ويسلط الاضواء على النقائص ، ولا المقدسي أو الحسن بن محمد الوزان فأغلب هؤلاء زاروا المنطقة ووصفوها نتيجة مشاهدتها عن قرب ولم يشيروا الى اية نقيصة من هذا النوع .

د) ويضاف الى ذلك ان دعوى ابن حوقل بأن الداعي الشيعي نكل ببعضهم بسبب هذا الشذوذ ، غير صحيحة ، لأن أحداً من أعظم كتاب سيرة حياة الشيعي وتطور الدعوة في منطقة كتامة ، وهو القاضي النعمان ، لم يشر الى مثل هذا النقص ، في اية جهة من جهات كتامة ولا ذكر اطلاقا أن الداعي عاقب أو حارب فريقا من كتامة لغير سبب يرجع الى النفاق عن الدعوة والى الانحراف عن العقيدة الاسماعيلية .

152 ـ ابن حوقل : المصدر السابق 93

153 ـ الادريسي : المصدر السابق 71

هـ) ويبقى بعد ذلك أن هذه الرواية ربما تلقفها بعض الرواة والاخباريين الذين نقل عنهم ابن حوقل وغيره من الرحالة عن بعض أعداء كتامة ومن كانوا يغارون منها لقوتها وصلابتها من جهة ثم لنصرتها لآل البيت واخذها بالمذهب الاسماعيلي الذي كان يعتبر فى نظر أهل السنة شذوذا من جهة أخرى .

وليس بغريب أن يكون هؤلاء هم الذين اطلقوا كلمة قطيم التي أسلفنا الحديث عنها . كما ذكر غيرهم من باب التشهير بالعرب أثناء حركة الفتح أن عمرو بن العاص شرط على بربر لواتة ، أن يبيعوا فى جزيتهم من احبوا من ابنائهم ونسائهم ، وأن الامر استمر ، حتى أبطله عمر بن عبد العزيز بقوله « من كانت عنده لواتية فليخطبها الى ابيها أو فليرجعها » (154)

ويبدو أن افتراض ظاهرة الانحراف فى بعض هؤلاء الرحالة والرواة لا يبدو بعيد الاحتمال والا لتعففوا عن ذكر ذلك فى كتبهم لما يتضمنه الخبر من الطعن والتشهير والقذف فى حق طائفة من المسلمين .

والرحالة فى العصر القديم ، هم فى القيمة والاعتبار احيانا مثل الصحفيين فى العصر الحديث يطربون للغريب ، ويبدءون بالفضيحة ، ويلفقون ويحسبون ذلك سبقا صحفيا أو علميا ، ومن ثم لا يستغرب أن تحفل كتبهم بما هو غريب ، ومن ذلك ، رواية بعضهم عن انتشار عادة أكل الكلاب فى سجلماسة (155) ، وعادة شرب الانزير فى تارودانت ، وهو شراب مسكر ثم عادة تحلل العوانس فى سن معينة ، من التقاليد والاستعداد للاستجابة السريعة لكل من يطلبهن للتمتع (156) .

ويذكر بعض هؤلاء الرحالة أن أهل السوس واغمات بدافع الحرص على جمع المال ، يكلفون نساءهم وأبناءهم بالتحرف ، والتكسب (157) . وأن أهل قابس يتبرزون فى الأفنية وكذا نساءهم (158) .

---

154 ـ البلاذري : فتوح البلدان 227 ، يوليوس فلهوزن : تاريخ الدولة العربية 285 .

155 ـ البكري : المصدر 148

156 ـ شعيرة : المرابطون 27 ، نقلا عن الادريسي

157 ـ البكري : المصدر السابق 163 ، ومن اغماتث هيلانه ، واريكة بجوار مراكش انظر : E.I. (Art Aghmat) : T. 1, p. 186.

158 ـ نفسه 18 . ويضيف الى ذلك قوله (ولا يكاد احد منهم يفرغ من قضاء حاجته الا وقد وقف عليه من يبتدر اخذ ما يكون منه لتدمين البساتين وربما اجتمع على ذلك النفر فيتشاحون فيه ، وكذا نساؤها لا يرين فى ذلك عليهن حرجا » .

و) ويلاحظ أن بربر كتامة ، توزعوا فى جهات من بلاد المغرب حسب رواية ابن خلدون ومنهم أسر فى بعض كور الاندلس ولهم فى هذه البلاد مدن وقرى وظهور عمن جاورهم ، وقد أشار بعض الرحالة الى شيء عن آثارهم فى غير المغرب الاوسط لكنهم لم يتعرضوا لشيء يحط من قيمة فريق منهم هناك ، فلو كانت هذه العادة موجودة بينهم لما اهملها هؤلاء الرحالة ولو كانت تقليدا قديما ورثته القبيلة عن أصولها الاولى لما صح أن يهمله فرع منها ، فى مهجره الجديد ، لذلك فانعدام الاشارة اليها فى هذه الجهات ، دليل على ندرتها ، أو على عدم وجودها أصلا .

ـ وما ينبغي أن يلاحظ هنا ، هو أنه رغم انقسام البربر ، الى بتر وبرانس وانقسام هؤلاء الى عدة مجموعات . فان الاحساس بالرابطة العرقية ووحدة الاصل والحرص على احترام العادات والتقاليد الموروثة من القبيلة الام ، ظلت قوية عند سائر البربر فى بلاد المغرب الاسلامي بما فى ذلك الاندلس .

* * *

ـ ويعتقد النسابة ان جميع بطون كتامة ترجع الى فرعين اساسيين هما غرسن بن كتام ، ويسودة بن كتام . (159)

وعن غرسن ، تتفرع بطون : بني يناوة ، وبني ينطاسن وبني ايان ، مع من أضيف اليهم من القبائل الأخرى مثل ماوطن ، ومعاذ وقلان .

1 ـ وفى اطار بني يناوة (160) تندرج فروع ، وعشائر أهمها :

أ) فرع جيملة وتنتشر عشائرها حول عدوتي وادي جندين ، قرب جيجل على البحر وتتوغل فى الداخل ربما حتى منطقة العلمة ، لأن اسم جميلة يوجد فى هذه الجهة ويطلق الآن على آثار المدينة الرومانية : (Cuiculum) (161) ، ونطقه الشعبي الدارج . فيه تحريف ، لأن اسم القبيلة انما هو جيملة ، وليس جميلة ، كما يرد عند بعض المؤرخين والباحثين (162) .

159 ـ ابن خلدون : المصدر السابق 1 : 188 (ط دوسلان) 6 ، 301 وما بعدها (ط . بيروت) ـ ابن منصور : المرجع السابق 1 ، 318 :
M. Talbi : Op. Cit., p. 595-596.

160 ـ يذكر ابن حوقل بالنسبة لمدينة نمالتة ، (مفنية) انها تقع على وادي ايناون 87 ـ 88 .

161 ـ E.F. Gautier : Op. Cit., p. 343.

162 ـ M. Talbi : Op. Cit., p. 601.

واسم جيملة موجود حتى الآن ، بين بلديات ولاية جيجل ، والطريق اليها من جيجل عبر قرية تاكسانة ، على مسافة 50 كلم الى الجنوب الشرقي ووردت كذلك بكثرة عند القاضي النعمان فى افتتاح الدعوة كما ورد فى شعر ابن ابي عقب ما يشعر بأن مركز الاحداث هو جيجل (163) ، والتي هي فى اطاره انما هي جيملة وليست جميلة البعيدة عنه . وبلدية جيملة الآن تشتمل على ثلاث وحدات ادارية وقبلية ، أو دواوير هي :

وحدة تمسجيدة ، ووحدة جيملة نفسها ، ووحدة بني عافر .

ولكل وحدة فروع ، فتمسجيدة تتضمن فرع بني زرارة الذين عرفوا بابن ياجيس فى المعهد الفرنسي ، ويتفرعون على مشاتي :

تسيطين ، وبوكرامة ، وتينقلاست ، وسطيطرة وبوشقايف وصيدا.

ثم فرع أولاد علاوة ويتوزعون على مشاتي : مرادة ، وتاعنصرت ، ورأس البور ، والاعشاش ، والقرافة ، والتمرة .

اما فروع أو دوار جيملة فتنتظم حوله مجموعات بني حسان والقرابلة ، واولاد عيسى وتايلامت .

وكل مجموعة من هذه المجموعات تختص بمشاتي ومضارب لا يشاركها فيها غيرها . وأهمها مشتى المحد ، فى مضارب القرابلة ، وهي مقر شيخ بلدية جيملة الآن ، ثم مشتى الخربة فى مضارب أولاد عيسى .

اما دوار (بني عافر) فيشتمل على مجموعات أولاد مدورة ، والزواعرة ، وأولاد زمارة ، ولكل مجموعة مضاربها الخاصة بها .

ويلاحظ ان جيملة ، ليست بعيدة عن قلعة أيكجان ، كما أن وفد حجاج كتامة فى مكة كان من بينه رجال من هذه القبيلة ، ومن بني سكتان أهم فروعها لقي الداعي الشيعي والحركة الشيعية التأييد والحماية .

ب) ثم فرع مسالتة ، وبقاياها يوجدون الآن بهذا الاسم فى قبيلة الساحل القبلي فى دوار (تالا ايفاسين) ، ويقع بين سطيف وآقبو ، ويبدو أن وادي مسالقة بين مدينتي قالمة وعزابة فى اطار بيئة كتامة ، منسوب

---

163 ـ النعمان : المصدر السابق ، ورقة 50 ونص البيت :

بعد كمال الماتين فى رجب — من جيجل ينهض جيش ذو لجب

الى قبيلة مسالتة ، لكن ناله التصحيف فى النطق الشعبي ، وفى بلدية الرواشد شمال فج مصالة ، وضمن دائرة ميلة يوجد الآن دوار باسم تسالة .

ونبغ فى مسالتة رجال أسهموا بجهودهم فى تأييد الداعي ، والحركة الشيعية فى كتامة . مثل هرون بن يونس او شيخ المشايخ .

كما تمسك بعضهم بالعداء لها حتى آخر لحظة من حياتهم ومنهم فتح بن يحي المسالتي الدي لقب بالامير (164) .

ج) أما فرع لهيصة ، الذي كان فى عهد الداعي ، يضرب فى نواحي ميلة وتازروت ويجوس خلال هذه المنطقة . فلم يبق فى بيئة كتامة فيما نعلم ما يدل عليه او يذكر به ولم نستطع رغم التنقل فى اكثر من جهة ، وسؤال أكثر من مجموعة ، التوفيق فى العثور على اي اثر من هذا الفرع ، والسبب فيما يبدو أن عدد أفراد هذا النوع كانوا قليلين ، وقد أكلت بعضهم الفتن والحروب ، وذاب بعضهم فى فروع أخرى سواء فى بيئة كتامة ، او فى مواطن هجرتها فى بلاد المغرب ، وصقلية وفى المشرق العربي .

والى لهيصة ينسب كثير من القادة بعضهم ، عارض الدعوة الشيعية بقوة ومن هؤلاء كناوة ، وابنه مهدي . وبعضهم الآخر انضم اليها عن عقيدة وناضل فى سبيلها ، ومن هؤلاء أبو مدين بن فروخ اللهيصي الذي مثل دورا هاما فى افريقية وأصبح واليا على برقة ، ثم لاوه بن صوحان (165) ، وأبو حميد دواس بن صولات ، الذي ولى تاهرت من قبل الداعي الشيعي بعد تصفية نظام الامامة الرستمية (166) .

2 — وعن بني ينطاسن تتفرع قبائل :

اجانة ، وأوفاس ، وغسمان .

فاجانة لا تعرف مواطنها بالتحديد ، ولكن يرجح نا بقايا هذه القبيلة توجد على هوامش الحد الاداري بين مدينتي الميلية والطاهير ، وبين جبل سدات والسيد بقرب قبيلة أولاد عسكر ، وتعرف فى هذه الجهة مع التحريف الشعبي ارجانة وفى نفس المكان يوجد وادي يعرف بوادي ارجانة

164 — انظر : النويري : نهاية الارب 26 ورقة 25 وما بعدها

165 — النعمان : المصدر السابق ورقات 65 ، 68 ، 69 وغيرها

166 — ابن عذاري : المصدر السابق 1،210 البكري : المصدر السابق 68 .

وكانت تنتشر فروع القبيلة حول ضفتيه فيما يبدو ويصب في وادي الرمل (امساقة القديم = الكبير الآن) ، الذي يصب بدوره في البحر قرب ساحل جيجل .

ويمكن ان يعد من ارجانة ، فريق بني ورجانة ، الذين يوجد بعضهم في منطقة شلية بكتلة اوراس ، وبعضهم حول مدينة سدراتة التل .

أما غسمان ، فترد عثمان أيضا ، ويبدو انه هو الرسم الصحيح ، ويدل عليه وجود فرع بهذا الاسم يضرب حول جبل الحلفا ، قرب فج مصالة « مزالة أيضا » وهناك قرية باسم وادي العثمانية ، لا تبعد عن عين ملوك ، القريبة من قلعة تازروت التي كانت موطنا قديما لقبيلة عثمان (167) ، والى هذه القبيلة ينتسب رهط بني عثمان ، ويوجدون في حوز مكناسة الزيتون في المغرب الأقصى (168) .

والناسخون هم الذين يوقعون الباحثين في الحيرة ، وذلك بالتعجيم حيث لا يجوز ، أو باهماله حيث يجب أحيانا ، أو بالزيادة أو بالنقص أو بوضع التعجيم في غير مكانه الصحيح أو بالتصحيف ، أو بالقلب أيضا .

والى ارجانة ينتمي كثير من القادة الذين اسهموا في تأييد الدعوة الاسماعيلية ، في كتامة وفي افريقية ومن أشهرهم ماكنون بن ضبارة ، وابن أخيه تمام بن معارك .

أما أوفاس ، فتحديد مضاربهم أمر غير ميسور ، لكن يبدو أن آثارهم توجد ضمن مضارب قبيلة الساحل القبلي ، مع آثار مسالتة ، وباسمها البربري « أيفاسين » يسمى الدوار ، اذا فكلمة ايفاسين هي كل ما يشير الى هذا الفرع المجهول من بني ينطاسن (169) .

3 ـ أما بنو ايان ، فلم يذكر ابن خلدون من فروعهم غير قبيلة ملوسة ، وتأتي أحيانا ملوزة (بالزاي) وبهذه الصورة ينطق بها الآن في المغرب الأوسط ، أما في غير المغرب الأوسط ، فقد اشار بعض الرحالة اليها باسم ملوثة (170) (بالثاء) .

---

167 ـ النعمان : المصدر السابق ورقة 63 وغيرها .

168 ـ ابن غازي : الروض الهتون في اخبار مكناسة الزيتون 1 ، (القدمة) ، احمد الكناسي : المرجع السابق 78 ، 87 ، وقد وردت بصيغتي بني عصمه وعصمان والنسبة اليها عصمي ، في النويري 26 ورقة 27 ـ 28 .

169 ـ De Slane : Histoire des Berberes : T. 1, p. 292.

170 ـ البكري : المصدر السابق 108

وآثارها في المغرب الأوسط ، تتمثل في قبيلة مشهورة بهذا الاسم توجد بجوار المسيلة وبقرب البرج وقد عرفت أحداثا دامية أثناء الحركة التحريرية بين رجال جبهة التحرير ، ورجال الحركة المصالية ، عرفت في حينها بمذبحة ملوزة .

ومن ملوزة ايضا ، فرع بني زولدوي سكان المنطقة الجبلية التي تطل على قسنطينة ، ويعرفون الآن ببني زونداي ، وفي أرضهم تقام سوق أسبوعية كل يوم جمعة ومن ثم عرفت بجمعة بني زونداي ، أو سوق بني زنداي ، وأحيانا أخرى تسمى (جمعة بابور) وترجع لدائرة جيجل . ومنذ قديم اشار بعض الرحالة والجغرافيين ، الى أن بني زونداي ، عندهم منعة واباء، وميل الى الخلاف ، والتشاجر مع بعضهم ، ولا يؤدون جبايتهم الا بالقوة . ونزعتهم الحربية قوية بدرجة أن صغيرهم وكبيرهم لا يسير الى أي مكان ، الا وهو شاكي السلاح ، مجهز بالرمح ، والسيف ، والدرقة اللمطية (171) .

ويوجد فرع آخر لملوزة ، مندمجا في اطار قبائل أولاد عبد النور شرقي جبل غروس ، كما توجد قرب مدينة القل الآن ، قرية كبرى تعرف باسم (تاملوس) وهو نطقها البربري .

وقد نبغ من هذه القبيلة (ملوزة) رجال كانوا ذخرا للداعي وللحركة الاسماعيلية ، وللدولة الفاطمية بعد قيامها في أرض المغرب ، ومن هؤلاء « عروبة بن يوسف ، وأخوه حباسة وغيرهما » وفي عصور تالية ، تشير بعض النصوص الى شخصيات علمية من هذه القبيلة ، كان لها شرف النهوض بالقضاء في مدينة قسنطينة ، وبخاصة في العصر الحفصي ، ومن بينهم المعروف بالملوسي الذي ولي القضاء ، سنة 870 هـ / 1465 ـ 1466 م خلفا لقاضي قسنطينة الذي يعرف بالجباس (172) .

ــ وقد أضاف ابن خلدون (173) لفرع غرسن ، قبائل :

---

171 ـ ابن خلدون : المصدر السابق 6 ، 302 الادريسي : المصدر السابق 69 ، ويصف سوقهم ، بانه في ارض مستوية قليل الحصانة . الاستبصار (لمجهول) 166 ، ويشير الى قرب جبل بني زولدوي من ميله ويذكر اسما مرادفا له هو جبل المتصل : وعن الدرق اللمطية واجود انواعها انظر البكري 171 ، شعيرة : المرجع السابق 18 ، عن نول كمركز هام لصناعتها .

172 ـ ابن الانبيري : علاج السفينة في بحر قسنطينة ورقة 197 اخ بالمكتبة البلدية بقسنطينة وعنه انظر : سعد الله : علاج السفينة . مجلة كلية الآداب العدد 2 ، 1970 (ص 3 ـ 8) .

173 ـ كتاب العبر 6 ، 302 .

ما وطن ومعاذ ، وقلان ، ويظن بالقياس على ما سبق انها أصول كبرى ، ولها فروع مثل غيرها ، من القبائل السابقة التي ذكرناها في مجموعات ، بني يناوة وبني ينطاسن ، وبني ايان لكن لم تذكر هذه الفروع لعدم معرفتها .

ويؤيد هذا الظن ان قبيلة من هذه القبائل الثلاث ، وهي معاذ تعرف مضاربها الآن في جهة الميلية باسم « بني معاذ » .

ثم أن ذكر ابن خلدون لهذه الأصول الثلاثة على انفراد يشعر فيما يبدو بقرب مضاربها من جهة ، وبارتباطها بواسطة القرابة المباشرة من جهة أخرى .

ويذكر ببني قلان فيما يرجح ، فرع منهم احتفظ بالاسم العام ، واستقر على مسافة قريبة من سطيف ، لأن المكان يحتفظ الى الآن باسم قلال انما يظهر ان التصحيف قد نال الحرف الاخير من الكلمة فعوض حرف النون باللام .

وكلمة ماوطن أو بنو ماوطنت ، قبيلة من كتامة: ينسب اليهم الغلام الحدث الذي يعرف بالماوطي وهو زعيم ثار في منطقة كتامة واخذ ميلة في عصر المهدي ، احتجاجا على تصفية بناة الدولة ، ودعاتها المخلصين وقد بويع اماما من طرف السكان (174) .

* * *

ـ أما فرع يسوده بن كتام فقد ذكر ابن خلدون من قبائله :

متوسة ، ودنهاجة ، وفلاسة ، ووريسن .

ـ فبقايا متوسة توجد الى الآن محتفظة بالاسم العام للقبيلة ، ضمن مجموعة قبائل الحراكتة بالعين البيضاء دائرة قسنطينة .

وضمن مضارب قبيلة جيملة المشهورة ويعرف فرع متوسة في هذه الجهة باسم « متوسين » .

وعلى بعد اثنى عشر ميلا من بجاية توجد قرية متوسة الى اليوم ، ومن أهم خصائصها كما ذكر بعض الرحالة وجود الجص الذي يحمل منها الى بجاية للتصدير ، واليها ينسب أبو العباس أحمد بن عثمان بن عبد الجبار

---

174 ـ ابن عذارى : المصدر السابق 1 ، 231 وفيه صحفت الكلمة الى المارطي النعمان : المصدر السابق ورقة 200 (273 ط . بيروت) .

المتوسي (ت 644 هـ / 1246 — 1247 م) وكان عالما راوية رحل الى المشرق للحج والدراسة ثم استقر فى بجاية للتدريس (175) .

وكانت قبيلة متوسة ، ضمن القبائل الكتامية التي وقفت ضد الداعي الشيعي وقاومته وانضمت الى الاحلاف التي أرادت أخذه عنوة من فرع بني سكتان .

ومن زعمائها فى هذه المرحلة زيادة المتوسي (176) .

وبقايا دنهاجة تحتفظ بالاسم العام للقبيلة ضمن قبيلة زردازة (دوار — بوطيب) فى دائرة سكيكدة فى الطريق بينها وبين عنابة وفى مضاربها يوجد سد زردازة على وادي الصفصاف الذي يروي سهول سكيكدة .

وقد ذكر اليعقوبي (177) ، فى هذه المنطقة ميناء باسم دنهاجة لا تبعد عن سكيكدة . كما أشار النعمان (178) الى قبيلة دنهاجة ضمن قبائل ميلة التي كادت للدعوة فى بدء أمرها ، ويبدو أنها انضمت اليها قسرا وتحصيلا لمكاسب خاصة .

وقد تضمنت احدى رسائل الاستاذ جوذر الى الخليفة المنصور شكوى ضد أحد عمال الدولة الذي استبد ، وضايق الاستاذ جوذر ، ويعرف بابن الدنهاجي (179) . ولدنهاجة فروع هاجر بعضها ، الى المشرق وبعضها الآخر استقر فى جهات من أرض المغرب الاقصى .

ولها فى هذه البلاد آثار ومراكز سنشير اليها ضمن مراكز كتامة . وبقرب قرية بني عزيز ، وغير بعيد من ايكجان توجد قرية باسم (الوريسية) وهي فيما يبدو تذكر بقبيلة وريسن وبمضارب فروعها (180) .

---

175 — ابو العباس الغبريني : المصدر السابق 109 — 110 وقد شاع لقب ماتوس بين بربر نفوسة ، انظر الشماخي : السير 276 ، وعن احتمـال اشتقاق الاسم من متوسه ، انظر :
M. Talbi : Op. Cit., p. 595, n° 6.
ويبدو ان فرضه ان يشعر ربما بانتماء متوسه الى قبيلة نفوسه والذي يلاحظ ان الاحتمال بعيد لان نفوسه من فرع البتر ، ومتوسه من كتامة وهي من فرع البرانس .

176 — النعمان : المصدر السابق ورقة 57

177 — البلدان : 103

178 افتتاح الدعوة ورقة 71 وما بعدها .

179 — العزيزي : المصدر السابق 70

180 — النعمان : المصدر السابق ورقة 75 وما بعدها (115 ط . بيروت) ذكـرت هذه القبيلة ضمن كتامة ميله ونواحيها اثناء صراع الداعي مع أحلاف كتامة المعارضـة للدعوة .

والى الآن يوجد فرع من السكان بنفس الجهة في دوار ريشية (دائرة العين الكبيرة) يعرفون (بوطانه) فلعلهم الأثر الذي يذكر بقبيلة لطانة التي انتسب اليها بعض قادة كتامة المعادين للدعوة الاسماعيلية : سيما وأن القاضي النعمان ذكر لطانة ضمن قبائل جهة ميلة ، أي في نفس هذه المنطقة (181) .

وأضاف ابن خلدون لقبائل كتامة ، نقلا عن نسابة البربر فروع بني يستيتن وبني قنسيلة ، وهشتيوة ، ومصالة ، ثم زواوة بجميع بطونها في نظر النسابة الأندلسي ابن حزم .

وبقايا بني يستيتن ، تتمثل في قبيلة تعرف (يستيتن) قرب قرية البيض في الصحراء الغربية (الجزائر) وانتقال هذا الفرع عن مضارب كتامة يظهر أنه تم في عصور قديمة بسبب الاحداث التي شهدتها المنطقة منذ أواخر القرن 3 هـ . وترتب عليها هجرة فروع أخرى الى غير هذا المكان .

وفي اطار قبيلة بني كلال جهة دبدو في اقليم وجدة قرب الحدود الجزائرية المغربية يوجد فرع من بني يستيتن (182) .

أما مصالة ، أو مزالة فبقاياها تمثلها قبيلة بهذا الاسم شمال غربي مدينة بجاية على بعد ستة وعشرين كم . ومزالة تطلق الآن على احدى مدن منطقة فرجيوة بل هي قاعدتها وتوجد في عمق مضارب كتامة ، وتعرف المدينة بفج مزالة الذي كان من المرجح حتى الآن ان يكون هو الذي سماه الداعي باسم « فج الاخيار » أمام جمع من كتامة ، غير أنه لم يثبت وجود أثر لقبيلة أو لبطن ما باسم الاخيار أو الخيار باعتبار أن المقصود في نظر الداعي انما هو الاسم وليس الوصف ويبدو أن اسم خيار ولقب خياري يوجدان في بعض جهات افريقية (تونس) .

ولو لم يوجد في المنطقة غير الفج المنسوب لمصالة لكان الاحتمال راجحا غير أن هذه المنطقة بحكم طبيعتها هي كثيرة الفجوج .

ومما له علاقة بمزالة وجود دوار (183) في أرض كتامة يعرف باسم المزلية ، ربما لاستقرار فروع من مزالة في هذه الجهة .

---

181 — وردت لطابة في النويري ج 26 ورقة 26 ، وهو تصحيف .

182 — ابن منصور المرجع السابق 1 ، 321 ويذكر الشماخي بني يستيتن ضمن قبائل منطقة جبل نفوسه انظر السير ص 416 :
De Slane : Op. Cit., T. 1, p. 298.

183 — والدوار يرادف الشتى ويدل على الفحص الخاص بقبيلة او بفرع منها

وتشيع القاب مصالة ومصالي ومزالي فى جهات من بلاد المغرب قديما وحديثا ومن ذلك مصالة بن حبوس المكناسي وقائد المهدي المشهـور . ومصالي اسم لشخصية سياسية تنتمي لمدينة تلمسان ومزالي وهو راس اسرة تولت فى تونس أرفع المناصب السياسية قبل الاستقلال .

ـ أما زواوة فقد اضطرب النسابة فى أصلهافاعتبرهابعضهم فرعامن كتامة أي من البرانس بينما مال البعض لاعتبارها مثل قبيلة زواغة يجمعهما أصل واحد هو : سمكان بن يحي بن ضريس بن زحيك بن مادغيس الأبتر (184) فهي على هذا الراي من فرع البتر ومن ضريسة وبطن بني يحي منها بنوع خاص وهو البطن الذي تنتمي اليه فروع زناتة .

وتردد ابن حزم فذكرها مرة ضمن قبيلة ضريسة البترية (185) وعاد مرة أخرى عندما تحدث عن أنساب البيوتات البربرية فى الأندلس فجعلها ضمن كتامة (186) وتأثر ابن خلدون (187) بهذا الاضطراب الذي حصل لابن حزم فتحدث عنها مع فروع قبيلة ضريسة الى جانب زواغة . وفى مكان آخر أشار اليها كفرع من قبيلة كتامة (188) غير أن ابن خلدون مع تقليده الحرفي ، لابن حزم فى هذه الناحية أخذ برايه الراجح فى اعتبارها فرعا من كتـامة .

واستند على تشابه البيئة واتصال البلاد ببعضها ثم على سرعة أخذها بالمذهب الشيعي الذي تبنته كتامة ونشرته فى الآفاق المغربية بدافع العصبية حتى صارت زواوة من أشد أولياء كتامة (189) تعلقا بها ، ودفاعا على كيانها واي مبرر لذلك ، غير الشعور بوحدة الأصل والمصير . ويشير ابن خلدون الى هذا المعنى بقوله (والمواطن أوضح دليل عليه ، والا فأين مواطن زواغة وهي طرابلس وبالمغرب الاقصى من مواطن كتامة) .

ويفسر خطأ النسابة على أساس وقوع التصحيف الجزئي ، بحيث وضع الواو محل حرف الزاي من اسم زوازة فصار زواوة واستمر هذا التصحيف وعلى أساسه جمعت زواوة وزواغة فى نسب واحد .

---

184 ـ مفاخر (لمجهول) 71 .
185 ـ ابن حزم : المصدر السابق 462 .
186 ـ نفسه 463 ، 467 .
187 ـ ابن خلدون : المصدر السابق 6 ، 261 وما بعدها .
188 ـ نفسه 6 ، 308 .
189 ـ نفسه 6 ، 363 .

انما يلاحظ هنا ان ابن خلدون نسي انه لم يذكر اطلاقا ضمن قبائل البتر اسم قبيلة زواوة « بالزاي » ، لهذا يبدو أن الاسم الذي ناله التصحيف انما هو اسم قبيلة زوارة (بالراء) وهي تضرب حول مدينة بهذا الاسم ، فى اقليم طرابلس (ليبيا) وتعتبر فعلا من اخوة زواغة التي اعترف ابن خلدون بأنه لم يعرف عن اخبارها غير القليل (190) .

* * *

وزواوة هي الفرع الوحيد من بين فروع كتامة التي لم تستعرب الا بنسبة ضئيلة لأن بيئتها ، تمتد عبر جبال شاهقة وأوعار وفجوج وجبالها هي أولى الكتل الجبلية فى سلسلة الأطلس البحري (درن) ارتفاعا ، وأعلى قمة فيها هي « لالا خديجة » .

وقد عرفت جبالها عند الرومان باسم جبال الحديد (Mont Feratus) 191) ، وذكرها الادريسي باسم جبال جرجرة لأول مرة (192).
وقد تنسب الى القبيلة فتعرف بجبال زواوة . وبذلك وردت فى كتاب :

الحسن الوزان « ليو الافريقي » . أما الذي اقتبس منه نصوصا مختارة فقد التبس عليه الأمر فصحفها الى صيغة (رزارة) (193) (Zarara)

ووصف ابن خلدون بيئة زواوة ، وطباع أهلها بقوله « وجبلهم ما بين بجاية وتدلس وهو أعصم معاقلهم وامنع حصونهم فلهم به الاعتزاز على الدول والخيار عليها فى أعطاء المغرم » .

وزواوة فى الواقع ليست قبيلة واحدة ، بل مجموعة من القبائل اهمها : بنو مليكش وبنو كوفى ، ومشدالة ، وبنو رزيق وخوجة وبنو مزاتة ، وبنو منقلات وبنو غبرين .

فبنو مليكش ، منتشرون فى دائرة آقبو حتى البحر . وبنو كوفى فى جرجرة فى أعلى جبل فيه مقام أبي عبد الرحمن الكشطولي وينطق بها هناك آيت كوفى ومن بينهم قوم يدعون الشرف ومشدالة فى دائرة آقبو قرب

---

190 — العبر 6 ، 264 و 309 أيضا ومن وصف هاتين القبيلتين انظر : العبدري : الرحلة المغربية 69 ، 71 ومن مضارب زواغة فى المغرب الاقصى انظر البكري المصدر 117 ، 154 .

191 — الميلي : المرجع السابق 1 ، 187 ومن مصطلح « درن » انظر البكري : المصدر السابق 155 ، 160 وفيه انه يتصل الى القطم بمصر .

192 — الادريسي : المصدر السابق 63 .

193 — A. Benachenhou : Op. Cit., p. 184.
Léon L'Africain : Op. Cit., p. 406.

تازمالت وبنو رزيق وبنو منقلات بناحية بجاية وبنو غبرين بناحية العزازقة ومثلهم خوجة وبنو مزاتة يوجدون فى منطقة البيبان (194) اما بقايا زواوة فى فاس (195) ، وفى الونشريس (196) فلا تعرف نسبتها من بين هذه القبائل .

* * *

ولاستكمال مناقشة توزع كتامة وزواوة فى مضاربها فى بلاد المغرب الاوسط نلاحظ :

ـ ان ابن خلدون وهو المصدر الهام والرئيسي فى الموضوع لم يكن موفقا فى توضيح حدود قبيلة كتامة فى مهدها الاصلي مثل عدم توفيقه أيضا فى تحديد مضارب فروع كل قبيلة منها ، أو على التحديد لم يوضح مثلا أين تقع مضارب فرع غرسن ؟ وما هي مواطن فرع يسوده ؟

ـ ثم انه أهمل تحقيق نسبة بعض فروع من قبيلة كتامة مثل مصالة وحقه ان يرجعها مثل غيرها ، من الفروع الى أصلها النسبي .

ـ ولم يستوف الحديث عن كامل الفروع التي تنسب الى هذه القبيلة الكبرى فلم نجد أثرا لفرع لوزة مع انها مشهورة بهذا الاسم حتى الآن تحتفظ به بقاياها ، وتوجد فى مشتى ينتسب اليها (مشتى لوزة (Lucet) فى دوار تاسدان جنوب مدينة فج مزالة . والى الشمال الغربي من آثار جميلة .

ـ ولم نجد فى ابن خلدون ذكرا لقالمة كفرع من قبيلة كتامة ولا اشارة عن مضاربها الاصلية مع انها ذكرت عند بعض الرحالة مثل ابن خرداذبة والادريسي بهذا الاسم (197) ، وفى نفس منطقة كتامة ومن بقاياها الآن فرع صغير ، ثم اسم مدينة قالمة فى اطار ولاية عنابة ، وقد أشار القاضي النعمان اليها أثناء توسع الداعي فى منطقة ومراكز كتامة (198) .

ـ كذلك أهمل ابن خلدون ذكر فرع بني خطاب من كتامة مع أن ابن واضح اليعقوبي يذكر من بين مراسي ميلة ، قلعة خطاب (199) .

194 ـ ابن خلدون : المصدر السابق 6 ، 262 وما بعدها .
195 ـ الادريسي : المصدر السابق 53 ويوجد لقب الزواوي فى ليبيا وفى دمنهور ايضا .
196 ـ نفسه : 58 .
197 ـ الادريسي : المصدر السابق 35،63،68 ابن خردادبه المسالك والممالك 90 .
198 ـ النعمان : المصدر السابق ورقة 142 .
199 ـ اليعقوبي : المصدر السابق 102 وما بعدها (ط . النجف) توفيق المدني الجزائر 118 .

ـ ولم يشر ابن خلدون الى فرع بني سكتان ، أثناء تفريعه كتامة الى بطونها المعروفة مع انهم أهم من القبائل التي ذكرها الى جانبهم فى بداية الدعوة الاسماعيلية وفى تقرير مصيرها ، فى أرض كتامة وفى المغرب كله . وتوجد آثارهم بجوار قلعة ايكجان ، على سفوح جبل سيدي ميمـون ويعرفون ببني سكفان . كما لم يذكر فرع بني سليان (200) ، وأثرهم باق تذكر به قرية سليانة التي أصبحت تعرف باسم (علي علوش) وهي بقرب قرية « الجرارم » .

ـ يضاف الى ذلك أننا لم نلحظ عند ابن خلدون اي فرع من فروع كتامة افريقية والمغرب الاوسط ، قد احتفظ بالاسم العام للقبيلة الأم ولو لمجرد الذكرى ، ولا أثرا لاسم كتامة فى هذه الاماكن ، ولا لمدينة او قرية أو قصر بهذا الاسم واذا أخذنا بما جاء فى ابن حوقل تكون مدينة كتامـة (201) قد اندثرت فى عصور الفتنة والاضطراب ، مثل سيبوس ومتيجة وشلف (202) وغيرها . كذلك وجدنا الفروع الكتامية التي هاجرت الى المغرب الأقصى لم تأخذ غير الاسماء القديمة لفروعها ، كما احتفظ بعضها بالاسم العام للقبيلة الكبرى ، اسوة ببعض فروع صنهاجة فى بيئة المغرب الاوسط .

* * *

ـ ويلاحظ أن تيار الهجرة من منطقة كتامة كان مستمرا وقد اتجه مبدئيا نحو المغرب والاندلس واتخذ شكل جماعات صغيرة أو فروع غير كبرى ، لكنه قوى فيما بعد نحو المشرق فى العصر الفاطمي و لزيري ، حيث اتخذ شكل الهجرة الجماعية لكل القادرين على حمل السلاح بأسرهم ولم يبق فى منطقة كتامة غير ضعفاء القوم كما لم ينقطع تيار الهجرة نحو المغرب أيضا .

وبينما اختصت جهات من المغرب الاقصى والاندلس ، بفروع من ملوسة ودنهاجة وبني يستيتن وزواوة توجهت الى مصر أكثر فـروع كتامـة ، يضاف اليها زواوة وسكان زويلة وصنهاجة ايضا .

ـ وآثار كتامة فى المغرب تتمثل فى بقايا فرع ملوزة ، التي تندمج فى اطار قبيلة انجرة المغربية وتوجد مضاربها بين سبتة وطنجة .

---

200 ـ توفيق المدني : المرجع السابق 118 (يذكر فرع بني سلين) وعن بني سكتان من قبيلة جميلة فى ايكجان انظر : النويري المصدر السابق 26 ورقة 26 .

201 ـ ابن حوقل : المصدر السابق 90 .

202 ـ نفسه 89 ، البكري المصدر السابق 65 .

وقد اشار البكري (203) الى قرية باسم هذه القبيلة فى الجهة ، وقد لاحظتها بنفسي منحرفة عن الطريق الرئيسي الذي يربط طنجة بتطوان وفى هذه المنطقة توجد فروع من أوربة وصنهاجة وغمارة .

ـ ثم فى بقايا فرع دنهاجة بناحية القصر الكبير ، ويوجد بين طنجة وفاس ويقرب من الساحل . ويعرف بسبب ذلك باسم قصر دنهاجة (204) كما يعرف بقصر كتامة وأحيانا باسم قصر عبد الكريم ، أحد شيوخ كتامة البارزين (205) .

ـ هذا بالاضافة الى بقايا أخرى اندمجت فى فروع من قبيلة صنهاجة فى ناحية مراكش (206) .

ويلاحظ أن التكامل فى البيئة ، وفى التفكير السياسي وفى الرابطة العرقية الذي كان سمة تجمع كتامة وصنهاجة حتى أن النسابة ، والمؤرخين لا يذكرون احداهما منفصلة عن الاخرى الا ندورا احتفظت به فروعهما فى مواطن هجرتها الجديدة فى المغرب والاندلس وفى مصر أيضا (207) .

واشار البكري الى بقايا لدنهاجة فى أحد القصور القريبة من مدينة البصرة وجبل صرصر وهما من ضمن مجالات كتامة فى المغرب (208) .

ـ وتحتفظ الى الآن بالاسم العام للقبيلة الام (كتامة) فروع منها توجد فى شمال المغرب أي فى منطقة الريف وناحية الحسيمة (المزمة وهي قرب نكور القديمة) فى ضمن مجالات صنهاجة السرائر وتتعايش سلميا مع فروعها فى هذه الجهة ومنهم بنو أحمد وبنو يشير وبنو يوشبيت وتغزوت وبنو خنوس وبنو سدات (209) .

---

203 ـ المصدر السابق 108 .

204 ـ الاستبصار (لمجهول) 189 وهنا نلاحظ خطأ مطبعيا حيث جاء باسم قصر صنهاجة ويوصف بعاصمة كتامة فى شمال المغرب الاقصى انظر :
Léon L'Africain : P. 252, n° 39.

205 ـ ابن خلدون : المصدر السابق 6 ، 301 ـ 302 الادريسي : المصدر السابق 53 ، 108 ـ 109 الزياني المصدر السابق 80 .

206 ـ نفسه 6 ، 307 .

207 ـ E.F. Gautier : Op. Cit., 338-39. ويعد ان لاحظ ان كتامة لا تظهر فى التاريخ العربي الا مع صنهاجة ذكر ان ذلك اصبح صورة مكررة Cliché courant

208 ـ البكري : المصدر السابق 110 وقد لاحظنا من قبل اندماج فرع بني يستيتن فى قبيلة بني كلال فى اقليم وجدة وجنوب جبل بني يزناسن .

209 ـ ابن منصور المرجع السابق 1 ، 334 .

ـ وقد لاحظ ابن حزم (210) الاندلسي في عصره (ق 5 م / 11 م) وجود عدة بيوتات واسر كتامة موزعة على البيرة (211) والبونت وشقندة من كور الاندلس . فكان في البيرة بنو مهلب يتمتعون بمكانة كبيرة في المنطقة ووصل بعض رجالهم وهو محمد بن ملهب الى مرتبة الكتابـة الخاصـة للوزير مفرج .

واستقر في البونت بنو قاسم بوصفهم أمراء وحكاما لها وكانوا ينتمون عن طريق الحلف الى قبيلة فهر الفرعية فلعلهم من بقايا جند يوسف بن عبد الرحمن الفهري أحد ولاة الاندلس قبيل عصر الامارة الاموية وربما يكون أجداد هؤلاء هم الذين استضافوا عبد الرحمن بن حبيب الفهري وآووه في بلادهم في كتامة عندما كان طريدا . وبقي أثر الرابطة في ذاكرة القوم ورثوا أخبارها عن أسلافهم وتناقلها الرواة وتمسك بها بنو قاسم ليكون لهم سند شرعي في الحكم وهيبة وتقدير عند العرب ، وحق في الحماية على رجال النزعة القيسية في الاندلس .

وظاهرة الانتساب الى قوم عن طريق الحلف توجد هنا وهناك في بلاد المغرب والاندلس ، ومن أمثلتها طارق بن زياد الذي عرف بالليثي ويحي بن يحي الليثي وتعكس امكانية وجود الرابطة بين أي قوم للحفاظ على ما يعتبر في نظرهم مصلحة حيوية ضد عدو مشترك (212) .

ومن بيوتات كتامة ، في شقندة بنو مشرف وهم ينتمون الى فرع زواوة الذي هو من بين فروع كتامة الكبرى على أرجح الآراء .

ـ وتشير بعض النصوص التاريخية الى ان أهم عناصر سكان جربة من كتامة ، ومن بينهم قبيلة صدغيان احدى فروع مجموعة سدويكـش الكتامية ثم قلالة وهي من كتامة (213) أيضا ولاحظ بعض الرحالة الذين زاروا بالرم حاضرة صقلية انه لقي بها رجلا من كتامة سماه أبا الحارث فحلا بن فلاح من فروع لهيصة وقد حدثه عن تفاهات بعض قضاة المدينة

---

210 ـ المصدر السابق 466 .

211 ـ وقد لاحظ اليعقوبي : البلدان 105 ان هذه المدينة نزلها من كان قدم البلد من جند دمشق من مضر وجلهم قيس وافناء العرب . بحيث لم يذكر فيها اثرا لعنصر البربر فضلا عن كتامة وهذا يدل على حدوث الهجرة فيما بعد عصره .

212 ـ المقري : نفح الطيب 6 ، 16 هامش 1 ص 23 وكان بربريا من مصمودة اسلم جده على يدى يزيد بن عامر الليثي فنسب اليه انظر عياض : ترتيب المدارك 1 ، 534 .

213 ـ ابن خلدون : المصدر السابق 6 ، 848 اماري المصدر السابق 494 ـ 495 ، ويلاحظ ان التفسير الدارج لكلمة سدويكش هو « شدواكمش » :
E.I. : (Art Djerba). T. 1, p. 1066-68.

ومنهم : ابو اسحاق بن الماجلي البرفجاني (214) ، مما يشير الى ترسب بعض فروع من لهيصة في جزيرة صقلية (215) .

ـ والظاهرة التي تلفت النظر هي عدم وجـود بقايا ظاهرة من فروع كتامة في كل من تونس (اذا استثنينا جربة) وطرابلس وبرقة مع ان هذه البلاد كانت مجالا خصبا لنشاط كتامة وموطنا لاستقرار كثير من رجالاتها خاصة في العصر الذهبي وهو عصر قيام الخلافة الفاطمية وتوسعها في ارجاء المغرب العربي .

وقد اشار ابن حوقل وغيره الى عدة مراكز لقبيلة كتامة في مجال افريقية وعبر طريق القيروان ـ المسيلة (216) .

ويبدو ان السبب في اختفاء بقايا كتامة في افريقية (تونس) هو السبب في اختفاء اسمها الاصلي القديم من بيئتها الاولى اي يرتبط بنهضة السنة وحرص رجال المالكية في افريقية على طمس كل ما يتصل بهذه القبيلة المبتدعة في نظر جمهور السكان .

اما ارض طرابلس ، وبرقة فلم تكن غير القواعد الامامية والمعابر الضرورية الى ارض المشرق ومن ثم لم تترسب فيها عناصر كتامية الا بالقدر الذي يهيء لمشروع الانتقال الى المشرق والاحتفاظ بولاء المغرب بعد الاستقرار في مصر .

وكانت مصر بالنسبة لقادة كتامة هي مركز الجذب ونقطة الارتكاز لكل من اراد الظهور والمجد في ميادين السياسة والجندية .

ومن هذه الناحية تعتبر مصر الوطن الثاني لقبيلة كتامة حيث ظهرت هناك على غيرها من قبائل المغرب وطوائف المشرق ايضا حتى عصر المستنصر بالله ووزارة بدر الجمالي (217) .

* * *

ـ ويبدو ان تيار هجرة كتامة نحو المغرب والمشرق وتوالي الحروب والفتن في المنطقة وانتعاش السنة بنهضة المالكية وسياستهم في تتبع واضطهاد

---

214 ـ وعن قبيلة برفجانة البربرية التي كانت تضرب حول مدينة تاجنة وتاهرت القديمة انظر البكري : المصدر السابق 66 ـ 67 .

215 ـ ابن حوقل : المصدر السابق 119 .

216 ـ المصدر السابق : 87 الادريسي : المصدر السابق 89 .

217 ـ وعندنا امثلة عن قادة كتاميين في برقة سحبوا الى مصر او استجيب لرغبتهم في الانتقال اليها ومنهم ابن يخلف وافلح الناشب وغيرهما انظر المقريزي : اتعاظ الحنفا 1 : 247 ، 216 . ط الشيال 1967 .

المتشيعين هي من بين العوامل التي تفسر ظاهرة تناقص عدد قبيلة كتامة في بيئتها الاصيلة وذهاب مجدها وصيرورتها أقلية مذهبية صافرة في بيئة لا تعترف بغير المذهب المالكي وقوة العدد وكمال العدة على حد قول القائل « انما العزة للكاثر » .

وظواهر تناقص العنصر لكتامي ونضوب معينه وتأخره وفقره ثم كرمه الزائد على الحد لاحظها الرحالة والجغرافيون واخصهم الشريف الادريسي الحمودي الذي أشار الى أن كتلة كتامة العتيدة لم يبق منها وقت تأليفه لكتاب « نزهة المشتاق أو الكتاب الروجاري » الا قدر يسير حدده بنحو اربعة آلاف رجل فقط وفي شيء من الاستغراب لاحظ أنها كانت من قبل تتضمن عددا كثيرا وتنتظم تحت لوائها قبائل وبطون وافخاذ موزعة على الجبال والسهول والسواحل (218) .

ـ وقد أكد وفد حجاج كتامة للداعي أبي عبد الله هذه الحقائق لكنهم اعترفوا بجهلهم لاحصاء عدد قبيلة كتامة كلها (219) .

وقد تطرق الادريسي لهذه الحقيقة أثناء حديثه عن سياسة حكام المنطقة تجاه بعض فروع كتامة في جبال القل بسبب مبالغتهم في اكرام الضيوف ، التي انبنت على التنكيل والترويع والقتل والابادة لكن ما تحولت هذه الفروع بالقهر عما ألفته من تقاليد ، لا ترى فيها حسب زعمه نقيصة أو عـارا .

ومما ذكره عن بقية فروع كتامة في سطيف التي لا تستجيز مجرد الحديث عن هذا الفعل أو ذكره نستنتج ان عناصر طارئة من الخارج اندمجت مع سكان منطقة القل الساحلية . وهي فيما يبدو التي كانت تمارس هذا العمل وبقوة تأثيرها وطول جوارها لأناس بدائيين انتشرت هذه العادة جزئيا بين أفراد المنطقة ونص كلامه « واعف قبائل كتامة واقلهم فعلا لهذا الفن من كان في جهة سطيف لأنهم من القدم لا يرون ذلك ولا يستجيزونه ولا يحسنون فعل شيء من هذه المنكرات التي تأتيها قبائل كتامة الساكنون بجهة القل وبأجبالها المتصلة بأقاليم قسنطينة الهواء (220)

* * *

218 ـ الادريسي : المصدر السابق 70 ونص كلامه : ولم يبق من كتامة في وقت تاليفنا لهذا الكتاب الا نحو اربعة الاف رجل وكانوا قبل ذلك عددا كثيرا وقبائل وشعوبا .

219 ـ النعمان : المصدر السابق ورقة 30 .

220 ـ الادريسي : المصدر السابق 70 ـ 71 .

وإذا كنا قد ناقشنا من قبل هذه الشبهة فان الملاحظ أن تحديد الادريسي لعدد قبيلة كتامة فى عصره فيه اجمال وغموض ويقتضي الامر ان نقول :

ـ ان هذا التحديد انما يمثل فقط مجموع القادرين على حمل السلاح دون اعتبار الاطفال والنساء والعبيد والعجزة .

ـ كما يمكن حمل كلام الجغرافي العربي على العناصر التي عرف أخبارها واتصل ببلادها مباشرة أو عن طريق الرواة المحليين أو كانت لها صلة ما بنورمان صقلية حماة الشريف الادريسي ومقدري فنه وعبقريته واخلاصه وقد كان يحترم نظامهم ولا يذكر روجر ملك صقلية الا مصحوبا بلقب الملك المعظم (221) متناسيا عواطفه تجاه مسلمي صقلية وافريقية الذين شردهم النورمان أو كانوا سوط عذاب عليهم .

ـ ولا يستبعد أن يكون الادريسي قد قصد بالرجل فى كلامه معنى المسؤولية على الاسرة فيكون المجموع اذا نحو أربع آلاف أسرة أو خيمة وهو عدد ليس بالقليل فى هذا العصر (ق 6 هـ / 12 م) .

ـ وسياق كلامه يشعر أيضا باخراج قبيلة زواوة وفروعها من هذا الاحصاء الذي افترضه الادريسي فى وقت لم يعرف فيه فن الاحصاء .

ومن قبل الادريسي لاحظ ابن حوقل النصيبي فى عصره فقر بربر زناتة وكتامة بسبب الحروب والفتن والاوبئة والمجاعات ، وسياسة أوائل حكام بني زيري الصنهاجيين . فى قوله (وقد تغيرت تاهرت عما كانت عليه وأهلها وجميع من قاربها ، من البربر فى وقتنا هذا فقراء بتواتر الفتن عليهم ودوام القحط وكثرة القتل والموت وكذلك كتامة فى حالها من جهة خليفة أهل المغرب بالمغرب وهو بلكين يوسف بن زيري وقد استباح الجميع) (222) .

ومن هذا النص تتضح لنا أسباب هذا الفقر وهي كثرة الفتن الداخلية بين فروع من البتر وفروع من البرانس من جهة واستبداد صنهاجة بقبيلتي كتامة وزناتة من جهة أخرى ثم جو الحرب الذي أشاعه فى المنطقة أبو الفتوح نائب المعز لدين الله وأية حصيلة يجنيها السكان من وراء الفتن والحرب والاستبداد غير الخرب والقحط والاوبئة وارتفاع نسبة الوفيات ؟؟

ـ وتتمثل بقايا كتامة منذ بداية العصر الموحدي الى ما بعد عصر ابن خلدون فى مجموعتين من البطون :

---

221 ـ الادريسي : المصدر السابق 69 ، 86 ، 95 وغيرها واللقب يشيع الآن بين رعايا الانظمة الملكية خاصة فى المغرب الاقصى .

222 ـ ابن حوقل : المصدر السابق 93 وعن بلكين انظر :
E.I. : (Art Bulukkin). T. 1, p. 812.

احداهما بقيت فى مضارب كتامة وفى مجالاتها القديمة انما اختصت بالمناطق السهلية أو التلية ، وعرفت لهذا السبب باسم دارج هو قبائل الحدرة الذي غلب عليهم دون سواهم لانهم تركوا البيئة الجبلية الى البسائط والسهول وانحدروا الى المدن وأخذوا بأسباب الحضارة فعرفوا عند غيرهم بهذا الاسم الذي قد يشير الى وضعهم الاجتماعي الجديد كقبائل تحضرت وتكون كلمة الحدرة هي النطق الشعبي لكلمة الحضرة (223) لأن سكان هذه الجهات حتى الآن ينطقون الذال دالا وعرفت هذه المجموعة بكتلة « سدويكش » .

— والثانية ارتبطت بمضاربها الجبلية فى بيئة كتامة ايضا وتمتد فروعها حتى نهاية جبال جرجرة وهضاب تدلس على ساحل زواوة وعرفت هذه المجموعة بكتلة « بني ثابت » وإذا فنحن أمام مجموعتين تمثل احداهما سكان السهول والاخرى سكان الجبال والاثنتان معا من صميم قبيلة كتامة وفى نفس بيئتها القديمة .

ومما ذكره ابن خلدون نتبين بعض مميزات مجموعة « سدويكش » واولاها :

— كثرة فروعها وعشائرها وقد أشار ابن خلدون الى ثلاثة عشر فرعا منها بأسمائها التي عرفت بها فى وقته وهي :

سكين وطرسون وطرغيان ومموليت وبنو قشة وبنو لماية وكايازة وبنو زعلان والبويرة وبنو مروان وورمكسن وسكدال وبنو عياد يضاف اليهم بنو سواق (224) .

ومن هذه العشائر يوجد بنو مروان وبنو قشة وبنو طلحة مع مصالة فى منطقة فرجيوة فى بيئة كتامة (فج مزالة) وفرع بني لماية غرب سطيف وفرع بني سكين فى جبل بابور (225) وجهة عين كرشة حيث يسمون حتى الآن السقنية نسبة لبني سكين .

وتحتفظ احدى مدن الجزائر القريبة منها (بمسافة 120 كم) باسم البويرة (وهي حمزة قديما) (226) .

---

223 - Jean Despois : L'Afrique blanche française, T. 1, L'Afrique du Nord. P. 291, n° 2, Paris, 1949.

224 — ابن خلدون : المصدر السابق 6،303،1،190 (ط دوسلان) :
Deslane : Op. Cit., T. 1, p. 293 sqq.

225 Ferand, Ch. op. cit., p. 110 n° 1. وهو مترجم عسكري لجيش الاحتلال وينقل عنه جوتييه احيانا . فى كتابه ماضي شمال افريقية انظر مثلا :
Le passé de l'Afrique du Nord : p. 352 sq.

226 — وعن مدينة حمزة كمركز للادارسة العلويين انظر البكري : المصدر السابق 64-65 .

أما بنو سوق فيوجدون في قلاع بوخضرة قرب تبسة .

ـ وقد اختلطت بعشائر سدويكش هذه جماعات من فروع البتر وتعايشت معها على أرض واحدة ومن هذه الفروع لماية من حلف ضريسة ومكلاته من قبيلة نفزاوة ثم فروع أخرى من قبيلة هوارة البرنسية .

ـ وكانت علاقة فروع سدويكش بالانظمة السياسية فى المنطقة منذ عصر الموحدين علاقة اعتراف وخضوع واستعداد لدفع الجباية سلما دون استحثاث .

ـ أما حياتهم الاجتماعية فهي قريبة من انماط الحياة البدوية ويظهر انهم تأثروا فى هذه الناحية بما كان سائد عند جيرانهم من عرب بني هلال ومن بربر البتر وتقليدهم لعرب بني هلال تجاوز الناحية الاجتماعية الى الناحية السياسية أحيانا وقد اصطنعوا لأنفسهم انسابا عربية شمالية ترقى الى قبائل بني سليم المضرية (227) . وهي احدى مجموعات بني هلال وانكروا صلتهم بكتامة بد فع الحرص على بلوغ مكانة رفيعة فى الدولة واتقاء للضيم الذي قد يتعرض له كل من ينتسب الى هذه القبيلة التي خرجت عن اطار تقاليد المنطقة وتبنت مذهبا متطرفا وساندت عناصر خارجية ويلاحظ أن التقليد الذي أصبح متبعا فى بلاد المغرب فى المجالين السياسي أو المذهبي هو اضفاء الغموض على العهود السابقة وتشويهها ومحو آثارها او تغذية روح التنكر لها وكان يرعى هذا التقليد بناة الدول انفسهم وما وقع للاغالبة من طرف الفاطميين ولهؤلاء من طرف الزيريين ثم للمرابطين من طرف الموحدين ولهؤلاء من طرف المرينيين يؤيد هذا الاتجاه .

ـ وكانت زعامة فروع سدويكش لأظهر عشائرها واقو ها حظوة واكثرها مالا أي كانت رئاستهم محلية ، وفى اطار تقاليدهم القديمة التي لا تختلف عن تقاليد بدو العرب والبربر . وبقيت كذلك بموافقة جميعهم وبرضا خلفاء دولة الموحدين ومن خلفهم فى المنطقة .

وانحصرت زعامة مجموعة سدويكش فى العصرين الموحدي والحفصي فى فرعين هما :

أولاد علاوة واقرباؤهم اولاد يوسف والفرعان معا يعرفان بأولاد سوق نسبة لجدهم الاعلى .

---

227 ـ ابن خلدون : المصدر السابق 6 ، 304 .

وكان أولاد علاوة هم شيوخ سدويكش واسبق من اخوانهم أولاد يوسف فى رئاسة المجموعة منذ عصر الموحدين الى أن حدث خلاف حاد بين صاحب قسنطينة الحفصي (أبي يحي) وصاحب بجاية (ابن الخلوف) انحاز فيه الامير تازير بن طلحة بن علي بن علاوة الى صاحب بجاية وعندئذ نزعت رئاسة المجموعة عنه ، وعن أسرته ومنحت للفرع الآخر المنافس حيث استقروا بجبال عجيسة مؤقتا الى جوار قبائل عياض من بني هلال (228) .

واستمرت رئاسة المجموعة فى أولاد يوسف يتناوبها فى نواحي بجاية بنو محمد والعزيزيون وفى ناحية قسنطينة بنو المهدي وبنو ابراهيم .

فلما ظهر بنو مرين فى المنطقة بوصفهم ورثة للموحدين ودعاة لوحدة الامبراطورية من جديد استعان ابو عنان بن السلطان أبي الحسن المريني بفرع أولاد علاوة من جديد فرجعت اليهم رئاسة المجموعة لفترة اتسمت بالاضطراب وتخللها نزاع شديد بين فرعي كتامة ، الامر الذي حمل فرع أولاد علاوة على ترك المنطقة نهائيا الى مضارب عياض .

وكان ذلك فيما يبدو الخاتمة الاليمة لمستقبل المجموعة كوحدة والنذير بذهاب وحدتها وانحلالها ، وبضرورة مواجهة كل عشيرة لمصيرها بنفسها .

ومن ذلك أن عشيرة بني سكين فى جبال بابور كانت زعامتهم فى بني موسى بن ثابر منهم وقد عرف ابن خلدون من شيوخ بني سكين صخرا بن موسى الذي كرس حياة اسرته للدفاع عن قضية الحفصيين الذين كانوا فى نزاع عنيف مع المرينيين لا سيما السلطان أبو الحسن وابنه أبو عنان (229) .

ــ ويلاحظ أن اسم سدويكش لئن اختفى من بيئة كتامة فانه ما زال بين سكان جزيرة جربة وقد تكرر ذكره فى ثنايا كتاب العبر (230) .

ــ وابن خلدون فى حديثه عن مجموعة سدويكش يستخدم عبارات معينة منها « أدركنا » ولهذا العهد « وفيما سمعناه من مشيختنا » وفى « هذه السنة من هذه المائة » ويستنتج منها أنه لم يسجل عن سدويكش الا أخبارا تخص من اتصل بهم أو عاصرهم أو عرف اعمالهم عن طريق الرواية أو كانت لهم مشاركة فى الحياة السياسية فى عصره أو قبله وأهمل من سواهم .

---

228 ــ ابن خلدون : المصدر السابق 6 ، 304 ــ 305 ، ج 1 ، 190 ــ 191 (ط.دوسلان).

229 ــ ابن خلدون : المصدر السابق ، 305-306 ، 1 ، 191 ــ 192 ــ (ط . دوسلان) الزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية 139 وهنا يشير الى تنكيل بعض سلاطين بني حفص بالاسرة وباحد رجالها ربما لانحرافهم عن الولاء التقليدي .

230 ــ نفسه 6 ، 303 ، 736 ، 741 ، 750 .

ـ وعلى ذلك نلاحظ أن المجالات التي حددت لمجموعة سدويكش هي اكثر بطونا وفروعا مما ذكره فعلا .

وعذر ابن خلدون هو عذر كل من يحاول التأريخ لتحركات القبائل حيث لا يملك امكانية اصدار أحكام نهائية ومضبوطة فيما يتصل بعددها وفروعها ورجالاتها وتوزيعها فى مضاربها واصولها بسبب أن القبائل لم تعرف فى حياتها الاستقرار لا فى المكان ولا فى الاهواء والنزعات الا ندورا .

ومصاعب الباحثين المتاخرين تبدو أكثر من مصاعب القدامى لبعد العهد وانعدام الوثائق أو نقص الموجود منها على قلته .

* * *

ـ أما فرع بني ثابت سكان الجبال التي تطل على مدينة القل فى الطريق بينها وبين قسنطينة (231) فاقتصر ابن خلدون على بطن صغير منهم يتفرع عن قبيلة كبرى هي قبيلة بني تليلان (232) هذا الفرع هم أبناء ثابت بن حسن بن أبي بكر وهو أظهر فروع القبيلة فى الميدان السياسي وقد اكتسب رجال هذا الفرع الزعامة من جدهم أبي بكر بن تليلان الذي أعلن ولاءه فى مراكش لخليفة الموحدين عبد المؤمن بن علي واظهر استعداده لفرض الجباية على أهل بلده ولهذا انتقلت الرئاسة الى ابنه حسن ثم الى حفيده ثابت دون حدوث أية مشاكل ، كما تولاها بعد الأخير ابناؤه وكانت مهمتهم جمع أموال الجباية من السكان وارسالها الى الخليفة فى مراكش . ويبدو أن ثبات أفراد هذه الأسرة على ولائهم للموحدين ثم للمرينيين من بعدهم أساء اليهم وازال عنهم النعمة فى عهد شيخهم ، عبد الرحمن بن علي ، الذي عزل من الرئاسة ، وناله وقبيلته شر وضر ، من أبي العباس أحمد بن المستنصر الحفصي الذي أنزل بني ثابت منزلة عامة الناس وعين على منطقتهم الجبلية من يسد ثغرها ويحكم أمرها ويراقب تحركات رجالها .

والذي يؤخذ على ابن خلدون فى حديثه عن سكان منطقة القل الجبليين انه كرس كلامه لفرع صغير من قبيلة كبرى . هي قبيلة بني تليلان أما بقية فروع هذه القبيلة فلم تقع الاشارة اليها وان استفدنا ضمنا انها خاضعة لفرع بني ثابت .

وهكذا يكون ابن خلدون قد أهمل الأصل وركز على الفرع بسبب شهرته فى ميدان يتعلق به وهو السياسة وهو اتجاه أرستقراطي لم يستطع أن

231 ـ ابن خلدون : المصدر السابق 6، 306 ـ 307 ، 740 ، 741 .

232 ـ De Slane : Op. Cit., T. 1, p. 297-99.

يتخلص منه هذا المؤرخ الكبير الذي عاش فى الاوساط السياسية وفى الاوساط الشعبية ايضا وكانت قيمته وحظوته كبيرة عند الفريقين ، الا انها كانت مستمرة ومتجددة وتلقائية عند الفريق الثاني الذي أهمل المؤرخ الحديث عنه بدافع التعلق بحكامه وتمجيد ذكرهم واعلاء شأنهم .

وقبيلة بني تليلان الآن من كبرى قبائل المنطقة وتنتشر فيما بين قرية الجرارم ومدينة الميلية . وتحتفظ باسمها القديم . اما بنو ثابت فاثرهم باق فى منطقة القل ويعتبرون فى هذا الوقت من الأسر الشهيرة الى جانب أسر أخرى هي بولسان وبنو حسن وبلهوان وابن جامع وبنو عمران وبنو الذيب وبنو نيقوس ويظن أن فرع الثوابت فيما بين وادي الذهب وقلعة الزرق فى منطقة العلمة من بني ثابت الكتاميين .

* * *

ـ اما بقايا فرع زواوة حسب رواية ابن خلدون فتمثلهم بطون بني منقلات وبني بترون (233) وبني بحر (234) ، وبني ياني وبني بوغردان وبني يتورغ (235) وبني بو يوسف (آيت وسيف باللهجة المحلية) وبني غبرين وبني كشطولة وبني اراثن وبني فراوسن (236) .

وهذه البطون ما زالت الى الآن تحتفظ بهذه الأسماء التي ذكرها ابن خلدون وأكدها رحالة محلي متأخر هو الحسين بن محمد الورتيلاني وهي فى مضاربها القديمة تنتشر فى قرى ومراكز منطقة جرجرة وفيما بين بجاية ودلس (237) .

والظاهرة التي تلفت النظر هي أن بعض عشائر زواوة تدعى انها من نسل شريف وتميز نفسها عن بقية العشائر الأخرى بهذه الصفة . أما بقية العشائر فتعتقد نسبتها لا الى آل البيت وانما الى ولي من أولياء الجهة هو ابو زكريا يحي الزواوي . ولعل أنسب وصف لمنطقة زواوة هو الذي ذكره الرحالة الورتيلاني فى قوله « فوطننا طيب فيه العلم وبعض الكرم للغريب وفيه الزيتون والعنب والتين بكثرة والحرث غير أن الوطن عزيز غال . وسبب

233 ـ الورتيلاني : نزهة الانظار فى فضل علم التاريخ والاخبار 13 .

234 ـ نفسه 16 .

235 ـ نفسه 27 .

236 ـ نفسه 15 ومن بني فراوسن العالم النحوي : ابن معطي صاحب الفية مشهورة فى النحو .

237 ـ ويوجد بنو فراوسن قرب قرية (جمعة صهريج) وهم وبنو ايراثن بين بجاية ودلس ، وبنو ياني قرب آيت وسيف ، وكشطولة فى جبال جرجرة قرب تيزي وزو :
E.I. : (Art Iraten). T. 2, p. 554.

ذلك كثرة الناس غير انه خال من السلطان وأحكامه فالوطن سائب عمره الله بالأحكام الشرعية وازال منه الفتنة » (238) . ويبدو أن فرع زواوة لم يعرف زعامة تفرض سلطانها على سائر العشائر بسبب صعوبة البيئة وعزلتها بل كانت كل عشيرة تتولى شئونها أظهر أسرها واغناها . وقد أشار ابن خلدون الى مشيخة خاصة بفرع بني اير ثن كانت فى أسرة بني عبد الصمد .

وأثناء توسع المرينيين فى بلاد المغرب كانت زعيمة الفرع امرأة تعرف « بشمسي » وقد سيطرت بشخصيتها الفذة على أبنائها العشرة وعلى مساعديها فى بني ايراثن وكان الجميع أداة لتحقيق مشاريعها . وقد عاصرت ما جرى لأبي الحسن المريني فى منطقة متيجة اذ ثار ابنه ابو عبد الرحمن ضده سنة 737 ه / 1336 – 1337 م فأحرجه احراجا شديد .

وقد استغل أحد رجال السلطان الأحداث وفر الى قبيلة بني ايراثن بحجة انه ابن السلطان وتفنن فى الاحتيال وطلب حماية ومساعدة القبيلة فلم تبخل شمسي بالتأييد لقضيته حتى ظهر على حقيقته وعندئذ طردته من بلادها ووفدت على السلطان أبي الحسن فى متيجة ، لتجديد الولاء فأكرمها وجدد اعترافه بها « شيخة » على قبيلتها فرجعت آمنة مطمئنة (239) .

وقد ختم ابن خلدون كلامه عن بقايا كتامة فى عصره بالاشارة الى سوء حالها وذلتها وشعور الكراهية التي كانت تحس به من طرف الحكام والعامة (240) .

* * *

– وكتامة وزواوة لم تشتهر منذ العصر الفاطمي بغير الجندية والحياة الادارية فمنها القادة والولاة الاداريون والقضاة بحيث لم تنجب بيئة كتامة فى الناحية الثقافية والعلمية الا قدرا يسيرا بالقياس لما انجبته بيئات اخرى وقبائل مجاورة ويلاحظ أن بعض فروعها التي هاجرت الى اماكن فى غير افريقية والمغرب الأوسط عبرت عن نفسها فى الميدان الثقافي فى العصور

---

238 – الورتيلاني : المصدر السابق 28 وانظر ايضا 81 منه .

239 – ابن خلدون : المصدر السابق 6 ، 263 – 264 ،
E.I. : (Art Iraten). T. 2, p. 554.

240 – نفسه 6 ، 307–308 ونص كلامه «ونسب كتامة لهذا العهد بين القبائل المثل السائر فى الذلة لما انكرتهم الدول من بعد الاربعمائة سنة لانتحالهم الرافضة ومناهجها الكفرية حتى صار كثير من اهل نسبهم يفرون منهم وينتسبون فيمن سواهم من القبائل فرارا من هجنته » ويلاحظ ان زواوة تدخل فى الاطار العام بالرغم من انه لم يشر الى سوء حالها .
E.I. : (Art Ketama). T. 2, p. 909.
De Slane : Op. Cit., T. 1, p. 298.

التالية وظهرت لها أصداء في ميدان الفكر والثقافة والتاليف كما تكون الجو الثقافي الخاص في مراكزها بواسطة علماء وأدباء ومحدثين منها . كما أن زواوة التي كان لها في ميدان الفروسية والنضال من أجل العقيدة أثر حميد شهدت البلاد فصلا منه في عصر الفاطميين وفصلا آخر مع الفرنسيين كان لبيئتها ولرجالها في العصور التالية في ميدان الفكر والثقافة اللغوية والدينية مساهمة معتبرة . ومدى ما قدمته كتامة وزواوة في الميدان الفكري تظهر أصداؤه في كثير من كتب التاريخ والطبقات والأنساب والتراجم والرحلة والمفاخر التي تشيع فيها أحيانا القاب « الكتامى » والزواوي والملوسي والزنديوي والعثماني وغيرهم .

— ومن بين هؤلاء العلماء الذين ينتسبون الى كتامة أبو مروان عبد الملك بن محمد بن اسحاق الكتامي . ازدهر في أواخر العصر الموحدي وأدرك بداية العصر المريني ، رحل من بلده في مضارب كتامة في المغرب الأقصى الى حاضرة سبته التي كانت في هذا الوقت مركزا ثقافيا هاما تتجمع فيه التيارات الثقافية المغربية والأندلسية والشرقية .

وفي سبتة اخذ على مجموعة من الأعلام من بينهم أبو الحسن الغماري وعندما فارق سبتة لم يفارقه اهتمامه بشئون الفكر والثقافة حتى توفي بمدينة آزمور (241) 693 هـ 1293 — 1294م. وأبو علي حسين بن القطان الكتامي . وهو من المؤرخين النابهين عاش في فترة من العصر الموحدي واشتهر بكتاب تاريخي هام هو « نظم الجمان في أخبار الزمان » وقد خصص جزء منه لتفصيل حوادث العصر الموحدي التي لم تخل من اشارات خفيفة عن بعض ما يتصل بها من أحداث في افريقية والمشرق .

والكتاب مصدر أساسي من الدرجة الأولى لكل من يحاول اعادة صياغة تاريخ المغرب ، خاصة منذ عصر الموحدين (242) .

وقد اعتمد عليه بعض المؤرخين القدماء ، ومنهم ابن عذارى المراكشي في صياغة بعض الأخبار في كتابه « البيان المغرب » (243) .

— ثم أبو عبد الله محمد بن غازي ، العثماني (244) ، وينتمي الى فرع بني عثمان ، من كتامة في شمال المغرب الأقصى ولد بمكناسة الزيتون سنة

241 — مفاخر (المجهول) 71 — 72 .

242 — مفاخر (المجهول) 65 ، وقد تفضل بنشره محمود علي مكي ط . تطوان .

243 — انظر مثلا ج 1،36،57،60،443 (ط.المناهل) .

244 — ابن زيدان : اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس ج 4،2-4 .

841 هـ / 1438 م وتوفي بفاس 929 هـ / 1513 م واشتهر بكتاب لطيف خلد فيه آثار مدينة مكناسة الزيتون عرف « بالروض الهتون فى أخبار مكناسة الزيتون » .

وقد لمع نجمه فى فاس الوطاسية حيث تولى خطط الامامة والخطابة بجامع القرويين (245) ومشيخة الجماعة فى هذه المدينة التي كانت حاضرة بني وطاس وقد أجازه ابن مرزوق الكفيف العجيسي . وأخذ عنه كل من عبد الواحد الونشريسي وأحمد بابا التمبكتي السوداني .

وكعادة المعاصرين من علماء المغرب والأندلس ، جمع ابن غازي شيوخه مع الذين اجتمع بهم من رجال العلم والرواية واجازوه ثم بعض المعاصرين له ممن تأثر بهم وتأثروا به فى دليل شامل يعرف بمصطلح « الفهرست » أو البرنامج ، سماه « التعلل برسوم الاسناد بعد انتقال أهل المنزل والنادي » (246) .

وممن أشار اليهم ابن غازي فى الروض يونس بن عطية الونشريسي ربما لانه ولى القضاء فى قصر كتامة (247) .

ويلاحظ ان هذا المنصب وليه ، من شيوخ المغرب أيضا ، أبو عبد الله محمد بن علي بن حسين بن مصباح الحسني الشفشاوني الملقب بابن عسكر ، وقد قتل هذا الشيخ فى معركة وادي المخازن الحاسمة التي جرت غير بعيد من قصر كتامة وانتصر فيها الوطاسيون ضد جحافل البرتغال بقيادة ملكهم دون سباستيان (248) .

ـ وينسب الى كتاب أبو الحسن علي بن احمد مصباح الزروالي العثماني . وقد عرف عنه انه كتب مناقب أبى العباس اليحمدي ، أحد وزراء السلطان اسماعيل العلوي سماه « سناء المهتدي الى مفاخر الوزير اليحمدي » (249) .

---

245 ـ عن هذا الجامع العتيق وتاريخ تاسيسه فى عهد داوود بن ادريس فى شهر ذي القعدة 263 هـ انظر : التازي : نظرة جديدة فى تاريخ بناء جامعة القرويين (مقال) المجلة التاريخية المصرية مجلد 8 ، 1959 ـ ص (243 ـ 247) .

246 ـ احمد بابا التمبكتي : نيل الابتهاج بتطريز الديباج 359 ابن عسكر : دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشائخ القرن العاشر 36 ـ 37 .

247 ـ ابن غازي : الروض الهتون فى اخبار مكناسة الزيتون 44 .

248 ـ الافراني : نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي 76 ، السلاوي : المرجع السابق 3 ، 37 ـ 38 E.I. : (Art Ibn Askar. T. 2, p. 386.

249 ـ احمد المكناسي : المرجع السابق 87 .

ـ ثم عبد الرحيم بن أحمد الكتامي ، يكني بأبي عبد الرحمن ويعرف بابن العجوز كان كبير قومه من كتامة فى منطقة سبتة ودمنة عشيرة ، وبلغ من سعة علمه ، وشهرته فى آفاق المغرب وتمثله للتيارات الثقافية السائدة فى حواضر افريقية والأندلس ، والمغرب ، ان أصبح مقره ، مركز جذب لطلاب العلم والراغبين فى فهم أصول المذهب المالكي كما تلقاها من أبي زيد القيرواني ، وعبد الملك بن الحسن الصقلي ودراس بن اسماعيل القابسي اثناء آقامته بالقيروان منذ 380 هـ / 990 ـ 991 م وقد وصفه عياض بقوله « كان من حفاظ المذهب القائمين به وبعد وفاته ، 418 هـ / 1027 م (250) خلفه فى رئاسة كتامة وفى تنشيط الحركة الفكرية والقيام بالفتيا أبناؤه وهم : عبد العزيز وعبد الرحمن وعبد الكريم .

واشتهر عبد العزيز منهم بالاهتمام بالفقه حتى أصبح معتمدا فى الفتيا ومشهورا بالاستقامة والعفة وتوفي سنة 430 هـ / 1038 ـ 1039م (251).

وبلغ أخوه أبو القاسم عبد الرحمن مبلغا كبيرا فى العلم والجاه فى مدينة سبتة ، وبين قبيلة كتامة فى الدمنة (252) وفى غيرها من مراكز القبيلة كان يقوم بالافتاء ويتعاون مع بقية الفقهاء فى اثراء الحياة الثقافية بسبتة ، كما كان مستشارا لقاضيها محمد بن عتاب وقد توفي سنة 449 هـ / 1057 ـ 1058 م (253) . اما عبد الكريم ، فقد كان الغالب عليه الاهتمام بالسياسة وبشؤون قبيلته فى دمنة عشيرة حتى قتل على أيدي المرابطين فى القلعة عندما استولوا عليها (254) .

ـ ثم أبو زيد عبد الرحمن بن مسعود الكتامي اشتهر بابن أبي عامر درس فى سبتة ثم رحل الى مصر للرواية ، ولأخذ أصول المذهب المالكي من منابعه القريبة . وفى مصر اجتمع بائمة المالكية واخذ عن يكرين العلاء القشيري وأبي الحسن التلباني وأبي حفص عمر بن حفص الاسكندري ، وخالد بن جميل الذي سمع منه كتاب محمد بن المواز الاسكندري فى الفقه المالكي المعروف « بالموازية » . وعندما رجع الى سبتة أصبح محورا لخيرة من رواد المعرفة وشيوخ المذهب واهمهم عبد الرحيم بن العجوز الكتامي (255) .

---

250 ـ القاضي عياض : ترتيب المدارك 4 ، 720 ـ 721 (ط.بيروت) ابن بشكوال الصلة 1 ، 371 ترجمة رقم 836 .

251 ـ نفسه 4 ، 872 .

252 ـ البكري : المصدر السابق 113 وهي على مرحلة من سبتة .

253 ـ القاضي عياض : المصدر السابق 4 ، 782 .

254 ـ نفسه : المصدر السابق 4 ، 720 ـ 721 .

255 ـ نفسه 3، 538 ـ 539 ، ابن بشكوال المصدر السابق 1 ، 371 ، ترجمة رقم 836 ، ابن خلكان : وفيات 2 ، 13 .

ويلاحظ أن هؤلاء الذين تحدث عنهم عياض فى « مداركه » كانوا من المالكية ومن كتامة شمال المغرب الأقصى . ومن ثم وجدناه يذكرهم دائما بعبارة « ومن بلدنا » أو من « مشيخة بلدنا » .

ـ وممن ينسب الى كتامة فيما يبدو أسرة ابن الفقون فى قسنطينة وهم اسرة علم وادب ، وثراء . اشتهر منهم فى العصر الموحدي أبو علي حسن بن علي بن عمر بن الفقون كان شاعرا متظرفا ، خصب الانتاج ، له رحلة منظومة سجل فيها أخبار سفره من قسنطينة الى حاضرة مراكش . كما أن له مجموعة شعرية . كانت تتداول بين الناس فى عصر أبي العباس الغبريني . لم يعرف عن ابن الفقون أنه تكسب بالشعر ، أو تملق به للحكام ، رغبة فى الطافهم ، وانما كان ينتحله هواية ورغبة فى الشهرة فى الميدان الثقافي ، ومن ابدع ما قال فى وصفه لمدينة الناصرية (بجاية) ومنه (256) .

دع العراق وبغداد وشامها … فالناصرية ما ان مثلها بلد
يا طالبا وصفها ان كنت ذا نصف … قل جنة الخلد فيها الأهل والولد

ـ وقد اشار المقريزي فى موسوعته الكبرى المعروفة « بالمقفى الكبير » الى عالم من قسنطينة هو محمد بن خلف الله بن خليفة بن محمد القسنطيني المعروف بابن الشمني وقد ولد بمدينة قسنطينة الهواء سنة 593 هـ / 1196م وشب ، ودرس فيها ثم تاقت نفسه للرحلة الى مصر لطلب العلم وفيها سمع الحديث من أبي الحسن علي بن هبة الله بن الحميزي وانتصب هو بدوره لاسماع الحديث . وعندما أشار اليه ابو الحسن القرشي فى معجم شيوخه وصفه « بأنه من الفقهاء الأفاضل يتمتع بسعة أفق وذاكرة قوية انتصب لتدريس الفقه فىجامع مصر وتولى خطة الشهادة بينالناس » (257)

---

256 ـ الغبريني : المصدر السابق 202 ـ 203 العبدري : المصدر السابق 30 ، المقري : نفح الطيب 9 ، 194 ـ 198 ط دار المامون 1936 وهنا يذكر اكثر قصيدته التي وصف فيها مدن المغربين الاوسط والاقصى اثناء الرحلة ومطلعها :

الا قل للسرى بن السرى … ابي البدر الجواد الاريحى

وعن نساء الجزائر يقول :

وفى ارض الجزائر هام قلبي … بمعسول المراشف كوثري

وعن نساء مراكش يقول :

بدور بل شموس بل صباح … بهيى فى بهى فى بهي

ومن احفاد حسن ابن الفقون ذكر المقرى : عبد الكريم بن الفكون ، الذي وصفه بعالم المغرب الاوسط غير منازع انظر : 193 منه .

257 ـ المقريزي : المقفي الكبير 1 ورقة 239 خ بدار الكتب المصرية رقم 5372 تاريخ .

ـ ويشبهه فى الاستقامة وفى التأثر بالتيارات الثقافية فى مصر أبو زكرياء يحي بن زكرياء بن محجوبة السطيفي (نسبة لسطيف) . وهو شيخ أبى العباس الغبريني ومعاصره كان زاهداً متصوفا متشبعا بالثقافة الدينية التي استفادها أثناء رحلته الى الحج من العلماء والزهاد فى مصر وكان أبو الحسن الحرالي العالم المتصوف أقربهم الى نفسه وأكثرهم حظوة ولذلك لازمه مدة طويلة ولم يفارقه الا الى بلده حيث استقر بحاضرة بجاية وبها توفي سنة 677 هـ / 1279 م .

وانتاجه العلمي اقتصر على ميدان التصوف ومن ذلك شرح لطيف لأسماء الله الحسنى ومذكرات ، ثم منظومات أخرى .

وقد اعترف الغبريني بأنه كان محل عنايته وتشجيعه أثنـاء مرحلـة الدراسـة .

وأشار الغبريني كشاهد على تعفف السطيفي عن المادة وانقطاعه كلية عن الحياة المادية الى قوله « ان أسمي فى ديوان الوجود المطلق ، فلا أجعله فى الديوان المقيد لأن الاطلاق أوسع من التقييد وهو فى ديوان الحق فلا أجعله فى ديوان الخلق » . وكان يرد به على ممثل أبي يحي الحفصي ، أمير بجاية الذي عرض عليه رأي الأمير الذي يقضي بأن يخصص له مرتب شهري قار فى بيت مال الامارة (258) .

ـ وممن نسبوا الى كتامة أيضا ، أبو علي الحسن بن سعد بن ادريس بن خلف بن رزيق بن كسلة بن مليكة .

وقد أشار السمعاني الى رحلة علمية قام بها هذا الرجل الى بلاد الأندلس والى صنعاء اليمن ، للتعرف على البيئة الأندلسية والشرقية وعلى التيارات الثقافية السائدة هناك .

وذكر أن له انتاجا فى الحديث ، وقد توفي فى بلده بالمغرب سنة 332 هـ (259) 943 ـ 944 م . أي فى أواخر عصر القائم بأمر الله الفاطمي وفى عصر قوة كتامة وعنفوان مجدها فان صحت نسبته الى كتامة ، وهذا راجح لوجود لقب رزيق وهو شائع فى بيئة كتامة يكن من بين العناصر التي احتفظت باتجاهها السني فى عصر سيطر فيه المذهب الاسماعيلي وسادت فيه كتامة . وهو أمر ليس بغريب بل قد يحدث كثيرا وربما كان ابن مليكة معروفا بميوله السنية ومع ذلك أبقى عليه من باب التظاهر بالتسامح وسعة الأفق أو بدافع العصبية الكتامية .

---

258 ـ الغبريني : المصدر السابق 60 ـ 62 .

259 ـ السمعاني : المصدر السابق 474 .

ـ وأشار ياقوت أيضا الى عالم من كتامة عاصره وارتبط معه برابطة الصداقة هو الفتح ابن موسى القصري الذي تشعر نسبته الأخير بانتمائه الى قصر من قصور كتامة انما فى بر الأندلس وفى اقليم الجزيرة الخضراء خـاصة .

وقد وصفه ياقوت بقوله « صديقنا الفقيه الأديب » وذكر أنه اشتغل بالتدريس فى مصر ، وعرف بقرض الشعر الجيد وبنظم كتب الفنون العلمية التقليدية ومن ذلك انه نظم كتـاب المفصـل فى النحـو وهـو لجـار الله الزمخشري (260) ت 538 هـ / 1143 م .

ولا يستبعد أن يكون هذا العالم الكتامي من قصر كتامة فى بلاد المغرب ثم هاجرت اسرته الى الجزيرة الخضراء واستقرت هناك فى الطرف المقابل لبقية فروع كتامة ، وقد هاجر ـ بدوره الى المشرق للحج ، وتعرف أثناء رحلته على شخصيات علمية من بينها ياقوت الذي أشار اليه اشارة ودية لطيفة تشعر بتقديره لـه .

ـ وفى كتاب الزركشي كثير من علماء كتامة ورجالها الذين تولى بعضهم مناصب ادارية فى مدينة قسنطينة فى العصر الحفصي . ومن هؤلاء أبو عبد الله محمد الزنديوي الذي ولى قضاء قسنطينة فى سنة 839 هـ / 1435 ـ 1436 م (261) ، ومن نسبته يتضح لنا انتماؤه الى فرع بني زنداي من كتامة وكنا قد اشرنا من قبل الى شخصية أخرى هي شخصية الملوسي (262) . كذلك أشارت بعض النصوص الى عالم متصوف هو : عبد الله بن محمد وينسب لميلة وله مشهد بقرية « طوزة » من قرى ناحية سوسة يعرف بمقام سيدي عبد الله الميلي (263) .

* * *

ـ ومن علماء زواوة ، أبو اسحاق ابراهيم بن ميمون بن بهلول (264) ، كان أديبا متصوفا ويقرض الشعر . وقد أطلع على التيارات الثقافية التي كانت تسود مصر فى عصر سيطرة المماليك عندما رحل اليها واجتمع ببعض

---

260 ـ ياقوت الحموي : معجم البلدان 7 ، 109 وعن الزمخشري انظر ابن خلكان وفيات 4 ، 254 ـ 260 .

261 ـ الزركشي : المصدر السابق 137 .

262 ـ انظر ما سبق عن ملوسة ورجالها .

263 ـ برنامج فيما بمدينة سوسة فى الجوامع والأولياء والمعاصر والديار (لمجهول) ورقة 68 خ ، كان على ملك ح . ح عبد الوهاب رقم 18669 مكتبة العطارين تونس .

264 ـ الغبريني : المصدر السابق 119 .

علمائها وائمتها ومنهم : الرشيد بن عوف وعز الدين بن عبد السلام توفي هذا العالم فى بجاية سنة 686 هـ / 1287 – 1288 م .

وأبو زكرياء يحي بن أبى علي الزواوي وهو ممن درس فى القلعة الحمادية وفى مصر . واستقر أخيرا ببجاية بعد رجوعه من مصر ، حيث كرس كامل وقته للتعليم والافتاء وبناء المساجد كل ذلك ، مع الانقطاع عن مباهج الحياة المادية حتى توفي فجأة فى سنة 611 هـ / 1214 – 1215 (265) .

– وأبو الحسن علي بن محمد اليتورغي (266) نسبة لبني يتورغ من زواوة لم يعرف عنه الا انه كان متصوفا ومحافظا فى آرائه الدينية وهو ممن أدركه أبو العباس الغبريني اذ توفي فى سنة 714 هـ / 1314 – 1315 م .

– وابو محمد عطية الله بن منصور اليراتني (267) ، نسبة « لبني ايراتن » من زواوة كان عالما اشتهر بحافظة قوية مع فضل وتقوى وورع .

– وأبو الحسن علي بن أبي نصر فتح بن عبد الله البجاوي نسبة لبجاية التي ولد فيها سنة 506 هـ / 1112 – 1113 م وعرف بالزهد والانقطاع عن مشاكل الحياة المادية الى العبادة والتدريس ، لذلك كان محل احترام أمراء بجاية .

وميزته الكبرى انه يعتبر ثمرة طيبة امتزجت فيها الاتجاهات الفكرية فى المغرب والأندلس بتلك التي كانت سائدة فى حواضر المشرق العربي فله فى مصر وحدها شيخان هما : أبو محمد عبد الواحد بن اسماعيل بن طاهر الدمياطي وأبو القاسم الحسن بن عبد السلام الذي أخذ عنه فىالاسكندرية . وروي أيضاعن أبي الحسن بن جبير البلنسي فى بيت المقدس وله ذكريات حسنة عن مجالسه العلمية مع شيوخه ومع بعض من روى عنهم أو اجتمع بهم (268) .

– وأبو يوسف يعقوب بن يوسف المنقلاتي ، من بني منقلات ، من زواوة وقددرس فىحواضر بجايةوتونسومراكش واشتغل بعدذلك بالافتاء والتعليم ، مع قدر كبير من الزهد فى المال والسلطان وبقي مستور الحال حتى توفي بقرية بني منقلات 690 هـ / 1291 م (269) .

---

265 – الغبريني : المصدر السابق 75 – 79 مفاخر (لمجهول) 71 .

266 – نفسه : 74 وما بعدها .

267 – نفسه : 80 – 81 .

268 – نفسه : 82 – 85 ويلاحظ ان القرن السابع الهجري كان عصر ازدهار الحركة الصوفية فى مصر ، انظر : ابو الوفاء الغنيمي الطرق الصوفية فى مصر 55 – 73 مقال (مجلة كلية الآداب بالقاهرة مجلد 25 ج 2 ديسمبر 1963 وملحقا للمقال بعنوان : الطرق الصوفية بالديار المصرية ، للبكري شيخ مشايخ الطرق الصوفية .

269 – الغبريني : المصدر السابق 157 .

ـ ثم أبو علي منصور بن أحمد بن عبد الحق المشذالي من مشذالة (فرع من زواوة) وهو من معاصري أبي العباس الغبريني وامتاز هذا العالم بانصرافه عن النقل في تحقيق مسائل المذهب الى استخدام العقل في بيئة محافظة وفي عصر لا يهتم علماؤه بغير حفظ النصوص وشروحها من كتب معينة في كل فن .

وكان له راي في الفتيا وممن يستأنس برايهم في المسائل الهامة .

وقد استغل امكانياته العقلية وتجاربه أثناء الدراسة والرحلة الى مصر حيث كان له شرف الاجتماع مع عز الدين بن عبد السلام وصدر الدين سليمان الحنفي وشرف الدين السبكي وشمس الدين الأصبهاني ـ استغلها في تفسير القرآن والحديث ، ثم في شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي على أساس علمي ومنهج جديد (270) .

ـ أما حجة هؤلاء العلماء ومخلد آثارهم فهو أبو العباس الغبريني نسبة لبني غبرين من زواوة . كان عالم بجاية بدون منازع وولى خطة القضاء والشورى فيها ، هو صاحب كتاب « عنوان الدراية » (271) الذي تتضح من خلاله ملامح وصور الحياة الفكرية في بجاية في أواخر عصر الموحدين وبداية عصر الحفصيين .

وكان يعاصره في قسنطينة قاضيها أبو محمد عبد الله بن الديم وكان يشعر بحكم اهمية قسنطينة بأنه أهم من الغبريني وقد ظهر منه هذا التصرف في حضرة أبي زكريا يحي عندما لم يمكن الغبريني من الجلوس بقرب الأمير ونافسه في ذلك حتى تأثر الغبريني وخاطبه بقوله « أن أهلكم لا يقدرونني » فكان رد ابن الديم « أن قضاة بجاية محدثون » وقصد بذلك أن قسنطينة هي مقر الأمير الذي يشرف منها على بجاية وغيرها . وأن قضاة الحضرة أهم من قضاة النواحي (272) .

وقد وصف ابن خلدون أبا العباس الغبريني بكبير بجاية وقاضيها وصاحب شوراها ، ومن ملاحظة برنامج شيوخه ومروياته يتضح لنا مدى سعة علم الرجل واطلاعه على التيارات الفكرية في المشرق وفي المغرب (273) .

---

270 ـ نفسه 134 ـ 135 وهو غير ابي الفضل المشذالي الذي ولد 820 هـ وتوفي 864 هـ انظر : العدوي تبادل الاساتذة بين الجزائر ومصر في القرن 15 م 51 ـ 53 مجلة كلية الآداب عدد 2 ـ 1970 . الجزائر .

271 ـ ابن ابي شنب : مقدمة عنوان الدراية ـ 1 ، (ط . الجزائر 1910) .

272 ـ ابن الانبيري : المصدر السابق ورقة 152 وانظر 193 امنه حيث يذكر ابا موسى عيسى الغبريني كاحد قضاة الجماعة بتونس .

273 ـ انظر عنوان الدراية 307 وما بعدها ـ ط بيروت 1970 .

ولسوء الحظ فان هذا الرجل الذي كانت حياته حافلة بالنشاط البناء في المجالين الثقافي والاداري راح ضحية وشاية لفقها له حاسدوه فتم قتله في سنة 714 هـ / 1314 ـ 1315 م بأمر من أمير بجاية أبي البقاء خالد الحفصي وتولى تنفيذ ذلك منصور التركي (274) .

ـ ومن علماء زواوة أيضا بلقاسم بن محمد الزواوي وكان من أصحاب السنوسي . وممن أخذ عنه محمد بن عمر الملالي نسبة لملالة من صنهاجة ، وقد توفي سنة 922 هـ / 1516 ـ 1517 م (275) .

ـ وقد أشرنا من قبل الى نصر الزواوي (276) ، وابراهيم بن فائد (277) ضمن الذين أخذوا عن ابن مرزوق الحفيد عالم عجيسة والمغرب الأوسط في القرنين الثامن والتاسع بعد الهجرة ثم الى أبي الحسن زين الدين يحي بن عبد المعطي ابن عبد النور من بني فراوسن من زواوة وكان عالما في اللغة وآدابها ، له ألفية مشهورة . توفي بالقلعة سنة 628 هـ / 1230 ـ 1231 م (278) .

* * *

ـ ولقبيلة كتامة في ارض افريقية والمغرب الأوسط وفي مواطن هجرتها في المغرب الأقصى والأندلس حواضر كبرى وقصور ومراكز بعضها يقع على الساحل أو قريبا منه وبعضها الآخر يوجد في الداخل . كما أن هناك في هذه المجالات السابقة مراكز أخرى ليست في مضارب فروع كتامة أصلا ، ومع ذلك كانت لها صلات قوية بها وخضعت لتأثيراتها وتكاملت معها أحيانا ويكاد ينطبق ذلك على مدينة القالة في الشرق وطنجة في الغرب .

ـ ويعتبر مرسى الخرز (القالة الآن) ، من المراسي التي تقع على هوامش ساحل كتامة الشرقي وهي على بعد (ثمانين كم) الى الشرق من مدينة عنابة (بونة) وقد لاحظ الرحالة أن القالة كانت مركزا صغيرا تمثل بموقعها شبه جزيرة ومع ذلك كانت محمية وراء سور حصين ولها قلعة وسوق عامرة بالأقوات والمواد الضرورية التي تجلب من بونة لأنها بحكم فقرها في الظهير

274 ـ ابن خلدون : المصدر السابق 6 ، 719 وقد حرفت سنة الوفاة في ط بيروت اذ جاءت سنة 704 هـ ومن كلام ابن خلدون يتضح أن التهمة : هي اغراؤه السلطان الحفصي بتونس بعزل امير بجاية .

275 ـ ابن مريم المصدر السابق 71 .

276 ـ نفسه 295 .

277 ـ نفسه 209 ـ 210 .

278 ـ الزركلي : الاعلام 9 ، 192 ـ 193 ابن خلكان : المصدر السابق 5،243 .
E.I. : (Art Ibn Muti). T. II, p. 431 (Bencheneb).

الخلفي كانت امكانياتها الخاصة لا تكفي حاجة السكان . وأهميتها وأساس وجودها كمركز يرتبطان بصيد المرجان الذي هو مادة حيوية تمثل مصدرا هاما للدخل يجند السكان من أجله كل خبراتهم وامكانياتهم حتى كانت قوارب الصيد تصل أحيانا في المواسم المحددة لذلك الى خمسين قاربا . والنوع الموجود في ساحل مرسى الخرز كما لاحظ بعض الرحالة يفوق ما يصاد منه في ساحلي سبتة وجزيرة صقلية ، من حيث الجودة .

وبسبب وجود هذه المادة الجيدة في ساحل القالة عرفت عند الرحالة بمرسى الخرز .

ولصيد المرجان في هذه الجهة تقاليد خاصة يعرفها سكانها معرفة جيدة ويبدو حسب ما ذكره الرحالة أن صيد المرجان يكتسي طابعا شعبيا عاما . وقد يصل الصيادون الى أكثر من ألف صياد في المرة الواحدة والذي جعل هذا العمل مرغوبا فيه أن محصول الصيد يتوزعه المشاركون ولا رقابة للسلطان عليهم ولا تطلب حصة معينة منهم .

وطبيعة المنطقة التي منحت سكانها أساس حياتهم الاقتصادية لم تجد عليهم بالهواء النقي والماء الصالح للشرب والرحالة الذين اشاروا الى أن سكان المدينة يعتمدون في شربهم على بئر وبيئة تسمى « ازراقا » غدت محلا لمثل شعبي معبر هو « طعنة بمزراق خير من شربة من بئر ازراق » لاحظوا من اثر ذلك فيما يبدو غلبة الصفرة على الوان السكان واعتصام كل منهم بتميمة تقيه شر الامراض .

ـ والميزة الهامة في مدينة مرسى الخرز هي أنها أصبحت تحتضن مركزا لصناعة السفن الحربية التي كانت تجهز للغزو الثغري في بلاد الروم يتجمع فيها المجاهدون البحريون ومنها ينطلقون نحو الآفاق البعيدة في البحر الأبيض المتوسط . وهكذا فصيد المرجان والغزو البحري ضد مراكز الروم والنورمان كانا مصدرين لغنى المدينة ورفاهية سكانها . ومن ثم لاحظ بعض الرحالة أن مقدار جباية المدينة في السنة بلغت نحو عشرة آلاف دينار ومن ذلك نستنتج أن مجموع سكان المدينة القادرين على الصيد وعلى حمل السلاح قد يكون هو نفس مقدار الجباية باعتبار دينار على كل حالم (279) ولهذه الحالة شبيه في بيئة المغرب الاسلامي (280) منذ عصر الفتح .

---

279 ـ البكري : المصدر السابق 55 الادريسي : المصدر السابق 85 المقدسي : المصدر السابق 226 ، 227 ، 239 القزويني المصدر السابق 261 .
H.R. Idris : Op. Cit., T. II, p. 437.

280 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1،1ط . المناهل .

ـ وتلى مرسى الخرز غربا مدينة **بونة الساحلية** التي لا تبعد عن قرية سيبوس القديمة التي يذكر بها نهر سيبوس الذي يصب فى البحر عند بونة ـ عنابة ـ .

وتقع على طرف مرتفع من الأرض بقرب البحر وساحلها صخري ، ويطل عليها جبل ايدوغ (281) الذي هو مركز هام لاستغلال معدن الحديد وتغطية الثلوج ما عدا المكان الذي يقوم فيه مسجد (282) ، ورباط أبي مروان وينسب لأبي عبد الملك مروان بن علي القطان الأندلسي الأسدي ، المعروف بالبوني نظراً لاستقراره فى بونة للرباط . وكان من الفقهاء النابهين وله فى ميدان التأليف شرح لطيف على موطأ مالك بن انس وبقى فى بونة حتى توفي سنة 440 هـ / 1048 ـ 1049 م (283) أي فى عهد المعز بن باديس الصنهاجي . والى الآن يوجد مسجده وموضع رباطه محتفظا باسم سيدي بومروان فى مدينة عنابة .

ولبونة ، ظهير خلفي واسع ، يساعد على تربية المواشي لغناه بالاعشاب والبساتين والزروع والفواكه وهو مصدر خيرات البلاد ، التي تفيض على حاجاتها فتصدر خاصة الى مرسى الخرز كما لاحظنا ذلك وقديما أشار الرحالة الى كثرة العسل واللحم واللبن والكتان فيهما .

ـ وتجارتها كانت نشطة مع بعض جمهوريات ايطاليا ثم مع الساحل الأندلسي . ومن ثم أشار بعض الرحالة الى كثرة التجار الأندلسيين فيها .

ـ وبونة كانت فى اطار نفوذ كتامة فى العصر الفاطمي . وبعد قيام نظام الزيريين آلت الى صنهاجة حليفة كتامة ثم أصبحت بعد ذلك ضمن نفوذ ومراكز بني حماد فى القلعة وبجاية .

وقد حافظت المدينة على قوتها ونشاطها وحيوتها الا فى الفترة التي سيطر فيها نورمان صقلية اثناء حركة توسعهم فى القرن الخامس (هـ) ضد المدن الساحلية فى شمال افريقية كجزء من حركة تجارية واستعمارية وهي نوع من الملاحقة لمسلمي صقلية فى هذه المدن ، أو هي أعمال تأديبية ضد الزيريين

---

281 ـ البكري : المصدر السابق 55 يسميه جبل زغوغ وعنه نقل صاحب الاستبصار انظر 127 منه .

282 ـ نفسه ، وهنا ايضا اعتمد عليه صاحب الاستبصار 172 غير انهما معا لم يشيرا الى اسم صاحبه او مؤسسه مع انهما اعتبرا ذلك من عجائب المدينة .

283 ـ القاضي عياض : المصدر السابق 4 ، 709 ـ 710 اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار 1 ، 356 ط . الاميرية بولاق 1312 هـ ابن الاثير : اللباب فى تهذيب الانساب 1 ، 153 ط القاهرة 1357 هـ .

والحماديين الذين كانوا يعطفون على قضية الجالية الاسلامية المضطهدة في جزيرة صقلية .

وان الميزة التي كانت تتوفر عليها مدينة بونة في كونها مركزا بحريا هاما تتجمع فيه سفن الغزو ومنه تنطلق لمزاولة نشاطها البحري ، ضد مراكز الروم والنورمان قد كانت تقلق راحتهم وتهددهم في كل حين (284) .

ويبدو أن ثروات المدينة بالاضافة الى عائدات النشاط البحري هي السر في قوتها وصمودها من جهة . ثم في ارتفاع نسبة جبايتها حيث بلغت حسب بعض النصوص التاريخية ضعف ما يجبى من مدينة مرسى الخرز اي عشرين ألف دينار . وكانت هذه الأموال تعود الى خزينة الحماديين . وبها يقوون ويصمدون في معركة تأكيد الانفصال والاستقلال عن الزيريين في المنصورية .

وقد عرفت مدينة بونة بعدةأسماءحسب اختلاف العصور فكانتتعرف بهبون عند القرطاجيين (Hippone) ومنه اشتق اسم بونة اللاتيني فيما يبدو ، كما عرفت عند الرومان (هبوس ريجيوس (Hippo Regius)
وفي العصور الاسلامية عرفت بمدينة زاوي (285) ، نسبة لقائد من بني زيري نزل بها واعتصم بناحيتها (ق 5 هـ) ثم بلد العناب أو مرسى العناب (286) ومنه اشتق اسمها عنابة المعروفة به الآن وبلد العجاب عند بعض الرحالة المتأخرين (287) ومهما كانت تسمية المدينة فالباقي منها هو اسم عنابة العربي وبونة اللاتيني (Bône) (288) .

---

284 ـ البكري : المصدر السابق 83 وفيه قوله (ومن مرسى بونه تخرج الشواني غازية الى بلاد الروم وجزيرة سردانية وكرسقة وماوالاها ، وعن الشواني (م شانية) وتعرف بالغراب ايضا . وهي سفينة حربية عظيمة الحجم انظر عبد الفتاح عبادة : سفن الاسطول الاسلامي 4 ابن عذارى المصدر السابق 1 ، 182 حيث ورد عنده مصطلح شيني ايضا .

285 ـ نفسه : 55 ، ابن عذارى : المصدر السابق 1 ، 340 وفيه اشارة عن زاوي بن زيري بن مناد ابن حزم نقط العروس 82 .

286 ـ ابن ابي دينار : المؤنس في اخبار افريقية وتونس 142 اسماعيل سرهنك : المرجع السابق 1 ، 356 .
Léon L'Africain : Op. Cit., p. 369-71, n° 56-61.

287 ـ وقد لاحظ البكري (ص 54) والحسن الوزان (ص 180) انها كانت مركز اسقفية القديس اوغسطين .
A. Benachenhou : op. cit., p. 180. Léon : op. cit., p. 362.

288 ـ عن وصف بونة في القرن السادس للهجرة انظر الادريسي : المصدر السابق 85–86 الاستبصار (لمجهول) 127 وهذا يسمى مرفاها مرسى الازقاق .
H.R. Idris : Op. Cit., T. 2, p. 494.
E.I. (Art Bône) : T. 1, p. 761-62.

ـ وتحتل النطاق الساحلي الممتد بين بونة ومرسى سكيكدة عدة مراسي صغيرة ومحطات بحرية ثانوية اشتهر كل منها باسم خاص لا يخلو من معنى هام .

وهي : مرسى الخروبة ، ومرسى ابن الالبيري ، وراس الحمراء (Cap de garde) ومرسى تكوش (C.T. Ticouche) الى جزيرة غمد (Ile Sainte Piastre) ثم مرسى الروم ومنه الى مرسى استورة (Stora) وهو مرسى مدينة سكيكدة .

ويبدو أن هذه المحطات كان لكل منها خاصية معينة فمرسى ابن الالبيري نسبة لأحد تجار منطقة البيرة فى الأندلس وتشير الى كثرة تجار هذه البلاد خاصة من ناحية البيرة (Elvira) (289) . ولم يكن الروم بمعزل عن النشاط التجاري فى هذه المنطقة ومن ثم تركوا اسما تذكاريا يطلق على احدى المحطات التي كانوا يتصلون فيها بالسكان للتجارة أو للتموين أو يتخذونها مكانا للراحة خاصة فى فصل الشتاء لأن أغلب هذه المحطات محمية من الخطر ومن التيارات البحرية وكان مرسى تكوش فى هذه الجهة مركزا لمسلحة أو لرابطة حمادية هامة ربما كان من مهمتها مراقبة نشاط الروم فى هذه المحطة وحراسة سكان الجهة ومراقبتهم أيضا لأنهم كانوا من قبائل كتامة (290) . أما سكان مدينة عنابة فبالرغم من أن استعرابهم كامل ولا أثر للهجة أخرى غير العربية الا أن جهات البلاد تحتفظ حتى الآن ببقايا من هوارة ويشير اليها جبل هوارة فى الناحية وبقايا من ولهاصة تدل عليها قرية بهذا الاسم على مسافة ثلاثين كم من عنابة بالاضافة الى قرية أخرى باسم صنهاجة تبعد عن المدينة بحوالي أربعين كم وعلى بعد خمسة عشر كم من عنابة يوجد شط فزارة الذي يشير الى نوعية بعض العناصر العربية التي استقرت فى هذه الجهة فضلا عن قبائل عطاوة والراشدين وبني صدوق .

ـ اما سكيكدة فقد اشار الرحالة الى قدمها وغناها بالآثار القديمة التي اثارت دهشتهم . كما لاحظوا أن عناصر سكانها من نفس عناصر سكان ميناء مدينة القل القريبة منها اي من بطون كتامة وهذا يدل على تكامل البلدين ونشاط حركة الهجرة بينهما ولعل هذا كان مبررا كافيا فى نظر صاحب كتاب الاستبصار الذي أهملها وذكر القل على الرغم من أن مصدره الرئيسي

289 ـ ومن كورة البيرة انظر المقري : المصدر السابق 1 ، 292 ط . 1936
H.R. Idris : Op. Cit., T. 2, p. 495.

290 ـ الادريسي : المصدر السابق 74 البكري : المصدر السابق 83 .

وهو البكري أشار اليها (291) . ويلاحظ أن فروع أولاد عطية وبني مهنى وبني تفوت وأولاد الحاج وبني اسحاق وبني صالح ينتشرون فى الناحيتين الآن .

وتبقى فروع زردازة ورجاص ، والزرامنة وسوفيسفة وبنو بونعيم فى ناحية سكيكدة وبنو والبان ، ومروان وسعيد وزيد وفرجان وأولاد حميدش فى منطقة القل .

ـ ويلي مرسى سكيكدة مباشرة **مرسى القل** الذي اكتفى البكري باشارة خفيفة عنه وهي قوله انه فى نهاية مرسى الشجرة ومنه ينفذ الى مرسى ستورة والاخير اسم قديم لمرسى مدينة سكيكدة (292) . واضاف صاحب الاستبصار بأن موقعه بري بحري وهو منفذ مدينة قسنطينة على البحر (293) .

أما الادريسي فقد لاحظ فى عصره ان انقل كان مركزا قليل السكان والعمران مستهدفا لخطر اسطول النورمان فى كل آن .

وكان سكان القل من كتامة يهجرون أسرهم من المدينة الى الجبال المنيعة التي تكتنف المنطقة خاصة فى موعد نشاط الأسطول النورماني فى عرض البحر اي فى غير فصل الشتاء بحيث لا يبقى فى المدينة غير القادرين على الدفاع لرد قراصنة النورمان (294) وهذا ما يفسر ظاهرة قلة السكان فى المدينة ونقص العمران اللذين أشار اليهما الادريسي .

ويفصل بين مرسى القل وقصر جيجل مجموعة من المحطات البحرية هي : مرسى الزيتونة ومرسى الشجرة ومرسى الخراطين .

وساحل مرسى الزيتونة صخري وبه تبدأ جبال جيجل والقل التي تشرف على البحر وتعرف عند الرحالة بجبال الرحمن وتسكنها قبائل من كتامة .

---

291 ـ البكري : المصدر السابق 63 ويلاحظ ان المسافة بينها وبين قسنطينة مسيرة يوم وقد سماها سقده وعاد فذكرها باسم تاسقده ص 83 ولعله نقلها حسب النطق المحلي الدارج فى عصره.الادريسي ، المصدر السابق 74 . اليعقوبي ، المصدر السابق 103 (ط . النجف) وفيه جاءت اسكيده ويبدو انه تحريف مطبعي لكلمة اسكيكدة وانظر 350 ـ 351 منه (مكتبة جغرافية)

Benachenhou : Op. Cit., 173.

Feraud : Philipeville. P. 33 sq.

292 ـ نفسه 83 .

293 ـ الاستبصار : 127 .

294 ـ الادريسي : المصدر السابق 70 ، 73 ـ 74 .

وهي تمثل لسانا ممتدا في عرض البحر يمتاز بالارتفاع من جهة وبمواجهته لسواحل جزيرة سردينية من جهة أخرى .

وربما كان المجاهدون البحريون يستفيدون من هذه الجبال ويتخذون منها مراقب أو نواظير لاستطلاع ما يجري في الطرف المقابل عبر البحر فيستعدون للطوارىء ، بالاعتصام بالبيئة الجبلية المنيعة . أو يواجهون المغيرين وهم على استعداد .

ويبدو أن ذلك هو السر في تسميتها بجبال الرحمن وهي تسمية فريدة . وجبال الرحمن لم تكن مثل غيرها من المناطق الجبلية فقرا وقلة عمران وانما كانت كما لاحظ بعض الرحالة غنية بالمراعي وبالمزارع والينابيع والأنهار وبالقرى . وتغطيها غابات كثيفة من أشجار البلوط والزان .

ولهذا السبب عرفت احدى المحطات البحرية القريبة منها بمرسى الشجرة كما أن وجود الأشجار الجيدة ساعد على قيام صناعة اهلية هي خرط الأخشاب تمهيدا لتصديرها الى آفاق افريقية والمغرب والى جزر البحر الابيض المتوسط ايضا ، اذ كانت للاعمدة المخروطة في هذه الجهة شهرة كبيرة في الخارج وكانت تجمع وتصدر من محطة قريبة عرفت بمرسى الخراطين (295) .

ــ وقصر جيجل ، أصلا مركز فنيقي قديم . وفي العصر الروماني كان ضمن ولاية موريطانيا القيصرية ثم ألحق بالسطيفية في عصر دقلديانوس وكان ضمن نفوذ الوندال والروم البيزنطيين وأثناء التوسع العربي الاسلامي احتفظ جيجل بمركزه في اطار الاسلام . وهو من مضارب فروع كتامة وكان عامرا بها حتى عصر الرحالة البكري الذي أشار الى توافر المعادن الهامة في جبال جيجل وانه يصدر النحاس من جيجل الى سائر افريقية وغيرها (296) .

ولاحظ الادريسي انها كانت مركزا صغيرا لكنها غنية بالخيرات ويصاد فيها السمك الكبير الجيد الطعم بأعداد وفيرة ولها مرسى جنوبي صخري مهجور لصعوبة النفاذ اليه ومرسى شمالي رملي هادىء الحركة يمكن الرسو فيه بسهولة لكنه صغير يكاد يشبه الحوض ويسميه مرسى الشعراء

295 ــ البكري : المصدر السابق 83 الادريسي : المصدر السابق 70 وما بعدها وفيه ان المسافة بين القل وجيجل تبلغ سبعين ميلا

A. Benachenhou : Op. Cit., p. 172-73.

296 ــ البكري 83 الاستبصار : لمجهول 128 وسمى جبل جيجل « جبل زلدوي » ويلاحظ انه كان مركزا لبدء الدعوة الاسماعيلية وعن وضعيته العامة انظر :

E.I. : (Art Djidjelli). T. 1, p. 1073, 74.

ربما لوجود نبات الشعراء بكثرة بقرب الميناء (297) ويبدو أن مدينة جيجل أصابها فى القرن الخامس للهجرة وهو عصر التوسع البحري النورماني او عصر الحركة الصليبية فى المغرب ما أصاب بقية المدن الساحلية فى المنطقة الشرقية ، من تخريب وتدمير وسيطرة نتيجة العدوان . وقد رفض السكان التعاون مع امير البحر النورماني ، الذي يسميه الادريسي : (جرجس) وغادروها بعد سقوطها الى المنطقة الجبلية المحيطة بها وبنوا هناك مركزا حصينا تجمعوا فيه بأسرهم ونقلوا اليه أمتعتهم واموالهم حتى صار بمثابة المدينة . كل ذلك حتى تبقى جيجل خلاء ليفارقها الغزاة واصبح ذلك عادة درج عليها السكان كلما راوا اسطول النورمان يقترب من المدينة فى فصلي الربيع والصيف .

أما فى الشتاء فان السكان يعودون الى مدينتهم الجميلة فتزدهر بهم وتزخر بالحركة وبالنشاط . وهكذا تغدو خرابا فى وقت ، عامرة بأهلها فى وقت آخر . وهذا ما لاحظه الشريف الادريسي فى قوله : وهي الآن خراب مهدمة الديار مثلمة الاسوار ليس بها ساكن ولا بقربها قاطن وهي مدينة حسنة (298) .

ومن قبائل جيجل ، فى هذا الوقت بنو عافر ، وبنو خطاب ، وبنو فوغال وبنو سيار وبنويدر وغيرها (299) ، وهي تنتشر على مراكز جيجل وهي الطاهير والشقفة وجيملة وسيدي عبد العزيز والعوانة ، ودوكان ، والمنصورية وهي فى الطريق بينها وبين بجاية وتعرف اليوم باسم (زيامة المنصورية) وزيامة اسم قلعة رومانية تقع على ارتفاع يسير من المنصورية . ويجاور المنصورية مزغيطن وهو راس ممتد فى عمق البحر منه تنفذ السفن الى جزائر العافية (Phare Bou Afia) ثم فج الزرزور ثم قرية متوسطة وهي على بعد أثنى عشر ميلا من بجاية ونشير الى ان المسافة بين جيجل وبجاية لا تتجاوز خمسين كلم على الطريق الساحلي .

---

297 ـ الشعراء نبات متشعب الفروع ذو جذور عميقة وروضة شعراء كثيرة الشجر : ابن منظور اللسان : 6 ، 80 .

298 ـ الادريسي : المصدر السابق 69 سرهنك : المرجع السابق 1 ، 358
A. Benachenhou : Op. Cit., p. 170. Léon : Op. Cit., p. 361-62, n° 12.

299 ـ اشار اليعقوبي الى مرسى بني خطاب كمنفذ لميلة (البلدان 103) والادريسي لاحظ وجود قصر فى جربة يعرف بقصر بني خطاب (96 منه) ويوجد بنو خطاب فى اقليم زويلة ومنهم امراؤه بيد ان ابن خلدون اعتبر هؤلاء من قبيلة هوارة (العبر 6 ، 291) وتاريخ الدول الاسلامية 1 ، 177 ـ 178 ط . دوسلان وقد ذكر ابن خلدون فرع بني يدر فى منطقة السوس الاقصى انظر 6 ، 137 ـ 138 .

وقد لاحظ البكري ، وجود مرسى باسم سبيبة بعد جزائر العافية وقبل مرسى بجاية واغلب الأسماء والمواقع التي ذكرها الادريسي والبكري توجد حتى الآن .

ـ أما بجاية التي تقع بقرب الحد الغربي لمجالات كتامة فتحيط بها المرتفعات ومن ثم كانت سواحلها صخرية ويحتضنها من الشمال جبل امسيون وهو صعب المرتقى . وتعتبر كما أسلفنا ساحل قلعة أبي طويل أي منفذا لها على البحر . وقد مصرها ابن علناس 465 هـ باشارة محمد بن البلبع (300) . وكانت قبائل كتامة تنتشر في جبالها ، وسهولها وحتى عصر البكري كانوا شيعة يكرمون من انتسب اليهم ، أو أخذ بمذهبهم .

والى الشرق من المدينة يمتد نهر الصومام الذي يصب في ساحلها وهو يتسرب اليها من كتلة جرجرة وبقرب المصب يغزر ماؤه ويعمق مجراه حتى لا يتيسر العبور فيه الا بواسطة السفن .

ولبجاية ظهير خلفي وسهول متسعة نسبيا تستغل في المزروعات المختلفة التي تصدر منها الفواكه والتين الى أرض افريقية والمغرب .

وبجاية كانت مركزا سياسيا وعاصمة لدولة بني حماد ومركزا تجاريا وصناعيا هاما . « تختلف اليها المتاجر بحرا وبرا ويأتيها التجار من الآفاق القريبة والبعيدة في المشرق العربي وفي أرض افريقية الزنجية .

وكانت اخلاق اهلها تتسع لهؤلاء وأولئك اخذا وعطاء .

وهذا النشاط التجاري الذي در أرباحا كثيرة على السكان ، انعكست آثاره الحسنة على المجتمع في المدينة . ومن ثم لاحظ الرحالة بأن « أهلها مياسير ، تجار وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلدان ، وأهلها يجالسون تجار المغرب الاقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق » (301) واضاف البكري (302) بأن مرسى بجاية يقابل في سمته أرض الاندلس ولذلك كانت الحركة التجارية بين البلدين نشطة واستقرت في بجاية جالية أندلسية فيها التجار والصناع والعلماء .

---

300 ـ ابن غلبون : التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الاخبار ورقة 15 . خ المكتبة الأهلية باريس رقم 1882 وقد نشر بعناية الزاوي وكان ابن البلبع رسول سلام وصلح من طرف تميم بن المعز بن باديس الى قريبه الناصر بن علناس الحمادي ابن خلدون المصدر السابق 6 ، 357 نور الدين عبد القادر المرجع السابق 37
E.I. (Art Bougie). T. 1, p. 785-86.

301 ـ الادريسي : المصدر السابق 62 ـ 64 الاستبصار 128 ـ 131 .

302 ـ البكري : المصدر السابق 82 ومن وضع المدينة في فترة لاحقة انظر :
Léon L'Africain : P. 360.

ـ وقد غدت بجاية مركزا لدار من أهم دور الصناعة على الساحل الشرقي من المغرب الاوسط . وقد ساعد على ذلك وفرة المواد الاولية لبناء السفن فى انحائها ومنها الاخشاب والزفت الجيد ، أو القطران والحديد والجص (303) .

ودار الصناعة فى بجاية هي التي تصدرت نظائرها فى القالة وبونة بالنسبة لانشاء الاساطيل والمراكب ، والحرابي) على حد تعبير الادريسي (304) ومن دون شك كانت هذه الاساطيل تحقق الغرضين التجاري والحربي معا .

وفى هذه الناحية ، كان أسطول بجاية فى عصر الحماديين درعا ، وقاها شر الغارات الاجنبية وربطها بمراكز التجارة والحضارة فى العصور الوسطى ، أما بيئتها الجبلية المنيعة ، فقد حدت من تطرف عناصر بني هلال ، ومن تحركاتهم .

ـ وعلى الطريق الساحلي بين بجاية ، وجزائر بني مزغنة يوجد مرفأ هام، من مجالات كتامة، هو مرسى الدجاج (Port aux Poulets) وهو مركز ساحلي يقابل بسمته ، ميورقة من جزر البليار (الشرقية) ومن اشارات الرحالة ، نستنتج أنه كان محصنا ويتمتع سكانه بالغنى والثروة بسبب سعة الاراضي الزراعية واستغلالها بعناية ، ثم للحركة التجارية التي كانت نشطة مع آفاق كثيرة . ويسهم سكان المدينة من فروع كتامة ، وعناصر من الجالية الاندلسية التي كانت تتعايش مع الاهالي : فى النشاط الاقتصادي البناء بدور فعال ، ولاحظ البكري ، على عكس الادريسي أن مرفأ المدينة كان غير مأمون شتاء بسبب الضيق وضحالة المياه وانعدام العمق (305) وتفرد الادريسي ، بالاشارة الى أن سكان مرسى الدجاج ، مثل أهل القل ، وجيجل كانوا يضطرون أحيانا لمغادرة مدينتهم فى فصلي الصيف والربيع بسبب الخوف من الغارات المدمرة ، للاسطول النورماني (306)

303 ـ الاستبصار : 128 ـ 131 ويلاحظ وجود مركزين لبناء السفن فى المدينة فى العصر الموحدي .

304 ـ وعن انواع السفن الاسلامية انظر : عبد الفتاح عبادة : سفن الاسطول الاسلامي 4 وما بعدها الشرقاوي : البحرية الاندلسية 71 ـ 72 :

Dozy : Suppléments au dictionnaire arabe. T. 1, p. 265.

305 ـ البكري : المصدر السابق 65 و 82 الاستبصار (لمجهول) 131 .

306 ـ الادريسي : المصدر السابق 62 .

ـ والى الشرق من مرسى الدجاج يوجد مرسى بني جناد (307) نسبة لفرع من زواوة بهذا الاسم وهو مرفأ صغير وموقعه جبلي وساحله صخري . وأهميته تبدو في كونه مع مرسى قريب منه ، هو تدلس (308) المنفذين الرئيسيين لفروع زواوة في كتلة جرجرة .

ـ والذي يستخلص مما سبق ، عن مراكز كتامة على الساحل الشرقي من المغرب الاوسط :

ـ ان الثروات الهائلة ، ووجود دور لصناعة السفن ، ومراكز تجارية كبرى ، ساعدت على خلق صلات واسعة لهذه البلاد مع جزر البحر الابيض المتوسط وافريقية والمشرق العربي ، الا أن هذه الميزات كانت أيضا سببا في تلك الغارات التخريبية المستمرة ، التي استهدفت لها مراسي الجهة ، من طرف القراصنة النورمان منذ القرن الخامس الهجري (11 م) .

واستمرت بعد ذلك ، واصبحت أكثراحكاما وتركيزا،ولقد لاحظ الرحالة العبدري (ق 7 هـ) باستغراب وبألم عميق ، مدى استخذاء سكان مدينة بونة وضعفهم أمام زورق صغير فرض الحصار على المدينة ، واختطف ركابه بعض سكانها ثم الحوا في دفع الفدية نظير اطلاق سراحهم ، ونص كلامه الهام « ثم وصلنا الى مدينة بونة فوجدناها بلدة لطوارق الغير مغبونة ، مبسوطة البسيط ، ولكنها بزحف النوائب مطوية مخبونة ومن اغرب المسموعات أننا صادفنا وقت المرور بها زويرقا للنصارى لا تبلغ عمارته عشرين شخصا ، وقد حصروا البلد حتى قطعوا عنه الدخول والخروج وأسروا من البر أشخاصا فأمسكوهم للفداء بمرسى البلد وتركناهم ناظرين في فدائهم » (309) . وعند هذا الحد ، يحق للباحث أن يتساءل عن دور البحرية الاسلامية في هذه الجهة ، وعن أهمية مراكز ودور الصناعة التي يوجد منها في هذه المنطقة وحدها ثلاثة مراكز هامة . أقربها لبونة ، مرسى الخرز ؟ وعن مدى صحة ما أشار اليه الرحالة من أنها كانت كلها ، تقوم بواجبها الدفاعي والهجومي أيضا ؟

ـ أما مراكز كتامة في الداخل فنكتفي منها بأهمها ، وهي : قسنطينة ، وميلة وسطيف وايكجان .

---

307 ـ البكري : نفس المصدر والصفحة . ويلاحظ ان صاحب الاستبصار اهمله لانالبكري اشار اليه اشارة خاطفة .

308 ـ الادريسي : نفس المصدر والصفحة ، وانظر أيضا 73 منه وعن دلس انظر :
A. Benachenhou : Op. Cit., p. 162.
Léon : Op. Cit., p. 352, n° 67.

309 ـ العبدري : المصدر السابق 33 ط الجزائر .

ـ فقسنطينة ، مدينة كبيرة ترجع في نشأتها الى أصل ليبي قديم واسمها (سرطة =قرطة = (Cirta) يشير الى تأثير فنيقي قرطاجني على امارة ماسيليا التي كانت سرطة عاصمة سياسية لها سواء في عهد ماسينسا او في عهد خلفائه (310) وقسطنطين الاكبر (ت 337 م) هو الذي جدد المدينة مما أصابها نتيجة الحروب الاهلية بينه وبين أعدائه وخلع عليها اسمه ، الذي تحتفظ به الآن . كما يوجد عند مدخل المدينة تمثال ضخم لهذا القائد الروماني .

وموقع المدينة هضبي ، ونهري معا ، اذ أن الرحالة لاحظوا انها محاطة بثلاثة انهار تمتد من عيون أشقار =(سود) وتصب في خندق عظيم بعيد الهوى حتى كان الماء يرى فيه ، وكأنه كوكب صغير .

والأنهار الثلاثة ، وهي الوادي الكبير (=الرمل)وبومرزوق ، والسمندو تحول المدينة بمثابة شبه الجزيرة الصخرية المنعزلة عما سواها .

وهي كذلك في مظهرها لا يقع النفاذ اليها الا من مسلك واحد في الغرب (La Brèche) وموقعها بدون شك هو سر حصانتها التي غدت مضرب الامثال (311) وسببا في متاعب الغزاة ، منذ عهد الرومان ، الى الاحتلال الفرنسي وعرفت بقسنطينة الهواء .

وقد لاحظ الادريسي أن للمدينة بابين ، أحدهما باب ميلة في الغرب وثانيهما باب القنطرة في الشرق ، والتسميتان ما زالتا قائمتين حتى اليوم .

وبسبب أرضها الصخرية ، وغنى ناحيتها بالاحجار ، لاحظ هذا الرحالة ان عتبات دورها وعضادات الأبواب فيها ، كلها من الحجر الصلد .

ولمدينة قسنطينة ، براح متسع ، تمتد فيه الزروع ، واشجار الفواكه والمراعي . ومظهر أهلها ، كان دائما يدل على اليسار والغنى والنشاط ، والتفتح ومن ثم لاحظ الرحالة أن البلاد كانت تموج بخليط من عناصر

---

310 ـ ابن الأتيري ، المصدر السابق ورقة 4 وما بعدها ونلاحظ هنا اسما جديدا لقسنطينة هو (مدينة الجابية) لوجود ماجل (= جابيه) لحفظ المياه انظر ورقة 7 وما بعدها ويذكر ان المدينة اسست سنة 1450 ق . م . وشكلها متوازي الاضلاع ويشبهها السكان ببرنس منشور ويشير الى ان قبائل ماسيليا شرقا وقبائل ماسيليان غربا انما هي خليط من السكان ومن الذين اندمجوا معهم . انظر : جوليان : تاريخ افريقية الشمالية 1 ، 131 ، ترجمة عربية تونس 1969 .

311 ـ البكري : المصدر السابق 63 وفيه « ليس يعرف احصن منها » الاستبصار (لمجهول) 165 ـ 166 .

عربية واخرى من البتر من نفزاوة ، أو من اقليم قسطيلية (بلاد الجريد) فضلا عن سكانها الاصليين من قبائل وفروع كتامة ومن المهاجرين اليها من مجالات هذه القبيلة ، خاصة من ميلة وسكيكدة ، والجرارم ، وعين كرمة . وكل هذه كانت مسرحا لاحداث الحركة الاسماعيلية . ويبدو فى نظر الرحالة الادريسي ، ان أصالة المدينة وتاريخها لا يدل عليه اسمها فقط ، وانما تقوم شواهد أخرى مادية تشير الى تأييد ذلك واهمها بقايا دار المسرح التي تشبه دار ملعب ثرمة بجزيرة صقلية (312) .

ومما ينبغي أن يلاحظ هنا ، أن سكان هذه الجهات قد استعربوا كليـة وليست لهم لهجة أخرى للتخاطب . ورغم انهم يجهلون أنهم من بقايا كتامة ، فان هناك ما يشير الى أصلهم الكتامي المشترك ، ومن ذلك ، بقايا اسماء بربرية شائعة فى الجهة ، ويتفق سائر السكان ، على اطلاقها على مسمياتها الصحيحة ، ولدينا أمثلة عن ذلك ، فتابحيرت ، هي الحديقة ، وتاغزوت ، تعني البستان وتيعوينان هي عين المـاء ، واورار ، معناهـا العرس ، وتاورار ، تطلق على لعبة صبيانية وتازروت ، للحجر الصلد ، وآزرو ، للصخر ، والكلمتان الاخيرتان شائعتان فى مضارب زواوة ، ومع ذلك أطلق اسم تازروت على دار هجرة الشيعي فى كتامة . .

ـ والى الشمال من قسنطينة (مسافة 50 كم) توجد **مدينة ميلة** ، وهي من مراكز كتامة الهامة نشأتها قديمة وعمرانها مستبحر . وكانت مشهورة بسور من الحجر وبقيت كذلك حتى القرن 4 هـ عندما أدب المنصور بن بلكين سكانها فهدم أسوارها بسبب تأييدها لثورة أبي الفهم الخراساني ، وايوائها الثائرين .

وقد هجر المنصور سكانها الى مدينة باغاية على حافة كتلة أوراس (قرب خنشلة الآن) فأخذوا أمتعتهم واستقروا هناك ، وتناسلوا ، واختلطوا بسكان الجهة من هوارة وزناتة . واصبحت باغاية ومنطقة أوراس ، لهذا السبب من ضمن مجالات نشاط عناصر من كتامة ، تربطها بالوطن الأم فى كتامة ، روابط وثيقة ، وتستجيب لكل ما يجد فيه من أحداث ، أو من تطورات ، ومن ذلك ، أن التيار الاسماعيلي لم يلق مقاومة جدية فى هذه المدينة ، وسرعان ما أصبحت باغاية ضمن دائرة نفوذ الداعي فى كتامة . ويبدو أن حيوية مدينة ميلة لم تعد اليها الا عندما امتد اليها نفوذ

---

312 ـ الادريسي : المصدر السابق 67 ـ 68 ، المقدسي : المصدر السابق 30 ، العبدري المصدر السابق 29 ـ 30 ابن حوقل : المصدر السابق 90 البغدادي مراصـد 3 ، 1093

A. Benachenhou : Op. Cit., p. 174, sq., n° 1.
Léon L'Africain : P. 365 sq., n° 33.

الحماديين ، لأن الادريسي أشار الى تبعيتها فى عصره ، لنفوذ السلطان يحي بن العزيز الحمادي فى بجاية .

وقد اثار دهشة الرحالة ، ما حبتها به الطبيعة ، من عمران متصل ، فأشجارها وفواكهها كثيرة ومياهها غدقة ومناظرها خلابة » .

ويعتمد سكانها فى الشرب ، على منبع أو عين أبي السباع ، التي تتسرب مياهها الى المدينة تحت الارض ، من مصدرها ، فى جبل بني ياروت (313) .

ولاحظ البكري وجود نبع بارد فى الجهة ، له ميزة شفاء المحمومين ، ولذلك عرف بعين الحمى .

ومدينة ميلة كانت مقرا للعامل الذي يراقب منطقة كتامة ، ولذلك ، كان لميله دور كبير أثناء نشاط الدعي فى كتامة ، وكان لحاكمها الذي يسميه كل من اليعقوبي والنعمان « موسى بن العباس بن عبد الصمد ، من عرب بني سليم ، مساعي خاصة بقصد القبض على الداعي ، واخراجه من كتامة ، أو تسليمه لحكام بني الاغلب (314) .

ومدينة ميلة التي كانت من أعظم مدن كتامة ، ومنطقة الزاب ، حتى وصفها البكري بأنها « من غرر مدن الزاب » استحالت رسومها ، وانحط شأنها وشأن سكانها فى عصر الرحالة العبدري ، الذي لخص رايه فى مشاهداته فى المدينة بقوله (وكفى ببلد خلاء وفناء الا يحوي ما يوصف الاماء وبناء) (315) . أما ليو الافريقي ، فلاحظ ظاهرتين تناقص عدد السكان وتأخرهم من جراء جور الحكام ونشاط الباقين منهم فى ميدان الصناعات التقليدية (316) ونشير الى أن ميلة بحكم موقعها الجبلي المنعزل،واقتصادها الزراعي وبعدها عن البحر لم يكن ينتظر لها أن تبقى فى مركز الصدارة فى الاقليم الذي احتلته مراكز أخرى ، مثل بجاية وجيجل وقسنطينة وبونة لتنوع نشاطها وتفتحها على العالم الخارجي وهو التطور الذي حصل بالنسبة لحاضرة تلمسان فى الحد الغربي من المغرب الاوسط ، ولقسنطينة فى القسم

---

313 ـ الاستبصار (لمجهول) 166 ويسميه جبل تامروت . البكري : المصدر السابق 64 العبدري : المصدر السابق 29 ـ 30 ويسميه بني يارار .

314 ـ النعمان : المصدر السابق ورقة 41 (خ) مكتبة جامعة القاهرة ، اليعقوبي : المصدر السابق 103 وقد ورد فى النويري ج 26 ورقة 26 ، موسى بن عياش .

315 ـ العبدري : المصدر السابق 28 وما بعدها .

316 ـ البكري : المصدر السابق 64 ، الادريسي : المصدر السابق 66 ـ 67 ابن حوقل : المصدر السابق 93 الاستبصار 166 ويستفاد منه قرب جبل المنصل من ميلة :
Léon L'Africain : P. 369 n° 53-55
A. Benachenhou : Op. Cit., p. 171

الشرقي منه لفائدة مركز صغير هو جزائر بني مزغنة منذ بداية القــرن السادس عشر الميلادي (10 هـ) .

وبقرب مدينة ميلة ، مركز صغير من مراكز كتامة ، هو تانا قللت ، لا يبعد عن حصن سطيف فىنظر البكري ، بأكثر من مرحلة وكان عامرا بعناصر من كتامة ، ويبدو أن اسم قرية تاجنانت ، الموجودة حاليا فى نفس الطريق (Saint Donat) هو تحريف ، أو نطق دارج مخفف له (317) .

ـ ومدينة سطيف ، هي الاخرى فى اطار منطقة الزاب ، ومن مراكـز كتامة (318) ، التي كانت تدين بالتبعية والولاء للامارة الأغلبية فى رقادة ، وكان حكام المدينة من أسرة عربية من بني أسد بن خزيمة ، يعرفون ببني « عسلوجة » وكانوا يرتبطون برباط التبعية ، لأمراء بني الأغلب (319) .

وبنو عسلوجة هم الذين عاصروا ظهور الحركة الاسماعيلية وتوسعها على حساب المراكز الهامة فى المنطقة ومنها سطيف ، التي غدت مركزا شيعيا هاما قريبا من قلب الامارة الأغلبية فى افريقية .

ـ وكاجراء احتياطي ، وحتى لا يفكر سكان المدينة فى الثورة ضد الحركة الجديدة قام جند كتامة بتخريب سور المدينة ، واستحكاماتها العسكرية ، وبقيت كذلك فى العصور التالية لأن الرحالة منذ عصر البكري الى عصر الحسن الوزان ، لاحظوا عدم تجديد الأسوار (320) .

وعندما ضعف شأن كتامة وخضعت المدينة لبني حماد من صنهاجة وامتلات ارباضها بعناصر من عرب بني هلال وغيرهم ، ذل من بقى فيها من كتامة وقد منعت العناصر الكتامية من دخول المدينة ، لمزاولة التجارة ولقضاء الحاجات الضرورية الا برسوم مرتفعة ، تبلغ نسبتها عشر ما يرد

---

317 ـ البكري : المصدر السابق 76 .

318 ـ بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة 6 ، ورقة 266 (خ) مكتبة جامعة القاهرة وفيه وصفت مدينة سطيف بانها « كرسي عزهم » .

319 ـ وعن بني عسلوجة امراء سطيف انظر النويري : المصدر السابق 26 ورقة 26 .

320 ـ البكري : المصدر السابق 76 الاستبصار (لمجهــول) 166 الادريسي : المصدر السابق 70 ، اليعقوبي : المصدر السابق 103 الاصطخري : المصدر السابق 39 ، ابن حوقل : المصدر السابق 93 شارل بلا : وصف المغرب 58 :
A. Benachenhou : Op. Cit., 171, Léon 362-63.

اليها من متاجر وهذا التدبير الخاص لا يطبق عادة الا على متاجر المشركين اذا دخلوا مدينة فى دار الاسلام (321) .

***

وعلى مسافة حوالي 66 كم الى الشمال من مدينة سطيف وعبر مدينة العلمة . وفى الطريق الذي يؤدي الى جيجل ، يوجد أهم حصن لكتامة وهو أيكجان الذي يظن أن بقايا حصن تازروت (322) ، القديم (القريبضةالآن) لا يبعد عنه بأكثر من ثلاثين كم فى الاتجاه الشمالي الشرقي عبر طرق وعرة .

والحصنان يكتسيان اهمية خاصة ، لعلاقتهما بنشاة فكرة التشيع فى كتامة من جهة وفى كونهما من المراكز التي تحصن فيها الداعي لأول مرة وحتى فى أوقات الخطر من جهة اخرى .

والذي يلاحظ انه لم يشر الى حصن ايكجان ضمن أرض كتامة من الرحالة والجغرافيين غير المقدسي والادريسي وياقوت الحموي .

فالمقدسي أشار اليه ضمن مدن كتامة الأخرى ، وجعله فى الترتيب المكاني بين سطيف ومرسى الدجاج (323) .

وياقوت الحموي اكتفى بالاشارة الى انه مكان فى منطقة كتامة اتخذه الداعي مقاما وسماه دار هجرة (324) . أما الشريف الادريسي ، فكان أكثر

---

321 ـ نفسه . وعن وصف المدينة انظر ايضا
H.R. Idris : Op. Cit., T 2 p. 499

322 ـ يلاحظ وجود مكان باسم تازروت (Tazerout) فى منطقة جرجرة وبالتحديد على حافة وادي سباو ، الذي يتجه مجراه مع وادي بوقدورة ، ويصبان معا فى البحر وراء دلس واشار المقدسي (المصدر السابق 219) الى قرية باسم تازروت فى اقليم سجلماسة كما لاحظ البكري (المصدر السابق 161) وجود مركز باسم تازدارت فى اقليم السوس الاقصى وفى كتاب السير الشماخي ما يفيد وجود قرية باسم تاصروت ، فى جبل نفوسة انظر 283 منه .
اما حصن تازروت دار هجرة الداعي فقد يكون قرب مركز عين ملوك ويرجع ذلك وجود وادي العثمانية جنوبا نسبة لقبيلة عثمان القديمة ، وقد تكون الخرائب القريبة من القريبضة بين الرواشد وميلة وكلها قريبة من ايكجان . غير أن خرائب القريبضة تبدو اقرب الى ميلة من عين ملوك والنصوص المعاصرة تشير الى قرب تازروت من ميلة وبالنظر لوجود هذا الاسم فى مجالات بربرية واعتبار المعناة فى اللهجة المحلية (ـ الصخرة الكبيرة) يرجح أن الخرائب الرومانية فى القريبضة هي التي سميت فى عرف السكان باسم تازروت بسبب ضخامة صخورها .

323 ـ المقدسي : المصدر السابق 217 ـ 218 وانظر : وصف المغرب 6 ، 52 ، مستخرج من احسن التقاسيم بعناية شارل بلا .

324 ـ ياقوت : المصدر السابق 1 ، 363 وينطق حسب روايته انكجان بالنون ايضا .

دقة من غيره من الجغرافيين فوصفه بأنه جبل ، وعليه حصن حصين ومعقل منيع ويعني هذا أن الحصن اكتسب اسمه ، من اسم الجبل الذي يقع عليه ، وكان سكانه من قبائل كتامة ، تابعين قبل عصر الادريسي ، لسلاطين بني حماد فى بجاية وفى نهايته الغربية يوجد جبل جـلاوة الذي لا يبعد عن بجاية بأكثر من مرحلة ونصف (325) .

أما ابن خلدون والنويري ، من المؤرخين (326) ، والقاضي النعمان من المتشيعين المعاصرين (327) ، فأشاروا الى وجود قلعة ايكجان ، ضمن أرض بني سكتان وهم فرع من قبيلة جيملة الكبرى . ولاحظ المقريزي ، انه جبل بالقرب من قسنطينة وأن سكانه من كتامة قد تلاشوا منه (328) . وبسبب الصيغة العامة للنصوص السابقة اتسع مجال الافتراض لتحديد موقع ايكجان بين الباحثين المحدثين (329) .

ـ ومن هذه الافتراضات اعتبار مكان (Guidjdjil) ڤيجيل جنوب مدينة سطيف هي قلعة ايكجان القديمة (330) .

ـ كما لا يستبعد أن تكون قلعة ايكجان القديمة فى مكان ما من دائرة سيدي عيش لوجود ممر وعر ، يعرف بفج تقدنت (تقجنت) . وهو فى مجال زواوة .

ـ وأشار بعض الباحثين الى أن ايكجان محطة تقع فى اصل جبل ، يقرب من قسنطينة كان يمر بها حجيج شمال المغرب الاقصى ، والاندلس ، واسمها القديم انما هو تزاجان (Tzajjan) (331) .

---

325 ـ الادريسي : المصدر السابق 70 .

326 ـ ابن خلدون : المصدر السابق 4 ، 66 ـ 67 ط . بيروت ، وفيه حـــرف اسم القبيلة الى جبيلة ويطلق اسم جميلة على بقايا مدينة رومانية هي (Cuiculum) بقرب مدينة العلمة ، وقرية بني عزيز (ايكجان) وهي تحتفظ باسم قبيلة جيملة الكبرى التي كانت تنتشر فروعها حتى جيجل وعند بني سكتان منها يوجد فـج الاخيار انظر النويري : المصدر السابق 26 ورقة 26 .

327 ـ النعمان : المصدر السابق ورقة 36 وما بعدها .

328 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفاء 1 ، 57 هامش 1 ايضا ط . 1967 .

329 ـ وعن بعض هذه الافتراضات انظر : M. Talbi : Op. Cit., p. 600 n° 4

330 ـ L. Massignon : les Sept dormant d'Ephese en Islam et en Chritienne p. 79 Sqy. Revue des Etudes Islamiques Année 54.

331 ـ حسن ابراهيم : المرجع السابق 48 هامش 1 ، 49 ايضا ، عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها بمصر 58 هامش 4 .

ـ ويبدو أن موقع ايكجان (332) ، حسب النصوص السابقة ، هو فى مكان ما ، بين مدن قسنطينة ، وسطيف ، وميلة أي بين مراكز هامة فى بيئة كتامة ويحتل مركزا وسطا بين مدينتي سطيف وميلة وكلتاهما لا تبعد كثيرا عن قسنطينة .

أما الوجهة السياسية والتبعية الادارية ، فكانتا لمدينة ميلة دون سطيف ويؤكد ذلك عدة اعتبارات هامة منها :

أ) أن العامل الذي انزعج ، لظهور الداعي فى ايكجان ، انما هو عامل ميلة الذي سأل عن حقيقة امره ، ثم طلب من بني سكتان تسليمه اليه (333).

وحين علم بأن الداعي دخل ميلة فعلا ، للعلاج جد فى البحث للتحفظ عليه ، دون جدوى (334) .

ب) وقد اتجه ابراهيم بن أحمد (الثاني ، أو الأصغر) أمير بني الأغلب (335) الى عامل ميلة فقط ليسأله عن حياة ، وتحركات الداعي فى كتامة (336) وعن طريق ، هذا العامل اتصل رسول الأمير الأغلبي بأبي عبد الله الشيعي فى ايكجان وعرف الرسول ، بابن المعتصم المنجم (337) .

ج) ويلاحظ أن الداعي ، حينما مرض بعلة الحصاة ، واشتد عليه المرض وسأل عن أقرب الأماكن اليه ، اشار أصحابه بقصد الحمام فى ميلة ، ولم يشيروا عليه بسطيف ولا بغيرها من مراكز كتامة الكبرى .

د) وحينما تغلب الداعي على زعماء الفتنة من قبيلة كتامة فى تازروت ، ارتحلوا بسرعة الى ميلة ، وتجمعوا هناك ، استعدادا للجولة الاخرى من أقرب مكان (338) .

---

332 ـ ابن الاثير : المصدر السابق 8 ، 11 ، 12 وتاتي هنا انكجان بالنون .

333 ـ النعمان : المصدر السابق ورقة 41 ، وفيه قولهم « ما كنا بمن نسلم ضيفنا اليك » .

334 ـ النعمان : افتتاح ، ورقة 38 ـ 39 ، الدرجيني : الطبقات ورقة 109 وفيه عن ابي عبد الله الداعي قوله : « نزل قلعة ايكجان بنظر ميله » .

335 ـ كان واليا للقيروان ، ثم اصبح اميرا بعد وفاة اخيه ابي الغرانيق محمد بن أحمد ابن الأغلب ، بنى رقادة 263 هـ انظر : ابن عذارى : المصدر السابق 1 ، 154 وما بعدها .

336 ـ ابن الاثير : المصدر السابق 8 ، 11 ، النويري : المصدر السابق 26 ورقة 26 .

337 ـ النعمان : المصدر السابق ورقة 41 وما بعدها .

338 ـ نفسه ورقة 93 وما بعدها .

هـ) ثم ان الاحول ، القائد الأغلبي حينما هزم قوة الداعي بجوار تازروت ولم يجده فيها تابع زحفه نحو ميلة ، وعندما وجدها خالية لارتحال المتشيعين منها الى ايكجان لم يدخلها ، وواصل السير نحو ايكجان مباشرة

و) ولما ضاق المقام بالداعي فى ايكجان ، لتصدع حصل وسط بني سكتان توجه مباشرة نحو تازروت ، واستقر فيها ومنها بدأ نشاطه ضد ميلة وكان ينصرف بعد انجاز عمله ضد مينة ، الى قاعدة انطلاقه فى تازروت (339) ، وهذا يشعر بمدى تكامل هذه المراكز :

ز) ولا ريب أن موسى بن العباس عامل ميلة ، ما كان ليجرؤ على طلب الداعي من بني سكتان لو لم تكن سلطته نافذة وأحكامه سارية عليهم وبلادهم فى اطار نفوذه . وتفضيل الداعي ، لقلعة ايكجان بجوار بني سكتان (340) اظهر فروع قبيلة جيملة الكبرى ، كان فى محله ، لحصانة المكان ، وشجاعة الرجال وحتى عندما فارقه ، مضطرا لم يسل عنه حتى رجع اليه ولم يفارقه نهائيا الا الى رقادة فى قلب ولاية افريقية .

(ايكجان ــ ميلة ــ تازروت) وقربها من بعضها .

ــ وبجوار قرية بني عزيز ((Chevreul)) دائرة العين الكبيرة : (Périgotville) ، وعلى مسافة حوالي 2 كم الى الشمال فى طريق جبلي وعر توجد آثار قلعة ايكجان القديمة (341) . ويدل على ذلك مجموعة من الأدلة الهامة منها :

ــ ان السكان فى الجهة يحتفظون لهذه الآثار ، بنفس الاسم القديم للقلعة وهو : ايكجن أي مع تحريف بسيط كما يسمونها الخربة أيضا ، لأنها تشتمل على مجموعة خرائب واحجار يظن انها هي آثار بعض المساكن والقصر التي كانت تكون دار الهجرة الشيعية الأولى فى ايكجان .

ــ وتعني كلمة ايكجان فى اللهجة البربرية الكلاب اذ هي جمع لكلمة (أقجون) عند البربر فيكون معنى الاسم اذا خربة الكلاب (342) .

---

339 ــ نفسه ورقة 95 .

340 ــ وردت (بني سكيان) عند :
M. Vonderheyden : La Beberie Orientale p. 288, Ligne 3.

كما وردت (بني سليمان) فى القريزي انظر : اتعاظ الحنفاء 1 ، 56 ط 1967 .

341 ــ وعرفت باسم قلعة العصيان : La Forteresse de l'Insurrection
E.F. Gautier : Op. Cit., p. 343

342 ــ M. Vonderheyden : Op. Cit., p. 288, n° 1

ويظهر ان سر التسمية منذ قديم يرجع الى اعتماد سكان الناحية وغيرهم فى الحراسة على الكلاب التي كانت توضع فى المرتفعات التي تشرف على سائر النواحي .

ويبدو أن الكلاب ، كانت تنفذ الى الخربة ، من واد يجاور القلعة ، كما كانت تنتشر فيه لمراقبة مواشي السكان وأرزاقهم المخزونة تحت الأرض ويعرف هذا الوادي فى وقتنا ، بوادي الكلاب ايضا ، وبقربه اخدود يعرف عند سكان الجهة بشعبة الفرائس (= فج) ونظير ذلك فى ولاية افريقية ما أشار اليه الادريسي من وجود مكان يعرف بسباخ الكلاب بجوار قصر بني خطاب (343) كما توجد أسماء شعبة اللحم ، ووادي اللحم ، وقرية الخرب فى أماكن من أرض المغرب الأوسط .

ــ ومكان القلعة ، يبدو انه كان مسرحا واسعا تقام عليه افراح الجهة فى مناسبات خاصة ، لأنني لاحظت أنهم يسمونه « أورار » الأولى انها تعني اللعب وهي كلمة بربرية تعني العرس ويردد صبيانهم اغنية شعبية نصها « أورار ديما ــ ديما ، نروحو عند لالا حليمة » وتعني الرغبة فى دوام الفرح وتجدده ، ولا يستبعد ان تكون ذات أصل قديم ، وقد عبر سكان القلعة منذ القدم عن فرحتهم بظهور دولة المهدي ، بعد أن تمكن من النجاة بنفسه من أيدي العباسيين ورقبائهم وبقيت كذلك لتشير الى الرغبة فى استمرار الخير ، وتجدد حركات الاصلاح وازالة الظلم التي ترتبط منذ القدم بفكرة ظهور المهدي المنتظر من آل البيت الذي يظهر ليقضي على الفتن ويبقى ظاهرا مدة سبع أو تسع سنوات (344) .

ــ ويلاحظ أن المكان الذي توجد فيه القلعة ، غني بالفجوج (ج فج) وهي الطرق الضيقة المحصورة بين المرتفعات ويوجد منها بقرب القلعة وحدها فجان هما :

---

343 ــ الادريسي : المصدر السابق 96 ومن زقاق الكلاب فى مصر القديمة انظر : ابن دقماق الانتصار لواسطة عقد الأمصار 4 ، 17 .

344 ــ يوسف بن يحي السلمي : عقد الدرر فى اخبار الامام المنتظر ورقة 2 ب ، خ بتونس رقم 1605 ويتالف من 12 بابا فى الرابع منه وعنوانه : فيما يظهر من الفتن الدالة على ولايته ، حديث شريف ، نصه : « ينزل بامتي فى آخر الزمان بلاء شديد من سلاطينهم لم يسمع بلاء أشد منه حتى تضيق عليهم الارض الرحبة وحتى يملأ الارض جورا وظلما لا يجد المؤمن ملجا يلتجيء اليه من الظلم فيبعث الله رجلا من عترتي فيملأ الارض قسطا وعدلا ، كما ملئت جورا وظلما فيرضى عنه ساكن السماء وساكن الارض لا تدخر الارض من بذرها شيئا الا اخرجته ولا السماء من قطرها شيئا الا صبه الله عليهم مدرارا يعيش فيهم سبع سنين أو تسع سنين . »
انظر ورقة 6 ب ، 7 أ منه ايضا .

فج امسد ، ثم فج الضباب ، وعلى مسافة (70 كلم) يوجد فج مزالة « مصالة » وفج امسد ، منهما يوجد بقرب سرب واسع يعتقد سكان الجهة انه طويل ويؤدي الى ميلة ، اي فى اتجاهها طبعا ، ولعله احد المخابيء أو الطرق السرية التي كان يسلكها الدعاة وافراد البعوث الصغيرة ، الى آفاق كتامة بعيدا عن أعين الرقباء والمخالفين . وهذا السرب يعرف عند السكان ، « بغار اجغري » .

اما فج الضباب فيتصل مباشرة بقلعة ايكجان وينحصر بين جبلي سيدي ميمون وسيدي صالح .

وفى سفح جبل سيدي ميمون الذي يحيط بالقلعة الا فى ناحية وادي اقارو يسكن فريق من السكان ، يعرفون فى هذا الوقت « بني سكفان » وهم فيما يبدو بقايا رهط بني سكتان ، من قبيلة جيملة ، الذين أجاروا الداعي الشيعي ، بعد أن صحبه بعض حجيجهم من مكة .

ومن ثم فوجود هؤلاء السكان فى نفس مكانهم القديم ، أو بقربه ، محتفظين بالاسم التاريخي مع تحريف بسيط ، دليل يرجح ان بقايا الآثار القريبة منهم هي نفسها قلعة ايكجان دار هجرة الاسماعيلية فى ولاية افريقية ، ومعتصمهم الاول ، من طواريء الحدثان ، وما فج الاخيار ، الذي نطق به الشيعي ، الا فج الضباب القريب من القلعة ، الذي كره الداعي ، أن يعرف بغير فج الأخيار تفاؤلا واطراء .

ـ يبدو ان وجود خرائب ، لقلعة تازروت (قرب القريبصة) على مسافة قريبة من آثار القلعة ومن الخرائب التي توجد قرب قرية بني عزيز الحالية ، دليل على ان الاخيرة هي بقايا قلعة ايكجان القديمة ، لأن النصوص تشير الى سهولة انتقال الداعي ، من ايكجان الى تازروت (345)،اي من منطقةظهرت فيها فتنة الى منطقة قريبة منها أظهر سكانها استعدادا لحمايته (346) وليس من السهل أن يفارق الداعي قلعته الاولى ، الا الى مكان آمن وقريب ، لأن نيته كانت معقودة على العودة عندما تنكشف سحب الخلاف وتتبدد الضباب .

ـ والناحية الأخرى الهامة فى موضوع تحديد مكان قلعة ايكجان هي طبيعة المنطقة أو عبقرية المكان .

---

345 ـ ابن الأثير : المصدر السابق 8 ، 12 يذكرها باسم : ناصرون وهو تصحيف وجاءت تاصروت فى المقريزي انظر اتعاظ الحنفا 1 : 58 وقد اهمل ذكرها البكري ، وابن عذارى وصاحب الاستبصار والادريسي والمستشرق باسيه فى مقال كتامة بالدائرة انظر : EI., (Art. Ketama) T II p. 909

346 ـ النويري : المصدر السابق 26 ورقة 27 .

وفى هذا المجال يلاحظ أن القلعة المجاورة لقرية بني عزيز تتوفر على عنصرين هامين هما :

الحماية الطبيعية والاكتفاء الذاتي فى الماء والزرع .

فالقلعة فى مكان جبلي وعر ومنعزل عن الظهير الخلفي ، وتحيط بها جبال سيدي ميمون وسيدي صالح ، ومرزقان ، وبابور ، ويلتف حولهما وادي الكلاب وبقربها يجري وادي بورديم ويصبان معا فى الوادي الكبير ، الذي يصب فى البحر . وتنتشر حولهما سهول عالية خصبة ، أهمها سهول : ظهر التين والمشوار وابن الصالح وتاشهودة ، وشعبة الزكار . وبجوارها ينابيع كثيرة منها : عين أقارو وتمتد من بابور ، وتتغذى بها حاليا قرية بني عزيز . ثم عين المكمن وتوجد أسفل القلعة وهي دائمة الجريان وتسقي بمياهها فى هذا الوقت بساتين وزروع فى الناحية . ثم أن الطرق التي تؤدي الى القلعة ، أو تنطلق منها ، هي طرق ضيقة أو فجوج تلائم فترة الدعوة لحركة سرية جديدة عن السكان .

ولا ريب أن توفر القلعة على هذا الموقع الحصين الغني بالخيرات هو سر اختيار الداعي الشيعي لها مركزا دائما ، يبث منه دعوته ، ويرسل دعاته الى الآفاق فى حرية وفى اطمئنان .

ثم أن طابع العزلة فى هذا المكان وبعده عن الطرق الرئيسية (= الجادة الطريق الأعظم عند بعض الرحالة) (347) التي تسلكها عادة قوافل التجارة والحج ، والرحالة ، والجند ، هذا مع بعده عن الساحل أيضا يرجح انها هي القلعة الأولى للدعوة الاسماعيلية لأن مهمة الداعي فى هذه الفترة كانت التهيئة والاعداد النفسي ، والمادي للانصار بعيدا عن أية جلبة أو تأثير ، ولا يصلح لها ، غير مكان حصين منعزل ، أرضه غير سابلة .

ومكان القلعة الآن ، تقوم فيه مقبرة تعرف عند السكان باسم مقبرة سيدي **علي البصري** ، فهل أن هذه المقبرة نسبت لبعض من كان فى القلعة من مدينة البصرة الى جوار الداعي ، واقبر فى المكان بعد وفاته ؟ أو هي تحمل اثارة من نسبة الداعي الى البصرة ، أو من علاقته بها فى وقت ما من حياته العملية عندما مارس فيها خطة الحسبة . ونشير هنا الى ما قيل حول نسب عبيد الله المهدي وتلقيبه عند المنكرين لنسبه بابن البصري (348) .

---

347 ـ اليعقوبي : المصدر السابق 990 ط النجف . ابن عذارى : المصدر السابق 1 ، 201 ، ابن رسته : الاعلاق النفيسة 1/8 ـ ليدن 1891 .

348 ـ ابن ظافر (جمال الدين أبو المحاسن على) اخبار الدول المنقطعة ورقة 43 ـ مخطوط دار الكتب رقم 890 تاريخ النيسابوري (احمد بن ابراهيم) استتار الامام : 96 ، مجلة كلية الاداب ، جامعة القاهرة ، مجلد 4 ج 2 ديسمبر 1936 عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبري : 28 .

وتستخدم حجارة القلعة الآن في بناء القبور والمساكن ، كما بنيت ببعض انقاضها بيوت في قرية بني عزيز القريبة .

ويسمى سكان الجهة ، منطقة سهلية مقابلة لخربة ايكجان ، باسم (مصر) وهي عبارة عن بساتين وزروع وينابيع فلعلها من اطلاقات جماعة المؤمنين في ذلك العصر كذكرى لتقديرهم ، لوالي مصر ، الذي لم يصب المهدي في بلاده أثناء هجرته الى المغرب ، بأي أذى رغم وضوح حقيقته عند بعض رجال الوالي .

فوجود اسماء سيدي علي البصري ومصر بجوار القلعة يرجح أيضا،انها هي المركز الأول الذي اختاره الشيعي مقاما .

وقد اشار الرحالة الادريسي الى قرب حصن ايكجان من حصن سطيف وملاحظته صحيحة بالنسبة للمكان الذي رجحناه . انما يلاحظ أن حصن سطيف يقرب كثيرا مما يسمى الآن ، فجيل ، ولذلك لا يستبعد اعتباره ايكجان القديمة لولا ان هذا المكان لا يتوفر على الميزات التي ذكرناها ، ولا يوجد من بين سكانه من يذكرون بالقدماء ، وهو في منبسط من الارض ، وغير حصين في موقعه ، وبعيد عن مدينتي ميلة وتازروت ، ولا يتصور بسهولة ، أن يختاره الداعي مكانا لاستقراره ، لأنه معرض للسقوط في أول هجوم معاكس ، وربما كان الأولى اختيار سطيف . كما أنه لو صح هذا الافتراض لحدثتنا النصوص المعاصرة وغيرها ، عن شيء من اهتمام عامل سطيف بالحركة الجديدة ، لأنها تهدده مباشرة ، وفي دائرة نفوذه ، كذلك يكون الداعي مضطرا لبدء نشاطه الدعائي والمادي بأكبر المراكز القريبةمنه، وهو سطيف لا بمدينة ميلة التي اشارت اليها النصوص فعلا .

وبينما نلاحظ ان منطقة فجيل جنوب سطيف،قامت فيها حفائر رسمية في العهد الفرنسي . وظهرت اهميتها في عصر ما قبل التاريخ ، اذ ينسب اليها نموذج لأقدم انسان في الجهة وجد بعين الحنش ، فعرف بانسان عين الحنش . لم تقم أية حفائر رسمية في قلعة ايكجان ربما لارتباطها بالعصور العربية الاسلامية ، أو لم تتجه اليها الأنظار كمركز قديم للحركة الاسماعيلية في البلاد .

وكل ما قام في هذا المكان ، ان هي الا محاولات فردية قام بها عمال الأرض ، والباحثون عن الحجارة ، أو عن الكنوز ، وقد ظهر من هذه الحفائر التي يمكن تسميتها حفائر شعبية :

— وجود أواني فخارية كثيرة ، من بينها قواديس كانت تستعمل لنقل الماء ثم بئر قديمة ، مطمورة بالتراب الذي تظهر عليه آثار التلويث ربما كانت مستودعا للزيت . والحجارة الموجودة بمكان القلعة ، من احجام مختلفة

بعضها ضخم ، لكنها ليست من النوع المألوف فى العمارة الرومانية ، وهي مكسوة بملاط أبيض ، وقد جمعها خفير القلعة ، على شكل سياج يحيط بمجموعة البساتين التي توجد بأعلى القلعة وبجوارها . ونرى في المكان بقايا سور القلعة كما نرى الأعمدة في بعض الأركان بادية . وكانت الأعمدة قبل هذا الوقت كما أخبرني الخفير البلدي الذي يسكن بجوار القلعة (عمره 72 سنة) أكثر ظهورا . ومن شكل المكان ، نلحظ أن القلعة كانت أقرب الى الاستدارة منها الى الشكل المربع ، وتأخذ كامل مساحة الهضبة التي تقع عليها ، بحيث لا يرى تحتها الا فضاء وانحدار ، يؤدي الى الفجوج والأودية المحيطة بها .

وقرية بني عزيز ، التي توجد القلعة بجوارها ، بلدية مستقلة ضمن بلديات دائرة العين الكبيرة (ولاية سطيف) ومجموع سكانها الآن ، حوالي عشرين الف نسمة ، منهم حوالي ألف وثمانمائة للقرية وضواحيها ، وقد نسبت القرية لأحد فروع سكانها ، وهم « بنو عزيزي ، الذين يشاركهم الريايشة ، وأولاد الحاج وأقنوش فى المكان » .

* * *

ـ ويضاف الى المراكز الكتامية الرئيسية مراكز أخرى ثانوية تعتبر على هوامش اقليم كتامة لكنها تتأثر بما يقع فيه من احداث وتستقبل عناصر منه ومن هذا القبيل مدينة تيجس (349) (قرب سوق أهراس) وهي مدينة عامرة ، ذات أصول فينيقية قديمة ، وتقع بجوارها مدينة قصر الافريقي ، ثم مدينة توبوت ، وهذه من مجالات كتامة ، وتتصل المدينتان (تيجس ، توبوت) عن طريق عامر ، مخضر ، بهيج ، عرف عند الرحالة البكري بالجناح الأخضر) (350) .

وكانت تبعية تيجس ، لمدينة باغاية ، على سفوح كتلة أوراس (351) وهذه بالرغم من أنها خارجة عن اقليم كتامة ، الا ان استقرار عناصر من كتامة ميلة فيها وكونها ضمن اقليم الزاب ، جعلاها شديدة الصلة بأرض كتامة وكان سقوطها في أيدي جند الداعي من كتامة ، فيما بعد ميسورا .

---

349 ـ البكري : المصدر السابق 53 ويفصلها عن قصر الافريقي وادي الدنانير ومن عناصر سكانها انظر 63 منه .

350 ـ نفسه 54 ويلاحظ انه يمتد حتى مدينة الغدير (= غدير وادو) حيث ينبع نهر سهر وهو وادي مدينة المحمدية (= الوادي الرئيسي) وعليه سد القصب ، وهو في مضارب عجيسة يبدو ان سكانه من هوارة ، كانوا في عصر البكري يعدون 60 الف نسمة ، انظر 76 منه الادريسي : المصدر 64 .

351 ـ نفسه 50 ، اليعقوبي : المصدر السابق 102 ابن حوقل : المصدر السابق : 84ـ85 الادريسي : المصدر السابق 74 ـ 75 .

وكتلة أوراس (352) ، هي الأخرى على هوامش اقليم كتامة لكنها ترتبط به ارتباطا وثيقا من الناحية الادارية والجغرافية والاجتماعية الى حد ما .

وكانت هذه المناطق كلها تندرج فى اطار مصطلح اقليم الزاب ، وهو مصطلح ذو مدلول واسع (353) ، يشمل ولاية افريقية والقيروان ، الاراضي التي تليها غربا ، وتبدأ من الطرف الجنوبي الغربي لأوراس الى ما وراء مدينة ازبة (زابي(Zabi Justiniana)القديمة) بجوار المحمدية (المسيلة) وربما شمل الاسم ما عدا ذلك حتى مدينة أشير بني زيري على سفوح جبال تيطري (354) .

ولقد أشار الرحالة الى بعض مدن الزاب وهي باغاية وقرى كتلة أوراس ودار ملول ومقرة وجيجل وميلة ونقاوس وسطيف وطبنة ، التي وصفت بمدينة الزاب العظمى التي لا تفوقها فى بلاد المغرب ، غير القيروان فى افريقية وفاس فى المغرب الأقصى .

وفى العصر الفاطمي ، أصبحت مدينة الزاب العظمى ، هي مدينة المحمدية وبقربها كانت مدينة ازبة القديمة التي أعطت اسمها للاقليم فيما يبدو . وهي فى نظر بعض الجغرافيين والرحالة ، فى القرن 3 هـ ، تمثل حدا اداريا لاقليم الزاب وحدا سياسيا . عندها ينتهي نفوذ الاغالبة والعباسيين . (355) وتبدأ مراكز نفوذ الانفصاليين من الخوارج الاباضية والصفرية ومن العلويين أيضا (356) .

---

352 ـ من وصف اوراس ومميزاته ونوع سكانه انظر :
E.I. (Art Awres) T. 1, p. 528 Sqq.
وهنا يلاحظ ان جراوة واوربة هاجرتا وحلت محطهما عن طريق الهجرة من طرابلس وجنوب تونس ، هوارة ولواته وعن طريقهما انتقلت التيارات الخارجية خاصة الاباضية الى المنطقة .

353 ـ اليعقوبي : المصدر السابق 102 ونص ما جاء فيه (ومن القيروان الى الزاب عشر مراحل ، والزاب بلد واسع) ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 116 ويعرف الزاب بانه بلاد الجريد ، ويميز جورج ايفر بين الزاب الشرقي والغربي والشمالي فى مقالة فى : E.I., Art Zab, T. 4, p. 1246-47 الاستبصار (لمجهول) 171 وما بعدها ، ويشير هنا الى أن الزاب طرف الصحراء وسمت الجريد .

354 ـ القدسي : المصدر السابق 221 وعن قلعة زابي ـ قرب المسيلة انظر جوليان المرجع السابق 1 ، 363 وعن مدينة اشيربني زيري انظر البكري : المصدر السابق 60 .

355 ـ اليعقوبي : المصدر السابق 103 ، وفيه (ومدينة ازبة (اربة) وهي آخر مدن الزاب مما يلي المغرب فى آخر عمل بني الاغلب ولم يجاوزها المسودة) البكري : المصدر السابق 144 ويرسمها ادنه ويشير الى خرابها فى سنة 324 هـ .

356 ـ نفسه 104 ـ 105 .

واضاف المقدسي والبكري وصاحب الاستبصار الى مدن الزاب بسكرة النخيل ، وباديس وتهوده (357) (سيدي عقبة) وبنطيوس وطولقة وغيرها وهي التي تعتبر بحسب المفهوم الجغرافي الحديث،منطقة الزيبان الحقيقية وهي مركز انتاج التمور . ولمدينة بسكرة ، ميزتان كانتا محل عناية الفاطميين فهي غنية بالملح الجيد الذي يستخرج من جبل الملح بجوارها ، وكان يحرص على جلبه الى المهدية عبيد الله ، وخلفاؤه ثم نوع من التمر الجيد ، يعرف (بالليارى) وهو أبيض أملس كان عبيد الله المهدي يمنع بيعه فى الأسواق ويحتكره لنفسه (358) .

وفى مجالات منطقة الزاب يوجد أخلاط من هوارة ومكناسة وصدراتة وزناتة مع عناصر من القيسية والكلبية وعنصر المولدين وتبعا لذلك تنتشر الى جانب المذاهب السنية ، المالكية والحنفية ، النحلة الاباضية (359) .

والملاحظة التي ننهي بها الحديث عن وصف بيئة كتامة ومراكزها فى افريقية والمغرب الأوسط ، هي التأكيد على أن بعض المراكز ، تصدر الاحداث فى ايجابية لفائدة الحركة الاسماعيلية الجديدة ومنها ايكجان وتازروت ومنها التي استسلمت لرجال الحركة ودعاتها ، سلما ودون مقاومة جدية مثل باغاية وقسنطينة وتزعم بعضها الحركة المناهضة للدعوة الجديدة مثل سطيف وطبنة ، وشهد بعضها أحداثا خطيرة هددت كيان الدولة الفتية مثل ميلة وكتلة أوراس ، ومضارب عجيسة .

* * *

لم يقتصر وجود فروع كتامة على منطقة افريقية والمغرب الأوسط وانما تجاوزهما الى أماكن أخرى فى شمال المغرب الأقصى وجنوب شبه جزيرة الأندلس .

واذا أخذنا بما جاء فى كتاب العبر ، لابن خلدون ، عن كتامة فان افتراض قدمها فى هذه الأماكن وأصالتها افتراض مقبول غير انه يبدو أقرب الى

---

357 ــ وعن وصفها انظر ابن عذارى 1 ، 17 البكري : المصدر السابق 72 ويسميها مدينة السحر .

358 ــ البكري : المصدر السابق 52 ، وعن ذكريات القائم بامر الله فى بسكرة اثناء مروره بها يذكر احمد بن محمد المروزي ضمن قصيدة طويلة قوله :

ثم اتى بسكـــــرة النخيـــــــل قد اقتـــدى فى زيـه الجميـــل

الاستبصار (لمجهول) 173 .

359 ــ البكري : المصدر السابق 72 ــ 73 ، المقدسي : المصدر السابق 221 ، 226 ، 227 الادريسي : المصدر السابق 66 . H.R. Idris : Op. Cit., T. II, p. 479-81

الصواب ، القول بأن وجود معظمها فى هذه المناطق من شمال المغرب الاقصى انما يرجع الى فترة ظهور الحركة الاسماعيلية فى افريقية والمغرب الأوسط ثم الى فترة توسعها فى المغرب الاقصى والأندلس . خاصة وأن هذه المناطق والمدن مثل طنجة وسبته وغيرها ــ كانت محل تنافس شديد بين الفاطميين فى المغرب ، تؤيدهم فروع كتامة وصنهاجة ، ومكناسة وبين الأمويين فى الأندلس ابتداء من عهد عبد الرحمن الثالث (الناصر) الذي اتخذ لنفسه لقب الخلافة منافسة للمهدي ، ومجاراة له وللعباسيين (360) ، وكانت تؤيد مشاريعه فى المغرب وتكافح النفوذ الفاطمي بلا هوادة فروع زناتة وانضمت اليها بعد فترة تعاون مع الفاطميين قبيلة مكناسة ثم الادارسة العلويين فى فاس والصفرية فى سجلماسة .

فكانت عناصر من كتامة تأتي ضمن الجيوش لمحاربة هؤلاء أو أولئك ثم تتسرب مجموعات منها تحت ظروف معينة او تستجلب للاقامة فى المنطقة بوسائل الاغراء . أو قد تقيم بعض المجموعات بدافع الملل من حياة الجندية أو كراهية للاستبداد الفاطمي ، أو تعبيرا عن الهزات التي تعرضت لها عناصر كتامة سواء فىافريقية او فى بيئتها الاصلية .

وقد لا يستبعد ان يكون توطين هذه العناصر فى شمال المغرب الاقصى بقرب شبه جزيرة الأندلس ، سياسة فاطمية مرسومة بقصد التوسع وراء العدوة الدنيا ، أو ليقوى بهؤلاء المستوطنين جانب الدفاع عن الوجود السياسي للفاطميين فى المنطقة ، ضد الأمويين واتباعهم ، ثم جانب الهجوم أيضا ، ضد سواحل الأندلس المعادية .

وغني عن الاشارة ، ان ظاهرة هجرة السكان ، فى بلاد المغرب ، وانتقال فروع قبيلة من منطقة الى أخرى ، كانت قائمة قبل العصر الفاطمي ، لكنها فيما يبدو نشطت اثناءه . ولقد شهدت منطقة كتامة الأصلية فى افريقية والمغرب الأوسط تطورا كبيرا جرى فى غير صالح سكانها ، منذ رحيل المعز لدين الله الى القاهرة . 361 هـ / 971 ــ 972 م بسبب استبداد صنهاجة بالأمور حتى أصبحت كتامة مراقبة وتغزي لأتفه الأسباب ويخشى جانب رجالها الباقين فيحشرون مع المخالفين لصنهاجة لمجرد الشبهة . اما اذا بدا تحرك من جانبهم فان الرد يكون عنيفا وقاسيا لا يتناسب مع الماضي القريب للقبيلتين وما عرف من تكامل وتعاون بينهما لفائدة الفاطميين .

---

360 ـ المقري : المصدر السابق 3 ، 145 ـ 150 ويلاحظ ان تفسير اسباب التحول فى الاندلس يسوء وضعية العباسيين فقط ، دون الاشارة الى ما اصطنعه المهدي لنفسه من لقب امارة المؤمنين فيه قصور بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة 6 ، ورقة 194 . خ مكتبة جامعة القاهرة رقم 24026 .

ـ ونهضة السنة فى القرن الخامس للهجرة وتبني المعز بن باديس للاتجاه المعادي للفاطميين فى مصر ، وللمتشيعين فى افريقية بتأثير معلمـه المـالكي ووزيره ابي الحسن علي بن ابي الرجال (361) ، أصاب كتامة المتشيعة بضرر كبير ونزلت عليها نقمة الحكام ونقمة جماهير أهل السنة الذين امتحنوا واضطهدوا فى عصر طغيانها .

وقد لاحظنا أن النصوص تشير الى مدى ذلة كتامة،حتى أصبحت تنكر نسبتهافى‌بيئتها الأصلية لكنها فى مواطن هجرتها بقيت على وضعها واحتفظت باسمها . ومما له دلالة خاصة ، انها فى شمال المغرب ، لم تندمج فى فروع صنهاجة بقدر ما اندمجت فى بعض فروع مصمودة الشمال فى نواحي سبتة وطنجة وعرفت فى هذه النواحي بنزعتها السنية المالكية كما عبرت عن نفسها فى المجال الفكري كما أسلفنا . واشار البكري الى فرع لكتامة بين فروع مصمودة فى المنطقة الساحلية بين طنجة وسبته وهي دغاغ ، واصاده ، وبنو سمغرة ، وهؤلاء الأخيرون هم أهل جبل مرسى موسى (362) . وعن سكان كورة طنجة لاحظ انهم من فروع صنهاجة ، (363) بخلاف سكان سبتة ، فكانوا خليطا من عرب الصدف ومن نفس عنصر البربر الذين يوجدون فى مدينتي البصرة وأصيلا واظهر ما يوجد فى هاتين المدينتين عناصر من كتامة ولواته مع بقايا الادارسة (364) .

ومراكز كتامة فى شمال المغرب الأقصى وعلى الطريق من سبتة الى فاس أهمهـا :

---

361 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 395 وورد فيه ابن الزجال بالزاى ، الاستبصار (لمجهول) 167 ـ 168 ـ يحي هويدي : تاريخ فلسفة الاسلام فى القارة الافريقية 1 ، 97 ـ 98 ، وورد ابن أبي الرجال فى : محمد النيفر : عنوان الاريب 1 ، 57 ـ 58 حسن محمود : محنة الشيعة 93 ـ 99 مقال المجلة التاريخية المصرية مجلد 12 ديسمبر 1950 وانظر مقال سوتير فى :
EI., Art Ibn Abi Ridjal T 2 p. 378

362 ـ البكري : المصدر السابق 104 وعن مرسى موسى وخصائصه انظر ص 105 منه وهو مامون ومتصيد اهـل سبتة وتكثر فيـه القردة ويقـابله من الاندلس مرسى (بورت لب) .

363 ـ البكري 104 وعن كورة طنجة ومدى اتساعها « مسيرة شهر فى مثله » انظر ص 109 منه .

364 ـ نفسه 103 وكانت سبتة مسورة فى عصر البكري بسور صخر محكم البناء ، شيده الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله لتصمد امام انصار الفاطميين ، الادريسي : المصدر السابق 108 وقد أشار لنشاط سكان سبتة فى صيد المرجان ، وتصديره الى السودان .

ـ **قلعة ابن خروب** (365) على مرحلة من طنجة ، وصفها البكري بالكبر وسعة العمران ، وبالقرب منها بلد دمنة عشيرة ، وعلى الرغم من أنه من مضارب صنهاجة ، الا أننا لاحظنا شخصيات من كتامة تنتسب الى هذا البلد، ومنهم أسرة أبي عبد الرحمن بن العجوز . وتلي دمنة عشيرة مجموعة قرى لكتامة تجاور كبرى حواضرها التي تعرف **بسوق كتامى** وتقع على نهر وارلكس وصفها البكري بالحاضرة الشريفة لكونها اتخذت قاعدة لأحد الأمراء الادارسة وهو ادريس بن القاسم بن ابراهيم ، وامتازت أيضا بالكبر ، وبالنشاط التجاري وقد اعتبرها المقدسي ضمن قرى اقليم فاس والسوس الأدنى (366) . ويتصل بهذه المدينة مركز آخر لكتامة هو :

ـ قصر دنهاجة ، عرف بهذا الاسم ، نسبة لأحد فروع كتامة وهي دنهاجة التي لاحظنا من قبل وجود آثار لها في بيئة كتامة الاصلية . ويعرف أيضا بقصر كتامة احتفاظا بالتسمية العامة كما ينسب الى شيخ من كتامة ، يعرف بعبد الكريم خلد ذكره فيه بالبنيان الذي أحدثه وبرعاية شئونه . وكان محل عناية من الموحدين ، اذ يشير صاحب الاستبصار الى سعة عمرانه وتمدنه ، وكثرة سكانه ، من كتامة ومن التجار الذين استوطنوه كما لاحظ أن الموحدين بنوا فيه فندقين عظيمين . وآثاره القديمة تشير الى ماض عريق ، وقد أشار البكري الى أهميته كاستراحة لبعض ملوك البربر في العصر القديم (367) .

ويعرف الآن باسم القصر الكبير تمييزا له عن قصر المجاز ، وهو قصر مصمودة الذي يقع بين سبتة وطنجة . ويلاحظ أن كلمة القصر ، التي تعني الحصن في الاصل تطلق في بلاد المغرب على القرية أو المدينة ومن ذلك ، قصر البخاري وقصور توات في بلاد المغرب الاوسط (368) .

---

365 ـ نفسه 109 الاستبصار (لمجهول (190 وذكرت فيه باسم قلعة ابن جندب ويوجد بقرب بونه مرسى الخروبة وبجوار قسنطينة قرية الخروب وضاحية الخروبة قرب الجزائر العاصمة مشهورة بسباق الخيل ، واللقب شائع في جهـــات من الشرق الجزائري وفي بيئة كتامة .

366 ـ انظر عياض : المصدر السابق 4 ، 720 ـ 721 ، 782 البكري : المصدر السابق 110 المقدسي احسن التقاسيم 219 .

367 ـ ياقوت : المصدر السابق 7 ، 106 الادريسي : المصدر السابق 53 ، البكري : المصدر السابق 110 ويشير الى جبل صرصر من مضارب كتامة جنوب شرقي القصر ابو القاسم الزياني : المصدر السابق 80 ، الاستبصار (لمجهول) 189 البغدادي مراصد الاطلاع 3 ، 1099 .

368 ـ احمد بن سعيد المجيلدي : التيسير في أحكام التسعير 54 وقصر مصمـــوده كان مركزا لدار صناعة السفن في المغرب انظر الأدريسي : المصدر السابق 108 .

ولابن الخطيب وصف لقصر كتامة (369) ، ومقبرة بني شقيلولة الأندلسيين فيه . وكان رئيس الأسرة، أبو اسحاق ابراهيم بن شقيلولة ، قد عزل من مركز ولايته في وادي آش جنوب شبه الجزيرة . وعوض من طرف السلطان ابي يوسف يعقوب المريني بولاية القصر الكبير ، فنزل فيها بأهله وولده ولما توفي سنة 686 هـ / 1287 – 1288 م دفن في مقبرة هناك هي التي اشار اليها ابن الخطيب بقوله (دخلت قصر كتامة ، وزرت – مقبرة الرؤساء من بني شقيلولة بظاهره وهي قبة ضخمة البناء رحبة الفناء ، فسيحة وحدها بذلك البلد ، وبها قبر سنامه رخام ، مكتوب عليه بعض ابيات شعرية (370) .

ولاحظ ابن الخطيب أثرا من الرخام سجل عليه : اسم الأمير الأندلسي جاهد العدو لمدة 23 سنة ، ثم انتهى به المطاف الى ما يشبه الأسر في القصر الكبير طاعة لله ولرسوله ، واستجابة لرغبة السلطان المريني الملك الأعلى أمير المسلمين (371) .

– ومن المراكز التي توجد فيها عناصر من كتامة **مدينة البصرة** ، ثم مدينة **اصيلا** (ازيلا) وقد اعتبرهما بعض الرحالة ضمن اقليم طنجة الواسع العامر بالقرى وبالمدن والبوادي ، التي تنتشر فيها فروع مختلفة من قبائل البربر (372) .

والبصرة كانت في بدء أمرها رباطا صغيرا ، مثل أصيلا وقد بنى الرباطان في وقت متقارب وعلى يد عناصر من كتامة . ويبدو ان مواجهة خطر عنصر المجوس (النورمان) في المنطقة الساحلية هي التي دفعت المجاهدين من كتامة الى تأسيس رباطي البصرة ، وازيلا ، لمراقبة السواحل ولدفع الاخطار

---

369 – واهتمام الموحدين ويعقوب المنصور (1184 – 1199 م) بالقصر الكبير نابع من اهتمامهم بحركة الجهاد في الاندلس انظر :

Léon L'Africain : Op. Cit., p. 252 n° 39

370 – نصها :

قبـــر عـزيـز علينـــا	لـــو ان ما فيـــه يفـــدى
اســكنت قــرة عينـــي	تـربا وغطيـــت لحــــدا
مـــا زال حكمـــا عليـــه	وما الفضــــاء تعـــدى
فالصبــــر احســـن ثـوب	اذا العـــزيـــز تـــردى

371 – الزياني : المصدر السابق ، 477 – 478 ابن الخطيب الاحاطة في اخبار غرناطة مجلد 1 ، 198 هامش 1،572 – 573 وعن وادي آش من اعمال غرناطة انظر المقري نفح الطيب 1 ، 293 ، 294 .

372 – الاصطخري : المصدر السابق 39 .

عنها (373) وعندما انضمت الى كتامة عناصر اخرى من المرابطين والمجاهدين من أخلاط البربر والعرب وابتنوا وعمروا ، تطور الرباطان فأصبحا مدينتين كبيرتين فى عهد محمد بن يوسف الوراق القيرواني ، وأبي عبيد الله البكري ، وقد لاحظ الأخير كيف أن البصرة غدت مدينة مسورة وبها عشرة أبواب تؤدي الى أرباضها الواسعة الغنية بالخيرات والينابيع . وهي ضعف الموجود منها فى مدينة أصيلا وبها حمامان ، ومقبرتان ، وجامعها بلغ من الكبر حدا كبيرا وكان مقاما على سبع بلاطات ، اي ممرات ، بخلاف جامع (أزيلا = أصيلا) الذي أقيم على خمس بلاطات . وكانت المعاملة التجارية بين أهلها تجري بالكتان ومن ثم عرفت ببصرة الكتان ، كما عرفت ببصرة الذبان ، لكثرة الألبان ، والحمراء بسبب لون تربتها (374) .

ولاحظ الادريسي أن مدينة البصرة ، كانت فى عهده مدينة « مقتصدة » وسورها غير حصين لكنها غنية ، هواؤها معتدل وسكانها على درجة كبيرة من الاستقامة (375) .

اما مدينة اصيلا (أزيلا) وتعني الجيدة ، فأهميتها ، ليست فقط فى كونها منطقة ثغرية ورباطا لحراسة السواحل المغربية ، من الأخطار الخارجية بل أيضا بسبب سوقها المشهور الذي كان يقام ثلاث مرات فى السنة ، وفى مواسم معينة ، هي شهر رمضان ، ويوم عيد الأضحى ، وفى موسم عاشوراء (10 محرم) وتشبه فى وقتنا نظام المعارض الدولية .

وكان بعض المشتركين فى أسواقها ، يفضل البقاء فيها للرباط وللتجارة. وبسبب ذلك اتسعت وتمدنت واستبحر عمرانها . وأصبح سكانها خليطا من أرجاء المغرب ، والأندلس وصقلية (376) .

---

373 ــ ظهر المجوس امام ساحل اصيلا مرتين ، كلتاهما فى عصر عبد الرحمن بن الحكم « الأوسط » كما ظهروا امام نكور أيضا ونهبوها سنة 244 هـ انظر ابن عذاري البيان 1 ، 331 ــ 332 البكري : المغرب 111 ــ 112 هـ 92 حسين مؤنس : غارات النورمانيين على الأندلس بين (229 ــ 245) مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية عدد 1 مجلد 2 مايو 1949 ، ونزولهم أول مرة باصيلا كان للبحث عن كنز (229 هـ) وفى المرة الثانية كان نزولهم اضطراريا بسبب رداءة الطقس ، وجنوح سفنهم .

374 ــ البكري : المصدر السابق 110 ، ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 336 وهنا يشير الى تبعيتها لنفوذ فرع ادارسة الريف ، وقد ملكها منهم لأول مرة ابراهيـــم ابن القاسم بن ادريس ، واستمر الحكم فى ذريته حتى سنة 347 هـ الاستبصار 189 .

375 ــ الادريسي : المصدر السابق 109 .

376 ــ البكري : المصدر السابق 111 ــ 112 ، وكانت تبعيتها للقاسم بن ادريس والتالي حسن الحجام . ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 331 وما بعدها الادريسي : المصدر 109 ، الاستبصار 139 ــ 140 .

والى جانب المراكز السابقة ، توجد مراكز أخرى ثانوية ، منها قرية الكنيسة بجوار دمنة عشيرة ، ووادي امغار ، بقرب مدينة حجر النسر قاعدة بني محمد من أدارسة الريف وهو مركز لتجمعهم ، من أنحاء المغرب بعد تشريد ابن أبي العافية لهم وافتس قاعدة جنون بن ابراهيم من الادارسة ، وهي الى الغرب من الحجر (377) ، ثم مجاز فكان ، وفيه فرع كبير من ملوزة وقد لاحظ البكري ، اشارة الى كثرة عددهم ، بقوله « ويركب لهم خمسمائة فارس » (378) هذا بينما لاحظ ان فرع بني سكين من مصمودة الشمال ، وقاعدتهم (تيطاوان) لا يركب لهم غير مائة فارس (379) .

وبقرب مجاز فكان عبر موضع يعرف بالرصافة توجد كدية تافوغالت ، وعلى الرغم من انها لفرع من صنهاجة ، الا اننا نلاحظ ، وجود فريق من السكان من بقايا كتامة يعرفون بني فوغال ، في ناحية جيجل وفي شمال جميلة (380) .

* * *

ويظهر ان فروع كتامة في شمال المغرب الأقصى ، لم تقتنع بمراكزها سواء كانت على الساحل ، او في الداخل بل قادتها الهجرة الى بعض كور ومدن الأندلس وقد أشرنا من قبل الى بعض بيوتات كتامة في أنحاء من شبه الجزيرة . ونضيف الآن بأن كتامة استفادت من موقع مراكزها في شمال المغرب مواجهة لبر الأندلس ، في تنشيط حركة الهجرة وراء عدوة المغرب .

وقد أشار ياقوت الحموي ، الى أن قصر عبد الكريم قرب سبتة من أرض المغرب يقابل اقليم الجزيرة الخضراء من أرض الأندلس (381) ، ومن ثم كانت الهجرة في بدء الأمر تتجه الى هذا الأقليم القريب من ساحل المغرب ومن مراكز كتامة .

---

377 ـ البكري : المصدر السابق 114 وعن استقرار بعض امراء الادارسة في مضارب كتامة انظر 131 ايضا ، وعن قاعدة حجر النسر ، وتاسيسها سنة 317 هـ على يد ابراهيم بن محمد بن القاسم بن ادريس انظر : 127 .

378 ـ نفســه 108 .

379 ـ البكري : المصدر السابق 106 ـ 107 وعن سكان تيطاون من بربر مجكســه انظر الادريسي : المصدر السابق 110 وعن بيئة مجكسه من بلاد غمارة انظر : الاستبصار 192 .

380 ـ نفســه 108 .

381 ـ ياقوت : المصدر السابق 7 ، 106 .

ويظهر أن العناصر الكتامية تكاثرت على هذا الاقليم ، وتجمعت فى مكان منه وأرادت أن تميز نفسها ، عمن يجاورها وتحتفظ بشخصيتها وبعلاقاتها مع أصولها فى أرض المغرب الأقصى ، ولذلك أطلقت على مكان تجمعها الجديد فى اقليم الجزيرة ، اسم قصر كتامة ، وبما لأن أغلب المهاجرين كانوا أصلا من مدينة قصر عبد الكريم فى بلاد المغرب ، أو أرادت فى مهجرها الجديد أن تعبر عن رابطة القربى ، التي تجمعها مع عناصر كتامة فى المدينة الأم .

وقد تفرد ياقوت ، دون غيره من الرحالة والجغرافيين ، بذكر مدينة باسم قصر كتامة على ساحل الأندلس الجنوبي ، وأكد الأمر ، باعترافه بأن له فيها بعض الأصدقاء من ذوي النباهة والعلم (382) .

* * *

ـ لم تشر النصوص التاريخية الى اسم كتامة أو أحد فروعها ، قبل العصر البيزنطي رغم أنها أشارت الى بعض قبائل طرابلس ، مثل الجرامانت (Garamantes) نسبة لجرمة ، ولواتة (Lawata)والى بعض القبائل التي كانت تسكن منطقة السهول العالية فى الجنوب التونسي ، ومنها قبائل (Frexes) التي تحول نطقها الى (الفراشيش) الذين تمتد أراضيهم منذ القدم من فريانة حتى تالة وتبسة ، وقبائل الفراشيش مثل لواتة ، كانت لها سمعة طيبة فى النضال ضد البيزنطيين (383) والاخيرة منها وهي لواتة ، غدت عنصر شغب ، وعامل اضطراب فى صفوف الجيش الفاطمي أيضا (384). ولكن النصوص ذكرت أن مرتفعات جبال بابور كانت مقرا للجبليين من قبائل « البابار » الذين أخمدت روما ثوراتهم بصعوبة ووضعت نظاما لمراقبة منطقتهم . وأغلب منطقة كتامة ، منذ القرن الثالث ق.م كانت تعيش فى اطار امارة ماسيليا التي كانت مدينة سرطة (قسنطينة) عاصمة لها (385) .

واشتهر من ملوك ماسيليا ، ماسنيسا ، الذي لعب دورا هاما فى حمل قبائل الجهة ، ومنهم فروع كتامة على الاستقرار للزراعة والانصراف عن

---

382 ـ نفسه 109 ، البغدادي : مراصد الاطلاع 3 ، 1100 .

383 ـ جوليان : المرجع 1 ، 370 ـ 382 احمد صفر مدنية المغرب العربي 391 ـ وفى اليعقوبي رواية تنسب لواته الى الـروم : انظر : البلـدان 97 ط النجف EI., (Art Lawata T III p. 19

384 ـ ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم بمصر 1 ، 200 وفيه اشارة عن شكوى المستنصر بالله منهم فى أحد سجلاته الى صليحي اليمن (56) .

385 ـ جوليان (شارل) تاريخ شمال افريقية 1 ، 131 احمد صفر : المرجع السابق 173 ـ 373 الجيلالي : المرجع السابق 1 ، 77 .

حياة التنقل والرعي (386) وكان سكان امارة ماسيليا هم أنصاره ومؤيدوه ضد خصمه العنيد صفاقس أمير منطقة ماسيسليا في الجزء الغربي من نوميديا الذي اتخذ صيغة على مصب نهر تافنة عاصمة له ، وكان في نيته أن يوحد القسمين الشرقي والغربي ويبقى وحده حاكما في المنطقة ، من مدينة سرطة (387)

وأكبر معارك حفيد ماسينيسا ، وهو يوغرطة . جرت في بعض مجالات كتامة (388) . ويبدو أن طابع الاستقرار عند سكان هذه المنطقة قديم نسبيا ويرجع الى هذه الفترة المبكرة من تاريخ امارة ماسيليا (389) ، لأن أهم مشاريع ماسنيسا التي خلدت اسمه وجعلته مؤلها في نظر رعاياه ، انما هي تركيز الاقتصاد الزراعي وتكوين معالم أمة ، وارساء قواعد دولة مستقرة لها رعايا موالون وعملة رسمية وظهير خلفي يمدها بالمواد الأولية وجبايات منتظمة لتسيير الأجهزة الادارية (390) .

وفي العصر الروماني تحقق شكل من أشكال الاتحاد الاداري والاقتصادي بين بعض مدن كتامة ، وهي ميلة ، وسكيكدة ، والقل وسرطة التي كانت قاعدة تشرف على هذا الاتحاد ، الذي عرف باسم تجمع المدن أو البلديات الأربع (391) .

ورغم أن هذه المدن سقطت في قبضة المغامر الايطالي ستيوس (P. Stius) الذي انتصر ليوليوس قيصر (392) في صراعه في شمال افريقية ضد عناصر المعارضة من انصار غريمه جنايوس بومبى (Cn. Pom Peius)(393) الا أن حقها في الاتحاد في ظل أي شكل اداري بقي معترفا به (394) .

---

386 ـ نفسه 1 ، 133 ـ 135 ، الجيلالي 1 ، 83 ابن منصور : المرجع السابق 1 ،95:
EI., Art Berberes T 1 p. 716-717

387 ـ نفسه 132

388 ـ الجيلالي : المرجع السابق 1 ، 92 جوليان : المرجع 155 وما بعدها ابن منصور : المرجع 1 ، 96 .

389 ـ ابن الانبيري : المصدر السابق ورقة 20 وما بعدها وكانت ماسيليا بمثابة حاجز بين اقليم نوميديا وولاية قرطاجنة .

390 ـ جوليان : المرجع السابق 1 ، 136 ـ 137 الجيلالي : المرجع 1 ، 84 .

391 ـ جوليان : المرجع 1 ، 168 ، 200 ، 216 ، 236 (الترجمة العربية) ، الجيلالي المرجع 1 ، 105 .

392 ـ نفسه 1 ، 166 الجيلالي : المرجع 1 ، 110 .

393 ـ نفسه 1 ، 164 وما بعدها .

394 ـ نفسه 1 ، 168 .

واراضي كتامة التي لاحظنا تبعيتها لامارة ماسيليا أصبحت فى فترة من العصر الروماني ضمن ولاية موريطانيا السطيفية (395) ، التي تمتد من وادي امسافة (الوادي الكبير) الى بجاية ، اي تنطبق على مجموع مجالات كتامة الداخلية التي يعبر عنها مصطلح حديث هو القبائل الصغرى (La Petite Kabylie) (396) أو قبائل الحدرة كما أسلفنا .

والمهم فى هذا التطور ، بروز اهمية سطيف من بين مدن وحصون كتامة وكان من قبل مجرد مستعمرة خاصة بقدماء المحاربين تكونت فى أواخر القرن الأول م ، تحت اشراف الامبراطور ، نرفا ـ ثم تطورت فأصبحت مركزا اداريا لولاية جديدة (397) .

ويلاحظ أن منطقة زواوة وصنهاجة التي كانت من ضمن امارة ماسيسليا (نوميديا الغربية) أصبحت فى العصر الروماني ، تابعة لولاية جديدة هي موريطانيا القيصرية ، نسبة لمدينة قيصرية (398) (= شرشال الحالية) (399) التي كانت قاعدة الولاية .

وفى العصر البيزنطي حدثت تغييرات ادارية شكلية (400) . غير أن الناحية المهمة فى هذا العصر ، حسب بعض النقوش المسيحية التي وجدت فى فج فدول (بين ميلة وجيجل) كما أسلفنا هي الاشارة الى وجود فريق من السكان فى جزء من مضارب كتامة جنوب بابور ، وفى اطار منطقة القبائل الصغرى ، عرفوا اسم الاكوتماني وأ الكتاميين ، ولهذا يصح اعتبار ورود هذه الكلمة لأول مرة والعثور على هذه النقوش ، بداية لظهور اسم كتامة علما على مجموعة من السكان فى بيئتها الاصيلة (401) . واشارة تؤكد

395 ـ نفسه 1 ، 350 ما عدا جيجل فكان فى اطار موريطانيا القيصرية انظر 237 منه .

396 ـ Alfref Bel : La Religion Musulmane en Berbérie, T. 1, 155-56 Paris, 1938
Ch. A. Julien, Op. Cit., T. II, p. 54.

397 ـ جوليان : الرجع السابق 1 ، 237 وتعاصرها فى نشاتها مدينة جميلة Cuiculum القريبة منها وهي اقوى دلالة من غيرها على النفوذ الروماني فى المنطقة لبقاء معالمها سليمة حتى الآن انظر 236 منه ـ الترجمة العربية .

398 ـ جوليان : المرجع السابق 237 .

399 ـ البكري : المصدر السابق 81 ـ 82 ، وهي ترد بهذا الاسم لاول مرة عند الوراق ، والبكري . انظر : ابن فضل الله العمري : مسالك الابصار 244 .

400 ـ جوليان : المرجع 1 ، 361 .

401 ـ وفى الترجمة العربية الجغرافية بطلميوس القلوذي نلاحظ وجـود مصطلحات : الساموس والجرمانت ، ولاية موريطانيا الطنجية والقيصرية والنوميدية وكلمة كداموس فى اطار موريطانيا القيصرية فلعل الكلمة الاخيرة هي نفس كلمة الاكوتماني : انظر كتاب الجغرافية والخرائط الموجودة فيه (القاعـة الشرفية) ـ مكتبة جامعة القاهرة .

صلة الروم وربما الرومان قبلهم ببعض فروع كتامة وقبائلها فى مضاربها الرئيسية فى منطقة بابور .

وكان هؤلاء الكتاميون يتمتعون بحرية اختيار ممثليهم وشيوخ قبائلهم يعيشون فى اطار النظام القبلي تحت سلطة شيوخهم وامرائهم وحماية بلادهم :

وتدل هذه الكتابات البيزنطية المعاصرة ، من جهة ، على أن مجموعة من كتامة كانت متعودة على نوع من النظام وعلى الطاعة والولاء للتقاليد المحلية لدرجة أن النفوذ البيزنطي لم يؤثر عليها فى هذه الناحية . ولم يتوغل داخل مضاربها واقتصر فقط على مجموعة المراكز الموجودة على الشريط الساحلي أو القريبة منه ، مع تلك الحصون الداخلية والاستحكامات التي كانت تقام هنا وهناك من بلاد المغرب ، لمراقبة أمن الطريق ، وتحركات محتملة من جانب السكان البدو ، وكانت غاراتهم لا تنتهي ، على مجموعة المراكز والحصون البيزنطية ، وعانى سليمان القائد وخلفاؤه كثيرا من الحرب ، ضد يابداس (Ibdas) ملك الأوراس وكوتزيناس (Cutzinas) فى اقليم بيزاسينا = مزاق (Bizacéne) ولم تنفعه مساعدة أمراء محليين له ، ومنهم أورتاياس (Ortaias) أمير الحضنة فى احراز الانتصار ، على القبائل المستقرة والمتنقلة الا لفترة قصيرة سقط بعدها صريعا فى ميدان القتال 546 م (402) .

وتعتبر سيرتة وجميلة ومجموعة المدن والمراكز فى سفوح أوراس ومنها باغاية ولمبيس ومسكولا ، وحصون منطقة الزاب ومنها باديس وتهودة من المناطق التي بلغ فيها النفوذ الروماني ، ثم البيزنطي درجة قوية .

ومن هذه المراكز التي ظلت قوية عامرة ومحصنة ونشطة حتى عصر الفتح العربي الاسلامي لقي الفاتحون المسلمون مقاومة عنيدة منذ بداية حملة عقبة بن نافع الكبرى الى بداية عصر موسى بن نصير .

وقد سقط عقبة فى مجال الزاب (تهودة) شهيدا نتيجة مؤامرة بيزنطية حيكت له مع قبيلة أوربة ذات الماضي القديم فى العلاقة مع الروم (403) .

---

402 ـ جوليان : المرجع 1 ، 365ـ370 وسليمان هو أول وال بيزنطي يعينه جستنيان على راس ولاية افريقية بعد ان تم استرجاعها من قبضة الوندال .

403 ـ ابن خلدون : المصدر السابق 6 ، 217 ابن أبي دينار : المصدر السابق 31 ـ 32 ، الدباغ : معالم الايمان 1 ، 47 المالكي : رياض النفوس 1 ، 24 وما بعدها : ابن الأثير : المصدر السابق 4 ، 54 وما بعدها ، الرفيق القيرواني : المصدر السابق 42. البكري : المصدر السابق 74 .

كما انهزم حسان بن النعمان عند وادي نينى ، بقرب مسكيانة (دائرة تبسة الآن) هزيمة نكراء ، نتيجة مساعدة بيزنطية قدمت للكاهنة وقومها من بتر جراوة ذات الماضي القديم في التمسك ببقايا اليهودية (404) . وكان توفيق حسان في جولته الثانية ضد الكاهنة في منطقة نفوذها في أوراس ، هو بداية النهاية للنفوذ البتري والبيزنطي أيضا (405) ، كما كان بداية النهاية لعملية فتح بلاد افريقية والزاب بما فيها منطقة كتامة . وانتهاء المقاومة في الزاب وأوراس ، كان يحمل دلالة على نجاح تيار الهجرة العربية الاسلامية التي اتسع نطاقها حتى الاندلس وصقلية وهو التيار الذي استمر منطلقا في حيوية متدفقا في حرارة حتى طبع البلاد وسكانها بطابع أبدي خالد هو طابع العروبة والاسلام .

ويدل على خضوع ارض كتامة سلما ، او بالتبعية لخضوع منطقتي الزاب وأوراس ان النصوص العربية لم تشر أثناء سرد حوادث الفتح العربي الى أي عمل ذي طابع عسكري يكون قد وجه نحو اقليم كتامة او ضد اي مركز من مراكزها .

ولم تذكر كتامة ، وبعض مدنها قبل عصر موسى بن نصير . ثم ان خط سير عمليات الفتح العربي ، كان بعيدا عن بيئة كتامة الجبلية ، بسبب عزلتها وصعوبة المسالك المؤدية اليها ، وعدم وجود حواضر كبرى في منطقتها ، هذا الى أن استراتيجية العرب الفاتحين كانت مؤسسة على تجنب الكتل الجبلية والمناطق الساحلية على الأقل في المرحلة الأولى لأنها كانت مراكز نفوذ البيزنطيين والافارقة ، والبربر المستقرين . وكانوا يكتفون بالوقوف لحصار المدن المحصنة مثل باغاية ، فاذا استسلمت ، أصبحت ضمن دار الاسلام ، تترك لحريتها في اطار العقيدة الاسلامية والتبعية السياسية للقيروان . واذا تمنعت وراء الأسوار وقاومت ،تركوها الى غيرها من البلاد . واستخدام القوة والقهر وأساليب الحصار المختلفة لم تكن من طبيعة الفاتحين في افريقية .

---

404 ـ الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، 56 ـ 57 :
Julien : Op. Cit., T. 2, p. 21
Gautier : Op. Cit., 271-72, Laroui : Op. Cit., p. 78

405 ـ نفسه 62 ـ 64 ابن الاثير : المصدر السابق 4 ، 179 ـ 181 ابن خلدون 6 ، 218 ـ 219 ابن ابي دينار : المصدر السابق 34 ـ 35 ، السلاوي : المرجع السابق 42 ـ 43 ابن عذاري : المصدر السابق 1 : 28 ـ 29 ، زغلول عبد الحميد : المرجع السابق 192 ـ 193 .
Laroui : Op. Cit., 79
Gautier : Op Cit., 272, Julien : Op. Cit., T. 2, p. 21

ويستثنى من النصوص المرجية ، كتاب **فتوح افريقية للواقدي** (406) ومخطوط **علاج السفينة لابن الانبيري** . فكتاب الواقدي (ق 3 هـ) انبنى من أوله على أساس أسطوري خاطيء ، يقضي بأن منطقة افريقية والمغرب ، من غرب مصر الى مراكش ، فتحت عنوة ، في عصر الخليفة عثمان بن عفان وعلى يد أمير واحد هو عقبة بن عامر الجهني ، يساعده عبد الله بن جعفر بن أبي طالب مع رجالات من القبائل العربية ، أظهرها بنو هاشم ومخزوم وأمية . وفي ثنايا الكتاب عرض لصور رائعة من البطولة العربية في مجالات افريقية ، ولهذا يبدو أن الكتاب نزعته قصصية ، أكثر منها تاريخية ولا يستبعد أن يكون الهدف منه « تمجيد النزعة القيسية ومن ذلك اعلاء شأن بني أمية وبني هاشم والزبيريين وقد نسب الكتاب الى الواقدي ، ولعله في الواقع انتاج مغربي مستوحي من بيئة مغربية ، ومن مصدر مغربي مفقود عن قصة فتح افريقية .

وتاريخ تأليفه لا يبدو أنه يرجع الى عصر الواقدي ، صاحب « فتح الشام » وانما هو أشبه بالانتاج الخاص ، بعصور الانحطاط السياسي والاجتماعي والادبي حيث يلجأ الناس عادة في مثل هذه الظروف ، الى اجترار الماضي والتغني بأمجاد وبطولات الاسلاف بأسلوب ملحمي .

وعلى هذا ، فما يشير اليه كتاب فتوح افريقية للواقدي ، من حملات عسكرية ، أطلق عليها « غزوات » وجهها المسلمون نحو مدن قسنطينة (407)، وسطيف (408) ، ولامبيس (409) ، ومنطقة الزاب (410) ، وضد وجدة (411) ، ومراكش (412) ، اللتين لم تظهرا الى الوجود الا بعد ذلك بقرون ، تعتبر هذه الاشارات ، صورا قصصية متأخرة في العصر ، وضعت بقصد التسلية ، والتغني بالفروسية العربية الاسلامية في أرض المغرب ، وهي من هذه الناحية أشبه بما في السيرة الهلالية ثم العنترية وقصص

---

406 ـ انظر ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 44 حيث ينقل عن الواقدي قصة وظروف تولية محمد بن يزيد القرشي بالولاء ، شئون افريقية في عهد سليمان بن عبد الملك ياقوت . معجم الادباء 18 ، 277 لا يشير ضمن ترجمته للواقدي الى كتابه (فتوح افريقية) بينما ذكر فتوح الشام والعراق .

407 ـ الواقدي : فتوح افريقية 1 ، 115 ـ 127 ويذكرها تحت عنوان «غزوة قسنطينة» وعن ترجمة الواقدي انظر ياقوت : معجم الادباء 18 ، 277 وما بعدها .

408 ـ نفسه 1 ، 148 ـ 155 ويذكرها تحت عنوان «غزوة سطيف» .

409 ـ نفسه 1 ، 136 ـ 143 ويسميها «لامس» .

410 ـ نفسه 1 ، 155 ـ 159 .

411 ـ نفسه 2 ، 138 .

412 ـ نفسه 2 ، 72 .

سيف بن ذى يزن والاميرة ذات الهمة والسيد محمد البطال فالاطار صحيح وتاريخي ، أما صياغة الأحداث فأسطورية قصصية (413) .

اما مخطوط علاج السفينة فى بحر قسنطينة لابن الانبيري فتوجد فيه اشارات عن كيفية تسليم مدينة قسنطينة ، للفاتحين العرب ، صلحا اثناء حملة عقبة الكبرى ، بعد أن شدد الحصار عليها مدة تجاوزت الشهر ، وأشرف على وضع قواعد الصلح ، بطريق المدينة وابن الزبير ، الذي تسلل الى داخل المدينة فى ثياب امرأة ، يساعده بعض أعوان البطريق حتى لا يلفت انتباه الحامية البيزنطية التي عارضت فكرة الصلح مع المسلمين (414) .

ويضيف أن مدينة قسنطينة أصبحت بعد موت عقبة فى دائرة نفوذ كسيلة الذي تغلب على أوراس وعلى القيروان (415) ، ومنذ أن انتهى حسان بن النعمان من مجهوداته فى افريقية استقر الاسلام فى ربوع قسنطينة التي احتفظت بمكانتها ووليها ، عمال من أبنائها ، ولكن « الثورات وتبادل الدول ، وتهارج العقول ورغبة الناس ، وقلة التدبير والعداوات قد أثرت فى حالها وأحوالها » (416) ، على حد تعبيره وبعد أن يشير الى صمت المصادر الاجنبية عن فترة الفتح ، وعن كيفية دخول الاسلام منطقة قسنطينة لجهل المؤلفين وغفلتهم (417) ، يوضح أنه لم يصل الى جمع الحقائق ، عن هذه الفترة وغيرها ، من تأريخ قسنطينة ، الا بعد مدة طويلة ، قضاها فى البحث والجمع والتحري واستقراء المصادر المحلية ، والأجنبية « ثم حملت ملاطي ومهيآتي ، وآلات البناء بلا عون ، وبلا فعلة ، وحدى فريدا منفردا وعرجت على سريري ، وأبديت بناء هذا القصر العجيب وسميته « علاج

---

413 — ويبدو من آراء سعد زغلول ، أن الصورة المتداولة لكتاب فتوح افريقية للواقدي انما هي تطور لانتاج هذا الرجل ، كما يصورها الخيال الشعبي ، ويستحبها جمهور السكان فى القرن 13 ، الذين تغنى اسلافهم بعد القرن 11 م بامجاد بني هلال وأعمالهم ، وهي التي يوجد فى كتاب الواقدي ما يشير اليها حتى لكان الحدثين ، فتح المغرب وهجرة بني هلال امتزجا فى شكل خاص هو شكل القصة الشعبية ، انظر فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية 1 — 41 مقال مجلة كلية الاداب ، جامعة الاسكندرية مجلد 16 سنة 1962 وقارن ذلك بما ورد عن الهلالية فى كتاب : الهلالية فى التاريخ والادب الشعبي 133 وما بعدها (عبد الحميد يونس) وعن سيرة ذات الهمة انظر : نبيلة ابراهيم : سيرة الاميرة ذات الهمة 34 وما بعدها ، ومجرى حوادث هذه القصة فى العصرين الاموي والعباسي ومسرحها منطقة الثغور وابطالها عرب بني كلاب ، وزعيمتهم فاطمة ذات الهمة وكان مساعدها فى ميدان السياسة والكيد ضد الروم هو محمد البطال .

414 — ابن الانبيري : المصدر السابق ورقات 94 — 109 .

415 — نفسه ورقة 115 .

416 — نفسه ورقة 125 .

417 — نفسه ورقة 110 .

السفينة فى بحر قسنطينة » (418) ، ويلاحظ على هذا المخطوط ، انه انتاج العصور المتأخرة (ق 19 م) ومؤلفه ليس بعربي أصلا كما يشير الى ذلك أسمه ، وقد ذكر قصة اشتراك ابن الزبير فى فتح قسنطينة ، لكنه لم يذكر وفاته بازاء ذكره لوفاة عقبة ، وسائر رجاله كما تشير النصوص . وهذا مما يضعف رواية اشتراكه فى حملة عقبة الكبرى وفى حصار قسنطينة ، لأن ابن الزبير فى الواقع كان فى هذه الفترة يعد نفسه فى المشرق لمشروع خطير ، مهد له بمعارضة بيعة يزيد بن معاوية خليفة بعد أبيه . ولم يثبت اشتراكه فى مجهود عقبة فى المرة الثانية ، وكيف نقبل بسهولة روايته عن تستر ابن الزبير ، وراء لباس نساء قسنطينة ، ليصل الى داخل المدينة ، وقد تفرد ابن الانبيري بأخبار فتح قسنطينة وحدها ، ولم يذكر شيئا عن قصة فتح بقية المدن الأخرى القريبة منها ، مثل سطيف وبونة .

وقد اعترف بأن الرقيق والبكري من ضمن مصادره وهذان لم يشيرا الى اخبار فتح قسنطينة ، رغم أن الأخير منهما خص قسنطينة بوصف شامل وبديع فلو كانت عندهما أخبار ما ضنا بها عن المتأخرين حسب منهجهمـا .

وأقدم اشارة جاءت فى النصوص التاريخية المعتبرة ، عن فتح منطقة كتامة وعن صلات سكانها بالعرب الفاتحين انما تعود الى عصر موسى بن نصير الذي وجد منطقة افريقية ومعظم بلاد المغرب الأوسط موطأة الاكناف ، بعد أن انكسرت فيهما عناصر المقاومة وجيوبها بفضل زهير بن قيس البلوي وحسان بن النعمان الغساني ، وقد لاحظنا أن طابع المقاومة كان بيزنطيا ــ برنسيا ، فى المرحلة الأولى ثم اصبح بتريا ، له علاقة مشبوهة بالبيزنطيين وعنصر الأفارقة فى المرحلة الثانية .

وكل هذا يعني أن مجهودات موسى بن نصير ، فى هاتين المنطقتـين ، اقتصرت على مجرد التأكيد لسيادة أعلنت فعلا ، وعلى اقرار لأوضاع أسست دعائمها على نهج متين وسوي ، فى عهد حسان بن النعمان ، الذي يوصف حقا ، بفاتح المغرب وقاهر البربر ، والروم ، وباعث ولاية افريقية العربية الاسلامية ، على انقاض ولاية افريقية البيزنطية (= ارخونيـة (Exarchat) ، وواضع اسس ادارتها على نمط يشبه ما هو فى غيرها من ولايات الخلافة الأموية فى المشرق العربي (419) .

418 ـ نفسه ورقة 3 ، ومن مصادره المغربية والاندلسية الرقيق وابن ابي دينار وابن العنتري وابن قنفذ ، خاصة منذ عصر الموحدين والبكري والعبدري وابن فرحون .

419 ـ سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق 196 وما بعدها ابو علي صالح عبد الحليم فتح المغرب الأوسط ، 221 صحيفة معهد الدراسات مدريد مجلد 2 ، 1954 م .

أما هذه الاشارة عن عمل موسى فى مجال كتامة وفيما جاورها من مجالات البرانس والبتر ، فقد حفل بها كتاب **الامامة والسياسة** لابن قتيبة الذي يبدي اعجابا خاصا بموسى ، فيروي كل أقواله (420) . ويسجل مشاهداته فى المغرب والأندلس (421) ، ومحاوراته المختلفة التي جرت سواء فى مجالسه مع الخليفة سليمان بن عبد الملك (422) ، أو فى مجالسه مع بعض رجالات العرب الذين رقوا لحاله وساعدوه أثناء محنته (423) .

وعن ابن قتيبة نقل ابن عذارى المراكشي بينما خلت مصادر مغربية أخرى مثل الرقيق والبكري وابن خلدون، وابن أبي زرع وابن أبي دينار والسلاوي، من آية اشارة عن بعوث أو سرايا أو حملات ، وجهت نحو منطقة كتامة .

ويلاحظ أن ما جاء فى كل من ابن قتيبة وابن عذارى لا يعدو مجرد أخبار سطحية تخلو من أسماء المدن ، والأماكن المعروفة ومن التحديد التاريخي ومن بيان ظروف العمل الحربي . وهي فى نفس الوقت يبدو من خلالها طابع الانتقام والقسوة والحرص على الاكثار من السبي ومخالفة قواعد الحرب بأخذ القبائل على غرة ، وهذه صفات لا نظن أنها كانت مما يلتجيء اليه قادة الفتح العربي فى افريقية قبل موسى بن نصير ، وتقاليد المسلمين فى الفتح حددها أول الخلفاء الراشدين لأوائل قادة الفتح فى غير بلاد المغرب ، وهي فى جملتها تنبني على مراعاة قواعد الذوق والأخلاق والحرية الفردية والتزام التدرج والوضوح فى عرض خصال ثلاث ، الأخيرة منها هي اللجوء الى القــوة .

ولذلك لا نستطيع أن نقبل بسهولة ما رواه ابن قتيبة ، وأيده فيه ابن عذارى المراكشي ولو لم ينفرد ابن قتيبة بهذه الاشارات لما صح اعتبار ما جاء فى كتابه خاصة قوله « وذكروا أن الجواسيس أتوا موسى فقالوا له : أن صنهاجة بغرة منهم ، وغفلة ، وأن ابلهم تنتج ولا يستطيعون براحا ، فأغار عليهم موسى ... وهم لا يشعرون فقتلهم قتل الفناء ، فبلغ سبيهم يومئذ مائة الف رأس » (424) ، لأن فيه مخالفة صريحة لتقاليد المسلمين .

ومهما يكن من أمر ، فان ابن قتيبة أشار الى أن موسى بن نصير أرسل أحد أركان حربه وهو عياش بن أخيل ، الى مضارب هوارة وزناتة وكتامة ،

---

420 ـ ابن قتيبة : الامامة والسياسة 2 ، 62 ـ 63 .

421 ـ نفسه 2 ، 86ـ88 .

422 ـ نفسه 2 ، 89 وما بعدها ، انظر ايضا 100 وما بعدها .

423 ـ نفسه 2 ، 58 ، 94 ـ 95 .

424 ـ ابن قتيبة : المصدر السابق 2 ، 66 ـ 67 .

وبمعيته الف فارس ، فتمكن منهم قتلا وسبيا حتى بلغت الغنيمة خمسة آلاف راس ، وأسر مقدمهم الذي عرف بـ « كمامون » وهو الذي أرسل مع وجوه الاسرى ، الى والي مصر عبد العزيز بن مروان ، فقتله عند بركة ، الى جوار قرية عقبة ، أصبحت تعرف باسم « بركة كمامون » (425) .

ولعل تنفيذ العقوبة فى هذا الامير ، مردها ، استماتته فى الدفاع عن حوزة بلاده ، وعصبيته ، باعتباره مسؤولا .

ومن قول ابن قتيبة « فلما أوجع عياش فيهم ، دعوا الى الصلح فقدم على موسى بوجوههم (426) فصالحوهم واخرجوهم » يتضح اتجاه القسوة والانتقام من قوم لم يظهروا خلافا . ويحق للباحث أن يتساءل عن سر هذا التصرف وفائدته فى بيئة حديثة عهد بالاسلام وضد قوم مسالمين ؟

فلو أن ابن قتيبة أشار الى عروض قدمت لهذه القبائل عن طريق زعمائها ، فرفضوها وأشهروا الحرب ضد المسلمين ، أو أن هذه القبائل مما اعتادت الاغارة على ابل المسلمين ومواشيهم ، أو على حاضرتهم الكبرى وهي القيروان ، أو كانت من القبائل التي لها ماض فى الوقيعة بالمسلمين ، مثل أوربة أو فى ربط صلات مشبوهة مع أعدائهم فى المنطقة مثل جراوة ، لكان الامر واضحا ولغدت أسباب هذا التقتيل مقبولة . أما وكل ذلك لم يظهر من خلال ما رواه ابن قتيبة ، فانذ' تؤكد الطابع الأسطوري لهذا الخبر ، الذي تفرد بروايته ابن قتيبة لأهداف خاصة ، ونقله عنه بحذر وبافتضاب وتصرف المؤرخ المغربي ابن عذارى ، ربما لعدم اطمئنانه لصحة ما تضمنه من مبالغة تسيء الى سمعة المسلمين .

وكانت كتامة قبل هذه الاغارة فيما يبدو مرتبطة مع موسى بن نصير ، بسياسة الصلح واستجابت لرغبته فى إبقاء رهائن من وجوه رجالها عنده ليثق من ولائها فى بيئتها الأصلية . وقبل زعماؤها ، العامل الكتامي الجديد ، الذي اقترحه موسى بن نصير ، ليكون مسؤولا أمامه عن المنطقة .

غير أن التناقضات الداخلية فى صميم القبيلة الواحدة ، وظاهرة التنافس بين فروعها على الزعامة ، وجموح الرؤساء ، ادت الى قتل هذا العامل .

---

425 – وقد وصف فى بعض النصوص بلقب « ملك كتامة » وأشير الى انه وجد مع قبيلته كتامة فى سجلماسة اثناء عمل موسى بن نصير فى بلاد المغرب ، انظر : أبو علي عبد الحليم : فتح المغرب الأوسط 224 ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية – مدريد مجلد 2 ، سنة 1954 .

426 – ابن قتيبة : المصدر السابق والصفحة ، ابراهيم العدوي ، موسى بن نصير مؤسس المغرب العربي 39 .

ويبدو أن ذلك لم يكن مرجعه ، ردة عن الاسلام أو خروجا عن طاعة أولي الأمر وعن سياسة الصلح ، مع ولاة القيروان .

ويؤيد ذلك أن احد زعماء كتامة ، كتب الى موسى بن نصير ، نيابة عن قبيلته يعتذر عما وقع فى حق العامل الرسمي ، ويشير بقوله « انما نحن عبدانك ، قتل أحدنا صاحبه ، وأنا خير لك منه » الى التفسير الصحيح لما حصل وهو التنافس القبلي والتحاسد الشخصي ، غير أن موسى بن نصير الذي استاء من وقوع الحادث وفسره على أنه بداية للعصيان والتمرد الشامل لكل المنطقة بايعاز من رؤساء القبائل سيما وقد قوي جانب الشك عنده ، باستئذان رهائن كتامة ، للخروج الى الصيد قبيل الحادث ، أرسل فى طلب الرهائن لينتقم منهم « فلما أتاه ما أتاه تحقق ظنه فيهم (427) » وعند المواجهة ، طالبه الرهائن ، بالتمهل حتى تتضح ظروف الحادث وأسبابه وأوضحوا لموسى ، أنهم من وجوه قومهم ولهم أقارب ، فى بلادهم لا يجرؤون على اظهار الخلاف ، الا اذا كان قصدهم التضحية بهم ، وهو أمر بعيد الاحتمال : « لا تعجل أيها الأمير بقتلنا حتى تتبين أمرنا ، فان اباءنا وقومنا لم يكونوا ليدخلوا فى خلاف أبدا ونحن فى يدك » وكان موقفهم جريئا ، ومنطقيا ، بدرجة ان موسى تمهل ، وقبل قولهم « انت على البيان أقدر منك على استحيائنا بعد القتل » لكنه احتاط منهم ، وأوقرهم فى الحديد واستصحبهم معه الى كتامة ، ليتعرف على حقيقة ما جرى لعامله . ويشير ابن قتيبة الى استقبال وجوه كتامة له فى الطريق واعتذارهم عما حصل ، فرجع مع الرهائن الى القيروان وبقي الوضع فى كتامة وفيما جاورها طبيعيا وهادئا (428) .

ويستنتج بما رواه ابن قتيبة ان قبائل هوارة وزناتة التي كانت هدفا للغزو انما هي التي كانت تضرب فى نواحي أوراس وما جاورها فقط لأنها التي تتاخم منطقة قبائل كتامة ، التي يشير النص الى اتحادها كلها ، حول أمير ربما كان من كتامة (429) .

وعلى الرغم من أن ابن قتيبة جعل تجمع هوارة وزناتة وكتامة فى اطار أحداث سنة 80 هـ / 699 — 700 م والانتقام من بربر أوربة فى سجوما ، لغدرهم بعقبة ، ضمن أحداث سنة 83 هـ / 702 — 703 م فان ابن عذارى

427 — ابن قتيبة : المصدر السابق 2 ، 66 .

428 — ابن قتيبة : نفس المصدر السابق والصفحة .

429 — نفسه 2 : 67 — 68 .

تجاهل التحديد التاريخي بالنسبة للاولى وأحاط التحديد الثاني ، بكثير من التحفظ اذ جعل حادث سجوما ، فى الترتيب المكاني أسبق مما وقع فى كتامة وفى غيرها .

وقد أطلق على رئيس الحلف الثلاثي ـ اسم طامون ، فهل يشعر هذا الاختلاف باعتماد كل منهما على مصدر خاص ، أو أن النساخ أجروا تحويرا فى الاسم دون قصد ، ويبدو أن هذا هو الأقرب للصواب ، لأن ابن عذارى يصرح بنسبة ما رواه فى هذا الموضوع ، الى ابن قتيبة (430) .

وتبقى تبعية منطقة كتامة لولاة القيروان مستمرة ، بعد انتهاء ولاية موسى بن نصير ، لان النصوص التاريخية بعد هذه الفترة ، لم تشر الى اية حركة انتفاض ، أو ثورة ضد الاسلام وضد حكام القيروان ، فى بيئة كتامة ، كما لم تشر الى اشتراك اي فرع منها فيما يمس الأمن والنظام والحقوق السياسية المكتسبة للعرب المسلمين فى هذه البلاد .

واتسم عهد محمد بن يزيد القرشي بالولاء ، وهو الذي خلف موسى فى ولاية افريقية بالأمن والرخاء والتزام العدل بين المسلمين ، ولذلك تشير النصوص الى أنه كان يرسل السرايا الى ثغور افريقية ، للتبشير بالاسلام ولتأكيد السيادة العربية (431) .

وذلك دون أدنى اشارة منها الى حروب أو معارك ، أو ثورات ، وهذا يدل ، الى حد ما ، على هدوء المنطقة فى ظل اعتناق سكانها للاسلام .

وكان اسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر ، متشربا بسياسة واتجاه جده دينار ابى المهاجر ، فى دعوة البربر الى الاسلام بالاقناع وعن طريق الحلف (432) ، كما التزم بتعليمات أعدل خلفاء بني مروان عمر بن عبد العزيز ، وتقضي بسلوك نهج الدعوة والترغيب لادخال بقية المجموعات الوثنية والمسيحية فى بلاد المغرب الى الاسلام . وقد أثمرت جهود هذا الوالي ونجحت سياسة تمتين أواصر الحلف مع السكان ، واكتمل اللقاء بين العرب والبربر فى تجمع اسلامي جديد .

---

430 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 34 ونص كلامه « قال ابن قتيبة فتح موسى بن نصير سجومة وقتل ملوكها وامر اولاد عقبة : ان ياخذوا حقهم من قاتلي أبيهم وذلك سنة 83 هـ على قول من قال انه ولى فيها » .

431 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 44 ، 45 : الجنحاني : القيروان 44 .
A. Laroui : Op. Cit., p. 89

432 ـ شعيرة : الممالك الحليفة 81 (مقال) مجلة كلية الاداب جامعة الاسكندرية 1948 سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق 152 الجنحاني : المرجع السابق 45 .

وقد أكمل والي افريقية المهمة التبشيرية بحملة توعية وتثقيف في محيط المسلمين الجدد ، قام بها على خير وجه عشرة من خيرة علماء التابعين ، جاءوا الى المغرب ضمن بعثة خاصة وجهها عمر بن عبد العزيز .

ولم تكن هذه البعثة ، هي الأولى ، ولم تصبح الأخيرة فيما يبدو لأن طريق مصر والمشرق أصبح مفتوحا وتيار الهجرة غدا قويا والاقبال على الجهاد والرباط والمثاغرة أصبح منقطع النظير (433) .

وظفر اسماعيل بن أبي المهاجر ، بسبب جهوده الطيبة ، في خدمة الجوانب الروحية والثقافية في بيئة المغرب الاسلامي بلقب « أحسن وال وأحسن أمير »(434) . وهو لقب لم يظفر به لأول مرة ، في بيئة المغرب غير أول الولاة وأحسن الدعاة مؤسس قاعدة القيروان ، وواضع لبنة الحضارة العربية الاسلامية في بلاد المغرب ، وهو عقبة ابن نافع الفهري (435) ، الذي ما انفك يناضل في سبيل نشر العقيدة حتى سقط شهيدا على أرض أحبها فدانت له بالفضل . وهي تحتضنه الآن بين جنباتها أثرا دائما معبرا ، يذكرها بعهد المجد والبطولة والاستشهاد ، ويوحي اليها بكل المعاني السامية التي استلهمتها أثناء حركاتها التحريرية ضد المستعمرين حتى وقت قريب ، ويلاحظ بعد هذه الفترة أن غيرة المسلمين الجدد على مبادىء الدين هي التي دفعت بعضهم الى قتل يزيد بن أبي مسلم في مصلاه ، 102 هـ / 720 — 721 م وكان واليا لافريقية في عهد يزيد بن عبد الملك ولا سبب لذلك الا كراهيتهم للابتداع والتشبه بالنصارى ، لأن هذا الوالي أراد أن يشم على أيديهم كلمة (حرس) ليتميزوا عن سواهم ولخصوا سبب موقفهم الاحتجاجي بعبارة جامعة هي قولهم « جعلنا بمنزلة النصارى » (436) .

وتخيرهم مكان الصلاة بعيدا عن دار الامارة وعن بيته يشعر بأسباب الغضب وبأن مصيره سوف يلقاه كل من تسول له نفسه من الولاة سلوك نهج غير اسلامي في بيئة افريقية الاسلامية وبين سكانها المسلمين .

والغيرة على مبادىء الاسلام ، والاحتجاج على الانحراف دفعا بعض مسلمي قبيلة مطغرة ، بعد مراجعة أولى الأمر في القيروان وفي دمشق في عصر هشام بن عبد الملك بواسطة سفارة تزعمها أمير منهم عرف بميسرة

433 — ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 45 — 46 .

434 — نفسه ، ابن عبد الحكم فتوح مصر والمغرب 286 (ط عامر) .

435 — ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 16 .

436 — ابن عذاري : البيان المغرب 1 ، 46 .

الخفير (437) الى تفجير أولى الثورات السياسية المذهبية فى بيئة المغرب ، ضد سياسة عبيد الله بن الحبحاب السلولي بالولاء ، وضد تصرفات عماله على النواحي (438) .

واتسمت هذه الثورة بالعنف وبالشمول والاستمرار بسبب اتجاهها الخارجي وتخللتها فصول محزنة ، وتمخضت عن نتائج سيئة بالنسبة للغالب والمغلوب لخصها ابن عذارى بعبارة جامعة نصها « فكان فعله (أي عمر المرادي عامل طنجة) الذميم هذا سببا لانتقاض البلاد ، ووقوع الفتن العظيمة المؤدية الى كثير القتل فى العباد ، نعوذ بالله من الظلم الذي هو وبال على أهله » (439) .

واذا بدا ان الفتنة الأولى ضد يزيد بن أبي مسلم ، كانت ذات طابع محلي صرف واقتصرت على ثورة الحرس ، ضده لأسباب خاصة ووجدت حلولا جزئية لها بمعاقبة الجناة ومؤيديهم ، وانتهت القضية (440) عند هذا الحد بحيث لم ينتشر خبرها ، ولم تشر النصوص الى ردود الفعل عنها فى آفاق المغرب بما فى ذلك منطقة كتامة ، فان عدم ورود ذكر كتامة اثناء الفتنة الثانية ، التي طالت واتسعت وعرفت أكثر من 375 وقعة ، بين الخوارج وجند الخلافة (441) . ولم تنطفيء نارها ، الا بعد أن أصبح المغرب الاسلامي، يعيش ظاهرة جديدة هي التجزئة السياسية والمذهبية ، انما يدل فعلا على عدم اشتراك كتامة وسكانها بسبب العزلة وكراهية الشغب والثورة ضد النظام الشرعي ، وجنوح أهلها الى الهدوء و لاستقرار فى اطار التبعية للولاة فى القيروان ، ويعني هذا أن نزعات الخوارج ، لم تنل من طبيعة سكان كتامة ، ولم تنتشر بينهم ، بقدر ما توغلت فى بطون زناتة ومطغرة وصنهاجة ولعل هذا يفسر أسباب سلامة بيئة كتامة من الكوارث والنكبات قبل العصر الفاطمي ، وعدم اشارة النصوص ، الى ثوار كتاميين ، أو الى عقوبات نزلت بهم أو ببلادهم بسبب الاشتراك فى أعمال غير شرعية .

---

437 ــ ابن الاثير : المصدر السابق 3 ، 45 .

438 ــ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 52 وما بعدها ، السلاوي : الرجع السابق 1 ، 48 ، بروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية 1 ، 192 ــ 193 الحبيب الجنحاني المرجع السابق : 46 ــ 47 يحي هويدي : المرجع السابق 1 ، 33 ــ 34

439 ــ نفسه A. Laroui : Op. Cit., p. 90

440 ــ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 47 ــ 48 .

441 ــ نفسه 1 ، 91 ابن خلدون : المصدر السابق 6 ، 227 ، EI., (Art Ketama) T 2 p. 909

أما القول بأن كتامة كانوا من الخوارج الصفرية ، أو من النكارية (442) فقول يفتقر الى الدليل ، ولم تؤكده المصادر التاريخية ولا يؤخذ من وجود كتامى هو شكر بن صالح بين رجال الشورى الذين أوكل اليهم عبد الرحمن بن رستم فيما بعد مهمة اختيار امام بعده ، الدليل على انتحالها للمذهب الاباضي ، لأن رجال الشورى ، كان من بينهم أندلسيون أيضا واختيروا لاستقامتهم وورعهم ، وكونهم يمثلون قطاعا هاما من جاليات مدينة تاهرت (443) .

ولو كانت كتامة صفرية أو نكارية اباضية ، ما اختار الداعي بلدهم لنشر الدعوة الاسماعيلية ، لأنهم لا ينقادون لآرائه عن الامامة المنحصرة فيآلالبيت ويظهر ذلك من احاديث حجاجهم مع الداعي ، في مكة (444) ، ومن الصعب أن يسلم هؤلاء،في مذهبهم لو كانوا فعلا أباضية أو صفرية وماوقعمنصفرية سجلماسة ، واباضية تاهرت ، بعد سقوطهما في أيدي كتامة يؤكد العداء المستحكم بين هؤلاء وأولئك . وبدافع الكراهية والحقد هاجر الأباضية من تاهرت الى صدراته وبني وارقلان في الصحراء ، كما هاجر أيضا رهط بني غفيت الاباضية ، كراهية لظهور الداعي في كتامة ، وكانوا يقيمون في مضارب قبيلة مسالته الكتامية (445) منذ أن هاجروا اليها من النواحي القريبة في أوراس التي كانت تحتضن جيوبا من الخوارج .

ولو كانت لكتامة نزعة الخوارج لانتقضت مع المنتقضين ضد ولاة الخلافة ، ولحدثتنا النصوص ، عن وقوف رجالها الى جانب اثنتي عشرة مجموعة ، تكون حلف الخوارج التي فرضت حصارا شديدا على مدينة طبنة قاعدة الزاب ، في عهد أوائل الولاة المهالبة وهو عمر بن حفص (هزار مرد) (446) .

---

442 – Julien : Op. Cit., T. II, p. 55. EI., Art Aghlabides, T. I, p. 185-86

443 – ابو زكرياء : السيرة وأخبار الائمة ، ورقة 12 . خ ميزاب ، الشماخي : السير 145 ، سعد زغلول : المرجع السابق 388 .

444 – يستفاد من كلام ابن عذارى ان الداعي سال حجيج كتامة عن مذهبهم فاخبروه ان شيخهم كان عنده ميل الى المذهب النكاري الاباضي فلو كان مذهب بقية الحجيج مثل مذهب الشيخ لوقع التصريح بذلك ولاشير الى ميلهم الى مذهب معين ولو كانت اجابتهم للداعي فيها ما يفيد الميل الى المذهب النكاري لما كانت هناك فائدة في توضيح ميل الشيخ ، لانه تحصيل حاصل ، وكل هذا لا ينفي وجود اقليات مذهبية غير سنية في بيئة كتامة بسبب الهجرات انظر البيان المغرب 1 ، 166 – 167 ويلاحظ أن فروع صدغيان وسدويكش التي استقرت في جزيرة جربة كانت اباضية وعن بعض علمائهم انظر الشماخي : المصدر السابق 576 .

445 – النعمان : المصدر السابق ورقة 79 .

446 – ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 88 وما بعدها .

– ومنطقة كتامة تتأثر قبل غيرها ، بعامل الزاب ، لأنها تتبع نفوذه بطريقة غير مباشرة ، فلو كانت لها نوايا عدائية بتأثير نزعة خاصة أو لها ما تأخذه على ولاة القيروان ، أو نوابهم فى اقليم الزاب لكانت هذه فرصتها الخاصة للنيل منهم ولاعلان التعاون مع احلاف ضدهم ، لكنها لم تفعل . وقد أشارت النصوص الى شخصيات من الخوارج تنتمي لكثير من فروع البربر ليس من بينها قبيلة كتامة ، وهؤلاء هم : ابو قرة اليفرني الزناتي ، وعاصم بن جميل الصدراتي ، والمصور الزناتي وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجي وابو حاتم يعقوب بن حبيب الملزوزي وعبد الرحمن بن رستم الاباضي (447) .

والنصوص التاريخية التي لم تسعفنا بأية اشارة عن ثورة كتامة فى هذا الوقت لم تسعفنا أيضا بما يفيد تأييدها لطرف من الاطراف المتنازعة ، وتحرك فريق منها نجدة لمدينة طبنة أو مدينة القيروان اثناء معاناتهما للحصار ، من طرف احلاف الخوارج قبل عصر يزيد بن حاتم المهلبي .

وهذا ان دل على شيء ، فانما يدل على بقاء كتامة اثناء هذه الفتن الداخلية بمعزل عنها ، وعن زعمائها ثم عن ولاة القيروان الذين جدوا لاخمادها (448) . فهل كان حيادها اذا تجاه أطراف النزاع حيادا أيجابيا كما يقال ؟

ويؤكد اتجاه الحياد والعزلة ، أن بعض قبائل كتلة اوراس ، من زناتة ، وهوارة ومزاتة المجاورة لها ، لم تسلم من ريح الفتنة ، بل أيدتها،واصبحت فيما بعد وحتى عصر الرحالة البكري ، مركزا لطوائف خارجية اباضية (449) .

وفى أثناء هذا العصر ، لاحظنا أن ارض كتامة أصبحت بالنسبة لبعض القادة الطموحين ملجأ أمينا ، ومكانا يحميهم من أيدي أعدائهم ولا سبب لذلك غير ميل الكتاميين الى الحياد ، وعزلة بلدهم فى ركن قصي .

---

447 – نفسه ، وابن رستم ينتمي الى قبيلة لماية بالحلف انظر ابن خلدون : المصدر 6 ، 121 ط بولاق ، وابن عذارى : 1 ، 277 ، ينسبه الى موالى عثمان بن عفان عن طريق جده بهرام انظر البكري 67 . وعن سبب مجيئه الى القيروان مع زوج امه الحاج المغربي وذلك بعد وفاة أبيه فى طريق الحج انظر : سيرة أبي زكرياء ورقة 3 – 4 . EI., (Art Abd El Rahman T I p. 58

448 – ومما له دلالة على هذا المعنى ، أن بعض النصوص ، تؤكد بقاء البربر على الاسلام لم يرتد منهم غير برغواطة ووقع خلاف حول كتامة بعد اخذهم بنحلة التشيع : ابو علي صالح عبد الحليم : فتح المغرب 224 صحيفة معهد الدراسات مدريد مجلد 2 ، 54 .

449 – البكري : المصدر السابق 144 .

ـ ومن هؤلاء القادة ، الحسن بن حرب الكندي عامل تونس من طرف الأغلب بن سالم التميمي والي القيروان فى عهد أبي جعفر المنصور . فقد ثار الحسن بن حرب سنة 150 هـ / 767 ـ 768 م ضد الأغلب بن سالم (جد الاسرة الاغلبية) أثناء غيبته عن القيروان لقتال بني يفرن الصفرية واميرهم ابي قرة المتمركز فى منطقة تلمسان واحتل القيروان ، وطرد سالما بن سوادة نائب الأغلب وسجنه ، وجاهر بالعصيان لكنه لم ينجح فى مواجهته الاولى للاغلب الذي خف للقائه ، فانسحب الى تونس للاعداد من جديد ، ويظهر أن المكيدة التي دبرها ، هي التي نجحت فى كسب الجولة الى حين ، اذ أصيب الأغلب بسهم طائش ، وهو يتأهب للقاء الثاني معه (450) . ولما اتفق السكان ، بعد الحادث ، على تدعيم المخارق بن غفار الطائي ، من رجال الأغلب ، للاخذ بثأره من الحسن بن حرب ، فضل هذا الأخير ، أن يلتجيء الى بلاد كتامة حتى تهدأ العاصفة ، فأقام فيها شهرين دون خوف أو انزعاج لكنه عندما فارقها الى تونس ، لتدبير تمرد جديد ، قتل على أيدي رجال حامية المدينة (451) .

ـ ومن بين القادة ايضا ، عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن ، فقد التجأ الى احدى قلاع كتامة فارا من بطش ولاة القيروان وعمالهم فى منطقة الزاب .

وابن حبيب ، هو احد أفراد اسرة الفهريين من نسل عقبة بن نافع ، ويظهر أن فشل أفراد أسرته فى حكم افريقية ومنطقة طرابلس ، بسبب خصوماتهم الداخلية ثم معارضة صفرية افريقية ، واباضية طرابلس وجبل نفوسة لهم (452) ، لقنته درسا لذلك لاحظنا انه فى هذه الفترة ، ينسق مع قوى الخوارج للاستفادة منهم فى الظهور من جديد واتصل بأبي حاتم يعقوب بن حبيب الملزوزي الهواري من ائمة الدفاع عند الأباضية بعد اختفاء امامة الظهور بقتل أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري

---

450 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 86 ـ 87 السلاوي : المرجع السابق 1 ، 57 ، الجنحاني : المرجع السابق 50 ولاحظ آن الاغلب عرف بلقب « الشهيد »
A. Laroui : Op. Cit., p. 91

451 ـ نفسه 1 ، 91 السلاوي : نفس المرجع والصفحة .

452 ـ وكان بين جده عبد الرحمن وابن رستم عداء بسبب ان الاخير قال فيه : « يا معشر المسلمين لا تولوا عبد الرحمن بن حبيب امور المسلمين فانه ابليس ، الا ان عليه بشرة بني آدم » انظر سيرة ابي زكرياء خ ـ ورقة 9 .

(453) . وذلك من أجل التنسيق والتعاون معه ضد جند الخلافة ، بقيادة يزيد بن حاتم المهلبي ، وعندما انهزم ابو حاتم وقتل سنة 156 / 772 ـ 773 م وتبدد شمل رجاله (454) ، فر عبد الرحمن الى طبنة ، ومنها التجأ الى جبال كتامة واعتصم باحدى قلاعها الحصينة ، قرب مدينة جيجل (455) ، سماها بعض المؤرخين قلعة حبحاب (456) .

وما كان ابن حبيب ليفارق طبنة ، الى بلد منعزل لو لم يشدد عليه الخناق من طرف المخارق بن غفار الطائي ، عامل الزاب الذي أمره يزيد بن حاتم بملاحقة ابن حبيب في كتامة ، وأرسل اليه الامدادات من جند خراسان والشام .

وبعد حصار قلعة حبحاب ، مدة ثمانية أشهر ، اقتحمها عليه العلاء بن سعيد بن مروان الذي وصل نجدة لكن من غير المنافذ التي كان يرابط بها المخارق وجنوده ، ففر ابن حبيب حيث بقي مجهول المصير ، وترك مساعديه للاسر والقتل (457) ، وسكان منطقة كتامة نهبا للخوف والفزع من احتمال حركة انتقامية يقوم بها جند الولاية بسبب التجاء ابن حبيب اليهم . وهو ما قصده الرقيق القيرواني بقوله (وهرب البربر في كل ناحية ، وخافوا خوفا شديدا ، فلم يزل البلد هادئا في أيامه (أي يزيد بن حاتم) الى أن بلغه انتقاض ورفجومة (458) .

---

453 ـ الدرجيني ـ كتاب الطبقات ورقة 6 ـ رقم 2524 ـ تونس ـ وفيه تمييز بين حالات ثلاث عند الاباضية حالة الظهور ، تكون بوجود امام عادل يرعى الاحكام . وحالة الدفاع ان يولي الجماعة من يدافع عنهم عند الخطر ، وحالة الكتمان ، ان تلازم الجماعة العمل سرا حتى تهيا ظروف لاظهار الامامة : الشماخي : السير 132 ـ 136 ومن امامة ابي الخطاب انظر 125 منه .
E.I., Art Abou-Lkattab, T. I, p. 98-99.

454 ـ الرقيق : المصدر السابق ، 160 ، ابن عذاري : المصدر السابق 92 ، 94 ، ابن خلدون : المصدر 6 ، 227 السلاوي : المرجع 1 ، 58 سعد زغلول عبد الحميد المرجع 327 ـ 329 .
E.I. Art, Abu-Hatem, T. I, p. 94-95.

455 ـ نفسه : 161 .

456 ـ ابن عذاري : المصدر 1 ، 94 .

457 ـ ابن خلدون : المصدر 6 ، 227 وهنا يشير الى قتل ابن حبيب في القلعة مع كثير من البربر .. ابن عذاري 1 ، 94 الرقيق : المصدر 161 ، السلاوي : المرجع 1 ، 58 ، يشير الى التجائه الى الاندلس ، مثل سلفه من قبل . سعد زغلول : المرجع 330 ، ويعتقد انه الذي اشتهر بلقب الصقلبي وقد حاول تاييد سليمان بن يقظان في حركة التآمر ضد عبد الرحمن صقر قريش ، لفائدة شرلمان ، انظر 331 منه .

458 ـ السلاوي : المرجع 1 ، 59 الرقيق : المصدر 161 .

وورفجومة ، هي فرع من قبيلة نفزاوة . وكانت تنتحل الصفرية ، ولها ماض قديم في الثورة ضد ولاة القيروان في عهد أسرة الفهريين (459) ، أما ثورتها الثانية فقد تزعمها في عهد آل المهلب ، أبو زرجونة ، الذي انزل هزيمة بجند الزاب فعزل المخارق وولى مكانه ، المهلب بن يزيد بن حاتم ، وضم اليه العلا بن سعيد ابن مروان ، الذي كان وجوده حاسما في انتهاء المعركة ضد ورفجومة لفائدة الخلافة ، ومن ثم نال جزاءه بتعيينه واليا على طرابلس ، أما المهلب فأبقاه والده الى جواره في القيروان ، وأصبح حكم منطقة الزاب وكتامة من نصيب أخيه محمد لفترة مؤقتة (460) ، ورجع أثرها الى مقر ولايته في طبنة ، واستمر يسير شئون المنطقة حتى عزله والي افريقية الجديد وهو عمه روح بن حاتم وقدم ابنه الفضل لولاية الزاب وكتامة (461) .

فانتقل الى طبنة وبقي على رأس الاقليم حتى اصبحت ولاية افريقية سنة 174 هـ / 790 – 791 م من نصيب نصر بن حبيب المهلبي ، عامل شرطة يزيد بن حاتم وعندئذ فارق الفضل الزاب ، وافريقية الى المشرق. وفي بغداد اعتمد على ماضي أبيه وتقرب من الخليفة هارون الرشيد، فعينه واليا على افريقية سنة 177 هـ / 793 – 794 م ومنذ أن استقر في القيروان ، بدأ حركة تطهيرية أبعدت كل رجال نصر بن حبيب باستثناء العلاء بن سعيد الذي أقره على ولاية الزاب وكتامة (462) . فلما شبت ثورة الجند الخراسانية بقاعدة تونس (178 هـ / 794 – 795 م) ، بتدبير عبد الله بن الجارود ، المعروف بعبدويه ، ومحمد بن يزيد الفارسي، ضد الفضل بن روح ، ونائبه في المدينة ، المغيرة بن بشر بن روح (463) ، ظهرت اهميته أولا في ارسال نجدة من كتامة ومن مدينة ميلة خاصة بقيادة ابي عبد الله مالك بن المنذر عززت جانب جند الولاية ضد الثائرين (464) ، وقد سهر على الأمن والنظام في أقليمه وعندما رجحت كفة الثائرين ، خف لنجدة رجال الفضل بن روح وحضر على رأس قوات كثيرة من منطقة الزاب وكتامة ، فكان مجرد حضوره ، عاملا هاما في انهاء حركة التمرد .

459 – عن ثورتها الاولى انظر ابن عذاري : المصدر 1 ، 80 وما بعدها .

460 – الرقيق : 162 ، ابن خلدون 6 ، 227 – 228 ، السلاوي 1 ، 59 . سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق 331 .

461 – نفسه 172 – 173 .

462 – نفسه 185 .

463 – نفسه : 186 – 187 ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 106 – 107 اليعقوبي تاريخه 3 ، 142 – 143 .

464 – نفسه 195 ، وتكون هذه اولى الاشارات عن موقف كتامة الايجابي لفائدة الولاة في القيروان .

وتم تسليم المدينة لنائب هرثمة بن اعين (465) ، الذي كان يقيم فى مدينة طرابلس يراقب تطور الأوضاع وينتظر وصول كل من ابن الجارود ،وعامل الزاب وكتامة وهو العلاء بن سعيد (466) ، وبينما أمر هرثمة باخراج ابن الجارود الى بغداد ، ليرى الخليفة فيه رأيه ، منح العلاء جائزة سنية وفى مصر التي استقر فيها ، كان محل عناية من الخليفة هارون الرشيد حتى توفي بعد مدة يسيرة (سنة 179 هـ / 795 – 796 م) (467) ، والذي يستخلص ، من هذه الاحداث التي جرت فى عهد أسرة المهالبة فى افريقية (151 – 179 هـ 768 – 796 م) .

— ان ارض كتامة كانت جزءا تابعا لاقليم الزاب ، الذي تشرف عليه مدينة طبنة ، وولاة اقليم الزاب ، من مقرهم فى هذه المدينة ، كانوا يراقبون أرض كتامة بواسطة ممثل عنهم يقيم فى مدينة ميلة .

— والذين يظهرون العصيان والثورة من القادة ، ضد السلطة الشرعية فى القيروان اذا لم ينجحوا فى أعمالهم ، يتمنعون عن حركات التتبع ضدهم وذلك بالتحصن فى الأماكن المنعزلة فى أرض كتامة ، كما فعل الحسن بن حرب ، وابن حبيب الفهري .

— وظهرت أهمية كتامة فى مواجهة حركة تمرد ابن الجارود وفى القضاء على ثورة الخوارج الصفرية ، من قبيلة ورفجومة فى عصر يزيد بن حاتم .

وقد لاحظنا دور حامية ميلة بقيادة مالك بن المنذر .

وقد ثبتت منطقة كتامة ، والزاب على ولائها للسلطة الشرعية فى القيروان حتى فى أصعب الظروف ، فكانت عدة لولاة القيروان ومركزا هاما ، يمدهم بخيرة الفرسان وأكفأ القادة .

— واستمرت منطقة الزاب ، ومدينتها طبنة فى أداء دورها كاملا الى جانب السلطة الشرعية فى القيروان وهي التي دفعت أحد ولاتها ، وهو ابراهيم بن الأغلب الى اخماد حركة تمرد جديدة للجند الخراسانية فى تونس

---

465 — وفى تاريخ اليعقوبي 3 ، 142 – 143 ، ما يشير الى ان الرشيد العباسي ارسل هرثمة بن اعين الى الشام ومصر والمغرب « يتقراها ويصلحها ، فلم يزل يمر ببلد بلد فيصلح ما يريد اصلاحه » . والتقري مصطلح هام يعبر عن التدرج فى العمل .

466 — الرقيق : المصدر السابق 201 ، ابن عذاري 1 ، 108 ، سعد زغلول : المرجع السابق 348 .

467 — نفسه 202 ، ابن عذاري 1 ، 109 .

ضد محمد بن مقاتل العكي ، وكان رئيسها هو تمام بن تميم التميمي جد أبى العرب ، صاحب كتاب طبقات علماء افريقية (468) .

ــ وأظهرت أحداث ولاية افريقية فى نهاية القرن الثاني للهجرة ان والي منطقة الزاب هو أكفأ من يضمد الجراح ، ويرجع الهدوء الى نصابه (469) ، فى بلد كثر فيه الطامعون والطامحون من رؤساء الجند ، وغدت بعض حامياته خاصة حامية تونس منصرفة ، عن النشاط الثغري ، والتبشيري ، الى الاشتراك فى الفتن وتزعم الثورات ضد القيروان ، وولاتها الشرعيين .

ــ ومدينة طبنة ، واقليم الزاب ، لم تخف اهميتها على الداعي اثناء نشاطه فى كتامة وقد بادر بمجرد ، استقرار امره فى كتامه ، بضم مدينة طبنة لدائرة نفوذه واعتبرها درة فى عقد المدن التي استولى عليها فعلا . وكانت معاملته لسكانها كريمة وفى اطار الاحكام الشرعية ، فكأن الداعي فى حركة توسعه ضد طبنة انما كان فقط يريد الاستيلاء على عاصمة الاقليم ، الذي وطأ أكنافه ، قبل أن يتجه نحو أراضي افريقية نفسها (470) .

ــ وعندما أصبح ابراهيم بن الأغلب ، اميرا على افريقية كلها (471) ، منذ 184 هـ / 800 م يشرف عليها من العباسية (= القصر القديم) بقى لمنطقة الزاب اعتبارها ، كما بقى العنصر العربي سيدا فيها ، وفى كامل أرض افريقية يراقب الثوار ويكبت روح المقاومة والعناد فى الجند ، حتى حاد بعض أحفاده وهو ابراهيم بن أحمد عن النهج السوي وعندئـذ نشطت الحركات المذهبية الثورية المعادية للاسرة الأغلبية وللعباسيين وتصدر الأحداث الجديدة من كان من قبل ، متروكا فى ركن قصي ولا يحسب له أدنى حساب .

* * *

والذي يلاحظ هنا فى سلسلة الأخطاء التي وقعت فى سياسة الأغالبة خطآن ظهرت أبعادهما السيئة على نظام الدولة وفى حياة مجتمع المغرب العربي وفى أنظمته السياسية والمذهبية .

---

468 ــ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 111 ــ 112 ، الرقيق : المصدر السابق 205 ، وما بعدها . سعد زغلول عبد الحميد : المرجع 254 وما بعدها .

469 ــ ابن خلدون : المصدر السابق 6 ، 228 ومن كلامه قوله (رأب الصدع وجمع الكلمة ورضيت به الكافة واستقل بولايتها غير منازع ، وتوارثها بنوه خالفا عن سالف) ــ زغلول : المرجع 358 .

470 ــ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 191 وعن مدينة طبنة واهميتها حتى تم تخريبها سنة 457 هـ ــ 1062 م انظر : EI., (Art Tobna) T 4 p. 847

471 ــ اليعقوبي ــ تاريخه 3 ، 143 .

واول هذه الاخطاء سياسة الافناء لعناصر من سكان منطقة الزاب ،وقد تبناها من الأمراء الأغالبة ، أكثرهم استبدادا وشذوذا وهو ابراهيم بن احمد الذي لم يفرق بين الكبير والصغير ، بل قتل الجميع ، وأمر بالقائهم في الحفر التي أعدت من قبل ، ويشير ابن عذارى الى هذه الحادثة بقوله « وفي سنة 268 هـ . كان فتك ابراهيم بن الأغلب بأهل الزاب ، فقتلهم ، وقتل أطفالهم وحملوا على العجل ، الى الحفر فالقوا فيها » (472) .

ويحق للباحث أن يتساءل عن هؤلاء الذين دفنوا ، رغم حبهم للحياة وابيدوا رغم اصرارهم على البقاء ، انهم ولاشك عصب قوة الدولة وعدتها في الأخطـار ؟

ـ وكان الخطأ الثاني ، شبيها بالأول في كونه قصد به عنصر قوي يعتبر ايضا من عصبية الدولة ، وهو الغدر بعناصر من خيرة عرب بلزمة ، لأن رهطا منهم وهم بنو مالك ، أجاروا رجلا من باغاية وهو كريم بن مرذور وابوا أن يسلموه للامير رغم تظاهره بالقوة ، وعندما يئس من اذعانهم تظـاهر بمصالحتهم وانسحب الى رقادة ، منتظرا فرصته السانحة فيهم . وقد تهيأت عندما وفد منهم الى رقادة وعلى فترات متقطعة ، عدد كثير بلغ نحو الف رجل فاكرمهم واستقروا بدار واسعة الى جوار فندق قديم لأهل بلزمة وتفنن في التلطف معهم حتى اطمأنوا اليه وأخذوا بمعاملته الحسنة لهم ، وغفلوا عما جرى بينهم من قبل وعندئذ أرسل ثقات رجاله ، مع ابنه أبي العباس عبد الله ، الى مقر البلزميين فاقتحموه من منفذ خاص ، وقتلوهم عن آخرهم بعد أن ووجهوا بمقاومة عنيدة استمرت من الصباح حتى العصر .

أما نتيجة هذين الخطأين ، فكانت ذهاب ريح الدولة ، وضعف عصبيتها وتساقط مدنها وحواضرها فيما بعد . وقد اعتبر ابن عذارى هذا العمل « من أسباب انقطاع دولة بني الأغلب » .

وكان أهل حصن بلزمة ، عربا في جملتهم ولا تهمهم غير حريتهم في بلدهم ولا يكيدون للدولة ، ولا يجيزون القضاء عليها ، لأنها أساس وجودهم وحرز لبقائهم وهي من نفس عصبيتهم ، أي من قبيلة تميم ، وكانت بلادهم بحكم موقعها على هوامش أرض كتامة ، بمثابة حاجز حصين يقي السلطة الشرعية في رقادة من الثوار ، والطامعين ، ويضع حدا لتطرف المتطرفين ، من عناصر كتامة وغيرهم فيبقون كما كانوا معزولين عن الأحداث ، غرباء عن مجريات الاحوال حتى وهي تقرب منهم ، أو تجري في بلادهم . وكان عرب بلزمة ، من حصنهم الحصين يقومون بواجبهم في حراسة كتامة ، التي كانت تخشى

---

472 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 158 .

بأسهم ، وتحترس من شرهم حتى تصور بعض المؤرخين ، انهم كانوا يذلونها (473) .

ولما صفى عنصر البلزميين فى رقادة . وخربت قاعدة بلزمة فى الزاب ، انقلب ميزان القوى فى المنطقة كلها ، فابتسم الحظ لمزاته ، وارتفع رصيد كتامة ، فنهضت من بعد غفوة لتنفض عن منطقتها غبار الذل والعزلة ولتوجه الاحداث وتقود المعارك فى الآفاق البعيدة ، ولتحدث انقلابا خطيرا فى الرسوم وذلك ما سجله ابن خلدون فى قوله « واستقلت كتامة بالامر من يومئذثم من بعدهم من برابرة المغرب وذهبت ريح العرب ، ودولتهم عن المغرب وافريقية، فلم يكن لهم بعد دولة ، الى هذا العهد وصار الملك للبرابر وقبائلهم يتداولونه طائفة بعد أخرى وجيلا بعد جيل » (474) .

ومن هذا القول الجامع ، الذي هو أشبه باللحن الحزين ، نستنتج دور العرب الرئيسي سواء كانوا قيسية او يمنية فى حماية وجود الدولة الاغلبية، التي كانت تمثل سيادة العنصر العربي وقوته ومجده واستقلاله بالتدبير وبالحكم .

وعندما كانت هذه الدولة — من وحي ادراك رجالها لحقائق الحياة — محافظة على أساس بقائها ، وعلى تماسك عصبيتها تمكنت من البقاء ضد عوامل الفناء وعندما بدأ بعض أمرائها يفقدون ادراكهم وحساسيتهم ، تجاه عصبية الدولة ضعف أساسها واهتز كيانها ، وطمع فيها من طال انتظاره واشتد ظمأه للسلطة وقوى عزمه الآن على تمثيل دور رئيسي فى المنطقة . فلننظر الآن كيف خرجت كتامة من بيئتها الجبلية المنعزلة ، الى بسائط وسهول المغرب ، ومن تبعيتها وذلتها الى حياة المجد والعزة والزعامة فى آفاق المغرب والمشرق أيضا ؟ وهذا ما سنتناوله فى بقية الفصول .

---

473 — ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 163 — 164 اليعقوبي : البلدان 103 وقد لاحظ فى عصره انتقاض عرب بلزمة علي ابن الاغلب ، من اثر الحادثة وذكر انهم من تميم ، ومن مواليهم ، النعمان : المصدر السابق ورقة 51 — 52 ، البكري : المصدر السابق 50 ويشير الى أن بلزمة لمزاته البربرية وقد خربها زيادة الله 3 انظر :
EI., (Art Aghla) T I p. 185-86
Charles Diehl et Marsais : Histoire du moyen Age le Monde Orientale de 395 à 1081 T III p. 414 (Paris 1936)

474 — ابن خلدون : المصدر السابق 6 ، 229 (ط بيروت) ، انظر العدوي : بلاد الجزائر — تكوينها العربي الاسلامي 239 وما بعدها ، عن انتقال مقاليد الامور الى كتامة : (القاهرة 1970) شارل جوليان : تاريخ افريقية 71 — 72 ، ترجمة عوضي اباضة ، مراجعة عبد المنعم ماجد (سلسلة 1000 كتاب) .

الفصل الثاني

كتامة والدعوة الاسماعيلية في بلاد المغرب حتى قيام الخلافة الفاطمية

التشيع ــ حياة العلويين وحركاتهم حتى نهاية العصر العباسي الاول ــ بيت جعفر الصادق الحسيني : الاثنــا عشرية والاسماعيلية ــ الدعوة الاسماعيلية في المشرق ــ سلمية اليمن ــ بذور الدعوة الاسماعيلية في بلاد المغرب ــ اهمية مراكز العلويين في المغربين الاوسط والاقصى ، ودور الادارسة في التهيئة ــ فجر الحركة الاسماعيلية في بلاد المغرب الدعاة الاوائل : ابو سفيان ــ الحلواني وجهودهما : تشيع الرجال ــ القصص الادبي والتشيع ــ التنجيم والتشيع ، الشعر والتشيع ، الشعراء المتشيعون ، شخصية ابي عبد الله الشيعي ــ الشيعي وكتامة في مكة ــ الشيعي في قلعة ايكجان ــ الشيعي في تازروت ، تنظيماته الخاصة . مشاكله ، حرب الحلفاء ، حصار تازروت وفشله ــ سقوط ميله وردود الفعل الخارجيــة ضد الداعي : جهود الاحول الاغلبي ضد تازروت وميلة وآثارها ــ ايكجان دار هجــرة جديدة.ايكجان قاعدة انطلاق ضد حواضر كتامة والزاب:سطيف ــ حملة ابراهيم بن حبشي ضد ايكجان ــ معركة كينونة نتائجها : ولاء قسنطينــة ضم طبنة ــ بلزمة ، تيجس ــ تيفاش ــ باغاية ، قاعدة انطلاق وسطي ضد قسطيلية وقمودة وقصور قفصة ــ ردود فعل اغلبية ناجحة ضــد تيفاش ــ معركة دور مدين ، تمرد القبائل ضد الداعي ــ حركة اغلبيــة ضد باغاية . موقعة الاربس ونتائجها ، فرار الامير الاغلبي زيــادة الله وسقوط الامارة الاغلبية ــ اجراءات سريعة وهامة قبيل تحرير عبيد الله من سجنه في سجلماسة ــ اجراءات عبيد الله المهدي بعد وصوله الى رقادة ــ قيام الخلافة الفاطمية في المغرب ــ آفاق الفترة التالية .

اذا قصد بالتشيع اتجاه يقوم على حب آل البيت ، فمرجعه الى عصر الرسول (1) أما اذا اريد بالتشيع المبدأ السياسي المذهبي ، الذي تنتحله

---

1 ــ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 220 حيث يشير الى شتم عبيد الله المهدي لكل الصحابة ، ما عدا المقداد ابن الاسود ، وسلمان الفارسي وعمار ابن ياسر وابا ذر الغفاري ابن ابي الضياف : اتحاف أهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان 1 ، 121 ابن خلدون : المقدمة 197 ط 3 ، 1900 م ابن منظور : لسان العرب 10 ، 54 ــ 55 وفيه قوله : « والشيعة قوم يهوون هوى عترة النبي (صلى الله عليه وسلم) ويوالونهم . تاج الدين الحسيني : غاية الاختصار في أخبار البيوتات العلوية المحفوظة من الغبار 82 ، عبد المنعم ماجد ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر 75 ــ 76 هامش 1 الهمداني : الصلحيون والحركة الفاطمية 13 .

EI., Art Shia T 4 p. 362 Sq.

طائفة معينة من المسلمين يعـــرفون بالترابية (2) ، أو بالشيعـــة (3) أو العلويين (4) أو الطالبيين (5) ويقضي بحصر الامامة بعد الرسول فى علي بالنص ، ثم فى أبنائه وأحفاده (6) ، فيجب أن نبحث عن نواته الأولى ، غداة مؤتمر السقيفة وما تلاه من أحداث بلورت جميعها الاتجاه الشيعي وكونت من الشيعة هيئة دينية سياسية بينها تضامن عجيب وايثار لآل البيت لا يعرف الحدود .

أما هذه الأحداث فمن أهمها :

تنازل الحسن بن علي عن الخلافة بعد الاتفاق مع معاوية ، ثم قتل أخيه الحسين مع بعض آل بيته فى كربلاء ، 61 هـ / 680 م ، على يد رجال يزيد بن معاوية ، كما أن معركة الزاب (من روافد دجلة) التي جرت سنة 132 هـ / 749 — 750 م ووضعت نهاية لنظام الخلافة الأموية وفتحت المجال للرضا من آل البيت ، ثم فشل الانتفاضة التي تزعمها من فرع الحسن محمد النفس الزكية وأخوه ابراهيم ، للاحتجاج على استبداد العباسيين بالخلافة يعتبران من بين الأحداث التي بلورت الاتجاه الشيعي .

— أما كبرى هذه الحوادث وأهمها فهي الكارثة التي حلت بالعلويين وبآل الحسن خاصة غداة هزيمة فخ 169 هـ / 785 — 786 م ، التي وقعت فى عهد الخليفة الهادي العباسي (7) .

واذا كان اجتماع سقيفة بني ساعدة ترتبط به النشأة الأولى للتشيع باعتباره حركة سياسية مذهبية فانه أيضا تسبب فى بروز ظاهرة الغضب لخروج الخلافة من آل البيت الى غيرهم . ولأن حادثة كربلاء كانت نكبة فجع بها آل البيت جميعا حسنين وحسينيين ، فقد نتج عنها مع شدة

---

2 — نسبة لابي تراب وهو لقب شرفي اطلقه الرسول (صلى الله عليه وسلم) تكريما لعلي انظر : EI., Art Abu Turab T I p. 299 Sq.

3 — ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 166 .

4 — نسبة لعلي بن ابي طالب انظر : EI., Art Alides T I p. 299 Sq.

5 — نسبة لابي طالب وفى القلقشندي : قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان 157 — 166 توضيح لما يشمله مفهوم الطالبيين .

6 — احمد حميد الدين الكرماني : المصابيح فى اثبات الامامة 105 — 108 ، 109 . ط بيروت 1969 تحقيق مصطفى غالب الشهرستاني : الملل والنحل 1 ، 223 ط مصورة من الطبعة الاولى — بيروت ، ماجد نظم الفاطميين 1 ، 51 — 53 .

7 — الطبري : تاريخ الامم والملوك 8 ، 192 وما بعدها .

المرارة قوة الشعور بالتضامن والتنظيم للثأر ، ولارجاع الحق من مغتصبيه الى ذويــه (8) .

ولعل ذلك كان سر تلك الانتفاضات العلوية فيما بعد وكان فشل ثورة زيد بن علي في عصر هشام بن عبد الملك ، درسا قاسيا للعلويين استخلصوا منه العبرة والتصميم ، ولقد كانت معركة الزاب ثمـرة لوحـدة العمل وللتنسيق بين الهاشميين وقمة للنجاح السياسي الذي ادركه هؤلاء ضد الأمويين . والذي يلاحظ :

ــ أن استبداد العباسيين بالامامة استنادا على قاعدة شرعية تقدم العم وبنيه في الارث على أبناء البنات (9) في وقت كان فيه العلويون يرونها حقا لهم ، وراثة عن علي بن أبي طالب الذي حظي بها عن طريق النص من الرسول صلى الله عليه وسلم يوم غدير «خم»، منصرفه من حجة الوداع، أساء مرة أخرى الى مشاعر أهل البيت وحطم آمالهم ، وعمق الشعور بالمرارة عند سائر المتشيعين لهم ، لا سيما وقد تخيلوا نظرا لمنهج الدعوة ، واهدافها، وللظروف التي أحاطت بحياة العباسيين المندسين ، وكانوا حتى هذا الوقت مغمورين ، ونظرا لما كان يتمتع به العلويون من سمعة ومكانة وعطف عند جميع المسلمين ، تخيلوا أن الرضا من آل محمد سيكون من بـين اظهـر شخصياتهم ، وبالتالي به ، يعود الحق الى مستحقيه ويأخذ القوس باريها .

ولقد زاد من حدة غضبهم أن الاقرباء ، الذين استغلوا النسبة العامة في الدعوة ، لتحويلها اليهم والاستبداد بالخلافة دون عصبيتهم غدوا أشد تنكيلا ومراقبة ونكرا لهم من أعدائهم الامويين .

وهكذا حفل العصر العباسي الأول مثلما حفل العصر الأموي الأخير بانتفاضات علوية كانت تواجه بكل شدة وضراوة وينكل بزعمائها وانصارها في هذا العصر مثلما كان يحدث في العصر الأموي .

وان ظروف تصفية حركة النفس الزكية في عهد ابي جعفر المنصـور العباسي لا تختلف كثيرا عن ظروف تصفية الحركة التي تزعمها قريبه زيد بن علي في عهد هشام بن عبد الملك .

---

8 ــ ابن أبي زرع الفاسي : المصدر السابق 4 ــ 5 ط . حجرية . السلاوي : المرجع السابق 1 ، 65 ــ 67 ماجد : المرجع السابق والصفحة ، سرور : الدولة الفاطمية في مصر 19 ، ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 166 .

9 ــ الطبري : المصدر السابق 7 ، 425 ، 427 ــ 428 ، 431 ، ومن خطبة ابي العباس السفاح قوله : « خصنا برحم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقرابته وانشانا من آبائه وانبتنا من شجرته » . وفيه ايضا « رد الينا حقنا وارثنا » و « قاد الولاية والوراثة حتى انتهيا الينا » .

واذا كانت الانتفاضة الأولى قد تزعمها الفرع الحسني ، نصفة لآل البيت كلهم واحتجاجا ضد الاغتصاب ، ومجاراة لآمال ، وأهداف المتشيعين فان فشلها ان كان قد عمق الشعور بالمرارة التي كانت في نفوس العلويين وأنصارهم فانها من ناحية أخرى كانت حدا فاصلا بين عهدين : عهد الوحدة بين الحسنيين والحسينيين ضد العباسيين وعهد العمل الاستقلالي لكل فرع من هذين الفرعين .

واظهرت احداث هذه الانتفاضة أن اظهر شخصيات الفرع الحسيني وهو الامام جعفر (10) الصادق بن محمد الباقر (11) كان متحفظا وغير مؤيد للحركة ، ومن ثم لم يقم بأدنى دور سياسي ادراكا منه لطبيعة الظروف ولضرورة تغيير مناهج العمل والحركة ضد العباسيين (12) .

وتشير بعض النصوص ، الى مقدار جزع جعفر الصادق وهلعه لما أصاب بني عمه وأقرباءه فأرسل الى عبد الله بن الحسن ، رسالة تعزية تفيض بالالم والحسرة وتحث على التأسي بالأسلاف والاحتكام الى الكتاب المقدس والتفويض الى الله والتمسك بالصبر ومن ذلك قوله « فان كنت تفردت انت وأهل بيتك ممن حمل معك ، لما أصابكم فما انفردت بالحزن والغيظ والكآبة واليتم ، ووجع القلب دوني ولقد نالني من ذلك من الجزع والقلق وحر المصيبة مثلما نالك ، ولكن رجعت الى ما أمر الله وعزى به المتقين من الصبر وحسن العزاء » (13) .

10 ـ عن ترجمته انظر : ابن خلكان : المصدر السابق 1 ، 291 ابن طولون : الشذرات الذهبية في تراجم الأئمة الاثنى عشرية 85 وما بعدها
E.I. Djafar T I, p. 1021
الشهرستاني : المصدر السابق 1 ، 244 ، و ج 2 ، ص 2 .

11 ـ انظر عنه ابن طولون : المصدر السابق 81 وما بعدها .

12 ـ جمال سرور : المرجع السابق 15 ، ويؤيد ذلك عثورنا على رسالة منسوبة الى جعفر الصادق وجهها الى بني عمه الحسنيين يعزيهم عما صار اليه وضمهم على يد أبي جعفر المنصور . وعن نكبة بني الحسن انظر : اليعقوبي : تاريخه 3 ، 105 ـ 106، 111 ـ 112 الطبري : المصدر السابق 7 ، 539 ـ 541 ابو الفداء المختصر في اخبار البشر 2 ، 3 ـ 4 . ابن الوردي : تكملة المختصر 1 ، 195 .
M. Talbi : op cit, p. 561-62.

13 ـ زين الدين العاملي : التنبيهات العلية على وظائف الصلاة القلبية على مذهب الشيعة الاثنى عشرية ورقة 6 أ . خ تونس رقم 18335 وكان ضمن مخطوطات حسن حسني عبد الوهاب وآل الى المكتبة الوطنية ويقع ضمن مجموع ، وفيه مسائل عن التصوف . الطبري : المصدر السابق 7 ، 540 ـ 541 ، ولقد تاثر جعفر الصادق من حمل بني عمه الى العراق وبكى و « هملت عيناه حتى جرت دموعه على لحيته » وخاطب غلامه قائلا « واليه لا يحفظ لله حرمة بعد هؤلاء » ابو الفرج الأصفهاني مقاتل الطالبين 152 ـ 158 ويبدو أن خوف جعفر بن محمد بن علي نفسه وبنيه من انتقام ابي جعفر المنصور كان شديدا .

ـ وإذا كانت الثورة العلنية قد جربت أكثر من مرة ، وفشلت في انصاف آل البيت من العباسيين ، فان العبرة التي استخلصها ، هذا الامام العلوي جعلته يبدأ في نطاق الحيطة والحذر والسرية التامة ، بالدعوة لنسله ، من زاوية انشغاله أكثر وقته بالتعليم ، وبث آراء ، وعلوم أهل البيت في المدينة المنورة التي كانت مقصدا للمسلمين من اماكن مختلفة ، وقد التف حوله طلاب المعرفة ، وتكونت نواة للمدرسة الجعفرية التي شملت بعض رجال من أهل السنة غدت لهم فيما بعد شهرة في ميداني الفقه والحديث ، وأصبح لهم أتباع ومقلدون في بقاع مختلفة من العالم الاسلامي واظهرهم مالك بن أنس أمام دار الهجرة (14) ، الذي كثر أتباعه في بلاد المغرب والأندلس ومصر ، ثم جابر بن حيان وعبد الله ابن ميمون القداح وابو الخطاب محمد بن ابي زينب الأجدع الأسدي (15) .

وقد شاعت آراؤه في العقائد وفي الأحكام مثلما عرفت أيضا في أسلوب العمل السياسي والمذهبي ولخص الأخيرة منهما في قول جامع اصبح عقيدة شيعية راسخة وأساسا من أسس الدعوة عند الاسماعيلية بنوع خاص وهو قوله «التقية ديني ودين آبائي من لا تقية له لا دين له » (16) .

وعلى هدى هذا المبدأ مكن جعفر الصادق لنفسه ولعقبه من بعده في هدوء وسلم بين أوساط المثقفين وعامة المسلمين فأبعد عن بيته التبعة والظنة والملاحقة من طرف العباسيين .

ويظهر ان أسلوبه الهادىء كان محل اقتناع ورضا من العلويين المتنورين الذين بدءوا يتطلعون اليه اماما مفكرا ، وزعيما سياسيا ، وسندا قويا لكل حركة سلمية قد يقوم بها العلويون في المستقبل انما في نطاق مبدأ التقية والستر الذي أقره أسلوبا جديدا للتحرك السياسي .

غير أن فريق المتشددين من فرع الحسن بن علي ، وقد استبد بهم الغضب من فشل حركتهم الأخيرة بقوا على ولائهم للاسلوب القديم عسى أن تمكنهم الظروف من الانتقام للهزيمة ومن ارجاع حق آل البيت اليهم .

---

14 ـ كامل حسين : طائفة الاسماعيلية 10 .

15 ـ ابن طولون : المصدر السابق 85 الشهرستاني : المصدر السابق 2 ، 15 ـ 16 :
M. Talbi op cit, p. 562.

16 ـ كامل حسين : المرجع السابق 19 ، وعن شخصية جعفر الصادق العلمية واتفاق الشيعة حوله انظر : E.I. (Art Djafar) T I, p. 1021
ويضاف الى مبدأ التقيه مبدأ وجوب معرفة الامام واعتقاد امامته من طرف المؤمنين لان الانسان مكلف « بان يعرف حجة (الله) في ارضه وشاهده على خلقه فيعتقد امامته . انظر النعمان : تربية المؤمنين او تاويل الدعائم 20 وما بعدها ضمن منتخبات اسماعيلية نشرها عادل العوا » .

وقد تخيلوا أن الظرف ملائم ، غداة وفاة المهدي ، وبيعة ابنه الهادي بالخلافة في بغداد . فتزعم الحسين بن علي بن الحسن ، ثورة عسكرية اشترك فيها كثير من رجال الفرع الحسني . وعندما أخمدت الثورة وقتل في موقعة فخ 169هـ/ 785–786 م واشتد الأمر على آل الحسن وضيقت عليهم السبل ، فر ادريس ابن عبد الله بن الحسن ، وأخوه يحي خارج بلاد الحجاز (17) ، فكان لادريس الذي نفذ الى المغرب (18) ، دور كبير في أحياء مجد العلويين في بلاد قصية ،وفي الانتقام من العباسيين بتأكيد ظاهرة الانفصالية السياسية في أقصى بلادهم وكانت قد شاعت من قبل على أيدي اعدائهم الأمويين في الأندلس . أما يحي فلم يكن له شأن كبير في بلاد الديلم التي التجأ اليها لأنه سرعان ما انخدع للامان الذي منحه أياه الرشيد وظهر في بغداد .

وهزيمة فخ ان كانت قد ضاعفت من حدة الألم عند الحسنيين وأنصارهم لأنها قضت على آمالهم في اقامة دولة علوية في المشرق ووضعت مبدأ تشردهم في الآفاق البعيدة فانها من ناحية أخرى كانت ايجابية وطريقا الى المجد الذي أدركه سائر العلويين في المغرب . ويعتبر قيام دولة الادارسة في المغرب الأقصى أول نجاح للحسنيين يحمل في طياته الارهاص ، بنجاح فرع الحسينيين في اقامة أكبر دولة علوية في بلاد المغرب ، وهي الدولة الفاطمية .

وفيما بين هذين الحدثين قيام الادارسة وظهور الفاطميين ، ظهرت عدة انتفاضات علوية في بلاد المشرق كان مصيرها ، مثل سابقاتها (19) .

ومن بين الخلفاء العباسيين انشغل الرشيد بيحي بن عبد الله ، حتى تمكن منه ثم بأخيه أدريس ولم يطمئن باله حتى تخلص من مؤسس دولة الأدارسة العلويين عن طريق الغدر به ، بواسطة سليمان بن حريز الجزري من قبيلة

---

17 ـ البكري : المصدر السابق 118 ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 298 وهنا يلاحظ ان وقعة فخ كانت في عهد المنصور وان ادريس ويحي اخوان لمحمد النفس الزكية ولابراهيم وسليمان وعيسى ، ابو الفرج الاصفهاني : المصدر السابق 300 ـ 305 اليعقوبي : المصدر السابق 3 ، 137 الطبري : المصدر السابق 8 ، 192 ابو الفداء : المصدر السابق 2 ، 11 ـ 14 ابن الوردي : المصدر السابق 1 ، 202 ابن الساعي مختصر تاريخ الخلفاء 24 ـ 25 .

18 ـ نفسه 119 ـ 121 ولقي يومئذ من صاحب بريد مصر واضح مولي صالح بن المنصور معاملة حسنة ، لميله الى آل البيت فلما بلغ الرشيد خبره أمر بقتله وصلبه . الاستبصار (لمجهول) 194 الطبري : المصدر السابق 8 ، 198 ـ 199 ، 200 .

19 ـ المسعودي : مروج الذهب 2 ، 199 ط بولاق 1283 هـ ابن طباطبا : الفخري 201 ، اليعقوبي : تاريخه 3 ، 173 ، 229 ، 231 حسن ابراهيم الدولة الفاطمية 39 .

ربيعة وهو ممن عرفوا بميلهم لمذهب الزيدية وتمكنهم فيه (20) ، كما وقع التخلص من مولاه راشد بواسطة ابراهيم بن الأغلب لما أبداه من اهتمام بأمر العلويين واستمرار أثرهم ونفوذهم فى المنطقة (21) .

غير أن السكان ، وقد انزعجوا لحادث قتل ادريس تابعوا السير على هديه والتفوا حول ابنه من جارية بربرية تسمى (كنزة) وبايعوه باسم ادريس الأصغر تيمنا بأبيه ، وتأكيدا لولائهم له ولآل البيت وحرصا على استمرار النظام العلوي فى بلدهم (22) . فلم يسع الرشيد الا اقامة نظام سياسي ذي أساس عربي بجوار حدود دولة الادارسة ليكون حاجزا بينهم وبين العباسيين فى المشرق أو عائقا يعوقهم عن التوسع فى أرض المغرب الأوسط وافريقية ومركزا للدس والتآمر على حياة أمرائهم .

والخليفة المأمون ، من بين العباسيين فى العصر الأول ، هو الذي تظاهر بالعطف على قضية العلويين فأزال الضيم عنهم بل مهد الأمر الى أحد أئمتهم ، وهو على الرضا ، لكن تراجعه بسبب ضغط العباسيين يبعث على التساؤل اذا كان صادرا فى تصرفه تجاه العلويين عن اقتناع حقيقي ، وعقيدة بأنهم أهل للخلافة أو كان غرضه أن يظهر بقية زعماء العلويين المنبثين فى أرجاء الدولة أو أن يتأكد مبدأ الوصية التي أدعاها العباسيون ونسبوها الى أبي هاشم ابن محمد بن الحنفية قبل موته (23) ، ويؤيد هذا الافتراض ، موت على الرضا فى ظروف غامضة (24) ، واشارة المأمون لمبدأ الوصية .

---

20 — ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 298 وما بعدها ، ص 100 وما بعدها ويسمى الرجل « الشماخ » مثل البكري فى احدى روايتيه انظر ص 121 منه والشماخ من موالي الرشيد : المصدر السابق 122 ، القدسي : المصدر السابق 243 — 244 ابن أبي زرع : المصدر السابق 9 — 11 ، ابن الفقيه الهمداني : المصدر السابق 81 — 82 السلاوي : الرجع السابق 1 ، 69 — 70 ابن ايبك الدواداري : الدرة المضية 6 ، 16 .

21 — ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 101 ، 299 الاستبصار (لمجهول) 194 البكري : المصدر السابق 122 الاصطخري : المصدر السابق 45 السلاوي : المرجع السابق1، 1 ، 71 ابن أبي زرع : المصدر السابق 13 .

22 — السلاوي : المرجع السابق 1 ، 70 ابن ابي زرع : المصدر السابق 11 البكري : المصدر السابق 123 ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 101 — 102 ، 299 .
Charle Diehl et Marcais : Le monde orientale de 395 à 1081, T. 3, p. 422.

23 — الطبري : المصدر السابق 7 ، 421 .

24 — ابن طولون : المصدر السابق 97 وما بعدها ابو الفداء : المصدر السابق 2 ، 24 — 25 ابن طباطبا : المصدر السابق 198 — 100 اليعقوبي تاريخه 3 ، 176 — 177 ابن الساعي : المصدر السابق 39 — 41 .

وقد أوضح المعز لدين الله فيما بعد ، هذه القضية عندما طرحت للبحث بقوله « لن يكون الاعداء بالأعقاب أبدا أبدا ، لا ترجع القهقرى ، ولا تنتقل عن الذرية الى البعداء وكان ذلك داب أولياء الله (25) .

* * *

ـ والحادث الكبير الذي مني به فرع الحسينيين منذ وفاة الامام السادس جعفر الصادق (26) 148 هـ / 765 ـ 766 م .

هو الانقسام فى صميم بيته (27) وظهور حركة الجدل العنيف بين المتشيعين له حول النص عن الامام بعده .

ـ وقد اعتقد فريق من الانصار ، أن أبا الحسن موسى الكاظم (28) ، اصغر ابنائه هو الأحق بالامامة الكبرى التي يتوارثها عنه أبناؤه بمقتضى النص الجديد، من أخيه الأكبر سنا وهو اسماعيل، لأن جعفرا الصادق تراجع فى النص عن امامة الاخير ، وانشأ النص بالنسبة لموسى (29) ، بسبب استقامة سيرته عكس أخيه ، الذي انحرف ، وكان يد من على شرب الخمر ، ويتهافت على اللذة ويجالس المنحرفين والغلاة الذين لفظهم أبوه من قبل وتبرأ منهم بسبب دعاءاتهم الضالة ومن هؤلاء أبو الخطاب ورهط الخطابية الذين أرادوا أن يمثلوا مع جعفر الصادق نفس الدور الذي مثله من قبل بالنسبة لعلي بن أبي طالب ، عبد الله ابن سبأ ، ورهط السبائية (30) وقد مات أسماعيل فى حياة أبيه الذي كتب بذلك محضرا واشهد عليه عامل المنصور فى المدينة المنورة ومن ثم اقتضت المصلحة العليا ، لفرع الحسينيين ،

---

25 ـ النعمان : المجالس والمسايرات 1 ، ورقتا 324 ـ 326 خ مكتبة جامعة القاهرة رقم 26060 .

26 ـ اليعقوبي : تاريخه 3 ، 115 ـ 116 ، ابن الوردي : المصدر السابق 1 ، 196 .

27 ـ الشهرستاني : المصدر السابق 1 ، 223 كامل حسين : مقدمة المجالس المستنصرية أ ـ د ماجد : نظم الفاطميين 1 ، 9 .

E.I. (Art Djafar) T I, p. 1021.

28 ـ ابن طولون : المصدر السابق 89 وما بعدها وقد لقب « بالعبد الصالح » وقضى اكثر ايامه فى سجن المهدي والرشيد حتى توفي 183 هـ ابن طباطبا : المصدر السابق 196 وقد لاحظ انه « قتل قتلا خفيفا » كناية عن قتله بالسم ، أبو الفداء : المصدر السابق 2 ، 16 ابن الساعي : المصدر السابق 28 .

29 ـ الشهر ستاني : المصدر السابق 2 ، 5 .

30 ـ مرتضى العسكري : عبد الله بن سبا : حرص هذا المؤلف على مناقشة وتفنيد آراء المؤرخين حول شخصية ابن سبا ، ومن الاخير انظر الشهرستاني 2 ، 11 وعن آراء الخطابية انظر 15 ـ 16 منه عباس محمود العقاد : فاطمة الزهراء : 91 ـ 92 رشيد رضا : السنة والشيعة 4 وما بعدها الهمداني : المرجع السابق 15 .

التجديد فى النص ، لفائدة من يستطيع خدمة المبدأ وتسيير المجموعة الى ساحل الأمان ولو كان صغير السن ، وعلى هذا الراي فان الامامة تعاقب عليها بعد موت موسى الكاظم ابناؤه واحفاده ، حتى ولاية ابي القاسم محمد بن الحسن العسكري الذي اختفى فى سرداب فى مدينة سامرا،خوفا على نفسه من تنكيل العباسيين ولذلك يعرف بصاحب السرداب ويوصف بالحجة والقائم وصاحب الزمان أو امام العصر ، ولما اصبحت غيبته مستمرة أطلق عليها الغيبة الكبرى ، وبقي انصاره على اعتقاد انه حي ، لم يمت وانه سوف يظهر ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا . ومن ثم عرف بالمهدي المنتظر (31) .

وبسبب ترتيبه الخاص ، بين الائمة الموسوية أو الكاظمية عرف انصاره أيضا باسم الاثنى عشرية عند المؤرخين .

ويبدو أن استمرار غيبة محمد بن الحسن العسكري أضعف قوة انصاره وأصابهم بالوهن وجعل كثيرا من المتحمسين منهم للقضية الكبرى ، يولون وجوههم شطر ابناء عمومتهم من نسل اسماعيل بن جعفر الصادق ، وينضوون تحت لوائهم لا غرابة اذا اشارت بعض النصوص الى أن بعض دعاة ورجال الاسماعيلية كانوا فى بدء أمرهم من الموسوية ومن هؤلاء علي بن الفضل وابن حوشب ، والداعي أبو عبد الله والقاضي النعمان وغيرهم (32) .

ــ أما الفريق الآخر من بيت جعفر ، ومن انصارهم فقد اعتقد بأن النص الاول كان لفائدة اسماعيل وليس لأي كان ــ غير الامام ــ الرجوع فيه « لأن النص لا يرجع القهقرى (33) والقول بأن اسماعيل توفى فى حياة أبيه قد يكون مجرد اشاعة فقط قصد بها التمويه على العباسيين حسب مبدأ التقية الذي سنه جعفر الصادق سادس الائمة .

31 ــ ابن طولون : المصدر السابق 117 ــ 118 ابن خلكان : المصدر السابق 3 ، 316 الشهرستاني : المصدر السابق 2 ، 5 ابن خلدون : المصدر السابق 4 ، 29 وما بعدها ط . بولاق 1284 هـ وانظر المقدمة 201 ط 1900 م ، ماجد : نظم الفاطميين 1 ، 56 وما بعدها حسن ابراهيم : المرجع السابق 31 ، 35 سرور : المرجع السابق 16 ، النشار ، نشأة الفكر الفلسفي فى الاسلام ــ التشيع وتطوره 2 ، 355 ط 3 كامل حسين : المرجع السابق 11 ــ 13 يحي هويدي : المرجع السابق 1 ، 84 ــ 85 .

32 ــ ابن خلدون : المصدر السابق 4 ، 30 ، 32 ولاحظ ان عليا بن الفضل كان من كبار الشيعة باليمن وان ابا عبد الله الشيعي كان يعلم مذهب الامامية النعمان : افتتاح الدعوة ورقات 3 ، 4 ، 5 يحي بن الحسين غاية الأماني فى اخبار القطر اليماني 191 وما بعدها تحقيق سعيد عاشور 1968 حسن ابراهيم : المرجع السابق 36 .

33 ــ الشهرستاني : المصدر السابق ج 2 : 5 ، 27 . ط 1 .

وعلى فرض أن موته كان حقيقة ، فان حقه فى الامامة ثابت من بعده لأعقابه يتولاها أكبرهم سنا ، وكان محمد بن اسماعيل أكبر سنا من عمه موسى الكاظم (34) .

وقصة الانحراف الخلقي بالنسبة لاسماعيل ، اصطنعها انصار الموسوية ليتأكد حق امامهم فى النص ، وان صحت فقد تكون استمرارا للاخذ بمبدأ التقية ، حتى ينصرف عنه العباسيون ويأمنوا جانبه لأن جمهور العامة لا يقتدي بمثله .

وانتقال الامامة ان كان قد حصل فى وقت ما لفائدة موسى الكاظم بعد وفاة أخيه انما كان مؤقتا ، وعن طريق الوكالة وحفظ الأمانة استيداعا حتى تؤول الى صاحبها الشرعي استقرارا والأخير منهما وهو المستقر هو الذي له حق النص عنها وتوريثها لعقبه من بعده .

والسابقة التاريخية الكبرى هي احتفاظ الحسن بن علي بالامامة لفترة ، عن طريق حفظ الوديعة لأخيه الحسين ، الذي ناضل فى سبيل تحقيقها (35)، وقد تأكد مبدأ الاستيداع والاستقرار وشرحه المعز لدين الله شرحا وافيا فى أحد مجالسه بقوله : « لم يلها من أهل البيت ، من غير الاعقاب المتصلة ، الا مستودع عندهم غير مستقر فيهم الا أن يستحق ذلك مستحقه فيأخذه من أيديهم » 0 وزاد الامر توضيحا بقوله « فليس المستقر كالمستودع ، ولا الوكيل كالموكل ولا الموصي كالموصى عليه ، ولا له أن يملك شيئا مما له فى يديه هي أمانة الله التي قد استحفظها ووديعته التي أودعها (36) .

ومن هذا النص الهام ، يفهم أن موسى الكاظم واعقابه لم يكن لهم حق فى الامامة أصالة فى نظر الاسماعيلية رغم ادعائهم ومحاولتهم التفرد بها دون أصحابها الشرعيين الذين هم أعقاب أسماعيل بن جعفر الصادق ، من محمد

---

34 ـ نفسه انظر 28 منه : النعمان : المجالس 1 ورقة 224 ـ 226 الكرماني : المصابيح 128 ـ 139 وقد خصص المصباح السادس لاثبات الامامة لاسماعيل بن جعفر وذريته من بعده دون اخوته وأيد ذلك بسبعة براهين ، ماجد : نظم الفاطميين 1 ، 61 .

35 ـ كامل حسين : المرجع السابق 12 ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 1 ، 15 ـ 16 ط 1967 هويدي : المرجع السابق 1 ، 84 ـ 85 النشار : المرجع السابق 2،502 ـ وما بعدها ابن خلدون : المقدمة 201 حسن ابراهيم : المرجع السابق 38 ، العزيزي الجوذري : سيرة جوذر ، 82 وفيه قوله : «خالص الذرية» انظر تعليق 89 .

36 ـ النعمان : المجالس 1 ، 335 ـ 336 ولعل مصطلحات الاستيداع والحجة والأمين وباب الله مصدرها قول جعفر بن محمد « فنحن باب الله وحجته وامناؤه على خلقه حفظة سره ومستودع علمه » انظر النعمان الهمة فى آداب اتباع الائمة 78 ـ 79 وكان عبد الله بن المعز ولي عهد المسلمين وحجة ابيه فلما توفي بمصر 364 هـ انشىء النص بالنسبة لاخيه نزار ، فانتقلت الامامة مرة ثانية الى الاعقاب استقرارا . والمعز لدين الله هو المسؤول على هذا التغيير بسبب حادث الموت ، انظر : العزيزي : سيرة جوذر 136 المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،217،228 ـ 229 .

اول أئمة الستر ، الى عبيد الله آخرهم لأن الامامة لا يستحقها غير الاعقاب الا على اساس واحد هو حفظها حتى يطلبها صاحبها ورعاية شئونها حتى يرشد من هو أهل لها .

وأعقاب اسماعيل وأنصاره هم الاسماعيلية ولكونهم أعتقدوا انه الامام بعد جعفر الصادق سادس الائمة ، عرفوا بالسبعية وقولهم بالتأويل (37) ، وبأسلوب العمل السري اكسبهم لقب « الباطنية » ولأهمية النسب فى حياتهم السياسية والمذهبية حرص فريق من الاسماعينية على أن يعرفوا بالعلويين ، أو بالفاطميين ، وحرص غيرهم من الأعداء على انكار ذلك (38) ، فأطلقوا عليهم اسم العبيديين وهذا الاسم الأخير هو الشائع على الألسنة وفى الكتابات التاريخية فى بلاد المغرب حتى أنه يوجد من المؤرخين من اسس عمله ، على هذا اللقب ومن هؤلاء ابن حماد الصنهاجي الذي ينسب اليه تاريخ بني عبيد (39) ، وكان ابن حزم قاسيا فى حكمه على الاسماعيلية عندما رماهم بالمجوسية واباحة الاشتراك فى النساء والأموال فى قوله «الاسماعيلية والقرامطة طائفتان مجاهرتان بترك الاسلام جملة ، قائلتان بالمجوسية المحضة ثم مذهب مزدك الموبذ، الذي كان يقول بوجوب تأسي الناس فى النساء والاموال» (40) أما أغلب المعتدلين من أهل السنة فيكتفون فقط بالطعن فى نسبهم العلوي . ولو أن البعض يصف الاسماعيلية بالملاحدة أيضا (41) ، وهو وصف يعني

---

37 — العزيزي : المصدر السابق 93 وهنا يخاطب المعز جوذر بقوله « حتى تشاهد معنا حج بيت الله الحرام ظاهرا كما حججته باطنا » انظر : تعليق 99 منه الشهرستاني 2 ، 29 E.I. Art Batinia T I, p. 697. والكلمة تطلق فى ميدان التصوف ايضا ويلاحظ الشهرستاني ان الباطنية يعتقدون بان لكل ظاهر باطنا ولكل تنزيل تاويلا : 2،29 .

38 — ماجد : نظم الفاطميين 1 ، 9 الشهرستاني : المصدر السابق والصفحة . السيوطي تاريخ الخلفاء 278 — 279 الشرقاوي : تحفة الناظرين ورقة 58 خ مكتبة جامعة القاهرة وتعني كلمة الفاطميين النسبة الى فاطمة بنت الرسول ، أو بنت اسد ، وهي أم علي ، أو الى فاطمة بنت الحسين والأول أرجح انظر : ماجد : ظهور خلافة الفاطميين 88 هامش 1 ، نظم الفاطميين 1 : 8 — 10
E.I. (Art Fatimides) T 2, p. 870 s q, 2 édition.

39 — ابن ابي الضياف : المصدر السابق 1 ، 120 ماجد : ظهور خلافة الفاطميين 88 هامش 2 السيوطي حسن المحاضرة 2 ، ص 2 ، 13 ، 19 حسن حسني عبد الوهاب خلاصة تاريخ تونس 94 وما بعدها ابن عذاري 1 ، 362 .

40 — ابن حزم : الفصل فى الملل والاهواء والنحل 2 ، 116 ط مصورة عن ط الأولى .

41 — ابن الشحنة : الدر المنتخب فى تاريخ حلب 264 — 265 E.I. Art Batinia T. I, p. 697. والباطنية من يعتقدون أن لكل نص باطنا يدركه الخاصة من الناس بطريق التاويل وهؤلاء يسقط عنهم التكليف بخلاف الجهال وقد لقبوا بالسبعية لقولهم أن أدوار الامامة سبعة والانتهاء الى السابع هو آخر الدور ولان تدبير العالم السفلي منوط بالكواكب السبعة واعلاها زحل ، كما عرفوا بالتعليمية لان مذهبهم دعوة الخلق الى التعلم من الامام المعصوم وابطال الراي واستخدام العقل انظر : ابو حامد الغزالي : فضائح الباطنية 11 — 17 يحي بن حمزة العلوي : الافحام لافئدة الباطنية الطغام 22 — 23 وقارن ذلك بما ورد فى مقال الباطنية :
E.I. Art Batinia T I, p. 1131-32, 2 édition.

الخروج عن الاسلام ومهما يكن من خلاف ، وتنافر بين الموسوية والاسماعيلية فإن القدر المشترك بينهما ظل دائما ؛ هو العداء للعباسيين والمحبة الشديدة لجعفر الصادق الذي بقي قدوة الجميع ورمز الوحدة السياسية والفكرية ، ومصدر الالهام ، سواء فى العقائد أو فى أساليب العمل السياسي . غير أن طائفة الاسماعيلية مكنها الفراغ السياسي الذي تركه آخر الأئمة الاثنى عشرية ومبدأ التقية الذي اقره جعفر الصادق كطريق سليم للدعوة لصاحب الزمان ، من أن تظهر فى ميدان العمل وتحرز انتصارات كبرى . واول ائمة دور الستر ، وهو محمد بن اسماعيل طبق فى حياته مبدأ التقية وأحاط تحركاته بالكتمان حتى عرف بالامام المكتوم (42) ، ولكي يتمكن من تحقيق هدفه البعيد غادر المدينة المنورة ، مركز انصار الشيعة الامامية لأنه معروف فيها الى التطواف فى ارجاء المشرق الاسلامي حتى انتهى الى مدينة سملا (محمد آباد فيما بعد) (43) ، وهناك بدأ ينشر بواسطة دعاته وحجته ميمون آراء الاسماعيلية التي وجدت صداها بين قوم الفوا من قبل نظام الوراثة فى الحكم واستمر مبدأ سرية الدعوة واختفاء الائمة بعد وفاته حتى عرف خلفاؤه الثلاثة المباشرون له بلقب « المستورون فى ذات الله » (44) ، واصبحت سلمية فى عصر هؤلاء دار هجرة للاسماعيلية وللامام المستور ومركز جذب للانصار ، وانطلاق للدعاة فى آفاق العالم الاسلامي وفى جزره المختلفة(45).

وظهرت الثمرة الأولى لنجاح حركة الدعوة فى البحرين وفى بلاد اليمن حيث ظهر القرامطة الموالون للدعوة الذين قاموا بحركات ثورية ضد مراكز النفوذ العباسي وسيطروا على طريق الحج فيما بعد واقتلعوا الحجر الأسود من مكانه امعانا فى احراج العباسيين (46) ، واظهارا لعجزهم عن حماية

---

42 ـ ابن خلدون : المصدر السابق 4 ، 30 ط بولاق ، المقدمة 201 المقريزي : اتعاظ الحنفاء 1 ، 16 هامش 2 ماجد : ظهور خلافة الفاطميين 82 .

43 ـ سرور : المرجع السابق 17 كامل حسين : المرجع السابق 16 .

44 ـ ابن ايبك الدواداري : الدرة المضية فى اخبار الدولة الفاطمية (ج 6 من كنز الدرر)4 ماجد : المرجع السابق والصفحة ابن خلكان : المصدر السابق 1 ، 272 ـ 273 .
Diehl et Marcais op, cit T 3, p. 425.

45 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، 1 ، 60 كامل حسين : المرجع السابق 17 وما بعدها سرور : المرجع السابق 18 مقدمة المجالس المستنصرية ج هامش 2 ويستظهر الامام بالحجج وهؤلاء بالمأذونين ويلازم الامام اربعة من الدعاة . ويستعين الدعاة بالاجنحة فى التبليغ . وعما يشترط فى كل من الداعي والمأذون والجناح انظر : يحي بن حمزة العلوي : الافحام لافئدة الباطنية الطغام 60 .

46 ـ ابن طباطبا : المصدر السابق 258 ، 262 المقريزي : اتعاظ الحنفا 1 ، 182 عريب بن سعد صلة تاريخ الطبري 70 ـ 71 ابن كثير البداية والنهاية 11 ، 160 ط 1966 .

الحرمين المقدسين امام المسلمين كما تمكن منصور اليمن بن حوشب ورفيقه علي بن الفضل الجيشاني من اشاعة النفوذ الاسماعيلي في بلاد اليمن وتصفية نفوذ العباسيين والأسرات السنية التابعة لهم ومنهم بنو يعفر في صنعاء .

ـ واذا كانت سلمية قد اكتسبت اهميتها من كونها دار الهجرة الأولى ومقر صاحب الزمان والمدرسة الأولى لبث آراء وعلوم آل البيت كما يفهمها دعاة الاسماعيلية فان بلاد اليمن في عهد ابن حوشب ، ورفيقه ابن الفضل ، سرعان ما ظفرت بمكانة بارزة في الدعوة وفي الاشراف عليها في مناطق كثيرة ، من بينها المغرب الاسلامي الذي انطلق اليه دعاة الاسماعيلية من مدرسة الدعوة في بلاد اليمن بتزكية أبي القاسم الحسين بن فرج بن حوشب بن زاد ان الكوفي الذي اشتهر بلقب منصور اليمن (47) وعرف بفجر الدعوة أيضا .

* * *

وفي مجال البحث عن بذور حركة التشيع وعن كيفية تسرب الدعوة الاسماعيلية الى بلاد المغرب نشير الى ما تمتعت به شخصية علي بن أبي طالب (48) ، عند جميع المسلمين في المغرب من محبة وتقدير كمجتهد في الراي وكولي من أولياء الله ، وفارس مظفر حتى أن جهوده أثناء حركة نشر الاسلام ضد قريش وضد اليهود في خيبر وغيرها من واحات شبه الجزيرة ، يتغنى بها عامة المسلمين في هذه البلاد ، حبا في الفروسية واعجابا بالفرسان .

وجاء حادث قتله غيلة وظلما ليرفعه الى مقام رفيع هو مقام الشهداء .

وجمهور العامة في هذا الوقت يروون عن (السيد علي ، أو علال) كثيرا من الخوارق كما يخلعون عليه لقب « حيدر » (49) ، ويسمون فرسه باسم السرحان ، الذي يعتقدون انه لا يغلب ، وان مصدر نبات النرجس من لعابه وصورته وحده ، أو مع ابنيه الحسن والحسين ، ثم وهو ركب على جواده تنتشر في الأسواق ويتبرك الناس بتعليقها على جدران البيوت .

---

47 ـ النعمان : افتتاح الدعوة : ورقات 2 ـ 11 ، 14 ابن الاثير : المصدر السابق 8 ، 10 المقريزي : المصدر السابق 1 ، 51 ، سرور : المرجع السابق 18 ، اليماني : بهجة الزمن في تاريخ اليمن 38 ـ 40 الهمداني : المرجع السابق 25 وما بعدها .

48 ـ وعن تصور الشيعة له فارسا شجاعا ووليا واماما مقدسا ثبتت أحقيته في الامامة بالنص عليه يوم غدير خم انظر : E.I. Art Ali, T I, p. 286.

49 ـ ابن طولون : المصدر السابق 47 وهنا ذكر حيدرة ضمن القاب علي ويلاحظ ان اللقب شائع في بلاد المغرب ، وقد اشتهر به من الادارسة علي بن محمد ابن ادريس انظر السلاوي : المرجع السابق 1 ، 76 ويوصف علي بالوصي أيضا ، ابن الخطيب : رقم الحلل في نظم الدول 30 وفيه قوله :

وصير الدعوة بعد قصص — الى عبيد الله من آل الوصي

وعلى ذلك ومن زاوية حب الناس لعلي للاعتبارات السابقة ، أصبح تقدير آله وسائر بني هاشم سنة متبعة وقدرا مشتركا بين مجموع سكان بلاد المغرب السنيين بل ان الانتساب اليهم يعد شرفا ، ومفخرة كبرى . ويكثر اسم علي في هذه البيئة عكس اسم معاوية الذي لا يسمى به الا ندورا .

ويعتقد كثير من الناس أن علامة الخمسة ، وهي صورة الكف ، التي ترمز فيما يبدو الى آل البيت أو أصحاب الكساء مفيدة في الوقاية من شر العين والحسد .

وجل قصائد القصاص الشعبيين في الأسواق تدور حول بطولات علي بن ابي طالب الذي غدا الصورة النموذجية لكل الفرسان والأبطال .

وخطباء المساجد ، أيام الجمع والأعياد ، يبدؤون بالصلاة على النبي وآله قبل بقية الصحابة الكرام .

ويشير ابن أبي الضياف (50) الى مدى ما يكنه مسلمو المغرب جميعا من محبة لعلي وآله جبلة في طباعهم في قوله « وأهل افريقية يدينون بحب علي وآله ، يستوي في ذلك عالمهم وجاهلهم جبلة في طباعهم » وبعد أن يؤيد ذلك ، بأن النساء الحوامل في افريقية والمغرب ينادين عند الوضع يا محمد ياعلي ، لتسهل الولادة وبأن أبا الحسن الشاذلي الامام المتصوف وصاحب الطريقة الشاذلية كان يوصي أصحابه ومريديه بقوله : « اذا اشتد عليكم كرب فقولوا يا محمد يا علي » يلاحظ أن هذه العاطفة الجياشة نحو علي وآله لا تعتبر تشيعا أو رفضا (51) بالمعنى المعروف لأن مسلمي المغرب لا ينكرون فضل الصحابة الآخرين .

---

50 ـ ابن ابي الضياف : المصدر السابق 1 ، 121 وحب المغاربة للعلويين ظهرت آثاره في عدم اقتناعهم باتجاه الطعن في نسب الفاطميين واصداء ذلك تظهر عند المؤرخين المغاربة كما تظهر عند بعض من تأثر بهم واخذ عنهم من مؤرخي المشرق ، انظر الباجي المسعودي : الخلاصة النقية ورقة 30 ا ، الذي ذكر نسب المهدي على الصورة العلوية الصحيحة كما يعتقدها الفاطميون وعقب بقوله : « ولا عبرة بمن انكر هذا النسب ولا بالمحضر الذي كتب في عهد القادر بالله » .

51 ـ والرافضة هم الذين رفضوا زيد بن علي لاعترافه بامامة الشيخين (أبى بكر وعمر) وقوله بجواز امامة المفضول مع وجود من هو افضل منه ، انظر الشهرستاني : المصدر وبهذا المعنى وردت في ابن رسته الاعلاق النفسية 218 ـ 219 ط ليدن 1891 السيوطي تاريخ الخلفاء 227 ويسمى الدولة الفاطمية « دولة الرفض » ابن كثير : المصدر السابق 11 ، 179 وما بعدها وهنا يطلق على الفاطميين لقب « الادعياء » مثل القضاعي ، ابو المحاسن : المصدر السابق 4،70 ويصفهم بالرفض والادعياء معا «نقلا عن الذهبي» ابن عذاري 1،414 ويصفهم بالرافضة (نقلا عن ابن القطان) .

وقد يقال أن هذه كلها من مخلفات الدعوة الاسماعيلية ومن اثر نشاط الفاطميين فى نشر الدعوة بين جمهور المغاربة لكن يبدو من المقبول أن تكون أيضا رواسب قديمة من عصور الاسلام الأولى احتفظت بها بيئة المغرب التي أخذت بمبادئ الاسلام على بساطتها الأولى اي قبل أن يدخلها تحريف أهل الأهواء والفرق الاسلامية .

ولا يستبعد أن يكون مذهب مالك بن أنس امام دار الهجرة وهو الذي يأخذ به كافة مسلمي المغرب باستثناء الخوارج . وهو نتاج بيئة المدينة المنورة وهي مهد الاسلام الاول ، ومقر لكثير من العلويين ، أحد العوامل فيما يكنه أهل السنة فى المغرب لآل البيت من تقدير خاص ، وسر ذلك فيما يبدو يفهم على ضوء معرفة صلة مالك بأشهر ائمة الاسماعيلية وسادسهم وعالمهم ، جعفر بن محمد الباقر ، فقد أخذ مالك عنه وتأثر به واعتبر من أقرب المقربين اليه ومن المؤيدين لنشاط العلويين ولنضالهم من أجل حقهم الشرعي ، حتى امتحن فى سبيل ذلك ، على يد أبي جعفر المنصور (52) ، وشبيه بهذا الوضع ما لقيه فيما بعد ادريس بن عبد الله فى بيئة المغرب الاقصى ، من تأييد ومساندة أبي ليلى اسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي لأنه كان يرى رأي المعتزلة وهؤلاء كانت صلتهم بالزيدية قوية (53) عن طريق تأثر زيد بن علي أمام الزيدية وهو مذهب الادارسة برئيس المعتزلة ، وعالمهم واصل بن عطاء (54) (ت 181 هـ / 797 م) .

واستمر الدعم ، وقويت مساندة سكان المغرب الاقصى للادارسة ، نظرا لأنهم علويون ومن نسل شريف ولأن نهجهم كان زيديا ، أي معتدلا فى العقائد وفى قضية الامامة الكبرى ، ونفس المساندة لقيها هؤلاء من جمهور السنة لما بين مذهب زيد بن علي ومذاهب أهل السنة من تقارب فى طريقة اختيار الامـــام .

والحب والتقدير لآل البيت ، هو الذي جعل مسلمي البربر ، بترا وبرانس ، يتحمسون لقضية ادريس بن عبد الله ويقدمون مساعدتهم له

53 ـ ابن الفقيه : المصدر السابق 84 ، المقدسي 237 ـ 238 .

54 ـ عن ترجمة واصل بن عطاء انظر ابن خلكان : المصدر السابق 5 ، 60 الشهرستاني : المصدر السابق 1 ، 207 ـ 208 ، محمد عبد الله ماضي : دولة اليمن الزيدية 21 ـ 22 مقال ـ المجلة التاريخية المصرية المجلد 3 ، مايو 1950 ويشير كاتب المقال الى تاثر زيد بن علي بابي حنيفة فى ميدان الفروع ، وكان الاخير يؤيد قضيته ويسانده ، سياسيا وماديا ويتعاطف مثل مالك بن انس مع العلويين اما صلة زيد بواصل بن عطاء ، فلم تكن محل رضى من طرف اخيه محمد الباقر .

حتى تمكن من تأسيس ملك وراثي ، يعتبر أول تجربة سياسية ناجحة للعلويين ، على مستوى العالم الاسلامي مشرقه ومغربه .

والادارسة الحسنيون ، باعتبارهم علويين ، أصبحوا مركز جذب لكل المحبين لآل البيت . ويلاحظ ان اختلاطهم بالسكان عن طريق المصاهرة والجوار واحتفاظهم بمذهبهم الزيدي مع ترك رعاياهم فى اطار المذهب السني ، ثم سلوكهم سبيل الدعوة السلمية الهادئة لآل البيت .

هذه العوامل كلها كانت سبب بقائهم فى المنطقة لمدة طويلة ، حتى اصبحوا « بلديين » أو مواطنين وقد اكتسبوا ذلك أيضا عن طريق أمهاتهم وزوجاتهم من بين السكان . وهنا يفهم لماذا انتشرت فروعهم فى أرجاء من المغربين الأوسط والأقصى بين مضارب البتر ومضاب البرانس أيضا ؟ ولماذا تصدوا للفاطميين وللامويين أيضا ، ونازعوهم فى السيادة على المنطقة لفترة غير قصيرة ؟

واغلب الأسرات الكبيرة فى المغرب تفتخر حتى الآن بنسبها الحسني الشريف وتتخذ السمات والأسماء التي تشير الى ذلك .

ولولا غلبة الروح الاقطاعية على الاسر الادريسية بعد اختفاء ادريس الثاني (55) ، حيث قام ابنه محمد بتأثير نصيحة جدته كنزة ـ بتقسيم المملكة سنة 213 هـ / 828 م ـ 829 م على اخوته : القاسم ويحيى وعيسى وعمر وحمزة وعبد الله واحتفظ لنفسه بفاس حيث كثر النزاع وفشت الانفصالية والحروب بينهم (56) لولا ذلك ، اكان فى امكان المملكة الادريسية الموحدة أن تملأ الفراغ السياسي فى المنطقة بنفسها ، وتواجه كيد الامويين وتآمرهم على سكان البلاد خدمة لأهداف استراتيجية ثم تقف أيضا عائقا كبيرا فى سبيل توسع الفاطميين وانتشار نفوذهم حتى اقصى بلاد العدوة الدنيا .

وهكذا غدا الادارسة ، فى عصر صراع الامويين والفاطميين على السيادة اما مجرد تابعين خانعين لا شركاء محظوظين ، أو مشردين فى الآفاق من بطش أولئك أو هؤلاء .

---

55 ـ البكري : 124 ابن عذاري المصدر السابق 1 ، 299 ـ 300 ، 133 .
Diehl et Marcais op, Cit T 3, p. 423.

56 ـ اليعقوبي : المصدر 108 ولقد لاحظ اليعقوبي هذه الظاهرة وسجلها بقوله و « فاس بها يحي بن يحي بن ادريس وعلى الجانب الغربي من نهر فاس المدينة التي تسمى مدينة اهل الاندلس ينزلها داوود بن ادريس وكل واحد من يحي بن يحي وداوود بن ادريس ، يخالف على صاحبه يدافعه ويحاربه » ابو الفداء : المصدر 2 ، 32 ، 73 .

ولئن كان للادارسة نقط ضعف بارزة فى تاريخهم السياسي ، فان أهميتهم تظهر فى كونهم التجسيد الحقيقي لآمال أهل البيت ، ولكل انصارهم ، وقد مارسوا لأول مرة منذ انتهاء عصر الفتح الاسلامي فى البلاد فى عهد ادريس الثاني ، حركة تبشيرية أعادت الى الاذهان سيرة جدهم علي بن أبي طالب ، وهو يقاتل مشركي قريش أو اليهود فأحبهم جمهور السكان واحاطوهم بهالة من التقديس ، كالتي أضفوها ويضفيها على جدهم الشيعة حتى اليوم .

ويبدو أن عمل الادارسة فى هذا الميدان ، سهل مهمة الفاطميين الذين وجدوا النفوس مستعدة لتقبل أية حركة جديدة تنتسب الى آل البيت ، والبيئة صالحة للبذر الطيب كالذي زرعه ورعاه الادارسة الحسنيون .

ولولا دسائس الامويين الذين استغلوا النعرات القبلية بين البتر والبرانس وقسموا السكان الى مشايعين للفاطميين ، ومعارضين لهم ، مثل قبائل زناتة لوقف الجميع أيضا الى جانب الفاطميين الحسينيين ، صفا واحدا مثلما وقفوا هذا الموقف الى جانب الادارسة الحسنيين .

* * *

ـ ويذكر بمجد العلويين فى بيئة المغرب الاوسط والاقصى مجموعة من المدن والمراكز تنسب لبني سليمان، أو لبني محمد أو لأقربائهم الادارسة (57) وتبدأ بانتهاء حد اقليم الزاب حتى المغرب الاقصى (58) وقد أشار أقدم رحالة زار المنطقة فى القرن 3 هـ وهو ابن واضح اليعقوبي الى جملة من هذه المراكز وأهمها :

ـ امارة هاز (قرب المسيلة) وتلي منطقة الزاب غربا وسميت باسم كبريات المدن فيها وهي هاز وكان يسيطر عليها الحسن بن سليمان بن سليمان بن الحسين بن علي وتشتمل على عدة قرى ومنازل لبني برنيان من بتر زناتة ، وأخرى لعناصر من زواوة وصنهاجة من البرانس المستقرين الذين وصفوا فى عصر الرحالة بأنهم « أصحاب عمارة وزرع ، وضرع » .

ولاحظ أن السلام وحسن الجوار كانا سائدين بينهم وبين بني برزال وبني دمر الاباضية على ما كان يوجد بينهم من خلاف اجتماعي ، ومذهبي بسبب أن هؤلاء الشراة كانوا مثل فروع زناتة بدوا ورعاة . كذلك سادت

---

57 ـ سليمان ، ومحمد من اخوة ادريس وهم ابناء عبد الله بن حسن انظر البكري : المصدر 122 ابن عذاري 1 ، 298 .

58 ـ اليعقوبي : المصدر 103 وما بعدها .

العلاقة الحسنة بين سكان امارة هــاز ، وسكان الحصون الاخرى المجاورة لها ، وكانوا من أهل السنة والجماعة ومن أهمها حصـــن ابن كرام (59) .

ــ وتلي امارة هــاز عبر طريق كله حصون لفروع قبيلة زناتة ، منطقة متيجة وسميت بذلك نسبة لاهم مدن المنطقة التي اندثرت الآن ، وكانت تعرف ايضا بفزرونة (60) . وهذه الجهة كانت مركزا لنفوذ بني محمد بن جعفر الحسني .

ــ ثم حوض الشلف الذي يشقه نهر شلف اكبر أنهار الجزائر وتوجد فيه عدة مدن ومراكز منها مذكرة الذي يعتقد انها بجوار مليانة الآن ثم مدينة الخضراء التي سميت بذلك لكثرة بساتينها وتعتبر منفذا لمدينة تنس الآن علي البحر وكان سكانها في عصر البكري خليطا ، من مطغرة وبني دمر ، ومديونة وبني واريفن وهي تفصل مدينة تنس عن مدينة اغزر العلوية في متيجة ، وليس بينها وبين قرية بني واريفن الا مرحلة قصيرة (61) وبجانب هاتين المدينتين توجد قرى ومراكز علوية متصلة تغلب عليها فرع بني محمد بن سليمان ونشروا فيها نفس الروح الاقطاعية التي سادت مراكزهم في المغرب الاقصى . وقد اختلط هذا الفرع بسكان الجهة وعمق صلاته بهم عن طريق المصاهرة ، ولذلك لاحظ الرحالة كثرة عدد العلويين في الجهة ، ووضوح تأثيرهم على السكان بسبب قرابتهم من الرسول صلى الله عليه وسلم ، لدرجة أن الناحية كلها تعرف باسمهم وتنسب اليهم « وكل رجل منهم مقيم متحصن في مدينة وناحية » (62) .

ــ وعلى الطريق الذي يؤدي الى تاهرت الرستمية ، توجد مدينة سوق ابراهيم ، وقد سيطر عليها فرع علوي من بني الحسن ، أولهم ابراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله ، وكانت هذه المدينة كبيرة وآلت بعد وفاة ابراهيم الى ابنه عيسى (63) .

ــ وتوجد مراكز علوية على طول الطريق من تاهرت الى مدينة تلمسان ومنها الى ساحل المغرب الاقصى أهمها :

---

59 ــ البكري : المصدر 60 ــ 61 وسمى الحصن هنا قرية سوق كرام .

60 ــ نفسه 61 .

61 ــ نفسه 75 ــ 76 ، الاستبصار (لمجهول) 171 ابن حوقل : المصدر 89 .

62 ــ اليعقوبي : المصدر 104 .

63 ــ اليعقوبي 104 ابن حوقل : المصدر السابق 89 المقدسي : المصدر 29 ، 217 ، 218 ابن الفقيه 81 ، 82 .

امارة تمطلاس ، في مضارب مطماطة ، وغيرها من فرع البتر ، وكانت مركزا كبيرا يتجمع فيه الحسنيون من بني محمد بن سليمان ، كما يوجدون في المدينتين المجاورتين لها وهما :

— ايـزرج ، من مضارب مطماطة التي أشار بعض الجغرافيين والرحالة الى أن حاكمها في عهده كان يعرف ابراهيم بن محمد البربري المعتزلي (64)، ولا يعني هذا سوى ما لاحظناه من قبل عن اختلاط العلويين بالبربر وصلتهم بالاعتزال .

— ثم المدينة الحسنة ، وكانت في عهد اليعقوبي تحت نفوذ عبيد الله من بني محمد الحسنيين وتليها مدينة تلمسـان « دار مملكة زنـاتة » وكانت هي وناحيتها منطقة نفوذ للعلويين استبد بها منهم ، محمد بن القاسم بن محمد بن سليمان الحسني (65) ، ومن نسله عيسى أبو العيش الذي اختط مدينة جراوة بقرب البحر (257 هـ / 870 — 871 م) واستقر فيها هو وابناؤه حتى 325 هـ / 936 — 937 م (66) .

— ومن مراكز العلويين في ناحية تلمسـان (مدينة العلويين) وكانت مركزا كبيرا لبني محمد بن سليمان ثم هجروها ، فاستبد بأمورهم أحد أمـراء زناتة وهو علي بن حامد بن مرحوم (67) ، وهي على مسافة يسيرة من تلمسان وتعرف بصبرة أيضا (68) . وهي توجد على الطريق بينها وبين مركز علوي آخر ، هو مدينة نمـالتة ، التي استبد بشؤونها محمد بن على محمد بن سليمان الحسني ، وتعرف الآن مغنية وهي على هامش حدود مملكة الادارسة بفاس (69) وشهرتها الآن انها مركز قريب لمدينة وجدة المغربية ، وبقربها مرصد للمسافرين .

— ثم مدينة فالوسن ، وكان سكانها اخلاطا من البتر والبرانس ، وتمثل بموقعها تقريبا الحد الذي تنتهي عنده مراكز العلويين في المغرب الاوسط ، بحيث لا تليها الا امارة نكور (70) وهي لبني سعيد بن صالح ،

---

64 — ابن خرداذبة : المصدر 86—87 .

65 — اليعقوبي : المصدر 107 ابن عذاري 1 ، 282 وما بعدها .

66 — البكري : المصدر 77 ابن عذاري : المصدر 1 ، 277 .

67 — اليعقوبي نفس المصدر والصفحة البكري : المصدر السابق 71 يذكر مدينة بهذا الاسم بقرب وهران .

68 — ابن حوقل : المصدر السابق 88 .

69 — نفسه ويلاحظ ان تحديده للمسافة بينها وبين فاس بمرحلة لا تمني غـير ذلك اليعقوبي : المصدر 107 وما بعدها .

70 — عن هذه الامارة انظر : البكري : المصدر 90 وما بعدها ابن عـذاري : المصـدر 1 : 246 وما بعدها وعرفت في وقته (المزمة) اليعقوبي 108 الاستبصار 136 .

من عرب حمير وكان بينهم وبين العلويين علاقات حسن جوار ، ومصاهرة (71) .

ــ ثم ارشقول وهي ساحل تلمسان ، من مجالات نفوذ العلويين من بني محمد بن سليمان . وقد نزلها منهم : أبو العيش عيسى بن محمد بن سليمان لاول مرة وبقي مقيما فيها حتى توفي 295 هـ / 907 ــ 908 م فخلفه فى الحكم ابنه ابراهيم ، الذي عرف بالارشقولي ، ثم حفيده يحيى بن ابراهيم الذي نكب فى عهد أوائل الفاطميين فى المغرب (72) .

ــ وتقابل مدينة ارشقول ، جزيرة صخرية وسط البحر ، قريبة منها تعرف باسم جزيرة ارشقول ، وهي من المراكز الهامة الحصينة التي لجأ اليها من العلويين صاحب مدينة جراوة الحسن بن عيسى بن أبي العيش لما تغلب عليه موسى بن أبي العافية المكناسي (73) .

وتعتبر مدينة ترنانة من مراكز بني محمد بن سليمان العلويين قرب ساحل تلمسان (74) وبازاء مدينة ندرومة التي هي من مضارب كومية (75)، وقد استبد بأمر ترنانة عبد الله بن ادريس بن محمد بن سليمان وجاور سكانها وهم بنو يلول من قبيلة دمر ، ولطول جواره ، واكتسابه طبائع السكان عرف بلقب ((**الترناني**)) (76) .

ــ كما توجد فى المغرب الاوسط مدينة حمزة (البويرة) التي نسبت لأول من نزلها من بني سليمان العلويين وهو حمزة بن الحسن بن سليمان وهي بجوار مرسى الدجاج وتعرف أيضا بسوق حمزة (77) .

---

71 ــ اليعقوبي : المصدر 108 ابن خرداذبة : المصدر 86 ــ 87 البكري : 94 .

72 ــ البكري : المصدر 77 ــ 78 الاستبصار : 134 يلاحظ ان فحص زيدور وطوله 25 ميلا يفصل بين تلمسان وارشقول التي هي على مصب نهر تافنة .

73 ــ البكري : المصدر 78 ويلاحظ ان مساعدة عبد الرحمن الناصر البحرية لم تفد فى سقوط الجزيرة ورجع الاسطول الى قاعدته فى المرية ، ولم يظفر بنو ابي العافية بالحسن بن عيسى الا فى سنة 338 هـ ، وعن مدينة جراوة انظر 142 ــ 143 منه ، ابن عذاري 1 ، 274 وقد بنيت 259 هـ ومرساها اكاس .

74 ــ عن وصف تلمسان قاعدة زناتة ومركز العلويين انظر البكري : 76 وما بعدها ابن عذاري : المصدر 1 ، 73 ، 283 .

75 ــ وعن ندرومة ، انظر الاستبصار 135 وهي فى طرف جبل تاجرا ولها رباط حسن يتبرك به انظر البكري 80 .

76 ــ البكري : المصدر 80 ابن حوقل : المصدر 88 الاستبصار 135 .

77 ــ نفسه 64 ــ 65 المقدسي : المصدر 226 ــ 227 الذي ينفرد بالقول بان سوق حمزة على البحر ، ابن خلكان : المصدر 1 : 16 ويذكر قرية حمزة بين القلعة وبجاية .

ـ ومدينة تنس بقرب البحر ، تعتبر مركزا علويا هاما ، لبني محمد بن سليمان واختص بها منهم ابراهيم بن محمد (78) الذي سميت باسمه مدينة فى حوض الشلف .

ـ والذي يلاحظ حول مراكز العلويين فى نطاق المغرب الاوسط ، انها لم تقتصر على مجالات البتر فقط بل كانت ايضا بين مضارب البرانس ، ولو أن اغلب العلويين كان بين فروع قبيلة زناتة ، التي لاحظنا فيما بعد عداءها الشديد لحركة توسع الفاطميين . واذا صرفنا النظر عن قصة ولاء زناتة للامويين فان تنكيل الفاطميين بالادارسة وازالة دولتهم ، والتوسع على حسابهم فى المغرب الاقصى كانت من ضمن أسباب كراهية زناتة للفاطميين ، سيما وأن الادارسة هم الفاطميون الحقيقيون فى نظر جمهور السكان . وفيما أشار اليه بعض الجغرافيين والرحالة فى عصره ما يؤيد ذلك ونص ما قاله « والمدينة العظمى أي القصبة وهي فاس التي بها يحيى الفاطمي لم يفتحها عبيد الله المهدي الخارج بالمغرب الى حين تصنيف هذا الكتاب » (79) .

واذا كنا لم نلاحظ مقاومة عنيدة للفاطميين من طرف الامارات العلوية فى المغرب الاوسط أثناء حركة التوسع ، فلأن قبيلة زناتة بسائر فروعها تبنت قضية العلويين ودافعت عنهم ، هنا وفى المغرب الاقصى أيضا ، واستعانت فى سبيل تصفية نفوذ الفاطميين باعدائهم الامويين فى الاندلس .

ـ وظاهرة التوافق بين زناتة والبيوتات العلوية كانت ملحوظة لأن المصادر لم تشرالىأيةحركة عصيان أوانتفاضات أو حركات طرد أو اغتيال لأي علوي أو ضد أي زعيم من زعماء العلويين ، قبل ظهور حركة التوسع الفاطمي ، وهذا يشعر بأن بقاء العلويين فى المنطقة كان يلقى رضا تاما وصدى حسنا من سائر السكان .

ولعل الشيء الذي ميز العلويين عن الفاطميين فيما بعد ـ أنهم لم يفرضوا على السكان عقيدة معينة ومن ثم تعايشوا مع الصفرية والاباضية كما تعايشوا مع أهل السنة ولم يطلب العلويون من رعاياهم غير الاستمرار على عاطفة الحب والتقدير لآل البيت .

وهل ادل على انصهار العلويين فى البيئة المغربية وعلى قوة تأثيرهم فى سكانها ؟ من اتخاذ بعض أمرائهم القربا تشير الى الجهة التي اقاموا فيها مثل الارشقولي والترناني ، ثم من احتفاظ بعض المدن والمراكز

78 ـ نفسه 61 وعن تاسيس قلعة تنس على يد عناصر اندلسية انظر : ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 154 .

79 ـ الاصطخري : المصدر 39 .

باسماء بعض الامراء العلويين مثل سوق ابراهيم وسوق حمزة ومدينة العلويين التي هي ادل على ماضي هؤلاء في بيئة المغرب الاوسط الاسلامية من غيرها .

اما بقاياهم في غير المغرب الأوسط فكثيرة يهمنا منها ، ما اشار اليه بعض الجغرافيين والرحالة عن انتشار التشيع والرفض حتى بين سكان السوس الاقصى خاصة بين فريق بني لماس الذين عرفوا بالبلجيكيين وكانت نحلتهم تقوم على اساس اختصاص فرع الحسن بالأمامة دون فرع الحسين (80) .

ومما يلاحظ ان الخلفاء الفاطميين في المغرب لم تخف عنهم اهمية الادارسة ومدى تعلق السكان بهم ، ولذلك اكتفوا بمجرد خضوع مدينة فاس واعلان اميرها يحيى بن ادريس ولاءه للدولة الفاطمية في المهدية كما أن الخليفة المعز لدين الله لم يترك اية فرصة سنحت له ، لكي يشعر العلويين وخاصة الادارسة بأنهم ان كانوا حقا من آل البيت فيجب أن يبرهنوا على ذلك بالبقاء على الطاعة والولاء ويساندوا مجهودات أقاربهم الفاطميين (81).

واذا كان بعض الامراء الادارسة قد انحرفوا عن الطاعة وحاربوا الفاطميين او مالوا جانب أعدائهم الامويين فان اهم ما يشار اليه انه لم تبدر من أي امير منهم في أي وقت ما بادرة تشعر بشكهم في نسب الفاطميين كما لم تسجل عن أي منهم في عصرهم أو بعد تصفية نفوذهم ما سجل في بيئة المشرق من أقوال وتندر الطاعنين في نسب الخلفاء الفاطميين ، أو من

---

80 ـ البكري : المصدر 161 حيث يلاحظ أن الداعية لهذه الاراء كان رجلا نفطيا يسمى محمد بن ورستد ، دخل بلد السوس قبيل ظهور ابي عبد الله الشيعي في كتامة ونشر بينهم آراء اخرى فيها غلو ، ابن حوقل : المصدر السابق 90 ويلاحظ تعايشهم مع مالكية السوس رغم ان « الغالب » على الجميع الجفاء والغلظة في العشرة وقلة رقة الطبع ، اليعقوبي : المصدر 110 ويشير الى ان سكانه العلويين هم من نسل عبد الله بن ادريس .

81 ـ النعمان : المجالس والسايرات 2 ، 497 ـ 499 ونص ما قاله المعز موجها كلامه للادارسة « وليعلم من ادنى الينا بالنسب منكم ، ان ذلك انما يتوسل به من اعتصم بالطاعة وتمسك بها فاما من عصى اولياء الله وخالفهم فقد انقطع نسبه منهم كما قطع الله نسب ابن نوح لما عصاه » .

محاضر للتجريح ، وضعت برعاية بعض الخلفاء العباسيين واشترك في صياغتها والاشهاد عليها جماعة من علماء أهل السنة وبعض علماء ونبهاء من الأشراف العلويين (82) .

ولو لم يكن ظهور للفاطميين في المنطقة مسبوقا بحركة سرية متطرفة ومعقدة ومعادية للمذاهب السائدة فيها لما واجهوا المقاومة التي حصلت فعلا باعتبار أن نفوس السكان كانت مستعدة لتقبل آراء أهل البيت ، ولو كانت هذه الآراء تدور حول أفضليتهم واستحقاقهم امامة المسلمين دون غيرهم ، لأنهم ارتبطوا في أذهان السكان بالولاية الشرعية ، وبالقداسة وبالتواضع واحترام عقائد الآخرين وهي الاعتبارات التي غفل عنها الفاطميون فاصطدموا بالسكان الذين عارضوا وجودهم على أساس سياسي وعقائدي وحركة المعارضة كانت تستمد قوتها من جماهير أهل السنة ، وفئات الخوارج وعملاء الامويين .

واهمية الادارسة لا تظهر فقط في كونهم ساعدوا على خلق رصيد قوي لآل البيت في المنطقة ، ولا في كونهم مهدوا بحكم مصاهرتهم للسكان ، لظهور عنصر جديد من المولدين لا يعرف الاهلية في غير آل البيت ، انما ايضا في أنهم يعتبرون بحق الدعاة الاوائل في بلاد المغرب وانما كانوا يدعون على نهج واضح وسليم وأمام الملا من الناس ولهذا فلا مبالغة اذا قلنا بأنهم هم أصحاب البذرة العلوية الاولى (83) التي اثمرت في خلق ظاهرة الاستعداد التشوق لمبادىء جديدة ولا يختلف عملهم في هـذه الناحيـة عما قام به في سرية تامة دعاة الاسماعيلية منذ فجر الدعوة حتى ظهور عبيد الله في مدينة رقادة .



82 — المقريزي : اتعاظ 1 : 22 وما بعدها ابن خلدون : العبر 6 ، 64 ويميلان الى القول بصحة نسبهم العلوي ويبرهنان على ذلك بحجج معقـولة . ابن ايبك الدواداري : المصدر السابق 6 ، 4 — 16 ويشعر كلامه بميله الى تاييد القول بصحة نسبهم العلوي لانه بدا برواية عن ابن زولاق ، وعن احد مؤرخي افريقية تثبت النسب العلوي لعبيد الله وانه : ابن التقى (الحسين) بن الوفي (احمد) ابن الرضى (عبد الله) وعبد الله هو : ابن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ابن خلكان : 1 ، 272 — 273 . ابن عذاري 1 ، 218 — 219 الباجي المسعودي الخلاصة النقية ورقة 23 .

83 — ابن ابي زرع : المصدر السابق 4 ، 5 ويشير هذا المؤرخ الى ان محمدا النفس الزكية هو الذي فرق اخوته دعاة في النواحي فارسل عيسى الى المغرب وسليمان الى مصر لكنه لم يستقر فيها عقب سماعه بوفاة اخيه وفارقها عبر السودان الى زاب افريقية حيث استقر في منطقة تلمسان .

- وحركة الدعوة الاسماعيلية السرية فى بلاد المغرب يرجعها كثير من المؤرخين الى عصر سادس الائمة العلويين جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب الذي كان له اهتمام خاص بنشر علوم آل البيت وآدابهم وفضائلهم بين جمهور المسلمين خاصة فى تلك البيئات البعيدة التي مازالت على فطرتها تحتفظ بالاسلام وبأصوله فى صورة غير معقدة . واليه يعزى ارسال داعيتين الى بلاد المغرب هما (84) :

عبد الله بن علي بن أحمد ، المشهور بالحلواني ، وأبو سفيان الحسن بن القاسم .

وقد أوصاهما بالتوغل فى بلاد المغرب حتى مضارب البربر وراء ولاية افريقية وبالانفصال عن بعضهما ، أي يتجه كل منهما الى ناحية خاصة ، كل ذلك مبالغة فى الحذر والتستر ، وضمانا لتعميم الدعوة . وقد بسط جعفر الصادق أمام الداعيتين رأيه فى طبيعة البلاد وفى مدى استعداد سكانها لتقبل الافكار الجديدة بقوله المشهور : « اذهبا الى المغرب فانكما تأتيان أرضا بورا فاحرثاها وكرباها وذللاها الى أن يأتيها صاحب البذر فيجدها مذللة فيبذر حبه فيها » (85) .

وتشير بعض النصوص الى ان الداعيين نفذا التعليمات بأمانة وبدقة عند وصولهما الى مدينة مرماجنة (86) ، فنزل كل منهما فى منطقة بعيدا عن الآخر فاستقر أبو سفيان بموضع قريب من مدينة تالة (87) ، وبنى فيها مسجدا وتزوج امراة واشترى أمة وعبدا يعمل بمساعدة هذا العبد

---

84 - المقريزي : اتعاظ 1 : 41 ، هامش 1 ابن خلدون العبر 6 ، 65 ابن الاثير : المصدر السابق 8 ، 11 حسن ابراهيم : المرجع السابق 46 النعمان : افتتاح ورقة 23 وانظر (54 - 55 من ط بيروت 1970) ونظرا لان وداد القاضي الذي نشر رسالة الافتتاح لم يعتمد فى النشر الا على ثلاث صور للمخطوط واحدة منها ملفقة والاثنتان الاخريان غير كاملتين ولم يشر الى نسخة مكتبة الجامعة وهي اقدم واكمل من غيرها فانني اعتمد على الاخيرة واكتفي بالاشارة الى ما يقابلها فى ط . وداد القاضي .

85 - ابن الاثير : المصدر 8 ، 11 المقريزي اتعاظ 1 ، 41 ، وفيهما جاء هذا القول مختصرا النعمان افتتاح ورقة 25 (58 ط بيروت) ابن ايبك الدواداري : المصدر السابق 113 النويري : المصدر السابق 26 ورقة 24 .

86 - مدينة قديمة فى منطقة الكاف - تونس تقرب من مجانة ومنها يسلك فى اتجاه مسكيانة ولا تبعد عن الاربس وسبيبة باكثر من مرحلة كانت حتى عصر البكري لطيفة بها جامع وفندق وسوق انظر 145 منه الاستبصار 162 ابن حوقل : المصدر 86 .

87 - هي مدينة فى الشمال الغربي من تونس تقرب من مدينة الكاف ولا تبعد عن اقرب نقطة للحدود الجزائرية بمسافة كبيرة .

الذي يبدو انه هيأه ليكون عينا له في المنطقة ، أما امرأته فكانت أيضا تستعين في شؤون البيت ولمعرفة شؤون نساء المنطقة بهذه الأمة .

وكرس ابو سفيان وقته للدعوة عن طريق التعليم ، وأصبح مقصد كثير من سكان الناحية الذين كانوا يأتون اليه في مسجده ، أو في موضع خلوته (رباطه) لسماع احاديثه عن مزايا أهل البيت واشتهر أمره ، وذاع بين السكان خبر فضله وعلمه وورعه وغدت بسبب نشاطه مرماجنة والاربس ونفطة أيضا مراكز تضم بين مجموع سكانها متشيعين لآل البيت (88) .

ونظرا لما اشار اليه بعض الجغرافيين الرحالة من أن مرماجنة كانت تعتبر من عمل منطقة تبسة (89) والطريق منها يسير في اتجاه مسكيانة فانه لا يستبعد وجود متشيعين في هذه المدينة ، وفيما جاورها بتأثير حركة الدعوة أو الهجرة والرحلة للتجارة كما أن ذلك لا يستبعد بالنسبة لمجانة وسبيبة (90) ، وباغاية وفندق مسكيانة نظرا لما أسلفناه ولقرب المسافة وشدة ارتباطها ببعضها من الناحية الاقتصادية (91) خاصة وأن مرماجنة غدت مركزا هاما و « دار شيعة » بسبب وجود أبي سفيان فيها وقيامه بالدعوة لآل البيت .

أما تشيع نفطة من اقليم قسطيلية (92) (بلاد الجريد) فمرده الى نشاط الحركة التجارية بين جنوب ولاية افريقية وشمالها .

وكانت نفطة ضمن اقليم قسطيلية من بين المراكز الغنية بالتمور (93) كما كانت مرماجنة ونواحيها من الاقاليم المنتجة للحبوب خاصة القمح .. وهكذا كانت حركة القوافل التجارية تنطلق من اقليم الجريد الى باغاية على سفوح كتلة أوراس عبر طريق مرماجنة ومن ثم كان هؤلاء التجار ، من الذين تأثروا بآراء أبي سفيان الداعي ونقلوا آراءهم وما شاهدوه منه

---

88 ـ النعمان : افتتاح ورقة 23 (55 ط بيروت) وقد وصفت مرماجنة هنا بدار الشيعة .

89 ـ المقدسي : المصدر 226 ـ 227 ويعبر عن هذا المعنى بقوله « مرماجنة من عمل رستاق تبسة » .

90 ـ انظر الاستبصار : 161 وتسمى الأخيرة مجانة المطاحن والمعادن أيضا .

91 ـ البكري : المصدر 49 ـ 50 ـ 145 .

92 ـ عن كورة قسطيلية وقاعدتها توزر ومن مراكزها حامة بني بهلول وهم من بقايا الروم الذين اسلموا على اموالهم ثم نقطة وآخرها بلد درجين انظر الاستبصار 155 ـ 157 ـ 159 وعن درجين انظر الشماخي : السير 447 .

93 ـ البكري : المصدر 48 ـ 49 .

او سمعوه عنه الى بلدانهم . ومما له دلالة خاصة على هذا الاتجاه أن ابا سفيان انجد تاجرا نفطيا هلك بعيره فى مرماجنة حيث أعاره جملا بنية اعادته اليه مرة اخرى غير أن التاجر استمر فى نشاطه التجاري بين باغاية ونفطة واحتفظ بالبعير ، ولم يرجعه الى صاحبه حتى انقطع البعير بحمله فى احدى الليالي عن القافلة ، واتجه نحو مرماجنة حيث أناخ بقرب رباط ابي سفيان ، فأرسل الى التاجر النفطي ، ليأخذ أمتعته فاتى اليه معتذرا وسدد ثمن الجمل ، وبقي ضيفا فى دار ابي سفيان حتى باع التمر ، واشترى القمح (94) .

هذه الحادثة لا شك فى أن تفاصيلها من أبتكار ووحي علماء الاسماعيلية الذين يطيب لهم دائما ، أن ينسبوا الكرامات، وخوارق العادات الى دعاتهم الاوائل ويصوروهم فى صورة الاولياء ، ومع ذلك فان مضمونها يمكن أن يكون صحيحا لأن سكان منطقة قسطيلية فى أقصى جنوب ولاية افريقية يحتاجون الى الحبوب من شمال البلاد ، وسكان الشمال لا يستغنون عما ينتجه جنوبها من تمور ، ومع حركة القوافل التجارية تنتقل عادة التيارات والمذاهب والعادات والقصص والروايات وحتى اللهجات ، والتستر وراء التجارة كان من بين الأساليب التي لجأ اليها دعاة الاسماعيلية وائمتهم سواء فى بلاد اليمن (95) ، أو فى بلاد المغرب ، وعبيد الله كان يدعي بدافع خشيته على نفسه ، انه مجرد تاجر من بني هاشم ، ولا علاقة له بالمذاهب ولا بالسياسة أو الدعوة التي تنتشر فى المشرق أو فى المغرب ، وقد تكرر ذلك منه اثناء نفاذه من الشام الى مصر ، ومنها الى سجلماسة (96) .

وتفاصيل هذه القصة ، تشعر فيما يبدو بانتشار أخبار أبي سفيان ونفوذه الروحي حتى أقصى جنوب البلاد ومعنى ذلك أن أهميتــه فى التمهيد لنجاح الدعوة الاسماعيلية فى ولاية افريقية كانت بارزة وقد لاحظ البكري ، أن جميع سكان نفطة فى عصر الجغرافي محمد بن يوسف الوراق ، كانوا شيعة ولذلك عرفت المدينة باسم الكوفة الصغرى كمـا أن بعض علمائها الذي يعرف بالبجلي ، تمكن من الاستقرار بين سكان منطقة السوس ونشر بينهم الآراء الشيعية المتطرفة قبل ظهور أبي عبد الله الشيعي فى منطقة كتامة وافريقية (97) .

---

94 ــ النعمان : افتتاح ورقة 24 ، (56 ط بيروت) .

95 ــ النعمان : افتتاح ورقة 12 ــ 13 (44 بيروت) .

96 ــ نفسه ورقة 107 ، (150 ــ 151 ط بيروت) المقريزي : اتعاظ 1 : 60 س 7 (ط 1967) ابن الأثير : المصدر 8 ، 13 ابن ايبك الدواداري : المصدر السابق 6 : 21 .

97 ــ البكري : المصدر 75 وانظر ايضا 161 منه وفيها : « وجميـــع اهلها شيعـــة وتسمى الكوفة الصغرى » .

ولم يلاحظ الادريسي بقايا التشيع فى المدينة ولكنه اشار الى أن نفطة متحضرة وغنية بالماء على عكس مدن اقليم قسطيلية الاخرى التي كانت تعاني من الجفاف وفى هذه الناحية يتفق مع البكري الذي يقول « وشرب جميع بلاد قسطيلية بوزن الانفطة فان شربها جزاف » (98) .

وهنا نتساءل لماذا اقتصر التشيع عليها دون مراكز الاقاليم المجاورة لها ، ثم هل يعود تشيع سكانها الى عصر الداعي أبي سفيان والي نشاط التجار المحليين او الى عصور تالية ؟ ويلاحظ أن هذه المنطقة يكثر فيها عنصر الموالي من بقايا الروم والافارقة الذين اسلموا لتبقى لهم أموالهم واراضيهم (99) وهؤلاء كان انقيادهم سهلا للحركة الخارجية التي ظهرت من قبل فى اقليم طنجة (100) وكان الداعي أبو عبد الله رفيقا بسكان هذه المنطقة عندما هاجمها أثناء حركة لتوسع . وعبيد الله عندما مر بهذه البلاد أثناء رحلته الى سجلماسة لم يصادف متاعب وسمع عن الدعوةالاسماعيلية فى كتامة اخبارا سارة من أحد سكان البلاد (101) فربما بقيت عنده ذكرى حسنة يحتفظ بها لهذه البلاد ، وانعكست فى اهتمام خاص بشئونها وتقريب بعض رجالها .

وقد عرفنا من بينهم محمد ابن عمران النفطي ، الذي ولاه عبيد الله قضاء القيروان وقضاء طرابلس أيضا (102) ، ومحمد بن رمضان النفطي الذي ولى قضاء ميلة (103) وان ذلك ربما كان سببا فى التفاف سكانها حول الدولة الفاطمية وفى اخذهم بالعقيدة الاسماعيلية . ويبدو ان التشيع لم يقتصر على نفطة وحدها بل انتشر فى بقية مراكز اقليم قسطيلية انما بنسبة غير مرتفعة كالتي وجدت فى نفطة .

وظاهرة التشيع فى بعض سكان المنطقة هو الذي حال فيما يبدو بين الثائر أبي يزيد وبين الاقامة والظهور فيها مع انها مسقط رأس أبيه ومحل نشأته وتعلمه (104) .

---

98 ــ نفسه الادريسي : المصدر 76 .

99 ــ الاستبصار : 155 وما بعدها .

100 ــ ابن عبد الحكم : المصدر السابق 293 ومن بين هؤلاء عبد الاعلى بن جريج الرومي الاصل وهو من موالي موسى بن نصير .

101 ــ اليماني : سيرة جعفر 117 .

102 ــ ابن عذاري : المصدر 1 ، 264 ــ 265 .

103 ــ النعمان : افتتاح ورقة 54 (90 ط بيروت) .

104 ــ ابن الاثير : المصدر 8 ، 150 المقريزي اتعاظ 1 : 75 .

ومن مدينة نفطة ظهر بعض الشعراء والقصاص الذين تنبئوا بقرب ظهور دولة المهدي (المنتظر) واشهرهم محمد بن رمضان الذي طلبه ابراهيم ابن أحمد لاشادته بأهل البيت فالتجأ الى حصن بلزمة ويعني ذلك آن صلة المدينة والمنطقة كلها بآراء أهل البيت وبالتشيع ليست وليدة العصر الفاطمي بل هي أقدم منه بكثير .

ـ أما ثاني الدعاة وهو الحلواني فقد توغل فى أرض البربر بعيداً عن مرماجنة وعن مجالها حتى أصبح على هامش أرض كتامة ، ونزل هناك موضعا سمي الناظور بقرب سوفجمار (105) . وفى الناظور بني الحلواني رباطا ، أو مسجداً للدعوة وللعبادة كما تزوج أمرأة من أهل البلاد واشترى أمة لتساعدها فى شئون البيت وفى دعوة النساء ، كما خص نفسه بعبد يساعده فى أعماله واصبح بسبب الدعوة ولانشغاله بالتعليم والعبادة مقصد سكان النواحي من قبائل كتامة وسوماطة (من نفزاوة) (106) ، وهكذا ضرب الناس من هذه القبائل اليه وتشيع كثير منهم على يديه (107) على حد تعبير النعمان .

وبحكم قرب الناظور من منطقة كتامة كانت دعوة الحلواني هي الشرارة الأولى التي اتقدت فى عصر الداعي عندما اقبل عليه حجاج هذه القبيلة فى مكة وصحبوه وجندوا قبائلهم لنصرته وتأييد حركة آل البيت . وقد بقيت من عصر الحلواني آثار فى المنطقة هي قبره وموضع رباطه ثم بنت له تعرف بأم موسى التي أدركت حركة الداعي أبي عبد الله كما أدركها من أصحابه الذين تأثروا به أبو المفتش الذي عرف أيضا بأبي حيون (108)

---

105 ـ ابن الاثير الكامل 8 : 11 ابن خلدون العبر 4 ، 65 والمكان من ارض كتامة فى نظر هذا المؤرخ المقريزي اتعاظ 1 : 41 وفيه قوله : « نزل احدهما بارض كتامة » انظر هامش 1 ، النعمان : افتتاح ورقة 24 ، (57 ط بيروت) الجيلالي 1:51/265 وشكل الكلمة فى المصادر يتراوح بين سوق حمار ، أو جمار او حماد ، اما سوق جمار فيوجد فى وادي سوف ، اقصى الزاب . كما يوجد اسم سوق جمورة ، بمنطقة اوراس اما سفمارة فقبيلة بربرية البكري 181 .

106 ـ ومراكز سوماطة وهي فرع من نفزاوة فى اقليم القيروان وناحية مليانة وبقرب بني جناد وجبال الهبط بين قبائل جبالة فى تطوان وبجبال زواوة قرية ايسوماتن وهي تنسب اليها . انظر ابن منصور : المرجع 1 ، 307 وتشيع القاب السماتي ، نسبة اليها ، فى الزاب وسطيف ، انظر البكري 74 حيث تبدأ حدودها من قيطون فياضة بجوار حصن باديس الذي هو مفترق الطرق المؤدية الى القيروان وطرابلس وبلاد السودان .

107 ـ النعمان : افتتاح ورقة 25 (57 ط بيروت) .

108 ـ النعمان : افتتاح ورقة 25 (58 ط بيروت) ويرسم الاسم ابو حيوان ايضا .

وكانت وفاة أبي سفيان في مدينة مرماجنة بدون عقب ، قبل وفاة الحلواني بمدة طويلة ، لأن الأخير « عاش بعده دهرا طويلا » (109) .

اما مكان سوق جمارة فيبدو أنه لا يبعد كثيرا عن مجال كتامة ، ان لم يكن على هوامش بلادها او في عمقها ، وكلمة الناظور ، قد تعني الشرف العالي او المرقبة اشارة لاختيار الحلواني لمكان مرتفع وحصين ، مثل ايكجان وتازروت وغيرهما من دور هجرة الدعاة في المغرب ، أو في المشرق ، واستقر فيه بأسرته الجديدة لأن بعض الجغرافيين والرحالة أشاروا الى وجود حصن باسم الناظور في الطريق بين قلعة بني حماد ، وبجاية هو أقرب الى الأولى منه الى الثانية (110) .

وتوجد بقرب قالمة ، قرية باسم الناظور في اتجاه منطقة سوق أهراس اي في نفس مجالات كتامة (111) .

كما يوجد هذا الاسم في منطقة الريف قرب الحدود المغربية الجزائرية .
ويبدو من الراجح أن المكان الذي اختاره الحلواني مقرا ودار هجرة ، يقرب ربما من مكان وادي الرمل حيث تقوم الآن مدينة تشتهر بقسنطينة في نفس منطقة كتامة وهي في نفس الوقت شديدة الصلة برقادة

وبعيدة نسبيا عن مرماجنة التي نزل فيها أبو سفيان ، وهذا يتماشى ورغبة الامام الذي أوصاهما بالابتعاد عن بعضهما والايغال في أرض البربر وراء افريقية ، لأن احدهما وهو أبو سفيان ، كان على هامش أقليم افريقية اي بقرب حدوده ، اما الآخر وهو الحلواني فكان في قلب بلاد البربر ، انما على هامش أرض المغرب الأوسط ، اي في بداية أراضيه فعلا هذا بصرف النظر عما يقال نظريا حول تحديد امتداد هذا الاقليم أو ذاك .

---

109 ـ النعمان ورقة 25 ابن الاثير : المصدر 8 ، 31 ، ويلاحظ وفاة الحلواني بعد أبي سفيان بمدة يسيرة ، المقريزي اتعاظ 1 : 55 ، وفيه « فلما ورد على ابن حوشب موت الحلواني ورفيقه في المغرب » اي بدون تحديد وفاة كل منهما .

110 ـ الادريسي : المصدر 64 ـ 65 .

111 ـ ويلاحظ ان كلمة سوق جمـار هي نفس الكلمة البربرية « اسيفقمار » Assifugmare التي تعني وادي الرمل وقد جاءت في ليو الافريقي Sufegmare ص 365 حسب النطق المحلي ، في ذلك الوقت لتدل على وادي الرمل الذي تقع عليه مدينة قسنطينة ، وجاء ذكره في رواية حملات التبابعة الى المغرب ، وعلى ذلك ، فالنطق الصحيح للكلمة هو سوفجمار ، وهي كلمة محلية ، ويكون الحلواني قد نزل في مكان غير بعيد من قسنطينة ، اي في عمق ارض كتامة ويلاحظ ان هذه المدينة ، على اهميتها ، سقطت في يد الداعي ، بدون زحف او قتال .

ومن بين الاثنين كانت مهمة الحلواني شديدة الصلة بتلك التي اضطلع بها فيما بعد الداعي أبو عبد الله . ولا مبالغة اذا قلنا بأن طبائع السكان فى منطقة كتامة ، وميولهم المذهبية ووضعية المنطقة من الناحية السياسية والادارية ، ومعالمها وحواضرها وأشهر قبائلها ، كانت معروفة بدقة لدى الامام فى سلمية ، ولدى ابن حوشب ، وداعيته فى بلاد المغرب ابي عبد الله ، قبل أن يتوجه الى ارض المغرب وذلك بواسطة الداعي الحلواني ومن هنا نجد التفسير المعقول لتلك المفاجأة المذهلة التي ظهر بها الداعي أمام وفد حجيج كتامة ، عن فج الأخيار ولم يكونوا حدثوه من قبل عن شيء يتصل بذلك أثناء رحلتهم ، كذلك يبدو ان انتظار الداعي لموسم الحج وترصده لوفد كتامة خاصة دون غيرها من قبائل المغرب ، لم يكن عرضا ، وانما كان حادثا مدبرا ، ومهيئا من ذي قبل ، اما فى سلمية او فى بلاد اليمن وكانت المعلومات متوفرة لديه عن طبيعة ونزعة هؤلاء الذين سيتصل بهم فى موسم الحج .

والنصوص التاريخية تشير الى نجاح الداعيين ، ابي سفيان و لحلواني ، فى تذليل الصعوبات فى بلاد المغرب ، وفى تمهيد الارض وتهيئة النفوس لتقبل الحركة التي سيقوم بها داعي آل البيت . ولم يبق أمام الداعي أبي عبد الله غير البذر وهو أسهل من الحرث والتنقية ، والاعداد ، التي أنجزها سابقوه فى المنطقة ومن هنا يظهر أن ما نسب الى الداعي ، من حيل وأساليب خاصة فىالتدرج بوفد كتامة قبل ان يكشف عن شخصيته بطريقة روائية ، مجرد قصة للتأثير نمقها مؤرخو ودعاة الاسماعيلية ونقلها عنهم ، أكثر المؤرخين حتى ابن خلدون اذ تكاد روايته تطابق ما رواه القاضي النعمان فقيه الاسماعيلية ــ تقليدا وبدون تدبر ومعرفة أن هذا يخدم الاسماعيلية ، ويفيد قضيتهم (112) .

ثم أن النصوص التاريخية لم تشر الى التجاء الداعيين قبله ، الى ما التجأ اليه ، من قصد مكة لا للحج ، وانما لكي يفرض نفسه على حجاج كتامة ، بدون سابق تدبير . ومع ذلك بالغت فى تصوير النجاح الذي احرزه هذان الداعيان فى بلاد المغرب والكسب العظيم الذي حصل لآل البيت بسبب تصرفاتهما وأعمالهما الحسنة .

ويتصل بموضوع الداعيين ، أبي سفيان والحلواني ، تاريخ ومصدر ارسالهما الى بيئة المغرب وهنا نشير الى أن أكثر المصادر التاريخية تتفق على سنة 145 هـ 762 ــ 763 م كتاريخ لارسالهما من طرف جعفر الصادق

---

112 ــ ابن ايبك الدواداري : المصدر السابق 97 وما بعدها ، وهنا يشير الى حيل دعاة الاسماعيلية وتلونهم والتوائهم ، بقصد التأثير والكسب .

سادس الائمة ، انما بشيء من التامل ، يتضح فيما يبدو خطأ هذا الرأي واسباب ذلك ان ارض المغرب فى هذه الفترة كانت مضطربة ويعيش سكانها ثورات ضد ولاة القيروان من طرف العباسيين ، وكانت الحركات الخارجية الصفرية والاباضية هي الغالبة على المنطقة فى هذا الوقت ، فضلا عن بقية النحل المتطرفة مثل نحلة برغواطة (113) . ومعنى ذلك أن المنطقة لم يتقرر مصيرها بعد ، ولم تهدأ نفوس أهلها بعد ما أصابهم من دمار وتقتيل، وكان رهط العلويين فى هذه الفترة منصرفا الى المشرق ولا يكاد يلتفت الى المغرب او يحسب له حسابا، وانحصرت ثورات العلويين فى الحجاز وفى العراق ، حيث يكثر المتشيعون ، والعلويون ، هذا الى أن هذه السنة 145 هـ . كانت قد شهدت ثورة علوية فاشلة ضد العباسيين (114) ، وانحصر اهتمام العلويين بعدها ، فى الاعداد للثأر ولأخذ حقهم الشرعي بالقوة العسكرية . وهزيمتهم فى فخ كانت هي الحد الفاصل ، الذي جعلهم ينتبهون الى الواقع ، وينقلون نشاطهم الى مجالات أخرى غير بيئتي الحجاز والعراق . ولو أن بعض المؤرخين أشاروا الى اهتمام النفس الزكية بانتشار حركة الدعوة فى مصر ، وبلاد المغرب ، ومن ثم ارسل اخوته الى هذه البلاد . وعلى ذلك تبدأ صلتهم بالمنطقة منذ هذا الوقت ، ولم نعثر على نصوص معتمدة يمكن الاستناد عليها فى معرفة الدور القديم الذي قام به العلويون فى البلاد أو البطولات التي سجلوها أثناء الفتح العربي لبلاد المغرب ، أواسر تكونت بعد انتهاء عملية الفتح او أسماء لفاتحين بقي اثرهم يذكر بهم ، أو بصلاتهم القديمة ، مثلما لاحظنا ذلك مع ابن حديج وعقبة بن نافع ، ودينار ابى المهاجر وموسى بن نصير ، فكان لهؤلاء عقب أو أسر أو موالي . ولهذا يبدو مقبولا ، أن الداعيين أبا سفيان ، والحلواني ، انما أرسلا من طرف أحد ائمة دور الستر من سلمية ، الى اليمن ومنها ارسلا الى ارض المغرب عن طريق منصور اليمن بعد قضاء فترة توجيه واعداد كما ارسل غيرهما الى جهات أخرى مثل السند والهند والبحرين واليمامة (115) . ومعنى ذلك أن البادرة الأولى كانت من امام الزمان فى

113 ـ وعن هذه النحلة انظر : ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 60 ـ 61 ، البكري : المصدر السابق 134 ـ 136 وكان رجالها فى بدء امرهم سفرية ثم تطرفوا وخرجوا عن حدود الاسلام ، يحي هويدي : المرجع السابق 1 ، 70 ـ 73 .

114 ـ أبو الفداء : المصدر 2 ، 3 ـ 4 ابن الوردي : المصدر 1 ، 195 .

115 ـ ابن خلدون : العبر 4 ، 65 ، النعمان : افتتاح ورقة 14 (47 ط . بيروت) وكان الهيثم ابن اخي منصور اليمن هو داعيته فى بلاد السند (45 ط . بيروت) الشوكاني : قطر الولى على حديث الولي 285 ـ 286 ، وهنا يشير الى رواية ارسال ابن حوشب وابن الفضل والداعي ابي عبد الله من طرف ميمون القداح واما ابن ايبك فينسب ارسال الداعي الى أحمد بن عبد الله ميمون : انظر 20 من الدرة المضية ، سرور : المرجع السابق 18 ، النشار : المرجع السابق 515 ـ 516 وينسب ارسالهما الى الامام الحسين بن أحمد .

سلمية ، وكان التنفيذ من طرف داعيته فى بلاد اليمن التي انطلق منها الدعاة الى مختلف جزائر الدعوة . وهذا نفس ما حصل مع آخر الدعاة واعظمهم شأنا ، وهو أبو عبد الله الشيعي لأن النصوص تشير الى أن ابن حوشب لما سمع بوفاة الداعيين فى بلاد المغرب ، ارسل أبا عبد الله بناء على تزكية وموافقة مسبقة من طرف امام الزمان فى سلمية وهي التي خرج منها الداعي الى بلاد اليمن .

ويبقى بعد ذلك أن نقول أن السر فى نسبة ذلك الى جعفر الصادق مرده الى أن هذا الامام هو الذي غير وجهة الحركة العلوية ، باعتماده على فكرة الدعوة السرية السلمية للعمل على تركيز علوم آل البيت وتوضيح فضلهم وغرسه فى النفوس ، قبل القيام بأية حركة ثورية ومن ثم تعبر هذه الرواية ـ عن ارسال الداعيين ـ عن شدة اهتمام جعفر الصادق بالدعوة الهادئة، كأساس صحيح للعمل الثوري . ومن هنا وقع الخلط ونسب ارسال الداعيين اليه ، لأن المبدأ هو الذي أقره ، وحث عليه ، وبدأ يطبقه فى حياته فى المدينة ، حتى اخترمته منيته ويبدو أن هذا موافق لمجريات الأحوال ، لأنه لا يتصور بسهولة أن يكون الفاصل الزمني بينهما ، وبين آخر الدعاة ، فى المغرب قرنا وخمسا وثلاثين سنة (116) ، لأن جيل الداعيين يكون قد انتهى ، ومدرستهما تكون قد انقرضت ، قبل وصول الداعي ، كما أن التربة التي قيل أن الداعيين قد هيآها للبذر ، لا يمكن أن تبقى كذلك طيلة هذه الفترة ، ومع ذلك فقضية تمهيد الارض وتهيئة النفوس ، نسبية وقد يكون هدفها تقوية عزم الداعي أبي عبد الله بدليل انه لم يجد الارض والسكان كما صورتهما النصوص الاسماعيلية وغيرها بل واجهته مشاكل كثيرة ، وامتحن بسلسلة من الحوادث ، مثل عبيد الله غير أن ميزاته الشخصية وعامل العصبية الكتامية والبرنسية عموما لعبا دورا هاما فى انجاح حركته الكبرى .

* * *

ويظهر أن تأثير الدعوة الشيعية ظهر مبكرا فى بيئة افريقية اي قبل دخول الداعي بوقت طويل ، ومن مظاهره ، تشيع الرجال ثم انتشار القصص الأدبي الذي يبشر بقرب ظهور دولة المهدي ، فضلا عن تنبؤ المنجمين والشعراء .

ـ وتشير بعض النصوص ، الى أن ابراهيم بن أحمد عين على قفصة وقسطيلية عليا بن حجر واليا ، وعندما أوصاه قبل سفره بالعدل وبالاقتداء

116 ـ وهذا على القول بان الشيعي ارسل الى المغرب سنة 280 هـ انظر النويري 26 ورقة 25 .
G. Marcais : La Berberie Musulmane et L'Orientale, p. 133.

فى تسيير شئون الولاية بسيرة العمرين اعترض عليه وقال له « لا والله لا اسير فيهم الا بسيرة علي بن ابي طالب فان شئت والا فهذا عهدك (117). وتشيع هذا الرجل قديم ، ولم يقتصر عليه وحده وانما كان ضمن أسرة من المتشيعين ، ولم يخش طائلة العقاب من الأمير ، فجاهره بحقيقة ميلة الى التشيع ، ولعل رد الأمير عليه بقوله « أفضل سيرة والله . فسر بها ، وما أراك تفعل » وعدم معاقبته له بسبب هذه الجراءة ، يؤيد الى حد ما رواية ميله الى التشيع .

ــ وقد لاحظنا وصيته لابنه ابى العباس عبد الله ، بترك حرب الداعي ، لما علم بأنه صاحب دعوة خاصة فى كتامة .

واهتمامه بالتنجيم كان جزءا من اهتمامه بحركة الدعوة الشيعية وينسب اليه ما يؤيد استسلامه للواقع ، بتاثير معرفته للتنجيم ، كما أصبح ابنه أبو العباس عبد الله أسيرا للتنبؤات فلم يحرك ساكنا رغم تشجيع بعض رؤساء كتامة له على المبادرة بحرب الداعي قبل أن يشتد ساعده (118) .

ــ وتذكر بعض النصوص أن ابراهيم بن احمد اعتقل رجلا من باغاية ، وهي مركز هام كان يتردد عليه كما أشرنا تجار من مرماجنة ونفطة ــ يعرف بكريم بن دمرزور ، ولم توضح سببا لاعتقاله ، وانما اقتصرت على القول بأن ذلك تم « لأمر كرهه منه » ففر الرجل من سجنه واستجار برهط بني مالك فى حصن بلزمة ، فأجاروه وكان ذلك من أسباب تنكيله بهم كما أسلفنا .

ويبدو أن الرجل كان من المتشيعين المتطرفين ، أو ممن لهم صلة باشاعة قصص وتنبوات عن قرب ظهور دولة المهدي فى افريقية (119) .

ــ وممن عرف بالتشيع منذ القدم ، محمد بن عمر بن يحي بن عبد الاعلى المروزي وكان من جند خراسان . ونسبته لمرو ، قاعدة الاقليم وهو الذي أصبح قاضيا للقيروان فى عهد عبيد الله وغدا محورا لكثير من قصص اضطهاد أهل السنة (120) ، ولم ينسب اليه اي دور قبل ظهور الفاطميين

117 ــ النعمان : افتتاح الدعوة ورقة 46 (82 ط . بيروت) .

118 ــ النعمان : افتتاح 45 . (81 ط . بيروت) ويشير النعمان الى غيره من المتشيعين من فرع الساليين نسبة الى سالم جدهم الأعلى ومما ينسب اليه قوله لابنه : « كنا من امره على وفاء فان رايت انه قصد اليك فخل بين يديه ، والحق بي الى بلد الروم فليس لك به طاقة ، وهو صاحب قطع دولتنا » انظر ورقة 81 (121 ط . بيروت) .

119 ــ نفسه ورقة 51 (88 ط . بيروت) .

120 ــ ابن عذاري : المصدر 1 ، 207 ــ 208 .

مما يشير الى خموله وعزلته عن الحياة السياسية والادارية ، لأنه كان على غير مذهب الدولة وقد توفي فيما بعد برقادة 303 هـ / 915 ـ 916 م مغضوبا عليه ، بعد تعذيب شديد تعرض له باشارة عبيد الله ودفن بباب سالم ليلا (121) .

ـ ويشبهه فى وضعه فى عصر الدولة الأغلبية ، ابو حنيفة النعمان بن محمد بن حيون التميمي ، لأنه كان متشيعا فبقي مغمورا ولم يزدهر الا فى العصر الفاطمي حيث ظهر فجاة على ما هو عليه من النضج الفكري والعقائدي (122) ، مع ملاحظة انه من نفس القبيلة التي ينتمي اليها الأمراء الأغالبة .

ـ وفيما ذكره ابن عذارى عن قصة ابن البريدي محمد بن حيون الذي كان كاتبا خاصا لابراهيم فسجنه ولما استعطفه من داخل سجنه ليعفو عنه رفض وأمر بوضعه فى تابوت حتى مات (123) ، ما يبعث على التساؤل هل أن هناك علاقة قربى بين هذا الكاتب المغضوب عليه ، وبين أبي حنيفة النعمان بن حيون ؟

وهل أن ذلك يرجع لأمر عقائدي او وظيفي فقط ؟

ـ وكان بعض رجالات الدولة الأغلبية من غير فئة الكتاب يبطنون التشيع ويردد بعضهم أخبارا عن قرب ظهور دولة جديدة كما يهتم آخرون بكتب التنجيم وقد لصقت التهمة ظلما بأشهرهم وأظهرهم فى الحياة السياسية وهو ابن الصائغ الذي قيل انه أساء التدبير ولم يخلص فى النصيحة للامير زيادة الله الأخير ربما بدافع تشيعه ، ويستند بعض المؤرخين على قوله للامير « ارحل الى مصر سرا واستخلف على افريقية قائدا تجعل له أمر العساكر وتترك له الأموال » (124) .

ـ وبجانب تشيع الرجال ، نلاحظ أن تأثير الدعوة ظهر أيضا فى ميدان القصص الشعبي . ومن ذلك اشارة بعض النصوص الى أن الداعي لما دخل أرض كتامة ممتطيا بغلة شهباء ، ومر فى طريقه برجل وابنه وسألهما عن أسم كل منهما وتبين ان اسم الابن « تمام » واسم أبيه معارك ، استبشر

---

121 ـ ابن عذاري : المصدر 1 ، 241 .

122 ـ كامل حسين : ادب مصر الفاطمية 64 ـ 65 ابن خلكان : المصدر 5 ، 48 ويشير الى انه كان مالكيا ثم اماميا واصبح اسماعيليا فى آخر الامر وقد وصفه بالداعي (نقلا عن ابن زولاق) ، انظر 49 منه أبو المحاسن : المصدر 4 ، 106 ـ 107 ويروي انه كان حنفي المذهب ، قبل ان يصبح اسماعيليا ، ماجد ظهور خلافة الفاطميين 22 ـ 23 .

123 ـ ابن عذاري : المصدر 1 ، 161 ـ 162 حسن حسني عبد الوهاب : مجمل تاريخ الادب التونسي 65 ـ 67 (ط 1968) .

124 ـ نفسه 1 ، 194 .

الداعي بالفأل ولخص انطباعه بقوله « تم أمرنا ان شاء الله لكـن بعـد معـارك » (125) .

ـ وحينما مر الداعي على معلم للصبيان ، وبدأ يطيل النظر اليه ، استراب فى أمره وسأله عن سبب ذلك فأخبره بما كان شائعا متواترا فى بلد كتامة ، ضمن أخبارها القديمة التي تشير الى أن الحروب القبلية عندما كانت تشتعل بينهم ، كان أحد كهنتهم وعرف بأسم « فيلق » ، يقول لهم انما ترونه الآن من فتن ، هو قليل اذا قيس بما سوف ترونه « اذا جاءكم الرجل الشرقي صاحب البغلة الشهباء » (126) .

ـ وعندما نزل الداعي ضيفا على أحد شيوخ كتامة ، من الذين صحبوه من مكة استراب فى أمره معلم آخر وفارق الناحية وهجر التعليم ، لأن الشيخ الكتامي ، قدم الداعي لامامة الصلاة ، وأخر معلمه على غير العادة المألوفة ، كما عامل الداعي معاملة من يعرفه جيدا اذ عانقه أمام المعلم (127).

ـ وكان يعقوب بن المضاء ، وهو من أسرة بني الأغلب التميميين يملك ضياعا كبيرة بناحية جزيرة جمة ، حيث ستقوم مدينة المهدية ، فكان هذا الأمير ، يأتيها ويجول بالمكان وهو يقول «هذه صفة الجزيرة التي يقال أن المهدي يبني مدينته عليها » (128) .

ـ أما ابراهيم بن أحمد من الأمراء ، فكان يتحاشى ذكـر الداعي فى المجالس ، ويحاول أن ذكر ان يقلل من شأنه ، أمام الملا حتى لا تتأثر الروح المعنوية لكنه كان يردد أمام أقرب خواصه قوله (والله لو دخل على هذه المدينة من باب ، لخرجت بين يديه من باب آخر ، والله لكأني أنظر الى أكسـية أصحابه منشورة على شرفات قصري هذا) (129) .

ـ وبلغ تأثير القصص واستنتاجات المنجمين لدرجة أن شيوخ القيروان وفقهاءها ومن ضمنهم ابن عبدون الحنفي ـ قد ذكروا فى مجلس الداعي

---

125 ـ نفسه 1 ، 168 .

126 ـ ابن عذاري : المصدر 1 ، 169 .

127 ـ نفسه 1 ، 169 ـ 170 .

128 ـ النعمان : المصدر السابق ورقة 54 (90 ـ 91 ط . بيروت) ويلاحظ ان ناشر افتتاح الدعوة وقع فى خطأ ، اذ قرأ الكلمة حمه بالحاء ، بدل الجيم وهي القراءة الصحيحة وبناء على خطأ فى التقدير ذكر ما يوجد فى تونس من قرى باسم حمه ، يقصد (حامة) انظر هامش 1 ، وعن جزيرة جمة التي بنيت بجوارها المهدية انظر : ابن عذاري 1 ، 234 .

129 ـ نفسه ورقة 45 (81 ط . بيروت) وهو قصر الصحن الذي نزل به عبيد الله فيما بعد .

ابي عبد الله فى رقادة انهم ما سمعوا بشيء من الحدثان أصح من هذا الذي قيل عن سنة ظهور دولة المهدي فى افريقية .

ـ واعترف أحد المتشيعين وهو أبو اليسر ، للداعي بعد دخوله رقادة بأن الرواة كانوا يقرءون بيتا شعريا بطريقة تشعر بأن ظهور دولة المهدي يقع فى سنة 290 هـ 902 ـ 903 م فكنا نرى ذلك مخالفا للتنبؤات (130) .

ـ ولم يقتصر تأثير الدعوة الشيعية على الرجال او على القصص الأدبي والشعبي بل ظهر ايضا فى ميدان الشعر وعرف مجموعة من الشعراء بتشيعهم واشتغالهم بالتنجيم وترويجهم لقصائد تبشر بقرب ظهور دولة المهدي ، وبزوال نظام بني الأغلب ومن بين هؤلاء :

ـ محمد بن رمضان ، وكان من بين العناصر الشيعية فى مدينة نفطة ، وعرف عنه انتحاله للتنجيم وقرض الشعر الحكمي ، الذي يضمنه دائما ، اشارات صريحة عن زوال دولة بني الأغلب بواسطة حركة يتزعمها آل البيت ومن أجل ميوله الشيعية حاول بنو الأغلب القبض عليه ، ففر من نفطة الى بلزمة واستجار بسكانها، فلم يتخلوا عنه ، فلما حصلت واقعةالبلزميين فى رقادة ، بتدبير ابراهيم بن احمد ، خلد الحادثة بقصيدة طويلة رثى فيها القتلى ونعى على ابراهيم بن احمد وأسرته غدرهم وتشريدهم لآل البيت ، ولكل المتشيعين جورا واستبدادا ، ولم ينس أن يذكرهم بقرب نهاية عهدهم وظهور دولة المهدي وكان لهذه القصيدة صدى واسع وعندما سمع ابراهيم بن أحمد بها ، تأثر لمتابعة هذا الرجل وتظاهر بالنقمة على من ظلمه أو اضطهده لعقيدته الشيعية واظهر استعدادا للعفو عنه ، وتقريبه اليه ، « ولو أتانا لصفحنا عنه واحسنا اليه .. ومثل هذا تزكو عنده النعم وما ينقم عليه تشيعه بل ذلك مما يقربه منا ويدنيه عندنا » .

غير أن الشاعر رفض هذه العروض ، لأنه تأكد من انها مجرد استدراج له لينكل به مثلما نكل بعرب بلزمة . ولقد استمر الى جوار بني مالك من سكان بلزمة ، يرضي عاطفته المذهبية وينفس عن نفسه ، بهجو نظام بني الأغلب وبالتصريح بقرب ظهور دولة الحق :

---

130 ـ والبيت من قصيدة لابن أبي عقب يتنبا فيها بقرب ظهور المهدي ونصه : فى الست والتسعين يأتيك العجب انظر : النعمان : افتتاح ورقة 51 (ـ 88 ط . بيروت) وعن ابي اليسر الشيباني البغدادي ودوره فى الحياة الادارية فى عصري الاغالبة والفاطميين انظر : ابن عذاري : المصدر 1 ، 224 ـ 225 .
وعن بعض الاشارات الى زمان ومكان ظهور عبيد الله المهدي ، التي نسبت فى بيئة المشرق الى بعض آل البيت انظر : المقريزي : اتعاظ 1 ، 54 ابن ايبك الدواداري الدرة 6 : 112 .

فهذا اوان الحق قد حان حينه ... ونونه اهل البغي آن زوالها

هذا رغم انه كان فى ضيافة قوم من بني تميم ، أي من نفس عصبية بني الأغلب لأن هؤلاء أيضا كانوا يعجبون بهذه القصائد المؤثرة التي تشفي غيظهم وتسيء الى عدوهم وتثأر الى حد ما لقتلاهم (131) .

وبقيام الدولة الفاطمية تحققت نبوءته وادرك مجدا كبيرا فى ظلها اذ ولي قضاء ميلة رغم كبر سنه ، وبقي فى منصبه حتى توفي .

— ومن بين الشعراء المتشيعين ، ابن ابي عقب الذي عرف عنه انشغاله بالتنجيم أيضا وكان يضمن قصائده ، اشارات عن علامات خاصة بقيام دولة المهدي فى المغرب ، على انقاض دولة الأغالبة (132) .

— وينسب لأحد شعراء قرية الخربتين ، من ضواحي مدينة تونس وكان ماهرا فى التنجيم وقد احضر للامير رغم أنه طعن فى السن ، ما يوضح معالم التطور الذي سيحصل على رأس سنة 296 هـ / 908 — 909 م بتدخل بربر كتامة ، نصرة لآل البيت ولامامهم المهدي الفاطمي (133) .

---

131 — عن هذه القصيدة انظر النعمان : المصدر السابق ورقة 52 — 53 ، (88 — 90 ط . بيروت) .

ومن ضمنها :

عن الف أروع كالاساد قد قتلوا ... الساعة من سواد الليل اذ غدروا
عن المشرد فى حب الائمـــة مـــن ... آل النبي وخير الناس ان ذكروا
جرعت ضيفك كاسا أنت شاربها ... عما قليـــــل وامر الله ينتظـــر
فدولة القائم المهدي قـــد أزفت ... أيامها فى الذي انبـــــا به الأثر
عن النبي وفيها قطـــع مدتكـم ... يا آل اغلب اهل الغـدر فاقتصروا

132 — ومن ضمن قصائده قوله :

تنقلب الـــدولة فيمـــــا تنقلب ... مهـــدية فى نص اسفـــار الكتب

النعمان افتتاح 50 (86 — 87 ط . بيروت) انظر ابن عذاري : البيان 1 ، 186 عن قصة ظهور النجم ذي الذؤابة فى شهر رجب من سنة 292 هـ ، أي قبيل معركة كينونة الحاسمة .

133 — النعمان : المصدر 48 — 49 (84 — 85 ط . بيروت) ومن ضمن قصيدته يؤيد النسب العلوي لعبيد الله قوله :

ويظهـــــر من ابناء فاطمة امرؤ ... تقـي نقـي العرض جـم المواهب
سمـي نبـي اللـه وابن صفية ... واكـــرم مولود واشرف طـــالب

ـ ومن بين الشعراء المتشيعين فى افريقية محمد بن البديل كاتب أبي قضاعة الذي يبدو من بعض نتف من شعره ، أنه أصبح من الغلاة ومن القائلين بالوهية الامام ، وبعقيدة الحلول لأنه مدح عبيد الله غداة دخوله رقادة ، بابيات فيها مبالغة ، وافك (134) ولم ينكرها فاستاء منه جمهور اهل السنة .

ـ ثم سعدون الورجيني ، وكان شاعرا مشهورا فى العصر الأغلبي ، بنزعته السنية سواء فى مدحه لبعض الأمراء أو فى رثائه ليحي بن عمر (ت 289 هـ / 901 ـ 902 م كما اشترك فى الحياة الادارية وفى حرب صقلية ، وناله الأسر وافتدى غير انه بعد دخول عبيد الله الى رقادة مدحه بقصيدة هامة ضمنها تأكيد نسبه العلوي ، وما جرى له ولداعيه ابي عبد الله من خطوب ومحن كللت جميعها بالنجاح ضد المخالفين ، وأشار الى ما ينتظر ان ينجزه المهدي فى المستقبل من نشر العدل ، والنفوذ الروحي والسياسي فى الشام والعراق ومصر أيضا (135) بحيث أصبح ضمن المحظوظين فى الدولة الجديدة وأعجب به المهدي وداعيته أبو عبد الله فأجزلا له الصلات .

ـ ثم علي بن محمد الايادي ، وكان من بين الذين ازدهروا فى العصر الاغلبي لكنه بقي مغمورا حتى ظهرت الدولة الفاطمية فاشترك فى الحياة السياسية ومدح المهدي وعاصر القائم والمنصور وخلد انتصار الأخير على

---

134 ـ ابن عذاري : البيان 1 ، 220 ـ 221 ، ومما نسب اليه قوله :

حـل برقـادة المسيـح ... حـل بهـا آدم ونـوح

حـل بها احمـد المصفي ... حـل بها الكبش والذبيح

حـل بهـا الله ذو المعالي ... وكـل شـيء سـواه ريـح

انظر : النشار : المرجع السابق 2 ، 522 ـ 523 ابن كثير ـ البداية والنهاية 11 ، 274 .

135 ـ المالكي : المصدر السابق 404 هامش 3 ، الدباغ : المصدر السابق 2 ، 164 النعمان : المصدر السابق ورقة 186 (254 ـ 255 ط . بيروت) محمد طالبي : تراجم اغلبية (مستخرجة من مدارك القاضي عياض) 269 ط . تونس 1968 المقريزي : اتعاظ 73 (ط 1967) ومن بين قصيدته قوله :

هـذا الامام الفـاطمي ومن به ... امنت مغـاربهـا من المحذور

والشرق ليس لشـامه وعراقه ... من مهـرب من جيشه المنصـور

حتى يفـوز من الخـلافة بالمنى ... ويفـاز منـه بعـدله المنشور

خصمه الثائر أبي يزيد بقصيدة طويلة يصف فيها قلعة كتابة ويشير الى تأكيد النسب العلوي ، للمنصور اسماعيل (136) .

* * *

— ويبدو أن آثار هؤلاء المتشيعين — في عصر الدولة الاغلبية من الشعراء والقصاص والمنجمين تعتبر في جملتها ، احدى النتائج الطيبة ، لحركة الدعوة لآل البيت التي هي أقدم من عصر الداعي أبي عبد الله في كتامة ، ولو أن بعضها نتج فيما يظهر عن التوفيق الذي أحرزه أبو عبد الله في هذه البيئة ، بعد استقراره بين سكانها في الثمانينات من القرن الثالث الهجري (137) ، لأنه قبل ذلك كان اما في الكوفة مسقط رأسه أو في البصرة مقر عمله أو في سلمية دار هجرة صاحب الزمان او في بلاد اليمن وصنعاء التي نسب اليها وفيها مدرسة الدعوة ومقر منصور اليمن ابن حوشب .

— فمن هو الداعي ؟ وكيف بدأت صلته بكتامة الى أن دخل رقادة منتصرا ؟ هو الحسين بن أحمد بن محمد بن زكرياء ، كني بأبي عبد الله ، وعرف بعدة القاب تدل في مجموعها على شهرته وقيمته ، وتنوع نشاطه ،

---

136 — أبو علي منصور العزيزي : المصدر 37 ، 48 — 49 وتعليق 47 ايضا من بينها قوله :

فارتقى الملعـــــون من خيفتـــه	في ذرى اعيـط عـــال مصمـــد
فارتقى المنصـــور بالسيف لــه	يوم طعـــن كشآبيب البـــــرد
واتقـــــا بالله في قربتـــــه	عـــن بني احمـــد ناء منفـــرد

137 — ابن عذاري : البيان 1 ، 165 جعله ضمن احداث : 280 مثل ابن الاثير 8 ، 11 وابن الوردي : تاريخه 1 ، 250 — 251 وابن ظافر : المصدر السابق ورقة 42 النعمان ورقة 36 وابي الفداء : المصدر 2 ، 69 النويري 26 ورقة 2 وعنهم نقل :
Julien : op, cit 1155 : (893). Gautier op, cit p. 342. (890). Laroui op, cit p. 124. (893). Vonderheyden op, cit 285.
وحدد كل من المقريزي : اتعاظ 56 وابن خلدون 4 ، 66 وابي المحاسن 3 ، 124 وابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في اخبار من ذهب 2 ، 196 تاريخ وصوله بسنة 388 هـ وبناء على قول بن عذاري : 1 : 171 أن الداعي لم يكشف عن حقيقته علنا الا بعد سبع سنوات ولان عبيد الله لم يهاجر الا في عصر المكتفي بالله والامير ابي منصر (289 هـ) فان تحديد مجيئه بسنة 280 هـ هو الاقرب الى الصواب .

ومنها الشيعي (138) وهو أشهرها ، ثم الصنعاني (139) نسبة لصنعاء باليمن ، وهي مسقط راسه في بعض الآراء ، وبهذا اللقب كان يشهر بحركته ، ويدعي عليه من على منابر القيروان ورقادة وغيرهــا (140) ، وعرف بالمحتسب (141) لممارسته خطة الحسبة في سوق الغزل بمدينة البصرة (142) ، أو في غيرها من مدن العراق (143) ، والمعلم (144) ، لأنه كان لقنا عارفا بأساليب التعليم ، ولدعوة لمذهب الامامة في بدء حياته ، قبـل أن يعتنق المذهب الاسماعيلي في الكـوفة بتأثير دعـاة الاسماعيلية ، ولقلقه من استمرار غيبة محمد بن الحسن العسكري ، وعرف بالصوفي (145) ، لتقشفه في الحياة ومداومته على لبس الخشن من الثياب مع ما اشتهر به من صفاء النفس والورع والأمانة وانما عرف في بيئة افريقية ، بالاهوازي (146) ، لأن مدينــة هرمــز التــي قيــل

138 — البكري : المصدر السابق 51 ابن عذاري ، المصدر السابق 1 ، 164 الدباغ : المصدر السابق 2 ، 177 ابن الوردي : المصدر السابق 250 — 251 القريزي اتعاظ الحنفا 1 ، 55 القضاعي : عيون المعارف وفنون اخبار الخلائف ورقة 176 — 177 ، خ دار الكتب رقم 1779 ابن كثير : المصدر السابق 11 ، 116 ابن الخطيب : رقم الحلل 30 عبد المنعم ماجد : المرجع السابق 85 — جمال سرور : المرجع السابق 19 — مصطفى غالب اعلام الاسماعيلية 246 — ابن خلكان : المصدر السابق 1 ، 443 — 444 انظر :
E.I. (Art Abou Abdallah) T I, p. 76.

139 — ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 166 ، 185 السمعاني — الانساب 355 ابن أبي الضياف : المصدر السابق 1 ، 118 .

140 — النعمان : افتتاح الدعوة ورقة 28 (61 — 62 ط . بيروت) ونص الدعاء : اللهم ان هذا الكافر الصنعاني قد استشرى اشره واستمرى مرتعه كافرا لانعمك مبدلا لدينك مخالفا لكتابك اللهم فالعنه لعنا وبيلا واخزه خزيا طويلا وارح منه عبادك وطهر منه ارضك وبلادك .

141 — ابن خلدون : العبر 4 ، 65 ابن الكرديوس الاكتفاء في اخبار الخلفاء ورقة 368 خ تونس رقم 18593 : ويوجد في معهد المخطوطات بالجامعة العربية تحت رقم 900 المقريزي اتعاظ الحنفا 1 ، 51 المسعودي : مروج الـذهب 1 ، 186 — 187 السلاوي : الاستقصاء 1 ، 79 عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين 85 .

142 — نفسه : ابن حماد اخبار بني عبيد 7 مصطفى غالب : المرجع السابق 246 ماجد : نفس المرجع والصفحة

143 — E.I. (Art Abou Abdallah) T I, p. 76.

144 — ابن خلدون : المصدر السابق والصفحة ابن عذاري : البيان 1 ، 167 ، 408 .

145 — المسعودي : المصدر السابق 1 ، 186 — 187 حسن ابراهيم : المرجع السابق 47 .

146 — النعمان : المصدر ورقة 27 (61 ط . بيروت) . ويبدو ان اللقب اطلق ايضا على ابراهيم الزبيدي مع انه ليس من الأهواز لصحبته للشيعي .

انه ولد فيها من نواحي خوزستان ، أو الاهواز (147) ، وقد أطلقه عليه أحد شيوخ كتامة من باب التقية ، قبل أن يشتهر خبره بين عامة فروع كتامة الذين عرفوه بصاحب البغلة الشهباء (148) ، أو البلقاء (149) ، وبالمشرقي (150) ، لمجيئه من الشرق وقد سمى كل من مال الى رأيه متشرقا ، ويقال عنه أنه (تشرق) أي تشيع ومن ثم كان لقب المشرقي في افريقية يرادف في مدلوله لقب الشيعي (151) . وعرف بالسيد (152) أيضا وتعني صاحب الأمر والمعظم بين القوم ، وكان مساعده ابراهيم بن محمد الزبيدي اليمني ، يعرف بالسيد الصغير تمييزا له عن أبي عبد الله ، وأحيانا يوصف بالهوازي أيضا (153) . وعرف أبو عبد الله في بعض المصادر الأباضية بمولى عبد الله ، وبلقب الحجاني (154) أو الكجاني والصيغتان معا ، الحجاني والكجاني هي تحريف لكلمة الايكجاني ، وهو لقب أطلق عليه كما خلع على أحد أتباعه (155) لاتخاذه قلعة ايكجان مقرا ودار هجرة ، وقد بدا لبعض الباحثين خطأ أن يكون لقب الحجاني ، منسوبا لاجانة (156) وهي فرع من فروع كتامة ، لأن الأقرب هي نسبته الى قلعة ايكجان أو الى فرع بني سكتان الذين أقام بينهم في هذه القلعة .

---

147 ـ المسعودي : المصدر السابق 1 ، 186 ـ 187 ، المقريزي : المصدر السابق 51 ، هامش 3 .

148 ـ ابن عذاري 1 ، 169 .

149 ـ النعمان : المصدر السابق 29 (75 ط . بيروت) .

150 ـ نفسه : 27 ، ابن عذاري 1 ، 171 . ابن خلدون 4 ، 67 ، ابو الفداء : المصدر السابق 2 ، 69 ، ابن الوردي 1 ، 251 .

151 ـ ابو العرب تميم : طبقات علماء افريقية 223 وما بعدها .

152 ـ النعمان : المصدر السابق 27 (61 ط . بيروت) ، انظر حسن الباشا : الالقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق والآثار 345 وما بعدها ، اليماني : سيرة جعفر 129 .

153 ـ نفسه : ابن عذاري 1 ، 210 .

154 ـ الباروني : الأزهار الرياضية في ائمة وملوك الأباضية 292 ـ 293 الدرجيني : المصدر السابق ورقة 109 خ تونس ورسمها : « الكجاني » سيرة أبي زكرياء ورقة 32 خ . خ .

155 ـ اليماني : سيرة الحاجب جعفر 128 ـ 129 حيث اطلق اللقب على بشرى الغلام الصقلبي مولى الشيعي الذي ضمه الى حاشية واتباع المهـــدي منذ لقائهما في سجلماسة .

156 ـ Andre Negre : La Finde de l'Etat Rustomide p. 18 ; n 50.

ومهما قيل حول هذه الألقاب ، ودلالتها المختلفة على شخصية صاحبها ، فالذي يهم أن أبا عبد الله الداعي ، لما اتصل بامام الزمان فى سلمية (157) ، ورآه على حظ كبير من الذكاء واللقانة والنشاط ، ضمه الى سلك دعاته ، ومنحه ميزة حضور مجالس الدعوة فى سلمية ، لفترة ، قبل أن يرسله الى مركز تكوين الدعاة الماهرين فى بلاد اليمن ، حيث يوجد داعيها الكبير منصور اليمن الذي رحب به وأكرمه لسابق تعارفهما وتركه يغشى مجالسه (158) ويطلع على دقائق أعماله ويشاركه فى نشاطاته فى سائر أنحاء اليمن بحيث صار من كبار خواصه ، وهيأته امكانياته وعبقريته لكي يغدو من الدعاة الكبار (159) الذين يجب أن تشتغل امكانياتهم الكبيرة فى جزيرة كبرى من جزائر الدعوة ، حسب رأي الامام (160) ، وداعيه فى بلاد اليمن الذي اغتنم فرصة سماعه بموت الحلواني ، بعد أبي سفيان ، وأرسله حسبما رسم الامام الى أرض كتامة من بلاد المغرب ، بعد أن شيعه حتى حدود بلاد اليمن ، وأوضح له « أن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان وقد ماتا وليس لهما غيرك ، فبادر فانها موطأة ممهدة لك » (161) ، وجعل فى صحبته مساعدا ، يخلفه فيما لو حدث له طاريء غير متوقع مثلما حصل لابن حوشب مع رفيقه ابن الفضل الذي نافق فاستمرت الحركة بوجوده . وقد رافقه عبد الله بن أبي الملاحف مساعده اليمنى حتى أرض كتامة (162) ، برغم أن قصة حواره مع حجيج كتامة لا تشير الى وجود هذا الرجل الى جانبه فى مكة فضلا

---

157 ـ هو محمد الحبيب فى نظر ابن خلدون 4 ، 65 ومحمد بن جعفر عند القريزي : اتعاظ الحنفا 1 ، 51 ـ 52 ابو الفداء : المصدر السابق 2 ، 69 وهو احمد بن عبد الله ابن ميمون الحجة عند ابن ايبك الدواداري ، الدرة 20 وقد سكت النعمان عن تعيين اسم الامام انظر : افتتاح الدعوة ورقة 26 ـ 27 (59 ـ 60 ط . بيروت) بينما ذكر قبل ذلك جعفرا الصادق بالنسبة للداعيين قبله وهو محمد بن اسماعيل عند صاحب الاستبصار 202 ـ 203 وينفرد برواية جديدة عن كيفية اتصال الداعي بالامام على شاطيء نهر دجلة .

158 ـ النعمان : افتتاح الدعوة ورقة 26 (60 ط . بيروت) .

159 ـ ومزاياه كانت مبعث غيرة عبيد الله منه انظر :
E.I. (Art. Abou Abdallah) T I, p. 76 ; et art Dai T I, p. 919.

160 ـ النعمان : المصدر السابق والصفحة .

161 ـ القريزي : اتعاظ الحنفا 1 ، 55 ابو الفداء : المصدر السابق 2 ، 68 وفيه ان ابن حوشب ارسل من قبله الى المغرب دعاة فاجابه أهل كتامة . مما يؤيد فكرة نسبة ارسال الداعيين ابي سفيان والحلواني اليه أيضا .

162 ـ النعمان : افتتاح ورقة 27 . النويري : نهاية الارب 26 ورقة 25 .

عن بلاد المغرب ، التي عرف فيها ابراهيم بن اسحاق الزبيدي فقط ، بصفته مساعدا له وكان يلقب كما أشرنا بالسيد الصغير وبالهوازي أيضا ويبدو أنه لم يكن موفقا فى عمله وفى بعض ما كلف به من مهمات ربما لانحرافه عن القصد ، دون أن يصرح بذلك الا فى بلاد اليمن التي رجع اليها وانضم الى حركة المتطرفين أنصار ابن الفضل (163) .

ــ واذا كان الغموض قد خيم حول خط سير الحلواني ، وأبي سفيان ومركز انطلاقهما ومصدر ارسالهما الى بلاد المغرب ، بدون تهيئة ولا التجاء الى أساليب ملتوية فان الداعي أبا عبد الله وقد أصبحت أرض كتامة موطاة ممهدة ، وفيها مشايعون لآراء أهل البيت ، يبدو أنه قد تصرف مع حجاج كتامة تصرفا غريبا ، وانتجأ الى وسائل كان فى غير حاجة اليها لأن النصوص تشير الى توجهه الى مكة فى موسم الحج لا لتأدية مناسكه وانما لربط الصلة مع الحجاج المغاربة وخاصة مع حجاج كتامة ربما لموعد سابق ، من يدري ؟ (164) تمهيدا للسير معهم الى بلادهم (165) والغريب أنه لم يقصد مجلسهم مباشرة وانما واجههم وبقي يتسقط حديثهم فلما رآهم يتحدثون عن فضائل آل البيت بحماس قوي استحسن ذلك ووجدها فرصة سانحة وانضم اليهم واسترسل فى حديث عن نفس الاتجاه مستخدما مهارته فى الكلام مع حجة ساطعة وبيان ساحر يصدر عن نفس تتقد ايمانا وحماسا فأعجبوا به ورغبوا منه أن يبقى على اتصال بهم فلبى ذلك وما كان يريد غيره وعند ما سئل عن وجهته بعد انتهاء المناسك واجابهم مصر ، التي هي طريقهم الوحيد الى أرض المغرب ازداد سرورهم بدوام صحبته ، وفى الطريق عومل كضيف شرف فأكرموه وهونوا عليه مشقات الطريق نظرا لمزاياه ولعلمه ، والمعلم فى بيئة المغرب وكتامة يظفر بمكانة ممتازة (166) .

وأثناء الرحلة ، بدأ الداعي بأسلوبه الخاص يتعرف على أحوال بلاد المغرب تدريجيا وقد بان له من الحديث معهم أن بينهم عناصر متشيعة (167) تكن حبا جما لآل البيت ، كما أن تقبلهم لفكرة جديدة تخدمهم ليس أمرا عسيرا

---

163 ــ النعمان : المصدر السابق ورقة 28 (61 ط . بيروت) .

164 ــ رواية صاحب الاستبصار ، يفهم منها هذا المعنى انظر 202 ــ 203 منه .

165 ــ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 166 حيث يشير الى « ان الحجيج ليس من مذهبهم الفاسد بل تكلف حضوره ليتسبب فى مراده » .

166 ــ النعمان : المصدر 29 ــ 30 (62 ــ 64 ط . بيروت) ابن خلدون 4 ، 66 ابن الأثير : المصدر 8 ، 11 المقريزي : المصدر 51 ــ 52 .
E.I. Art Abou Abdallah. T I, p. 76 Diehl op, cit T 3, 425. Vonderheyden op, cit p. 285-86. Gulien op, cit T 2, p. 55.

167 ــ النويري : المصدر السابق 26 ورقة 25 .

وهذا هو المهم فى نظره ولذلك بدأ يخطو نحو المرحلة التالية ، التي خصصها للتعرف على شؤون بلادهم وعلى نوع حياتهم السياسية والثقافية والاجتماعية والعسكرية وعلى طبيعة علاقاتهم فى المنطقة سواء مع بني الأغلب فى رقادة او مع ممثليهم فى حواضر كتامة أو مع القبائل الاخرى المجاورة لهم ، ثم تراءى له أن يتعرف أيضا على عدد سكان منطقة كتامة ، وحدودها وحواضرها الكبرى . وقد اتضح له من خلال الاجابات أن الكتاميين ، يعيشون فى اطار تقاليدهم القبلية التي تخصص مكانة هامة للعلماء والكبراء باعتبارهم عناصر للاحتكام ، ثم للفقراء أيضا الذين كانوا ينعمون بزكوات الأغنياء ، وانهم يقدسون ظاهرة الفروسية ، وينأون بأنفسهم عن الضيم ويكرهون التدخل فى شئونهم من طرف الحكام الاغالبة الذين تبعد عاصمتهم عن كتامة بمسيرة عشرة أيام ثم من طرف نوابهم عمال المدن الذين يدارون كتامة ويتحاشون اثارتها لقوة بأسها وكثرة عصبيتها .

وعمال مدن كتامة كان أكثرهم من ولاة الاستيلاء تغلبوا على مناطقهم ومن ثم كانوا فى حاجة الى السلام حتى لا يتيحوا فرصة لتدخل الأمراء الأغالبة أصحاب السيادة على البلاد . وكانت العلاقة بين هؤلاء وأولئك شكلية لا تتجاوز الدعاء لهم على المنابر وكتابة اسمائهم على السكة والاعتراف الرسمي بسلطانهم والاشتراك فى مشاريعهم خارج نطاق افريقية ، انما فى شيء من الحذر والارتياب .

وعرف الداعي ان كلمة كتامة، اسم عام تنطوي تحته قبائل وبطون وأفخاذ وعشائر كثيرة ـ لكن مضاربها متقاربة ، والعلاقة بينها مثل أية علاقة ، فى أي مجتمع قبلي تظهر الفتن ثم تهدأ بالصلح لكن مع ظاهرة الفتن الداخلية فى كتامة فانها كانت مهيبة مرهوبة الجانب من طرف جيرانها بحيث لا يفكر أحد فى التدخل فى شئونها استغلالا لمشاكلها الخاصة (168) .

وهكذا كان حديثه مع وفد كتامة الذين التفوا حول شيخ منهم (169) ، وخاصة مع المتشيعين حريث الجيملي وموسى بن مكارمة (تكاد) مفيدا وباعثا على الاغتباط لذلك لم يتردد اطلاقا عندما عرضوا عليه فى مصر أن يواصل السير معهم الى بلادهم فى الاستجابة « اذا كنت تقصد هذا (أي التعليم) فبلادنا انفع لك ، ونحن أعرف بحقك » وواصل طريقه يحدوه أمل قوي بأنهم سوف يساندونه فى تحقيق المشروع الكبير ، الذي به تنقلب أوضاع المنطقة وتتجسد آمال اهل البيت .

---

168 ـ النعمان : افتتاح 29 ـ 30 .

169 ـ ابن عذاري 1 ، 166 ابن خلدون 4 ، 66 ويذكر ايضا من رجال الوفد مسعود ابن عيسى المسالتي ، وابا القاسم الورفجومي .

ويعبر النعمان عن بعض اهداف الداعي من وراء المحاورة بقوله (وكل ذلك يسألهم ويجريه حديثا لغير علة وهو يعي ذلك عنهم ويستخبر ما يريده منهم لما يرجوه ويؤمله فيهم ، وهم عما يريده بمعزل وهو مغتبط بكل ما سمعه من ذلك) (170) .

اما وفد حجيج كتامة ، فقد اعتقدوا ان في جلبه الى بلادهم مفخرة وحدث لم يسبقهم اليه غيرهم « وانا لنأتي الى بلد كتامة بشيء ما جاء به أحد من كان قبلنا » بل خيل اليهم انهم عندما كانوا يقولون له « لك من أموالنا ما تريد ، لوجه التعليم وعندنا من اخوانك ممن يذهب الى ما أنت عليه ، فلو رأوك ورآك الناس ما رضوك الا لشيوخهم وصبيانهم (171) ، ان هذه الاغراءات والعروض السخيفة ، مما يقوي عزمه ويشحذ همته على قبول مبدأ مواصلة السفر معهم الى بلادهم مع أنه لم يكن في حاجة الى شيء من ذلك . واقل هذه العروض كانت اقصى أمانيه وقد أعد لها الرحلة الطويلة الى اليمن ، ومكة ومصر التي تعتبر مركز تجمع وانطلاق الحجيج المغاربة الى بلادهم ، أو الى الاراضي المقدسة .

ويبدو لي أن قصة تعرف الشيعي بحجاج كتامة في مكة ومانسج حولها في المصادر السنية والشيعية لا تعدو أن تكون قصة مختلقة أو تخللتها مبالغات كثيرة للتأثير لأن تفاصيل الحوار يبدو من خلالها وكأن الشيعي يجهل كل شيء عن الاوضاع السياسية والاجتماعية في بلاد المغرب وفي أرض كتامة خاصة وهو أمر لا يتفق مع مقتضيات الاحوال في هذه الفترة لأن النصوص تشير صراحة الى مدى نجاح أبي سفيان والحلواني في مهمتهما في أرض كتامة ثم ان ابن حوشب اعترف أمام الداعي بأن الارض ممهدة موطأة من اثر جهود الداعيين والنعمان نفسه يذكر أن بعض من قابلهم الشيعي في مكة ضمن الوفد ، كانوا ممن أخذ عن الحلواني أو تأثر به ورجال الوفد كي يقنعوا الشيعي بقبول مبدأ الذهاب الى بلدهم اعترفوا بوجود كثير من المتشيعين وأنصار آل البيت بينهم وانهم سوف يلتفون حوله عند أول لقاء (172) .

170 ـ النعمان : المصدر السابق ورقة 32 ـ 33 (99 ط . بيروت) ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 167 ابن الاثير : المصدر 8 ، 11 .

171 ـ نفسه 33 (67 ط . بيروت) .

172 ـ وقد اعترف الداعي عندما سأله حجيج كتامة عن طريقة معرفته لاسم فج الاخيار بقوله (البلدان توصف للناس ، وتذكر لهم ، وان لم يروها) ويعني هذا القول انه كان مزودا بمعلومات عن المنطقة قبل وصوله اليها انظر النعمان : المصدر السابق ورقة 37 (33 ط . بيروت) .

وقد دلت ظروف الحوار على ان الداعي كان يتصور نفسه وكأنه أول داع اتصل بحجاج من المغرب ، أو بعناصر مغربية من كتامة ، الذين يبدون من خلال الحوار وكأنهم على البراءة الأصلية وان الداعي يستغل هذه الناحية فيسألهم عن اشياء يقصد معرفتها بدقة .

وتبالغ النصوص الاسماعيلية عندما تشير الى أن هؤلاء كانوا منصرفين عن تفهم وتتبع مغازي الداعي وانهم كانوا يأخذون الاسئلة على ظواهرها (173) ، مع أن مستوى اجاباتهم ، تدل قطعا على نضج فكري ، وعلى ادراك وتقدير لواقع الحياة السياسية والاجتماعية والعسكرية في بلادهم وهم قد صرحوا بوجود متشيعين بينهم ولم يؤثر أن الداعيين قبله ، قد تسترا وراء التعليم للتأثير على الناس في خارج ارض افريقية كما لم يذهبا أيضا الى موسم الحج لاصطياد الأنصار ثم هل من المسلم به أن يقبل هؤلاء الحجيج على أحاديث الداعي المستفيضة عن فضائل علي وآل البيت دون ان يخطر ببال أحد منهم أو يتخيلوا انه متشيع أو انه يخفي هدفه الحقيقي الذي دعاه بدون شك ، لاصطناع أساليب خاصة لفرض نفسه عليهم دون دعوة سابقة وجهت اليه .

وتنوع أسئلته ، وتظاهره بأشياء أثناء الرحلة تتصل بالتقشف وحياة الزهد ثم رفض مبدأ الضيافة والامتناع من قبول الأموال التي جمعت لمساعدته ومن أخذ مؤون الطريق لما عرضت عليه ، كل ذلك الا يكفي في حد ذاته لالقاء ولو بذرة من الشك حول نوعية شخصيته وحول نوعية أهدافه في افريقية وفي بلد كتامة ؟ .

وقد لاحظنا انه أحيط بجو من الشك والريبة ، من طرف بعض من رآه ممتطيا بغلته الشهباء كما عاش نفس الجو مع بعض معلمي الصبيان في بيئة كتامة ، لمجرد معاملة خاصة حظي بها من طرف أحد شيوخ القبيلة (174) .

فكيف لا يخطر على بال أحد من رجال الوفد المرافقين له أثناء هذه الرحلة الطويلة ؟ أن الرجل اسماعيلي ، ذو اهداف محددة وبعيدة المرمى لا تمت بأية صلة الى التصوف ولا الى التعليم التقليدي .

كذلك يبدو أن موسم الحج ان كان فرصة للدعاة واصحاب المذاهب والنحل الباطنية مثله ، فانه أيضا خير مناسبة للتعارف ، وللاطلاع عما يجري في أرجاء العالم الاسلامي بما في ذلك بلاد اليمن ، التي جاء منها وفد

173 — نفسه ورقة 32 (66 ط . بيروت) .
174 — ابن عذاري : المصدر 1 ، 168 — 169 .

انضم اليه هذا الداعي . واليمن فى هذه الفترة كانت منطقة اضطراب بسبب انقلاب الأوضاع السياسية فيها لصالح دعاة الاسماعيلية وهما منصور اليمن ورفيقه علي بن الفضل (175) . بينما انحسر نفوذ أهل السنة باخراج بني يعفر عن صنعاء وربما نال الزيدية من ذلك ما قلص نفوذهم أيضا (176) .

ودافع أحداث بلاد اليمن ، والصراع الذي عاشته وبقيت تعيشه لم تكن مجهولة عند وفد الحجيج اليمنيين ، الذين حضروا الموسم . ويمكن أن يساعد حضورهم على نشر ومعرفة أخبار بلاد اليمن ومنها نشاط دعاة الاسماعيلية فيها بين مجموع الحجيج لا سيما المغاربة الذين قيل عنهم انهم كانوا يجهلون كل شيء عن شخصية الداعي قبل أن يكشف عن بعض جوانبها بين اظهرهم وفى عمق بلادهم بقوله مرة « لست بمعلم للصبيان ، انما نحن أنصار آل البيت وقد جاءت الرواية فيكم يا أهل كتامة انكم انصارنا (177) ، وفى مرة اخرى خاطبهم بقوله « انا صاحب البذر الذي ذكر لكم الحلواني وابو سفيان » (178) .

ويبدو أن تفاصيل هذه القصة ، من وحي كتاب المناقب الاسماعيلية الذين يحلو لهم دائما أن ينسبوا لدعاتهم المكاسرين ، ما يدل على المهارة والحذق والقدرة على امتلاك مجامع القلوب والتلون والسيطرة على الأحداث والتزام التقية حتى اللحظة الحاسمة (179) ، وقد نقلها عنهم غيرهم من المؤرخين ، بصورتها أو بقليل من التحوير . والقصص التي تتصل بشخصية الداعي ، قبل أن يستقر فى قلعة ايكجان فى كنف بني سكتان كثيرة ، ومن ذلك قصة مفارقته لوفد كتامة عند القيروان التي دخلها ليتقصى الأحداث

---

175 — وقد دخل ابن حوشب ورفيقه الى اليمن منذ 268 هـ وتحصن فى عدن بجوار بني موسى ، ومن حصن مسور بدأ التوسع ضد صنعاء عاصمة بني يعفر وغيرها من حواضر بلاد اليمن ، انظر النعمان : افتتاح ورقات 12 — 15 ، (44 — 47 ط . بيروت) .

176 — يعود تاسيس الدولة الزيدية (عاصمتها صعدة) على يد الهادي الى الحق يحي بن الحسين الى سنة 284 هـ — 897 م اما قبل ذلك فكان الزيدية باليمن بدون كيان سياسي ونفوذ هذه الدولة كان قويا فى المناطق الجبلية مثل صعدة العاصمة وشهارة وحجة التي اعتصم فيها الامام احمد بعد مقتل والده يحي بن حميد الدين انظر ماضي : دولة اليمن الزيدية 15 — 34 (مقال) المجلة التاريخية مجلد 3 عدد 1 مايو 1950 — عبد الواسع بن يحي الواسعي اليماني : تاريخ اليمن 21 — 23 .

177 — ابن عذاري : 1 ، 170 .

178 — المقريزي : المصدر السابق 1 ، 57 .

179 — ابن ايبك الدواداري : المصدر السابق 97 ، 114 .

ويعرف اخبارا عن أهم القبائل وأكثرها عددا وأصعبها مراسا ، وحين اتضح له ان كتامة هي التي تتوفر على هذه الصفات لحق بأرضها وبالشيخ الذي مال الى رايه وتأثر به رغما عن ميله السابق لآراء الاباضية حسب رواية ابن عذارى (180) .

وتوجد قصة أخرى مغايرة لها تدور حول سفره مباشرة ، مع وفد الحجيج عبر اقليم قسطيلية الى ارض كتامة دون دخول القيروان حيث نزل سوق جمار فى مجال سوماطة وأحلافها الذين رحبوا بقدومه كما رحب به بعض المتشيعين من انصار الحلواني وهم ابو القاسم الورفجومي ، وابو عبد الله الاندلسي وابو المفتش المعروف بأبي حيون الذي واجه الداعي بقوله « والله لأظنك صاحب البذر » وزرع بذرة الشك بين اصحابه ، عندما قال لهم « لولا واحدة كان يقولها الحلواني ما تخالجني الشك فى أنه الذي بشر به من قبل » ، وهي أنه كان يصفه دائما بقوله « فى فيه أصبع » (181) وقد وقعت هذه الافتراضات من نفس الأندلسي موضع القبول لحذقه ومهارته وانشغاله بعلوم آل البيت ، منذ أخذ بالتشيع فى أرض سوماطة وبقي يعلم الصبيان بين أظهرهم ومثله الورفجومي الذي استقر بجوارهم لتشيعه ولارتباط قبيلته بالحلف معهم وقد رافق الداعي الى كتامة دون أن تنكشف له الحقيقة عكس الأندلسي الذي اطلع على السر ، وأخذ العهد على الداعي ولازمه (182) منذ هذا الوقت . وكان كل ذلك يجري بمحضر وفد كتامة ، وبعض من استقبلهم من ابناء قبيلتهم قرب حدود المنطقة وقد فاق اغتباط هؤلاء وسرورهم باصطحاب هذا الرجل الى بلادهم كل حد اذ توسموا فيه خير البلاد هم وقبائلهم (183) وبوصوله الى ارض كتامة تظهر قصة جديدة حول تنازع كتامة واختلاف قبائلها على من يختص بضيافته واقامته فى أمان واطمئنان ولما لم يصلوا الى رأي يرضاه جميعهم احتكموا اليه وخيروه فى الموضع الذي يريده مقاما له فظهر هنا بمفاجأة فج الأخيار وانه الذي يريده مستقرا ومكانا « ثم نأتي كل قوم منكم فى مواضعهم ونزورهم فى بيوتهم ولا نجعل لأحد منكم

---

180 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 168 ، ونص عبارته « واقام بالقيروان يتعرف اخبار القبائل ، حتى صح عنده أن ليس فى قبائل افريقية أكثر عددا ولا اشد شوكة ، ولا اصعب مراما على السلطان من كتامة » .

181 ـ النعمان : المصدر السابق ورقة 33 وما بعدها (68 ط . بيروت) ابن خلدون : المصدر السابق 4 ، 66 والصيغة عندهما متشابهة ، الدواداري : المصدر السابق 113 وما بعدها .

182 ـ النعمان : المصدر السابق ورقة 35 (70 ط . بيروت) .

183 ـ نفسه : ورقة 36 ـ 37 (71 ـ 72 ط . بيروت)

فى نفسي حظا دون أحد » (184) وبذلك انتهى الخلاف وواصل سيره مع موسى بن مكارمة (تكاد ؟) وحريث الجيملي لانهما من بني سكتان الذين يضربون حول ايكجان وهنا نستنتج ان فج الأخيار كان مجاورا لقلعة ايكجان وهو فى مجالات بني سكتان وقبيلة جيملة الكبرى ومن ثم فهو الذي يعرف كما أشرنا بفج الضباب . ويلاحظ أيضا أن الموضع الذي حصل فيه التنازع لم يكن بعيدا فيما يبدو عن مضارب جيملة ، وعن قلعة ايكجان نفسها وانه الذي تفرق منه حجيج كتامة الى جهاتهم المختلفة وهذا فيما يبدو وهو الذي أستند عليه بعض الباحثين فى القول بأن قلعة ايكجان كانت منذ القدم نقطة تجمع حجيج الأندلس وشمال المغرب (185) .

– وفى قلعة ايكجان وبين بني سكتان ظهر الداعي بمفاجاة أخرى للتأثير على مشاعر القوم ولتنبيه احساسهم الديني واشعارهم بالأمر العظيم الذي يجد التأييد والنصرة عند أفضل الناس « ان للمهدي هجرة تنبو عن الأوطان فى زمان محنة وافتتان ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان قوم مشتق اسمهم من الكتمان فانهم هم كتامة ولخروجكم من هذا الفج سمي فج الأخيار (186) . وعندما بدا هذا التصرف غريبا ومذهلا ولم يكن للمرافقين له عهد به ولا بدر منهم حديث اليه فى هذا المعنى بدد حيرتهم وأزال دهشتهم بقوله « البلدان توصف للناس وتذكر لهم ، وان لم يروها (187) ويتضمن هذا القول اعترافا صريحا بأنه قد زود بمعلومات دقيقة من مراكز الدعوة الاسماعيلية ، سواء فى سلمية أو فى بلاد اليمن عن بعض مزايا البلاد التي يقصدها وهذه المعلومات مصدرها من غير شك الدعاة الأوائل وفى مقدمتهم الحلواني الذي اشاع بين سوماطة وكتامة قصة « صاحب البذر » وعلامته الخاصة ثم قصة ظهور المهدي أمام الزمان

---

184 – نفسه ورقة 36 – 37 (71 – 72 ط بيروت) النويري المصدر السابق 26 ورقة 25–26.

185 – حسن ابراهيم : المرجع 49 وهامشها ، ماجد : ظهور دولة الفاطميين 85 هامش 4 وعن بعض المراكز التي كان يتجمع فيها حجيج المغرب انظر اليعقوبي : البلدان 108 وهنا يشير الى ان حجيج السوس الاقصى وطنجة كانوا يتجمعون فى بلد « ملحاص لغانة» من مراكز علي بن ادريس العلوي ، وتوصف ايكجان Ikjan بقاعدة التشيع . Métropole du Chiisme.
انظر : G. Marcais op, cit p. 133.

186 – ابن خلدون : العبر 4 ، 67 ابن الاثير : المصدر السابق 8 ، 11 – 12 المقريزي: المصدر 57 النعمان : المصدر السابق ورقة 37 (73 ط . بيروت) ابن عذاري : المصدر 1 ، 170 وفيه قول آخر نصه « وقد جاءت الرواية فيكم يا اهل كتامة انكم انصارنا والقيمون لدولتنا وان الله سيظهر بكم دينه ويعز بكم اهل البيت وانه سيكون امام منهم انتم انصاره والباذلون مهجتكم دونه وان الله سيتفتح بكم الدنيا كلها ويكون لكم اجركم مضاعفا فيجتمع لكم خير الدنيا والآخرة » .

187 – النعمان : افتتاح ورقة 37 (73 ط . بيروت) .

والحلواني هو الذي ارسل عن طبائع السكان ومعالم بلادهم ، تقارير مفصلة وواضحة الى مراكز الدعوة وهي التي وضعت تحت تصرفه ، وجعلته يتظاهر بمعرفة البلاد وأهم معالمها البارزة ليشعرهم بأهميته وبقوة فراسته وربطه القصص بالواقع الصحيح

ومن اين لابن حوشب فى اليمن وللامام فى سلمية ان يعلما موت ابي سفيان ثم الحلواني بعده ، وان المنطقة بقيت بدون دعاة وان يؤقتا لارسال ابي عبد الله خلفا لهما مباشرة ان لم تكن هناك اتصالات وتقارير عن طريق مبعوثين أو بواسطة قوافل الحج أو التجارة ؟

ــ وفى قلعة ايكجان نشط الداعي فى حركة الدعوة أو التوجيه المعنوي ببسط علوم آل البيت وفضائل علي بن ابي طالب وذريته « فأقبل الناس اليه من كل ناحية » لما سمعوه عنه من حجيجهم . ولما اشتهر أمره وظهر الشقاق بين بني سكتان استترالا عن خواصه ، ثم فارق ايكجان الى قلعة تازروت حيث ظهر من الاستتار (188) وبدأ يباشر العمل الحربي ضد حواضر كتامة وقبائلها المعادية .

ويعني هذا أن حياة الداعي فى كتامة تقلبت بين الاستتار والظهور تقليدا للائمة فى دوري الستر والظهور وتبعا للظروف الخاصة وحرزا على نفسه من المفاجآة غير السارة ولما يكن قد أعد نفسه وانصاره للمواجهة الحقيقية .

وبينما تميز دور الاستتار بالاعداد المادي والمعنوي فى قلعة ايكجان وفى حماية بني سكتان (189) امتاز دور الظهور فى قلعة تازروت (190) بالمواجهة الحقيقية للاعداء والمخالفين فى كنف بني غسمان (191) .

---

188 ــ المقريزي : اتعاظ 1 ، 58 ابن الاثير : الكامل 8 ، 12 .

189 ــ نفسه : 1 ، 56 ابن الاثير 8 ، 11 .

190 ــ هذا هو الرسم الصحيح للاسم وهو الباقي الى اليوم وقد ورد فى ابن خلدون والنعمان انظر ابن الاثير 8 ــ 12 ، وجاء فيه ناصرون ، والمقريزي : اتعاظ 11،58 وفيه ناصروت (بالصاد) وهي تقرب من النطق الصحيح .

191 ــ وردت الكلمة فى افتتاح الدعوة بصيغة تحتمل قراءتها : غشمان او غسمان او عثمان وفى ابن خلدون وفى ترجمة دول لان له جاءت غسمان Ghosman واهمل ذكرها كل من ابن الاثير وابن عذارى والمقريزي وغيرهم ايضا ويبدو ان صيغة عثمان هي الأقرب الى الصواب نظرا لوجود بقايا باسم بني عثمان بقرب هذه القلعة ثم توجد قرية وادي العثمانية فيما بين جبل غروس وعين ملوك اي بالقرب من تازروت القديمة وبين كتامة الريف يوجد أيضا فرع بني عثمان ضمن مضارب صنهاجة فى المغرب الاقصى .

فكيف تغلب الداعي على قسوة الحياة وتقلب الاهواء فى ايكجان ؟ وكيف واجه التحديات وتغلب على الصعوبات من طرف الأعداء والمنافقين فى تازروت ؟

* * *

— تميزت اقامة الداعي فى ايكجان لأول مرة بالهدوء التام الذي مكنه من الانصراف للدعوة ، لتنظيم شئونها ونشرها فى آفاق كتامة وكانت فرصة عظيمة بين أولئك الذين توافدوا عليه من سائر البلاد بقصد الاستطلاع والتمتع بأحاديثه الشيقة عن فضائل آل البيت والتعرف من قريب على ما يشاع حوله من زهد فى ملذات الحياة واقبال على العبادة والتفاني فى أعمال البر ومن هذه الوفود من كان يؤدي واجب الزيارة للطاريء الجديد ثم ينصرف مغتبطا بما رآه وبما سمعه ، ومنها من كان يفضل البقاء بجواره بعد أن يؤخذ بشخصيته ويتأثر بدعوته . وهؤلاء وأولئك كانوا يجدون مقاما طيبا وكرما مستفيضا عند بني سكتان الذين صلح حالهم وعظمت قيمتهم فى نظر سكان الجهة .

وكان للداعي ، مجلس خاص يجتمع فيه مع الوفود ويبث فيه أسرار الدعوة وفضائل آل البيت (192) ، ويتلقى العهد عن المستجيبين وكان كل مستجيب يأخذ عن الداعي من الحقائق ما يكفيه للاقتناع بالدعوة دون بحث أسرارها فاذا طلب المزيد للكشف عن حقيقتها اكتفى الداعي بقوله له « أبلغ توقن » (193) وهو رمز غامض اختلقه لكي يحد به من الاكثار من توجيه الأسئلة اليه عن ماهية الدعوة . وكل مستجيب للدعوة هو اخ بين الاخوان وفى هذا التنظيم الأخوي « الأخية » كان هو الأخ الأكبر والخطاب بين الاخوان لا يكون الا بكلمة (يا أخانا) كما أن التحية بينهم عند اللقاء تكون بالمعانقة . وصيغة هذا الخطاب وعادة المعانقة مازالتا شائعتين بين جمهور السكان فى بلاد المغرب وحتى فى المشرق .

وينفرد رجال الطرق الصوفية باعطاء المريدين لهم ، والمتأثرين بحركاتهم الصوفية لقب « الاخوان » حتى اليوم . أما غير المتشيعين وغير المتصلين بالداعي فكانوا يعرفون أنصاره بلقب المشارقة نسبة اليه (194) .

وكان الدعاة الذين يختارهم لسائر نواحي كتامة يلقبهم بالمشائخ أو المقدمين وهؤلاء كانوا عدته فى نشر المذهب الاسماعيلي بين قبائل الأرياف

192 — النعمان : افتتاح ورقة 40 (73 ط . بيروت) .

193 — نفسه .

194 — نفسه : وانظر 87 ايضا (126 ط . بيروت) أبو الفداء : المختصر 2 ، 69 .

وسكان المدن (195) . وكان نجاحهم عظيما بين سكان النواحي البعيدة عن الحواضر ، وعن تأثير الرؤساء (196) وكان هؤلاء مع سكان الحواضر وعمال مدن كتامة من الذين تباطأوا فى الاستجابة للدعوة خوفا على امتيازاتهم الخاصة من جهة ، وانكارا لهذه الحركة السرية من جهة أخرى (197) ، التي انضم اليها أوساط الناس وسفلة القوم ، ومن يبحثون عن المجد والجاه والثراء (198) .

ونظام الجزاء الذي اقره الداعي بالنسبة للمخالفين من أنصاره كان متقنا يراعي واقع الحياة الاجتماعية فى الجهة ومكانة المخالفين فى الهيئة وطبيعة مخالفتهم . فالعقوبة القصوى وهي القتل كان يعهد بتنفيذها الى اقرب أقرباء المجرم مثل ابيه واخيه حذرا من حدوث نعرات قبلية ، ومن طلب الثار ، أما ماخف من العقوبات فكان يتولى تنفيذها بنفسه ، أو يكلف بها غيره ، ولم ينس فى هذه الناحية ، ماضيه كمحتسب ، فى العراق ، فكان يتدرج فى التعزير على قدر المخالفة ، وكان أميل الى الناحية المعنوية والأدبية من غيرها فيهجر المخالف وينبذه من حضور مجلسه ، ويمنع رجاله من مخالطته حتى يؤوب الى رشده ، وعندئذ يمتحنه امتحانا صعبا قبل أن يرجع اليه اعتباره (199) . وشدته فى هذه الناحية كانت ذات نتائج ايجابية فاحتاط الناس ، وتحروا الصدق والأمانة ، والتزموا بالوحدة المذهبية وبالاحترام المتبادل بينهم « وتركوا الاختلاف فى المذاهب ، وصاروا على أمر واحد ، يتسمون اخوانا ، ويتواصلون سرا واعلانا (200) . كما شاع جو الامن حتى فى اماكن الخوف والخلاء ، واطمأن التجار ، ونشطت الحركة الاقتصادية واتسعت العلاقات بين بني سكتان ، وسائر فروع كتامة ، الذين ارسلوا وفودا يمثلها بعض شيوخ القبائل ، من الذين ادركوا أهمية احتضان الدعوة وجلب الداعي الى بلادهم ومن بين هذه الوفود :

---

195 ــ نفسه : ورقة 87 (127 ط . بيروت) وفيه (واطلق لكل موضع داعيا) .

196 ــ نفسه : ورقة 82 (ط . بيروت) .

197 ــ النعمان : افتتاح ورقة 41 (77 ط . بيروت) وفيه قولهم « لو كان هذا الامر فيه خير ما ستر وما هو الا خلاف دين الاسلام ، وما هذا الذي يتصنعون به الا رئاء يجرون به الناس » النويري : المصدر السابق ج 26 ورقة 26 وما بعدها .

198 ــ نفسه : ورقة 83 ــ 84 (122 ط . بيروت) .

199 ــ النعمان : افتتاح ورقة 85 (124 ط . بيروت) ومثل هذا الاسلوب يتخذه شيخ طائفة العزابة بالنسبة للمخالفين الأباضية حتى وقتنا .

200 ــ نفسه : 87 (125 ــ 126) .

أ) وفد عن قبيلة مسالتة ، يراسه هرون بن يونس ، الذي لقب فيما بعد شيخ المشائخ لظهوره بين زعماء القبيلة ، وقد انتدب لمهمة اقناع الداعي للانتقال الى مضارب قبيلته . وما كان ليجرؤ على هذا التصرف ، لو لم يكن مفوضا من طرف الاغلبية ، ودلت الاحداث التالية على صدق رغبته وعلى عميق اخلاصه للدعوة الاسماعيلية ، وهو الذي بادر قبل غيره بمواجهة عبيد الله بالشك فى نسبه وفى مهدويته ، وفى صلاحيته للامامة ، وغدا محورا للمؤامرة الكبرى ضده ، كما وقف ضد شق المعارضين للدعوة فى قبيلته الذين كان يتزعمهم فتح بن يحيى (201) . والسر فى كل تصرفاته اخلاصه العميق للداعي ، وللدعوة التي ارتبطت به .

ب) ثم وفد عن قبيلة عثمان ، يراسه الحسن بن هرون الذي دعا الشيعى باسم قبيلته لكي ينتقل الى قلعة تازروت ، وقد عرف بأصالة الرأي وحسن الاخلاق والوعي الكامل بين اغلب افراد قبيلته ، لذلك كانوا يقدمونه على أخيه محمود بن يونس الذي كان يكبره وينافسه فى زعامة القبيلة والتطورات التي حصلت فى ايكجان ، وجعلت الداعي ينتقل الى مضارب قبيلة الحسن بن هرون ، تحمل دلالة قاطعة على أن دعوته للشيعى فى بدء الامر كانت صادرة عن اقتناع تام واخلاص عميق للدعوة رغم كيد المعارضين له من بين قبيلته بتأثير حسد أخيه (202) .

ج) ثم وفد اجانة ، وتزعمه أبو يوسف ماكنون بن ضبارة ، وابن أخيه الشاب أبو زاكي تمام بن معارك ، الذي أثار انتباه الداعي ، بسبب حيويته ونباهته وشواهد اخلاصه (حتى كان يخدمه بين يديه لا يفارقه) وقد تفرس فيه ، وتحققت فراسته فيما بعد حيث أصبح من أخلص رجاله ومن أركان المؤامرة التي استهدفت ابعاد المهدي عن الامامة وقد وقف هو وعمه ضد الاتجاه المعارض للدعوة الاسماعيلية

---

201 — ويلاحظ أن دور مسعود بن عيسى بن ملال المسالتي فى احداث مسالة بقي غامضا مع أن ابن خلدون ذكره ضمن وفد حجيج كتامة الذين تاثروا بالداعي وصحبوه الى المنطقة .

202 — النعمان : افتتاح ورقة 38 (73 — 74 ط . بيروت) ابن عذاري : البيان : 171 — 172 ويشير فى مسحة من الغموض والاجمال الى صراع من اجل الدعوة بين اخوين ، ادى فى نهاية الامر الى تآمر المستجيب للدعوة على اخيه ، وقتله وتقبل العزاء فيه كما حمل جماعته بعد ذلك على الاستجابة للدعوة التى حارب فى سبيلها سبعة أعوام فلما توفى اوصى أبا عبد الله بابنائه من بعده كما حث قومه على الالتزام بطاعته حتى يظهر امره : ويبدو أن هذه القصة تعني ما وقع بين الحسن ابن هارون واخيه فى تازروت .

فى قبيلة اجانة الذي كان يتزعمه فرح بن حيران (203) رئيس اجانة.
ويلاحظ على حركة الوفود انها :

ـ كانت فى عمومها ، اثر اشتهار أمر الداعي فى ايكجان بالخير ، والحياة الفاضلة المثالية .

ـ وتعتبر أيضا احدى النتائج الايجابية لحركة الدعاة المحليين الذين انبثوا فى سائر منطقة كتامة وكان دور المراة الكتامية فى حركة الدعوة بين النساء وفى تهيئة جو الراحة للذين استقروا فى ايكجان ثم فى القيام بمهمة صاحب البريد لربط الصلات بين الانصار ، وتسهيل مهمة الزوار ، خاصة فى أوقات الفتن الداخلية ، حيث يمنع على غير النساء المرور فى مجالات القبيلة كان هذا الدور ايجابيا (204) . ولدينا أمثلة على ذلك ، امرأة يحيى بن يوسف المعروف بابن الاصم الاجاني ، التي تأثرت بزوجها الذي أخذ عن الحلواني ، وجمع مالا لمساعدة صاحب البذر ، واوصى زوجته بعد وفاته أن تبلغ الامانة الى صاحبها عند ظهوره ، فنفذت الوصية والتزمت بالدعوة الاسماعيلية وكانت تهيىء (الطحين ، وتعالج الطعام) للانصار وضعفاء القوم والنزلاء حتى « ادمت يداها » .(205) ثم أم موسى، بنت الحلواني التي قيل انها بلغت مرتبة الدعاة ، وغيرهما كثيرات من نساء وعجائز كتامة اللائي كن يربين أبنائهن على طاعة الداعي وحب المهدي والتعلق بآل البيت كما كن يدفعن ازواجهن الى التضحية فى سبيل انجاح الدعوة ورضا الداعي حتى قيل أنهن كن فيما بعد يحلفن باسم المهدي ويستنجدن به فى الازمات . وفى كتاب المجالس والمسايرات قصص كثيرة عن شواهد اخلاص نساء كتامة للائمة الفاطميين (206) .

ـ وكانت حركة الوفود لا تعبر غالبا عن الاجماع التام من طرف كل قبيلة وانما كانت برهانا قويا على ظهور الاتجاه وسيطرة رجاله على غيرهم ضمن القبيلة ، وقد لاحظنا أن مجموعات من بين هذه القبائل التي ارسلت

---

203 ـ نفسه : انظر 57 منه (94 ط . بيروت) النويري : المصدر السابق 26 ورقة 26 .

204 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 168 وفيه قوله « فصرفوه (الداعي) مع امراة تدله على الطريق لان الحرب كانت بينهم وبين بني عمهم » .

205 ـ النعمان : افتتاح ورقة 91 ـ 92 (132 ـ 133) ط . بيروت) .

206 ـ النعمان : المجالس والمسايرات 1 ، 150 وما بعدها وفيه قوله (ولقد كانت وصاياهم وكتبهم تاتينا يامرننا بالصبر مع ولي الله والا نعطي لمكانكم الدنية لاعداء الله انظر افتتاح الدعوة 89 ـ 90 ، (131 ط . بيروت) وفيه « لم تكن أمة من الامم ولا اهل قرن ، ولا قرون على مثل ما كانوا عليه ، وهم فى ذلك على منازل بحسب نياتهم واجتهاد رجالهم ونسائهم انظر عن بعض نماذج من الرجال الذين ضحوا بكل ما يملكون لفائدة الدعوة ، 91 منه (132 ط . بيروت) .

وفودها الى ايكجان ، بقيت معارضة للاتجاه الجديد ، بل قاومته بنفسها ثم وقفت الى جانب من قاومه من عمال المدن الكتامية ، وقادة الجيوش الاغلبية . وعندما لم توفق ، هاجر جميعها خارج أرض كتامة حيث توزعوا فى الآفاق المغربية ومن ثم لاحظنا انهم فى مهجرهم الجديد احتفظوا بتقاليدهم السنية وبمذهبهم المالكي . وكانت عوامل المنافسة على الرئاسة والعصبية القبلية والخوف من ضياع الامتيازات الى جانب طابع السرية فى النحلة الجديدة ومخالفتها للدين وللتقاليد السنية والمالكية خاصة وراء استمرار حركة المعارضة وقوتها ، فقد كره بعض القادة ان ينضموا الى الحركة بعد أن سبقهم غيرهم اليها . وامتنعت بعض القبائل من الاخذ بها كراهية فى أن تصبح تابعة للقبائل التي اكتسبت ميزة السبق ، وعارضها شق من قبيلة ما ، بسبب انضمام الشق المنافس له فى زعامة القبيلة ، وهنا نشير الى أن التناقض لم يقتصر على الاباعد بل ظهر بين الاقارب والاخوة بحيث فرقت الحركة الاسماعيلية بينهم ومهدت بلادهم لفتن عامة وثورات داخلية وتصفيات جانبية يقف فيها الاخ ضد أخيه والاب ضد ابنه والقريب ضد قريبه .

ـ ولم تأخذ حركة الوفود الصبغة العامة ، بحيث تنطلق من سائر أرجاء كتامة وتمثل مختلف قبائلها وانما اقتصرت على أقليات منها ، تمثلها أغلب اجانة وعثمان ومسالتة وجيملة بينما بقيت فروع متوسة ، ولطانة وملوزة ولهيصة ولوزة ، واقليات أخرى من جيملة واجانة ومسالتة خارج اطار الحركة الجديدة ولهذه وزنها ولزعمائها نفوذهم ومن ثم أصبحت هذه القبائل المعارضة مبعث القلق والبلبلة فى المنطقة ومصدر الكيد للحركة وللتآمر على حياة الداعي وهو بين بني سكتان ، فى قلعة ايكجان . (207)

ـ وتمثلت حركة المعارضة ، فى بدء الامر فى القيام بحملة اشاعة مركزة ضد الداعي وضد انصاره من بني سكتان ، وضد الحركة الاسماعيلية عموما ثم تحولت الى الضغط على بني سكتان لتسليمه ، أو لتنظيم مجلس للمناظرة فيما يدعيه ، وانتهت بنجاح المتآمرين فى التأثير على بيان بن صقلاب شيخ بني سكتان الذي أقنع قبيلته باخراجه من ايكجان .

ولقد اشترك فى الحملة ضد الحركة : كل المحافظين على تقاليدهم القبلية ومذهبهم السني ، وانضم اليهم الذين تضرروا من الاجراءات

---

207 ـ ويلاحظ ان زعيم بني سكتان بيان ابن صقلاب بقي حتى هذا الوقت متحفظا من الحركة ولم ينضم اليها وغموض موقفه هو الذي شجع حركة المعارضة على العمل لطرد الداعي وتشتيت انصاره ، انظر : النعمان : افتتاح الدعوة ورقة 58 95 ط . بيروت) أما زعماء المعارضة فهم : الامير فتح بن يحي (مسالته) ومهدي بن كيناوه (لهيصه) وفرح بن جبران (اجانة) وتميم بن فحل (لطانة) وزيادة (متوسة) .

الصارمة التي سنها الداعي بينهم ، وكانت نقطة الضعف في الحركة سريتها وغموض أهداف صاحبها « ولو كان هذا الامر فيه خير ما ستر وما هو الا خلاف دين الاسلام » وكثر المرجفون واشتد النقاش واحتد النزاع لدرجة أن أصداء ذلك بلغت ميلة،وغيرهامن حواضر كتامة . فأرسل موسى بن العباس عامل ميلة يطلب تسليمه اليه ليناظره علماء المنطقة في حقيقة ما يدعو اليه ، وعندما رفض بنو سكتان طلبه ، بحجة انه ضيف مستجير ويخشون أن تلحقهم المعرة بين القبائل ان لحقه مكروه ، انذرهم بحملة انتقامية قد يقودها ابراهيم بن أحمد ضد منطقتهم ، ان سمع أخبار هذا الرجل . وبدأ يهيىء لاثارة فتنة داخلية بين فروع جيملة وغيرها ، غير انه فشل في مشروعه الجديد لدافع العصبية وكراهية فروع القبيلة الحرب الداخلية فيما بينها أو مع غيرها « انفوا أن يكونوا له يدا على أهل بيوتاتهم مع غيرهم » (208) . وكانت غاية أمله أن يظفر بالداعي ليخمد حركته ، ويبدد شمل أنصاره لا كراهية في الحركة وفي أنصارها وانما خشية على مصيره فيما لو سمع ابراهيم بن أحمد عن حقيقته وأتى لاخراجه من المنطقة حيث تكون فرصة له لتأكيد نفوذه فيها بعزل ولاة الاستيلاء المتطرفين عن مركز الدولة (209) ، ولقد اتضح ذلك من خلال الرد الغامض المزيف الذي صاغه عامل ميلة اجابة على استفسارات صاحب السيادة على المنطقة (210) .

ـ ولم يبق بعد فشل عامل ميلة ، غير فرصة واحدة تتمثل في مدى التأثير على بيان بن صقلاب ، لتحويل وجهة قبيلته ، وهذا الرجل وان بقي على عقيدته القديمة ، ولم يجاهر بني قومه بالعداء بسبب أخذهم بناصر الحركة الاسماعيلية لدافع العصبية ، فانه بقي نقطة الضعف أو الثغرة الوحيدة في تكامل موقف بني سكتان ازاء المعارضين الذين تحاشوا الحرب باعتبارها عامل قوة للداعي ولانصاره ، واختاروا عوضا عنها استخدام السياسة وأسلوب الاغراء ليؤثروا على زعيم القبيلة « فان أجابنا افترق أمر بني سكتان وأمكننا فيه ما نريده » (211) .

---

208 ـ النعمان : افتتاح ورقة 41 (77 ـ 78 ط . بيروت) .

209 ـ ومنهم : علي بن عسلوجه التميمي عامل سطيف وحي بن تميم عامل بلزمة وكان الجميع متفقين على ضرورة ابعاد ابراهيم بن أحمد عن المنطقة خيفة منه .

210 ـ نفسه : ابن الأثير : المصدر السابق 8 ، 12 ونصه « بانه رجل زاهد متقشف خير » .

211 ـ النعمان : افتتاح ورقة 58 (95 ط . بيروت) النويري : المصدر السابق 26 ورقة 26 ـ 27 وفيه عن بيان بن صقلاب قوله : « ولم يكن له يومئـــــذ دخل في أمر الشيعي » .

وكانت خطتهم أن يثيروا نخوة بيان بن صقلاب ، ويعدوه لرئاسة قبائل كتامة كلها ، ويشرحوا له ما سوف يحيق ببني سكتان ، وبالمنطقة كلها من نذر الشر والفتن الاهلية ، ومن احتمالات التدخل الخارجي « فانه ان تمادى أمرهم على كونه عندهم ، لم يدعهم الناس ، ولا تؤتمن حركة السلطان اليهم » (212) ، وكان هدفهم أن يصبح طريدا ، فيقتل أثناء خروجه من حماية بني سكتان وتنتهي حركته السرية ، غير أن بيانا بن صقلاب الذي لم يخل موقفه من النبل ، ومن احترام تقاليد القبيلة فى حماية الضيف والمستجير برفضه مبدأ طرده من القبيلة أو تسليمه على أساس « ان فى اخراجنا اياه ، وطردنا له نقصا علينا » (213) ، اقترح على القوم عقد مجلس لمناظرته فيما يدعيه « فان كان محقا فما أولانا بنصرته واتباعه وان كان مبطلا افتضح أمره بين أتباعه فيرجعون ويمكننا حينئذ اخراجه » (214) . ومع رفضهم لمبدأ اشتراك علمائهم البسطاء (215) فى مناظرة مع الداعي، الذي أوتي علما، ودهاء وفصاحة، ووضوح بيان (216) فانهم عزموا على التستر وراءها لقتل الداعي عندما يخرج للمناظرة ، ويلاحظ أن الداعي فى غمرة هذه الأحداث اختفى ، وفرض على نفسه الستر ، وانتقل الى حيث لا يعرف مكانه غير خواصه الذين لازموه خوفا على حياته واستمر فى حياة الستر ، حتى بعد أن سمع فشل المعارضين وانسحابهم منهزمين بسبب اجتماع فروع قبيلة جيملة كلها ضدهم ، بفضل بيان بن صقلاب وموقفه الحازم ، لأن الداعي تيقن أن أسلوب الاغراء والمساومة سوف لا ينتهي عند هذا الحد ، وقد كان محقا فى اعتقاده لأن القوم وقد افتضحت أساليبهم وتظاهروا بالندم والقوا مسؤولية ما حصل على عناصر متطرفة من غيرهم (217) .

استمروا فى الضغط على بيان بن صقلاب ، انما على أساس انه المنقذ الوحيد لحلف كتامة من شر هذه الحركة السرية ، التي « عادى من أجلها ، الاخ أخاه والابن أباه والقريب قريبه وكفر من صار اليه ، من تخلف

212 ـ نفسه : ورقة 58 .

213 ـ ورقة 59 (96 ط . بيروت) .

214 ـ نفسه .

215 ـ نفسه : 61 (98 ط . بيروت) وفيه « وعلماؤنا بربر ، وقـوم ليست لهم تلك الاذهان وان ناظروه ظهر عليهم ولم يجدوا حجة يحتجون بها عليه ، وكان ذلك زيادة فى فتنته وتقوية امره » .

216 ـ ابن الأثير : المصدر السابق 8 ، 11 المقريزي : اتعاظ 1 ، 58 ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 167 .

217 ـ النعمان : المصدر السابق ورقة 60 (98 ط . بيروت) .

عنه » (218) وبقوا يضربون على وتر العاطفة ويبرهنون على صدق نياتهم ، حتى وافق على التدخل عند بني قومه ليخرجوه من ايكجان (219) ، وفي هذه الفترة العصيبة من حياة الدعوة تعرض الداعي لأول امتحان شاق وبدا فيه كأن الحركة الكبرى قد آذنت بالزوال وعقد الانصار والحلفاء قد انفرط ، لكن الداعي بقي رابط الجأش ولم يستجب لغير نداء العقل ولنصيحة ذويه وذلك بأن يترك مركز الفتنة الى حيث يتوفر الامن في تازروت ، استجابة لدعوة كريمة وجهت من قبل اليه من شهم كريم ، هو الحسن بن هارون « لأن كونه عنده ، أعز للدين وامنع له وللمؤمنين » (220) .

— وقد انتقل الداعي الى تازروت واتخذ عثمان وأحلافها أنصارا وأعوانا وصحبه في هذه النقلة كثير من أصحابه وغدت ايكجان لأول مرة خالية من عناصر القوة والمجد لا يقصدها أحد من أرجاء كتامة الذين تحولوا في هذه الفترة عنها ، الى المركز الجديد في تازروت ، الذي فاقت أهميته مركز ايكجان ، وأصبح الحسن بن هارون بفضل ايوائه للداعي ، من أشهر زعماء كتامة ، كما حظيت قبيلته بشرف عظيم . هذا بينما تأثر مركز بني سكتان ولاحت شارات الندم ، على زعيمهم بيان الذي اعتبر نفسه ، مسؤولا على هذا التطور الجديد ، ولم يجد أمام تذمر رجاله وغضبهم مفرا من مراجعة موقفه من الحركة ومن أنصارها فأعلن تأييده لها . ويبدو انه وعد بأن يعمل على التمهيد ، لارجاع الاوضاع في ايكجان الى سالف عهدها(221) .

ونلاحظ أن النصوص ، لم تشر الى موقف كل من حريث وموسى بن مكارمةاللذين صحبا الداعي من مكة . كما أن مصيرهما بقي غامضا واخبارهما منعدمة سواء بعد استقرار الداعي في ايكجان ، أو بعد انتقاله عنها الى تازروت ، ولعل ذلك يفهم منه اما ثانوية دورهما في حياة القبيلة ، أو موتهما المبكر ، قبل أن تظهر هذه التطورات ، ومن المرجح أن احتفاظ بني سكتان بولائهم للدعوة وللداعي واصرارهم على أن يستمر بينهم رغم معارضة بيان — قد تعزى فيما يبدو الى جهودهما ، أو الى أنصارهما من بعدهما ، غير أن النصوص أغفلت الحديث عنهما ، ربما لكبر سنهما ، وتضاؤل

---

218 — النعمان : المصدر السابق 60 (98 ط . بيروت) .

219 — ومما قالوه له « فترى انا نحن وآباؤنا ، واهل المشرق والمغرب والناس كافة على ضلال ، وهذا وحده بين الناس كلهم على هدى وحق سيما وان امره مكتوم والذي يدعو اليه غير معلوم ولو كان حقا وصوابا لاظهره وما كتمه » انظر افتتاح الدعوة ورقة 61 (98 ط . بيروت) .

220 — نفسه 62 (100 ط . بيروت) النويري : المصدر السابق 26 ورقة 27 .

221 — نفسه 63 (101 ط . بيروت) حيث يشير الى ندم بيان وانضمامه الى الدعوة وحماية انصارها .

دورهما فى الحياة العامة للقبيلة لحساب الزعامة الجديدة ، التي كان يمثلها بيان بن صقلاب وأبو جعفر أحمد بن سلمان وأطرابهما (222) .

— وقد تميزت اقامة الداعي فى تازروت بعدة مميزات يهمنا منها :

أ) انه أصبح ضيف شرف على زعيم القبيلة الحسن بن هارون الذي خصه بمكانة لائقة واسكنه بيته وبقي يهون عليه مصاعب الحياة وأثر النقلة الى البيئة الجديدة .

ب) ولقي أنصاره والذين صحبوه الى تازروت من قبيلة عثمان مساعدة جمة واكراما لا حد له ، تأنيسا لهم ، من الوحشة وتخفيفا عنهم من مشقات هذه النقلة المفاجئة .

جـ) وكان تصرف قبائل تازروت تجاه الوفود (223) التي تأتي للسماع وللانضمام الى الحركة تصرفا حسنا بطبيعته لرغبتهم فى أن تصبح بلادهم مركز جذب ومناط اهتمام غيرهم من جهة ، ولكي يشعروا الداعي ، وأنصاره بأن انتقالهم الى تازروت ، لن يؤثر على حركتهم سلبا ، بل يزيدها قوة وانتشارا ويمنحها أبعادا جديدة ، وفى نفس الوقت لن يقضي على صلاتها التاريخية بقلعة ايكجان التي بقي فيها جمع كثير من « الانصار » .

د) وأثناء حركة الوفود ، كان كثير من المتشيعين يفضل البقاء الي جوار الداعي وفى حماية قبائل المنطقة ، وبطول المدة أصبحت مدينة عامرة بالانصار زاخرة بالخيرات ، تمتلىء بالحركة وبالنشاط ولها علاقات واسعة مع بقية أرجاء البلاد .

هـ) وقد كفل موقع تازروت غير المنعزل — للداعي ميزة القرب من حواضر كتامة مثل ميلــة ، وحصن سطيف ، ومن مضارب قبائل هذه الناحية وهي مسالتة ولوزة ولهيصة وملوسة ولطانة التي كانت أصداء حادث الانتقال من ايكجان الى تازروت ، قوية عندها وفى سائر قبائل كتامة الاخرى فمنهم من اغتبط بالتطور الجديد ، وهم قبائل عثمــان وأحلافهما ، ومنهم من تألم لوقوعه وهؤلاء بنو سكتان ومنهم من توجس خيفة من احتمالات المستقبل المجهول وهؤلاء هم أغلب زعماء المنطقة وشيوخ قبائلها ، غير أن الذين تصوروا انهم أساؤوا الى الحركة الجديدة بتدبير حادث الطرد الذي تصفه المصادر الاسماعيلية

222 — النعمان افتتاح : ورقة 98 (140 ط . بيروت) .

223 — نفسه : ورقة 63 (101 ط . بيروت) وفيه قوله (فتسارب اليه الناس وظهر امره وعز جانبه) .

بأنه « هجرة مؤقتة » سرعان ما اتضح لهم خطل رأيهم وسوء تقديرهم بحيث ساعدوا الحركة ، على الانتشار وعلى اكتساب مزيد من الانصار واكسبوها قوة وزودوا داعيتها بتجارب مفيدة وكفلوا له التمتع بميزات الموقع الجديد .

و) وقد كان الداعي فى ايكجان ، شبه المحاصر فى مركز قصي يعيش حياة الستر ، فى أغلب الاحيان ، أما فى تازروت ، فقد لزم الظهور وأصبح فى قلب أرض كتامة وبين قبيلة عتيدة وقفت تدافع عنه ، وعن الشرف الذي حازته .

ز) وادراكا للتحولات الجديدة ، وللمبالغة فى ارضاء عثمان وتشريفها أعلنت تازروت دار هجرة فغدت بذلك ضمن قلاع ودور هجرة الاسماعيلية فى المشرق وفى المغرب .

ح) واقتضى الوضع الجديد مزيدا من التنظيم والاعداد للمواجهة الحقيقية مع المعارضين الذين صح عزمهم على الاستمرار فى ملاحقته ، ولذلك تشير النصوص (224) الى عدة اجراءات يهمنا منها : أن الداعي تمركز بأنصاره فى تازروت (225) ، وقد اتخذ لها سورا وبنى فيها مقرا دائما له (226) وهو الذي احاطه بخندق عند بدء الحرب مع المعارضين ، كما ابتنى أنصاره دورا مستقلة اتخذوها لهم ولأسرهم . وأعظم تدبير سنه الداعي هو تنظيم القبائل المؤيدة له فى مضاربها حيث قسمها الى سبعة أقسام تبركا بالعدد واشارة الى عقيدة الاسماعيلية أو السبعية ورتب لكل سبع منها جيشا متطوعا له قيادته المستقلة (227) ، وهو الذي يتولى مهمة الدفاع الذاتي عن المنطقة الخاصة بفروعه ، ولا يرتبط بغير اوامر الداعي . وهذا التدبير لا يعني فقط التربية العسكرية ومواجهة الموقف الخطير

---

224 ـ النعمان : افتتاح ورقة 71 (17 ط . بيروت) .

225 ـ واعلان تازروت دار هجرة تم على حساب قلعة ايكجان وكان ضربة موجهة لبني سكتان ولبيان بن صقلاب الذي انحنى امام المعارضين ، وحركة بارعة قصد بها الشيعي اعطاء الحصن الجديد أهمية خاصة ليصير مركز تجمع وانطلاق انصاره فى حماية الحسن بن هارون وقبيلته الذين أرضى كبرياؤهم فاصبحوا يعتبرون الدعوة حركتهم القومية .

226 ـ النويري : المصدر السابق 26 ورقة 29 .

227 ـ النعمان : المصدر السابق ورقة 87 (127 ط . بيروت) .

وحصر المسؤولية انما يعني أيضا ان مبدأ التجنيد الاجباري العام قد اصبح ساريا ومطبقا على سائر انصاره (228) .

والذي يلاحظ أن مسحة من الغموض تكتنف ماهية هذا التقسيم واسماء قبائل كل قسم والحدود المميزة له ، وهل اضطر اليه الداعي فى تازروت أو بدأ تطبيقه فى ايكجان ؟ وهل استمر هذا التدبير ؟ أو زال بقيام الدولة . ويبدو أن مميزات هذا التدبير تناسب ظروف الدعوة لحركة ما فى أي مركز من مراكزها انما كان أساسه فى ايكجان وطور فى تازروت بسبب الظرف الخاص واستقر بعد ذلك ، عندما رجع الداعي الى ايكجان لآخر مرة (229)، وبقيت روح التنظيم مستمرة حتى بعد قيام الدولة لاقتناع الداعي بأهميته . وآية ذلك ما ادعاه فى حضرة عبيد الله من معرفته التامة بأخلاق كتامة وسياستها وقيادتها كي يترك شؤونها اليه ، وما نتج عن مصرعه فيما بعد من انتفاضات وحركات احتجاجية فى المنطقة ، يعود بدون شك الى هذا التنظيم الذي ارتبط به داعيا وقائدا وحيدا .

ـ ولقد برهنت الاحداث التالية على صدق فراسة الداعي ، وعلى صواب ما قام به من أعمال وتنظيمات أولية فى تازروت ، أقل ما توصف به انها صيرته فى مركز قوي تجاه المعارضين .

وأن الذين كانوا سبب محنته وهو فى بني سكتان ، كرهوا أن يروه الآن وقد عـز جانبه وكثر أنصاره ، واتسع نفوذه ، فى تازروت التي غدت دار هجرة وحصنا حصينا ، ومعقلا منيعا وحاضرة، ومستودعاً للمؤن ، والعتاد، ولخيرة الانصار ، ولذلك نقلوا نشاطهم التخريبي ضده ، الى قلب قبيلة عثمـــان (230) .

ولمعرفتهم السابقة ، بما بين الاخوين الحسن ، ومحمود ابني هارون من خلاف وصراع على الزعامة فى اطار القبيلة التي كان يتولاها محمود لكبر سنه ـ ثم انصرف الناس عنه ، وآلت مشورتهم وتدبيرهم الى أخيه

---

228 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 172 ونص ما قاله « فصير لهم ديوانا والزمهم العسكرية » وقد طبق اجراء مشابه له على بني موسى فى منطقة عدن لاعة (ابين) باليمن انظر النعمان : افتتاح ورقة 12 ـ 13 الباحي السعودي الخلاصة النقية 28.

229 ـ نفسه : 1،186 حيث يقول « وكان حشده بغير ديوان ، انما كان يكتب الى رؤساء القبائل فيحشدون من يليهم طاعة له ورغبة فيه » .

330 ـ النعمان : المصدر السابق ورقة 64 (102 وما بعدها ط . بيروت) النويري : المصدر السابق 26 ورقة 27 ـ 28 .

الحسن لنباهته وشهرته بسبب تأييده للدعوة (231) ــ استغلوا هذه الثغرة للتأثير على محمود ، لكي يعمل على طرد الداعي أو قتله ويمسك بزمام الرئاسة لا فى اطار عثمان فقط ، وانما على مستوى قبائل كتامة كلها ، باعتباره منقذا جديدا لها من الفتن الداخلية ومن الحركات الهدامة .

وأثناء الاجتماع بين محمود ومهدي بن كناوة رئيس قبيلة لهيصة وصديقه القديم ، ولسان المعارضين اليه . اقترح الأول فكرة اللجوء الى عقد مناظرة بين الداعي وعلماء الجهة ؛ بسبب صعوبة تنفيذ مشروع طرده أو قتله لأسباب منها :

ــ تبني الحسن بن هارون لقضيته .

ــ وكثرة أنصاره فى المنطقة عكس ما كان عليه وضعه فى ايكجان غداة التآمر عليه ، واخلاص معظم قبيلة عثمان له ، وللدعوة ووقوفهم الى جانب الحسن بن هارون للدفاع عن مكاسب المنطقة سوف يؤدي الى حرب أهلية قد تفني بسببها قبيلة عثمان أو تتفرق الى عشائر متنافرة متحاربة (232) .

ومع رفض رئيس لهيصة وحلفائه لمبدأ عقد المناظرة مثلما رفضوه من قبل حاولوا أن يستغلوه ايضا مثلما استغلوه سابقا وكان عزمهم أن ينجحوا هذه المرة فيما سبق أن فشلوا فيه قديما رغم الظروف المناسبة .

وتحرك الداعي فى هذه الفترة العصيبة ، وآراؤه هي التي نجحت فى معرفة نوايا المتآمرين ، وفى ضمان ولاء محمود الحركة بعد أن عرضت رئاسة القبيلة عليه ــ ثم فى التخلص منه وفى الانتقام من المعارضين الذين اثروا عليه وقادوا جموعهم للايقاع بالداعي وتشتيت شمل انصاره (233) .

---

231 ــ نفسه ورقة 63 (101 ــ 102 ط . بيروت) ولما كان الحسن قد عرف تحول اخيه عنه وغيرته منه فقد حاول ان يبقى على وده ويظهر البر به وتعظيمه « خوفا من ان يفرق جماعة عثمان او يدخل فيما بينهما بالشنآن » .

232 ــ النعمان : افتتاح ورقة 65 (102 ــ 103 ط . بيروت) ومما قاله له « ومتى دعوت من يطيعني من عثمان الى اخذه صرنا فرقتين وكانت كلتا الدائرتين فينا ، واهلك بعضنا بعضا » .

233 ــ نفسه : ورقة 66 ــ 67 وقد قتل محمود فى هذه الفترة بعد ان جرح فى المعركة (105 ــ 106 ط . بيروت) فسر الداعي وأخوه بموته لدوره فى التآمر وخلصت الرئاسة للحسن بن هارون لكن بدا للداعي ان يستغل موته فى اخضاع لهيصة بدافع الاخذ بالثار .

ولم يتفطن هؤلاء الى انهم قد أوقعوا بأنفسهم ووضعوا حدا لنفوذهم ولآمالهم فى المنطقة وقدموا للداعي ولانصاره فرصة اشتعال الحرب القبلية ليتمكن فيغمرتها من السيطرة على قبائلهم واحدة اثر الأخرى (234).

وقد اجتازت الحركة فى تازروت هذه الأزمة بنجاح وصفا الجو للحسن بن هارون بعد موت اخيه . وغدا رئيسا علىالجيش وعلمامفردا بينعثمان وسائر كتامة يتمتع بحق الاشراف على سائر أنصار الحركة الجديدة (235) أما عثمان فقد صح عزمهم على طلب الثأر و « صاروا البا واحدا » .

وقد أصبحت لهيصة بسبب علاقتها بالمتآمرين ، ودور رئيسها مهدي بن كناوة فى تهيئة الهجوم على مضارب عثمان هي هدف رجال الحركة الاسماعيلية ، الذين تمكنوا بقيادة الحسن بن هارون من هزيمة لهيصة وتشتيت شمل رجالها ومن بينهم رئيسها الذي ابدى دفاعا حارا أثناء المعركة (236) وقتل بعد انجلائها فى ظروف خاصة على يدي أخيه أبي مديني ، الذي انضم الى الحركة واستقر فى تازروت (237) .

وعندما ساء وضع لهيصة قبلت الصلح وأخذت بالدعوة الاسماعيلية (238) وأصبحت مع عثمان حلفا واحدا وقوة استغلت فيما بعد لاخضاع مزاتة (239) وبعض فروع كتامة التي عارضت الدعوة الاسماعيلية وساندت الأحلاف فى خطتهم الجديدة نحوها .

---

234 ـ نفسه : ومن وصايا الداعي لأصحابه « اركبوا معهم وان قدرتم على ان تلقحوا الحرب فافعلوا » .

235 ـ النعمان : افتتاح ورقة 68 (106 ـ 107 ط . بيروت) وفيه قوله « ولاه ابوعبيدالله اعنة الخيل وقوده على جميع المؤمنين » النويري 26 ورقة 28 .

236 ـ نفسه : النويري 26 ورقة 28 وفيه « اجتمعت عصمان البا واحدا وصحت الرئاسة للحسن بن هارون » .

237 ـ نفسه : /69 (106 ط.بيروت) ابن خلدون : المصدر 3 ، 68 وقارن رواية ابن عذاري عن صراع الاخوين من أجل الداعي 1 ، 171 ـ 172 .

238 ـ نفسه ورقة 70 (108 ط بيروت) .

239 ـ كان لرئيس مزاتة ـ يوسف الفطاشي علاقة مع ابراهيم بن أحمد الذي غمره بالهدايا ومنحه جارية حسناء ابقاء على وده وضمانا لولاء قبيلته بجوار بلزمة ولرابطة الحلف والجوار بقيت مزاته على معاداتها للحركة تاييدا للمعارضين ولذلك كان اخضاعها اولى ثمرات الحلف الجديد وقد امر بعض رجالها ونسائها ومن بينهن جارية الفطاشي التي تخلى عنها واختفى فى مطمورة وهي التي أصبحت أم ولد الداعي الوحيدة ، انظر النعمان افتتاح : 71 (108 ـ 109 ط . بيروت) النويري ج 26 ورقة 28 .

ـ وتضمنت هذه الخطة اشتراك جميع المعارضين للدعوة ، من سائر انحاء كتامة فى فرض الحصار العسكري والاقتصادي على قبائل تازروت حتى تستسلم وتسلم الداعي للقتل أو تقع ابادتهم جميعا .

ـ ورأى زعماء المعارضين أن خير وسيلة للثبات وللنجاح فى هذه الخطة أن يستصحب المحاربون معهم نساءهم وأولادهم وأثقالهم ليستميتوا فى الدفاع عن شرفهم وأموالهم .

ـ كما أن حصار تازروت يجب أن يكون حسب تدبير خاص وتشترك فيه جميع الاحلاف ويأخذ كل قسم منها جانبا من المدينة للتضييق عليها منه حتى تستسلم وتذعن عثمان وأحلافها لرغبتهم وتبعا لذلك حوصرت المدينة من أربع جهات على عدد الكتل التي اشتملت عليها حركة المعارضة وهي كتلة قبائل سطيف وكتلة قبائل ميلة ثم كتامة الحواضر ، وأخيرا مزاتة من الأحلاف .

وكان موقف الداعي من هذه الحركة الخطيرة تنظيم خطوط دفاعه وتحصين المدينة واستنفار جميع انصاره فى سائر الانحاء للمجيء الى تازروت كما اتخذ احتياطات أخرى (حيث برز بمن معه عن تازروت ، وعسكر بناحية منها وخندق على نفسه) ؛ وفى نفس الوقت الذي رفض فيه الاستتار استجابة لرغبة الدعاة والمشايخ احكم نسج خطة سياسية ، كان هدفها تخذيل الاحلاف باشاعة الرغبة فى السلم والموادعة فى اطار الحرية المذهبية والشخصية وقد اعتمد فى تنفيذه لهذه الخطة على أكفأ رجاله ، سهل بن بركاس ، الذي كانت له علاقة خلطة وصهارة ، مع أبي تميم فحل بن نوح اللطاني ، الذي كان ضمن عسكر ميلة المجاورين لارباض مدينة تازروت .

واذا كان الاتصال بين الرجلين لم يسفر عن نتيجة ايجابية بسبب رفض بقية الزعماء لفكرة السلم ، باعتبارها خدعة حرب فان مبادرة الداعي ببدء الهجوم العام بكامل قوته ضد كل فريق على حدة ، كانت مفاجاة مذهلة زعزعت فريق ميلة والحواضر ، ثم فريق سطيف ثم مزاتة (240) ، وضمنت النصر النهائي للحركة الاسماعيلية ضد أخطر مؤامرة داخلية حيكت لتصفيتها ، وانفرط عقد الاحلاف والتجأ زعماؤهم اما الى ميلة او الى سطيف ومن بين من التجأ الى المدينة الاخيرة فتح بن يحيى المسالتي الذي أراد أن يجرب حظه مع قبيلتي عجيسة ، وزواوة للاخذ بثار الهزيمة ،

240 ـ النعمان : افتتاح 71 وما بعدها (109 وما بعدها ط . بيروت) ابن خلدون : المصدر 4 ، 68 النويري : المصدر السابق ج 26 ورقة 28 ـ 29 .

غير أن فريقا من أنصار الدعوة ، ضيقوا عليه حتى انهزم (241) وفارق أرض كتامة الى رقادة حيث عكف هناك ، على التشهير بالداعي ، وبالحركة كي يستنهض همة أبي العباس عبد الله بن ابراهيم بن أحمد للبدء في مقاومة التيار الجديد في كتامة (242) . وقد نجح في تعريض بلاده للاخطار الخارجية وللدمار والتخريب بعد أن فشل بامكانياته الخاصة في حل مشاكلها ومواجهة فتنتها الداخلية .

وقد نتج عن فشل تآمر زعماء المعارضة في كتامة عدة نتائج هامة منها :

– أن الداعي انتصر على جميعهم في أكثر من لقاء .

– وقامت في قلب بلادهم حاضرة ودار هجرة للاسماعيلية هي تازروت .

– وكانت هذه الفتن فرصة ظهر أثناءها أبطال العهد الجديد ، ومنهم الحسن بن هارون وعروبة بن يوسف وأبو زاكي تمام بن معارك وعمهماكنون بن ضبارة وظهورهم كان ارهاصا على أهمية دورهم في حياة الدولة في غير أرض افريقية .

– وقويت عصبية الداعي واشتد ساعده بقبائل عثمان ولهيصة ، وجيملة وملوزة ومزاتة ومجموع مسالتة واجانة ولطانة .

– واتسعت حركة الدعوة حيث شملت عجيسة وزواوة اللتين أصبحت أرضهما موالية ومسرحا للدعاة وللمشائخ (243) .

– أما الاموال والغنائم فكانت كثيرة (244) كما أن شهرة الداعي وانصاره عمت الحواضر والبوادي .

– وعندما شرد زعماء الخلاف وذهبت ريحهم بين ميلة وافريقية غدت المنطقة آمنة ، بل خالصة لرجال الدعوة لا ينازعهم في السيطرة عليها غير عمال المدن الكبرى وأمراء بني الاغلب .

---

241 – نفسه : 79 – 80 (119 ط . بيروت) .

242 – النعمان : الفتاح 81 (120 ط . بيروت) ابن خلدون : العبر 4 ، 69 .

243 – نفسه ورقة 80 (119 ط . بيروت) ابن خلدون 4 ، 69 انظر :
E.I. Art Kahy les T 2, p. 638.

244 – نفسه ورقة 76 – 77 (116 ط . بيروت) النويري 26 ورقة 28 – 29 وفيه كما في النعمان مبالغة في تصوير مقدار الغنائم حتى وصلت قيمة عشرة جمال الى دينار وبيع الحمار بعشر بصلات .

ـ ومع سعة انتشار الحركة وتوفيق رجالها فى الاحتفاظ بمراكز القوة فى مواجهة المشاكل الداخلية (245) ، فان أعظم تحد لرجال الحركة ، واقسى اختبار لقدراتهم انما بدا فى المجال الخارجي ، واذن به خلفاء العباسيين وسهر على تنفيذه بحزم بنو الاغلب أصحاب السيادة الفعلية على مناطق الاضطراب بمساندة ودعم بعض عمال المدن الكتامية وزعمائها الفارين .

فكيف بدات حركة التحدي ؟ وكيف انتهت ؟ وبأي أسلوب واجهها الداعي رغم حملة التشهير والافتراء التي سبقت او تخللت الاعمال العسكرية ضد انصاره .

* * *

ـ يلاحظ أن ردود فعل الخلافة العباسية فى المغرب ، كانت ادبية وغير مباشرة وظهرت متأخرة نسبيا بعد هجرة عبيد الله من سلمية وارتبطت بعصر زيادة الله الاخير .

اما ردود فعل الاغالبة ، فكانت مادية وسابقة ومباشرة ودفعت اليها وصايا المكتفي بالله العباسي وحركتها احداث المنطقة وتوسلات بعض العمال فى مدن كتامة وبعض زعمائها الفارين ، تم انتصارات الداعي ورجاله على مجموع الاحلاف المعارضة ، وانتقاله لمرحلة جديدة فى الدعوة ببدء حركة نشطة لضم مدن وحواضر كتامة وتصفية فلول المقاومة وعناصر الخلاف فيها .

ـ ولما أصبحت ميلة مركزا لتجمع هؤلاء فى حماية عاملها : موسى بن العباس بن عبد الصمد ، وجه الداعي ضدها سلسلة من الاعمال العسكرية الهجومية بقصد الضغط على سكانها وتهيئة جو مناسب لاقتحامها دون تضحيات كبيرة وقد مهد بنو ابي خنزير ورئيسهم الحسن بن أحمد وهم من سكان المدينة منذ القديم السبيل لاطلاع الداعي على ثغرات المدينة وعلى الجو السائد بين سكانها ووسط حاميتها (246) ، وهذه المساعدة هي التي كفلت للداعي ميزة دخول المدينة أمانا ، وبدون خسائر كثيرة ، رغم ما أبداه موسى بن العباس ، مع حامية المدينة وزعماء الفتنة من مقاومة شديدة (247) ، انتهت بعد ان وافق الداعي على منح الامان لموسى بن العباس

245 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 1 ، 58 ويعبر عن ذلك بقوله « واستقام له امر البربر وعامة كتامة » النعمان : افتتاح ورقة 93 (135 ط . بيروت) .

246 ـ النعمان : افتتاح ورقة 93 (134 ط . بيروت) النويري 26 ورقة 29 .

247 ـ المقريزي : اتعاظ 1 ، 58 ابن الأثير : الكامل 8 ، 12 .

وجماعته بتأثير وساطة الحسن بن أحمد بن أبي خنزير (248) لكن الداعي قيد مبدأ منح الأمان بقوله « ما لم يحدثوا حدثا » .

واستمر الداعي ، مخلصا لروح الأمان بعد استقراره فى المدينة ، حيث احسن الى موسى بن العباس واوصى به خيرا حتى سمع بأنه ارسل ابنه سرا ، وهو أبو ابراهيم الى رقادة لطلب النجدة وعندئذ ضيق عليه ، وقتله بعد أن تيقن من صحة الخبر ودفن خارج مدينة ميلة (249) ، كما تخلص من رؤساء الفتنة فحل بن نوح اللطاني ، ثم فرح بن حيران ويوسف بن محمد ووزة بن نصر رؤساء اجانة ، وقد تخلص من الاخيرين ابو زاكي وعمه لتبقى رئاسة القبيلة لهما وتنتهي المشاكل فى اطار قبيلة اجانة (250) .

وكان يمكن أن يبقى الداعي طويلا فى مدينة ميلة لتنظيم شئونها وللاشراف منها على سير المعركة ، لو لم يسمع بتطور الأوضاع فى افريقية عقب تحرك أبى العباس عبد الله بتأثير زعماء الفتنة ، وأبي ابراهيم بن موسى بن العباس الذي التجأ اليه رسولا من طرف ابيه قبيل سقوط ميلة ولذلك كلف الداعي ماكنون بن ضبارة الاجاني بالاشراف على شئون المدينة وانصرف عنها الى قاعدة تازروت لتهيئة جو اللقاء مع الحملة العسكرية التي قادها ، هذه المرة رجل قدير من بيت الامارة هو أبو عبد الله محمد الأحول بن أبي العباس عبد الله بن ابراهيم (251) ونلاحظ بصدد نشاط بني الأغلب ، منذ عصر ابراهيم بن أحمد الى عصر زيادة الله ، أن الأول لما سمع بأخبار الداعي فى كتامة واستفسر عنه عامل ميلة ، وأجابه بأنه زاهد متصوف

248 — واسرة بني خنزير ، اصلا من مدينة سنجار ، فى ديار ربيعة باقليم الجزيرة وصلت عناصرهم الاولى الى هذه المنطقة منذ عصر الفتح وبسبب الهجرات وكانوا يعرفون بالسناجرة وتوجد عناصر منهم فى مجانة المعادن بولاية افريقية : انظر النعمان : افتتاح 93 (134 ط . بيروت) اليعقوبي : المصدر السابق 101 وقد لاحظ البكري أن مدينة مجانة ، كانت فى عصره للعرب ، وتعرف بقلعة بشر ، دبة لاول من نزلها منهم وهو بسر بن ابي ارطاه . الفاتح المشهور . انظر 145 منه . وعلى ذلك فاسرة بني ابي خنزير ليست من كتامة على خلاف ما يوجد عند بعض المؤرخين ، انظر النويري 26 ورقة 29 حيث يشير الى انهم من ربيعة .

249 — النعمان : افتتاح ورقة 95 (136 ط . بيروت) وكان القتل فى مكان يسمى : بني جلامة وقد القى بعد القتل فى مطمورة هناك .

250 — نفسه 94 (135 ط . بيروت) انظر عن هؤلاء الرؤساء وغيرهم النويري ج 26 ورقة 26 .

251 — سمي بذلك لانه يكسر عينه وياتي فى بعض النصوص ابو حوال او خوال « خطا » كما ينسب ايضا لابراهيم بن أحمد على انه ابنه مع انه حفيده فقط وهو اخو زيادة الله الاخير انظر : المقريزي : المصدر السابق 1 ، 58 النعمان ، افتتاح 95 (136 — 137 ط . بيروت) ابن عذاري 1 ، 179 ، 183 ابن الاثير : المصدر 8، 12 أبو الفداء 2 ، 69 ابن الوردي 251 النويري 26 ورقة 29 .

لا يخشى بأسه ، لم يبد أنه اقتنع برد عامله وبقى مـــرهف الحس لناحيته (252) . فلما بلغه تطور أوضاع المنطقة بسببه وفشل عامله ، فى اقناع بني سكتان بطرده أو تسليمه اليه كما فشل فى القبض عليه غداة دخوله ميلة للاستشفاء ، وبداية الفتن القبلية ، بسبب ما يدعو اليه . ارسل ابن المعتصم المنجم رسولا الى عامل ميلة ، لكي يمهد له السبيل مع بني سكتان حتى يوافقوا على اتصاله بالداعي فى ايكجان ليختبر أمره ، ويتفهم حقيقة اهدافه من قرب . وبعد اخذ ورد بين عامل ميلة من جهة ، وبين بني سكتان والداعي من جهة أخرى ، وافق الأخير على الاجتماع برسول ابراهيم بن احمد الذي حضر سرا الى ايكجان .

واثناء اللقاء الذي تم بين الرجلين شرح ابن المنجم للداعي وجهة نظر الأمير ومبلغ تذمره (253) ومدى استعداده لمساعدة الداعي ، حتى يؤوب الى بلده ان أحب أو لقبوله ضيفا ونزيلا عنده ان رغب فى البقاء فى افريقية ولم يحجم عن القول بأن الأمير ، سوف لن يتراجع عن القيام بأي مجهود عسكري ، لطرده من المنطقة وتأديب « أوباش » كتامة الذين انضموا اليه من غير وعي (254) .

وكان رد الداعي ، على رسول الأمير جافا الى حد بعيد وتضمن الاستهانة بشأن الأمير والتعريض بشذوذه وبقرب زوال دولته ، وبرفض عروضه المادية ثم تطمينه بأنه ليس الأمير ، الذي تنتهي به الأسرة الأغلبية ، كما انه أوضح للرسول بانه داعية الى آل البيت والى المهدي من ذرية رسول الله ولم يوجد فى المنطقة بدون هدف « وانما بعثت رسولا لأمر جم وقرب وانتجاز وعد من الله سبق ، ولو كان صاحبي لعجلت السير نحوه » ولم ينس فى النهاية أن يحمل الرسول دعوة الأمير ، « الى الله والى كتابه والى الامام المهدي » (255) لتكون له ميزة السبق بين الأمراء .

ومن اجابات الداعي تتضح لنا معنوياته القوية واعتداده بأنصاره ونضج حركته حتى وهو فى بداية حياته فى ايكجان واعترافه الصريح بأنه ليس من أهل النسك والتصوف فقط وانما هو داعية سياسي للرضا من آل محمد واساس لدولة المهدي التي اصبحت وشيكة الظهور وانه فقط ينتظر فرصة مناسبة لبدء العمل المادي .

---

252 ـ النعمان : المصدر السابق 41 ـ (78 ط . بيروت) القريزي : الخطط 1 ، 350 .

253 ـ ومن ذلك قوله «ما حملك على التعرض لسخطي والتوثب فى مملكتي وافساد رعيتي والخروج علي ؟ » .

254 ـ النعمان : افتتاح 42 (79 ـ 80) ابن الخطيب : اعمال الاعلام 2 ، 38ـ39 ، النويري 26 ورقة 26 .

255 ـ النعمان : افتتاح 44 (80ـ81) .

ولم يجد ابراهيم بن أحمد ، بعد أن اتضحت له الحقائق التي كان يضمنها المتشيعون فى قصصهم وأشعارهم ويلوح بها المنجمون ،فىأحاديثهم ما يحفظ به ناموسه ويكبح به جماح المتطرفين ضد حكمه ، غير التظاهر بالتقليل من شأن الداعي وأوباش كتامة وهو فى حقيقة الأمر ، كان محتارا مضطربا . وما أشيع عن قصص شذوذه ربما كان بسبب صحة أخبار الداعي وعندما تصور أن ظهور هذه الدعوة فى ركن قصي من بلاده ، ان هو الا عقاب الهي ابتلى بهلتطرفه وتنكيله بأولي الرحم ، وبذوي القربي (256) ثم بغيرهم من الأبرياء شهوة وانتقاما (257) سلك سياسة معتدلة تجاه الرعية من قبيل التوبة والندم عما فرط فى حقهم فأسقط المغارم ، واعفى أهل الضياع من خراج سنة وأزال المظالم وفرق الأموال على الضعفاء ، وحرر سائر مماليكه وقرب اليه « خاصة » القيروان وفقهائها استئناسا بهم فى الشورى ، والحكم (258) ، ثم لم يلبث الا قليلا واعتزل الحكم وغادر افريقية الى ممارسة حياة الغزو والرباط فى ثغور صقلية حيث توفي هناك فى أواخر سنة 289 هـ (259) 901 — 902 م وولى الامارة فى غيبته ثم بعد وفاته ابنه أبو العباس عبد الله ، الذي تصرف بحرية وعين على النواحي ولاة من نسجه وممن كان يميل اليهم (260) ، واستهل عهده بطلب البيعة له من سائر عمال الاقاليم بدعوى أن اباه انقطع الى العبادة وتنازل له عن الحكم (261) لكنه من جهة أخرى أساء الى وضعه ، عندما اتهم فقهاء القيروان وخاصتها بتبديد أموال الدولة ، وصرفها فى غير وجوهها استغلالا لمحبة الأمير ، ومرضه وغيبة من يرعاه ويشد ازره ، والح عليهم أن يرجعوها اليه فى أقرب فرصة (262) .

---

256 — ابن عذاري : البيان 1 ، 178 — 179 .

257 — نفسه ، 155 ، 162 ، 163 ، 174 ، 175 وهنا يشير الى قصة ابي الاحوص المكفوف المتعبد فى سوسة الذي أملى رسالة على كاتب ثم وجهها الى ابراهيم ابن احمد وفيها « يا فاجر ياخائن قد حدت عن شرائع الاسلام وعن قريب تعاين مقعدك من جهنم » فلما قرا الرسالة غضب وطلب منه الكشف عن الكاتب والا قتل من اهل سوسة عددا كثيرا فرفض ذلك ودعاه الى التوبة .

258 — ابن عذاري : البيان 1 ، 177 ، وسميت هذه السنة (289 هـ) سنة العدل وسماها العامة سنة الجور ، وسنة النجوم لتساقط الشهب فيها ص 180 .

259 — ابن الأثير : الكامل 7 ، 101 ط . 129 هـ المطبعة الكبرى ، وبسبب داء الذرب أبو الفداء 2 ، 53 ، 63 وحمل فى تابوت الى القيروان ، النويري : نهاية الارب 22 38 وما بعدها وعن محاولته غزو مصر ردا على حركة العباس بن احمد بن طولون انظر : Zaky Hassan Les Tulunides 160-161.

260 — ابن عذاري : البيان 1 ، 177 النويري : المصدر السابق 22 ، 41 .

261 — نفسه : 1801 .

262 — نفسه 1 ، 179 ومما قاله « اغتنمتم الفرصة فى المال لمرض الامير ابي ومغيبي عنه».

وكان عمال الدولة خاصة فى منطقة الزاب شبه مستقلين بل كان بعضهم فى وضع الثائرين ضد الدولة (263) .

وقد أتيحت الفرصة لابراهيم بن أحمد كي ينتقم من عرب بلزمة كما أشرنا كما وجه ابنه (288 هـ / 900 ـ 901 م) أبا العباس عبد الله على راس قوة لتأديب أهل الزاب (264) ، وكان من قبل قد واجه حركات بني بلطيط فى بسكرة وأصلح ما كان التاث هنالك . » (265)

وسياسة القسوة مع أهل الزاب ، كانت عاملا على نجاح الداعي فى نشر الدعوة والنفوذ السياسي فى هذه البلاد .

وفى هذه الفترة التي أصبح فيها أبو العباس عبد الله أميرا قوي أمر الداعي وحاز انتصارات كبرى آخرها ، نجاحه فى ضم مدينة ميلة الى دائرة نفوذه وفى نفس الوقت لحق به فى تونس ، كل مـن فتح بن يحي المسالتي وأبي ابراهيم ابن موسى بن العباس ابن عامل ميلة القديم وحثاه على مناهضة الحركة الاسماعيلية فى بلادهم (266) .

ورغم أن النعمان يزعم أن أبا العباس عبد الله ، انصرف عنهما وبقي خاملا ينتظر تطور الأحداث بسبب وصية أبيه (267) فان الحقيقة كما أوضحتها نصوص أخرى كانت قوة عزمه على الاستمرار فى التهيئة للعمل المادي ضد الحركة الجديدة فى كتامة التي ابتدأت فيما يبدو منذ عهد أبيه ابراهيم بن أحمد (268) وتوقفت بسبب انعزاله عن الحكم وذهابه الى صقلية للجهاد (269) وجاءت حوادث هزيمة الاحلاف امام تازروت وفرار فتح يحي المسالتي وسقوط ميلة وفرار أبي ابراهيم والتجاء هذين وغيرهما الى تونس للاعراب عن تأييد قبائل الجهة وانضمامهم بمجـرد وصول القوة الأغلبية لتشجعه على بدء العمل فعلا لصد تيار الحركـة الاسماعيليـة .

263 ـ اليعقوبي : البلدان 103 ويذكر أن اهل بلزمة كانوا مخالفين فى وقته على ابن الأغلب ومثلهم بنو الصمصامة من بني سعد بن تميم الذين اعتصموا بحصونهم بين مدينتي مقرة وازبة واهل مدينة أجة وبنو سفمان وبنو ورجيل مـن هـوارة . وعن ميلة ذكر انه « لم يلها وال قط » .

264 ـ ابن عذاري 1 ، 177 .

265 ـ ابن عذاري : البيان 1 ، 176 .

266 ـ النعمان : افتتاح ورقات 81 ، 95 (120-121) ، 36 ط . بيروت) .

267 ـ نفسه .

268 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 1 ، 58 ابن الأثير الكامل 8 ، 12 .

269 ـ النويري : نهاية الارب 22 ، 37 ـ 38 ج . دار الكتب رقم 549 .
Zaky Hassan op. cit., p. 160-161.

— وقد مرت حركة المقاومة الأغلبية للدعوة الاسماعيلية في كتامة بعدة مراحل ابتدات في عصر أبي العباس عبد الله ، بجهود موفقة ضد تازروت وميلة وايكجان وانتهت في عصر زيادة الله الأخير بكارثة حلت بالأسرة الأغلبية في مدينة الأربس ، وبفراره من افريقية الى المشرق .

— واتسمت المقاومة في بدء أمرها ، بالطابع الهجومي العنيف ، ولذلك أسفرت عن نتائج مادية ومعنوية هامة .

وكان يمكنها أن تشل الحركة ، وتبدد شمل رجالها ، لو لم يرتكب زيادة الله بدافع الخوف على مركزه ، جرما كبيرا ، في حق الأسرة ، بقتله لأخيه الأحول الذي أبانت الأحداث ، عن مدى أهميته ، لاستمرار نظام الدولة ، ولا مبالغة اذا قلنا بأن اختفاءه كان بداية النهاية للاسرة الاغلبية في افريقية في الوقت الذي كانت فيه الدعوة الاسماعيلية في عنفوان قوتها ، ونتيجة لذلك ولسوء تقدير زيادة الله ، افتكت الحركة الجديدة بادرة الهجوم (270) من خصمها الذي اكتفى بعد ما أصابه من هزائم ، بمجرد التزام دور الدفاع وتحصين حدوده وحراسة ما بقى له من مدن ، في غير أرض كتامة واقليم الزاب من أهم ثغور الدولة ومراكزها القصية ، وهي مدينة الاربس (Laribus) التي توصف في النصوص التاريخية بأنها باب افريقية (271) ، أما الآن فقد غدت قاعدة للدفاع عن نظام الأسرة الأغلبية ، ومحرسا لمدينة رقادة ، التي أصبحت لأول مرة هدفا أخيرا لرجال الدعوة الاسماعيلية .

— أما الأعمال العسكرية ، التي تميزت بها المرحلة الأولى ، التي ابتدات منذ شهر ذي القعدة 289 هـ ، وأشرفت عليها قاعدة تونس (272) وقادها أبو عبد الله محمد الأحول الأغلبي (273) ، فقد كانت تعتمد ، لضمان النصر ضد الداعي وانصاره في كتامة ، على عدة عوامل منها :

---

270 — المقريزي : المصدر السابق 1 ، 59 .

271 — نفسه : 1 ، 76 .

272 — حتى هذا الوقت كانت تونس قاعدة مؤقتة للامارة الاغلبية ، منذ ان انتقل اليها ابراهيم بن احمد في 8 رجب 281 هـ ، ولم يفارقها زيادة الله الاخير نهائيا الا في شهر ربيع الاخر 292 هـ : انظر ابن عذاري : البيان 1 ، 173 ، 166 النعمان ورقة 81 ، 95 النويري : نهاية الارب 22 ورقة 37 .

273 — يحي بن سعيد الانطاكي : تاريخ الذيل ص 750 ط . كراتشوفسكي 1924 — ضمن مجموعة : Patrologia Orientalis T XVIII.

ـ مجموعة من خيرة جنود الدولة ، وابطالها ، الذين كانوا ضمن جيش عتيد بلغ عدده اثنى عشر الفا ، بين فرسان ومشاة وقد اغدقت عليهم الأموال وأجزلت لهم الهدايا ، ومنوا بالمزيد منها .

ـ ثم بعض زعماء كتامة وقادتها الذين التجأوا الى افريقية وشرحوا حقيقة ما يجري ووعدوا بانضمام قبائلهم الى القوة الأغلبية ومنهم : فتح بن يحي المسالتي وأبو ابراهيم بن موسى .

ـ ثم ولاة المدن والحواضر فى منطقة كتامة ، واقليم الزاب ، وهم من نفس عصبية الدولة وأهمهم حي بن تميم فى بلزمة ، وأبو حفص علي بن عسلوجة فى سطيف ثم أبو ابراهيم بن موسى بن العباس عامل ميلة القديم ، وقد أرسل من قبل الى افريقية لطلب النجدة قبل سقوط المدينة كما أشرنا .

ـ ثم جيوب المقاومة فى بعض قبائل كتامة التي لم ينضم جانب منها الى الدعوة الاسماعيلية واغلبها فى هذه الفترة كان من مسالته ، الذين ساءهم ظهور هارون ابن يونس فى ميدان الزعامة بينما كان فتح بن يحي «الأمير» يعيش حياة التشرد . ومن لطانة والذين انزعجوا لقتل رئيس القبيلة فحل بن نوح ، غداة سقوط ميلة . ثم من اجانة وقد تأثروا لقتل زعمائهم مثل فرح بن حيران ويوسف بن محمد ووزة بن نصر ، وساءهم ظهور زعماء محدثين للقبيلة ، كانوا من قبل مغمورين ومنهم أبو زاكي ، وماكنون بن ضبارة .

ـ وأما العامل الرئيسي لنجاح الأحول فى أعماله ، فيتوقف على مدى نجاحه فى زعزعة صفوف الداعي واحداث ثغرة فى نظامه بجلب رجال كتامة البارزين اليه بمختلف الاغراءات المادية ، ليضمن ولاء قبائلهم وتخليهم عن الحركة .

ـ ولا يستبعد أن يكون قد مهد لحركته هذه ضد كتامة ، بحملة دعائية مركزة ضد انصار الدعوة الاسماعيلية ، قام بها المشايعون للدولة والموتورون من نجاح الحركة (274) ، والمحافظون على تقاليدهم السنية ، ومذهبهم المالكي كما أسهم فيها بعض عمال المدن العرب فى كتامة ، ومنطقة الزاب .

وهذا ما يستنتج فعلا من حركة الانضمام الى قوات الأحول ، وهي فى طريقها للقتال وقد لوحظ ذلك فى بلزمة ، وفى باغاية ثم فى سطيف .

---

274 ـ ومن هؤلاء بنو غفيت ، الذين احتفظوا بالمذهب الأباضي وهم من مسالتة . ويعتبرون الاستثناء الوحيد فى كتامة بالنسبة للمذهب غير السني فى هذا العصر ، ولعل شيوع ظاهرة تمسكهم بالمذهب الأباضي هي التي دفعت بعض الباحثين ، الى تعميم ذلك على سائر كتامة انظر النعمان : افتتاح ورقة 79 (118 ط . بيروت) وقد قريب ((عفنيت)) .

وقد سلك الأحول أثناء عبور الحملة فى أرض كتامة ، سياسة استراتيجية خاصة أقل ما توصف به انها تدل على وعي كامل بحقيقة ما يجري فى المنطقة وبمدى ما وصلت اليه القوة الناشئة فيها .

وتشير النصوص الى أن الأحول بدأ فى تعبئة جيشه للحرب ، منذ أن فارق باغاية وبقي يسهر بنفسه على النظام والأمن داخل مجموعات الجيش .

ـ فكان لا يسير بجيشه فى أرض كتامة الا نهارا واذا عسكر فى أي مكان يخندق حواليه. وقد رصد لهذه المهمة مجموعة من رجاله وزودهم بتعليمات مدققة عن كيفية الحفر ، ومكانه ودور كل مجموعة فى نظام التحصين .

وكانت عملية الحفر ، واستقرار الجيش د خل هذه الاستحكامات تتم عادة قبل غروب الشمس فاذا تمت مهمة هؤلاء وعسكر أفراد الجيش فى أماكنهم شددت الحراسة على منافذ الاستحكامات ومن داخل الخندق ، وحول معسكر الجيش من خارجه ، من غروب الشمس حتى الصباح . وقد استقر نظام التعبئة كما رسمه الأحول ، طيلة مدة سيره فى ارض كتامة (275) وهو السر فيما أحرزه من نجاح باهر ضد الحركة الاسماعيلية، ومؤسساتها وانصارها فى تازروت وفى مجرس (276) وقد ظهر للداعي هذه المرة أن يفارق قاعدته فى تازروت لمواجهة العسكر الأغلبي بعيدا عنها ، ويبدو أن ظروف القتال وسير المعركة فى مضارب ملوسة كانت شاقة وصعبة بالنسبة للفريقين بسبب برد الشتاء وتساقط الثلوج على المرتفعات وعلى السفوح وصعوبة الحركة فى المنطقة لأنها كانت جبلية وعرة وزادها التساقط صعوبة حتى تعذرت الرؤيا ومع ذلك فاللقاء كان حاسما واستمات فيه كلا الفريقين غير أن كفة الأحول ، رجحت هذه المرة ربما بسبب تأييد فرع ملوسة ، وانهزام رجال الدعوة اثر معركتين ضاريتين انسحب الداعي بعد الأخيرة منهما الى تازروت حيث اخذ مافيها من أموال وأمتعة واستصحب رجاله واتجه نحو ميلة ، ومنها واصل السير حيث لحق به أنصاره فى نواحي

---

275 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 179 ـ 180 النعمان : افتتاح ورقة 95 . (137 ، 138 ط . بيروت) .

276 ـ النعمان : افتتاح 96 (137 ط . بيروت) : ابن خلدون : العبر 4 ، 438 (ط . بيروت) أما مجرس فهو مركز فى مجال كتامة الى الشمال من سطيف يعرف حتى اليوم مجريس وسكانه اخذوا بالحركة الشيعية منذ ان طرقهم رجالها بقصد تتبع حركات فتح بن يحي ، والمبادرة بالانتقام منهم ربما كان القصد منها دفع الشيعي الى ملاقاته فى المعركة على ارض مفتوحة بعيدا عن مركزه الحصين فى تازروت التي تبعد عن مجريس بعد ان يكون رجاله قد أنهكوا من السير فى الطريق الوعر وقد ذكر ابن خلدون : 6 ، 139 ط . بولاق بطن مجريس من فروع هوارة .

عين كرمة ايضا (277) واستقروا فى ايكجان (278) وتشير بعض النصوص الى سوء وضعية الداعي وانصاره اثناء القتال وان الاحول كان فى مركز قوة وكاد يقضي على قواته لولا أن « الثلج العظيم (279) » حال بين قواتهما ، وهو الذي مكن الشيعي من الانسحاب برجاله فى أمان وفى سرعة الى ايكجان ، كما عاق الأحول عن الحركة حذرا من مفاجآت غير منتظرة بحيث التزم مواقعه حتى انقطع تساقط الثلج ولما اقتحم مدينة تازروت ووجدها خالية ، أحرقها ، وهدم قصر الشيعي فيها وقصد ميلة ظنا منه أن فلول المنهزمين التجأوا اليها ، لقربها من المنطقة ولوجود من يحميهم ويؤيدهم فيها . وكانت مفاجأة مذهلة له عندما ألقاها خالية تنعي من هجرها ، فتركها دون أن يدخلها حيطة وحذرا (280) ، الى ايكجان وهذه لم يقدر له أن يصلها ، كما لم يتمكن غيره من قادة الأغالبة الوصول اليها حتى دالت دولتهم ، اذ استحالت انتصاراته السريعة ضد سكان مجريس ورجال الداعي فى تازروت الى هزيمة مفاجئة لم يكن يتصورها خاصة وهو فى أوج قوته يطارد أعداءه المنسحبين .

ذلك أن ابن عامل ميلة أبا ابراهيم ، لما انحرف عن المعسكر الى كرمة ليعيد دفن جثة أبيه موسى بن العباس ، فوجيء بارتحال أهلها من لطانة عنها . حتى أصبحت خلاء لكنهمن ناحية أخرى اصطدم هو وابنه وجماعتهما بمجموعه من الناس تظاهروا بأنهم كانوا يجلبون طعاما من بعد ، وهم فيما يبدو من جماعات الداعي وكانوا طليعة ، أو كمينا فى الناحية لأن الداعي لم يغب عنه اشتراك أبي ابراهيم فى الحملة الأغلبية وانه لا بد أن يعرج على مكان السرداب الذي ألقي فيه أبوه من قبل . فقتل ابنه أبو عقال وبعض رجاله واشتد القتال ، وارتفع الصخب (281) ، وكان هذا كافيا لتجمع رجال الداعي ، الذين كانوا على أهبة الانتظار والاستعداد ثم لسماع

---

277 ـ هي من مضارب لطانة . وقد وردت فى النعمان (كجارمة) ويبدو ان المقصود بها هي عين كرمة التي توجد فى الطريق بين قسنطينة وميلة لانه اشار لقربها من الأخيرة ويكون النساخ هم الذين اشتبه عليهم الامر او هي نفس قرية الجرارم على الوادي الكبير وبقرب ميلة ايضا . وقد لاحظ ابن الأثير (8،14) ان احدى معارك الداعي مع قادة بني الاغلب وقعت فى بلد كرمة . أما عدم ورودها فى كتب الرحلة والجغرافية فلانحرافها عن الطريق ، أو لضآلة شأنها وصغرها لان بعضهم اشار الى بلد كرمة فى غير افريقية : البغدادي : مراصد الاطلاع 3 ، 1161 .

278 ـ النعمان : افتتاح 96 (138 ط . بيروت) المقريزي : اتعاظ 1 ، 58 ابن الأثير : الكامل 8 ، 12 .

279 ـ المقريزي : اتعاظ 1 ، 58 النعمان : افتتاح 96 (38 ط بيروت) ابن الأثير الكامل 8 ، 12 .

280 ـ نفسه : ويشير هو وابن الأثير ، الى احراق الاحول مدينة ميلة أيضا .

281 ـ النعمان : افتتاح ورقة 97 (139 ط . بيروت) ابن خلدون : العبر 4 ، 70 ويشير الى ان غرض أبي ابراهيم عندما فارق المعسكر الأغلبي كان الاستطلاع ، والتجسس .

الأحول بالحادث أيضا . ويبدو أن روح الانتظار والاستعداد والتدبير المسبق في جانب المعسكر الشيعي وغفلة رجال الأحول الذين فوجئوا بالصخب والصراخ هو الذي أشاع جو الاضطراب في صفوفهم بسرعة لفائدة رجال الداعي الذين كانوا يعدون لهذا اللقاء المفاجيء ، ربما منذ انسحابهم من تازروت وميلة ، وعين كرمة وقد اختفوا في الشعاب ، والفجوج وراء الصخور وجذوع الأشجار ، وفي سفوح الجبال لكي يهيؤوا ظرفا مناسبا للعمل الحاسم وعندما تهيأ لهم ، ظهروا من مخابئهم والتحموا بالقوة الأغلبية المفككة وشددوا الهجوم عليها منذ الصباح حتى داهمهم الليل والجأوا الأحول بعد الهزيمة الى مغادرة الناحية ليلا ، على ضوء المشاعل ــ عبر مضارب جيملة ــ حيث نجا بما خف حمله ، الى افريقية (282) .

ويبدو أن الالتحام بين الفريقين ، منذ ظهور القوة الأغلبية في كتامة كان شديدا ولم يخل من ضحايا كثيرين من جانب المعسكر الشيعي أيضا اذ تشير بعض النصوص الى وفاة الحسن بن هارون بايجكان (283)،ربماكان متأثرا بما أصابه من حسرة وتعب نفسي لحرق واخلاء مدينته ، أو قد يكون جرح في هذه المعارك الخطيرة .

وكان موته بمثابة بداية النهاية لدور تازروت وقبيلة عثمان ، لذا بقيت هذه المدينة خالية لم يرجع اليها الشيعي لتجديد ما خرب من معالمها بعد وفاته كما تضاءلت أهمية القبيلة ، للكارثة التي حلت بها ، سواء بوفاة زعيمها أو بتخريب اقتصادها ، أو بانصراف الداعي عنها ، الى بني سكتان الذين رغبوا منه ، البقاء الى جوارهم في ايكجان (284) .

ووراء هذا العرض الجديد كانت تختفي عوامل الرغبة في الشهرة ، والعصبية القبلية ، والتنافس بين عثمان وجيملة (بنو سكتان فرع منها) لأن بعض النصوص تشير الى استجابة الداعي واستقراره حيث بنى منزلا له ، كما أعلن ايكجان دار هجرة لأنصار الدعوة مبالغة في ارضاء أنصاره القدامى ، مثلما وقع مع الحسن بن هارون ، وعثمان في تازروت واعلانهادار

---

282 ــ النعمان : افتتاح ورقة 98 (139 ط . بيروت) ويلاحظ خروجه من حد كتامة في الصباح . مما يدل على سرعة الانسحاب ، وهول المعركة ابن خلدون : العبر 4 ، 437 ، 438 (ط . بيروت) النويري : المصدر السابق 26 ورقة 29 .

283 ــ نفسه ، وبعد انجلاء المعركة . رجع سكان ميلة الى بلدهم مثل سكان كرمة وغيرهم النويري 26 ورقة 29 .

284 ــ النعمان : افتتاح 98 وتولى اقناع الداعي كل من بيان بن صقلاب وابي جعفر احمد ابن سلمان الجرارة بتفويض من القبيلة .

هجرة ، كان خطوة هامة ومقدمة لجذب الأنصار اليها من سائر الآفاق (285) .

وغدت مركزا لتجمع وانطلاق الدعاة والأنصار ومدرسة للمجالس الحكمية التي كان يشرف عليها الداعي بنفسه . وهيئت منذ الآن لكي توجه الدعوة وتراقب سير المعركة الحربية ضد الأسرة الأغلبية .

ولا مبالغة اذا قلنا بأنها غدت في هذه الفترة مركزا نشطت منه العلاقات بين المغرب والمشرق ، وانطلق منها البريد الى سلمية (286) والى سجلماسة (287) ثم الى سائر أنحاء افريقية أيضا (288) .

وهذا التطور الجديد في وضع ايكجان ، كان مفيدا لبني سكتان وجيملة بقدر ما أساء الى قبيلة عثمان وأحلافها رغم أن النصوص لا تشير الى آثار هذا التحول الجديد على هذه القبيلة ويبدو أن ذلك ما كان ليحصل ، لو لم يختف بطل عثمان ورئيسها وقائد جيش الداعي ، والمحرك الأساسي لأحداث المنطقة ، وهو الحسن بن هارون .

ومما يلاحظ أن ايكجان لم تغد فقط معقلا للداعي ولأنصاره أو دار هجرة أخرى لهم في منطقة كتامة وبلاد المغرب وانما صارت هي دار الهجرة الوحيدة بعد أن خربت تازروت .

ولم يفارقها الداعي بعد ذلك الا لضرورة خاصة كالاشراف على سير المعركة أو عندما سقطت الدولة الأغلبية (289) ، بحيث لم يظفر غيرها من مدائن كتامة والمغرب في هذه الفترة ، بمثل ما ظفرت به في نظر الداعي من حظوة ومكانة باعتبارها مستودعا لأخلص رجاله،ولذخائره وأمواله (290).

---

285 ـ المقريزي : اتعاظ 1 ، 58 ابن خلدون : العبر 4 ، 70 النويري ج 26 ورقة 29 ابن حماد : اخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم 7 وما بعدها ، وهنا يلاحظ ان انكجان كما رسمها قريبة من قسنطينة .

286 ـ المقريزي : المصدر السابق 1 ، 60 .

287 ـ ابن عذاري : البيان 1 ، 187 .

288 ـ النعمان : المصدر السابق ورقة 99 (140 ط . بيروت) ويذكر انه « كان يرسل الى افريقية قوما ياتونه بالاخبار لا يقطع ذلك عنه فقيل لا يمر يوم الا وعنده منها خبر » ومن ذلك انه سمع بموت ابراهيم بن احمد في حينه ثم بقتل ابنه ابي العباس عبد الله وولاية أبي مضر زيادة الله .

289 ـ وقد خلت وتضاءل شانها بانتقال الداعي الى رقادة ـ ولم يؤثر انه رجع اليها بعد ان فارقها لآخر مرة وهو في طريقه من سجلماسة .

290 ـ النعمان : افتتاح 87 (127 ط . بيروت) المقريزي اتعاظ 1 : 66 حيث يشير بعد وصول المهدي الى انه « احضر الاموال من ايكجان فجعلها احمالا وصار بها الى رقادة » وقد ترتب عن اخذ الاموال وعدم تقسيمها بين شيوخ كتامة ، ثورتهم ضد المهدي فيما بعد انظر 67 من اتعاظ الحنفا .

ـ اما الاحول القائد الأغلبي فقد شرح لأبيه ابي العباس عبد الله ماحصل عليه من انتصارات باهرة فى كتامة وأن رجوعه انما كان « لأمر عرض عن غير علة وقوى قوله جميع من كان معه من كتامة وضعفوا أمر أبي عبد الله » فأمده بقوة كبيرة فاقت سابقتها ولما رجع الى كتامة عبر الطريق القديم (باغاية ـ سطيف) توقف عند مضارب قبيلة ملوسة وعسكربقواته. أما الداعي الذي فارق ايكجان للقاء الأحول فقد عسكر فى مواجهته فى مضارب لهيصة . ومن مكانه ، جرد فرسانه فى حملة للهجوم على المعسكر الأغلبي الذي كانت تحميه الاستحكامات والخنادق وبعد لقاءات متكررة على مدى يومين انهزم الأحول وانسحب ليلا ، على ضوء المشاعل من‌مكان المعركة الى افريقية عبر سطيف ، بعد أن تكبد خسائر وترك فى معسكره ، غنائم واثقالا (291) ، كانت من حض انصار الداعي الذين اكتفوا بذلك عن ملاحقته ورجعوا من جديد الى ايكجان انتظارا لاحتمالات المرحلة التالية خاصة بعد أن قتل أبو العباس عبد الله ، فى تونس على أيدي خدمه (292) ، والحق به ابنه أبو عبد الله محمد الاحول وجميع اقاربه الذين قتلوا بأمر من أبي مضر زيادة الله بن أبي العباس (293) ، الذي أصبح الأمير الجديد وكان من قبل مغضوبا عليه ومسجونا مع بعض أنصاره منذ أن استقدمه أبوه من صقلية فى نهاية جمادي الآخرة سنة 290 هـ (294) / مايو 902 م

* * *

291 ـ النعمان : افتتاح 100 ـ 101 (142ـ143 ط . بيروت) ويلاحظ أن هذه المعركة جرت فى منطقة جبلية مثل التي سبقتها . وفى دائرة القل ، توجد قرية تاملوس ، نسبة لملوسة ، لانها كانت مسرحا لبعض فروعها وربما كان الاحول قد عسكر غير بعيد منها فى مقابلة الداعي الذي عسكر فى منطقة تاسدست (جبل سدات الان) وانسحاب الاحول كان الى سطيف ولم يكن الى قسنطينة لان سطيف طريق معروف لديه وهو معبر الى باغاية التي ينفذ منها الى افريقية .

292 ـ ابن عذاري : البيان 1 ، 181 ، النعمان : افتتاح ورقة 102 ، 103 (143 ـ 145 ط . بيروت) ابن الأثير : الكامل 8 ، 12 المقريزي : اتعاظ 1 ، 59 يحي بن سعيد الانطاكي : المصدر السابق 751 ط كراتشوفسكي 1924 .

293 ـ نفسه 1 ، 182 ـ 183 وتم قتل أعمامه ، فى جزيرة بقرب تونس (12 ميلا منها) تسمى جزيرة الكراث .

294 ـ نفسه 1 ، 180 والسبب رواه ابن عذاري بقوله « لانه وشى به اليه ، انه يريد الانتزاء عليه » وقد كان عزره جده ابراهيم بن احمد ، فى صقلية ، لسوء اخلاقه وسجن معه بتهمة التحريض كل من عبد الله ابن الصائغ وابي مسلم منصور بن اسماعيل . وقد صار الأول من اكابر رجال دولته اما الثاني فكلف بالخراج ثم عين ايضا على اقليم قسطيلية ، بعد عزله ولم يكن الود معقودا بين الرجلين انظر : 197 منه أبو الفداء : المصدر السابق 66 ـ 67 النويري : نهاية الارب 22 ، 41 .

— وفى الوقت الذي اغتبط فيه الداعي بهذه التطورات الجديدة ، وشحذ عزائم انصاره بقوله يخاطبهم : « قد زال عنكم ما كنتم تتوقعون ، وهذا صاحبكم وآخر من يحاربكم وعنه يصير الأمر اليكم » (295) انصرف الأمير الأغلبي ، للاعداد للمعركة الحاسمة ، بالبدء فى تنظيم اجهزة الدولة وتعبئة جمهور السكان وتقوية صلاته بالخلافة العباسية ليحظى بالشرعية والتأييد المعنوي .

وقد أصبح عبد الله بن الصائغ هو المتصرف فى شؤون الوزارة والبريد وعين على ديوان الخراج والشؤون المالية أبا مسلم منصورا ابن اسماعيل.

وابعد عن القضاء فى القيروان الصديني الحنفي الذي كان يميل الى الاعتزال وقدم له حماسا بن مروان بن سماك الهمداني ، وكان شخصية مالكية مرموقة (296) .

وكان يريد بذلك استمالة الرعية وجمهور السكان واغلبهم مالكية (297) وبذل بسخاء للجند كي يتناسوا ما حصل فى صميم الأسرة من تصفيات وكي يخلصوا فى الدفاع عن شرعية حكمها ، وعن استمرار بقائها (298) ، وأشرف فى تونس على مؤتمر عام ضم فقهاء القيروان وعلماء افريقية الذين سمعوا من ابن الصائغ نيابة عنه ما ابتدعه الصنعاني فى كتامة من سب الصحابة ووصفهم بالردة وادعاء كفر كل من لم يأخذ بنحلته من غير «أوباش كتامة» وأحلافها فاتفقوا على التعبئة المعنوية ضده ولعنوه وتبرؤا من حركته وحرضوا العامة على شرعية مقاتلته والاستماتة فى الجهاد ضده حتى تزول حركته الالحادية (299) .

ويعتبر هذا التأييد أعظم كسب حصل عليه الأمير من اهم طبقة اجتماعية لها نفوذها القوي فى الاوساط الشعبية فى القيروان ورقادة وفى كامل حواضر افريقية وبواديها .

---

295 — النعمان : افتتاح ورقة 105 (141 ط . بيروت) .

296 — ابن عذاري : البيان 1 ، 183 ، ابو العرب طبقات 194 ابن فرحون الديباج 108 — 109 الخشني طبقات 207 — 208 ، 1 ، 2 محمد طالبي : المرجع السابق 340 وما بعدها الجودي : تاريخ قضاة القيروان ورقة 17 — 18 أ ، خ 18397 .

297 — ويدل على ذلك قوله يخاطب العامة بعد عزل الصديني « اني عزلت عنكم الجافي الجلف المبتدع ، ووليت حماسا بن مروان لرافته ورحمته وطهارته وعلمه بالكتاب والسنة» وعن ترجمة الصديني محمد بن اسود انظر الجودي : المصدر 16 ، 17 .

298 — نفسه 1 ، 184 ويظهر ذلك فى اخذ البيعة لابنه محمد من بعده سنة 291 هـ .

299 — نفسه ، 185 ابن ابي الضياف : المصدر 1 ، 117 وفيه قوله « فانهم كلما لعنوه قرب وكلما تبرءوا منه داخلهم » .

وقد ارسل الأمير الى الخليفة المكتفي بالله العباسي هدية نفيسة كي يشعره باستمرار العلاقة الروحية والرسمية ، وبأنه يستطيع النهوض بأعباء الامارة ومقاومة أعداء الخلافة العباسية فى كتامة (300) .

ولم يبق أمام الأمير ، وقد ضم قوة الفقهاء المالكية وجمهور السنة (301) واحيا صلاته بالخلافة العباسية حامية المذهب السني ، وصاحبة السيادة الشرعية الا أن يصلح شؤون رقادة ــ عاصمة ابراهيم بن أحمد ــ وينتقل اليها من تونس (302) ليشرف على سير المعركة الرهيبة ضد الحركة الاسماعيلية فى كتامة التي بدأت ترنو ببصرها نحو بقية حواضر الدولة فى كتامة ، واقليم الزاب .

وفى رقادة تمثلت استعدادات الأمير واستراتيجيته فى عدة نواحي منها :

ــ الاكثار من تركيز جند الدولة فى مدينة باغاية التي اتصفت بالحصانة والأهمية فى منطقة الزاب ، وعلى سفوح الأوراس .

ــ الاهتمام بالناحية الادارية والعسكرية فى طبنة عاصمة الزاب ، وقد اختار لتسيير شؤونها أخص رجاله ، ومنهم حاجبه : أبو المقارع حسن بن احمد بن نافذ واكفأ قادته فى الميدان العسكري ومنهم خفاجة العبسي وشبيب بن أبي شداد القمودي .

وانبنت خطته على أساس ، أن يقوم هؤلاء بتركيز الغارات على منطقة كتامة وتشديد الضغط على سكانها ، حتى تضعف مقاومتهم وينهار اقتصادهم وحينئذ قد يتخلون عن الداعي (303) .

---

300 ــ ابن عذاري 1 ، 185 وكتب فوق مثاقيل الذهب التي ارسلها أبياتا شعرية .

301 ــ تم ذلك بولاية حماس بن مروان للقضاء وخطة القضاء فى افريقية كان يتناوبها الحنفية والمالكية وكان الأمراء الاغالبة أميل للاحناف منهم للمالكية ، بسبب ارتباطهم بالخلافة العباسية . وقد عهد بعضهم بالقضاء احيانا الى بعض الواصلية تملقا لمشاعر بعض الخلفاء الذين احتضنوا مذهب المعتزلة ، أو عن اقتناع منهم بهذا المذهب وفى الأزمات كان الأمراء يتملقون مشاعر أهل السنة والمالكية خصوصا فيسندون الى شخصياتهم خطة القضاء والمظالم والحسبة وغيرها من الخطط الدينية .

302 ــ ابن عذاري 1 ، 186 وقد سبقه اليها : ابو مسلم منصور لاصلاحها ، وتهيئة جو الراحة والمتعة للأمير . ومن ذلك انه انشا مركبا فى ماجل القيروان (بركة) عرف بالزلاج ليتنزه الامير عليه ، النعمان : افتتاح ورقة 105 (148 ط . بيروت) وقد سورها زيادة الله بعد استقراره فيها . كما تعهد أسوارها أثناء المعركة ضد الشيعي انظر ابن عذاري : 1 ، 193 .

303 ــ نفسه 1 ، 199 ، النعمان : المصدر السابق ورقة 115 (160 ــ 161 ط . بيروت) .

ـ وكان يساعد هؤلاء فى مهمتهم مجموعة من الرجال ، وزعوا على النواحي ، أو ارسلوا الى منطقة الاضطراب فى كتامة .

ـ والذي يلاحظ أن زيادة الله ـ على خلاف أسلافه ـ وبعكس ما تصوره بعض النصوص كان أميرا حازما وقويا ـ انما تسرب اليه الضعف من كونه

ولي الامر فى عصر هرم الدولة ومن ثم ورث كل تركاتها الثقيلة (304) ـ ومع ذلك اظهر شجاعة وحنكة ، ولم يضعف لهول الحوادث المتلاحقة بل أعطى مثلا مشرفا لقادته ، ولكل المسؤولين عن مصائر غيرهم ، وذلك عندما فارق عاصمته الى الاربس ليقود معركة الأسرة الأغلبية ، ضد الحركة الاسماعيلية ولم يرجع عن رايه ، الا نزولا عند رغبة اخلص قادته بان المصلحة تقتضي بقاءه ، على أن يكون أحد أفراد الاسرة نائبا عنه ، فى الاشراف على معركة المصير (305) .

وعندما بدات مدن الامارة وثغورها تتساقط بسرعة بقي على عزمه فى الاستمرار فى المقاومة حتى آخر لحظة ولم يلتفت الى نصيحة أكبر رجاله وهو ابن الصائغ بأن يرحل سرا الى مصر بل اعتبر ذلك دليلا على خيانته وتشيعه (306) .

ـ وهل أدل على روح العزم ، والتصميم على المقاومة ، من الاجراءات التي أمر بتنفيذها بالنسبة لرقادة والقيروان فى نهاية 294 هـ /907 م والتي تشبه الى حد كبير نظام حالة الطوارىء فى العصر الحديث ؟

وقد عبر ابن عذارى المراكشي عن هذه الاجراءات بقوله (307) : « وفيها ضربت القباب والاخبية حوالي مدينة رقادة ، واخذ أهل مدينة القيروان بالعسس حولها والمبيت فى الأخبية المضروبة جوارها وجدد زيادة الله الحشد ورغب الناس بالأموال » .

ـ ومع حرصه على القيام بالواجب نحو الدولة ونحو الرعية لم يهمل رعاية حقوقه الشرعية وامتيازات أسرته ، فكل من حدثته نفسه بالثورة استغلالا لهذه الظروف الخاصة انتقم منه ، بالقتل أو ازاحه من على

---

304 ـ انظر ابن ابي الضياف اتحاف 1 ، 116 وفيه بعض التوجيه لمنطق الحوادث منذ عصر ابي العباس عبد الله الذي كان يترك الأهم وهو قتال الداعي التي تتبع الشبوه فيهم ويظهر راي المؤلف فى قوله « وشيئان اعيت الحيلة منهما اقبال الامر اذا ادبر وادباره اذا اقبل » .

305 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 193 .

306 ـ نفسه 1 ، 194 .

307 ـ نفسه 1 ، 195 ـ 196 .

المسرح الاداري والسياسي ويبدو أن من ذلك قتل هذيل النفطي صاحب ديوان الخراج ، وابن المنبت (العجل) (308) ، وأحمد بن مسرور،ومدلج بن زكرياء (309) وعزل ابن الشاعر ، عن قضاء قسطيلية (310) وتعزير الخال، بضربه والتطويف به فى شوارع القيروان على بغل باكاف (311) . وكل هذه وأمثالها صورة من صور الدفاع عن حقوقه فى الحكم وهي جزء من اجراءات رجل حازم نصب نفسه للدفاع عما تبقى لأسرته ، من سمعة ومكانة ، أصبحت الآن موضع امتحان عسير .

ـ وهل يلام زيادة الله ، اذا أشيع عنه ، أثناء المحنة بأنه انغمس فى اللهو والمجون (312) وخالط شذاذ المجتمع ، ونادم « العيارين ، والشطار والزمامرة والضراطين ؟ » (313) .

ـ وهل من الصواب أن نغفل اعتبار الواقع ؟ فالازمة حادة والانصار المخلصون لأسرته أصبحوا نادرين ، وشجعان الرجال تتخطفهم الفتن والحروب وأوباش كتامة « أصبحوا قاهرين أحرارا فى الحركة ، وعيون المدائن الاغلبية بدأت تتهاوى كأوراق الخريف » .

ـ وهل أن عدم التزامه بالوقار ، كان بعيد الصلة عما كان يجري فى أركان دولته ؟ الا يكون من الانصاف للرجل وللحقيقة أن يقال بأنه كان يصطنع هذا السلوك الخاص «تنفيسا عما يجد فى نفسه من حزن وموجدة وتهربا من واقع أليم ولو لمدة يسيرة ؟ »

---

308 ـ نفسه 1 ، 184 .

309 ـ انظر ابن عذاري البيان : 188 ـ 189 وكان احمد بن مسرور واليا على ناحية القيروان ، وقد كلف الاثنان بقيادة الجيش لنجدة حامية الأبس فلم ينفذا الامر وثارا ضده واثناء هذه الثورة فر أبو العباس المخطوم من سجن رقادة واختفى فى القيروان ومنها تسلل الى طرابلس حيث نجا مرة أخرى من بطش الأمير وانتقامه انظر النعمان : افتتاح ورقة 164 (225 ـ 226 ط . بيروت) يحي بن سعيد الانطاكي المصدر السابق 755 ط كراتشوفسكي .

310 ـ نفسه 1 ، 193 ، لان تصرفاته تجاه السكان أساءت الى الأمير الذي عينه قاضيا .

311 ـ نفسه 1 ، 186 لأنه قتل نفسا بغير حق وتطاول على حماس بن مروان الذي شكا الى الأمير فانتقم منه وعزله عن القيروان فاسرها فى نفسه وعندما كلف بقيادة الجيش اظهر العصيان ضد الاخير فكان جزاؤه القتل انظر : طالبي : تراجم اغلبية مستخرجة من مدارك عياض) 349 .

312 ـ المقريزي : الخطط 1 ، 350 .

313 ـ ابن عذاري البيان : 1،193 النعمان : افتتاح 105 (147 ـ 148 ط . بيروت) ، المقريزي : اتعاظ 1 ، 59 ابن خلدون : العبر 4 ، 70 ابن الاثير : الكامل 8،12 .

ويبدو أن ذلك هو الصواب ، لأن بعض النصوص أوضحت أن رجاله كانوا يقترحون هذا اللون من الحياة والسلوك اذا ما ظهرت أعراض الألم ، وبوادر الغم على ملامح الامير (314) .

كما ان الداعي اعترف صراحة بأن الامير ، ما قصر فى شيء وما وهن فى الدفاع عن حقوقه ، ولا ترك وسيلة لم يستخدمها للحد من تيار الحركة الجديدة وانه لأحسن نكاية من أسلافه (315) .

ــ ويبدو أن التقليل من اهمية زيادة الله والتركيز على عيوبه وانحرافاته فقط التي هي سمة كل النصوص التاريخية فيه تجاوز كبير وقسوة لا تحتمل .

ويكفي برهانا على اهميته الخاصة نشاطه الجم اثناء رحلة عبيد الله من سلمية الى افريقية فقد وجه عدة رسائل لعمال المدن التي يتوقع أن يمــر بها لرصده والتحفظ عليه ، وعندما علم بوصوله الى سجلماسة وهي فى ركن قصي من الصحراء ارسل الى أميرها يعرفه ويلاطفه وكان تدخله سببا فى سجنه والتضيق عليه مع ان اليسع بن مدار امير سجلماسة ، كان خارجيا صفريا وأميرا مستقلا عن نفوذ الاغالبة والعباسيين (316) ، وكذلك فرض رقابة مشددة على حركة القوافل التجارية ورصد من يتسقط أخبارها ويتعرف على رجالها ، ولهذا تشير بعض النصوص الى معرفته اخبار عبيد الله من رجل صحب القافلة التي كان معها وقد تعرف الامير على أبي العباس المخطوم فامتحنه والقاه فى السجن ، فحال بينه وبين مواصلة السير الى كتامة كما حال بين المهدي ، وبين التوجه الى مركز الحركة فى ايكجان مباشرة لأنه كشف امره . ولا مبالغة اذا قلنا بأن مجهودات زيادة الله كلف الحركة الاسماعيلية تضحيات كبيرة ، وتسببت لها فى بعض المشاكل الخطيرة سيما وأن الشبهة قد حامت حول قتل صاحب الدعوة ، فى سجن سجلماسة وأن الداعي بسبب خوفه من انهيار كل ما جد فى بنائه ، هو الذي عهد بالامر الى أحد مرافقيه ريثما تهدأ

---

314 ــ ابن عذاري : البيان 1 ، 194 ونص ما قاله « وكان اذا اظهر الغم بامر الشيعي اخذوا له فى التسلي » .

315 ــ النعمان : المصدر السابق ورقة 155 (213 ط . بيروت) المقريزي : اتعاظ 1 ، 63 ابن الأثير : الكامل 8 ، 17 ومما قاله الداعي « ما كان الا قويا وله منعة ودولة شامخة وما قصر فى مدافعته ولكن امر الله لا يعاند ولا يدافع » .

316 ــ المقريزي : اتعاظ 1 ، 61 ــ 62 ابن الأثير : المصدر السابق 8 ، 14 ابن أبي الضياف : المصدر السابق 1 ، 119 الاستبصار 204 .

الامور (317) وفى ضوء هذه الشبهة بالاضافة الى عوامل اخرى نجد تفسيرا معقولا لثورة داعيه ضده فيما بعد .

ولو قام أسلاف زيادة الله بدورهم مثلما قام به هو ولو وجد الامير صدى لأعماله وتجاوبا معها ، من طرف ولاة المدن الافريقية ووالي مصر النوشري ، وعمال مدن الشام ولو كان هؤلاء فى مثل اخلاصه وشجاعته ما تمكن الداعي من تحويل حركته الكبرى الى نظام دولة علوية منافسة للعباسيين فى أرض المغرب وفى المشرق أيضا .

ولهذا ينبغي عند الحديث عن أخلاق زيادة الله أن تقع الاشارة ايضا الى مدى قيام عمال العباسيين في المشرق والمغرب بالدور المطلوب منهم ولو قاموا بذلك ما خشوا من نقمة العباسيين ثم من طموح الامير ، الذي ترك ملكه وهاجر الى المشرق يرجو عونا ونجدة لاعادة ما ضاع منه نتيجة عدم التنسيق بين عمال الخلافة فى المغرب وفى المشرق .

ولنناقش الآن كيف واجه الامير نشاط الداعي ، لضم بقية مدن افريقية بعد ميلة وحد منه ؟ والى اي مدى نجح فى حصر نشاطه وفى الاساءة الى حركته من الناحيتين المعنوية والمادية ؟ .

ـ وقد بدأ الداعي بعد سقوط ميلة وفشل القوة الهجومية التي قادها الاحول ان يوسع دائرة نفوذه بضم حصن سطيف .

ـ وكانت قد ظهرت أهميته أثناء النضال ضد الاحلاف المعارضة وفى احدى قلاعه تحصن من قبل فتح بن يحيى المسالتي ، وتتبع هذا الامير أظهر ما للحصن من ميزات هامة .

ـ وقد أصبح مجموع قبيلة مسالتة وهي تضرب فى نواحيه موالية للحركة بفضل ولاء هارون بن يونس .

ـ وأثناء الحملات الاغلبية ضد كتامة تحصن به الاحول عند انسحابه ، كما عبأ صفوفه من سكانه أثناء الحملتين ، ومنه انطلق لتأديب مجرس ولحصار تازروت وايكجان . وميزة قربه من مراكز الدعوة وتوسط موقعه فى افريقية وكونه معبرا اليها عن طريق باغاية من الاعتبارات التي قوت عزم الداعي على ضمه وقد انضاف اليها .

---

317 ـ ابن ظافر : المصدر السابق ورقة 43 س 6 ـ 9 ابن خلكان : المصدر السابق 1 ، 272 ـ 273 ابن ايبك الدواداري الدرة المضية 21 ـ 22 ابو عبد الله القضاعي : المصدر السابق 176 ـ 177 خ دار الكتب 1779 تاريخ ، النويري : المصدر السابق ج 26 ورقة 33 .
E.I. (Art Mahdi Ubaid) T 3, p. 125-26.

ـ ما أبداه حكام المدينة العرب من جهود ، لتأييد الاحلاف ضد الداعي ولمساندة نشاط القوة الهجومية الأغلبية .

ـ وهم من بني أسد بن خزيمة ويعرفون ببني عسلوجة كما اشرنا ـ واشتهر اثنان منهم :

أبو حفص علي عامل المدينة واخوه ابو حبيب (318) جعفر بعدائهما للحركة الاسماعيلية فى كتامة . وهذان مع من والاهما من مسالتة ولهيصة فضلا عن العناصر العربية التي استقرت فى المدينة أو فى ارباضها ، هم الذين أشرفوا على توجيه المعركة ضد الداعي وانصاره الذين حاصروا المدينة مدة طويلة ثم انسحبوا عنها الى ايكجان لمزيد من الاعداد وللراحة بعد أن اصيبوا بخيبة أمل مريرة بسبب تمنع السكان وشدة مقاومتهم علما بأن النصوص لا تشير الى حامية أغلبية فى المدينة ، كما لم تشر الى نجدة من طرف الامير .

ومع ذلك استمرت المقاومة حتى بعد أن حاصرهم الداعي بقوات كثيرة وشدد على منافذ المدينة كما لم يؤثر على السكان موت بني عسلوجة فى هذا الظرف لأن داوود بن جباسة من زعماء لهيصة (319) ، الذين كرهوا الحركة الاسماعيلية ، رغم انضمام بعض اخوته واقاربه اليها والى جيش الداعي ـ هو الذي تولى توجيه المعركة وسهر على استمرار حركة المقاومة التي خلفت ضحايا من الجانبين حتى استجاب الداعي لمنح الامان لسائر السكان لا لشخص واحد وعندئذ فتحت ابواب المدينة لقوات الداعي التي تكلت بمن شاءت وهدمت أسوار المدينة العنيدة ، حتى لا يفكر سكانها فى الانتقاض والثورة ، وبعد ان انتخب الداعي لسطيف واليا من قبله رجع الى ايكجان (320) .

ورغم أن النصوص لا تشير الى اسم الوالي فالذي يبدو أنه من عناصر كتامة من مسالتة أو لهيصة تأليفا لهم ، ويلاحظ أن داوود بن حباسة اللهيصي كان دوره بارزا فى انهاء حركة المقاومة بتأثير من اخوته ولهذا لا يستبعد ان يكونوا قد رغبوا من الداعي أن يبقيه واليا على المدينة خاصة وأن السكان قد ارتضوه من قبل ليدافع عنهم « وكان جميلا عفيفا ذهنا » ،

---

318 ـ اليعقوبي : المصدر السابق 103 ابن خلدون : العبر 4،72 .
De Slane op, cit T 2, p. 516.

319 ـ انظر دوسلان ـ حيث يأتي اسمه داوود بن حياته .
De Slane op, cit T 2, p. 516.

320 ـ النعمان : افتتاح 110 وما بعدها (154 وما بعدها ط . بيروت) البكري : المصدر السابق 76 ابن خلدون 4 ، 72 النويري 26 ورقة 30 .

ولذلك لم تشر النصوص اليه واليا لأنه لم يصبح بعد من الانصار المشهورين وان تطور أمره فيما بعد حتى أصبح « داعيا من الدعاة » (321) .

وبقاء مدينة سطيف موالية للداعي ومركزا كبيرا لأنصاره يؤيد بأن داوود قد أخلص للدعوة ومسك بزمام الامور نظرا لعلاقة أخوته بالداعي الذي استجاب لهم ومنحه الثقة التي كان قد حظي بها من طرف السكان .

واخذ مدينة سطيف بمجهودات وجهت من قلعة ايكجان يعتبر أولى الثمرات الطيبة التي جناها الداعي بعد استقراره نهائيا فيها وبعد اعلانها دار هجرة .

وقد لاحظنا بعد سقوط سطيف أن خط الحملات العسكرية أصبح يمر في طريق آخر هو طريق باغاية قسنطينة (322) ، وأن الجهود الاغلبية بعد ذلك لم تكرس لتحرير سطيف وانما وجهت نحو مركز الدعوة والمقاومة في قلعة ايكجان (323) . وقد تبين للامير زيادة الله ، أن الأجدى لتصفية الحركة الاسماعيلية في كتامة هو مهاجمة قلعة ايكجان مقر الداعي ولذلك جهز قوة كبرى منذ أواخر 291 هـ / 903 — 904 م وعهد بقيادتها الى ابراهيم بن حبشي من أهل بيته الذي كان يساعده بعض فرسان الدولة وحماتها وبعض زعماء كتامة المعارضين وبعد أن رسم له معالم الخطة الجديدة ، فأوصاه بأن ينفق بسخاء لتاتلف قلوب رجاله ويضم الىصفوفه زعماء كتامة ويغير خط السير بحيث لا ينفذ الى المنطقة من الطرق التي سلكتهاجيوش أبي عبدالله محمد الأحول من قبل ويجعل قاعدته فيالحركة الناجحة وفي ضمان النصر جلب ولاء سكان كتامة اليه وأن يعمل ما وسعته الحيلة اما على مفاجأة الداعي في ايكجان أو على استدراجه بعيدا عنها وبعد ذلك أذن له بالتحرك .

وقد تحرك ابراهيم بن حبشي من رقادة عبر باغاية (324) التي نفذ منها الى قسنطينة الهواء كبرى مراكز المنطقة حيث اقام فيها ستة أشهر يهيىء ويعد وينتظر الفرصة حتى مل الانتظار وتسرب الملل الى الجيش لأن

321 — نفسه ورقة 111 (155 ط . بيروت) .

322 — نفسه ورقة 112 (157 ط . بيروت) المقريزي : اتعاظ 62 ابن الاثير : المصدر 14،8 .

323 — اصبحت سطيف الآن معبر الجيش الداعي الذي سيتوجه نحو طبنة وبلزمة وباغاية وهذا يدل على اهميتها وقوة ارتباطها بمركز الدعوة وقد استمر ذلك حتى ضمت اغلب مدن الزاب وافريقية .

324 — ابن عذاري : البيان 1 ، 184 النويري : المصدر السابق 26 ورقة 30 وفيه ابن حنبش .

الداعي احتفظ بالبقاء في ايكجان لأنه انزعج لهذه القوة الضاربة التي بلغت بعد انضمام حامية طبنة اليها عددا هائلا (325) رغم أنه استعد لمواجهتها بتجنيد وحشد القبائل الموالية له (326) .

واستمرار الداعي على الاحتفاظ بمركز الدفاع من ايكجان يراقب تطور الأوضاع في قسنطينة (327) يبدو أنه اعد خطة لاستدراج الخصم ، يدل على ذلك قرب المسافة بين المعسكرين (328) وولاء سكان ميلـة وعين كرمة للداعي وهما من المراكز القريبة من قسنطينة ثم أن الداعي كان يرسل الطلائع ويختبر حال الخصم بالبعوث لمعرفةاخباره ومكان معسكرهووجهته واحدى هذه الطلائع هي التي اصطدمت به وكانت سبب هزيمته عندما بدا التحرك نحو كرمة لأن ابن حبشي بادر بالهجوم بنفسه على هذه الطليعة بمجرد رؤيتها في كينونة ـ ولم يكن حط رحله (329) او رسم خطة المعركة بترتيب رجاله واطلابه كما لم يعط شارة البدء بالهجوم وهكذا بدات معركة كينونة في ظروف غير ملائمة للمعسكر الاغلبي ، واستمرت كذلك ، وساء وضعه بانضمام بقية كتائب الشيعى الى المعركة التي اسفرت عن هزيمة ساحقة للقوة الاغلبية التي انسحبت سريعا ، وفي حركة فوضوية من ميدان المعركة الى ناحية افريقية عبر باغاية ، وفي هذه المدينة ارسل الى الامير

---

325 ـ النعمان : افتتاح 113 (158 ط . بيروت) ويزعم ان الجيش بلغ مائة الف وهو تحديد انفرد به وطابع المبالغة واضح فيه ومثل هذا العدد الهائل لم تعرفه أرض افريقية لا في عصر الفتوح ولا اثناء الحركة الخارجية رغم مبالغة بعض النصوص انظر المقريزي اتعاظ 62 : الذي يلاحظ أن جيش ابن حبشي الذي بلغ أربعين الفا انضاف اليه مثله فاصبح ثمانين الفا .

326 ـ ابن عذاري : البيان 1 ، 186 وفيه اشارة الى دور رؤساء القبائل في التعبئة السريعة وان الداعي كان يكتفي في كتابه اليهم بقوله « ان الوعد يوم كذا في موضع كذا » .

327 ـ المقريزي : المصدر السابق 1 ، 62 يشير الى قتل ابن حبشي لكثير من انصاره ومع ذلك بقي متحصنا في الجبل ، النعمان : المصدر 112 (57 ط . بيروت) .

328 ـ النعمان : المصدر السابق 112 (157) حيث أشار الى انها أقل من مرحلتين اما موضع الداعي فكان « في طرف من كتامة » .

329 ـ النعمان : افتتاح ورقة 113 (158 ط.بيروت) المقريزي: المصدر السابق 1، 62 واسم هذا القائد ورد بصور مختلفة (حنيش ـ جبنش ـ خنيش ، خيش وحبشي) والصورة الأخيرة هي الصحيحة اما غيرها فقد داخله التصحيف لوروده في بعض النصوص المغربية اكثر من مرة بصيغة حبشي التي لاحظنا وجودها بين رجال الدولة الاغلبية انظر ابن عذاري : المصدر 1 ، 184 ، 186 ، 192 ، 195 س 1 ، 14 ويذكر اسمه كاملا ابراهيم بن حبشي بن عمر التميمي النعمان : المصدر ورقة 112 ـ 113 (156 ـ 157 ط . بيروت) .

يخبره بمصيره ومصير الجيش الاغلبي ثم واصل السير قبل أن يصله الرد خشية من ان يأمره بالبقاء أو ينجده بقوة أخرى ليعيد الهجوم (330).

أما نتائج معركة كينونة (331) فكانت كارثة للنظام الاغلبي ومفيدة للدعوة الاسماعيلية . فقد أعد الامير زيادة الله لهذه الحملة طويلا وصرف عليها كثيرا وعبأها بمختلف الوسائل وضم اليها مجموعة من خيرة رجاله وانصاره من منطقة الزاب وكتامة وأفريقية ولهذا فلا مبالغة اذا اعتبرت ـ مثل حادث اختفاء الاحول ـ بداية النهاية لنظام الاسرة ، بسبب أنها وضعت حدا للقوة الهجومية وانحسر دور الدولة الاغلبية بعدها فى التزام خطة الدفاع من مراكز بعيدة نسبيا عن كتامة .

ومع توفير الامير لعناصر نجاح الحملة فالذي يلاحظ أن اختياره لقائدها لم يكن موفقا ولم يراع فيه معرفته بأسلوب الحرب وشدة بأسه بقدر ما راعى انتسابه لتميم وهي عصبية الدولة لأن بعض النصوص أشارت الى أن ابن حبشي رغم اخلاصه للنظام كان لين الطبع ولم يشتهر فى ميدان الحرب ولا جرب القيادة على هذا المستوى (332) . وقد ظهر ذلك جليا عندما لم يتجه مباشرة نحو ايكجان أو ميلة وفضل الاقامة مدة ستة أشهر فى قسنطينة كأنه يطلب الحماية والتحصن وهو الذي أرسل للبدء بالهجوم، وأضاع فرصا كان يمكنه لو استغلها فى هذه المدة الطويلة ان يظفر بكسب ضد الحركة وكان سببا فى بث روح الملل فى أوساط الجند الذين أصبحوا فى وضع من لا يرغب فى القتال وانما فى العودة الى بلدانهم وأسرهم . ولعل هزيمتهم السريعة عند أول التحام بكينونة كانت تعبر أيضا عن تركهم ميدان القتال من تلقاء أنفسهم لقوات الشيعي التي ناشبتهم القتال بعد طول الانتظار ، وبغير ذلك لا يتصور بسهولة أن تنهزم قوة ضاربة منظمة امام عدة كتائب من المتطوعين .

---

330 ـ نفسه ورقة 114 (159 ط . بيروت) وجاء فى كتابه للامير قوله « وقد انهزم العسكر المنصور فلم ينج منه الا شرذمة يسيرة .

331 ـ بهذا الشكل وردت فى ابن عذاري اما فى افتتاح الدعوة فوردت كبونة واحيانا كيونه بالياء ولم ترد اطلاقا عند ابن خلدون والمقريزي وياقوت والبغـــــدادي والبكري والادريسي والنويري واليعقوبي . أما ابن الاثير الذي يعتمد على مصادر مغربية فذكر ان الموقعة جرت فى بلد كرمة وهو اسم القرية الموجودة حتى اليوم بقرب ميلة ولذلك يبدو أن المعركة جرت بقربها وكينونة ناحية من نواحيها .. ومهما يكن فمكان المعركة يوجد بين ميلة وقسنطينة وفى مضارب اجانة وأغلبها كان مواليا للداعي مثل قبائل ميلة .

332 ـ ابن الاثير : الكامل 8،14 النعمان : افتتاح 112 (156 ـ 157) ونص ما قاله النعمان « وكان من أهل بيته الا انه لم يكن من أهل الحرب ولا ممن له نكاية وكان الغالب عليه اللين » .

ومسؤولية الهزيمة فى كينونة يبدو أنها تقع بدرجة كبيرة على عاتق الامير الذي اختار رجلا لا يصلح لغير الحياة المدنية الهادئة فى ظل القصور وربات الخدور . ولو كان له أدنى تدبير فى الحرب لاستغله فى تنظيم صفوف رجاله وتلافى الفوضى ، والثبات حتى لا تصبح المعركة كارثة مادية ومعنوية له وكسبا خالصا لاعدائه . وكانت الغنائم اموالا ، وسلاحا وأمتعة مختلفة تقاسمها رجال الداعي « فلبسوا اثواب الحرير وتقلدوا السيوف المحلاة وركبوا سروج الفضة واللجم المذهبة ، وكثر عندهم السلاح وشرفت انفسهم » (333) وحق لهم ذلك فى أول غنيمة حقيقية ينالونها وفى أعقاب أول نصر عسكري حاسم ضد قوة ضاربة تفوقهم عددا وعدة . وبقدر ما قويت روحهم المعنوية ، وازدادوا يقينا بنجاحهم فى مستقبل الأيام بقدر ما هبطت الروح المعنوية عند الجند الاغلبي وعم التذمر والاستياء والخوف سكان سائر انحاء افريقية (334) .

واعتبارا بأن الانتصار فى كينونة كان حاسما ويحمل ارهاصا بالنصر القريب للحركة وبظهور دولة المهدي أرسل الداعي من ايكجان بشرى بذلك الى عبيد الله فى سجلماسة ومعها أموال وتحف حملها بعض المتطوعين من كتامة حيث تمكن أحدهم من الاتصال بعبيد الله فى سجنه والدخول عليه فى هيئة قصاب تقية (335) .

وكانت الاموال والتحف كثيرة بدرجة أن عبيد الله أهدى منها لأحد الهاشميين ، وأوصاه بالتستر والبقاء على حالته القديمة بسبب الرقباء وخشية من افتضاح أمره بسبب نوع السكة (336) .

ولئن كان دور حامية طبنة وقائدها البطل شبيب بن أبي شداد لم يظهر أثناء هذه المعركة لأنه لم يكن من بيت الامارة ، وحاميته لم تكن غير نجدة مساعدة أضيفت الى مجموع الحملة الرئيسية فان أهمية ما قام به مع

---

333 ـ ابن عذاري : البيان 1 ، 187 واصبحت قسنطينة وارياقها فى اطار نفوذ الحركة الشيعية بعد كينونة .

334 ـ ابن عذاري 1 ، 187 حيث يصور الجو العام فى افريقية بقوله (ووقع الوهي على اهل افريقية وداخلهم الوهن والجزع) ابن الاثير : الكامل 8 ، 14 وقد صور الوضع بقوله : «وشاشت بلاد افريقية » .

335 ـ ابن الاثير الكامل 8 ، 14 المقريزي : اتعاظ 1 ، 62 انظر الخطط 1 ، 350 حيث يشعر قوله « فوصل اليه الكتاب وهو بالسجن مع قصاب دخل به اليه » باحتمال استمالة رسل الداعي لأحد القصابين المحليين فى المدينة حتى قبل الاتصال به تقية على انفسهم وعليه ايضا ويبدو ان هذا هو الاقرب الى القبول لانه يبعد التهمة عن حراس السجن ، اما دخول احد الغرباء ولو كان متنكرا لبيت أو لسجن فامــر قد لا يتم بسهولة ، خاصة وان عبيد الله اعترف بان « عليهم عيونا ورقباء » .

336 ـ ابن عذاري : البيان 1 ، 188 .

رجاله في كينونة برهنت عليها صلابته في طبنة قاعدته الاصلية التي غدت بعد هذه الهزيمة في كينونة (337) ، مع حصن بلزمة ، هدفا مباشرا لتوسع رجال الحركة الاسماعيلية الذين غدوا أحرارا في الحركة الى أية نقطة في اقليم الزاب ومنطقة كتامة .

ويبرر الاستيلاء على طبنة من طرف انصار الدعوة :

ـ انها كانت مركز اقليم الزاب ومن كبريات حواضره وفيها حامية أغلبية ووال يمثل زيادة الله .

ـ وكان دور حاميتها وأهميتها كقاعدة خلفية ، بارزة أثناء الحملات الاغلبية خاصة في الحملة التي قادها ابن حبشي .

ـ وموقعها في منتصف الطريق كان يعطي ميزة طيبة لكل من يريد الانطلاق نحو بلزمة أو باغاية ، وتيجس ، والقيروان .

ـ وقد غدت مركزا لتجمع المتآمرين ، من مسالتة وكتامة وكان يتزعمهم فتح بن يحيى « الامير » .

ـ وفضلا عن ذلك فالاستيلاء عليها يكفل ميزات اقتصادية لرجال الحركة الاسماعيلية ويعتبر أيضا التصرف الطبيعي بعد سقوط كل من سطيف ثم قسنطينة بعد هزيمة كينونة .

ـ وتمثل طبنة ، قاعدة حيوية في خط الدفاع الاول ، عن مدينة رقادة ، حاضرة الدولة الاغلبية ، وماضيها في هذه الناحية ضد الثوار والمتغلبين

---

337 ـ لا توضح المصادر التاريخية تاريخ موقعه كينونة ، التي كانت رد فعل مباشر لضم سطيف غير ان بعضها يذكر ان قائد الحملة بقي ستة أشهر في قسنطينة دون نشاط (اتعاظ 62) وورد في ابن عذاري ذكر الموقعة ضمن احداث 292 هـ (البيان 1 ، 184) وانتقل اثرها الى سرد احداث 293 هـ (188) وكان قد ذكر قبلها مباشرة قصة ظهور حدث فلكي خاص في شهر رجب من سنة 292 (186 هـ) واشار الى ولاية ابن حبشي ضمن أحداث (291 هـ) (184) ومن مجموع هذه الاشارات نستنتج ترجيحا ان سقوط سطيف كان أثناء 291 ه وفي آخرها عين القائد واستغرق اعداد جملته وقتا اثناء 292 وكان سيره الى قسنطينة قبل شهر رجب من نفس السنة وباعتبار بقائه ستة اشهر في قسنطينة دون نشاط فان الاظهر ان تكون الموقعة قد حصلت اواخر 292 هـ وبداية 293 هـ وأن وصول فلولها الى رقادة واعفاء قائدها كان قبل جمادي الآخر 293 هـ لان الامير عين في هذا الشهر 293 هـ . مدلجا بن زكرياء واحمد بن مسرور الخال على رأس قوة لقتال الداعي (188) فثارا ضده ، وقتلا بين 10 ـ 13 من هذا الشهر ولذلك اضطر بعد حصار طبنة الى تكليف ابن حبشي من جديد (ص 192) بقتال الداعي في منتصف محرم 294 هـ فانطلق هذه المرة من مدينة الاربس .

ناصع البياض منذ أن ظهرت ثورات الخوارج وحركات جند تونس الى أن انتهت ، وقد قدر لها الآن أن تمثل نفس الدور القديم لفائدة السلطة الشرعية ضد انصار الحركة الاسماعيلية .

ولهذا لم يفاجأ الداعي الذي انطلق من ايكجان عبر سطيف على رأس حشد كبير من كتامة (338) أمام طبنة (339) بموقف الصمود ، والدفاع من طرف حاميتها وواليها وسائر سكانها مع من انضاف اليهم من المعارضين من كتامة ، وبينما انهمك سكانها من داخل الاسوار فى تحصين مدينتهم وتنظيم الدفاع عنها ، وعن شرفهم ومذهبهم السني وتقاليدهم ضد قوات معادية تفوقهم عددا وعدة ازداد اصرار أنصار الدعوة الاسماعيلية على تشديد الضغط على المحاصرين ليفتحوا الاسوار ويطلبوا الامان . وأمام تعذر الاستيلاء على المدينة استخدم أنصار الداعي لأول مرة أسلوبا جديدا لاقتحام المدن المسورة اذا اعتمدوا فى نقب أحد أبراج السور واسقاطه على دبابة كانت فى حوزتهم (340) . وهنا نلاحظ أنها آلت اليهم ضمن الغنائم الوفيرة التي تركها ابن حبشي بعد هزيمة كينونة وهذا هو الاقرب الى الحقيقة لأن أنصار الداعي وقفوا من قبل حيارى أمام أسوار سطيف ولم يقتحموها الا بعد الاتفاق مع اهلها على أساس الامان فلو كانت فى حوزتهم قبل الاستيلاء على سطيف ما تورعوا عن استخدامها لنقب الاسوار على اعتبار انها كانت تغنيهم عن الالتزام بسياسة الامان ، وتقلل من تضحياتهم وتقصر أمد حصارهم للمدينة ، وهدمهم لأسوار سطيف يبعد كونها من غير الغنائم التي أخذوها عقب كينونة .

ومهما يكن ، فقد أجدت هذه الوسيلة فى اقتحام طبنة عنوة لكنها لم تجد فى كسر حدة المقاومة التي انتقلت الى حصن من حصون المدينة ولم يترك رجال المقاومة وسيلة نافعة الا استخدموها ، كي يصرفوا رجال الداعي عن مدينتهم أو يتمكنوا من النجاة فى ظروف ملائمة .

ويبدو أن تحرك الامير لنجدتهم زادهم اصرارا على الاستمرار فى المقاومة حتى آخر لحظة . وتشير بعض النصوص الى تكليف ابراهيم بن حبشي من جديد بنجدة مدينة طبنة منذ منتصف محرم 293هـ ـنوفمبر 905م(341) غير أن هذه النجدة التي قيل انها انطلقت من الأربس ، لم يقدر لهـا أن

---

338 ـ النعمان : افتتاح 114 (160 ط . بيروت) المقريزي : اتعاظ 1 ، 62 ولم يصرح باسم طبنة وان ذكر ان الداعي اخذ عدة مدن بالسيف .

339 ـ النويري : المصدر السابق 26 ورقة 30 .

340 ـ ابن الاثير : الكامل 8 ، 15 س 3 النعمان : افتتاح ورقة 115 (161 ط .بيروت) .

341 ـ ابن عذاري : البيان 1 ، 192 .

تشترك فى المعركة ، ربما لتعذر ذلك بسبب كثرة أنصار الداعي وسيطرتهم على ارباض المدينة ونواحيها وبقي دور هذه النجدة غامضا لان المعركة ضد طبنة انتهت لصالح انصار الدعوة على أساس منح الأمان فى أواخر ذي الحجة سنة 293 هـ (342) سبتمبر 905 م بعد أن تيقن رجال المقاومة من عدم جدوى الاستمرار فى المقاومة وفى الانتظار ومن تعـذر النجـاة بأنفسهم الى باغاية التي كانت حتى الآن تمثل قاعدة الأمان (343) .

أما المكاسب التي حصلت لأنصار الدعوة ، بضم طبنة فكانت هامة وفى مقدمتها :

ـ نجح الداعي فى ضمان ولاء عامل المدينة (أبي المقارع) الذي فضل البقاء الى جواره فى ايكجان عن الرجوع الى رقادة (344) ، حيث أصبح من أخص رجاله وقد انتقل فيما بعد الى رقادة بعد فرار زيادة الله .

ـ وتمكن الداعي من الظفر بالأمير المسالتي « فتح بن يحي » وقتله مع بعض مساعديه وكان هذا الرجل قد الب عليه الاحلاف فى كتامة وكان محور التآمر ضده فى تازروت كما الب أبا العباس عبد الله وابنه زيادة الله وكان سببا فى الحملات الانتقامية التي قادها الأحول وابراهيم بن حبشي وبتأثيره امتنع سكان سطيف من الأذعان كما تمنع سكان طبنة الا بعد تضحيات جمة هنا ، وهناك . وكان عداؤه للحركة لا يخلو من عنصر المنافسة الشخصية بينه وبين غريمه وابن قبيلته هارون بن يونس الذي ظفر بمركز الزعامة فى مسالته بسبب تأييده للحركة مع أن رئاسة القبيلة كانت منذ القدم لفتح الذي يلقب بالأمير ولهذا يعتبر الظفر بفتح وقتله فى طبنة من أهم النتائج التي حققها الداعي لأن ولاء مسالته باستثناء رهط بني عفنيت الأباضية ـ أصبح الآن مؤكدا وشاملا .

---

342 ـ ابن عذاري : المصدر 1 ، 191 ويكون القائد بطل هزيمة كينونة قد تباطا فى السير واخروفت انطلاقة حتى أيس المحاصرون وسلموا لأنصار الداعي لان المسافة بين الأربس وطبنة لا تتطلب سوى أيام يسيرة .

343 ـ النعمان : افتتاح ورقة 116 ـ 162 (مابعدها ط . بيروت) وقد أوضح عامل طبنة ذلك لأصحابه بقوله « نحن فى وسط مدينة قد أخذها العدو علينا وأحاطوا بها من حولها وأقرب العمار الينا باغاية وبيننا وبينها ثلاثة أيام فان نجونا من المدينة لم ننج ممن حولها وان نجونا منه وطلبنا لحقنا والياس من النجاة من هذا كله اقرب «ومنه يتضح لنا تطور الوضعية عن ذي‌قبل عندما فر ابراهيم من ميلة مع‌فارق أساسي بين من ينطلق من ميلة الى رقادة وبين الذي ينطلق اليها من طبنة » .

344 ـ النعمان : افتتاح ورقة 117 (163 ط . بيروت) ومما زاد الداعي اعجابا به قوله « ما كنت بالذي انصرف عنك ولا أدخل افريقية الا بدخولك وكيف اختار المسير الى قوم ، قد أدبرت عنهم الدنيا وأدعك وهي مقبلة عليك » .

ولم يظهر اي زعيم كتامي ، ما اظهره فتح من عداء تجاه الحركة الاسماعيلية كما لم ينشط مثله ، احد تآمرا ودسا ووقيعة ضد انصار الداعي .

— وفى طبنة لم ينس الداعي ماضيه كمحتسب ولا واجبه فى تنوير الراي العام فى المدينة عن أبعاد سياسته المالية ومنهجه الشرعي عكس ما كان يفعله الأمراء الاغالبة فيها فبدأ بالجباة وسألهم عن مصدر الأموال التي أتوه بها ، ولما قالوا له انها من العشور أخذها منهم وسلمها لبعض ثقات المدينة ليرجعوها الى أصحابها ويبلغوهم مع بقية السكان « انهم امناء على ما يخرج الله لهم من أرضهم ، وسنة العشور معروفة على ما ينصه كتاب الله » (345) .

ولما أجابه بعض الجباة عن مصدر الدنانير التي توجد معهم بأنها جزية اليهود والنصارى عن حول مضى لهم « انكر عليه ذلك لأن الرسول كان يأخذها دراهم لا دنانير وعندما بين أنه أخذها بالصرف الذي يتسبب تشريعه لعمر قال له الداعي هذا مال طيب ولكنه أمر رجاله برده الى أصحابه ويلاحظ ان حركته كانت بارعة لأن راي عمر وان كان لا يأخذ به باعتباره اسماعيليا فقد استصوب رأي الرجل ظاهرا اما ردها الى أصحابها فقصد منه تأليف قلوبهم للعهد الجديد كما رفض أن يأخذ مال الخراج بحجة ان المسلمين ليس عليهم خراج وأخذه منهم مخالف للشرع لكنه قبل أموال الصدقة التي أخذت على الانعام عينا ، عندما اتضح له أنها أخذت حسب المقادير الواجبة .

ومن هذه التصرفات الحسنة ظهر للسكان مدى مراعاته للحق والعدل والتزامه بأحكام الشرع خاصة فى الأموال فاطمأنوا اليه كما كانت ذات أصداء حسنة عند سكان مدن الزاب الاخرى ، وسكان سائر افريقية « فتاقت أنفسهم اليه وكاتبوه ، ودخلوا فى طاعته (346) » .

— واختص نواحي الادارة فى طبنة بعنايته فعين على المدينة أبا عبد الله يحي بن سلمى واليا (347) ، ويلاحظ أن النصوص لم تكشف عن نسبه فهل كان من بين ثقات طبنة العرب الذين استمالهم وأعجبوا به وبسيرته ،

---

345 — ابن عذاري : البيان 1، 191 ومما استند عليه فى مصادرتها منهم قوله « انما العشور حبوب وهذه عين . لقبال ، الحسبة المذهبية فى بلاد المغرب العربي 46 .

346 — ابن عذاري : البيان 1، 192 ومن هؤلاء سكان دار ملول (بنو يملول الآن) شرقي طبنة والى جوار خنشلة بسفوح أوراس .

347 — النعمان : افتتاح ورقة 117 (153 ط . بيروت) .

او كان من بين رجال العهد الجديد من قبيلة كتامة ؟ وقياسا عما جرى من قبل في ميلة وسطيف يرجح أن يكون هذا العامل ، كتاميا لأنه اذا كانت رغبة الداعي تعيين رجل نشيط حازم فان عامل المدينة القديم أبا المقارع ، كان انسب لهذه المهمة من غيره وقد غدا صديقا مخلصا للداعي ، الذي اعجب به ، واستبقاه الى جواره في ايكجان (348) كما أشرنا .

ـ ويبدو أن مهمة عامل طبنة كانت تتجاوز ضمان حسن سير الادارة الى الاشراف على البعوث والحملات الاستطلاعية في النواحي المجاورة والعمل على مد نفوذ الحركة الاسماعيلية الى مراكز أخرى . ومنها بلزمة التي بقيت خارج اطار الحركة رغم تركيز الحملات على أراضيها منذ وقت طويل .

* * *

ـ وبلزمة ونواحيها (القصر الآن) منطقة نفوذ أغلبية ومن حصون الدولة الهامة ومن مراكز بني تميم ، ثم هي من مضارب قبيلة مزاتة التي اظهرت عداءها للحركة الاسماعيلية من قبل ونقطة الضعف في مركزها هي انفصال سكانها عن الدولة منذ عصر ابراهيم بن أحمد الذي غدر برجال من الناحية ، ثم عدم وجود حامية أغلبية في المدينة التي كان يشرف على شؤونها في هذه الفترة عامل متغلب هو حي ابن تميم (349) .

وقد كان في وسع هذا العامل ، لو أراد الانضمام الى الحركة الجديدة أن يخطب ود الداعي ويهون على أنصاره مشروع ضم المدينة الى دائرة

---

348 ـ ويبدو ان اكتساب الداعي لصداقة ابي المقارع لتشابه طباعهما في الجلد والروسية وقوة الحجة وسلامة المنطق ثم تجاوبه مع ثقات طبنه ووجهائها واعجابه بالمدينة وبمعالمها ينضاف اليها توفيقه في الحرب ثم في اشاعة السلم في ربوعها تركت في نفسه آثارا حسنة وذكريات لطيفة خلدها في قوله وهو يفخر بفروسيته وزهده في الحياة :

من كـــان مغتبطا بلين حشيــة ... فحشـــيتي واريكتي ســــرج
مــن كـــان يعجبـــه ويبهجـــه ... نقـــر الدفوف ورنة الصنـــج
فانا الـــــذي لا شيء يعجبني ... الا اقتحامي لجـــة الـــوهـــج
سل عن جيوشي اذ طلعت بهـــا ... يوم الخميس ضحى من الفـــج

انظر البكري : المصدر 51 حسن حسني عبد الوهاب تاريخ الادب التونسي 78 هامش 1 وقد نسبها الاخير الى المهدي مع أن الأخير لم يبرح رقادة الا الى المهدية ولم يقد حربا خارجها حتى توفي . ونفس الابيات يدل على قائد عسكري مظفر كانت له بطبنة صلات وذكريات .

349 ـ النويري : المصدر السابق 26 ورقة 26 ، 30 .

نفوذهم خاصة وان الكراهية للحكم الاغلبي والرغبة فى اضعافه كانت قدرا مشتركا بينهم لكنه تحصن واستمر فى المقاومة حتى آخر لحظة كما أوصى بذلك بعد وفاته ، ومن دون شك فان ادراكه التام لأهداف الحركةالجديدة ولابعادها وتصديها لكل عناصر النظام القديم ولرغبة كتامة فى الثأر لنفسها من عرب بلزمة ، هذا مع مساندة مزاتة ووقوفها الى جانبه فى الدفـاع عن المدينة لم يترك له مجالا لاختيار طريق آخر غير الدفاع عن استقلال منطقته سياسيا ومذهبيا ضد قوم غرباء مغمورين تدفعهم الضغينة ويقودهم التعصب العنصري والمذهبي .

ولم يسلم السكان للقوات التي حاصرتهم عسكريا عندما استخدمت الدبابات والأبرجة لهدم الأسوار والنفاذ الى قلب المدينة ، وحاصرتهم اقتصاديا عندما كانت تركز من قبل على مزارعهم وبساتينهـم فى أوان النضج لأفساد الانتاج الا بعد أن أكلوا كل ما عندهم من الحيوان ثم أكلوا جلودها ثم عادوا الى درقهم فكانوا يقطعونها ويبلونها ويطبخونها ويأكلونها الى ان غلب عليهم الجوع فأستأسروا » .

وكانت نقمة الداعي وانصاره شديدة على من بقي من السكان فصادروا الأموال والأمتعة وقتلوا عناصر المقاومة وهدموا أسوار المدينة (350) ، وتركوها على حالة سيئة وانصرفوا الى قواعدهم فى طبنة وايكجان (351) .

— واذا كانت آفاق المعركة بعد سقوط بلزمة ثم هزيمة وقتل هرون بن الطبني الذي أرسل من طرف الامير لتحريرها وتأديب سكان دار ملول المتشيعين قد أصبحت واضحة للسكان ولأنصار الدعوة الاسماعيلية فان السر فى سرعة انتشارها وتطور نفوذها وكثرة الاقبال عليها فى بقية حواضر افريقية هو شيوع ظاهرة الرهبة من عقاب انصارها الذين أصبحوا لا يغلبون والرغبة فى الانضمام الى حركتهم ما داموا يدعون اليها وليس هناك بارقة

---

350 — النعمان : افتتاح 118 — 119 (164 — 165 ط . بيروت) ابن الأثير : المصدر السابق 8 ، 15 ويشير الى استخدام النار لاحراق المدينة اثناء حصارها ابن خلدون : العبر 4 ، 72 ابن عذاري : البيان 1 ، 191 دون اية تفاصيل عن الفتح اما المقريزي فى (اتعاظ) وفى الخطط فلم يشر الى طبنة ولا الى بلزمة ، النويري : المصدر السابق 26 ورقة 30 .

351 — لم تشر المصادر المختلفة الى ترك الداعي لحامية كتامية ولا الى تعيين عامل جديد فى بلزمة بعد فتحها نظرا للدمار الذي سلط عليها حتى غدت لا يخشى جانب سكانها ويبدو ان مزاتة راجعت موقفها لاننا لاحظنا ان أول ولاة سجلماسة بعد فتحهـا وتحرير عبيد الله كان منها : فلعله كان الوجه الجديد الذي يمثل التيار الاسماعيلي بين قبيلته ثم فى بلزمة التي احتفظت بهدوئها ولم تظهر فيها حركات عصيان ضد الدعوة الاسماعيلية بسبب دوره الرئيسي انظر البكري : المصدر السابق 150 ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 212 .

أمل تشعر بأنهم قد يتخلون عن البلاد أو يتراجعون عنها الى غيرها ومن ثم بدات الحركة الداخلية الجديدة التي تزعمها بعض المتشيعين والطموحيين وغذاها الدعاة والرقباء واسفرت عن انضمام كل من مدينتي تيجس (352) وباغاية (353) الى دائرة النفوذ الاسماعيلي على الرغم من أن كلتيهما كانت ترابط فيها حامية عسكرية أغلبية ويوجد فيها وال يمثل الأمير الأغلبي كما انضمت بعدهما تيفاش وقالمة ومسكيانة وتبسة والقصرين فى ظروف مشابهة وخضعت مجانة وحيدرة بعد تشديد الحصار كما أعطى الآمان لاهل قسطيلية بعد مناوشات خفيفة .

ويعتبر سقوط باغاية فى حد ذاته خسارة كبرى للدولة الاغلبية لانها كانت من أهم وأمنع ثغورها فى منطقة أوراس والزاب وكانت بمثابة القاعدة الامامية لمدينة رقادة وغدت أثناء هذه الفترة تشرف على سير المعركة فى كتامة وفيها تتجمع الحملات الأغلبية وتملأ صفوفها واليها تلتجيء اذا ما داهمتها الأخطار وقامت باغاية فى هذه الناحية بدور أساسي حتى هزيمة هارون بن الطبني فى دار ملول ومن يومئذ انقلب التيار فيها لصالح الحركة الاسماعيلية التي ضمت المدينة برضا ودعوة من سكانها .

واحسن الداعي لأهلها وعين عليها عاملا كتاميا وترك معه حامية وخطط لسياسة المستقبل وتقتضي الانطلاق منها الى النواحي للدعوة وللكشف وللضغط على معسكر ابن الأغلب الذي استقر فى قاعدة الأربس بحيث صارت هذه الأخيرة قاعدة أمامية للامـارة فى مواجهـة باغـاية التي أصبحت قاعدة أمامية هامة لرجال الحركة الاسماعيلية ويشير ابن عذارى الى هذه الحقيقة بقوله (فكانت خيل أبي عبد الله الشيعي تغير على الاربس من باغاية وخيل زيادة الله تغير على باغاية من الاربس) (354) .



352 ـ النعمان : افتتاح ورقة 121 ـ 123 (167 ـ 171 ط بيروت) وكان عاملها يعرف بابن ركاب قد أخذ بالدعوة فى ايكجان بعد ان وفد على الداعي وكانت الحامية مؤلفة من خمسمائة رجل عليهم يحفور من فتيان الامير وقد رجع الجميع الى رقادة سالمين وفاء بامانهم فكان لذلك أثر معنوي عظيم افاد الحركة بقدر ما اضر بوضعية الامير زيادة الله .

353 ـ نفسه ورقة 134 (181 ـ 182 ط . بيروت) ابن عذاري : البيان 1 ، 194 ويشير الى سقوطها فى شعبـان 294 هـ ، اما المقريزي فى اتعـاظ 1 ، 62 فلم يشر اليها ولا الى تيجس صراحة ، ابن الاثير 8 ، 15 ابن خلدون : العبر 4 ، 74 النويري : المصدر السابق 26 ورقة 30 .

354 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 195 س 12ـ13 .

ـ ويتفق ابن عذارى وابن الاثير والقاضي النعمان على صيغة متشابهة تعبيرا عما تركه حادث سقوط باغاية بعد تيجس وبلزمة من حزن وغم وحيرة فى نفس الأمير الذي اقتنع برأي أنصاره الذي يقتضي المحافظة على مركز الدفاع وتدعيمه فى الاربس واستبعاد مشروع تحريرها باعتباره مخاطرة غير مضمونة العواقب وقد تؤدي الى انهيار سريع (355) .

والحقيقة التي يجب أن تسجل هنا ان ردود فعل الأمير تجاوزت مجرد الغم والحزن ثم الجنوح الى التسلية الى اجراءات عملية وخطيرة وفى مقـدمتها :

أ ـ ارسل غداة سقوط بلزمة وانتشار التيار الاسماعيلي فيما يجاورها حملة كبرى لارجاع الوضع الى طبيعته ولطرد المتشيعين وأسند قيادتها الى احد افراد أسرته وهو هارون بن الطبني الذي نجح فى جلب كثير من سكان منطقة الزاب كما تمكن من تأديب سكان دار ملول (356) (بني يملول الآن) لانضمامهم الى الدعوة الاسماعيلية دون صعوبة واذا كانت هذه الحملة قد فشلت فى فحص الرماح (357) بقرب مضارب بني ملول فان ذلك يرجع الى عدم كفاءة القائد وعجزه عن السيطرة على رجاله الذين انسحبوا أمام كتيبة صغيرة كان يقودها عروبه بن يوسف الملوسي ، لمهمة الاستطلاع وقد كلفه قصور حياته وتشتت شمل رجاله (358) .

ب ـ لم يبق الأمير فى حاضرة ملكه وبين جواريه وندمائه وانما خرج بنفسه الى الاربس للاشراف على قتال الداعي وتحرير المدن التي سقطت فى قبضته ، ولم يرجع الا لضرورة حربية وتحت ضغط أنصاره الذين

---

355 ـ ابن عذاري : المصدر 1 ، 193 ويذكر ان الامير كان يتغلب على حزنه بالالتجاء الى التسلية (او كان اذا فكر فى زوال ملكه وغلبه عدوه على أكثر مواضع عمله يقول لندمائه « املاوا سقني من القزن يكفيني ») النعمان : المصدر السابق ورقة 135 (182 ـ 184 ط . بيروت) وقد قال للامير احدته مائة ليسليه « لقد اراحك الله من اهل باغايه وحمل عنك مؤونتهم » .

356 ـ عن موقعها بين طبنة واوراس انظر الادريسي 66 او بين مسكيانه وطبنة انظر المقدسي 217 ـ 218 ووردت بصيغ مختلفة فى المصادر ملولة ملول عند النعمان ودار ملوك عند ابن الاثير وازمول عند آبن خلدون والأصوب منها : ملول نسبة لسكانها بني ملول او يملول بالنطق المحلي وهم بجوار خنشلة .

357 ـ انفرد بذكره النعمان دون غيره من المؤرخين والجغرافيين وهو بجوار بلزمة .

358 ـ النعمان : الفتتاح 119 ـ 120 (165 ـ 167 ط . بيروت) ابن خلدون : العبر 4 ، 72 ويصف هارون بانه عامل على باغاية بينما يذكر النعمان ان اخاه زيادة الله هو الذي كان عاملا عليها المقريزي : اتعاظ 1 ، 62 وجاء فيه باسم الطيبي ابن الاثير 8 ، 15 .

اكتفوا بقيادة احد افراد الأسرة للجيش وهو ابراهيم بن ابي اغلب الذي استمر الأمير يدعم قواته بنجدات متوالية (359) .

جـ ـ وكان رده على الآراء التي يبثها الداعي وانصاره ويلهج بها دعاته فى الآفاق ردا حاسما حيث غدا لعن الداعي تقليدا متبعا أمر به فى سائر منابر الامارة كما انه أرسل لسكان افريقية سجلا هاما يتضمن دحض شبه الداعي « الكافر الصنعاني المبدل لدين الله المحرف لكتابه المحل دماء المسلمين بغير حقها ، المبيح للفروج بخلاف حلها » ، والتنديد بأنصاره من كتامة الذين وصفوا بأنهم مجرد « بربر اغنام وجهال طغام » .

وقد قرىء هذا السجل فى القيروان ورقادة وارسلت منه نسخ الى سائر النواحي (360) .

ـ وفى هذه اللحظة الحاسمة ، من حياة الامارة الأغلبية التابعة للعباسيين لم يجد المكتفي بالله الذي ولى الخلافة بعد المعتضد بالله ما يرد به على هدية الأمير ويخفف عنه بعض أثقاله ويدعم مركزه أمام الحركة الاسماعيلية غير سجل منه وجهه الى اهل افريقية رعاياه السنيين لحثهم على الوقوف صفا واحدا وراء الأمير المجاهد ، المطيع لأمير المؤمنين لقتال « عدو الله الخارجي الناجم بأطراف نواحي المغرب » وانصاره بربر كتامة « اشياع الضلال واوباش الجهال والباغين فى الفتن » لتطرفهم وقسوتهم على غيرهم من المسلمين وانتحالهم مذهبا شاذا واشاعتهم الفرقة والانفصال فى المنطقة بقوله « وان من كان مذهبه مذهب زيادة الله كانت وسيلته الوكيدة وقربته القريبة عند امير المؤمنين وكان حقيقا بالاجتباء له ، والاحسان اليه والسكون الى ناحيته وأمير المؤمنين مرتض لأمره حامد لطريقته واثق بمناصحته معتمد عليه فى الصقع الذي هو به » (361) .

وكانت أوضاع الخلافة العباسية فى المشرق سيئة بسبب نشاط دعاة الاسماعيلية فى مناطق الشرق الاسلامي ، وظهور حركتهم فى بلاد اليمن والبحرين وانتشار تيار التشيع بين ولاة الخلافة ورجالها فى مصر

---

359 ـ ابن عذاري : البيان 1 ، 193 وسمي القائد الجديد : ابراهيم بن احمد بن ابي عقال ، النعمان : افتتاح 132 ـ 133 وفيه « والذي نرى من الرأي ان تكون فى دار ملكك فاننا لا نامن أن يحدث بعدك حدث » البكري : المصدر السابق 46 ابن الاثير : المصدر السابق 8 ، 15 .

360 ـ النعمان : افتتاح 123 وما بعدها (170 وما بعدها ط . بيروت) .

361 ـ افتتاح 123 ابن عذاري : البيان 1 ، 189 وعن بيعة المكتفي بالله بعد المعتضد انظر : ابو الفداء : المصدر 2 ، 62 ـ 63 ابن الوردي « تتمة المختصر فى اخبار البشر 1 ، 246 ـ 249 السيوطي : تاريخ الخلفاء 205 وما بعدها » .

والشام (362) ، ومن هؤلاء وجد عبيد الله سندا له حتى مر بسلام الى المغرب ولهذا لم يستطع الخليفة عمل شيء آخر ومع ذلك فقد انضاف سجل الخليفة الى سلسلة الجهود التي بذلها زيادة الله وكان له تأثير معنوي كبير عند جمهور أهل السنة عندما قرئ على منابر القيروان ورقادة كما نسخت صور ووزعت لقراءتها في سائر النواحي . ورغم أن القاضي النعمان يزعم أن زيادة الله هو الذي لفق هذا السجل ونسبه الى الخليفة المكتفي بالله ، ليعبئ به المشاعر الفاترة ويشحذ به العزائم الخائرة فان ابن عذارى اشار الى وصول هذا السجل ضمن أحداث 293 هـ / 905 ـ 906 م وكان من قبل قد ذكر سفارة الأمير وهداياه المعتبرة التي أرسلت للخليفة العباسي .

ولذلك يبدو أن رواية ابن عذارى هي الراجحة لاعتبارين : انها أسست على ظاهرة الاثبات ومنطق الحوادث ، ووضع الأمير في افريقية لا ينفيانها.

ـ ثم ان الامارة الأغلبية ما زالت بعد تابعة اسميا للخلافة العباسية وقد حرص أمراؤها على تمتين العلاقة بالخلفاء للحصول على التقليد الشرعي من طرفهم والتأييد الأدبي ليطيعهم السكان . وزيادة الله ليس بدعا في الأمر ، عندما يسترضي الخليفة بهدايا ثمينة ويرجو منه بطريقة غير مباشرة العون الأدبي والاعتراف الشرعي . والخليفة من جهته سار على التقاليد المتبعة من قبل فأرسل اليه منشورا يظهر رضاه واعترافه به ، ويؤيد جهوده ويباركها ويكتل حوله جمهور السكان .

واذا كان زيادة الله في ظل ظروف بلاده قد اصطنع بعض سجلات ونسبها الى الخليفة ، بعد ذلك خاصة بعد أن سرى الوهن وضعفت الروح المعنوية عند السكان بسبب طغيان حركة التوسع الاسماعيلية (363) فان ذلك من أخص واجباته وهو في نفس الوقت غير مستبعد ولا مستهجن بالنسبة لأفكار ذلك العصر في ظل الحروب والفتن . وهل كان ينتظر منه غير ذلك ؟ والداعي يجتهد بقوة لاظهار عيوبه ونقائصه بين رعاياه ويصطنع بعض المواقف للتأثير على السكان ويحاول جهده أن يستفسد قلوب أخص رجاله ومستشاريه

---

362 ـ ابو الفداء : المصدر 2 ، 58 ، 61 ابن الوردي : المصدر 1 ، 241 ، 245 ، 261 ابن العماد الحنبلي : شذرات 2 ، 192 ، 274 ابن العبري : تاريخ مختصر الدول 262 ابن الساعي البغدادي : مختصر اخبار الخلفاء 70 وما بعدها ايفانوف : استتار الامام (مقدمة) 91 .

363 ـ النعمان : المصدر السابق ورقة 131 (178 ط . بيروت) ومن ضمن ما ردده السكان « انما الرعية لمن غلب فان كانت له قوة وعنده غناء فليقاتل واما الرعية فما تعرف مدافعة ولا اعتادت محاربة » وانظر ايضا ورقة 123 (170 ط . بيروت) حيث توقع السكان قدوم الداعي الى افريقية .

بوعود خلابة . والأغرب من ذلك انه سمح لنفسه في ظل المعركة وقبلها أن يختلق أحاديث مرة عن فج الأخيار ومرة عن ظهور دولة المهدي ، وفي كل أحاديثه كان يصور نفسه بأنه داعية للمهدي وللرضا من آل محمد الذي تتحقق على يديه الخوارق وفي ظله ينعم الناس بالعدل والرحمة والمساواة . وأغلب هذه الاتجاهات عبر عنها بعض المؤرخين المعتدلين بقوله « وصار (الداعي) يقول : المهدي يخرج في هذه الأيام ويملك الأرض فيا طوبى لمن هاجر الي واطاعني وأخذ يغري الناس بزيادة الله ويعيبه . وكان أكثر من عند زيادة الله من الوزراء شيعة فلم يكن يسوءهم ظفر أبي عبد الله » (364) غير أن الحكم على أغلب رجاله بأنهم كانوا شيعة يتضمن مبالغة كبيرة خصوصا وأن التهمة التي حامت حول ابن الصائغ لا تستند الى دليل يؤيدها ولعل القول الاصوب هو : ان رجال الأمير كانوا نوعين . نوع منحل الأخلاق بعيد عن الاهتمام بشؤون السياسة والعقائد ولا تهمه مصالح الأمير بقدر ما يهمه ارضاء نزواته . أما النوع الثاني فكان مخلصا للامير ولأسرته وله بالسياسة اهتمام ، ويعرف تطورات الأوضاع غير أن سلوك الأمير وبطانته هي التي اربكته وأدخلت الاضطراب على نفسه وفي أعماله ومن هذا الفريق عبد الله بن الصائغ ، ويلاحظ أن اغلب رجال الأمير استمروا الى جواره في رقادة فلما فارقها الى المشرق صحبه بعضهم وتخلف آخرون بعده لفترة يسيرة ، ولم تشر النصوص الى فرار أي واحد منهم الى مركز الداعي ، منذ بداية الصراع الى نهايته ، وهذا في حد ذاته يكفي لابعاد شبهة التشيع على أغلب رجاله .

د ـ لم يبذل أي امير قبله ما بذله هو من أموال في سبيل تجنيد الرجال وتعبئة القوى وكان هذا الاجراء تعبيرا عن غلبة المادة على نفوس الناس في وقته فلا يخلصون في العمل الا اذا أجزلت لهم الصلات اما قضية المبادىء واستمرار الحكم الاغلبي أو زواله لفائدة حركة جديدة فاصبح لا يشغل حيزا كبيرا من اهتماماتهم وتشير بعض النصوص الى أن الأمير كان يجلس في مكان في رقادة يسمى قبة العرض وكل من مر به اعطاه صفحة دنانير تسع نحو خمسين دينارا وشاع خبره فتقاطر الناس اليه للعمل نظير اعطائهم صحافا من دنانير (365) .

وفي مدينة الاربس غمر جنوده بالأموال وزود كل من اراد العمل بصفحة دنانير تفرغ له في كسائه وبفرس يقاتل عليه وبهذه المبالغة في صرف الأموال

364 ـ المقريزي : المصدر السابق 1 ، 59 ابن الاثير الكامل 8 ، 12 .

365 ـ النعمان : افتتاح 132 (179 ط . بيروت) .

لتجنيد الرجال وترغيبهم فى المقاومة تمكن من احراز بعض النتائج الايجابية الى حين (366) .

واذا ، فالأمير الذي يجند الجيوش ويعبيء القوى المعنوية ويسد الثغور وينفق الأموال بسخاء ويعزم على اللقاء ، فى الاربس بنفسه ويقترح مواجهة عدوه فى عمق منطقته فى باغاية اوفى ايكجان ، هو أمير حازم يشعر بالمسؤولية وايجابي فى تصرفاته بحيث لا تؤثر عليه النكبات أو الأحزان والتزامه برأي أغلب رجاله فى تبني خطة الدفاع فى هذه الفترة يدل على مدى قدرته على ضبط النفس وقوة الاحتمال .

ويبدو ان هذا الراي الذي دعمه عامل باغاية السابق الذي استقر فى الاربس فيه نضج كبير وتقدير للموقف لأن سقوط باغاية بعد تيجس كان بتيسير خاص من اهلها كراهية فى السلطة الأغلبية وقد احكم السكان الخطة من وراء ظهر عامل المدينة الذي فوجيء بالأمر فلم يسعه غير الفرار .

ولهذا فليس من السهل على اية حركة هجومية اغلبية ان تنجح فى هذه الفترة اذا لم تساندها القاعدة الشعبية وهي العامل الحاسم فى هذه الظروف لأن الجو أصبح مهيئا للحركة الجديدة بعد ان مرت فترة طويلة من العمل والاختيار وغدت أصداء التشيع القوية وموالاة الحركة هي المسموعة قبل غيرها عند اغلب السكان .

أما محاولة الهجوم المباشر بعد ذلك على ايكجان فهي مخاطرة كبرى ، بل هي عملية انتحارية لأن الهجوم اذا قدر له أن يبدأ فعلا بعد التغلب على وعثاء السفر ومناوشات كتائب الداعي والسكان الموالين لها وعلى تحفظ سكان المدن التي انضمت الى الحركة حديثا ــ فانه لن يقدر له النجاح على أرض ــ وعرة وضد انصار كثروا وبين محيط سكاني أغلبه معاد للنظام السياسي فى رقادة وبالتالي لن يستطيع اي قائد أن يقتحم قلعة ايكجان .

واذا كانت حركة الهجوم المباشر عليها قد وجهت من قبل بواسطة قوة اغلبية ضاربة تسندها قواعد خلفية موالية وحشد كبير من القبائل المعادية للحركة الاسماعيلية ثم فشلت أمام كتيبة من المتطوعين فى كينونة فانها الآن وبعدما طرأ على الوضع السياسي والاجتماعي فى كتامة والزاب من تغيير ، محكوم عليها سلفا بالهزيمة الساحقة .

366 ــ ابن عذاري : البيان 1 ، 189 ونص كلامه « واعطى بها (اي الاربس) الأموال جزافا بالصحاف كيلا بلا وزن لكل رجل صحفه ويحمل على فرس » .

وهذه الاعتبارات هي التي أوضحها عبد الله بن الصائغ في مجلس الأمير بقوله « لما صار أهل باغاية معه وفيها عسكره وعامله وهي حصن حصين وهو منها بالقرب فليس لزحف ابن أبي الأغلب اليها اي وجه » (367) .

وتحمل اشارة ابن عذارى الى عزم الأمير على الخروج الى مصر سرا بعد سقوط باغاية مباشرة (368) في شعبان 294 هـ مجموعة من الاعتبارات منهـا :

ـ ادراك الأمير لابعاد هذه الهزيمة المادية والأدبية التي تشير الى قرب ساعة الانهيار النهائي .

ـ أهمية قاعدة باغاية لنظام الامارة الاغلبية ودورها في جهاز الدفاع والهجوم ضد الحركة الاسماعيلية في الزاب .

ـ اختلاف وجهات نظر رجال الأمير حول الكيفية التي تعالج بها الأوضاع المتدهورة بعد سقوط هذه المدينة .

فرأى أقرب رجاله وهو ابن الصائغ وزيره ومدبر شؤون الدولة وصديقه القديم رغم أنه اتسم بالاضطراب الا أنه اجتهد فرأى أن المعركة ضد الحركة الاسماعيلية قبل سقوط باغاية أو بعده هي معركة ذات طابع عسكري بالدرجة الأولى ولو أنها لا تخلو من الصراع المذهبي وعلى ذلك فابقاء قائد حازم في المنطقة يتولى قتال الداعي ربما كان أجدى للبلاد التي لا يؤثر فيها بقاء الأمير أو رحيله عنها سرا الى مكان بعيد سيما وان كثيرا من قادة فتح افريقية وولاتها الشرعيين في العصرين الأموي والعباسي قد التجأوا في ظروف مشابهة الى ترك القيروان وافريقية مؤقتا ، ثم رجع بعضهم اليها بعد حين .

وكان زهير بن قيس البلوي (369) ، هو أول من نفذ فكرة اخلاء قاعدة القيروان والجلاء عنها الى برقة غداة معركة تهوده ، 63 هـ/682–683م كما فعل ذلك حسان بن النعمان الغساني غداة هزيمته امام بتر جراوة

---

367 ـ النعمان : افتتاح 1 ، 135 (183 ط . بيروت) .

368 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 194 ـ 195 ويلاحظ ان الفرار لو تم فعلا لكان تكذيبا للتنبؤات الشعرية ولاحاديث المنجمين والقصاص التي حددت رجب 296 هـ موعدا لبدء عصر جديد :

فذاك حدث ظاهـــر قد اقـــترب — في الست والتسعين ياتيك العجب
بعـــــد كمـــال المائين في رجب — من جيجل ينقض جيش ذو لجب

انظر النعمان : افتتاح الدعوة ورقة 50 (86 ط . بيروت) .

369 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 21 ، ابن عبد الحكم : المصدر السابق 269 ـ (ط . عبد المنعم عامر) .

والكاهنة عند وادي نيني (370) وحنظلة بن صفوان الكلبي (371) ، وهرثمة بن أعين (372) ، ومحمد بن مقاتل المكي (373) .

واعتبارا بهذه السوابق التاريخية ولتشابه الظروف اشار ابن الصانع عليه بالرحيل الى مصر سرا ، دون أن يكون هدفه تمكين الداعي من الدولة او تسهيل مهمته لدوافع مادية أو عقائدية ، كما يرى بعض المؤرخين .

اما راي ابراهيم بن حبشي بن عمر التميمي ، فكان يشجعه على البقاء بحجة انه مازال فى مركز قوى من الناحيتين المادية والادبية .

ورغم ان هذا الراي استند على ماضي الاسرة الاغلبية فى الاستمرار فى حاضرتهم لتوجيه المعارك ، حتى فى ظل أصعب الفترات فانه لا يخلو من المبالغة والتزييف وروح العناد ، والرغبة فى استمرار الأمير فى البلاد . وتظهر جميعها خاصة فى قوله « فكيف بك وقد كثر مالك ، وأحبك رجالك واهل افريقية معك وانما خرج عليك شيخ لا يعرف مكانه فى البربر وأنت فى حصن منيع والله يدفع عنك ، فدع ما يقال لك فانك الظافر » (374) .

فلو كان مصدر هذه الآراء ، ممن لم يختبر حال الحركة الاسماعيلية ولم ينهزم فى معركة كينونة لوجد له عذر فى عدم ادراك التطورات الجديدة فى المنطقة اما وقد صدر كل ذلك عن ابن حبشي مرابط قسنطينة وبطل الانسحاب من كينونة على راس العسكر المنصور .. فانه يبعث على الدهشة ولا يفسر الا على أساس التزلف للامير بالتظاهر بالقوة واصطناع النكاية فى غير ساحة الحرب وبتطمينه بسلامة مركزه . ويبدو أن الراي لا يعدو فى روحه ومستواه قول جاريه له وقد لاحظت عليه تبرما بحاله وبرجاله وغلمانه واسى دفينا وحزنا عميقا (375) :

اصبر لدهر نال منك فهكذا مضت الدهور
فرح وحزن مرة لا الحزن دام ولا السرور

370 ـ نفسه 1 ، 26 ، ابن عبد الحكم : المصدر السابق 270 .
371 ـ نفسه 1 ، 65 ـ 66 ابن عبد الحكم : المصدر السابق 300 ـ 301 .
372 ـ نفسه 1 ، 110 .
373 ـ نفسه 1 ، 112 .
374 ـ ابن عذاري : البيان 1 ، 195 .
375 ـ نفسه :1 ، 194 .

واقتناعه بفحوى هذا القول وسروره بنصيحة ابن حبشي دفعاه حينا من الدهر الى بذل جهد مضاعف للاحتفاظ بمركزه وبآخر ما بقي له من نفوذ فى حواضر افريقية وبفضله سرى جو الانتعاش وعرف المعسكر الاغلبي حركة ونشاطا أفادتا فى الحد من ظاهرة التوسع النشط ومن جو الانتعاش فى المعسكر الشيعي .

* * *

ومنذ هذا الوقت (شعبان 294 هـ / مايو 906 م) حتى سقوط قاعدة الاربس (فى جمادي الآخرة 296 هـ (ظهرت تطورات هامة بالنسبة لكلا المعسكرين . وأول ما يلاحظ فى جانب الطرف المهاجم وهو الداعي وانصاره :

— التقدم المطرد والسريع نحو حدود الامارة لاحكام الحصار حول معسكر ابن أبي الاغلب فى قاعدة الاربس .

— وارسال حملات صغيرة وبعوث انطلقت من ايكجان ومن قاعدتي باغاية وتيجس قادها الداعي بنفسه أو ترك قيادة بعضها لرجال من لهيصة وبني سكتان وملوزة وجيملة واسفرت فى النهاية عن الكشف فى عدة جهات وعن الاستيلاء على عدة قواعد ومدن تقع على هوامش الامارة شمالا أو فى الوسط أو فى الجنوب .

وأولى هذه القلاع مجانة التي استسلمت لأبي مدين بن فروخ اللهيصي رغم انها كانت حصينة ومسورة وترابط فيها حامية أغلبية كبيرة ويشرف على شؤونها عامل أغلبي نشيط هو خفاجة العيسي الذي لقي مصرعه مع كثير من رجاله (376) وتلتها مدينة قصر الافريقي التي أشرف على ضمها أبو جعفر أحمد بن سليمان السكتاني (377) ثم مدينة تيفاش القريبة منها التي ضمن ولاء سكانها للحركة الجديدة صولات بن القاسم السكتاني الذي اشتهر بالنكاية فى الحرب شهرته فى ميدان الدعوة السلمية .

أما عامل تيفاش القديم فقد انضم للحركة الجديدة ابقاء على نفسه ، كما تأثر بها كثير من السكان بواسطة بعض الدعاة ومنهم عبد الله بن كليب

---

376 — النعمان : افتتاح ورقة 137 (185 وما بعدها) المقريزي : اتعاظ 1 ، 62 — هامش 3 ابن الاثير : المصدر السابق 8 ، 15 وعن وصفها انظر : الاستبصار 161 ، البكري : المصدر 49 ، 145 الادريسي : المصدر 63 اليعقوبي : المصدر 101 .

377 — نفسه : وعن وصفها انظر : البكري 53 الادريسي 88 ، البغدادي مراصد الاطلاع 3 ، 1097 وهي فى دائرة سوق اهراس ، كان يفصلها عن تيجس وادي الدنانير وصفت بانها مدينة جامعة وغنية وذات آثار قديمة .

المجاني ولذلك لم يجد حبيب بن ليفة الذي انتدب لادارة المدينة من يساعده لمواجهة قوة صولات ففضل الفرار الى الاربس (378) .

ومن مدينة تيفاش ضمت مدينة قالمة بجهد يسير كما وفد عليه بعض قبائل الجهة يظهرون استجابتهم للدعوة ويطلبون الامان ومن هؤلاء بنو ورديم ، وبنو هراس (واليهم تنسب مدينة سوق أهـراس) فأمرهـم بالاتصال بمركز الدعوة فى ايكجان (379) وعقب ذلك انسحب صولات برجاله الى كتامة أثناء الهجوم الاغلبي على تيفاش .

أما مدن مسكيانة وتبسة ومرماجنة وحيدرة والقصرين (فى قمودة) واقليم قسطيلية وقصور قفصة فقد أشرف عليها الداعي بنفسه وانطلق اليها من قاعدة باغاية الحصينة (380) . ومن بين هذه المراكز وجد أنصار الداعي مقاومة شديدة أمام مدينة حيدرة ، بسبب التجاء كثير من سكان النواحي اليها وتنظيم خطة الدفاع عنها بالاشتراك مع سكانها يضاف الى ذلك المرض الذي طرأ على الداعي فجأة ومع أن الحصار استمر لهذين السببين فان سكانها رضوا بفتح أبواب مدينتهم بعد اشاعة جو الامان بين عامة السكان الا أن جند كتامة لم يرتبطوا بالوعد الذي منح وارتكبوا مخالفات شديدة تألم لها الداعي على ما كان به من مرض وأزال أثرها ، بسرعة الا انها كانت خير فرصة لخصمه كي يستغلها الى أبعد الحدود ويشنع على الداعي وعلى الحركة وعلى انصارها أيضا .

ويلاحظ هنا أن سمعة الداعي حتى هذا الوقت كانت حسنة بين السكان ولذلك كان تأثره شديدا وغمه مضاعفا لما وقع من تصرفات طائشة فى مدينة

---

378 ـ نفسه 138 (188 ط) . بيروت ابن الاثير 1528 وعن موقعها ووصفها وشهرتها بتفاش الثالثة وقربها من قصر الأفريقي والأربس انظر : البكري 53 الادريسي 88 المقريزي 62 هامش 4) .

379 ـ النعمان : افتتاح ورقة 139 وما بعدها (189) وقالمة من دوائر بونة (50 كلم) وهي مركز هام كانت تضرب فيه بعض فروع كتامة . وقد ظهرت أهميتها : لرجال الحركة غداة الهجوم الأغلبي على تيفاش حيث تحصن فيها صولات ورجاله حتى امرهم الداعي بالعودة الى ايكجان كما يبدو انها اشرفت على تاديب فرع اوربة فى بونة وضمنت ولاء هذه المدينة للدعوة الاسماعيلية .

380 ـ اما تيحس فقد أشرفت على ضم تيفاش وهذه أشرفت على اخذ قالمة وقبائل بني ورديم وهراس . وكلها كانت تتلقى التوجيه من قاعدة ايكجان مقر الداعي ومركز بني سكتان . وعن مسكيانة او فندق مسكيانة وقربها من مجانة ومرماجنة وتبسـة وموقعها بقرب وادي نيني انظر : البكري : 49 ـ 50 ابن توفل 84 الادريسي 88 وتحتفظ بنفس الاسم الان وهي على 94 كلم من مدينة العين البيضاء مركز متوسة . وعن تبسة انظر : البكري 149 ، 145 الذي يلاحظ تخريب جزء من سورها فى ثورة أبي يزيد والمقدسي 226 ، 227 الذي يجعل مرماجنة ضمن اقليمها .

حيدرة (381) وتأثره وانكاره على أنصاره كانا في محلهما لأن مصير المعركة في المستقبل كان مرهونا بالدرجة الاولى بمدى حسن تصرف كلا الفريقين المتصارعين تجاه السكان . واذا كانت مناشير زيادة الله وسجل الخليفة المكتفي لم تؤثر كثيرا على ميزان القوى ، الذي كانت كفته راجحة لفائدة الحركة الاسماعيلية فان حادثة حيدرة أثرت فعلا على المدى القريب حيث صدرت بشأنها سجلات طعن ، وتشهير ثم تلتها حركة انتعاش في المعسكر الأغلبي وصلت في نتائجها الى مدى خطير وآذنت برجوع هذا المعسكر الى دوره الهجومي القديم لاسترجاع قواعده في اقليم الزاب ، ولتأديب القبائل التي انضمت الى الحركة الاسماعيلية غير ان الذي يلاحظ ان حركات ابن الأغلب لم تؤثر على الخطة التي رسمها الداعي لنفسه منذ أن خرج من ايكجان فواصل السير نحو اقليم قمودة (382) (قمونية قديما) حيث ضم القصرين (383) ، وربما سبيطلة عاصمة جرجير قديما ولما خيل لابن الاغلب أنه يريد تضليله واقتحام رقادة فجأة والقضاء على الأسرة الاغلبية في هذا الوقت اقتفى أثره وعسكر في مكان مجاور عرف بدور مدين (384) وبقي يتسقط اخبار الداعي الذي أرسل بدوره مجموعة من رجاله لنفس المهمة وبقرب معسكر ابن أبي الأغلب فوجؤوا بهجوم عنيف قضي على معظمهم والجأ البقية الى الفرار ولولا تدارك الداعي للموقف بعد وصوله حيث بذل بعض الجهد لاحراج خصمه لكانت نهايتهم مؤكدة في شعاب وشعاري دور مدين (385) .

---

381 ـ ابن خلدون : العبر 4 ، 73 ابن الأثير 8 ، 15 وجاءت فيه مديرة (مدرة) لان اسمها القديم Ammaedora وتعرف اليوم باسم حيدرة وهي على نحو خمسين كلم من تبسة أي قرب الحدود التونسية الجزائرية ، وبهذا الاسم وردت في افتتاح الدعوة للنعمان ورقة 140 (192 ط . بيروت) ويلاحظ ان علة الحصاة تحركت عليه أمام المدينة فانشغل بنفسه ولعلها تحركت عليه ايضا في اقليم قسطيلية حتى صدق الناس اشاعة مرضه او موته انظر ابن عذاري 1 ، 197 .

382 ـ وعن هذا الأقليم الذي يقع جنوب غرب القيروان ، ومن مدن مـــذكورة والقصرين وسبيطله وتقع قفصه على حدوده انظر : المقدسي 226 ـ 227 اليعقوبي : المصدر 101 ابن حوقل 92 ، الادريسي 74 ويسمى قمونية ايضا وبهذا الاسم وردت في البكري وابن عبد الحكم وغيرهما من مصادر الفتح وذكر البغدادي مراصد 3 ، 1122 قرية بهذا الاسم كانت في موضع القيروان .

383 ـ ابن الأثير 8 ، 15 ابن خلدون 4 ، 73 النعمان : ورقة 141 (192 ط . بيروت) لم ترد احداث قموده في ابن عذاري ولا في المقريزي أيضا .

384 ـ مركز بين سبيطلة والقصرين أي في اقليم قمودة . يبعد عن قسنطينة بمسافة 6 أيام وعن بجاية باحدى عشرة مرحلة ، وقد وردت عند ابن الأثير دردمين تصحيفا وعند النعمان ، دارمدين : انظر الأدريسي : 63 ، 68 .

385 ـ النعمان : افتتاح ورقة 142 (193 ـ 194 ط . بيروت) ابن الأثير : المصدر 8،15 .

ولم يشأ الداعي أن يواصل المعركة لأن الليل حجز بينهم ولأن مواصلتها فى هذا الحين ، قد تؤثر على خطته الأصلية التي لم يبق لتنفيذها غير ضم اقليم قسطيلية (386) وقصور قفصة (387) ، فى أقصى جنوب الامارة الاغلبية .

وفى قسطيلية لم يواجه الداعي الا مناوشات خفيفة لأن عامل الأقليم أبا مسلم منصور ابن اسماعيل ومساعده شبيبا بن أبي الصارم ، انسحبا الى مدينة توزر وعندما انتهت المقاومة بمنح الأمان للسكان وأصبح الاقليم مفتوحا وخالصا لانصاره وأمرهم بالاستقرار والاكتفاء ببعض الغنائم وهدأت الوضعية خيل للامير ولحاشيته أن انعدام الحركة فى قسطيلية لمدة شهرين سنة 296 هـ / 908 – 909 م ربما يعزي الى مرض الداعي أو الى موته وبقدر ما انتعشوا بهذه الاشاعة وارتاحوا نفسيا بقدر ما كانت خيبة آمالهم مريرة عندما ظهر واخذ جميع أموال الامارة من الاقليم وانسحب الى قصور قفصة ، حيث ضمها سلما واخذ ما فيها من أموال أيضا ثم غادرها بسرعة الى قاعدة انطلاقه فى باغاية .

وبعد أن ترك حامية كتامية من ملوزة وجيملة واصل رحلته نحو ايكجان (388) للراحة وللتهيئة للمعركة الحاسمة فى مدينة الاربس .

وفى الوقت الذي احرز فيه الداعي أثناء حركته التوسعية الكبرى على مكاسب مادية وأدبية واستقر فى ايكجان كان ابن أبي الأغلب الذي نجح فى تيفاش وفى دور مدين ومع قبائل الناحية يعد رجاله لهجوم عام على مدينة باغاية باعتبارها حصنا حصينا للدعوة الاسماعيلية ومركزا لقوتها العسكرية ومنفذا الى قلب كتامة وقد أصبح الآن مقتنعا بأهمية عنصر الدعاية ضد الخصم والتشنيع عليه ، فى انجاح العمل العسكري .

---

386 – وعن كورة قسنطينة (بلاد الجريد) انظر : اليعقوبي : المصدر 102 البكري : المصدر السابق 48 – 49 الاستبصار 155 – 157 . البغدادي : المصدر 3 ، 109 وقاعدتها وكبرى مدنها تورز . وهي امتداد لتراب افريقية وآخر بلدانها دوجين .

387 – مدينة حصينة بجوار قموده جنوبا ذات تاريخ قديم وآثار فنية وهي حصينة وكانت مسورة منذ عصر اليعقوبي انظر 102 .

388 – ابن عذاري : البيان 1 ، 197 – 198 ويلاحظ ان مسؤولية الهزيمة فى قسطيلية القيت على عاتق أبي مسلم بتاثير دسائس ابن الصائغ الذي بقي يحرض الامير عليه بقوله « هذا من تضيع شيخ السوء ومن سوء نظره » حتى امر بقتله وصلبه ويعتبر قتله قبيل المواجهة الحقيقية فى الاربس من الاخطاء الكبيرة سيما وان التهمة ملفقة له بسبب عدائه لابن الصائغ النعمان : افتتاح ورقة 145 (197 – 198 ط . بيروت) ابن الاثير : المصدر 8 ، 16 ابن خلدون 4 ، 73 .

والذي يلاحظ ضمن مظاهر الانتعاش والتطور فى صفوف القـــوات الاغلبية :

ـ قيام ابن أبي الأغلب بهجوم قوي على مدينة تيفاش ، بتحريض من حبيب بن ليفه ، عاملها القديم وقد اشترك فى هذا الهجوم المفاجيء عدد كبير من الجيش الاغلبي وقاده ابن أبي الأغلب نفسه ، ونجح فيه الى حد بعيد اذ تمكن من احتلال المدينة ومن تأديب كثير من سكانها كما قتل العناصر المتشيعة والموالية للداعي ومن هؤلاء عبد الله بن كليب ، والجأ حاميتها الكتامية وعاملها صولات السكتاني ، الى مغادرتها الى قالمة ثم الى ايكجان واذا كان الداعي لم يخف لنجدة السكان فذلك لاعتقاده بأنهم لا يتخلون عن مذهبهم أمام القوة العسكرية واتضح له أن الاعداد للمعركة القادمة أجدى له ولأنصاره من الدخول فى مواجهة من أجل مركز ثانوي يصعب الدفاع عنه كما تيقن بأن هدفالحركةالأغلبية كان نفسيا وقصد بهاالضغط للتأثير على ولاء السكان فى جهات أخرى (389) .

ـ وغداة سقوط حيدرة وارتكاب جند كتامة لاخطاء تجاه السكان اغتنم ابن أبي الأغلب الفرصة وانهى الى الامير الخبر وهذا بدوره أمر بكتابة سجل يندد بالداعي وبأنصاره الذين يخونون العهود ، ويعتدون على الأموال والحرمات وقريء على المنابر فى رقادة وفى القيروان وفى سائر حواضر افريقية وكان لهذا السجل أثر هام فى النفوس بدرجة أن الداعي من فرط تأثره واهتمامه بما قال عنه وعن رجاله جمع مشائخ كتامة وأبلغهم بأن ما وقع منهم فى حيدرة استغل ضد الحركة ولذلك اجتهدوا فى اصلاح الخطأ بتأديب من اشترك فى السلب والنهب ثم بجمع المنهوبات وارجاعها الى ذويها ليظهر للناس زيف الدعاية الاغلبية (390) .

ـ وعندما علم ابن أبي الأغلب ـ وهو فى الأربس أن الداعي اتجه نحو اقليم قمودة تحرك بأثره واصطدم مع كتيبة من رجاله وانتصر عليهم فى دور مدين كما أشرنا . ومعركة دور مدين ، أعادت الاعتبار للجيش الاغلبي فى نظر السكان وحطمت خرافة أن رجال الحركة الجديدة لا يهزمون كما كانت انتصارا حاسما قبل معركة الأربس . هذا الى أنها تركت جرحاعميقا فى نفوس جند كتامة وعند انصار الداعي فى المنطقة . وأهمية هذه المعركة أنها هيأت جو الانفراج فى المنطقة وأتاحت لابن أبي الأغلب أن يفخر بنكايته فى الحرب ، كما هيأت للامير فرصة استغلالها للتخفيف من حركة النقد

389 ـ النعمان : افتتاح ورقة 139 (190 ط . بيروت) .
390 ـ نفسه 140 (192 ـ 193 ط . بيروت) .

الموجهة اليه ، ولذلك أمر بكتابة سجلات تشيد بالنصر الباهر فى دور مدين على قوى الشر ، والطغيان لتقرأ على منابر افريقية وحواضرها (391) .

ـ ويبدو أن الانتصار فى دور مدين والعمل الدعائي الذي خلده أو سبقه كانت نتائجهما حسنة بالنسبة للجانب الأغلبي الذي أصبح انصاره واعين لأسس المعارضة والنضال ضد الحركة الاسماعيلية كما انضم اليهم المترددون . والأهم من ذلك تراجع كثير من انصار الحركة ، عن موقف التأييد للداعي ، وبدؤوا يربطون صلاتهم بالأمارة الاغلبية ، ويعلنون ولاءهم لمثل الأمير وقائد جيش الأربس ، ابراهيم بن الأغلب وغدت الوفود فى هذه الفترة تتجه لا الى ايكجان كما كان الحال من قبل ، وانما أصبحت تقصد مقر ابن أبي الأغلب فى الأربس ، تتظهر براءتها من الانتساب الى الداعي ، ومن هؤلاء بنو وشنو ، وبنو صدغيان من قبائل بني هراس الذين انضموا الى الحركة من قبل ثم بنو ماجن من قبيلة هوارة .

كما وقع تحت تأثير الحركة الدعائية الأغلبية فريق بني ورديم بنواحي قالمة بل تعرضوا لضغط عسكري مباشر حيث طرقت مضاربهم قوات أغلبية لتأديبهم على تشيعهم وقد قادها ابن الهمداني من مساعدي ابن أبي الأغلب ولولا اسراع الداعي لتدعيم مركز هذه القبائل بنجدات من كتامة ، ومن النواحي القريبة حيث رفعت معنوياتهم وشجعتهم على المقاومة فى ظل العقيدة الجديدة لتحولت وجهتهم بتأثير القوة الأغلبية التي وصفت بأنها « عسكر ثقيل وكثير العدد (392) »

وحركة تنكر القبائل للدعوة الاسماعيلية ، أو تحولها عنها الى الجانب الأغلبي ، وهي التي توصف فى المصادر الاسماعيلية بأنها نفاق (393) ، هي

---

391 ـ النعمان : افتتاح 142 (194 ـ 195 ط . بيروت) .

392 ـ نفسه : 143 (196 ط . بيروت) .

393 ـ يستخدم النعمان هذا المصطلح الديني للتعبير على ثورة القبائل ضد الداعي ورفضها للدعوة الاسماعيلية كما بقي يطلقه على ثورات المتشيعين ضد المهدي وغيره من الخلفاء الفاطميين فى المغرب ويظهر ذلك فى ثنايا مخطوطي افتتاح الدعوة والمجالس والمسايرات. وهذا الصنيع منه غير غريب لان مؤرخي السنة أطلقوا مصطلح الردة على ثورات الخوارج المسلمين وعلى حركة كسيلة بن لزم الذي وصف باللعين . وهذا الوصف الاخير الذي يدل على معنى ديني اطلقه بعض الخلفاء الفاطميين على الذين خلعوا الطاعة فى المشرق او فى المغرب مثل المعز بن باديس انظر ماجد : السجلات المستنصرية سجل 5 ، ص 43 وبلد كوش سجل 57 ص 186 كما اطلقت اللعنة ووصف النفاق على فرقة لواته الشاغبين سجل 56 ص 187 كما لم يسلم من وصف اللعنة الاتراك السلاجقة اعداء الفاطميين سجل 65 ص 185 .

من جهة تعتبر ثمرة طيبة للعمل الدعائي والضغط العسكري أيضا ومن جهة أخرى،كانت امتحانا عسيرا ، أصيبت به الحركة الاسماعيلية،وواجهه الداعي قبيل المعركة الحقيقية ، وقد اقتضت جهودا ضخمة من أجل تدعيم ولاء هذه القبائل او تأديبها على تقلبها . وهذه الجهود التي أشرف عليها الداعي من ايكجان (394) وتصدى لتنفيذها خيرة من رجال جيملة وملوسة واجانة بقيادة عروبة بن يوسف وأبي يوسف مكنون بن ضبارة وأبي مجدول لم تخل من ضحايا كثيرين فضلا عن أنها خلفت مرارة وألما عميقين فى النفوس .

ــ أما فى الجانب الأغلبي فالحركة تعتبر مظهر نشاط وحيوية وعنوان قوة ونجاح فى استغلال نفس الأساليب التي يعتمد عليها الخصم . وأهمية هذه الحركة فى النواحي المادية والمعنوية ، قبل المواجهة الحقيقية فى الاربس، فاقت فيما يبدو أهمية الحركة الأغلبية الأخيرة ضد قاعدة باغاية .

ــ وقد لاحت لابن أبي الأغلب غداة رجوع الداعي الى ايكجان وبقاء باغاية بدون حامية كبيرة ، أن الفرصة مناسبة ، كي يسدد ضربة مفاجأة لهذه المدينة وللنفوذ الاسماعيلي المتزايد فى المنطقة لذلك أمر بالهجوم العام وقاده بنفسه وشدد الأمر على المدينة وقتل كثيرا من المتشيعين فيها ، غير أن مقاومة رجال الحامية وشجاعة عروبة بن يوسف ورجاء بن أبي قنة وولاء السكان (395) ، الذين وقفوا ضد الجند الأغلبي ، حالت دون احتلال المدينة نهائيا ، والجأت ابن أبي الأغلب بعد سماعه بقرب وصول نجدة كتامية كبيرة الى الانسحاب السريع تاركا أمتعة وذخائر وضحايا .

ذلك أن الداعي تحرك بسرعة اثر سماعه بنبأ الهجوم المدبر فأشرف بين قبيلة بني سكتان على التعبئة العامة لقبائل الجهة الذين « فاضوا من كل جانب وعلوا السهل ، والوعر مبادرين الى باغاية فاختار منهم مجموعة كبيرة بقيادة أبي مدين بن فروخ اللهيصي ، وأمره بأن ينسق مع حامية باغاية ونواحيها لقتال ابن الأغلب حتى ابعاده عن المدينة وعن مجالاتها ولو

394 ــ وساعد على معرفة الداعي لتحركات ابن الاغلب ضد القبائل ، عيونه فى الجهة ونشاط حركة البريديين المراكز الشيعية وايكجان ولذلك كان الداعي ينبه رجاله قبل ان تفاجئهم الحركات الأغلبية المعادية ، مع انهم كانوا اقرب منه الى معسكر ابن الاغلب ويشير النعمان الى ذلك بقوله « واتصل خبر خروجه بابي عبد الله فارسل الى عروبة وأبي مجدول ينذرهما ... ، وقد قرب منهما ولم يعلم بعضهم ببعض حتى جاءهم رسول أبي عبد الله فقاموا من وقتهم » .

395 ــ ومن بينهم فريق من قبيلة مدغرة بقيادة رئيسهم حارث الذي اخلص فى المقاومة رغما عن لوم ابن أبي الأغلب له بقوله « اخذك الله باحساننا اليك » .

كلفهم ذلك تضحيات ضخمة « أن لحقت القوم بباغاية فقاتلوك دونها ، فاحمل نفسك عليهم ولو حملتها على الأسنة ولا يردك راد عن الوصول الى باغاية » (396) .

غير أن هذه النخبة التي انطلقت بسرعة من ايكجان وباتت بمنزل كرشة (397) عندما أدركها الليل ، لم يقدر لها أن تشترك في القتال الذي انتهى بانسحاب المهاجمين الى قاعدتهم في الأربس .

ويبدو أن تعليمات الداعي بعدم ملاحقة المنسحبين الا الى مدى معين ثم رجوع أبي مدين اللهيصي وعروبة بن يوسف الملوسي وأبي مجدول الجيملي بسرعة الى قاعدة ايكجان (398) بعد فشل الهجوم الأغلبي ، كانت وثيقة الصلة بالاعدادات الضخمة في منطقة كتامة والزاب قبيل الزحف العام على آخر قلاع المقاومة الأغلبية وهي مدينة الأربس .

* * *

ومدينة الأربس التي أضحت ثغر افريقية وقاعدة للنشاط الأغلبي الحثيث منذ بدء حركة التوسع الاسماعيلية الى سقوطها احدى قرى ولاية الكاف التونسية ومن المراكز القريبة من الحدود الجزائرية وقد لاحظ الجغرافيون الذين سموها بلد العنبر أيضا ، أنها تقع غربي جبل زغوان (399) . في بسيط من الارض ولا تبعد عن حاضرة رقادة والقيروان بأكثر من مسافة ثلاثة أيام (400) . وكانت حصينة ومن المدن المسورة والغنية بالينابيع وبالعمران المتصل .

---

396 ـ النعمان : افتتاح 145 ـ 146 (199 ـ 200 . بيروت) ونصحه الداعي بان لا يجاوز في تتبعه لابن ابي الاغلب فج العرعار .

397 ـ توجد هذه القرية حتى اليوم باسمها القديم في دائرة «عين مليلة » محافظة قسنطينة ، وهي مع قرية «الفكرون وجبل انف النسر» من مضارب قبائل السقنية وهم من بقايا كتامة أي من بني سكين فيما يبدو وعن انف النسر ووجود مدينة باسم تابسلكي على سفحه انظر البكري 54 .

398 ـ النعمان : افتتاح ورقة 145 ـ 146 ابن خلدون : العبر 4 ، 74 ابن الاثير : المصدر السابق 8 ، 16 .

399 ـ جبل بقرب تونس وعليه تعتمد في مياه الشرب سمي بسبب علوه واشرافه على النواحي كلب الزقاق . فتح ايام موسى بن نصير انظر عنه : البكري : 45 ـ 46 البغدادي 2 ، 667 ابن قتيبة : المصدر السابق 2 ، 63 .

400 ـ البكري : 46 الادريسي 86 وحدد المسافة بثلاث مراحل اليعقوبي 101 وجعلها مرحلتين فقط ربما لأن الطريق الذي سلكه كل واحد منهما كان مختلفا عن الآخر ثم انه يوجد طريق للشتاء وآخر للصيف وغالبا ما يكون بينهما فرق في المسافة .

وقد قدر أن تشهد أرباض هذه المدينة كبرى معارك القرن الثالث للهجرة التي طوت صفحة النظام القديم ، وآذنت بانبلاج فجر مشرق فى العهد الجديد (401) وقد جرى قبيل الالتحام الذي ابتدأ صبيحة 23 أو24 جمادي الآخرة 296 هـ (402) استعداد ضخم ونشاط حثيث فى كلا المعسكرين .

فابن ابي الأغلب تعهد قواته وعبأ صفوفه مرة اخرى بالنجدات التي تقاطرت عليه من الأمير ابي مضر « واصبح فى وضع المتهيىء للهجوم » .

والداعي بدوره ــ بعد أن اعلن التعبئة العامة فى كتامة والزاب وانطلق من ايكجان مستهل جمادي الآخرة 296 هـ ، حيث عبأ صفوفه فى باغاية واستعرض قواته التي بلغت حسب بعض النصوص مائتي الف بين فرسان ومشاة ، واستقر جنوب الاربس ، على وادي الرمل من فروع وادي ملاق (وهو فرع من مجرده) ــ بدأ من هذا المقر ، يرسل طلائعه (403) ، للتعرف على ميدان المعركة ، وتحديد مدى قوة خصمه ولارهاب سكان النواحي الموالية ، سرية اتجهت نحو مكان منيولة واخرى وصلت حتى سقبنارية (Sicca Veneria) ومنها اخذ بعض سكانها الى معسكر وادي الرمل ، وثالثة توغلت حتى مضارب قبيلة بني جودان ويظهر ان ابن أبي الأغلب الذي لم تخف عليه أهداف هذه التحركات أرسل سرية للتصدي لها فتمكنت من أسر أحد جنود كتامة ، الذي قتله ابن أبي الأغلب ورفض التدخلات لفائدة ابقائه حيا (404) .

ويبدو أن المعلومات التي توافرت لدى الطرفين هي التي عجلت ببدء الهجوم العام حيث لا يمكن التراجع أو الانتظار .

غير أن الداعي وقد هاله حجم القوات التي يتصرف فيها خصمه وخشي الهزيمة رغم ضخامة حجم قواته أيضا أراد أن يضمن لانصاره قدرا كبيرا من التماسك والنظام والتنسيق احتياطا لأسوا التقديرات .

---

401 ــ وفى هذا العهد اصبحت توصف بباب المهدية انظر : جمال سرور الدولة الفاطمية فى مصر 20 هامش 2 .

402 ــ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 199 النعمان : المصدر 147 (202 ط . بيروت) .

403 ــ المقريزي : المصدر 1 ، 63 النعمان : افتتاح 147 (202 ط . بيروت ابن الاثير : المصدر السابق 8 ، 16 .

404 ــ النعمان : افتتاح الدعوة ورقة 147 (202 ط . بيروت) وقد غضب محبوب بن عبدون الهواري بسبب رفض اقتراحه ، وعن نشاطه بعد معركة الاربس وتطور الوضعية فى افريقية انظر ابن عذاري 1 ، 204 .

فوزع رجاله على اربع كتلات راعى فى كـل كتلة قيامهـ مع عصبيتها بالاستماتة فى القتال وفى الدفاع عن مراكزها .

وحسب ترتيبه الخاص كان على الميمنة فريق (بني ينطاسن) ومنهم اجانة وعثمان ، وكانت الميسرة فى فريق (بني يناوة) ومن ضمنهم جيملة ولهيصة ومسالته ووقف (بنو ايان) ومنهم ملوزة فى القلب . أما الداعي فأختار مجموعة كبيرة من اخلاط كتامة ومن الدعاة وكبار المشائخ وانتحى بهم جانبا حيث اشرف على ميدان المعركة من بعيد (405) .

ورغم هذه الاحتياطات فان سير المعركة فى المرحلة الأولى من صبيحة 24 جمادي الآخرة 296 هـ لم يكن مرضيا للداعي ولم يجر فى صالح أنصاره الذين بانت عليهم أعراض الضعف والتراجع بسبب ضغط رجال الأغلبي وهجوماتهم المركزة .

وخوف الداعي من هزيمة أنصاره ، وتلاشى معسكره هو الذي جعله يتحرك بسرعة ويلتجيء هذه المرة الى خطة جديدة (406) أنبنت على عنصر المفاجأة لخصمه من وراء ظهره ، فانتدب مجموعة من رجاله وكلفهم بالسير فى بعض المنخفضات (407) القريبة التي تؤدي الى طرف المعسكر الأغلبي . وفى نطاق السرية بدات حركة التشويش على الخيل المعادية حتى تنفر ليخف الضغط على رجاله بابعاد جانب من الجيش الأغلبي عن ميدان المعركة وكان هذا التدبير بمثابة شارة على تحول الموقف لصالح الداعي لأن اصطدام هؤلاء برجال ارسلوا لنفس المهمة من طرف ابن أبي الأغلب كان مفاجـأة للاخيرين بحيث ادخلت الاضطرابات على نفوسهم فتعالى الصياح الذي لحقت أصداؤه جانبا كبيرا من الجيش الأغلبي فتفككت عـراه وانسحب هؤلاء وأولئك فى حركة فوضوية تاركين وراءهم دخائر ، ومعدات وانتحى كل فريق جانبا وسلك الطريق الذي يؤدي الى ناحيته وعندما أصبح ابن أبي الأغلب فى قلة من رجاله ومساعديه وفشت روح الهزيمة فى معسكره وقوى الضغط عليه من فرسان ومشاة الداعي انسحب من ميدان المعركة واتجه الى ناحية مجهولة حيث ظهر بعد ذلك فى القيروان (408) .

---

405 ـ النعمان ، وكانت مسالته مع ملوزة فى مصاف واحد حسب رواية النعمان .

406 ـ نفسه : ورقة 148 ، ابن الأثير : المصدر السابق 8 ، 16 المقريزي : اتعاظ الحنفا 1 ، 63 وقد عبر على خطة الداعي ضد ابن الاغلب بقوله « كادهم بخيل بعثها من خلفهم » .

407 ـ ابن الأثير : المصدر السابق 8 ، 16 وقد عبر عن مكان الموقعة بقوله « فاقتتلوا فى مضيق هناك » اما النعمان فاطلق عليه اسم المسيلة واشار الى أنها تعرف بالمصارة » . وفى مكان الفرغ البيضاء فى المسيلة وقع الالتحام انظر افتتاح الدعوة ورقة 148 .

408 ـ المقريزي : المصدر السابق 1 ، 63 ابن خلدون : المصدر السابق 4 ، 74 ابن الأثير : المصدر السابق 8 ، 216 النعمان : المصدر السابق 148 (204 ط بيروت) البكري : المصدر السابق 46 ويلاحظ ابن أبي الأغلب فر مع مساعديه الى طرابلس ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 199 .

أما الداعي فقد سيطر على الموقف ورجع الى معسكره فى وادي الرمل دون أن يدخل مدينة الأربس التي أصبحت مدينة مفتوحة الا صبيحة اليوم التالي (409) . ولأن الداعي لم يعد فى حاجة الى تملق مشاعر السكان بالترفق بهم وكف أذى جند كتامة عنهم حل بهذه المدينة ما لا يوصف من أنواع الدمار والتنكيل بسبب تأييد السكان للامارة الأغلبية بحيث «دخلها الأولياء بالسيف فقتلوا بها من الخلق ما لا يحصى (410) » لم يفرقوا فى ذلك بين الجند وغيرهم حتى الذين التجأوا الى المسجد لقوا مصيرهم«حتى كانت تسيل الدماء من أبواب المسجد كسيلان الماء بوابل الغيث » (411) .

واستمر جند كتامة فى السلب والنهب حتى فارقها الداعي صباح الاثنين جمادي الاخرة 296 هـ الى قرية دقة القريبة منها حيث تصور السكان أنه يقصد مرة أخرى اقليم قسطيلية عبر منطقة قمودة (412) التي توجد رقادة فى هامشهـــا .

وتشير بعض النصوص الى ان الداعي غداة خروجه من الاربس ، انسحب فى طريقه الى باغاية احتياطا من ظهور حركة مقاومة جديدة (413) قد ينظمها سكان النواحي القريبة خاصة وان القائد الأغلبي نجا من المعركة مع أغلب مساعديه ، ودخل القيروان .

ويرجح أن هذا هو ما عزم عليه الداعي فعلا بعد انتهاء المعركة لصالحه لأنها كانت أيضا سببا فى خسائر وضحايا فى جانب انصاره الذين تعبوا كما أثقلوا بالغنائم والأموال وهذه تحتاج الى رعاية خاصة فى حرز أمـــين . وأقرب المراكز الحصينة والموالية له هي باغاية .

أما الاتجاه نحو قسطيلية فيبدو انه حركة بارعة قصدها الداعي للتضليل كي يبعد عن ميدان المعركة أو عن الاربس التي أصبحت دورها خرابا وغدا سكانها يسبحون فى بركة الدماء وفى نفوس من بقى منهم غيظ وموجدة وأمل فى الثأر ، وقابلية للانفجار . ويؤيد ذلك أن اقليمي قسطيلية وقمودة قد طرقهما الداعي من قبل ولم يوجد ما يدعو الى قصدهما ثانية الا أن يكون

---

409 ـ النعمان : المصدر السابق ورقة 149 (205 ط . بيروت) .

410 ـ نفسه .

411 ـ البكري : 46 ابن عذاري 1 ، 199 وحددا عدد قتلى المسجد بثلاثين الفا وفيه مبالغة واضحة . ابن الأثير 8 ، 16 ، وحدد العدد بثلاثة آلاف فقط .

412 ـ النعمان : المصدر السابق ورقة 149 (205 ط . بيروت) ابن الأثير 8 ، 16 ، يرى انه انصرف نحو قمودة .

413 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 199 .

ابن أبي الأغلب قد التجأ الى هناك لتدبير حركة جديدة أو يكون عزم الداعي قد استقر على لاتجاه نحو رقادة لتصفية نظام الامارة بعد انهيار خط دفاعها الأساسي وهذا غير مستبعد لأن بعض النصوص تشير الى أنه عندما سمع خبر فرار زيادة الله كان بين دقة التي فارقها وسبيبة التي لم يصل اليها ويعني هذا أنه كان فى عمق اقليم قمودة (414) .

ويبدو أن تطور أوضاع الامارة بفرار زيادة الله (415) ، الى الشرق ولحاق ابراهيم بن أبي الأغلب به بعد أن رفض جمهور سكان القيروان التعاون معه ومده بالأموال والرجال والاعتراف به أميرا (416) ، هو الذي حمل الداعي على تغيير خط سيره والتوجه مباشرة الى رقادة من مكان معسكره فى وادي الرمل .

ولأنه بعد هذه النهاية السعيدة لجهوده ، لا يريد أن يتعجل بالدخول الى رقادة وفى نفس الوقت خشى أن تظهر مفاجآت بسبب سيطرة جو الخوف والرعب والسلب والنهب فى المدينة التي أصبحت ضمن مسؤوليته فقد ارسل بعض رجاله ليضبطوا الأمن ويحفظوا النظام (417) .

ولأن الأمير الاغلبي الذي سمع نبأ الانكسار ظهر يوم الاحد لخمس بقين من جمادي الاخرة 296 هـ كان من قبل قد ربط مصيره ومصير أسرته بالنتيجة التي ستسفر عنها المعركة لأن ما هيأه لها كان « آخر ما قدر عليه من الخيالة واستفراغ المجهود » (418) فقد تظاهر فى بدء الأمر بأن البشائر بالفتح وصلته ثم جمع فى سرعة ما قدر على حمله من متاع وأموال واستصحب خواصه وفارق عاصمته ليلا الى طرابلس .

---

414 ـ النعمان : افتتاح ورقة 154 (212 ط . بيروت) النويري : المصدر السابق 26 ورقة 31 ويشير الى أن الداعي كان فى سبيبة .

415 ـ يميز على غيره باوصاف : الثالث والاخير والاصغر وكنيته ابو مضر ولقبه خزر انظر عنه ابن خلكان : المصدر السابق 1 ، 163 ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 201 حسن حسني عبد الوهاب ورقات عن الحضارة العربية بافريقية 1 ، 228 ، 229 ابن ايبك الدواداري : المصدر السابق 39 ـ 43 النويري : المصدر السابق 22 ورقة 43 ـ 44 وانظر ج 26 ورقة 30 منه .

316 ـ ابن عذاري : المصدر 1 ، 202 ومما قالوه له « انت لم تستطع دفع كتامة بالعساكر والسلاح والمال فكيف نقوي نحن على دفعهم باموال الرعية » ابن الأثير 8 ، 16 ، وثاروا ضده بقولهم : « اخرج علينا فمالك عندنا سمع ولا طاعة » المقريزي : اتعاظ 1 ، 63 وكان ردهم عليه « انما نحن فقهاء وعامة وتجار وما فى اموالنا ما يبلغ غرضك » الدواداري : الدرة 42 ـ 43 النويري : المصدر السابق 22 ورقة 42 ـ 43 .

417 ـ النعمان : افتتاح 154 (212 ط . بيروت) .

418 ـ نفسه : 149 (205 ط . بيروت) .

وقد كان من رأي ابن الصائغ هذه المرة أن يبقى الأمير حتى آخر لحظة فى حاضرة الامارة ، ليدافع عن شرفه مثل أسلافه الشجعان ويعبيء القوى ويجمع موارده كلها للقاء آخر . ولأن الأمير كان فى أزمة نفسية حادة وكان من قبل قد سمع همسا عن مكاتبة وزيره للداعي سرا ، فقد رفض الرأي الصائب وختم نضاله الرائع بعار الفرار عن دار ملكه ، ومناط عزه وشرفه وواجه ابن الصائغ من غير حجة ظاهرة بما يشاع عنه من وصف الخيانة والاتصال بالداعي (419) لمجرد الحاحه عليه فى مواصلة المقاومة وكان من قبل قد قبل ذلك من قريبة ابراهيم بن حبشي غداة سقوط باغاية ولم يلتفت الى اقتراح ابن الصائغ بالخروج سرا الى مصر كما أسلفنا .

* * *

ويبدو أن تهمة الخيانة لايوجد مايؤيدها غير حسد المنافسين لابن الصائغ ومزاج الأمير الذي أصبح حادا ويدحضها فى نظري عدة اعتبارات فى مقدمتها :

ـ ان النعمان ؛ كان معاصرا لهذه الأحداث ، وكتب عنها وأشار الى العناصر التي عرفت بالتشيع منذ قديم وليس من بينهم عبد الله بن الصائغ كما ذكر أن والي طبنة فضل البقاء الى جوار الداعي عن الرجوع الى رقادة ومثله عامل تيفاش الذي ترك مدينته والتجأ الى ايكجان لكنه لم يشر الى أن ابن الصائغ كاتب الداعي أو حاول الاتصال به بسبب من الأسباب غير سبب الحرب الشديدة التي كرس لها جهده .

ـ ولم يبق ابن الصائغ برقادة الا يسيرا ، بعد أن فارقها الأمير ثم غادرها عبر سوسة الى صقلية (420) لأسباب خاصة .

ـ فلو كان متشيعا أو كاتب الشيعي بما يفيده ويشجعه على المقاومة لما اسرع فى النجاة بنفسه ولبقى مثل المتشيعين الذين أصبح لهم مكان مرموق فى النظام الجديد مثل المروزي والنعمان وأبي اليسر الشيباني لأن الداعي سوف يرعاه بعنايته ويحفظ له الصنيعة .

ـ وتصرفاته الخاصة بعد سماعه نبأ الهزيمة يدل على اخلاصه للنظام ورباطه جأشه عكس الأمير ، وقريبه الذي فر من ميدان المعركة الى القيروان .

---

419 ـ نفسه : افتتاح ورقة 150 (206 ط . بيروت) ومن ذلك قوله له « ان هذا تصديق ما قيل فيك انك كاتبت الشيعي فاردت أن تمكنه مني » ويلاحظ هنا أن النعمان لم يثبت هذه التهمة أو ينفيها كما لم ينسب اليه التشيع ولو عرف به مثل المروزي وغيره لنبه على ذلك كعادته خاصة وان ابن الصائغ كان حنفيا ويقرب الفقهاء الحنفية ومنهم ابن جيمال القاضي .

420 ـ النعمان : افتتاح الدعوة 150 ابن عذاري : البيان 1 ، 202 ويشير الى ان وجهته كانت المشرق والأمواج هي التي القت سفينته على ساحل طرابلس حيث يوجد الامير وحاشيته ، النويري : المصدر السابق 22 ، 42 .

وتشير بعض النصوص الى أن ابن الصائغ كان يستر خبر الهزيمة ويزيف الحقيقة حتى لا تنهار القوة المعنوية عند السكان وحاول انقاذ الموقف بتقديم الأموال الجزيلة لكل من يقبل التجنيد للدفاع عن شرف الدولة . وفى هذا الوقت كان الأمير وحاشيته منهمكين فقط فى جمع الاموال ، والأمتعة وانتقاء الجواري تمهيدا للفرار ليلا ، خوفا من ثورة العامة (421) .

فلو كان هذا الأمير منطقيا مع نفسه ، ومع أخلص رجاله عبد الله بن الصائغ لسمع لنداء الحكمة ، ولأنقذ شرف أسرته بغير الفرار ، وقد بقى عنده متسع من الوقت لكي يعبيء جندا آخرين ويجمع فلول القدماء ويغير خط دفاعه ويتظاهر بالقوة ليعطل حركة سير الداعي أو يحمله على تأجيل الهجوم على رقادة ريثما يتغلب رجاله على آثار هزيمة الأربس سيما وأن الداعي ربما كان فى نيته أن يرجع الى باغاية .

ولو تدبر الأمير القضية المطروحة عليه لتخلص من أولئك الاعوان المزيفين الذين زينوا له فكرة الفرار ، وحملوه على تنفيذها لأنهم فى الحقيقة هـم أعداؤه الذين حكموا عليه بحياة الذلة والهوان والتشرد ، بين مصر وفلسطين والرقة حتى لفظ انفاسه فى الرملة وحيدا وعلى حالة مهينة (422) .

وهؤلاء هم الذين أغروه بابن الصائغ الذي ساقته الاقدار الى ساحل طرابلس (423) فقتله كما دسوا له عند الوشري والي مصر . وبعضهم هو الذي أغرى الامير باستعمال القوة ضد هذا الوالي ، الذي تباطأفي الأذن له بالدخول حتى يعرف رأي الخليفة العباسي المقتدر بالله (424) وتصرفاتهم هي التي عرضته للذل والمهانة وجعلته تحت طائلة التعزير من طرف أحد المحتسبين فى مدينة الرقة (425) ، ومحل احتقار من طرف الخليفة العباسي

---

421 ـ ابن عذاري : البيان 1 ، 200 وبدات حركة الفرار فى الثلث الاول من ليلة يوم الاحد لخمس بقين من جمادي الاخرة 296 هـ اي بعد الهزيمة بيوم واحد فقط .

422 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 241 وقد ذكر وفاته ضمن احداث 303 هـ حسن حسني عبد الوهاب الورقات : 1، 229 ويحدد وفاته بسنة 300 هـ ابن خلكان : المصدر السابق 1 ، 163 وتوافق روايته هنا رواية ابن عذاري السيوطي : تاريخ الخلفاء 260 ابو الفداء 2 ، 66 ـ 67 .

423 ـ النعمان : افتتاح 163 ـ 164 223 ـ 224 ط . بيروت) ابن عذاري : المصدر السابق 202 ـ 203 ح . ح عبد الوهاب : المرجع السابق 1 ، 232 وكان فيما يبدو ويريد الاتجاه نحو المشرق عبر صقلية تحاشيا للاخطار من طرف حاشية الامير المعادين له .

424 ـ نفسه ورقة 166 (228 ط . بيروت) ابن ايبك الدواداري : المصدر السابق 41 ـ 42 ابن الاثير 8 ، 22 ابو الفداء 2 ، 66 ـ 67 .

425 ـ نفسه : ورقة 168 ـ 169 (23 ط . بيروت) .

المقتدر بالله الذي لم يأذن له بدخول بغداد وصرفه الى المغرب عبر مصر ليأخذ منها القوة الكافية لمقاومة الحركة الاسماعيلية غير أن تصرفات رجاله ثم ما بدر منه في حق والي مصر سابقا هي التي حالت دون الوفاء بالنجدة التي انتظرها الأمير طويلا في ذات الحمام (426) دون جدوى .

ـ أما ابن الصائغ الذي قبل فيه الوشاية فقد كان نموذجا في الاخلاص والثبات على المبدأ فلم يلجأ الى الداعي أو يحاول ضمان مستقبله عنده وكان يمكنه ذلك بقدر يسير من الجهد . ولم يفر الا بعد أن أصبحت رقادة بدون أمير شرعي . أما تحاشيه الخروج بمعية الأمير فلم يكن دافعه نفاقا أو خيانة وانما خوفا على نفسه من بطانة الأمير لأنه « كان معاديا لأكثرهم وكانوا يعادونه لتقدمه عند زيادة الله وغلبته عليه فلم يأمنهم أن يسعوا به اليه وسمع ما كان رموه به من مكاتبة أبي عبد الله » (427) .

ـ ولا يؤثر على مستوى اخلاصه تصرفه الخاص في الأموال التي عزم الأمير على نهبها حيث أراد استبقاءها لنفسه لأن الأموال ليست للامير وانما هي أموال الامارة وقد صفيت هذه بفرار زيادة الله . وأخذ الأمير لبعضها عندما فر الى المشرق مثل رغبة ابن الصائغ في الاحتفاظ ببعضها الآخر لنفسه يدخل في اطار السلب والنهب لأموال الرعية استغلالا لظروف خاصة . ويلاحظ أن الأحمال التي أرادها ابن الصائغ لنفسه لم تؤل اليه بل بقيت لسبب خاص ، مخزونة في قصر الرباط في مدينة سوسة يرعاها ابن الهمداني عاملها حتى أخذها عروبة بن يوسف بأمر من الداعي أبي عبد الله (428) .

ـ ولو بقي لابن الصائغ أدنى قدر من الاقتناع بأهمية ابراهيم بن أبي الأغلب (429) الذي فر من الأربس الى مكان مجهول ولم يظهر الا بعد

---

426 ـ سوق كبيرة في الطريق بين الاسكندرية وبرقة كانت تحت نفوذ والي مصر بواسطة محرس أو رابطة وقد بني زيادة الله مسجد أثناء اقامته فيها وذلك في طريق عودته الى افريقية ، انظر البكري 3 .

427 ـ النعمان : افتتاح الدعوة ورقة 150 (208 ط . بيروت) النويري : المصدر السابق 22 ورقة 42 ـ 43 وهنا يشير الى تبرئة ابن الصائغ من التهمة على لسان الداعي الذي قال عنه (والله ماكاتبني قط) .

428 ـ ابن عذاري 1 ، 201 النعمان : المصدر السابق ورقة 151 وفيه ما يشير الى تبرئة ابن الصائغ من تهمة الرغبة في أخذ الأموال لأن المكلفين بحفظها هم الذين أخطاوا التقدير ، ودخلوا سوسه ولو كان لابن الصائغ تدبير خاص على حد رواية ابن عذاري ، لاخذ الأموال لانه مر بهذه المدينة عند خروجه من رقادة الى المشرق عبر صقلية .

429 ـ لم يوفق هذا الرجل في شيء بقدر توفيقه في الفرار نجاة من الاخطار المحققة مرة في مدينة الأربس ، وأخرى عندما صاح في وجهه أهل القيروان « أخرج علينا ورجموه ومرة ثالثة عندما عزم زيادة الله على الفتك به في طرابلس لما سمعه عنه وفي هذه المرة نجا بنفسه وسبق الأمير في الهروب الى مصر حيث أفسد عليه الجو وجعل عيسى النوشري يتوجس منه خيفة .

فرار زيادة الله لأجل سفره وبقى الى جانبه للاحتفاظ بما بقى ولتنظيم مقاومة جديدة .

* * *

ـ ومعركة الاربس ، التي انهت نظام الامارة اختلفت النصوص حول تاريخ وقوعها فالبكري وابن خلدون يجعلانها فى سنة 296 هـ / 908 ـ 909 م بدون تحديد معين لاسم الشهر أو اليوم الذي وقعت فيه (430) والمقريزي وابن الأثير والد واداري يشيرون الى وقوعها فى نهاية شهر جمادي الاخرة من نفس السنة بدون تحديد اسم اليوم الذي وقعت فيه ، وكان المقريزي قد اشار الى سير الداعي من ايكجان فى مستهل جمادي الآخرة (431) مثل القاضي النعمان (432) ، الذي يتفق مع ابن عذارى على تحديد يوم معين للمعركة ، رغم أن روايتهما عنها وعن ظروفها تختلف فى التفاصيل حيث نجدها كثيرة عند النعمان قليلة عند ابن عــذارى .

ومن خلال روايتهما يتضح ان المعركة جرت لست بقين من جمادي الآخرة 296 هـ ، ويضيف ابن عذارى ، الى ذلك اشارة عن سماع زيادة الله لخبر الهزيمة فى اليوم الثاني وهو الأحد لخمس بقين من الشهر (433) . ويعني هذا التحديد الدقيق أن المعركة جرت وانتهت يوم السبت ومايفهم ضمنا واستنتاجا من هذا الأخير أوضحه النعمان بدقة عندما أشار الى ارسال الداعي،من معسكره فى وادي الرمل ، عدة سرايا،سرية يوم الخميس لثمان بقين من جمادي الآخرة واخرى يوم الجمعة اي لسبع بقين من الشهر ، ولست بقين منه وقعت المعركة وهو يوافق يوم السبت واضاف انها استمرت حتى آخر الليل وهو نفس ما أشار اليه كل من البكري وابن عذارى وانفرد النعمان بقوله « أن رجال الداعي احتفظوا بمراكزهم تلك الليلة فلم يقتحموا المدينة الا صباح يوم الأحد ولم يغادروها الا يوم الاثنين أي لاربع بقين من الشهر عكس ابن عذارى الذي أوضح أن انسحاب الداعي من الاربس تم صباح اليوم التالي للمعركة وهو الأحد لخمس بقين من الشهر (434) اي فى نفس اليوم الذي انتشر فيه خبر الهزيمة فى رقادة وسمعه الأمير بعد الظهر

430 ـ البكري : المصدر السابق 46 ، ابن خلدون 4 ، 74 .
431 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 1 ، 63 ابن الأثير : المصدر السابق 8 ، 16 ابن ايبك الدواداري : الدرة المضية 40 .
432 ـ النعمان : افتتاح الدعوة ورقة 146 (201 ط . بيروت) .
433 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 199 من 16 ـ 17 .
434 ـ ابن عذاري : 1 ، 199 س 12 ـ 14 .

حسب رواية النعمان ، فأعد لفراره فى نفس الليلة (435) حيث تم ذلك فى الثلث الأول منها فى رواية ابن عذارى (436) .

وكيفما كان اختلاف النصوص حول تاريخ المعركة ووجهة الداعي بعدها ثم مكانه (437) عندما سمع نبأ فرار الأمير فان المؤكد أن الداعي أرسل فى نهاية جمادي الآخرة 296 هـ الى رقادة سرية من كتامة بمعية عروبة بن يوسف وابن أبي خنزير بقصد الأشراف على الوضعية المتدهورة فى المدينة بسبب اتساع حركة السلب والنهب واللصوصية وأعمال العنف (438) التي اضطرت كثيرا من سكانها الى تركها والتوجه اما الى القصر القديم او الى سوسة أو القيروان . وكان لوصولهما نتائج حسنة خاصة عند الضعفاء الذين لم يستطيعوا الفرار ثم عند بعض أفراد الأسر الأغلبية ووجوه المجتمع الذين استقر جانب منهم فىالقصر القديم، تمهيداً لاختفاء كثير منهم فى القرى وفى البوادي النائية فيما بعد (439) ولم يغادر الداعي معسكره متوجها الى رقادة الا يوم السبت غرة رجب الفرد (440) 296 هـ اي بعد أن لقى وفد القيروان فى ساقية ممس وهؤلاء هم الذين جاؤا بمعيته الى المدينة ولم ينصرفوا عنه حتى أذن لهم بحرية الانصراف (441) واثر ذلك استقر بقصر الصحن احد قصور ابراهيم بن أحمد (442) بعد أن وزع رجاله على معسكرات خاصة ، فى نواحي المدينة وفى القصر القديم (443) وكان عدد

---

435 – النعمان : افتتاح ورقة 149 (205 – 206 ط . بيروت) .

436 – البيان : 1 ، 201 .

437 – فى رأي ابن عذاري (1،204) انه كان فى الاربس ومنها انطلق وفى نواحي سبيبة عند ابن الأثير (8،16) وابن خلدون (4،74) وعن سبيبة انظر : ابن حوقل : صورة الارض 84 ، البكري : المصدر السابق 49 البغدادي مراصد 2 ، 691 – وهي على مرحلتين من القيروان .

438 – ابن عذاري 1 ، 204 ابن الأثير 8 ، 16 النعمان : المصدر السابق ورقة 154 (212 ط . بيروت) .

439 – النعمان : المصدر السابق ورقة 151 وما بعدها وكان ذلك اشارة على تدهور شانها وخلانها لفائدة المهدية – وقد تم تخريبها فى عصر المعز لدين الله .

440 – نفسه ورقة 155 (214 ط . بيروت) ابن الأثير 8 ، 17 المقريزي :اتعاظ الحنفا 1 ، 63 ابن عذاري 1 ، 204 .

441 – ابن عذاري 1 ، 204 – 205 النعمان : المصدر السابق ورقة 155 .

442 – وكان هذا القصر وقصر الفتح مقر ابراهيم بن احمد الخاص ثم قصور بغداد والمختار والبحر الذي بناه زيادة الله ثم قصر العروس سببا فى شهرة رقادة باسم مدينة القصور وكانت تحيط بها بساتين وصهاريج لنزهة الأمراء انظر حسن حسني عبد الوهاب ورقات 1 ، 364 وما بعدها .

443 – ابن عذاري 1 ، 205 ، النعمان : افتتاح ورقة 156 (214 ط . بيروت) .

من صحبه منهم حسب رواية ابن عذارى نحو ثلاثمائة ألف بين فرسان ومشاة (444) .

***

ولأن المهمة الرئيسية للداعي لم تكتمل بعد ، وفى نفس الوقت تقتضي هذه النهاية السعيدة ، القيام ببعض الاصلاحات السريعة تعبيرا عن الوضعية الجديدة بكامل أبعادها السياسية والمذهبية فقد أشرف على اجراء تغييرات فى الهياكل الادارية وفى الناحية المذهبية اقتضت منه أكثر من شهرين أي من مستهل رجب الى منتصف رمضان 296 هـ وذلك قبل أن ينطلق لانهاء مهمته بتحرير عبيد الله وولده من سجن سجلماسة . ويأتي فى مقدمة الاجراءات (445) :

ـ منح الأمان العام لسكان القيروان ورقادة بما فى ذلك بقايا الأسرة الأغلبية ومواليهم فى القصر القديم لم يستثن من ذلك غير مجموعة من الفتيان بقيادة ابراهيم بن بربر التميمي الملقب بالقوس الذي حرض على الثورة ضد الداعي وقادها لأنه كان يضمر الشر للحركة الجديدة واشتهر بالشجاعة وقوة البأس وعندما أمر الداعي بخنقه قال لرجاله « ما أمنت بافريقية حتى قتلت القوس » (446) .

ـ واصدر سجلا خاصا بالأمان العام يشرح فيه أبعاد المعركة الاخيرة ، ويشير الى بعض ملامح السياسة الجديدة التي ستطبق في سائر ولاية افريقية، وملحقاتها كجزيرة صقلية ومما جاء فيه خاصا بهذه الجزيرة قوله يخاطب سكانها « وسوف أملا جزيرتكم خيلا ورجلا من المؤمنين الذين يجاهدون فى الله حق جهاده فيعز الله بهم الدين والمسلمين ويذل بهم الشرك والمشركين » (447) .

وقد كف أذى جند كتامة عن السكان ، ومنعهم من السلب ، والنهب والتعدي على غيرهم لكنه فى نفس الوقت أرضاهم بتوزيعهم على النواحي ومنح كل واحد منهم مكانا يأوى اليه . والذي كان محل اعجاب ودهشة جماهير السكان هو مدى طواعية هؤلاء لأوامر الداعي وسرعة استجابتهم لكافة رغباته .

---

444 ـ نفسه 1 ، 204 اما النعمان فقد شبههم نظرا لكثرتهم « بالجراد المنتشر » وقد بلغ مجموع قبيلة مسالتة وحدها ، وهم أنصار شيخ المشائخ نحو اثنى عشر الف سيف انظر طالبي : تراجم اغلبية 357 ، وهي مستخرجة من ترتيب المدارك لعياض .

445 ـ ابن ابي الضياف : اتحاف 1 ، 118 .

446 ـ ابن عذاري : البيان 1 ، 205 واستاء رجال كتامة ، من منح الأمان لسكان المدينتين لرغبتهم فى السلب والنهب والتعدي .

447 ـ النعمان : افتتاح 159 ـ 162 (219 ـ 222 ط . بيروت) .

ـ وقد حرص على أن يكونوا في هاتين الحاضرتين ، قوة بناء وأداة جذب وعناصر فعالة في الدعوة للمذهب الشيعي رلاشاعة مبدأ تقديس علي وتفضيله على بقية الصحابة الكرام (448) .

ـ وعلى عناصر من جند كتامة ، بقيادة عروبة بن يوسف الملوسي ، اعتمد في ضبط الامن واشاعة الألفة والرحمة بين سكان مدينة سوسة (449) ، وبهؤلاء تمكن من استرجاع أموال الامارة الأغلبية التي كانت مخزونة حتى هذا الوقت في قصر الرباط في المدينة (450) .

ـ وعلى مجموعة أخرى ، اعتمد في احضار كل من أبي المقارع من ايكجان واخيه أبي العباس المخطوم ، من طرابلس . وقد حضر الأخير وبمعيته أبو جعفر الجزري وام عبيد الله (451) فكان سروره بوصولهم عظيما ، وقدم لأخيه ما هو أهل له من الاحترام والتقدير بسبب كبر سنه (452) . وكان هذا التدبير مقدمة لاستخلافه على افريقية بعد مغادرتها الى سجلماسة (453) . أما أبو المقارع فتلطف به واكرمه لكنه لم يعهد اليه بأية مهمة جديدة .

ـ ثم امر بجمع مخلفات الامارة واموال الأمير ، وجواريه وسائر ما انتهب من أموال الفارين في مكان أمين وكلف برعايته الأحدب أحمد بن فروخ الطبني أما الجواري فقد اهتمت بشئونهن أمرأة تسمى روند ، التي زودها الداعي بما يحتجن اليه من طعام ، ولباس ، ولكنه رفض الشرب أو أن

---

448 ـ ابن عذاري : البيان 1 ، 208 .

449 ـ عن سوسة ومعالها ودرها ومشاهدها انظر : البكري 34 ـ 36 ياقوت معجم البلدان : 5 ، 173 ـ 175 البغدادي : مراصد الاطلاع 2 ، 755 حسن حسني عبد الوهاب ورقات 2 ، 15 وما بعدها وقد اعتمد في كتابة فصل طويل عنها على مخطوط كان يوجد بحوزته وهو الآن بين مخطوطات المكتبة الوطنية (العطارين سابقا (عنوانه : برنامج قيم بمدينة سوسة ووطنها من الجوامع والاولياء والمعاصر والديار رقم 18669 وكانت سوسة تعتبر منفذا للقيروان وظهرت اهميتها اثناء فتنة ابي يزيد . حولها اربطة ومحارس أشهرها : قصر الرباط وقصر الطوب .

450 ـ كان مجموعها نحو ثلاثين حملا من الذهب وقصر الرباط يقع بجوار سوسة وهو اكبر من قصر الطوب واقرب الى المدينة واقدم منه تاسيسا اذ يعود بناؤه الى عصر زيادة الله الاول وقد أشرف على تاسيسه مولاه مسرور الخادم واستفيد ذلك من الوثيقة التي توجد في جناح خاص من الرباط عرف « بمتحف اسد بن الفرات » واشتمل على وثائق وآثار وتحف عن العصرين الأغلبي والفاطمي .

451 ـ ابن عذاري 1 ، 205 ـ 206 النعمان : افتتاح الدعوة ورقة 169 ـ 170 ويبدو ان فراره الى غير منطقة كتامة بعد نجاته من السجن يدعو الى الدهشة .

452 ـ اليماني : سيرة جعفر 121 المقريزي : اتعاظ الحنفا 1 ، 64 ، النعمان : المصدر السابق والصفحة .

453 ـ المقريزي : المصدر السابق 1 ، 65 .

يمارسن اللهو مع اي كان قبل وصول صاحبهن ، وقد بقى الداعي متعففا عن كل المباهج ، ولم يمد يده الى أية واحدة منهن ولما استطلعت « روند » رايه حول رغبة هؤلاء الجواري ، فى المرح واللذة بقولها « ويردن من الرجال ما يريد الرجال منهن » ، أجابها بقوله : « هذا لمولاهن وعن قريب يأتي اليهن » (454) .

ـ وقد عهد الداعي لرجال كتامة وللعناصر المتشيعة بالاشراف على النواحي الادارية والمذهبية والعسكرية .

فكان الحسن بن أحمد بن علي بن أبي كليب المعروف بابن أبي خنزير عاملا على القيروان ، وأخوه خلف بن أحمد على مدينة القصر القديم (العباسية) وقد زودا بتعليمات دقيقة تقتضي اليقظة لمراقبة الأمن والنظام والالتزام بحدود معينة فكل من خرج « ليلا » أو شرب مسكرا او حمله ،او وجد فى حوزته تنفذ فيه عقوبة القتل (455) . وفكرة تقديم هذين الرجلين لهذه المهمة ، قصد به الرفق بالسكان ، لما اشتهرا به من التعقل وسداد الراي وكان فى امكانه أن يعين عروبة بن يوسف خصوصا وقد اشتهر بالحكمة ونجح فى المهمات التي أسندت اليه فى سوسة وفى رقادة ولم ير الناس منه الا خيرا ، لكنه أمسك عن ذلك وتركه فى الميدان العسكري لأنه كان من أخص قادته وقد قصد أن يدخره لعمل خطير هو تحرير عبيد الله من سجنه وتأديب القبائل والأنظمة المعارضة على طول الطريق من رقادة الى سجلماسة .

ـ أما قضاء القيروان وسائر بلاد افريقية فقد أصبح من نصيب متشيع قديم هو محمد بن عمر بن يحي بن عبد الأعلى ، المعروف بالمروزي الذي تمتع بحق الاشراف العام على سائر قضاة النواحي ، حتى شمخت نفسه ، وأصبح يكتب على سجلاته « من محمد بن عمر قاضي القضاة » (456) .

وهو الذي امتحن على يديه كثير من فقهاء السنة . ولأول عهده امر بترك صلاة التراويح فى شهر رمضان باعتبارها بدعة أحدثها عمر بن الخطاب كما أمر المؤذنين بزيادة حي على خير العمل « فى الأذان اقتداء بعلي 457) واسقاط(الصلاة خير من النوم » فى « أذان الفجر » .

---

454 ـ النعمان : المصدر السابق ورقة 175 (216 ط . بيروت) .

455 ـ نفسه : ورقة 155 (214 ط . بيروت) ابن عذاري 1 ، 206 .

456 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 207 النعمان : افتتاح 156 ـ 157 (215 ط . بيروت) ويبدو ان هذا الخبر الذي تفرد به النعمان وهو معاصر للمبروزي يشير الى ظهور لقب قاضي القضاة لاول مرة فى السجلات الرسمية فى بداية عصر الفاطميين فى المغرب .

457 ـ نفسه 1 ، 170 ـ 171 ، 207 وعن اصل هذه الصيغة وقدمها انظر النعمان دعائم الاسلام 1 ، 172 ـ 173 ط القاهرة 1951 الشيال مجموعة الوثائق الفاطمية 1 ، 58 هامش 1 .

ـ وقد عين ائمة لمساجد القيروان ورقادة كلفوا بالدعاء لعلي بن ابي طالب وسائر أصحاب الكساء كما عمم هذا الدعاء في سائر منابر افريقية اظهارا لمذهب الشيعة في تفضيل علي ، وبغض أصحاب الرسول ، خاصة من ولي الخلافة قبله (458) .

ويلاحظ ان خطب الجمع والاعياد لم تتضمن الدعوة لاي امام ، قبل وصول عبيد الله (459) .

ـ وعلى دار الضرب اعتمد على خبرة ابي بكر ابن القمودي (460) الفيلسوف وفي أول سكة تذكارية ضربت وعرفت السيدية (461) لم يذكر اسم الخليفة ولا غيره وانما نقش عليها « الحمد لله رب العالمين » .

أما السكة الأخرى فتضمن أحد وجهيها عبارة « بلغت حجة الله » وفي الوجه الآخر كتبت عبارة « تفرق أعداء الله » .

وخاتمه الخاص ، نقش عليه آية قرآنية أيضا هي « فتوكل على الله انك على الحق المبين » أما الخاتم الرسمي الذي يطبع به على السجلات ويودع في دار الامارة فقد نقشت عليه آية « وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم » ووسم أفخاذ الخيل بآية « الملك لله » ونقش على البنود « سيهزم الجمع ويولون الدبر » و « وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » وعلى الأسلحة نقش عبارة « عدة في سبيل الله » (462) .

---

458 ـ نفسه 1 ، 207 النعمان : المصدر 158 (217 ط . بيروت) ويلاحظ ان هذا التقليد في خطب الجمع والاعياد بقي مستمرا في بلاد المغرب مع جزئي يتضمن اضافة الدعاء لسائر الصحابة العشرة الكرام المبشرين بالجنة وهو يعود فيما يبدو الى عصر احياء السنة منذ القرن 5 هـ / 11 م .

459 ـ المقريزي : المصدر السابق 1 ، 63 كما ان السكة التي ضربت في هذه الفترة لم تتضمن اسم صاحب السيادة .

460 ـ ينسب لقمودة ولاية القصرين الآن بدا حياته مالكيا محبا للنظر والجدل وترعرع في بيت الحكمة في رقادة وقد اشترك في حركة المناظرة ضد الداعي بقوة وحماس لدرجة انه هدده بقوله « وانك لتنظر لاهل البيت ما أرى منك من البغضاء » فخاف العاقبة وانزوى ثم تعاون مع العهد الجديد انظر ، ح . عبد الوهاب ورقات 1 ، 251 ـ 252 (نقلا عن طبقات الخشني) .

461 ـ ابن عذاري : البيان 1 ، 206 والنسبة لاحد القابه في كتامة وهو السيد .

462 ـ المقريزي : المصدر السابق 1 ، 64 انظر الخطط 1 ، 350 النعمان : الافتتاح 158 (217 ط . بيروت) ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 206 ابن الأثير : المصدر السابق 8 ، 17 وعدم ذكر اسم المهدي بين الشعارات مع انه صرح باسمه وبقرب ظهوره من قبل فيه غرابة .

ـ وكلف اخاه أبا العباس محمدا المخطوم وأبا زاكي تماما بن معارك بالاشراف على ولاية افريقية أثناء رحيله الى سجلماسة ويبدو أن أخاه كان بمثابة المفوض العام أما أبو زاكي فكانت مهمته ذات طابع عسكري يراقب الأمن في نواحي الولاية بمساعدة جند كتامة في رقادة وفي النواحي (463) .

ـ وحتى لا يفاجأ أهل افريقية بسرعة مغادرته للمنطقة ويطلقوا العنان لتأويلات شتى أو يفكروا في الثورة والعصيان فانه اصدر سجلا خاصا قرىء على سائر منابر افريقية فضلا عن القيروان ورقادة ، وفي هذا السجل أشار الى ما منحه الله من النصر على أعدائه « حتى انقادت اليه الأمور بأزمتها وسلسلت اعنتها » .

وركز مسئولياته الجديدة في المنطقة وانه سوف يتصرف فيها طبق قواعد العدل ويرعى كل من يلتزم بالاوامر واظهر حب « العتارة » واقتفى أثر أهل البيت ، ويعمل على اشاعة جو السلام والأمن في المنطقة « الى غاية يشرب لها الذئب والشاة من منهل ويجتمع العدو مع عدوه في منزل ويسلك السفر والسيارة بلا خفير ولا سفير من لدن أرض مصر الى أقصى حجر بالمغرب » .

ورغم انه لم يشر الى اسم عبيد الله صراحة ولم يوضح مهمته في هذا السجل فانه لمح الى ذلك بقوله « آثرت ترك الدعة والسعة وهجرت مهاد الخفض ورفاهة العيش ابتغاء ثواب الله في لم شعثكم وضم نشركم وما يعود نفعه عليكم في يومكم وغدكم وعاجلكم وآجلكم » .

وقد تحاشى في هذا السجل أن يذكر غير نائبه تمام بن معارك (464) مع أن أبا العباس محمدا المخطوم (465) كان مكلفا بمهمة وقد استقدم من طرابلس لهذه الغاية ولم يستصحبه معه الى سجلماسة على الرغم من أنه يفيده في التعرف على عبيد الله وولده لأنه لم يسبق له أن اتصل بهما مباشرة (466) .

---

463 ـ أبو الفداء : المصدر السابق 2 ، 69 ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 209 ابن خلدون : المصدر السابق 4 ، 75 ابن الأثير : المصدر السابق 8 ، 17 النعمان : المصدر السابق 169 ـ 172 (235 ـ 236 ط . بيروت) اليماني : السيرة 123 ابن أبي الضياف 1 ، 119 أبو الفداء 2 ، 69 .

464 ـ النعمان : افتتاح 171 ، 172 (232 وما بعدها ط . بيروت .

465 ـ عرف بلقب خيطوم والاخرم وبالمحتسب أيضا ويبدو أن لقب المخطوم عرف به منذ ان ضرب بسيف على وجهه في الطاحونة من طرف قطاع الطرق الذين اخذوا من عبيد الله أموالا وكتبا قديمة انظر : النسابوري استتار الامام 106 طالبي : تراجم اغلبية « مستخرجة من مدارك عياض » 354 ، 357 ، 391 ابن عذاري : 1،408 يحي بن سعيد الانطاكي : المصدر السابق 751 ابن حماد : المصدر السابق 7 النويري 26 ورقة 31 .

466 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 172 س 17 ـ 18 .

وابو العباس كان ضمن الرفقة التي صحبت عبيد الله فى رحلته من سلمية عبر مصر الى سجلماسة فى صحراء المغرب لكنه فارقه فى طرابلس للقيام بمهمة خاصة عند أخيه فى كتامة .

* * *

وينهض وجود هذا الرجل ـ بين رجال عبيد الله عندما فارق سلميةدليلا على أن الأخير كان قد عزم على التوجه الى المغرب (467) قبل مغادرته سلمية لأسباب تتعلق بأمنه وبمصير حركته (468) لكنه احتفظ لنفسه بحق عدم اطلاع أي أحد من رجاله وكبار انصاره (469) وفى مصر ، أيد هذا الاتجاه ابو علي من كبار دعاته بدون تردد وعزم على أن يرافقه فى رحلته الى بلاد المغرب بخلاف صهره فيروز باب الأبواب وكبير الدعاة وصاحب الحظوة الذي تظاهر باشفاقه على عبيد الله من الرحلة الى بلاد قصية وفضل اليمن لنجاح الدعوة على يد انصاره هناك (470) .

ولعله كان يضمر شيئا خاصا لأن عبيد الله اذا كان أمام الزمان ورأىرأيا فان طاعته عبادة واجبة لأنها الدعامة الأولى فى نظر الاسماعيلية ولا يتصور مخالفته الا عن تنكر للحركة وانشقاق عليها (471) ولعل الذي ظهر فيما بعد فى اليمن عندما التجأ اليها (472) ، وفتن عليا بن الفضل وحمله على الثورة والعصيان ضد منصور اليمن حتى اتخذ دار ملكه بالمذيخرة وادعى النبوة وتحلل من كثير من الأحكام الشرعية (473) لعل ذلك كان له أساس قديم .

ـ ووجود وفد (474) كتامة معه وكانوا قد وصلوا اليه من طرف الداعي بأخبار عن سير الدعوة الاسماعيلية فى بلادهم ومدى النجاح الذي أحرزه الداعي الذي أصبح يسطير على مراكز كثيرة منها ايكجان وتازروت وميلة

467 ـ اليماني : سير جعفر 110 ، 116 ويحدد ابن العماد الحنبلي : المصدر السابق 2 ، 203 تاريخ دخوله للمغرب بسنة 290 هـ .

468 ـ نفسه : النسابوري : استتار الامام 96 ـ وما بعدها 106 وعن رحلته حتى صفا له الجو انظر ابن الوردي تاريخ 1 ، 252 .

469 ـ النعمان : افتتاح 106 الذي يشير الى نيته فى التوجه نحو اليمن لولا فساد امره ماجد : ظهور 86 الهمداني : الصليحيون 39 ـ 40 .

470 ـ اليماني : سيرة 114 الهمداني : المرجع السابق 28 .

471 ـ النعمان : الهمة فى آداب اتباع الملة 38 ـ 39 وفيه « اعتقاد ولاية الائمة والتدين بامامتهم وطاعتهم أصل ما يجب » دعائم الاسلام 1 ، 3 ماجد : نظم 1 ، 61 ـ 63 .

472 ـ اليماني : سيرة 114 الهمداني : المرجع السابق 41 .

473 ـ عبد الباقي اليماني : بهجة الزمن فى تاريخ اليمن 39 ـ 40 الشوكاني : قطر الولي 285 ـ 286 النعمان : افتتاح 106 اليماني سيرة جعفر 114 ـ 115 الهمداني : المرجع السابق 41 ـ 47 العقاد : فاطمة الزهراء 77 ـ 78 .

474 ـ النعمان : افتتاح 108 المقريزي : المصدر السابق 1 ، 60 .

فيما يبدو يشير الى عزمه على التوجه الى داعيته فى كتامة لا سيما وان الأخير حثه على المجيء اطمئنانا للوضع (475) وارسل بعض انصاره ليشرحوا امامه ويصاحبوه الى المنطقة ولما اقتنع بذلك ضم اليهم ابا العباس محمدا ليجتمع مع اخيه بناء على رغبته وفى طرابلس سبقوه الى كتامة ليخبروا الداعي بذلك فيهب لاستقباله ويستعد لتدبير مقامه وكان الداعي مقدرا لقيمة وجوده بين انصاره فى كتامة وربما كان ظهوره فى كتامة حافزا على اظهار الامر وعاملا على مضاعفة الجهود وتكتل الانصار وزوال كثير من التناقضات الداخلية وكان يمكن ان يتم وصول عبيد الله ورفقاؤه الى منطقة كتامة من قسطيلية (476) وتوزر لو لم يكتشف أمره وبات البريد الأغلبي بوصفه وبأنه صاحب الداعي فى كتامة ــ وهذا التطور فيما يبدو هو الذي الجاه الى الابتعاد عن انصاره فى ركن قصى فى صحراء سجلماسة البعيدة عن نفوذ الأغالبة والعباسيين .

وتضحيته أثناء الطريق او عندما استقرفىمدينة سجلماسة لهامايبررها، فقد كان تصوره للوضعية السياسيةفىالمغربغيرواضح وقدخيلاليهحقا ان الحركة الاسماعيلية فى كتامة ما زالت فى بداية الطريق العملي وانها ستستهدف الى أخطار كبرى وقد خشى أن تكون عاقبة ظهوره فى كتامة قتل أبى العباس فى سجن رقادة وبقية انصاره فى طرابلس وسلمية الذين يصبح أمرهم واضحا للسلطة كما حافظ على انصاره فى مدن الشام ، ومصر وهؤلاء آووه وستروا أمره وعطلوا تنفيذ أوامر الخليفة العباسي ، بل زيف بعضهم الحقيقة منعا لوالي مصر ، من القبض عليه وعلى رجاله وليس بمستبعد فى تصوره أن يكون ظهوره مقدمة لردود فعل جماعية معاكسة للحركة الناشئة فى كتامة قد يشترك فيها عمال مصر وامراء افريقية بتأثير رغبة الخليفة العباسي الذي حرص على تضييق السبل واقامة المراصد فى طريق عبيد الله وكانت الدولة الأغلبية فى هذه المرحلة على جانب كبير من القوة وأكثر حواضر الزاب وكتامة باقية تحت سلطانها . واركان المعارضة للحركة الشيعية بين قبائل كتامة نفسها ما زالت قوية وحركة الصراع القبلي كانت حادة أيضا .

ويلاحظ ان توفيقه فى الوصول الى سجلماسة كان يعود الى تستره وسرعة سيره ثم الى تلطفه مع الأدلاء ورجال القوافل الذين اعانوه على

475 : نفسه .

476 ـ انظر اليماني : سيرة جعفر 117 وهنا يشير الى سماع عبيد الله اخبارا سارة عن سير الحركة الاسماعيلية واثرها فى اشاعة جو الامن والنظام فى كتامة من طرف احد المزينيين الذين عاشوا فترة فى المنطقة وهي كافية لتشجيعه على قصدها يحي ابن سعيد الانطاكي : المصدر السابق 751 . ط كراتشوفسكي .

معرفة مجاهل الصحراء وتجنب المراصد التي أقيمت له فى الطرقات(477) وكرمه وميزاته الشخصية أوقعتهم فى شراك حبه ، والجمتهم عن الحديث الا مع أنفسهم بعد أن توقعوا من خلال تصرفاته انه ليس تاجرا « وماهو الا صاحب فكرة او سلطان»(478) وعوامل نجاحه مع امير سجلماسةاليسع بن مدرار المكناسي الصفري (479) ، الذي قربه واهتم بشئونه فى بدء الأمر (480) هي نفس التي كانت من قبل سببا ، فى نجاته من بطش العباسيين وعمالهم فى سلمية ومصر ، وطرابلس وتوزر .

وفى سجلماسة نزل بدار أبي حبشة (481) ، واستمرت حياته طبيعية هادئة حتى وصل البريد من طرف الأمير الأغلبي برسالة تكشف عن شخصيته كصاحب الدعوة ، التي ينشرها الصنعاني فى كتامة (482) . وربما أرسل الى هذا الأمير الصفري (483) فيما بعد ، نسخة من سجل الخليفة المكتفي بالله عندما بلغه بيد أنه لا يتصور أن يكون مضمون رسالة الأمير زيادة الله أمرا بقتله أو بارساله اليه أو بالتضييق عليه لأن امارة سجلماسة كانت مستقلة سياسيا ومذهبيا عن العباسيين واتباعهم الأغالبة فى أفريقية ولعل ذلك هو سر اختيار عبيد الله لها أدراكا منه لهذه الوضعية الخاصة .

---

477 ـ المقريزي : المصدر السابق 61 النسابوري : استتار الامام 106 .

478 ـ النعمان : افتتاح 109 اليماني : سيرة جعفر 119 ـ 121 يذكر قصة الرجل الهاشمي التاجر ، الذي تعرف بعبيد الله اثناء الطريق الى سجلماسة ومال اليه ولازمه طيلة اقامته فى المدينة ولما فارقها الى القيروان أوصاه بان يعرف بنفسه عند الداعي متى استقر فى رقادة ، ويرسل ابنه ـ وكان مرافقا له اثناء السفر معه عندما يتوجه نحو سجلماسة . والقصد ان يكون الابن وسيلة للتعارف بين الرجلين لانهما لم يتقابلا من قبل وبغير ذلك لا يمكن الوصول الى الحقيقة خاصة وأن الداعي أبقي اخاه فى رقادة خوفا من ظهور حركات مقاومة بين جمهور سكان القيروان ، وهذه القصة مثل رواية منح عبيد الله بعض اموال من غنائم كينونة لرجل هاشمي واوصاه بالتزام الحذر ، تدلان على ان عبيد الله كانت شخصيته باعتباره صاحب الدعوة معروفة لدي اناس فى سجلماسة وفى القيروان ايضا .

479 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 216 النعمان : افتتاح 109 ولي اليسع الامارة فى صفر 270 هـ البكري : المصدر 150 .

480 ـ ابن خلدون : المصدر السابق 4 ، 70 ابن الأثير 8 ، 14 (39 ط . دار صادر ـ بيروت) ابن ابي الضياف 1 ، 119 أبو الفداء 2 ، 69 الباجي المسعودي : المصدر السابق 29 (ب) الدواداري الدرة 21 .

481 ـ اليماني : سيرة جعفر 117 الدواداري : المصدر السابق 21 يشير الى سجنه فى قلعة خاصة ، النويري 26 ورقة 31 ـ 32 .

482 ـ المقريزي : افتتاح 1 ، 62 ابن خلدون 4 ، 71 ابن الأثير 8 ، 14 (39 ط . بيروت) .

483 ـ حسن ابراهيم حسن تاريخ الدولة الفاطمية 54 حيث يشير الى كونه سنيا وهذا مستبعد لأنه لم يظهر الميل الى السنة فى سجلماسة الا فى عصر الشاكر لله البكري : 151 وربما كان الأقرب هو ميله الى المذهب الأباضي بتاثير العلاقة مع الرستميين .
E.I. (Art Sigilmasa T 4, p. 420.

والأقرب الى الظن انه لو كانت هناك علاقات مودة بين الأغالبة والرستميين الاباضية لأمكن تصور نجاح الامير فى التأثير على هؤلاء ليتدخلوا عند أمير سجلماسة ليمكنه من الانتقام من عبيد الله صاحب الدعوة الثورية فى أطراف بلاده لأن روابط الصهارة والمذهب والاتجاه السيـــاسي كانت تجمـع الرستميين وبني مدرار (484) .

وبما أن العلاقات لم تكن حسنة بين الرستميين والأغالبة وكان اليسع فى حل من امره ولم يخش تأثير حركته فان أقصى ما نال عبيد الله هو التضييق عليه مجاملة للامير الأغلبي وللخليفة العباسي فنقله الى مكان خاص تملكه مريم بنت مدرار وهي احدى سيدات الأسرة (485) الحاكمة لتصبح مراقبته ممكنة وميسورة ولم تتغير معاملة اليسع لعبيد الله وابنه حتى سمع نبأ توجه الداعي الى سجلماسة عندئذ فقط سجن كل واحد منهما على انفراد فى مكان ضيق عرف بالمطبق (486) وعرضهما وأتباعهما لامتحانات عسيرة لكنه لم يستطع ان يظفر بأي اعتراف (487) عن علاقتهم بالحركة التي يتجه انصارها الآن عبر ارجاء المغرب فى شكل مظاهرة عسكرية لا للقضاء عليــه فقط وتحرير صاحب الدعوة وانما لاظهار مدى ما وصلت اليه قوة الحركة الجديدة ارهابا لقبائل زناتة ولغيرها من القبائـل التي بقيت حتـى الآن بمعزل عنهـا .

* * *

وقد كان لهذه الحملة التي انطلقت من رقادة فى رمضان 296 هـ / مايو 908 م أصداء قوية وردود فعل مختلفة بين قبائل وانظمة بلاد المغرب فبعض القبائل ابتعد عن خط سير الحملة وانزوى فى ركن قصي وبعضها الآخر بدافع الخوف على مصيره ـ سعى لمقابلة الداعي ، وخطب وده وطلب منحه الأمان ومن هذه القبائل زناتة ورئيسها محمد بن خزر الذي لقى الداعي بجوار طبنة وتلطف له حتى وافق مبدئيا على ما طلبه بشرط أن لا يعادي

---

484 ـ ابن عذاري : 1 ، 216 البكري : المصدر السابق 150 .

485 ـ نفسه : 1، 210 .

486 ـ اليماني : سيرة جعفر 126 وهو الذي امر عبيد الله بكسره غداة سقوط سجلماسة وذكر مصطلح المطبق فى رسالة الداعي الى أبي زكي ـ النعمان 176 ـ 178 (242 ط . بيروت) .

487 ـ القريزي : المصدر السابق 1 ، 65 اليماني : سيرة جعفر 126 ، ابن الأثير 8 ، 17 48 ط . بـيروت) النعمـان : افتتـــاح 173 ـ 174 . (237 ط . بـسيروت) والتقى عبيد الله بقوله لليسع « ما رأيته ولا أعرفه وانما انا رجل تاجر انظر : النويري : المصدر السابق 26 ورقة 32 .

الحركة أو يغدر بانصارها (488) . ويبدو أن تخوفات هذه القبيلة هي في محلها لوجود سابقة غدر خطيرة سوف نشير اليها في حينها (489) .

وبما أن رغبة الداعي كانت منصبة على أحداث الهزة النفسية في كامل أرجاء المغرب وقد حصل ذلك كما أصبحت ممتلكات الامامة الرستمية خالصة له ، ولانصاره بدون زحف أو قتال .

وبما أن مهمته هذه المرة ، كانت محددة وليس من بينها التوسع أو القتال فانه واصل السير نحو سجلماسة وهو خائف يترقب مما سوف يقع لعبيد الله اثر انتشار نبأ هذه الحملة .

وقد كان تخوفه له ما يبرره لأن اليسع لم يحسن صنعا ورفض كل عروض السلم التي قدمها الداعي ، وقتل رسله ومزق كتبه وضيق على السجناء (490) ومن ثم فللداعي الحق في أن يتوجس خيفة من نذر الشر، على مصير حركته وصاحب دعوته . والامتحان الذي تعرض له الآن لا يقل في قسوته عما سبق أن واجهه وهو يدعو القبائل أو يشرف على المعارك .

وقد أخذ في السير ، ليفاجيء سجلماسة ويرغم أميرها العنيد على الخضوع .

وكان هذا الامير ، قد أجال النظر في أنسب طريق للخروج من الأزمة وكان بعض رجاله مؤيدا لفكرة قتل السجناء لتنتهي الحركة وتستريح المنطقة من شرورها وبعضهم مال جانب السلم والاحسان الى السجناء ليحفظوا الصنيعة ويكفوا أذى انصارهم وكان من راي فريق ثالث ، أن يسرح جميع السجناء فردا ، فردا ويتركوا لحال سبيلهم وعندما يتعرف القوم على صاحب دعوتهم وينشغلون به يمكن للامير أن يدبر طريق الخلاص ، ان لم ينصرفوا بنفس السرعة التي أتوا بها الى افريقية (491) واستند هذا الراي فيما يبدو على عدم استقرار الوضع في افريقية وعدم اطمئنان هؤلاء على استمرار الهدوء بسبب بقاء جيوب مقاومة ضمن القبائل وفي داخل الحواضر الكبرى وتستمد هذه المعارضة قوتها من وجود الامير الأغلبي في طرابلس أي قريبا من رقادة وحتى عندما فارقها الى المشرق ورفض

488 ـ المقريزي : اتعاظ 1 ، 65 ابن الاثير : الكامل 8 ، 17 النعمان : افتتاح ورقة 173 (236 ط . بيروت) .

489 ـ النعمان : المصدر السابق 143 ـ 144 (197 ـ 198 ط . بيروت) حيث قتلوا بعض رسله الى عبيد الله عندما كان في سجلماسة سجينا .

490 ـ النويري : المصدر السابق 26 ورقة 32 .

491 ـ اليماني : المصدر السابق 124 ـ 125 .

العباسيون استقباله فى بغداد ووعدوه بالنجدة رجع الى مصر فى طريقه الى المغرب كما أشرنا .

ويبدو أن هذا الرأي هو الذي تبناه اليسع بن مدرار وان ابن التاجر الهاشمي الذي رافق الداعي هو الذي عرف بعبيد الله عند الداعي قائلاً :

« هذا مولاي ومولاك ومولى الناس اجمعين » .

وفى اللحظة التي التأم الجمع حوله فر اليسع ورجاله الى الصحراء (492).

ورواية صاحب سيرة جعفر الحاجب تختلف عن بقية النصوص التارخية التي تشير الى وقوع حرب عنيفة بين أنصار الداعي ورجال اليسع استمرت يومي السبت والأحد من اوائل شهر ذي الحجة 296 هـ . وانتهت بفتح سجلماسة عنوة وفرار اليسع ورجاله ليلا فى مجاهل الصحراء تاركين المدينة وسكانها لجند كتامة المنتصرين الذين انتشروا فى حارات المدينة بحثا عن السجناء . ومجموعة منهم هي التي صحبت عبيد الله وأبا القاسم الى معسكر الداعي فلما بصر بهما سر وترجل واركبهما وسار بين أيديهما مع رؤساء ومشائخ القبائل حتى فسطاط نصب لاستقبالهما فى هذه الفرصة ولسان مقاله يخاطب أنصاره « هذا مولاي ومولاكم وولى أمركم وأمام عصركم ومهديكم المنتظر الذي كنت به أبشر قد انجز الله له وعده وأعطاه حقه وأظهر أمره » (493) .

وعندما رغب عبيد الله فى التعرف على أنصاره مباشرة حسب مراتبهم ودرجاتهم فى الدعوة وكان الداعي يعرف أخلاق القوم ومدى تلهفهم على النظر الى صاحب الدعوة الذي أشيع عنه « انه يحي الموتي ويرد الشمس من مغربها ويملك الأرض بأسرها » (494) اقترح عوضا عن ذلك طريقة أخرى تراعى فيها كامل الاحتياطات بحيث يكون عبيد الله بعيدا عن التجمع والداعي مباشرا له يليه جعفر (495) الذي تكون مهمته تهيئة المقابلة غير

---

492 ـ اليماني 126 ابن الأثير 8 ، 17 (48 ط . صادر) أبو الفداء : المصدر السابق 2 ، 69 المقريزي : اتعاظ 1 ، 65 النويري 26 ورقة 32 .

493 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 210 ابن الاثير 8 ، 17 ابن خلدون 4 ، 75 المقريزي : المصدر السابق 65 البكري : المصدر السابق 15 النعمان : افتتاح 175 ـ 176 ، 178 (238 ـ 240 ط . بيروت) ابو الفداء : المصدر السابق 2 ، 69 الباجي المسعودي : الخلاصة النقية فى أمراء افريقية 29 الاستبصار 204 وفيه ان عبيد الله قال للداعي « قل لهم هو المهدي بن المهدي سلالة الهداية » .

494 ـ المقريزي : اتعاظ 1 ، 59 .

495 ـ وفى هذا اليوم اطلق عليه لاول مرة لقب الحاجب الذي عرف به فى النصوص وفى الحياة العامة انظر اليماني : سيرة جعفر 130 .

المباشرة بين عبيد الله والوفود فيمر هؤلاء ، عشرة عشرة ، ان كانوا دعاة وقادة ومشائخ ثم خمسين خمسين ان كانت مرتبتهم دون ذلك ثم يتدرج الامر بين مائة الى خمسمائة وبذلك يمر كل القوم أمام مجلس عبيد الله وبهذه الطريقة يظفر سائر الانصار برؤية امام الزمان (496) .

ـ ولحرص عبيد الله على التنكيل باليسع بن مدرار جد الداعي فى البحث عنه مدة طويلة وعندما تمكن من القبض عليه فى مستهل محرم 297 هـ / سبتمبر 909 م بمساعدة رهط بني خالد الذين لقوا جزاءهم من الداعي بمنحهم الأمان (497) ضرب بالسياط وطوف به فى المدينة ثم قتل مع بعض مساعديه وبقتله ثأر عبيد الله لنفسه واطمأن لاستقرار الوضع فى سجلماسة بعد رحيله (498) الى رقادة .

ولكي يعبر عن وضعية المدينة الجديدة وتبعيتها للحركة الاسماعيلية بقى فيها أربعين يوما لينظم شئونها .

ـ وقد أصدر العفو العام عن سائر السكان وعين واليا من قبله ليمثل السلطة الجديدة وكان هذا الوالي من قبيلة مزاته .

ـ وترك حامية كتامية تساعده فى حفظ الأمن ومراقبة صفرية مكناسة فى المنطقة . (499) .

ـ ويلاحظ ان قصة تحرير عبيد الله وضم سجلماسة الى اطار النفوذ الاسماعيلي ترد بصيغة مقتضبة ومتشابهة فى النصوص التاريخية بحيث تشير هذه الى مسيرة الداعي اليها فى رمضان 296 هـ / 908 ـ 909 م دون تحديد يوم معين باستثناء ابن عذارى الذي يحدد ذلك بيوم الخميس منتصف شهر رمضان (500) .

ويتفق مع المقريزي فى اعتبار المدينة فتحت عنوة وحرر عبيد الله وأتباعه يوم الأحد لسبع خلون من ذي الحجة 296 هـ بعد فرار أميرها بسبب فشله

---

496 ـ اليماني : سيرة جعفر 130 واثناء ترتيب المقابلة كان الداعي يقول لكل وفد « امشوا على رفق الى الحاجب القائم على باب السماء .

497 ـ ابن عذاري : البيان 1 ، 210 .

498 ـ المقريزي : المصدر السابق 65 ، انظر الخطط 1 ، 35 اليماني : سيرة جعفر 131 ويشير الى موت اليسع بعد ايام من تعذيبه ، النعمان : المصدر السابق ورقة 175 ابن الأثير : الكامل 8،17 ابن عذاري : المصدر 1 ، 214 ـ 217 ويلاحظ انه قتل وهو مريض ، أبو الفداء : المصدر 2 ، 70 الاستبصار 204 يذكر قتل اليسع على يد احد رعيته حقدا .

499 ـ نفسه 66 ، النعمان : افتتاح 176 ، ابن خلدون 4 ، 74 ، ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 212 .

500 ـ ابن عذاري : البيان 1 ، 209 .

فى الحرب كامل يوم السبت الذي يأتي مصرحا به فى ابن عذاري عكس المقريزي الذي يكتفي بعدم الاشارة الىوقوع حرب يوم الأحد (501) خلافا لما جاء فى رواية ابن عذارى من وقوعها فى هذا اليوم أيضا (502) .

أما اليماني فلم يشر لغير رحيل عبيد الله عن المدينة فى بداية 297 (503) 909 ـ 910 م واتفق مع أغلب المؤرخين على رواية فرار اليسع الى الصحراء .

* * *

وهنا نلاحظ ان فراره يجب أن تلتمس له أسباب أخرى غير رفض عروض الصلح ، أو معاملة عبيد الله الخاصة ، أو اهانة الداعي بقتل رسله وتمزيق كتبه لأنه لا يستبعد أن يكون فراره قد تم عقب تنفيذه لجريمة قتل عبيد الله خاصة وان بعض النصوص أشارت الى قتل رسل الداعي بواسطة هذا الأمير ، فربما يستنتج منها شمول القتل لبعض السجناء . ومما له دلالة خاصة ان نصوصا أخرى أشارت الى قتل عبيد الله فعلا ، على يدي اليسع بن مدرار وربما كان حزن الداعي غداة حرب يوم السبت ، ليس فقط من أثر الخوف (504) بل لعله سمع نبأ قتل صاحب دعوته وقد يرجع قصة القتل ، أن بعض رجال اليسع اقترحوا ذا لككحل للازمة .

وهل يوجد ما يمنع اليسع من تنفيذ مثل هذه العقوبة ؟ وهو فى سورة غضب وفى حيرة شديدة مما حاق به بسبب هذا السجين ، والاقرب الى القبول ان يكون قد فعل ذلك كآخر صورة من صور الانتقام من هذا السجين الذي غدا نقمة عليه وعلى بلاده .

والنصوص التي تميل الى تصديق رواية القتل تذكر أن الداعي اختار من يقوم بالدور من بين أتباعه ، حتى لا ينكشف الأمر أمام أنصاره الذين كانوا مهتمين بمصيره ، ومرهفي الحس لقضية سلامته ، ولادراك الداعي هذا الجانب برر نجاته من بطش اليسع بقوله « انه شغل عن قتله » (505).

ولكن اذا كانت حادثة القتل قد وقعت فعلا فلماذا لا يلتجي الداعي الى ابنه أبى القاسم ،وهو معه ولم تشر النصوص الى خبر قتله ؟ ، ويبدو من

501 ـ المقريزي : اتعاظ 1 ، 65 .
502 ـ ابن عذاري 1 ، 210 .
503 ـ اليماني : سيرة جعفر 131 .
504 ـ المقريزي : المصدر السابق 1 ، 65 س 15 ، النويري : المصدر السابق 26 ورقة 32 ، نقلا عن تاريخ الرقيق .
505 ـ ابن ظافر : المصدر السابق 43 ويضيف أن الشخص كان يهوديا . ورغم ان مدينة سجلماسة مشهورة بقوة جاليتها اليهودية التي كانت تحتكر بعض الصناعات مثل صناعة البناء فان ذلك بعيد التصور : انظر البكري : 148 ـ 149 النويري : المصدر السابق 26 ورقة 33 .

خلال معاملة اليسع له ، وثباته عند المحنة انه كان على مستوى معقول من الادراك والنضج (506) .

ولو لم يفعل اليسع فعلته ، لما كان هناك مبرر قوي للفرار ، اذ معاملته لعبيد الله قد تجد مخرجا لها فى اضطراره لمجاملة الأغلبي والعباسي . وتمزيقه للكتب وقتله للرسل وأصراره على الحرب قد تكون ضمن الأحداث العارضة التي لا تستغرب فى مثل هذه الظروف وقد جرت عادة الداعي فى افريقية أن لا يقتل غير المعاندين ؛ وكان ميالا لاستصلاح النفوس وللتأثير عليها أكثر من ميله لسياسة القتل ، ولعل سماع الأمير اليسع لحادث الاعتداء على استقلال وتكامل الامامة الرستمية فى تاهرت ، وقتل آخر ائمتها وهو اليقظان ، هو الذي دفعه الى الحرب ، والى قتل عبيد الله لما بين الامارتين الخارجيتين ، من علاقات قربى وتكامل مذهبي وسياسي . ومن كان فى مثل وضعه ، مجبر أن يفعل ما فعله ، ما دام قد كتب عليه التشرد وعلى بلاده أن تسقط مثل امامة تاهرت ، فى أيدي قوات « تنتحل مذهبا معاديا » . والنصوص الاسماعيلية ، رغم انها تعترف بأمرين : عدم لقاء الداعي مع عبيد الله من قبل وتعرض الأخير لمحن كثيرة خاصة فى سجلماسة ، الا انها لا تشير الى اي شيء حول هذا الحادث الذي انفردت بروايته بعض النصوص السنية . وبالعكس اصطنعت قصة التاجر الهاشمي الذي ساعد الداعي على التعرف على عبيد الله .

وهذه النصوص ، وتلك ، تروي أحداث الفترة التالية لفتح سجلماسة وكأن حادث القتل لم يقع لأن عبيد الله استمر محورا لكل ما جرى فى بلاد المغرب منذ أن استقر فى رقادة الى يوم وفاته الطبيعية فى المهدية سنة 322 هـ / 933-934 م .

ولما اطمأن عبيد الله على الوضعية فى سجلماسة غادرها الى رقادة (507) حيث استراح فى ايكجان ، وأخذ ما فيها من أموال (508) ، واستقبل

506 ـ النعمان : افتتاح 178 (245 ط . بيروت) وفيه قوله « والمهدي يومئذ حين كمل شبابه ، لم تبديه طالعة من الشيب ، والقائم حين طر شاربه » .

507 ـ لما طالت غيبة الداعي عن افريقية ارجف الناس عن مصيره تنفيسا عما فى نفوسهم من عداوة الدعوة الاسماعيلية وعندما أنهى مهمته فى سجلماسة ارسل سجلا الى توابه فى رقادة يشرح لهم ما جرى له اثناء الرحلة فقرىء على المنابر انظر النعمان : المصدر السابق 176 ـ 177 فكان له تاثير حسن .

508 ـ النعمان : 179 (46 ط . بيروت) المقريزي : المصدر السابق 66 ابن خلدون : المصدر السابق 4 ، 75 اليماني : سيرة 131 ابن الاثير 8 ، 17 ويشير الى ان سبب تاخر عبيد الله فى سجلماسة هو انتظاره وصول الأموال من ايكجان ويعني ذلك انه لم يعرج عليها لانحرافها عن الطريق وهو ما يفهم من المقريزي ويبدو ان ذلك مستبعد لأن اهميتها فى نجاح الحركة وفى التمكين له لا تخفى عليه . وليس مثله يتجاهل مشاعر سكانها وهم قوة الدولة وعصبيتها وتشرفهم زيارة امام الزمان لمدينتهم . واخذ الأموال كان بداية للغضب من تصرفاته .

وفودها كما استقبل العناصر الهاشمية والمتشيعة على طول الطريق (509) وفي رقادة التي وصلها يوم الخميس 20 ربيع الآخر 297 هـ (510) هيأ له السكان استقبالا رائعا تجلت فيه العظمة والرهبة والتقدير كما هنأه فقهاء القيروان وعبروا عن سرورهم بوصوله وعن الرغبة في تجديد الأمان العام ، فاستجاب لهم بتجديده في الأنفس والأهل وامسك عن الأموال (511) .

وعقب نزوله في قصر الصحن ونزول ابنه في قصر الفتح انصرف الناس الى شئونهم وانتهت المرحلة الأولى في تاريخ الحركة الاسماعيلية في بلاد المغرب التي خطط لها والده الامام الحسين في سلمية وأشرف عليها ابن حوشب في اليمن ونشر نفوذها في كتامة وبلاد المغرب ، أبو عبد الله الشيعي الذي أسدل الستار عن مهمته كداع ، تمهيدا لتصفية نفوذه كقائد وسياسي في بداية المرحلة التالية التي استهلها عبيد الله بجملة من الاجراءات الجذرية يأتي في مقدمتها :

ـ أمر عبيد الله خطباء المساجد في رقادة وفي القيروان وفي القصر القديم بأن يدعوا اليه يوم الجمعة بلقب جديد هو « المهدي أمير المؤمنين » (512) الذي انتحله لنفسه فأصبح علما بالغلبة عليه في بلاد المغرب حتى ظهور مهدي جديد في عصر الموحدين وقد تلا حركة الدعاء له بالامامة مجيء وفود

---

509 ـ لقيه التاجر الهاشمي والمروزي في نواحي تاهرت وبعض الهاشميين في باغاية ، انظر اليماني : سيرة 131 .

510 ـ جرى تحديد هذا الموعد من ايكجان بناء على اقتراح عبيد الله على داعيه الذي ارسل الخبر الى ابي زاكي ليهيىء لاستقبال الموكب « كتابي هذا اليك من ايكجان دار الهجرة ومستقر الايمان وقد وصل الامام مولانا وسيدنا وولده فاعلم ذلك وكن على اهبة منه ومن قبلك » انظر النعمان : افتتاح ورقة 180 ابن ظافر : المصدر السابق 43 ، المقريزي : المصدر السابق 1 : 66 .

511 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1 : 218 وهنا يصف الموكب بتفصيل الاستبصار 204 يذكر تجريد عبيد الله لسكان سجلماسة من اموالهم حتى حصل له من التبرو المحلي وقدر مائة وعشرين جملا قارن ذلك باخذ اموال الغنائم من ايكجان .

512 ـ وهذا اللقب له اهمية خاصة عند الفاطميين مثل لقب امام لدلالتهما على السلطة الزوجية عكس لقب خليفة الذي لم يكتسب شهرة عندهم مثل شهرته عند أهل السنة ماجد : نظم 1 ، 72 وما بعدها .

مختلفة من الشيعة والهـــاشميين والمتزلفين والخائفين والشعـــراء المتكسبين بقصد تهنئته بالوضع الجديد (513) .

ـ واقر بعض ما سنه الداعي من قبل ، لكنه مهد لاصطناع وجوه جديدة لا ترتبط بالداعي بأي رباط مصلحي ، أو عاطفي ولم يسبق لها الاتصال به . ومن هؤلاء حجابه ابو الفضل جعفر بن علي وأبو أحمد جعفر بن عبيد وأبو الحسن طيب بن اسماعيل الحاضن وأبو سعيد عثمان بن سعيد المعروف بمسلم السجلماسي وكان هؤلاء من خاصته ومرافقيه ، مثل ابي جعفر الجزري الذي أسند اليه الاشراف على بيت المال . أما ابن القديم الذي عين على ديوان الخراج وابو اليسر الشيباني الذي سماه على ديوان الكتابة وهارون بن أفلح الذي ولى قضاء رقادة (514) وعلي بن لقمان الكتامي الذي عين على منطقة قابس ثم توارد عليها ابناؤه من بعده ، فهم جميعا من صنائع المهدي ولو أن بعضهم مثل ابن القديم والشيباني ، كانا من عناصر السلطة فى العصر الأغلبي (515) .

ـ أما ابو زاكي وأبو العباس المخطوم فقد بقيا خارج الاطار الرسمي مع انهما كانا مستخلفين على الولاية كلها كما بدا نفوذ الداعي يتضاءل فى نظر الوجوه الجديدة نتيجة لتفانيه فى الاخلاص ولزهده فى السلطة ويبدو أن ما حصل بينه وبين المهدي ، حول طرق معاملة كتامة عندما بالغ الأخير فى اكرامهم حتى تطاولوا على غيرهم ومالوا الى البذخ لا يخلو من أحد أمرين : اما احساس الداعي بالاتجاه الجديد الذي يهدف الى ابعاد رجاله وعصبيته

---

513 ـ ابن الأثير 8 ، 18 (49 ط . بيروت) ابن ظافر : المصدر 43 ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 218 المقريزي : المصدر السابق 1 ، 66 وفيه كما فى ابن الأثير قوله « وامر يوم الجمعة ان يذكر فى الخطبة ويلقب بالمهدي امير المؤمنين فى جميع البلاد » ابن خلدون 4 ، 75 قال انه بويع البيعة العامة ويعني ذلك ان البيعة الخاصة كانت فى سجلماسة ، النعمان : المصدر 185 ـ 186 (249 ط . بيروت) وعن نص الدعاء الذي امر به المهدي انظر ايضا : ابن ابي الضياف 1 ، 122 . وفيه اظهار للاتجاه الاسماعيلي واشارة لافاق المستقبل : ويلاحظ ان المهدي بدا يتصرف مثل الخلفاء العباسيين فى بغداد من سماع المدح وحياة التسرى والبذخ فى القصور وكان هذا محل انكار من طرف داعيته الكبير الذي كان من قبل يشنع امام كتامـــة على تصرفات العباسيين .

514 ـ اليماني ، 122 ، ابن عذاري 1 ، 219 ـ 220 .

515 ـ البكري : المصدر السابق 18 وفيه قيل .

لولا ابن لقمـان حليف النـــدى — ســل من قابس سيف الــردى

ابن عذاري 1 ، 263 الكعاك : الحضارة العربية فى حوض البحر الابيض 112 ، الذي يلاحظ ان الشيباني تراس بيت الحكمة فى القيروان .

عنه تمهيدا للامر الخطير أو دافع الحسد والغيرة (516) « لأن الفطام صعب » على حد تعبير بعض المؤرخين (517) .

ـ ويهم من بين اجراءات المهدي ، انه امر باثبات الموالي وأبناء العبيد في ديوان العطاء فيكون بذلك قد سن سنة لخلفائه في الاعتماد على غير كتامة والعناصر العربية واقتفى اثر الاغالبة والعباسيين (518) .

ـ واذا كانت بعض تصرفات المهدي ، واجراءاته قد وضعت بذرة الشك وهيأت لحركة المعارضة بين اقرب رجاله وانصاره فان جمهور السكان الذين توقعوا شرا منه وشكوا في نواياه انقلبوا معارضين لأسباب منها :

ـ تطاوله على لقب امرة المؤمنين الذي بقي حتى الآن حكرا على الخلفاء العباسيين فمهد بذلك لظاهرة جديدة في حياة المجتمع الاسلامي هي ظاهرة تعدد الخلافة التي نتج عنها تأكيد ظاهرة اخرى : هي التجزئة السياسية والمذهبية بين المغرب والمشرق الاسلاميين .

ـ ثم عدم احترام آثار ومخلفات من سبقه من الامراء والحكام حيث أمر بازالة أسماء من بنوها ، ووضع اسمه عليها وكانت هذه الآثار مساجد ومآجل وقصورا وقناطر (519) .

ـ وعندما مدح المهدي الجديد ، بشعر فيه غلو صريح ، لم ينكره كما أثار حفيظة السكان بأقواله تجاه الصحابة غير علي ثم تجاه زوجات الرسول غير خديجة (520) .

اذ كيف يصح في أذهانهم ، رمي هؤلاء بالكفر أو بالردة ممن يزعم أنه من نسل الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ وكيف يتخلى الامام عن أخص واجباته ؟ وهو تغيير المنكر مع انصاره واتباعه من قبيلة كتامة الذين يزعمون

---

516 ـ النعمان : المصدر السابق 189 ـ 190 ويؤيد ذلك فيمـا يبدو قول الداعي (مال الناس عني اليه) .

517 ـ أبو الفداء : المصدر السابق 2 ، 70 ابن الوردي : تاريخه 1 ، 252 .

518 ـ النعمان : المصدر 188 (257 ط . بيروت) يحيى بن سعيد الأنطاكي : المصدر السابق 756 ط . كراتشوفسكي .

519 ـ ابن عذاري 1 ، 220 .

520 ـ نفسه .

انه يعلم الغيب ويسيئون الى مشاعر الناس (521) وهذه الاتجاهات التي ظهرت فى عهد المهدي وشجع عليها أو بقى سلبيا لم يحاربها لحاجة فى نفسه ، هي التي دمغته فى نظر اهل السنة الذين استعدوا للجهاد وللشهادة ، فى وقت كانت فيه الدولة مقبلة على عصر توسع خارجي ، ومستهدفة لتحديات خطيرة كما اساءت الى وضعه بين فريق من أنصاره القدامى الذين مكنوه من الظفر باللقب السامي فى الوضع الجديد .

وغضب هؤلاء ومعارضة أولئك وما ترتب عليهما من اصطدام وتصفيات ونضال أعطيا للمعركة السياسية والمذهبية فى بلاد المغرب آفاقا جديدة وطابعا خاصا وذلك ما سنتناوله فى الفصل التالي :

---

521 ـ ابن عذاري : 1 ، 221 .

الفصل الثالث

كتامة وحركة التوسع السياسي، والصراع المذهبي منذ قيام الخلافة الفاطمية حتى أواخر القرن الرابع الهجري

- مسؤوليات جديدة للخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب .
- حركة التوسع فى الغرب .
- تصفية الامامة الرستمية فى تاهرت وآثارها .
- مقاومة حركات زناتة .
- تصفية امارة بني مدرار الصفرية فى سجلماسة وآثارها فى تاريخ الخلافة الفاطمية .
- تصفية نفوذ الأدارسة فى المغرب الاقصى ومواجهة حـــركات المروانية وعملائهم .
- حركة الداعي أبي الخير فى قرطبة وغيرها ، قمة نجاح للخلافة الفاطمية فى عصر المعز لدين الله .
- حركة التوسع فى الشرق .
- صقلية والنشاط الثغري ضد الروم .
- طرابلس وبرقة والنشاط الثغري ضد العباسيين فى مصر .
- كتامة والصراع المذهبي فى بلاد المغرب .
- التشيع وأساليب نشره ـ الجدل ـ الدعوة ـ القوة ـ محنة السنة والمالكية خاصة ـ عصر الشهداء ـ المالكية حلفاء أبي يزيد النكاري شيخ المسلمين .
- آثار الحلف الجديد .
- وضع كتامة ورجالاتهم فى نظام الخلافة فى الدور المغربي حتى عصر المعز لدين الله .
- كتامة الجيل الثاني ، وفتح مصر .
- جعفر بن فلاح ، عنوان عصر ذهبي لكتامة .

* * *

لقد قام نظام سياسي جديد في بلاد المغرب ، هو نظام الفاطميين ، وذلك منذ أن فر آخر أمراء بني الاغلب ، عقب كارثة الاربس ، تاركا عاصمة ملكه لعبيد الله المهدي ، الذي لم يرثه فقط في سلطانه ، وفي أمواله ، وجواريه وقصوره ، وأتباعه ، وفي ممتلكاته في افريقية ، وفي خارجها ، بل تمسك أيضا بما كان للخلفاء العباسيين ، أصحاب السيادة الشرعية على البلاد ، من نفوذ وسلطان ، ميزات ، والقاب ، غير أنه اذا قدر للمهدي ، ولداعيه الشيعي ، ولعصبته من بربر كتامة ، أن يفاجئوا جمهور السكان في افريقية بانتصاراتهم السريعة في المرحلة الاولى فان بداية استقرارهم في المنطقة يعتبر حقا ، بداية لمتاعبهم الكثيرة فيها ، وفيما اتصل بها أو جاورها من مراكز قريبة أو بعيدة في أرض المغرب وصقلية ، وبلاد الاندلس ، لأن معركة الاربس ان كانت قد قضت على نظام الاغالبة والعباسيين ككيان سياسي ، فانها لم تضع حدا لتأثيرهم الروحي وسلطتهم القوية على جمهور أهل السنة في افريقية ، كذلك ، ما زالت في بلاد المغرب أنظمة سياسية ومذهبية وامارات مختلفة لم تخضع بعد للنفوذ الفاطمي . ولابد من جهد مضاعف ، لضمها الى حظيرة النظام الجديد .

وهكذا اقتضى هذا الوضع الخاص ، من انصار الخلافة الفاطمية ان يواجهوا احتمالات المستقبل المشحون بالاخطار ، ونذر الشر ، ومصاعب الحرب الحقيقية ، سواء في ميدان القتال ضد الامارات والقبائل المعارضة أو في الحواضر المغربية الكبرى ، التي آوت جمهور اسنيا بدأ زعماؤه يعدون لمعركة مذهبية طويلة النفس ، مع هؤلاء المخالفين لهم في المذهب .

ويلاحظ أن اغلب فرع البتر ، خاصة زناتة ، كان قد خيم عليهم جو أشبه بجو الاجماع على اظهار العداء للفاطميين ، وانصارهم من البرانس ، خاصة كتامة وعجيسة ، وزواوة ثم صنهاجة ، ولم يكن هذا العداء ، وليد الأحداث التي ادت الى قيام الدولة الفاطمية فقط ، بل كان قديما ، قدم الدعوة الاسماعيلية في أرض كتامة .

ولفرع البتر ، وزناتة ، من المبررات ما يجعلهم يقفون موقفا عدائيـــا من الحركة الجديدة التي تمخضت عن دولة جديدة ، لعل من أهمها ، أن الداعي اختار مضارب البرانس ، لنشر حركته ، وبناء دور هجرته ، وانصرف عن مضارب البتر ، مع أن كثيرا منهم كانوا على صلة بالعلويين ، ولبعض فروعهم شهرة ومكانة ، وأساس في الملك تفوق ما عرفت به كتامة .

كما أن عملية تحويل الدعوة الاسماعيلية من حركة سرية ، كان لها انصار متطوعون وحشد من الدعاة التاريخيين الى نظام دولة تقليدية مستقرة لها امام وموظفون رسميون وتقاليد ورسوم جديدة ، فرضت وضعا جديدا لانصار الدولة من بربر كتامة وأدت الى حدوث انشقاق خطير في صلب العقيدة ، وبين بناة الدولة وأخص رجالها .

ومعنى كل ذلك أن النظام الفاطمي فى بلاد المغرب أصبح خلفاؤه منذ أن استقر المهدي فى رقادة الى أن رحل المعز لدين الله الى مصر أمام مشاكل خطيرة يأتي فى مقدمتها :

– حركة التوسع لضم ممتلكات الاغالبة ولاخضاع بقية الانظمة السياسية والقبائل التي بقيت معارضة .

– وحركة الصراع المذهبي بين أهل السنة والشيعة ، خاصة فى الحواضر الكبرى ، مثل القيروان ورقـادة .

– ثم حركة المعارضة الداخلية من طرف بناة الدولة ودعاتها ومن بربر كتامة ثم المعارضة الاباضية الخارجية التي تزعمتها زناتة وأحلافها .

* * *

وأول نظام صفى فى بلاد المغرب بعد معركة الاربس وسقوط الامارة الاغلبية هو نظام الامامة الرستمية الاباضية فى المغرب الاوسط وجبل نفوسـة .

ويلاحظ أن هذه الامامة ، التي كانت عبارة عن تجمع قبائل الف بينها المذهب والحلف والعصبية لم تعرف فى حياتها الوحدة والتماسك ، الا فى ظل مؤسسها عبد الرحمن بن رستم والى حد ما فى عهد ابنه ، عبد الوهاب . بحيث تعتبر هذه الفترة عصرها الذهبي من الناحية السياسية .

ولكن نشأ عن معارضة يزيد بن فندين وهو من بين رجال الشورى المرشحين للامامة بعد وفاة ابن رستم ، لامامة عبد الوهاب ، الذي اختير من طرفهم ، أول تصدع أو انشقاق ، فى صلب المذهب الاباضي ، وبين رجال الطائفة . وظهرت الى الوجود السياسي ، فئة اباضية تنكر امامة عبد الوهاب وتشنع عليه ، عرفت بطائفة النكارية ، والنجوية ، والنكاث ، والشغبية ، والملحدة أيضا (1) ، وكان يشايعها فى آرائها ضده ، فريق الواصلية ، أو المعتزلة ، وهم من بين بدو زناتة ، الذين وجدوا فى بيئـة

---

1 – الشماخي : السير ، 146 وما بعدها . الباروني : الأزهار الرياضية 101 وما بعدها ، الدرجيني : الطبقات ورقة 56 – 60 خ تونس . وعرفوا بالنجوية لتناجيهم بالاثم والشغبية لادعائهم الشغب ، والنكاث لنكثهم البيعة دون سبب والملحدة لانهم الحدوا فى أسماء الله . أبو زكريا : السيرة ورقة 12 – 13 . خ خ ، وفيه كما فى الدرجيني اشارة الى فئة العمرية التي تنسب نفسها الى عبد الله بن مسعود ، وهي فى حقيقتها تنسب لعيسى بن عمير . وهي اقدم تصدع ظهر بين الاباضية ، وقد الف الدرجيني للرد عنهم . زغلول ، المرجع 389 وفيه أن النكارية يعرفون بالواصلية ويبدو أن الأخيرين من المعتزلة ، انظر الباروني 116 .

تاهرت ، وفى تسامح عبد الرحمن بن رستم مجالا خصبا ، لاشاعة آرائهم بالجدل والمناظرة حولها ، مع غيرهم من الطوائف المذهبية (2) .

وكان الواصلية والنكارية ضد من تمسك بامامة عبد الوهاب واعتبرها شرعية ، وهؤلاء هم انصاره الذين عرفوا بالوهابية (الوهبية) (3) .

وعند ما ضاق مجال تاهرت بالنكارية بعد هزيمتهم وخابت مساعيهم وفشلت مشروعاتهم فى تغذية حركة الثورة ضد عبد الوهاب ، لعزله أو قتله (4) ، هاجر فريق كبير منهم الى جبل نفوسة ، حيث أصبحوا هناك آداة للتشهير به ، وعقبة فى سبيل توطيد نفوذه فى المنطقة . ويبدو أن اباضية جبل نفوسه لم يتأثروا فى بادىء الامر بآراء النكارية وبقوا على ولائهم للبيت الرستمي ولامامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن فى تاهرت حتى انه استعان بجهود رجالهم فى التغلب على الازمة الداخلية ، فطلب من بينهم علماء ، وجدليين لينافحوا عن المذهب ، ويناظروا النكارية والواصلية فيما ادعوه من آراء مذهبية مخالفة . (5)

وقد احتفوا به أيضا ، واضافوه فى منطقتهم عندما مر بهم فى طريقه الى الحج (6) ، وعندما هم بالرجوع الى تاهرت استجابة لرغبتهم خاصة بعد وصول فتوى علماء المذهب الاباضي فى البصرة وبلاد المشرق بعدم جواز ذلك له خوفا من المسودة ومن انعدام الامن فى الطريق (7) عين نائبا

---

2 ـ الدرجيني : المصدر ورقة 67 ـ 68 ، أبو زكريا : المصدر ورقة 17 ـ 18 ، الباروني : المرجع 116 ـ 118 . البكري : المصدر 267 . وكان مجمع الواصلية بجوار تاهرت ، وكان عددهم فى عصره ثلاثين الفا ويعيشون حسب انماط المجتمع البدوي، ويذكر أن ميمون بن‌عبد الوهاب كان رأس الأباضية وامام الصفرية والواصلية: وانظر الدرجيني ورقة 66 حيث يشير الى قتل هذا الامير بواسطة النكارية وانهم اعترفوا بذلك عندما خاطبوا ابنه ، بقولهم « بابن المهدور دمه » فاخبر جده بذلك فحاربهم ، محمد بن تاويت الطنجي : دولة الرستميين اصحاب تاهرت 114 ـ مقال مجلة معهد الدراسات مدريد مجلد 5 ، عدد 2 ، 1957 .

3 ـ ابن حوقل : المصدر 93 : وفيه اشارة لاعتبار جبل نفوسة دار هجرة للاباضيــة ، اتباع عبد الله ابن اباض ، الذين ذكرهم فى مقابلة الوهبية اتباع عبد الله ابن وهب الراسبي ، الذي يذكر انه هاجر الى هذا المكان ودفن فيه مع ابن اباض . ويبدو ان هذه الرواية غريبة لأن اهل الطائفة لا يعتقدون صحتها . الشماخي : المصدر 424 وما بعدها ، عبد العزيز سالم : المغرب الكبير 2 ، 552 ، 553 .

4 ـ الشماخي : المصدر 148 ، ابن الصغير اخبار الائمة الرستميين ، 16 وما بعدها . انظر عنه موتلنسكي اعمال المستشرقين 14 قسم 3 لسنة 1905 .

5 ـ الباروني : المرجع السابق 118 وما بعدها ، الشماخي : المصدر السابق 154 ، ويشير الى نجدة عسكرية تولت قتال الواصلية .

6 ـ نفسه 137 وما بعدها .

7 ـ نفسه 140 ـ 141 ، الدرجيني ، الطبقات ورقة 77 ـ 78 ابو زكريا ، السيرة ورقة 21 ـ 22 . وكان يمثل علماء الاباضية فى هذا العصر الربيع بن حبيب وابو عمر ، وابن عياد وقد افتوا بجواز التوكيل لاداء مناسك الحج ، انظر الشماخي : السير 122 .

عنه فى الجبل من نسل الامام ابن الخطاب ، هو ابنه السمح تلبية لرغبة جماهير السكان الذين ما زالوا يكنون تقديرا لأسرة أبي الخطاب أول ائمة الظهور عند الاباضية (8) .

غير أن وفاة السمح بن عبد الاعلى المعافري كانت سببا فى حدوث انتفاض اباضية جبل نفوسه ضد الامام عبد الوهاب الذي تأكد فى عهد ابنه أفلح أيضا .

واسباب هذا الخلاف ، الذي يعتبر الانشقاق الثاني فى صلب الطائفة الاباضية يرجع الى رفض الامام عبد الوهاب لراي سكان الجبل فى تعيين خلف بن السمح واليا عليهم بعد وفاة أبيه وتمسك برأيه وعزله رغم التفافهم حوله وتشجيعهم له على البقاء فى مركزه . وقد رفضوا راي الامام ولم يأخذوا بفتوى علماء المذهب أيضا بل بايعوا خلفا بن السمح اماما (9) وأعلنوا الثورة الانفصالية فى اقليم طرابلس ، ضد الامامة الرستمية فى تاهرت . ولأول مرة أصبحت هناك امامة شرعية من الرستميين فى تاهرت وأخرى خطابية (نسبة لأبي الخطاب) فى جبل نفوسة ، ويمثلها امام من غير الرستميين ووراءه وقفت عصبيته وأنصار أبيه وجده من قبائل نفوسة وهوارة ، وغيرهما . وهم الذين عرفوا بالخلفية ، ويمكن اعتبارهم خطابية أيضا ، وهم يمثلون فى التاريخ السياسي والمذهبي لاباضية افريقية والمغرب، الصدع الثاني ، والانفصال السياسي ، بين تاهرت الرستمية ، واقليم جبل نفوسة .

ولا يستبعد أن يكون للاقليمية (10) وللعصبية القبلية دخل فيما حصل من تطورات فى منطقة جبل نفوسة لغير صالح الرستميين ، وعناصر السلطة فى تاهرت . ويبدو أن نفوسه وأحلافها كانت رغبتهم أيضا أن يظهروا فى ميدان التوجيه والزعامة السياسية فى الجبل مثل لماية ، ولواته ومزاته ، التي كانت زعامتها بارزة فى تاهرت . بحيث تأخذ نفوسة على عاتقها توجيه اباضية اقليم طرابلس الذي هو منعزل جغرافيا عن بيئة تاهرت ، ولا ينال من الائمة الرستميين عناية كبيرة ، فى نظير ما يساهم

8 ـ نفسه 147 ، الدرجيني : المصدر السابق ورقة 79 ـ 80 ، كما عين عبد الوهاب نائبا فى جبل دمر مركز الاباضية ، ابو زكريا : السيرة ورقة 21 ـ 22 ، يحي هويدي : المرجع السابق 1 ، 46 ـ 47 ، الشماخي : السير 163 ، وقد وصف بوزير الامام عبد الوهاب . E.I. (Art Abdal Wahab T 1, p. 67.

9 ـ نفسه 148 وما بعدها ، الدرجيني : المصدر السابق ورقة 81 ـ 82 وقد برروا عصيانهم بقولهم « ما هو لنا بامام ، وانما امامنا خلف اذ هو فى حوزتنا والحافظ لجماعتنا والجامع لكلمتنا . واما عبد الوهاب ففي حوزة غير حوزتنا وغير اهل لجماعتنا » ابن الصغير : المصدر السابق 20 وما بعدها .

10 ـ الدرجيني : الطبقات ورقة 81 ـ 82 .

به فى حياة الامامة وفى مشاريعها وفى ربط علاقاتها بالمشرق (11) والسبب فى ذلك انشغال الائمة بمناطق نفوذهم وبرعاياهم فى المغرب الاوسط .

وهكذا يصبح اقليم جبل نفوسة ، فى عهد خلف بن السمح كما كان فى عهد جده الامام أبي الخطاب ، مركز الدولة ومناط الاهتمام ومستقلا عن الانظمة السياسية التي تجاوره . ثم ان أهمية جبل نفوسة واقليم طرابلس كله من الناحية التاريخية تفوق اهمية تاهرت لأن المنطقة الاولى ارتبطت بأبي الخطاب بخلاف الثانية التي ارتبطت فقط بأحد زملائه من حملة المذهب الاباضي، ونائبه عن القيروان ووارث مجده فى امامة الاباضية (12).

ولذلك فشلت كل المحاولات التوفيقية وتأكد الوضع الانفصالي لجبل نفرسه فى عهد أفلح بن عبد الوهاب ثالث الائمة الرستميين الذي رفض خلف بن السمح وأنصاره الاعتراف بامامته ، وناصبوه العداء . وأشهروا حربا عنيفة ضد واليه أبي عبيدة عبد الحميد الجناوني الذي عينه أبوه من قبل لمراقبة شئون المنطقة وللقضاء على انفصال خلف الذي وصف ، بالخبيث بن الطيب فى بعض المصادر الاباضية (13) .

ورغم أن الجناوني ظفر ببعض المزايا فى الاقليم والحق بعض الهزائم بالخلفيين فانهم بقوا فى هذه المنطقة ضمن فئات الاباضية الاخرى المنتشرة فى بلاد المغرب عنوانا على الانشقاق ، والاستقلال بالرأي ، والانقسام فى صلب الطائفة الاباضية الكبرى (14) التي تعرضت بعد ذلك لعدة هزات بسبب الاختلاف المذهبي حول بعض الفروع (15) والقضايا .

---

11 ـ نفسه ورقة 103 ، وفيه ذكر مزايا نفوسة واهميتها لنظام الامامة الرستمية حتى قال ابن رستم « انما قام هذا الدين بسيوف نفوسة واموال مزاتة » .

12 ـ البكري : المصدر السابق 68 . وفيه نقلا عن محمد بن يوسف الوراق قوله : « وكان (عبد الرحمن) خليفة لأبي الخطاب عبد الاعلى ايام تغلبه على افريقية . فلما قتل هرب وترك القيروان فاجتمعت اليه الاباضية واتفقوا على تقديمه وعلى بنيان مدينة تجمعهم فنزلوا موضع تاهرت » ، ابن عذاري : المصدر السابق 1 ـ 277، الشماخي : السير 130 . E.I. Aboul Khattab T I, p. 98-99.

13 ـ الدرجيني : المصدر السابق ورقة 83 ـ 85 ، انظر الشماخي : المصدر السابق 179 ، 188 .

14 ـ الباروني : المرجع السابق 166 وما بعدها ، سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق 393 ـ 394 ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق 393 ـ 394 ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق 558 . الشماخي : السير 183 وما بعدها ، هويدي : المرجع السابق 1 ـ 47 وما بعدها . E.I. (Art Abadites T I, p. 3-4.

15 ـ وعن افتراق الاباضية الى فئات متنازعة ، هي ، الوهابية ، والنكارية ، والخلفية ، والنفاثية ، نسبة لنفاث فى ناحية قنطرارة بأقليم جبل نفوسة ، ومنها السكاكية نسبة (للسكاك) والسليمانية فى وارجلان بمنطقة الصحراء وهي تنسب الى ابي سليمان بن يعقوب وتعرف بالفرثية ايضا ثم التمزينية فى نفوسة وتنسب لأبي يونس وسيم التمزيني ، انظر الدرجيني : المصدر السابق ورقة 91 ، ابو زكريا : المصدر

ويلاحظ أن انفصال معظم اقليم جبل نفوسة ان كان قد أتاح لهذه القبيلة أن تعبر عن استقلالها وتشارك فى مواجهة بعض الأحداث الخارجية التي عرفتها منطقة طرابلس ومن أهمها فتنة العباس بن أحمد بن طولون (267 هـ / 880 ـ 881 م) ، الذي خرج مغاضبا لأبيه يريد التوسع على حساب الاغالبة . حيث ظهر دورها بقيادة أبي منصور الياس « صاحب نفوسة » الذي قام محتسبا وناصرا جيرانه من المسلمين ، فأنزل الهزيمة بجند العباس بن طولون وألجأه الى برقة ، وكفى الاغالبة مؤونة حربه مرة أخرى (16) ، فانه سرعان ما أساء الى وضعها ، خاصة عندما بدأت تتحدى نفوذ الاغالبة من غير تنسيق مع القوى المعادية لهم ، فقد أغرتها قوتها وميزات موقعها بالتعرض لابراهيم بن أحمد ، أمير بني الاغلب (283 هـ / 896 ـ 897 م) فى الطريق بين قابس وطرابلس ومنعته من المرور فكان ذلك بداية لانهيارها اثر سلسلة من الهزائم منيت بها على يد هذا الامير (283 هـ) ثم على يد ابنه أبي العباس عبد الله (17) (284 هـ / 897 ـ 898 م) ، وانهيار هذه القبيلة وعداؤها للامامة الرستمية هما اللذان حالا دون التجاء بقايا الاسرة الرستمية الى منطقتها فيما بعد لتدبير شأن الطائفة أو لاحياء نظام الامامة وفضلوا جوار بني وارقلان فى صحراء المغرب الاوسط .

ومع أن انفصال معظم اقليم جبل نفوسة ، قد اراح الامامة منذ عصر أفلح بن عبد الوهاب من كثير من المشاكل الخارجية الا أن المشاكل الداخلية بقيت ، والصراع على الحكم استمر وكل ما هنالك انه أصبح الآن يدور فى تاهرت وبين أعضاء الأسرة الرستمية أنفسهم ، ابتدأ منذ عصر امامة أبي بكر بن أفلح ـ رابع الائمة ـ الذي اختلف السكان عليه وطردوه ثم راجعوا طاعته وأعادوه الى تاهرت (18) ، كما استمروا على ولائهم لأخيه

السابق ، ورقة 26 ، 37 ، 41 ، 42 ، هويدي : المرجع السابق ، 1ـ48ـ49 ، ويجمع بينها اسم الوهبية وهي تتبرأ من الازارقة والبيهسية وبقايا النكارية فى جربة وزوافة . E.I. (Art Abadites T I, p. 3-4.

16 ـ ابن عذاري : المصدر السابق ، 1، 156ـ158 ، ويعرف بالياس وكان يمثل سلطة الامام الرستمي فى جبل نفوسة ضد الخلفية ، الشماخي : المصدر السابق 224 .

17 ـ نفسه ، 1 ، 173 ، 174 ، وفيه ان ابراهيم بن احمد ، نكاية فى بعض شيوخ نفوسة الأسرى ، قال له : « اتعرف علي بن ابي طالب ، فرد عليه النفوسي : لعنك الله يا ابراهيم على ظلمك وقتلك ، فذبحه وشق عن قلبه ، الدرجيني : المصدر السابق ، ورقة 107 ـ 108 وتسمى الوقعة الكبرى التي انهزم فيها الاباضية واقعة مانو ، ويرى انها من اسباب انهيار القبيلة وسقوط الامامة الرستمية ايضا ، ابو زكريا : السيرة ، ورقة 30 ، الباروني : المرجع السابق 144 الشماخي : المصدر السابق 229 ، 267 ، 269 (نقلا عن الرقيق القيرواني) .

18 ـ نفسه 1 ، 278 ، ابن الصغير : المصدر السابق 31 وما بعدها .

أبي اليقظان محمد بن أفلح (19) ، فلما توفي سنة 281 هـ/894-895م بدأ فصل من الصراع الأسري الحاد الذي انتهى بسقوط نظام الامامة الرستمية ، بدون قتال أو زحوف عسكرية هادفة .

ذلك أن امامة ابنه أبي حاتم يوسف منذ سنة 281 هـ ، لقيت معارضة شديدة من طرف سكان تاهرت ومن عمه يعقوب بن افلح ، الذي أضطره الى ترك تاهرت ، والالتجاء الى حصن قريب يعرف بحصن لواته (20) ، وبدأ في تدبير شئون الحرب التي أعلنها ضد المخالفين ومن ضمنهم عمه يعقوب الذي استبد بالامامة وأحاط نفسه بأنصار كثيرين من سكان تاهرت (21) هم الذين ساعدوه على البقاء مدة اربع سنوات ، وعندما ظفر بعمه ، الذي تنكر له أنصاره بعد هزيمته ودخل تاهرت (22) واستعاد حقوقه في الامامة ، لم يلبث الا سنين قليلة وقتله ابناء أخيه (23) سنة 294 هـ / 907 م ليخلو الجو لأبيهم اليقظان بن أبي اليقظان وهو ثامن الائمة الرستميين الذي قدر له أن يقتل هو وأسرته ويصفى نظام الامامة الرستمية في تاهرت بعده على أيدي جند كتامة ، وداعية المهدي الفاطمي أبي عبد الله الشيعي (24) .

وهكذا يلاحظ أن الأزمات التي كانت ذات طابع مذهبي في عصري عبد الوهاب وافلح في تاهرت وجبل نفوسة ، والتي تحولت منذ امامة أبي بكر بن افلح ، القصيرة ، الى صراع حاد على السلطة بين الأقارب في تاهرت ، تؤيد كلا منهم عصبة خاصة ، هي التي عاقت جهود المخلصين ومساعيهم من أجل بعث وحدة قوية في مجتمع تاهرت الرستمي لمواجهة

---

19 - ابن الصغير : المصدر السابق 41 .

20 - وعن هذا الحصن وقلعة نفوسة وقلعة اسكدال وغيرها من القلاع بجوار تاهرت ، انظر ابن الصغير : المصدر السابق ، 39 ، وعن ولاية أبي حاتم يوسف ، انظر 50 ، 51 منه ، ابن تاويت الطنجي ، دولة الرستميين ، 125 وما بعدها ، وقد اشترك في التآمر الشاعر بكر بن حماد الزناتي ايضا .

21 - ابن الصغير : المصدر السابق 53 وما بعدها ، ابن تاويت الطنجي ، دولة الرستميين 126 وعقب فشله وسقوط الامامة الرستمية استقر في وارجلان وجبل نفوسة ثم التجا الى مصر ويعتبر آخر الائمة الرستميين .

22 - نفسه 56 وما بعدها ، ابن تاويت الطنجي ، دولة الرستميين 125 - 126 ، وقد اعتذر اليه بكر بن حماد بقصيدة شعرية فعفا عنه .

23 - ابن عذاري : المصدر السابق ، 1 ، 278 ، ولابي حاتم يوسف بنت تعرف دوسرا ، الدرجيني ، الطبقات ورقة 110 ، ابو زكريا : السيرة ورقة 33 ، وهي التي ستمثل دورا مع الداعي الشيعي ضد الامام اليقظان .

24 - نفسه ، 1 ، 278 - 279 ، الباروني : المرجع السابق ، 265 وما بعدها انظر ايضا 292 ، سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق 394 - 395 ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، 2 ، 565 ، الدرجيني : المصدر السابق ورقة 111 ، أبو زكريا : المصدر السابق ، ورقة 33 .

الأخطار ، التي بدات تلوح من بعيد فى أرض افريقية ، بل أن الأخبار المروعة عن حركات وزحوف كتامة ونشاط حركة التوسع فى افريقية ضد مدن الزاب وكتامة الأغلبية ، كانت تصل اليهم ، ومع ذلك ما استطاع الائمة الأواخر فى غمرة الصراع المذهبي والأسري والنزعات القبلية والتمزق الاجتماعي مواجهة الأحداث وبعث الاستقرار فى الحكم والتغلب على التناقضات الداخلية وجمع طاقات السكان فى صعيد واحد من أجل تدعيم مركز الامامة وتمتين جهاز دفاعها حماية لها من السقوط تحت طائلة القوى الخارجية (25) .

ومجتمع تاهرت كان نقطة ضعف بارزة فى نظام الامامة اذ أنه كان خليطا غير متجانس سياسيا ومذهبيا ، فأغلبه من فرع البتر ، وأقله من فرع البرانس ، هذا الى جانب جاليات أندلسية ومجموعات من النصارى والفرس المستعربين ، وكثير من تجار المشرق والمغرب ، وطلاب العلم والمعرفة الذين ارتضوا تاهرت مقاما لهم ومستقرا (26) .

ومن بين عناصر السكان كان الفرس وبربر نفوسه ، ولماية ، وهوارة ، ومزاتة ، حماة النظام ، وحراسا على مكاسب الامامة ، ومنهم الطبقات العليا باعتبارهم عصبية الدولة وعلى مذهبها ، وهم مصدر قوتها الأدبية والمادية . اما بقية الطوائف فكانت الى جانب أن لها مصالح خاصة ، ومتناقضة فى المدينة تخالف مذهب الدولة ، ولا تهتم بمصير نظام الامامة ولا تفكر فى التضحية أو التنازل عن أي شيء من امتيازاتها خدمة للمصلحة العامة .

وهذا الوضع الذي يمتاز باختلاف الأجناس والمذاهب ، والمصالح ، جعل مجتمع تاهرت يعيش حياة طائفية منفصلة ممزقة ، فلا صلة لطائفة بأخرى ولا بنظام الامامة التي أصبحت رمزا لطائفة معينة ، شغلها صراعها الداخلي عن التفكير ، فى مصير الامامة ، وصرفها الى تكتيل الأنصار والمساعدين حولها ، ولو كانوا من غير الاباضية (27) .

وقد كان تسامح الائمة الرستميين مع الطوائف المذهبية ومع المخالفين لهم ، وتركهم يعيشون حياة انفصالية فى اطار مذهبهم ، ميزة حسنة ، تركت آثارا حضارية معتبرة ، لكنها من ناحية أخرى كانت نقطة ضعف

---

25 ـ ابن الصغير : المصدر السابق ، 37 وما بعدها .
A. Negre la fin de l'état des Rustomides, p. 10 sq.

26 ـ اليعقوبي : البلدان ، 104 ـ 105 ، ويصف تاهرت بعراق المغرب وكان لها اخلاط من الناس ، وهي فى طاعة محمد بن افلح الذي زار اليعقوبي بلاد المغرب فى عصره ، البكري : المصدر السابق 67 ، ابن الصغير : المصدر السابق ، 13 .

27 ـ ابن الصغير : المصدر السابق ، 57 ، حيث يذكر بصفته مالكيا ، محاورة جرت له مع رجل هواري اباضي فى تاهرت ، عن مسالة فى الفروع .

بارزة فى نظام الامامة (28) ، التي كان يعرضها صراع الطوائف أحيانا لمشاكل ولحروب تطبع حياتها بطابع الفوضى ، وعدم الاستقرار . ويعني أيضا ان دور الائمة الرستميين فى حياة الطوائف غير الاباضية كان ضعيفا وأن سلطتهم الروحية كانت منعدمة مثل أثرهم المادي . ولو كانت الاسرة الرستمية متماسكة ، مثل أسرة بني مدرار فى سجلماسة ، لها جيش قوي ، ومجتمع موحد ، وعصبية موالية ، لكان من الميسور على اليقظان ابن أبي اليقضان آخر الائمة أن يقود حركة المقاومة ، ضد كتائب الشيعى ويمنع عناصر التآمر من الاتصال به ، والتنسيق معه ، غير أن الخلاف الأسري ، والتمزق الاجتماعي وضعف قوة الدفاع الذاتية ، بسبب فناء خيرة الرجال فى الفتن والحروب الداخلية أو ضد تحرشات مغراوة وبني يفرن الزناتية هي التي جعلت نظام الامامة يتهاوى بسرعة وبدون أية مقاومة داخلية .

وقد تسببت فى هذه النتيجة أيضا ، ظاهرة أخرى ، هي الانحلال الخلقي الذي أدى الى اغتيال أبي حاتم يوسف على يد بني أخيه اليقظان الذي استبد بالامامة مغتبطا ، وأثار غضب ابناء أخيه ودفعهم الى سلوك طرق ملتوية ، للثأر وللانتقام منه . فأصبحت دوسرا واخوتها عيونا للداعي ، ولجند كتامة ضد بلادهم وسببا فى تخريب نظام الامامة الرستمية ، وقد اتصلت دوسرا بالداعي (29) ، منذ أن فارق رقادة ، وبعد أن صورت له وضع الامام فى تاهرت على حقيقته ، ضعيفا متهاويا ، منطويا على نفسه مبغضا من طرف السكان ، رغبت منه أن يثأر لها ولاخوتها من قاتلي أبيهم على أن تساعده ، بما أمكنها ، وتصير له زوجة المستقبل .

وقد انضاف الى رغبة دوسرا ، بدافع الحقد والحرص على الأخذ بالثأر ، رجاء والحاح بقية الطوائف غير الاباضية عليه ومنهم ، الصفرية ، والواصلية وأهل السنة والشيعة ، فى أن يريحهم من حكم اليقظان ومن نظام الامامة الرستمية ، التي أصبحت ، تقوم على الغدر ، والخيانة واللاخلاقية (30) .

ورغم أن الداعي ، لم يكن فى نيته عندما فارق رقادة ، غير مشروع تحرير عبيد الله من سجنه ، بسبب الخوف على مصير الحركة ، اذا لم يأت صاحب الدعوة وامام الزمان ، فانه مضى قدما ، فى تنفيذ فكرة ضم املاك الامامة الرستمية ، بعد تصفيتها الى اطار الحركة الاسماعيلية ، لاطمئنانه الى سهولة الأمر بسبب استعداد السكان ، وعدم الخوف من أية ردود فعل داخلية أو خارجية قد تعطل حركة سيره نحو سجلماسة

28 — A. Negre op, cit p. 10.

29 — الدرجيني : الطبقات ، ورقة 111 ، أبو زكريا : المصدر السابق ، ورقة 33 .

30 — الباروني : الازهار الرياضية 292 ، الدرجيني : الطبقات ، ورقة 111 .

وهي هدفه البعيد ، واحتمال تدخل الأمويين فى الأندلس لفائدة الامامة بعيد ، رغم ما كان بين الامارة الأموية ونظام الامامة ، من علاقات مودة وصداقة ، وتعاون ، لأنهم كانوا منشغلين بمشاكلهم الخاصة فى شبه الجزيرة ومن أخطرها تمرد عمر بن حفصون ضد الامارة فى قرطبة (31) كذلك كان الأدارسة فى وضع سياسي غير مستقر ، ولم تكن علاقتهم وماضيهم يسمحان لهم بالتحرك لنجدة فئات من الخوارج . أما امارة سجلماسة الصفرية التي كانت حليفا طبيعيا للامامة فى تاهرت وراعية للصفرية فيها ، فعلى الرغم من انها كانت ضعيفة وبعيدة نسبيا عن تاهرت فانها أسهمت الى حد ما بجهد ، فى التنكيل بعبيد الله المهدي وبابنه ورجاله ، والتضييق عليهم ، وربما قتل أهمهم ، ثأرا لما حل بتاهرت ، وبالامام اليقظان وأسرته وبنظام الامامة الرستمية كما اشرنا .

ومع اقتناع الداعي بأهمية ضم تاهرت وسهولة ذلك فى ظل أوضاعها الدقيقة فانه احتاط للامر خيفة من ظهور مفاجآت قد تقضي على بعض أنصاره ، فأرسل رسلا الى الامام اليقظان يطلب الاجتماع به خارج المدينة ، فسعى اليه الأخير بأبنائه واخوته ورجاله ، واثناء المحاورة التي جرت لجس النبض أساء الداعي لمقام الامام وتجاهله ، وخاطبه من مركز القوة . ووصفه بالحيران ، وعيره بسوء التدبير ، والجبن ، وبارتكاب مالا يحل للمسلمين فعله « ما بالكم قتلتم اميركم ، وسلبتم من انفسكم ملككم ، واطفيتم نور الاسلام والقيتم الينا بأيديكم ، بغير قتال ولا حصار » (32) .

وتظاهر الداعي أمام السكان ، بمنح الأمان العام للجميع ووعد بالتسامح مع الطوائف غير الشيعية ، وارسل من مكانه — خارج المدينة ، من يشيع هذه الاتجاهات ، لتطمئن النفوس .

وقد ظهرت نتائج هذه الأعمال ، فتمكن رجاله من دخول تاهرت أمانا ، وبدون أدنى مقاومة فى شوال 296 هـ / يونية 908 م ، وفى داخل المدينة ، تنكر جند كتامة لوعودهم السابقة بالأمان والتسامح وارتكبوا أفعالا سيئة ضد السكان ، كما أمر الداعي بقتل اليقظان وأبنائه واخوته

---

31 — ابن عذاري : البيان 2 ، 199 وما بعدها ، وعن وفاة ابن حفصون سنة 305 هـ انظر ص 2 ، 256 منه . كليا سارانللي ، مجاهد العامري 8 — 9 ، وقد امتدت الثورة من عهد الأمير المنذر الى عهد عبد الرحمن الثالث ، ابن حزم ، نقط العروس 75 ، ويلاحظ ان ابن حفصون خطب لابراهيم بن القاسم صاحب مدينة البصرة ، انظر ليفي بروفنسال الذي يلاحظ انتهاء الثورة فى عهد عبد الرحمن الثالث 306 هـ — 918 م فى كتابه
L. Provencal : Histoire de l'Espagne Musulmane T I, p. 300-1.

32 — الباروني : الأزهار 293 : الدرجيني ، الطبقات ورقة 111 ، أبو زكريا : السيرة 33 .

وسائر من ينتمي الى البيت الرستمي ، لم يفرق فى ذلك بين من سبق لهم الاتصال به وبين من لم يسبق لهم ذلك الا من اختفى ، أو فر (33) من قبضته الى جهات بعيدة .

وبدات حركة نشيطة من اجل العثور على دوسرا واخوتها ، وبقية أعضاء الأسرة الرستمية ، غير ان هذه المراة اختفت خوفا على نفسها من القتل ، أو من أن تسبى ، وكانت هي وعمها أبو يوسف يعقوب ، وابنه أبو سليمان مع بعض الحراس ، والاتباع ، قد تمكنوا من النجاة بأنفسهم حيث التجأوا بعد صعوبة الى صحراء بني وارجلان وبقوا هناك فى حماية اباضية المنطقة (34) .

وفى صحراء بني وارجلان استقبلهم شيخ اباضية الجهة وعالمهم ابو صالح جنون بن يمريان بما يليق بمكانتهم كأعضاء فى بيت الامامة الرستمية ، وعرض عليهم ، مشروع اعادة احياء نظام الامامة ، فى هذه الجهة ، لكن أبا يوسف يعقوب ، رفض هذا العرض ، لأنه غير عملي ، بسبب صعوبة البيئة ، وعدم وجود القوة الكافية لحماية النظام الجديد ، الذي لا يكفي لبقائه ، فى هذه الفترة اخلاص ، أو حماس مجموعة من الأنصار المستضعفين (35) .

ويبدو أن مشروع احياء نظام الامامة ، وايواء الفارين من البيت الرستمي اعتبرا عملين موجهين ضد الحركة الاسماعيلية ، ولذلك أمر عبيد الله المهدي ، بعد تحريره من سجلماسة ، قوة عسكرية بالتوجه لحصار بني وارقلان ، وتأديبهم ، على اظهارهم العداء (36) . ثم على اساءة معاملته عندما كان فى طريقه الى سجلماسة ، حيث القى سفهاء قصر بكر التراب على وجهه فغادرهم الى سجلماسة بسرعة (37) .

---

33 ــ ابن عذاري : المصدر السابق ، 1 ، 279 ، 209 .

34 ــ الباروني : المرجع السابق ، 293 ، الدرجيني : المصدر السابق ، 122 ــ 123 .
E.I. (Art Rust) T 3, p. 1270.

35 ــ نفسه 294 ، ومما رد به أبو يوسف يعقوب على الشيخ الاباضي قوله : « لا يستتر الجمل بالقنم » ، الميلي ، تاريخ الجزائر القديم والحديث ، 2 ، 25 ، سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق 295 ، هامش 2 .

36 ــ الدرجيني : المصدر السابق ورقة 112 ، أبو زكريا : السيرة ، ورقة 33 ــ 34 ، ويتفقان على القول بان المقصود من الحصار الذي فشل بحيلة رجل يهودي ، وهو التضييق على السكان حتى يموتوا عطشا ، وقد تحصن السكان بكدية تعرف بكريمة وهي على 6 اميال من وارقلان . ومما يلاحظ انهما تفردا بهذه الرواية عن حملة فاطمية ضد بني وارقلان .

37 ــ الدرجيني : المصدر السابق ورقة 110 ، أبو زكريا : المصدر السابق ورقة 32 ــ 33 وارسال حملة لتاديب بني وارقلان لهذا السبب وحده غير مستبعد ، لان المهدي نكل بمن اساء اليه اثناء رحلته فى اقليم برقة (الطاحونة) .

وتشير بعض النصوص الى أن الداعي ، أرسل ، رؤوس القتلى فى تاهرت الى أبي زاكي ، وأبي العباس فى رقادة ، لكي تشهر فى المنطقة ، ترهيبا لمن قد تحدثهم أنفسهم بتدبير المقاومة ، أو باظهار العداء والعناد . وقد طوفت الرؤوس فى القيروان ثم نصبت على باب رقادة (38) ليراها ، المارون ، وينقلوا أخبارها الى الآفاق البعيدة فيزداد اقتناع السكان بقوة الدولة الجديدة .

وقد كفل سقوط الامامة الرستمية على يد جند كتامة (39) ، وضم تاهرت لاطار الدولة الفاطمية عدة مميزات هامة يأتي فى مقدمتها :

(أ) أن الدولة الفاطمية الشيعية نجحت فى القضاء على قوة المذهب الاباضي، عندما تشتت شمل أنصاره فى مجاهل الصحراء ، وصفت نظام الامامة الرستمية ، بعد ماض طويل فى المنطقة فأصبحت الطائفة الاباضية فى المغرب الأوسط لأول مرة تعيش بدون كيان سياسي ، ونظام جامع ، وكان يمكن أن تهدد حركة التصفية ، بزوال المذهب ، لولا ان بعض المخلصين من الطائفة حافظوا على تماسكها فى أماكن منعزلة ، عن طريق نظام العزابة ، الذي حفظ كيانها ، وهي تعيش فى اطاره حتى وقتنا الحاضر (40) .

ولم يخل مشروع تصفية الامامة ، من ردود فعل أخرى ، حيث كان تمنع اباضية جبل نفوسه ، واقليم طرابلس ، وثوراتهم ضد الفاطميين ، ثم ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد وتهديدها لكيان الفاطميين فصولا من حركة المعارضة الاباضية .

(ب) ثم ان سقوط مدينة تاهرت ، التي تقع فى مجال البتر ، على أيدي بربر كتامة ، من البرانس كان يعني تمسك البتر ، وبدو زناتة ، بالعداء ، وبالمقاومة الشديدة للخلافة الفاطمية ، التي ارتبط مصيرها بسيادة فرع البرانس وكتامة خاصة .

---

38 ـ ابن عذاري : البيان 1 ، 209 ، البكري : المصدر السابق 68 ، وقد عمرت الامامة الرستمية مائة وثلاثين سنة ، ابن الأثير ، الكامل ، 8 ، 49 ويلاحظ ان مدة الامامة الرستمية كانت مائة وستين سنة ، وانظر جورج مارسيه الذي يجعلها 147 سنة فى مقاله فى دائرة المعارف الاسلامية : E.I. (Art Tahert) T 4, p. 640-641.

39 ـ نفسه 1 ، 209 ، 210 .

40 ـ يحي هويدي : المرجع السابق 1 ، 52 ، 53 ، الدرجيني : المصدر السابق ورقة 2 ، لقبال : الحسبة المذهبية 87 ـ 90 ، اطفيش : اعزابن ، تعليق بدائرة المعارف الاسلامية ، انظر مقال البربر ، مجلد 3 ص 13 ، الترجمة العربية ، ويعرف العزابة بالبربرية اعزابن ، ويرقى هذا المصطلح الى عصر أبي يزيد النكاري ، انظر ابن حماد : أخبار بني عبيد 20 ، وعن نشاط العزابة ، انظر الشماخي ، السير 416 ، 418 ، 419 ، 451 ، 474 وغيرها .

(جـ) وقد كسبت الدولة الفاطمية من الاستيلاء على تاهرت ، مركزا هاما فى طريق القوافل التجارية ، يضمن لها الاشراف والسيطرة على حركة التجارة بين المشرق والمغرب ، والصحراء ، حيث توجد منابع التبر فى السودان الغربي (41) .

وغدت اهمية تاهرت أكثر بروزا عندما انضمت سجلماسة ، باب السودان الغربي ، الى اطار الدولة الفاطمية ، فكانت تاهرت بمثابة المحطة الوسطى للقوافل المتجهة نحو السودان الغربي ، عبر مدينة سجلماسة .

(د) ثم ان ضم تاهرت ــ وهي كما أشرنا ، فى مجالات البتر ، كان يشير الى أن قلب بلاد البتر ، وزناتة ، قد أصبح محاصرا ، ومن ثم فان حركات هؤلاء سوف تكون مراقبة بدقة ، اما معارضتهم للنظام الجديد ، فانها لن تكون ذات جدوى ما دامت تاهرت قاعدة من قواعده الموالية .

وقد دلت الأحداث التالية لضم تاهرت على ادراك كل من الفريقين المتنازعين لأهمية الاستيلاء عليها .

وغدا النزاع من اجلها ، طابع الحياة السياسية حتى بعد رحيل الفاطميين الى مصر . وكان يتصدر النزاع ، من البرانس ، كتامة ، واحلافها ، ثم صنهاجة ، أما من جانب البتر فتصدرت النزاع زناتة ، بفرعيها الكبيرين ، مغراوة ، وبني يفرن ، كما اسهمت مكناسة فى عصر سيادة ابن أبي العافية بدور كبير فى حركة الصراع العنيف من أجل الظفر بميزات موقع تاهرت ، خدمة للامويين فى قرطبة .

وطالما احتفظ الفاطميون بمركزهم القوي ، فى تاهرت ، كان بتر زناتة ، رغم حركات الشغب ، والتخريب ، لا يجدون ثغرة ينفذون منها ، للنيل منهم ومن ولاتهم الأقوياء .

وادراك المهدي وخلفائه لأهمية المدينة ، فى أية معركة ناجحة ضد زناتة وغيرها من البتر المعادين ، هو الذي أملى عليهم اختيار نخبة من أخلص قادتهم ، ورجالات كتامة ، للاشراف منها ، على حركات البتر ، وعلى الجزء الغربي ، من الدولة الفاطمية ، الذي اتسع حتى مشارف طنجة ، وواحات الصحراء ومراكز العلويين وبني صالح أمراء تكور . ومن بين

41 ــ ابن الصغير : اخبار الائمة الرستميين 12 ــ 13 ، انظر عنه موتلنسكي : أعمال المستشرقين 14 لسنة 1905 ، قسم 3 .

الولاة أبو حميد دواس بن صولات اللهيصي ، وعـــروبة بن يوسف الملوسي (42) ومصالة بن حبوس المكناسي .

* * *

وتشير النصوص الاباضية الى حادث استيلاء الداعي ، على المكتبة المعروفة بلقب « المعصومة » فى مدينة تاهرت ، التي كانت على جانب كبير من الغنى والأهمية ، فأخذ منها أمهات كتب الرياضة ، والصنائع وما شابهها من الكتب الفنية والعلمية ، وأحرق بقية الكتب والآثار المذهبية ، ومن ضمنها امهات كتب المذهب ، ودواوينه ، ومن ثم فقدت أغلب هذه الأصول المذهبية ، وغدا رجال المذهب الاباضي ، بدون مصادر مذهبهم لأول مرة (43) .

ويبدو أن هذه الدعوى ، تفتقر الى السند التاريخي الصحيح ، ولا يوجد ما يؤيدها ، فى النصوص التاريخية السنية والاسماعيلية أيضا .

وتقاليد الداعي كانت مؤسسة على احترام الآثار الأدبية القديمة وعدم اللجوء الى أسلوب الحرق والتخريب الا لضرورة حربية ، وهذا عندما تستعصي المدن المسورة ، ويتمادى سكانها فى المقاومة ، وفى اظهار العناد ، مثلما جرى ذلك فى مدينة الأربس ، وفى سجلماسة ، وبلزمة ، حيث استخدم النار ، لحرق الأبراج ، أو بعض الأماكن المحصنة ، أو الهامة بالنسبة للمعارضين له ، لكن لم يؤثر عنه أنه عمد الى حرق الكتب،والآثار الأدبية ، حتى بالنسبة لهذه المدن السابقة التي استعصت عليه ، وقاومت أنصاره .

ولم تشر النصوص الى سلوكه سياسة حرق الكتب المذهبية سواء فى رقادة ، أو فى القيروان ، أو فى سجلماسة ، لذلك تبدو الرواية الاباضية فريدة ومستغربة ، ودفع اليها فيما يظهر ، الغضب والكراهية والرغبة

---

42 ـ ابن خلدون : العبر ، 4 ، 78 ، وفى نفس الوقت أصبح اخوه حباسة بن يوسف من اقليم برقة يشرف على مراكز هامة فى الجـــزء الشرقي من الدولة الفاطمية ، ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 239 .

43 ـ الدرجيني : الطبقات ورقة 111 ، ومن ضمن المصادر ، ديوان تاهرت الذي هو عمدة طائفة العزابة فى الاحكام . ابو زكريا . السيرة ، ورقة 33 ، الباروني : المرجع السابق 293 ، الشماخي : السير 228 ، ويقول : « بقيت نسخة عمروس ينتفع بها الاباضية ولولاها لبقي اهل المذهب من غير ديوان بالمغرب يعتمدون عليه » وهذه النسخة منقولة عن مدونة أبي غانم بشر بن غانم الخراساني ، الذي رواها عن تلامذة أبي عبيدة مسلم بن ابي كريمة امام الاباضية ومجتهدهم فى مدينة البصرة . وعن هذه المدونة، انظر سير الشماخي 228 .

فى التشهير واظهار العداء للشيعة ، وتلك صفات بقيت تلازم الاباضية وظهرت أصداؤها فى أغلب كتبهم المتأخرة (44) .

ولنا ان نتساءل أيضا ، عن أهمية كتب « الحرف » والفنون « الدنيوية » التي اختصت بها تاهرت ومكتبة الأئمة الرستميين دون حواضر افريقية الكبرى ، ومكتبات الاغالبة ، وأهمها بيت الحكمة فى القيروان الذي أشرف على تأسيسها وتجهيزها زيادة الله 290 هـ / 902 م (45) ثم مكتبات فاس وروائع الآثار الادريسية وقد لاحظنا أن النصوص لم تشر الى فكرة الاستيلاء على المكتبات الخاصة بالامراء الأغالبة ، ولا على الآثار التي كان يملكها علماء المالكية أو الحنفية ، الذين اصطدموا مع الخلفاء الفاطميين ، وعارضوا سياستهم المذهبية .

ومن دون شك ، كانت حواضر القيروان ورقادة وتلمسان وفاس وسجلماسة ، زاخرة أيضا بالكتب وبالمكتبات مثل تاهرت ، ومع ذلك يفتقر الباحث الى اشارات عن حرق الكتب أو المكتبات حتى فى عهود الفتن والصراع المذهبي بين الشيعة والسنة .

ثم ان الداعي ، كان فى طريقه الى سجلماسة ، لا الى رقادة ، فكيف يثقل نفسه بالكتب ، ويشغلها بالنشاط الثقافي وهو يعد للحرب ، لا سيما وأن النصوص الاباضية تبالغ فى وصف المكتبة المعصومة (46) ، وفى عدد الأسفار التي كانت تشتمل عليها .

ولو أن تاهرت لم تصبح الآن منطقة نفوذ فاطمية ، لكان لرواية حرق الكتب ، وجه صواب . أما وقد صارت المدينة ، وما فيها ، ملكا خالصا للفاطميين ، فان الأقرب الى التصديق أن يكون الداعي ، قد أمر بالعناية «بالمعصومة» وبالآثار القديمة ، ويؤكد ذلك أن الداعي تصرف فى المدينة بطريقة تشعر بأنه أصبح سيد الموقف فيها ومسؤولا على أمنها ، وراحة سكانها ، فلم يبرحها حتى ترك حامية كتامية لحفظ الأمن ، وقائدا كتاميا من لهيصة ، هو أبو حميد دواس بن صولات ، الذي بقي معه ابراهيم بن

---

44 ـ الوارقلاني : الدليل لأهل العقول : 1 ، 29 ـ 32 وفيه قوله « وأما الشيعة الجهلة روافضهم وغاليتهم فانهم قدحوا فى الاسلام والنبوة والالوهية » يحي هويدي : المرجع السابق 1 ، 31 .

45 ـ عثمان الكعاك : الحضارة العربية فى حوض البحر المتوسط 112 ، وفيه ترجمت كتب انساب البربر ، من رجالها الطبيب بن الجزار ، وابراهيم الشيباني البغدادي الذي كان يشرف عليها . وقد ازدهر الاثنان فى العصر الفاطمي .

46 ـ وتعرف قلعة المدينة ، او قصبتها باسم المعصومة ايضا ، انظر البكري : المصدر السابق 66 .

محمد اليماني ، الذي كان يرافق الداعي ، وعرف فى كتامة بالسيد الصغير كما اشرنا (47) .

ولعل حرق المعصومة ، ان حصل فعلا ، يعود الى عصر الفتن الداخلية والصراع بين الأئمة الأواخر وما تخلله من حروب مهلكة ثم لماذا لا نفترض أن الفارين من بقايا الأسرة الرستمية ، هم الذين أخذوا شيئا غير قليل من هذه الكتب المذهبية والدنيوية ، غير أن بعضها ضاع فى الطريق لانشغالهم بالدفاع عن انفسهم ضد فرسان كتامة الذين كادوا يقبضون عليهم ، أما البعض الآخر فقد ناله البلى ، او اعدمه المعارضون لحكم الامامة ، والمنشقون عن الطائفة الاباضية ، وقد لاحظنا أن الانشقاق المذهبي ، أدى الى استقلال معظم اباضية نفوسة وطرابلس كما أن الخلاف المذهبي بين صفرية سجلماسة واباضية تاهرت كان عميقا ، رغم ما وجد بين الأسرتين الحاكمتين من رباط المصاهرة (48) ، وقد ضم صفرية تاهرت ، أصواتهم الى أصوات المالكية والواصلية والشيعة والاباضية المعارضين ، وطالبوا الداعي بالتدخل لوضع حد لنظام اليقظان واسرته الرستمية على أن يكونوا عونا له فى مجهوداته (49) .

فلعل هذه الطوائف ، بحكم تعايشها مع اباضية تاهرت وتاثرها من استبدادهم ، وتعصبهم وعنادهم التي كانت تظهر فى حلقات الجدل والمناظرة بين رجال الطوائف ، هي التي قادت المعركة ضد آثارهم الادبية والمذهبية ، مثلما ساهمت بتواطئها ومساعدتها فى محو كيانهم السياسي .

واذا كانت ظروف احتلال تاهرت ، وما صاحبه من اختلال الأمن واستبداد جند كتامة بالسكان ، وسلوكهم سياسة السلب والنهب قد هيأت فرصة مناسبة لضياع ، أو لافساد كتب المذهب الاباضي ، فانه يلاحظ أن اباضية نفوسة بقوا حتى هذا الوقت فى حرز أمين .

ومنطقة الجبل كانت تعتبر مركزا هاما للمذهب وموطنا لعلمائه وحملته ، واولى الراي فيه ، وقد كان بعض الأئمة يستعين بهم فى الفتوى وفى تسيير بعض الخطط الشرعية ، مثل القضاء والحسبة ، وفى الرد على بعض

47 ـ يشير ابن عذاري الى لقب الهواري ايضا فربما اكتسب ذلك من اقامته فى تاهرت : البيان 1 ، 210 ، وقد تكون النسبة الى الاهواز وحقها اذا أن تاتي بصيغة الاهوازي كما هي القاعدة اللغوية وعلى هذا الاعتبار تكون الكلمة مصحفة فى رواية ابن عذارى .

48 ـ البكري : المصدر السابق 150 ، ابن عذاري 1 ، 216 ، اذ تزوج مدرار المنتصر بن اليسع ، أروى بنت عبد الرحمن بن رستم ، فولدت له ميمونا ، الملقب بابن اروي ، الذي كان مقربا من نفسه ، فاراد أن يوليه العهد من بعده ، لولا معارضة صفرية سجلماسة له التي الجاته الى ترك الامارة لابنه الآخر ، الملقب بابن بقية ، والامير الذي بقي حتى 270 هـ حيث وليها اليسع بن مدرار الذي سجن عبيد الله .

49 ـ الباروني : المرجع السابق 92 وما بعدها .

المعارضين للمذهب ، مثل الواصلية (50) ، وعلى ذلك فما كان يوجد فى تاهرت من كتب مذهبية لا يمكن اعتبارها هي الفريدة فى بابها ، وبضياعها ضاعت الأمهات ، كما يزعم مؤرخو الاباضية ، بل ان الموطن الثاني للامهات كان أيضا فى قرى جبل نفوسة ، وما ضاع من تاهرت كان له بدون شك نظير ، أو أصل فى منطقة الجبل (51) .

ويلاحظ أن الداعي لم يكن قاسيا مع سكان تاهرت الاباضية وهذا سر بقاء أغلبهم فى المدينة بعد حادث الفتح ، أما أقلهم فقد غادروا المدينة الى صحراء وادي ريغ وصدراته ، ووارجلان وكريمة والى كتلة أوراس ، ومنطقة الزاب ، حيث بقوا بجوار اخوانهم يعيشون فى اطار مذهبهم وتقاليدهم ، واليهم التجأ ابو يزيد فيما بعد فحموه ، وأيدوه ، ووقفوا الى جانبه ، وأمدوه بالقوة التي ساعدته على الاستمرار فى مقاومة النفوذ الفاطمي وفى كسب معارك كبرى وفى التغلب على اغلب حواضر افريقية .

وقد لاحظ الرحالة البكري انتشار الاباضية فى مدن الزاب ، وأوراس (52) ، كما لاحظ ذلك ابن حوقل قبله بالنسبة لاقليم قسطيلية ، وقفصة ، وبشرة ، وسوماطة فى منطقة نفزاوة (53) .

وهؤلاء الاباضية كانوا فى المنطقة قبل عصر الامامة لكن عددهم زاد بسيل من المهاجرين واللاجئين اليهم فى عهود الفتن والحروب الداخلية واثر سقوط الامامة أيضا .

ويظهر ان فشل حركة أبي يزيد ، هي التي قضت على آمالهم ووضعت حدا لوجودهم فى المناطق القريبة من مراكز العمران فهاجروا الى أماكن منعزلة فى واحات الصحراء ، وفى الشطوط على فترات متقطعة حيث توجد منهم حتى وقتنا ، مجموعات ضخمة فى واحة الشبكة أو بلاد مزاب ، موزعين على عدة قصور ومدن متقاربة أكبرها غارداية (54) .

---

50 – الباروني : المرجع السابق 118 – 119 .

51 – الشماخي : المصدر السابق 424 ، ومن ذلك ديوان اشتمل على تآليف كثيرة وبلغ عددها 33 الف سفر ، أنظر 228 منه عن مدونة أبي غانم ايضا .

52 – المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب 72 – 73 ، 144 ، 145 حيث يلاحظ ان مزاتة وضريسة وسكان باغاية كلهم اباضية مثل هوارة ومكناسة فى جبال اوراس .

53 – صورة الارض 93–94 ، ويصنف الأباضية الى اتباع ابن اباض (اباضية) ووهبية وهم اتباع ابن وهب الراسبي . ويلاحظ أن ابا يزيد من اباضية سوماطة ، أما زناتة ومزاتة فكانت نزعة الاعتزال بارزة فيهما . وعما يوجد بين المعتزلة والاباضية من مسائل مشتركة يتفقون حولها . انظر ، يحي هويدي : المرجع السابق 1 ، 56 وعن وصف نفزاوة ، وكبرى مدنها بشرة ، انظر اليعقوبي ، البلدان 102 .

54 – ثم القرارة وبريان والعطف وبني يزقن ، وبنورة ومليكة : انظر توفيق المدني : كتاب الجزائر 210 – 212 ط 1963 .

وعندما أضحت تاهرت قاعدة فاطمية احتفظت بمكانتها كحاضرة اقليمية كبرى ومركزا للانطلاق الى جهات مختلفة فى أرض المغرب ، وفى عصرها الجديد ، لم تتأثر وضعيتها ، من سياسة الفاطميين المذهبية على عكس ما كان ينتظر لها فعلا ، وانما عانت من دسائس مجموعاتها وطوائفها المذهبية ، ومن حركات زناتة والحاج محمد بن خزر المغراوي عليها ، بتنسيق مع بعض المعارضين للحكم الفاطمي فيها .

* * *

وعداء زناتة للحركة الاسماعيلية ، قديم العهد ، ويرتبط بالعصر الذي كان فيه الداعي فى ايكجان ، وعبيد الله المهدي فى سجلماسة ، اذ تشير بعض النصوص الى أن عامل طبنة من طرف الداعي ، وهو يحي بن سلمى، ترك مركز ولايته واسرع للقاء الداعي، فى باغاية وقد كان فى طريقه الى قسطيلية واخبره بأن رسله الكتاميين الى عبيد الله فى سجلماسة ، وكان عددهم اربعة عشر رجلا ، قد أدوا مهمتهم عند صاحب الدعوة وعند عودتهم قتلوا عن آخرهم فى منطقة الزاب قرب طبنة من طرف عناصر زناتية كانت فيما يبدو تخضع لاشراف محمد بن خزر ، الذي لاحظنا حريته فى الحركة فى مجالات الزاب وافريقية حتى تلمسان ، وقد كان هؤلاء الرسل يحملون كتابا هاما مرسلا من عبيد الله الى داعيته ، لم يتمكن المعتدون من العثور عليه لأن رجال الوفد تمكنوا من دفنه فى الأرض ، كما أخبر بذلك أحدهم الذي تحامل على نفسه وأدركه الموت فى طبنة ، وقد قام والي طبنة بالبحث عنه وسلمه الى الداعي فى باغاية (55) . وبقدر ما كان اغتباطه بمحتوى الكتاب ، فحمد الله اذ لم تطلع زناتة على ما فيه بقدر ما تألم للحادث الذي راح ضحيته خيرة من رجاله المخلصين وعزم على الرجوع لتأديب زناتة ، والانتقام من محمد ابن خزر زعيم مغراوة ، ولم يثنه عن عزمه ، الا رأي أصحابه ، على أساس أن «البلد بعيد ، وهذا العسكر منا بالقرب ،ولا نأمن أن يخالفنا الى بلدنا » وأجمعوا على الاستمرار فى الخطة القديمة والانطلاق الى قسطيلية لأن أمر زناتة لا يفوتنا (56) .

وكانت هذه الحادثة بداية الحركة العدائية التي تبنتها زناتة ضد نظام الفاطميين ومات أثنائها كتاميون كانوا يؤدون مهمة خاصة ، ومن ثم كان على قبيلة كتامة بدافع العصبية ان تأخذ بثأر قتلاها وعلى الداعي باعتباره مسؤولا عن مصيرهم ورأس الحركة أن يقوم بعمل حاسم لتأديب قطاع الطرق من بدو زناتة .

55 ـ النعمان : افتتاح الدعوة ورقة 143 وما بعدها (197 وما بعدها ط بيروت) .

56 ـ النعمان : افتتاح الدعوة ورقة 144 (198 ط . بيروت) .

وقد نشطت حركة المعارضة وظهر تآمر ابن خزر ضد سلطان الفاطميين في تاهرت ، منذ وقت مبكر، يرجع الى بداية عهد أوائل ولاة المدينة الكتاميين وهو أبو حميد دواس ، الذي كلف بالاشراف على شؤونها ومراقبة حركات المعارضين فيها (57) .

وكانت المؤامرة في هذه الفترة أساسها محمد بن خزر المغراوي الذي ربط صلة مع بني دلوس من سكان المدينة فحثوه على الزحف ضدهـا لاخراج دواس وطرد حامية كتامة ووعدوه بالتأييد والمساعدة ، وقد خيل لمحمد بن خزر أن الفرصة مناسبة لاستخلاص المدينة من قبضة الفاطميين ، من جهة وللتعرض لموكب عبيد الله وداعيه ، عند رجوعهم من سجلماسة ، ومرورهم بأرض تاهرت من جهة اخرى وكادت هذه المؤامرة تنجح لو لم تتسرب أخبارها الى والي المدينة عن طريق عناصر موالية للحكم الفاطمي ، كارهة لتسلط مغراوة ، فتصرف دواس بسرعة وتحفظ على بني دلوس في حصن برفجانة ، أو تاهرت القديمة وهي بجوار تاهرت الحديثة على مسافة خمسة أميال الى الشرق منها (58) ، ثم ترك تاهرت الى قلعة ابن حمة ، جنوبها (59) ، وبقي هناك يراقب الوضع من بعيد ، فلما زحف ابن خزر ووجد جماعة بني دلوس مراقبين وبعيدين عن ميدان المعركة لـم يفلح في افتتاح تاهرت واكتفى بالتحصن ببعض أرباضها ، ثم تركها بسبب مقاومة السكان الذين كاتبوا دواسا يخبرونه بانسحابه ويطلبون منه الاسراع في العودة الى المدينة لتهدأ نفوس سكانها ، كما أن سكان حصن برفجانة بعد أن ثبت تآمر بني دلوس عليهم مع ابن خزر انتقموا منهم فقتلوهم عن آخرهم (60) .

---

57 ـ ابن عذاري : البيان 1 ، 210 ، انظر ايضا 279 منه حيث يشير الى انه وليها ستة اشهر ، ولما وصلته العساكر فتحها سنة 299 هـ .

58 ـ البكري : المصدر السابق 67 ، ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 280 ـ 281 . حيث يلاحظ أن تاهرت القديمة هي التي خربها الخير بن محمد بن خزر الزناتي . وتاهرت الحديثة هي عاصمة الامامة وتقع بجوار تاقدمت مركز الامير عبد القادر فيما بعد .
E.I. (Art Tahert) T 4, p. 640-641.

59 ـ ابن عذاري : المصدر 1 ، 210 ـ 211 ، وفي هذه القلعة ولد بكر بن حماد الزناتي ، شاعر المغرب الاوسط في القرن الثالث للهجرة ، وبها نشأ وتوفي في شوال 296 هـ اي في نفس الوقت الذي مر فيه الداعي بتاهرت . رحل الى بغداد في عهد المعتصم العباسي ومدحه فاجزل له .

60 ـ ابن عذاري : البيان 1 ، 213 حيث يشير الى موت ابن خزر اثناء المعركة وقارن ذلك بما ورد في صفحة 266 منه حيث ذكر ابن خزر مرة اخرى ، الباروني : المرجع السابق 295 ، ويسمى انصار ابن خزر ، بني دبوس ، ويسمى الحصن ، بحصن بخاتة ابن‌الصغير : المصدر السابق 55 س 16 عن بني دبوس في عصر يعقوب بن افلح .

كذلك لم يصمد ابن خزر أمام قوات الداعي عند رجوعها من سجلماسة وتوجهها نحوه بناء على أوامر عبيد الله ، لما بلغته مؤامرة تاهرت ضد أبي حميد دواس ، فترك ابن خزر الميدان وأخلى الطرق لها ، وتوغل في مجاهل الصحراء (61) . وعندما اطمأن الى انصرافها ، عنه ، الى رقادة وانشغال المهدي بالمواكب وبالأفراح في افريقية وبألوان الحياة الجديدة ، فاجأ تاهرت على رأس جموعه وحاصر دواسا في المدينة وضيق على سكانها ، فأرسل المهدي لنجدته ولتأديب محمد بن خزر حملة كتامية أسند قيادتها الى هارون بن يونس المسالتي ، المعروف بشيخ المشائخ ، فأدرك دواسا وقوى جانبه ونال من المحاصرين وقتل كثيرا منهم (62) . كذلك قام الداعي أبو عبد الله بمعية قادة كتامة وبعض الدعاة « بنزهة عسكرية » في أرض المغرب وفي مجالات زناتة « لما ظهر من الالتياث وفساد الطرق ، وقيام القبائل على عمالهم » . فحصل على انتصارات باهرة ، وسيطر على عدة مدن ومراكز وانتقم من عناصر الشغب بالقتل والسبي ، وأنهى خبر توفيقه في أعماله الى المهدي في رقادة الذي أمر بقراءة سجلات حولها على منابر افريقية (63) .

وفي بداية 298 هـ / 910 – 911 م وقبيل رجوع الداعي الى رقادة شن حملات عنيفة ضد مضارب صدينة وزناتة ، فتمكن من قتل كثير من رؤوس الفتنة وسبى ذراريهم واستولى على ذخائرهم ، وطمس معالم مدنهم حيث أحرق بعضها بالنار وأرسل الى المهدي يخبره بانتصاراته ضد زناتة ، فاستبشر وأمر بقراءة كتبه على الناس (64) ، لتخفف حدة مقاومة المعارضين وتطمئن نفوس الأولياء والمؤيدين .

غير أن زناتة لم تكف عن معارضتها للنفوذ الفاطمي ولم تنكسر مقاومتها بعد الهزائم التي منيت بها وعادت الى العمل من جديد في ظروف دقيقة بالنسبة للدولة الفاطمية ، ومع انشغال المهدي بحركة التآمر عليه التي تزعمها بناة الدولة ودعاتها وما نتج عنها من ردود فعل عنيفة ، فانه أرسل في بداية 299 هـ / 911 – 914 م حملة كبرى لتأديب زناتة التي حاصرت تاهرت بقيادة محمد بن خزر والجأت دواسا الى الفرار مرة أخرى . فقتلت من جموعها في موقعة فلك مديك « عددا لا يحصى » وتبدد شمل

---

61 – نفسه 1 ، 214 ، ويلاحظ أن مجال تحركه كان ما بين اقليم الزاب ومدينة تلمسان ، انظر ابن الأثير : الكامل ، 8 ، 53 .

62 – نفسه ، 1 ، 221 .

63 – نفسه ، 1 ، 222 .

64 – نفسه ، 1 ، 223 ، ويلاحظ ان الداعي بقي في هذه المهمة عدة اشهر اثناء سنتي 297 ، 298 هـ . وفي كل هذه المدة لم تشر النصوص الى محمد بن خزر الذي فضل الاختفاء حتى تسنح له ظروف العمل .

قبائلها ، وفى نفس الوقت تمكنت القوة الفاطمية من فتح تاهرت وتأديب سكانها الذين ثاروا من قبل ضد دواس ، وتآمروا على حياته ، ومكنوا ابن خزر من المدينة ومن الاستيلاء على السلاح ومن اهانة أم دواس ، وعياله ، وقتل أكثر حامية كتامة وكانوا نحو الف فارس ، لكنهم عندما سمعوا انباء الحملة الفاطمية تراجعوا فى موقفهم من محمد بن خزر الذي خشى العاقبة وانصرف بدوره عن تاهرت الى الصحراء ، تاركا سكان المدينة للقتل والسبي والنهب ، حتى قيل أن عدد القتلى بلغ ثمانية آلاف رجل ، كما اشعلت الحرائق فى المدينة الثائرة .

وقد اتضح للمهدي من خلال أحداث تاهرت سوء تصرف دواس اللهيصي، وعجزه عن الصمود والمقاومة واسراعه فى الفرار عن المدينة للمرة الثانية لمجرد ظهور حركة المقاومة ، ولم يفكر أبدا فى مصالح الدولة ولا فى مصير انصاره وجنده ، لذلك استدعاه الى رقادة وتمهل به فترة ثم قتله عقابا على القصور والجبن (65) . أما تاهرت فقد انتدب لولايتها قائد الحملة التأديبية مصالة بن حبوس بن منازل بن بهلول المكناسي (66) . الذي سيطر على الوضع وتتبع عناصر الشغب وحمى المدينة مؤقتا من بطش وتحركات محمد بن خزر ثم انطلق منها غرة ذي الحجة 304 هـ / مايو 916 م على راس قوة من كتامة ومكناسة لتأديب أمراء نكور ، من آل سعيد بن صالح ، لأنهم تطاولوا على السلطة الفاطمية الجديدة ، وأساءوا الرد على كتاب المهدي ، الذي تضمن دعوتهم الى الاعتراف بالسيادة الفاطمية (67) .

وقد تمكن مصالة بعد حرب شديدة من اقتحام نكور محرم 305 هـ يونية 917 م بالكيد وبمساعدة أحد انصار سعيد بن صالح أمير المدينة الذي استبسل فى القتال حتى قتل هو ، « واستبيح عسكره » وشرد آله وأقاربه ، فالتجأوا الى مرسى مالقه ، وبجانة فى حماية الخليفة الناصر الاموي ، الذي « حباهم بالكساء الرفيعة والصلات الجزيلة » وخيرهم بين البقاء حيث هم او الانتقال الى الزهراء أو قرطبة ، فاستحسنوا البقاء فى مالقة لرغبتهم فى التهيئة للعودة الى ملكهم فى نكور (68) ، عندما يأنسون قوة ويجدون عونا للثأر من مكناسة ، وحامية المهدي فى المدينة . ورغم أن مصالة أرسل الى المهدي بخبر الفتح وبرؤوس بني صالح التي شهرت

---

65 ـ ابن عذاري 1 ، 229 وما بعدها ، الباروني : المرجع السابق 296 .

66 ـ نفسه ، 1 ، 230 .

67 ـ نفسه 1 ، 249 ، البكري : المصدر السابق 94 وما بعدها .

68 ـ ابن عذاري 1 ، 252 ، البكري : المصدر السابق 96 .

فى القيروان ونصبت فى رقادة (69) فانه بقي فى المدينة ستة أشهر لم يفارقها خوفا على ضياع المكاسب الجديدة .

وأثناء هذه المدة نظم شؤون المدينة وانتخب (ذلولا) من رجاله لكي يبقى عاملا عليها ، وترك فى معيته حامية كتامة مع عناصر من مكناسة . ويبدو أن ذلولا لم يكن كفؤا للمهمة لأن أنصاره سرعان ما تفرقوا عنه بعد رحيل مصالة الى تاهرت ، وتركوه يلاقي مصيره مع قلة من رجاله على يد القوة العسكرية الاموية التي قادها صالح بن سعيد بن صالح من مدينة مالقة الى تكور ، التي سقطت فى أيديهم (70) . ورجع آل سعيد بن صالح الى سالف عهدهم أمراء فى المدينة ، وأرسلوا يخبرون الناصر الاموي بانتصارهم على الحامية الشيعية ، فقرىء كتاب صالح ابن سعيد الأمير ، فى جامع قرطبة ، ونسخت منه صور قرئت فى سائر كور الأندلس ، واثر ذلك أمر الناصر الأموي « بامداد آل صالح بما يجل من الأخبية الشريفة والآلـة العجيبة والكساء الرفيعة والسروج ، والحلي والبنود ، والطبول والدروع وجميع السلاح » (71) .

وبذلك استقر الأمر لآل صالح فى اطار الصداقة والحلف مع الامويين فى الاندلس ، وظلت تكور موالية للامويين معرضة عن الفاطميين حتى 317 هـ / 929 — 930 م عندما هاجمها موسى بن أبي العافية فى عصر ولائه للفاطميين وهدمها وخرب آثارها ومعالمها وتركها « بلاقع تسفى عليها الرياح ، وتعاوى فيها الذئاب » (72) انتقاما من أمرائها الذين ارتبطوا بالولاء مع الأمويين وخلعوا طاعة المهدي الفاطمي . ويلاحظ أن مصالة لم يقدر له أن يعود اليها لانصرافه الى تنظيم شؤون تاهرت ثم لمواجهة ثورة وعصيان أمراء سجلماسة منذ 309 هـ / 921 — 922 م ، الذين انفصلوا

---

69 — وخلد الانتصار فى تكور ضد بن صالح ابو جعفر احمد بن المروزي ، الشيعي ، بقوله :

لـمـا طغـى الارذل وابن الارذل ... فى عصبـة من الطغام الجهـل

قال تكـور دون ربى معقـلـي ... آتاه محتـوم القضـاء الفيصل

انظر ابن عذاري 1 ، 251 ، البكري : المصدر السابق 96 . العزيزي الجوذري سيرة جوذر 164 ، وكان المهدي قد ارسل اليهم قوله :

فان تستقيموا استقم لصـالحكم ... وان تعدلوا عني ارى قتلكم عدلا

وهكذا ، فهذه الأبيات الشعرية تدخل فى اطار النضال المذهبي ، وأهمية دور الشعر فى تخذيل الاعداء وكسب الأنصار ظاهرة ملحوظة .

70 — ابن عذاري 1 ، 244 — 245 ، 252 وقد بويع صالح بالأمرة ولقب باليتيم وكـان أول امير دخل تكور ، لذلك سلم له اخوته بالأمر عندما وصلوا بعد شهرين الى المدينة البكري : المصدر السابق 97 .

71 — نفسه ، البكري 97 .

72 — البكري : المصدر السابق 97 ، ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 274 . وكان اميرها من بني صالح هو المؤيد بن عبد البديع بن ادريس بن صالح الذي قتل اثناء هذه المعركة .

من المهدي وخلعوا الطاعة وانتقموا من رجاله (73) . وبعد أن انجز المهمة رجع سريعا الى تاهرت مقر ولايته ، ومنها واصل السير نحو المهدية التي أصبحت دار هجرة للشيعة وعاصمة جديدة للدولة الفاطمية (74) ، لأن المهدي طلب منه توضيحات عن أعماله التي انجزها فى نكور وتاهرت وسجلماسة .

ومن بين هذه الحواضر كانت أوضاع تاهرت تقض مضجع المهدي وتقلق باله ، لذلك لم يستبق مصالة بجواره الا أياما قليلة ، صرفه بعدها ، فى نفس شهر شعبان 310 هـ نوفمبر 922 م الى تاهرت (75) . ومنها ، بدأ مصالة يعد لحملة تأديبية ضد بتر زناتة ، وأنصار محمد بن خزرالمغراوي، الذين بقوا قذى فى أعين الولاة الفاطميين فى المدينة ، وشجى فى حلوقهم ، وحربا على السيادة الفاطمية فى مجالات زناتة والمغرب الاوسط .

وعندما اكتمل الاعداد ، خرج مصالة سنة 312 هـ / 924 ـ 925 م على رأس قوات كثيرة من مدينة تاهرت وقصد مضارب زناتة فى حوض الشلف ، وجبال الونشريس ، فقتل وسبى وسيطر على الموقف واغرته قوته ببث السرايا فى أرجاء زناتة وضد فرع مغراوة ، فخربوا ونهبوا ، دون أن يجدوا مقاومة من طرف محمد بن خزر ، الذي تحاشى الاصطدام مع القوة الضاربة ، لكنه بث عيونه وأرصاده لسبر تحركات مصالة وتقدير مدى قوته بعد المعارك الاخيرة والى أي حد بقي جنده قوة متكاملة ؟ . وعندما بلغه انه أصبح فى مركز ضعيف بسبب بقاء قلة من الجند الى جواره وذهاب أكثرهم للسلب والتخريب فى أعماق أرض زناتة اغتنم هذه الثغرة ونفذ منها الى تحقيق أغراضه فظهر فى ميدان الحرب وتحرش بمصالة وقاتله والح فى القتال حتى قضى عليه وعلى انصاره أثناء معركة ضارية جرت يوم الجمعة لعشر بقين من شعبان سنة 312 هـ (76) .

ويبدو أن موت مصالة بن حبوس ، بعد ولاية استمرت ثلاث عشرة سنة فى تاهرت وفى أعمالها ترك فراغا سياسيا كبيرا فى الجناح الغربي من الدولة الفاطمية وأثرا سيئا فى نفس عبيد الله المهدي الذي لم يجد ما يعبر به عن رضاه عن أعمال مصالة غير تعيين أخيه يصل بن حبوس على رأس ولاية تاهرت وكانت مهمته العاجلة أن يكتل قبيلة مكناسة للاخذ بثأر زعيمها ، من بتر زناتة وفرع مغراوة رهط محمد بن خزر بصفة خاصة ، أما مهمته بعد ذلك فهي أن يشتد فى سياسته مع العناصر المعارضة للحكم الفاطمي فى المدينة وفى نواحيها التي كانت تغري ابن خزر بالزحف عليها ، وتتعاون

73 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 259 ـ 260 .
74 ـ نفسه ، 1 ، 258 ، النعمان : افتتاح الدعوة ورقة 201 (275 ط . بيروت) .
75 ـ نفسه 1 ، 263 .
76 ـ نفسه ، 1 ، 266 ، 279 ، الباروني ، الازهار 297 .

معه ضد ولاة الفاطميين ، غير أن الذي حصل هو أن الوالي أظهر عجزا في تأدية مهمته ولم يقم بأي نشاط ايجابي ضد زناتة وابن خزر الذي لاحظناه اثر انتصاره الاخير على مصالة يدعم مركزه ويوسع دائرة نشاطه ويكتل انصاره ويضغط بشدة على مدينة تاهرت أثناء ولاية يصل .

وقد عزم ابن خزر على اقتحام تاهرت بالقوة في بداية سنة 314 هـ 926 ـ 927 م ، واخراج يصل منها مع حاميات الدولة الفاطمية بيد أن مقاومة السكان الموالين للدولة أو المعارضين لحكم مغراوة وانتشار الاخبار عن قرب وصول الحملة الفاطمية التي وجهها المهدي بقيادة موسى بن محمد الكتامي نجدة لوالي تاهرت هما اللذان صرفاه عن الاستمرار في حصارها وفضل الانسحاب الى مجالاته القديمة في اقليم الزاب والصحراء ، التي أدركها في نفس الوقت الذي وصلت فيه حملة موسى بن محمد الى مشارف طبنة ولأن هؤلاء لم ينتبهوا لوجود رجال ابن خزر بمعية اخيه عبد الله بن خزر في وادي مطماطة بالمنطقة لحقت بهم هزيمة مفاجئة وقتل اكثرهم ومات قائدهم أيضا ولم يصل منهم الى تاهرت فيما يبدو الا عدد ضئيل ، ومن ثم اقتضى الأمر بذل مجهود جديد لتدعيم مركز والي تاهرت المستضعف أمام تحرشات ابن خزر واخوته ، عبد الله ومعبد ، وقلفل ، ومن بين هؤلاء الاخوة أصبح عبد الله بمثابة نائب عن اخيه محمد في مجالات لماية وأحلافها الذين ارتضوه واليا عليهم (77) بعد انضمامهم الى مغراوة للعمل ضد النفوذ الفاطمي في الزاب وفي تاهرت .

وهكذا ارسل المهدي ، حملة جديدة عهد بقيادتها الى كتامي آخر هو اسحاق بن خليفة لمحو اثر هزيمة وادي مطماطة ثم لتأديب لماية وأحلافها على ثورتها ضد النظام الفاطمي (78) .

غير أن مجهود ابن خليفة لم يثمر بسبب مقاومة هذه القبائل التي غذاها ودعمها تأييد قبيلة مغراوة ثم اشراف عبد الله بن خزر على سير المعركة (79) .

ويبدو أن سيطرة محمد بن خزر على الوضع السياسي في الزاب وتاهرت وغيرهما من أراضي المغرب الاوسط وهزائم قادة كتامة المتوالية وعجز ولاة تاهرت عن القيام بعمل حاسم ضده ، ثم جو العداء للحكم الفاطمي الذي انتشر بين قبائل زناتة وهوارة ولماية ومطغرة وبني برزال ومكلاتة في المغرب الاوسط بسبب انتصارات ابن خزر وضغوطه هي التي دفعت المهدي الى

---

77 ـ ابن عذاري : المصدر السابق ، 1 ، 269 .

78 ـ نفسه .

79 ـ ابن عذاري : البيان 1 ، 269 ، النعمان : افتتاح الدعوة ورقة 201 (276 ط . بيروت) العزيزي الجوذري ، سيرة جوذر 39 ، تعليق 21 .

بذل جهد ضخم ، اشرف عليه ابنه وولي عهده ابو القاسم ، منذ 9 صفر سنة 315 هـ (80) أبريل 927 م .

وقد مرت الحملة بقواعد الأربس وباغاية وتوغلت في مضارب كتامة ثم بني برزال ومكلاتة الذين قاوموا الحملة فهزموا ثم مضارب مطغرة ، وفي سوق ابراهيم في حوض الشلف ، أقام أبو القاسم نحو شهر لصعوبة السير بسبب رداءة الجو وكثرة الأمطار والوحل وشدة البرد . وقد عانى من ذلك مصاعب جمة وكان معرضا للامراض بسبب «كثرة الذباب في العسكر» وقلة التغذية (81) . وبعد أن أمن هوارة ولماية الذين استجابوا للطاعة ولم يقاوموه تركهم الى تاهرت ومنها انطلق نحو حصن تامغلت (82) بقرب الصحراء وبعد ان اقام في المكان مدة شهرين في مواجهة محمد بن خزر الذي كان يعسكر برجاله في موضع عرف « أورن » (83) ترك حرب زناتة ورجع الى المهدية بسرعة عبر مدينة طبنة حيث لم تسفر حملته على تعديل ميزان القوى الذي بقي راجحا لصالح بن خزر الذي بقي مطلق الحرية في نشاطه في مجالات البتر وضد تاهرت والعناصر الموالية للفاطميين ، ومع ذلك فقد افادت في وضع أسس قاعدة شيعية جديدة في اقليم الزاب ، هي المحمدية « المسيلة » وكانت مهمتها مراقبة مضارب زناتة وفرع البتر ، وحماية النفوذ الفاطمي في منطقة الزاب حيث أضحى الاعتماد عليها بعد ذلك في اي مجهود حربي في المناطق المجاورة لها خاصة أثناء فتنة أبي يزيد ظاهرة ملحوظة (84) .

اما سر عودة أبي القاسم بسرعة الى المهدية دون اخضاع محمد بن خزر فيعود الى انه سمع اخبارا مقلقة ، سواء من طرف جوذر الذي تركه مستخلفا عنه في قصره ومستحفظا على حرمه وأهله (85) ، أو من طرف ابنه قاسم الذي أبلغه بما يشاع في المهدية حول النص على ولاية أخيه أبي علي أحمد بعد المهدي الذي قدمه لامامة المصلين في مناسبة عيدي الفطر

---

80 ـ نفسه ، النويري نهاية الأرب 26 ورقة 35 ـ 36 ، ابن حماد : المصدر السابق 12 وما بعدها .

81 ـ نفسه 1 ، 270 .

82 ـ وبين تامغلت واشير بني زيري ثلاثون ميلا اي في اطار ولاية تيتري الآن وكانت مدينة مبنية في سفح جبل وتقرب من الصحراء . انظر البكري : المصدر السابق 66 .

83 ـ لم نظفر بتحديد موقع حصن أورن الذي تقرب صيغته فيما يبدو من كلمة وهران .

84 ـ ابن الاثير : المصدر السابق 8 ، 179 ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 1 ، 72 ، وقد امر ابو القاسم ابن حمدون بتخزين الطعام في المحمدية كما قام بتهجير بني كملان منها .

85 ـ العزيزي : المصدر السابق 39 .

والاضحى (86) وغير مستبعد نظرا للوضع الخاص أن يكون المهدي قد مهد بذلك لتعين حجته من بين أبنائه الباقين خصوصا وان أخبار القائم قد انقطعت عنه منذ أن خرج سنة 315 هـ حتى ساءت « الظنون من جهته » وتوقع أن يكون قد حصل له شر . (87)

ويلاحظ أن التنافس فى بيت المهدي والخلاف فى صميم أسرته من بين أسبابه مشكلة الحكم وقد استمر ذلك فى عصر القائم والمنصور والمعز لدين الله ونلحظ صداه فيما سجل عن سيرة حياة رجل معاصر لهؤلاء الأئمة وهو الأستاذ جوذر الصقلبي (88) .

وهكذا بقي محمد بن خزر على طغيانه ووالي تاهرت يصل بن حبوس على ضعف مركزه يترقب فى كل حين تحركات ابن خزر وضغطه على تاهرت حتى توفي (يصل) سنة 319 هـ / 932 م ، وعندئذ تصرف سكان المدينة بحرية وقدموا على الولاية عليا بن مصالة بن حبوس قبل أن يستطلعوا رأي المهدي، ولذلك رفض رغبتهم واعتبرهم عصاة وأرسل لتأديبهم حميدا بن يصل منذ شهر ذي الحجة 319 هـ ، الذي تمكن من ضبط شئون المدينة ومن الضرب على أيدي القادة الطموحين ، وأنهى أخبار توفيقه الى المهدي ، حيث قرئت السجلات على منابر افريقيــة فى جمــادي الآخــرة (89) 320 هـ / 932 ــ 933 م ، غير أن النصوص لم تشر الى نشاط خاص قام به حميد بن يصل ، ضد محمد بن خزر وفرع مغراوة الذين بقوا قوة يخشى خطرها على النفوذ الفاطمي فى تاهرت حتى ان الخسائر التي لحقت ابن خزر اثر اصطدامه مع موسى بن أبي العافية المكناسي لم تؤثر على قوته الحقيقية (90) ، لأن موسى لم ينسق مع والي تاهرت الفاطمي وذلك

---

86 ــ ابن عذاري : البيان 1 ، 272 ، انظر سيرة جوذر 41 ، عن شدة حساسية الناس لقضية النص حيث « قد تعلق كل واحد منهم بغير سبب يثبت من أولاد مولانا » .

87 ــ نفسه ، 1 ، 270 ومن هنا تأثر لورود كتابه فجاة يصور فيه ما لقيه من محن ومشقات حتى هم الحاضرون أن يشاركوه تأثره ، وبكاءه لولا انه بدد حيرتهم باعلانه عن حياة مولاهم وحجته من بعده أبي القاسم .

88 ــ العزيزي : المصدر السابق 41 ، 63 ، 64 ، 69 ، وقد وصفهم المنصور باولاد الأفاعي ونسبهم الى الشجرة الملعونة ، وكانوا يحقدون على جوذر لمكانته عند الائمة ولانه كان يستودع على سر النص على حجة الامام دون غيره من رجال الدولة . انظر تعليق 68 ــ 69 من سيرة جوذر .

89 ــ ابن عذاري : المصدر السابق 1،289 ، ومن بين من قتلهم حميد بن يصل : داوود بن مصالة ، وسنان وأبو حمليل .

90 ــ نفسه 1 ، 289 ــ 290 .

بسبب نواياه الانفصالية التي اعلنها اثر ذلك ، وأصبح مواليا للامويين منذ شهر شعبان 320 هـ ـ اغسطس 932 م . (91)

ويخيل الى الباحث أن الاميرين : الزناتي والمكناسي ، لو نسيا خلافاتهما العارضة بسبب وضع مدينة جراوة العلوية ونسقا جهودهما وأحكما صلاتهما مع الأمويين في الأندلس ومع أمراء نكور من بني سعيد بن صالح ثم مع أدارسة فاس ، وأمراء سجلماسة الصفرية لما كان للفاطميين تاريخ سياسي يذكر ، وخلفاء بعد وفاة عبيد الله المهدي سنة 322 هـ / 933 ـ 934 م .

وقد استمر وضع تاهرت مضطربا في عهد واليها الجديد أبي مالك بن يغمراسن بن أبي شحمة اللهيصي بسبب شغب سكانها وتقلب أهوائهم وميل جانب منهم الى محمد بن خزر ، ولذلك ثاروا ضده وضيقوا عليه حتى اخرجوه من المدينة 323 هـ / 934 ـ 935 م ، واختاروا من تلقاء أنفسهم واليا من مكناسة هو أبو القاسم الاحدب بن مصالة بن حبوس ، فلم يلبث غير سنة واحدة وقتل على يد ميسور الفتى أثناء رجوعه من حرب موسى بن أبي العافية ، لأن أبا القاسم تعاون مع عناصر الشغب في المدينة وقبل منهم الولاية دون تقليد من الخليفة وعمل على طرد والي المدينة الكتامي ، كما أنه قاوم دخول ميسور الفتى فكلفه جهدا مضاعفا وأساء الى الدولة الفاطمية في بداية عهد القائم بأمر الله ، عندما تغلب على تاهرت وفصلها عن السلطة الشرعية ، في وقت كانت فيه الحاجة ماسة الى تضافر جهود رجال الدولة وأنصارها لبعث الاستقرار في المنطقة ، وللوقوف ضـد حركات فرع مغراوة الزناتية .

ويبدو أن هدوءا نسبيا عرفته تاهرت ، في عهد واليها الجديد داوود بن ابراهيم العجيسي الذي استمر منذ 324 هـ / 935 ـ 936 م الى شهر جمادى الاخرة 333 هـ / يناير 944 م حيث لم تشر النصوص الى حركات عصيان ، أو زحوف زناتية ضده حتى تمكن حميد بن يصل من الفرار من سجنه في المهدية أثناء انشغال القائم بفتنة أبي يزيد اليفرني ، واعتصم بتاهرت وطرد واليها الشرعي وفصلها عن السلطة الفاطمية في المهدية . وكان غرضه هذه المرة أن ينسق جهوده مع بقية أبناء عصبيته بني أبي

91 ـ نفسه 1 ، 291 ، وكان ابن أبي العافية قد كاتب الناصر الأموي منذ 319 هـ يعلن ولاءه فقبل منه وشجعه على العمل ضد مراكز نفوذ العلويين والفاطميين . اما المهدي فقد ارسل لقتاله ابن عصبيته حميد ابن يصل فهزمه ورجع الى المهدية دون أن يجدد له العهد بالولاية باسم الفاطميين ، لذلك حنق عليه المهدي وسجنه وبقي في سجنه حتى فر الى الاندلس وانضم الى انصار الأمويين ومثل دورا هاما اثناء حركة الصراع بينهم وبين الفاطميين على مراكز النفوذ في شمال المغـرب الاقصى ، انظر السلاوي : الاستقصاء 1 ، 82 ، ابن خلدون ، العبر ، 4 ، 82 ، ابن عذاري 1،304،317 .

العافية المكناسيين الذين انشقوا عن الدولة الفاطمية ووالوا أعداءها الأمويين منذ فترة طويلة فيصفوا النفوذ الفاطمي من الجهة ويستخلصوها لأنفسهم فى اطار التبعية والولاء لقرطبة .

وشعور الخليفة الفاطمي بخطر مكناسة على وضع الدولة فى تاهرت هو الذي جعله يتحرك بسرعة ويتصرف على نحو يحفظ له حقوقه الشرعية فى منطقة المغرب الاوسط ، اذ تم طرد حميد بن يصل الذي التجأ الى الاندلس لآخر مرة (92) على يد ميسور الفتى الذي أصبح واليا جديدا على تاهرت وعلى الجزء الغربي من الدولة الفاطمية لفترة يسيرة تمكن أثناءها من ارجاع الامن والنظام الى المدينة . ويبدو أن سياسته القوية وحزمه مع عناصر الشغب والتآمر أساءا الى وضعه اذ أضمروا الخلاف عليه ودبروا لأسره وطرده من المدينة بالتعاون مع محمد بن خزر وابنه الخير ، اذ تشير بعض النصوص (93) الى اتفاق سكان المدينة مع ابن خزر على المجيء الى تاهرت ، والتظاهر بأنه انما قدم لنصرة ميسور الفتى ضد المعارضين له ، وعندما انطلت الحيلة على ميسور وخرج لاستقبال ابن خزر ورجاله فى ارباض المدينة الذين كانوا فى حشد عظيم قبضوا عليه وطردوه حيث رجع الى المهدية ليلقي مصيره أثناء فتنة أبي يزيد (94) ، واحتل ابن خزر تاهرت واستبد بأمارتها ، وفرض سلطان مغراوة الزناتية عليها وعلى ما جاورها حينا من الدهر ثم انقلبت الوضعية الداخلية فى غير صالحه وصالح أسرته بسبب معارضة عناصر الشيعة وقبائل المنطقة ،

---

92 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 279 ، الباروني : المرجع السابق 298 واتجاهات الثورة والعصيان عند حميد بن يصل ، كانت قديمة ورغبته فى الاستبداد بشؤون تاهرت كانت واضحة منذ 318 هـ . عندما فارق المهدية فجأة بدون اذن اليها وبنى بها قلعة وسورها واصهر الى احد رجالاتها واصلح بين عناصرها ، ولولا ان المهدي ارسل الى عامله فى المدينة يامره باخراجه من تاهرت الى المهدية ولا يؤخره ساعة لكان قد اعلن نيته فى هذا الوقت . انظر البيان 1 ، 376 .

93 ـ نفسه 1 ، 280 ، الباروني : المرجع السابق 298 . ومحمد بن خزر بن حفص بن صولات المغراوي أحد رجالات مغراوة مع أخوته : عبد الله وفلفل ، ومعبد ، ولذلك يوصف بأخي معبد . وقد انحدر عن محمد ابنه الخير ثم حفيده محمد . أما عبد الله فهو جد زيري بن عطية « القرطاس » مؤسس أعظم دولة زناتية فى المغرب الاقصى ، وهو معاصر الحاجب المنصور وباني مدينة وجدة 384 هـ وقد توفى 391 هـ والى فلفل ينتمي خزرون مؤسس الدولة فى سجلماسة . ثم الفروع التي امتد نفوذها الى طرابلس ايضا . أما معبد الذي توفي منذ وقت مبكر فلم يعرف له عقب . ويلاحظ أن هناك فى الأسرة من عرف بمحمد بن خزر وعاصر امتداد نفوذ ادريس الثاني الى تلمسان . انظر السلاوي ، الاستقصاء 1 ، 189ـ190 . ط الدار البيضاء .

94 ـ ابن عذاري : البيان 1،309 . المقريزي : اتعاظ 1،77 ، ابن خلدون : العبر 4،86 ، ابن الأثير : الكامل 8،151 ، العزيزي الجوذري ، سيرة جوذر 180ـ181 تعليق 103 .

مثل هوارة ولماية الاباضية وفرع بن يفرن المنافسين لفرع مغراوة ، وفى غمرة اضطراب الاوضاع بسبب الصراع القبلي بين بني يفرن ومغراوة ، تمكن يعلى بن محمد اليفرني من الاستيلاء على تاهرت ، وفرض سيادة بني يفرن عليها من قاعدتهم الحصينة فى أفكان ، وهو الوضع الذي استمر حتى خروج جوهر الصقلي الى ارض المغرب سنة 347 هـ / 958 – 959 م على راس حملة كبرى لارجاع الامن والنظام فى تاهرت، وفاس وسجلماسة، وقد تمكن جوهر من اخضاع يعلى وقتله وأسر ابنه الذي عرف بيدو ، واخذ ذخائره وهدم مدينة أفكان وأحرقها بسبب ميل يعلى الى المقاومة وقتال جند الفاطميين بدافع الولاء للامويين . (95)

وكان هذا التوفيق ضد فرع بني يفرن وأميرهم يعلى ذا أثر حسن على الوضعية فى تاهرت التي رجعت الى اطار النفوذ الفاطمي وأصبحت بعد انتهاء هذه الحملة فى عهدة زيري بن مناد الصنهاجي فوليها جزاء له عما بذله من جهد فى محاربة زناتة وثوار المغرب الاقصى (96) . ومن يومئذ تحمل بنو زيري مشقة كبرى فى مراقبة حركات زناتة البترية وحركات مكناسة الموالين للامويين فى الاندلس .

وفى الوقت الذي اصيب فيه فرع بني يفرن بهذه النكبة زال خطر بني خزر المغراويين على تاهرت مؤقتا بسبب توفيق المعز لدين الله فى سياسته مع محمد بن خزر وسائر الثوار فى منطقة الزاب وقلعة أوراس (97) ، حيث منحه الامان واحتفى به عند ما قدم المهدية ، وبقي فى القيروان حتى توفي سنة 348 هـ / 959 – 960 م ، وكان قد توفي أخوه معبد قبله (98) ،

---

95 – نفسه 1، 280 ، بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة 6 ، ورقة 191 . المقريزي : اتعاظ 1 ، 94 ، ابن الأثير : الكامل 8 ، 524 (ط . بيروت) ، ابن خلدون 6 ، 314 ، و ج 4، 97 ط . بيروت ، السلاوي : الاستقصاء 1، 180 ط 1954 ، الدار البيضاء حيث يشير الى ولاية يعلى على طنجة نيابة عن الناصر الأموي ، ابن أبي زرع روض القرطاس 61–62 .

96 – بيبرس الدوادار : المصدر السابق 6 ، 192 ، ابو الفداء : المصدر السابق 2 ، 107 ويشير الى ان زيري بن مناد كان شريكا لجوهر فى « الامرة » ، ابن خلدون : العبر ، 4، 97 ، ابن الأثير : الكامل 8 ، 189 ، ابن الوردي تتمة المختصر 286 ، 287 ،

97 – المقريزي : اتعاظ 1 ، 93 ، ابن الأثير ، الكامل ، 8 ، 498 وما بعدها ، العزيزي، سيرة جوذر ، 108 – 109 بيبرس الدوادار : المصدر السابق 6 ورقة 195 .

98 – ابن خلدون العبر 4، 95–96 ، بيبرس الدوادار : المصدر السابق 6 – 195 Lévi Provencal op, cit T 3, p. 110. ويشير الى وفاته فى سنة 350 هـ ، وهو غير ابي خزر الذي ثار فى افريقية سنة 358 هـ واستامن الى المعز فى جمادي الاخرة 359 هـ ، لان هذا الاخير كان نكاريا اباضيا بخلاف محمد بن خزر فكان سنيا مواليا للامويين فى اغلب الفترات . انظر عن ثورة ابي خزر ، ابن الأثير : الكامل 8 ، 215 ، سيرة جوذر 108 ، 109 تعليق 119 ، بيبرس الدوادار 6، 208 واخباره مع المعز لدين الله الذي صحبه معه الى مصر حيث اتهم عليه بضياع ودار توجد بتفصيل فى (الشماخي) السير 346–356 .

فآل الامر الى ابنه الخير ثم حفيده محمد بن الخير اللذين استمرا على سياسة موالاة الامويين (99) وعداء الفاطميين ، والخير بن محمد بن خزر هو الذي عاد الى النشاط ضد تاهرت وخربها فى احدى حملاته ضدها . ومحمد بن الخير (100) هو الذي أقلق بال المعز لدين الله قبيل رحيله الى مصر لأنه كره أن يتركه ثائرا ضد النفوذ الفاطمي ولذلك جند جميع الوسائل للقضاء عليه . وتشير بعض النصوص الى تكليف المعز لدين الله لبلكين باقتفاء أثره ، وان الاخير عرف مكان محمد بن الخير ففاجأه فى سرية تامة وهو يشرب مع رجاله فلما شعر به وواجهه ، ولم يكن مستعدا للحرب، وكره أن يلقى مصيره على يد صنيعة من صنائع أعدائه الفاطميين ، قتل نفسه بسيفه وترك انصاره للقتل والأسر .

وكانت هذه الحادثة التي وقعت قبيل رحيل المعز لدين الله الى مصر ذات أصداء حسنة فى نفسه فسر بها وجلس لتقبل التهاني مدة ثلاثة أيـام (101) ، كما كانت نكبة حلت بفرع مغراوة ، وبأسرة محمد بن خزر حيث تضاءل دورهم فى الفترة التالية بينما نشط أبناء عمومتهم خزرون ، وزيري بن عطية القرطاس ضد مراكز النفوذ الفاطمي فى سجلماسة والمغرب الاقصى وتاهرت . وهم الذين تصدوا للصراع مع الامراء الزيريين بعد رحيل المعز لدين الله الى مصر وأنزلوا بهم وبصنهاجة هزائم منكرة نكاية فيهم بسبب معارضتهم للامويين وولائهم للفاطميين (102) لأن فرع بني يفرن ضعفوا وذلوا بعد موت يدو بن يعلى 383 هـ / 993 ــ 994 م أثناء صراعه مع زيري بن عطية المغراوي الذي غالى فى ولائه للحاجب المنصور (103) .

99 ــ السلاوي : المرجع السابق 1، 83 .

100 ــ ابن عذاري : البيان 1 ، 281 ، وعن ولاية محمد بن خزر على فاس من قبل الناصر الاموي قبل سنة 344 هـ ، انظر السلاوي 1، 197 ط 1954 ، المقريزي ، اتعاظ 1 ، 128 حيث يذكر خبر وفاته وورود راسه مع كتاب من طرف المعز الى قائده جوهر فى مصر شعبان 360 هـ .
LEVI PROVENCAL, op. cit., T. 2 p. 186-187.

101 ــ بيبرس الدوادار : المصدر السابق 6 ، ورقة 117 ، ويرد اسمه هنا « محمد بن الحسين » ، المقريزي ، المقفي الكبير 1 ، ورقة 243 ، ابن خلدون : العبر ، 6 ، 314–315 ، ابن الاثير : الكامل 8 ، 221 .

102 ــ ابن عذاري : البيان 1 ، 329 ، 341 ، 357 ، 359 ، ابن خلدون : العبر ، 4 ، 179 ، ويلاحظ ان دولة زيري بن عطية كانت عظيمة لانها تضمنت المغرب الاقصى وجزءا هاما من المغرب الأوسط امتد حتى تاهرت وقد ورث مجده ، ابنه المعز منذ 391 هـ فلما توفي خلفه ابنه حمامة حتى سنة 433 هـ ، فلما توفي آل الامر الى ابنه دوناس الذي نازعه بنو عمه فضعفت الدولة وانهارت تحت ضربات المرابطين وفر معتصر المغراوي امام يوسف بن تاشفين ، انظر السلاوي 1، 192– 205 . ط 1954 .

103 ــ السلاوي : المرجع السابق 1 ، 194 ــ 195 ، ويلاحظ هنا ان النزاع بين زيري بن عطية بن عبدالله المغراوي ، ويدو بن يعلى اليفرني كان امتدادا للنزاع التقليدي بين فرعي مغراوة وبني يفرن .

ونجاح بلكين فى القضاء على ابن خزر قربه من نفس المعز لدين الله الذي اقتنع بأهمية دوره فى بلاد المغرب ، ومن ثم رشحه نهائيا للنيابة عنه بعد رحيله لانه اطمأن على بقاء المغرب فى اطار السيادة الفاطمية بسبب انشغال صنهاجة بمواجهة زناتة، وهذه سوف تهب على بكرة ابيها للاخذ بثأر قتلاها وبتآلف البرانس مع الزيريين كما يتآلف البتر بدافع العصبية مع زناتة ، ويرجع العداء التقيدي بين الفرعين شديدا كما كان وتنتشر الحروب التي تعوق جهود هؤلاء وأولئك فى اظهار الاستقلال عن النفوذ الخارجي وفى تحقيق نوع من الوحدة الاقليمية (104) كما أن ترحيل أغلب عناصر كتامة الى مصر وعزل الباقين منهم عن السلطة والاشراف على شؤون المغرب كانا مقصودين ليستمر تحفظ كتامة وعداؤهم لنظام الزيريين ، لأنهم لم يرتاحوا لاختيار بلكين وصنهاجة للنيابة بدلا من شخصية كتامية مع أن كتامة اقدم عهدا بالولاء للحركة الاسماعيلية ، ولنظام الفاطميين (105) ، عكس الزيريين الذين بدأ دورهم الايجابي فى حياة الدولة الفاطمية منذ عصر فتنة أبى يزيد (106) .

ويلاحظ أن الخطة التي رسمها المعز لدين الله هي التي نجحت فعلا ، اذ أن ثورات كتامة لم تنقطع وتمنعهم عن السلطة الزيرية كان واضحا بتنكيل الزيريين بهم كان منقطع النظير ، كما أن فرع بني يفرن اتهموا زيري بن مناد بالتحريض على قتل يعلى بن محمد زعيمهم ، وكان قتل محمد ابن الخير المغراوي بحركة بارعة تزعمها ابنه أبو الفتوح يوسف بلكين ، ومن ثم فقد تآلف الفرعان مغراوة وبنو يفرن فى المرحلة التالية للاخذ بالثأر من الزيريين وصنهاجة والاستعانة على تحطيم نفوذهم وهيبتهم باظهار الولاء والدعوة للامويين . وقد أدركوا من ذلك شيئا كثيرا ، كما قتلوا زيري بن مناد 360 هـ / 970 — 971 م واحتزوا راسه وأرسلوه الى الحكم المستنصر الأموي ، مع وفد يتزعمهم يحي بن علي بن حمدون الأندلسي (107) الذي غدا اخوه جعفر ثائرا ضد الفاطميين بسبب دسائس خصمه العنيد زيري بن مناد الصنهاجي ثم ابنه بلكين (108) ، الذي ثار بدوره لقتل أبيه من زناتة .

---

104 — ابن خلدون : العبر ، 6 ، 314 ، ابن الأثير : الكامل 8، 221 .

105 — نفسه ، 6، 316 ، ونص ما قاله « استبلغ السلطان فى تكريمه (بلكين) ونفس ذلك عليه كتامة » .

106 — المقريزي ، اتعاظ ، 1، 78 ، أبو الفداء : المصدر السابق 2، 97—98 ، بيبرس الدوادار : المصدر السابق 6 ، ورقة 150 .

107 — ابن خلدون : العبر ، 6 ، 315 .

واصبح مسئولا على تاهرت ، وأشير ، واقليم الزاب . أما بعد رحيل المعز لدين الله فقد أصبح سيدا أوحد فى أرض افريقية والمغرب يمتد نفوذه من هوامش اقليم طرابلس حتى مشارف طنجة ، بيد أنه كان نفوذا صوريا فى أرض المغرب الأقصى ، وفى مجالات زناتة التي بقيت رغم جهود الزيريين نهبا مقسما بين فرعي بني يفرن ومغراوة فى اطار الحلف والتبعية للاندلس الأموية حتى ظهور حركة المرابطين (109) .

* * *

وهكذا يلاحظ ان دور كتامة فى حركة التوسع الفاطمي فى تاهرت وفى مجالات زناتة أسفرت عن عدة نتائج فى مقدمتها :

ــ سقوط نظام الامامة الرستمية وصيرورة الاباضية جماعات طائفية مشردة ، تكتم غيظا وتتحين فرصة .

ــ وقد ظهرت حركة معارضة داخلية لوجود كتامة فى تاهرت ، كانت تغذيها المجموعات المذهبية غير الشيعية .

ــ وقد لعب فرع مغراوة وأسرة محمد بن خزر دورا كبيرا فى اضعاف النفوذ الفاطمي وفى تغذية حركات العداء والانتفاض ضد ولاة الفاطميين فى المدينة ، فكان بحق عقبة كأداء فى سبيل الأمن والاستقرار .

ــ واصراره على العداء هو الذي جعل تحطيم نفوذه وتتبع أفراد أسرته وسائر فرع مغراوة هدفا مباشرا للسياسة الفاطمية فى الجزء الغربي من الدولـــة .

ــ وكان الصراع حول تاهرت وأرباضها يكتسي طابعا سياسيا ومذهبيا ، فضلا عن الطابع القبلي ، اذ أن البتر وبدو زناتة ، كرهوا الحاميات الكتامية وولاة الفاطميين من كتامة ، وعجيسة وصنهاجة لأنهم تصوروا أن هدف السياسة الفاطمية هو اذلال البتر بواسطة أعدائهم البرانس ، وهو التصور الذي أعطى للمقاومة طابعا حادا .

---

108 ــ العزيزي الجوذري ، سيرة جوذر ، 100-101 ، تعليق 82 ، وقد حاول المعز لدين الله أن يزيل أثر الخلاف بين جعفر وابي الفتوح اثناء جلسة سرية لكنه لم ينجح وسمع من كلامهما ما أثر فى نفسه وسجله فى توقيع ارسله الى جوذر . وقد تاثر جعفر للانصراف عنه فى نيابة المغرب وخشي أن يكون تقديم خصمه تمهيدا للقضاء عليه ، لذلك ترك ولايته فى المحمدية الى مضارب زناتة . أنظر ابن خلكان : المصدر السابق 1،113 ابن خلدون : العبر 4،176 ــ 177 ، المقريزي : اتعاظ 1 ، 99 .

109 ــ ابن خلدون : العبر ، 6 ، 32 .

ـ وتجربة الحكم الفاطمي في تاهرت ، كانت فاشلة ، لأنها لم توجد الاستقرار ولم تعبر عن نفسها في غير الحروب ، والفتن ، والثورات المستمرة ، وقد ظهر اثناءها عجز جهاز الدولة عن مواجهة حركات المعارضين لضعف ولاتها وقلة خبرتهم أمام الأحداث الكبرى .

ويبدو أن الخلفاء الفاطميين وولاتهم في تاهرت لم يفهموا وضع البلاد وطبيعة سكانها،الذين يختلفون عنهم فيالمذهب وفيأسلوب الحياة الاجتماعية، لذلك لم يعالجوا أوضاعها المضطربة بغير القوة القاهرة التي كانت توضع احيانا تحت تصرف من ليس كفؤا لاستخدامها في مواطنها ، ومن ثم كانت الهزائم المتوالية وحركات الفرار أو الانفصال . وما حاول أن يقوم به القائم (110) بأمر الله ، ثم ميسور الفتى ، وزيري بن مناد ، بقي دون جدوى بسبب ألف السكان لحركات الثورة والعصيان .

ـ وعدم استقرار الأوضاع في تاهرت قاعدة الجناح الغربي من الدولة الفاطمية ، وقلب بلاد البتر وزناتة ، انعكست آثاره ، في ظهور قوة الأمويين كعنصر يوجه الأحداث ضد الفاطميين ، ثم في انتشار تيار الثورة والعصيان في بعض مراكز نفوذهم القديمة ، وفي مقدمتها ولاية سجلماسة (111) التي غدت منذ أنتوجه الداعياليها لتحرير عبيدالله المهدي، منطقة نفوذفاطمية.

* * *

ـ وقد كان يظن أن تصفية امارة بني مدرار الصفرية بقتل اليسع ، وتعيين ابراهيم بن غالب المزاتي (112) واليا على المدينة تسنده حامية كتامية كبيرة (113) ، اجراءات كافية لاقرار السيادة الفاطمية على سجلماسة ، وقبيلة مكناسة الصفرية ، غير نأ ما جرى في المنطقة بعد نحو خمسين (114) يوما من رحيل المهدي عنها ، متجها الى افريقية ، قضى على كل أمل في المحافظة على المنطقة في اطار النفوذ الفاطمي .

---

110 ـ ابن عذاري : البيان 1 ، 274 ، حيث يلاحظ تغلب محمد بن خزر على المنطقة كلها اثر انسحاب القائم الى المهدية .

111 ـ وعن وصف سجلماسة ، انظر البكري : المصدر السابق 148 وما بعدها ، ابن خرداذبة : المصدر السابق 86 ـ 87 ، الادريسي : المصدر السابق 4 ، البغدادي ، مراصد الاطلاع 2 ، 694 ، القزويني : آثار البلاد 18و19،24ـ26 ، الاصطخري : المصدر السابق 39 ، ويلاحظ انها من حد تاهرت لكنها منقطعة عنها وقريبة من منابع التبر وان تبعيتها في عصره كانت للمهدي الفاطمي ، شعيرة المرابطون 20 ، 57 .
E.I. (Art Sidjilmasa) T 4, p. 419-421.

112 ـ ابن خلدون : العبر 6،296 ، الباروني ، الأزهار 95 وينسبانه لكتامة بينما هو من قبيلة مزاتة حليفتها ، ابن عذاري : البيان 1 ، 212 ، 213 .

113 ـ وقد اضطرب راي بن عذاري حول عدد الحامية فمرة قال انها خمسمائة فارس ومرة اخرى ذكر انها بلغت الفي فارس من كتامة . انظر 1،212،213 .

114 ـ ابن عذاري : البيان 1،212ـ217 ، 293 ، البكري : المصدر السابق ، 150 ، النعمان ، افتتاح الدعوة ، ورقة 180 .

ويظهر أن الفراغ السياسي الذي خلفه سفر المهدي ، وقصور الوالي الجديد وشغب الحامية وقلتها وسط محيط معاد ، هي التي شجعت عناصر السلطة القديمة على العودة الى المقاومة والنشاط من جديد لاحياء مجد الأسرة المدرارية وتقديم من بقي منهم على الامارة الجديدة . وهؤلاء قد تركوا فى المدينة ، على اساس انهم لا يمثلون خطرا على النفوذ الفاطمي ، وعندما واتتهم الفرصة لاعلان الثورة ضد مظاهر السلطة الجديدة فى 3 ربيع الاول 297 هـ / نوفمبر 909 م ــ قتلوا عامل المهدي ، ونكلوا بعناصر كتامة وبسائر المتشيعين ، ورشحوا للامارة الصفرية ، الفتح بن ميمون بن مدرار ، الملقب بـ « واسول » (115) الذي استمر يشرف على الامارة حتى توفي فى رجب 300 هـ / فبراير 912 م فوليها أخوه أحمد بن ميمون برضا صفرية مكناسة واستمر حتى قتل فى محرم سنة 309 هـ / مايو 921 م على يد قائد المهدي وواليه على تاهرت مصالة بن حبوس المكناسي (116) وهو الذي ارسل لتأديب سجلماسة وللثأر من سكانها لقتلهم والي المهدي وحامية كتامة وتم ذلك فيغمرة انشغاله بالمشاكل الداخلية والخارجية سواء فى افريقية أو فى تاهرت .

ولم يشأ مصالة بن حبوس بعد أن اقتحم المدينة عنوة ، وحطم عناصر المقاومة الداخلية وقتل احمد بن ميمون وأطلق الحرية لجند كتامة فى السلب والنهب ، والثأر لقتلاهم ، أن يصفي نظام الامارة ويحول الحكم الى غير بني مدرار لقوة عصبيتهم فيما يبدو ، لذلك عين على سجلماسة من نفس الاسرة المعتز بن محمد بن سارو بن مدرار (117) ، ورغم أنه مال الى الاستبداد بالسكان وتعسف ضدهم وتمسك بطاعة المهدي، وقبل أن يكون صنيعة له فى سجلماسة الصفرية ، فقد استمر حكمه لفترة طويلة ، فلما توفي سنة 321 هـ / 933 ــ 934 م ، خلفه فى الحكم ابنه محمد وبعد وفاته أيضا سنة 331 هـ / 942 ــ 943 م ، أصبح عمه الصغير ابو المنتصر سمغون بن المعتز بن محمد ، أميرا ، تدبر شئونه جدته ، وهذا التطور ، يضاف اليه صغر سن الامير ، هما اللذان أثارا ابن عمه محمد بن الفتح بن

---

115 ــ نفسه ، 1،214 ، ابن خلدون : العبر ،269ــ270 ، البكري ، 150 ، الباروني ، الازهار 95 ، وفيه كما فى ابن خلدون والبكري ، ان قتل الوالي كان سنة 298 وينفرد بان الامير الجديد هو ابن الرستمية وليس اخاه المعروف بابن بقية . ومعنى ذلك ان الانتقام لقتل الرستميين حصل بسرعة وعلى يد احد اقربائهم من جهة اروى بنت عبد الرحمن بن رستم .

116 ــ ابن عذاري ، 1،293 ، ابن خلدون : العبر ، 6 ، 270 ، البكري : المصدر السابق ، 150 .

117 ــ نفسه ، 1،259ــ260 ، 293 ، البكري : المصدر السابق 151 ، الباروني : الازهار، 96 ، ابن خلدون : العبر ، 6 ، 270 ، زمباور ، معجم الانساب ، 1 ، 102 .

ميمون الامير ، فحاربه حتى تغلب على انصاره ، واخرجه من سجلماسة واستبد بشؤونها (118) ، برضا السكان ، لأن النصوص لا تشير الى نشوب حركات ثورة أو عصيان ضده ، مثلما لم تشر الى ردود فعل من طرف الفاطميين وانصارهم فى المدينة أو ولاتهم على تاهرت قبل عصر المعز لدين الله. وأسباب ذلك ، انشغال القائم ، والمنصور بأحداث فتنة أبى يزيد ، واضطراب أوضاع تاهرت بسبب معارضة مغراوة وبني يفرن ، ثم أوضاع المغرب الاقصى بسبب ثورة موسى بن أبي العافية واعلانه الولاء للامويين ، وتتبعه للادارسة الذين انقسموا بين مشايعين للفاطميين وموالين للامويين ، الذين بلغ نشاطهم فى منطقة المغرب الاقصى والاوسط درجة قصوى ، بررت توجيه المعز لدين الله لحملة ضاربة 347 هـ /958 ـ 959 م بقيادة جوهر الصقلي ، وزيري بن مناد لارجاع النفوذ الفاطمي ولدعم انصاره .

وقد كان محمد بن الفتح ، فى مبدأ الامر وحتى سنة 342 هـ / 953 ـ 954 م ، لا يمثل اي خطر على النفوذ الفاطمي ، لأن ما قام به فى سجلماسة كان يدخل فى اطار اصلاح الاوضاع الداخلية للامارة ، لايجاد عنصر الاستقرار فى الحكم ، ولذلك تشير النصوص الى انه كان ملتزما لقواعد العدل ، وحسن السيرة مع السكان ، ويبدي الطاعة ظاهريا للعباسيين ، وحتى المذهب الصفري ، الذي هو خير تعبير عن شخصية سجلماسة وقبيلة مكناسة ، تركه ، ورجع الى المذهب السني ، فأصبح اشعريا فى العقائد ، مالكيا فى الفروع والأحكام .

أما فى سنة 342 هـ فقد تطورت اصلاحاته على نحو خطير ، اذ لقب نفسه الشاكر لله جريا على ما كانت تقتضيه رسوم الخلفاء العباسيين والفاطميين (119) والامويين اثر البيعة ، ثم انتحل لقب الخلافة وامرة المؤمنين ، فأصبح يعرف الشاكر لله امير المؤمنين وابى الا ان يخلد ذكرى هذا التطور الجديد ، على السكة ، التي ضربت فى سجلماسة فغدت تعرف « الشاكرية » (120) .

والذي شجعه فعلا هو استقرار أوضاع سجلماسة ، والتفاف السكان حوله ، وشعوره بالعظمة ، ورغبته فى جعل المدينة مركزا للامامة ارضاء

118 ـ نفسه 1، 291 ، 292 ، وقد ذكره بلقب الامين وجعل بداية حكمه سنة 321 هـ ، بعد شهرين من الوصاية على ابي المنتصر ، الذي ورد عنده بصيغة « ابو المنصور » ، البكري ، 151 ، الباروني ، الأزهار 96 ، ابن حزم ، نقط العروس ، 76 .

119 ـ عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ، 1، 72 وما بعدها .

120 ـ بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، 6 ، ورقة 191 ، البكري ، 151 ، ابن عذاري : البيان ، 1، 292 ، ابن خلدون : العبر ، 4، 270-271 ، الباروني ، الأزهار 96 ، ابن ابي زرع : روض القرطاس 62 ، ابن حزم : المصدر السابق والصفحة وفيه عن الشاكر قوله « آباؤه كلهم صفرية حاشاه هو وحده فانه أظهر السنة وخالف آباؤه فى المذهب ولم يكن خارجيا » . E.I. (Art Sidjilmasa) T 4, p. 419-421.

لعصبيته المكناسية . ولم يتخيل أن ذلك خروج عن العرف المالوف ، لأن الرستميين في تاهرت كانوا ينتحلون لقب الامام وهو يعني امرة المؤمنين عند الخوارج والشيعة ، وقد أنتحل اللقب وتجرأ على العباسيين كل من المهدي وعبد الرحمن الناصر الاموي ، واضحت كل من المهدية والزهراء عاصمة لخلافة اسلامية ، يدين لها بالولاء جمهور كبير من سكان النواحي وبقي الخوارج الصفرية والاباضية وحدهم بدون امامة تجمعهم ، ولا يوجد ما يمنع من صيرورة سجلماسة بعد سقوط تاهرت مركزا للامامة على نهج الخوارج .

وليس في تسمية السكة ، بالشاكرية ، شيء غريب ، لانها لا تحمل أكثر من معنى النسبة ، للذكرى ، وقد كان الداعي الشيعي ، قد سن هذه القاعدة غداة دخوله رقادة ، فضرب سكة سماها السيدية (121) .

ويبدو أن الشيء الذي أحنق المعز لدين الله ليس فقط رجوع ابن واسول الى السنة ، أو الدعوة باسم الخلفاء العباسيين التي تحمل معنى الثورة ضد الفاطميين ، وانما أيضا انتحاله للقب الخلافة لما فيه من التعبير العملي عن العصيان للنفوذ الفاطمي كما يدل على زيف الدعوة الى العباسيين أيضا وهل أدل على تمويه ابن واسول وخداعه من اطمئنان السكان اليه وعدم ثورتهم عليه وعدم أذعانهم لتوسلات جوهر القائد باخراجه عنهم حتى يجنبوا بلادهم شر الحرب ، انهم بدون شك يعلمون حقيقة مذهبه ، ولو كان في أمره ما يخالف عقيدتهم الصفرية أو يؤثر عليها لما تأخروا في التعبير عن معارضتهم مثلما لاحظنا ذلك من قبل عندما جرت محاولات لابعاد ميمون بن الرستمية ، خشية من تسلط الاباضية عليهم (122) .

وشعور المعز لدين الله بمصاعب حرب سجلماسة هو الذي جعله يحث جوهر على محاولة القضاء على انفصال ابن واسول سلما ، وبواسطة السكان انفسهم (123) ، وفي نفس الوقت مهد لسير الحملة العسكرية التي اشتملت على خيرة أنصاره من كتامة وصنهاجة (124) ، بحملة تشهير كبرى ، وجهها بنفسه بمساعدة قاضيه النعمان ، فوصف ابن واسول أثناء المجالس الخاصة باللعين والفاسق والدعي ، والكافر بالله كما صور في صورة من تحلل من

121 ـ ويلاحظ ان نفس الاعتبار جعل من جهة (المهدية) ومن السيلة (المحمدية) ومن صبرة (المنصورية) ومن القاهرة وطبرمين المعزية كما عرف الدينار بالمعزي ايضا .

122 ـ البكري : المصدر السابق 150 .

123 ـ النعمان : المجالس ، المسايرات ، 1 ، ورقات 294 ـ 297 .

124 ـ نفسه ، 1، 30ـ31 ، وقد حثهم على الترفق بمواليه ، والطاعة لجوهر بقوله : « اقمته مقام نفسي وجعلته معكم اذني وعيني » وقد اسهم محمد بن خزر أيضا بجهد واضح لانه اصبح مواليا للمعز لدين الله . انظر
L. Provençal, op. cit., t. 2, p. 109.

طاعة الائمة ، ومن الشرائع السماوية ، ونسب الى الشعوبية ضد العرب ، وضد نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم (125) .

كما حدد المعز لدين الله أغراض الحملة : وهي الجهاد لمن خالف ، وانتحل لقب الخلافة ، « وليست لدفع شر أو مكروه ، أو جلب مال » ، لأن الاموال كثيرة والامن متوفر (126) .

وعندما أصبح الامر واضحا أمام الجند الذين جهزوا ماديا وعبئت نفوسهم بالغضب على سكان سجلماسة وامامهم ابن واسول ، تمكنوا من احتلال المدينة والسيطرة على أرباضها ، أما ابن واسول ، فقد غادر المدينة بأهله وأمواله الى قلعة مجاورة تعرف بـ (تاسجدالت) (127) .

ومن هناك بقي يترصد حركات جوهر ومصير المدينة وحال سكانها بعد الذي حاق بهم حتى تمكن قوم من مطغرة من التعرف عليه وهو متنكر فاقتادوه مع أصحابه الى جوهر ، في شهر رجب 347 هـ / سبتمبر 958 م (128) حيث احتفظ به أسيرا .

وقد استغل سكان سجلماسة رحيل جوهر عنهم بعد أن ترك عاملا يمثل الخليفة المعز لدين الله وثاروا ضد الوالي وقتلوه ، وقدموا للولاية المنتصر بن محمد بن المعتز ، وأرسلوا الى المعز لدين الله يشرحون له حقيقة الوضع ، وان الوالي القديم أساء استعمال سلطته ، فتظاهر المعز لدين الله برفض ما اتفقوا عليه ، وما تعللوا به ، وصرفهم الى بلادهم وطلب أن يأتي الوالي الجديد مع أهل الحل والعقد في المدينة ، ليتعرف على مجريات الاحوال . ويلاحظ أن المعز لدين الله تصنع الغضب والجفوة في أول لقاء له مع وفد سجلماسة وواليها .

وبعد أن عنفهم على مواقفهم السابقة تجاه الدولة منذ عهد المهدي الذي ترفق بهم ، لارتباطه عاطفيا معهم بسبب اقامته بين أظهرهم ، وشدد النكير على مساندتهم لحركة ابن واسول ، التي تعني تدعيم الانفصال عن الجماعة الاسلامية طلب من المنتصر بن أحمد أن يجلس بجواره وقال للحاضرين :

---

125 ــ نفسه ، 2،399 ، وما بعدها ، وقد نقل عنه قوله عند الحديث على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم « هذه من حيل العرب » .

126 ــ نفسه 1 ، 28 ، 29 .

127 ــ وهي على مسافة اثنى عشر كلم من سجلماسة ، ابن عذاري 1،316 ، البكري 151 .
Dachraoui la captivité d'Ibn Wasul le rebelle de Sidjilmasa p. 295 sq cahiers de Tunisie T. 4, n° 15 1956.

128 ــ ابن عذاري : المصدر السابق 1،316 ، وفيه اشارة عن قتله في هذا الوقت ، البكري : المصدر 151 ، ابن خلدون : العبر ، 6 ، 271 ، النعمان ، المجالس والمسايرات 1 ، 294 وما بعدها ، ابن الأثير 8 ، 524 (ط . بيروت) بيبرس الدوادار : المصدر السابق 6 ورقة 191 .

« تستحقون اليم العقاب ، ولكن عفونا عنكم واستعملنا عبدنا هذا » فاظهر المنتصر وسائر المرافقين له آيات الخضوع والطاعة والولاء للخليفة بتقبيل الارض ، وأقاموا اثر ذلك في عز وكرامة وخلع عليهم المعز لدين الله ثم انصرفوا الى بلادهم صحبة واليهم الجديد (129) .

والطريف في حركة ابن واسول ، تلك المحاورات التي جرت بينه وبين المعز لدين الله ، والتي تشبه ما جرى من قبل ، بين موسى بن نصير والخليفة الاموي سليمان بن عبد الملك (130) ، بعد فتح الاندلس . ومن خلالها ظهر مدى آدراك المعز لدين الله لمجريات الاحوال ، ومدى معرفته لآراء سكان بلاد المغرب في الائمة ، وفي الحكم الفاطمي ، ولنوع التهم التي كانت تلفق لهم من بعض معارضيهم .

واهتم المعز لدين الله بمعرفة دوافع حركة ابن واسول وتجرئه على لقب الخلافة وكان رد ابن واسول ، غير صريح لأنه يرجو العفو ولكي يقنع المعز لدين الله ويرضي غروره ، عير نفسه بالجبن وبالجهل ، وأعترف بالخطأ ، وبأنه ادعى ما ليس من حقه . غير أنه لم يحرر جوابا على سؤال المعز لدين الله ، عن حقيقة الشبهة التي تنسب الى الائمة الفاطميين رغم انه شجعه بقوله « فاننا لا تأنف من سماعه، ولا ننكر عليك أن تقوله » (131).

وكي يدفعه ولو الى مجرد الايماء ايجابا ، ذكر امامه من ذلك « اعتقاد الناس أن الفاطميين ينكرون نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم ويدعونها بعده ويعطلون السنة والشريعة ويدعون لغيرها ويخصون بالعبادة رأسا يوحي اليهم وينثر من فيه الدنانير لهم » (132) .

وعندما رغب ابن واسول حضور صلاة الجمعة خلف الامام المعز لدين الله ليخفف من ظروف اعتقاله ويحل وثاقه ، أوضح له أن صلاته بغير النية والاعتقاد في أحقية الفاطميين للامامة ، غير مقبولة وأن ما حصل منه وكان سببا في تضحيات مادية جسيمة لا يدل الا على التطرف في العداء « ولو كنت تعتقد امامتنا ، لم تحل هذا المحل ولم تكن لنبخل عليك

129 ـ النعمان : المجالس والمسايرات 1 ، 300 ـ 303 .

130 ـ ابن قتيبة : المصدر السابق ، 3 ، 74 وما بعدها .

131 ـ النعمان : المصدر السابق 1،352 ـ 354 .

132 ـ نفسه ، 1،357 وما بعدها ، الشوكاني : قطر الولي ، 287 ، وما بعدها ، وفيه اشارة عن اساءة الرافضة للسنة عن طريق وضع الاحاديث التي توافق هواهم ، ويرفضون الاخذ بالأحاديث الصحيحة لانها تمدح الصحابة غير علي ، ومذهبهم الطعن عليهم حتى كانوا يسمونهم أهل النصب او الناصبية او النواصب ، وهم من يدينون ببغض علي ، ويوضح الشوكاني مدى تقدير واحترام أهل السنة لعلي بن ابي طالب .

بسجلماسة ولا لها عندنا في الوزن ولا للدنيا بما فيها وما كنا لنتكلف في ذلك ما كنا تكلفناه ، من تعب أوليائنا وأتعاب أنفسنا » (133) .

وقد تظاهر ابن واسول أمام الرسول بالاقتناع بما قاله المعز لدين الله ، رجاء في عفوه « والله ما هذا الا من كلام النبوة ، وهذا ابن رسول الله حقا ، وهذا من ميراث حكمته » ، وعندما تحايل للوصول الى غايته بسؤال المعز لدين الله عن طريق الرسول ، عما يحفظه من حكم ارسطاليس ، وقصده ما أشار به هذا الحكيم على الاسكندر من اصطناع العفو عند المقدرة، بالنسبة للامراء والملوك تنبه المعز لدين الله (134) الى حقيقة ما يرمي اليه ، لكنه أمسك عن ذلك ، وبالغ في تجريحه وتأنيبه وبعد أن استغله في التعرف على طبائع الاقاليم وميزات سجلماسة وسكانها بنوع خاص (135) شهر في المهدية ، على عجلة خاصة صنعت لهذا الغرض (136) ، أمام سمع وبصر وفد سجلماسة وأميرها الجديد ، الذين نقلوا بدون شك بعد رحيلهم صورة مما جرى له ، الى سكان المنطقة . فانقادوا وأطاعوا ، المنتصر بن محمد ، لفترة طويلة ، وفي غمرة الاضطراب السياسي بتأثير الدسائس الأموية ، ضد الفاطميين في بلاد المغرب ، ظهر من نسل الشاكر لله متغلب جديد انتحل لقب المنتصر بالله لكنه لم يلبث طويلا وقتله أخوه أبو محمد الملقب بالمعتز بالله 352 هـ / 963 ـ 964 م ، الذي استمر أميرا في سجلماسة حتى سنة366هـ/976ـ977معندما امتد نفوذ بني خزر المغراويين الىالجهة بدعم ومساندة الأمويين عن طريق خزرون بن فلفل (137) الذي قتل المعتز بالله واحتل سجلماسة وأقام الدعوة باسم الأمويين وصفى بقايا التشيع والخارجية في الاقليم ، لفائدة احياء السنة ، في اطار النفوذ الجديد وقد اعتبر المنصور عمله هاما فأرسل اليه تقليدا بالولاية من طرف الخليفة هشام المؤيد بن الحكم المستنصر بالله (138) ، ورغم جهود أبي الفتوح يوسف بلكين بن زيري أثناء حملته

---

133 ـ نفسه 1 ، 338 ، وما بعدها ، وقد سجن ابن واسول في سقيفة القصر في شهر رمضان وأحضر للصلاة وهو مشدود الوثائق وقد استجيب له لان عليا بن أبي طالب سبق له ان عامل المسجونين نفس المعاملة : أنظر ، المجالس والمسايرات 2 ، ورقة 399 وما بعدها .

134 ـ نفسه 1،340 ، وما بعدها .

135 ـ النعمان ، المجالس والمسايرات ،2ـ570ـ571 .

136 ـ نفسه ،1،364ـ365 ، ابن ابي زرع : روض القرطاس ، 63 ، ويلاحظ انه ابقي محبوسا في المهدية حتى مات .

137 ـ وخزرون «أي خزر الصغير» هو ابن اخي محمد بن خزر زعيم مغراوة المشهور .

138 ـ ابن خلدون : العبر ،6،271ـ273 ، ابن عذاري : البيان المغرب 1،329 ، ويلاحظ موت المعتز بالله في نهاية رمضان 367 هـ ، السلاوي ، الاستقصاء 1،90 ، بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة 6 ، ورقة 230 .

المشهورة ضد ثوار بلاد المغرب 368 هـ / 978 ـ 979 م وتوفيقه في ارجاع سجلماسة مؤقتا الى دائرة النفوذ الفاطمي ـ الزيري، فان سجلماسة بقيت في اطار نفوذ بني خزر ، حلفاء الامويين (139) وقد وليها بعد خزرون ابنه وانودين ، ثم حفيده مسعود ، الذي عاصر فتح المرابطين لسجلماسة 445 هـ / 1053 ـ 1054 م وراح ضحية اجماع فقهاء درعة وسجلماسة الدين استنجدوا بالمرابطين حيث قتل على يد عبد الله بن ياسين الجزولي الذي أجرى اصلاحات هامة في المدينة أعادت اليها اعتبارها كحاضرة اسلامية كبرى وقضت على بقايا نفوذ فرع مغراوة فيها (140) .

ويلاحظ أن سجلماسة لم تكن فقط عبئا على الخلافة الفاطمية ، بل أن فوائد الحاقها بها تجاوزت مجرد تحطيم معارضة الصفرية ومحو الكيان السياسي لبني مدرار الى المجالات الاقتصادية التي عادت بنفع كبير على الخلفاء الفاطميين .

وقد أسهمت سجلماسة في العصر الفاطمي في بعث حركة النشاط التجاري بين بلاد المغرب ومنطقة السودان الغربي حيث منابع التبر ومراكز الرقيق ، واضحت سوقا تجارية عالمية في دار الاسلام ومحطة صحراوية هامة في طريق القوافل ، ومعبرا لها عندما تتجه نحو السودان أو تنطلق منه الى بلاد المغرب (141) .

وقد درت الحركة التجارية على سجلماسة أرباحا وفيرة حتى بلغت رسوم العبور سنويا أربعمائة ألف دينار وهو مبلغ ضخم بالقياس الى بعد المنطقة وعزلتها في جوف الصحراء .

وكانت القوافل تنفذ من سجلماسة الى حوض السنغال ، عبر صحراء صنهاجة ، كما كانت هناك طرق أخرى عبر واحة وارقلان الى عنق نهر النيجر ، أو عبر واحة الجريد وغدامس الى قلب بلاد السودان (142) .

والحركة التجارية في هذه العصور كانت تساعد على توثيق العلاقات السياسية والثقافية ولم يتخل التجار المسلمون عن واجب التبشير بالاسلام وبمذاهبه بين أمم السودان الوثنية ، وقد قام رجال المذهب الخارجي ـ صفرية واباضية بالتمكين لأنفسهم في هذه المناطق المنعزلة .

---

139 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1، 330، 341 ، بيبرس الدوادار : المصدر السابق 6، ورقة 230 .

140 ـ البكري : المصدر السابق 167 ، السلاوي : المرجع السابق 1، 101ـ102 ، ابن أبي زرع : المصدر السابق 90ـ91 ط حجرية ، شعيرة ، المرابطون 57 ـ 58 .

141 ـ البكري : المصدر السابق 149 .

142 ـ شعيرة المرابطون : 16 وما بعدها ، وهنا يشير الى بقية طرق التجارة بين المغرب والسودان .

وبرز دور علماء سجلماسة ودرعة وواحة توات فى حركة نشر الاسلام والتبشير به ، وكان عملهم بمثابة مقدمة سهلت على المرابطين أن يقوموا بانجاح حركتهم السياسية الكبرى (143) .

وعندما غدت سجلماسة منطقة نفوذ فاطمية تحول الاشراف على الطرق التجارية مع السودان الى الخلافة الفاطمية وولاتها فى هذه الجهات .

وقد اثرى هؤلاء من ذهب السودان بواسطة التجارة وعن طريق تمثيل دور الوسيط وضمان الأمن والارشاد الى المسالك والدروب والرفق بالتجار ، ثم الاحسان الى مقامهم (144) .

ولا يستبعد أن يكون الفاطميون قد فكروا بعد استقرار الأمن ، فى مد نفوذهم السياسي والمذهبي وراء سجلماسة ، كما لا يستبعد انهم أرسلوا دعاة للمذهب ، مبشرين بالاسلام الى بعض مناطق السودان الغربي ، غير أن الحركة لم تثمر ولم يظهر لها اثر يذكر (145) بسبب عدم استقرار النفوذ الفاطمي فى سجلماسة ، وفى سائر المغرب الأقصى بسبب منافسة الامويين وغلبة ظاهرة الانفصال عليهم وشيوع الثورة ضدهم فى هذه البلاد .

ومع ذلك فاشرافهم على الحركة التجارية وعلى العلاقات بين المغرب والسودان ، كان خطوة هامة فى سبيل توطيد النفوذ الاسلامي فى المنطقة اثناء حكم الزيريين ، وقد أشيع عن علاقات مودة وصداقة بين أبي الفتح المنصور وبعض ملوك السودان ، أراد الاخيرون الابقاء عليها وتمتينها بهدايا جمة ونادرة أرسلت الى المنصور سنة 382 هـ / 992 — 993 م (146) ، وقد اشارت بعض النصوص الى أن نصير الدولة باديس بن المنصور خرج الى المصلى فى هيئة حسنة وبين يديه زرافتان ، وفيل ، وجمل أبيض ناصع البياض ، كان محل دهشة الناس واعجابهم لغرابته (147) .

---

143 — نفسه ، 24 وما بعدها .

144 — ارشيبالدلويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط 255 ، ترجمة احمد عيسى ، القاهرة 1951 .

145 — شعيرة : المرجع السابق 26 ويشير الى ان البجليين فى تارودات ، هم ثمرة للدعوة الشيعية ويمثلون النزعة المذهبية الفاطمية ، وقد بقوا حتى قضي عليهم عبد الله بن ياسين ، وعن هؤلاء ، انظر البكري 161 ، حيث يصفهم بالروافض ، لكنه ينسب حركتهم الى ادريس ابي القاسم بن محمد بن جعفر بن عبد الله بن ادريس ، ويرجع ظهورها حسب روايته الى ما قبل دخول الداعي بلاد افريقية وكتامة .

146 — ابن عذاري : البيان 1،353 .

147 — نفسه 1،357 .

ولئن بقي تأثير الاسلام ضعيفا في بلاد السودان حتى ظهور حركة المرابطين (148) ، فان بلاد المغرب استفادت كثيرا في الميدان الاقتصادي ، وقد ساعد ذهب السودان ، آخر الخلفاء الفاطميين في المغرب وهو المعز لدين الله على تجهيز أضخم حملة عرفها تاريخ الفتوح الاسلامية ، وهي التي وجهها لفتح مصر (149) .

لم يكن أسر ابن واسول والقضاء على حركته الانفصالية في سجلماسة ، سوى جزء من المهمة الكبرى التي انيطت بعهدة أبي الحسين جوهر الصقلي ، والتي انتهت آخر فصولها عند سبتة ، باقرار الأوضاع في المغرب الأقصى وبرد الاعتبار للخلافة الفاطمية عن طـريق تأديب الادارسة وصنائع الأمويين .

وقد كان توسع الفاطميين في ميدان المغرب قديما وقد تم على حساب اقربائهم الادارسة العلويين وفرع بني عمر الذين كان يمثلهم أظهرهم شخصية يحيى بن ادريس بن عمر الذي فرض سلطته في فاس اثر وفاة قريبه يحيى بن القاسم وابدى مقاومة شديدة للحملة الفاطمية التي قادها مصالة بن حبوس 305 هـ / 917 ـ 918 م ، يساعده ابن عصبيته موسى بن أبي العافية ، كما تمنع عن القائد الفاطمي وراء أسوار فاس بعد هزيمته في ميدان الحرب قرب مدينة مكناسة ، ولم يسلم له الا بعد صلح تم بينهما ، وبمقتضاه اعترف يحيى بالولاء والتبعية للمهدي ضمن كتاب أرسل الى المهدية . كما دعا له على منابر فاس ، ودفع أموالا تأكيدا لولائه ، وفي مقابل هذه التضحيات أبقي في مركز حكمه في فاس وأعمالها الى جانب موسى بن أبي العافية المكناسي، الذي عهد اليه بالاشراف عما سوى ذلك من أرض المغرب الاقصى ، وعلى هذه الصورة أصبح المغرب الاقصى منطقة نفوذ فاطمية ، واندمجت دولة الادارسة العلويين في اطار الخلافة الفاطمية واضحى آخر أمراء فاس ، عاملا من طرف المهدي أو حليفا له .

غير أن توزيع مسئولية الحكم بين عاملين ، أحدهما قديم العهد وأصيل ، وشرعي في نظر السكان لنسبه العلوي ، والآخر محدث النعمة ، كل مؤهلاته عصبيته المكناسية ، وتظاهره بالولاء للفاطميين كان نقطة ضعف بارزة في سياسة قائد الفاطميين ، لأنها ستؤدي الى الصراع ، وتحمل في

148 ـ عن حركة المرابطين ودور ابن ياسين بين قبائل اللثام . انظر : شعيرة : المرجع السابق 28 وما بعدها . البكري 164 وما بعدها ، حسن محمود ، قيام دولة المرابطين 100 وما بعدها ، السلاوي : الاستقصاء 2،1 وما بعدها .
E.I. (Art Ribat) T 3, p. 1230-31.

149 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 97،1 س 1 ، ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية 285 ، تعليق 164 . وقد لوحظ ان مبلغ ما صرف على الحملة كان اربعة وعشرين مليون دينار ذهبي .

طياتها بذور الخلاف من أجل السيطرة العليا . اذ لا أهمية للمغرب الاقصى بدون فاس وأعمالها كما أن عزلة هذه عن بقية مدن المغرب أمر غير طبيعي .

ومن ثم حرص كل أمير على الكيد للاخر ، تمهيدا لاستقلاله بالامر ، فكان ابن أبي العافية كلما هم بتصفية نفوذ يحيى بن عمر ، بادره الاخير باظهار مزاياه وفضله ونسبه ، فينصرف عن تنفيذ مخططه ونفسه تنطوي على قلق وغضب ، حتى كانت الفرصة المناسبة عندما قدم مصالة بن حبوس الى المنطقة سنة 307 هـ / 919 ـ 920 م الذي صدق ادعاءات قريبه ونكب يحيى واستصفى أمواله ونفاه الى أصيلا في منطقة الريف بجوار بني عمه الذين أرادوا مساعدته لاستعادة نفوذه في فاس ، لكنه رفض العودة وغادرهم الى افريقية التي لم يصلها الا بعد أن عانى من الاسر والسجن ، في الكاي ـ قاعدة موسى بن أبي العافية ، حوالي عشرين سنة ، وفي المهدية مات جائعا غريبا سنة 332 هـ / 943 ـ 944 م (150) .

أما فاس وأعمالها التي وليها بعد رحيل مصالة ريحان بن علي الكتامي ، ولم تؤل الى موسى بن أبي العافية الذي بقي مع ذلك على نفوذه الواسع في بلاد المغرب الأقصى فانها سرعان ما استعادها ، فرع بني القاسم الأدارسة الذين تزعم ثورتهم الحسن بن محمد بن القاسم المعروف بالحجام منذ سنة 310 هـ / 922 ـ 923 م . وهو الذي قتل ريحان ، وصفى النفوذ الفاطمي بمساعدة بربر الناحية الذين كانوا يعطفون على الادارسة ، وبهم نشر نفوذه في عدة مناطق أصبحت تدين له بالولاء ، ثم أعلن الحرب ضد موسى بن أبي العافية وهزمه في فحص الزاد قرب وادي المطاحن (بين فاس ، ورباط تازا) وقتل ابنه منهلا ، ثم انقلبت انتصاراته فجأة الى هزيمة ساحقة وتفرق عنه أنصاره ، وانسحب الى فاس حيث تمكن حامد بن حمدان اللوزي من القبض عليه وتقييده وانهاء الخبر الى موسى بن أبي العافية الذي بادر بالتوجه الى فاس للانتقام منه ، ثأرا لموت ولده ، غير أن امتناع حامد من تسليم الحجام حيث تركه ينجو بنفسه أساء الى وضعه والى علاقته بموسى بن أبي العافية ، الذي هم بقتل حامد ، لولا فراره الى المهدية وبقاؤه هناك الى أن رجع بمعية حميد بن يصل بن حبوس المكناسي ، لقتال موسى بن أبي العافية بعد أن خلع طاعة الفاطميين (151) .

---

150 ـ البكري : المصدر السابق 125 وما بعدها ويجعل مجيء موسى للمرة الثانية سنة 310 هـ ابن عذاري 1، 301 ، وما بعدها ، أنظر 257 منه ، وهنا يحدد مجيء موسى بسنة 309 هـ ، ابن خلدون : العبر 6، 274 ، السلاوي : الاستقصاء 1، 79 وما بعدها أبو الفداء المختصر في اخبار البشر 2، 74-75 ، حسن ابراهيم حسن ، عبيد الله المهدي 194 وما بعدها .

151 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1، 302 ، السلاوي ، الاستقصاء 1، 80 وما بعدها ابن خلدون : العبر ، 6، 274-275 ويجعل ثورة الحجام في بداية 313 هـ . البكري 126 ـ 127 .

وفى هذه المرحلة من توسع موسى بن أبي العافية بدأ مشروع تصفية عناصر العلويين فأجلى الأدارسة عن مدنهم وحصرهم فى قلعة حجر النسر ، ولما أراد اقتحامها للقضاء عليهم ، لامه رجاله على تطرفه فى العداء لآل البيت بقولهم : « أتريد ان تقطع دابر أهل البيت من المغرب وتخليه منهم ، هذا شيء لا نوافقك عليه ، ولا نتركك له » فاكتفى بمراقبة تحركاتهم فى الحصن بواسطة قوة أسند قيادتها لأبي الفتح التسولي المكناسي (152) ، وبعد أن ترك ابنه مدينا نائبا عنه فى فاس ، حول وجهته الى تكور ومراكز العلويين فى جراوة ، وتلمسان وأرشقول ، فأدرك مجدا كبيرا ولم يعد الى فاس ، الا بعد أن أصبح جزء هام من المغرب الأوسط تابعا لنفوذه ويشمل ما بين تاهرت والسوس الأقصى (153) .

واختفاء مصالة بن حبوس ، واضطراب أوضاع الخلافة الفاطمية فى آخر عصر المهدي ، واتساع نفوذ موسى ورغبته فى الاستقلال بالتدبير وعصبيته البترية ، هي التي كانت وراء انفصاله عن الفاطميين وارتباطه ظاهريا بالولاء لأعدائهم الأمويين .

وادراك المهدي لخطورة هذه الحركة على مصير الجزء الغربي من الدولة الفاطمية هو الذي أوحى اليه بالاسراع فى اخمادها والحد من عدواها ، بجهد مشترك بين كتامة ومكناسة تولى الاشراف عليه حميد بن يصل المكناسي ابن أخي مصالة الذي تمكن من هزيمة موسى بن أبي العافية بفحص ميسون فانسحب موسى الى تسول ، كما لحقه ابنه مدين ، وقائد الجيش الذي كلف بحصار الأدارسة بعد هزيمة على أيديهم . وهكذا سيطر ابن يصل على الوضع السياسي ، وعين حامدا بن حمدان اللوزي عاملا على فاس ، بينما أصبح خصمه ، وقائد حركة الثورة ضد المهدي ، محصورا فى مضارب مكناسة (154) .

غير أن هزيمة موسى لم تقض على قوته ولم تحد من نشاطه ضد النفوذ الفاطمي ، ومن ثم نلاحظ أن أحمد بن بكر بن عبد الرحمن بن سهل الجذامي الذي ثار فى فاس ، وقتل حامدا بن حمدان ، أرسل راسه الى موسى بن ابي العافية الذي وجهه بدوره الى الاندلس الاموية .

---

152 ـ البكري ، 127 ، ابن عذاري 1، 304 ، ابن خلدون 6، 275 .

153 ـ ابن عذاري 1، 274 ، ابن خلدون 6، 276 ، السلاوي ، 1، 81 .

154 ـ ابن عذار 1، 304 ، ابن خلدون : العبر 6، 276 ، السلاوي ، الاستقصاء ، 1، 82، البكري 128 ، وتتفق النصوص على أن سبب غضب المهدي على حميد بن يصل ، انما يعود لابقائه موسى بن ابي العافية بدون عقد جديد ، وفى وضع الثائر الموالي لأعداء الفاطميين . ولعل ابن يصل كان يبيت الانتقاض ضد الفاطميين ، لذلك لم يتصرف كما يجب بالنسبة اليه . ويبدو أن وضع مكناسة تاثر بموت مصالة بن حبوس وعدم اقتناعهم بالمذهب الاسماعيلي وقرب بلادهم من الأندلس شجعهم على نبذ طاعة الفاطميين والتقرب من الامويين ، أبو الفداء 2، 75 .

وأكبر هزيمة حلت بموسى بن ابي العافية واعوانه انما كانت فى بداية عهد القائم بأمر الله وبجهد بذله مولي أبيه ميسور الكبير ، منذ سنة 323 هـ / 934 ـ 935 م (155) . اذ تحفظ على أحمد بن بكر الذي تظاهر بالولاء وأرسله الى المهدية واقتحم فاسا بعد حصار طويل ، واقر ما اتفق عليه سكانها بعد اعلان ولائهم وتبعيتهم للقائم بأمر الله وترك حسنا بن قاسم اللواتي واليا عليهم ، وهاجم موسى بن أبي العافية بمساعدة الأدارسة خاصة فرع بني محمد بن القاسم فأسر ابنه البوري ، والجاه الى الصحراء حيث بقي مشردا حتى توفى 328 هـ / 939 ـ 940 م ، أما مراكز نفوذه ، فقد آلت الى الأدارسة بموافقة ميسور الفتى (156) .

وهكذا بقي الوضع السياسي فى بلاد المغرب كما أقره ميسور الفتى ، حتى عصر المعز لدين الله الذي أراد استصلاح ابن بكر الجذامي وجلبه للتعاون مع الفاطميين (157) ، فاقره على ولاية فاس بدلا من حسن اللواتي ، وعهد اليه بالاشراف على ابقاء ولاء المغرب الأقصى للفاطميين (158) .

بيد أن ابن بكر ، خيب الظن فيه ، وبقي على ولائه للامويين وتصدى لانصار الفاطميين وقتل كثيرا منهم كما تزعم حملة تشهير ضدهم فى المنطقة اظهرتهم فى صورة ساخرة ، ومن ذلك قوله « هؤلاء الفواطم تسترضي أحدهم بقلة من نبيذ » (159) ، وقد تصدى لحملة جوهر وتحصن فى مدينة فاس ، فأتعب رجال الحملة واعنتهم ، ولم تلن قناته حتى اقتحمت فاس بجهود بذلها زيري بن مناد ، وأخذ ابن بكر أسيرا حيث شهر فى المهدية ، وبقى فى سجنه حتى مات .

وبما أن الظفر بابن بكر ، يعتبر عملا موجها ضد نفوذ الأمويين فى المنطقة فقد حرص جوهر على اظهار قوة الفاطميين فى أقصى بلاد العدوة ، وتحدى نفوذ الأمويين بحصار سبته قاعدتهم الحصينة ومركزهم الهام فى الاتصال

---

155 ـ ينفرد البكري بخبر النجدة التي ارسلها القائم بامر الله الى ميسور الفتي ، لما ابطات اخباره عنه وقد قادها صندل الفتي الاسود منذ شهر جمادي الآخر 323 هـ ، انظر 98 ـ 99 منه . Levi Provençal op, cit T 2, p. 100-101.

156 ـ ابن عذاري 1،296ـ297 ، 304 ، البكري 128،129، ابن خلدون العبر ، 6،277، ابن الاثير : الكامل ،8،284ـ285 ، السلاوي : الاستقصاء 1،82ـ83 (ط 1) (171 ـ 172 ط 1954) ، بيبرس الدوادار : المصدر السابق 6،145 ، ابن ابي ذرع ، روض القرطاس ، 69 ، العزيزي الجوذري ، سيرة جوذر 180 ، تعليق 103 ، حسن ابراهيم : عبيد الله المهدي 198ـ199 ، مصطفى غالب ، اعلام الشيعة 496 ـ 497 .

157 ـ ابن خلدون : العبر 6،278 ، السلاوي 1،82 .

158 ـ ابن ابي دينار : المؤنس فى اخبار افريقية وتونس 63 ، ابن خلدون : العبر 4،96 ، ابراهيم جلال : المعز لدين الله ، 41 ، وينسبه لزناته .

159 ـ النعمان : المجالس والمسايرات ، 2، ورقة 442 ، وما بعدها .

بزعماء المغرب وادارسة الريف ، وفى الانطلاق نحو مراكز النفوذ الفاطمي فى هذه البلاد .

* * *

وصراع الفاطميين والأمويين من أجل السيادة العليا فى المنطقة ابتدات فصوله الأولى منذ عهد عبيد الله وامتدت حتى عهد الحاكم بأمر الله .

وقد اتخذ كل فريق أسلحة حادة للنيل من خصمه ، واحداث ثغرة فى نظامه . وبان أثناء حلقات الصراع ، غلبة طابع الهجوم من الجانب الفاطمي ، ضد الجانب الأموي الذي غلب على مواقفه طابع الدفاع عن كيانه السياسي والمذهبي .

وكانت وسائل الأمويين فى النضال متعددة مثل خصومهم الفاطميين ومنها :

ـ تحويل نظام الامارة الاموية الى نظام خلافة فى عهد عبد الرحمن الثالث الذي لقب نفسه بالناصر ، وانتحل لقب أمرة المؤمنين 317 هـ / 930 م ، واصبح ذلك تقليدا لسائر حكام بني أمية حتى عصر الطوائف ، وكان الهدف من ذلك ، أن لا يترك جمهور السكان فى الأندلس والمغرب يتجهون بعواطفهم نحو المهدي ، وبقية الخلفاء الفاطميين بعده (160) .

ـ وقد تلا ذلك احتلال سبتة 319 هـ / 931 ـ 932 م والاهتمام بتحصينها وبحاميتها وطرد بقايا أسرة بني عصام منها ، لأنهم كانوا أتباعا للادارسة وهؤلاء كان موقفهم مشبوها (161) . وعامل سبتة من طرف الناصر الأموي ، هو الذي قاوم حملة جوهر واحتفظ باستقلال مدينته وأرسل الى الناصر بعد انسحاب الحملة يصور له الوضع ، وجهوده فى دحر قوة الفاطميين (162) ، بالتعاون مع القادة العسكريين (163) .

ـ وقد عمل الناصر الأموي ما وسعته جهوده على جذب أنصار الفاطميين ، وولاتهم على النواحي بمختلف الوسائل والاغراءات وبسبب ذلك ، ثار موسى بن أبى العافية ضد المهدي الفاطمي كما ثار أحمد بن بكر الجذامي ، وعمل كل منهما على تصفية النفوذ الفاطمي فى بلاد المغرب .

---

160 ـ ابن عذاري : البيان المغرب ،2،235 ـ 236 ، ارشيبالد لويس ، المرجع السابق 413 ـ 414 ، ويحمل الاخير الفاطميين مسؤولية الانشقاق فى العالم الاسلامي ، مختار العبادي : سياسة الفاطميين فى المغرب والاندلس 205 وما بعدها صحيفة معهد الدراسات الاسلامية مدريد مجلد 5،1954 .

161 ـ نفسه 1،316،324،388 ـ 389 ، وانظر ج 2 ، 307 ، وقد اسقط الحكم المستنصر (353 هـ) جميع الوظائف المخزنية والمغارم السلطانية على سكان سبتة ، ووظف ما هو مطلوب منهم على سكان اشبيلية ، العبادي : المجمل فى تاريخ الأندلس 127 ـ 129 .

162 ـ نفسه 1،317 .

163 ـ نفسه 2،333 . Levi Provençal op, cit T 2, p. 98 sq.

كما دعم الأمويون حركات مغراوة ، وبني يفرن ضد الفاطميين . وأسندوا الى زعمائهم مسؤوليات كبرى ليخلصوا فى الوقوف الى جانبهم ، ومن هؤلاء يعلى وابنه يدو ، ثم محمد بن خزر ، وابنه الخير ، وحفيده محمد، وزيري بن عطية وأسرته .

ولم يخف الامويون تأييدهم لحركات الثورة والعصيان ، ضد نفوذ الفاطميين سواء فى تكور ، أو فى تاهرت وسجلماسة ، كما ارتاحوا لحركة ابي يزيد التخريبية وأيدوها لانها حركة زناتية وبنو يفرن من أعوانهم ، وقد استقبل الناصر مبعوثين عن أبي يزيد ، ومنهم ابنه أيوب فى عاصمة الخلافة بالزهراء (164) . كما حرص على رعاية فقهاء المالكية فى مصر الاخشيدية ، وأرسل اليهم أموالا كي ينشطوا فىالدعوة ضد الفاطميين(165).

وقد هيأ الامويون للقادة الذين فروا من بطش الخلفاء الفاطميين ، مقاما طيبا ، وأسندوا اليهم مهمات ادارية كبرى ، ومن هؤلاء حميد بن يصل بن حبوس (166) ، واسرة علي ابن حمدون أمراء اقليم الزاب (167) .

وابن يصل ، هو الذي لعب دورا كبيرا فى ضم تلمسان وغيرها ، وفى جلب كثير من قبائل المغرب الاوسط الى الامويين ، وقد استأمن اليه مجموعة من قادة كتامة ، فأرسلهم الى قرطبة ، حيث استقبلهم الناصر الاموي فى قصره بالزهراء فى جمادي الاولى 344 هـ / اغسطس 955 م ــ وحباهم بألطافه ثم أرجعهم الى حميـــد بن يصل ، قائد العـــدوة المغربية (168) .

---

164 ــ ابن حماد : المصدر السابق 39 ، ابن الأنبار : الحلة اليسراء،2،390ـ391 .
Levi Provençal op, cit T 2, p. 103-4.

165 ــ السيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين 303 ، ابن فرحون : الديباج المذهب 248 ــ 249 ، (ط1،1351 هـ) عن انشط العناصر المالكية فى الدعوة والتشهير ضد الفاطميين وهو أبو اسحاق محمد بن القاسم بن شعبان الاندلسي ، المعروف بابن القرطبي رئيس المدرسة المالكية فى مصر ، الذي كان يدعو على نفسه بالموت قبل دخولهم مصر بقوله « اللهم امتني قبل دخولهم مصر » فاستجاب الله له ، وتوفي فى جمادي الأولى 355 هـ ، انظر عنه بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة 6،201 . ويشبهه فى كراهيته للاسماعيلية ، ولامتداد نفوذ الفاطميين الى المشرق ، ابو بكر محمد بن علي النابلسي ، الذي تزعم ثورة ضدهم فى طبرية . وكان مالكيا متحمسا ، ويفتي باستحلال دم كل من جاء من المغرب فى ركابهم ، انظر عنه عياض : ترتيب المدارك مجلد 2 ، ج 3 ، 301 ط . بيروت .

166 ــ ابن عذاري ، 1،317 ، وقد وصف بصاحب « نيكساس وتلك الجهات كلها » من ارض المغرب الاقصى ، وانظر 2،328ـ329 منه .

167 ــ ابن خلدون : العبر 4،177ـ180 ، ابن خلكان 1،113 ، سيرة جوذر 175 تعليق 82 .

168 ــ ابن عذاري 2،330ـ331 .

وبث الامويون عيونا ورقباء فى جهات كثيرة من بلاد المغرب وافريقية ، كانت مهمتهم بدون شك ، بث الافكار المضادة للنفوذ الفاطمي وكان هؤلاء يتسترون بالتجارة أو بالزيارة للرواية . وكانت مدن المغرب وافريقية تحتضن جاليات أندلسية نشيطة .

ومن ذلك أن بعض النصوص تشير الى حادثة تعذيب أبي جعفر محمد بن خيرون ، من أبناء التجار الاندلسيين فى القيروان 300 هـ / 912 — 913 م بسعي خاص من المروزي بدعوى أنه كتم أمر وديعة كانت فى عهدته (169) ، فهل يتصور بسهولة أن رجلا فى مثل غناه وبسطته ، وكان صاحب فنادق وتجارة يكتم وديعة ؟ ثم نتساءل عن هؤلاء الذين عرفوا خبر الوديعة وشهدوا ضده ؟ انهم فيما يبدو عيون المهدي ، وعناصر الشيعة فى المدينة الذين كانوا ينقمون على أهل اليسار يسارهم . وهل من أجل وديعة يعذب شخص له ظهور فى الحياة الاجتماعية حتى يموت تحت طائلة التعذيب ؟ ان الذي يبدو أقرب الى التصديق أن أسباب تعذيبه تدخل فى اطار الصراع بين الامويين والفاطميين ودوافعه سياسية ومذهبية .

وقد اشارت بعض النصوص الى ظهور حركة تشهير كبرى فى المحمدية تحت سمع عاملها الفاطمي ، جعفر بن علي بن حمدون ، الذي لم يتحرك لكبتها والقبض على زعيمها : عثمان بن أمين الذي كان « يقدح فى الدولة ويكاتب بني أمية ، ويرعون ذمامه هناك ، ويقضون حوائجه . »

ويلاحظ أن رقباء الفاطميين فى المحمدية هم الذين أنهوا أخبارها الى جوذر ، الذي بلغها فى حينها الى المعز لدين الله دون تحرج من والي المحمدية ، فكانت ردود فعل الخليفة مؤيدة لما سمعه جوذر ، عن حماية جعفر بن علي لصاحب هذه الحملة وتعاطفه معه (170) .

---

169 — ابن عذاري : البيان 1،235 ، الدباغ : معالم الايمان 2 ، 197 — 200 وقد وصف ابن خيرون بالفرضي وبالشهيد أيضا — ويشير العبادي : سياسة الفاطميين فى المغرب والأندلس 205 ، الى بعض عيون الفاطميين مثل أبي اليسر الشيباني وأبي جعفر البغدادي ، وابن حوقل . والذي يلاحظ ان الشيباني وابا جعفر كونا ذكريات عن بلاد الأندلس واهلها ، عند مرورهما بالامارة الاندلسية فى عهدي محمد بن عبد الرحمن وعبد الله ، وغدا حبهما للعناصر الاندلسية معروفا لدي المهدي ، الذي قربهما اليه ، وقد خدم الشيباني نظام الاغالبة ، ومر بالاندلس قبل قيام الخلافة الفاطمية ، ولما توفي ، خلفه فى مهمته أبو جعفر منذ سنة 298 هـ ، انظر ابن عذاري 1،224—225 علي مكي : التشيع فى الأندلس 112—115 ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد ، مجلد 2 سنة 1954 .

170 — العزيزي : المصدر السابق 123—124 .

وقد التجأ الامويون منذ عهد الناصر ، الى سلاح حاد هو لعن الفاطميين والتشهير بهم في سائر بلاد الاندلس والمغرب الاقصى ووصفوهم بملوك الشيعة مبالغة في الانكار عليهم لانتحالهم لقب امرة المؤمنين (171) .

وطرد العناصر المشبوهة من الاندلس وتتبع المتشيعين والتضييق عليهم وقتل من تظاهر بالدعوة للفاطميين منهم مثل أبي الخير الداعي ومراقبة السكان والتشديد عليهم في التزام مذهب مالك بن أنس ، من الوسائل التي واجه بها الامويون حركات أعدائهم الفاطميين (172) .

ولم يتورع الأمويون عن استعمال سلاح القرصنة للقضاء على القوة البحرية لأعدائهم الفاطميين، وللاطلاع على طبيعة علاقاتهم بالانظمة السياسية المجاورة ، اذ تشير النصوص الى حادث استيلاء البحارة الاندلسيين الذين كانوا متجهين نحو الاسكندرية في مهمة خاصة 344 هـ / 955 ـ 956 م على مركب كان يحمل رسولا ، وكتبا الى المعز لدين الله من جزيرة صقلية، فاستاء المعز لدين الله وجهز اسطولا ، عهد بقيادته الى الحسن بن علي الكلبي ، وكلفه بتأديب الأمويين ، فنزل الحسن مرسى المرية ـ قاعدة الأسطول الأموي ـ واحرقه ، واخذ مركب الخليفة الناصر ، بما فيه من أمتعة وجوار وصلت لحينها من الاسكندرية ، كما نزل بحارة الأسطول الفاطمي في البر الاندلسي وارتكبوا اعمالا سيئة ورجعوا الى قاعدة المهدية غانمين (173) .

وقد رد الخليفة الناصر على هذه الاعمال ، بعدة حملات بحرية وجهت منذ 345 هـ / 956 ـ 957 م ضد مراكز النفوذ الفاطمي في افريقية والمغرب الاوسط واسفرت عن احراق مرسى الخرز وسلب نواحي سوسة وطبرقة وشرشال (174) .

---

171 ـ ابن عذاري : البيان 2،330-331 ، وفيه قوله «امر» : الناصر « باطلاق اللعن على ملوك الشيعة بجميع منابر الأندلس وانفاذ كتبه بذلك الى العمال في سائر الأقطار » .

172 ـ ابن سهل : الاعلام بنوازل الاحكام ، وفقر من سير القضاة والحكام . خ حسن حسني عبد الوهاب . انظر قطعة منه في حوليات الجامعة التونسية ص 61 وما بعدها . عدد (1) سنة 1964 .

173 ـ بيبرس الدوادار : المصدر السابق 6 ورقة 186 ، ابو الفداء 2،106 ، ابن الوردي 1،286-287 ، الشرقاوي ، البحرية الأندلسية 43 (رسالة ماجستير) 1935 .

174 ـ ابن خلدون 4،96 ، السلاوي 1،87-88 ، ابن عذاري : البيان 2،330-333، الشرقاوي : المرجع السابق 42 Levi Provençal op, cit T 2, p. 108.

وقد وصل العداء الاموي للفاطميين الى غايته القصوى سنة 395 هـ / 1004-1005 م فى حركة الوليد بن هشام ، الذي أدعى انتماءه لبني أمية وعرف بأبي ركوة واستبد بشؤون برقة ، وجعل هدفه مصر وكان أعوانه هم أعداء النفوذ الفاطمي فى المغرب من لواتة ، وزناتة ، وعملاؤه فى مصر ، هم عرب بني قرة، فهؤلاء واولئك هم الذين ارتضوا امامته وصدقوا ادعاءاته بأنه «هو الذي يملك مصر ، ويقتل الجبابرة » (175) .

وخطورة الحركة ، تكمن فى اعتمادها على عصبية قوية ، وعلى دعوى دينية ، ثم فى قربها من مركز هدفها ، وهو اسقاط نظام الخليفة الحاكم بامر الله الفاطمي ، فهي أشبه الحركات بثورة أبي يزيد فى الدور المغربي وبثورة القرامطة فى الدور المشرقي للخلافة الفاطمية ، وهذه الثورات كلها جعلت الوجود السياسي للخلافة الفاطمية محل اختبار .

***

وكانت وسائل الفاطميين فى الصراع مع الامويين تعتمد أساسا على :

ـ سلاح الدعوة المذهبية ، فقد أرسل الخلفاء الفاطميون دعاة الى اطراف بلاد المغرب والى عمق شبه جزيرة الاندلس ، كما اصطنعوا عناصر من بين سكان البلاد وكلفوهم بنشر آرائهم واحداث القلاقل والفوضى والنزاعات المذهبية وتخذيل السكان عن الخلافة الأموية والطعن فى حكامها ، تمهيدا لصرفهم عنها وتحول ولائهم الى الخلافة العلوية .

ـ وتشجيع الثوار ، والمنتقضين فى الأطراف ، مثل ابن حفصون وغيره ، كان أسلوبا للعمل ضد استقرار وأمن الخلافة الأموية فى قرطبة .

ـ ومحاولة احكام الحصار حولها والاستيلاء على المراكز المجاورة لها التي تعتبر مجالها الحيوي ، فى أرض المغرب الاقصى ، وتحديها باظهار قوة الدولة الفاطمية ، أمام طنجة وسبتة وتأديب أنصارها ، والانتقام من

---

175 ـ ابن عذاري : البيان ،1،370-371، ابن الاثير : الكامل ،9،74-75 ، الزاوي : تاريخ الفتح العربي فى ليبيا 206-207 ، عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين 247-252 : العبادي : سياسة الفاطميين ، 208 وما بعدها علي مكي : التشيع فى الاندلس 120 ، النويري : المصدر السابق ج 26 ورقة 54 وما بعدها .

المؤيدين لها من زعماء زناتة وأمراء نكور والأدارسة ، كان عملا مقصودا لعزلها وبث الرعب بين سكانها ، تمهيدا للانقضاض عليها في المرحلة التالية (176) .

— ومن أقوى الأسلحة ، التشهير بماضي بني امية في الاسلام وبموقفهم من الحركة الاسلامية ، ومن الرسول صلى الله عليه وسلم اذ استمروا في عدائهم لآل البيت وسفك دمائهم واغتنام الفرصة لتشريدهم في الآفاق ، وتعقب آثارهم .

وتصدر المعز لدين الله حملة التشهير ، والقدح في الخلفاء الامويين ، فكان يصفهم « باللعناء » و « الارجاس » ، و « الفسقة » ، و « طرداء رسول الله »،ويطعنهم في نسبهم ، ويبالغ في تحقيرهم الى درجة انه قال لبعض من سأله عن نسبهم « الى اي ينسبون ، الى الكلاب ، أو الى القردة أو الى الخنازير ، والله انها لخير ممن انتسبوا اليه ، وأن من انتسبوا اليه ، أسوأ حالا منها فدعوهم وما ادعوه ، فكفاهم عارا وخزيا بانتسابهم اليه » (177) .

وكان المعز لدين الله ، يصف عبد الرحمن الناصر ، بالمتغلب ، ويلعنه كلما ورد اسمه في المجالس ، ويعني ذلك أن الحق في حكم بلاد الاندلس ليس له ، وانما هو للخلفاء الشرعيين من نسل علي وفاطمة (178) .

ولاحظ المعز ان اقدامه على الامر بلعن الفاطميين على المنابر ، ان هو الا صورة مكررة من العداء بين الامويين وآل البيت أو بين بني امية وبني هاشم ، وصدى لما كان يفعله معاوية بالنسبة لعلي بن أبي طالب وهو في نهاية الامر ، أسلوب لا يشرف أسرته ، ان كان يعتقد نسبتنا الى آل البيت ، ولن يفيده ان كان ينكر نسبنا العلوي ، مثلما لم يستفد أسلافه من قبل عندما كانوا يتحاشون ذكر ما اشتهر به الرسول من ألقاب وكنى ، ويكتفون بلقب المذمم (179) .

---

176 — النعمان : المجالس 2،499 ، ومن ذلك قول المعز لدين الله يخاطب بعض الوفود «ومن ذا يعد انا الأرجاس من بني امية ، ومن هو في مثل حالهم ، الا من اعمى الله قلبه ، وغلبت عليه شقوته وحيله » .

177 — نفسه ،1،22—23 .

178 — نفسه ، 1،238 .

179 — نفسه ،1،85—86 .

وفي الوقت الذي كان فيه المعز لدين الله يقود حملة الطعن ضد الامويين في افريقية والمغرب ، اثمرت حركة الدعوة الاسماعيلية ونجحت جهوده ، وجهود أسلافه في عمق بلاد الاندلس وظهرت حركة اسماعيلية كبرى تدعو الثورة ضد الحكم المستنصر ، والولاء لأبي تميم معد بن اسماعيل، وتزعمها داع اسماعيلي من بين سكان قرطبة ، هو أبو الخير الداعي الذي وصفه أعداؤه بأبي الشر ، وشهدوا عليه بما كان يذيعه من آراء غريبة حول الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والخلفاء الامويين .

وحركة ابي الخير كانت اخطر الحركات التي واجهها نظام بني امية في الاندلس ، بعد وفاة عبد الرحمن الناصر وقبل انتقال المعز لدين الله الى مصر (180) .

وخطورة هذه الحركة تظهر في كونها لم تقتصر على قرطبة والزهراء ، وانما كان لها تأييد في سائر كور الاندلس « وليس في الاندلس بلد ، الا وهو يغلي بالشهادات عليه بما أذاع فيهم من هذا الالحاد » (181) .

ولم يكن أبو الخير وحده في الدعوة للفاطميين بل كان له أعوان ومؤيدون في جهات من بلاد الاندلس ايضا « وقد بلغني أن جماعة على مذهبه ، أمرت الحكام بالتشدد عليهم واخافتهم (182) .

وكان أبو الخير صريحا ، وجريئا في الدعوة لمذهب الغلو ، وللثورة ضد الحكم المستنصر لاسقاط نظامه بالقوة « ما كان أملي من الدنيا الا خمسة آلاف فارس ، أدخل بهم الزهراء وأقتل من بها ، وأقوم بدعوة أبي تميم وكذلك يكون » (183) .

وكان يذيع بأن قتال بني امية والفقهاء المالكية أفضل من قتال الاعداء والمشركين (184) ، ويعترف صراحة « بأن جراية الشيعي عليه وعلى أصحابه جارية » (185) وبأنه لو استطاع حرب بني امية ، وقتل أنصارهم وسبي نسائهم ، وذراريهم لما تأخر لحظة واحدة « ولو كانت تسعة أسياف لكان سيفي العاشر ثم أضع سيفي في باب القنطرة فلا نبقي أحدا » (186) .

---

180 –
Dachraoui tentative d'infiltration shiite en Espagne Musulmane sous le règne d'Al-Hakem p. 97 sq. Revesta Alandalus. T. 2, p. 3. 1958.

181 – ابن سهل : الاعلام بنوازل الاحكام – قطعة منه 76 . حوليات تونس 1964 .

182 – نفسه 74 .

183 – نفسه 61 .

184 – نفسه 69 .

185 – نفسه 68 .

186 – نفسه 66 .

وقد لوحظ عليه تعاطفه مع أحداث الفاطميين فى بلاد المغرب ، فقد اعتبر توفيق جوهر فى حملته نصرا ، هو مقدمة لفتح بلاد الاندلس (187) ، وأنكر على أحد المهاجرين من القيروان خروجه عن بلده ، بدعوى أن الفاطميين « هم أهل الحق والسنة ، ولا ينجي منهم الفرار » كما كان يهتم بحال العلويين فى المشرق أيضا وقد سأل بعض القادمين منه عن حال العثمانية والبكرية والعلوية ، ولما أجابه بغلبة النزعة العلوية ، رد عليه بقوله « هذا الحق كأنك ترى الالوية خارجة من داري » (188) .

وقد نقلت عن أبي الخير كثير من الآراء المتطرفة حول القرآن ، والسنة والخلفاء الراشدين ، وعائشة ، كما عرف عنه التهتك ، والانحلال الخلقي ، وترك الفرائض ، وانكار الحساب والعقاب ، واعتبار الملائكة بنات الله ، والمساجد دورا للبقر ، ثم سخريته ممن يصلون أو يحجون لأنهم « يتعبون أبدانهم ، ويقصدون حجارة صماء » ونقل عنه أيضا أنه تمنى أن يقلع الحجر الأسود من مكانه مثلما فعل غلاة القرامطة من قبل (189) .

وعندما استفاضت حركة أبي الخير ، وشهد عليه أربعة واربعون شاهدا ينتمون الى طبقات مختلفة فى المجتمع الاندلسي (190) عند صاحب الشرطة وهو قاسم بن محمد ، الذي اعتمد شهادة ثمانية عشر منهم لمعرفته اياهم ، وتأكده من صحة شهادتهم ، استشار الاخير ، الفقهاء منذرا بن سعيد البلوطي قاضي الجماعة وأحمد بن مطرف صاحب صلاة الجماعة واسحاق ابن ابراهيم فى أمره ، فأفتوا بوجوب قتله دون اعذار ، بعد استطلاع راي الحكم المستنصر ، وكان هذا رأي صاحب الشرطة أيضا ، على خلاف من أفتى بالاعذار اليه أولا قبل قتله .

وقد أقر الحكم المستنصر الراي الاول ، وكتب الى وزيره عيسى بن فطيس باستحسان رأي الفقهاء ، منذر بن سعيد (191) ورفقائه ، وجاء فى سجله قوله « ورأيت هذا الامر « التشيع » قد كثر ، وكان ممنوعا مطروحا ،

---

187 ـ ابن سهل : المصدر السابق ، 69 .
188 ـ نفسه 65 ـ 66 .
189 ـ نفسه 64 .
190 ـ نفسه 75 .
191 ـ وعن شخصية منذر بن سعيد ودوره فى حياة الخلافة الأموية بالزهراء ، انظر الخشني ، طبقات 175 ، ابن الأثير : الكامل 8،243 . الفتح بن خاقان : مطمح الانفس ومسرح التانس فى ملح أهل الاندلس 37ـ46 . ط الجوائب 1302 ، وعن احتمال ميله للتشيع ، انظر : علي مكي : التشيع فى الاندلس 109ـ111 .

فتقدم الى القاضي والحكام بالاخذ على أيدي الناس فى هذا فمن خالف مذهب مالك بن انس بالفتوى أو غيره ، وبلغني خبره ، أنزلت به من النكال ما يستحق » (192) .

واثر قتل أبي الخير ، ظهرت أصداء استحسان عند الفقهاء ، الذين كتبوا ـ على لسان اسحاق بن ابراهيم بتأييد الحكم المستنصر وتهنئته على قطع دابر الالحاد والتطرف (193) . فرد عليهم بالشكر وبانه أمر بملاحقة جميع من يشتبه فى أمره فى سائر بلاد الاندلس ، أو يفتي بغير مذهب مالك بن أنس ، وبادر طلاب العلم الى نسخ سجل الخليفة ولما تساءلوا عن حقيقة الجدل الذي جرى حول قتله هل يكون باعذار أو بغيره ، كان رده حاسما ، وقاطعا لكل ريبة أو اشتباه « لم تجر بيني وبين أصحابي فيما سألتهم عند المذاكرة، أكثر من اجتماعنا على وجوب قتله بغير اعذار» (194). وأوضح لهم ، أنه يكفي لقتل هذا الملحد تخذيله للسكان وتحريضه على الثورة والطعن على الخليفة وجنوحه لاستعمال القوة ضد رعيته لقتلهم وسبي ذراريهم ونسائهم . وقد بلغت جرأته ، أن نصح قوما فى نسائهم بأن « يطلقن الجمم ، ويتخذن الظفائر ، ويستعددن بها ، فانهن عن قريب يمتحن بالسبي من الشيعة ، وأنه مقدمتهم اليمن » (195) .

ويبدو أن حركة أبي الخير ، لم تكن الوحيدة ، فى شبه جزيرة الاندلس (196) ، غير أن انتقال الفاطميين الى مصر هو الذي أضعف أنصارهم فى كل الجهات المغربية وجعل حركاتهم ضعيفة ، وأصداءها خافتة .

وأثناء حركة الصراع يلاحظ أن الادارسة كانوا سلاحا ذا حدين ، استخدمه كلا الطرفين ضد الآخر ، ووجد كل منهما فى الامراء الادارسة المذبذبين صنائع وأعوانا . فيحيى بن ادريس ، من بني عمر ، تعاون مع الفاطميين واستمر كذلك حتى طرد من فاس (197) . والحسن الحجام ، من بني القاسم ، أظهر العداء ، وعمل لنفسه حتى هزم (198) . غير أن

192 ـ نفسه 70ـ71 .

193 ـ ابن سهل ، 71ـ73 .

194 ـ نفسه 74 .

195 ـ نفسه 78 .

196 ـ ومن ذلك ثورة غلام العطار المعروف بالفصيح الذي ادعى الخلافة وانه ابن المهدي الفاطمي وثار فى مدريد ، انظر عنه علي مكي صحيفة الدراسات ، مدريد ، مجلد 109 سنة 61ـ62 ص 502ـ503 .

197 ـ ابن عذاري : المصدر السابق ،1،301 .

198 ـ نفسه 1،302 .

مساعدة رجال هذا الفرع ، وهم حسن ، وقنون ، وابراهيم ، لميسور الفتى كانت مفيدة ، لذلك لقوا منه جزاءها فى تمليكهم على النواحي (199) . واثناء حملة جوهر الكبرى ـ فـر الى قرطبة ، الحسن بن قنون ، ناجيا بنفسه من بطش ابى الحسين لولائه للامويين (200) ، واستمر على ولائه لهم ، لقرب بلاده ، من مركز ثقلهم وخوفه من حركات تأديبية يوجهونها ضده ، وعندما انس من نفسه القوة ، قطع الدعوة المروانية ، ونكل بأعوانها ، وساعد الأمير الزيري فى جهوده لاقرار الاوضاع فى ارجاء بلاد المغرب (201) ، غير أن الحكم المستنصر ، انزل به هزيمة واسره فى قرطبة فترة ثم طرده منها فاتجه نحو مصر فى عصر العزيز بالله ، الذي احتفى به واكرمه ووعده بالمساعدة على استرجاع مجد الادارسة فى منطقة الريف وبلاد المغرب ، وقد تمكن هذا الامير من احياء نظام الادارسة لفترة قصيرة 373 ـ 375 هـ / 983 ـ 986 م ، لقي أثناءها مساعدة الزيريين ، بيد أن توالي الضغط عليه من الحاجب المنصور ، الذي أصبح مستبدا بشؤون الخلافة الاموية فى عهد الخليفة هشام المؤيد بالله بن الحكم الجأه الى طلب الأمان والتوجه الى قرطبة حيث قتل فى طريقه اليها فى جمادى الاولى 375 هـ / سبتمبر 985 م ، وبموته ينتهي الدور السياسي للادارسة وينمحي كيانهم ، وتتلاشى اسرهم وسط محيط السكان فى الريف ، وبقية المغرب الاقصى (202) .

ولا ريب أن تلطف العزيز بالله بالحسن بن قنون ، كان حلقة فى سلسلة الصراع السياسي والمذهبي بين الامويين والفاطميين الذي استمر بعد انتقال الفاطميين الى مصر يوجهه خلفاء المعز لدين الله فى القاهرة وينفذه نوابهم الزيريون فى بلاد المغرب .

---

199 ـ نفسه 1،297 .

200 ـ نفسه 1،316 ، ابن ابي زرع : المصدر السابق 63 .

201 ـ ابن ابي زرع 63 وما بعدها ، الشرقاوي : البحرية الاندلسية 46 .

202 ـ ابن عذار 2،364 ـ 369 ، زمباور ، المرجع السابق 1،103 ، السلاوي 1 ، 89 ، ويعقب على موت ابن قنون بقوله « وركدت ريح العلوية بالمغرب ، وتفرق جمعهم ، وانقرضت دولتهم وتفرقت الادارسة فى قبائل المغرب ولاذوا بالاختفاء الى أن خلعوا اشارة ذلك النسب الشريف واستحالت صنيعتهم الى البداوة » ، ابن ابي زرع : المصدر السابق 66 ، ويفسر سر ذبذبتهم وسقوطهم بقوله : « كان الادارسة ينايفون مملكتين عظيمتين وغاليين كبيرين : وكانوا ينازعون الخلفاء الى درك الخلافة ، ويقعدهم ضعف سلطانهم ، وقلة مالهم فكان سلطانهم اذا اشتد وقوى الى مدينة تلمسان، واذا اضطرب الحال عليهم وضعفوا لا يجاوز سلطانهم البصرة واصيلا وحجر النسر ، الى أن اعتراهم الادبار ، والرقة وانقضت ايامهم وانقطعت مدتهم » .
Levi Provençal op, cit T 2, p. 196, 263-4.

ويبدو أن صنيع الامويين بالحسن بن قنون ومعاملتهم له بقسوة متناهية ، هي التي دفعت العزيز بالله الى ارسال كتاب تشهير وهجو الى الحكم المستنصر بالله ، الذي ارتفع بمستوى رده على العزيز بالله الى قضية الطعن فى نسب الفاطميين « أما بعد فقد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك » فكان ذلك الرد على اختصاره ، أكثر وقعا ، وتأثيرا فى نفسه (203) .

لا ريب أن استمرار الصراع بين الامويين والفاطميين ونوابهم فى افريقية لم ينتج عنه أي تغيير جذري ، سواء بالنسبة لقضية تعديل الحدود السياسية أو بالنسبة لقضية الولاء وكسب مزيد من الانصار فى الناحية المذهبية .

وكانت النتائج السلبية للصراع اكثر من النتائج الايجابية ، ففضلا عما لحق المتصارعين من خسائر مادية وادبية ، فقد اثر الصراع على تماسك أسرة الزيريين ، وفتح باب الشقاق بينهم (204) ، كما أضعف البحرية الاسلامية فى الحوض الغربي من البحر المتوسط ، فى وقت نشطت فيه قوى بحرية أخرى للتوسع الاقليمي ولتمثيل دور الوسيط فى التجارة بين حوضي البحر المتوسط .

وقد سقطت اقريطش (205) التي طلب سكانها نجدة من المعز لدين الله . وكانت باب مصر ، ثم قبرص التي كانت تحمي سورية وتدهورت القوة البحرية فى صقيلية التي كانت تحمي شواطيء بلاد المغرب .

---

203 ـ حسن ابراهيم : الدولة الفاطمية 64 ، ويبدو ان شيئا من اللبس ، يوجد هنا ، اذ نسب هذا المؤرخ الرد الى عبد الرحمن الناصر ، الذي توفي 350 هـ 961 م ، اي قبل انتقال المعز لدين الله الى مصر ، فضلا عن خلافة العزيز التي لم تبدا الا بعد وفاة ابيه 365 هـ ، وفيها كان خليفة الأمويين فى الزهراء ، هو الحكم المستنصر بالله الذي توفي سنة 366 هـ ، انظر : ابن الأثير : الكامل 8،244،245، وعن عبد الرحمن الناصر ، انظر E.I. (Art Abd Al Rahmen) T I, p. 54. أبو المحاسن : المصدر السابق 4،114 ، الثعالبي ، يتيمة الدهر 1،255 .

204 ـ ابن عذاري 1،349 ـ 350 ، حيث يشير الى عصيان ابي البهار بن زيري لابن اخيه المنصور ومكاتبته لابن ابي عامر يعرض ولاءه ، ويرجو التوصية به عند زيري بن عطية المغراوي ، ابن الأثير ، 9،12 .

205 ـ وعن وصف الجزيرة وحكم مسلمي الاندلس فيها حتى 350 هـ ـ 961 م . انظر : البكري ، المسالك والممالك ـ جغرافية اروبا ، 138 هامش 4،212 ، ابراهيم العدوي اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين ـ المجلة التاريخية المصرية مجلد 3 عدد 2 اكتوبر 1950 ، زمباور : معجم الانساب والاسرات 1،109 .

ومع ظاهرة ضعف الاساطيل الاسلامية في بلاد المغرب والاندلس ، فقد بقي البحر الابيض المتوسط حتى فترة طويلة بمثابة البحيرة الاسلامية ، بسبب قوة البحرية الفاطمية ، ونشاط مسلمي بلاد المغرب ، وصقلية ضد جنوب ايطاليا وتوسع مجاهد العامري امير دانية من قواعده البحرية في جزر البليــار (الشرقية) ضد جزيرة سردينية ، وغيرها من جزر غرب البحر المتوسط (206) .

* * *

واذا كان توسع الخلافة الفاطمية بسيوف كتامة وأحلافها في غربي الدولة قد جرى ضد أنظمة ، وفي أرض لا علاقة لها بالامارة الاغلبية ولا بنظام الامامة الرستمية في تاهرت ، فان توسعها في شرق الدولة كان بمثابة استكمال لضم مناطق أصبحت في اطار نفوذهم ، وضمن ممتلكاتهم بحق الارث ، عقب فتح رقادة وتاهرت وتصفية نظام الاغالبة والرستميين .

وصقلية (207) من المناطق التي آلت الى الخلافة الفاطمية بمجرد فرار آخر الامراء الاغالبة في رقادة .

وغداة دخول الداعي رقادة أقر عامل الجزيرة القديم عليا بن أبي الفوارس وأمره بالغزو في البر والبحر وخص جزيرة صقلية في كتاب الأمان الذي منح لأهل افريقية باشارة هامة تضمنت الوعد باصلاح شؤونها وتحصينها وشحنها بالمجاهدين ، لتستمر الحرب المقدسة ، والجهاد وحركة نشر الاسلام ضد مراكز نفوذ الروم في جنوب ايطاليا (208) .

وعندما استقر المهدي في رقادة ، أرسل الحسن بن أحمد بن علي بن كليب ، المعروف بابن خنزير ، ليكون واليا عليها وكان في معيته أخوه علي وحامية كتامية كبيرة ، وقاضي الجزيرة الجديد اسحاق بن أبي المنهال

---

206 ـ ارشيبالد لويس : المرجع السابق 322 ، النعمان ، المجــالس والمسايرات ، 2، 421ـ422 . كيليا سارانللي تشاركوا ، مجاهد العامري قائد الأسطول العربي في غربي البحر المتوسط 152 ـ 158 ، وتلاحظ الباحثة أن مجاهدا ، نفذ خطة غزو سردينية رغم توسلات زوجته المسيحية بان ينصرف عنها .

207 ـ عن وصف الجزيرة وفتح الاغالبة لها ، انظر البكري ، المسالك والممالك 213ـ223 ، (قطعة منه) نشر عبد الرحمن الحجي 1968 ، ياقوت ، معجم البلدان 5 ، 373ـ377 .

208 ـ النعمان : افتتاح الدعوة ورقة 162 (222 ط . بيروت) ، امبرتو ريزيتانو : تاريخ الأدب العربي في صقلية 36 ، ميشيل اماري : المكتبة الصقلية 434 (نقلا عن النويري) جمال سرور ، سياسة الفاطميين الخارجية 232 .

(209) ، وبينما استقر الحسن منذ عاشر ذي الحجة 297 هـ / يوليو 910 م في مازر على الساحل الغربي من الجزيرة ، عين أخاه على مدينة جرجنت التي تقع جنوبها . وبدون شك استقر قاضي الجزيرة الى جانب عاملها في مازر . أما الحامية الكتامية ، فقد وزعت على المدينتين .

ويلاحظ أن دخول عناصر السلطة الجديدة الى الجزيرة لم يقترن بأدنى مقاومة ، لا من طرف السكان ولا من جهة بقايا الاغالبة ومواليهم وجنودهم . وهذا الوضع الهادىء استغله والي الجزيرة في التوسع ضد دمنش (210) وغيرها ، حيث تحصل عى مغانم كثيرة وانتصارات اغرته بالتطاول على السكان والاستبداد بهم . وسلك أخوه مسلكه تجاه سكان جرجنت ، فكانوا فيما يبدو ، يطلبون منهم وظائف مالية ، أو يرغمونهم على أجراء تغيرات مذهبية في الأذان وخطب الجمع ، مثلما جرى في افريقية ويتركون جند كتامة يعيثون فسادا ويمدون أيديهم الى الاموال والحرمات كسابق عهدهم في حواضر افريقية ويظهرون الاستعلاء على بقايا السلطة القديمة بسبب انهم الجند الفاتحون .

ولهذه الاعتبارات ظهرت مقاومة عنيفة لحكم بني خنزير ، وكان طابعها سياسيا مذهبيا ولم تخل أيضا من طابععنصرياذ ان بقايا عرب الجزيرة من تميم وأحلافها ، أنفوا أن يتسلط عليهم بربر كتامة وأحلافهم .

وهكذا أثمرت حركة المقاومة ضد هؤلاء الطارئين المستبدين ، فأسر ابنا خنزير وحبسا ثم طردا خارج الجزيرة وانتهب منهما ما كانا قد استوليا عليه من قبل من سكان مازر ، ودمنش كما حل بجند كتامة فيما يبدو تكال غير أن الثوار خشوا عاقبة الثورة وحلول النقمة بهم ، فشرحوا وضعيتهم للمهدي وأوضحوا له أن حركتهم الاحتجاجية لا تحمل طابع العصيان أو الثورة السياسية أو المذهبية ضد سلطان الفاطميين وانما هي لفت نظر للسلطة الجديدة تجاه نوع الولاة الذين يسيئون الى نفوذها ، وقد طلب السكان العفو فاستجاب لهم المهدي ، وعين على بلادهم عليا بن عمر البلوي ، وكان شيخا عربيا طاعنا في السن يميل الى السلم ويكره العنف ، وفي طبعه لين ، فوصل مازر آخر ذي الحجة 299 هـ/911 ـ 912 م (211) .

---

209 ـ ابن عذاري 1،233 ، ابن خلدون : العبر 4،442 ، زمباور : معجم الانساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، 1،107 ، عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين 276 .

210 ـ ابن الأثير : الكامل 8،18 ، ابن خلدون : العبر ،4،442 .

211 ـ ابن الأثير : الكامل ،8،18 (49ـ50 ط . صادر بيروت) ، ابن خلدون : العبر 4،76 ، 442 ، ميشيل اماري : المصدر السابق 250ـ251 (نقلا عن ابن الاثير) 434 نقلا عن النويري . ابن عذاري : البيان ،1،233 ، عبد المنعم ماجد : المرجع السابق 276 ، انظر العلاقات بين الشرق والغرب للمؤلف ، 107 ، رزيتانو : المرجع السابق ، 53 ، توفيق المدني ، المسلمون في صقلية وجنوب ايطاليا 129ـ 130 .

وفي عهد هذا الوالي ، الذي ترفق بالسكان وصانعهم ، بدات اتجاهات الثورة الانفصالية تظهر في مدن الجزيرة يدفع سكانها الى ذلك ، جور كتامة وعنصريتهم من جهة ، ورغبة العناصر العربية وبقايا أسرة بني الأغلب في الثأر لسقوط الامارة وانفصال افريقية عن سلطان الخلافة العباسية السنية في بغداد ، من جهة أخرى ، هذا الى جانب استضعاف السكان لوالي المهدي ، الذي لم يكن من رجال الحرب ، ومن ثم اطاحوا به بسهولة وقدموا من تلقاء انفسهم ، وحسب خطة موضوعة رجلا من بقايا بني الأغلب ، هو أحمد بن زيادة الله بن قرهب سنة 300 هـ / 912 ـ 913 م ، وفي عهده صار الانفصال السياسي والمذهبي لجزيرة صقلية ، حقيقة ملموسة ، وامرا واقعا ، اذ بعد فترة اعداد نفسي ، وتهيئة مادية ، تأكد أثناءها من ثقة الناس فيه ، واجماعهم حوله ، وعلى ما يتخذه من خطوات سياسية في الجزيرة اعلن الثورة ضد الفاطميين . وأرجع الخطبة والدعوة للعباسيين، وعندما وافق المقتدر بالله العباسي على حركته وبأن يكون داعيا له ، وقائما بأمره في جزيرة صقلية ، وارسل اليه مع التحف والألطاف خلعا والوية سوداء ، ليرجع شعار العباسيين ، اغتبط بذلك وأوغل في الثورة ضد المهدي الفاطمي « واظهر الحزم والجد في أمره » (212) .

ومن مركزه الحصين في جزيرة صقلية . مارس نشاطا ثغريا ، في أرض قلورية ، وضد طبرمين على الساحل الشرقي من الجزيـرة منـذ سنـة 300 هـ . كما قام بأعمال كبرى ضد سواحل بلاد المغـرب ، ترضيـة للعباسيين ، واذا كان لم يقدر لابنه علي ـ الذي أرسل لفتح طبرمين ، وحاصرها ثلاثة اشهر ، أن ينجح في مهمته لحصانة المدينة واختلاف الجند عليه ، ورغبة بعضهم في التخلص منه ، فان ابن قرهب نجح في ميدان بلاد المغرب ، حيث أحرق رجاله ، أسطول الفاطميين في مرسى لمطة (213) ، واسروا كثيرا من بحارته ، وقتل امير الأسطول وهو عامل صقلية القديم ، الحسن بن أحمد بن أبي خنزير ، وحملوا راسه نكاية فيه الى ابن قرهب (214) في صقلية ، وهذا الانتصار أغرى ابن قرهب ، بتوسيع مجال عمله التخريبي ضد سواحل بلاد المغرب ، ارهابا للفاطميين الذين كانت قوتهم البحرية في هذه الفترة ضعيفة وموزعة ، خاصة بعد الخسائر الأخيرة .

---

212 ـ ابن عذاري : البيان 1، 233 ، اماري : المصدر السابق 435 ـ 436 (نقلا عن النويري) ، ابن الأثير : الكامل 8، 19 وما بعدها . ابن خلدون : العبر ، 4، 442 ، عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين 276-277 .

213 ـ تقع لمطة قرب محرس المنستير ، وهو اجل محارس افريقية واربطتها وقصورها . وقد اشار البكري اليها باسم ملاحة لمطة ، واعتبر ملحها أجود من غيره ، وكان سلعة للتصدير : انظر المغرب 84 .

214 ـ ابن عذاري : البيان ، 1، 238 .

وهكذا خرب اسطوله ميناء صفاقس (215) ، ونفذ الى طرابلس لنفس المهمة ثم انصرف عنها لاسباب خاصة ، لكنه بقي يمارس نشاطا بحريا واسعا ، وحركة قرصنة ضد سواحل الفاطميين حتى حلت به الهزيمة ، واخذت معظم قطعه غنيمة خالصة للفاطميين ، وعندئذ بدأ نجم ابن قرهب فى الأفول ، وامره فى التراجع والخمول ، وتنكر له سكان الجزيرة قبل غيرهم ، لأنهم اذا كانوا قد خشوا بأسه لظفره فى الحرب فى قلورية ، وضد افريقية فانهم الآن بعد انكساره ، وضياع أسطوله أصبحوا يفكرون فى وسيلة للتقرب من المهدي ، والتخلص منه ، وتحميله مسئولية ما حصل فى الجزيرة وتصدرت مدينة جرجنت ، وهي التي سوف تبقى قلعة ثورية ضد الولاة ــ حركة العصيان ضده ، وربطت صلاتها بالمهدي ، وأعلنت ولاءها واقتدى بها سائر سكان المدن الاخرى ، خوفا من عاقبة الاستمرار فى الانفصال والثورة ضد الفاطميين .

وفى غمرة الفتن بين أنصار ابن قرهب ، الذي رغب فى مغادرة الجزيرة ومعارضيه ، تغلب الاخيرون وتحفظوا عليه وعلى ابنه علي وقاضيه ابن الخامي ، وعلى بعض خاصته ، وأرسلوهم مقيدين الى سوسة ، رجاء فى العفو ، وطلبوا عاملا ، وقاضيا ورفضوا استقبال الجند ، وتظاهروا بالاستغناء عن المعونات المالية من الدولة (216) .

وكان رد المهدي ــ على سكان صقلية ، كفوًا لتقلب أهوائهم وشغبهم واستعدادهم للعصيان فى كل حين ، حيث رماهم بحشد من كتامة وشيوخها وبقائد حازم هو أبو سعيد موسى بن أحمد الضيف (217) .

وبوصول هذا القائد ، الى صقلية اشتعلت نار الثورة فى طرابنش (218) ، وجرجنتي ، وبالرم ، وسائر مدن صقلية ، وأصبح الموقف خطيرا ، اذ استعصى السكان وتمنعوا عليه ، بعد حصار عدة أشهر ، قتل اثناءها منهم

---

215 – Huart (cl) histoire d'Arabe T I, p. 340.

216 ـ ابن عذاري : البيان 1، 242، 243 ، ابن الأثير ، الكامل 8، 25-26، 71-72 ط صادر ، ابن خلدون : العبر ، 4 ـ 442 ـ 443 و 79 ايضا ، زمباور : المرجع السابق 46 ، اماري : المصدر السابق 252 ـ 253 ، 436 ، عبد المنعم ماجد : العلاقات ، 107 ، المدني : المرجع السابق 131 ـ 133 ، وبعد ان عنف ابن قرهب واصحابه ، ضربوا بالسياط وقطعت ايديهم وأرجلهم من خلاف وصلبوا على قبر الحسن بن ابي خنزير بباب سالم فى مدينة رقادة .

217 ـ وسبب ذلك اقتناع المهدي بقول ابن قرهب « ان اهل صقلية يكثرون الشغب على امرائهم ، ولا يطيعونهم وينتهبون اموالهم ، ولا يزول ذلك الا بمعسكر يقهرهم ، ويزيل الرئاسة من رؤسائهم » .

218 ـ من وصفها ، انظر ياقوت : المصدر السابق 6، 36-37 .

عدد كثير ، كما سلبت اموالهم وذخائرهم وهتكت أعراض نسائهم ، وافترعت ابكارهم وعبث بصبيانهم فلم تلن قناتهم ، ولم يضعفوا حتى اشتدت الضغوط عليهم من كل جانب ، وكثرت حشود كتامة ، وتقاطرت نجدات المهدي على قائد الحصار ، الذي لم يقبل بدوره ، منهم مجرد الاستسلام ، بعد الذي حصل منهم حتى يسلموا عدتهم ويتخلوا عن زعماء الثورة ، ويدفعوا مغرما ضخما ويهدموا أسوار مدينة بالرم بأنفسهم ، وفى نهاية الأمر ، ارسل جميع زعماء الثورة فى بالرم وجرجنتي الى المهدي ، حيث انكفات بهم السفينة فى البحر ، فغرقوا جميعا . ويبدو أن ذلك تم بتدبيره ، مبالغة فى التنكيل بهم ، وبسكان بالرم ، وجرجنتي ، لأن بعض النصوص تشير الى ايعاز المهدي اليه بالعفو عن السكان وكان ذلك يعني انهاء لمهمته الاستثنائية ، فرجع الى رقادة بعد أن ترك حامية كتامة ومستخلفا عنه فى الجزيرة ، هو سالم بن أبي راشد ، الذي عين اثر ذلك عاملا رسميا من طرف المهدي (219) .

واهمية سالم بن أبي راشد ، فى صقلية تظهر فيما مارسه من نشاط ثغري فى جنوب ايطاليا ، وفى مساعدته للبعوث البحرية التي الحت على هذا الاقليم منذ سنة 305 هـ /917 — 918 م فقد تمكن مسعود الفتي سنة 310 هـ / 922 — 923 م من القيام بغزو بحري ناجح افتتح اثناءه مدينة أغاثي Santa Agati وغنم منها غنائم ثم انصرف الى المهدية (220) ، وتلاه جعفر بن عبيد الحاجب ففتح مدينة واري (Aria) بعد معركة حاسمة جرت سنة 313 هـ / 925 — 926 م وقتل اثناءها خلق كثير ، كما غنم غنائم ، وأخذ سبايا ، واسر بطريق المدينة ، الذي افتدى نفسه ، بخمسة آلاف مثقال (221) .

ويبدو أن الهدوء النسبي الذي عرفته الجزيرة حتى سنة 313 هـ ، والتوفيق الذي حصل عليه قادة الحملات الثغرية هو الذي دفعه الى

---

219 — ابن عذاري : البيان ، 1 243—244 ، وفيه اشارة لتولية سالم من طرف الضيف ، ابن الاثير : الكامل 8، 25—26 (72—73 ط صادر) حسني ابراهيم : الدولة الفاطمية 99 ، عبد المنعم ماجد : العلاقات 107 ، اماري . المكتبة 253 ، نقلا عن ابن الاثير ، المدني : المرجع السابق 133 ، وما بعدها . زمباور : المرجع السابق 1، 107 ، ابن خلدون : العبر ، 4، 443 ، العزيزي : سيرة جوذر ، 71 حيث وصفه المنصور بالحمار ، فى احدى سجلاته لجوذر ، كي يقوي من عزم واليه الكلبي — انظر 174 منه .

220 — نفسه ، 1، 264 .

221 — نفسه 267 — 268 ، انظر 266 منه حيث يشير الى خروج جعفر الى صقلية منذ 312 هـ فقضى بقية السنة دون ان يلقي العدو ، توفيق المدني : المرجع السابق 134 .

القيام بحركة توسعية كبرى في اقليم انكبردة (222) وخليج تارنتو، تمكن اثنا ها من فتح عدة مراكز وقلاع ، ومن اقرار الوضع في قلورية Calabria التي أصبحت مركزا للراحة وللانطلاق الى ما يليها من مراكز الروم في جنوب ايطاليا (223) ، وأكمل مهمته بعد انسحابه الى بالرم ، صابر الفتى الذي ابتدأ منذ سنة 315 هـ / 927 ـ 928 م ، سلسلة من الحملات البحرية ، ضد مراكز الروم ، فغنم غنائم كثيرة (224) ، وفتح مدنا ، وقلاعا ، وشدد الحصار على سلير (سالرنو) وعلى نابل (نابلي) ولم ينصرف عنهما 316 هـ /928 ـ 929 م الا بعد صلح طلبه سكانهما مقابل أموال وأمتعة نفيسة (225) . وبعد أن استراح الجند ، قام بفتح مدينة ترموله 317 هـ 929 ـ 930 م بعد هزيمة أنزلها بالسردغوس Serguis قائد البحرية المعادية ، واثر ذلك رجع الى المهدية (226) . فواصل النشاط الثغري بعده ، سالم بن أبي راشد ، ثم يعقوب بن اسحاق ، الذي كلف في بداية عصر القائم بأمر الله بمواصلة النشاط الثغري ضد الروم حيث يرتبط باسمه فتح كبرى مدن جنوب ايطاليا وهي جنـوة ، كما أوقع رجاله بسكان جزيرة سردينية ، وأحرقوا مراكبهم ومراكب كورسيكه وعادوا ظافرين (227) .

وقد كان هذا النشاط الثغري الواسع في جنوب ايطاليا وجزر البحر المتوسط ثمرة للجهود المخلصة التي بذلها جند كتامة وأحلافهم سواء في ميدان المحافظة على ولاء صقلية ، وقلورية ، بجانب ولاة الفاطميين ، أو في ميدان النشاط البحري الى جانب قادة البعوث البحرية وهم : صابر الفتى ، وجعفر الحاجب ، ويعقوب بن اسحاق ، وسالم بن راشد ، الذي مهد بسياسته العنيفة ، تجاه السكان وعدم مراقبة عمال المدن لثورة ابتدأت في قاعدة العصيان القديمة ، وهي جرجنتي ، التي أيدتها بالرم ، ولم يتمكن

---

222 ـ اسم لجنوب ايطاليا ابتداء من نابلي حتى أقصى الساحل الجنوبي ، البكري : المسالك والممالك 146 ـ 149 ، ياقوت 1،363 ، المسعودي 1،256 . ابن رسته ، الاعلاق النفسية ، 128 مجلد 7 ـ المكتبة الجغرافية .

223 ـ ابن الأثير 8،54 ، المقريزي : سيرة جوذر 71ـ72 ، ابن خلدون 4،443 ، اماري : المصدر السابق 253ـ254 .

224 ـ ابن عذاري 1،270 ، وصابر الفتي كان احد موالي ابن قرهب الثائر المعروف انظر 269 منه .

225 ـ ابن عذاري : البيان ، 1 ، 273 .

226 ـ نفسه،1،275 .

227 ـ نفسه 1،296 ، ابن الأثير 8،98 (284 ط صادر) ، ابن خلدون : العبر ،4،443، اماري : المصدر السابق 254 ، 436ـ437 ، عبد المنعم ماجد : العلاقات ، 108، المدني : المرجع السابق 138 ، المقريزي ، اتعاظ 1،74 ، ابو الفداء 2،88 .

من اخماد الثورتين الا بعد جهد وتضحيات ، ونفقات باهظة تحملتها خزينة الخلافة الفاطمية التي أرسلت فى نهاية 325 هـ / 936 ــ 937 م ، حملة تأديبية ضد ثوار جرجنتي ، وبالرم اسندت قيادتها الى أبي العباس خليل بن اسحاق الذي عرف بالشدة وبالميل لسفك الدماء .

ولم يغن عن السكان تظاهرهم بالولاء والطاعة نساء ورجالا ولا شكواهم من سلفه ، بقصد بث روح الفرقة بين الاثنين والانتقام من سالم لأنه أصبح سببا لنكبتهم بمجيء هذه القوات ، وذلك لأن حقيقتهم كانت معروفة ، وماضي ، جرجنت ، وبالرم فى العصيان ، والشغب ضد الولاة كان ناصعا .

كما لم يغن عنهم أيضا تحصنهم وراء أسوار المدينتين ، بعد فشل مساعيهم ، ولا طلبهم النجدة من البيزنطيين ، لأن القائد الجديد ، وضع أساسا لمدينة جديدة هي الخالصة وتقع بجوار بالرم ، وتحصن فيها برجاله ، ومنها أشرف على حصار جرجنتي ، منذ جمادي الأولى 326 هـ / ابريل 937 م ، كما هجر مدينة بالروم ، ولم تحل سنة 329 هـ / 940 ــ 941م حتى كانت جرجنتي ، وبالرم ، وسائر مدن الجزيرة فى قبضة رجال خليل بن اسحاق الذين احتفظوا بزعماء الثورة فى هذه المدن ، خاصة جرجنتي ، التي كان سكانها هم سبب الثورة ودعاتها فى بقية المدن ، وعندما أتم خليل بن اسحاق مهمته ، ورجع الهدوء نسبيا الى الجزيرة ، تركها الى المهدية ، وفى طريقه أمر بثقب المركب فغرق سائر ثوار صقلية (228) .

* * *

وفى ظل اضطراب أوضاع صقلية ، بسبب قسوة الولاة ، أو ضعفهم وانقسام سكانها ، الى جنسيات مختلفة ، ونحل متعددة تهيأت الظروف

---

228 ــ ابن عذاري : المصدر السابق ،1، 305 ، ابن الأثير : المصدر السابق 8، 118ــ119 (337 ــ 338 ط . بيروت) ، اماري : المصدر السابق 254ــ256 نقلا عنه ، وانظر 437 منه نقلا عن نهاية الأرب للنويري ، ابن خلدون : العبر ، 4 ، 442 وما بعدها ، العزيزي ، سيرة جوذر 71 ، تعليق 77 ، زمباور : المرجع السابق 107 ، وخليل ابن اسحاق ، من الغلاة فى المذهب الاسماعيلي ، ومن القساة فى معاملة الغير حتى ان المهدي كان يعينه فى المهمات الاستثنائية ، كجباية الأموال ومحاسبة الدواوين والعمال ، وكان لا يخفي ميله للعنف ، بل يفتخر به أمام الملا وفى المجالس، ويبدو ان قسوته كانت سببا فى كثرة الدسائس حوله ، حتى نقم عليه المهدي ، وهم بقتله لولا تدخل ابنه أبي القاسم ، وينسب اليه شعر فى المهدي ، وفى القائم ، تضمن غلوا واضحا : انظر ابن عذاري : البيان 1، 305ــ306 ، ابن ايبك الدواداري، الدرة المضيئة 115 ، المدني ، 141 ، المقريزي ، اتعاظ ، 1، 87 .

المناسبة لظهور قوى سياسية جديدة ، وانبعث النشاط فى جانب الروم الذين استنجد بهم ثوار جرجنتي من قبل (229) .

وقد انضاف الى ذلك ، الفراغ السياسي الهائل الذي تركه خليل بن اسحاق بعد انسحابه سنة 329 هـ لأن عطافا الأزدى بعده ، عجز عن كبح جماح الأسر الاقطاعية ، والزعامات المحلية ، التي عطلت نفوذه ، كما أن سكان قلورية استغلالا لهذه الظروف ، اوقفوا أموال الهدنة التي قررت عليهم من قبل . وبدأ جانب المسلمين أثناء هذه الفترة ضعيفا ، لأن الغزو الثغري توقف ، وانشغل السكان بالفتن وبتأييد الزعامات المحلية التي اشتهر من بينها : أسرة بني الطبري ، وبني ماضوض ، وبني أخيه ، والذين لم يكتفوا بالتحجير على عطاف الأزدي واغتصاب سلطاته بل ثاروا ضده والجاؤه الى قلعة الخالصة واستولوا على ذخائره وأموال الولاية ، وبقى حتى عزله المنصور وعين على الجزيرة واليا عربيا ، هو الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي ابتداء من سنة 336 هـ / 947 – 948 م مكافأة له على اخلاصه للدولة ودوره فى انهاء ثورة أبي يزيد وهو الذي أصبح رأس أسرة عربية جديدة فى صقلية هي أسرة الكلبيين (230) التي استمرت حتى الفتح النورماني للجزيرة فى نهاية القرن الخامس الهجري .

وبمهارته واخلاص جند كتامة له ، تمكن من فرض سلطانه على سكان الجزيرة ، فأمنهم من الأخطار الخارجية واستأنف سكان قلورية ارسال أموال الجزية اليه كما تتبع عناصر الشغب وزعماء الفتنة ، وشرد كثيرا

---

229 – يشير بعض الباحثين الى ظهور عنصر النورمان منذ بداية 327 هـ ، فى مركز حصين فى جنوب ايطاليا وانهم كانوا يقومون باعمال القرصنة ضد ممتلكات البابوية ، والامبراطورية البيزنطية ، ومن هناك ، كانوا يراقبون تطور اوضاع الجزيرة : انظر، توفيق المدني 141 .

230 – ابو الفداء ،2، 101 ، وما بعدها ، زمباور : المرجع السابق ، 107 ، عبد المنعم ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين ، 276 – 277 ، ريزيتانو : المرجع السابق 54 ، يصفه بالكتامي ، باعتبار ان عصبية الدولة وجندها الذين رافقوه كانوا من كتامة ، ابن خلدون : العبر ،4، 442 ، وفيه قوله « دولة بني الحسن الكلبيين بصقلية من العرب المستبدين بدعوة العبيديين » ، العزيزي : المصدر السابق ، 70–71، تعليق 76 . ويوصف هنا بانه من شيوخ كتامة ، اي من زعماء جندها السياسيين ، بيبرس الدوادار : المصدر السابق ،6، 112–113 ، ويشير هوارت الى انه عربي من كلب ، انظر
Huart (cl) histoire d'arabe T I, p. 342.

منهم ، وقتل آخرين تنفيذا لوصية الخليفة المنصور ، بعد ان استرجع منهم ما اخذوه من أموال ، في عهد سلفه عطاف الأزدي (231) .

وبعد أن اطمأن على الوضع الداخلي استأنف النشاط الثغري في جنوب ايطاليا الذي أسفر عن عدة نتائج هامة في مقدمتها :

ـ اتخذ الحسن الكلبي منذ 340 هـ / 951 ـ 952 م مسينا مركزا هاما للانطلاقة والراحة ، في فصل الشتاء ، ومنها عبر البحر الى ريو Reggio فانساح المسلمون في قلورية ، والجأوا « جراجة » لدفع الجزية مقابل فك الحصار عنها ، كما تتبعوا قوات البيزنطيين حتى اضطروهم الى الالتجاء الى قاعدتهم في باري ـ على بحر البنادقة (الادرياتيكي) دون أن يجرؤوا على مواجهة قوة المسلمين .

وعندما عاد الروم ، واجههم الحسن الكلبي بجوار جراجة ، فهزم السرغوس ، وأعيد حصار المدينة ولم ينصرف المسلمون عنها الا بعد أن طلب الأمبراطور قنسطنطين 7 برفروجنتيوس الهدنة من الحسن الكلبي الذي وافق ورجع الى ريو ، التي أصبحت خالصة للمسلمين ، فبنى فيها مسجدا بمئذنة ، واشترط لبقاء الهدنة ، احترام عقائد المسلمين فيها ، وعلى أن يكون لهم الحرية في ممارسة عقائدهم وتوسيع مسجدهم اذا ارادوا ، والا يدخله نصراني ، ومن دخله من اسرى المسلمين ، ولو كان مرتدا ، تكون له الحصانة ، ثم ان بقاء كنائس الروم في صقلية وافريقية رهن ببقاء هذا المسجد . وقد بقي الروم اوفياء لهذه الشروط طيلة ولايته التي انتهت بعد وفاة المنصور : 341 هـ / 952 ـ 953 م (232) .

ـ وعندما نقض الروم الهدنة أثناء ولاية ابنه أحمد ، واستولوا على عدة مراكز ، وحاصروا نابولي المحالفة للمسلمين وهدموا مسجد ريو ، عاد الحسن من جديد سنة 345 هـ / 956 ـ 957 م فأرجع الوضع الى سالف عهده ، والجأ الروم الى طلب الهدنة ، على أن يستمر دفع الجزية ، كما كان ـ من طرف سكان قلورية الذين احتفظوا بدينهم (233) .

---

231 ـ اماري : المصدر السابق 257ـ258 (نقلا عن ابن الأثير) ، ابن خلدون : العبر ، 4،443 وما بعدها ، عبد المنعم ماجد : العلاقات ، 108 ، المدني : 142 ـ143 ، العزيزي : المصدر السابق 71ـ72 وضمن وصية المنصور للحسن استعمال الصرامة والشدة لاسترجاع هيبة الدولة لأنه « في بلد قد اسكرت اهله النعمة وابطرهم الاحسان ، وامتدوا مع خليل اشياء لا يخرجها من رؤوسهم الا السيوف»، ابن الأثير : الكامل ،8،169ـ170 (471 ط . بيروت ، ريزيتانو ، 54 ، أبو الفداء 2،101ـ102 .

232 ـ أبو الفداء : المصدر السابق ،2،101،102 ، ابن الأثير : الكامل ، 8،170ـ171، 178 .

233 ـ اماري : المصدر السابق 438 ، (نقلا عن النويري) ، عبد المنعم ماجد : العلاقات ، 109 ، المدني : المرجع السابق 148 .

ـ وقد استغل احمد : قوة مركز المسلمين ، وهدوء الوضعية ، فى القيام بحركة توسع كبرى فى شرق الجزيرة ، على حساب الروم ففتحت طبرمين بعد حصار طويل فى ذي القعدة 351 هـ / ديسمبر 962 م ـ واخرج سكانها منها ، فالتجأوا الى رمطة القريبة منها ثم عمرت بجاليات اسلامية وسميت المعزيــة (234) .

ـ وحول رمطة التي استعصت على المسلمين منذ أن بدءوا حصارها فى رجب 352 هـ / يوليه 963 م بقيادة الحسن بن عمار (235) ، بسبب مناعتها وعناد سكانها ، ومن انضم اليهم من طبرمين والروم ، تحول الصراع من أجل افتتاحها ، او تحريرها من قبضة المسلمين ، الى مواجهة كبرى ، بين قوة الجناح الغربي من دار الاسلام ، وقوة دار الحرب التي كانت تمثلها الامبراطورية البيزنطية ، التي خيل لامبراطورها ، نفقور فوكاس ، مــن الأسرة المقدونية أن الفرصة مواتية لضرب دار الاسلام فى الغرب ، كما سبق أن ضربها بنجاح فى الجبهة الشرقية ، فأرسل مانويل على راس قوات ضخمة كما اسندت قيادة الأسطول الاسلامي الى الحسن الكلبي ، الذي تمركز فى بالرمو ، وانجد قائد حصار رمطة بقوات كافية لكنها كانت دون قوة الروم الذين خيل اليهم انهم يستطيعون تحطم قوة ابن عمار ، بعد تبديد شمل قواته، وبالتالي يحررون رمطة التيقويت مقاومتها بوصولهم غير أنادراك ابن عمار لوضعه الدقيق جعله يقاتل فى جبهتين ، لأحكام حصار رمطة ، ثم لدحر الروم ، وقد تمكن ببراعته من هزيمة الروم وقتل قائدهم ، وتبديد شمل قواتهم فى معركة عرفت باسم معركة رمطة ، والحفرة (236) أيضا ، وانهزم الروم اقبح هزيمة ، فاكثر المسلمون فيهم القتل ، كما أنهى حصار رمطة ، واقتحمها بقواته وادب سكانها وصبغها بصبغة اسلامية .

ـ اما فلول الروم وبقايا السيوف من سكان رمطة الذين غادروا ربو بحرا فى طريقهم الى باري أو الى بيزنطة ، فقد اقتفى اثرهم والي الجزيرة أحمد بن الحسن ، وغامر بقواته ودخل البحر واشتبك معهم ، وانزل

---

234 ـ ابن الاثير : الكامل ،8،190 ، ياقوت : المصدر السابق 6،23 .

235 ـ وهو الذي ازدهر فى مصر فى عصر الحاكم بامر الله ، عبد المنعم ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين ، 371 ، العزيزي ، سيرة جوذر ، 179 ، تعليق 95 .

236 ـ النويري : المصدر السابق 22،قسم 2 ورقة 121–122 .

بهم هزيمة عند مضيق مسينا ، سنة 354 هـ / 956 م عرفت بموقعة المجاز (237) .

وهكذا كانت النتائج عظيمة وتمثلت فى :

ـ ظهور قوة المسلمين والاسلام فى الجزيرة وفيما جاورها .

وتأكد مبدأ تبعية قلورية مع مراكز اخرى فى اطار دفع الجزية لولاة الفاطميين فى الجزيرة .

ويلاحظ ان مركز المسلمين فى الجزيرة لم يتأثر بوفاة الحسن الكلبي عقب الانتصار (238) ، لأن ابنه أحمد ، بقي محافظا على المكاسب الاسلامية فى الجزيرة حتى استقدمه المعز لدين الله سنة 358 هـ / 968 ـ 969 م لنفس السبب الذي استقدم به اباه من قبل ، وهو أن يشرف على رئاسة الاسطول الفاطمي ، وعين على الجزيرة مولى من موالي أبيه ويسمى يعيش (239) .

ويبدو أن هذه الحركة لم تقع موقعا حسنا فى نفوس مسلمي صقلية وافريقية الذين ربطوا بين اقصاء هذه الاسرة عن الجزيرة وبين نزعة المعز لدين الله فى الميل الى الاستبداد ، وفى الضرب على أيدي من يخشى خطرهم وافتتان الناس بهم من القادة والولاة .

ودلت هذه الحركة على رغبة المعز لدين الله فى ابقاء صقلية تابعة لنفوذه مباشرة بعيدة عن أية صورة من صور الانفصال .

وخشى أن يكون اعجاب الناس بالحسن بن أحمد وتقديرهم للقادة الكلبيين الذين برهنوا على نجاعتهم فى الاصلاح الداخلي وفى الغزو الثغري ،

---

237 ـ ابن الأثير : الكامل ،8، 199 ـ 200 ، اماري ، المكتبة الصقلية 263ـ266 ، نقلا عنه ، و 439ـ441 ، نقلا عن النويري ، وفيه قوله عن انهزام الروم ، « فوقعوا فى الوعر وافضى بهم الى حفر خندق عظيم كالحفرة من بعد قعره فسقطوا فيها وامتلات الحفرة منهم على طولها وعرضها وعمقها » ، ابن خلدون : العبر ، 4، 446ـ447 ، حسن ابراهيم ، الدولة الفاطمية ، 102 وما بعدها ، عبد المنعم ماجد ، العلاقات ،109ـ110 ، العزيزي ، المصدر 88 ، تعليق 95 ، المدني : المرجع السابق 148 ، وما بعدها ، ابو الفداء ،2، 101ـ102 ، بيبرس 6، 161ـ162 .

238 ـ ابدى المعز لدين الله تاثرا عميقا لوفاته ، فكلف جوذر بتعزية ابنه وهو والي الجزيرة لما كان يربطه باسرة الكلبيين من علاقة مودة وتصاف ، سيرة جوذر 116، 120، 128ـ129 ، توقيع رقم 68 ـ انظر تعليق 132 منه .

239 ـ اماري ، المكتبة الصقلية ، 441 نقلا عن النويري ، ابو الفداء 2، 102 ، عبد المنعم ماجد ، ظهور الخلافة الفاطمية 279 ، وما بعدها ، ابن الأثير : الكامل ، 8، 219 .

مقدمة لتأييدهم فى الانفصال والاستقلال بحكم الجزيرة وملحقاتها . وهدوء الأوضاع فى صقلية وخضوع قلورية واقرار مبدأ الهدنة مع البيزنطيين ، شجعه على اعتبار صقلية ولاية تابعة له مباشرة كغيرها من الولايات (240).

وشعور سكان صقلية خاصة انصار الكلبيين ، بأهداف المعز لدين الله تجاه الاسرة هو الذي أدى الى حالة من الفوضى والاضطراب وانعدام الأمن بسبب ثورة السكان ضد يعيش الذي عجز عن التوفيق بين جند الدولة ومواليها من جهة ، وبين الثائرين فى مدن بالرمو وسرقوسة ، وغيرها من قلاع صقلية ، وظهرت العداوة والعنصرية بين العرب والبربر ، وبين فرعي البربر أيضا كما قويت ظاهرة الانشقاق المذهبي ، بين الشيعة والسنة من جهة أخرى .

وامام هذه الوضعية السيئة ، سلك الخليفة مسلكا وسطا ، يرضي نزعته ولا يغضب سكان صقلية لأهمية بلادهم فى الصراع مع الروم ، فأبعد يعيش عن الولاية لاستضعاف السكان له وأقر من حيث المبدأ ، ولاية أحمد بن الحسن على الجزيرة سنة 359 هـ / 969 ـ 970 م ، لكنه احتفظ به الى جانبه ، للقيام بالمهمة التي أسندت اليه من قبل ، وارسله الى مصر ، حيث توفي فى طرابلس وارسل الى الجزيرة مستخلفا عنه ، اخاه أبا القاسم بن الحسن ، الذي تجلى عند ظهوره فى الجزيرة ، صدى ما يكنه سكانها من حب وتقدير لأسرته ، فمالوا الى السلم ، والهدوء فى اطار التبعية له حتى توفي فى سنة 372 هـ / 982 ـ 983 (241) ، فوليها ابنه جابر ، ثم قريبه جعفر بتقليد من العزيز بالله (242) منذ 373 هـ / 983 ـ 984 م . واستقر الحكم فى الأسرة الكلبية وراثة ، انما فى اطار التبعية السياسية

---

240 ـ نفسه ، وفيه اشارة لهدايا وردت على المعز من الدمستق ، ومن امبراطور بيزنطة ، وقد ابلغ المعز ، والي الجزيرة خبر الهدنة وكلفه ببناء اسوار بالرم ، وبالاكثار من المدن المحصنة الجامعة ، وجمع السكان فيها بدلا من تركهم متفرقين فى قرى وقصور صقلية .

241 ـ ابن خلدون : العبر، 4، 447ـ448. أماري 266 ـ 267ـ442، ابن الاثير : الكامل 9، 5. حسن ابراهيم : الدولة الفاطمية 106ـ107 ، عبد المنعم ماجد : العلاقات 110 ، ابن عذاري : البيان 1، 340 ، المدني : المرجع السابق ، 150ـ151 ، وفى عهد ابي القاسم ، زار ابن حوقل صقلية ونقل اليه خبر وفاة اخيه فى طرابلس .

242 ـ ابن عذارى: البيان ، 1، 340 ، أبو الفداء ، 2، 102 ـ 103 ، وبعد جعفر 375 هـ وليها عبد الله بن محمد (ت 379 هـ) ثم ابنه أبو الفتوح يوسف بن عبد الله الذي ادرك شطرا من خلافة الحاكم ، ووساطة قريبه الحسن بن عمار ، وبعد وفاته عين ابنه جعفر بسجل من الحاكم ولقب بتاج الدولة واثر عصيان السكان له ، وليها اخوه تاييد الدولة احمد الاكحل منذ 410 هـ وعندما قتل 427 هـ وولى اخوه صمصام الدولة الحسن ، اضطربت امورها حتى آلت الى النورمان ، وقد واجه معظمهم محاولات الروم للعودة الى الجزيرة ، ونشاط البابوية ، والامبراطورية ، وحركات النورمان المخربة .

والمذهبية للخلفاء الفاطميين في مصر حتى اقتطعها روجر النورماني من دار الاسلام ، 484 هـ / 1091 — 1092 م مستغلا انصراف الفاطميين منها ، وشيوع ظاهرة « الطائفية » ، والصراعات السياسية والمذهبية ، وعجز الزيريين عن حمايتها بسبب غرق الأسطول ، واضطراب الوضع الداخلي في افريقية والمغرب الأوسط (243) .

ومن خلال تجربة الفاطميين في التوسع في جزيرة صقلية يلاحظ :

— أن نفوذهم فيها لم يستقر الا في عهد اسرة الكلبيين ، ولفترة مؤقتة ايضا .

— ويبدو ان الفاطميين لم تكن لهم سياسة قارة ومحددة تجاه صقلية ، رغم انهم بادروا الى ضمها بسرعة اثر استقرارهم في رقادة ، واعتبروها ثغرا للجهاد ، وللغزو ضد مراكز الروم في البحر ، وللتوسع في أرض أروبا ، ويدل على ذلك :

— انهم لم يتحروا في اختيار ولاة الجزيرة ، فكانوا يعينون احيانا على راس هذه الولاية الثغرية ، من غلب عليه اللين ، أو طعن في السن أو لم يكن له ماض في التسيير الاداري وفي تدبير الحروب ، واحيانا اخرى ، كانوا يعينون ولاة أقوياء يتجاوزون الحد في العنف ، وفي اراقة الدماء .

— وجند كتامة ، الذين استولوا على الجزيرة ومارسوا النشاط الثغري منها ، ضد قلورية واستقروا في انحائها لحراسة النفوذ الفاطمي ، سرعان ما استبدوا بالحكم ، وبالسكان وكانت نزعتهم فوضوية ، وتغلبت عليهم العنصرية ، وكانوا يميلون الى الشغب والى الاعتداء على الاموال والحرمات، كما كانوا يتدخلون في الصراعات الداخلية بين الامراء الكلبيين ، حيث وقفوا الى جانب علي ، ضد أخيه جعفر بن يوسف ، الذي انتقم منهم فنفى معظمهم من الجزيرة ، ثم أبعد العناصر القديمة عن السلطة وعن الجيش ، واستعان بجند من اهل الجزيرة فكان ذلك تطورا خطيرا اساء الى وضع البلاد ، التي تقوم حياتها على قوة جندها (244) .

---

243 — ومحاولتهم في عصر المعز بن باديس سنة 444 هـ فشلت بسبب غرق الاسطول ، ثم ان ميول المعز الانفصالية ، اساءت الى الوضع في صقلية والى العلاقة مع الفاطميين لانها قضت على الامل في التنسيق بينهم وبين الزيريين لنصرة مسلمي الجزيرة . انظر عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ، 281–287 ، ريزيتانو : المرجع السابق ، 40 وما بعدها ، ابن الاثير : الكامل ، 10،72 وما بعدها ، حسن حسني عبد الوهاب قصة جزيرة قوصرة العربية 61 — المجلة التاريخية المصرية ، مجلد 2 ، عدد 2 اكتوبر 1949 . النويري : المصدر السابق 22 قسم 2 ورقة 177 وما بعدها .

244 — ابن الاثير : الكامل ،10،72، احداث سنة 484 هـ .

ـ ومن دون شك ، كان لافراط كتامة فى التشيع ونسبتها الى فرع البرانس تاثير كبير ، على أهل السنة ، من العرب والبربر البتر ، من غير موالي كتامة واحلافهم .

وقد شاعت ظاهرة اللصوصية والسلب والنهب فى عهود الفتن والحروب كأثر ، لتقليد السكان لتصرفات كتامة وماكانوا يبيحونه لأنفسهم فى عهود الامن والاستقرار .

ولم يكن الخلفاء الفاطميون ، متفقين على نهج معين لحكم الجزيرة ، ومن ثم نلاحظ ان سياسة المنصور فى اقرار الاوضاع الشرعية فيها والتصدي لحرب الثغور ضد الروم والفرنج ، بالاعتماد على أسرة عربية قوية ، برهن رجالها على اخلاصهم وأهليتهم ، لم تلق كل الرضا من طرف المعز لدين‌الله الذي اضطربت تصرفاته بين ازاحة هذه الاسرة تحت ستار العناية بالاسطول وتعيين ولاة من أتباعهم ، أو بين ارجاعهم اليها بطريقة خاصة حيث كان أحمد واليا لكنه لم يباشر الحكم الا فترة ، وبواسطة أخيه أبى القاسم حتى توفي فى طرابلس ، ولم يسمح له المعز لدين الله حتى بالرجوع الى المهدية فى احدى المناسبات رغم أنه تحايل بالتظاهر بالشـــوق اليه ، والرغبة فى رؤيته (245) .

وكان المعز لدين الله على عكس أسلافه ، أميل الى سياسة الهدنة والتصالح مع الروم الذين استقبل سفيرا عنهم فى المنصورية (246) ، والى الاكتفاء بالجزية من نصارى قلورية ، وبعض قلاع الكبردة ، ولم يأبه لمشاعر المسلمين المعادية له ، عندما تخلى عن طبرمين ورمطة ، واخلاهما مصانعة للروم (247) .

---

245 ـ العزيزي الجوذري : سيرة جوذر 118ـ119 .

246 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، 1،226 ، النعمان ، المجالس والمسايرات ، 1 ورقه 244 وما بعدها ، قصيدة رقم 94 ، من «قصائد لم تنشر» لابن هانى ، وتضمنت اشارة الى الوفد البيزنطي الذي وفد على المنصورية ـ حوليات تونس عدد 6 سنة 1969 .

247 ـ اماري : المكتبة الصقلية 441 (نقلا عن النويري) ، ابن الأثير : المصدر السابق 8،240 ـ 241 ، وهنا يشير الى ان أبا القاسم الكلبي اعاد سنة 365 هـ تعمير مدينة رمطة ، وكانت من قبل قد خربت ، النعمان : المجالس والمسايرات ، 1 ورقة 244 وما بعدها ، النويري ، نهاية الارب ج 22 قسم 2 ورقة 119 وفيه قوله : «وفى سنة 358 هـ وصلت هدية ملك القسطنطينية فامر المعز لدين الله باخلاء طبرمين ورمطة فاغتم المسلمون لذلك » .

ويرهن بذلك على أن من بين اهدافه فى الجزيرة ، هي أن تكون طريقا للمساومة ، وللضغط ، فى أية مفاوضة مع الروم ، وكان تعيينه ليعيش عليها ، استنقاصا لسكانها ، واتجاها للتقليل من حرب الثغور (248) .

ورغم أن انتقاله الى مصر ، بعد مدة من اخلاء رمطة ، وطبرمين ، كان فى غير صالح افريقية وصقلية ، لأن أوضاع الجزيرة لم تستقر ، فانه حرص على ابقائها تابعة له مباشرة ، تحت ستار الاستمرار فى الجهاد ، ولم تشملها سلطة الزيريين ، للخوف من اتساع نفوذهم ، ورغبة فى ابقاء مراكز انطلاق ضدهم ، فيما لو فكروا فى الانفصال ، مع أن الوضع الطبيعي ، كان يقتضي ، ربطها بنظام الزيريين ليستمر الجهاد وحراسة النفوذ الفاطمي فيها وفى غيرها ، من أرض المغرب . ويلاحظ أن تخلي الفاطميين عن طرابلس ، للزيريين منذ خلافة العزيز بالله وعدم تفريطهم فى صقلية مع أنها امتداد طبيعي لأرض افريقية ، ينهض دليلا على أن احتفاظهم بها كان لهدف استراتيجي خاص (249) .

ولم يكن وضع الجزيرة خافيا على المعز لدين الله ، ولا على خلفائه ، ولم يغب عنهم أن الروم الذين توسعوا فى اقريطش وقبرص وشددوا الضغط فى الجبهة الشرقية هم الذين يتحفزون للاستيلاء عليها . وهكذا تغلبت المصالح الاسرية وطغى طموح الفاطميين الى السيادة العليا فى العالم الاسلامي، منافسة للعباسيين ، على مصالح المجموعات الاسلامية فى صقلية وافريقية ، اللتين تركتا لمصيرهما بعد ان أعياهما النضال ضد هؤلاء المتغلبين .

ولا مبالغة اذا قلنا بأن مسؤولية ضياع الجزيرة ، لا تقع على عاتق سكانها ، أو على الامراء الزيريين ، بقدر ما تقع على عاتق الفاطميين ، الذين مهدوا بسياستهم الملتوية ، الى انفصال الجزيرة نهائيا ، عن دار الاسلام .



248 ـ ومع ذلك ، فالذي يجب ان يلاحظ هو ان المعز لدين الله رفض مبدأ الهدنة المؤبدة التي طلبها سفير الامبراطور البيزنطي . كما استقبل المعز رسل مسلمي جزيرة اقريطش ووعدهم بالمساعدة ، كما حاول التنسيق مع كافور الاخشيـــدي لنجدة الجزيرة بجهد مشترك ، لانها «فرضة مصر» وخاطبه بقوله « وانت لعمري بذلك اجدر لقربهم منك ، واتصالهم بك ، ومسيرتهم ببلدك ، وكونهم واياك فى دعوة واحدة ، ولو اسلمناهم اليك وقعدنا عنهم ، لما كان لك ولا لهم علينا حجة فى ذلك » . انظر النعمان ، المجالس والمسايرات 2 ، ورقات 411-414 ، 421 وما بعدها ، بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة 6 ، ورقة 161-162 .

249 ـ وقد حاول المعز بن باديس نجدة سكان الجزيرة عقب نشاط الروم ضد قلورية وقلاع صقلية ، غير ان سوء الاحوال الجوية هو الذي ادى الى غرق الاسطول فى جزيرة قوصرة (Pentilleria) وعن هذه الجزيرة أنظر ياقوت معجم البلدان 7 ، 183، ح.عبد الوهاب قوصرة العربية 55 ـ 73 ، المجلة التاريخية المصرية مجلد 2 ، عدد 2 ، 1947 ، ابن الاثير : الكامل ،9، 130 .

والاهداف الاستراتيجية نفسها هي التي وجهت عمل الخلفاء الفاطميين نحو طرابلس وبرقة ، تعبيدا لطريق الشرق وخلقا لمراكز امامية قريبة من حدود مصر ، ومن مراكز الروم شرقي البحر الابيض المتوسط ، للضغط ولانهاك ولاة مصر العباسيين ولتهيئة ظروف مناسبة لطعن الخلافة العباسية باحتلال مصر ، وما هو من ملحقاتها مثل بلاد الحجاز والشام .

وقد استهل عبيد الله المهدي نشاطه فى رقادة ، بتعيين وال على طرابلس من قبيلة اجانة (250) ، هو ماكنون بن ضبارة (251) ، عامل ميلة القديم ، واخص رجال الداعي الشيعي الذي استقر فى مركز عمله دون أدنى مقاومة داخلية فى البدء ، غير أن هوارة وأحلافها من زناتة ، ولماية ونفوسة وربما زواغة ، استغلوا الفوضى ، وعدم استقرار أوضاع الدولة فى افريقية ، وفى المغرب الاوسط ، وأعلنوا العصيان ، بدافع العصبية السياسية والمذهبية والحقد على الشيعة ، الذين صفوا امامة الرستميين ونكلوا بالاباضية فى تاهرت وبالصفرية فى سجلماسة .

وتصدر زعامة الثورة ، شخص من هوارة البرنسية،يسمى ابا هارون، الذي استهل عمله بحصار مدينة طرابلس منذ أواخر 298 هـ/910 ــ 911م واظهار العداء لعامل المهدي ، ولجند كتامة .

وعندما اصبح الوضع خطيرا ، أرسل المهدي نجدة كتامية بقيادة ابى زاكي تمام بن معارك الاجاني (ابن أخيه) لرفع الحصار ، ولتأديب الثوار ، وعندما انجز مهمته بنجاح ، وشتت شمل هوارة وأحلافها ، وقتل كثيرا منهم ، ومثل بهم ، وأرسل رؤوسهم الى رقادة حيث شهرت (252) ــ لقي مصيره ــ هو الآخر ، انما على يد عمه عامل طرابلس ، بناء على أمر وصله من المهدي ، لانه من بين زعماء الحركة الثورية ، ومن أخص مساعدي ابي عبد الله الشيعي ، وقد ابعده المهدي « على بنية بناها ، ونية نواها فى قتله ، وقتل أبى عبد الله الشيعي بعده » وقد حرص العامل على تبليغ المهدي خبر تنفيذ الامر فى حينه ، عن طريق بريد

---

250 ــ صحفت الكلمة الى اسجانة (سيرة جوذر 121) ووصف ماكنون بالاجابي (بالباء) ابن عذاري : البيان 1،227 ، كما وصف باللحياني ايضا ، انظر : الزاوي : الفتح العربي لليبيا 184 ، ابن خلدون : العبر 4 ، 76 .

251 ــ ياتي اسمه احيانا بصيغة ماقنون بن دبارة ، ابن عذاري ، البيان 1،227 س 3 ، وضبارة اسم مالوف ، وورد فى بعض المصادر التاريخية ، انظر الطبري ، تاريخ الامم والملوك 7،405 ، عن عامر بن ضبارة ودوره اثناء حركة التوسع العباسي فى خراسان .

252 ــ ابن عذاري : البيان المغرب ، 1،225ــ226 ، ابن خلدون : العبر ، 4،77 ، ابن الاثير : الكامل 8،18 (52 ط . بيروت) .

الحمام (253) الذي وصل الى رقادة بعد التنفيذ ، الذي صادف الثلاثاء من غرة ذي الحجة 298 هـ ، وعلى الاثر ، أمر عروبة بن يوسف الملوسي ، وجبر بن ناسب الميلي ، بقتل الداعي وأخيه غدرا ، فنفذا الأمر ، رغم استنكار الداعي واستعطافه لعروبة ، مرافقه القديم (254) .

ويظهر أن ما نتج عن قتلهما ، وقتل ابى زاكي قبلهما فى افريقية ومنطقة كتامة كانت له أصداء قوية فى طرابلس ، وفيما جاورها ، لأن بعض النصوص تشير الى خروج حملة عسكرية من طرابلس ، قادها ابن دوقان ورجاء بن ابي قنة الكتاميان ضد مضارب لواته حيث ظفروا بغنائم وانتقموا من لواته شر انتقام ، وانهوا أخبار توفيقهم الى المهدي ، فقرئت سجلات عنها فى القيروان وأعمالها ، والقصد من ذلك أن تهدأ نفوس السكان وتضعف مقاومتهم (255) .

وظهرت نتائج هذه الحملة التأديبية فى هدوء الوضعية فى كامل اقليم طرابلس ، واخلاد السكان بعدما حل بهم الى الراحة والسكون الذي استغله عامل طرابلس فى الاستبداد والقهر ، واطلاق الحرية لعصبيته الكتامية ، يتصرفون كيفما شاؤوا ، ضد أموال الناس ومعتقداتهم ، وحرماتهم ، وعندما تمادوا فى الطغيان ، ولم يظهر من الوالي ما يدل على الاستنكار ، وبلغ الغضب الشعبي اقصاه ، تفجرت حركة الثورة وتحرك السواد مستهل سنة 300 هـ /911 ــ 913 م ضد عامل المدينة وضد جند كتامة ، وبينما تمكن العامل من الفرار ، نكل بجند كتامة ، فقتلوا عن آخرهم ، بعد حصارهم داخل المدينة ، وكانت خير فرصة لهوارة وللعناصر العربية ولبقايا بني الاغلب (256) كي يعلنوا انفصالهم عن الدولة ، فعينوا من تلقاء أنفسهم ، زعيما عربيا ، للاشراف على شؤون المدينة ، هو محمد بن

---

253 ــ وعن استعانة الفاطميين ببريد الحمام ، انظر ابراهيم العدوي ، الحمام الزاجل فى العصور الوسطى 136 ــ 137 ، المجلة التاريخية المصرية مجلد 2 ، عدد 1 سنة 1949 .

254 ــ ابن عذاري : البيان 1،227 ــ 228 ، وقد اكتفى عروبة بقوله يخاطب الداعي : «امرني بقتلك من أمرتني بطاعته ، وانخلعت له من الملك بعد توطنته» ، ابن حماد : المصدر السابق 11 ، يحي بن سعيد الانطاكي : المصدر السابق 756 وما بعدها النويري : المصدر السابق 26 ورقة 34 ، الزاوي : المرجع السابق 184 .

255 ــ نفسه 1،229 ، ورغم ذلك فقد بقيت منطقة برقة على وضعيتها الادارية القديمة من حيث تبعيتها للعباسيين حتى نجاح حملة حباسة بن يوسف الكتامي . انظر ابن عذاري : البيان 1،235 .

256 ــ نفسه 1،234 س 6 ، 14 .

اسحاق القرشي ، الذي عرف بابن القرلين (257) وكان يساعده فى مهمته بعض زعماء الثورة وهم محمد بن نصر والحوحه ، واستمر هذا الحكم الثلاثي لمدينة طرابلس عدة شهور (258) كانت هي فترة التهيئة والاعداد فى رقـادة .

وقد تمثل المجهود الفاطمي ، ضد ثوار طرابلس ، فى حملتين ، بحرية ، وأخرى برية . وكانت الحملة البحرية التي تألفت من خمس عشرة قطعة أسبق تحركا وظهورا أمام ميناء طرابلس حيث هزمت ، وقتل من فيها وأحرقت سائر قطعها بواسطة الثوار الذين عقدوا العزم على تأكيد مبدأ الانفصال ، الذي لم يتأثر الا بعد وصول الحملة البرية التي قادها : أبو القاسم ، وعامل طرابلس القديم ، وانطلقت من رقادة يوم الاحد 2 جمادي الاولى سنة 300 هـ / ديسمبر 912 م فأنزلت هزيمة نكراء بهوارة وأحلافها ، الذين قصدوا تعطيل حركة الحملة وصرفها عن هدفها كما فرض الحصار الشديد ، على المدينة وعلى أرباضها ومنعت عنها الامدادات ، حتى مل السكان وعانوا من الجوع ، الذي اضطرهم لأكل الميتة ولطلب الأمان على أموالهم وانفسهم واظهروا التخلي عن زعماء الثورة الذين تحفظ أبو القاسم عليهم ورفض تأمينهم ، وتمسك بحق الدولة فى تأديبهم لعصيانهم وللخسائر الجمة التي لحقت بالدولة من جراء طموحهم وطيشهم ، وهم الذين سيقوا الى رقادة ، وبعد أن شهروا ، وطوف بهم فى مدينة القيروان، على الجمال بالقلانس ، قتلوا (259) ، ورجعت الاوضاع فى طرابلس الى الهدوء ، الذي استغله أبو القاسم فى تأمين المدينة من مثل هذه الحركات الثورية .

فقد فرض غرامة حربية باهظة على السكان وكلف بجمعها منهم خليلا بن اسحاق ، من أبناء الجند فى طرابلس (260) .

وقد أعتبر العناصر الاغلبية فى المدينة خطرا على الامن والنظام ، لذلك قتلهم ، كما قتل من اشترك الى جانبه فى القضاء على الثورة منهم (261) ، وعمله ضد بقايا بني الأغلب استمرار للاتجاه الذي تبناه أبوه فى افريقية ،

---

257 ـ ابن عذاري : البيان، 232ـ233 ، لعله تصحيف للقوريني ، نسبة لقوريني ، وهي الشحات .؟

258 ـ نفسه1، 234 س 8ـ9 .

259 ـ نفسه ، النعمان ، افتتاح ورقة 200 (274 ط . بيروت) .

260 ـ ابن أبي دينار : المؤنس ، 56 (ط . تونس 1967) ابن خلدون ، العبر ، 4 ، 78 ، الزاوي : المرجع السابق 185 وقد قدرت الغرامة هنا بثلاثمائة ألف دينار .

261 ـ ابن عذاري 1، 234 .

عندما قتل عبد الله بن القديم وكان صاحب الخراج فى عصر زيادة الله ، بعد ان ساعد المهدي فى كبت حركة التمرد ضده (262) .

ويلاحظ هنا ان النصوص لا تشير الى مصير ماكنون بن ضبارة ، عقب هذه الأحداث ، هل عين من جديد واليا على طرابلس أو كان فراره بمثابة نهاية لحياته السياسية ؟ وقتله المهدي عقابا له على ذلك ، أو أودت به حركات التصفية ضد بناة الدولة ورجالها ! وقد تأكد مبدأ الاستقرار النسبي ، فى طرابلس ، منذ سنة 301 هـ / 913 — 914 م بسبب أنها اصبحت قاعدة عبور للحملات الفاطمية ضد مصر .

وحتى هذا الوقت ، بقيت سرت واجدابية ، وماوالاها ، منطقة نفوذ عباسية ، وعلى صلة وثيقة بمصر ، التي كانت تتأثر بها ، بينما كانت تولى افريقية ظهرها .

وبداية دخولها ، دائرة النفوذ الفاطمي ، لم يكن ، قبل حملة حباسة بن يوسف سنة 301 هـ / 913 — 914 م لأن بعض النصوص تشير الى ما نتج عن دخوله مدينتي سرت ، واجدابية بالأمان ، من فرار بقايا بني الاغلب وجند بني العباس (263) .

كما أن حباسة نكل بجماعة فى برقة لانه وجدهم يلهون بالحمام ، بحجة أنهم عيون للعباسيين وعلى صلة بولاتهم فى مصر عن طريق بريد الحمام .

وشمل بتنكيله طوائف كثيرة من السكان لا سيما الأغنياء منهم ، الذين استصفى أموالهم ، وقتل كثيرا منهم ، ولم ينصرف عن برقة الا بعد أن واجه مقاومة من جهة حدود مصر ، كما سحبه المهدي ، ترفقا بالسكان الذين اشتكوا اليه مما حل بهم من بطش وتنكيل ومصادرة هذا القائد الملوسي ، ورهط كتامة (264) .

وتصرفاته هذه ، الى جانب عدم توفيقه فى الحرب ضد مصر ، وفراره من نكال ابي القاسم ، الى أخيه عروبة هي التي شجعت السكان فى برقة على اعلان الثورة منذ أواخر سنة 302 هـ / 914 — 915 م فنكلوا بعامل المهدي وبحامية كتامة انتقاما لما أصابهم على يد حباسة ، وكانت الثورة

262 — نفسه ،1، 231 ، ابن الأثير : الكامل 8، 19 (52 ط . بيروت) .

263 — ابن عذاري : البيان ،1، 235 ، النعمان ، افتتاح الدعوة ورقة 200 .

264 — نفسه ،1، 236، 237 ، الزاوي : المرجع السابق ،185—187، ويوصف بانه كان حاد الطبع ، عديم الذمة متقلبا ، سفاكا للدماء .

عامة وشاملة وصدرت عن شبه اجماع اذ « بدر الغوغاء الى من كان خلف عندهم أبو القاسم من كتامة فقتلوهم » (265) .

واستمرت المنطقة فى وضع انفصالي لمدى أشهر حتى وصل أبو مديني بن فروخ اللهيصي الى المنطقة برسم تأديب الثورة وارجاع النفوذ الفاطمي اليها (266) ، وبعد أن واجه مقاومة السكان وعنادهم أثناء الحصار لمدة ثمانية عشر شهرا لحقتهم أثناءها خسائر كبرى ، تمكن من اقتحام مدينة برقة ومعاقبة الثوار حيث احرق بعضهم بالنار ، وأرسل آخرين الى المهدي ، فى رقادة حيث قتلوا كما استصفى أموالهم واستولى على ذخائرهم (267) واثر ذلك استقر فى المدينة واليا وقائدا على الحامية ومشرفا على سير البعوث فيما جاورها حتى حدود مصر الى أن توفي أواخر سنة 306 (268) / 918 — 919 م .

ويبدو أن سياسة القسوة والسلب والنهب التي طبقت ضد سكان طرابلس ، وبرقة ، أوضحت لجميع العناصر والنحل ، غير الشيعية أنهم فى نظر السلطة الجديدة سواء ، فكلهم يعتبرون مخالفين فى المذهب وفى الاتجاه السياسي ويؤخذون بالظنة ، فى كل ما يطرأ على المنطقة من حوادث وفتن ، ولكنها من جهة أخرى دفعتهم الى التنسيق والتضافر تجاه هؤلاء المستبدين الطغاة .

واذا كانت حركات العصيان السابقة قد تصدرتها هوارة وأحلافها وبقايا العناصر العربية فان حركة المقاومة للنفوذ الفاطمي منذ سنة 310 هـ / 922 — 923 م قد تبنتها قبيلة نفوسة ، وقادتها من منطقتها المنعزلة الحصينة فى اقليم طرابلس .

وأشرف على التنسيق وعلى قتال والي طرابلس الفاطمي ، وهو علي بن سلمان الداعي الكتامي ، زعيم نفوسي ، يعرف بأبي بطة ، الذي حصن منطقة الجبل وواجه أول هجوم قام به علي بن سلمان وأحبطه ، اذ أن هذا الأخير « لما قرب منهم بيتوه ، وقتلوا كثيرا من أصحابه ، وانهزم الباقون وتفرقوا عليه » . . ولم يجد علي بن سلمان ، مفرا من الالتجاء الى طرابلس حيث أنهى اخبار الجند ، وفرارهم عنه الى المهدي ، الذي تصرف بحزم وعلى صورة تنم على الاتقان ، والضبط ، اذ أمر عامله على قابس ، وهو علي بن لقمان الكتامي بقتل كل من مر بالمدينة من فلول جند علي بن سلمان .

---

265 — نفسه ، 1 ، 240 ، الزاوي 187 .

266 — ابن عذاري ، البيان ، 1، 241 . وترد نسبته بصيغة اللهيض احيانا .

267 — نفسه ، 1، 244 .

268 — نفسه ، 1، 254 ، الزاوي : المرجع السابق 187 .

فنفذ الأوامر فى كثير منهم وفى نفس الوقت أرسل الى علي بن سلمان فى طرابلس مددا يتهيأ به للثأر لهزيمته فى جبل نفوسة ، ولا يستبعد أن يكون المهدي قد أمر ابن لقمان عامله فى قابس ، بالوقوف الى جانبه ، فى المجهود الحربي ضد نفوسه ، باعتباره أقرب العمال الفاطميين اليه (269) . وهو المجهود الذي انتهى بالنجاح ضد نفوسه ، يوم الاثنين ، أواخر شعبان 311 / نوفمبر 923 م ـ حيث هدم حصن أبي بطة ، وتكل بأنصاره النفوسيين قتلا وسبيا ، ثم انصرف الى قاعدته فى طرابلس ، دون أن تشير النصوص الى مصير ابي بطة ، بعد الهزيمة أو الى علي بن سلمان هل أبقى عاملا فى جبل نفوسة ، عنوانا على الغلبة والنفوذ الجديد (270) أو اكتفى بما ناله من نصر على قبيلة نفوسة .

واذا كان علي بن سلمان (271) ، قد انتقم من نفوسة ، وثأر لهزيمته ، وشرفه العسكري ، بعد فترة اعداد طويلة نسبيا ، فان مصيره بعد ذلك بقي غامضا ، فهل رجع الى طرابلس وبقي فيها ؟ ، أو انصرف الى المهدية ؟ وعين خلف له ، وعلى أية حال ، فقد استمر النفوذ الفاطمي فى طرابلس ، وبرقة اللتين توارد عليهما قضاة (272) من طرف المهدي وكانت فيها حاميات كتامية أيضا . وقد أمرت هذه الحاميات فى بداية عصر القائم بأمر الله بالتنسيق والتعاون مع رجال الحملة الرئيسية التي انفذها الى مصر سنة 323 هـ / 934 ـ 935 م .

وقيام سكان طرابلس عقب ولاية القائم باخماد ثورة ابن طالوت القرشي وقتله ، وارسال رأسه اليه فى المهدية دليل قوي على وجود انصار كثيرين

---

269 ـ نفسه ، 263،1 ، الباروني : الأزهار الرياضية 296ـ297 ، الزاوي : المرجع السابق 188 .

270 ـ ابن عذاري : البيان ، 265،1 .

271 ـ يرد احيانا على بن ابي سلمان ـ ابن عذاري 265،1 ، وكان اخوه فيما يبدو هو صاحب الوثائق ، ومتولي القضاء انظر 290 منه .

272 ـ وقد ولي قضاء برقة ، احمد بن محمد بن سيرين الفقيه الحنفي ، لانه تشرق ، ورافق ابا عبد الله الداعي الى سجلماسة راجلا محتسبا الثواب فى طلب الامام ، ابن عذاري ، البيان 209،1 ، وكان قاضي طرابلس هو محمد بن عمران النفطي ، الذي اشتهر بخراب الذمة والارتشاء حتى نقل الى قضاء القيروان 311 هـ . بعد عزل اسحاق بن أبي المنهال ، انظر 264،1 منه . حيث يشير أيضا الى وفاة محمد بن سلام البرقي ، المتفقه على مذهب الشيعة ، وقد ولى قضاء طرابلس فى عصر المهدي وبترشيح من أبي جعفر البغدادي ، عبد الله بن سليمان ، وكان صاحب الوثائق بها ايضا ، وقد عزل لانحرافه الخلقي ، وولى بعده احمد بن بحر ، بتزكية ابن أبي المنهال الذي أعيد للقضاء وابن بحر كان من مساعديه ومن قضاة المظالم فى القيروان فى عصره انظر 290ـ291 منه .

للفاطميين في هذه البلاد هم سبب استمرار نفوذهم فيها وفيما جاورها (273) .

ويلاحظ ان آخر حملة فاطمية وجهت لفتح مصر ، وجدت عمالا فاطميين ، في اجدابية وفي برقة ومنهم افلح بن ناشب القائد المشهور الذي استمر في برقة بعد رحيل المعز لدين الله الى مصر . كما استمر ، عبد الله بن يخلف في طرابلس (274) ، حتى عصر العزيز بالله ، الذي سحبه فأصبحت منطقة طرابلس امتدادا لنفوذ ابي الفتوح بلكين، توالى عليها من طرف الزيريين منذ 367 / 977 — 978 م ، يحي بن خليفة الملياني (275) ، وعوصلة بن بكار الذي ترك الولاية الى يانس الصقلبي في عصر الحاكم ، واستقر في مصر سنة 390 هـ / 999 — 1000 م (276) ، وهذا التطور في وضع المنطقة ورغبة الحاكم في ارجاعها الى نفوذه المباشر ، كان بداية لخلاف حاد بينه وبين باديس بن المنصور استغله ، فيما بعد بنو خزر المغراويون ، أعداء الزيريين واقتطعوا المنطقة وأسسوا فيها أسرة زناتية استمرت فترة طويلة بمساعدة السكان ، غير أن باديس بذل جهودا كبيرة لارجاع نفوذه ، فيها بعد وفاة فلفل بن سعيد سنة 400 هـ / 1009 / 1010 م كما مال الحاكم لاسترضائه ، بانفاذ سجلات اليه تتضمن اضافة برقة وأعمالها الى نفوذ أسرته منذ 403 هـ (277) / 1012 — 1013 م .

* * *

واذا كانت حركة التوسع السياسي ، في غربي الدولة ، وفي شرقها قد أسفرت عن خلق مراكز هامة للعمل ضد الأمويين والروم والعباسيين فان حركة التوسع المذهبي التي قادها خلفاء الفاطميين منذ عبيد الله المهدي وغذتها كتامة بغلوها ، واستبدادها ، رغم انتهاء حدتها ، لم ينتج عنها ما يعلي من شأن الفاطميين أو يشرف كتامة ، رغم حرص هؤلاء وأولئك على تسخير كل امكانياتهم لنشر التشيع والتمكين له بين جماهير السنة في افريقية وبلاد المغرب والأندلس .

---

273 — ابن عذاري ، البيان ، 1،295—296 ، المقريزي ، اتعاظ ،1،74 ، ابن خلدون : العبر ، 4،83 ، ابن الاثير 8،98 .

274 — ابن خلدون : العبر 6،317 ، الزاوي : المرجع السابق 194 .

275 — نفسه ،4،107 . ابن عذاري 1،329 .

276 — ابن الاثير : الكامل ،9،58 .

277 — اسس الأسرة فلفل بن سعيد بن خزرون بن فلفل بن خزر ، وبنى قصرا بطرابلس ، احتفظ باسمه حتى اليوم ، ابن عذاري : البيان 1،359—361،372—374 س1—2 ، ابن الاثير : الكامل ،9،58،66،الزاوي ،204،213 .

ولا ريب أن جهود الداعي الشيعي ، بين قبيلة كتامة ، لم تضع بدون جدوى ، حيث أصبح بين هذه القبيلة دعاة متحمسون ، كانوا عدته من قبل لتعبئة النفوس ، والقوى في كتامة وفي اقليم الزاب ، وكانوا الى جانبه يوم معركة الأربس وبلغ من كثرتهم أن الداعي الشيعي قدمهم أمام عبيد الله في سجلماسة ، للسلام عليه ، وفق ترتيب خاص منعا للفوضى وللارتباك .

وبقيت صلته بهم ، قوية بعد دخول رقادة ، اذ كانوا بطانته الخاصة ، ومن بينهم رجال أشرف على تكوينهم وتربيتهم فغدوا على نسجه ، ولا يتصورون سيدا أو زعيما غيره (278) ، وكان بدوره يبادلهم نفس التقدير . ويؤثرهم بالخير باعتبارهم رجاله ، وعصبيته ، اذ تشير بعض النصوص الى أنه رشح للقيام بدعوة سكان القيروان ، ورقادة الى المذهب الاسماعيلي ، كثيرا من قادة كتامة ، ووجوهها (279) .

وقد بلغ من غلوهم في التشيع وفي تقديس الامام كما أمرهم الداعي — أن صيغة اليمين عندهم لم تكن باسم من أسماء الله ، كما هي عادة المسلمين ، وانما كانت باسم المهدي ونصها « وحق عالم الغيب والشهادة مولانا الذي برقادة (280) » وهي صيغة لا تتضمن الغلو فقط ، وانما هي كفر صريح ، لأن فيها اشراكا للمخلوق ، مع الخالق ، في احدى خصائصه ، وهي معرفة الغيب (281) .

وهذه الصورة من الغلو العقائدي ، يضاف اليها ، التغييرات المذهبية التي أجراها المهدي بعد استقراره في رقادة واطلاقه الحرية للدعاة ، ولكتامة يفتنون الناس في عقائدهم ويرغمونهم على تغيير المألوف لديهم هي التي أوجدت فصلا من الصراع المذهبي العنيف بين الشيعة ، وجمهور أهل السنة خاصة المالكية ، كذلك يلاحظ أن التناقض بين معظم المذاهب السنية والمذهب الاسماعيلي كان يحمل في طياته بذور الشقاق وعوامل الصراع ، حتى لو كان الخلفاء الفاطميون متسامحين مع المعارضين . وبيئة افريقية نفسها لم تخل من مثل هذه الصراعات المذهبية في العصر الأغلبي ، الذي

---

278 — المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،67، ابو زكريا : السيرة واخبار الائمة ورقة 33 ، وفيه عن بعض الكتاميين يخاطبون الداعي بقولهم « لا نعرف لانفسنا سلطانا سواك » .

279 — ابن عذاري : البيان 1،208 .

280 — نفسه 1،221 .

281 — والذي يلاحظ أن الاسماعيلية لم يؤلهوا الائمة وان كانوا يغالون في تصوير قدراتهم العجيبة ، ومن ذلك ادعاء معرفتهم للغيب . انظر الكرماني : الرسالة الواعظة 9 ، تقديم ونشر كامل حسين .

كان يدور بين الحنفية والمالكية أو بين هؤلاء جميعا ، وبين الواصلية والظاهرية . وقد شارك الأمراء الأغالبة بنصيب فى تغذية الصراع بين المالكية والحنفية لتقريبهم للاخيرين ، وتعيينهم على رأس الخطط الشرعية ، إما عن اقتناع واتفاق مذهبي ، أو مجاملة للخلفاء العباسيين الأحناف . وعنصر المجاملة هو الذي أدى أيضا الى رعاية مذهب الواصلية وتقريب رجاله وتعيين بعضهم على رأس القضاء .

واثناء فترة الصراع امتاز المالكية عموما بالتشدد والتماسك والزهد فى المناصب أو فى القرب من السلطان ومن ثم أصابهم فى عصر سيادة الأحناف (282) ، والواصلية فى العصر الأغلبي ما أصابهم فى عصر سيادة الشيعة أثناء الحكم الفاطمي من اضطهاد ، وتعذيب وملاحقة . بينما كان الأحناف اكثر مرونة وطواعية ورغبة فى النفوذ منهم . هذا الى أنهم كانوا يميلون الى تفضيل علي ، والى جواز الانتقال من مذهب الى آخر ، ولذلك سادوا فى العهد الفاطمي ونالوا حظوة عند الخلفاء واحتكروا الخطط الدينية لأن كثيرا منهم تشرق ، واخذ بمذهب الدولة ، خدمة لأغراض خاصة ، واقل عناصر السنة تشيعا هم المالكية الذين اضطر بعضهم للتشيع، افتتانا تحت الضغط ، وبدافع الفقر والحاجة أو حرصا على كسب امتياز خاص ، أو وظيفة عند الدولة .

وقد قام الأحناف تجاه المالكية فى هذا العصر بنفس الدور الذي مثلوه من قبل فى العصر الأغلبي ، فكانوا سوط عذاب وعيونا للنظام على المالكية .

واذا كانت حركة المعارضة للفاطميين فى بلاد المغرب قد شملت طوائف مذهبية كثيرة ، حيث كانت اباضية نكارية ، فى نفوسة واثناء حركة أبى يزيد ، وصفرية فى سجلماسة ، أثناء حركة ابن واسول ، وسنية زناتية ومكناسية فى حركات مغراوة وبني يفرن ، ثم فى ثورة ابن ابي العافية ، فان جميعها كانت سلبية بالنظر لنتائجها لأنها اقتصرت على الميدانين السياسي والعسكري ، وكانت آثارها التخريبية واضحة وشرا بالنسبة لأطراف النزاع ، أما معارضة طوائف السنة فانها كانت سلمية هادئة وخصبة فى آثارها وايجابية فى نتائجها ، وانحصرت فى مجالس خاصة ،

---

282 – ومن بعض من امتحنهم ابن عبدون القاضي انظر عياض : ترتيب المدارك مجلد 2 ، ج 3 ص 230 وما بعدها ، 194 وما بعدها ، ومن ترجمة حياته انظر : محمد الجودي تاريخ قضاة القيروان ورقة 4 خ رقم 18397 تونس ، الخشني : المصدر السابق 242 – 245 ، المالكي ، رياض النفوس ،1،494 ، وليله الى سفك الدماء قال عنه ابراهيم بن احمد « لو ساعدته لجعلت له مقبرة على حدة » طالبي : تراجم اغلبية 259 .

للمناظرة وللجدل حول المذهب دفاعا عنه من زيغ الغالين ، ولهذا أفادت الحضارة الاسلامية واغنت الفكر الديني وعمقته عن طريق استخدام الحجج العقلية والآثار النقلية ونشاط حركة التأليف والخطابة والدعوة .

ويعني هذا أن كلا الطرفين ، الشيعي ، والسني ، استفاد من حلقات المناظرة ، كما افادوا جمهور السكان فى افريقية بواسطة الوعي الذي ظهر بينهم ، حتى كانت المناظرات تجري فى رقادة أو فى القيروان ثم تنتشر أخبارها وينقلها الناس بسرعة الى سائر أرجاء افريقية ، وتبقى حجج علماء المالكية وردودهم على الشيعة حديث المجالس ، وتتردد على الألسنة ويفتخر بها السكان .

وظهر أثناء حركة الجدل ، دور علماء المالكية والسنة عموما ، ومن بينهم محمد بن نصر بن حضرم ومحمد بن سحنون (283) ، وأبو بكر بن القمودي ، وابن البرذون ، وابن هذيل ، وعلي ابن منصور الصفار ، ومحمد الرقادي ، وعبد الملك بن محمد الضبي (284) ، وابن القطان ، وابو العرب تميم وأهمهم شيخهم أبو عثمان سعيد بن الحداد (285) ، الذي ناضل عن المذهب المالكي ، ضد الأحناف (286) حيث كانت له مناقشات مع محمد بن الكلاعي حول مسألة خلق القرآن ومع أبي المنهال شيخ العراقيين ومقدمهم ورأس أسرة عتيدة ، تعاونت مع الفاطميين وساندتهم فى آرائهم (287) كما ناضل ضد المعتزلة وشيخهم الفراء ، سليمان بن أبي عصفور (288) ، وغير هؤلاء من أصحاب النحل والمبتدعة (289) الذين تصدى لهم ابن الحداد ، وفند آراءهم ، ومنهم أبو العباس المخطوم ، وأبو عبد الله الداعي ومحمد بن عمر

283 – الخشني : قضاة قرطبة وعلماء افريقية ، 256 ، طالبي ، تراجم اغلبية ، 182 – 183، 201 .

284 – نفسه 280–284 ، طالبي تراجم 398–399 .

285 – نفسه 257–258 ، عياض : ترتيب المدارك مجلد 2 ، ج 3 ، 34 ط . بيروت ، تراجم اغلبية 351 وما بعدها .

286 – اشتهر من بين فقهاء الحنفية علماء كان لهم مهارة فى الجدل والمناظرة هم : عبد الله ابن محمد بن الاشج واحمد بن وهب واسحاق بن ابي المنهال . ومحمد الكلاعي ، ومحمد بن أسود الصديني وكان بعضهم يميل الى الاعتزال ، واعتنق كثير منهم المذهب الاسماعيلي وتعاونوا مع العهد الجديد مثل أسرتي ابي المنهال والنعمان ، انظر الخشني طبقات 286 وما بعدها . ابن عذاري 1، 212 ، وبيئة العراق مسقط راس الدعاة ، ومهد التشيع والحنفية .

287 – الخشني : المصدر السابق 247، 248

288 – نفسه : 257–258 ، 286–289 ، طالبي : تراجم اغلبية 357 .

289 – ويرى فقهاء المالكية ان جميع الاتجاهات والمذاهب غير السنية ، تعتبر بدعا وانحرافات وقد ذكر عبد الله بن فروخ فى كتاب ارسله الى مالك بن انس انه الف للرد على المبتدعين فى افريقية .

المروزي ، ومن كان فى ركابهم ، مثل أسرة ابن أبي خنزير ، وأبى موسى هارون بن يونس المعروف بشيخ المشائخ وآسرة النعمان بن محمد التميمي الذي لم يظهر دوره فى حركة الجدل ، سواء فى أواخر العصر الأغلبي ، أو فى بداية العصر الفاطمي ، حيث تبدو شخصيته ضعيفة متضائلة مترددة ، سريعة الانفعال والتأثر ، لما يشيعه الخصوم حتى كاد يعتزل الحياة الادارية ـ لولا تعنيف المعز لدين الله وتشجيعه له على البقاء والثبـات فى وجـه الحاسدين (290) .

وعلى عكس حركة الجدل فى العصر الاغلبي، التي لم تعرف كل تفاصيلها ، ولم تتخللها أعمال العنف ولم تخلف ضحايا وشهداء (291) ، فانها فى العصر الفاطمي ، كانت تعتبر صورة من الجهاد الحقيقي فى نظر المالكية ، لذلك نتج عنها ضحايا ، وشهداء ، كما عرفت أغلب موضوعاتها وهي :

ـ قضية تفضيل علي وصلاة التراويح ، والقياس ومنزلة السنة فى التشريع ، وفضل المعلم ، على المعلم ، وتقديم المفضول على الفاضل ، بعد حصول الاتفاق (292) .

ومسألة تفضيل علي ، هي أصل كل المجالات ومـا عداهـا ، فـروع لها ، ورأى الاسماعيلية المعتدلين أنه افضل من سائر الصحابة الكرام وأحق بالامامة بعد الرسول ، وأن غيره مغتصب لما ليس من حقه ، وآية ذلك فى نظرهم أنه أحد الخمسة أصحاب الكساء على خلاف أبي بكر مثلا ، وقد نص الرسول عليه عند غدير خم بقوله «من كنت مولاه ، فعلى مولاه» . كذلك أشاد الرسول بعلمه أمام الملا من الصحابة ، بقوله « أفضلكم علي » هذا الى أن أبا بكر ، كان يلتجيء اليه ، بعد خلافته فى كل ما يصعب فهمه ، ويستعصى حله ، من مشاكل مثل قضية فرض الجدة ، بحيث كان فى

---

290 ـ النعمان : المجالس والمسايرات 1، ورقة 203 وما بعدها ، وقد رد المعز على النعمان بقوله « يانعمان والله لولا معرفتي بك لنسبتك الى الجهل ، اذ كنت قد علمت ما مر على مواليك من أذى من نصب لهم وعاداهم .. افما علمت انك الجاني على نفسك ما منه ضجرت اذ قد تبين لك مخالفة السفل الرعاع لاولياء الله .. وهذه الألسنة الحداد هي متاجر النساء والسفل والأوغاد » . محمد الجودي : قضاة القيروان ، ورقة 20 ـ 21 ، ويوصف النعمان هنا بقاضي قضاة السلطان وبالداعية .

291 ـ الحبيب الجنحاني : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الاسلامية 153 وما بعدها .

292 ـ الخشني : المصدر السابق 258ـ275 ، ويشير هنا الى اربعة مجالس للمناظرة ، انتظمت فى رقادة واشترك فيها ابن الحداد ، وكل من الداعي الشيعي ، واخيه أبي العباس المخطوم ، أبو العرب تميم : طبقاء علماء افريقية 199 وما بعدها ، حسن حسني عبد الوهاب ورقات 1، 259 . حسني ابراهيم حسن : عبيد الله المهدي ، 333ـ342 .

عهده ، بمثابة المرشد والمفتي والمعلم له ، وعلى ذلك فهو أفضل منه ، ومن سائر الصحابة ، الذين هم دون أبي بكر في الفضل والاعتبار (293) .

أما الغلاة من الاسماعيلية فرأيهم أن عليا أحق بالنبوة من محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن الاخير ، اغتصبها منه ، وقد لوحظ هذا الاتجاه في بلاد الاندلس ، في آراء وأقوال أبي الخير الداعي الذي اسلفنا الحديث عنها (294) ، وكان رأي المالكية كما عبر عنه ابن الحداد مقنعا الى حد بعيد ، اذ أوضح الاخير أن أبا بكر وان لم يكن ضمن أصحاب الكساء الخمسة فهو ثاني اثنين اذ هما في الغار » .

وقضية الولاية ، في الحديث الشريف ، ليس المقصود بها ، أن يكون الناس طوع أمر عبيد الله المهدي ، أو من انتسب اليه ، وانما يقصد بها ، الولاية الدينية ، وتقديم الاحترام ، والتقدير لعلي ولذريته .

ويلاحظ أن الله تعالى أمر الانبياء أنفسهم بأن لا يعتبروا الناس عبيدا لهم ، اما علي فليس بنبي ، وانما هو وزير له ، وأثير عنده ، ووصف الرسول صلى الله عليه وسلم لعلي ، بالمهارة في القضاء ، جاءت ضمن حديث طويل ، وصف فيه عمر بالشدة في دين الله ، ومعاذ بن جبل بادراك الفروق الدقيقة بين الحلال والحرام ، كذلك يلاحظ ان مسألة تفضيل المعلم ، على تلميذه ، نسبية ، وقاعدة أغلبية لأن الواقع ، يشهد أحيانا بأن كثيرا من الطلبة ، يواصلون دراساتهم فيصيرون في مستوى رفيع ، وقد أوضح الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الاتجاه بقوله : « رب حامل فقه الى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه غير فقيه » .

واشارت قضية تراويح رمضان نقاشا حادا ، بين المروزي ، وبعض فقهاء المالكية والحنفية . وفي البداية تحفظ ابن الحداد ، ولم يشترك في الجدال ، رغم أنه كان بين الحاضرين ، حتى ظهر عجز أصحابه عن الاقناع ، بسبب أن المروزي احتج عليهم بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقم صلاة التراويح الا ليلة واحدة ثم قطعها ، وأن عمر بن الخطاب هو الذي استمر في العمل بها ، وعلى ذلك فهي بدعة ، فكيف يتفق ادعاؤكم التسنن مع استمراركم في اقامة البدعة ، وكان رد ابن الحداد ، اعترافا بأنها بدعة ،

---

293 – نفسه : 264،271–275 ، ابن عذاري : البيان : المغرب ، 1 ، 207 س6 – 7 ، عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين 1،51–52 .

294 – ابن سهل : قطعة من الاعلام بنوازل الاحكام 61،64 حوليات الجامعة التونسية 1964 . والمعتدلون من الاسماعيلية ، يعتبرون درجة النبوة اعلى من درجة الامامة وينكرون التطرف والغلو : النعمان : الهمة في آداب اتباع الملة 39 ، المجالس والمسايرات 1 ، ورقة 357 وما بعدها ، عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين 1 ، 71 .

لكنها مستحسنة ، ابتغاء لرضوان الله وثوابه ، أما أن الرسول لم يواصل القيام بها فى رمضان فذلك لأنه مشرع ، وخشى أن يتوهم الناس فرضيتها ، لكن هذا التوهم زال بعد موته (295) .

ولما لم يجد المروزي ما يحتج به ، بسبب وضوح الحقيقة ، لجأ كعادته الى التهديد باستعمال القوة ضد كل من يقوم بالتراويح فى رمضان (296) .

وحول منزلة السنة ، والتمسك بالقياس ، جرى نقاش تزعمه أبو عبد الله الشيعي ، الذي انكر على فقهاء المالكية مثل موسى بن عبد الرحمن القطان وابن الحداد ، عملهم بالقياس وترك القرآن فى حديث جرى عن حد شارب الخمر ، وقد روي ابن القطان حديثا نبويا ، انكره الداعي وتمسك بنص القرآن ، فأوضح ابن القطان ان الحد استفيد قياسا على حد القذف المنصوص عليه فى القرآن لأن مآل المخمور ، أن يطلق لسانه بما يشين غيره ، لأن الشخص اذا « سكر هذى ، واذا هذى افترى ، فوجب عليه ما يؤول أمره اليه وهو حد القذف » وكذلك فعل عمر بن الخطاب (297) ، وعندما طعن الشيعي فى عمر ، ووصفه بأنه فر بالراية يوم حنين ، وانكر ابن القطان الواقعة ، بقوله « ما عرفنا ولا سمعنا بهذا » ، تدخل ابن الحداد واوضح أن عمر تحيز الى فئة ، ومن تحيز ليس بفار (298) .

وقد تخللت حركة الجدل ، بعض الحوادث التي قصد بها الاثارة والتأثير ، ومن ذلك أن الداعي الشيعي لما بادر ابن الحداد ، فى احدى المناظرات ، بقوله « يا شيخ انك تطيل جدا » أجابه بسرعة « ها انا أطيل فلا يفهم عني ، فكيف لو قصرت » (299) .

---

295 ـ عن البدع المستحسنة فى المغرب والاندلس ، انظر : الونشرسي : المعيار المعرب ، والجامع المغرب فى فتاوي اهل افريقية والاندلس والمغرب ، 2 ، ط فاس 1314 ـ 1315 هـ هنري بيريس : المستحسن من البدع (منتخبات من معيار الونشريسي) . الجزائر 1946 . الطرطوشي : الحوادث والبدع ، تحقيق محمد طالبي . تونس 1959 .

296 ـ الدباغ ، معالم الايمان 2،206 ، وقد تندر بالمروزي احد المتوهين فقال له : « قد لطفت لنا أصلحك الله فى قطع قيام شهر رمضان فلو احتلت لنا فى ترك صيامه لكفيتنا مؤونته كلها » فاستاء المروزي وزجره بقوله « اذهب عني يا ملعون » . ابن عذاري 1 ، 208 .

297 ـ الدباغ : المصدر السابق ،2،207 .

298 ـ نفسه ،2،208 ، الخشني : المصدر السابق 258-262-264 .

299 ـ نفسه ،2،211 .

ويبدو أن هذا الرد الجاف لم يعجب ابا موسى هارون بن يونس المسالتي المعروف بشيخ المشائخ ، فنهض يريد قتل ابن الحداد بالرمح، فنهاه الداعي، لكنه في نفس الوقت قال لابن الحداد « لا تغضب هذا الشيخ الذي يغضب لغضبه اثنا عشر الف سيف » (300) .

وهم عدد انصاره من قبيلة مسالتة الكتامية وحدها .

ولحرص الداعي ، على أن لا يصاب ابن الحداد بأذى ، بعد ان عرف اهميته ، وخوفا من افتتان الاسماعيلية بآرائه ، أصبح يكتم عنه مجالس المناظرة (301) ، وكان ابن الحداد بدوره معتدا بنفسه ، (302) وبالقوى الشعبية التي تلتف حوله ، فلا يحضرها حتى يدعى لها من طرف أبي عبد الله الشيعي أو غيره .

ويلاحظ أن دوره في حركة الجدل لم يكن سببا في التفاف جماهير المالكية وحدهم (303) ، بل اكسبته تقدير الداعي ومحبة كثير من المتشيعين ، ومن ذلك أن الشيعي أوصى حاجبه الصقلي بأن يأذن للناس بالدخول للمناظرة ، اذا اكتمل عددهم ، فلما حضر ابن الحداد أذن له الحاجب بالدخول فأنكر الداعي ذلك عليه وبادره « قلت لك : الناس » ، فأجابه الحاجب ، سليقة ، ومن فرط الاعجاب ، « هذا هو الناس كلهم ، فأنا فعلت ما أمرتني به » فأسرها الداعي في نفسه ، لفترة ثم تخلص منه لشكه في مذهبه (304) .

وعندما فشل الشيعة في اكتساب هذا الرجل الذي تقف وراءه جماهير السنة ، ويجمع الى التبحر في المذاهب الاسلامية والعلوم الدينية ، قوة هائلة في الخطابة وبراعة في التفسير ، وحذقا لفنون الجدل ، وأساليب

---

300 ـ طالبي : تراجم اغلبية 357 ، والنص هام في توضيح عدد بعض فروع كتامة في افريقية .

301 ـ الدباغ : المصدر السابق ،2، 205 .

302 ـ نفسه ،2، 210 ، وقد بلغت 40 مجلسا ، حفظ منها الخشني اربعة مجالس فقط وغيرها مبعثر في المصادر المختلفة .

303 ـ الدباغ 2 ، 210 ، وقد وصفه ابن القطان للجماهير بقوله « لو سمعتم سعيد ابن الحداد في تلك المحافل وقد اجتمع له جهارة الصوت وفخامة المنطق وفصاحة اللسان ، وصواب المعاني لتمنيتم ان لا يسكت » ، حسن حسني عبد الوهاب ، ورقات1، 258 ـ 262 ، نقلا عن رياض النفوس للمالكي ، 2 ورقة 32 وهو مخطوط بمكتبته الخاصة .

304 ـ نفسه 2، 211 .

الاقناع ، اكتفوا برصد حركاته والتحري على أعماله وعلاقاته بأصحابه (305) ، ولهذا السبب علموا خبر وفاته (302 هـ / 914 – 915 م) قبل غيرهم ، فأرسلت البشائر سحرا من القيروان الى المهدي فى رقادة .

وبقدر ما اغتبط الشيعة بموته بقدر ما استاء جمهور السنة والمالكية ، الذين رثوه بقصائد شعرية ضمنوها فجيعتهم بفقده ولوعتهم فى اختفاء « زعيم » من زعمائهم المخلصين (306) وكان موته خسارة كبرى للمالكية ، اذ خلف فراغا كبيرا ، وأصبحت حركة الجدل ، التي استمرت ضعيفة من جانبهم ، تجرى فى غير صالحهم ، وأحرز الشيعة تقدما كبيرا فى غزو الافكار وتشريق الكثيرين من أهل السنة ، كما هجروا العواصم المالكية ، وقلاعها ، واستقروا فى مركزهم الجديد فى المهدية التي أصبحت مقرا للخليفة ولمجالس الذكر والحكمة ، وقد استخدمت جميع الاساليب للتأثير على الجماهير السنية ولتحويل الانظار الى العاصمة الجديدة حتى أن عبيد الله المهدي فرض على سائر الحجاج المرور بها لآداء ما يجب عليهم من رسوم (307) .

ومن خلال ما جرى من جدل بين المالكية والشيعة كانت تبدو شخصية المروزي الهزيلة وآراؤه الفطيرة ، وضيق افقه وقصوره عن الاقناع والتجاؤه الى سلاح التهديد لفرض آرائه ، ولم يتورع أن يعزر أناسا كان لهم ظهور فى الحياة الاجتماعية وسبق أن تعايش معهم ، فى العصر الاغلبي ، وفترة قضائه ، كانت فترة محنة للمالكية وكان يسانده ويشجعه على العنف ، أبو العباس المخطوم (308) ، لأنه كان مثله محدود الافق ، متعصبا ، « عجولا كثير الكلام ، ضعيف العقل » (309) . وقد استغل الاثنان فرصة غياب أبي عبد الله الداعي فى سجلماسة للتنكيل بأهل السنة ، وقد اراد

---

305 – نفسه ، 215 ، ابن عذاري : البيان 1،240 ، ح ح عبد الوهاب ورقات 1،258 وما بعدها .

306 – نفسه ، ابن عذاري ،1،240 .

307 – ابن عذاري :البيان 1،262 . وفيه قوله « امر عبد الله ان يكون طريق الحاج على المهدية لاداء ما يجب عليهم من المغارم فى الشطور وان لا يتعدى هذا الطريق احد » . وقد وصفت المهدية فى الشعر بالحرم ، وشبه مقامه فيها بمقام ابراهيم فى مكة ، انظر البيان 1،258،259، النويري : نهاية الأرب 26 ، ورقة 35 ، يحي بن سعيد : المصدر السابق 762 ط كراتشوفكي .

308 – الدباغ : معالم الايمان 2،198 وما بعدها ، ابن عذاري ،1،207 . وقد كتب احد المالكية فى اتجاه القبلة حيث يجلس المروزي للصلاة فى المسجد ، آية « ومن اظلم ممن منع مساجد الله ان يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها » ولما رآها المروزي تالم وامر بمحوها وبالتقصي عمن فعل ذلك .

309 – ابن عذاري : البيان 1،206 .

المخطوم ان يطرد من حاضرة القيروان كل من يرى راي المالكية او يقلد مذهب اهل المدينة المنورة (310) ، حتى يخلو له الجو ، وعزمه على تنفيذ هذا الاجراء ـ الذي رفضه اخوه الداعي (311) ـ لا يدل فقط على اتجاهاته المتطرفة وعنفه ، وانما ايضا ، يبرهن على مدى تخوف الاسماعيلية من فقهاء وشيوخ المالكية ، لأنهم كانوا بحق أصحاب الزعامة الشعبية ، بحكم أصالتهم فى المنطقة واختلاطهم بالسكان وانتمائهم الى طبقات غير أرستقراطية وفقرهم ، عكس الأحناف والمعتزلة الذين كانوا فى معظمهم من طبقات متوسطة أو عليا ومن غير سكان افريقية أصلا بل من حواضر العراق والشرق الاسلامي .

وتصرفات أبي العباس المخطوم ، واهتزاز شخصيته هما اللذان أديا الى فتن واضطرابات كبرى ، لم تقتصر على القيروان ورقادة وانما شملت حواضر كثيرة فى افريقية والمغرب الاوسط . وعلى النقيض منه كان أخوه ابو عبد الله أثناء الجدل مثالا للرجل المتزن الهادىء ، المتعقل الذي يعرف كيف يذود عن مذهبه ، اما بالحجة المقنعة ، او بالسفسطة ، وحسن التخلص ، وكان الحسن بن أبى خنزير ، باعتباره عاملا على القيروان ، هو الذي يقوم بتنفيذ العقوبات على المخالفين .

وقد أشارت النصوص الى مبلغ تأثره من تعذيب وقتل محمد بن خيرون حتى انه تدخل عند المهدي لعزل المروزي ولعقابه حيث قتل قتلة شنيعة (312) .

وكان يشبه الداعي ، فى تعقله وهدوئه وصراحته فى الطرف المالكي ، ابو عثمان سعيد بن الحداد ، الذي حاز اعجاب خصمه وتصور فيه جمهور أهل السنة ملامح ابن حنبل « القيرواني » فى شجاعته ، وشدته ، ورفضه للمغريات او الالتجاء الى التستر والتقية ، مثل ابى بكر القمودي ، رغم

---

310 ـ نفسه .

311 ـ نفسه 1،213 ، ولقد عنفه الداعي على تطرفه بقوله (قد افسدت علينا من امر البلد واهله ماكانت بنا حاجة الى صلاحه) .

312 ـ الدباغ : المصدر السابق 2،198 وما بعدها ، ابن عذاري : البيان 1،241 وقد رمى فى اسطبل برقادة حيث كانت الدواب تركض عليه وتدوسه حتى مات ، وكانت احدى جواري ابن خيرون التي صارت فى كنف ابن خنزير تشمت به ، قائلة له : يا شيخ السوء قتلت سيدي ابن خيرون ، شيخ القيروان وأزلتني من عنده ، ورددتني عند خنزير ابن خنزير » ، الخشني ، طبقات 229 . وهنا يشير الى رغبة المهدي فى تولية ابن خيرون القضاء لسعة علمه ولانه الف كتاب نسب الشيعة واخبارهم ، لولا كيد المروزي وسعيه به عنده .

أن رأي أنصاره كان يقتضي منه قدرا من الحذر والحيطة ، خوفا من عقاب الشيعة وتنكيلهم به (313) مثلما تكلوا بغيره من فقهاء أهل السنة والمالكية خاصة ومن هؤلاء :

ابراهيم بن محمد الضبي ، المعروف بابن البرذون ، وأبو بكر بن هذيل ، وهما اللذان قتلا بعد التعذيب والتشهير ، لسعاية محمد الكلاعي والمروزي بهما ، عند ابن خنزير ، والتهمه التي لفقت لهما هي الطعن في النظام الاسماعيلي ، وتفضيل الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان ، على الامام علي بن أبي طالب (314) ، وقد اعتبرا في نظر فقهاء المالكية شهيدين ، وأطلق على قبريهما ، اسم قبور الشهداء (315) ، وهما اللذان استهلا عصر المحنة والاضطهاد ، والشهادة بالنسبة لجمهور الفقهاء المالكية ، ويسبب قضية التفضيل ، قتل محمد الشذوني الزاهد ، وأبو علي حسن بن مفرج بأمر من عبيد الله المهدي (316) ، وضرب محمد بن العباس الهذلي ، وسط المسجد بالدرة وهو عريان ، وصفع قفاه حتى جرى الدم من رأسه ، وشهر في أسواق القيروان ، بتهمة أنه يطعن في النظام ، ويعرض بالمهدي ، ويفتي بقول مالك بن أنس (317) ، وقتل محمد بن أبي أيوب المعروف بابن العاهة ، بتهمة أنه ينوي الثورة ضد المهدي ، وفي سبيل البحث عنه ، لتنفيذ العقوبة هدمت الدور التي استتر فيها (318) ، وقتل عبدوس وهو أحد المؤذنين الزهاد في مدينة القيروان بعد أن ضرب وقطع لسانه لأنه حسب زعم الشيعة ــ اذن ، دون أن يضيف « حي على خير العمل » (319) .

كذلك ضرب وعذب من أهل الفضل والزهد ، هشام بن الربيع التميمي ، وقد أوصى قبل وفاته بأن لا يدفن في المهدية (320) ، كما قتل أحمد بن يحيى بن طيب ، المتطبب ، والفقيه الحنفي ، في ظروف غامضة (321) .

---

313 ــ الدباغ : المصدر السابق 2،202 وما بعدها : وكان رده على من نصحه بالتزام الاعتدال ، قوله « قد اربيت على التسعين ، ومالي في العيش من حاجة ، وقتيل الخوارج خير قتيل ، ولا بد لي من المناظرة والمناضلة عن الدين » .

314 ــ ابن عذاري : البيان 1،212،213 ، طالبي : تراجم الغلبية 392 ، وقيل ان ابن خنزير لما قال لابن البرذون يا خنزير رد عليه « الخنازير معروفة بابنائها » .

315 ــ الدباغ : المصدر السابق 2،180،183 .

316 ــ ابن عذاري 1،262 ، طالبي : المصدر السابق 371 وما بعدها .

317 ــ نفسه 1،265 .

318 ــ نفسه 1،235 .

319 ــ ابن عذاري : البيان 1،256 .

320 ــ نفسه 1،276 ، وكان يصفها المالكية : بالمهدومة ، أو الردية ، عياض : المدارك ، مجلد 2 ، ج 3، 315 .

321 ــ نفسه 1،222 .

وقتل بأمر المهدي وصلب في رملة المهدية كل من ابى القاسم الحسن بن مفرج مولى مهرية وهي احدى سيدات الاسرة الاغلبية ، ومحمد بن عبد الله السدري الزاهد ، بتهمة التحريض على الثورة ، وتسييرها ، ضد النظام ، وقد اعتبر الاثنان ، في نظر المالكية ، ضمن الشهداء (322) ، مثل أبى الفضل عياش بن عيسى المسمى الفقيه ، الذي رثاه تلميذه الشاعر المالكي المشهور أبو القاسم الفزاري (323) ، وقد اشار اليه أبو العرب تميم الذي عاصره بقوله « ختم الله له بالشهادة بعد هذه الفضائل في جهاد بني عبيد » (324) .

وامتحن على يد المروزي ، بالضرب ، والتعنيف كل من أبي سعيد محمد ابن محمد بن محمد بن سحنون التنوخي الذي هدده المروزي بقوله : « بلغني عنك أشياء أقل ما يجب فيها سفك الدماء فاشتغل بما يعنيك » (325) ، وابن بطريقة ، الذي عزله أيضا عن قضاء طرابلس وسجنه ، وعندما أطلق المهدي سراحه لمزية حفظها له أيام مروره بطرابلس قيل انه قتل على أيدي اللصوص طمعا في ماله (326) ، وعزل المروزي محمد بن حفص الفهم عن أمامة الصلاة في جامع رقادة لأنه رفض التشيع ، رغم أن الوظيفة كانت تدر عليه شهريا عشرة مثاقيل (327) .

وامتحن أبو القاسم الطوزي بالضرب على يد أبي العباس المخطوم بسعاية من المروزي (328) أيضا وكان من فقهاء المالكية النبهاء كما امتحن بالسجن على يد اسحاق بن أبي المنهال : أبو جعفر بن نصر بن زياد الهواري ، وقد اتهم بأنه يفتي بمذهب مالك ، ولفقت له تهم أخرى ، وعند ما برئت ساحته أطلق سراحه ، بتأثير تدخل أبى سعيد الضيف . ولمعاداته للشيعة ، ولمن تعاون معهم ، أوصى بأن يصلى عليه في داره بعد وفاته حتى لا يتقدم للصلاة

---

322 ـ الدباغ : المصدر السابق 2،243-244 ، طالبي : تراجم اغلبية ، 402 .

323 ـ ح.ح.عبد الوهاب : مجمل تاريخ الأدب التونسي 87 ، وقد قتل اثناء حركة ابي يزيد .

324 ـ الطبقات : 252 ط تونس 1968 .

325 ـ الدباغ : المصدر السابق 2،238 ، وما بعدها ، وقد اعترف المروزي بانه ادبه ارضاء للمشارقة الذين اكثروا حوله الوشايات وخشي عاقبة ذلك ، طالبي : تراجم اغلبية 381-383 .

326 ـ نفسه 2 ، 226-229 ، طالبي : تراجم اغلبية 374 ـ 375 .

327 ـ ابن عذاري : البيان 1،266،267 . ومما احتج به المروزي عليه قوله « لا يؤم بنا الأولى من أولياء أمير المؤمنين فادخل الى بعض الدعاة ياخذ عليك البيعة وتبقى على خطتك » .

328 ـ الدباغ : المصدر السابق 2،198 وما بعدها ، ابن عذاري 1،275 ويسميه الطرزي وقد ولي خطة الحسبة والمظالم في القيروان ، طالبي : تراجم :377 ـ 379 .

عليه قضاة الشيعة (329) . ومثله احمد بن محمد القرشي الذي رفض ان يلي القضاء في القيروان ، عندما رشحه القائم بأمر الله بسبب كراهيته للتعاون مع رجال العصر الشيعي (330) ، وسار على منوالهما الطبيب المشهور أحمد بن الجزار ، الذي رفض التملق وقبول هدايا القاضي النعمان ، رغم أنه كانت تربطه صلة صداقة بأحمد بن عبيد الله المهدي عم المعز لدين الله ، وكانا يتزاوران بكثرة ، كذلك يلاحظ انه ألف كتابا هاما عن قيام الدولة الفاطمية ، يعتبر في عداد المصادر المفقودة ، ولهذين السببين ، أعتبر في نظر المالكية ، متشيعا ، فنبذوه وأهملوا الحديث عنه في كتب طبقات المالكية رغم شهرته (331) .

أما أعنف شخصيات المالكية وأشدهم بغضا وعداء للفاطميين فهو أبو يوسف جبلة بن حمود بن عبد الرحمن بن مسلمة الصدفي ، كان من بين الفقهاء والزهاد الذين لازموا حياة الرباط في قصر الطوب ، بجوار مدينة سوسة ، فلما حل المهدي برقادة ، هجر الرباط ، ولما سئل عن سر ذلك ، أجاب : « كنا نحرس عدوا بيننا وبينه البحر ، والآن حل هذا العدو بساحتنا ، وهو أشد عنينا من ذلك » ولم يكتف بذلك بل تزعم حركة تهدف الى تزهيد الناس في حياة الرباط على الثغور ، وكان يقول للذين يذهبون الى الاربطة : « جهاد هؤلاء أفضل من جهاد الشرك » واظهر معارضة للنظام الشيعي وللتطور الجديد ، في أول جمعة اقيمت في رقادة ودعي أثناءها لعبيد الله بلقب المهدي أمير المؤمنين ، وأعلن أمام الناس مسؤولية الشيعة عن تعطيل صلاة الجمعة ، بقوله : « قطعوها ، قطعهم الله » وكان يهدف من وراء ذلك الى الدعوة الى مقاطعتهم في أيام الجمع والاعياد أيضا التي يدعي لهم أثناءها بألقاب الخلافة ، وقد نجحت دعوته ، ايما نجاح ، بين جمهور السنة ، الذين كانوا يكتفون بصلاة الظهر ولا يرتادون المساجد الجامعة (332) .

وقد غير جبلة بن حمود ، مجرى حياته ، بعد قيام الدولة الفاطميه ، فكان اذا صلى الصبح يخرج الى أرباض القيروان ، تجاه رقادة ، مقر المهدي ، وهو على اتم استعداد للقتال ويبقى هناك حتى غروب الشمس ،

---

329 – نفسه 3،3–7 ، طالبي : تراجم اغلبية 366 – 370 .

330 – ابو العرب تميم : المصدر السابق 253 ط تونس 1968 .

331 – ح.ح عبد الوهاب ورقات 306،1 ، وما بعدها : ابن عذاري : البيان 1 ، 338 ، المقريزي : اتعاظ 90،1،91 ، وقد أشرف على علاج المنصور وعندما توفي ، أراد الشيعة قتل ابن الجزار لكن طبيبه الخاص اسحاق بن سليمان دافع عنه وبراه من تهمة التسبب في موته وعن دور الاثنين في الحركة الفكرية ، انظر : الجنحاني القيروان عبر الحضارة 164 .

332 – ابن عذاري : المصدر السابق 400،1 .

وعندئذ يعود الى منزله وعندما استغرب الناس تصرفاته وسألوه عن السبب ، اجابهم : « احرس عورات المسلمين منهم ، فان رأيت شيئا حركت المسلمين عليهم » (333) .

ومن ملاحظة اقوال شيوخ المالكية وتصرفاتهم تجـاه الدولة الفاطمية يتضح أن وجهة نظرهم فى العهد الشيعي تنبني على أساس انه :

عصر شهداء المالكية وعصر المحنة بالنسبة لأهل السنة الملتزمين ، وعصر سيادة البدعة . وكان المتطرفون من المالكية مثل جبلة بن حمود ، وأبى العرب تميم ، وغيرهم ، يرون ان النضال ضد الفاطميين الشيعة يعتبر جهادا مقدسا ، مثل جهاد الروم ، والمشركين بالله وربما اعتبر الفاطميون فى نظرهم اسوا حالا من الكفار ، لذلك يفضلون جهادهم على جهاد الروم الكفرة ، ويعتقدون بأن الخروج عليهم واجب ، ومراقبة تحركاتهم ، والتنبيه على خطر مذهبهم ، أفضل من الخروج الى الثغور للرباط ، وكان شيوخ المالكية يعتبرون المرابطة فى هذا العصر ، بمثابة استسلام ، واعتراف بالبدعة ، وتهرب من واجب حماية جمهور السكان من الفتنة المذهبية ، ومن ثم نلاحظ ان شيوخ المالكية رغم ما نزل بهم من أنواع العذاب ، والتنكيل لم يهاجروا عن بلدهم الا ندرا ، حرصا على بقائهم الى جانب من يلوذون بهم ، ويعتبرونهم زعمائهم الحقيقيين ، لسانا معبرا ، وسندا ضد الاخطار .

وهنا نشير الى أن ما جرى تدبيره من حركات ثورة وعصيان أو تخريب او احراق بعض المؤسسات (334) أو محاولة لقتل المهدي ، وبعض رجاله انما كان بوحي من الزعامات الشعبية المالكية وقام بتنفيذها على الوجه الاكمل متطوعون مخلصون لمذهبهم ولعلمائهم ، ولعل خير ما يوضح حقيقة دور شيوخ المالكية ومدى تعلق السكان بهم هو قول ابن ناجي : « جزى الله

---

333 ـ نفسه ، 1،222،الدباغ 2،185 وما بعدها ، عياض ، ترتيب المدارك مجلد 2 ج 3، 247 ـ 252 ، طالبي : تراجم اغلبية 278 وما بعدها ، وقد رد على بعضهم بقوله « ارايت لو نزل الروم بنا فقالوا انما تنزلون على حكمنا او نجاهدكم هل كان يجوز ان تنزل على حكمهم ؟ وان عشت سترى من احكام هؤلاء ما هو شر من احكـام الشرك » .

334 ـ نفسه ، 1،253 .

مشيخة القيروان خيرا ، هذا يموت ، وهذا يضرب ، وهذا يسجن ، وهم صابرون لا يفرون ولو فروا ، لكفرت العامة دفعة واحدة » (335) .

ذلك لأن المهدي على عكس الداعي أبى عبد الله ، كان ميالا لاستخدام العنف والضغط لحمل الناس على التشيع ، فقد أمر رجلا يدعى : الشريف ، بالجلوس اثر صلاة الجمعة للدعوة وطلب التشيع من العامة ، ومن رفض وعاند يقتل كما ارسل غيره الى الأطراف (336) ، وأحدث مصلحة خاصة منذ 298 هـ / 910 ـ 911 م ، تعرف بديوان الكشف (337) واسندت الى اثنين من خيرة أعوانه هما : أبو جعفر محمد بن أحمد البغدادي (338) وعمران بن أبي خالد بن أبي سلام ، ويبدو أن مهمتهما كانت وثيقة الصلة بحركة الصراع المذهبي ، وبالكشف عن المخالفين للمذهب من الفقهاء ، والمفتين ، والقضاة ، والمؤذنين ، وأغلب الذين امتحنوا من شيوخ المالكية ، رفعت عنهم أخبار ، من طرف أعوان هذه المصلحة ، التي كانت تنسق مع قضاة المهدي ، ومنهم المروزي ، ثم اسحاق بن أبي المنهال .

واشد الناس اذى لأهل السنة والمالكية خاصة هم من اعتنقوا المذهب الشيعي حديثا وابتسم لهم الحظ فنالوا مسؤوليات كبرى ، فى النظام الجديد .

ومن الذين فتنوا فى مذهبهم واعتنقوا المذهب الاسماعيلي لأغراض مادية صرفة ، المروزي والنعمان وخلف بن مغمر بن منصور الحنفي ، وأبو بكر القمودي الفيلسوف ، ومحمد بن حيان وعلى بن منصور الصفار وعبد الملك ابن محمد الضبي ، أما ربيع بن سليمان ، المعروف بابن الكحالة فقد تشرق ، ارضاء لنزواته الشخصية ومن أجل أن تبقى صلته مستمرة مع غلام شيعي

335 ـ الدباغ : المصدر السابق 2،200 ، وقد اسهم شعراء المالكية فى النضال الى جانب الشيوخ ، ومن هؤلاء أبو القاسم محمد بن عبد الله الفزاري (ت345 هـ) ، الذي كان يذم العقيدة الاسماعيلية فى شعره ، وينتصر لآراء المالكية ولابي يزيد ، الذي حالفهم ، ضد المنصور اسماعيل . انظر ح.ح عبد الوهاب : مجمل تاريخ الادب 86، وعلى عكس الفزاري ، تعاون بحتري المغرب ، علي بن محمد الايادي (ت 365 هـ) مع الفاطميين ، وخلد ذكر مدينة صبرة ، وقلعة كتانة والمهدية فى شعره . انظر سيرة جوذر 37،48ـ49 : ح.ح. عبد الوهاب ، مجمل تاريخ الادب التونسي 96ـ97 .

336 ـ المقريزي : اتعاظ 1،66 ، ابن عذاري 1،260 .

337 ـ ابن عذاري 1،224 .

338 ـ نفسه ، 1،225 ، وقد استكتبه المهدي بعد وفاة الشيباني واصبح مستشارا خاصا له وقد ساعده فى تصفية حركة الداعي أبي عبد الله وولى أيضا مصلحة البريد وبقي عليها حتى مات وكانت له علاقة بالجاليات الاندلسية ، وله اعوان مخلصون . ولعل حركة الجوسسة الاموية كانت تجد منه التغافل ، ان لم يكن له دور فيها ، وقد اتهم مرة بأنه « يعمل فى شتر هذه الدولة الزاهرة وادخال العيب فيها » . انظر 234،290 منه .

كلف به ، وتشرق قاسم بن خلاد الواسطي ، من أجل الظفر بخطة القضاء في باجة فلم ينلها ، لأن الدولة استغنت عن احداث هذه الخطة ، فضيع شرفه ومذهبه .

اما اسحاق بن ابي المنهال فقد تشرق ، ليلي قضاء صقلية وقد نقل الى القيروان ، وتوفي قاضيا ، وكان له ضحايا من بين المالكية ، واعتنق المذهب الاسماعيلي ، أبو بكر بن سليمان الحنفي ، ليسمح له بالارتزاق من كتابة الوثائق والعقود بين الناس ، وكان على جانب كبير من الفقر والحاجة ، ولا ينتصب عدلا موثقا في القيروان الا من كان ثقة النظـام ، وعلى مذهب الدولة . وقد أهل زرارة بن احمد لمنصب قضاء المهدية ، غلوه في المذهب الشيعي مثل أحمد بن محمد بن شهرين ، الذي تشرق ، فولى قضاء برقة ، وأحمد بن بحر ، الذي ولى قضاء طرابلس ، ثم أصبح قاضيا في القيروان بعد وفاة اسحاق بن أبي المنهال، وتشيع محمد بن حيان، ليبقى على الامامة في سوسة ، وهذا لا ينفي وجود نوعية أخرى من المتشيعين وهم الذين اعتنقوا المذهب ، برضاهم واختيارهم ودون ما رغبة في تحصيل مكاسب مادية ، ومن هؤلاء : أبو ريدة بن خلاد ،الذي اوصى بماله بعد وفاته للخليفة الفاطمي (339) ، وأبراهيم ابن غازي ، وأحمد البلوي النخاس ، وكان هذان من المغالين في المذهب الاسماعيلي ، فابن غازي ابتدأ حياته زاهدا ، وكان من بين المرابطين في قصر الطوب ، ولورعه وتقواه ، هم سكان سوسة بتقديمه لصلاة الجماعة ، فلما استقر المهدي برقادة ، تشيع وغالى ، حتى قيل انه كان ينتهك حرمة رمضان جهارا ، ويرتكب الكبائر (340) ، ويخاطب المهدي بقوله : انت انت ! ، وقد صحت فراسة جبلة بن حمود فيه ، اذ كان يقول لأصحابه ، وهو مرابط ، انه لا يموت على الاسلام (341) .

وكان أحمد البلوي ، يتجه في صلاته الى رقادة ، بدلا من الكعبة ، فلما استقر المهدي في عاصمته على الساحل ، حول وجهته الى المهدية ونقل عنه قوله « لست ممن يعبد من لا يرى » ! وقيل انه كان يتصدى لعبيد الله المهدي ، في الطريق ، ويخاطبه بقوله : « أرق الى السماء ! » « كم تقيم في الارض وتمشي في الأسواق ! وكان يهول على السكان في القيروان ويقول لهم : أن المهدي مطلع على ما تدبرونه في سركم ونجواكم حتى اغتاظ منه

---

339 ـ ابو العرب تميم : الطبقات 223ـ226 ، الخشني : المصدر السابق 292ـ295 الدباغ : المصدر السابق 2،198 وما بعدها ، ابن عذاري : البيان 1،241 الجودي : قضاة القيروان 8ـ9 .

340 ـ ابن عذاري 1،261 .

341 ـ عياض : ترتيب المدارك مجلد 2،ج3،251 .

احدهم وهمس فى اذنه قوله «عبيد الله الذي تقول زان ، ابن الزانية ، فان كان يعلم ما قلت لك فلينتصر » . فصاح صيحة مجذوب ، « يا مسكين ، انه حليم لا يعجل » . (342)

وانتشرت الآراء الاسماعيلية المتطرفة فى غير القيروان ورقادة حيث ظهرت فى باجة وتونس وبجبل الونشريس، وفى منطقة تاهرت كل ذلك من أثر حركة الدعوة بواسطة دعاة منحرفين ، أو غلاة أو جهلة (343) ، ومن هؤلاء منيب بن سليمان المكناسي ، الذي أظهر التشريق بجانب تاهرت ، وفى جبال الونشريس ، فى ارض المغرب الأوسط ، فى صورته المتطرفة والاباحية ، فافتتن السكان ، وتحللوا من القيود ، وأباح الغوغاء وهواة اللذة لأنفسهم انتهاك الحرمات ، والأعراض ، حتى « كان الرجل يدخل الى حليلة جاره فيطأها ، وزوجها ينظر اليه ، ثم يخرج فيبصق فى وجهه ، ويصفع قفاه ، ويقول : تصبر ! فاذا صبر عد كامل الايمان ، وسمى من الصابرة » . وكانت الحركة من التطرف والتجاوز الى حد أنها أحدثت غليانا وثورة ، وقام جمع من السكان ضد هؤلاء المنحرفين ، فقتلوا بعضهم (344) ، والجأوا الاخرين مع دعاتهم الى الانزواء ، والكف عن طلب التشيع ، كما تخلص سكان أوراس من أبي معلوم (345) فحلون الكتامي ، لقسوته وشدته عليهم ولأنه أرغمهم على أشياء ينكرونها ، وقد اشارت النصوص الى أن القائم بأمر الله أرسل أثناء حركته فى بلاد المغرب 315 هـ / 927 — 928 م عليا ابن محمد الملوسي الداعي ، مقيدا الى افريقية حيث قتل فى رملة المهدية (346) لانحرافه عن الدعوة أو لتورطه فى الاشتراك فى حركات عدائية ضد الدولة انتقاما منها لقتل أبناء عصبيته .

وقد أساءت الى سمعة الدولة الفاطمية حركات الدعاة المنحرفين الذين نشروا الاباحية وتحللوا من قواعد الشرع حتى عير القائم بأمر الله بذلك من

---

342 — ابن عذاري 1، 261 .

343 — النعمان : المجالس 2 ، ورقات 437—438 ، 480 وما بعدها ، 532 وما بعدها ، 577، 635 وما بعدها . وطالما جار الخلفاء ، بالشكوى من انحراف الدعاة وتلفيقهم اشياء ونسبتها الى الائمة او ارشادهم لغيرهم بغير علم ، ومن ذلك قول المعز لدين الله « والله لو صدق الدعاة الينا ، عنا ، وادوا الى الناس قولنا ، ولم يتقولوا علينا ما تخلف احد عنا ، ممن يتبع قولنا ، وعرف مذهبنا » . وكانت حياة الخلفاء الفاطميين ، عبارة عن صراع مع عدوين ، ونضال فى جبهتين ، داخلية ، ضد الدعاة والأعوان المنافقين ، وخارجية ضد المعارضين لهم فى المذهب وفى التوجيه السياسي ، عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ، 1، 71، انظر النعمان ، الرسالة المذهبة 43—44 ، حيث يلعن المعز من يدعي تاليه الائمة .. وهي ضمن خمس رسائل اسماعيلية .

344 — ابن عذاري 1، 260 .

345 — نفسه ، 1، 263 .

346 — ابن عذاري : البيان 1، 271 .

طرف جماهير السنة في الفيوم ، أثناء وجوده في مصر ، ولذلك اجتهد المهدي في الحد من تطرفهم وأمر بجمعهم من الآفاق الدانية والقاصية ، فكان عددهم في القيروان وباجة وتونس وحدها نحو مائتي رجل نقل عنهم أنهم كانوا يأكلون لحم الخنزير ، ويشربون الخمر جهارا في شهر رمضان ، وقد سجنوا في المهدية حتى مات أكثرهم (347) . كما أمر بالكف عن طلب التشيع من العامة خيفة من انتشار الغلو ، والتطرف ، ومن ظهور فتن في حواضر افريقية (348) .

ولئن كان الخلفاء الفاطميون قد مكنوا لأنفسهم بالامكانيات الضخمة التي يملكونها ، وفرضوا آرائهم وارادتهم بالقوة وبالعنف على جماهير السنة في افريقية (349) وضيقوا على المالكية واضطهدوهم أكثر من غيرهم (350) فان هؤلاء في جملتهم بقوا على ولائهم لمذهبهم (351) ولتقاليدهم القديمة وتحملوا انواع الحرمان (352) ، ورفضوا جميع اشكال التعاون مع الفاطميين (353) ، وبقوا يعدون أنفسهم للنضال الحقيقي ثأرا لشهداء المالكية في عصر المحنة حتى أتيحت لهم فرصة بظهور حركة سياسية مذهبية لا تخلو من طابع العنصرية البترية ، ضد الفاطميين ، وبربر كتامة وصنهاجة ، تلك هي حركة شيخ المؤمنين أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني ، النكاري الاباضي ، التي كانت ميدانا مفضلا لرجال المذاهب المتصارعة ولرجال الحكم والسياسة ولفروع البتر والبرانس ، ولسائر الطموحين . فكل فريق من هؤلاء وجد في الحركة ضالته المنشودة وفرصته الذهبية لنيل غرضه أو

---

347 – نفسه 1، 260–261 وكان ابو الخير الداعي في الاندلس يقول عن الخمر « انه اجل من الماء للشرب والطهور » وان محمدا صلى الله عليه وسلم ظلم في تحريمها واحل اشياء كانت الخمر خيرا منها » . انظر : ابن سهل ، الاعلام بنوازل الاحكام (قطعة منه) 62 – 63 .

348 – المقريزي : اتعاظ ، 1، 68 .

349 – فاصبحوا يتسترون ، وفي وضع اهل الذمة وحتى وهم في هذه الحالة كان الشيعة يؤذونهم نفسيا فقد كلفوا احد المتشددين العميان بان يهزج بذم النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه بقوله « العنوا الغار وما وعى والكساء وما حوى » . انظر عياض : المدارك : مجلد 2 ، ج 3 ، 318 ط . بيروت .

350 – وقد منعوهم من الافتاء بمذهبهم ومن التدريس والوعظ وكتابة الوثائق ومن الاذان ، واوجبوا العمل بمذهب جعفر بن محمد فعطلوا مذهب مالك .

351 – ومن ذلك ان احمد بن زياد الفارسي كتب في وثيقة الصداق شرطا على خلاف راي الشيعة فضرب بالعصا بطحا . انظر تراجم اغلبية 385 – 386 .

352 – اختار ابو محمد الورداني البقاء في وطنه ورعى البقر حتى لا يلفت اليه نظر الشيعة . تراجم اغلبية 336 – 337 .

353 – عياض : المصدر السابق مجلد 2 ، ج 3 ، 339 ، 363 .

لايذاء خصمه ، أما الجانب الذي لم يضعه أي فريق في اعتباره ، في غمرة النزاع ، فهو العمران ومظاهر الرخاء والحضارة التي أصيبت بضربة قاسية .

والى هذه الحركة التخريبية التي اعتبرت في نظر الخلفاء الفاطميين ، فتنة أو محنة كبرى من نوع خاص ، واعتبر صاحبها لعينا ، ودجالا (354) ، في نظرهم وفي نظر مؤرخي الاباضية الذين قسوا في الحكم عليه كأحد المفسدين في الارض(355)،انضم أهل السنة وفقهاء المالكية لأنهم اعتبروها أملا وحيدا في الخلاص ، من حكم الشيعة الفاطميين وساندوها بكل قواهم ، لأن وجه الحركة في البدء كان سنيا ، يظهر الترحم على ابي بكر وعمر ، ويحث على قراءة مذهب مالك والالتزام به ويستند في تطبيق قواعد الشرع الاسلامي على الكتاب والسنة ، ويراقب تنفيذها بواسطة الاحتساب على الولاة والعمال وأوساط الناس ، وكان الشيخ أبو يزيد كما لقبه فقهاء المالكية يدعو الى التكتل لقتال الشيعة والحط من شأنهم وشأن أئمتهم ، بما في ذلك علي بن أبي طالب (356) ، ومن اجل ذلك انضم الى صفوف رجاله لحربهم ، زهاد افريقية وعبادها وفقاؤها ، الذين أشرفوا على تهيئة المعركة وعلى تعبئة القوى السنية بواسطة الخطب التي ألقيت في المساجد والاحاديث التي وضعت لتشجيع السكان على التجنيد ، وللجهاد ضد الرافضة . واثناء المؤتمر العام الذي عقد باشراف زعماء أهل السنة (357) ومنهم : أبو الفضل عباس بن عيسى الممسي وربيع بن سليمان القطان وابو اسحاق السباي وابو عبد المالك بن مروان بن منصور الزاهد ، وابراهيم بن محمد العشماء ، وأبو العرب تميم ، وأشرف على توجيه اعمال المؤتمر كل من الممسي وأبي العرب تميم ، وعندما اتفق رأيهم على اعلان الثورة ، جهزوا أنفسهم وأتباعهم بالعدة الكاملة وركزوا بنودهم قبالة مسجد القيروان ، وقد حملت هذه البنود ، وكان عددها سبعة تحمل شعارات مختلفة ، وتميزت عن بعضها بألوان خاصة ، فكان بند الممسي ، زعيم الحركة ، أحمر ، وقد كتب عليه شعار «لا اله الا الله محمد رسول الله»،«لا حكم الا لله وهو خير الحاكمين» .

354 ــ النعمان : المجالس 1،79 وما بعدها ، وقد خلدها النعمان في قصيدة سماها «ذات المحنة» ، سيرة جوذر 53،189 ، تعليق 135 منه .

355 ــ ابو زكريا : السيرة ورقات 34،35،36،37، الدرجيني ، الطبقات ، ورقة 113 ، 114 ، الاستبصار : 205ـ206 ، ويصفه بالصفري خطأ .

356 ــ ابن عذاري : البيان 1،273،307ـ308 نقلا عن ابن سعدون في : تعزية أهل القيروان بما جرى على البلدان من هيجان الفتن وتقلب الازمان وعن هذا النص انظر : البيان : المغرب 1،405 وما بعدها .

357 ــ عياض : ترتيب المدارك مجلد 2 ، ج 3 ، 319ـ320 ، ابن عذاري : المصدر السابق ، 1،308ـ309 ، ابو العرب تميم : المصدر السابق 19 ، هامش 2 .

ومثله البندان اللذان رفعهما ربيع بن سليمان القطان وقد كتب على أحدهما : بسم الله الرحمن الرحيم ، لا اله الا الله محمد رسول الله ، وفى الآخر كتب « نصر من الله وفتح قريب على يد الشيخ ابي يزيد اللهم انصر وليك على من سب نبيك وأصحاب نبيك » .

وكان مع أبي العرب تميم ، بند أصفر ، كتبت عليه بعد البسملة ، الآية القرآنية « قاتلوا أئمة الكفر » وكتب على البند الأخضر الذي رفعه ابو نصر الزاهد ، قوله تعالى : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم » .

وكتب على البند الأبيض الذي رفعه السبأى : بعد البسملة « محمد رسول الله ، وأبو بكر الصديق ، وعمر الفاروق » .

واكبر البنود ، كان ابيض وقد رفعه ابراهيم العشماء وكتب عليه قوله تعالى « الا تنصروه فقد نصره الله ، اذ اخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما فى الغار ، اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، التوبة آية 40 » .

واكتملت اعداداتهم بخطبة ابي ابراهيم أحمد بن أبي الوليد التي القاها يوم الجمعة ، فطعن فى الحكم الفاطمي ، وشهر بالخلفاء واغرى الجماهير السنية بالعمل الجاد وحثهم على الجهاد والاخلاص فى قتال الشيعة الى جانب الشيخ أبي يزيد . (358)

ومن ملاحظة هذه الشعارات تبدو اسباب الغضب من الحكم الفاطمي لأنها تركزت على مبدأ وحدة الاله ونبوءة محمد (صلى الله عليه وسلم) وفضل الخلفاء الراشدين ، واهمال علي بن أبي طالب وتفضيل أبي بكر عليه ، كما لم تخل من الاشارة الى آثار الحلف الجديد ، فى اتخاذ بعض شعارات الخوارج الأوائل مجاملة للشيخ أبي يزيد .

وبفضل قوة أهل السنة وتأييدهم للحركة ، أحرز أبو يزيد انتصارات كبرى ضد قادة الخلفاء الفاطميين واستخلص حواضر افريقية السنية ومنها القيروان مركز القوة المالكية ، وهدد الخلافة الفاطمية بالسقوط ولما اصبح فى مركز قوة ، وغدا الخليفة الفاطمي ، القائم ، محصورا فى المهدية ، حيث « مات محسورا ، وفى نفسه مقهورا » (359) تآمر على حلفائه السنين ومهد لقتلهم على يد جند الفاطميين ، وقد قال لجنوده « اذا التقيتم مع القوم

---

358 ـ ابن عذاري : البيان 1،411ـ412 ومنها قوله : « اللهم ان هذا القرمطي الكافر المعروف بعبيد ادعى الربوبية من دون الله .. فانصرنا اللهم عليه ، وارحنا من دولته . واهلك اللهم شيعته وشتت كلمته » ، عياض : المصدر السابق 3 ، 320 ـ 321 .

359 ـ ابن عذاري : البيان ، 1،412 .

انكشفوا عن اهل القيروان حتى يتمكن اعداؤكم من قتلهم ، فيكونوا هم الذين قتلوهم لا نحن فنستريح منهم (360) ، وكان غرضه أن يصفو له الجو ، بازاحة هؤلاء الزعماء الشعبيين ، فيتمكن نفوذه في أوساط العامة ويكون أهل السنة ، بذلك ، قد راحوا ضحية تحايل خطير واستبدلوا سيدا بآخر ومهدوا لاستبداد الاباضية النكار بحواضر افريقية السنية .

وتشير النصوص الى ان فقهاء المالكية وجماهير السنة لم يتفطنوا لتدبير أبي يزيد ، ولذلك اخلصوا في القتال وحدهم حتى سقط أغلبهم في ميدان المعركة وعندئذ عرفوا حقيقة مكر ابي يزيد ، وقالوا « قتل أولياء الله شهداء» ولما انسحبوا من معسكره وانقلبوا ألبا عليه ، وحربا ضد انصاره بدأ مجده في التراجع ، حتى تمت التصفية النهائية لحركته التخريبية بالمعركة الحاسمة التى خسرها الى جانب انفصال مدينة القيروان وثورتها ضده وطردها لاتباعه وواليه (361) .

والذي يميز حركة ابي يزيد عن غيرها من الحركات المعارضة للفاطميين ، في بلاد المغرب (362) أنها :

ـ كانت أول امتحان رهيب ، للوجود الفاطمي في بلاد المغرب ، بعد أن سقطت حواضر افريقية عدا المهدية وسوسة اللتين ذاقتا مرارة الحصار ، وويلات الحرب ، والمجاعة في أواخر عصر القائم ، وبداية عصر المنصور ، وهذان الامامان هما اللذان واجهاها فأتعبتهما تعبا شديدا . فالقائم ، مات محصورا ، والمنصور قاتل بنفسه ، حتى أنهاها لفائدة الفاطميين (363) ، لكن بعد أن تعرض للمشاكل وللأمراض وطوح في الآفاق المغربية وضرب

---

360 ـ نفسه 1،309 ، عياض : المصدر السابق مجلد 2 ، ج 3 ، 321 ، وممن قتل اثناء الفتنة الممسي وربيع القطان ، وقد رثي الممسي بقصائد ، من طرف الفزاري ومحمد بن ابي زيد ، وابي عبد الله الدارمي ، ومن اشارة وردت نستنتج انهما قتلا في وقعة وادي الملح 333 هـ ، انظر عياض مجلد 2 ، ج 3 ، 322 ـ 330 .

361 ـ المقريزي : اتعاظ 1،82 ـ س 6 . ط 1967 ، ابن حماد : المصدر السابق 18 وما بعدها .

362 ـ بدا الاعداد لهذه الحركة منذ اواخر 316 هـ اي في عصر المهدي ، وابتدا العمل الحربي ، في عصر القائم ، واستمرت الحركة حتى نهاية محرم 336 هـ . انظر ابن عذاري 1،273 ، المقريزي : اتعاظ 1،85 ، ابن الاثير : الكامل 8،67 ، 157 ، ابن حماد : المصدر السابق 18 وما بعدها .

363 ـ المقريزي ، اتعاظ الحنفا 1،85 ، ابن عذاري : البيان 1،1، 313 (نقلا عن القضاعي) وانظر 412 منه حيث ينقل عن ابن سعدون ، ابن ظافر : اخبار الدول المنقطعة ورقة 46 ، أبو الفداء المختصر 2،97ـ98 ، اماري : المكتبة الصقلية 318 وهنا يشير الى رواية ارسال جثة ابي يزيد وراس ابنه فضل الى جزيرة صقلية ابن حماد : المصدر السابق 22ـ23 .

فى السهوب والصحاري والجبال (364) ، ولاهمية دورهما ، كان المعز لدين الله يترحم على روحهما ، ويأسف لما أصابهما أثناء هذه المحنة الكبرى .

ـ وقد كلفت الحركة خزانة الدولة الفاطمية ، نفقات باهظة ، وخسائر لا تدخل تحت حصر (365) وفى نفس الوقت كانت البلاد تمر بمجاعة وبأزمة اقتصادية مظهرها غلاء الأسعار ، حتى بلغ عليق كل دابة دينارا ونصفا وبلغت قربة الماء دينارا (366) .

ـ وقد اضرت الحركة بمظاهر الحياة الاقتصادية والحضارية فى افريقية واقليم الزاب على نحو لم تفقها فيه اية حركة ثورية سابقة أو لاحقة وتكرر ما وقع فى عصر الكاهنة ، انما على مستوى أكبر ، ولم يحترم البدو المدن ، ومظاهر العمران ، كما لم يحترموا المساجد ، والأربطة ، والحصون ، والنساء والولدان . وتحت ستار الانضمام الى هذا الفريق أو ذاك ، كانت ترتكب أعمال تخريبية هدفها نفعي خاص « وقد كان البربر ، يأتون الى أبي يزيد من كل ناحية فينهبون ويرجعون الى منازلهم حتى افنـــوا ما كان فى افريقية (367) .

ـ وقد أضرت بعصبية الدولة الفاطمية واصابتها فى خيرة رجالها وقادتها من كتامة وصنهاجة ومن طبقة الفتيان ومن ولاة الأقاليم والمدن الافريقية وكان من ضحاياها ميسور الفتى وعلي بن حمدون وخليل بن اسحـــاق وغيرهم كثيرون .

ـ وتخللت الحركة أعمال بطولة ، وفروسية ودهاء ، فالمنصور أكرم اسرة أبي يزيد ولم ينتقم منها وأبو يزيد ، تظاهر بالمالكية ، وتصرف بدهاء مع فقهائها حتى استغلهم فى النضال . كما لم يف بوعده للمنصور فى التسليم بمجرد تأمين أسرته (368) ، وشجع القائم المعارضين لأبي يزيد واستخدم المنصور المال والرشوة للقضاء (369) عليه ، كما وافق على منح الأمان لأخلص انصاره ، من هوارة وبني كملان ، ولمحمد بن خزر المغراوي بشرط التعاون مع جند الفاطميين لرصد حركات أبي يزيد (370) .

---

364 ـ نفسه 1،83ـ84 ، النعمان : المجالس 2،652 ـ 653 . العزيزي : سيرة جوذر 44 وما بعدها .

365 ـ النعمان : المجالس 2،642 وما بعدها .

366 ـ المقريزي : المصدر السابق 1،84 .

367 ـ النعمان : المصدر السابق 1،183 وما بعدها ، المقريزي : المصدر السابق 1،79 .

368 ـ المقريزي : المصدر السابق 1،83 وقد قال «انما وجههم خوفا مني» .

369 ـ نفسه ، وقد نادى المنصور « من اتى براس أبي يزيد فله عشرة آلاف دينار » .

370 ـ نفسه 1،85 . وكان ذلك قبل حصار ابي يزيد فى قلعة كتابة ، ابن الاثير : المصدر السابق 8،157 ، ابن حماد : المصدر السابق 28 .

وقد اختلطت أحداث هذه الفتنة وتكاثرت الزحوف أثناءها ومع ذلك فقد ظفرت بعض المعارك باهمية خاصة وعرفت بأسماء الأمكنة أو الأزمنة التي جرت فيها ، ومنها : واقعة وادي الملح التي خسرها جند الفاطميين اواخر (371) 333 هـ / 944 ـ 945 م ثم واقعة الجمعة محرم 335 هـ اغسطس 946 م ـ التي كسبها المنصور اسماعيل ، الذي قارب أن يقتل بنفسه خصمه العنيد ، ولأهميتها سجلها المنصور فى كتاب ارسله باسم أبيه القائم ، الذي لم يعلن خبر وفاته حتى الآن (372) .

ومنه قوله « قد استولينا على مناخ اللعين بما فيه من قليل وكثير فقتل به مالا يحصي سوى من قتل فى المعركة وليس الى احصاء قتلاهم سبيل لكثرتهم (373) ، واذا كانت هذه المعـركة الحاسمة هي اشارة النصر الحقيقي . بحيث وضعت حدا لنظام أبي يزيد فى افريقية ، وقضت على أمله فى احتلال المهدية وصيرته مشردا بين أوراس ومنطقة الحضنة ، فان وقعة قصور الحيتان فى الزاب كانت بمثابة نهاية لحركتة ، وبشيرا بقرب التخلص منه (374) .

وشعور المنصور بالنهاية السعيدة لجهوده المضنية هو الذي دفعه الى ارسال سجل عنها الى ابنه معد ضمنه فرحة النصر وشوقه اليه ومشاكله الخاصة أثناء الحرب (375) ، واثرها ، أنعم على جوذر الصقلبي بالعتق تقربا لله ولقب بمولى أمير المؤمنين وسمح له بكتابة اسمه على الطراز (376) .

---

371 ـ ابن عذاري 310،1 ، العزيزي : المصدر السابق 52 ، تعليق 51 وذكرت باسم الوادي المالح ، البكري : المصدر السابق 29 ، والوادي المالح يفصل بين المهدية ومدينة تماجر .

372 ـ العزيزي : سيرة جوذر 44 وكان جوذر اثناء غيبة المنصور فى الحرب مستخلفا على دار الملك وسائر البلاد » وجرت هذه المعركة بجوار مدينة القيروان فى محرم 335 هـ .

373 ـ نفسه 45 انظر تعليقي 36،38 منه ، ويلاحظ ان تاريخ كتابة السجل الذي ارسل الى المهدية لا يعني بالضرورة أن المعركة انتهت فيه ، أي فى محرم 335 هـ .

174 ـ العزيزي : سيرة جوذر 48 وما بعدها ، وهي مما انفرد بذكره كاتب سيرة الأستاذ جوذر ، الذي يلاحظ عليه انه تجوز فى التعبير عن انصار ابي يزيد حيث يصفهم بالازارقة فى اكثر من مكان . ولا يعني ذلك الا معناها وهو التشدد والتعصب وسبي المسلمين وقتل اطفالهم واستحلال حرماتهم واسترقاق حرائرهم ، لان طائفة الازارقة اندثرت آثارها ولم تبق اصداء حركتها الا فى الشعر فضلا عن ان طوائف الخوارج فى معظمها تفرعت اصلا عن الازارقة .

375 ـ نفسه 50-51 .

376 ـ نفسه 51-52 .

وحصار أبي يزيد في قلعة كناية (377) في ارض عجيسة والظفربة بعد فشله في اقتحام المحمدية يدل على أن قلعة الشيعة في اقليم الزاب ، أدت دورها كاملا الى جانب السلطة الشرعية سواء بمقاومتها للحصار أو بايوائها للجيش الفاطمي ، ومساهمتها في تخفيف الضائقة الاقتصادية التي كانت تمر بها المنطقة (378) .

وقد حاول بعض الطموحين استغلال فترة الصراع بين الفاطميين وأبي يزيد في الحصول على امتيازات خاصة ، اذ تشير النصوص الى حركة ثورية ظهرت في محرم 334 هـ / اغسطس 945 م ، وتزعمها رجل ، كان يدعو لنفسه ، تحت ستار النسبة الى العباسيين،واستعمال شعار السواد، وقد استجاب له كثيرون وتطور أمره وكان يمكن له تحقيق هدفه ، لولا اسراع رجال ابي يزيد في القضاء على حركته حيث أسروه وساقوه الى أبي يزيد فقتله (379) .

وقد حيكت مؤامرة خاصة استهدفت حياة أبي يزيد وتزعمها فريق من أنصاره الذين ملوا الحرب ، وكرهوا تصرفاته وتعاطفوا مع الفاطميين وتلقوا تشجيعا خاصا من القائم بأمر الله غير أن أبا يزيد عرف أخبار هذه المؤامرة فقام بقتل زعمائها (380)

وكسب الفاطميون منذ عصر القائم ولاء صنهاجة ومساندتها لجهودهم في مواجهة حركة أبي يزيد . وانضمام زيري بن مناد ورجال صنهاجة (381) الى جند كتامة وطبقة الفتيان ، منح الفاطميين ميزة التفوق العددي ، وقد أبلى زيري بلاء حسنا في الحرب حتى قيل أنه الح على ابي يزيد أثناء المعركة وطعنه حتى ألقاه على الارض واستمر القتال حوله ، وفي النهاية تمكن أنصاره من النجاة به ، انما بعد تضحيات كبرى (382) .

---

377 ـ وردت ، قلعة كتامة في أكثر من مصدر ، انظر المقريزي : اتعاظ 1،85 ، ابو الفداء 2،98 ، ابن الأثير : الكامل 8،157 ، كما وردت كتامة في ابن حماد ، اخبار ملوك بني عبيد 23،32 .

378 ـ المقريزي : المصدر السابق 1،72 ، « ومن المحمدية كان يمتار ما يريد ، اذ ليس بالموضع مدينة سواها » انظر 81،84 منه ، ابن حماد ، 13 ، النويري : المصدر السابق 26 ورقة 35ـ36 .

379 ـ نفسه 1،80 .

380 ـ نفسه 1،81 .

381 ـ المقريزي : المصدر السابق 1،78 ، ابو الفداء 2،98 .

382 ـ نفسه ، 1،85 .

وتعتبر حركة أبي يزيد ضمن الكوارث والأزمات الاقتصادية والاجتماعية التي أصيبت بها بلاد المغرب فى العصر الفاطمي وقد تنوعت هذه الكوارث فكانت حرائق ومجاعات واوبئة ، وغلاء فى الاسعار وقلة فى المؤن ، وغلبة ظاهرة الجفاف ، وحدوث الزلزال (383) ، هذا مع سياسة المصادرة والجور فى الأحكام (384) .

وعقب تصفية ثورة أبي يزيد انتقم المنصور من جميع من أيده وانضم اليه فنال أهل السنة وفقهاء المالكية منه شر كثير ، ولم يزالوا معه فى الامتحان الى أن توفي (385) 341 هـ / 952 ـ 953 م .

وشاء المنصور أن يخلد ذكرى انتصاره على أبي يزيد قرب القيروان فبنى مدينة صبرة 336 هـ / 947 ـ 948 م وسماها المنصورية (386) ، وانتقل اليها فى بداية 337 هـ (387) / 948 ـ 949 م واستوطنها وخلت أكثر أرباض المهدية وتهدمت كما نقل سوق القيروان اليها (388) وهكذا

---

383 ـ ومن تتبع ما حصل منذ بداية العصر الفاطمي تلاحظ نشوب حريق فى سوق القيروان ، 306 هـ (ابن عذاري ، 1،253) واسواق تاهرت واسواق فاس ، وارباض مكناسة سنة 305 هـ (ابن ابي زرع 68) واصيبت افريقية بوباء شديد انتشر حتى حدود مصر سنة 307 هـ فى وقت ارتفعت فيه الأسعار واشتد الفاطميون على السكان (ابن عذاري 1،254) وظهرت مجاعة كبرى منذ سنة 303 هـ (ابن ابي زرع 68) كما ارتفعت الأسعار لمدة طويلة ارتفاعا فاحشا حتى بلغ ثمن قفيز القمح مثقالا من ذهب فى بداية 317 هـ وعانت القيروان نفسها من وباء خطير شمل ارباضها ونواحيها ، (ابن عذاري ،1،273) . وحدثت فى المدينة زلازل كما خسفت احدى قرى ساحل تونس من جراء هزات ارضية فيما يبدو (ابن عذاري 1،230) ولم تنفرج الازمة الا عندما نزلت الامطار فى الجهة : حيث انخفضت الأسعار وزال الوباء ، (ابن عذاري 1،276) .

384 ـ عين المهدي على الخراج منذ 303 هـ ابا معمر عمران بن احمد فاحصى الضياع ، ووظف عليها الخراج بعد ان لاحظ نسبة الخراج ، حيث يرتفع فى وقت الرخاء ، ونسبته حين ينخفض وقت الجفاف ، وجمع النسبتين ووظف نصفهما على كل ضيعة (ابن عذاري 1،242) وبعد سنتين من هذه العملية وبسبب الحاجة الى المال لتجهيز حملة ضد مصر 306 هـ وظف صاحب الخراج على اهل الضياع غرامة اضافية بحجة انها تخلفت مبالغها من بقايا التقسيط ، وقد عرفت لذلك باسم التضييع (ابن عذاري 1،253) وتكرر هذا الاجراء بعد ذلك وظهر التعلل على اموال الناس فى كل جهة (نفسه 1،254) .

385 ـ ابن عذاري 1،313 .

386 ـ ابن عذاري 1،312 ، ابن حماد : المصدر السابق 23ـ24 .

387 ـ نفسه 1،213 ، نقلا عن القضاعي .

388 ـ نفسه 1،312 .

اضاف المنصور الى قواعد الشيعة القديمة حاضرة جديدة توسعت على حساب المهدية ، واثرت على مستقبلها ، كما اثرت الاخيرة من قبل على مستقبل رقادة ، وهذه اثرت على حاضرة القيروان ، أما تونس فانها لم تظفر بلقب الحاضرة الدائمة الا فى بداية العصر الحفصي (389) .

واذا كان اباضية اوراس وطرابلس واقليم الزاب قد احرجوا النظام الفاطمي ، انتقاما لحادث سقوط الامامة الرستمية وللحملات التخريبية ضد طرابلس وجبل نفوسة ، واحيوا الصراع القديم بين البتر، والبرانس، فانهم لم يستطيعوا أن يصلوا الى تخريب ما بنته كتامة بجهد أبنائها لأنهم هبوا جميعا لنداء الواجب وواجهوا الاعداء ودافعوا عن مكاسبهم دفاعا مجيدا وبذلوا مهجهم وارواحهم لكي يستمر البناء سليما شامخا .

واذا كان المنصور قد تغلب على الازمة فان عنف الحركة وجراة صاحبها وطول امدها ، وهزائم جند الخلافة ، التي تعرضت لأخطار الزوال ، يدعو الى التساؤل عما اذا كان حاضر كتامة فى عصري القائم والمنصور ، ينسجم مع ماضيها الى جانب الداعي وفى بداية عصر المهدي ، وكله بأس ، ونجاعة ، وظفر فى الحروب .

* * *

وهنا يلاحظ ان قبيلة كتامة ، هي عصبية الدولة وأساس ظهورها ، فعلى ارضها نمت الحركة الاسماعيلية وعلى سواعد ابنائها قامت الخلافة الفاطمية على حساب الانظمة السياسية والمذهبية فى افريقية وبلاد المغرب وقضي على كثير من الفتن والثورات . وتعاون دعاتها وجندها على نشر المذهب الاسماعيلي بكل همة ونشاط .

ومنذ أن استقر المهدي فى رقادة ، بدأ يتصرف على أساس الاعتماد على رجال كتامة فى تسيير شؤون الدولة الجديدة وفى مواجهة خصومها وأعدائها، الى أن ظهرت خيوط الحركة السرية المعاكسة التي تزعمها أبو العباس المخطوم وجمع من زعماء كتامة .

ولتوضيح حقيقة هذه الحركة التي تعتبر انشقاقا داخليا ، لا بد من الاشارة الى أن عبيد الله المهدي ، لما عرضت عليه جواري الامير الاغلبي الفار ــ فرق كثيرا منهن على قادة كتامة ووجوههم تاليفا لهم واعترافا بدورهم الايجابي، وعين على سائر جهات افريقية عمالا وولاةوكان منهم (390) القضاة والدعاة وقادة الجند فى افريقية وفى خارجها ــ وقد فرق عسكر

389 ــ اذ استمرت المنصورية حاضرة للامراء الزيريين وكانوا يقيمون فيها ، او فى أشير ، انظر عن هذه العواصم : ابن عذاري 1،293،294،312،306،234،258 .

390 ــ يحي بن سعيد الانطاكي : المصدر السابق 756 ط كراتشوفسكي .

كتامة على جهات البلاد وفى المناطق التي انضمت لاطار الدولة وعين على بعض موانيء الدولة الهامة رجالا منهم ، أظهرهم عروبة بن يوسف ، الذي قضى وقتا فى سوسة بعد انتهاء مهمته فى رقادة ، عقب دخول الداعي اليها كما عين على تاهرت وأشرف منها على سائر الجزء الغربي من الدولة .

وحث المهدي رجال كتامة على التانق فى الملبس والتجمل واقتناء خير مركوب والظهور فى مظهر يشرف الدولة الجديدة . وبسبب اغداق الاموال عليهم حلوا سروجهم ولجمهم وظهروا بأزياء حسنة . وعناية المهدي بهم واثراؤهم على حساب غيرهم استغلالا للمسؤولية واتساع أحوالهم بعد الضيق وشظف العيش (391) ، افسد طباعهم واثر على أخلاقهم فمالوا الى التعالي على الجماهير والى ارتكاب مالا يتناسب مع الذوق السليم والآداب العامة ، والى تفضيل حياة البذخ والقصور والجواري فى حواضر افريقية ومدنها على حياة الجندية ومتاعبها .

ولما كان ابو عبد الله الداعي أحسن من عرف كتامة على حقيقتها بعد العشرة الطويلة ، فانه لم يرتح لهذا التطور المفاجيء فى حياة كتامة واعتبر المبالغة فى العناية بهم عاملا على افسادهم واضعاف طاقاتهم الحربية وتراخي عزائمهم وهو أمر يؤثر على كيان الدولة التي لم تقم الا على أساس المحافظة على تماسك هذه الطبقة العسكرية الخلاقة .

وكان فى راي الداعي ان تستمر العناية بهذه الطبقة فى الميدان العسكري لا فى مجال الحكم وحياة القصور والترف والمباهج لتبقى محافظة على بنيانها وأخلاقياتها ، مخلصة للنظام وللامام من نسل علي بن أبي طالب .

ولم يكن الداعي ، فيما يبدو معرضا حين قال للمهدي « يا مولانا ان كتامة قوم قد قومتهم بتقويم وأجريتهم على تربيتهم وتعليمهم وتم لي منهم بذلك ما أردت وبلغت بذلك منهم ما قصدت » ، بسبب خبرته بهم ولقد عبر بصدق عن تجربة كاملة عاشها بين أظهرهم عدة سنين ، واخلاصه للدولة وللنظام وحرصه على استمرارهما هما اللذان دفعاه ، الى التجرؤ على مركز الامام (392) لاظهار تذمره ومعارضته لبعض تصرفاته تجاه عصبية الدولة وقوتها الحربية ، « وهذا الذي فعلته أنت بهم ، من اعطائهم

391 ـ النعمان : افتتاح الدعوة ورقة 187 .

392 ـ كيف يتناسب موقفه من المهدي مع اعتقاده بوجوب الطاعة المطلقة للامام المعصوم المقدس كما هي تقاليد الاسماعيلية ويلاحظ ان معارضة الداعي للمهدي سبقتها معارضة فيروز باب الابواب وانكاره على المهْدي توجهه نحو المغرب . انظر النعمان ، الهمة فى آداب اتباع الملة ،39،78،79 ، عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين 1،68ـ69، يحي بن حمزة العلوي : الافحام لافئدة الباطنية الطغام ، 60 وما بعدها .

الاموال وتوليتهم الاعمال وما أمرتهم به من اللباس والحلي فساد لهم للخروج من عاداتهم » (393) .

ويبدو أن المهدي استاء من موقف الداعي وجرأته لكنه لم يظهر له شيئا وان لم يذعن لآرائه ، الآن كما لم يذعن لها من قبل عندما اقدم على اخذ الاموال المستودعة فى قلعة ايكجان فتسبب بذلك فى ظهور غضب شيوخ كتامة ورجالها منه .

والذي يدعو الى الدهشة اهمال منطقة كتامة وتجاهل قلعة ايكجان ، حتى أن المصادر أصبحت لا تشير اليها بعد قيام الدولة ، وبعكس ذلك ركز المهدي وخلفاؤه جهودهم على منطقة افريقية واهتموا بحواضرهم الجديدة التي انشأوها على الساحل ، مثل المهدية ، أو فى اقليم الزاب مثل المحمدية ، أو بقرب زغوان مثل قلمجنة (394) .

ولم يقتصر الامر على أخذ أموال ايكجان واهمال شأنها بل ان المنطقة جردت من عناصرها الحية ، وشبابها الاقوياء الذين ارتضوا حياة الجندية فى حواضر افريقية والمغرب ، ولم يبق فى أرض كتامة غير ضعفاء القوم وصغار السن ومن لاهم لهم فى الحياة الجديدة وفى المجالات الجديدة .

ولأن المهدي لم يأخذ براي داعيه تجاه كتامة وامتيازات شيوخها ومنطقتها ، واجه حركات ثورية وانتفاضات كبرى انطلقت أولاها من عمق أرض كتامة نفسها ، بعد استقراره فى رقادة ، وكانت رد فعل لأخذه الاموال وتركه ايكجان مهملة وعدم تشريفها بأية ميزة خاصة ، هذا ان تعذر اعلانها قاعدة للدولة الجديدة بسبب عزلة موقعها .

وقد تزعم حركة الثورة رجل يعرف (بلب) الذي التفت حوله بعض قبائل الجهة وزعماؤها الغاضبون الذين ساعدوه وهيئوه فيما يبدو لاعلان الثورة ضد النظام الجديد .

ولما كان عبيد الله المهدي حديث عهد فى رقادة وفى نفس الوقت عرف عن طريق انصاره ، انها محدودة وحركتها اسباب خاصة ، فقد ترك تصفيتها للعناصر الداخلية من الذين بقوا على الولاء له ، وهؤلاء هم الذين تمكنوا من اخماد الحركة الاحتجاجية الأولى فى ارض كتامة ، وأخذوا زعيمها

393 ـ النعمان : افتتاح : ورقة 190 .

394 ـ البكري : المصدر السابق 46 من قرى جبل زغوان وضع اساسها القائم بامر الله واصبحت مسكنا لعناصر هوارة ونفوسة .

اسيرا ، وأرسلوا أخبار نجاحهم فى مهمتهم الى رقادة حيث قرىء سجل عنها فى مدينة القيروان (395) .

ويبدو أن سياسة المهدي فى الاعتماد على عناصر جديدة ترتبط به والانصراف تدريجيا عن بناة الدولة قد خلق مضاعفات كبرى وقد كان فى استطاعة المهدي أن يرضى عناصر القوة القديمة بتعيين أبي عبد الله الشيعي داعيا للدعاة أو قاضيا أو مشرفا عليهما معا ، أو قائدا عاما على جيوش الخلافة الفاطمية أو مسئولا على قطاع الخراج والضياع ، وسياسة الأموال وكانت آراؤه فى هذه الناحية واضحة ومناسبة لقواعد الشرع . ولو أحب المهدي أن يشرف الداعي لانتدبه الى الصلاة اماما فى الاعياد نيابة عنه لكنه لم يفعل وانتدب للامر حجته ، وولى عهد المسلمين أبا القاسم على صغر سنه اذا قيس بالداعي ، اذ تشير النصوص (396) الى خروج القائم بمعية الداعي وبعض قادة كتامة الى المصلى يوم أول عيد فطر ، أقيم فى رقادة بعد اعلان الخلافة الفاطمية حيث صلى بالناس وخطب فيهم .

وحرص المهدي ، الذي لم يحضر بنفسه لامامة المصلين على تخليد هذا الحدث فى سجل قرىء على منبر مسجد القيروان وسائر منابر افريقية كما تكرر ذلك بالنسبة لعيد الأضحى الذي أشرف عليه ابو القاسم أيضا نيابة عن المهدي ولم يحضره الداعي لوجوده فى مهمات خاصة خارج افريقية (397) .

ويبدو أن الاهمال التدريجي لقادة الأمس وتهيئتهم لقبول وضع هامشي هو الذي حز فى نفوس أنصار الداعي وأثر فيه بدوره على ما كان يعرف به من اخلاص وتجرد .

ومثل أبو العباس دورا كبيرا فى تعبئة النفوس بالغضب ضد المهدي مستغلا تذمر قادة كتامة من أخذه أموال ايكجان فكان يكرر على مسامعهم قوله « والله لا تركنا بناء بنيناه بأيدينا وأتعبنا فيه أبداننا ، وذهبت فيه أعمارنا ، سكنى غيرنا ، ونحن من وراء أبوابه ، حتى يحل فى أعاليه ويلحقنا بأسافله » .

وكان أبو زاكي ، مستاء من ارتفاع شأن عروبة ، وحظوته عند المهدي ، مع انه أقدم منه أثرا فى الحركة الاسماعيلية ، فكان يعلن فى حدة وعصبية « والله الموت الموت ، فى قطع أيام تقدمني فيها وارتفع علي ابن راعي البقر »

395 ـ ابن عذاري : البيان 1، 221 .
396 ـ نفسه .
397 ـ نفسه 1، 222 س 10 .

ويظهر أن التفاوت فى المكانة الاجتماعية بين القائدين ، ثم صراع قبيلتي اجانة ، وملوزة من أجل الظفر بالمركز الاكثر حظوة واعتبارا بعد قيام الدولة ، هما اللذان خلقا موقفا معقدا أدى الى خيانة عروبة للداعي وبالتالي الى نتائج سيئة .

واثار غضب بقية زعماء كتامة نزعة الاستبداد عند المهدي ، ثم حياة الرخاء والنعيم ، التي أصبح يتقلب فيها دونهم مع أنهم هم سبب مجده وسعادته « والله لا تركناه يقاسمنا هذه القصور ، التي نزلها الى الاجنة التي حولها الا بالاشارة ويكون الامر أمرنا والحكم حكمنا كما كان ولا رضينا أن نأخذ من تحت يده كما كان ولنا الفضل فيما تعطر فيه » (398) .

وتمسك الداعي بهدوئه وتصرف بحكمة وسط جو محموم بالاشاعات رغم ان اخاه كان يعنفه على استخذائه لشخص غريب عن أهل البيت ، استهل حكمه بمحاولة اضطهاده والتقليل من قيمته والتمتع بثمار النصر وحده (399) .

ولم يشأ الداعي أن ينجرف وراء التيار قبل تهيئة مبرراته، لذلك، أوضح لانصاره «أن الدعاء لأهل البيت واجب، وان الامام المهدي حق وان الزمن مجهول عندي، وكنت ارتبت فى والد عبيد الله فكيف لا يرتاب فيه » (400) . ولم يخف عليهم انه قد يكون أخطأ فيه ، وليس هو المهدي الحقيقي الذي جاءت به البشائر واستند فى الشك فيه ، على تصرفاته وسياسته التي تبعد عنه صفة امام الزمان ، ومهدي العصر (401) ، وأخيرا اتفق مع كبار انصاره ومنهم عروبة على امتحانه لمعرفة حقيقته ، فاذا تبين زيفه أزيح عن مركزه (402) .

---

398 ـ النعمان : افتتاح ، ورقة 196 .

399 ـ المقريزي : اتعاظ 1،67 ، ابن الاثير : الكامل 8،18 ، يحي بن سعيد الأنطاكي : المصدر السابق 756 ـ 757 ، ابن حماد : المصدر السابق 11 ، البكري 26 ورقة 34 .

400 ـ الاستبصار (لمجهول) 204 ، ويستبعد بعض المؤرخين حادث تآمر الداعي ضد المهدي وثورته ضده ويرى أن القصة ملفقة لتشويه سمعة المهدي . انظر مصطفى غالب : اعلام الشيعة 252ـ253 .

401 ـ ابن عذاري : البيان 1،223 ومما قاله « ان افعاله ليست تشبه افعال المهدي الذي كنت ادعو اليه واخشى ان اكون قد غلطت فيه » الاستبصار 117 ، وفيه أن الداعي وصفه بانه يهودي وقد وضع مؤقتا حتى يحضر العلوي .

402 ـ نفسه . ويلاحظ ان هذا الاتفاق الذي جرى خارج افريقية وفى مكان يسمى الثور ، بجوار مدينة تنس فى المغرب الاوسط ، كان يوم الجمعة لثلاث بقين من ذي الحجة سنة 297 هـ واشترك فيه عروبة وتعاهد الجمع على الثورة .

واثر رجوعهم ، كشف عروبة (403) للمهدي كل مادار في اجتماع الثوار بمدينة تنس ، تزلفاله ، ورغبة في الاطاحة بخصومه ومنهم ابو زاكي الاجاني، وهارون بن يونس المعروف بشيخ المشائخ ، الذي كان أول من تجرأ على المهدي واظهر الشك فيه بقوله له « ان كنت المهدي ، فاظهر لنا آية فقد شككنا فيك » فاحتار المهدي وحاول صرفه عن نزعة الشك على أساس ان « اليقين لا يزيله الشك » ولما الح في العناد ولم يقتنع امر المهدي بقتلـه تطهيرا له (404) كما تخلص من سائر زعماء الحركة بما فيهم الداعي وأخوه أبو العباس ، وأبو زاكي ، وشمل بنكاله كل من اتصل بهم من قريب أو بعيد أو اشتبه في أمره ، من بين فروع كتامة أو من عناصر السلطة القديمة مثل ابن القديم (405) ، ومحمد بن أبي سعيد الميلي صاحب السوق في القيروان ، وابن رجال البغائي وجماعة من قادة بني الأغلب (406) .

ونجاح المهدي في قتل زعماء الحركة الثورية أصاب مركز قبيلتي أجانة ومسألته بتدهور خطير بينما ارتفع شأن ملوزة ولهيصة ولكن الى حين .

وقد عم الاستياء والغضب جهات مختلفة في افريقية وبلاد المغرب ، وكانت له أصداء قوية بين الاسماعيلية في المشرق .

وشعور الخليفة المهدي بأثر الحادث هو الذي دفعه الى التحرك بسرعة لشرح القضية وملابساتها لانصاره في المشرق بقوله « أما بعد فقد علمتم محل أبي عبد الله وأبي العباس من الاسلام فاستزلهما الشيطان ، فطهرتهما بالسيف والسلام » (407) . اما في افريقية ، فقد احتجب لعدة أيام ثم

---

403 ـ الاستبصار 205 ، ويوصف عروبة هنا بصاحب الشرطة فلعله كان مدسوسا على الداعي ورجاله منذ بدء الحركة ، تجاه قبائل المغرب الاوسط ، وقد جوزي بولاية الشرطة تقديرا لاخلاصه ، ابن عذاري : البيان 1،224 س 1ـ3 ، ابن الاثير : الكامل ، 8،19 .

404 ـ النعمان : افتتاح الدعوة ورقة 192 ، ابن الاثير : الكامل 8،18 (51 ط . بيروت) ، المقريزي ، اتعاظ الحنفا 1،67 . يحي بن سعيد الانطاكي : المصدر السابق 758 وقد لقب هنا بلقب مقدم الدعاة .

405 ـ ابن الاثير : الكامل 8،19 ، ويذكر ان ابن القديم ساعد المهدي في الكشف عن زعماء المؤامرة وفي جلبهم اليه . E.I. (Art Mahdi T 3, p. 125-6.

406 ـ ابن عذاري : البيان المغرب 1،231 ، المقريزي : المصدر السابق 1،68 ، النعمان : افتتاح الدعوة ، ورقة 198ـ199 .

407 ـ ابن عذاري : البيان المغرب 1،228 وقد وصف ابو عبد الله الداعي بانه « كان احد رجالات العالم القائمين بنقض الدول واقامة الممالك العظيمة من غير مال ولا رجال المقريزي ، اتعاظ الحنفا 1 ، 68 ، وقارن هذا الوصف بما ورد في الاستبصار (المجهول) 205 .

اعلن تأمين كتامة واستقبل رجالها كل على حدة ثم قبض على كثير منهم ، ونكل بهم تنكيلا شديدا ، كل على حسب دوره ، ومابداه من انطباع ازاء الحـادث (408) .

ويبدو ان تنفيذ عروبة بن يوسف لاوامر المهدي لم يخل من اثر فى نفسه اذ هو جريمة اخلاقية كبرى لابد أن تكون قد أثقلت ضميره بالنظر لمركزه الخطير عند الداعي . ولابد أن يكون قد تنبه فيما بعد ، الى انه وان استخدمه المهدي اداة ضد خصمه ، فى ظروف دقيقة قد غدا فى وضع غير سليم ، خاصة وان المهدي قد احاط بالشك والحذر كل من ارتبطوا بالداعي ، من قريب ، او من بعيد ، وهل كان خافيا على المهدي أن عروبة من اخص رجال الداعي، وانه عندما تخلى عن ولي نعمته الأسبق وخانه لن يتردد اطلاقا فى ظروف مشابهة فى ارتكاب مزيد من الخيانات ضد من لم تربطهم به غـير رابطـة المصلحة المادية المؤقتة (409) .

ويهمنا من الحادث أن كتامة التي كانت بتأثير الداعي عماد الحركـة الاسماعيلية وأساسا لقيام الدولة ولتوسعها ، غدت الآن جماعة مشبوهة ومنبوذة ، ومتفرقة الأوصال ، تعيش محنة كبرى ، وتنطوي على غضب شديد وانفعالات خطيرة،سرعان ماعبرت عنها عمليا فى الثورات المتعددة،وفى الاعتقادات المتطرفة ، ومن ذلك ادعاؤهم بأن أبا عبد الله حي لم يمت ، ومعنى ذلك انه سوف يرجع . واصطنعوا لأنفسهم مهديا جديدا فى عمق أرض كتامة (410) بعد فشل ثوراتهم فى أرض افريقية .

وقد اشتعلت أولاها فى مدينة رقادة ، بقصد الثأر لقتل أبي عبد الله وقادة كتامة ، ولم تخمد الا بعد خروج المهدي بنفسه لتسكين الفتنة واقناع زعماء الثورة وقد قام بعد ذلك ، بالتخلص منهم دون استثناء (411) كما ظهرت ثورة اخرى،اواخر شعبان 299هـ / مارس 912م فى مدينة القيروان حيث اشتبك رجال كتامة مع سكان المدينة لأنهم منعوهم من السلب والنهب ، حتى يمهدوا لاضطراب الوضع وسيادة الفوضى ولم تنته هذه الفتنة الا بعد

---

408 ــ نفسه 1،229 .

409 ــ وانحراف عروبة عن الداعي ، بعد فترة قصيرة ، لم يكن خاليا من تاثير المهدي الذي بدا يستفسد قلوب رجاله خوفا منه . وساعد المهدي على النجاح فى تفتيت صفوف الداعي ، التناقضات الموجودة بين بعض فروع كتامة من جهة وبين كبار انصاره من جهة اخرى .

410 ــ ابن الأثير : الكامل 8،19 (53 ط . بيروت) ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،68 س 17 ــ 18 ، النويري : نهاية الأرب 26 ورقة 35 .

411 ــ ابن الاثير : الكامل 8،19 .

أن تصدى لقمعها عامل المدينة ابن أبي خنزير الذي « سكن الناس ، وأمر بتغييب القتلى فطرحوا في المراحيض » وبلغ عدد من قتل من كتامة وحدها نحو الف رجل (412) .

أما أخطر الثورات فهي التي ظهرت في أرض كتامة نفسها وفي منطقة الزاب كلها بعد انسحاب فلول كتامة وبعض رجالها من افريقية الى مواطنهم الأصلية وقد لعبت فيها اجانة ، وماوطن دورا كبيرا .

ولم يجد انصار الداعي ، وأبي زاكي ، وسيلة للنيل من نظام الدولة في افريقية، غير الانفصال السياسي والمذهبي عن رقادة ، ورفض طاعة عبيدالله، بادعاء أن كادو بن معارك ، وهو من قبيلة ماوطن (413) ـ لذلك عرف بلقب الماوطي ، هو المهدي المنتظر ، واتخذوا مكان اقامته قبلة يتجهون اليها وزعموا أنه الذي ينفذ شريعة أبي عبد الله بعده ، ويواصل مهمته أثناء غيبته (414) ، وباسمه ارسل الدعاة الى الأطراف (415) وهم الذين نشروا نفوذ الحركة في أرض كتامة ومنطقة الزاب حتى أصبحت كبرى حواضر المنطقة ومنها قسنطينة ، وميلة في دائرة نفوذها (416) .

وهذا التطور الخطير ، الى جانب الخوف من أن يتكرر مع الدولة الفاطمية في رقادة ، ما حصل من قبل ضد الأسرة الأغلبية التي صفيت عن طريق حركة مذهبية مشابهة لهذه ظهرت في أرض كتامة ، هما اللذان دفعا المهدي ، ورجاله المخلصين الى الاسراع لاخماد هذه الحركة الجديدة ، قبل أن يستفحل أمرها .

ويبدو أن فشل الجهود الأولية ضد الحركة بسبب تقلب أهواء قادة كتامة وتعاطفهم مع الحركة وفرار بعضهم الى مراكزها وانقلابهم ضد أعوان الدولة (417) هو الذي جعله ينتدب لمواجهة الحركة ابنه ، ابا القاسم ولي عهد المسلمين وجعل تحت نظره فيما يبدو بعض قادة كتامة مثل عروبة وجبر

412 ـ ابن عذاري : البيان 1،230-231 ، المقريزي : اتعاظ 1،68 ، ابن الأثير 8،19، النعمان : افتتاح ورقة 200 .

413 ـ النعمان : افتتاح ورقة 200 .

414 ـ ابن عذاري 1،231 ، والذي يلاحظ ان بعض النصوص تشير الى انهم اعتقدوا نبوته ، انظر ابن الأثير : المصدر السابق 8،19 .

415 ـ النعمان : المصدر السابق ورقة 200 .

416 ـ ابن عذاري 1،231 .

417 ـ ومن هؤلاء : حولات بن خبزة الذي فر الى الماوطي مع مائتي رجل من اتباعه . انظر ابن عذاري 1،231 .

بن ناسب وابي خليفة عامل القصر القديم . واذا كان أبو القاسم قد جد في قتال الماوطي ، وانصاره وتتبعهم حتى الساحل ، وقتل كثيرا منهم واسترد المدن التي استولوا عليها فانه لم يسلم من محاولة التآمر عليه اذ فر جماعة من قادة الجيش الى الماوطي لم تكشف النصوص عن أسمائهم ولو لم يكن مرنا ومتسامحا معهم حتى انصرفوا اليه واطلعوه على حقيقة الوضع وهي التي افادته في أسر الماوطي واخماد حركته ، لما نجحت جهوده في هذا الظرف الدقيق من حياة الدولة ، وتطور علاقاتها بكتامة (418) .

وبعد ان أكمل ابو القاسم لمهمة ورجع الى رقادة وفيمعيته المهدي الصغير، وبعض انصاره أسرى ، طوف بهم في القيروان على الجمال ثم قتلوا بمدينة رقـادة (419) .

وقد كانت هذه الأحداث الخطيرة سببا في زرع بذور الشك واستحكام العداء وسوء الظن عند الطرفين . وغدا المهدي بعد تصفية نفوذ أجانة ومسالته وماوطن ، يعتمد مؤقتا على زعامات من ملوزة ولهيصة ، ولوزة ، انما في قدر كبير من الحذر واليقظة ، وترقب المكروه من جانبهم في كل حين .

واذا كان المهدي ، قد انتدب حباسة بن يوسف الملوزي لمهمات كبرى في برقة ومصر واعتمد على أخيه عروبة في مواجهة بعض الأزمات في تاهرت والجزء الغربي من الدولة ، ثم على أبي مديني بن فروخ اللهيصي في برقة وحامد بن حمدان اللوزي وريحان الكتامي ومرمازوا في ميدان المغرب الأقصى ، فان أغلبهم لم يكن مستقلا بالتدبير ، فضلا عن أن ذلك كانت تحتمه الحاجة اليهم لصد بعض الأخطار (420) .

ويبدو أن الأخوين حباسة وعروبة كانا يبيتان أمرا خطيرا ، ضد النظام الفاطمي ، فعروبة ربما بدا له سوء تدبيره وخطل رأيه وأثرت عليه حركة الانتقام من عصبيته الكتامية وسوء معاملتهم من طرف المهدي وابنه ابى القاسم كما ظهر لأخيه حباسة في ميداني برقة ومصر ، أنه أصبح محل شبهة وأن سوء الظن الذي استحكم في نفس المهدي ، انتقل منه الى ابنه وحجته ولي عهد المسلمين والا فما سر هذه الدعوة المفاجئة لحباسة ، بأن يترك مركز قيادته في الاسكندرية ، بعد أن أشرف على النصر لقائد مغمور

418 ـ ابن الأثير : الكامل 19،8 ، النعمان : المصدر السابق ورقة 200 ، القريزي : المصدر السابق 68،1 .

419 ـ ابن عذاري 233،1 ، ابن الأثير 19،8 ، وتشعر روايته بان المهدي الصغير قتل في بلاده .

420 ـ نفسه 1 ، 240 س 3 .

من كتامة هو ابو فريدن ، ويلتحق بمقر أبي القاسم في الفيوم ؟ ، ان لم تكن هناك نية مبيتة للتخلص منه أو اهانته (421) .

وادراك حباسة لاتجاهات أبي القاسم ، هي التي دفعته الى العصيان والفرار مع بني عمه ، الملوزيين الى بلاد المغرب ، للتنسيق مع عروبة وبقية الأنصار ولاعلان الثورة ضد الخلافة الفاطمية . غير أن حادث أسره في الطريق وسجنه في رقادة قضي على امله في التنسيق كما أحبطت مساعي أخيه وعصبيته الذين أشعلوا ثورة شديدة ضد المهدي في القيروان وسقط الجميع قتلى على يد غالب وطبقة الفتيان واحتزت رؤوسهم وجمعت في قفة وحملت الى المهدي الذي لاحظ رأس الأخوين معها فتعجب من تقلب الأحوال وفساد النوايا لرجال « ضاق بهم فضاء المشرق والمغرب واحتوت رؤوسهم قفة صغيرة » (422) .

وهؤلاء الذين تحدث المهدي عن أصدائهم القوية في المغرب والمشرق هم بعض قادة كتامة التاريخيين في الدور المغربي للخلافة الفاطمية ومن اهمهم :

أبو الميمون عروبة ، من ملوزة وأبو زاكي تمام من اجانة وأبو مدينى بن فروخ من لهيصة .

ومن بين هؤلاء يعتبر عروبة من بين رجال الداعي وأركان مدرسته الهامة الذين اتصلوا به منذ أن كان في قلمة ايكجان . وقد أشار اليه ابن خلدون

---

421 ـ ابن عذاري : البيان 1،239 وبدا غضب حباسة من هذا التصرف من قوله « لما اشرفت على اخذ البلد ، يفوز ابو فريدن بخبره وذكره ، » س ـ5ـ6 ، ابن حماد : المصدر السابق 12 ، النويري : المصدر السابق 26 ، ورقة 14ـ16 .

422 ـ نفسه 1،240 ، المقريزي : اتعاظ 69ـ70 ، ابن خلدون : العبر ،4،79 ابن الاثير : الكامل 8،31 ويلاحظ أن النصوص تختلف حول مكان عروبة عندما أعلن الثورة ، وحول ظروف قتل اخيه حباسة في رقادة ، فابن الاثير ، والمقريزي يتفقان على وجود عروبة في القيروان التي اشعل فيها الثورة انتقاما لقتل اخيه بعد وصوله من مصر دون ان يشيرا الى حادث هروبه من قبضة ابي القاسم ، ويتفق ابن خلدون معهما في القول بان حباسة قتل أثر رجوعه منهزما ، لكن ثورة أخيه الانتقامية ظهرت في بلاد المغرب وهي التي تغلب عليها واحبطها ، غالب مولي المهدي ، وينفرد ابن عذاري برواية ان عروبة الذي كان على اتصال باخيه مكاتبة ، كان في تاهرت ، وفارقها بماله ، عند سماع خبر فرار اخيه ، حيث قتل في اوراس ، ويبدو انه كان في طريقه الى بلده ، او الى مكان ما في افريقية للتدبير لنجدة اخيه وللضغط على المهدي ، ووجوده في تاهرت في هذه الفترة اي سنة 302 هـ ، لا يخلو من احد احتمالين اما ان يكون واليا على تاهرت . او احد مساعدي واليها قائد جيش المهدي وهو مصالة بن حبوس المكناسي والاحتمال الاخير هو الارجح لانه لو كان واليا مستقلا بالتدبير لاعلن الثورة والانفصال ولما فكر في الفرار خاصة وان امامه فرصة للالتجاء اما الى زنانة او الى الأندلس .

ضمن الطبقة الأولى من مشاهير قادة البربر بفروعهم المختلفة ، ووصفه بأنه القائم بدعوة عبيد الله الشيعي ، ووالي بلاد المغرب من طرفه (423) .

وقد ظهر بأسه واخلاصه للحركة الاسماعيلية منذ أن ووجهت بحركات عدائية في تازروت وكان ممن قاتل بشجاعة حتى أصيب بجرح بالغ ، أثر على صوته فيما بعد لكن بعد أن قتل أحد زعماء الفتنة الشجعان (424) .

وكان على راس السرية التي ارسلت من ايكجان بسرعة لرصد تحركات ابراهيم بن الطبني ، قائد بني الأغلب الذي اتخذ باغاية مركزا لنشاطه وهو الذي كسب معركة دار ملول في منطقة أوراس وقتل ابراهيم بن الطبني (425). كما كان عمدة الداعي في تأديب القبائل التي انضمت لابن أبي الأغلب اثر انتصاره في معركة دور مدين ، ثم في شد أزر الموالين للحركة ضد ضغوط القائد الأغلبي (426) . واصبح بعد فتح باغاية على راس حاميتها الكتامية، وكان يرافقه ابنه محمد ، ومن مركزه في باغاية أحبط مساعي ابن أبي الأغلب والجاه الى ترك المنطقة (427) مهزوما .

وكان دوره في معركة الاربس بارزا ، لذلك انتخبه الداعي للسير الى رقادة ، لضبط الأمن والنظام ، ثم عهد اليه بعد ذلك بضم سوسة وتأمين أهلها وكان أيضا الى جانب الداعي ، يوم أن خرج الى سجلماسة لتحرير المهدي ، وعندما توجه لتأديب زناتة ، وقبائل المغرب المعادية ايضا ، ولذلك حضر اجتماع مدينة تنس الذي رسمت فيه خطة العمل في المستقبل ، لكن عدم التزامه بسرية الحركة ، وبشرف الكلمة ، وبمبدأ الوفاء ، لأهداف شخصية ونوازع عصبية ، لم يؤثر على خصومه فقط ، بل شمل عصبيته واثر أيضا على مركز كتامة في الدولة وعدل الكثير من امتيازاتها .

وقد يبعث على الدهشة ان يجازى على أعماله بولاية الشرطة فقط (428) بحيث لم يظهر لا في ميدان الجندية كقائد مستقل بالأمر، ولا في ميدان السياسة أيضا ، الا في فترة قصيرة في تاهرت . وربما كان هنا ، مساعدا لمصالة ابن حبوس الذي ولي تاهرت والجزء الغربي مباشرة بعد عزل ابي حميد دواس بن صولات الكتامي منذ سنة 299 حتى شعبان 312 هـ نوفمبر 912 م (429) .

---

423 – العبر ، 6 307 ، 4 8/ ، مفاخر البربر (المجهول 50 – 51 ، ابن عذاري 1 ، 239 س 1 ، الذي يشعر كلامه بذلك .

424 – النعمان : افتتاح ورقة 70 وما بعدها .

425 – نفسه . ورقة 130 .

426 – نفسه ورقة 142 .

427 – ابن خلدون : العبر 4، 74 .

428 – الاستبصار (المجهول) 205 .

429 – ابن عذاري : البيان 1، 230 س 3-4 و 266 س 7-9 .

وما آل اليه مصير عروبة بسبب انحرافه عن القصد لمصالح آنية ، هو نفس ما يلقاه كل غادر لولى نعمته ، خائن لبني قومه وصولى فى أعماله .

اما خصمه العنيد ، أبو زاكي تمام بن معارك الاجاني فقد امتاز عنه بانه كان ينتمي الى وجوه اجانة وزعمائها اي أرقى منه فى المكانة الاجتماعية واسبق اتصالا بالدعوة وأشد تقربا (430) من الداعي ، ومنذ أن كان غلاما حدثا وسيما كانت تبدو عليه مخايل النبل والذكاء والنشاط الجم ، والتفاني فى خدمة أبى عبد الله ولذلك غدا من أخص مرافقيه . وقد أسهم بجهد كبير فى حركة نشر الدعوة فى منطقة كتامة والزاب وكان يوم معركة الأربس الى جانب الداعي ، وقد راعى له هذا الأخير اخلاصه وتفانيه ، فرسمه مستخلفا عنه فى افريقية بعد خروجه الى سجلماسة (431) . ومنها أرسل اليه يشرح له توفيقه فى مهمته ، فقام أبو زاكي بنشر ذلك ليقطع الأراجيف ، ومن ايكجان ، تلقى منه ما يفيد موعد وصول موكب المهدي فاستعد وهيأ استقبالا حماسيا منقطع النظير . وكانت فترة نيابته فى افريقية من أحسن الفترات فى تاريخ الدولة من حيث سيادة الأمن والنظام . وما وقع من تصرفات خاصة ومضايقات لفقهاء السنة ورجال المالكية لم ترتبط باسمه لأنه مثل أبى عبد الله الداعي كان يكره أسلوب القهر والفرض الذي تمسك به أبو العباس ، والمروزي وابن أبي خنزير .

ولما كان أبو زاكي من بين الذين تحمسوا اثناء اجتماع تنس ، لقضية امتحان المهدي ، ولاجراء حركة تطهيرية فى صفوف النظام ، تتناول الرأس والأعضاء وهيأ داره مكانا لاجتماع المتآمرين ، وكان عضد الداعي ورفيقه فقد عجل المهدي بابعاده عن مسرح الأحداث ، ليتمكن من تنفيذ خطتــه المعاكسة (432) فى حرية وفى اطمئنان ضده ، وضد الداعي وأخيه وسائر انصارهمـــا .

اما أبو مدينى بن فروخ فقد كان لا يقل مكانة واهمية عند الداعي منعروبة وان لم يصل الىمستوى أبى زاكي ، انضم الى الحركة الاسماعيلية وهاجر الى تازروت ، منابذا لاخيه مهدي بن أبي كناوة الذي بقى على موقفه العدائي. ظهر موقفه مبكرا فى مواجهة حرب الأحلاف (433) .

---

430 ـ نفسه 1،168 .

431 ـ النعمان : افتتاح ورقة 172 ومما جاء فى بيان الداعي لسكان افريقية قوله (وقد امرت تماما بن معارك بالرفق بالرعية والاحسان اليها وافاضة العدل ، والعرف فيها ، وقبض يد الجور وازالة الغشم عنها) ، ابن خلدون : العبر 4،75 .

432 ـ المقريزي : اتعاظ 1،68 ويوصف هنا بكبير القوم وانه عين واليا على طرابلس س 2 .

433 ـ النعمان : افتتاح ورقة 68ـ69 .

اما ظهوره فى ميدان القيادة فكان يوم أن انتدبه الداعي لفتح مدينة مجانة التي استعصت على قادة آخرين فاقتحمها عنوة وقتل واليها وشتت شمل المدافعين عنها ورجع الى قاعدة ايكجان (434) ، ولم يفارقها الا عندما لاحت أخطار الحركة الأغلبية المعاكسة ضد باغاية ، عندئذ رجع من جديد لحمايتها وتأمين العناصر الموالية للحركة الاسماعيلية من انتقام بني الأغلب ، وقد كان توفيقه كاملا ، لذلك رجع الى ايكجان ، ليبلغ الداعي عما أنجزه من أعمال فى اقليم الزاب (435) . وعندما انتهت معركة الاربس انقطعت صلته بايكجان واستقر فى رقادة ، حيث كان ضمن الذين خرجوا مع الداعي الى سجلماسة غير أنه لم يتورط فى حركة التآمر ضد عبيد الله ولم يرد اسمه ضمن المجتمعين فى مدينة تنس ، أو فى دار أبى زاكي فى رقادة ، ربما لأنه كان متحفظا وسلبيا ، أو ضمن الذي اصطنعهم المهدي ، فانصرفوا عن الداعي .

ومما له دلالة أنه ــ على عكس عروبة ، وأبى زاكي ــ لم تكن بجانبه فى رقادة قوة من عصبيته ، لهيصة ، ومن ثم كان محدود الطموح ميالا للسلم مرتبطا بالنظام العام .

ولعل هذا هو سر نجاته من حركة التصفية التي شملت كبار رجـال الداعي ، بل يلاحظ أنه ارتفع رصيده وعظمت قيمته بعد انتهائها حيث وقع الاعتماد عليه فى اخماد ثورات برقة (436) . وفى الابقاء على هذا الاقليم ضمن اطار الدولة الفاطمية لما له من أهمية فى مشاريعها الشرقية ، وقد تصرف بحزم وضبط الأمن واستمر واليا حتى توفي سنة 306 هـ (437) / 918 ــ 919 م .

وباختفاء هؤلاء القادة الذين كونتهم حروب التوسع يصبح المجال مفتوحا لظهور زعامات أخرى من عرب افريقية ومن طبقة الفتيان الصقالبة وأهمهم غالب وميسور وجوذر وبشري ، ومسلم ، وصابر ، ونسيم ، وصندل ومسرور ومسعود وغيرهم (438) ، ثم من قبيلة مكناسة البترية ، ومن قادتها : مصالة بن حبوس وأسرته ثم قريبه موسى بن أبي العافية وأسرته أيضـا .

---

434 ــ نفسه ، ورقة 136 ــ 137 .

435 ــ نفسه ، ورقة 145ــ146 ؛ ابن خلدون : العبر 4،74 .

436 ــ ابن عذاري ، البيان : المغرب 1،241ــ244 .

437 ــ نفسه 1،254 . والحرص على ابقائه ثم عزل من الله بن الحسن بن أبي خنزير عن ولاية القيروان سنة 306 هـ وارساله الى القتال ضد مصر وتعيين أبي سعيد الضيف بدله يدخل كل ذلك فى اطار سياسة ابعاد الخطرين والمشبوه فى ولائهم ممن كانت لهم صلات بالداعي وبكبار رجاله ، انظر البيان : المغرب 1،253 ، اس 15ــ17 .

438 ــ ابن عذاري 1،207؛264،269 ، البكري : المصدر السابق 98 ، س 2 .

أما كتامة فرغم أنها استمرت عصب الدولة وجندها وقوام حيــاتها وصمام امنها ، وعدتها فى وجه الاخطار التي تظهر هنا وهناك فى شرق الدولة أو فى غربها فاننا لم نعــد نسمع عن قادة كتاميين بارزين تولوا مسؤوليات كبرى حتى عصر المعز لدين الله وغدت كتامة أوزاعا متفرقين ، وجندا من غير قادة بارزين وزعامات ظاهرة . وبرز فى ميدان القيادة على كتامة ، رجال من مكناسة او من طبقة الفتيان (439) .

وهذا الوضع هو الذي أثر على معنويات رجالها وعلى تماسك جندها وجديتهم تجاه حركة أبي يزيد حيث قاتلوا فى ظروف صعبة ومن غير روح معنوية وبدون قادة ومن غير خطة منظمة ، ولذلك أصيبوا بكوارث وتحطم كبريائهم وشرفهم العسكري رغم أنهم حاولوا الثبات الى جانب ميسور الفتي وبشري ، وتظاهروا بالاهتمام بمصير الدولة وبأمنها تجاه الحوادث الخطيرة ، وقد استطلعوا رأي القائم بأمر الله ، ولأنه كان أسيرا لبعض النبوءات (440) الخاصة حول وقت انتهاء الحركة ، فانه تركهم يتصرفون بحرية حسبما يمليه الموقف ولم يرد أن يقترح على رجال كتامة اتجاها معينا فيلزمهم به « ما يمنعني من الراي أحملهم عليه ، وان كنت أرى وجه الصواب ، الا يكون عناء (441) . أما المنصور الذي اظهر جدية فى مقاومة الحركة فقد أنصف جند كتامة ، وأعاد اليهم اعتبارهم كحماة للنظام وشركاء فى المسؤولية وكان ثناؤه وتمجيده لدورهم رائعا فى الخطبــة

---

439 – والفتيان من اصول اروبية ، اغلبهم من عنصر الصقالبة . ويعرفون ايضا بالغلمان كانوا فى البدء خدما فى القصور ثم تدرجوا فى الرقي حتى غدوا أساسا فى نظام الدولة فى عصر الاغالبة ، وفى ظل الخلافتين الاموية بالاندلس والفاطمية فى المغرب ومصر ، أنظر ساراناللي تشركوا : مجاهد العامري 12 هامش 1 ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 1 ، 76،101 ، العزيزي الجوذري : سيرة جوذر 41 ، البكري : المسالك والممالك 154 وما بعدها . قطعة منه عن « جغرافية الاندلس واوروبا ، نشر عبد الرحمن الحجي بيروت 168 ، ياقوت ، معجم البلدان 5 ، 372 وما بعدها ، المسعودي ، مروج الذهب 1،253–254 ،

Levi Provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane T 2, p. 122 sq.

440 – ومن رواية النعمان يتضح ان المهدي تنبا بان المنصور هو الذي يقضي على حركة ابي يزيد وذلك قبل ولادته ونص كلام المهدي « صاحب هذا الامر فى هذا الوقت حمل فى بطن امه وعن قريب يولد « انظر افتتاح الدعوة ورقة 203 ، المجالس والمسايرات 2 ورقة 619 .

441 – النعمان : المجالس والمسايرات 1، ورقة 13 وقد فهم النعمان من كلام القائم بامر الله ان التصفية النهائية لحركة ابي يزيد لا تكون على يديه ، اما المنصور عندما سئل عن سبب عجز القائم عن مواجهة الحركة فكان جوابه « ما كان للقائم ان يفعل الا ما قد فعله ولا كان لي أن افعل الا ما قد فعلت » واوضح النعمان الامر بقوله : «فقام المنصور بالامر فى اوانه وتركه القائم لانصرام امره وانقطاع زمانه » : انظر المجالس والمسايرات 1، ورقة 11–12 .

التي أعلن فيها موت أبيه القائم بأمر الله ، اذ خاطبهم بأهل الدعوة ، وانصار الدولة ، « ياأهل دعوتنا ، يا انصار دولتنا يا كتامة ، احمدوا الله ، واشكروه على ما خصكم به من نعمته » ولكي يعود اليهم اعتزازهم بالدولة ويقوى ارتباطهم بها ، وينسوا ما حصل لقادتهم ورجالهم فى عهود مضت أوضح أمام الملا رضاه عن كتامة بقوله « اللهم اني أصبحت راضيا عن كتامة لاعتصامهم بحبلك وصبرهم على البأساء والضراء » ولم ينس أن يثني على دورهم الايجابي وثباتهم على المبدأ عكس غيرهم حتى انتهت المحنة الكبرى فى قوله « حتى اذا قضى الله زلزال البلاد واختبار العباد .. واشتدت الكروب وفسدت القلوب ، عصمكم الله ، وهدى قلوبكم وثبت أقدامكم الى أن جلاها الله عنكم » (442) .

ويبدو أن المنصور لم يكن مجاملا ولا مبالغا لان دور قبيلة كتامة اثناء الفتنة كان رائعا (443) فلم تشأ ان تستغل الظروف الصعبة ، لأهداف خاصة مع أن مبررات تحركها ضد القائم كانت متوفرة ، اذ هو سبب لكثير من النكبات التي حلت ببلادها ، وبقادتها التاريخيين ، ولم تؤيد بعض الانتفاضات التي ظهرت فى كتامة أثناء الفتنة بل اجتهدت فى انهائها بسرعة وتسليم القائمين بها الى الخليفة المنصور (444) .

وعلى نهج المنصور ، سار حجته المعز لدين الله الذي اغتنم فرصة نعي أبيه ، وخاطب كتامة بالاولياء ، والانصار ودعا لهم بالخير بقوله « واخصص أولياء دولتنا وانصار دعوتنا المجاهدين الصابرين .. بما استوجبوه بطاعتك ، وقضاء فروضك وموالاة أوليائك ومعاداة أعدائك » (445) وأسبغ عليهم نعما وامتيازات (446) ، وأعاد اليهم المسؤولية والى بلادهم اعتبارها فى نظر الدولة ، واكثر من الاتصال بقادتهم وشبابهم وشيوخهم ، ليسألهم عن احتياجاتهم وعما تطلبه الدولة منهم . وهكذا دخلت قبيلة كتامة فى عصر جديد ، هو بحق عصرها الذهبي ، الذي لم تعرف شبيها له الا فى فترة قصيرة فى حياتها بعد قيام الدولة فى المغرب ثم بعد انتقالها الى مصر .

---

442 ـ العزيزي الجوذري : المصدر السابق 55ـ60 ومن خطبة المنصور انظر ابن حماد : المصدر السابق 22ـ23 .

443 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 79،1 وهنا يذكر قوله (ثم ـعلت كتامة فنزلت بقسنطينة فخاف ابو يزيد » .

444 ـ ابن الاثير : الكامل 157،8 (444 ط . بيروت) .

445 ـ العزيزي الجوذري : المصدر السابق 80ـ84 .

446 ـ نفسه 116 وهنا يسجل بعض امتيازات شيوخ كتامة فى افريقية .

ومن دراسة أهم وثيقة فاطمية سجلها مؤرخ معاصر للمعز لدين الله عن علاقته بكتامة ، ومجمل آرائه واخباره ومجالسه ، نلاحظ كيف أن المعز لدين الله لم يأل جهدا فى خلق جو جديد وروح جديدة بين فروع قبيلة كتامة وسخر كل مواهبه وحيله وقدراته الخاصة فى التلبيس والاقناع والتوجيه كي يشعرهم بأنهم كل شيء فى الدولة وأن العلاقة بينهم وبينها موغلة فى القدم وأبدية ، وقد وجدت لتبقى ، « وهؤلاء كتامة ، أجدادهم مع اجدادنا ، وآباؤهم مع آبائنا وهم معنا ، وكذلك يكون أعقابهم مع أعقابنا الى يوم الدين » (447) .

ولاحظ انرجال الدولة الفاطمية يعترفون بجهود قادة كتامة واخلاصهم وتعلقهم بالولاء وصبرهم فى عصر المحنة ووفائهم المنقطع النظير « والله ما وفت أمة من الأمم لنبي من الأنبياء ولا لامام من الائمة ولا للملك من ملوك الدنيا ولا وفى لها ، وفاءهم لنا ، ووفاءنا لهم ، الا وقد تداخل أولئك الفشل واعتراهم الخلل وحال عليهم ملوك الدنيا واستأثروا غيرهم دونهم ، واطرحوهم وأوقعوا بهم » .

ومن ذا الذي ، يجرؤ على ادعاء ما لكتامة من منزلة ومكانة او يدرك ما لفرسانها من حسن هيئة وجمال المراكب (448) وقدرة على تحمل المكروه اليسوا هم الذين اشتدوا على أعداء النظام وحاصروا أبا يزيد ورجاله فى اعالي الجبال « واذاقوهم طعم الموت واحلوهم محل الذلة ، واخرجوهم قسرا بظباء السيوف ، وحد الرماح ، حتى الحقوهم قمم الجبال من أطراف البلاد ثم استنزلوهم منها قسرا وأبادوهم قتلا » (449) .

وكان يؤكد فى كل مناسبة وعن طريق القسم أيضا ما يكنه لرجالات كتامة من تقدير ومحبة ويبالغ أحيانا ، فيصفهم بالاخوة والأبناء والأقربين وبحزب الله ، وأنصاره وبجنده وأحبائه . « أنتم البنون والاخوة والأقربون ، ما بعد لكم عندي أحد ، ولا يبلغ مبلغكم من قلبي بشر ، وما ذلك الا لما لي فى قلوبكم » ويقرر أن استمرارهم على الانتصار للدولة وخدمة أهدافها ، هو صدى لموقف آبائهم وامتداد طبيعي له بقوله « ما نصر الله وليا من أوليائه ، قبلنا بمثل نصركم لنا ،على ذلك مضى أولكم ،وعليه انتم » (450) أما سلامة أخلاقهم وبعدهم عن مظان الشبهة وتنزههم عن التعرض لسير الناس

447 ــ النعمان : المجالس والمسايرات 1،ورقة 4 .
448 ــ نفسه .
449 ــ نفسه 1 ورقة 2ـ3 .
450 ــ النعمان : المجالس والمسايرات 1، ورقات 10،26،29 .

بالدس، أو الطعن عليهم، عند الأئمة الذين كانوا مقربين منهم، وندماءهم، فقد كانت من دواعي اغتباطه واعجابه بهذه القبيلة العتيدة على أساس أن غيرهم من أنصار الدولة كانوا يتقربون الى الخلفاء عن طريق الوشاية بغيرهم ، والطعن على بعضهم (451) .

ومع أن المعز لدين الله حرص على ارضاء بقية أنصار الدولة والمخلصين للنظام خاصة من طبقة الفتيان (452) فانه كان صريحا وواضحا معهم عندما نفس بعضهم على كتامة مكانتها في الدولة ، وفضلها واكثار المعز لدين الله من مدحه لرجالها وثنائه عليهم (453) دون غيرهم .

اذ ركز كلامه مع هؤلاء على بعض ما يميز كتامة باعتبارهم كانوا أحرارا وفي وضعية طبيعية ومع ذلك أخذوا بالدعوة وأتوا لنصرتنا مختارين وضحوا ببلدانهم وأهليهم بدافع الاخلاص والولاء وثبتوا على نهجهم ، رغم تغير الأحوال وتعاقب الخلفاء فهم لا نظير لهم ، ولا سواء بهم » .

واذا فشتان ما بين من يأتي للدولة طائعا مختارا وعن اقتناع وبين من تملكه عن طريق الشراء وتتعهده في كل وقت وحين (454) .

ومع ذلك ، فان مكانة قيصر ، ومظفر ، وجوهر ، كانت لا تعد لها مكانة أخرى في واقع الأمر خاصة في عهدي المنصور والمعز لدين الله الذي تعلم في صغره على يد مظفر (455) .

وقد كان هذا الأمر محل غيرة من الأولياء لأن قيصر ومظفر استبدا بشؤون الدولة (456) وتصرفا باستقلال في الراي عن الخليفة المعز لدين الله وكانا طريقا اليه فكل من يريد أمرا ، لا يتجاوزهما ، حتى قادة كتامة وشيوخها كانوا يلتجئون اليهما ويوسطونهما في المهمات الكبرى والصغرى أيضا .

---

451 ـ نفسه ، 1 ، 7 وما بعدها حيث يذكر المعز انه كان يجاري احد جلسائه من شيوخ كتامة ليظفر منه بشيء عن حالة غيره ولا يجد عنده الا حديث البر والاصلاح .

452 ـ نفسه 1،6ـ7 .

453 ـ نفسه 1،3 وما بعدها ومما قاله هؤلاء للمعز « فنحن يا امير المؤمنين فما ترى انا قصرنا وقد كان لنا من العناد والجهاد كمثل ما كان لغيرنا فمن نازعنا ذلك فليعد مشاهدنا ووقائعنا ومقاماتنا ومن استشهد منا » .

454 ـ نفسه 1،3ـ4 ، العزيزي : المصدر السابق 41 ـ 42 حيث يشير الى اشراف جوذر على بعضهم وانه بالغ مرة في عقوبة من انحرف منهم ولم يطلق سراحهم من السجن الا بعد تدخل حجة القائم وولي عهده ابي الطاهر اسماعيل .

455 ـ المقريزي : اتعاظ 1،101 . س 8 ـ 9 .

456 ـ ابن خلدون : العبر 4،96ـ97 ، ابن ابي دينار : المصدر السابق 63ـ64 .

وعندما شعر المعز لدين الله بالآثار السيئة لاستبدادهما وقلق أنصار الدولة من قبيلة كتامة ، نكبهما (457) ، وشهر بهما في مجالسه ووصفهما « باللعينين » ، ونفى أن يكون لأي منهما سلطان عليه أو على كبار أنصار الدولة بل اعتبر التجاء الأنصار اليهما أو الى الواسطة لقضاء حاجة من الامام ، يحط من قيمتهم ، ويسيء الى سمعتهم وذلك في قوله « وربما تعلقوا بمن دوننا ليجعلوا ذلك وسيلة الينا ، لا والله ما جعلنا الأحد عليهم من ذلك من سبيل » (458) .

وبعد أن نهى المعز أنصار الدولة عن الالتجاء الى أسلوب الوساطة واتخاذ الولايج للوصول الى سدة الامامة وحثهم على الاتصال المباشر به ، في كل حين مثلما جرت عادته من قبل معهم ، تظاهر بأنه كان دائما مستعدا لاستقبال وفودهم وقضاء حاجاتهم ولم يرفض لأي أحد منهم طلب رؤيته في شأن مادي أو معنوي (459) .

ولادراك المعز لدين الله بأن كتامة امتحنت في عصر المهدي وزالت عنها الرئاسة ، وتخطتها المسئولية حتى خمل ذكرها ونشأ الجيل الثاني من رجالها بعيدا عن الدولة ، لأن الجيل الأول فني في الحرب أو في الفتن الداخلية فقد أراد أن يعيد الوضع سيرته الاولى ، حفظا للتوازن بين العناصر المستبدة بشئون الدولة وأظهرهم طبقة الفتيان ، فعين شباب كتامة ، على نفس الاعمال التي كان يليها آباؤهم من قبل ووجههم توجيها خاصا ، ولم يشترط عليهم غير الطاعة والامتثال ورعاية حقوق الامام في الاطلاع على كل ما يجري ، في أرجاء البلاد . (460)

ولخوفه من حركات انفصال يقومون بها ثأرا لما حل بآبائهم من قبل ، كان يوضح أمامهم ، بأن ما حصل في عهد المهدي لرجالهم ولزعمائهم انما كان يقصد به تطهيرهم من الذنوب ، وتربية غيرهم من عامة الناس (461) حفاظا على النظام وعلى الانسجام بين رعايا الدولة ، وهو المبدأ الذي حرص

---

457 – ابن خلدون : العبر ،4، 96–97 ، وقد قتلا سنة 349 هـ ، قارن ذلك بما ورد سهوا في سيرة جوذر 157 ، تعليق 30 .

458 – النعمان : المصدر السابق 1،156 – 157 ، 2 ، 666 وما بعدها .

459 – نفسه ،2،512، 557 ، وقد ذكر ان قيصر رد على من رغب رفع شان الى الخليفة بقوله « انما تقضى حوائج الرجال اذا احتيج اليهم ، واليوم فليس لمولانا عدو يحتاج معه الى الرجال » .

460 – نفسه ،2،600 ، 603 وقد اوصى احدهم بقوله « طالعنا بامورك ، ما عسى ان تريد العمل به ، قبل أن تعمله ، فما اتاك منه فامض على ما تامرك به تكن على سبيل نجاة وسلامة وراحة ، وتزول الحجة عندك » .

461 – النعمان ، 2 ، 434 – 435 ، 584 وما بعدها .

على تحقيقه الخليفة المعز لدين الله حرصا كبيرا ، تجلى ذلك حتى فى المناسبات الاجتماعية ، ومن ذلك ما أمر به من ختان الأطفال فى أرجاء الدولة بمناسبة ختان ابنائه : عبد الله ونزار وعقيل ، وتوزيع الهدايا والأرزاق على سائر السكان فى المناطق القريبة والبعيدة مثل صقلية التي نالت من الطاف الخلافة خمسين حملا (462) .

وقد قصد المعز لدين الله أن تكون مناسبة الختان أيام أفراح وسرور ، ووحدة عواطف بين سائر السكان وقد اغتنم هذه الفرصة كي يستخلص العبرة امام وفد كتامة الذي كان أول الوفود التي حظيت بلقائه ، بعد انتهاء أيام الختان ، وليؤكد لهم مرة أخرى بأنهم البطانة والخاصة وأساس الدولة منذ عهد الأسلاف الى الآن . وعليهم اذا أن يصدروا فى أعمالهم ، وفى علاقاتهم الخاصة مع بعضهم على نهج سليم غير ضار بسمعتهم أو بمصالح الدولة التي تعتمد على قوتهم كعناصر موحدة الأهداف بعيدة عن ريح الشقاق والنفاق ، وتعلق عليهم آمالا فى رفع شأنها فى وجه الامويين فى قرطبة والعباسيين فى بغداد (463) .

ويستنتج من تكرار ظاهرة القسم بالله فى أحاديث المعز لدين الله مع رجالات كتامة، ومن المبالغة فى اظهار فضلهم وميزاتهم واعتبارهم معدن الولاية(464)، ثم من الحرص على مجيء وفودهم الى المهدية فى المناسبات الكبرى (465) وتبسطه فى الحديث معهم عن وضعهم فى الدولة ونظرتها اليهم وعن رأيهم فى عمالهم ، ومن استفساره عن رجالات كتامة ، ان كانوا يواظبون على سماع الحكمة والذكر فى المجالس التي تعقد فى المساجد أو فى القصر (466) . نستنتج من ذلك أن رجال كتامة كان يعتريهم شيء من الفتور والتهاون فى نصرة النظام ويخامر بعض رجالهم الشك فى العقيدة (467) ، ولذلك اجتهد المعز لدين الله بقدرته العجيبة فى جعلهم تحت نظره الخاص ، وحصارهم كي يبقوا عدة لمشاريعه الشرقية .

---

462 ــ المقريزي : اتعاظ 94،10 ، النعمان : المصدر السابق 654،2 وما بعدها .

463 ــ النعمان : المصدر السابق 663،2 وما بعدها ، وقد خاطبهم بقوله « واني احب ان اباهي ، واكاثر بكم فى الدنيا والآخرة » .

464 ــ انظر العزيزي : سيرة جوذر : 121ــ122 ، حيث يصفهم المعز بالسفلة فى مناسبة خاصة عرفها من جوذر الذي كان « مشفقا على كتامة ، رؤوفا بهم لمكانهم فى هذه الدولة الطاهرة » .

465 ــ النعمان : المصدر السابق 2،1ــ3 .

466 ــ نفسه 512،2 .

467 ــ النعمان : المجالس 2 ، 584 وفيه قول المعز لدين الله يخاطبهم « لا ترتابوا فينا ولا تشكو آفيما ناتيه ونذره من امركم كيفما جرت الاحوال » .

وقد أشار المعز لدين الله ، أمام وفد كتامة ورجالها الذين أتوا من بلادهم بأعداد كبيرة للاشتراك في القضاء على انفصال سجلماسة الى ظاهرة تثاقلهم وعدم استجابتهم على هذا القدر من الكثرة للخلفاء من قبل ، عندما ووجهوا بأحداث كبرى مثل حركة ابى يزيد .

ويبدو أن هذا لا ينازع فيه ، بعد التطورات التي حصلت ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يبقى الحماس للدعوة ولنظام الدولة فى مستواه القديم ، وادراك المعز لدين الله لذلك هو الذي جعله يتقصى اخبار كتامة فى بلادهم وما طرأ عليهم من تحول وكانت فرحته كبيرة عندما عرف عن طريق وفودهم أن طاعة الخليفة هي الظاهرة العامة التي يستوي فيها الكبير ، والصغير والسيد والمسود ، « وما ذلك فينا دون بنينا ، وخدمنا ، وعبيدنا والله ما يحلف أطفالنا وعبيدنا وخدمنا الا بحق مولانا ، وفضله ، ولا على السنتهم ولا لهم غيره ، ولا يعرفون لهم مولى سواه » (468) .

ولأن هذا اعطاه الاطمئنان عما يجري فى منطقة كتامة ، وزوده بمادة للحديث مع وفود أخرى ، فقد أوضح مدى تعلق سكانها بالولاء للخلافة بجميع عناصرهم بقوله « والله والله ما يتخالجني الشك فى اعتقاد صغيركم وكبيركم وحرمكم وعبدكم وذكركم وأنثاكم » (469) .

واذا صرفنا النظر عن تفنن المعز لدين الله فى اصطناع الأساليب والمواقف المختلفة ، للتأثير على كتامة واشعار رجالهم بأنهم وحدهم المسؤولون على مصير الدولة ، والقوامون على بقائها ، ومد نفوذها فى الآفاق البعيدة ، فانه يلاحظ انه فى اطار سياسته الخاصة ، جرى فى معاملته لهم ، على غير الرسوم المألوفة ، اذ تشير بعض النصوص (470) ، الى انه دعا بعضهم للاجتماع به فى يوم شات ، وأدخلهم على نفسه من غير الباب الذي جرى الرسم بدخول العامة منه على الخلفاء ، وكان على هيئة متواضعة ومنصرفا الى كتابة رسائل الى الدعاة فى المشرق والولاة فى المغرب يجيبهم فيها بنفسه على مشاكل الدعوة والحكم .

---

468 ـ نفسه 1 ـ 150 ـ 153 .

469 ـ نفسه ، 1 154 وما بعدها .

470 ـ المقريزي : المصدر السابق 1،95 ، عبد المنعم ماجد : اصل حفلات الفاطميين بمصر ـ 253 ـ 254 صحيفة معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد ، مجلد 2 ، 1954 .
G. Marcais : op cit p. 155.

وكان يهدف من هذه الحركة التمثيلية ان يشعرهم بانه عندما يحتجب عنهم لا ينصرف الا لشؤون الامة ولما يحفظ الدعوة واستمرار الدولة مع زهد كامل فى مباهج الدنيا وملذات الحياة . ومعنى ذلك انه يجب عليهم ان يكرسوا جهودهم لخدمة المصلحة العامة ولتخفيف المشاكل على الضعفاء ولاسباغ الرحمة والعطف على البؤساء حتى يشعر الجميع بالاطمئنان وبالراحه فى ظل الدولة العادلة ، ولا يعطوا لانفسهم ولحياتهم الخاصة الا ما تستحقه ، وفى نطاق القصد والاعتدال خاصة فى أمور النساء (471) .

ويلاحظ أن مواعظ المعز لدين الله وأحاديثه الخاصة واطراءه لاخلاق كتامه ، وجهوده فى بث روح جديدة بين ربوعهم اثمرت فى نهاية الأمر وهيأت لظهور جيل جديد من كتامة يعتز بماضي اسلافه فى الدعوة وبدورهم فى حركة توسيع نفوذ الدولة فى المغرب ، وهو يقدر أيضا اهمية دورهم فى الاستمرار فى دعم مسيرة الدولة لتدرك اهدافها فى المشرق ، ومن بين هذا الجيل برز قادة عظماء ، ساروا على الدرب واستعادوا سيرة اسلافهم فى ميداني الحرب والدعوة ، وأهمهم ابن عطاء الله ، والي قابس ، وصولة متولي ديوان الخراج فى افريقية ، وعبد الله بن يخلف عامل طرابلس وعسلوج بن الحسن الدنهاجي الذي كان أحد رجال المعز المقربين الذين افضى اليهم بالنص على حجته عبد الله (472) ، ثم جعفر بن فلاح مساعد جوهر فى الحملة التي فتحت اثناءها مصر ، وقائد فتح الشام ، وجبر بن القاسم الذي بلغ منزلة كبرى فى مصر ، أما أفلح بن ناشب عامل برقة منذ سنة 342 هـ / 953 ـ 954 م فيبدو انه (473) شديد الصلة بكتامة ، وقد ادرك أفلح فى برقة مجدا كبيرا حتى طمحت نفسه لمنافسة جوهر الكاتب فأبى ان يترجل له ، استعلاء بنفسه ، رغم أن الجميع كانوا مثلما رسم المعز لدين الله يترجلون له ، وتلطف مع الخليفة أن يعفيه من ذلك لقاء مبلغ ضخم من الاموال ، ولما رفض اقتراحه ، استسلم للامر الواقع ،

---

471 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،96 . عبد المنعم ماجد : أصل حفلات الفاطميين بمصر 253 ـ 254 ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد ، مجلد 2 ، 1954 .

472 ـ العزيزي الجوذري : المصدر السابق 139 س 11 .

473 ـ ابن ابي دينار ، المؤنس 63 ، وصف فى بعض النصوص بمولى المعز وغلامه ، لمعة من اخبار المعز ورقة 4 ، القلقشندي : صبح الاعشى ، 3 ، 349 ـ ويبدو انه احد أخوة ثلاثة ارتبطوا بالدعوة الاسماعيلية ، وبالخلافة الفاطمية ، فاكبرهم فيما يبدو هو الحكم بن ناسب الذي عين نائبا عن الداعي فى ايكجان ، غداة مغادرته لها الى تازروت اضطرارا . وكانت مهمته رعاية شؤون انصار الدعوة أما جبر بن ناسب (نماسب) فقد اتصل بالمهدي وهو الذي تولى قتل ابي العباس المخطوم بتسع عشرة طعنة بالرمح ، انظر ابن عذاري : البيان المغرب ، 1،227 ـ 228 . النعمان : افتتاح الدعوة ، ورقة 62 .

وعامل جوهر بمثل ما يعامل به من طرف الولاة والعمال ، فترجل له وقبل يديه (474) . وبسبب نشاطه الجم ، استقر الامن والنظام فى برقة ، ومن ناحية حدود مصر واستقرار الامن انعكست آثاره فى النشاط الخارجي ضد بعض موانيء البحر الابيض المتوسط ، وجزره التابعة للروم ، ومن احدى موانيء برقة انطلقت النجدات الى مسلمي جزيرة أقريطش (475) .

وقد كانت صلات أفلح بالمعز لدين الله ، وبالاستاذ جوذر قوية ومتينة ، لدرجة أن الاخير على ما بلغه من قيمة وشأن لما طلب من أفلح عشرة جمال وأرسل اليه عشرين ، تحرج من رد ما زاد على الطلب ، ومن مراجعته ، ولما استأذن المعز لدين الله فى ذلك ، وفى رد مثل الهدية ، وافق بدون تردد أو ابطاء (476) ، وهذا لا يعني الا التقدير المتبادل والاهمية الخاصة التي كان يحتلها أفلح فى الدولة الفاطمية فى عصر المعز لدين الله واستمرت أيضا فى عصر ابنه الخليفة العزيز بالله ، وكان أحد الذين طلبوا من المعز لدين الله فى الايام الاخيرة من حياته أن يوضح أمامهم قضية النص على حجته وولي عهده بعد وفاة الامير عبد الله (477) .

وبلغ من قيمته أن غدا أيضا مع المعز لدين الله والجعفرين الكتامي والاندلسي ضمن ممدوحي (478) أبى القاسم محمد بن هانيء الازدي شاعر القصر الفاطمي (479) .

---

474 – شرح لمعة من اخبار المعز لدين الله وتسييره عساكره الى مصر ورقة 4 خ مكتبة جامعة القاهرة رقم 24022 ، ابن ابي الضياف : المصدر السابق 1،126 ، 127 ، القلقشندي ، صبح الاعشى 3،349 . عبد المنعم ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين 245 .

475 – النعمان : المجالس والسايرات 2 ، ورقة 417 وما بعدها ، العزيزي الجوذري : سيرة جوذر 95 تعليق 101 ، ابن الاثير : الكامل 8،196 ، (أحداث 351 هـ) الشراوي : قضية اقريطش فى عهد المعز لدين الله 27 وما بعدها . وهي نصوص مختارة من نسخة خطية للمجالس والسايرات للنعمان بن محمد ، كانت على ملك ح.ح.عبد الوهاب ، انظر حوليات الجامعة التونسية عدد 2 ، سنة 1965 .

476 – العزيزي : المصدر السابق 95 .

477 – المقريزي : المصدر السابق 1،229 س 9 . ط 1967 وعندما كان ياتي الى القاهرة كان يستقبل استقبالا فخما واستمر واليا على برقة حتى بعد 379 هـ . انظر 216 ، 249 منه .

478 – الزاوي : تاريخ الفتح العربي فى ليبيا ، 193 هامش 1 ، وقد وصف خطا بقاضي برقة وكان له ابن يسمى محمدا ، انظر اليعلاوي « قصائد لابن هانيء لم تنشر » ح تونس 69 .

479 – وعن هـــذا الشاعر الافريقي الاصل (من هاني قرية من قـــرى المهدية) الذي اشتهر بالاندلس ومات فى مجلس انس ببرقة رجب 362 هـ . انظر : ابن خلكان : الوفيات 4 ، 49 ، محمد النيفر : عنوان الاريب 1،29–31 ، ح.ح. عبد الوهاب : مجمل تاريخ الادب التونسي 90 .

ولم يبق أمام المعز لدين الله وقد نجح في تعبئة رجال كتامة معنويا ، وخلق عندهم اعتزاز بأنفسهم الا أن يواجه نتيجة لما عمله بنفسه ، موقف الرفض الذي واجهه به شيوخ كتامة عند ما رغب في تعيين عمال للصدقات في مدنهم ، ليتولوا جمع الاموال وارسالها الى دار الخلافة للاستعانة بها في تحقيق مشروع توسع الدولة في مصر ، وقد برروا موقفهم عندما أحضرهم عنده بقولهم « ما كنا يا مولانا بالذي يؤدي جزية تبقى علينا » فتظاهر المعز بالسرور وتصنع الاغتباط لموقفهم القوي وقال : « وانما اردت أن اجربكم فانظر كيف أنتم بعدي ، اذا سرنا عنكم الى مصر ، هل تقبلون هذا او تفعلونه وتدخلون تحته ممن يرومه منكم ، والآن سررتموني بارك الله فيكم » (480) .

أما مبعث سروره فيرجع الى ان تمنع كتامة وتمسكهم بالامتياز ، سوف يقود الى حركة النضال المرير بينهم وبين الامراء الزيريين لأن عقد التقليد ، ثم الوصية الخاصة لأبي الفتوح لم تتضمنا استثناء كتامة من الجباية ، وفي ظل الصراع يبقى النفوذ الفاطمي مستمرا في المغرب . ويشبه هذا التصرف رغبة المعز لدين الله استخلاف جعفر بن علي بن حمدون الاندلسي ، رغم أنه كان يعرف ضعف عصبيته وكراهية صنهاجة لأسرته ، بسبب علاقته السيئة بزيري بن مناد أميرها وابنه ابي الفتوح ، وربما فكر في استخلاف من هو أضعف منه عصبية ، وأقل مستوى ، وهو جوذر الصقلبي (481) ، لأن غرضه في الحالتين هو بقاء الوجود السياسي للخلافة (482) ، ومثل هذه التصرفات والاعمال ومنها مثلا مبالغته في اضفاء القيمة على جوهر ، الذي استفسدت قلب مساعده جعفر بن فلاح ، ان كان بعضها قد أثر على الاوضاع في المغرب ، ومصر ، وبلاد الشام ، فان أكثرها كان لمصلحة الدولة ، وحسبه من العمل ، تهيئة عصر جديد بواسطة جيل جديد من جند الدولة ورجالها الكتاميين ، وهم الذين نشروا نفوذ الخلافة الفاطمية ، واشعاعها الفكري في مصر وهي باب الشام وفي سائر بلاد المشرق العربي ، وبهم ازهر الامل وتحققت الاماني ، وقطف المعز لدين الله ثمار دعاء المهدي وجهود القائم بأمر الله وائتلف المغرب مع كتلة « شامصر » لغاية سامية هي الدفاع عن « دار الاسلام » ، وبسط نفوذ الخلافة العلوية ، ارساء لظاهرة « الشرعية » وتصحيحا للاوضاع « الدستورية » .

وجهود أبناء كتامة ـ الجيل الثاني ـ في هذا السبيل وموقفهم من الخلافة وموقفها منهم وهل كان استمرارا للقديم او انحرافا عنه أو نقدا له ذلك هو ما سنعالجه في الفصل التالي .

---

480 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 1، 98 .
481 ـ العزيزي الجوذري : سيرة جوذر 109 .
482 ـ ابن ابي الضياف : اتحاف أهل الزمان 1، 128-131 .

الفصل الرابع

كتامة والنفوذ الفاطمي في مصر وبلاد الشام منذ الفتح الى نهاية القرن الخامس الهجري

- الوجهة الشرقية للحركة الاسماعيلية .
- المحاولات السياسية والعسكرية ضد مصر حتى 358 هـ .
- قادة الحملة الكبرى (358 هـ) .
- جوهر الكاتب .
- شخصية جعفر بن فلاح .
- كتامة والادارة المدنية والعسكرية فى مصر .
- كتامة والخلفاء المصريون .
- آثار وبقايا كتامة فى القاهرة وفى الاقاليم .
- كتامة وميدان الشام ومشاكل الحكم الفاطمي فيه .
- القرامطة .
- الشطار .
- عرب الشام وامراؤهم .
- الولاة الكتاميون فى بلاد الشام منذ الفتح حتى ظهور قوة الاتراك السلاجقة فى نهاية القرن الخامس بعد الهجرة .

***

لم يكن للدعوة الاسماعيلية التي انتشرت من دار الهجرة فى سلمية الى الآفاق البعيدة فى المشرق ، وفى المغرب ، هدف مباشر ونهائي فى دار الاسلام ، غير اسقاط نظام الخلافة العباسية واحلال الخلافة العلوية محلها ، احياء لمجد العلويين فى المشرق ، وانصافا لهم من الغاصبين (1) .

ولما كان هذا الهدف لا يتحقق الا فى ظل نظام سياسي علوي قار ، يكون فى منطقة ما من بلاد المشرق ، أو فى اقليم وثيق الصلة به مثل مصر ، فقد اتجهت العناية فى المرحلة الاولى من التوسع على حساب العباسيين لتحقيق الهدف نحو تأسيس أنظمة سياسية فى الاطراف ، حيث تكون

---

1 ـ المقريزي : اتعاظ 2 ، 53 ص 3 ط 1971 .

هذه بعيدة عن مركز الثقل العباسي ، وحيث يتوفر الامن ، ويوجد استعداد من السكان الذين كانوا يميلون الى تأييد دعوى العلويين بدافع حبهم لآل البيت وكانت هذه الخطة متقنة وحكيمة ، لأن الفاطميين استغلوا الاوضاع المختلفة فى المناطق البعيدة فى التمكين لأنفسهم ولحركتهم وفى الاعداد وفى التهيئة المعنوية والمادية ، قصد التسرب الى المناطق الاخرى المجاورة ، تدريجيا كل ذلك فى اطار الاحتراز من الاحتمالات السيئة والمفاجآت غير السارة .

ومن ثم لم يكن رجال الدعوة الاسماعيلية منذ البدء راغبين فى استقرار الدولة الفاطمية باليمن ، لفقرها وتطرفها حتى لو حصلت هجرة المهدي اليها ، واعنى منها الدولة العلوية ، كما لم يفكر اي خليفة من خلفاء الفاطميين فى الاستقرار نهائيا فى بلاد المغرب رغم اهمية موقعه وغناه وسعة مجالاته وتفتح أراضيه على عالم البحر المتوسط وافريقيا ، والارض الكبيرة . وانما كا ن الفاطميون يعدون ليوم العودة الى بيئتهم الشرقية التي غادروها مضطرين . وفى المشرق انصارهم ومؤيدوهم ودعاتهم المنتشرون فى الجزائر المختلفة ومنها مصر ، وباقي أراضي الخلافة العباسية .

ومن ثم لم يكن للفاطميين خطة اخرى ، ثم حملهم عداء المالكية وثورات زناتة وفشلهم فى حكم بلاد المغرب وبعدهم عن المشرق ، على تغييرها ، لأن الوجهة المشرقية للحركة الاسماعيلية ، ظهرت منذ عصر مبكر ، على لسان المهدي قبل دخوله أرض مصر اثناء فراره الى بلاد المغرب . فقد خاطب احد ولاة الرملة المتشيعين الذي خشي عليه من رقباء العباسيين فى الطريق ، بقوله : « طب نفسا ، وقر عينا ، فوالذي نفسي بيده ، لا وصلوا الي ابدا ، ولنملكن أنا وولدي نواصي ولد العباس ، ولتدوسن خيولي بطونهم » (2) . ومثل هذا القول ، لا يدل الا على وجود خطة ثابتة ضد العباسيين فى المشرق ، كان من المفروض لها فيما يبدو أن تنفذ من سلمية لولا انكشاف أمر الحركة للعباسيين ، وكانت « هجرة المهدي الى المغر ب» مفاجأة مذهلة لأخلص رجاله ، واكبر دعاته لانهم كانوا على علم بالخطة الاصلية وبأهداف الحركة الاسماعيلية ، ولم يكن من بينها فيما يبدو ، اعلان الامامة العلوية فى اقصى دار الاسلام أي فى بلاد المغرب .

2 ــ اليماني : سيرة جعفر 112 .

وتصرفات المهدي بعد اعلان الخلافة الفاطمية فى رقادة وارساله الحملات ضد برقة ، ومصر أكثر من مرة ومجازفته بحياة ابنه أبى القاسم فى ميادين بعيدة عنه كانت التزاما بالخطة الاصلية (3) .

وكان رد المهدي على ابنه الذي تردد وخاطب أباه « يا أمير المؤمنين قد خولك الله ، وملكك واعطاك من الدنيا ما فيه سعة وكفاية فعلام تغم نفسك ، وتشغل صدرك ، دع هذا حتى يأتي الله به عفوا » ردا حازما وعمليا فقد قبض يده اليسرى وقال : « نعم هذا المغرب فى قبضتي هذه ، وبسط اليمين وقال : ولكن كفى هذه من المشرق صفر ، ان ثقل عليك ما أمرتك به ، خرجت له بنفسي » (4) .

ومثل هذا الرد لا يدل على غير الاصرار على مضايقة العباسيين والرغبة فى تعبيد طريق المشرق لمن يأتي بعده ، رغم أنه كان يعلم أنه ينطلق من قواعد غير مستقرة ، الى مناطق يسودها الامن والاستقرار فى ظل ولاة مصر العباسيين ، وأن الخلافة العباسية فى هذه الفترة على جانب كبير من القوة تمكنها من الاحتفاظ بأراضيها ورد الاخطار عنها (5) ، لم يشأ ابنه أن يشذ عن الاتجاه العام ، فاستجاب لرغبة أبيه ، رغم اقتناعه بعدم جدوى العمل فى هذا الوقت وناضل ضد ولاة العباسيين فى مصر بالقلم وبالسيف ولقي الهزائم المنكرة وقوبل بالسخرية (6) ، وعير من طرف السكان (7) ، وكان المهدي يقابل كل ذلك بعدم الاكتراث ، لأنه مقيد بخطة قديمة بانت ملامحها فى بلاد المغرب فى أول صلاة جمعة دعى له فيها بامرة المؤمنين « اللهم فانصرد على أعدائك المارقين ، وافتح له مشارق الارض ، ومغاربها كما وعدته ، وأيده على العصاة الضالين » (8) .

واهتمام المهدي وخلفائه باقليم برقة يدخل فى اطار السياسة الشرقية للخلافة الفاطمية . ومن برقة ، انطلقت البعوث الاستطلاعية ضد حدود

---

3 ـ وقد عبر بعض الباحثين عن بعض اهداف الفاطميين بقوله : ان فتح مصر كان هدفا رئيسيا . (objectif principale) انظر : Huart op, cit T I, p. 340.

4 ـ النعمان : المجالس والمسايرات ، 1 ، ورقة 19 ـ 20 ، وقد كان رد ابي القاسم على ابيه « بل انفذ لما أمرت به يا امير المؤمنين واسارع اليه » .

5 ـ نفسه ، وقد عبر المعز لدين الله عن نشاط المهدي ضد مصر بقوله : « علم المهدي انه لا يصل الى ذلك لكنه احب الا يضيع الحزم » .

6 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا ،1،69 ، ومن فرط تاثره لهجو الصولي وتجريحه له قال : والله لا ازال حتى املك صدر الطائر وراسه ان قدرت والا اهلك دونه » ومن هذا القول تتضح الاهداف البعيدة للدعوة الاسماعيلية .

7 ـ ابن عذاري : البيان 1،26 ص 18 .

8 ـ ابن ابي الضياف : اتحاف أهل الزمان ، 1 ، 122 .

مصر ، والحملات العسكرية البرية والبحرية لضم أراضيها في الجنوب ، وفي الشمال ، واليها التجأت العناصر الموالية للفاطميين ، والثائرة ضد ولاة العباسيين في مصر .

واهمية قاعدة برقة ، باب مصر في الاستراتيجية الفاطمية للنضال ضد العباسيين في المشرق ، تماثلها أهمية قاعدتي فاس وطنجة ، باب الاندلس ، لنيل من الامويين ، ثم صقلية ، وقلورية باب أروبا ، للنشاط الثغري ضد البيزنطيين .

وبينما فشلت قواعد فاس ، وطنجة ، وصقلية ، وقلورية على المدى البعيد في آداء مهمتها نجحت قاعدة برقة في آداء دورها كاملا غير منقوص .

ولم يرث القائم بأمر الله عن ابيه ، لقب الخلافة فقط بل أصبح ملتزما بنفس سياسته واتجاهاته الشرقية ، وباقلاق راحة العباسيين من مركزهم في مصر ، غير أنه ـ بعد أن خبر ميدان الحرب في الجبهة المصرية ـ كان يميل ايضا لاستخدام أساليب السياسة والدعوة الهادئة لكسب ولاء مصر (9) ، وجلب ولاتها الاخشيديين للاعتراف بالسيادة الفاطمية ، والتعاون مع الفاطميين جيرانهم في المغرب ، ولذلك أرسل الى محمد بن طغج الاخشيد الذي انزل هزيمة منكرة من قبل برجاله ، يطلب منه الاعتراف بالولاء للفاطميين ، بوصفه تابعا وحليفا ، أو جارا صديقا ، ايثارا لجانب السلم بين الجيران واشاعة لروح المودة والالفة ، والتعاون بينهم ضد الاخطار ، ولم ينس أن يهون عليه مسألة الانفصال عن العباسيين ، باعتبار أن الولاء لهم أصبح عادة تقليدية قديمة ، فضلا عن كونهم لا يقدرون قيمة المخلصين من رجالهم .

ولقد تضمنت الرقعة التي كتبها القائم بأمر الله بخطه ولم يطلع عليها أحدا قوله : يخاطب الاخشيد : « قد خاطبتك أعزك الله ، في كتابي المشتمل على هذه الرقعة بما لم يجز لي في عقد الدين ، وما جرى به الرسم من سياسة انصار يستجلبون ، وضمنت رقعتي ما لم يطلع عليه أحد من كتابي ، وذوي المكانة عندي . وارجو أن تردك صحة عزيمتك وحسن رأيك الى ما أدعوك اليه ، فقد شهد الله على ميلي وايثاري لك ورغبتي في مشاطرتك ما حوته يميني واحتوى عليه ملكي ، وليس يتوجه لك بالعذر في التخلف عن اجابتي ، لأنك قد استفرغت مجهودك في مناصحة قوم لا يرون احسانك ولا يشكرون اخلاصك ، يخلفون وعدك ويحفرون ذمتك ، لم يعتقد منهم أحد حسن المكافأة ، ولا جميل المجازاة ، وليس ينبغي لك

9 ـ وقد شغله عن مصر ، اضطراب وضع بلاد المغرب ودسائس الأمويين : انظر ، عبد المنعم ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين 98ـ100 .

ان تعدل عن منهج من نصحك وايثار من آثرك الى من يجهل موضعك ، ويضيع حسن سعيك ، وانا اعلم أن طول العادة فى طاعتهم قد كره اليك العدول عنهم فان لم تجد من نفسك معونة على اتباع الحق ولزوم الصدق فانني ارضى منك بالمودة والأمر والطاعة حتى تقيمني مقام رئيس من اهلك تسكن اليه فى أمرك وتعول بمثل ذلك ، واذا تدبرت هذا الامر علمت أن الذي يحملني على التطأطؤ لك وقبول الميسور منك ، انما هو الرغبة فيك ، وانت حقيق بحسن مجازاتي على ما بذلته والله يريك حسن الاختيار ، فى جميع أمرك وهو حسبنا ونعم الوكيل » (10) .

ورغم أن الاخشيد ، تأثر بمضمون الرسالة الا أنه كان بعيد النظر ، عندما لم يسارع بالاجابة عنها ، واعتذر بانه أمي ، ومن الصعب عليه نظرا لعلاقاته الخاصة بالعباسيين ، أن يبوح بسر خطير ، لأي كاتب من كتابه (11) ، قد يستغله ضده ، وترك نفسه حر التصرف ، يتأمل أبعاد المشروع الجديد ومكاسبه ، ويبدو انه مال فى فترة ما من صفاء ذهنه ، الى البقاء على موقف التحفظ ، لأن ارتباطه بالعباسيين يتيح له قدرا كبيرا من الاستقلال بالتدبير ، اما عندما طلع نجم محمد بن رائق الخزري ، وقلده الخليفة العباسي ولاية الشام التي تعتبر امتدادا لنفوذ الاخشيديين ومجالا حيويا لتوسعهم ، فانه هم بقطع الصلة مع الخلافة العباسية واعلان الخطبة للقائم بأمر الله الفاطمي (12) ، لولا أن رجاله نصحوه بالعدول عن تنفيذ هذا الاتجاه الخطير ، الذي سيزيد بدون شك ـ من غضب العباسيين ، ويعلى شأن خصمه ابن رائق ، الذي قد ينقلب الى بطل انقاذ ، ويرمى به فى ميدان مصر الثائرة ضد السلطة الشرعية فى بغداد (13) .

واذا كان الاخشيد قد استجاب لراي المخلصين من نصحائه ، فابقى على الرباط الشكلي ، مع العباسيين ، واحتفظ باستقلاله عن الفاطميين ، فانه استجاب الى حد ما ، للعرض الثاني الذي تضمنته رسالة الخليفة

---

10 ـ ابن سعيد ، المغرب فى حلي المغرب 1،175 وما بعدها ، وعن قصائد القائم ومكاتباته لاهل مصر ليخذلهم عن التبعية للعباسيين ، انظر عريب بن سعد ، صلة تاريخ الطبري ، 41ـ43 ، ومن ضمنها ما رد به الصولي على القائم بامر الله .

11 ـ نفسه ، 1 ، 176 ، عاشور ، مصر فى العصور الوسطى 189 .

12 ـ نفسه ، س 4 وقد عبر عن موقفه بقوله « قد تاذيت بالراضي ، وبهذا الصبي ابن رائق ، وقد امرت الخطيب ان يدعو لابي القاسم صاحب المغرب » .

13 ـ ابن سعيد ، 1 ، 177 س 16 ـ 17 وقد قالوا للاخشيد « لانك اذا عملت هذا كاتبه من مصر ، من يكره هذا ، وكتب بذلك الى العراق فان كان الراضي لم يقلده قلده وانفذ اليه الاموال والعساكر وصيرت له شيعة وخاصة ولكن دع هذا الى وقت آخر » .

الفاطمي ، حيث اقترح فى رده على القائم ، ان يقبل الاخير زواج أبنه ، وحجته ولي عهد المسلمين أبى الطاهر اسماعيل بابنته ، فاستجاب القائم بأمر الله وحبذ الفكرة على أساس انها تتيح فرصة لربط المغرب بمصر ، عن طريق المصاهرة ، التي تتضمن الحلف والتبعية فى نظره ، ولذلك نلاحظ أنه عندما انطلق بالفكرة ، الى أبعادها السياسية وأرسل الى الاخشيد يقول له : « وصل كتابك ، وقد قبلنا ما بذلت ، وهي وديعة لنا عندك ، وقد نحلناها من بيت مالنا قبلك مائة الف دينار فوصل ذلك اليها » (14) . لم يرتح لمضمون الرد ، الذي انبنى على أساس تبعيته للفاطميين ، وكان ينتظر من الخليفة القائم أن يقبل مشروع الزواج ، تشريفا له ، وطريقا للمصافاة بين البلدين ، وأن يهاديه بأموال ، والطاف كثيرة ، نظير هذا العرض السخي ، ليفاخر بها ، ويزايد أمام بعض خصومه وليشعر الخليفة العباسي بأهمية مركزة ، وعظمته ، وقوته فلا يبالغ فى اضفاء كل الأهمية على خصمه محمد بن رائق .

وما دام الامر لم يتم مع القائم بأمر الله ، كما توقعه الاخشيد ، مكسبا ماديا وأدبيا ، فانه بقي على تحفظه ، ووضعه القديم واليا مستكفيا من طرف العباسيين (15) .

وكان يمكن للخليفة المنصور ان يواصل العمل فى نفس الخط الذي رسمه ابوه ، وجده ، نضالا بالقلم ، وبالسيف ، فى سبيل نشر الدعوة ، وتنفيذ مشاريع الدولة ، واعلاء كلمتها فى المشرق العباسي ، لولا « التياث أمر بلاد المغرب (16) ، بسبب ثورة أبى يزيد ، وابنه فضل ، وانتقاض محمد بن خزر ، واضطراب أوضاع صقلية ، وعندما تغلب على معظم هذه المشاكل (17) لم يمتد به أجله ، ومع ذلك فان اهتمامه بارجاع الحجر الأسود الى مكانه ، اكسب خلفاء الفاطميين سمعة فى المشرق ، فتعاطف معهم جمهور غفير من سكانه ، وكان خير وسيلة للابانة عن أهميتهم للابقاء على سلامة المقدسات الاسلامية ، بعيدا عن أيدي المغامرين ، حتى ولو كانوا من بين الاسماعيلية ، وقد أوصى ابنه وحجته المعز لدين الله ، بالاهتمام بأمر مصر ، والشرق ، تنفيذا لوصية جده القائم (18) .

---

14 ـ نفسه ، المغرب فى حلي المغرب 1 ، 177 .

15 ـ وبموت الخليفة الراضي 329 هـ ، وموت محمد بن رائق ، صفا الجو السياسي للاخشيد وخلصت له ولايتا مصر وبلاد الشام . انظر ابن سعيد : المصدر السابق 1 ، 179 .

16 ـ عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها ، 98 ـ 100 .

17 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،91 ، ويشير الى أن المنصور الفاطمي ، يشبه فى الحزم وتصفية المشاكل ، سميه أبا جعفر المنصور العباسي .

18 ـ نفسه 1 ، 69 .

وباشراف المعز لدين الله ، تم تنفيذ الخطة الاصلية للحركة الاسماعيلية ضد العباسيين فى المشرق .

وقد كان هذا الخليفة أوفر خلفاء الفاطميين نشاطا فى العمل ضد العباسيين ، فلم يقتصر على ميدان الدعوة وارسال الدعاة لتخذيل رعاياهم واستفساد ولاتهم ، وتمهيد نفوسهم لقبول التشيع أو الولاء للخلافة الفاطمية ، بل أرسل الجيوش لنجدة سكان اقريطش التابعين لهم ، كي يظهرهم على حقيقتهم عاجزين عن حماية الاسلام أو عن فرض هيمنتهم على بعض ولاتهم فى مصر الذين تباطأوا فى نجدة سكان الجزيرة ، وعندما استقبل رسول ملك الروم ، فى المنصورية ، أوعز اليه بسر خطير « لتدخلن علي وأنا بمصر مالكا لها » (19) .

وتركزت خطته لتحقيق هذه الغاية ، على التمهيد الكامل لذلك ، فى بيئة المغرب ، بحشد القوى وتربية جيل جديد من كتامة ، يكون جديرا بأن يمثل رجاله الدور الايجابي فى المشرق ، نظير ما فعله أسلافهم فى بيئة المغرب ، أما التمهيد لذلك فى بيئة المشرق ، فيكون بمتابعة نشاط الدعاة ، وتسقط أخبارهم ، والاعتماد على الماهرين منهم فى اكتساب ثقة ولاة مصر الاخشيديين ، ومن هؤلاء أبو جعفر بن نصر الذي اثر على أحمد بن علي بن طفج ، وحوله الى المذهب الشيعي ، وحمله على مكاتبة المعز لدين الله بعد أن صوره أمامه بمثابة والد رحيم ، سوف يخفف عنه مشقات الحكم ، وعبث الجند (20) ، وبواسطة هذا الداعي وغيره كان يعرف المعز لدين الله ، سير الأوضاع فى مصر . وعن بعض مكاتباتهم ، وردوده عنهم ، تحدث الى شيوخ كتامة بقوله « واني مشغول بكتب ترد علي من المشرق والمغرب أجيب عليها بخطي » (21) .

وفى أكثر من مرة كان يشرح أمام شيوخ كتامة ما يعلقه عليهم من آمال فى ميدان مصر والمشرق ، بعد أن تحقق الشيء الكثير على أيدي أسلافهم فى المغرب « واعلموا انكم اذا لزمتم ما آمركم به رجوت ان يقرب الله علينا أمر المشرق ، كما قرب أمر المغرب بكم » (22) .

---

19 — نفسه 1 ، 266 ، ابن الأثير : المصدر السابق 8 ، 239 — 240 .

20 — سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج 11 ورقة 240 ، خ دار الكتب رقم 551 ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة 4 ، 730 . كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية 16 ، المقريزي : اتعاظ ، 1 ، 139 ، وقد اصبح أبو جعفر ، من بين المقربين الى المعز لدين الله ، ومن مرافقيه .

21 — المقريزي : اتعاظ 1 ، 95 .

22 — المقريزي : اتعاظ ، 1 ، 96 .

ولشعوره بأن التعبئة المادية ، والمعنوية لم تكتملا بعد ، لم يستجب لرغبة دعاته فى المشرق ، بأن ينتقل بسرعة الى مصر لتطور الأوضاع فى صالح الحركة الاسماعيلية ، « اننا لم نتخلف عن ذلك الا انتظارا للمدة التي وعدنا الله الظهور فيها ، ولو حضرت ما تخلفنا » وكي يوضح أمامهم أن التأخر لحكمة ، وأن الانتقال الى مصر هدف أساسي للحركة الاسماعيلية ، ذكرهم بالسابقة التاريخية التي ارتبطت بالمهدي جد الخلفاء الفاطميين ، تعبيرا عن وجوده السياسي ، وبأنه وان لم ينجح ــ هو صاحب حق شرعي فى هذه البلاد ، وذلك ما أصبح تقليدا متبعا بالنسبة لخلفائه وامانة موروثة عنه . (23)

وعندما شعر المعز لدين الله بانه أصبح فى مركز قوة ، بعد اكتمال الاستعدادات المادية ، والمعنوية ، افتعل حادثة الجارية التي قيل ان أم الأمراء ، وجهتها من المغرب لتباع فى مصر ، فاشترتها امراة مثلها هي بنت الاخشيد ، لتتمتع بها . وقد كانت هذه الحادثة محورا لحديث دعائي قوي شنع فيه على ولاة مصر ، ونظام العباسيين ، وعلى المجتمع المصري ، امام جمع من شيوخ كتامة ، وقادتها ، وقد ختمه بقوله « يا اخواننا انهضوا اليهم ، فلن يحول بينكم وبينهم شيء ، واذا كان قد بلغ بهم الترف الى ان صارت امرأة من بنات ملوكهم تخرج وتشتري لنفسها جارية تتمتع بها فقد ضعفت نفوس رجالهم ، وذهبت الغيرة منهم » (24) . وهذا الأسلوب الدعائي الملتهب،كان جزءا من خطة كاملة،غايتها التمهيد لغزو مصر ولانتقال الخلافة الفاطمية اليها ، اما الوسيلة ، فكانت التشهير بالمجتمع ، والاساءة الى عناصر السلطة الداخلية ، والخارجية ، حتى كان المعز لدين الله فى مجالسه يصف العباسيين بالملاعين ، ويحرص على أن يتحف رجاله بما يحط من قيمتهم كخلفاء ، ومن ذلك ما لاحظه من أن كتب التاريخ ، والأخبار ، التي سجلت عن العباسيين واطلع عليها ، تذكر ميل بعض الخلفاء الى اللهو والشرب والتمتع بالغلمان ، وعقب على ذلك بقوله « هذه محاسن القوم فكيف بمساوئهم وهذا قول من قصد بقوله مدحهم ، فكيف بمن قصد ذمهم (25) .

---

23 ــ النعمان : المجالس والمسايرات 2 ، ورقة 474 وما بعدها ، اما النعمان فقد عبر عن الوضع قبيل فتح مصر بقوله « ما يمنع امير المؤمنين من المشرق ، . . الا انه لم ير العزم فى امره ، فاما لو عزم على ذلك لماحال دونه حائل » .

24 ــ المقريزي : اتعاظ ، 1 ، 100 .

25 ــ النعمان : المجالس والمسايرات 1 ورقة 170 ــ 171 ، وقد لاحظ المعز بدهشة كيف ان الكتب التي اهداها اليه بعض العلماء المعاصرين لم تتضمن غير سير بني امية ، وبني العباس ، واخبارهم ، ولم يوجد فيها ما ينسب الى اي خليفة فاطمي ، مع أن الرجل الذي الف هذه الكتب ، صحب المهدي والقائم وكبر فى عصر المنصور ، انظر : ورقة 84 ــ 85 منه .

ولم يتورع عن الطعن فى مشروعية خلافتهم ، او عن الاشارة الى أن هدف الخطة الاسماعيلية منذ عصر المهدي ، كان القضاء عليهم « لو أراد الله ببني العباس خيرا لقطع امرهم يومئذ على يديه وهم فى عنفوان أمرهم ، وتمام سلطانهم وعزهم » (26) .

وتدل بعض التوقيعات التي أصدرها المعز لدين الله الى النعمان بن محمد ، يمنيه بالخير الكثير ، والبناء الرفيع فى مصر ، ردا على طلبه الحصول على أرض للبناء ليجتمع شمل أسرته بالمنصورية ، على أنه كان يعتبر نفسه مؤقتا فى بلاد المغرب ، وأن ساعة الانتقال الى مصر قريبة ، « فالله يهبك السلامة حتى تبتني فى أيامنا ، ومعنا ، حيث يختاره الله ويرضاه له من أرض المشرق الأبنية الواسعة المنيفة » (27) . ومن هذا القبيل ، قوله أمام جمع من رجاله وجدهم عند جوهر متأثرين لمرضه الشديد ، « لا تغتموا ، فانه يبرأ ، ويفتح مصر بمشيئة الله (28) .

ويرتبط بالخطة الأصلية للحركة الاسماعيلية ، فى عصر المعز لدين الله ، التدخل فى شئون الحجاز ، تمهيدا لفرض الحماية على الحرمين الشريفين ، واكتساب مودة الاشراف، اذ تشير بعض النصوص الى توسط المعز لدين الله لتحقيق الصلح بين فرعي بني الحسن ، وبني جعفر بن أبي طالب ، الذين اقتتلوا فيما بينهم ، وقد أنفذ أموالا ورجالا وتحمل ديات القتلى وكان أكثرهم من بني الحسن ، « فصار ذلك جميلا عند بني الحسن للمعز » قابلوه بالدعاء له فى مكة عقب فتح مصر ، وتولى ذلك منهم حسن بن جعفر الحسني ، الذي أرسل اليه المعز لدين الله « بتقليد الحرم وأعماله » (29) .

وكانت مكاتبات الدعاة ، وبعض عناصر المجتمع فى مصر ، لا تنقطع عن المعز لدين الله ومن هؤلاء الوزير ، أبو الفضل جعفر بن الفرات ، المعروف بابن حنزابة ، الذي حثه على فتح مصر ، نكاية فى الأمير الأخشيدي : الحسن بن عبيد الله بن طغج أمير الرملة والشام ، الذي ضيق عليه ، وآذاه ، وقصد به شرا (30) . وتضمنت بعض المكاتبات تعبيرا عن سهولة فتح مصر وطواعية سكانها للفاطميين ، بعد اختفاء كافور الأخشيدي ، قولا نصه « اذا زال

26 ـ نفسه 2 ، 478 وما بعدها .

27 ـ نفسه ، 2 ، 634 ـ 635 .

28 ـ لمعة فى سيرة المعز ورقة 3 ، مخطوط مكتبة جامعة القاهرة رقم 24022 .

29 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا ،1،101 .

30 ـ ابن ايبك الدواداري : الدرة المضيئة 6 ، 120 ـ 121 ، العيني ، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ج 19 ، القسم (2) ورقات 221 ـ 222 . 507 ـ 508 ، من القسم (3) .

الحجر الأسود ، ملك مولانا المعز لدين الله مصر » (31) ، وكان هذا الخادم المتغلب الذي عرف بالأستاذ ، وكنى بأبى المسك وقلد مصر نهائيا من طرف الخليفة العباسي ، بعد وفاة ابني الأخشيد ، من الدهاء والحكمة بحيث أدرك قوة تأثير الحركة الاسماعيلية في مصر (32) واحس بثقل الفاطميين المجاورين له في برقة ، فلم يظهر العداء ، لكنه لم يتعاون مع المعز لدين الله لنجدة مسلمي اقريطش خوفا من غضب العباسيين ، واحتفظ بتوازنه أمام القوتين المتصارعتين ، فكان « يهادي المعز صاحب المغرب ، ويظهر ميله اليه ، وكذا يذعن بالطاعة لبني العباس ، ويداري ، ويخدع هؤلاء وهؤلاء (33) . وما كان من أمر بقى خافيا في مصر ويريد المعز لدين الله أن يعرفه ، قبل ارسال حملة جوهر الضاربة ، فقد استفاده أخيرا من يعقوب بن كلس ، الذي فـر من مصر ، ناجيا بنفسه ، من فتك الوزير ابن الفرات ، الى بلاط المعز لدين الله في المنصورية (34) . ولم يرجع الى مصر الا في ركابه .

وقد ظهر التعبير العملي عن أهداف الخطة الاسماعيلية في المشرق ، في الأعمال العسكرية التي وجهت ضد مصر ، منذ عصر المهدي واستمرت حتى أواخر عصر المعز لدين الله وكانت مصر في نظر الحركة هي الطريق الطبيعي للنفاذ الى قلب الخلافة العباسية في بغداد ، بعد التهام أطرافها في الحجاز والشـام .

ولم تكن حملة جوهر ، في عصر المعز لدين الله ، غير الحلقة الأخيرة في سلسلة طويلة من الجهود العسكرية استهلها المهدي بارسال حملتين قادهما ابنه أبو القاسم ، وكان صاحب مقدمته في الحملة الأولى ومساعده في القيادة ، ابا داوود حباسة بن يوسف الملوسي ، واشترك الى جانبه كثير من قبيلة ملوزة وظهر من بين قادة كتامة أبو فريدن ، وكانت هذه الحملة برية ، كما ظهر نشاط الأسطول الفاطمي في السيطرة على موانى برقة ، والاسكندرية ، ومن ثم وصفت في بعض النصوص ، بأنها : برية بحرية (35) .

---

31 ـ العيني : المصدر السابق ج 19 (ق 2) ورقة 266 ـ 267 ، سبط ابن الجوزي : المصدر السابق ج 11 ، 23 وفيه « الدنيا كلها » ، المقريزي : اتعاظ 1 ، 102 ، نقلا عن ابن زولاق ، وفيه « الارض كلها » .

32 ـ وكان من جلسائه انشط دعاة الفاطميين وهو ابو جعفر بن نصر الذي اثر عنه قوله : « كافور الأسود غدا يؤخذ باذنه انما بنيت هذه الدار لصاحب المغرب تؤخذ فيها البيعة على كل تابع ومتبوع ، وذيل مرفوع تغير فيها الاحوال وتحمل اليها الاموال » . انظر كامل حسين : ادب مصر الفاطمية 16 .

33 ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة 4 ، 6 .

34 ـ ابن الجوزي : المصدر السابق ج 11 ورقة 152 ـ 153 ، العيني : المصدر السابق ، 19 (ق 3) 507 ـ 508 . Huart : Op. cit., t. I, p. 343.

35 ـ الذهبي : تاريخ الاسلام ج 3 ، ورقة 5ـ6 (احداث سنة 301 هـ) خ دار الكتب رقم 396 تاريخ .

وكانت القوة الفاطمية ضخمة (36) ، ومن ثم سهل عليها تحطيم المقاومة في برقة ، وهزيمة ولاة الاقليم المعتمدين من طرف أبي منصور تكين الخاصة والي مصر ، فانسحب أبو النمر أحمد بن صالح ، لأنه عزل عن الولاية ، ولحق به خلفه خير المنصوري ، ثم خصمه عبد العزيز بن كليب ، اللذان تحاسدا ، وخذل كل منهما الآخر ، كما واصلت الحملة سيرها نحو الاسكندرية واقتحمتها في محرم 302 هـ / يولية 914 م بدون مقاومة ، لأن اغلب أهلها تركوها الى جهات مختلفة بما خف من أموالهم وأمتعتهم ، ولم يجد أبا منصور تكين، أسلوب التخذيل الذي اصطنعه مع رجال الحملة، عندما أرسل الى حباسة باسم الخليفة العباسي المقتدر بالله ، يدعوه الى الطاعة كما لم يغن عنه ما بذله من جهد لرد القوة المهاجمة التي ضيق جزء منها على الفسطاط ، من مركز مشتول (37) ، وسار الجزء الآخر بقيادة أبي القاسم ومعه أبو فريدن نحو الفيوم (38) ، وكانت الحرب سجالا بين الفريقين ، لم ترجح كفة أحدهما حتى وصل مؤنس الخادم في رمضان 302 هـ (39) ، بعد انسحاب حباسة مغاضبا لأبي القاسم (40) ، الذي أيس من النصر ، وبانت له استحالة بقائه في الفيوم بعد النكبات التي حلت به وبرجاله في الوقت الذي تدعم فيه موقف والي مصر ، بنجدة مؤنس الخادم ، ولم يجد مفرا من التستر على فشله وذلك باتهام حباسة ، ثم بانسحابه يجر أذيال الخيبة الى رقادة التي وصلها في ذي القعدة 302 هـ (41) / مايو 914 م .

---

36 ـ الكندي : الولاة والقضاة 268 وما بعدها وقد قدر قوة حباسة بمائة الف وزيادة ، ولم يشر الى ابي القاسم في هذه الحملة ، الذهبي : نفس المصدر السابق ، وقد قدر القوة الفاطمية باربعين الفا ، واشار الى ابي القاسم ووصف حباسة بصاحب مقدمته ابن عذاري : المصدر السابق 1،235 وما بعدها ، 238 وما بعدها . ويلاحظ امداد المهدي لحباسة بالجيوش باستمرار ، وانه خرج قبل ابي القاسم ، والتقيا معا في الاسكندرية ، المقريزي : اتعاظ 1،68،69 ، ويجعل خروج أبي القاسم سابقا على خروج حباسة ؛ الذي قاد الحملة البحرية منذ 302 هـ ، الطبري : المصدر السابق 11 ، 408 ـ 409 ، ووصف حباسة بقائد ابن البصري ، عريب سعد : المصدر السابق 27 ـ 28 ، 36 .

37 ـ الكندي : المصدر السابق 269 ـ 270 وقد لاحظ هزيمة قوة حباسة اولا ثم انتقامها من اهل مصر ثانيا .

38 ـ ابن عذاري ، 1 ، 23 س 1 ، 4 .

39 ـ نفسه ، 1 ، 239 س 11 .

40 ـ نفسه ، س 5 ، 7ـ8 ، وعن حملات المهدي ضد مصر انظر ايضا : سعيد عاشور : مصر في العصور الوسطى 187 ، وماريوس كنار في مقال :
EI. Art Fatimides T. 2 p. 873 2e Edition.

41 ـ ابن عذاري : البيان 1 ، 239 س 10 ، 12 وانظر ص 240 س 17ـ18 ، وعن بعض مظاهر التخريب التي تسبب فيها جند كتامة انظر البكري : المغرب 2 .

واثر هذه الحملة الفاشلة ، انتدب لولاية مصر ذكا الأعور منذ صفر 303 هـ / اغسطس 915 م خلفا لأبي منصور تكين الخاصة ، فاهتم بمدينة الاسكندرية وترك فيها ابنه مظفرا ، عاملا مقيما مع قوة كبيرة ، وفى الفسطاط تكل بكل العناصر المشيعة ، أو المشبوهة ، التي يشك فى أن لها اتصالا بالحركة الاسماعيلية فى المغرب (42) .

وأما المهدي ، فقد أرسل الى برقة ، ابا مديني بن فروخ اللهيصي ، الذي امن الاقليم ، وضمه الى الفاطميين وانطلق منه نحو النشاط ضد حدود مصر ، وتشير بعض النصوص الى أن سكان لوبية ، ومراقية تركوا المنطقة ، ودخلوا مدينة الاسكندرية القريبة منهم منذ شهر شوال 304 هـ / مارس 916 م ـ بدافع الخوف من والي برقة الذي كان دائب النشاط والحركة ويضغط على حدود مصر ، وعلى مدينة الاسكندرية التي هي باب مصر ، وأول ميناء هام يتصل بالمغرب (43) وقد بدا لذكا الأعور ، ولابنه مظفر عامل الثغر ، أن المهدي لن يبقى مكتوف الأيدي ، ما بقيت عنده قوة ، وأنه هو الذي أوحى الى واليه فى برقة ، بمواصلة نشاطه ضد حدود مصر ، تمهيدا للحملة الثانية التي انطلقت من رقادة منذ شهر ذي القعدة 306 هـ / ابريل 918 م واشتركت فيها حشود من كتامة ، مع عرب افريقية ، وبربرها ، وبعض القادة المشهورين ، مثل خليل بن اسحاق ، وأبى غانم الكاتب ومن الله ابن الحسن بن أبي خنزير ، وجوذر الصقلبي (44) ، وكانت حملة برية، بحرية ، وتولى قيادة المقدمة ومساعدة أبى القاسم ، سليمان بن كافي الخادم (45) ، الذي كان له أيضا الاشراف على الأسطول الذي باشر قيادته يعقوب الكتامي (46) .

وقد تمكنت قوات الفاطميين من دخول الاسكندرية بدون مقاومة ، لأن معظم سكانها القادرين على الدفاع غادروها الى جهات مختلفة مثل المرة الأولى كما غادرها مظفر بن ذكا ، الى وجهة غير معروفة ، وبينما تقدم سليمان بن كافي نحو مدينة الفيوم واقتحمها عنوة ، بقى أبو القاسم فى

---

42 ـ الكندي : الولاة والقضاة 273 ـ 274 .

43 ـ نفسه . والذي يلاحظ ان اسم القائد الكتامي (ابي مديني) جاء مصحفا فى المتن والهامش ايضا ، انظر 274 هامش 1 منه ، وعن كورة لوبية ومراقية ومن منازلها الرمادة ، انظر اليعقوبي : البلدان 95 ، عمر بن محمد الكندي : فضائل مصر 47 ـ 48 (ط 1971) . تحقيق ابراهيم العدوي .

44 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1، 253 ، العزيزي الجوذري : المصدر السابق 43 ، تعليق 35 ، عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين 96 وما بعدها .

45 ـ نفسه 1 ، 254 . عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبري 41 ـ 42 . وابن كافى من عنصر الصقالبة ، العزيزي : المصدر السابق 35 تعليق 10 .

46 ـ الكندي : المصدر السابق 276 ومابعدها ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 1، 71 .

الاسكندرية فترة استقبل أثناءها نجدات كبرى ، حتى « أجتمع اليه عدد يجل عن الاحصاء » وبهم سار نحو الفيوم ، والأشمونين التي وصلها فى رجب 307 ه / (47) نوفمبر 919 م ويبدو انه احس بحاجة الاسكندرية الى قائد كفؤ يحافظ عليها ، ويراقب حركات العباسيين ويتولى العناية بالاسطول ، لذلك بقي وحده فى الأشمونين وأرسل ابن كافي الى الاسكندرية لينضم الى يعقوب الكتامي .

ورغم سوء حالة ذكا الأعور ، لخلافه مع الرعية بسبب تصرفات الجند ، وشغب هؤلاء عليه بسبب تأخر الأرزاق ، فانه وجد سندا قويا من القوة الشعبية التي شجعته على المقاومة والتحصن فى الجيزة ، وبناء استحكامات حول معسكره ، وبقي فى وضع المتأهب للقتال ، يساعده محمد بن طاهر ، والماذرائي ، حتى توفى فى ربيع الآخر 307 ه / اغسطس 919 م فخلفه ابو منصور تكين فى الولاية بتقليد من المقتدر بالله العباسي ، وأشرف على تقوية جانب الدفاع بناء على خطة سلفه ، وتولى الماذرائي أيهام أبي القاسم بأنه على الطاعة ، وأن مصر خالية من الجند وان الاستيلاء عليها هين ولا يخشى الخطر الا من جانب « العوام » وكان قصده ان يتيح لنفسه فرصة واسعة لكي تكتمل استعدادات مصر بوصول مؤنس الخادم على رأس القوات العباسية (48) ، وبوصوله فعلا بدأ الهجوم ضد مراكز القوة الفاطمية فى الأشمونين ، والفيوم ، والاسكندرية أيضا ، غير أن القادة الذين كلفوا بالقتال فى الفيوم ، والأشمونين لم ينجحوا فى مهمتهم لأن قوات أبي القاسم كانت ضاربة ومسيطرة على المنطقة (49) . بينما ، نجح ثمل الفتى صاحب مراكب طرسوس فى الحاق هزيمة بحرية بقادة الأسطول الفاطمي فى رشيد والاسكندرية وتحطمت معظم قطع الأسطول التي عبثت بها الرياح ، والقتها قرب البر ، فأسر من فيها باليد ، وسلم قادة الأسطول انفسهم الى ثمل الفتى الذي صحبهم الى الفسطاط ودخلوا المقس أواخر شوال 307 ه ، فمن والي مصر على أهل القيروان وطرابلس وبرقة وصقلية ، لأنهم ارغموا على الاشتراك وعرفوا بمقتهم للحكم الفاطمي ، بينما أمر بقتل عناصر كتامة والمتشيعين مثلهم ، واكتفى بتشهير قادة الاسطول فى شوارع مدينة الفسطاط قبل ايداعهم السجن (50) .

---

47 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1، 255 .

48 ـ نفسه ، ابن سعيد : المصدر السابق 1، 175 .

49 ـ الكندي : المصدر السابق 276 ـ 277 ، الذهبي : المصدر السابق 3 ، ورقة 14 ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 1، 71 .

50 ـ الكندي : المصدر السابق 277 ، ابن عذاري : البيان 1، 255 ، الذهبي : المصدر السابق 3 ورقة 16 ، المقريزي : المصدر السابق 1، 71 . وبينما مات سليمان ابن كافى فى السجن ، فر يعقوب الكتامي من سجن بغداد ، الى افريقية ، عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة 98 ، ولقب مؤنس بالمظفر .

ويبدو أن هذا الانتصار البحري ، يضاف اليه صيرورة أبى القاسم فى شبه عزلة فى الفيوم والأشمونين وقد طال مقامه وانتشرت الأمراض والأوبئة بين رجاله وسادت بينهم روح الملل ، والتذمر ، يبدو أن هذه العوامل التي شجعت مؤنس الفتى ، وتكين الخاصة ، وجني الصفواني على مهاجمة القوات الفاطمية فى الفيوم والأشمونين ، أثرت أيضا على معنويات أبى القاسم، فتحاشى الاصطدام بالقوة المهاجمة وفضل الانسحاب الى افريقية عبر برقة، فأدرك المهدية فى شهر رجب 309 هـ / نوفمبر 921 م بعد غيبة استمرت نحو سنتين وثمانية أشهر (51) .

وتلاه مؤنس الفتى ، وتكين الذي عزل عن الولاية ، فانسحبوا جميعا عن مصر ، التي وليها لفترة قصيرة ، هلال بن بدر حتى سنة 311 هـ / 923 ــ 924 م ، ثم خلفه لمدة سنة ، احمد بن كيغلغ ، واثرها عاد أبو منصور (52) تكين الخاصة الى ولاية مصر ، وبقي فيها حتى توفي سنة 321 هـ / 933 ، فوليها بتقليد من القاهر العباسي محمد بن تكين ، الذي لم يتم له الامر طويلا بسبب معارضة الماذرائي ، وتأييد عنصر المغاربة فى الجيش ، وكان رئيسهم هو أبو مالك حبشي بن أحمد ، الذي بان تطرفه ايضا أثناء ولاية محمد بن طغج الأخشيد ، فكره الخضوع له ، وانسحب مع جنده ، والمؤيدين لهم من الأتراك واستقروا فى الاسكندرية ، وسرعان ما فارقوها الى برقة بعد فشل محاولتهم لغزو الفسطاط ، ومن اقليم برقة ، الموالي للفاطميين ، اتصلوا بالقائم بأمر الله ، وزينو له العودة الى العمل العسكري ضد مصر ، بمساعدتهم « لأنهم يعلمون وجوه الحرب ! وكيفية الوصول اليها » (53) .

وبقاء القوة المعارضة لوالي مصر فى برقة كان منسجما مع الاستراتيجية الفاطمية الجديدة التي ظهرت بعد انسحاب القائم بأمر الله من مصر ، اذ غدت هذه القاعدة هي التي تشرف على النشاط العسكري وتوجهه ضد اراضي مصر ، وقد أشارت بعض النصوص الى حركة عسكرية قادها فى بداية 310 هـ / 922 ــ 923 م ، فلاح بن قمون الكتامي ، ضد حدود مصر فاصطدم بجندها ، بذات الحمام ونال منهم وكانت من الأهمية بحيث قرئت أخبارها فى جامع القيروان (45) ، تلتها حركة أخرى ضد منطقة الواحات

---

51 ــ نفسه ، 278 ، ابن عذاري 1،260 ، الذهبي : المصدر السابق 3 ، ورقتا 15 ، 16 ويلاحظ الذهبي ان ابن المديني القاضي قتل لانه كان يدعو الى المهدي مع جماعة آخرين .

52 ــ نفسه 278ـ279 ، السيوطي ، حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة 3 ، 11 ، الذهبي : المصدر السابق ج 3 ورقة 16 .

53 ــ نفسه ، 280 ــ 287 ، السيوطي : المصدر السابق 2،13 .

54 ــ ابن عذاري : المصدر السابق 1،263 ويبدو ان القائد هو ابو جعفر بن فلاح الذي ازدهر فى عصر المعز لدين الله وصحب جوهر الى مصر .

في صعيد مصر ، منذ بداية 311 هـ / 923 ـ 24 9م وقادها ، مسرور بن سليمان بن كافي ،الذي استولى على الحصون القريبة ، وهزم عامل المنطقة وهو الكرمازي واسر ابنه ، وابن اخيه وسيطر على المنطقة وكان في نيته فيما يبدو توسيع نشاطه في أرض صعيد مصر ، لولا ظهور الأوبئة في جنده ، وهو الذي حمله على الانسحاب الى قاعدة انطلاقة في برقة ، انما بعد أن خرب الاستحكامات العسكرية ، وبعض مظاهر العمران (55) . وقد وقعت الاشادة في القيروان وأعمالها بما أنجزه مسرور بن سليمان، من أعمال هامة ، في أراضي مصر، انتقاما لهزيمة الحملة الفاطمية الثانية (56) . وربما تلتها حركات أخرى ضد مدن وحصون مصر ، وهي التي جذبت بعض المغامرين الذين عارضوا ولاية ابن طغج وأرادوا النيل منه تحت ستار مساعدة الفاطميين ، ولم يشأ القائم بأمر الله أن يرفض هذه الفرصة ، لأنها تحقق بعض أهدافه ، ولا تتنافى مع الخطة الأصلية للحركة الاسماعيلية ، ولذلك جهز قوة كبيرة من كتامة أشرف عليها مولاه زيدان ، الذي انضم اليه في برقة عامر المجنون ، وأبو زرارة ، ويعيش مع قوات حامية برقة الكتامية ، ويبدو أن القيادة أصبحت ليعيش الكتامي الذي سار مع القوات المعارضة لحكم ابن طغج يتقدمهم بجكم واستولوا على الاسكندرية بدون صعوبة (57) .

وقد خيل للقوات المتحالفة ان ابن طغج سوف يستسلم بسهولة ويترك الولاية الى الشام أو الى العراق خاصة وأن عناصر من المشارقة والمتشيعين كانوا ضده ، بيد أن ذلك كان حلما بددته عزيمة هذا الوالي الشجاع الذي اسرع بارسال قوات كبيرة الى الاسكندرية قادها أخوه الحسن بن طغج ، بمساعدة صالح بن نافع ، وفي اللقاء الذي تم بين هذه القوة وبين قوات الحلف قرب قروجة ، انهزم هؤلاء وقتل يعيش أمير الجيش ، وبعض مساعديه ، وأسر منهم كثيرون من بينهم عامر المجنون ، أما بجكم وبعض رجاله فقد تركوا ميدان القتال فرارا بأنفسهم الى برقة حيث استقروا في منزل الرمادة ، الموالي للفاطميين (58) ، فترة ، ثم دخلوا مصر بأمان ابن طغج (59) سنة 328 هـ / 939 ـ 940 كما أن قادة كتامة الذين أسروا أثناء

55 ـ نفسه 1،265 ، وبذلك انتقم مسرور لهزيمة ابيه واسره ويبدو ان هدف حركته هو الضغط على والي مصر الذي بقي محتفظا بوالدد في السجن .

56 ـ نفسه 1،267 ، العزيزي : المصدر السابق 152 ، تعليق 10 .

57 ـ يشير الكندي الى وفاة حبشي بن احمد بالرمادة قبل وصول حملة القائم بامر الله ، النويري : المصدر السابق 26 ورقة 16 .

58 ـ ابن عذاري 1،296 ، الكندي : المصدر السابق 286–288 ، حسن ابراهيم : عبيد الله المهدي 181 وما بعدها ، وهنا يشير الى أن قائد الحملة كان هو حبشي بن احمد على خلاف ما ورد في الكندي وابن عذاري .

59 ـ الكندي : المصدر السابق 289 .

الحملة ، أطلق ابن طغج سراحهم سنة 327 هـ / 938 ـ 939 م لثقته بنفسه وبقوة مركزه فى مصر (60) .

وعلى هذه الصورة المحزنة ، انتهت آخر محاولة فاطمية ، للاستيلاء على مصر ، بالاعتماد على قوة المعارضة الداخلية وعلى اضطراب أوضاع مصر بسبب نزاع الجند وعلى حامية برقة القوية وكان فشل هذه المحاولة بسبب تنافر العناصر المهاجمة واختلاف أغراضهم ، وحزم ابن طغج ، واخلاص أعوانه مدعاة للانصراف عن شئون مصر الى المغرب وصقلية ، لتهدئة ارضهما ، وحشد امكانياتهما المادية والبشرية لتوجيهها حسب خطة منظمة نحو خدمة أهداف الدولة فى بلاد المشرق .

ولئن كان البناء الداخلي فى مصر بقي متماسكا طيلة حياة محمد بن طغج الاخشيد ، فان وفاته سنة 334 هـ / 945 ـ 946 م فى نفس الوقت الذي قام فيه نظام شيعي متطرف فى بغداد هو نظام بني بوية الذي استبد امراؤه بالخلفاء العباسيين كان بداية لتصدع ما اجتهد من قبل فى تقويته وأساء الى أعماله فى مصر ، سوء المعاملة التي تعرض لها أبناه ابو القاسم انوجور (ت 347 هـ / 958 ـ 959 م) وابو الحسن على (ت 355 هـ / 965 ـ 966 م) من طرف خادمه أبي المسك كافور ، وما قابله به هذان الأميران من استهانة بشأنه واحتقار له حتى توفى كل منهما وفى نفسه الم وحزن للحجر عليهما وحرمانهما من التمتع بمباهج السلطة (61) ، كانت له أصداء قوية فى صفوف انصار أبيهما ، وهم الاخشيدية ، الذين احتفظوا بكراهيتهم لأنصار أبي المسك ، وهم الكافورية .

وعرفت مصر ، فصولا من صراع هؤلاء ، سواء فى حياة كافور ، أو بعد وفاته فى جمادي الأولى 357 هـ / مايو 967 م (62) ، وقد صيرهم النزاع الداخلي عاجزين عن صد الأخطار الخارجية سواء منها التي ظهرت من جهة النوبة (63) ، أو من جهة برقة ، وقد رجحت كفة الاخشيدية بعد رجوع الأمر الى أبي الفوارس أحمد بن علي بن طغج الذي ضيق عليهم ، فتركوا

---

60 ـ نفسه ، 287 .

61 ـ المقريزي : الخطط 1،329 .

62 ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة 4،10 ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،96 .

63 ـ ويلاحظ ان المعز لدين الله واجه الخطر النوبي ، بالطرق السلمية ، فارسل بعد استقراره فى مصر سفارة الى جورج ملك النوبة ، يدعوه الى الاسلام . وقد تولى رئاسة الوفد عبد الله بن احمد بن سليم الأسواني . انظر : زاهر رياض ، اتجاهات مصر الافريقية فى العصور الوسطى 71 ، المجلة التاريخية ، مجلد 20 ، مايو 1958 .

مصر الى الرملة ، يشكون الى الحسن بن عبيد الله بن طغج كبير الأسرة ، فلم يلتفت اليهم ولم يستسلم لآرائهم فى وجوب قتال ابي الفوارس وذلك لقرابته منه (64) ، ووصايته عليه (65) ، ويبدو أن ابن الفرات الذي كان مستبدا بشئون الادارة المدنية وشمول الاخشيدي الذي كان مشرفا على النواحي العسكرية هما اللذان كانا سببا فيما حل بزعماء الكافورية من اضطهاد ونكــال .

وصراع الجند وشغبهم ضد السلطة وظهور الأزمات الاقتصادية وانتشار الأوبئة ، والمجاعات ، وغلبة ظاهرة الجفاف بسبب انخفاض ماء النيــل وشيوع ظاهرة السلب والنهب ، واختلال الأمن فى العاصمة ، وفى الأقاليم ونجاح دعاة الشيعة الفاطميين فى التمكين لأنفسهم ، وفى بث آرائهم ورجالهم فى عدة جهات من البلاد خاصة الاسكندرية ، التي اكتسبت بهم ، وبالعناصر المغربية التي استقرت فيها ، تحت ستار التجارة ، والرواية وطلب العلم ، أو التعليم طابعا مغربيا واضحا ، هذه كلها بعض أعراض الضعف فى البناء الداخلي التي سهلت على الفاطميين مهمتهم ، منذ سنة 358 هـ / (66) 968 ــ 969 م .

وقد استخلص الفاطميون دروسا من فشل الحملات السابقة واتضح لهم أنها ، وان فشلت فى فتح مصر وضمها نهائيا الى بلاد المغرب ، الا أنها كانت خير تمهيد لارساء قواعد الفتح على أسس متينة ، وبسببها غدت المسالك معروفة ، والبلاد معهودة ، وأصبح بين سكانها عناصر متشيعة ، أو موالية للنفوذ الشيعي بسبب بطولات قادة الحملات الفاطمية ، وجرأتهم المنقطعة النظير ، وقد ضم هؤلاء جهودهم الى دعاة الشيعة ورجالهم القدامى فى مصر ، من أجل تهيئة التربة للبذر الحقيقي ، والى هؤلاء أرسل المعز لدين

---

64 ــ الذهبي : المصدر السابق 3 ورقة 186 (حوادث 357 هـ) .

65 ــ العيني : عقد الجمان ج 19 (ق 2) ورقة 219ــ220 (حوادث 357 هـ) .

66 ــ سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين 360 ــ 370 ، المقريزي ، الخطط 1 ، 330 ، عبد الله الشرقاوي : تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الـولاة ، والسلاطين ورقة 58 (ص 101 ط العثمانية 1304 هـ) . وهي على هامش كتاب لطائف اخبار الاول للاسحاقي المنوفى ، ابن الخطيب : اعمال الاعلام 52 هامش 1 ، (القسم الثالث منه ط الدار البيضاء 1964 . تحقيق مختار العبادي والكتاني) يحي بن سعيد الأنطاكي : تاريخ الذيل 812 ط كراتشوفسكي وفازلييف ، ابن ايبك الدواداري : الدرة المضيئة 120 ــ 121 ، الاسحاقي : لطائف اخبار الاول 114 ط العثمانية 1304 هـ ، المقريزي : اغاثة الامة لكشف الغمة 12ــ13 ط حمص 1956 جمال الدين الشيال : الصلات الثقافية بين المغرب ومدينة الاسكندرية 145 ــ 154 . مجلة كلية الاداب ، جامعة الاسكندرية ، مجلد 15 سنة 1961 .

الله بنودا تحمل شعارات الخلافة الفاطمية ، كي يظهروها في الأماكن الهامة ، وفي الوقت المناسب ، ولتكون أيضا شارة على الولاء للدعوة الفاطمية (67) ، ولعل أوضح دليل على استعداد النفوس في مصر لتقبل التحول الجديد ، الذي كان يبشر به الدعاة الاسماعيلية ، وأشار اليه القائم بأمر الله من قبل في قصائده ومراسلاته مع سكان مصر والشرق العربي ، هو اتفاق أهـل الرأي ، والمشورة ، وكبار رجال الدولة ، والاشراف وزعماء الجند على اعلان الولاء للخلافة الفاطمية ، وطلب الأمان من قائد الحملة جوهر الكاتب على الأنفس والأموال والعقائد .

ومع أن المعز لدين الله كان يعلم ظروف مصر السيئة ، وانها غنيمة سهلة ، فانه بدأ استعداداته لتوجيه الحملة الكبرى ، منذ وقت مبكر ، وكان قد كلف جوهر أثناء تجواله في بلاد المغرب 347 هـ / 958 ـ 959 م بحشد الرجال الأكفاء (68) . كما أمر عماله في مدن قابس ، وطرابلس وبرقة بأن يتعاون كل منهم مع الآخر في اطار اقليمه من أجل حفر الينابيع والآبار ، وبناء استراحة في كل منزل (69) . ورصد أموالا كثيرة ، بلغ مجموعهـا حوالي أربعة وعشرين مليون دينار ، وضعها في صناديق خاصة ، وختم عليها بخاتمه ، وكلف بها ابن مهذب صاحب بيت المال ، وبلغ مجموع ما حشده من جند كتامة ، وعبيد زويلة ، وطبقة الفتيان نحو مائة ألف (70) ، هذا عدا النجدات التي تقاطرت على مصر بعد مسير الحملة ، وقادها كل من سعادة بن حيان من جهة والحسن بن عمار من جهة أخرى .

ولم يغفل شأن الجند ، فشحذ هممهم ، وحباهم بألطافه ، واحتفل بلقائهم أكثر من مرة ، قبل توجههم الى مصر ، أما قائد الحملة ، جوهر الصقلي ، فقد بالغ في اضفاء الاهمية على شخصه ، وعلى عظمة دوره في مصر ، كي يخلص الجند في طاعته ، ويترفق به زعماء كتامة ، وقادتها ، وكان أظهرهم شخصية هو جعفر بن فلاح الذي رافقه أبناؤه وبقية المشاركين في الحملة .

---

67 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا ،1، 102 .

68 ـ ابن ظافر : اخبار الدول المنقطعة ورقة 47 . مخطوط دار الكتب ، بيبرس الدوادار : المصدر السابق 6 ، ورقة 20 .

69 ـ المقريزي : اتعاظ 1، 96 . علي ابراهيم حسن تاريخ جوهر الصقلي 27 ، جمال سرور ، الدولة الفاطمية في مصر 66 .

70 ـ نفسه ،1، 97، لمعة (لمجهول) ورقة 3 . علي ابراهيم حسن : المرجع السابق 27 ، وعندما سئل الشريف أبو جعفر مسلم من طرف المؤرخ ابن زولاق عن عدد الجيش الذي رآه مع جوهر ، اجاب « هم مثل جمع عرفات كثرة وعدة . انظر المقريزي : اتعاظ 1، 107 ، س 23ـ24 ، الشرقاوي : المصدر السابق ورقة 59 .

ويبدو أن قول المعز لدين الله امام جند كتامة « والله لو خرج هذا وحده لفتح مصر ، وليدخلن بالارادة من غير حرب، ولينزلن فى خرابات ابن طولون، ويبني مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا(71)» يتجاوز المبالغة فى المدح، وتهدئة ثائرة قادة كتامة الذين طمحت انفسهم الى القيادة الى بيان ملامح الخطة السياسية التي سيسير عليها جوهر بعد الفتح ، وتضمنت أمرا ، لبناء دار الهجرة الجديدة أو عاصمة الخلافة الفاطمية التي اقترح اسمها الجديد ، وحدد مكانها نسبيا وهذا مما يبعد الروايات الأسطورية عن سبب التسمية والقول بأن المعز لدين الله كره موقع مدينة القاهرة عندما حضر الى مصر ، كما لم يقر التسمية التياختارها قائده مجاملة له باحياء ذكرى المنصور (72).

وفى القول دليل واضح على مدى معرفة المعز لدين الله لأوضاع الجبهة المصرية ، فضلا عن كونه كان يريد تهوين المشروع على رجاله ، وتطمين انفسهم من الاخطار الداخلية أو الخارجية .

وقد كان تصور المعز لدين الله صحيحا ، وفى محله ، اذ أن الحملة الكبرى ، لم تصادف اية صعوبة فى نفاذها من برقة الى مصر ، بسبب هدوء الوضع ، ونجاعة حامية برقة التي كان رجالها اعرف بالحرب وبالمسالك فى اطراف مصر وفى دواخلها من غيرهم .

وكانت الرحلة الى مصر اشبه بنزهة عسكرية طويلة الامد ، تخللتها الاقامة المتقطعة على طول الطريق .

وامام مدينة الاسكندرية التي تكرر سقوطها فى أيدي رجال الحملات السابقة دون مقاومة ارتاح السكان لظهور الحملة وفتحوا أبواب المدينة للجند ولم تبدر منهم أية بادرة مقاومة ، ولقد كان جوهر بعيد النظر عند ما سيطر على الوضع ، ومنع الجند الكتاميين الميالين الى السلب والنهب من مد أيديهم الى أرزاق الناس أو الاحتكاك بهم (73) .

---

71 — لمعة (لمجهول) ورقة 3 — 4 ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ورقة 73 — 74 ص 41—42 ط 1969 . ويلاحظ ان المعز لم يخرج بنفسه لفتح مصر خوفا من آثار هزيمته على وضعه فى بلاد المغرب « وخاف ان يغزو بنفسه ويخيب سعيه فيفوته المغرب ولا تحصل له مصر » .

72 — المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،111 — 113 ، الخطط 1،361 ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة 4،41—42 . لمعة (لمجهول) ورقة 4 . ابن ظهيرة : المصدر السابق ورقة 75 ، عبد الرحمن زكي : القاهرة تاريخها وآثارها 10 — 11 .

73 — يحيي بن سعيد الانطاكي : المصدر السابق 818 وما بعدها .

أما صدى وصول الحملة الى الاسكندرية بين سكان الفسطاط فقد عبر عنه تحرك الوزير ابن الفرات ، بسرعة لمواجهتها ، بالطرق السلمية وكان هذا أيضا رأي من استشارهم من زعماء المجتمع في مصر الذين كلفوه بالاتصال بقائد الحملة للحصول على الامان انعام ، فأناب عنه وفدا تزعمه الشريف أبو جعفر مسلم العلوي ، وانضم اليه بعض كبار الدعاة الاسماعيلية ومنهم أبو جعفر أحمد بن نصر .

وبعد أن تلقى الوفد التفويض من سائر طبقات المجتمع بحيث لم يتأخر عن تشييعهم قائد ، ولا كاتب ، ولا عالم ، ولا شاهد ، ولا تاجر (74) . عرضوا على القائد جوهر في قرية تروجة رغبات السكان وما يشترطونه نظير اعلان الولاء والطاعة للخليفة الفاطمي ، فاستجاب لجميع ما اقترح عليه وكتب نص الامان العام (75) ، باسم أمير المؤمنين المعز لدين الله ، واشهد على نفسه جميع الحاضرين ، وفي الامان تأكيد لما طلبه السكان ، مع توضيح بعض أهداف الحملة الفاطمية ، ومنها الدفاع عن دار الاسلام التي نال منها الروم والمغامرون بسبب استخذاء العباسيين وضعفهم .

وعندما عرف زعماء الكافورية ، والاخشيدية ما تضمنه عهد الامـــان ، ولم يكن فيه ما يرضي جشعهم الى الاموال والى الاقطاعات (76) ، عارضوه ، وردوا على الشريف ، ردا جافا ، خفف من وطأته ابن الفرات الذي ذكرهم بأنهم هم سبب التفاوض لطلب الامان ، وتلطف مع الشريف ، وناجاه ، بينما مال المعارضون الى الصخب والضجيج وتمسكوا بشعار واحد ، هو « ما بيننا وبين جوهر الا السيف » (77) . وانصرفوا عن الوزير ، وعن أبي الفوارس احمد بن علي ، وبدؤوا بزعامة نحرير شويزان يهيئون لمقاومة حملة جوهر (78) ، الذي تصرف بحكمة عندما عرف هذه التطورات ،

---

74 — المقريزي : اتعاظ الحنفا ، 1، 102، 103 .

75 — نفسه ، 1، 103 — 107 ، بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة 6 ، ورقة 201 — 202 ابن مسكوية : تجارب الامم 6، 257 . ابن حماد : اخبار ملوك بني عبيد 41—44 . النويري : نهاية الارب 26 ورقة 38 وما بعدها .

76 — بيبرس الدوادار : المصدر السابق 6 ، ورقة 200 — 201 ويلاحظ هنا ان نحريــر اشترط الا يجتمع بجوهر ، وتكون الاشمونين اقطاعا خاصا به ، ويقلد مكة والمدينة واعمالها ويقيم هناك .

77 — المقريزي : اتعاظ الحنفا 1، 108 س 23 ، وانظر بيبرس الدوادار : المصدر السابق 6، 200 — 201 عن بعض اعداء المذهب الاسماعيلي الذي حث الناس على الفتك بابن الفرات ، وشنع على جوهر الصقلي وخاطب الناس بقوله « ايها الناس قد اظلكم من اخرب فاسا ، وسبى اهلها ، فاتقوا هذا الرجل المغرور « ابن الفرات ؟ فانه قد شرع في اتلاف بلدكم وسفك دمائكم بمراسلة هذا الرجل » .

78 — نفسه 1، 109 أ س 1—3 .

فطلب ارجاع نسخة الامان والتمس من القاضي أبى الطاهر الذهلي ، رأيه فى مشروعية قتالهم فأفتاه بحلية قتال من يمنع المسلمين من الدفاع عن حدود أرضهم ضد الروم ، وعندئذ اقتنع جوهر بتأييد وجوه المجتمع لمبدأ الولاء للخلافة الفاطمية . وبدأ يعد لتأديب هؤلاء القوم الذين أضلهم الغرور واعماهم التعصب ورفعوا راية الثورة وضللوا جانبا من السكان ، وذلك من مركزه الحصين فى منية شلقان ـ شرقي القناطر الخيرية ـ التي أراد منها العبور الى الفسطاط ، وفيها تحفظ على كل المراكب التي وصلت من دمياط والوجه البحري ، وجزيرة تنيس ووجهتها الفسطاط ، وكلف مساعده فى قيادة الحملة ، جعفر ابن فلاح بالعبور الى الجانب الآخر من النيل ، بقوله : « لهذا اليوم أرادك المعز لدين الله » (79) وذلك للقاء القوة المعادية وبعد ان تمكن جعفر مع جمع من رجال كتامة المغامرين من عبور النيل سباحة وهم عراة ليس عليهم الا « سراويل » (80) بدد شمل قوات الثورة وقتل بعض زعمائها ومنهم نحرير الارغلي ومشير الاخشيدي ، ويمن الطويل ، وانسحب بعضهم دون قتال تاركين جماعة من « المصريين » يلقون مصيرهم واخلى الجميع قواعد تمركزهم فى الجزيرة لأنهم عرفوا أن الامر فى غير صالحهم ، وتفرقوا فى الانحاء ومنهم من التجأ الى الشام .

وهكذا عاد السكان الى الشريف أبي جعفر مسلم الذي توسط عند جوهر الذي أكد سياسة الامان ، بشرط التحفظ على أموال وممتلكات زعماء الثورة الفارين حتى يعلنوا الولاء للخلافة الفاطمية ، ويرضوا بما رضي به عامة السكان (81) . وتلا ذلك دخوله المدينة يوم السبت 17 شعبان 358 هـ على رأس قواته ، وفق ترتيب خاص ، حيث تمركز فى موضع المناخ ووضع هنا أساس العاصمة الجديدة وقصر مولاه المعز لدين الله ، مباشرة . واثر ذلك تقبل تهاني السكان ، لكنه رفض الهدايا والضيافة الا من طرف الشريف ابى جعفر مسلم (82) الذي اتخذت داره مركزا لتجميع الفقراء المعوزين بواسطة النداء حيث فرقت عليهم أموال كثيرة فى الجامع العتيق ، احتفاء بمناسبة الفتح (83) الذي أرسلت البشائر به الى المعز لدين الله فى المنصورية (84) .

---

79 ـ ابو المحاسن : المصدر السابق 4،31 .
80 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،109 س 5ـ6 .
81 ـ نفسه 1،110 . ويلاحظ ان البنود التي تحمل اسم المعز كانت قد فرقت على انصار الدعوة لذلك « نشر كل من عنده بند بنده فى درب حارته » انظر س 2 ـ 3 ، ابو المحاسن : المصدر السابق 4،8 وما بعدها ، عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين 103 ـ 104 ، عطية مشرفة : نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين ، 60 ، عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبي 66 وما بعدها .
82 ـ نفسه 1،111 .
83 ـ نفسه 1،114 .
84 ـ القضاعي : المصدر السابق ورقة 179 .

اما الاجراءات التي عبرت عن وضع مصر الجديد كولاية فاطمية فاهمها :

ـ ازالة شعار العباسيين وقطع الخطبة للمطيع العباسي والدعوة للمعز لدين الله ، ولآبائه ابتداء من عشرين شعبان 358 هـ في المسجد العتيق وكان ذلك بحضور جوهر الصقلي كما دعى له في جامع ابن طولون وسائر منابر مصر (85) .

ـ استهلت دار الضرب نشاطها بعد فتحها بأمر من القائد جوهر بسك دنانير جيدة العيار سجل عليها تاريخ الفتح واسم المعز لدين الله، والدعاء له، وشعار العلويين وهو : « علي افضل الوصيين ، ووزير خير المرسلين » (86).

ـ وقد انتدب جوهر ، عمالا للخراج ، والضياع ، والحسبة ، والشرطة، اما المظالم فتولاها بنفسه فترة حيث كان يجلس لسماع الشكوى كل يوم سبت ، ثم تركها الى أبي عيسى مرشد تحت نظره ، كما استعان بجهود ابن الفرات الذي أقره على خطته السابقة .

وقد ارسى تقاليد الشيعة في الدعاء لأصحاب الكساء ، قبل الدعاء للخليفة الفاطمي، وفي عدم التكبير بعد صلاة الجمعة، وفي الاذان والاقامة، والافطار بعد اكمال العدد في رمضان حسب الفقه الجعفري ، وقد اشارت بعض النصوص الى انكار جوهر على أهل مصر ، استمرارهم في الصوم اعتمادا على عدم رؤية هلال شوال ، في الوقت الذي أفطر فيه هو ، وأقام صلاة عيد الفطر ويعتبر ذلك بداية لنقض عهد الامان الذي أقر بنوده بنفسه (87). وقد قابله السكان بردود فعل مختلفة ، أساءت الى الامن الداخلي في الوقت الذي كان فيه بقايا الكافورية والاخشيدية والقرامطة ، يتآمرون ، ويعدون لتحركات كبرى ضد مصر ، في ظل أوضاعها المضطربة وازمتها الاقتصادية التي ازدادت حدة بعد الفتح حتى ارتفع سعر القمح وبلغت قيمة ستة أقداح منه دينارا واشتد الغلاء وشاع الاحتكار والغش بعد وفاة المحتسب أبي جعفر

---

85 ـ القريزي : اتعاظ الحنفا 1،114 ـ 115 ، 119 س 4 . ويلاحظ ان الخطيب كان يلبس البياض ، ابو الفداء : المصدر السابق 2،115 . ويشير الى ان اقامة الدعاء والخطبة كان في شهر شوال وكان الخطيب هو ابو محمد عبد الله بن الحسين الشيساطي ، سبط ابن الجوزي : المصدر السابق ج 11 ورقة 5 ، السيوطي : حسن المحاضرة 2 ، 13 ، ابن ايبك الدواداري : الدرة المضية 6 ، 125 .

86 ـ نفسه ،1،115 ـ 116 . وانظر شذور العقود في ذكر النقود 34 ـ 35 ، النويري : نهاية الارب ج 26 ورقة 41 .

87 ـ نفسه 1،116 ـ 117 ، 119 ، ابو الفداء : المصدر السابق 2 ، 115 ، القضاعي : المصدر السابق ورقة 179 ، الذهبي : المصدر السابق 3 ورقة 189 ـ 190 ويلاحظ هنا ان « العبيديين » سبقوا «القرامطة» باخذ مصر واقاموا فيها « دولة الرفض» .

الخراساني ، الذي اصبح من اكبر واجبات خلفه سليمان بن عزة ، مراقبة تجارة القمح ، والطحانين وسماسرة الغلات وسائر فئات التجار الذين اشتدت شراهتهم للكسب غير المشروع والغش على حساب الفئات الفقيرة والوسطى (88) ، وكانت وطأته شديدة على الصيارفة بنوع خاص (89) .

واذا كان جوهر قد وجه ضربة قاصمة لبقايا الكافورية والاخشيدية حيث تحفظ على الخطرين منهم في مصر والشام ، وأرسلهم الى بلاد المغرب (90) ، فانه واجه حركة ثورية في صعيد مصر تزعمها عبد العزيز بن ابراهيم الكلابي ، وكانت غايتها ارجاع النفوذ العباسي الى البلاد (91) .

وقد انزعجت طبقة الاشراف العلويين لتصرفات جوهر ازاء عبد الله بن طاهر الحسيني ، عندما دخل عليه بطيلسان كحلي ، فقد أنكر جوهر ذلك عليه ، وشق الطيلسان بنفسه ، أمام وجوه المجتمع ، ولما انكر الشريف ذلك ، امر جوهر بتمزيقه وهو يضحك حتى بقي الشريف حاسرا بغير رداء (92) .

واستاء التجار والاغنياء من التدخل في العملة حيث منع التعامل بالدينار الابيض ، وحط من قيمة الدينار الراضي ، بينما ارتفع صرف الدينار المعزي وبسبب ذلك اختفى الدينار الابيض وانتشر المعزي وافتقر كثير من السكان (93) .

وكان الفقراء والمحرومون يعبرون أيضا عن نقمتهم على العهد الجديد مدفوعين الى ذلك بعاطفة دينية ثم كان يحركهم غيرهم من المعارضين وكانوا يتخيرون مناسبات للتنفيس عما في نفوسهم ولاظهار ميولهم السنية ، وتشير بعض النصوص الى القاء القبض على عجوز عمياء ، وجدت تنشد

---

88 ــ المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،118،120ــ122 بحيث « لا يخرج قدح غلة حتى يقف عليه » .

89 ــ نفسه 1،132 وعندما عزل بعض الصيارفة شغبوا عليه ورددوا شعارا معاديا للشيعة وهو « معاوية خال علي » فهم جوهر باحراق رحبتهم لولا خوفه على الجامع . انظر آدم ميتز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري 1،109 .

90 ــ نفسه 1،117 ــ 118 .

91 ــ نفسه 1،131 .

92 ــ نفسه 1،132 .

93 ــ نفسه 1،122،146،131، انظر شذور العقود في ذكر النقود 36 ، ابن ميسر ، اخبار مصر 2،46 ، عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين 1،128 ، عطية مشرفة : المرجع السابق 208ــ209 ، عبد الرحمن فهمي : موسوعة النقود العربية وعلم النميات 197 ــ 199 ، 200،202 .

فى الطريق ، أهازيج فى غير مصلحة العهد الجديد ، فاغتنم بعض السكان الفرصة ونادوا بأسماء الصحابة (94) ورددوا شعارا قديما يؤذي مشاعر الشيعة ، ونصه : « معاوية خال المؤمنين ، وخال علي » . وكان أهل السنة فى العهد الاخشيدي ، خاصة عناصر الكافورية من السودان يؤذون الشيعة ويرغمونهم على ترديد هذا القول ، ومن امتنع منهم ، سلب ما معه من أموال (95) .

ويبدو أن الشغب انتشر ولم ينته حتى تدخل جوهر بنفسه وهدد السكان وأمر مناديه فى الجامع العتيق بأن يوضح لهم ، بأن سجن العجوز انما كان للمحافظة على حياتها « فلا ينطقن أحد الا حلت عليه العقوبة الموجعة » (96) .

ويرجح أن اضطراب الاوضاع فى مصر وبلاد الشام ، بسبب معارضة أهل السنة وضغط القرامطة ، كان من بين الاسباب التي عجلت بانتقال المعز لدين الله الى عاصمته الجديدة فى مصر استجابة لرغبة مولاه ونائبه جوهر الصقلي (97) .

ومشروع الهجرة الجماعية الى مصر كان محل تفكير وعناية المعز لدين الله ورجاله المقربين منذ وقت مبكر (98) ، وان لم يكن محل رضا كل أفراد الاسرة الفاطمية اذ تشير بعض النصوص ، الى ظهور اتجاه لمعارضة فكرة انتقال الخلافة الى مصر وتزعمه ، أحمد بن المهدي ، الذي نقل عنه ما يفيد انه كان «يكثر القبيح ويتقول على المقام ويتأخر عن الحركة مع أمير المؤمنين» وعندما شاع هذا الاتجاه وعلم به الاستاذ جوذر عن طريق المكلف بشؤون المهدية نصير الصقلبي ، اطلع المعز لدين الله ، الذي أجابه بتوقيع ، تضمن انكاره على أحمد بن المهدي تصرفاته التي هي فى الواقع امتداد لماضيه فى الطعن على بيت الامامة ، ووصفه بالشقي ، الضال ، وعند هذا الحد اكتفى ، ولم يأمر بشيء ضده وختم توقيعه بالدعاء عليه بقوله : « فالذي بيده ملكوت كل شيء ، ارغب اليه فى هلاك كل ضال غوي من قريب وبعيد ومسر ومعلن » (99) . ولم يثن عزم المعز لدين الله ، ما يشاع عنه ، اذ استمر

---

94 ـ نفسه 1، 130 .

95 ـ المقريزي : اتعاظ 1 ، 146 « حتى كان كافور يوكل بابواب الصحراء ويمنع الناس من الخروج « اي فى موسم عاشوراء » انظر ص 132 منه ، س 4ـ7 .

96 ـ نفسه 1، 131 .

97 ـ ابن خلدون : العبر 4، 100 .

98 ـ العزيزي : المصدر السابق 109 س 1ـ2 ، ص 22 .

99 ـ نفسه 105 ـ 106 .

فى اعداد العدة للانتقال الى الشرق ، وعندما اطمأن على وضع بلاد المغرب وصقلية اصطحب معه أهله وحاشيته وخزائن الاموال ورفات آبائه وما استطاع حمله وتجميعه من ذخائر وأموال بلاد المغرب وعناصره القوية من كتامة وعبيد زويله ، وخرج من قاعدة المنصورية يوم الاثنين 22 شوال 361 هـ / 5 يولية 971 م ، قاصدا مصر عن طريق برقة (100) ، التي فقد فيها أعظم نصيرين له ، احدهما مولاه جوذر الصقلبي (101) والآخر متنبيء الغرب ، شاعر بلاطه محمد بن هانيء الذي تحسر عليه ، وقال : « كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك » (102) .

وفى الاسكندرية التي وصلها أواخر شعبان 362 هـ / مايو 973 م أوضح للذين خفوا لاستقباله « بأنه لم يسر للازدياد فى ملك ، ولا رجال ، ولا سار الا رغبة فى الجهاد ونصرة للمسلمين (103) » أما دخوله مدينة القاهرة فكان يوم الثلاثاء لسبع خلون من شهر رمضان 362 هـ يونية 973 م ، وبعد أن استقبل طبقات المجتمع حسب مراتبهم يتقدمهم الأشراف ثم الأولياء ، وسائر وجوه المجتمع بدأ يهيء للاشراف بنفسه على سير المعركة السياسية والمذهبية من مركز قريب (104) ، بوصفه خليفة علويا ، ورأس « دولة المصريين » (105) .

وترتب على انتقال المعز لدين الله تطورات خطيرة اهمها ، انقلاب وضع مصر الدستوري حيث أصبحت ولأول مرة دار خلافة ومركز امامة اسماعيلية لأنها كانت من قبل مجرد ولاية عباسية ، أو مقرا للدويلات طرفدارية كانت تدين بالولاء والتبعية للخلافة العباسية فى بغداد (106) ،

---

100 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1،325 ، ابو الفداء : المصدر السابق 2 ، 117 ـ 118 ، المقريزي : اتعاظ 1 ، 134 ، النويري ج 26 ورقة 42 ـ 43 .

101 ـ العزيزي : المصدر السابق 147 ، وقد دفن بمسجد القصر فى (مياسر) وهو موضع بجوار مدينة برقة .

102 ـ ابن خلدون : العبر 4 ، 103 . ح . ح عبد الوهاب : مجمل تاريخ الادب 90 . ابن الأثير : الكامل 8،223 . أبو الفداء : المختصر 2،118 ، العيني : المصدر السابق ج 19 (ق 2) ورقات 270 ـ 272 ، ابن خلكان : الوفيات 4،49 .

103 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،133 .

104 ـ نفسه 1 ، 136 .

105 ـ سبط ابن الجوزي : المصدر السابق ج 11 ورقة 5 س 16 ـ 17 ويلاحظ ان الدعوة للعباسيين انقطعت ، وصارت للمصريين . ولم تزل كذلك حتى 567 هـ . انظر ورقة 15 حيث يوصف جعفر ابن فلاح بكونه اول قواد المصريين فى دمشق ، ابو شامه الروضتين فى اخبار الدولتين 1،220 ط 1 ، 1288 هـ . عبد المنعم ماجد : موقف المصريين من حكم المماليك 1 ، حولية آداب عين شمس ، عدد 12 سنة 1969 م .

106 ـ المقريزي : اتعاظ 1،134 ، وقارن بما ورد فى : شذور العقود فى ذكر النقود 34 ، « فصارت مصر دار خلافة بعد ان كانت دار امارة » .

وقد اصبح لطبقة الأشراف حسنيين وحسينيين وجعفريين ، مكانة مرموقة في الدولة وحظوة عند المعز لدين الله الذي سأل عنهم ، ابا جعفر مسلما بمجرد اتصاله به ، وكان هذا الشريف الذي لعب دورا في انجاح عملية الفتح بالأمان منزلة كبرى فقد اعفي من الترجل لجوهر غداة دخوله مصر (107) ، واحتفى به المعز لدين الله وأمره بركوب قبة ، لأن الحر كان شديدا (108) ، وقد قبل المعز لدين الله هديته (109) ، كما أصبح من كبار الملازمين له وتغاضى عن اشتراك اخيه عبد الله في حركة القرامطة (110) مكتفيا بعتاب الشريف أبي مسلم الذي تبرأ من تصرفات أخيه .

وعندما اساء بعض رجال كتامة التصرف تجاه بعض الأشراف ، وهددوا بقتل كل من يزعم أنه شريف وسمع المعز لدين الله ذلك أنكره وتوعد المتطرفين بالعقاب الشديد ان عادوا الى مثل هذا التصرف واعتذر للاشراف وطيب خواطرهم بقوله « لقد أخطأ من تكلم بما قيل لنا ، لكم بحمد الله الشرف العالي والرحم القريبة » (111) .

واقتضى الوضع الجديد ، تكريس كل الجهود من أجل النجاح في المعركة ضد القرامطة وضد توسع الروم في الجبهة الشرقية ، ثم الانطلاق الى الهدف الأسمى في السياسة الحربية الخارجية للفاطميين وهو الذي أوضحه المعز لدين الله لسفير الروم الذي وفد عليه في القاهرة ، وكان يتردد عليه من قبل في المنصورية ، في قوله يخاطبه « لتدخلن على بغداد وأنا خليفة » (112) . وأما جوهر الصقلي وغيره من قادة الحملة فقد انحسر نفوذهم بعد انتقال المعز لدين الله الى القاهرة ، الذي اصبح يشرف بنفسه ويباشر تسيير الامور عن طريق وجوه جديدة (113) ، ولم يبق لجوهر ومساعديه في القيادة غير الميدان العسكري .

---

107 ـ نفسه 1، 11 .
108 ـ نفسه 1 ، 133 .
109 ـ نفسه 1 ، 137 .
110 ـ نفسه 1، 147 ، 150 .
111 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 1، 147، 217 عن محاورة جرت بين المعز لدين الله والشريف ابي مسلم بان اثناءها مدى تقدير الاول للثاني .
112 ـ نفسه 1، 226 ، ابن الاثير : الكامل 8، 239 ـ 240 .
113 ـ ويلاحظ ان ابن الفرات لم يبارح مصر الى بغداد رغم انه لم يواصل القيام بمسؤوليات خطة الوزارة وبقي مراقبا وقد صارحه المعز لدين الله بقوله « اذا لم تل لنا شغلا ، فيجب الا تخرج عن بلادنا ، فانا لا نستغني ان يكون في دولتنا مثلك » : انظر عنه اتعاظ الحنفا 1، 102 هامش 2، 129ـ130 ، العيني : المصدر السابق ج 19 (ق 3) ورقة 507ـ508 ياقوت الحموي : معجم الادباء 7، 163 وما بعدها ، ابن خلكان : وفيات الاعيان 1، 305 على ابراهيم حسن : تاريخ جوهر 68ـ69 .

وجوهر القائد الذي أشرف على فتح مصر وبناء مدينة القاهرة ومسجدها ، هو أبو الحسين جوهر بن عبد الله ، من مسلمي جزيرة صقلية ، لذلك عرف بالصقلي ، كما وصف بالرومي (114) ، لأن جزءا من الجزيرة كان بأيدي الروم ، وبالصقلبي (115) أيضا ، كان من بين موالي الخليفة المنصور المقربين اليه واحد الأفراد القلائل الذين عرفوا ظروف النص عليه بعد وفاة القائم ، وكان المنصور هو الذي أفضى اليه بالخبر ، كما أوضح ذلك في حديثه مع جوذر مستودع المنصور اسماعيل (116) .

لم يظهر لجوهر دور هام ولم يلقب فيما يبدو ، قبل عصر المعز لدين الله الذي عينه كاتبا في بدء خلافته ومن ثم عرف بلقب الكاتب (117) . وبالقائد أو قائد أبي تميم ، وعبد المعز ومولى أمير المؤمنين مثل جوذر الصقلي الذي ظفر بهذا اللقب بعد موقعة كتابة ، وعلت قيمته قبيل ارساله على رأس حملة ضد الثوار في أرجاء بلاد المغرب حتى قيل أنه رقي الى رتبة الوزارة (118) تشريفا له ، لكنه لم يلقب بلقب الوزير ولا بالأشراف على الدواوين وانما كان بمثابة الواسطة بين الخليفة المعز لدين الله وكبار رجال الدولة حتى أن القاضي النعمان لما استطلع رأي المعز عما يقرأه يوم الجمعة من علوم اهل البيت على جماعة المؤمنين رد عليه بقوله : « أخرجنا لك ما تقرأه اليوم واجتمع بجوهر يكتبه لك » (119) .

وقد عاده المعز لدين الله أثناء مرضه الخطير مبالغة في العناية به كما أسند اليه قيادة أضخم حملة لفتح مصر وفوض اليه التصرف في شؤونها بعد الفتح والاشراف على حركة التوسع منها ، في بلاد الشام .

وقد أمر المعز لدين الله ، جميع رجال الدولة بما فيهم أولاده واخوته وحجته عبد الله ، بأن يترجلوا له ، وكان ذلك حدثا لم تجربه الرسوم (120) . وقد التزم بذلك سائر الولاة ، والحكام ، وقد أمر حجاب جوهر جميع

---

114 ـ ابو الفداء : المصدر السابق 115،2 . المقريزي : الخطط 1 ، 337 لمة (المجهول) ورقة 3 ، ابن حماد : اخبار ملوك بني عبيد 40 .

115 ـ عبد الله الشرقاوي : تحفة الناظرين ورقة 58 وعن صقلاب من بين قلاع جزيرة صقلية. انظر ياقوت ، معجم البلدان 372،5 .

116 ـ العزيزي الجوذري : سيرة جوذر 40 س 23ـ24 ، وكان جوذر قد احتفظ بسر النص مدة سبع سنوات .

117 ـ عبد الله الشرقاوي : تحفة الناظرين ورقة 58 .

118 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 93،1 ، ابن خلدون : العبر 96،4ـ97 ، ابن الأثير : الكامل 189،8 .

119 ـ النعمان : المجالس والمسايرات 2 ، ورقة 634 ـ 635 .

120 ـ المقريزي : خطط 379،1 .

الوفود لاستقباله في الجيزة بالترجل له باستثناء الوزير ابن الفرات ، والشريف أبي مسلم (121) . كذلك ترجل له سعادة بن حيان عندما قدم على رأس نجدة من بلاد المغرب (122) .

وعرف قبل انتقال المعز لدين الله بلقب النائب وخليفة المعز (123) . وكان الى جانب الخليفة المعز على المنبر أثناء خطبة أول عيد فطر يقام بعد انتقاله الى مصر (124) .

وعندما منع المعز لدين الله من النداء عن زيادة منسوب النيل حتى يصل الى مستواه العادي وهو ستة عشر ذراعا أمر بأن لا يكتب بذلك الا اليه أو الى القائد جوهر (125) .

ويبدو ان بروز أهمية عسلوج بن الحسن الصنهاجي ، ويعقوب بن كلس ، في سياسة الدواوين والأشراف على الأموال كان يعني الحد من صلاحيات جوهر القائد الذي احتفظ بنفوذه خاصة في الميدان العسكري (126) . وكانت هزيمته أمام القرامطة في بلاد الشام ، أثناء حركة افتكين بمثابة شارة على تراجع أمره ، وضعف سلطانه وقد اعتمد العزيز بالله على ابن كلس في تدبير شؤون الدولة وأبعد جوهر عنه (127) لكنه كان يستشيره باطنا (128) .

ولعل أوضح دليل على انصراف العزيز عنه وضآلة شأنه انه أمر كثيره من القادة بالترجل لمنجوتكين الذي قربه العزيز بالله . وقد شعر

---

121 ـ نفسه : اتعاظ الحنفا 110،1 ـ 111 .

122 ـ نفسه 128،1 والذي يلاحظ هنا ان المقريزي لم يشر الى ترجل الحسن بن عمار ، عندما قدم من المغرب ، ربما لانه لم يلقه في ظاهر المدينة مثلما لقي سعادة بن حيان انظر 130 منه .

123 ـ نفسه 144،1 ، ابن الجوزي : المصدر السابق ج 11 ورقة 166 .

124 ـ نفسه 138،1 .

125 ـ المقريزي : اتعاظ هامش 2 ، والذي يلاحظ ان هذا الاحتياز لم يمنح لحجة المعز وولي عهد المسلمين عبد الله الذي كان حيا في هذا الوقت ، اذ توفي في جمادي الاولى 364 هـ ، انظر اتعاظ 135،1 ـ 136 ، 137 ، 217 ، عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين 2، 104،105 ، وعن وفاء النيل وزيادته عن ستة عشر ذراعا ، ونقصانه عنها ، وما تعرف به كل نسبة انظر : عبد اللطيف البغدادي : الافادة والاعتبار 44 ـ 45 .

126 ـ ابن خلكان : وفيات الأعيان 118،1 ، المقريزي : اتعاظ الحنفاء 216،1 ، 219 .

127 ـ المقريزي : المصدر السابق 242،1 .

128 ـ نفسه 261،1 ، وكان ابن كلس من الناقمين على جوهر كما أن قادة كتامة لم ينسوا له موقفه من جعفر بن فلاح ، النويري : نهاية الأرب 26 ورقة 49 .

جوهر بما لحقه من مهانة وذل فكان يدعو على نفسه بالموت «. وها أنا اليوم أمشي راجلا بين يدي منجوتكين ، اغزونا واغزوا بنا غيرنا ، وبعد هذا فأقول اللهم قرب أجلي ومدتي ، فقد انفت على الثمانين أو أنا فيها وقد استجاب الله دعاءه ، فتوفي سنة 381 هـ / 991 — 992 م (129) .

أما أكبر مساعديه في قيادة الحملة ، فكان جعفر بن فلاح الكتامي ، ويلاحظ أن الغموض يكتنف حياة هذا القائد ودوره في الدور المغربي للخلافة الفاطمية . فنسبته كما وردت في المصادر القليلة التي أشارت اليه كانت ذات صبغة عامة ومن ثم يوصف فيها بالكتامي ، مساعد جوهر .

ولم نظفر رغم استشارة كثير من المصادر ، على نسبته الخاصة بين فروع كتامة المعروفة . وقد لاحظنا ان كثيرا من قادة كتامة ورجالاتها في الدور المغربي ينسبون الى عشائرهم الخاصة والأمثلة على ذلك ، ابو مدين بن فروخ اللهيصي ، وأبو زاكي الاجاني ، وعروبة الملوسي ، وأبو القاسم السكتاني ، والقلة منهم هم الذين جاءت نسبتهم ذات صبغة عامة مثل جعفر بن فلاح ، وعبد الله بن يخلف ، وتشيع هذه الظاهرة خاصة في الدور المشرقي للخلافة الفاطمية . ويزداد الأمر غموضا عندما يكتفي بمجرد ذكر النسبة المغربية ويستثني من ذلك حالات قليلة يأتي فيها ذكر النسبة الخاصة لأحد فروع كتامة ، ومن الأمثلة على ذلك عسلوج بن الحسن الدنهاجي ، وابن لبون الدنهاجي وجبر بن القاسم المسالتي (130) ، وغيرهم ممن ازدهر في عصر الحاكم سواء كانوا من عنصر دنهاجة في مصر أو من أسرة ابن ثعبان من فروع جيملة (131) ، الذين أدركوا مجدا في بداية عصر الظاهر لاعزاز دين الله في بلاد الشام .

وبالنسبة لجعفر بن فلاح ، نلاحظ أن المصادر القليلة التي أشارت اليه ، لم تفدنا بشيء ، ينير السبيل حول نشأته وحياته عندما ظهرت الحركة الاسماعيلية في منطقة كتامة ، وافريقية ، ولا عن نشاطه في خدمة الدولة الفاطمية قبل اشتراكه في الحملة الكبرى ضد مصر الاخشيدية ، فلم نصادف اشارة اليه ضمن قادة كتامة في بلاد المغرب الذين اشتركوا

---

129 — نفسه ، خطط 379،1 ، وقارن ذلك بما ورد في اتعاظ الحنفا 107،1 س 24 عن قول الشريف مسلم أن عمر جوهر عند الفتح كان نيفا وخمسين سنة . وقد ادرك ابنه الحسين ، الذي لقب بالقائد بن القائد مجدا كبيرا بفضل مواهبه وماضي ابيه واستمر حتى قتل في عهد الحاكم بامر الله .

130 — المقريزي : اتعاظ 216،1 وقد ورد بصيغة المسالي .

131 — ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب 222،1 . ط دمشق 1951 .

الى جانب جوهر أثناء حركته الكبرى سنة 347 هـ / 958 ــ 959 م ، هذا بينما نلاحظ اشارة عن اشتراك زيري بن مناد فى الحملة ومسؤوليته القيادية ودوره فى اقتحام مدينة فاس .

فهل ان جعفر بن فلاح لم يقم فعلا بأي دور ايجابي لفائدة الدولة قبل اشتراكه فى الحملة ضد مصر ، التي لم يفصلها عن حملة بلاد المغرب غير فارق زمني يسير ، مداه احدى عشرة سنة ، ربما كان خلالها جعفر صغير السن نسبيا ، يشق طريقه الى الظهور فى الميدان السياسي تدريجيا ، وهذا احتمال قريب ، أو أن المصادر التاريخية انساقت وراء الروايات الخاصة التي تُبرز قيمة جوهر واهميته عند المعز لدين الله الذي حرص على خضوع الجميع اليه وأظهاره دون غيره فى ميدان القيادة فى بلاد المغرب حيث ينافسه الكثيرون من أولياء الدولة وعصبيتها ، من رجالات كتامة خاصة ، الذين كانوا بارزين مثله ، وكرهوا ان يظهر عليهم فجأة مع انه لم يصل الى مستواهم فى القدم ، والتاريخية وقوة العصبية . ولعل ذلك هو سر اهمال الحديث عنه وعن غيره فى ميدان المغرب .

اما فى مصر فيبدو أن وجود مجموعات قبلية أخرى غير كتامية ، ساعد على ظهوره كقائد لبني قومه الذين كان دورهم البطولي الى جانبه فى بداية ظهور حركة المقاومة عند منية شلقان ، دورا مشرفا .

ويبدو أن جعفرا بن فلاح كان من بين قادة الدولة ورجالها فى بلاد المغرب ، لكنه لم يلق العناية التي يستحقها لاعتبارات خاصة ، لأنه من غير المقبول بسهولة أن يظهر فجأة فى قمة الميدان السياسي والعسكري مساعدا مباشرا لجوهر فى قيادة اضخم حملة ضد مصر وأساسا ترتكز عليه جهود الفاطميين فى مصر ثم فى بلاد الشام اذا لم يكن المعز لدين الله قد عرفه من قبل معرفة جيدة وخبره فى ميدان القيادة فتبينت له قدراته ومهارته فى الحرب ، وإخلاصه للنظام والتزامه بسياسة التوسع لايجاد مناطق للنفوذ الفاطمي فى بلاد المغرب والمشرق .

وعلى اقرب الاحتمالات فان جعفر ابن فلاح كانت اهميته فى بلاد المغرب لا تقل عما أداه من خدمات للدولة فى ميدان المشرق وهو من بين الرعيل الأول ، للجيل الذي أشرف المعز لدين الله على تربيته وتكوينه من أبناء كتامة وشبابهم ، ويؤيد ذلك مجموعة اعتبارات فى مقدمتها :

ــ ان مركز جعفر فى قيادة الحملة ضد مصر ، كان يلي مباشرة (132) مركز القائد الأعلى ، وهو جوهر لذلك وقع الاختيار عليه ليقوم دون غيره

132 ــ ابن منجب الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة 82ـ83 ويشير الى ان مقدار ما أعطى لابن هانيء من طرف ابن فلاح كان مائتي دينار وهو نفس ما اعطاه اياه جوهر .

بأكبر دور ضد الكافورية والأخشيدية ، الذين تجمعوا لمقاومة عبور الحملة الى الجانب الآخر من النيل ، وهذا يشير الى أنه كان بمثابة رئيس أركان الحملة حسب المفهوم العسكري الحديث .

ـ وقد اعترف القائد جوهر بأهمية اشتراكه في الحملة ودوره الايجابي ، ولمح الى دواعي اختيار الخليفة المعز لدين الله له دون غيره اذ خاطبه بقوله « لهذا اليوم أرادك المعز لدين الله » (133) .

ـ وقد انتدب جعفر ، لكي يتتبع فلول الكافورية والأخشيدية ويضم بلاد الشام الى النفوذ الفاطمي ، وهذا يعني أن جوهرا كان يعترف بقيمته الخاصة وأهميته لكي يضم قطرا متسعا ويقف فيه حارسا له ولمصر ، من بقايا عناصر السلطة القديمة ومن أطماع القرامطة وتطلعات العباسيين ، واغارات الروم البيزنطيين (134) .

ـ ويلاحظ ان المنافسة بين القائدين كانت قوية ومثلت أحد العوامل لترشيح جعفر لمهمة في بلاد الشام ، ابعادا له من مصر (135) .

ومع ما كان يوجد من تنافس فان جوهر حرص على ارضاء مساعده ومشاركته عاطفيا ، فقد حضر جنازة أحد ابنائه في مصر اعتبارا لشخصه كما حضرها كبار القادة من الكافورية والأخشيدية (136) . ويلاحظ أن هذا الابن الذي توفي في مصر كان أحد ابناء جعفر الأربعة الذين صحبوه أو الحقوا به فيما بعد وهذا في حد ذاته يبرهن على ان هذا القائد الكتامي كان كبير السن نسبيا ، عندما اشترك في الحملة ، وقد ظهر دور أحد ابنائه في ميدان القيادة مباشرة ، وهو أبو محمود ابراهيم .

ـ ولو لم يكن جعفر في مستوى القيادة وعلى درجة لا تقل عن قيمة جوهر ما تطلعت نفسه الى الرئاسة العليا والى الاستقلال ببلاد الشام عن التبعية لجوهر في مصر ، فقد حرص على الاتصال مباشرة بالخليفةالمعز لدين الله في المنصورية دون وساطة جوهر .

واذا كان الخليفة المعز قد سار في خط معين لم يتزحزح عنه ومن ثم كره تصرفات جعفر ، ووقوعه في جوهر ، وسارع الى رد رسائله ، ولامــه وحثه على الكتابة اليه عن طريق القائد الأعلى ، فانه أوضح له أن حسن

---

133 ـ ابو المحاسن : المصدر السابق 4،31 .

134 ـ نفسه 4 ، 27 ، النويري : المصدر السابق 26 ورقة 41 ـ 42 .

135 ـ على ابراهيم حسن : تاريخ جوهر 39ـ40 .

136 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،118 .

التدبير لا يقتضي استفساد قلب جوهر مع اخلاصه للنظام ، وثباته على العهد « قد اخطأت الراي لنفسك ، نحن انقذناك مع قائدنا جوهر ، فاكتب اليه فما وصل منك الينا على يده قرأناه ، ولا تتجاوزه بعد » (137) .

وعندما اتضح للمعز لدين الله ما بين القائدين من تنافس وجفاء ، وكان يعرف قيمة جعفر وطموحه الى السلطة والاستبداد بالأمر لم يشأ أن يوسع الهوة بينهما بتغذية طموح جعفر لئلا يغضب جوهر ، ونظرا لاهمية كل منهما للنظام الفاطمي فقد التزم الخليفة بالمبدأ الذي رسمه من قبل وهو اضفاء كل الاهمية على قائده جوهر وفى نفس الوقت أرضى خاطر جعفر ، بتمجيد دوره وخاطبه بقوله « فلسنا نفعل ذلك على الوجه الذي اردته وان كنت أهله عندنا » (138) .

ـ لم تشر النصوص الى صفاء الجويين القائدين ، ولذلك لم يطلب جعفر نجدات من جوهر ، كما لم يخف الأخير ، لمساعدته عندما لاحت الأخطـار .

ـ وكانت هزيمة جوهر بعد ذلك فى ميدان الشام بسبب تخاذل كتامة بمثابة الثأر الذي استوفاه رجال هذه القبيلة منه لموقفه المعادي لأكبر قادتهم فى بلاد الشام ، وكان ابعاده تدريجيا عن مركز النفوذ بعد سنة 364 هـ / 974 ـ 975 م تدبيرا سياسيا خاصا قصد به ترضية أسرة ابن فلاح ، التي استاءت من موت رئيسها فى ظروف محزنة ، كما كان بداية لسياسة جديدة بمقتضاها ، بدأ اصطناع وجوه جديدة عوضا عن القادة القدامى الذين استنفدوا طاقتهم وأدوارهم ، وهذه السياسة أدركها جوهر وعبر عنها فى قوله للحسن بن عمار الكلبي ، « لكل زمان دولة ورجال ، انريد نحن أن نأخذ دولتنا ودولة غيرنا » (139) .

ـ وكان ابن فلاح أحد الجعفريين (140) اللذين مدحهما ابن هانيء شاعر المعز لدين الله فى قوله :

---

137 ـ نفسه ، الخطط 1 ، 378 .

138 ـ نفسه .

139 ـ المقريزي ، الخطط 1،379 . وقد جرى ذلك عندما أمر الجميع بالترجل لمنجوتكين وظهر الانفعال والتاثر على القائد الكلبي الذي زفر زفرة كادت تتقطع لها نياط قلبه .

140 ـ وعن جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي امير الزاب : انظر : ابن خلكان : وفيات الاعيان 1،311 ، ومقال لوتورنو عنه فى دائرة المعارف
EI. Art Djafar T. I p. 383 2e Edition

وفيه يقول ابن هانيء :

ويا ملك الزاب الرفيع عمـــاده — بقيت لجمع المجـــد وهو فـــريق
على ملك الزاب السلام مـــرددا — وريحان مسك بالســلام فتيـــق

انظر قصيدة رقم 66 ، ص 82 من « حوليات الجامعة التونسية » شعر لابن هانيء لم ينشر ، عدد 6 سنة 1969 .

كانت مساءلة الركبان تخبرني عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذني بأحسن مما قد رأى بصري

وبما أن ابن هانيء قد قتل غيلة في برقة ، اي لم يقدر له اللقاء بابن فلاح في مصر ، فضلا عن بلاد الشام ، فان المؤكد على كل حال أن يكون مدحه له في فترة مبكرة ، دليلا على ظهوره في الميدان السياسي والعسكري كشخصية قوية في عصر المعز لدين الله وذلك قبل أن يشترك في الحرب في ميدان مصر والشام ، وكان اللقاء بين الشاعر والقائد قد تم في أرض المغرب تأكيدا حسب اشارة الشاعر نفسه (141) .

ـ وما اشار اليه ابن هانيء عن قيمة جعفر بن فلاح ، أكدته بعض النصوص التي اوضحت بأن ابن فلاح لم يكن فقط قائدا عسكريا ماهرا وانما كان أيضا شاعرا قديرا له عواطف رقيقة خاصة تجاه أهل البيت وعنصر الاشراف حتى أن عدوه القرمطي بكاه بعد قتله ، تأثرا واعترافا بقيمته (142) .

ولعل هذه الاعتبارات جميعها تؤيد ما نعتقده من ظهور جعفر بن فلاح في ميدان المغرب قائدا كبيرا لا تقل أهميته عن زيري بن مناد ، ولا عن جوهر الصقلي ، الذي حظي بالقيادة العليا في المغرب وفي مصر ، عن غير اقتناع من القائد الكتامي الذي حاول من مركزه في بلاد الشام أن يبرهن للخليفة المعز لدين الله على أنه أهم من غيره اخلاصا للنظام ونجاعة عند الاخطار .

وقد لا يبعد عن الصواب القول بأن الخلفاء الفاطميين بعد الذي جرى لهم مع كتامة أصبحوا يحتاطون من طموح قادتهم ويجاهدون من أجل ابعادهم عن مراكز التوجيه العليا ، خوفا على سلطانهم أن يتأثر لأن كتامة يدلون على الخلفاء بسبب دورهم التاريخي في نصرة الحركة الاسماعيلية وكونهم

---

141 ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة 4 ، 31 هامش 3 . ابن خلكان : المصدر السابق 1،112 ، 113 ، ابن الأبار ، الحلة السيراء ، 434 . ط . بيروت 1962 . الجيلالي : المرجع السابق 1،118 ، العيني : عقد الجمان 19 (ق 2) ورقة 247 ـ 248 .

142 ـ ابو المحاسن : النجوم 4،33، 58ـ59 ، الذهبي : المصدر السابق 3 ورقة 190 ، العيني : المصدر السابق والورقات ، وقد نسب اليه شعر وجهه الى يعقوب بن كلس منه :

ولي صديق ما مسني عدم مذ نظرت عينه الى عدمي
اعطى وافنى ولم يكلفني تقبيل كف له ولا قدم

لقبال : اسرة ابن فلاح الكتامية 43 مقال : مجلة كلية الآداب جامعة الجزائر عدد 2،1970 .

اقدم عهدا بها اذا قيسوا بطبقة الفتيان الصقالبة الذين كانوا غرباء عن البيئة ومفتقرين الى التاريخية والى العصبية ومن ثم كانت لا تطمح نفوسهم الى شيء مما تطمح اليه نفوس الكتاميين ، وكانوا يرضون دائما بدور التابع الذليل ، ولذلك استصفاهم الخلفاء واعتمدوا عليهم اعتمادا كليا حتى بلغ منهم قيصر ومظفر مكانة كبرى فى عصر المنصور والمعز ، ومثلهما جوذر الذي كان مستودعا لثلاثة أئمة وناب عن المنصور فى تسيير سياسة الدولة وكان عمدة المعز فى التعرف على سير الحياة السياسية والادارية ، ولو امتد به العمر لكان له شأن كبير فى مصر ر قد هم المعز لدين الله باستخلافه على بلاد المغرب بعد رحيله لولا امتناعه ، ورغبته فى البقاء الى جانبه فى مصر كما اشرنـا .

وظواهر التجديد فى القيادة واصطناع الوجوه الجديدة والتركيز على غير العرب ، والبربر ممن مسهم الرق ولم تكن لهم عصبية سارت مع الخلافة الفاطمية منذ قيامها فى بلاد المغرب حتى سقوطها فى نهاية الأمر . (143)

وتشير بعض النصوص الى أن جوهر الصقلي ، كان أول من اطلع على اتجاهات المعز لدين الله ، فى التمهيد لظهور عنصر الأتراك فى الحياة السياسية للخلافة الفاطمية فى مصر ، ذلك أن هذا الخليفة اسر لجوهر بمناسبة تقديمه أحد الغلمان الأتراك اليه بقوله : « يكون عندك مكتوما حتى ترى انه يكون لبعض ولدنا غلام من هذا الجنس ، تتفق له فتوحات عظيمة فى بلاد كثيرة ، ويرزقه الله على يده ما لم يرزقه أحد منا مع غيره » (144) . وعلى ذلك فما تم فى عهد العزيز بالله كان تنفيذا لرغبة والده أو تحقيقا لما تكهن به وأضحى منجوتكين فى عهده ، مثل جوهر فى عهد والده .

ويرتبط بشخصية جعفر بن فلاح ، تحقيق اسمه الكامل ، فقد جاء فى أغلب المصادر التي اشارت اليه مختصرا ، أي على النحو التالي « جعفر بن

143 ـ واعتماد الخلفاء على الأسر الكبيرة كان ظاهرة اخرى خاصة فى بلاد المغرب ، ومن هذه الأسر ، اسرة ابن خنزير واسرة الكلبيين ، واسرة النعمان واسرة ابن ابي المنهال، واسرة ابن فلاح واسرة ابن ثعبان . وبعض هذه الأسر امتد نشاط افرادها الى مصر وبلاد الشام ، وازعم بان هذه الظاهرة تطبع الحكم الفاطمي بصفة « الارستقراطية الاقطاعية » . وكان القدر المشترك بين هذه الأسر او عنصر الوحدة هو الولاء للخليفة الفاطمي ، الامام المعصوم الذي ينتمي الى عترة الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

144 ـ المقريزي : الخطط 1 ، 379 ، وقد روى جوهر هذا القول ليخفف من الم ابي محمد الحسن بن عمار الذي امر كفره بالترجل لمنجوتكين التركي .

فلاح الكتامي » (145) . ويضيف بعضها اليه كنية ابي علي ، لان أحد ابنائه يعرف بهذا الاسم (146) . بينما تذكر بعض النصوص كنية أخرى لهذا القائد فهو ابو الفضل (147) ، وهو فيما يبدو اسم احد ابنائه الذي توفي في مصر وحضر جنازته كبار رجال الدولة بما فيهم القائد جوهر (148) ، لانه لم يظهر له دور ما في مصر او بلاد الشام على عكس اخوته علي ، وابراهيم وسليمان ، ونجد اسمه اكمل من ذلك في بعض النصوص التي تشير الى جده ، ابي مرزوق (149) .

واذا كان جوهر قد اعتمد على مساعده جعفر في ضبط الأمن في مصر حتى استشعر منه الخطر فرماه مع قلة من عصبيته الى ميدان الشام لالحاقه بسلطان الخلافة الفاطمية ، حيث كان يرجو أن يتحطم كبرياؤه وتنكسر حدة طموحه لما يعرف عن طبيعة المنطقة وعن الحياة السياسية المضطربة في ارجائها ، بسبب تقلب أهواء السكان ونفوذ الأخشيدية وادعاءات القرامطة وتاثير العباسيين وضغط الروم وتلاعب الحمدانيين (150) ، وشغب الاعراب ، فان الملاحظ أن ذلك ان كان يتسق مع السياسة العامة للدولة الفاطمية ، فان المسؤول عن ذلك هو المعز لدين الله الذي اجتمع مع قائده أكثر من مرة ورسم له خطة العمل وبين له عناصر السلطة الجديدة في مصر ، وهم المغاربة ، مع الذين اخذوا بالمذهب الاسماعيلي أو أظهروا الرغبة في التعاون مع رجال العهد الجديد .

---

145 ـ ابن عذاري 1 ، 315 ـ 316 . ابن خلدون : العبر 4،100 ـ 101 ، المقريزي الخطط 1 ، 378 ، الزركلي : الاعلام 6،71 . حسن ابراهيم : الدولة الفاطمية 153 هامش 1 . عمر كمال توفيق : العدوان الصليبي على الشرق 69 ، عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين 109 E.I. Art Fatimides, T. 2, p. 94.

146 ـ ابن خلكان : المصدر السابق 1 ، 113 ، الجيلالي : المرجع السابق 1 ، 317 ، (نقلا عنه) ط ثانية 1965 .

147 ـ ابن الابار : الحلة السيراء 434 ترجمة رقم 145 .

148 ـ المقريزي : اتعاظ 1،118 أ س 3 .

149 ـ نفسه 1،120 س 4 . ومما يلاحظ ان ابن عذاري 1 ، 263 ، اشار الى قائد باسم فمون بن فلاح . اما نسبة جعفر بن فلاح لفرع من بين فروع كتامة ، فتبقى لغزا محيرا ، غير انه لا يستبعد ان يكون من بين عناصر مسالته او دنهاجة الذين هاجروا الى مصر باعداد ضخمة وعرف من بينهم قادة كثيرون استاصل منهم الحاكم بامر الله مجموعة والحق بهم على بن جعفر بن فلاح في ظروف غامضة .

150 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 1 ، 98 ، حيث يشير الى راي المعز لدين الله في بني حمدان .

* * *

وقد احتفظ جوهر بأغلب الموظفين فى العهد القديم وراسهم الوزير ابن الفرات ، لكنه أشرك معهم فى المسئولية عمالا مغاربة (151) ، كانوا بمثابة عيون ورقباء للنظام الجديد ، وفى نفس الوقت كانوا يتدربون على فن التسيير الاداري ، تمهيدا للمرحلة التالية التي استبدوا فيها بسائر مراكز السلطة (152) .

ولم يترك الخلفاء الفاطميون فى بدء حياتهم فى مصر ، فرعا من فروع الادارة المدنية أو العسكرية دون أن ينتدبوا للاشراف عليه عناصر من بين كتامة أو غيرهم من المغاربة ، فكان من بينهم عمال الخراج والشرطة وولاة بعض الاقاليم والمحتسبون وقضاة المظالم . ومن بينهم من بلغ مرتبة « نائب الغيبة » عند خروج الخليفة عن مصر لمباشرة الحرب ومنهم من كان له رأي فى النص على حجة الامام ، وبلغ بعضهم خطة الوساطة وهي صورة من الوزارة فى العصر الفاطمي .

وقد ولى الحسبة فى مصر الفاطمية ، سليمان بن عزة ، الذي اشتهر بالشدة مع فئات التجار والصيارفة حتى اظهروا عداءهم للنظام ، وهم جوهر بتأديبهم واحراق رحبة الصيارفة ، لولا خوفه من انتشار اللهب الى المسجد الجامع (153) . وبسبب قسوته عزل عن الخطة اكثر من مرة ، ثم أبعد عنها منذ شهر محرم 363 هـ وتولاها يعقوب بن كلس بالاشتراك مع عسلوج بن الحسن الدنهاجي (154) حتى محرم 364 هـ حينما أفردت بوال مستقل من كتامة هو عبد الله بن ذلال (155) . كما وليها فيما بعد حميد بن المفلح (156) فى عصر العزيز ، وردت فى سنة 383 هـ / 993 — 994 م الى الوبرة النصراني ضمانا وقبالة (157) ، وفى 414 هـ / 1023 — 1024 م وليها داوود بن يعقوب الكتامي ، مع الأسواق والسواحل ، فنزل الى مجلس الحسبة فى مصر وهو على أبهة عظيمة ، ودبر الأسعار عوضا عن سلفه (158) .

151 — نفسه 1 ، 119 ونص كلامه « ولم يدع عملا الا جعل فيه مغربيا شريكا لمن فيه » . عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين 1 ، 96 — 97 ، النويري : نهاية الارب 26 ، ورقة 41 .

152 — عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين 1 ، 99 ، وقارن ذلك بما ورد له فى : ظهور خلافة الفاطميين 291 .

153 — المقريزي : اتعاظ الحنفا 1 ، 132 .

154 — نفسه ، 1 ، 144 .

155 — نفسه ، 1 ، 216 .

156 — نفسه ، 1 ، 276 .

157 — نفسه ، 1 ، 277 .

158 — نفسه ، 2 ، 135 ط 1971 .

وتولى خطة المظالم فى مصر ، أبو سعيد عبد الله بن أبي ثوبان ، وكانت سلطته ، وأحكامه فى البدء مقصورة على المغاربة ثم تناولت المصريين فحكم بينهم وسجل أحكامه ، وكان « الشهود المصريون يشهدون عنده ، ويشهدون على أحكامه » على خلاف التقاليد القديمة (159) وكان ابن أبي ثوبان يكتب على سجلاته لقب « قاضي مصر والأسكندرية » وقد استمر على وضعه حتى توفي فى ذي القعدة 364 هـ / يوليه 974 م . ويلاحظ هنا أن النعمان بن محمد ، لم تكن سلطاته تشمل المغاربة بخلاف ابن أبي ثوبان الذي تجاوز المغاربة الى الحكم بين المصريين ، ويبدو أن ذلك كان معروفا عند المعز لدين الله الذي لم يخاطب عليا بن النعمان بالقضاء الا بعد وفاة ابن أبي ثوبان (160)، مع ان أباه توفي منذ فترة طويلة (161) .

وتولى خطة الشرطة فى مدينة القاهرة (الشرطة العليا) جبر بن القاسم المسالتي (162) ، وتولاها فى الفسطاط (الشرطة السفلى) عروبة بن ابراهيم ، وأصبح النظر فى الشرطتين من اختصاصات عسلوج بن الحسن الدنهاجي ، وابن كلس (163) ابتداء من محرم 363 هـ / أكتوبر 973 م . وقد عهد الى جبر بن القاسم فى بداية 364 / 974 ـ 975 ، بالاشراف على الشرطتين ، لأنه كلف بأن يعمل على اجلاء المغاربة من مدينة الفسطاط ، وتجميعهم فى مدينة القاهرة ، (164) . وقد لاحظنا من قبل كيف أن المعز لدين الله ، قرب جبرا ، وأودعه سر النص على حجته عبد الله ، أما فى عهد العزيز فقد بقي لفترة يتصرف فى شؤون مصر كلها ، اثناء الحرب ضد افتكين وحينما نكب ابن كلس ، ردت اختصاصاته الى جبر بن القاسم (165) . وعندما عين على عدة أقاليم منها تنيس ، ودمياط ، والفرما وغيرها ، لم ينتقل عن القاهرة وانما استخلف ابنه ، وكاتبه للنظر فى شؤون هذه البلاد ، ويلاحظ

159 ـ نفسه ، 1 ، 138 ، ابن ميسر : اخبار مصر 2 ، 44 ، ابن حجر العسقلاني : رفع الأصر عن قضاة مصر 587 . ملحق كتاب الولاة والقضاة للكندي ، ابن ايبك الدواداري : الدرة المضية 6 ، 131 .

160 ـ نفسه ، 1 ، 223 ، ابن ميسر : المصدر السابق ، 2 ، 47 . عطية مشرفة : نظم الحكم 266 .

161 ـ نفسه 1 ، 215 ، ابن ميسر : المصدر السابق 2 ، 46 ، عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ، 1 ، 141 .

162 ـ المقريزي ، اتعاظ الحنفا 1 ، 150 وقد صحف الى خبر فيما يبدو .

163 ـ نفسه 1 ، 144 .

164 ـ نفسه ، 1،150،216 .

165 ـ ابن ظافر : اخبار الدول المنقطعة . ورقة 53 ـ 54 ، ابن الصيرفي ، الاشارة فيمن نال الوزارة 89 ـ 90 .

أن الدار التي كان يسكنها هي التي آلت فيما بعد الى البطائحي الوزير (166) .

أما الادارة المالية فقد تولاها بالاشتراك مع ابن كلس ، عسلوج بن الحسن الدنهاجي ، فكان نظرهما (167) يتضمن الخراج والضياع والأحباس ، وجزي أهل الذمة والمواريث وبسبب سياسة الخراج والضبط عرف مقدار دخل الضياع كما راقب العمال والمتقبلين ، واشتد على المدينين للدولة ، وطبق بشدة سياسة الدولة تجاه العملة ، وكانت نتيجة جهوده ، رغم ارهاق الناس ، واعناتهم ، حسنة بالنسبة لخزينة الدولة ، فتوفرت الأموال وتنافس الملتزمون من أجل الظفر بالقبالة ، وكانت هذه الاموال بمثابة تعويض عما فقدته الدولة من مبالغ خيالية ، لم يكن يعرف سرها غير المعز لدين الله وخازن بيت ماله وهو محمد بن الحسين بن مهذب (168) .

وقد استمرت الادارة المالية شيوعا بينه وبين ابن كلس حتى اواخر ذي القعدة 364 هـ واثرها انفرد عسلوج بالديوان وبالنظر فى وجوه الدخل كلها (169) .

وكان عسلوج بن الحسن احد الافراد القلائل الذين راوا المعز لدين الله قبيل وفاته ، وطالبوه بتوضيح قضية النص ، فتأثر من موقفهم ولم يجبهم وقال لهم « قابلتموني بما لا يجب » (170) وقد استمر عسلوج قويا ظاهر النفوذ ، اعتمادا على عصبيته الدنهاجية حتى عصر الحاكم بأمر الله .

وفى ميدان حكم الاقاليم كان لكتامة حظ كبير ، فكان من بين رجالها عمال طرابلس وسرت واجدابية وبرقة ، واسوان وكثير من مدن بلاد الشام الداخلية والساحلية .

ومن هؤلاء كان حمزة متولي مدينة أسوان ، فى عصر العزيز بالله ، طموحا الى الاستبداد بالسلطة الى حد أنه مال الى الانفصال عن الخلافة وخلق متاعب للدولة ، فى الوقت الذي كانت فيه منصرفة الى الحروب الخارجية

---

166 ـ ابن الصيرفي : المصدر السابق 89 ـ 90 ، محمد المنياوي : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمي 241 ـ 242 (نقلا عنه) .

167 ـ ابن ايبك الدواداري : المصدر السابق 6 ، 131 .

168 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 144 ، 145 ، 146 ـ 147 ، 230 ، عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ، 1 ، 113 ، وما بعدها .

169 ـ المقريزي : اتعاظ 223 .

170 ـ نفسه 229 وقد وصف هنا بالقائد وكان معه فى الوفد : ابن كلس ، وافلح بن ناشب ، وطارق الصقلي ، وجوهر الذي اكره على الاشتراك .

فى بلاد الشام ، وقد تكفل باخماد ثورته ومصادرة أمواله جعفر بن محمد بن أبي الحسين الصقلي ، الذي استصحبه معه الى القاهرة حيث تم قتله على يد افتكين الذي اخذ امواله انعاما من العزيز بالله عليه (171) . وقد استمر كل من ابن يخلف وافلح بن ناشب على طرابلس وبرقة حتى عصر العزيز (172) .

وقد ارتفع شأن الحسن بن عمار ، وظهر غناؤه فى اخماد حركات الشغب فى الداخل ، وفى مواجهة حركات القرامطة وقد هيأ له الخليفة العزيز مكانة مرموقة فى الدولة ، فكلفه بتدبير الأموال ومحاسبة أرباب الدواوين والنظر فى الشكاوي وما يحتاجه جمهور السكان ، فنهض بهذه المهمات الكبرى لفترة ، ثم توالى عليها الفضل بن صالح (173) ، ثم أبو الفضل جعفر بن الفرات ، الذي أعفي من المهمة استجابة لرغبته ، وبينما حوسب ، والزم بدفع اموال لخزينة الدولة (174) ، لم يمس ابن عمار باي اذى ، بل حفظ له العزيز مكانته فى الدولة وابقى على امتيازاته واقر له مخصصات شهرية ويومية لمعاشه ، وكانت عبارة عن خمسمائة دينار للحم والحيوان ، والتوابل والفاكهة ، تدفع له شهريا . كما كان يرسل اليه كل يوم سلة فاكهة بدينار ، ثم عشرة أرطال من الشمع وحمل ثلج كل يومين . واستمر هذا التقليد فى عصر الحاكم بأمر الله (175) .

ويلاحظ أن حظوة كتامة واشراف قادتهم على قطاعات مهمة فى الادارة المصرية منذ عصر الفتح ان كان ينسجم مع تقاليد الخلافة الفاطمية ، فانه لم يخل من أضرار وسيئات انعكست آثارها على المجتمع المصري ، لا سيما جماهير السنة منه ، لأن رجال كتامة ، فضلا عن كونهم يفتقرون الى الثقافة الرفيعة والى الادراك الحسن لوضعية السكان فى مصر ، كانوا متعصبين للمذهب الاسماعيلي ولا يتركون فرصة دون أن يظهروا مشاعرهم المعادية لأهل السنة ولسائر السكان المخالفين لهم فى المذهب ، مثلما جرت عادة اسلافهم فى بلاد المغرب ، وفى حواضره السنية الكبرى ، فكانوا هنا ، وهناك

171 ـ نفسه 245 ـ 246 .

172 ـ نفسه 249 ، ومنذ سنة 384 هـ ولى برقة صندل الأسود الذي قام بجهود كبرى لفائدة الدولة بمدها بالاموال وبمساهمة كبرى من اجل اعادة بناء الأسطول الفاطمي الذي احرقه الروم فى ميناء المقس . انظر اتعاظ 1 ، 281 ، 285 ، 290 .

173 ـ نفسه 277 .

174 ـ نفسه 279 .

175 ـ ابن منجب الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة 86 .

يجدون التشجيع والسند القوي من النظام ، الذي لم يلتزم اطلاقا بما قرر في وثيقة الامان ، فكان جوهر القائد هو أول من تجاهلها واظهر اتجاهاته الجديدة في ارساء تقاليد المذهب الاسماعيلي في الآذان والامامة والخطبة ، وصلاة الجنائز ، وفي الأعياد وتجاهل المعز لدين الله رغم كراهيته للتعصب وانكاره تطرف كتامة ــ ما جاء في الوثيقة ، فشجع على طلب التشيع من الجماهير واقام مجالس الدعوة الحكمية في مساجد مصر الجامعة ، وهي الجامع العتيق وجامع ابن طولون وجامع القاهرة .

وأسند القضاء الى فقيه الشيعة النعمان بن محمد الذي شارك أبا الطاهر القاضي السني في سلطاته ، وطغى عليه وكان قاضي المغاربة هو علي بن وليد الاشبيلي الذي صلى وراءه جوهر القائد أول عيد فطر في مصر بعد فتحها (176) ، وقد استمر على الخطة حتى وفاته في نهاية محرم 362 هـ (177) ، وقد توالى على القضاء بعد موت النعمان بن محمد ، وابن ثوبان ، رجال من اسرة النعمان القاضي ، أولهم علي بن النعمان قاضي القضاة الذي تمخض القضاء في عهده فأصبح شيعيا ، واختص بالعزيز بالله ، اختصاص أبيه بالمعز لدين الله (178) . وباشارة استحسان من هذا الأخير ، أصبح الاحتفال بيوم الغدير تقليدا من تقاليد الدولة الفاطمية حتى سقوطها على يد صلاح الدين بن أيوب (179) .

وكان يوم الغدير ، مناسبة كبرى لاظهار الزينة والسرور ، والتقرب الى الله بمختلف أنواع القربى والصدقات . وقد حرص أهل السنة منذ 389 هـ / 998 ــ 999 م ، لا سيما في بغداد حيث يحتفل بعيد الغدير على أبهة كبيرة ، على الاحتفال بيوم دخول الرسول وابي بكر غار ثور وكان يوافق يوم ستة وعشرين من شهر ذي الحجة (180) .

---

176 ــ المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،116 .

177 ــ نفسه 1 ، 143 هامش 2 .

178 ــ الكندي : الولاة والقضاة 589 ــ 591 ، 494ــ495 ، ابن حجر العسقلاني : دفع الأصر 407 ــ 409 . ومن اقوى المعارضين لنفوذ آل النعمان وكتامة والمغاربة عموما أبو الفرج يعقوب بن كلس ، عبد المنعم ماجد : نظم دولة الفاطميين ، 1 ، 141 ــ 142 .

179 ــ المقريزي : اتعاظ 10 ، 142 هامش 3 ، 273 ، 276 ، 284 ويوافق 18 من شهر ذي الحجة ، ماجد : نظم الفاطميين 2 ، 126 ــ 128 .

180 ــ نفسه : الخطط 1 ، 388 ــ 389 ، وهنا يذكر تفاصيل كثيرة عن مراسيم الاحتفال بعيد الغدير ، نقلا عن المؤرخين المعاصرين ومنهم المسبحي ، وابن زولاق ، جمال سرور : الدولة الفاطمية 80ــ81 .

وتعصب المغاربة ورجال كتامة كان يحيل زيارة مشاهد آل البيت ثم الاحتفال بيوم عاشوراء وهو مناسبة حداد وحزن على الشهداء الى مظاهر العنف والاعتداء على جماهير اهل السنة وكل من لم يظهر التضامن معهم فى البكاء واظهار الألم أو بدا عليه مظهر السرور واليسار والاناقة حتى السقاؤن كانوا لا يسلمون من اعتداء الشيعة الذين كانوا يشقون (الروايا) ويكسرون الأواني ، وكانت ردود الفعل السنية تأتي أحيانا فى صورة احتجاج بغلق الدكاكين وتعطيل حركة الأسواق ، أو فى صورة التحام مع الغلاة والمتشيعين الذين قويت روحهم المعنوية وعظم نفوذهم بانتقال المعز لدين الله الى مصر .

ولولا ان هذا الخليفة كان يكره التطرف ، ويحاربه كما أشرنا لوقعت كوارث كبرى فى مصر بسبب نزاع طوائف المجتمع ، تجعل النفوذ الفاطمي فى مصر محفوفا بالأخطار معرضا للهزات مثلما كان حاله فى بلاد المغرب بسبب معارضة المالكية وطوائف السنة والاباضية أيضا .

وقد وقف الى جانب العدل والتسامح المذهبي كثير من قادة الدولة ومنهم الحسن بن عمار وجوهر وسعادة بن حيان الذين حالوا دون تكرر حوادث العنف والاصطدام بين المغاربة وجمهور السكان (181) .

ولادراك جوهر القائد بأن كتامة وسائر المغاربة متطرفون مذهبيا ويميلون الى السلب والنهب والاعتداء على حرمات الناس ومساكنهم تحت ستار الخلاف المذهبي ، منعهم من الاختلاط بهم وحظر عليهم أن يسكنوا الفسطاط أو القاهرة وتتبع الفوضويين منهم بالعقاب الشديد ، وكان يراقبهم مراقبة دقيقة حتى كان مناديه كل عشية يذكرهم جهارا أمام الملا من السكان ، بما قرر من منعهم من المبيت فى المدينة .

وقد أشرف المعز لدين الله بنفسه بعد أن عرف حقيقة علاقتهم بالسكان ، وشكوى الأخيرين منهم على اختيار مكان لبناء معسكرات خاصة بالمغاربة فى ضواحي عين شمس ، بعيدا عن المدينة . وهو الذي عرف بالخندق أو الحفرة كما عرف بخندق العبيد تغليبا ، لوجود عبيد زويلة ضمن الجيش الفاطمي مع كتامة وغيرهم . وقد رصد الأموال للبناء ، كما عين مشرفا خاصا

---

181 ـ نفسه ، اتعاظ الحنفا 1،145 ـ 146 . ابو المحاسن : النجوم الزاهرة 4 ، 14،18،25، الذهبي : المصدر السابق 3 ورقة 189 . وقد اطلق على تصرفات الشيعة يومي عاشوراء والغدير مصطلح « الشعار الجاهلي » ، ابن ميسر : اخبار مصر 2 ، 45 . عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين 2،128ـ129 .

بالمغاربة ، فى هذا المكان (182) . ولم يفد هذا الاجراء فى الحد من نشاط المغاربة ضد السكان لأن عناصر منهم بقيت داخل الفسطاط ، كما تراجع المعز لدين الله تحت ظروف خاصة وسمح لهم بسكنى مدينة القاهرة وجمع سائر المغاربة فى المدينة حتى الذين بقوا فى الفسطاط ، اذ أمر المعز صاحب الشرطة باجلائهم عنها واسكانهم مع بقية اخوانهم فى القاهرة (183) .

كما أمر بالتشديد على عناصر الفوضى والشغب وتأديبهم حسب ما ارتكبوه من جرم فى حق السكان او الدولة (184) . ويبدو انه عمل أيضا على الحد من تطرفهم وغلوهم المذهبي (185) ، ومن ذلك انهم كانوا يعتقدون بعد اختفاء المعز لدين الله لمرضه ، انه فى السحاب فكان أحدهم اذا رأى سحابا ، ترجل ، وأومأ بالسلام (186) . واذا رأى طائرا سجد له اعتقادا منه بأن روح المعز لدين الله حلت فيه (187) .

وقد استمر نشاط كتامة فى اطار الولاء للدولة بعد وفاة المعز لدين الله ، غير ان دسائس ابن كلس ، وكان يكره نفوذهم ويقف ضدهم وضد العناصر المغربية هي التي مهدت لاصطناع العزيز بالله لوجوه جديدة من بين الأتراك والديلم ، بقصد حفظ التوازن فى الدولة ، والحد من نفوذ كتامة وخطرهم . واحساس هؤلاء بالأبعاد الجديدة لسياسة الدولة فى عصر العزيز هو الذي انعكست آثاره فى ظهور حركات العصيان والشغب وعدم الاخلاص فى مواجهة الأخطار وكانت هذه مظاهرا لضغط التي قصد بها رجال كتامة التعبير عن كراهيتهم للسياسة الجديدة ولم يتورعوا عن اثارة النزاع مع عناصر الاتراك والديلم ، لأحداث الفوضى والارتباك ، وتماديهم فى الضغط ، وفى الأعمال السيئة ، هو الذي دفع العزيز بالله الى الخروج عن اطار صمته ، فقد أوضح لأحد رجاله ، وهو رشيق الحمداني ، الذي سأله عن سبب غمه ،

182 ــ المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،145 ، ابن ميسر : المصدر السابق 2 ، 45 . أما صيغة النداء فكانت « لا يبيتن فى المدينة احد من المغاربة » . النويري : المصدر السابق ج 26 ورقة 45 .

183 ــ نفسه 1،150 ، ابن ميسر : المصدر السابق 2 ، 46 .

184 ــ نفسه 1 ، 148 ، 223 .

185 ــ وتشير بعض النصوص الى اناس تركهم المعز لدين الله قبيل اختفائه ، بقصد تسقط الاخبار ، وعندما ظهر ، زعم انه رفع الى السماء فافتتن الناس بذلك وامتلأت قلوب الجهال والعامة منه رعبا وخوفا ، انظر ابن الجوزي : المصدر السابق ج 11 ورقة 14 .

186 ــ المقريزي : اتعاظ 1 ، 231 ، ابو المحاسن : النجوم ، 4 ، 71 ، العيني : المصدر السابق ج 19 (ق 2) ورقة 298 . السيوطي : حسن المحاضرة 2،14 .

187 ــ العيني : المصدر السابق 19 (ق 2) ورقة 299 .

بقوله « كنت مفكرا فى قوم أشجوا صدري ، وملاوا بالغيظ قلبي ، ولا ادري ما أعمل » ، وعندما اقترح رشيق قتلهم . أجابه العزيز « ما هذا يكون بيدي ، ولكنه والله سوف يجيء من يقتلهم ويقتلك معهم » (188) .

وشعور العزيز بالله بقوة كتامة واهميتها فى حراسة نظام الامامة بعد وفاته هي التي جعلته ، يستدعي ، وهو على فراش الموت فى بلبيس ، الحسن بن عمار ، والقاضي محمد بن النعمان ويحدثهما فى شأن النص على حجته وولى عهده وهو ابنه وبعد ان تأكد من موافقتهما واخلاصهما لاستمرار النص فى بيته ، أوصاهما به ، كما أوصى ابنه ، وحدثه عن الأمانة التي ستصير اليه . وعندما توفي بعد يومين ، أعلن خبر موته ولم يكتم كالعادة (189) التي سبقت مع خلفاء الدور المغربي رغم أن الظروف كانت غير ملائمة فى هذا الوقت .

وهذا الاعلان فى حد ذاته ، يشير الى استقرار الأوضاع فى مصر ، بسبب اخلاص كتامة ، وقوة جهاز الدولة ، واتفاق أصحاب الكلمة والنفوذ على ولاية الحاكم بأمر الله (190) ، وهم ابن عمار ومجموعة قادة كتامة الذين انزعجوا لموت العزيز بالله واظهروا الحزن العميق عليه ، وقد تولى تفجير عواطف الحزن ، أحد ابناء أمراء كتامة الذي وقف وسط الجموع الحاشدة ، وارتجل شعرا سجل فيه الموقف الرهيب ، ثم اقتدى به سائر الحاضرين (191) .

وقد بلغ ضغط كتامة مداه فى بداية عصر الحاكم بأمر الله حيث تأخر كثير من قادتهم عن البيعة وتجمعوا فى المصلى فى شبه مؤتمر ، واشترطوا لاعلان ولائهم للخليفة الجديد ، مجموعة من الشروط بتحقيقهما ، تعود

---

188 ـ المقريزي : المصدر السابق 1 ، 297 ، ابن عذاري : البيان ، 1 ، 339 ، ابن خلدون : العبر ، 46 ، 112 ، علي مبارك : الخطط التوفيقية 1،9 ، النويري : نهاية الارب ، 8ـ9 (خ ، المكتبة الاهلية باريس مجلد رقم 1760) .

189 ـ نفسه 1،291 ا س 2 ـ 4 ، الخطط 2 ، 36 ، ابن ميسر : اخبار مصر 2 ، 50 ، العيني : المصدر السابق 19 (ق 3) ورقة 468 ، عطية مشرفة : نظم الحكم 83 .

190 ـ ويستثنى من ذلك اخته ست الملك التي ارادت تقديم ابن عمها عبد الله للامامة « وكانت مشتهاة منه » . انظر ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق 44 .

191 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،299 ، الخطط 2 ، 284 ومما قاله الكتامي :

انظر الى العلياء كيف تضام ... ومآتم الاحساب كيف تقام

خبرتني ركب الركاب ولم يدع ... للسفر وجه ترحل فاقاموا

والقصة رواها المقريزي عن ابن الأثير ، الذي نسبها بدوره الى ابي الفتيان محمد بن حبوس الشاعر ، وهو من أصل مغربي ، ويلقب « بالأمير » ، بسبب أن اباه كان من امراء المغرب ، الذين استقروا فى بلاد الشام . انظر عنه : ابن خلكان : وفيات الاعيان 4 ، 64 وما بعدها .

الأوضاع الى طبيعتها ويسترجعون مكانتهم وهيبتهم فى الدولة ، التي نال منها ادخال عناصر الترك والديلم ، ودسائس ابن كلس ، وابن نسطوريوس ، ومن ضمن هذه الشروط :

ـ ان يبعد عيسى بن نسطوريوس عن المسئولية العليا وان تكون الوساطة لرجل من المغاربة . وان تصرف لهم مخصصات مالية تقسط على ثمان مرات فى السنة وان يبدأ التنفيذ فعليا فى نفس اليوم ، ويكون بحضرة الخليفة .

وبعد أخذ ورد ، وتدخل الحسن بن عمار ، وبعض شيوخ كتامة لتحقيق الصلح بين الخليفة وعرفاء كتامة ، تحقق الاتفاق ، وأعطى للحاضرين ما يخصهم من أموال ، أما الغائبون ، فقد دفع ما ينوبهم الى عرفائهم . أما اعادة اعتبار كتامة فى نظام الدولة ، وفى ممارسة المسئولية ، فقد عبر عنه انتداب الحسن بن عمار للوساطة 386 هـ / 996 ـ 997 م برضا شيوخ كتامة الذين التزموا بالطاعة ، وارتبطوا باليمين ، كما ربطوا ابن عمار بها ، على ان يكون مخلصا وصادقا « فيما يؤديه عنهم » .

وقد راعى الخليفة الحاكم لابن عمار فضله فى حل هذه الأزمة فأنعم عليه بلقب أمين الدولة وكنى بأبي محمد ، وخاطبه بقوله « انت امين على دولتي ورجالي» ، فأصبح أول من حظي باللقب الشريف، من رجال الدولة فى العصر الفاطمي الأول ، كما قلد بسيف من سيوف العزيز بالله ، وانعم عليه بخلع معتبرة ، وحمل على فرس بسرج مذهب وشيع الى داره فى موكب عظيم ، وتولى قراءة سجل التولية والتلقيب ، القاضي محمد بن النعمان ، وفى هذا السجل ، بعض امتيازات قررت لأمين الدولة ، وأهمها أن يترجل له سائر كبار رجال الدولة ، حسبما جرت به العادة مع جوهر ، فى عصر المعز لدين الله ومع منجوتكين فى عصر العزيز بالله (192) .

وقد استعان ابن عمار فى تسيير شؤون الخلافة بقادة كتامة واتخذ له كاتبا خاصا هو أبو عبد الله الموصلي ، كما اقر ابن نسطوريوس على ديوان

192 ـ المقريزي ، اتعاظ 1، 292 ،ج 2 ، ص 4ـ5 ط 1971 ، الخطط 2، 12 ، 36 ، ابن ميسر : المصدر السابق 2، 53 ، ابن منجب الصيرفى : المصدر السابق 86 ومابعدها . ابو المحاسن : المصدر السابق 4 ، 122 ، عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين 1 ، 78 ـ 79 ـ ، 87 ـ 88 . المنياوي : المرجع السابق 245 ، عطية مشرفة ، نظم الحكم 136 ـ 137 ، العيني : المصدر السابق 19 (ق 3) ورقة 468 .

الخاص فترة (193) ، ثم ابعده وقتله فى محرم 387 هـ (194) / يناير 997 م وخول لنفسه دخول القصر راكبا ، من الباب الذي خص بجلوس خدم الخليفة ، وكان يشق الدواوين ولا ينزل الا أمام الحجرة التي يوجد فيها الخليفة ، ومنها يركب اذا أراد الانصراف .

أما داره فقد غدت مركز جذب لرجال الدولة ، والرؤساء ، والعامة ، الذين كانوا يبكرون كل صباح للسلام عليه ، فيدخل الوجوه ، وقادة كتامة ، وفق ترتيب خاص، أما بقية الذين يزدحمون فى البيت ، فيكتفي منهم بتقبيل الأرض ، أو بالايماء بالسلام ، ولا يسمح لهم بالقرب من مجلسه (195) .

فاذا ركب الى القصر ، تسابق كبار رجال الدولة ، الى تقبيل يده ، او ركبته ، أو ركابه كل على حسب درجته أو قربه منه .

وقد استوى فى الخضوع له ، والتعاون معه، سائر العناصر من المشارقة، والمغاربة ، الذين تناسوا خلافاتهم فترة ، وتضامنوا لازالة بعض مساويء الحكم التي أضرت بالمصريين وأساءت الى مظاهر العمران (196) .

وكان المشارقة يودون أن يستمر عصر الوفاق فى نطاق تطبيق المساواة بين عناصر الأجناد ؛ ولم يكن ابن عمار سيئا فى حد ذاته ، ولم يكن يريد النيل منهم بعد أن أصبح سيد الموقف ، لولا كثرة ضغوط كتامة عليه واجتهاد رجالهم فى استفساد نياته ، واستمروا فى محاولاتهم للاضرار بمنافسيهم فى السلطة حتى انحرف ابن عمار ، وسايرهم واتخذ منهم بطانته وحاشيته ، وبالغ فى تقريبهم ، وفى أغداق الأموال عليهم . وهيأ لهم مراكز نفوذ فى

---

193 ــ ابن ظافر : المصدر السابق ورقة 55 وما بعدها : ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق 44 ، ابن الاثير 9 ، 44 ــ 45 ، ابن ميسر : المصدر السابق 2،54 ، المقريزي : اتعاظ 2،6 ، يحي بن سعيد الانطاكي : المصدر السابق 451 .

194 ــ ابن القلانسي : المصدر السابق 46 ، المنياوي : المرجع السابق 245 ، المقريزي ، اتعاظ 2 ، 8 ، النويري 26 ورقة 50 .

G. Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne T. 4 p. 198

195 ــ المقريزي : اتعاظ الحنفا 2،11 ط 1971 .

196 ــ وقد وقف الكتاميون والاتراك ضد عبيد الشرا ، الذين اشعلوا الحرائق فى الفسطاط نكاية فى السكان ، الذين صنعوا للحاكم صورة امراة من قراطيس وبيدها قصة تضمنت سبا مقذعا له ، وسخرية منه وبتضامنهم الفعال تبرا الحاكم من فعل العبيد ، واوقفهم عند حدهم ، واصدر امانا للمصريين ، انظر : ابو المحاسن : المصدر السابق 4 ، 181–182 ، الذهبي : المصدر السابق 3 ، ورقة 287 ــ 288 السيوطي : حسن المحاضرة 2 ، 14–15 ، ابن الاثير : الكامل ، 9 ، 117 ، النويري : نهاية الارب 26 ورقة 57 . عبد المنعم ماجد : الحاكم بامر الله 49 وما بعدها .

القاهرة ، وفي الأقاليم واتخذ لنفسه حرسا من الفرسان ، والأحداث الكتاميين ، ولميلهم الى الشغب والاستبداد ، لم ينتهوا عند حد ما قرر لهم، بل تطاولوا على رجال الدولة وامتدت أيديهم الى الأموال والحرمات ، وضغطوا بشدة من أجل قتل الخليفة الحاكم والغاء نظام الامامة ، لولا أن ابن عمار هون عليهم شأن الحاكم واستبعد أن يأتي من جانبه ما يخيف رجال كتامة وقادتها . « وما قدر هذه الوزغة حتى يكون منها ما نخاف » (197) .

وقد خيل لابن عمار انه أصبح غير مراقب،ولذلك تصرف في اموال الخلافة بحرية تامة ، كما فرق جواري القصر على رجاله ، واعتق منهن ، وباع بعضهن ، وقطع أرزاق ورسوم بعض منافسيه كما ضيق على الأتراك ، ليرضي أحداث المغاربة في الجيش وسلك سبيل التقشف حتى في المطابخ الخاصة (198) ، وضيق على الحاكم ، ولم ينتبه الى قوة منافسيه ، وتآمرهم حوله حتى كان برجوان « يناكده فيما صدر عنه ، ويختص بطوائف من العسكر دونه ، الى أن أفسد أمره » (199) .

وقد استغل برجوان تذمر السكان من احداث المغاربة وسلبية ابن عمار ازاء المتطرفين منهم وتصرف بحكمة كي يقضي على خصمه ، ويمهد الأمر لنفسه ولعنصره ، كل ذلك تحت ستار المحافظة على استمرار الامامة ورعاية وصية العزيز بالله في ابنه الحاكم بأمر الله ، وكانت الوسائل التي التجأ اليها :

ـ التعاون مع شكر العضدي، في حراسة الحاكم ومراقبة ابن عمار مراقبة دقيقة حتى « صارا على كلمة سواء ، في كل ما ساء ، وسر ، ونفع وضر » (200) .

ـ التنسيق بين عنصر المشارقة في الجيش ، وبين كل من تضرر من اجراءات ابن عمار ، وتصرفات أحداث المغاربة ، حتى غدا الأتراك والديلم والعبيد على وفاق واستعداد للعمل ضد نفوذ المغاربة (201) عندما يتلقون شارة البدء .

---

197 ـ ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق 44 ـ 45 ، وكلام ابن عمار يعتبر ردا على قول بعض المتطرفين من كتامة و « لا حاجة لنا الى امام نقيمه ونتعبد له » ، المقريزي ، اتعاظ الحنفا 2،11ـ12 ، ابن الاثير : الكامل 9 ، 44 ، النويري : المصدر السابق 26 ورقة 50 ، يحي بن سعيد الانطاكي : ذيل تاريخ سعيد بن البطريق 453 ط كراتشوفسكي وفازلييف .

198 ـ ابن ميسر : اخبار مصر 2 ، 55 ، ابن القلانسي : المصدر السابق 45 ، عطية مشرفة : المرجع السابق 99، المقريزي : اتعاظ الحنفا 2،11ـ12 .

199 ـ المقريزي : الخطط 2 ، 3 .

200 ـ ابن القلانسي : المصدر السابق 45 س 8 ، ابن الاثير : الكامل 9 ، 44 .

201 ـ نفسه ، 45 س 16ـ17 .

ـ التظاهر أمام ابن عمار بأنهما على الطاعة والولاء حتى يتمكنا من تعبئة القوى الداخلية بعيدا عن المفاجآت غير السارة .

ـ ولا يستبعد أن يكون على رأيهما ، بعض شيوخ كتامة الذين كرهوا ابعادهم عن السلطة وتقريب الأحداث (202) ، وتطرف ابن عمار في سياسته ، وهم الذين كانوا بمثابة عيون عليه ، وتصرفات جيش بن الصمصامة لابد أن تكون صدى لهذا الاتجاه المعادي للتطرف .

ـ وعندما اطمأن برجوان على سير الأوضاع في الداخل وأن أنصاره كثروا بسبب تمادي ابن عمار في الطغيان ، أرسل الى مولى العزيز ووالي دمشق منذ 381 هـ / 991 ـ 992 م ، وهو منجوتكين (203) يشرح له تطورات الوضع ويحثه على المجيء بسرعة لقمع الطائفة الباغية ، بمساعدة الأتراك والديلم ، والعبيد الذين يقفون الى جانبه ، « ويكونون معه أعوانا عليهم » .

ولم يتباطأ منجوتكين عندما بلغه الخبر ، بل أشرف بنفسه على التعبئة المعنوية (204) في الجامع الأموي ، وقد ساعده « السواد ، ومشائخ البلد وأشرافه . » ، في كل جهوده وعبروا عن مساندتهم له في كل حركة ، تحفظ للحاكم سلطاته « ما فينا الا سامع لك مطيع لأمرك ، ومؤثر ما تؤثر ، وباذل مهجته في طاعة الحاكم وخدمته ، وخدمتك ، ومهما رسمت لنا من خدمة ، وبذل نفس ، ومكنة كنا اليه مسارعين ، ولأمرك طائعين الى أن تبلغ مناك وتدرك مبتغاك في نصرة مولانا » وبفضلهم تمكن من تجنيد قوة كبيرة بلغت نحو ستة عشر الف جندي .

وعندما بلغت ابن عمار أخبار هذه التحركات في دمشق عن طريق عيونه الذين كتبوا اليه « على أجنحة الطيور ومع أصحاب البريد » قلق من تطور الوضع على هذا النحو واستعد مع أولي الراي وشيوخ كتامة لتلافي الأخطار ومواجهة حركة منجوتكين ، الذي صوره في صورة من عصى الخليفة (205)، وثار ضد السلطة ، وانفصل عن الدولة في الشام مثلما صنع افتكين الشرابي المعزي من قبل ، كي يعبيء المشاعر ضده ويتظاهر بأنه ان سارع الى قتاله ، فانما ذلك بقصد الدفاع عن حقوق الامامة .

---

202 ـ ابن ميسر : اخبار مصر 2،55 .

203 ـ نفسه 2،48 ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،269 س 12 ـ 13 .

204 ـ ابن القلانسي : المصدر السابق 46 ، وقد اثر منجوتكين على جموع الحاضرين بقوله : « وصار اخواننا المشارقة بينهم كاللمة بين المسلمين ، وما يسعنا الصبر على هذه الصورة ، وتسليم الدولة الى هذه العصابة المتسلطة » . انظر ا س 1ـ3 .

205 – G. Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne T. 4 p. 196-97

وقد احضر اليه مثيري الشغب والمسؤولين عن الفتنة فى بلاد الشام وهما برجوان وشكر العضدي واستحلفهما على الطاعة وعلى « صفاء النية ، وخلوص العقيدة والطوية » ، واستأنف التعاون معهما لتهدئة الوضع ولتطييب نفوس المشارقة (206) ، ونفى امامهما أن يكون له هدف تخريبي ، كالذي يشاع عنه ، وأوضح أن غرضه « حفظ الأمر للحاكم ومقابلة اصطناع العزيز واحسانه الى » (207) .

اما التعبئة المادية لمواجهة حركة منجوتكين فكانت ضخمة اذ حشد لها كل امكانياته وعدته الداخلية وأخلص رجاله وقادته ومنهم أبو تميم سليمان بن جعفر بن فلاح الذي عينه اسفهسلارا على القوة الضخمة التي أرسلت ضد منجوتكين فى بلاد الشام ، وكان فى معيته أخوه علي بن جعفر ، وبعض فرسان كتامة ، والغلمان ، كما انضم الى هذه القوة حشد من العربان وقد شيعت هذه القوة من طرف الحاكم بأمر الله وأمين الدولة ابن عمار فى عين شمس (208) .

واذا كانت هذه القوة قد استطاعت فى ظرف يسير أن ترجع الوضع الى نصابه فى بلاد الشام ، حيث قبض على منجوتكين بعد هزيمته فى عسقلان وسير الى القاهرة فأبقاه ابن عمار ، واصطنعه ليستميل به عنصر المشارقة (209) . فان وضع ابن عمار فى مصر كان ينذر بالخطر ، بسبب قلة رجاله وغيبة أكثرهم فى الشام ونشاط خصمه برجوان للنيل منه ، ولاستغلال جميع نقط الضعف للتسرب منها الى مركز القوة ، وسرعان ما تهيأت ظروف العمل المادي فى القاهرة ضد نظام ابن عمار بتصرف طبيعي نسب الى قائده فى الشام ، الذي أساء الى عصبيته فى هذه الفترة وذلك عندما عزل بعض ولاة كتامة الجائرين فى مدن بلاد الشام وعوضهم بقادة آخرين ، وكان من بين هؤلاء المعزولين ابن أخته ، جيش بن الصمصامة ، والي طرابلس الذي استاء من حادث عزله ، وتعويضه بعلي بن جعفر ، وفارق الشام منابذا لسليمان ولأخيه ، وفى القاهرة نصب نفسه عينا على بني حلدته (210) ، وتعاون مع المعارضين لهم ، وكشف عن حقيقة

---

206 ـ ابن القلانسي : المصدر السابق 46 ، النويري : المصدر السابق 26 ورقة 50-51.

207 ـ نفسه .

208 ـ نفسه . ابن ميسر 2 ، 54-55 ، المقريزي : اتعاظ 2،7،8-9 ، ابن الاثير : الكامل 9،44 النويري : المصدر السابق 26 ورقة 51 ، يحي بن سعيد : المصدر السابق 452 .

209 ـ ابن القلانسي : المصدر السابق 47 س 9-10 ، ابن ميسر : المصدر السابق ، 2 ، 55 ، ابن خلدون : المصدر السابق 4، 117 ، المقريزي : اتعاظ 2 ، 10-11 .

210 ـ نفسه 48 س 13 وقد « قصد برجوان سرا وطرح نفسه عليه » النويري : المصدر السابق 26 . ورقة 51 .

علاقتهم بالسكان فى بلاد الشام وان هؤلاء يكرهون المغاربة ويودون التخلص منهم، فأولاه برجوان الجميل قولا ووعدا، وبذل له المعونة على أمره (211).

ولما كان ابن عمار قد تنبه لما يدبره المعارضون له ، فقد بعث عيونه وأرصاده ، وكلف رجالا بالفتك ببرجوان ، وشكر اذا ما زاراه الى القصر ، غير أن عيون برجوان من بين رجال ابن عمار — وربما كان جيش بن الصمصامة منهم (212) ، هم الذين كشفوا للرجلين سر ابن عمار ، وتدبيره للايقاع بهما ، عند أول فرصة ، ولذلك احتاطا للامر حتى تبينت لهما الحقيقة فرجعا الى قصر الحاكم يبكيان لديه ويستصرخان به وبصيحة منكرة من طرف برجوان يخاطب الموالي : « يا عبيد مولانا احفظوا العزيز فى ولده ، وارعوا فيه ما تقدم من حقه » ، تفجرت الطاقة المكبوتة ، واشتعلت نار الفتنة الطائفية بين المشارقة والمغاربة ، وقد ابتدأ الصراع فى شكل قتال فردي راح ضحيته غلام من الاتراك ، واحد المغاربة ، ثم تطور الى قتال عام فى الصحراء (213) ، اشترك فيه شيوخ المغاربة والاتراك وتصدر عنصر المشارقة وعبيد الشراء ، برجوان ، وشكر ، ومنجوتكين ، وبارختكين ، وينال الطويل . أما المغاربة وجميع من انضم اليهم فقد تولى قيادتهم أبو محمد الحسن بن عمار ، ولقلة عددهم وعدم توقعهم مثل هذه الحركة فقد انهزموا شر هزيمة وتفرقوا واستتر ابن عمار عند أحد المصريين ، واغتنم الاتراك الفرصة ونهبوا داره وقصره واسطبلاته ، ودور أتباعه ، وعندما هدأت الفتنة ، جددت بيعة الحاكم بأمر الله باتفاق جميع الاجناد ، واستبد برجوان بالحكم ، وأصدر أمانا عاما لقادة كتامة ووجوه المغاربة الذين اشتركوا فى الفتنة بما فيهم خصمه ابن عمار (214) ، الذي ظهر من استتاره واعتكف ببيته فى القاهرة منعزلا عن القصر ، وعن الاتصال بالناس حتى أذن له الحاكم بالركوب ، وأطلق له برجوان كل مخصصاته اليومية والشهرية (215) ، وقد أرسل برجوان الى أشراف دمشق ،

---

211 — نفسه 48 س 14 وحث المشارقة على بعد العمل بقوله : « ومتى لم تنتهـــز الفرصة فى قلة عددهم وضعف شوكتهم سيقوكم الى ما لا يمكنكم تلافيه بعد التفريط فيه واستدراك الغاية منه س 18—19 .

E.I. Art Bardja wan T1, p. 1073-74.

212 — انظر جاستون فيات : G. Weit : Op. Cit., T. 4 p. 198

213 — المقريزي : اتعاظ 2،12 ، النويري : المصدر السابق 26 ورقة 51 ، يحي بن سعيد الانطاكي 453 ط كراتشوفسكي .

214 — ابن القلانسي : المصدر السابق 49 ، ابن عذاري 1،357 ، المقريزي : اتعاظ 2 ، 12—13 .

215 — نفسه 50 ، ابن منجب الصيرفى 86—87 ، ابن ميسر : المصدر السابق 2،55 ، المناوي : المرجع السابق 245 ، المقريزي : الخطط 2،3—4 ، 36 — 37 اتعاظ 2،13 .

والى عنصر المشارقة فى الجيش يدعوهم الى التعاون ضد سليمان بن جعفر وعنصر المغاربة ، فاتفقوا عليه ، وفاجأوه فى قصره ، وهو على غير استعداد فغادر دمشق الى الرملة (216) ، ناجيا بنفسه ، أما اتباعه فقد أصابهم شر كثير على يد المشارقة واحداث دمشق الذين استرجعوا نفوذهم فى هذه الفترة (217) .

وبقي سليمان فى الرملة حتى قبض عليه جيش بن الصمصامة ، اثنـاء خروجه الى بلاد الشـــام .

أما ابن عمار فقد استمر فى القاهرة من غير أن تكون له سلطة ، أو نظر فى شأن من الشؤون ، حتى أوعز برجوان الى الحاكم بقتله ، وقد وضع له كمين عند انصرافه من القصر مساء 14 شوال 390هـ/اغسطس 1000م. حيث ظهر عليه جماعة من الغلمان ، وقتلوه عند مكان اسطبل الطارمة بجوار القصر الكبير تجاه باب الديلم ، واحتزوا رأسه ، وحملوه الى الحاكم ، الذي أمر بدفنه فى القرافة ، أما جثته فقد دفنت فى مكان قتله ، واثر ذلك ارسل الحاكم بأمر الله الى ابن عمه (218) ثقة الدولـة الحاكميـة يوسف بن أبي الحسين الكلبي والي صقلية ، يبرر قتله لكثرة ذنوبه ، وانحرافه عن العهد ويقول له : « الحمد لله قاطع الانساب بقاطع الأسباب ، اذ يقول ، وقوله هدى لأولي الألباب ، يا نوح انه ليس من أهلك » (219) .

واذا كان قتله قد خلف مرارة فى نفوس كتامة وسائر المغاربة الذين اصبحوا فى وضع سيء لاستبداد عنصر المشارقة وطغيان برجوان ، فان الذي يلاحظ أن هذا الاخير ، الذي خطط لتصفية عنصر كتامة ، لم يسعد كثيرا بالوساطة ، اذ سرعان ما ظهر على حقيقته طاغيا مستبدا ، عنصريا

---

216 ـ نفسه 49 ، ابن ميسر : المصدر السابق 2،55 ، ابن الاثير : الكامل 9،44 ، النويري 26 ورقة 51 .

217 ـ نفسه 50 ، ابن الاثير : الكامل 9،44 .

218 ـ وابن عمار ليس كتاميا ، وان كان يشترك مع الكتاميين فى الانتساب الى المغرب ، وفى وحدة الهدف تجاه عنصر المشارقة . وهذا على خلاف ما ورد فى بعض المصادر ، التي تصفه بالكتامي او بزعيم كتامة وشيخها انظر ابن خلدون : العبر 4،23 ، المقريزي ، الخطط 2،36 ، النويري ، نهاية الارب 26 ورقة 9 ، جمال سرور : الدولة الفاطمية 101 ـ 102 ، العزيزي : سيرة جوذر 173 ، تعليق 76 ، وهنا يوصف الحسن بن علي الكلبي بشيخ كتامة .

219 ـ ابن منجب الصيرفى : المصدر السابق 87 .

منهاونا بشأن الحاكم ، الذي استاء من تصرفاته وتجاوزه ، وأوعز الى ريدان الصقلي بقتله ، في نفس السنة التي قتل فيها ابن عمار (220) .

وقد تولى الخليفة بنفسه ، شرح الوضع ، وتبديد الحيرة التي ظهرت في أوساط المشارقة الذين كان يتزعمهم شكر العضدي رفيقه القديم وأعلن مسؤوليته عما وقع لبرجوان لسوء سيرته وانحرافه . واعتمد على الحسين بن جوهر ، في تفريق التجمعات حول القصر ، وعلى فهد بن ابراهيم كاتب برجوان في الاشراف على الدواوين تحت نظر القائد وفي الكتابة الى سائر ولاة الخلافة الفاطمية ، بأسباب التخلص من برجوان (221) .

ولم يغب عن ذهن الحاكم بأمر الله ، بأن استرضاء كتامة وشيوخها خطوة ضرورية لتهدئة الوضع ، وارجاع الامن الى نصابه ، لانهم لم ينسوا بعد هزيمتهم وابعاد رجالهم من شؤون الدولة وقتل ابن عمار ، وتقريب زعماء الاتراك والديلم والعبيد ، ولذلك قلد أسلافه المنصور ، والمعز ، وأعلن أمام شيوخهم بأنهم عمدة الدولة واساس النظام ، وان وضعيتهم سوف تتحسن عن ذي قبل وخاطبهم بقوله : « انتم شيوخ دولتي وانتم الآن عندي افضل مما كنتم فيه مما تقدم » (222) .

ورغم هذه التأكيدات ، فالذي يلاحظ ان سوء الظن الذي استحكم بين الخليفة ، وقادة كتامة سرعان ما ظهر التعبير عنه عمليا من جانب الحاكم 394 هـ / 1003 — 1004 م ، حيث قتل كثيرا من الكتاميين الذين سبق لهم الخدمة في عهد المعز والعزيز وأحرق جثتهم بالنار ، ومنهم أبو علي عسلوج بن الحسن الدنهاجي ، وسليمان بن عزة ، ويخلف بن عبد الله ،

---

220 — نفسه 86 — 87 ، ابن خلدون : العبر 4،119 ، المقريزي : الخطط 2،4 ، 12 ، اتعاظ الحنفا 2 ، 25–27 ، ابن الأثير : الكامل 9،45 ، الذهبي : تاريخ الاسلام 3 ، احداث 390 هـ ، العيني : المصدر السابق ج 19 (ق 3) ورقة 500 — 501 ، المنياوي ، الوزارة والوزراء 245 ، النويري ، نهاية الارب ، 26 ، ورقة 52 . وقد ارتفع شان ريدان فاعتق ، ولقب بمولى امير المؤمنين . انظر اتعاظ الحنفاء 2 ، 39 ط 1971 .

221 — ابن القلانسي : المصدر السابق 55 — 57 ، ويبدو من كلام المؤلف ، انه يميل الى القول بموت برجوان قبل قتل ابن عمار ، وهو نفس الراي الذي اخذ به ابن خلدون 4 ، 119 ، العيني : المصدر السابق 19 (ق 3) 500 ، المنياوي : المرجع السابق 246 ، ابن منجب الصيرفي ، الاشارة 285 ، ابن اياس : بدائع الزهور 1 ، 50 .

222 — الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية 1 ، 131–134 . ط القاهرة 1958 ، ابن ميسر : المصدر السابق 2 ، 56 .

ومحمد بن علي بن فلاح ، وابن قيطونة وابن سمود ، وغيرهم مما يبرر تسمية عهد الحاكم ، بعصر « محنة كتامة الثانية » (223) .

وتشير بعض النصوص الى أن الحاكم أمر باحضار احد رجال كتامة ، أمام القاضي عبد العزيز بن محمد بن النعمان مسحوبا ، ثم أمر بجلبه الى القاهرة ماشيا حيث ألزم بالتنازل عن كل ما ادعاه غيره في حقه ، وقد قيل ان هذا الكتامي ، اشتهر بالعجرفة والشدة ، ورفض الحضور أمام القاضي واهان رسوله (224) .

أما موقف كتامة من الحاكم فقد عبروا عنه في الانتقام منه أثناء حركة أبي ركوة ، فلم يظهروا جدا في الحرب ومن ثم هزم قائد الحملة اينال الطويل ، وقتل ، وقطعت أوصاله وكان من قبل قد نكل برجال كتامة في مصر أثناء الفتنة واستأمن جماعة منهم الى أبي ركوة نكاية في الحاكم بأمر الله ، وكانوا أيضا وراء المتاعب التي لحقت قائده الجديد الفضل بن صالح (225) .

ومع سوء الظن ، بسبب حركة التصفية لنفوذ كتامة ، فقد احتفظ بعض قادتهم ، بمكانة كبرى في عصر الحاكم ، ومن هؤلاء جيش بن محمد بن الصمصامة ، وأبو الحسن علي بن جعفر بن فلاح ، وحسين بن علي بن دواس .

وقد أدرك جيش ، مجدا كبيرا في بلاد الشام فلما توفي في ربيع الاخير سنة 390 هـ / مارس 1000 م خلفه ابنه محمد لفترة يسيرة ، ثم رجع الى القاهرة ، ومعه وصية أبيه بالتنازل عن كل أمواله للخليفة الحاكم ،

---

223 – المقريزي : اتعاظ 2 ، 47 هامش 1 ، (266 ط 1948) ، ابن عذاري : البيان 1 ، 369 ، ومحنتها الاولى كانت في عصر المهدي ، اما محنتها الكبرى فكانت في افريقية على عهد المعز بن باديس ، وقد سم علي بن سلمان اخاه يحي في شربة سويق عقب خروجه من الحمام حتى لا يقتل وتحرق جثته مثل غيره . وقد اعترف بجريمته بقوله « قتلته قتلة مستورة » .

224 – ابن حجر العسقلاني : رفع الاصر عن قضاة مصر 2 ، 359 – 365 ط القاهرة 1961، الكندي : الولاة والقضاء 599 (نقلا عن ابن حجر) .

225 – ابو المحاسن : النجوم الزاهرة 4 ، 207 ، 216 ، المقريزي ، الخطط 2 ، 286 ، ابن عذاري : البيان 1،370 ، ابن خلدون : العبر 4،120 – 123 . ابن الاثير : الكامل 9 ، 74 . عبد المنعم ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين 248 ، عبد الحميد يونس : الهلالية 63 .
وقد اشترك علي بن جعفر بن فلاح في الاشراف على الحرب ضد أبي ركوة فلقي الهزيمة، وكان مقر قيادته في الجيزة . أنظر اتعاظ الحنفا 2،63–64 ، ابن الأثير : الكامل 9 ، 75 .

G. Wiet : Op. Cit., T. 4 p. 203-4

وحرمــان الورثــة فاستحسن الخليفة تصرفه ، لكنه أمسك عن قبول الاموال (226) وارجعها الى ورثته الحقيقيين .

اما علي بن جعفر بن فلاح ، فقد تقلب في عدة وظائف مدنية وعسكرية في الشام ، وفي مصر وآخرها رتبة الوزارة وقد لقب بوزير الوزراء ذي الرئاستين ، الآمر المظفر قطب الدولة وكان بحق من أعظم أمراء كتامة وأوضحهم شخصية وأهمهم في عصر الحاكم بأمر الله ، الذي خصه بتقدير كبير مكافأة على جهوده في خدمة الدولة ، وفي الوقوف ضد المعارضين لها في مصر وبلاد الشام ، وعندما مرض عاده في داره وحمل اليه هدايا جمة ، ضمنها مرتبة ديباج وخمسة آلاف دينار كما كرر نفس الهدية في وقت لاحق وانعم عليه بالنفوذ والسلطان وكلفه بمقتضى سجل التقليد بالاشراف على رجال الدولة ومراقبة الادارة في الاسكندرية وتنيس ، ودمياط ، والحسبة ، والشرطتين ، والعرض ، والاثبات والنظر في الواجبات ، فقام برعاية ما كلف به ، في دقة ونظام وتواضع جم ، فلم تغره السلطة بالاستبداد شأن ابن عمار ، ولم يأبه لضغوط بنــي جلدتــه ولا للذيــن بدءوا ينفضون من حوله ناجين بأنفسهم من مقت الحاكم وعقابه ، ومن هؤلاء الذين فروا « ابن الدابقية » الذي جعله الحاكم موضوع حديث مع رجاله ، بقوله : « متى تهربون ؟ » . وقد كان رد علي بن جعفر ، يتسم بحسن التخلص واللباقة : « يا أمير المؤمنين يهرب اليك لا عنك » ومع ما بذله علي من اجل الخلافة في عصر الحاكم ، فان الاخير لم يراع اخلاصه ، ولم يطمئن اليه ، بسبب علو مقامه ، ومع أنه تحاشى قتله في القصر او قريبا منه ، فقد أرسل لقتله ، فارسين متنكرين ، فرماه أحدهما بالرمح ، فجرحه ، والجأه الى الرجوع الى بيته حيث لم يبق غير فترة يسيرة ، ولفظ أنفاسه الاخيرة 409 هـ / 1018 ـ 1019 م وتولى تشييع جثمانه والصلاة عليه ، حجة الحاكم بأمر الله (227) ، بمعية قاضي القضاة (228).

---

226 ـ ابن القلانسي : المصدر السابق 54 ، 57 ، المقريزي ، الخطط 2 ، 285 ، ابن ميسر : المصدر السابق 2 ، 56 ، العيني 19 (ق 3 ورقة 507) .

227 ـ وهو ابو القاسم عبد الرحمن بن الياس بن احمد بن المهدي ، ابن عذاري : البيان 1 ، 375 ، ابن القلانسي : المصدر السابق 69 ـ 70 ويصفه باخي الحاكم وولي عهد المسلمين . وقد وصل دمشق واليا عليها في جمادي الاولى 410 هـ . وهذه سابقة عن تحويل الخلفاء للنص من الابناء الى الاقارب . اما عدم ولايته للخلافة ، وتصحيح النص لفائدة ابن الحاكم الذي عرف بالظاهر فقد كان بتاثير السيدة الشريفة ست الملك ، النويري : نهاية الارب 26 ورقات 57 ، 58 ، 60 ، عطية مشرفة : المرجع السابق 85 ، العيني : المصدر السابق 19 (ق 4) ورقة 683 وما بعدها . المقريزي : اتعاظ الحنفا 2 ، 103-104،114،116 النويري ، نهاية الارب 26 ورقة 57 ، ابن حماد : المصدر السابق 57 ـ 58 وباسم عبد الرحمن بن الياس وضع ميثاق ولي العهد . انظر سجلات موحدية (حاكمية) ورقة 24 ب ، 25 أ خ تونس رقم 18289 . رسائل الحاكم ورقة 18 وما بعدها . خ دار الكتب رقم 20 .

228 ـ ابن منجب الصيرفي : الاشارة 82 ـ 83 ، المقريزي ، اتعاظ الحنفا 2 ، 93،110، 114 ، المنياوي : الوزارة والوزراء 249 ـ 250 .

أما حسين بن علي بن دواس ، الذي ازدهر فى عصر العزيز والحاكم ، وكان يلقب بسيف الدولة ذي المجدين ويوصف فى بعض المصادر بكبير أمراء الحاكم بأمر الله (229) ، وتولى الاشراف على السيارة ، وعلى بيت المال ، كما ولى خطة الوزارة فترة يسيرة ، فقد كان حذرا من الحاكم بعد الذي صنعه فى حق قادة كتامة ورجالهم وبسائر المخلصين لأسلافه ، مثل برجوان الصقلي ، والقائد بن القائد الحسين بن جوهر ، وصهره قاضي مصر عبد العزيز بن محمد بن النعمان ، فكان لا يرتاد القصر أو يغشى المواكب الرسمية الا وهو راكب على ظهر فرسه ، وعندما استدعاه الحاكم ربما على نية نواها وبنية بناها ، امتنع عن الحضور ، وصارح الحاكم الذي عتب عليه تأخره بأنه خدم الدولة منذ عهد قديم وله حقوق يجب أن تراعي ، غير أن سلامته تقتضي منه أن يحترز قليلا ويتحفظ من مثل هذه الدعوات المفاجئة ، ويبقى فى بيته بين اهله وعبيده مستور الحال ، وأوضح الامر للحاكم بقوله : « وقد قام فى نفسي انك قاتلي فأنا مجتهد فى دفعك بغاية جهدي ، وليس لك حاجة الى حضوري فى قصك فان كان باطن رايك مثل ظاهره فدعني على حــالي ، فانه لا ضرر عليك فى تأخري عن الحضور الى قصرك ، وان كنت تريد بي سوءا ، فلأن تقتلني فى داري بين أهلي وولدي يكفونني ، ويتولونني احب الي من ان تقتلني فى قصرك ، وتطرحني تأكل الكلاب من لحمي » (230) .

والنصوص التي تشير الى تعجب الحاكم من كلام ابن دواس وضحكه لجرأته وصراحته ، تشير الى صيرورة هذا الامير الكتامي محورا لقصة التآمر على حياة الخليفة ، وقد اشترك الى جانبه كل الغاضبين من سياسته والمتضررين من تصرفاته من بين كتامة ورجال الاسرة ، وتمثلهم أخته السيدة الشريفة ست الملك (231) .

فابن دواس كان مدفوعا بالاخلاص للدولة وبحب الانتقام منه لقتل أمراء كتامة ، ومبالغته فى الشدة والشذوذ واستخذائه لبعض المتطرفين من

---

229 ـ ابن الاثير : الكامل 9 ، 118 .

230 ـ ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة 32،82 هامش 1 ، العيني : المصدر السابق 19 (ق 4) ورقة 686 ، ابو المحاسن النجوم الزاهرة 4 ، 185 ـ 186 ، ابن عذاري : البيان المغرب 1،391 ، عطية مشرفة : المرجع السابق 226 .

231 ـ الذهبي : تاريخ الاسلام 3 ورقة 289 وما بعدها ، العيني : المصدر السابق 19(ق4) ورقة 683 ، ابن منجب الصيرفى : المصدر السابق 82 هامش 1 ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 2 ، 115 وما بعدها ، النويري ، نهاية الأرب 26 ورقة 58 وما بعدها .. السيوطي : حسن المحاضرة 2،15، ماجد : الحاكم بامر الله 169 وما بعدها .

الفرس ، واهمهم حمزة بن علي (232) وتنكيله بالقريب ، والغريب ، ولم يسلم منه حتى النساء (233) وقد ضيق على أخته ست الملك بدافع ابعادها عن السياسة ، والاهتمام بالشؤون العامة لأنها كانت لا تميل اليه (234) ، وفضلا عن ذلك فقد كانت على جانب كبير من الذكاء والمهارة وكي يحرجها ويتعلل لقتلها ، اتهمها في أخلاقها وبأنها تسمح ببذل نفسها الى الرجال ووصلت به جراته الى حد أنه هددها باستطلاع حالها عن طريق قابلات فان تبين له ما يفيد انحرافها قتلها .

وكي تحافظ على شرفها وتضمن للدولة استمرارها في اطار الاخلاق والشرعية ، بادرت بالاتصال بابن دواس ، الذي وطن نفسه على كره الحاكم وكان في مثل وضعها حائرا مضطربا ، يعيش من الخوف ، في خوف ، وبعد ان استحلفته على الوفاء ووعدته بأن يصبح المتصرف في شؤون الدولة اطلعته على خطتها في اخيها ، فوافق دون تردد وبادر بالتنفيذ مغتبطا (235) ولم يكن أحب الى نفسه من ذلك حتى يستعيد رشده ، وتعود للخلافة هبتها ، وبعد أن أعلنت بيعة الظاهر لاعزاز دين الله ، وابعدت عبد الرحمن ابن الياس (236) واعتقلته واظهر الولاء والطاعة سائر الاجناد ، والرعية بالغت في اكرام ابن دواس ، الذي خيل اليه أنه سوف يستمر في السلطة وكانت في الحقيقة تداريه ، وتمهد للامر الخطير ، لأنه كان يعرف أسرارها وحقيقة تآمرها ، وبسبب غفلته وعدم توقعه مكروها من جانبها راح ضحية

---

232 - ويوصف في مجموعة رسائل الحاكم بهادي المستجيبين والمنتقم من المشركين ، وهو احد الدعاة الذين كتبوا مجموعة الرسائل التي تكون في مجموعها عقيدة الدروز ، وتدور حول الوهية الحاكم . ومنها رسالة ولي الزمان ، وميثاق النساء . والسجل المعلق وخبر اليهود والنصارى والرد على القرامطة والنهي عن الخمر ورسالة البلاغ والنقض الخفي وغيرها ، انظر سجلات موحدية خ تونس 18289 ومخطوط دار الكتب 20 كلام الشيعة . المقريزي ، اتعاظ الحنفا 2،113 . ماجد : المرجع السابق 117 ، 112 وما بعدها .

233 - وعن ميثاق النساء ضمن مجموعة الرسائل انظر ورقة 6 وما بعدها من مخطوط دار الكتب 20 شيعة ابن اياس : بدائع الزهور 1 ، 52 - 56 .

234 - ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق 44 س 20 - 21 ، ابن ظافر : اخبار الدول المنقطعة ورقة 64 ، المقريزي ، اتعاظ الحنفا 2،107 ، وهنا يلاحظ أن الحاكم « انفلق منها » .

235 - ابن الاثير الكامل 9 ، 117 - 118 . ابو المحاسن النجوم الزاهرة 4 ، 189 - 192 ، ابن خلدون : العبر 4 ، 127 - 128 عبد الله الشرقاوي ، تحفة الناظرين ورقة 61 ، لمة (لمجهول) ورقة 8-9 ويوصف ابن دواس بانه « شيخ كتامة » المقريزي الخطط 1،354، و 2،289 ، الذهبي ، تاريخ الاسلام 3 ، ورقات 287 - 289 العيني : المصدر السابق 19 (ق 4) ، ورقة 683 وما بعدها ، ابن القلانسي : المصدر السابق 79 - 80 .

236 - لمة (لمجهول) ورقة 9 ، ابن القلانسي : المصدر السابق 69-70 وقد امرت بقتل ابن الياس قبل موتها ، المقريزي : اتعاظ الحنفا ، 2،119 ، ابن اياس : المصدر السابق 1 ، 57 .

تآمرها عندما حضر الى القصر وقد تم ذلك باذن من الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله ، وبعد قتله أبقيت جثته ثلاثة أيام ملقاة فى العراء والمنادي يعلن على الملا « هذا جزاء من غدر مواليه » واثر ذلك سلمت الى أهله وعبيده فدفنوها (237) .

وتلا قتله حركة تطهيرية لاجهزة الدولة من العناصر الخطيرة ، ومنهم : رئيس الرؤساء خطير أبو الحسن عمار بن محمد الذي أمرت به فقتل فى ذي الحجة 412 هـ / مارس 1021 م . وباشرت الاشراف على شؤون الدولة الى جانب ابن أخيها « فلا ينفذ أمر جل أو قل ، الا بتوقيع يخرج عنها بخط أبي البيان الصقلبي عبدها » (238) ، واستمرت على هذا الرسم حتى توفيت أواخر سنة 414 هـ / 1023 — 1024 م (239) فأصبح الظاهر لاعزاز دين الله يباشر الحكم بنفسه ، عن طريق مجموعة من الوزراء، وفى عهد أبى القاسم علي بن أحمد الجرجرائي ، منهم ، وبسبب استمرار الدولة على سياسة تقريب عنصر المشارقة ، وعبيد الشراء واهمال شأن كتامة وعنصر المغاربة عادت الفتنة بين طوائف الجند مرة أخرى ، بعد أن هدات فترة طويلة . وقد ظهرت سنة 420 هـ / 1029 — 1030 م وانحصرت بين الاتراك والمغاربة وقد كانت عنيفة وراح ضحيتها خلق كثير من الطرفين (240) .

وقد أظهرت أحداث الفتنة وموقف الدولة على أن المشارقة لم يتأثر وضعهم فى الدولة بعد اختفاء قادتهم الكبار وبعد الهزائم التي منوا بها فى برقة وفى مصر وبلاد الشام ، لأن الاتجاه السياسي كان لصالحهم ، أما عنصر المغاربة فرغم انهم أصبحوا فى موقف الدفاع لمعاكسة التيار لهم ، وتقلب أمزجة الخلفاء فانهم مازالوا حتى الآن قوة مرهوبة ، لها

---

237 — الذهبي : تاريخ الاسلام 3 ورقة 292 . العيني : المصدر السابق 19 (ق 4) ورقة 689 — 690 ، نقلا عن القضاعي ، ابن عذاري : البيان المغرب 1،391 ، ابن خلدون : العبر 4،127 — 128 ، لمة (لمجهول) ورقة 9 . المقريزي : اتعاظ الحنفا 2،116 ، 125 ، النويري : المصدر السابق 26 ورقة 60—61 .

238 — ابن عذاري : المصدر السابق 1،391 ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 2،128 ، المنياوي : المرجع السابق 251 نقلا عن الاشارة لابن الصيرفي .

239 — نفسه ، لمة (لمجهول) ورقة 9 ، ويشار هنا الى وفاتها فى مستهل جمادي الآخرة 425 هـ وهو خطأ من النساخ ، صوابه 415 هـ . ابن اياس : المصدر السابق 1،58. ابن العبري : تاريخ مختصر الدول 313 ، ويلاحظ أن ست الملك بقيت وصية على الظاهر مدة اربع سنوات . المقريزي : اتعاظ الحنفا ، 2،174 ، ابن الأثير : الكامل 9 ، 119 .

240 — المقريزي ، الخطط 1،355 ، اتعاظ الحنفا 2،177 ، ويشار هنا الى تاييد العامة لعنصر كتامة ضد الاتراك الذين انهزموا وطرد منهم كثيرون .

مكانتها ووزنها فى الأحداث الداخلية والخارجية خاصة فى بلاد الشام ولم يصبحوا بعد ضمن الرعية ولم يستسلموا للتطورات الجديدة التي ظهرت مع العزيز بالله بتأثير وزيره ابن كلس .

ويدل على ذلك مجموعة من الاعتبارات اهمها : ظهورهم كفرقة مستقلة ، فى عصر الظاهر وكان منهم ابن فتوح الكتامي من اخص رجاله (241) ثم أن فرقة كتامة التي رفض قادتها تقديم مائة رجل منهم لتأديب بني قرة فى بداية عصر الظاهر ، كانت من أقوى فرق الجيش الفاطمي ، التي شوهدت فى الاستعراض العسكري الذي جرى فى عصر المستنصر بالله بمناسبة فتح الخليج (242) . وتشير بعض النصوص الى عصيان بعض فرق الجيش ، بتأثير دسائس فرقة لواته ، الذين كان زعماؤهم يوحون الى المشارقة بأن المستنصر بالله يؤثر المغاربة ويقويهم ، والى المغاربة بأن الخليفة يقف ضدهم ويقوي المشارقة ليستبدوا بهم (243) . وفى الوقت الذي اشتكى الخليفة من موقف جند لواته ، فى رسائله الى علي بن محمد الصليحي ، وتجرع المرارة من دسائسهم وشغبهم عليه وضغطهم على بقية الاجناد كي يلحفوا فى طلب المال ، ووصفهم بالمنافقين ، لم يشتك من فرقة كتامة ولم يشر اليهم بالاسم .

وقد كان أحد رجالهم واسطة بينه وبين علي بن محمد الصليحي ، وقد اشار المستنصر بالله فى أحد سجلاته لهذا الأخير الى ما يفيد اتصاله بأخباره عن طريق محمد بن تميم الكتامي وابراهيم بن حسن العامري(244) .

وكان من بين كتامة نديمه ومغنيه الخاص ، ويسمى : توبة بن ميسرة الكتامي ، ويعرف أحيانا بالكتامي لشهرته وقد تزعم مدرسة فنية مشهورة كان من بينها رسامون ، ومزوقون ومغنيون ، وقد ظهرت مدرسته بعد انقراض أسرة بني المعلم المشهورة فى هذا الميدان وتشير بعض النصوص الى أن الكتامي رسم فى دار النعمان بالقرافة ، صورة تمثل يوسف الصديق

---

241 ـ نفسه : اتعاظ الحنفا 2،159،140 .

242 ـ نفسه ،2،169 ، رحلة ناصري خسرو فى مصر 56 . عبد الرحمن زكي : القاهرة تاريخها وآثارها 37 ، وعن الاحتفال به وتقاليده انظر : عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين 2،107ـ109 وعن قوة كتامة فى عهد المستنصر بالله انظر : النويري ، نهاية الارب 26 ورقة 62 .

243 ـ عبد المنعم ماجد : السجلات المستنصرية ـ تحقيق ـ سجل 56 ص 182 ، وعن ضغط سجل 56 ص 183 وكان عدد افراد فرقة لواته خمسين الفا .

244 ـ عبد المنعم ماجد : السجلات المستصرية ـ تحقيق ـ سجل 56 ص 182 ، وعن ضغط كتامة فى عهد المستنصر بالله لطلب الارزاق ، انظر : النويري : نهاية الارب 26 ورقة 62 .

وهو ملقى فى الجب عاريا ، وكان الرسم من الدقة والاتقان بحيث كان يوسف يبدو وكأنه فى الجب حقيقة)245(. وكان المزوقون هم الذين أشرفوا على زخرفة جامع القرافة ، الذي بنته أم الأمراء السيدة تغريد زوجة المعز لدين الله وهو الذي أصبح يعرف بجامع الاولياء (246) ، وحوش الأولياء او حوش أبي جعفر المنصور فى بغداد (247) .

ويرتبط باسم الكتامي الفنان مسجد توبة فى القرافة الكبرى ويقع شرقي رحبة الاقهوب بجوار ارض الطبالة ، نشب ، التي كوفئت بها لتخليدها مناسبة عظيمة وهي الدعاء للمستنصر بالله بالخلافة من على منبر جامع ابي جعفر المنصور فى بغداد (248) .

وابن ميسرة الكتامي ، صورة طيبة عن تنوع نشاط كتامة واهتمام بعض أفرادها بغير الحياة الادارية والعسكرية ورعايتهم جانب الثقافة والفن على خلاف عهد أسلافهم فى بلاد المغرب ومصر فى بدء حياة الدولة .

ولا يستبعد أن يكون لكتامة دور كبير فى حركة الفوضى التي عمت البلاد ، ومهدت فى النهاية لظهور عنصر الأرمن فى الحياة السياسية فى مصر .

وكانت مظاهر الفوضى ، بادية فى سرعة تغيير الوزراء والقضاة بسبب شكاوي الرعية منهم وكثرة الفتن بين عبيد الدولة وجندها . وقد تسبب الوزير الفلاحي فى بعضها ، عندما زاد رواتب الجند المغاربة والسودان وترك غيرهم بحجة أن أم المستنصر هي المسؤولة عن ذلك ، وقد شاعت

---

245 – القريزي : الخطط 2 ، 318 (4 ص 120 – 121 ط 1327 هـ) احمد فكري : القاهرة ومدارسها ومساجدها فى العصر الفاطمي 1،30 ، حسن الباشا دور القاهرة الحضاري (قسم 4) مقال الاهرام 21–1–1969 الموسوعة الميسرة 1442 ، اشرف عليها شفيق غربال وجماعة القاهرة 1965 ، ابراهيم جلال المعز لدين الله 97 – سلسلة (1000 كتاب) القاهرة 1963 .

246 – نفسه 2 ، 445 ، 447 ، 451 .

247 – حسن الباشا : دور القاهرة الحضاري ، احمد فكري : المرجع السابق 1 ، 29 ، سعاد ماهر : جامع اولياء بالقرافة الكبرى – مقال – الاهرام 27–10–71 وقد استفادت من خطط القريزي الذي اعتمد على كتاب « ضوء النبراس وانس الجلاس فى اخبار المزوقين من الناس » وهو فى طبقات المصورين .

248 – القريزي : الخطط 2 ، 125 ، 448 ، القلقشندي : صبح الأعشى 3،356 هامش 1 ط 1963 . الذهبي : المصدر السابق 3 ، ورقة 365 ، ابن دقماق الانتصار لواسطة عقد الامصار 5 ، 43 .

ظاهرة الانفصالية وضعف دخل الدولة من الضياع ، فى الوقت الذي زاد فيه حجم النفقات واستبد الأقوياء بالضعفاء ، واستخف الجميع بالسلطة (249) وزاد الامر سوءا صراع الجند وموت كثير منهم فى موقعة كوم الريش 464 هـ / 1071 م 250 واستمرار الفتن التي تسبب فيها ناصر الدولة بن حمدان ، بطموحه وميله الى اسقاط خلافة الفاطميين وخلع المستنصر بالله (251) .

وقد وقف المغاربة الى جانب السلطة الشرعية ، وبواسطتهم مع من انضم اليهم من الاتراك والعبيد ، هزم ابن حمدان واصبح مشردا فى اقليم الدلتا ، يقيم فى حماية سكانها الذين ناصروه بدافع الصهارة ، ولم يستطع أن يحتل القاهرة لسيطرة الأتراك ، والمغاربة عليها ، ولم يتمكن من فرض شروطه الا بعد تضحيات جمة ، كما لم يقدر له بعد ذلك أن يهنأ بالحكم ، لأن صهره ايلدكز بالتعاون مع بلدكوش ، قضى عليه واستبد بالسلطة دونه (252) ، واساء بلدكوش قائد الاتراك الى المسنصر بالله حتى اشتكى منه فى احدى سجلاته ، الى صليحي اليمن ، ووصفه باللعين (253) ، وأمام الوضع الخطير ، الذي أصبح فيه المستنصر بالله بسبب صراع الجند ، وضعف عصبية الدولة ، وتلاشي هيبتها فى النفوس ، طلب الخليفة مساعدة بدر بن عبد الله الأرمني مملوك جمال الدين بن عمار والي طرابلس ؛ لذلك عرف بالجمالي ، وكان قد عهد اليه من قبل

---

249 – نفسه 1 ، 356 ، اللهبي : المصدر السابق 3 ، 388 – 389 ، ابن القلانسي : المصدر السابق 97 – 98 ، عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين 1 ، 49 وقارن بما ورد للمؤلف فى : ظهور خلافة الفاطميين 375 .

250 – بن حماد : اخبار ملوك بني عبيد 59 .

251 – المقريزي : اتعاظ الحنفا 2،302 وما بعدها .

252 للهبي ، تاريخ الاسلام 3 ورقات 395 ، 400 (احداث سنة 465 هـ) وهنا يلاحظ أن الأتراك والمغاربة كانوا الى جانب ابن حمدان ضد العبيد والعربان أثناء موقعة كوم الريش التي انهزم فيها العبيد ، وكان ابن حمدان قد كاتب المغاربة فاستجابوا له . ابن اياس : بدائع الزهور 1 ، 59 – 61 السيوطي حسن المحاضرة 1،15 ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق 84 ، 93 ، سبط ابن الجوزي : المصدر السابق ج 12 ورقة 120 ، المقريزي : اتعاظ الحنفا ،2،309 وما بعدها . عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين 377 – 391 .

253 – عبد المنعم ماجد : السجلات المستنصرية (تحقيق) سجل رقم 57 ص 186 .

بمهمات ادارية في بلاد الشام (254) ، وبحضوره الى مصر مع الأرمن (255)، وباجراءاته الحازمة مهد لعصر جديد في حياة الخلافة ، وفي مركز فرق الجند القدماء الذين تأثر وضعهم ، وانحط شأنهم تدريجيا ، لفائدة عنصر الأرمن (256) .

وفي هذا العهد بقيت كتامة وعنصر المغاربة على شيء من النفوذ ، وقد أشير في سجل تولية المستعلي بالله الى عنصر المغاربة والمشارقة أيضا وكان من انشاء ابن الصيرفي (257) .

وقد أيد جند كتامة ولاية المستعلي ، ضد أخيه نزار ووقفوا الى جانب الافضل بن بدر الجمالي الذي تلاعب في النص لحقده على نزار ، وقاتلوا معه حتى قضى على انصار نزار ، وقبض عليه مع افتكين في الاسكندرية ، غير ان الأفضل الذي انتقم من هذين الرجلين ، تسامح مع ابن مصال اللكي ، مراعاة لموقف كتامة من ولاية المستعلي (258) ، وقد ولي الوزارة في مصر في عهد الخليفة الظافر وعندما نافسه ابن السلار والي الاسكندرية.. والبحيرة، وايده ربيبه الصنهاجي عباس بن ابي الفتوح يحي بن تميم بن المعز بن باديس ، انضم اليه جند لواتة والعربان والعبيد ، وربما كتامة أيضا كي تتأثر لعصبيتها مما حل بهم في المغرب ، على يد الأمراء الزيريين ، وتستجيب لرغبة الخليفة الظافر الذي كان يميل الى ابن مصال اللكي (259).

254 – ابن القلانسي : المصدر السابق 91 ، وقد ولي دمشق لاول مرة سنة 455 هـ ، سبط ابن الجوزي : المصدر السابق ج 12 ورقة 119 ، وهنا يستفاد منه أن ولاية بدر كانت سنة 462 هـ بحيث لم يغادر دمشق الا بعد ثورة السكان يساعدهم الامير الكتامي حصن الدولة بن مترو ، عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين 392 .

255 – الذهبي : تاريخ الاسلام 3 ورقات 400،402،403 ، ابن القلانسي : المصدر السابق 109 هامش 2 (نقلا عن سبط ابن الجوزي) .

256 – عبد المنعم ماجد : السجلات المستنصرية (تحقيق) سجل رقم 57 ص 185 ظهور خلافة الفاطمين 402 ، وقد ابقى بدر على العبيد ونكل بلواته الشاغبين المقريزي ، الخطط 2 ، 12 ، اتعاظ الحنفا 2،314 . السيوطي : حسن المحاضرة 20،19 .

257 – السيوطي : المصدر السابق 2،16 . وهنا نلاحظ أن السجل تضمن قوله : مغربيهم ومشرقيهم احمرهم وأسودهم » .

258 – عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين 413 – 414 ، المنياوي : الوزارة والوزراء 280 وما بعدها ، والذي يلاحظ هنا ان كتامة لم يشر اليهم بالاسم اثناء صراع الجند (لريحانية والحيوشية) في عهد الحافظ . وعنه انظر المقريزي ، الخطط 1 ، 357 ، اسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص 6–7 ، النويري : نهاية الأرب 26 ورقة 73 .

259 – المنياوي : المرجع السابق 280 وما بعدها ونلاحظ أنه لم تقع الاشارة الى كتامة بالاسم اثناء صراع الجند في عصر الحافظ . انظر المقريزي : الخطط 1، 357 . أسامة بن منقذ : المصدر السابق 7–8 .

وتشير بعض النصوص الى أن من دواعي اختيار الخليفة العاضد ، لصلاح الدين يوسف كي يصبح وزيرا بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه وتحاشيه لاختيار أحد القادة والأمراء النورية المعروفين ، اعتقاده الجازم بأن صلاح الدين الشاب الصغير ، سوف يكون ضعيفا أمام الخليفة ورجال الدولة فى مصر ، لعدم وجود جيش قوي يحميه ورجال يسندونه فى اتخاذ قرارات فردية بحيث يبقى فى متناول الأيدي ، تحت نظر الخليفة ، لا يرفض له أمرا أو تدبيرا ، وكانت نية العاضد ، أن يعين على جند الشام الذين صحبوا أسد الدين شيركوه ، من يستطيع استمالتهم ، فاذا نجح فى استمالة بعضهم ، ووثق من تأييدهم أخرج الباقين من مصر ، ويبقى بعد ذلك حر التصرف فى البلاد ، مستقلا عن النوريين وعن الصليبيين ، وانبنت خطة العاضد ، أساسا على الجند الكتاميين ، الذين عول عليهم فى الدفاع عن حقوق الخلافة ضد الأخطار الخارجية وفى ضبط الأمن ومراقبة تحركات صلاح الدين والجند النورية فى الداخل ، وتعني هذه الخطة أن جند كتامة بقوا حتى هذا الوقت رغم تقلب الأحوال محتفظين بمركزهم فى الجيش الفاطمي (260) . وهذا يرجح فيما يبدو اشتراكهم مع بقية طوائف الجند ، فى حركة مؤتمن الخلافة جوهر ، صاحب القصر ، وتعاطف من بقي منهم فى القاهرة بعد الهزيمة مع حركة عمارة اليمنى (261) . ومعنى ذلك انهم لم يصبحوا ضمن الرعية (262) خانعين ومشردين فى الآفاق ، الا بعد أن فشلت جميع مساعيهم من أجل ارجاع الخلافة الفاطمية والنيل من نظام الايوبيين الذي يشير مثل نظام الزيريين فى عصر المعز بن باديس ، الى نهضة السنة وانتعاش رجالها ونشاطهم من أجل محو الآثار والعقائد والتقاليد ، والمظاهر التي ارتبطت بالعصر الشيعي ، واضطهاد العناصر المتشيعة ، والتضييق عليهم وملاحقتهم فى كل حين ، أسوة بما كانوا يفعلونه بالسنة وبمظاهرها ورجالها فى المغرب ومصر . وهكذا امتحنت كتامة فى المغرب بانتعاش المذهب المالكي ، وفى مصر باحياء المذهب الشافعي ، مذهب أغلبية المصريين (263).

---

260 – ابو المحاسن : النجوم الزاهرة 6،17 (احداث 567 هـ) .

261 – المقريزي : الخطط 2،2–3 ، أبو شامة : الروضتين 1،178 وما بعدها ، 219 وما بعدها ، عبد المنعم ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين 490–493 ، ذو النون المصري : عمارة اليمني 60 وما بعدها .

262 – نفسه 2،12 . النويري : المصدر السابق ورقة 9 – نسخة م الاهلية باريس رقم 1760 على مبارك : الخطط التوفيقية 1،9–10 .

263 – نفسه 2،175 ط 1327 هـ ، وفيه قوله : « اختفى مذهب الشيعة الى ان نسي من مصر ، عبد المنعم ماجد : موقف المصريين من حكم المماليك 51–52 حوليات كلية اداب جامعة عين شمس عدد 12 سنة 1969 ، ويلاحظ هنا ان الجامع الازهر اغلق فى عصر الايوبيين واستمر كذلك حتى اعاد فتحه الظاهر بيبرس البندقداري .

واذا كانت قبيلة كتامة فى المغرب الأوسط لم يعد لها ذكر ، بعد عصر المحنة ، فانها فى مصر ، بقيت لها آثار وبقايا خالدة فى القاهرة المعزية تذكر بعصر مجدها وقوتها وسيادتها ، والأهم من ذلك بقي اسمها حيا وعلما على بعض جهات فى الأقاليم المصرية مثلما بقي حتى الآن علما على منطقة فى شمال المغرب الأقصى .

وتشير بعض النصوص الى أن العناصر المغربية التي سكنت منطقة المنوفية ، كانوا من بين أحلاف لواتة ، وهم مزانة ، وهوارة ، وبنو الشعرية ، الذين يوجد اثر يدل عليهم ويذكر بهم (264) ، ونلاحظ أن معظم مزاتة فى بلاد المغرب ، قد أخذوا بالمذهب الاسماعيلي ، وصاروا من حلفاء كتامة وأوليائهم .

ويذكر ابن دقماق فى عصره ، بني ينوط الكتاميين ، وكانت لهم دور مشهورة فى القاهرة تجاور درب رصاصة (265) ، ويشير صاحب لمعة فى اخبار المعز لدين الله الى شخصية كتامة يعرف بحسن (266) !

ولهذه القبيلة بقايا ترسبت فى منطقتي الغربية والدقهلية وتدل عليها آثار تعتبر هي :

وما يوجد فى مدينة القاهرة المعزية بعض مخلفات عصر سيادة كتامة . واهم هذه الآثار :

ـ حارة كتامة ، وهي عبارة عن الخطة التي اتخذتها فروع كتامة سكنا ، ومقاما ، سواء منهم الذين قدموا مع جوهر الصقلي واشتركوا فى تأسيس الحارة أو الذين توافدوا فيما بعد مع المعز لدين الله ، أو قبله ، أو الذين التجأوا الى مصر من منطقتي برقة ، وطرابلس ، أو هاجروا اليها من منطقة كتامة فى بلاد المغرب الأوسط .

وكانت منطقة واسعة بعضها داخل مدينة القاهرة وبعضها الآخر فى ظاهرها خارج باب الخلق (267) . وحارة كتامة تجاور حارة الباطلية

---

264 ـ المقريزي ، الخطط 1،383 ، البيان والاعراب عما بارض مصر من الاعراب 56 .

265 ـ الانتصار لواسطة عقد الامصار 4 ، 36 ، وقارن ذلك بما ورد فى المقريزي ، اتعاظ الحنفا 2،173 . حيث اشار الى موت أبي عيسى بن بيوط (ينوط) الكتامي سنة 415 هـ .

266 ـ انظر لمعة (لمجهول) ورقة 6 ، وعن عصر صاحب لمعة فى سيرة المعز ، انظر ورقة 7 ويستنتج انه عاش فى اواخر العصر الفاطمي ، ثم ورقة 12 ، ويشعر السياق هنا بانه من رجال العصر المملوكي ، ويبدو انه الاقرب الى القبول .

267 - ابن دقماق : المصدر السابق 5،37 .

شرقا ، ومن ثم اندمجت الحارتان فى وقت ما ، واضبحتا تمثلان حارة واحدة ، تعرف باسم كتامة ، واحيانا تعرف باسم الباطلية ، ولاحظ المقريزي أن مكانها فى عصره كان يقوم فيه حمام كراي ، وما جاوره ، مما وراء مدرسة الوزير كريم الدين بن غنام ، ويمتد من درب الأعسر حتى راس حارة الباطلية (268) . وموضعها الآن جنوب شرقي الجامع الازهر، وتشمل المنطقة التي تتوسطها حارة الأزهري وعطفة الدويداري ، وما يتفرع عنهما من مسالك ودروب (269) .

ـ وخط قصر ابن عمار ، وكان جزءا من حارة كتامة ، ومنه ينفذ المارة الى درب المنصورى على راس الحارة الصالحية (270) ، ويأتون اليه من ناحية مدرسة ابن غنام (271) وقد عرف فى عصر المقريزي بدرب القماحين، وهي التسمية التي غلبت عليه ، ويوجد الى جواره ، فضلا عن حمام كراي ، دار خوند الست شقراء ، وهي من الدور المشهورة فى حارة كتامة ، تنسب الى احدى بنات السلطان المملوكي الناصر حسن بن محمد بن قلاوون وقد تزوجها الأمير رويس ، ثم انحرفت ، واتضعت فى نفسها حتى ماتت فى جمادي الاولى 791 هـ / 1388 – 1389 م (272) .

ـوخوخة المطوع ، وتقع فى أول حارة كتامة ، مجاورة للجامع الأزهر ، وتؤدي اليه وهي على مسافة قريبة من اسطبل الحسام الصفدي ، وعرفت بهذا الاسم ، نسبة لفارس يعرف بالمطوع الشيرازي (273) .

---

268 – الخطط 2،10 ، النويري : المصدر السابق ورقة 8 ، الدواداري : المصدر 6،140 ؛ ابن دقماق : المصدر السابق 5،37 ، لمة ورقة 6 . القلقشندي : المصدر السابق 3،354 ، على مبارك الخطط التوفيقية 1،9 . عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين 1،204 هامش 1 .

269 ـ ابو المحاسن : المصدر السابق 4،46 هامش 4 ، وسعة الخطة وتشعب دروبها هي التي جعلتها مركزا هاما للاحداث وقد أشير الى قتل امين الأمناء ابي عبد الله الحسين بن طاهر الوزان بامر الحاكم فى حارة كتامة ودفن هناك خارج المدينة اي فى امتداد القاهرة خارج باب الخلق . انظر ابن الصيرفى : المصدر السابق 84 هامش 6 ، ابن دقماق : المصدر السابق 5،37 ، المناوي : المرجع السابق 248–249 (نقلا عن ابن الصيرفى) ، المقريزي : اتعاظ 2،108 .

270 – المقريزي : الخطط 2،40 .

271 – نفسه ،2، 36 .

272 – نفسه 2،74 .

273 – نفسه 2،45 .

ـ وخندق العبيد ، ويعتبر من أقدم آثار كتامة خارج مدينة القاهرة يجاور الحسينية ، وقد سكنه المغاربة ، نظرا لعدم انسجامهم مع السكان (274) ، ويرجح البعض انهالآن فيما يسمى حيالدمرداش(275).

ـ وقد اشرنا من قبل الى مسجد توبة بن ميسرة الكتامي ، في القرافة الكبرى (276) .

ـ حارة الحمزيين (277) ، وهي خارج باب زويلة ، ونسبت لعناصر استقروا فيها وأصلهم من قرية حمزة (البويرة) (Bouira) التي أشرنا اليها من قبل ضمن مراكز كتامة وزواوة .

ويبدو ان آثار هذه القبيلة العتيدة في مدينة القاهرة كثيرة ، غير أن بعضها زال رسمه بالهدم ، أو بنيت مكانه منشآت جديدة ، اتخذت لها أسماء أخرى .

أما آثارها في الأقاليم ، فتذكر بها منية الكتامي ، وهي منطقة ضمن الأعمال الغربية ، التي كانت قصبتها مدينة المحلة ، وقد أشير الى أن مساحة هذه الناحية كانت تقدر بسبعمائة وثمانين فدانا وكان دخلها يوازي ثلاثة آلاف ومائتي دينار (278) ، وكانت هذه المدينة أو الاقطاع اكبر من طلخا ، مساحة ، ودخلا (297) .

وضمن مركز طلخا ، في منطقة الدقهلية (280) . يوجد منزل باسم كتامة ، كان هو وضياع كفر دميرة الجديد ومناخله ، والمنيل ، وكفر دميرة القديم ، وميت زنقر ودميرة (مقر الاصلاح الزراعي الآن) من بين تفتيش

---

274 ـ نفسه 2،22 ، القلقشندي : المصدر السابق 3،356 . ط 1963 . المقريزي : اتعاظ 1،39 أ س 8،145 س 9ـ10 .

275 ـ ابراهيم جلال : المعز لدين الله 84 .

276 ـ المقريزي ، الخطط 2،448 .

277 ـ نفسه 2،4 .

278 ـابن دقماق : المصدر السابق 5،95 ، وكبرى مدن الناحية سخا ، ثم طندتا (طنطا) ، التي نمت واصبحت قاعدة الأقليم فيما بعد . انظر 88 ، 91 ، 94 منه ، القلقشندي : صبح الاعشى 3،388 ، 409ـ410 ، وانظر مختارات دي ساسي من كتاب زبدة كشف الممالك لابن فضل الله العمري في
De Sacy : Christoma Thie T. II p. 9
EI. Art Touta T. 4 p. 687

279 ـنفسه 5،94 ، ويقدر اقطاع طلخا بـ 625 فدانا ودخلها السنوي بثلاثة آلاف دينار فقط .

280 ـ ودميرة كانت مقر التفتيش (الاقطاع) واذا لاحظنا ان طلخا كانت قبل الاصلاح الاداري ضمن محافظة الغربية هي وكل من مركزي بلقاس وشربين تبين لنا ان معظم آثار كتامة خارج القاهرة انما توجد في منطقة الغربية .

(اقطاع) الأمير عمر طوسون . ولا يستبعد ان تكون منية لوزة التي كانت مساحتها ألفا وخمسمائة وثمانية وستين فدانا قد عرفت باسم فرع لوزة وهي من فروع كتامة المشهورة (281) .

وكان دور كتامة بارزا فى وضع أسس قصر المعز لدين الله وفى بناء القنطرة ، التي أقامها جوهر فوق الخليج ليعبر منها الجند الى المقس ، لحرب القرامطة (282) .

ويذكر بعصر قوة كتامة ونفوذ عنصر المغاربة فى الجيش الفاطمي عدة منشئات هامة منها :

ـ باب سعادة ، الذي ينسب لسعادة بن حيان ، الذي يوصف بغلام المعز (283) وقد ورد نجدة لجوهر وقام بجهد ضد القرامطة فى الشام وتوفي بمصر فى نهاية محرم 362 هـ . وحضر جنازته جوهر ، وصلى عليه الشريف مسلم (284) .

ـ الحارة الوزيرية وأغلب عناصرها من المغاربة الذين أهداهم الخليفة العزيز بالله الى وزيره يعقوب بن كلس ، بعد أن رضى عنه وأرجعه الى منصبه (285) ، وقد أطلق يده فى التصرف فى مصيرهم بالبيع أو بالعتق ، « وأنا ملكناه أعناقهم ، وحكمناه فيهم ، فمن أراد أن يبيعه باعه ومن أراد أن يعتقه اعتقه » (286) .

ـ حارة الباطلية وسكنها عناصر من المغرب ، قدموا مع حملة جوهر ، وسر التسمية الخاصة حسب أغلب الروايات يرجع الى قولهم « رحنا نحن

---

281 ـ ابن دقماق : المصدر السابق . 5،77 ، ولقب اللوزي يوجد فى بعض اقاليم بلاد الشام الكبرى . وعن لوزة ، وبعض قادتها فى العصر الفاطمي . انظر ابن عذاري : البيان 1 ، 302 س 16ـ17 .

282 ـ المقريزي : الخطط 1،382ـ383 ، لمة (لمجهول) ورقة 7 . وقد عرف احد ابواب القاهرة بباب القنطرة وهذا الاسم يطلق حتى الآن على احد ابواب قسنطينة .

283 ـ نفسه 1،383 ، القلقشندي ، صبح الأعشى 3،350 ، لمة (لمجهول) ورقة 7 .

284 ـ نفسه : اتعاظ الحنفا 1،128 ، 130،132 .

285 ـ نفسه ، الخطط 2،6، لمة (لمجهول) ورقة 5 . وداره فى عهد مؤلف لمة فى سيرة المعز ، ـغدت مدرسة تحمل اسم الصاحب صفي الدين بن عبد الله بن علي . وقد وقفت على فقهاء المالكية .

286 ـ ابن الصيرفي : الاشارة 91ـ92 .

فى الباطل » لأنهم تأخروا عن موعد تفريق الأموال على الجند ، فحرموا من العطاء (287) ، ومكان الحارة الآن يدل عليه وجود شارع الباطلية وكانت جنوب شرقي الجامع الأزهر (288) .

ـ حارة الجوذرية وسكانها صقالبة ورد بعضهم من المغرب وتنسب لمن كان يشرف على شؤونهم فى المغرب وهو الأستاذ جوذر ، الذي نسب اليه كاتب سيرته أبو علي منصور الجوذري ومكانها الآن فى دائرة قسم الدرب الأحمر (289) .

ويذكر بزويلة ، حارة كبرى وبئر ثم بعض أبواب القاهرة المعزية ، وتعرف اليوم باسم حارة اليهود ، بشارع الموسكي (290) .

ـ حارة البرقية ، وهم لواتة وأحلافها وقد دخلوا مصر على فترات متقطعة ، وقد بلغ بعض أمراء البرقية منزلة كبرى فى أواخر العصر الفاطمي ، ومنهم ضرغام صاحب الباب ، الذي وزر للعاضد ونافس شاور ابن مجير السعدي (291) .

---

287 ـ المقريزي : الخطط 2،8، لمة (لمجهول) ورقة 6 ، ابن دقماق : الانتصار 5،37 ، ابن ايبك الدواداري : الدرة 6،140ـ141 وترد بصيغة الباطنية ايضا ، وعناصرها من المغرب . عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين 1،195 هامش 6 .

288 ـ عبد الرحمن زكي : القاهرة تاريخها وآثارها 41 ، هامش (2) .

289 ـ المقريزي : الخطط 2،5 . ناصري خسرو الرحلة 60 ، عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين 1،196 هامش 1،عبد الرحمن زكي . المرجع السابق 40 هامش 3 .

290 ـ المقريزي ، الخطط 1،380 ، وقارن ذلك بما ورد فى 2،4 . لمة (لمجهول) ورقة 6 ، ابن دقماق : الانتصار 5،37 ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة 4،52 ، عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين 1،203 هامش 1 . والذي يلاحظ انه لا اثر لقبيلة باسم زويلة التي هي ضاحية من ضواحي المهدية اسسها عبيد الله المهدي ، وقد نسب اليها كل من سكنها من الجند والعبيد ، ويبدو ان مصطلح عبيد زويلة الذي يرد فى بعض النصوص ، يقصد به أيضا اولئك الذين جلبوا من زويلة السودان فى منطقة فزان ، وقد ذكر المقريزي أن جوهر انزل «اهل زويلة» فى المكان المعروف بهم ولم يعبر بكلمة القبيلة .

291 ـ نفسه 2،12 . ابن ايبك الدواداري : الدرة 6،139 وما بعدها .

وينسب باب الشعرية في القاهرة لطائفة من البربر يعرفون ببني الشعرية (292) اما ما يرتبط بالعداسين (293) ، في القاهرة فينسب الى أبي الحسن علي بن عمر العدلس ، المغربي ، الذي ضمن أموال كورة بوصير وأعمالها في عصر المعز لدين الله ، وخلع عليه وسار بالبنود والطبول (294) .

وقد ولي الوساطة في عصر العزيز بالله بعد موت ابن كلس « فأمر ونهى ونظر في الأموال ، ورتب العمال وتقدم الا يطلق لأحد شيء الا بتوقيعه ، ولا ينفذ الا ما قدره وامر به » (295) وتقلد مهمات ديوان الاستيفاء فيعصر الحاكم بالله واستمر حتى قتل في رجب 393 هـ / ماي 100 م — واحرقت جثته بالنار (296) .

ومن آثار المغاربة في منشآت القرافة ومؤسساتها الدينية ، يوجد مصلى الفتح ، وكان ملاصقا لمسجد الفتح وقد بناه أبو محمد القلعي المغربي المنجم الحافظي (297) ، واشار ابن دقماق الى مسجد المغاربة بجزيرة الفيل والى سويقة باسمهم تجاور كوم الترمس ، على شاطيء النيل ثم زقاق عرف بزقاق المغاربة (298) .

ودار عباس ، هي احدى الآثار التي تشير الى علاقة الفاطميين بالزيريين ودور صنهاجة في تاريخ الدولة وتنسب لركن الاسلام أبي الفضل عباس بن يحي بن تميم بن المعز بن باديس ، الذي أهلته مواهبه لكي يلي الوزارة في عصر الظافر بعد أن كان واليا للغربية ، وغدت هذه الدار منذ العصر الأيوبي في اطار درب شمس الدولة الملك المعظم توران شاه الايوبي (299) .

---

292 — نفسه 1،383 وهنا نشير الى انه لا يوجد اسم لقبيلة بربرية بهذا الاسم في المصادر التاريخية المعتمدة في انساب البربر وقبائلهم فلعلهم عشيرة تنتمي الى قبيلة من قبائل المغرب .

293 - ابن دقماق الانتصار 4،26 ويذكر درب العداسين وقارن هذا بما ورد في ج 5 ، 39 عن خط العداسين ايضا ، القريزي الخطط 2،42 ، ويشير الى سقيفة العداس ، ودرب العداس .

294 — المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،217 .

295 — نفسه 1،273 . الخطط 2 ، 284 .

296 — نفسه الخطط 2 ، المناوي : الوزارة والوزراء 242—243 ، نقلا عن ابن الصيرفي .

297 — المقريزي ، الخطط 2،454 .

298 — الانتصار لواسطة عقد الامصار 4،15،32 وانظر أيضا ج5،46 .

299 — المقريزي : الخطط 2،16،37 . عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين 1 ، 50 المناوي، المرجع السابق 285 .

ـ أما حارة المصامدة فلم تظهر الى الوجود ، الا فى عصر متأخر نسبيا ، يرجع الى عهد الخليفة الآمر ووزيره ابي عبد الله البطائحي الذي قرب اليه مقدم الطائفة ، واقامه امينا على أسراره وحارسا خاصا على ممتلكاته ، وامتاز بنو سوس منهم ، بحي خاص عرف باسمهم (300) .

وكان عنصر المصامدة فى الجيش الفاطمي كثيرين (301 ، ولم يقتصر وجودهم على مصر ، بل كان لهم فرع فى دمشق ، وقد بلغ مقدم هذا الفرع فى أواخر العصر الفاطمي ، وهو زين الدين انتصار بن يحي المصمودي ، رتبة الولاية على بلاد الشام باتفاق الجند ، وكان ذلك فى 468 هـ / 1075 ـ 1076 م أ يقبيل وصول طلائع الأتراك بقيادة اتسز ، وبعد أن غادرها آخر ولائها الكتاميين معلي بن حيدرة بن منزو (302) الذي يمثل وجوده استمرارا لوجود نفوذ كتامة وجزءا من الدور الذي مثلته هذه القبيلة فى السياسة الخارجية للخلافة الفاطمية منذ فتح بلاد الشام حتى سقوطها فى أيدي السلاجقة .

* * *

ـ وامتداد النفوذ الفاطمي ، الى بلاد الشام برهان قوي على أن مصر لم تكن هدفا مقصودا لذاته وانما باعتبارهاقاعدة مفضلة لحراسةبلادالمغرب وجزءا من المسيرة الكبرى للسيطرة على المشارق وكذلك غدت بلاد الشام بعد ضمها راس جسر يمتد نحو بغداد العباسية ، وخطا اماميا للوقوف ضد خطر الروم المتكالبين فى منطقة الثغور ، ضد المسلمين « الذين عمهم الخزي وشملتهم الذلة ، واكتنفتهم المصائب وتتابعت الرزايا ، واتصل عندهم الخوف وكثرت استغاثتهم » .

وقد كان هدف الفاطميين ، كما اتضح فى وثيقة الأمان ، « استنقاذ من أصبح منهم فى ذل مقيم وعذاب أليم » (303) .

ولما كانت بلاد الشام بحكم كونها منطقة نفوذ للاخشيديين وآلت نظريا ، وعن طريق الارث بعد تصفية نظامهم فى مصر الى الفاطميين ، وفى نفس الوقت كانت منطقة هامة فى حرب الثغور (304) ، واصبحت بعد فتح مصر

---

300 ـ نفسه ، 2 ، 16 .

301 ـ نفسه 2 ، 20 ، وقد لاحظ الرحالة ناصري خسرو أن عدد فرقة المصامدة كان عشرين الفا يوم الاحتفال بمناسبة فتح الخليج .

302 ـ ابن القلانسي : المصدر السابق 108 ، عبدالمنعم ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين 396 .

303 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،104 .

304 ـ وعن ثغور الشام والجزيرة والعواصم وكلها فى بلاد الشام ويفصل بينها جبل اللكام انظر ماريوس كنار : نخب تاريخية وادبية جامعة لاخبار الامير سيف الدولة 370 وما بعدها .

منجأ لفلول المنهزمين من الكافورية والاخشيدية الذين ضموا جهودهم الى عناصر السلطة القديمة فى بلاد الشام ، وأصبح الخطر من جهتهم متوقعا فقد بادر جوهر بضمها الى مصر ، تأمينا للحدود وتوسيعا للنفوذ الفاطمي ، الذي امتدت خطوط دفاعه « فأصبحت فى بلاد الشام وليست فى مصر ».

وكان نائبه فى قيادة الحملة الكبرى جعفر بن فلاح هو الرجل الأول الذي عهد اليه بتصفية بقايا الاخشيدية والكافورية وضم بلاد الشام فعليا الى نفوذ الخلافة الفاطمية (305) .

وكان يشرف على بلاد الشام كبير الأسرة الاخشيدية ، أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج الذي كان مركزه دمشق ، وكان على طبرية وحوران والبثنية (306) ولاة من عرب بني عقيل ، ومنهم شبيب وظالم ، وملهم ، الذي كان يشرف عن طريق غلامه فاتك على طبرية وكان على بيت المقدس عامل أخشيدي هو الصباحي ، ولما كانت الرملة ودمشق أهم مدن الاقليم التابع للاخشيديين فقد كان والي بلاد الشام يوصف أحيانا بصاحب دمشق والرملة التي هي مدينة جنوب فلسطين العظمي (307) ، وقد ظفرت بمركز ممتاز فاق أهمية بيت المقدس بسبب موقعها الاستراتيجي وقربها من حدود مصر ، وقد تعرضت اكثر من مرة لغارات قرامطة البحرين وغدت بعد فتح مصر قاعدة حربية لمواجهة الغزو الفاطمي من جهة مصر ، اذ استقر فيها الحسن بن عبيد الله بن طغج منذ شهر رمضان 358 هـ / يوليه 968 م ليخطط للمعركة القادمة مع جعفر بن فلاح ، وترك دمشق فى عهدة أحد موالي الأخشيديين ، وهو شمول ، ولأن الأخير ، كان يحقد على الحسن مكانته السياسية وسعة سلطانه ، وينتظر به فرصة قدوم طلائع الجيش الفاطمي ليخذله ، ويظهر ما بيته له ، فقد اتصل بجوهر سرا وكشف له عورات البلاد وأبان عن وجهة نظره فى الحسن بن عبيد الله ، ثم تقاعد عنه ورفض مساعدته فى الرملة رغم الحاحه عليه وعلى الصباحي وفاتك فى سرعة المجيء ، بسبب قرب العسكر

---

305 – عمر كامل توفيق : مقدمات العدوان الصليبي على الشرق العربي 66 – 67 ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 1، 120 ، ابن خلدون ، العبر 4 ، 100 ، ابن الاثير ، الكامل 8 ، 212 ، النويري ، نهاية الأرب 26 ورقة 41 – 42 ، يحي بن سعيد الانطاكي : المصدر السابق 349 وما بعدها
عبدالمنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين 109 ، جمال سرور : النفوذ الفاطمي فى بلاد الشام والعراق 16 وما بعدها .

306 – والبثنية من كورة دمشق انظر : صلاح المنجد : مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالة 13 .

307 – ابن حوقل : صورة الأرض 171 .

الفاطمية ، وتركوه مع ثلة من مساعديه يواجهون الهزيمة ، ومحنة الأسر على يد جعفر بن فلاح ، منذ منتصف رجب 359 هـ / ماي 970 م وقد ارسلوا مقيدين الى مصر ، ومنها واصلوا الرحلة صحبة الهدية التي انفذها جوهر الى بلاد المغرب (308) .

ويبدو أن حزم جعفر بن فلاح وسياسته ودعوته لولاة الأخشيديين لاعلان الولاء والطاعة للمعز لدين الله (309) ، هي التي صرفت كثيرا منهم عن مساعدة ابن طغج وادته الى الاستسلام لقوات جعفر دون مقاومة تذكر ، الا في مدينة طبرية ، التي يبدو أن واليها فاتكا غلام ملهم العقيلي ، بيت على مقاومة قوات الفاطميين ، ولذلك تحصن جعفر في نقطة استراتيجية تسيطر على الجسر وبنى معسكرا اتخذه منطلقا لحرب فاتك ، رغم أن ملهما مال الى الموادعة وتظاهر بالولاء والطاعة للفاطميين (310) . وعندما تم قتل فاتك غدرا ، تظاهر جعفر بأنه فوجيء بالحدث الذي لم يكن له به علم ، وتحفظ على عناصر التآمر من الأعراب ، وقدمهم الى ملهم ، ليقتص منهم ، فتحاشى الأخير قتلهم ، وعفا عنهم ، خوفا من الايقاع به (311) أما سكان المدينة فقد استاءوا للحادث ، والتحموا مع قوات جعفر ، وشهدت طبرية فتنة كبرى ، لم تقتصر آثارها على عناصر الخلاف وانما شملت من جاء الى المدينة في هذا الظرف الدقيق ، وهم ممثلو سكان مدينة دمشق ، الذين غادرهم شمول الاخشيدي ، وانضم الى قوات جعفر بن فلاح في طبرية (312) ، فارتاع السكان وارسلوا الى جعفر ، وفدا من شيوخهم

---

308 — المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،121 ومابعدها ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة 4 ، 27 ، 32 — 33 ، ابن أيبك الدواداري : الدرة المضية 6 ، 123 — 125 — الذهبي : تاريخ الاسلام 3 ورقة 190 . بيبرس الدواداري : زبدة الفكرة 6 ورقة 204 — 205 ، ابن الجوزي : مرآة الزمان ج 11 ورقات 5 ، 15 ، العيني : المصدر السابق ج 19 (قسم 2) ورقة 233 — 234 ، ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق 1 ، ابن الأثير ، الكامل 8 ، 212 ، عبدالمنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين 109 ، جمال سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام 18 .

309 — نفسه 1 ، 123 .

310 — المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،121 ، ابن خلدون العبر ، 4،100 ، ابن أيبك الدواداري ، الدرة المضية 6 ، 125 ، ابن الأثير الكامل 8 ، 212 ، بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة 6 ورقة 205 .

311 — ابن ايبك الدواداري : المصدر السابق 6،126 وقد كان رد ملهم على جعفر « هو غلامي وقد وهبته » بيبرس الدوادار : المصدر السابق والورقة ، ويلاحظ أن جعفرا ترك طبرية الى دمشق ، لان ملهما اقام الدعوة باسم المعز لدين الله دون أن يشير الى قتل فاتك .

312 — المقريزي : اتعاظ الحنفا ، 1،124 س 1 .

لاعلان الولاء ، ورغم أن القائد الكتامي استقبلهم بحفاوة وتبسط معهم فى الحديث فانهم تألموا من سوء المعاملة ، وعندما رجعوا الى دمشق « غير شاكرين ، ولا راضين » عن قوم جفاة قباح المناظر والزي والكلام ، ليس لهم عقول يرجعون اليها » نقلوا الى سكان المدينة صورة قاتمة وانطباعا سيئا آذى مشاعرهم ، وادخل الرعب فى نفوسهم (313)،وجعلهم يستعدون للمقاومة الجدية بتوجيه أشراف دمشق وبمساعدة بقايا الاخشيدية والكافورية الذين لم يرافقوا شمولا ، ثم عنصر الأحداث والشطار » الذين كانوا بمثابة قوة دفاعية مدنية من بين عامة السكان ، وقد استغلوا حالة القلق فى المدينة والفراغ السياسي بعد انسحاب شمول (314) ، وتفرق جنده ، لكي يظهروا عنصرا فعالا فى حماية المدينة من الغزو الخارجي ، ويبرزوا الى الحياة السياسية ويمثلوا دورا هاما فى مدن الشام الأخرى قبل وبعد الفتح الفاطمي .

ويبدو أن أوضاع دمشق وحالة الاستعداد للمقاومة هي التي أملت علي ابن فلاح خطة أساسها الانتقاص من اطراف دمشق ، وكسر مقاومة بني عقيل فىحوران والبثنية،وسكان الغوطة بجهد مشترك بين جزء من قواته واعراب مرة وفزارة ، وذلك قبل اقتحام المدينة بقوات الحملة الرئيسية . وعندما شعر بانه ابعد بني عقيل عن الميدان الى حمص ، ونال رجاله من ضواحي دمشق بعد خسائر تكبدها خف بكامل قواته (315) ، منذ يوم الخميس لثمان خلون من ذي الحجة 359 هـ ، وفرض حصارا رهيبا على المدينة ، واتخذ من يوم السبت 10 ذي الحجة معسكره ، ومقر قيادته بحي الشماسية ومن هناك أشرف على المعركة ضد أحداث دمشق واشرافها وجندها الذين قاوموا ضغط جند كتامة فترة ثم بدؤا يميلون لانهاء حالة الحرب والحصار فى اطار الاعتراف بالسيادة الفاطمية ، غير أن جعفرا بن فلاح ، لم يستجب لهم بسهولة ، قصدا لما عرفه من تقلب أهوائهم وسيطرة الشطار والأحداث ، والأشراف ، وسائر عملاء العباسيين على الوضع الداخلي ، ولذلك لقي وفد سكان المدينة معاملة سيئة أثناء محاولتهم الاتصال به فى حي الشماسية للحصول على الأمان ، كما قوبلوا بالتهديد والوعيد من جانبه عندما قابلهم بنفسه وكان هدفه فيما يبدو أن يكون هؤلاء أداة تبليغ

---

313 – نفسه 1،123 . أ س 17–19 ، ابن ايبك الدواداري : الدرة المضية 6،126 ، جمال سرور : النفوذ الفاطمي فى بلاد الشام 18 وما بعدها .

314 – نفسه 1 ، 124 . س 1 – 2 .

315 – ابن ايبك الدواداري : الدرة المضية 6،126–127 ، المقريزي ، اتعاظ الحنفا 1،124 .

لسكان المدينة ولعناصر الشغب المتطرفين ، ليشتد خوفهم وتزداد حيرتهم، عندما يعرفون مدى تصميم القائد على اخضاعهم بالقوة القاهرة ، وربما كان يريد بهذا التشدد أن ينصرف السكان عن المشاغبين ، ويتخلصوا منهم ، وبذلك تتبلور اتجاهات السلام والصلح على أساس متين ويبدو أنه نجح فى خطته الى حد بعيد ، لأن السكان وقد هالهم هذا التشدد واحتاروا فى معالجة الوضع ، لم يجدوا غير مشائخ البلد واشرافها وكان جعفر بن فلاح يميل اليهم ويقدرهم لأنهم من آل البيت ، وقد نجحت وساطتهم لانهاء حالة الحرب انما فى نطاق الذل والاهانة التي قصدها جعفر بقوله : «ماأعفو عنكم حتى تخرجوا الى ومعكم نساؤكم مكشوفاتالشعر فيتمرغن فى التراب بين يدي لطلب العفو .. وعندما أمعن فى ذلالهم وعرف استعدادهم لتنفيذ كل ما يطلبه ، بدأ يتراجع عن موقف الشدة الذي اصطنعه حتى هذا الوقت ، وتبسط فى الحديث مع الوفد ، وقرر أن يشرف بنفسه على اقامة الدعوة للمعز لدين الله فى الجامع الاموي فى يوم الجمعة ويتفقد شؤون المدينة تطييبا لخاطر السكان ، ثم يرجع الى معسكره بالشماسية .

وكان أعضاء الوفد قد بلغوا ذلك ، ورغبوا من عنصر الشطار ان يلازموا بيوتهم ، غير أن هؤلاء لم يستجيبوا لهذه الرغبة واستغلوا فرصة انتشار عسكر كتامة فى أحياء المدينة وأسواقها اثر الصلاة وقتلوا منهم كثيرين بحجة الدفاع عن النفس وعن الاموال ، فتأثر جعفر للحادث واعتبر ما حصل حركة عدائية مقصودة لنقض عهد الامان الذي تقرر مع وفد المدينة ، وانكر على المشائخ والاشراف ما حصل من الغدر برجال أمير المؤمنين وتهددهم ولم تهدأ ثورته الا عندما اعتذروا عن الحادث ووافقوا على ما اقترحه من دفع ديات ضخمة ، فدية لمن قتل من عسكره وتكلفوا بجمع المال من السكان الذين أصابهم عنت كبير فى جبايته (316) .

وتشير النصوص الى ثورة عامة شهدتها مدينة دمشق فى الجمعة الثانية اي بعد الاتفاق على مبدأ الصلح وقد تزعمها عنصر الاشراف بقيادة ابى القاسم بن ابي يعلى ، الذي كان بمثابة رئيس المدينة ينتهي السكان عند رأيه ، ويطيعه الشطار ، وقد انضم اليه عرب بني عقيل ومنهم ظالم بن موهوب وأبناء عصودا ، محمد ، واسحاق ، وكان مظهر الثورة قطع

---

316 – المقريزي : اتعاظ .1،124 – 125 . ابن خلدون : العبر 4،100 – 101 ابن ايبك الدواداري : المصدر السابق 6،127 – 128 ، الذهبي : المصدر السابق 3 ورقة 190 ، 192 ، ويلاحظ هنا ادخال الآذان الشرعي منذ صفر 360 هـ ثم الامامة منذ جمادي الآخرة من نفس السنة ، بيبرس الدوادار : المصدر السابق 6 ، ورقة 205 ، سبط ابن الجوزي : المصدر السابق 11 ورقة 15 ، ابن الأثير ، الكامل 8،212 .

الدعوة للمعز لدين الله وازالة شعار الفاطميين وارجاع الدعوة للمطيع العباسي ولبس شعار السواد ، وكانت الثورة من الخطورة بحيث أن جعفرا واجهها بقوة ، واجتهد في اخمادها وفي القبض على رؤوس الفتنة ومثيري الشغب ، ويبدو أن جهوده أثمرت في النهاية ، وفشلت الثورة وفــر زعماؤها خارج دمشق ، وبينما نجا محمد بن عصودا ، وظالم بن موهوب العقيلي بالفرار الى الاحساء حيث نجحا في الكيد للنفوذ الفاطمي بتأليب القرامطة وتشجيعهم على العودة الى بلاد الشام ، فشل الشريف أبو القاسم بن أبي يعلى ، في النجاة بنفسه الى بغداد ، فأدركه ابن عليان العدوي ، في صحراء تدمر ، وأرجعه الى دمشق لكي ينال الجزاء من قائد الفاطميين (317) ، وقد قام جعفر بن فلاح بتشهيره في المدينة على جمل ، وفوق رأسه قلنسوة من لبود ، وفي لحيته ريش مغروز ، وبيده قصبة ، ومن ورائه رجل مغربي يوقع به ، ثم أودعه السجن وأخضعه لامتحان عسير حتى رق لحاله وتأثر من مصيره ووعده التوسط عند جوهر لتخفيف العقوبة عنه وحرم ابن عليان من المكافأة وخاطب رجاله مستنكرا عليهم بقوله : « غدرتم بالرجل » ثم صرفهم عنه بدون مال ، وأرســل الشريف وبعض (318) «الاحداث» الى مصر ، أما الباقون ومعهم اسحاق ابن عصودا ، فقد قتلوا وصلبوا واحتزت رؤوسهم وعلقت على أبواب المدينة ، وفي الميادين الكبرى ، وكان فشل هذه الثورة عاملا هاما في تشريد عنصر الاشراف والحد من تطرف الأحداث ، وشغب السكان في دمشق التي استقرت أوضاعها مؤقتا ، وعادت الدعوة الفاطمية اليها ، كما كانت من قبل .

وعندما بدا لجعفر بن فلاح انه سيطر على الوضع الداخلي بتحطيــم عناصر المقاومة ، بدأ يرسي قواعد السيطرة الفاطمية ويطبق مظاهر التحول الجديد ، في الدعوة ، وفي الآذان والاقامة . وتصرف على نحو يشعر بانه اطمأن على الوضع فانتقل من معسكره بحي الشماسية الى الدكة فوق

---

317 – نفسه 126 ، بيبرس الدوادار : المصدر السابق 6 ورقة 205 ، سبط ابن الجوزي: المصدر السابق 11 ، ورقة 18 ، ابن ايبك الدواداري : المصدر السابق 6 ، 132 ، ابو المحاسن : المصدر السابق 4 ، 32-33 ومقدار ما رصد لمن يقبض عليه حيا كان مائة الف درهم .

318 – ابن القلانسي : المصدر السابق 1 ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة 4،32 ـ 33 ، ابن خلدون : العبر ،4،101 ، المقريزي : اتعاظ الحنفا ، 1،126 ، ابن الاثير ، 8،212 .

نهر يزيد (319) ، بظهر سور دمشق ، وأشرف على حركة التعمير والبناء، فاتخذ لنفسه قصرا عجيبا بناه بالحجارة وتفنن فى بنائه حتى جعله « شاهقا فى الهواء غريب البناء » وحوله بنى الجند مساكنهم ومعسكراتهم ونشطت حركة البيع والشراء فى أسواقهم واتسعت خطتهم وانبثت الحياة بين أظهرهم حتى صارت خططهم «شبه المدينة» (320) ، وعنى بالجبهة الشمالية ، وبمنطقة الثغور ، فأرسل بعوثا عسكرية بقيادة بعض مساعديه ضد الروم البيزنطيين فى الاسكندرونة (321) وانطاكية التي احتلوها منذ فترة سابقة (محرم 359 هـ / نوفمبر 969 م) . وبدءوا يضغطون بشدة على مدن شمال الشام وحلب خاصة ، استضعافا للحمدانيين ، بعد وفاة سيف الدولة (322) سنة 356 هـ ـ 967 م ، وكان قد أرسل من قبل داعيا هو أبو طالب التنوخي الى أبي تغلب ناصر الدولة بن حمدان فى الموصل يعرفه بأنه فى طريقه لاعلان الدعوة الفاطمية فى بلاده ، فرفض بشدة على أساس قرب المنطقة من بغداد ، ومن ضغط القوات العباسية ، ولخص رأيه فى قوله : « هذا ما لا يتم ، لأننا فى دهليز بغداد والعساكر قريبة منا ولكن اذا قربت عساكركم من هذه الديار أمكن ما ذكرتم»(323).

ورغم أن بلاد الشام حسب مظاهر السلطة المادية والتغييرات المذهبية ، التي فرضت فى عهد جعفر بن فلاح ، قد أصبحت ولاية تابعة لنظام الفاطميين ، فانها لم تبق عضوا صالحا ولم تحظ بميزة الاستقرار بل غدت منطقة اضطراب ، ونقطة ضعف بارزة . وانصراف الخلفاء الى معالجة مشاكلها ، وصرف طاقاتهم الكبرى فى ميادينها ، أثر على نفوذهم فى مصر ، وفى بلاد المغرب خاصة ، التي انحط شأنها وأصبحت نسيا منسيا ، ومجالا حرا لتصرفات الزيريين .

---

319 ـ وهو احد فروع نهر بردي الخمسة ، انظر : EI. Art Barada T. I p. 668.

320 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،125ـ126 ، ابن ايبك الدواداري : الدرة المضية 6 ، 129 .

321 ـ المقريزي : اتعاظ 1،126 ، ابن ايبك الدواداري : المصدر السابق 6 ، 132 ـ 33 ، وقد قاد الحملة الاولى فتوح الكتامي الذي تلقى نجدة قادها عراس . يحي بن سعيد الانطاكي : المصدر السابق 350 ، بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة 6 ، ورقة 208 ، ويلاحظ هذا المؤرخ ان جعفرا استأذن جوهرا ، فى القيام بالنشاط ضد الروم ، وقاد بنفسه حملة قوامها عشرون الفا من رجاله . عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبي 74 .

322 ـ ابن الاثير : الكامل فى التاريخ 8،214،216،217 ، ابن الجوزي : المصدر السابق ج 11 ورقات 9ـ11 ، جمال سرور النفوذ الفاطمي فى الشام ، 21ـ22 .

323 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،187 ، وقارن ذلك بما ورد فى 98 منه عن وصية المعز لدين الله للقائد جوهر وخلاصة رأيه فى بني حمدان . وما صنعه جعفر بن فلاح كشف عن اضطراب الحمدانيين وتقلبهم ، وقد ظهر ما يؤيد ذلك اثناء الصراع مع القرامطة فى بلاد الشام .

وعدم استقرار النفوذ الفاطمي في بلاد الشام من اسبابه عدم اقتناع الجماهير السنية بالحكم الشيعي واحتفاظهم بالولاء للعباسيين ، أصحاب السيادة العليا على البلاد ، وهم رعاة المذهب السني ، وأعداء الفاطميين ، واعتماد هؤلاء على عناصر مغربية مشاغبة تخالف جماهير السكان في المذهب الديني ، طبع حكمهم بالتطرف ، وجعلهم يبدون وكأنهم حكام غرباء أجانب عن البيئة الشرقية التي ترعرع أسلافهم فيها .

وملاحظة هذه الاعتبارات توضح كيف أن النضال ضد الفاطميين في بلاد الشام ، لم يكن سياسيا ومذهبيا فقط ، وانما كان يرتبط أيضا بفكرة الكفاح ضد العنصر « الاجنبي الدخيل » ولذلك لقي سكان بلاد الشام ومدينة دمشق خاصة وعنصر الأشراف والأحداث ، تأييدا فعالا من جانب العباسيين والبويهيين الشيعة ، والحمدانيين ، والقرامطة أيضا ، فجميع هؤلاء رغم اختلافهم المذهبي والسياسي وتنوع أغراضهم كانوا البا واحدا ضد الفاطميين ، ونوابهم في الشام .

وكان يمكن أن تتحطم جميع مشاريع المخالفين ويتغلب جعفر بن فلاح على المشاكل الداخلية والخارجية لو استعد ونسق مع نائب المعز لدين الله وراقب الوضع الداخلي ولم يثر خلافا مع بني حمدان غير أنه أخطأ التقدير وأثار خلافات جانبية ولذلك انهار بنيانه ولقي مصيره عند أول اصطدام بعناصر المعارضة للحكم الفاطمي التي أغراها الانتصار السريع في بلاد الشام بمتابعة نشاطها لتصفية ما للفاطميين من نفوذ في مصر .

* * *

ومعارضة القرامطة للحكم الفاطمي في بلاد الشام ، التي ظهرت فجاة كانت أخطر المشاكل التي واجهتهم في بداية اتصالهم بهذه البلاد .

وقد كان القرامطة اسماعيلية ومرتبطين بروابط ودية مع الخلفاء الفاطميين في بلاد المغرب . وكانوا يتظاهرون بأنهم يعملون باسمهم في المشرق لأنهم من اتباعهم ، وعندما كانت مصلحة الفاطميين في الضغط على الخلافة العباسية لينجح مشروع فتح مصر ، لم يتوان القرامطة في توسيع نشاطهم ضد أراضي الخلافة خدمة للفاطميين ، كما أنهم أخذوا الحجر الاسود ، ثم أرجعوه بعد سنين طويلة استجابة لرغبة أحد خلفائهم .

وكانوا من قبل قد رفضوا جميع العروض المادية (324)،واذلال الاخشيديين في بلاد الشام وهم اتباع للعباسيين (325) أن كان مفيدا لنائب الفاطميين في مصر ظاهرا ، لانه سهل على ابن فلاح مهمته في بلاد الشام فقد كان بداية للاحتكاك بين القرامطة والفاطميين الذي تحول الى حركة صراع مرير ، لم يقتصر على بلاد الشام وانما تجاوزها الى مصر ، وكان ذلك في عصر ابي علي الحسن بن احمد بن أبي سعيد بن بهرام ، المعروف بالاعصم (326) ، الذي ولي الامارة بعد وفاة ابيه سنة 359 هـ / 969-970 م وقد بنى سياسته الخارجية على أسس منها :

ـ التحرر تدريجيا من التبعية السياسية والمذهبية للفاطميين ، نظرا لتعارض المصالح بين الأسرتين (327) . وتأكيدا لهذا الاتجاه ، ابعد الحسن ابن أحمد العناصر الموالية للفاطميين من اسرة ابي طاهر وجمعهم في جزيرة (اوال) حتى لا يعتمد الفاطميون على ولائهم في التمهيد لاحداث الشقاق الداخلي ، كما لم يعترض أثناء وجوده في مكة (359 هـ) على اقامة الدعوة باسم الخليفة المطيع العباسي ، مع أن أشراف مكة كانوا يدعون للمعز لدين الله ويتقلدون الحكم باسمه منذ أن تدخل لفض خلافاتهم ودفع ديات قتلاهم (328) ، ولا يفسر موقف الحسن بن أحمد ، الا على أساس أنه محاولة للتقرب من العباسيين وبني بويه ، على حساب الفاطميين، وعندما بدأ المعز لدين الله في التحرك ضد الحسن بن أحمد بتشجيع أسرة سابور أبي طاهر رد عليه بحذف اسمه من الخطبة والدعوة للمطيع واعلان الولاء للعباسيين نكاية في الفاطميين .

---

324 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،180-181 ، وعن نشاط القرامطة ضد البصرة والكوفة انظر 182 وما بعدها ، وقد اخذوا الحجر الأسود سنة 317 هـ وارجعوه في ذي الحجة سنة 339 هـ أي في عهد أبي الطاهر اسماعيل ، ابن الاثير : الكامل 8،71،175 وقد قالوا « اخذناه بامر واعدناه بامر » وقد غزوا بلاد الشام في نفس السنة التي فتحت فيها مصر ، عبد المنعم ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين 100 وما بعدها .

325 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،186 ، الذهبي : تاريخ الاسلام 3 ورقة 189 ، ويلاحظ ان القرامطة كانت نيتهم متجهة نحو مصر ايضا لولا انتهاء فتحها على يد جوهر الصقلي ، عمر كمال توفيق : المرجع السابق 64-65 .

326 ـ ابن الجوزي : المصدر السابق ج 11 ورقة 72 ويلاحظ ان الحسن بن احمد ولد بالاحساء 278 هـ وتوفي بالرملة سنة 366 هـ .

327 ـ ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق 1 س 15-16 .

328 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،101 ، الخطط 1،353 .

– الاحتفاظ بالمركز السياسي للقرامطة في بلاد الشام كان ركنا سياسيا في سياسة الحسن الاعصم ، تمسكا بحق الفتح على أساس أن ذلك يتيح لهم مجالا للتوسع ، وميزات اقتصادية هامة تمون خزينتهم بمبالغ مالية ضخمة . وهذا الاتجاه جعل الحسن الاعصم يقف موقفا معارضا لمد النفوذ الفاطمي في بلاد الشام ويتناقض مع نفسه ويخرج عن اطار الخط السياسي لأسلافه .

ولكي يبرر نشاطه ضد النفوذ الفاطمي ، ويمهد للاصطدام الذي أعد له ، طلب من جعفر بن فلاح (329) الاستمرار في دفع الأموال الى القرامطة اعتبارا بأن البلاد ما زالت تابعة لهم في اطار سياسة الصلح التي قررها أحمد بن أبي سعيد ، والحسن بن عبيد الله بن طغج ، ويعني هذا الطلب المثير أن يصبح جعفر بن فلاح ، معترفا بنفوذهم ومتحملا لنتائج ترتبت عن توسعه باسم الفاطميين ، في أرض ارتبطت مع القرامطة برباط الصلح نظير دفع الأموال (330) ، وعلى هذا الاعتبار يصير القرامطة برباط الصلح للفاطميين في بلاد الشام أتباعا لهم في الأحساء ، ولأن الطلب غريب وانبنى على تجاهل متعمد للوضع الجديد في بلاد الشام فقد رفضه جعفر واعتبره غير معقول وترتب على الالحاح من ناحية القرامطة والرفض الحاسم من جهة جعفر الاصطدام المباشر في ميدان الشام (331) ويبدو ان جعفرا لم يتصور تدخلهم العسكري بسرعة ، ولذلك لم يستعد لمواجهتهم حتى فاجأوه وهو في قلة من أنصاره .

وقد مهد القرامطة للتدخل في شئون الشام بترحيبهم بالزعماء الفارين منها ، عقب فشل ثورتهم في دمشق ، ومن هؤلاء محمد بن عصودا ، وظالم ابن موهوب ، اللذان بسطا للقرامطة حقيقة الوضع السياسي وموقف السكان من الفاطميين وحثا الحسن بن أحمد على سرعة التدخل لنجدة سكان البلاد من بطش المغاربة (332) . وفرار هؤلاء الزعماء الى الاحساء، كان يعلم به القائد الكتامي لكنه لم يدرس عواقبه ويحذر نتائجه ، أما الحسن

---

329 – ابن الجوزي : المصدر السابق 11 ، ورقة 74 ويشير الى مكاتبة الحسن بن احمد للقائد الكتامي وتضمنت قوله يهدده :

الكتب معذرة والرسل مخبـــرة ... والحق متبـــع والخير موجـــود
والعهد ساكنة والخيـــل صافنـــة ... والسلم مبتذل والظـــل ممـــدود
وان انبتم فمقبـــــول انابتـــكم ... وان أبيتم فهذا الـــكور مشـــدود
على ظهور المطايا او يردن بنـــا ... دمشق والباب مهدوم ومـــردود

330 – وكان مقدارها سنويا ثلاثمائة الف دينار (المقريزي : اتعاظ 1،187) بيبرس الدوادار : المصدر السابق 1 س 17 ، وقدرها الذهبي بمائة الف وعشرين الفا (تاريخ الاسلام 3 ، ورقة 189) .

331 – عمر كمال توفيق : المرجع السابق 76 .

332 – المقريزي : اتعاظ 1 ، 186 ، الدواداري : المصدر السابق 6،132–133 .

الاعصم فقد اهتبل الفرصة ، وتظاهر بأنه منقذ لسكان الشام ومنفذ لرغبات زعمائهم ، ولم يكن في الواقع حريصا على غير تحقيق أهدافه في البلاد على نحو يبقيها تحت دائرة نفوذه السياسي والاقتصادي ولو بالتحالف المؤقت مع العباسيين والبويهيين .

وبدافع الحرص على التظاهر بالتمسك بالشرعية وليضمن لنفسه قدرا كبيرا من النجاح أرسل الى المطيع العباسي ، وعز الدولة بختيار البويهي ، يعرض تبعية بلاده للخلافة العباسية ، واستعداده للعمل في بلاد الشام باسم العباسيين ويطلب اعتماده واليا في بلاد الشام ، في اطار الخلافة الشرعية ، واشترط لتنفيذ ذلك أن يلقى مساعدة مادية من طرف الخلافة العباسية وولاتها . ورغم أن المطيع العباسي ، لم يتحمس لحركة القرامطة ولم يأبه لسياسة الاعتراف من جانبهم باعتبارها حادثا مؤقتا قد يزول بسرعة وأملته اعتبارات مادية صرفة ، ولخص وجهة نظره في قوله لسلطان البويهيين « كلهم قرامطة ، وعلى دين واحد ، أما المصريون فأماتوا السنن وقتلوا العلماء وأما هؤلاء فقتلوا الحاج ، وقلعوا الحجر الاسود » (333)، فان عز الدولة بختيارا ، رأى الفرصة مناسبة لاستغلال الانشقاق بين الفاطميين والقرامطة ، للتوسع على حسابهم في بلاد الشام ، فأمد الحسن بن أحمد بالعدة الحربية وبالاموال وأرسلها الى الكوفة (334) ، وطلب من أبي تغلب ناصر الدولة ابن حمدان في الموصل أن يقف الى جانب الحسن الأعصم في حركته ضد بلاد الشام ، وفي اللقاء الذي تم بينهما في الرحبة ، أظهر الحمداني استعداده لمصاحبة الحملة ، أو اللحاق بها ان دعا الأمر وسمح لجنده بالانضمام ، كما انضم اليها بقايا الكافورية والاخشدية (335) .

وفي الوقت الذي التأم فيه شمل الأحداث بقيادة الحسن الأعصم ، الذي أصبح في حالة تعبئة كاملة من الناحيتين المادية والمعنوية وصار يتظاهر بأنه يتصرف بوحي من الارادة الشعبية في بلاد الشام وفي اطار

333 — ابن الجوزي : المصدر السابق 11 ورقة 72 .

334 — نفسه 11 ورقة 18 ، وقدرها بالف الف درهم والف جوشن ، والف سيف ، والف رمح ، والف قوس ، والف جعبة ، ابن ايبك الدواداري : المصدر السابق 6 ، 134 ، المقريزي ، اتعاظ 1،187 .

335 — ابن ايبك الدواداري : الدرة المضية 6 ، 134 ، المقريزي : المصدر السابق ، 1،126 — 127،187 . وقد لاحظ الحمداني « أن العسكرين واحد » كما عبر الحسن الأعصم عن رغبته في تصفية النفوذ الفاطمي منذ زمن طويل بقوله : « هذا شيء اردت ان اسير أنا فيه بنفسي ، وانا مقيم في هذا الموضع الى ان يرد على خبرك فان احتجت الى مسيري سرت اليك » ولا سبب لذلك غير غضب الحمداني من تصرفات جعفر بن فلاح ، عمر كمال توفيق : المرجع السابق 77 .

الشرعية لتصحيح الأوضاع المنحرفة ، حيث اتخذ الاعلام السود شعارا وعليها اسم الخليفة المطيع ، وتحته شعار القرامطة الجديد « السادة الراجعون الى الحق » وزحف ضد دمشق ، كان موقف خصمه جعفر بن فلاح سيئا الى حد بعيد ، ففضلا عن أنه كان شبه محاصر فيبلادالشام بجمهور غفير من المخالفين له في المذهب الديني ، يؤيدهم الأشراف والشطار كانت علاقته بجوهر قد فترت بسبب تصرفاته ولذلك لم يكاتبه عن تطور الوضعية في بلاد الشام ، أو يطلب مساعدته بالقوات اللازمة ويبدو أن جوهرا ما كان ليقوم بعمل جاد لفائدته لما بلغه عنه ، ولأن أوضاع مصر كانت تشغله ، ويظهر أن جوهرا كان على علم بما يجري من استعدادادت لتصفية النفوذ الفاطمي في بلاد الشام بيد أنه ترك جعفرا يواجه الأزمة بنفسه مادام قد تظاهر في رسائله الى المعز لدين الله بأنه يستطيع الاستغناء عن ارشادات جوهر ومعونته وأن عمله في بلاد الشام لا يقل أهمية عما قام به القائد الصقلي في مصر (336) . وقد لاحظنا من قبل كيف أن حرصه على اقامة الدعوة الفاطمية في الموصل ، أحنق أبا تغلب ناصر الدولة بن حمدان وأغراه بالتألب مع المخالفين للنفوذ الفاطمي .

ولم تكن قوات جعفر بن فلاح مجتمعة في دمشق ، بل أغلبها كان في النواحي أو في منطقة الاسكندرية لحرب الروم ، ومن ثم لم يتم له استرجاعها الى دمشق وحشدها ضد الأحلاف المعادية على الوجه الذي أراده ، وهكذا فوجيء بقوات ضخمة لم تكن يتوقعها وهو في قلة من الأعوان.«فلم يكن الا كرجع الطرف أو دونه حتى انهزمت المغاربة» (337).

ويلاحظ أن جعفرا لم ينظم قواته ولم يختبر الحالة السائدة بينهم كما لم يقدر قوة أعدائه ، لأنه لم يرتب طلائع لتقصي أخبارهم وحركاتهم وذلك بدافع الغرور ، والاستهانة بهم ، ومن ثم « لم يشعر بهم حتى كبسوه بظاهر دمشق » (338) .

336 – المقريزي : الخطط 1،378 .

337 – نفسه : اتعاظ 1،126 ويشير هنا الى انسحاب فتوح عن انطاكية على عجل تاركا كثيرا من العلف والطعام بقصد أن يصل الى دمشق في وقت قصير ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ورقة 48 ، يحي بن سعيد الانطاكي : المصدر السابق 350 – 351 ، عمر كمال توفيق : المرجع السابق 78 .

338 – بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة 6 ورقة 116 ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،187 س 6–7 وهنا يصور الوضع بقوله « تفرق الناس عن جعفر الى مواضعهم ، ولم يفكروا بالموكلين على الطرق » ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق 1 .

وقد أخذ جعفر براي بعض اعوانه ، ففارق مركزه الحصين في مدينة دمشق ولقي قوات الأحلاف خارج المدينة « بطرف البرية » (339) ، وهذا جعل جانبه ضعيفا بسبب كثرة أعدائه ، ولو انه ترك الأمر لأحد مساعديه ، وبقي في المدينة يمده بالنجدات ، ولم يخرج بنفسه على حالتي الاستعجال ، والارتجال ، وربما كان مريضا (340) ، لأمكن الصمود ، وتدبير الدفاع عن المدينة من داخل الأبواب . ولو لفترة يسيرة ، ولما وقع الانهيار السريع لخطوط دفاعه ، عند أول لقاء بالقوات المهاجمة في قرية الدكة على نهر يزيد حيث هزمت قواته وتفرق رجاله واصبحوا بين قتيل، وأسير ، وفار ، كما قتل — هو — في ظروف غامضة ، واحتز رأسه محمد ابن عصودا ، وصلب جثته على حائط داره ، انتقاما منه لقتله أخاه اسحاق بن عصودا أثناء فشل ثورة الشريف ابي يعلى (341) .

واصبحت دمشق منذ 6 ذي القعدة 360 هـ / اغسطس 970 م ، منطقة نفوذ للحسن بن أحمد القرمطي الذي باشر جباية المال من سكان المزة ، ومنح الأمان لهم ولسكان دمشق ، كما أعلن الدعوة للمطيع العباسي، وتظاهر بأنه أمير مفوض من طرفه وأعاد شعار السواد ، والخطبة في كل المدن التي استرجعها من ولاة الفاطميين (342) ، وأهمها الرملة التي فارقها سعادة بن حيان وتحصن في يافا ولما انصرف عنها الحسن بن أحمد ترك لحصارها ظالما بن موهوب العقيلي وابا الهيجاء بن المنجا القرمطي ، ويظهر أن الأمر لم يطل بسعادة بن حيان ، حيث تركها الى مصر (343) ، التي أصبحت هدفا مباشرا للقرامطة بعد سقوط بلاد الشام .

339 — المقريزي : اتعاظ الحنفا 1، 187—188 ، ابن ظافر : المصدر السابق ورقة 48 وفيه عن مسرح المعركة قوله « لقيه جعفر دونها » .

340 — ابن الجوزي : المصدر السابق ج 11 ورقات 15 ، 18 ، النويري : نهاية الارب 26 ورقة 41—42 .

341 — ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق 2 هامش 1 ، وتعرف الدكة بالدواسة ايضا ، وقد اعتبرت من عجائب دمشق ، ابن ظافر اخبار الدول المنقطعة ورقة 48 ، عمر كمال توفيق : المرجع السابق 78 .

342 — المقريزي : اتعاظ 1، 188 ، ابن ايبك الدواداري : المصدر السابق 6، 135 ، العيني : المصدر السابق ج 19 (ق2) ، ورقات 246—248 ، بيبرس الدوادار : المصدر السابق 6 ، 116 ، ابن الجوزي ج 11 ورقة 18 ، ابو المحاسن : المصدر السابق 4 ، 59 ، عمر كمال توفيق : المرجع السابق 78—79 .

343 — نفسه 1 ، 130 س 18—19 ، 88 ا س 3—6 ، ابن الجوزي ج 11 ، ورقة 18 ، الدواداري : المصدر السابق 6، 135 — 136 ، عمر كمال توفيق : المرجع السابق 79 ولم يفارق سعادة بن حيان مصر حتى توفي لعشر بقين من محرم 362 هـ ، اي قبل وصول المعز لدين الله . انظر المقريزي ، اتعاظ 1، 132 س 3 ، ولذلك لم يقدر له ان يشترك الى جانب جوهر والمغاربة في الدفاع عن القاهرة ضد القرامطة اثناء حملتهم الثانية .

وقد استخلص جوهر الصقلي ، العبرة من قتل جعفر بن فلاح على يد القرامطة وتحاشى سعادة بن حيان الاصطدام بهم ، بسبب تفوقهم العددي وبذل جهودا جبارة من أجل تقوية مركزه فى القاهرة ، فاحتفر خندقا فى الجهة الشامية ليمنع نفاذ القرامطة الى المدينة ، ونصب عليه بابين من حديد ، وبنى القنطرة على الخليج وفرق السلاح على المغاربة والمتطوعين المصريين ، وتحفظ على ابن الفرات ووكل به من يلازمه حتى فى داره ، ويصاحبه حيثما سار (344) . ثم أجبره على البقاء فى القاهرة 345 . كما راقب بقايا الكافورية والاخشدية فى مصر ، وكان هدفه من هذه الاجراءات ، ومن التحصن بمدينة القاهرة « أن تصير — هذه — حصنا فيما بين القرامطة ومدينة مصر ليقاتلهم من دونها » (346) . وكانت هذه الاجراءات ضرورية ، لأن ضغط القرامطة على حدود مصر هيأ لعناصر المعارضة فى الداخل فرصة التحرك ، وفى الوقت الذي ثار سكان تنيس ضد واليهم واستغلوا فرصة سيطرة القرامطة على القلزم (ذي الحجة 360 هـ) (347) ، وعلى الفرما (محرم 361 هـ) فخلعوا طاعة جوهر واظهروا الدعوة للمطيع العباسي ، وشعار السواد ، وزعت مناشير وجد شيء منها فى الجامع العتيق ، وتضمنت التشهير بجوهر وتحذير السكان منه (348) ، وظهرت ثورة عباسية فى الصعيد . وتحرك سواد الرعية لترديد بعض الشعارات المعادية للشيعة (349) ، كما مال الجند المصريون الى العصيان .

وقد واجه جوهر هذه التحركات المعادية بحزم وبحكمة فأدب ثوار تنيس ، والصعيد ، ووبخ السكان على ترويجهم للدعايات السيئة ، واثارتهم للعنف استغلالا للظروف الدقيقة ، وقد اعتذر السكان ، ورجع الهدوء الى مدينة الفسطاط واستقر الوضع الداخلي حتى مستهل ربيع الاول 361 هـ حيث بدأت المعركة الحاسمة مع القرامطة حول الخندق ، وبعد قتال عنيف استمر عدة أيام انتهت المعركة لصالح جوهر ، وجند كتامة وانهزم الحسن الأعصم واحلافه من بني عقيل وطي ، وبقايا الكافورية ، وانسحب ليلا عن طريق القلزم الى بلاد الشام ، ومنها الى الاحساء ، بعد أن ترك أبا الهيجاء عبد الله بن علي بن المنجا فى دمشق يساعده ظالم

---

344 — المقريزي ، اتعاظ 1 ، 129 س 1—4 .
345 — نفسه 1،130 س 6 .
346 — نفسه ، الخطط 1 ، 361 .
347 — نفسه ، اتعاظ الحنفا 1،129 .
348 — نفسه 1،129—130 .
349 — نفسه 1 ، 130—131 .

بن موهوب العقيلي ، ومهمتهما المحافظة على ولاء بلاد الشام وجباية خراجها ، وكان الحسن يقرب أبا الهيجاء ، ويعتمده ، وذلك ما أغضب ظالما وجعله ينسحب من الحلف ويبقى في بعلبك بعيدا عن نفوذ القرامطة والفاطميين الى حين (350) .

واذا كانت جهود جوهر قد كللت بالنجاح فان رغبته في قتل الحسن الأعصم أو اسره حيا ، لم تتحقق رغم انه رصد لمن ينجح في ذلك ، ثلاثمائة الف درهم وخمسين خلعة وخمسين سرجا بحلي على دوابها (351) . ومعنى ذلك أن المشكلة لم تجد حلها النهائي بعد ، ذلك أن الحسن الأعصم الذي انسحب مؤقتا (352) ، لمزيد من الاعداد ، دبر خطة جديدة أساسها الضغط على مصر بحرا ، وبرا ، وشعور جوهر بحدة المشكلة دفعه الى مكاتبة المعز لدين الله يستحثه على القدوم الى مصر ، فاستجاب وأسرع « وهو يظن أنها ستخرج من يده قبل وصوله اليها » (353) . كما أمد جوهرا بنجدات برية هامة (354) .

وبفضل اخلاص جند كتامة وشجاعتهم وبأس ابن عمار تحطمت مشاريع القرامطة ، ففشل الغزو البحري لمصر عن طريق تنيس وغيرها من سواحل مصر (555) ، وانزلت بهم هزيمة في الحوف (356) . واسر كثير من رجالهم واحتجزت سفنهم واعلامهم وعدتهم (357) .

ويبدو أن المعز لدين الله لم يكن يتصور مدى خطورة الحركة وهو في بلاد المغرب ، لأن تفاصيلها لم تبلغه كما وقعت فعلا ، فلما استقر في القاهرة

350 – ابن أيبك الدواداري : الدرة المضية 143،6–144 ، المقريزي ، اتعاظ الحنفا 130،1، 188 هامش 1 ، بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة 6 ورقة 213 ، ابن الجوزي : المصدر السابق ج 11 ورقة 18 .

351 – المقريزي : اتعاظ الحنفا 130،1، 131 .

352 – ابن ظافر : اخبار الدول المنقطعة ورقة 48 ، وهنا يلاحظ أن الاعصم انسحب وهو في قمة نجاحه بدون سبب معروف .

353 – ابن ايبك الدواداري : الدرة المضية 144،6 ، ابن ظافر : المصدر السابق ورقة 48 .

354 – المقريزي : اتعاظ الحنفا 128،1، 130، 131 .

355 – نفسه 142،1، 188، 189 ، بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة 6 ، ورقة 214 .

3 ، 367 . البغدادي : مراصد الاطلاع 330،1 .

356 – نفسه 1 ، 133 س 7 وعن الحوف الشرقي والغربي أنظر ياقوت ، معجم البلدان 3 ، 367 . البغدادي ، مراصد الاطلاع 1 ، 330 .

357 – نفسه 142،1 – 143 .

وعرف تأثير الحركة وابعادها ، حاول أن يعالج مشكلة العلاقة مع القرامطة ، بالطرق السليمة ، فأرسل بيانا سياسيا مطولا الى الحسن بن أحمد يذكره بماضي القرامطة فى النضال الى جانب الفاطميين اتباعا مخلصين (358) ، وينكر عيه الاتجاه التخريبي الجديد ، الذي تبناه على غير سبب معقول أو أساس مقبول ، الا تشويه الحركة الاسماعيلية واحداث الانشقاق فى صفوف الاخوة والحلفاء الطبيعيين ، وسفك دماء الأبرياء تعطشا الى السلطة ورغبة فى محالفة الأعداء والمتربصين ، وهم العباسيون والبويهيون والحمدانيون (359) .

ولما كان رد الحسن الأعصم على بادرة المعز لدين الله جافا ومعبرا عن الاستمرار فى السياسة العدائية ومتضمنا للسخرية منه ، لاطنابه فى الحديث دون فائدة ونصه « وصل الينا كتابك الذي كثر تفصيله وقل تحصيله ، ونحن سائرون اليك على اثره والسلام » (360) لم يبق غير المواجهة الحقيقة فى ميدان الحرب .

وقد جرت المعركة هذه المرة منذ شهر رجب 363 هـ / مارس 974 ـ فى ظروف تختلف عن ظروف الحرب الأولى ، فالجبهة الداخلية فى مصر أصبحت أكثر تماسكا بسبب اشراف المعز لدين الله بنفسه على المعركة وقد أراد الحسن الأعصم أن تكون الثورة شاملة للصعيد وللدلتا ، واعتمد خاصة على تفجير الوضع الداخلي ، والنيل من الجبهة ، باستمالة عناصر المعارضة ، وقد نجح فى جذب فريق من الأشراف يتزعمهم عبد الله بن عبيد الله أخو مسلم ، الذي أعلن ثورة فى الصعيد ، وجبى الأموال ونكل بجند كتامة ، واستقر فى أخميم ، ولم يبرحها الى الشام ، ثم الى الاحساء ، حيث لقى مصيره قرب البصرة (361) ، الا بعد أن سمع خبر هزيمة القرامطة أمام

---

358 ـ المقريزي ، اتعاظ 1،189 وفيه ما يوضح كيف ان القرامطة كانوا « يمخرقون بالمهدي ، وأن دعوتهم اليه ، ويراسلون المنصور ويخرجون الى أكابر أصحابهم أنهم من أصحابه » ، النويري : نهاية الأرب 26 ورقة 44ـ45 .

359 ـ نفسه 1،189ـ201 . ابن ايبك الدواداري : الدرة المضية 6،149 ـ 156 ، بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة 6 ورقة 114 ـ 115 ، وقد تضمن قول المعز يخاطب الحسن « فاما أنت أيها الغادر البائن .. الخارج عن الجماعة والسنة » . ابن ظافر : اخبار الدول المنقطعة ورقة 48 وقد عقب على كلام المعز بقوله : « لا يكتبه الا مارق عن الاسلام » .

360 ـ نفسه 1،202 ، ابن ايبك الدواداري : الدرة المضية 6،156 ، ابن ظافر : المصدر السابق ورقة 48 ، بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة 6 ورقة 123 ، ابن الأثير : الكامل : 8،229 .

361 ـ نفسه 1 ، 202 ـ 205 فى مكان سمي النصيرية . وقد سمه القرامطة لاختلافهم معه فى الراي حول التعبئة للحرب ضد الفاطميين .

خندق القاهرة ، ثم انسحاب الحسن بن أحمد ، على حالة سيئة ، الى الاحساء عبر بلاد الشام،بعد أن تفرق عنه رجاله وتآمر عليه بنوطيء وزعيمهم حسان بن مفرج لقاء أموال كثيرة وعدوا بها من طرف المعز لدين الله الذي هالته قوة الأحلاف ، ولم يجد وسيلة للنجاة غير تفريق كلمتهم وتخذيل بعضهم عن بعض (362) .

ولم يبق أمام المعز لدين الله — وقد نجح في حماية القاهرة من السقوط الا تصفية آثار القرامطة ونفوذهم في بلاد الشام واعادتها ولاية فاطمية كما كانت ، وقد تولى تنفيذ هذه المهمة ، أبو محمود ابراهيم بن جعفر بن فلاح بمعية قوة من كتامة ، وبمساعدة ظالم بن موهوب العقيلي ، الذي مال الى التعاون مع الفاطميين ، وبالتنسيق بين هذين القائدين بناء على رغبة المعز لدين الله ألقى القبض على أبي الهيجاء وبقايا القرامطة واعوانهم من بين الأحداث ، وفقهاء السنة وأشهرهم أبو بكر محمد بن أحمد النابلسي الزاهد المالكي الذي عرف عنه التطرف في عدائه للفاطميين ، ولجند كتامة وأرسل الجميع الى القاهرة حيث طيف بهم على الابل بالبرانس والقيود (363) وبينما اكتفى المعز لدين الله باعتقال القرامطة فترة (364) ، ثم اطلق

---

362 — المقريزي : اتعاظ الحنفا 1، 202—206، 230 ، ابن ايبك الدواداري : الدرة المضية 6، 159 — 160 بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة 6 ، ورقة 215 — 216 ، ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق 3 .
وجهود المعز في ميدان الحرب ضد القرامطة التي اشترك فيها ابنه وحجته عبد الله ، وجند كتامة وعنصر الأشراف والمتطوعون المصريون وبذله الاموال بسخاء وتوزيعه السلاح على الرجال كانت من بين العوامل الاساسية في الهزيمة التي مني بها الحسن الاعصم وذلك قبل انسحاب بني وطيء من الميدان .

363 — نفسه 1، 206 ، 208 ، 210 ، وقد اتصل النابلسي بجعفر بن فلاح في الرملة ، ونهاه عن السلب والنصب فاستجاب له ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق 1 س 11 ، ابن الجوزي : المصدر السابق ج 11 ورقة 17 . وقد نقل عن النابلسي قوله : « لو ان معي عشرة اسهم ، لرميت تسعة في المغاربة وواحدا في الروم » وقد اعترف بذلك امام المعز لدين الله . انظر ابن القلانسي ذيل 4 ، هامش 1 . وعنه انظر عياض : ترتيب المدارك ، مجلد 2 ، ج 3 ، 302 . ويلاحظ ان موقفه من كتامة والفاطميين في بلاد الشرق هو صورة من موقف الفقهاء المالكية منهم في بلاد المغرب . كما ان سياسة الفاطميين تجاه المالكية في مصر وبلاد الشام لم تتغير ، انظر المقريزي: اتعاظ الحنفا 1، 273 س 10 .

364 — نفسه 1، 211 .

سراحهم وخلع عليهم (365) قتل النابلسي ، ومثل به فأصبح فى نظر أهل السنة شهيدا ، واليه ينسب بنو الشهيد من سكان نابلس (366) .

وكانت هذه حركة مقصودة ، للتأثير على القرامطة حتى يراجعوا سياستهم تجاه الفاطميين ، وفى هذا المعنى أنفذ رسولا الى الاحساء منذ شهر شوال 364 هـ (367) وقد تلقى جوابا منهم فى منتصف ذي القعدة 364 هـ / يوليه 975 . « فخلع على الرسول ، وعلى جماعة معه وحملوا » (368) ، وقد اكده الحسن الأعصم برسالة الى المعز فى ربيع الآخر 365 هـ / ديسمبر ـ ـ 975 م وتضمنت الرجوع الى الولاء والطاعة للخلفاء الفاطميين (369) . واستمر الوضع على هذا النحو حتى توفي المعز لدين الله . ورغم أن القرامطة لم يقطعوا صلتهم ببلاد الشام . بسبب مكاتبتهم للمغامر افتكين يعدونه بالعودة الى الميدان ، فى أخريات حياة المعز لدين الله ، وهو الأمر الذي لم يخف عليه ، فان وفاته كانت حدا فاصلا ، جعلهم احرارا فى الحركة الى بلاد الشام ، نصرة للعناصر المعارضة للحكم الفاطمي فيها ، وتوالت النجدات ، بقيادة اسحاق وكسرى ، وجعفر من قادة القرامطة ثم انضم الحسن الأعصم اليهم فى نهاية الأمر (370) ، وكان ظهوره ، بداية لانقلاب الوضع فى بلاد الشام لغير صالح الفاطميين ، وقائدهم جوهر الصقلي .

وعندما نجح العزيز بالله فى ازالة خطر المغامر افتكين وضمه الى صنائعه وأدخله الى مصر ، لم يستجب الحسن الأعصم لنداء الخليفة بالاجتماع به ليخلع عليه ، ويصطنعه ، فالتزم من تلقاء نفسه بمساعدة مالية تدفعها خزينة الخلافة الى القرامطة فى كل سنة وواظب على ارسال المعونة (371) ولذلك استمرت العلاقة ودية ، ولم يستغل القرامطة بعد وفاة الحسن الأعصم مشاكل الفاطميين فى بلاد الشام ، بل تلقى العزيز منهم سنة 382 هـ / 992 ـ 993 م ما يفيد أنهم على الطاعة والولاء ، وعلى استعداد لنصرته

---

365 ـ نفسه 1،216 . وقد اغتم المعز لدين الله لقتل بعض اسرى القرامطة ، وتصدق واعتق . انظر ، اتعاظ الحنفا 1،209 .

366 ـ العيني : المصدر السابق ج 19 (ق 2) ورقة 299 ، وقارن ذلك بما حصل لضحايا الشيعة فى بلاد المغرب . أبو شامة : الروضتين فى اخبار الدولتين 1،202 ط 1287 هـ .

367 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،222 .

368 ـ نفسه 1،223 ، وقارن ذلك بما ورد فى ص 206 هامش 1 منه .

369 ـ نفسه 1 ، 227 .

370 ـ نفسه 1،238-241 .

371 ـ ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق 20 ـ 21 .

عند اللزوم (372) . وهكذا يكون الخليفة العزيز بالله ، قد واجه مشكلة العلاقة مع القرامطة بشجاعة وواقعية واقر تسوية سياسية تضمنت الاستجابة التلقائية لما كان يتعلق به القرامطة من وراء زحوفهم ضد بلاد الشام واستمرت التسوية سارية المفعول حتى عصر الحاكم بأمر الله اذ تشير بعض النصوص الى توتر العلاقة بين القرامطة والفاطميين في عصره ، ربما ، لأنه مال الى قطع المعونة المالية ، أو لاغراقه في الشذوذ ، وقد كان عنوان التوتر ، رسالة أرسلها زعيم القرامطة الى الحاكم بأمر الله يهدده ، ويتوعده شرا ، ويطلب منه الاستسلام ، « لتكون آمنا على النفس والمال والأهل والولد » (373) فأجابه الحاكم مسفها رأيه ومستهينا بقوته ومهددا له بسوء العاقبة بقوله « فيجب أن تعلم أن قد أحاط بك البلاء ونزل بك الفناء ، فما أنت جئت بل الله جاء بك » (374) وعند هذا الحد ، لا تشير النصوص بعد ذلك الى حركات أو زحوف قرمطية ضد مصر أو الشام بسبب انصرافهم الى مشاكلهم الداخلية ، والى معالجة الأخطار الخارجية التي تعرضوا لها منذ زمن طويل ، من جهة بني بويه (374) ، وبعض الغامرين (375) ، ومن ثم لم تشر الى نتيجة توتر العلاقة بينهم وبين الحاكم بأمر الله .

* * *

ويلاحظ أن تطور العلاقة بين القرامطة والفاطميين منذ فتح بلاد الشام حتى عصر الحاكم بأمر الله لا يمكن أن تكون أسبابه مادية صرفة بسبب أن المبالغ المالية التي قررت لهم سواء في أواخر عهد الأخشيديين أو في عصر العزيز بالله كانت زهيدة نسبيا ، ولعل استمرار حركة العداء ، يفسرها انشقاق في صميم العقيدة الاسماعيلية بسبب اجتهاد القرامطة ، كالذي حدث في المغرب ، قبيل وفاة أبي عبد الله الشيعي أو في مصر عقب وفاة المستنصر بالله ولعل الشك في صحة نسب الفاطميين كان وراء لأزمة (377) .

---

372 - المقريزي : اتعاظ الحنفا 274،1 س 4 .

373 - سجلات موحدية . ورقة 23 ب ، خ تونس 18289 .

374 - نفسه ورقة 24 أ .

375 - المقريزي : اتعاظ الحنفا 206،1 هامش 1، ابن الأثير : الكامل 40،9 عبد الحميد يونس : الهلالية في التاريخ والادب الشعبي 57 .

376 - نفسه 207،1 ، ابن الأثير : الكامل 15،9-21 وقد اشير في النصوص الى محاولة غزو بويهي للاحساء في عهد عضد الدولة بن بويه كما وقع صدام بين القرامطة والبويهيين حول الكوفة ، وتعرضت الاحساء لغزو خارجي تزعمه بنو المنتفق ، بقيادة الأصفر وقد انهزم القرامطة فانكسرت شوكتهم « وزال من حينئذ باسهم » .

377 - وقد ثار جدل بين زعماء القرامطة حول العلاقة مع الفاطميين . ولوحظ اثناء الجدال مطالبة كسرى بن ابي طاهر سليمان بن ابي سعيد الجنابي ، لقومه بالتسليم وبالطاعة للخليفة الفاطمي وأوضح أمامهم انه كان يسمع من ابيه وعمومته انه الامام وصاحب الأمر ، وقد رفض اقتراحه ، ودعي الى مجلس مناظرة ، ثم قتل في ظروف خاصة أنظر المقريزي : اتعاظ الحنفا 238،1 ، هامش 3 .

ولم يستطع القرامطة الوصول الى أهدافهم بارجاع السيطرة على بلاد الشام ، والضغط منها لاسقاط نظام الخلافة الفاطمية فى مصر وأصبحت القاهرة حصنا حصينا يقي السلطة الشرعية من اية حركة انفصالية . وهزائمهم المتوالية أمامها أصابت هيبتهم وحطمت كبرياءهم ووضعت حدا لتوسعهم وكانت بداية لمتاعبهم الداخلية ، ويفسر فشلهم فى حركتهم العدائية ضد الفاطميين بجملة أسباب منها :

ـ افتقار حركتهم الى الأساس العقائدي الواضح وتناقض موقفهم ، فكانوا وهم الاسماعيلية ـ حلفاء للعباسيين ولكل المغامرين ، ضد أئمة الاسماعيلية ، وهم الفاطميون .

ـ وقد اعتمد القرامطة على عرب بني عقيل ، وهؤلاء كانوا بمثابة المرتزقة ، وهواهم كان متقلبا ، وليست لهم مبادىء مذهبية أو سياسية واضحة يحاربون من أجلها ينضمون الى أية حركة فوضوية ، رغبة فى السلب والنهب ، وكان ميلهم فى الغالب مع الذين يدفعون المبالغ المغرية ، وكان دورهم فى هزيمة القرامطة واضحا ، ولم ينته دورهم المشبوه ، عند هذا الحد ، بل سوف نلاحظ ان بني طيء لم يتورعوا عن فصل جنوب بلاد الشام عن النفوذ الفاطمي ، واقامة خلافة علوية منافسة للفاطميين فى بلادهم .

ـ وعدم اطمئنان العباسيين الى القرامطة هو الذي جعل مساعدة البويهيين لهم فى عصر عز الدولة بختيار محدودة ، ورمزية ، واقتصرت على ميدان الشام فقط (378) .

* * *

ـ واذا كانت مشكلة القرامطة ، قد وجدت حلها ، فان أخطر المشاكل الداخلية ، وهي مشكلة أحداث دمشق وشطارها بقيت تمثل عقبة فى سبيل توطيد النفوذ الفاطمي فى بلاد الشام .

ويعرف عناصر الشغب أيضا بالدعار، والعيارين، والسعاة (379) والمشالح

---

378 ـ وقد حرص العزيز بالله على التقرب من عضد الدولة بن بويه استجلابا له ، فكاتبه عدة مرات ، وتلقى منه ما مضمونه «صدق الطوية وحسن النية» ، الذهبي : تاريخ الاسلام 3 ورقات 210،11،214،215 ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،261 . عما قام به فى بغداد مبعوث خاص من طرف العزيز بالله سرقة السبع الفضي الذي كان يزين به صدر زبزب عضد الدولة (سفينة نهرية) وذلك للتأثير على موقفه ، ودرا خطره على بلاد الشام . انظر : ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق 23 . أ س 11 ـ 13،24 .

379 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،208 ، اليافعي : مرآة الجنان وعبرة اليقظان 2 ، 379 ـ 380 ط . بيروت 1970 ، وقد أورد اماري نصا تسبه لليافعي فى : المكتبة الصقلية ص 509 . ابن القلانسي : المصدر السابق 1 ، 8 وفى اماكن كثيرة ، ابن ايبك الدواداري : الدرة المضية 6،166 .

(380) والزناطرة (381)، وأوصافهم كما أجمعت عليها النصوص القليلة التي تحدثت عنهم هي ، حمال السلاح ، وطالبو الشر ، ورؤوس الفتنة واهل الشرة .

ونشاط الاحداث يدخل فى اطار حركات العامة (382) ، لدوافع اقتصادية واجتماعية التي عرف منها الشرق العربي ، ثورة الزنج ، وغيرها ، اذ كان أغلب الأحداث من بين الطبقات الدنيا فى مجتمع المدينة ، ومن العاطلين والفقراء ، وممن لا عمل لهم ، غير تأجير انفسهم وتطوعهم لاثارة الشغب ضد العناصر الحاكمة ، لانهم عند تهييج الفتن ، يصبحون أهم العناصر القوية فى المدينة ، بحكم اشرافهم على القتال ، وقد كان عملهم لقاء أجر ، كما كانوا يفرضون أحيانا أتاوات معينة تسمى الخفارة (383) .

وفى أغلب الحالات كانت مهمتهم دفاعية ، ومدنية لأنهم عناصر مدنية غير عسكرية ، الا فى ظروف الحروب الخارجية ، فانهم حينئذ ينضمون كحرس وطني ، الى فئات الجند العاملين ، أعوانا ومساعدين . وكانت قيادتهم من بينهم، وأحيانا يلتفون حول أسرة من الأسر الغنية ويسلمون قيادتهم الى احد رجالاتها ، مثل علاء بن الماورد ، الذي كان مستبدا بشئون مدينة دمشق (384). وقادة الاحداث يلقبون بالرؤساء ، وبالقواد أيضا (385)، ويفرضون انفسهم على السلطات الرسمية كأنهم عناصر السلطة الموجهة فى المدينة .

واذا كان عنصر الاحداث قديم النشأة فى المدن الاسلامية ، فان نشاطهم الحاسم ، ظهر فى عصور الفوضى والحروب الاهلية والخارجية والفتن المذهبية والأزمات الاقتصادية وخاصة منذ القرن الرابع الهجري . ولم

---

380 – ابن ايبك الدواداري : المصدر السابق 6، 166 ، وقد اضاف لقبا جديدا هو لقب الحرامية ايضا .

381 – ابن الاثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية 107 .

382 – عبد العزيز الدوري : مقدمة فى التاريخ الاقتصادي 72 بيروت 1969 .

383 – الذهبي : تاريخ الاسلام 3 ورقة 200 – 201 المقريزي : اتعاظ الحنفا 1 ، 212 ، 253 ، 257 .

384 – ابن القلانسي : المصدر السابق 8ـ9 .

385 – الذهبي : المصدر السابق ، 3 ، ورقة 200 – 201 ، المقريزي ، اتعاظ 1، 212 ، 239 هامش 3 .

يقتصر نشاطهم على مدينة دون اخرى ، أو اقليم بعينه ، بل لعبوا دورا هاما فى تخريب الحياة السياسية والاقتصادية والعمرانية فى مدن العراق لا سيما بغداد التي عرفت فصولا محزنة من نشاطهم حتى أصبحت الحياة فى بغداد فى العصر البويهي حالكة السواد (386) ، ولم يخل مصدر من مصادر هذه الفترة من اشارات متعددة الى نشاطهم التخريبي ، وعرف من بين اشهر عياري بغداد البرجمي (387) ، الذي اساء الى المجتمع ، واشاع جو الفوضى والنهب والسلب فى احياء بغداد ، ثم أسود الزند ، الذي عاث فسادا فى بغداد ، ثم غادرها الى بلاد الشام حيث اشاع جو الفوضى ، وتعاون مع أحداثها ، حتى هلك (388) .

وامتد نشاط العيارين الى القاهرة أيضا وقد ادب المعز لدين الله جماعة منهم وأودعهم السجن لانهم كانوا يؤذون الناس (389) ، وأشار مؤرخ مصري الى وجود اقطاعية كبرى فى الغربية ، تعرف بمنية الزناطرة (390) . أما نشاطهم الواسع ، ومساوىء تسلطهم فقد انعكست على الحياة العامة فى بلاد الشام منذ فتحها على يد جعفر بن فلاح حتى استيلاء الأتراك السلاجقة عليها .

وقد بلغ نفوذهم الى حد ان دمشق أصبحت مقسمة بين رؤسائهم ، الذين تميز كل واحد منهم عن غيره بأشياعه وحزبه ، وشعاراته الخاصة (391) . ومن بين زعماء الأحداث فى دمشق ابن شرارة وابن بوشرات وابن المغنية ، وعلاء بن الماورد ، وابن الجسطار الذي وصف بأنه كان من « مقدمي الأحداث وحملة السلاح وطالبي الشر » ومن أهم رجاله ، قسام التراب الحارثي (392) الذي تصدر الأحداث السياسية فترة طويلة فى مدينة دمشق .

---

386 – حسين امين : تاريخ العراق فى العصر البويهي 57–59 ، مجلة كلية الآداب – جامعة الاسكندرية ، مجلد 17 ، سنة 1963 . وانظر كلود كاهين فى مقال الاحداث :
EI. Art Ahdath T. I p. 264 2e Edition

387 – الذهبي : المصدر السابق 3 ورقات 322،326،328،329 ، العيني : المصدر السابق 19 (ق 5) ورقات 810 – 812 ، ابن الاثير : الكامل 9،152 .

388 – نفسه ورقة 200 – 201 .

389 – المقريزي : اتعاظ 1،208 .

390 – ابن دقماق : المصدر السابق 5،98 وقد لاحظ ان دخلها يساوي سبعمائة دينار ، اما مساحتها فتقدر بمائة وسبعة وتسعين فدانا ونصف فدان .

391 – المقريزي : اتعاظ 1،212 ، 257 س 1–2 .

392 – المقريزي ، اتعاظ 1،213،258 ، ابن القلانسي : المصدر السابق 26 – 27 ، ابن ايبك الدواداري : المصدر السابق 6،166 .

ورغم ان السكان وعنصر الأشراف كانوا يعرفون ميل الأحداث الى الشغب والشر وسفك الدماء وتهييج الجند فان التلاحم بينهم أثناء فترات الصراع مع جند كتامة وولاة الفاطميين كان تاما ولم تفرضه الضرورة فحسب بل أن عامل الخوف من بطشهم بالسكان كان ملحوظا . وقد واجه جعفر بن فلاح ، أول ثورة عارمة، حركها الاحداث والأشراف فقبض على رؤوسائها ونكل بمؤيديها ، فرجع الهدوء نسبيا ، حتى وفاته ، وكان اضطراب أوضاع المدينة ، بسبب سيطرة القرامطة ، عاملا لظهورهم من جديد ، وقد استغلوا ميل الجند المغاربة الى السلب والنهب ، وضعف أبي محمود وتواطؤ ظالم بن موهوب العقيلي لكراهيته وجود القائد الكتامي رقيبا عليه ، ورجعوا الى النشاط التخريبي من جديد ، وقد عمت دمشق الفتن والفوضى والحرائق ، وسياسة السلب والنهب والاعتداء على الحرمات والمتاجر ، « واضطرب الناس وخافوا وخربت المنازل وانقطعت المواد وانسدت المسالك وبطل البيع والشراء ، وقطع الماء عن البلد فبطلت القنوات والحمامات ومات كثير من الفقراء على الطرقات من الجوع والبرد » (393) وكانت هذه الأيام حالكة السواد فى تاريخ دمشق اذ فقد السكان الأمن والراحة ، ولم يبق لهم مع الفئات المتصارعة، « لا مال ولا حريم، ولا روح » (394) وبذل أبو محمود وابن اخته جيش بن الصمصامة جهودا مضنية من أجل تهدئة الوضع ، بكف أذى الجند عن السكان ، وعزل الأحداث عنهم وقد استعان أبو محمود بتنظيم مصلحة الشرطة ، وعهد بها الى اثنين أحدهما مغربي والآخر من بقايا الأخشيدية ، واستجابة لرغبة السكان عزلهما ، وعين أبا الثريا الكردي ، الذي اعتمد عليه فى ضبط الأمن ، وفى الحد من نشاط الأحداث بمحاولة قتل زعيمهم ابن الماورد (395) ، أو اعتقاله ، وعندما فشل الكردي فى مهمته ، وازداد تدهور الوضعية الداخلية وتضرر السكان ، تدخل مشائخ المدينة ورؤساؤها وأولو الرأي فيها ، لدى أبى محمود ، يطلبون منه الأمان ، والعفو عن السكان ، وكي يستجيب اليهم ويتأكد من صدقهم ورغبتهم فى السلم ، ومعارضتهم للاحداث ، « فتح المسلمون المصاحف والنصارى الانجيل ، واليهود التوراة واجتمعوا بالجامع وضجوا بالدعاء وداروا المدينة وهي منشورة على رؤوسهم » وأحضروا رؤساء الأحداث ومنهم ابن الماورد وابن شرارة وعنفوهم على مواقفهم السيئة ، واتفق الجميع

393– ابن الأثير : الكامل 8، 231 ، المقريزي ، اتعاظ الحنفا 1، 213 .

394 – ابن ايبك الدواداري : المصدر السابق 6، 166 ، بيبرس الدوادار : المصدر السابق 6 ، ورقة 227 وفيه « وكان الاحداث قد غلبوا عليها وليس الأعيان معهم حكم ولا للسلطنة عليهم طاعة » .

395 – نفسه ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 1، 212 .

ظاهرا على أن أحدا لا يعارض السلطان فى البلد (396) . ومع ذلك فقد استمرت الوضعية مضطربة فى دمشق بسبب نشاطهم حتى فارقها « أبو محمود فى شعبان 364 هـ / أفريل — 975 م . بأمر من الخليفة المعز لدين الله الذي تأثر لما سمعه عن مشاكل نوابه فى الشام وعدم انسجامهم مع السكان ، وكلف والي طرابلس ، ريان الخادم ، بالتحقيق فى أسباب الحوادث ومعالجة الأوضاع السيئة هناك ، ولو بعزل الجند المغاربة فى أماكن قصية عن السكان .

ورغم أن ريان بذل جهودا مشكورة لارجاع الثقة الى نفوس السكان والأمن الى مدينة دمشق ، بابعاد الجند منها (397) ، فان اتجاهات العصيان ، والتمرد على السلطة الفاطمية ، بقيت غالبة على السكان وكان الأحداث هم الواجهة الحقيقية لهذه الاتجاهات ، واذا كان مشائخ البلد وأشرافها ، قد تظاهروا بالرغبة فى السلم وتنكروا للاحداث فانما ذلك لأن هؤلاء بالغوا فى الشر وفى الاساءة الى مظاهر الحياة الاقتصادية والعمرانية ، ولأنهم لم يكونوا محل رضا منهم ، ومن بقية طوائف السكان ، الذين أحسوا بوطأتهم ، مثل الجند المغاربة المخالفين لهم فى المذهب ، ومن ثم فقد رحب السكان بأفتكين المغامر التركي ، وهيأوا له مقاما بين أظهرهم وأيدوه فى كل جهوده ، و « سألوه أن يملكهم ويزيل المصريين ويكف عنهم الأحداث » (398) .

ولم يشعر زعماء الأحداث وأهمهم ابن الماورد ، بخطر افتكين (399) ، فرحبوا به ، وكان فى نظرهم بمثابة الواجهة المؤقتة التي يستطيعون من خلالها ، تصفية مظاهر السلطة الفاطمية ، ليتصرفوا بحرية ، وبدون رقيب ، وقد أصبح ابن الماورد زعيم الأحداث هو المتصرف الحقيقي والموجه لسياسة أفتكين ، وتحت تأثيره فيما يبدو ، أعيدت الدعوة والخطبة باسم الطائع العباسي ، كما بدأ عملية تصفية النفوذ الفاطمي ، فى المدن الداخلية والساحلية فاستخلص بعلبك من ظالم بن موهوب العقيلي وصيدا من أبي

396 — اتعاظ 1 ، اتعاظ 1 ، 213 .

397 — نفسه ، 1 ، 214 ، وانصرف أبو محمود الى الرملة حيث وصله توبيخ من المعز لدين الله ، عمر كمال توفيق : المرجع السابق 84 — 85 .

398 — نفسه 1، 220 ، عمر كمال توفيق : المرجع السابق 86 ، بيبرس الدوادار : المصدر نفسه 6 ، ورقة 227 .

399 — وعن حركة افتكين : انظر : ابن القلانسي : المصدر السابق 11 وما بعدها ، المقريزي ، اتعاظ 1، 218 وما بعدها ، العيني : المصدر السابق 19 (ق 2) ورقة 287 — 288 . ، سبط ابن الجوزي : المصدر السابق 11 ورقة 91 — 94 ، بيبرس الدوادار : المصدر السابق 6 ورقة 227 — 228 . الذهبي : المصدر السابق 3 ، 308-209 ، عمر كمال توفيق : المرجع السابق 86 ، حسن ابراهيم حسن : المعز لدين الله 127 وما بعدها .

الفتح ابن الشيخ وجند كتامة ، وحاصر عكا وطبرية ونكل بعناصر المغاربة فيهما، كما وضع حدا لسيطرة القبائل على أرباض دمشق، واعتمد في كل ذلك على رجال مخلصين ، وقاوم هجوما روميا ضد بعلبك بمساعدة ابن الماورد وتصرف بحكمة مع الدمستق الذي طلب مالا لينصرف ، وتحايل لابعاد خطره عن البلاد ، فهاداه وتلطف معه ، وعندما اصر على اخذ الأموال ليوافق على الانسحاب صارحه افتكين بالحقيقة « هذا بلد ليس لي فيه الا أيام يسيرة ، ولم آمر فيه ، ولم أنه ، وقد خرج معي اليك رجل له يد في البلد يمنعني من كل ما أفعله » وقد كان على حق فيما اعترف به ، بسبب سيطرة ابن الماورد ، وحزبه على الوضع ، ويلاحظ ان القبض على ابن الماورد بأمر الدمستق اذا كان قد غدا سببا في ثورة انصاره ، وتأهبهم للمسير ضد أفتكين ، الذي تآمر على رئيسهم ، لولا أن السكان ، وقفوا ضدهم ، لانهم خبروا تصرفاتهم وميلهم الى الاستبداد (400) ، فقد جعل افتكين مطلق التصرف في شؤون البلاد ، لذلك جمع الأموال من السكان بالقوة وسلمها الى الدمستق ، نظير الانسحاب عن بعلبك الى بيروت ثم الى طرابلس التي لقي أمامها مقاومة عنيفة اضطرته للجلاء بعد ان اصيب بمرض خطير وأدى به في الطريق (401) .

واستقبلت مدينة دمشق بعد ذلك فترة هدوء نسبية ، استمرت حتى بدات محاولات ابي محمود للعودة اليها بجنده ، ليضم جهوده الى بقية القوات الفاطمية التي بدات تستعد للقضاء على انفصال بلاد الشام . واذا كانت جهود العزيز بالله ، قد نجحت في هزيمة أفتكين وابعاده عن الشام الى مصر ، فانها لم تقض على خطر الأحداث ، الذين بقوا متمسكين بالسلطة العليا ، وقد أشرف عليهم في هذه الفترة مساعد أفتكين ، وأحد اتباع احمد ابن الجسطار ، وهو قسام التراب (402) ، الذي تظاهر بالولاء للفاطميين، لكي يصفي نفوذهم ، ويقضي على اي اثر لسلطات نوابهم وقادتهم في بلاد

---

400 – المقريزي : اتعاظ 1،220 – 221 ، ابن القلانسي : المصدر السابق 1–15 .

401 – نفسه 1،222 ، ابن القلانسي : المصدر السابق 14 ، عمر كمال توفيق : المرجع السابق 83–84 ، عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، مجلة آداب اسكندرية ، مجلد 16 ، 1962 .

402 – ابن القلانسي : المصدر السابق 21 ، العيني : المصدر السابق 19 (ق 2) ورقة 331 – 332 وعرف بالزبال ايضا .

الشام ، وهم حميدان بن حواس (403) ، وأبو محمد ابراهيم (404) ، وابن اخته جيش بن الصمصامة ، وسليمان بن جعفر بن فلاح الذي اظهر الحزم فى مقاومة استبداد قسام ، وعنصر الأحداث ، فمنعهم من حمل السلاح ، وجباية الأموال غير أن قساما ، رفض أوامره وأباح لرجاله الاستمرار فى تقاليدهم بقوله « لا يحفل بهذا الأمر ، بل كونوا على ما كنتم عليه » ثم كتب الى العزيز ، يعلن الطاعة ، والولاء ويتعهد بأنه « متى جاء للملك عضد الدولة عسكر أغلق الأبو ب وقاتله ليكون لك معونة على ما يريده » (405) ، وبهذه الحيلة أثر على العزيز بالله ، فأمر سليمان بن جعفر بمغادرة دمشق ، التي استقر فيها أخوه أبو محمود ابراهيم ، واليا « تحت مذلة قسام » حتى هلك فى شهر صفر 370 هـ / (406) اغسطس – 980 م ، فخلفه فى قيادة الجيش وفى الولاية جيش بن الصمصامة (407) ، الذي بقى مسلوب النفوذ والسلطان بسبب سيطرة قسام وعنصر الأحداث ، الذين كانوا يجدون التأييد الأدبي من طرف الخليفة العزيز بالله ، ليكونوا قوة حاجزة ضـد الغزو البويهي .

ويلاحظ أنه عندما توفي عضد الدولة بن بويه ، وزال الخطر البويهي عن بلاد الشام ومصر ، بذلت جهود جبارة من أجل تحطيم عناصر الشغب فى بلاد الشام (408) ، سواء كانوا اعرابا ، أو من بين الأحداث ، وقـد أشرف على هذه الجهود بكلتين التركي وساعده بشارة والي طبرية ، وجيش بن الصمصامة والي دمشق (409) ، وبعد قتال عنيف ، انصرف

---

403 – القريزي : اتعاظ 1، 249 ، ولقب بالسقاط ايضا .

الصفحة

404 – نفسه 1، 25، « وكان تحت يد قسام ، لا امر له ولا نهي » ، ابن القلانسي : المصدر السابق 21 ، « وهو ضميمة لقسام » .

405 – ابن القلانسي : المصدر السابق 23 ، المقريزي ، اتعاظ 1 ، 250 ، 254 ويلاحظ ان قساما قاوم القرامطة « فصار له بذلك يد عند العزيز بالله » وكان عضد الدولة قد تاقت نفسه لغزو مصر عن طريق الشام لولا ظهور مشاكل عاقته .

406 – المقريزي ، اتعاظ 1، 254–255 ، ابن القلانسي : المصدر السابق 24 س 1 ، 15–16 ، 25 س 14 .

407 – ابن القلانسي : المصدر السابق 24 س 13 ، ووصف بانه كان « شبه وال » المقريزي ، اتعاظ 1، 256 س 9–10 .

408 – ابن القلانسي : المصدر السابق 24 ، ا س 21–24 .

409 – يلاحظ ابن القلانسي ان بلتكين « وجد جيشا بن الصمصامة رجلا احمق فلم يحفل به » انظر : ذيل تاريخ دمشق 25 .

السكان عن قسام وضغطوا عليه بقوة كي يقبل الاستسلام ، فانحط شأنه وذل بعد تجبره ، وتركهم يتصرفون بحرية واختفى ، ولم يظهر الا بعد أسبوع ، فأرسله بلتكين الى مصر ، حيث عفا عنه العزيز بالله (410)، وآلت دمشق الى بكجور ، بتأثير وساطة بشارة والي طبرية ، رغم معارضة ابن كلس (411) ، الذي بقي يكيد له ، ويتسقط أخباره ويتآمر على حياته حتى حمله على الجهر بالعصيان ، وعندئذ جهز لقتاله (378 هـ / 988 ـ 989 م) منيرا الخادم ، الذي طرده من دمشق ، وبقي فيها واليا (412) حتى لفقت له تهمة مكاتبة الخليفة العباسي ، واضمار العصيان على الفاطميين ، فأرسل العزيز بالله غلامه منجوتكين ، فأسره وشهره ، وقائل ينادي عليه « هذا منير لعنه الله أصبحت دياره خالية ، وكلابه عاوية ؛ ونساؤه صائحة .. هذا جزاء من نافق على مولانا العزيز بالله » (413) ، وأصبح منجوتكين واليا على دمشق وسائر بلاد الشام ، حتى أخرجه منها منهزما منكسرا ، أبو تميم سليمان بن جعفر بن فلاح (414) ؛ الكتامي الذي بقي واليا حتى أطاحت به ثورة مفاجئة ، بتدبير برجوان الصقلبي ، وآلت الولاية الى بشارة الاخشيدي منذ شهر شوال (388 هـ / سبتمبر 998 م) الذي لم يلبث طويلا ، وعزل عنها ووليها : كتامي تنكر لأهله ، واظهر الود لعنصر المشارقة ، ولبرجوان الصقلبي ، وهو

---

410 ـ المقريزي : اتعاظ 1، 257ـ258 ، ابن القلانسي : المصدر السابق 25 ـ 27 .

411 ـ نفسه 1 ، 259 . ابن القلانسي 27 ـ 29 ، وقد نقم بلتكين على ابن كلس معارضته له في الولاية فامر بقتل كاتبه ابن ابي العود اليهودي .

412 ـ نفسه 1، 259ـ260 ، ابن القلانسي 29ـ30، 40 ، العيني : المصدر السابق 19 (ق 3) ورقة 428 .

413 ـ نفسه 1، 269ـ270 . ابن القلانسي : المصدر السابق 40 ـ 41 ، العيني : المصدر السابق 19 (ق 3) ورقة 424ـ425 .

414 ـ ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق 46 وما بعدها ، وقد وصف سليمان هنا بانه كان ذا « نفس واسعة ، وصدر رحب وقدم في الخير متقدمة ، ورغبة في الفعل الجميل مشهورة ومقامة في الصلاح مشكورة » لكنه كان مستهترا بشرب الراح وسماع الغناء والتوفر على اللذة ، وعن هذا الجانب في شخصيته ، انظر : الثعالبي : يتيمة الدهر 1 ، 359 ـ 360 .

جيش محمد بن الصمصامة (415) . الذي عرفته البلاد من قبل مساعدا لخاله أبي محمود ، وواليا بعد وفاته .

وفى خلال هذه الفترة ، يلاحظ أن طائفة الشطار ، رغم أنهم أصيبوا بخيبة أمل لسيادة الأمن والنظام ، بسبب قوة الولاة ، وحزمهم ، وانصراف السكان عن تأييدهم ، ثم لأن خلافات عنصر المشارقة والمغاربة فى الجيش الفاطمي ، قد طغت عما سواها من أحداث فانهم مع ذلك بقوا قوة خطيرة ، وعنصرا من عناصر المقاومة للنفوذ الفاطمي فى الشام وقد قتلوا كاتب ابن كلس ابن أبي العود الكبير ، وكان لهم فيما يبدو دور فيما شاهدته البلاد من حركات عسكرية ضد بكجور ومنير وسليمان بن جعفر .

وأكبر ضربة وجهت الى طبقة الشطار فى بلاد الشام هي التي كانت فى عهد جيش بن محمد بن الصمصامة الذي سبق له ان احتك بهم ، وخبر حالهم ، وعرف الذلة والهوان فى عهد سيادتهم ، ومن ثم جعل من أكبر مهامه بعد تأديب بني الجراح ، والعلاقة الثائر فى مدينة صور وازاحة خطر الدوقس البيزنطي الذي نزل فى افامية (416) ، تصفية نفوذ عنصر الشطار ، ويلاحظ أنه تدرج فى فى سياسته تجاه الأحداث حتى لا يثير شكوكهم فعاملهم بلطف ، وقرب رؤساءهم واستعان بهم فى تسيير الشؤون الادارية ورسم بعضهم حجابا له ، وبلغ من تلطفه معهم أنه كان يولم لهم كل يوم ، ويؤاكلهم ويطارحهم الأحداث ، تأنيسا لهم حتى تطمئن أنفسهم ، وعندما اتضح أنهم استناموا اليه ، انتقل الى المرحلة الحاسمة فى سياسته تجاههم ، فأعطى أوامر سرية الى أعوانه وخاصته ، تقضي بالاستعداد والتأهب ، لتنفيذ ما يأمر به من اجراءات استثنائية فى الوقت المناسب وكي يضمن لمشروعه قدرا من النجاح ، والشمول قسم « البلد ، أي دمشق وضواحيها ، الى عدة أقسام ، جعل كل قسم منها تحت عهدة قائد من أنصاره ، تكون مهمته ، تصفية عنصر الشطار والمفسدين فيه ، عند تلقي الاشارة بالبدء » .

415 - ابن القلانسي : المصدر السابق 52 - 53 ، يحي بن سعيد الأنطاكي : المصدر السابق 456 ط كراتشوفسكي .

416 - نفسه ، 50-52 ، يحي بن سعيد الانطاكي : المصدر السابق 654-456 ، النويري نهاية الارب 26 ورقة 52 ، وقد نقش العلاقة على النقود التي ضربها « عز بعد فاقة ، وشطارة بلباقة الامير العلاقة » وهو شعار يلقي ضوءا على وضعه الاجتماعي .

وقد رتب فى حمام منزله مجموعة كبيرة من المغاربة المسلحين بالسيوف ، وكلف احد خواصه بأن يتأكد من حضور جميع رؤساء الأحداث للوليمة ، والا يأذن بالبدء ، الا بعد ان ينتقلوا من حجرة الطعام الى المكان الذي جرت العادة بأنهم يغسلون أيديهم فيه ، وعندئذ يحكم غلق الباب وراءه ويعطي اشارة البدء ، للمحتبين فى الحمام (417) .

وقد انطلت الحيلة على زعماء الأحداث فحضروا كالعادة ، وبينما كانوا منهمكين فى الاكل كانت الأوامر السرية المختومة قد وزعت على قواد النواحي ، واثر انتهاء الاكل تركهم ابن الصمصامة حسب تدبير سابق الى حجرة مجاورة اغلقت ابوابها واحكمت الحراسة عليها ، وابتدأ الحراس تنفيذ الخطة بقتل جميع من حضر منهم ، وبالتنكيل من أحزابهم ورجالهم فى نواحي المدينة ، واقتفى قادة كتامة أثرهم وقتلوهم قتلا ذريعا ، وثلموا السور من كل جانب وفتحوا أبوابه ورموها ، وأنـزل ابن الصمصامة المغاربة فى دور الدمشقيين وجرد الى الغوطة والمرج قائدا يعرف بنصرون (418) . كان نصيبه فى المعركة ضد أحداث الجهة ، قتل نحو ألف منهم « لانهم كانوا كثيرين » (419) واثر هذه المذبحة الرهيبة ، لاحظ جيش بن الصمصامة ، انكسار نفوس السكان وضعف روح المقاومة بينهم فاستجاب لرغبتهم فى منح الأمان ، لكنه جبي منهم غرامة مالية ضخمة بلغت نحو خمسمائة الف دينار ، بقصد ارهاقهم وتأديبهم على تأييد عنصر الشطار ، المشاغبين ضد السلطة الشرعية ، وكان حظ الأشراف من الأذى التعنيف والتوبيخ ، على تواطئهم وتقلبهم ، وبعد أن قتل بعض زعماء الأحداث أمام اعينهم ، ارهابا لهم أرسلهم الى مصر ، وبهـذه الاجراءات الحازمة ، ضد الشطار ، والأشراف ، عاد الهدوء الى نصابه واستعادت مدينة دمشق حياتها الطبيعية ، واستأنف سكانها نشاطهم العادي ، فى ظل الامن والنظام ، واستمر الهدوء سائدا فى المدينة بعد وفاة جيش فى ربيع الاخر 390 هـ (420) ، ولم يظهر لعنصر الشطار اي

---

417 – ابن الأثير : الكامل فى التاريخ 9 ، 45 .

418 – ابن القلانسي : المصدر السابق 53–54 .

419 – نفسه ، 54 س 4–5 .

420 – ابن القلانسي ، 54 وقد قيل ان عدد من الاحداث بلغ ثلاثة الاف رجل .

رد فعل مضاد اثناء حكم ابنه محمد ، لفترة مؤقتة (421) ، ولا في عهد الولاة الذين تعاقبوا على دمشق بعده وهم تميم بن اسماعيل الكتامي ، الملقب « فحل » (422) . وعلي بن جعفر بن فلاح (423) ، وختكين الداعي (424) ، وطزملة بن بكار (425) ، ومفلح اللحياني (426) وحامد بن ملهم وعبد الله بن نزال (427) .

ولا يعني ذلك انهم انتهوا تماما ، كقوة سياسية معارضة ، وانما بدأ دورهم في توجيه الحوادث وفي حراسة المدينة ، والنضال ضد الحكم الفاطمي يتضاءل تدريجيا ومما يلاحظ أنهم كانوا القوة الوحيدة التي ساندت عبد الرحمن بن الياس ، كما ساندت الجرار الذي تغلب على دمشق (428) ، وقد أصيبوا بنكبة كبرى في أواخر العصر الفاطمي ، على يد أسرة كتامية ، هي أسرة ابن منزو ، فقتل منهم عدد كثير أثناء الصراع بين بدر الجمالي ، والمعارضين له في بلاد الشام (429) ، ولا يستبعد أن يكونوا قد قاموا بدور لفائدة تصفية النفوذ الشيعي من بلاد الشام أثناء حركة اتسز ، لأن بعض النصوص تشير الى أنهم مثلوا دورا رئيسيا ، أثناء الحوادث التي نتج عنها سقوط دمشق في يد نور الدين محمود ، وهم الذين ساعدوه في بسط نفوذه على المدينة بعد أن استعصت عليه (430) .

ويلاحظ أن نظام الشحنكية ، الذي طبق في بغداد ، في العصر السلجوقي، وافاد في ضبط الأمن ، قد طبق في بلاد الشام بعد الفتح (السلجوقي) ، وهو الذي قضي على أية سلطة سياسية أو بوليسية لعنصر الأحداث واصبح الشحنة أو صاحب الشرطة ، هو المسؤول عن الأمن ، وعن

---

421 — نفسه ، وانظر 57 منه .

422 — نفسه ، 57 ، المقريزي ، اتعاظ 2،17،45 .

423 . نفسه ، وكانت هذه هي المرة الثانية واستمر حتى رمضان 392 هـ .

324 — نفسه 57 — 58 .

425— نفسه 58 ، ويعرف بتمصولة ايضا . هامش (نقلا عن الذهبي ، العيني : المصدر السابق 19 (ق 3) ورقة 510 .

426 — نفسه ، 62 ووليها منذ محرم 394 هـ .

427 — نفسه ، 66 ووليها منذ ست بقين من رجب 399 هـ وخلفه ابن نزال بعد ستة واربعة اشهر ونصف حتى عزل في رمضان 400 هـ ، الذهبي 254 ، 270 .

428 — نفسه ، 70 هامش 1 .

429 — نفسه 93 — 96 ، 97 هامش 1 .

430 — ابن الأثير : الباهر في تاريخ الدولة الاتابكية 107 ، ابو شامة : الروضتين 1،96 .

تتبع عناصر الشعب والخلاف ، فى المدن الاسلامية (431) .

* * *

لم تقف مشاكل الفاطميين فى بلاد الشام عند حد معارضة القرامطة والأحداث ، والاشراف ، ومن كان يؤازرهم مثل البويهيين والحمدانيين بل كان للنزعات القبلية ولمواقف أمراء العرب المتقلب واستغلالهم لنقاط الضعف فى مركز ولاة الفاطميين باشاعة الفوضى والشغب ، أو بتأييد أعداء الفاطميين ، أو باظهار النزعات الانفصالية ، أو بافساد مظاهر الحياة الاقتصادية والعمرانية ، دور كبير وخطير ، فى زعزعة النفوذ الفاطمي ، وفى القضاء على حظوظ كتامة وقادتها فى النجاح والاستقرار .

ولم تكن سياسة الخلفاء الفاطميين واضحة ازاء هذه القبائل ، بل كانت متقلبة مثل أهوائهم ويبدو أنها كانت صورة من سياستهم تجاه القبائل البربرية المخالفة لهم فى بلاد المغرب أي كانت مؤسسة على الوقيعة بين القبائل واستغلال تناقضاتها الداخلية ، لفرض السيطرة على الجميع سواء بطريق الحلف ، أو بطريق القهر والغلبة .

وقد رسم سياسة الفاطميين فى بلاد الشام نائب جوهر وقائد فتحها ، وأول ولاتها الكتاميين وهو جعفر بن فلاح ولقد استمر العمل بما قرر فى عهده فى أغلب الاحيان خاصة تجاه أمراء العرب والروم وطبقتي الأشراف والأحداث .

وقد لاحظنا من قبل أن جعفر ابن فلاح أعتمد على عرب فزارة ، ومرة ، وقربهم اليه ، واصطنع زعماءهم ، وأوكل اليهم مهمة تصفية نفوذ بني عقيل من طبرية ، ومن حوران ، والبثنية (432) ، الذين انسحبوا من هذه المناطق بعد هزائمهم وتفرقوا بين حمص وحماة وبعلبك وشيزر وحلب ، وعمروا تلك الجهات ، وتركوا مناطقهم ، ومضاربهم القديمة مسرحا لتخريب مرة وفزارة (433) الذين استفادوا من الحلف مع والي الفاطميين .

ويبدو أن تشريد بني عقيل كان عاملا رئيسيا فى انضمام ظالم بن موهوب العقيلي الى ثورة الشريف ابن أبي يعلى ضد كتامة وقائدها جعفر بن فلاح ، كما كان فشلها ، سببا فى التجاء هذا الأمير العربي الى الاحساء ، مستنجدا بالقرامطة (434) ، ووقف الى جانبهم فى تصفية النفوذ الفاطمي

---

431 – .... المقريزي : اتعاظ 1 ، 239 ، 240 هامش 3 .

432 – المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،123 .

433 – نفسه 1 ، 124 ، 250 .

434 – المقريزي : اتعاظ الحنفا 1 ، 126 ، 186 .

فى الشام واشتراك بنو عقيل وبنو طيء الى جانب الحسن الأعصم فى غزو مصر وعندما فشل وانسحب اشترك بنو عقيل فى نهب ذخائره وامواله (435) .

واصبح ظالم بن موهوب ، بعد رجوع الحسن الأعصم الى الاحساء مكلفا مع ابي الهيجاء بتدبير شؤون بلاد الشام حتى ساءت علاقته بالقرامطة (436) ، فانسحب عنهم الى بعلبك كما اشرنا ، وعندما عرض عليه التعاون مع ولاة الفاطميين لتصفية النفوذ القرمطي وارجاع الهدوء الى نصابه وافق بدون تردد ، واصبح متصرفا مدنيا فى شؤون الشام (437) ، حتى ساءت علاقته بأبي محمود ابراهيم لانه وقف الى جانب سكان دمشق فى قتال جند كتامة ، وعندما هزم التجأ الى بعلبك مرة اخرى (438) ، وبقى هناك حتى اخرجه منها افتكين التركي (439) ، فالتجأ الى صيدا (440) ، ثم فارقها تحت ضغط افتكين (441) ، واستمر حتى ظهر جوهر فى ميدان الشام ، فانضم اليه لقتال افتكين (442) ، الذي أيده عرب بني طيء وزعيمهم حسان بن مفرج (443) . ورغم جهود ظالم الى جانب جوهر فانه لم يظفر بولاية الشام بعد تصفية نفوذ افتكين بينما ظفر بها من بني عقيل لفترة قصيرة ، حميدان بن جواس حيث لم يكن له نفوذ مع قسام التراب (444) . وقد اسهم عرب بني عقيل بدور الى جانب ابي تغلب بن حميدان الذي رغب فى ولاية الشام ، ونابذا ابن الجراح ، اي وقف بنو عقيل ، ضد بني طيء ، الذين انتصروا وقتلوا ابا تغلب بن حمدان (445) ، فبقى بنو عقيل ينتظرون فرصة للظهور على مسرح الحوادث حتى اتيحت لهم عندما انضموا مع عرب فزارة المعادين لهم من قبل ، وقيس الى جانب منير الخدم فى حربه ضد بكجور وضد بني طيء وزعيمهم ابن الجراح ، الذي ساند بكجورا ، كما سانده عرب بني كلاب (446) أيضا ، ويبدو أن

---

435 – نفسه 1 ، 130 .
436 – نفسه ، 1 ، 188 .
437 – نفسه ، 1 ، 206 ، 210 .
438 – نفسه 1 ، 211 .
التي ضربها « عز بعد فاقة ، وشطارة بلباقة الامير العلاقة » وهو شعار يلقي ضوءا
439 – نفسه 1 ، 220 وانظر 222 منه حيث لاحظ استعانة افتكين بامير من بني عقيل
440 – نفسه 1 ، 238 .
441 – نفسه 1 ، 239 .
442 – نفسه 1 ، 240 .
443 – نفسه 1، 241 .
444 – نفسه 1 ، 249 – 250 .
445 – المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، 1، 252 .
446 – نفسه ، 259 – 260 .

عرب بني عقيل ، لقوا عناية خاصة من منير فلما هزم وأخرج عن بلاد الشام انحط شأنهم وضعف دورهم في الحياة السياسية (447) ، بينما ارتفع شأن طيء ، الذين مثل امراؤهم من اسرة ذغفل بن الجراح ، دورا مشبوها في بلاد الشام .

فلم يثبتوا على مبدأ الولاء او العداء للفاطميين أو لغيرهم من العناصر الحاكمة التي طمحت الى السيطرة على بلاد الشام .

وكان حسان بن مفرج من بين حلفاء الحسن الأعصم ، غداة غزو بلاد الشام ومصر ، وعندما وعد بمبالغ ضخمة من طرف المعز لدين الله ، تخلى عنه في ظروف عصيبة (448) . كما تخلى عن افتكين أيضا في ظروف مشابهة ، وبدعوى أنه رأى منه تصرفات لم تعجبه ، ووفد على العزيز بالله (449) ، فأكرمه وصحبه الى بلاد الشام بوصفه قائدا على مقدمته ، لقتال افتكين الذي غادر الرملة مركز بني طيء ، الى طبرقة (450) وهو الذي تمكن من أسره ، وجلبه الى العزيز بالله على حالة مزرية حيث شهره بين الجند ، وأجزل الهبات لحسان بن مفرج (451) . واستمر الود معقودا بينهما وانزله دارا فخمة ، « وخلع عليه وحمل على خمسة رؤوس من الخيل ، وقاد اليه خمسة احمال مالا (542) .

وكانت فلسطين يشرف عليها أبوه من مدينة الرملة ، منذ هزيمة افتكين (453)وقد بسط نفوذه حتى مدينة طبرية (454) . وجدد له العزيز بالله

---

447 – ومع ذلك فقد ثبتوا على الولاء للفاطميين فخطب قرواش في دائرة نفوذه باسم الحاكم ، (اتعاظ 2 : 88) ، كما ايد قريش بن بدران حركة البساسيري (نفسه 2 ، 252) .

448 – نفسه 205 هامش 1 عن نسب آل مفرج .

449 – نفسه 241 س 7–8 .

450 – نفسه 242 س 12 – 13 .

451 – نفسه 243 س 9 – 11 .

452 – نفسه 247 س 3–5 .

453 – المقريزي : اتعاظ 249 س 14–15 . وقد وقف الى جانب الفضل بن صالح غلام ابن كلس ضد أبي تغلب بن حمدان . انظر ابن القلانسي : المصدر السابق 22 – 23 .

454 – نفسه 250 س 8 – 9 .

ويلاحظ انه لم يتصل بسليمان بن جعفر الذي كلف بتصفية حركة قسام ولم يتعاون معه وأن لم يظهر عداء للجند الفاطميين في الرملة حتى فارقوها الى دمشق (456) .

عقد التولية على فلسطين (455) وأوصله اليه الفضل بن صالح .

ويبدو أن ذلك كان مقدمة للانحراف عن الفاطميين ، اذ أن العزيز بالله ، أو عز للفضل بن صالح بالتخلص من حسان ، ثم راجع موقفه منه عندما جدد الطاعة والولاء وطلب العفو ، وأمر الفضل بتركه حيث كان في مدينة الرملة التي غدت وفلسطين كلها بسبب موقف العزيز نهبا مشاعا لبني طيء « حتى كان الانسان يدخل الرملة لطلب شيء يأكله فلا يجده ، وهلك الفلاحون وغيرهم من الضر ومات أكثرهم » (457) .

وعندما اشتدت الضائقة الاقتصادية بسكان فلسطين ، كلف العزيز بالله نائبه في طبرية ، بشارة الاخشيدي (458) ، بالانضمام الى بلتكين للقضاء على شرور ابن الجراح وساعدهم عرب قيس ، في انزال هزيمة منكرة به ، فالتجأ الى انطاكية « مستجيرا بصاحبها » الموالي للروم البزنطيين (459) .

ومن هناك مهد للعودة الى ميدان فلسطين بالتقرب من بكجور ، والي حمص ، الذي جمع بني كلاب واستأذن العزيز بالله في استخلاص حلب من الحمدانيين ، ولم ينسحب عنها الا بعد سماعه عن طريق ابن الجراح بقرب وصول الدمستق قائد الروم البيزنطيين (460) .

وقد حفظ بكجور الود لابن الجراح ، فقربه اليه اثناء ولايته على بلاد الشام واغراه ببشارة الاخشيدي والي طبرية و « انزله السواد واطمعه في ضياع الوزير » (461) بدافع عداوته له ، وعندما حلت بهما الهزيمة على يد منير الخادم توجها نحو الرقة (462) وبقيا ينتظران فرصة للعودة الى مسرح الحوادث في قلب بلاد الشام .

ويبدو ان وفادة مفرج بن دغفل ، على العزيز بالله ، حيث اكرمه وخلع عليه ، وثيقة الصلة بمصير ابنه حسان (463) ، وتشير بعض النصوص الى

455 — ابن القلانسي : المصدر السابق 22س 12 .
456 — المقريزي : اتعاظ 1 ، 253 س 12—13 .
457 — نفسه 1 ، 254 ، وانظر 255 س 6 .
458 — نفسه 255 س 5 .
459 — نفسه 256 .
460 — نفسه 1 ، 258 .
461 — المقريزي 1،259 .
462 — نفسه 1،260 س 10 .
463 — نفسه 1 ، 271 س 4 .

ارسال مفرج بن دغفل الى العزيز بالله رجلا زعم أنه « السيفاني » فشهر في القاهرة على جمل (464) ، ثم أمر به فقتل بعد ذلك ، واجزلت الصلات لمفرج اذ أرسل اليه العزيز بالله خمسين ألف دينار مبالغة في تكريمه وشحذا لهمته (465) كي يقف الى جانب نوابه في الشام في مجهوداتهم ضد الحمدانية والروم البيزنطيين .

وفي ظل هذه الظروف رجع حسان الى الرملة واستمر مع ابيه ، في فلسطين ، في اطار الولاء للفاطميين وقد دخل بنو طيء ، وبنو كلب ، في الصراع الداخلي بين المشارقة والمغاربة في بلاد الشام ، ثم تخلوا عن منجوتكين وعنصر المشارقة وتركوهم يلقون الهزيمة المنكرة على يد أبي تميم سليمان بن جعفر بن فلاح الذي أمنهم على وضعهم في بلاد الشام (466) .

ولقد كان يعقوب بن كلس على حق عندما نصح العزيز بالله بقوله « ولا تبق على المفرج بن دغفل بن الجراح متى عرضت لك فيه فرصة » (467) اذ أن هذا الرجل كان هواه متقلبا ، ومذهبه ماديا ، ومولاه هو الذي يدفع له المبلغ الأوفر ، وعندما تشتد الأزمة وتضيق به السبل ، كان يتنازل عن شرفه ويتباكى للحصول على الأمان والعفو ، وقد حصل ذلك عندما ضيق الخناق عليه من طرف جيش بن محمد بن الصمصامة في بداية عصر الحاكم بأمر الله . ولما اقتفى اثره حتى جبل طيء ، ولم يجد وسيلة تنجيه منه « رمى نفسه ، وعجائز نسائه وعاذ منه بالصفح وطلب الأمان فأمنه » ومع أن جيشا استحلفه على الولاء ، وعلى عدم التدخل في شئون الرملة (468) وفلسطين ، فانه لم يلتزم بذلك ، وعاد الى سالف عهده ، ينهب ويشجع السلب وتخريب مظاهر العمران ، وغدر هو وابنه حسان بقائد فاطمي هو بارختكين (باروخ) الذي كان مكلفا بقتال الحمدانيين في حلب ، وقتلوه وكثيرا من رجاله ، وقد اكتفى الحاكم بأمر الله في المرحلة الأولى ، بتوجيه اللوم اليهما (469) ، فلم يبررا تصرفهما ، بل أوغلا في التطرف ،

---

464 – نفسه 1 ، 285 س 11–12 .

465 – نفسه 1 ، 287 س 12 ، 15 .

466 – ابن القلانسي : المصدر السابق 46–47 . وقد اسر منجوتكين وسلمه الى سليمان بن جعفر ، لقاء مال : على بن الجراح .

467 – نفسه 32 ، المقريزي : اتعاظ 1،268 هامش 1 (نقلا عن ابن القلانسي) ابن الجوزي 11 ورقة 152–153 .

468 –ابن القلانسي ، 50 – 51 ، ابن الاثير ، الكامل 9 ، 45 ، سرور ، النفوذ الفاطمي 44 .

469 – ابن الاثير 9 – 46 ، المقريزي ، اتعاظ 2 ، 87 .

واعتصما بالانفصال عن سلطان الفاطميين ، والاستمرار فيه الى أقصى مدى ، وقد شجعتهما ظروف خارجية على التمادي في موقفهما من الحاكم بأمر الله ومن نظام الفاطميين ، وكان الحاكم قد وقع تحت تأثير دسائس بني المغربي ، فنكل بالكتاب النصارى ، فأصبحت هناك عدواة متأصلة بينهم وبين أسرة بني المغربي ، الذين بدءوا يكيدون لمنصور بن عبدون متولي الدواوين ، عند الحاكم وهو يسمع منهم وينتظر بهم فرصة لمعرفته بأنهم مغرضون ، وعندما بالغوا ، أمر الحاكم بقتلهم جميعا فلم ينجح منهم غير ابي القاسم الحسين بن علي المغربي (470) الذي فر الى فلسطين ، واستجار ببني طئي واسرة دغفل بن الجراح « وبقى آلبا على الحاكم يسعى في زوال دولته بما استطاع » (471) . ولما كانت رغبة بني الجـراح في الانفصال عن الخلافة الفاطمية تحت ستار الخلاف المذهبي ، رغبة أكيدة ، وعبروا عنها اكثر من مرة ، فقد تبنو آراء ابن المغربي في خلع طاعة الحاكم ، والدعوة لشريف مكة أبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني ، باعتباره صريح النسب ، واعلان خلافة علوية في فلسطين يكون مركزها الرملـة وعصبيتها بني طئي وأحلافهم وعنصر الأشراف .

وقد أرسل حسان ابن المغربي الى شريف مكة لاغرائه بالخروج عن الحاكم، وقد تمكن من اقناعه بأهمية المشروع ، وحسن له الاستيلاء على الودائع ، وعلى محاريب الكعبة ، فصهرها وضربها عملة ليستعين بها ، وقد أصبحت هذه العملة تعرف « بالكعبية » ، ولقب بالراشد بالله . وبعد أن ترك نائبا في مكة ، فارقها بمعية ابن المغربي ، الذي دعا قبائل سليم ، وهلال ، وعوف الى الالتفاف حوله ، وتأييد حركته بجانب بني طيء ، وفي الرملة استقبله مفرج وابنه حسان ، وقبلا الارض بين يديه ، وسلما له بأمرة المؤمنين وبادر من جهته ، فأعطى الأمان العام للسكان ، وأمهم في صـلاة الجمعة ، والتف حوله العلويون ، وقام بخدمته الف عبد ، وأسلس سكان جنوب بلاد الشام قيادتهم اليه ، بعد أن سمعوا قصصا عن عـدلـه ،

---

470 – ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق 61 – 62 وقد قتل علي ومحمد من بني المغربي كما قتل ابنان لعلي ، وهما اخوان لابي القاسم الحسين بن المغربي ، المقريزي ، الخطط 2 ، 157 وما بعدها ، وهم عناصر مشرقية من مدينة البصرة ، اتعاظ الحنفا 2 ،82، المقفي الكبير 1 ، ورقة 224 ، النويري : نهاية الأرب 26 ورقة 55، ياقوت : معجم الأدباء . 1،79–81 .

471 – نفسه 64 هامش 1 ، ابن الاثير ، الكامل ، 9 ، 124 ، الذهبي : تاريخ الاسلام 3 ورقة 268 – 269 .

وتواضعه ، وأنه يحتفظ ببعض آثار الرسول ومنها القضيب وسيف ذي الفقار (472) .

وتلقى الحاكم بأمر الله أخبار الأزمة ، بهدوء : اطمئنانا الى عدم استقرار رأي بني الجراح ، وقد واجهها بعزل أبي الفتوح عن شرافة مكة وتعيين أحد أقاربه ، كما اجتهد لافساد العلاقة بين بني الجراح ، والراشد بالله واستخدم لاستفساد حسان بن المفرج الأسلوب القديم ، وهو الاغراء بالأموال الكثيرة ، وعندما أحس الراشد بالله بسياسة الوفاق مع الحاكم ، عتب على مفرج بقوله « كشفت في عداوة الحاكم سكونا الى ذمامك ، وثقة بقولك واعتمادا على عهدك ، واري ولدك حسانا قد أصلح امره مع الحاكم واريد العود الى مأمني » ، كما لام ابن المغربي على التغرير به ، في مساومة رخيصة ، أرضاء لحقده ، وبينما التجأ ابن المغربي الى العراق رجع الراشد بالله الى مكة ، حيث عفا عنه الحاكم بأمر الله وأعاد اليه اعتباره القديم في مكة (473) . وبعد أن اطمأن الحاكم الى فشل الحركة الانفصالية ، أرسل قوة عسكرية بقيادة علي بن جعفر بن فلاح الكتامي (474) ، فاحتل الرملة وادب بني الجراح ، وشردهم في الآفاق ، واستولى على ذخائرهم وأموالهم وما كان لهم من الحصون في جبل الشراة ، ولم يرجع حسان الى الرملة الا بعد سنتين ، وذلك عندما توسط أبوه عند الحاكم للعفو عنه ، وأرسل اليه في القاهرة ، فأمنه وأقطعه ، وفي هذه الأثناء توفي أبوه ، في ظروف خاصة ، ربما بتدبير من الحاكم انتقاما منه ، ومن حسان الذي تأثر للحادث وضعفت نفسه الى حين (475) ، ذلك لأن الأمل في فصل جنوب بلاد الشام والاستقلال بحكمها ، بعيدا عن النفوذ الفاطمي ، ظل

---

472 – الذهبي : المصدر السابق 3 ، 268 – 269 ، العيني : المصدر السابق 19 (قسم 4) ورقة 569 ، ابن القلانسي : المصدر السابق 62 – 64 هامش 1 ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 373 ، سبط ابن الجوزي ج 11 ورقة 162 – 163 ، وعن حيازة الفاطميين لسيف ذي الفقار أنظر المقريزي ، اتعاظ الحنفاء 2 ، 281 ، النويري ، نهاية الأرب ورقة 55 ، يحي بن سعيد : المصدر السابق 505 ، ابن حزم نقط العروس 58 .

473 – ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 374 ، ابن الأثير ، الكامل 9 ، 46 المقريزي ، الخطط 2 ، 157 – 158 ، 287 ، اتعاظ 2 ، 95 ، العيني : المصدر السابق 19 (ق 5) ورقة 754 ، جمال سرور : النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب 46 .

474 – المقريزي ، اتعاظ 2 ، 98،105 ، ويذكر رجوعه الى مصر سنة 405 هـ ، حيث قاد خطة الوساطة للحاكم بعد ذلك ، انظر 110 منه ، يحي بن سعيد الانطاكي : المصدر السابق 520 .

475 – ابن خلدون : العبر ، 4 ، 120 ، ابن الأثير:الكامل 9 ، 46 . ابن عذاري : البيان 1 ، 374 ويذكر وفاته ضمن احداث سنة 403 هـ ، دون اشارة الى ظروفها ، المقريزي ، اتعاظ الحنفا 2 ، 99 ، يحي بن سعيد الأنطاكي : المصدر السابق 520 ، ويعبر عن وفاة المفرج بقوله « فاتفق الحال ان مات المفرج بن دغفل » .

يراوده ، ويغتنم الفرصة لتحقيقه ، ولو ادى الامر الى محالفات خارجية جديدة ، وقد أتيحت له الفرصة عقب اختفاء الحاكم فى ظروف غامضة ، ووصاية اخته ست الملك على ابنه الظاهر لاعزاز دين الله ، وخطط لتصفية النفوذ الفاطمي ، هذه المرة ، من سائر بلاد الشام ، على اساس جديد لا عهد لأمراء العرب به ــ وهو الوحدة ، والتنسيق لمواجهة قوات الفاطميين ، فى جنوب ووسط وشمال الشام ، واتفق مع سنان بن عليان بن البناء امير بني كلب ، وصالح بن مرداس امير بني كلاب ، الذي اصبح يوجه قبائل الشمال بعد تلاشي قوة تغلب قبيلة الحمدانيين ، منذ سنة 414 هـ / 1023 م .

وكان حظ بني طيء ، مضاربها القديمة فيجنوب فلسطين، وتمتد من الرملة الى مشارف حدود مصر ، ويبقى النطاق الجغرافي الذي يمتد من حلب وعانة فى الشمال ، لبني كلاب ودمشق ونواحيها ، فى وسط بلاد الشام ، لسنان بن عليان الكلبي (476) ، وكانت مهمة كل قبيلة ان تحرر مناطق نفوذها بالاستغلال ، أو بالتعاون مع جيرانها، ولما كانت فلسطين قد آلت الى منتجب الدولة الدربري منذ شهر محرم 414 هـ (477) ، فقد اجتهد حسان بن مفرج فى الكيد له ، حتى أبعد عنها مؤقتا ، وعندئذ اصبح مطلق التصرف فيها ، فقام بنهب الرملة والتنكيل بسكانها (478) .

أما حلب ، فقد توالى عليها مجموعة من ولاة كتامة هم صفى الدولة ابو عبد الله محمد بن علي بن جعفر بن فلاح حتى محرم 414 هـ / مارس 1203 م (479)،ثم سند الدولة أبو محمدالحسن بن محمدبن ثعبان الجيميلي الذي تنسب اليه « الرسالة السندية » حتى ربيع الآخر 415 هـ / 480 يونيه 1024 م وعقب وفاته وليها أخوه سديد الملك أبو الحارث ثعبان بن محمد ، من طرف الظاهر لاعزاز دين الله ، وكان من قبل واليا على تنيس ودمياط فوصلها فى جمادي الأولى 415 هـ (481) ، وهو الذي واجه حركات

476 – ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب 1 ، 223 ــ 224 ط دمشق 1951 تحقيق سامي الدهان ، ابن خلدون : العبر 4 ، 128 ، ابن الاثير ، الكامل 9 ، 138 ، جمال سرور : النفوذ الفاطمي فى الشام 47 ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 2 ، 147 ، 155 – 156 .

477 – ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق 72 .

478 – نفسه 73 ، ابن العديم : زبدة الحلب 1،224 ، العيني : المصدر السابق 19 (قسم 5) ورقة 727 .

479 – ابن العديم : المصدر السابق 1،220–221 .

480 – نفسه 1،222 هامش 2 وقد كتب الرسالة السندية ابو العلاء بن سليمان ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 2،172 .

481 – نفسه .

صالح بن مرداس الكلابي ، وقاومه واعتصم فى القصر ، وشدد المقاومة من قلعة المدينة وبقى على وضعه الدفاعي حتى سقطت القلعة فى جمادي الأولى 416 هـ / يونية 1025 م وقبض عليه ، وعلى موصوف الصقلبي ، مستولى شئون القلعة ، وبينما ابقى عليه بفدية ، قتل موصوف الخادم ، واصبحت حلب وقلعتها منطقة نفوذ لبني مرداس (482) ومنها امتد نفوذهم حتى عانه على نهر الفرات .

ولما اصبحت حركة امراء العرب ، خطيرة على النفوذ الفاطمي ، وظهر عجز ولاة الشام عن مقاومتها ، أرسل لمواجهتها منتجب الدولة أنوشتكين الدزبري عامل فلسطين القديم ، بناء على تزكية الوزير الجرجرائي (483) ، وقد اصطدم بحسان بن مفرج فى فلسطين ، وشرده من منطقة الرملة ، فالتجأ الى قيسارية ، ومنها بث سراياه ضد حدود مصر ، فبلغت طلائعها العريش ، والفرما ، واشاعت جو الرعب والقلق حتى أن سكان بلبيس خشوا اثر الحركة وتركوا منطقتهم الى القاهرة (484) . ولم ينته خطرهم ، حتى نزلت بهم الهزيمة الساحقة فى الاقحوانة على شاطىء نهر الاردن قرب طبرية سنة 420 هـ / 1029 — 1030 م وقتل صالح بن مرداس، على يد عربي من فزارة أحلاف الفاطميين . كما قتل ابنه الاصغر ، بينما نجا الاكبر شبل الدولة نصر الى حلب . وشتت شمل بقية العرب ومنهم حسان ابن مفرج ، الذي بقي بدون حليف قوي فالتجأ الى بلاط الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني المقدوني (485) لأن شبل الدولة نصر بن صالح المرداسي ، تظاهر بالطاعة والولاء للفاطميين ، وبقي فى حلب ، حيث نشط والي حمص الكتامي ، شجاع الدولة جعفر بن كليد للايقاع به عن طريق افساد ما بينه وبين أنوشتكين الدزبري ، الذي وقع تحت تأثير ابن كليد ، ونابذ نصرا ، وقتله فى شعبان 429 هـ / مايو 1037 م ، فكان تصرفه هذا الى جانب اشياء نسبت اليه سببا فى نكبته (486) ، وابعاده عن السلطة ،

---

482 ـ نفسه 1، 227—230 ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 2، 147 ، وقد ورد فيه اسم ثمبان مصحفا الى صيغة نقيان ، كما صحف الى شعبان فى العبر ، لابن خلدون ط . بيروت ، والى طمبان فى زمباور : معجم الانساب 1، 51 .

483 — ابن القلانسي : المصدر السابق 73 .

484 ـ ابن خلدون : العبر 4، 129 ، المقريزي ، اتعاظ الحنفا 2 ، 154 ، 166 ، الخطط 1 ، 354 ، ويلاحظ ان امراء العرب انتهوا فى حركتهم التوسعية قبيل خروج الدزبري الى مدينة غزة ، بقرب حدود مصر ، انظر ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق 74 هامش 1 ، نقلا عن هلال الصابي .

485 ـ العيني : المصدر السابق 19 (قسم 5) ورقة 760 ـ 761 (احداث 420 هـ) ، ابن القلانسي : المصدر السابق 73—74 هامش 1 ، ابن خلدون : العبر 4، 129 ، ابن الاثير : الكامل 9، 138، 157، ابن العديم : زبدة الحلب 1، 231 ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 2، 178، 180 ، جمال سرور : النفوذ الفاطمي فى بلاد الشام 48 .

486 ـ ابن العديم : المصدر السابق 1 ، 250 ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 2 ، 187 ، وهنا لا يشير الى دور ابن كليد ، ابن الاثير : الكامل 9، 171 ، 187 .

وبموته في جمادى الاولى 433 هـ / 1041 ـ 1042 م « فسد بعده أمر الشام ، وطمع العرب في نواحيه » (487) وصارت جهود المستنصر بالله من أجل ارجاع النفوذ الفاطمي الى حلب من غير فائدة ، لأن جعفر ابن كليد، والي حمص ، الذي حاول اقرار الاوضاع في حلب ، لقي هزيمة منكرة على يد المرادسيين ، وأميرهم مقلد بن كامل ، واثر انسحابه من ميدان المعركة قتله جعفر بن كامل بن مرداس ، واحتز رأسه وحمل الى حلب ، وبذلك يكون بنو مرداس قد ثأروا لأنفسهم من ابن كليد . وقد زحف جعفر نحو حماة ، وحمص مركز ابن كليد ، وانزل هزيمة بابن منزو الكتامي ، الذي جاء نجدة لحمص (488) ، كما لقي نفس المصير ، ومات أسيرا في قلعة حلب رفق المستنصري الذي أرسل ضد بني مرداس سنة 441 هـ / 1049 ـ 1050 م (489) ، ورغم أن ثمالا بن صالح بن مرداس ، سلم حلب في ذي القعدة 449 هـ / 1057 ـ 1058 م الى مكين الدولة ابي علي الحسن بن علي بن ملهم . وغادرها الى مصر (490) ، فان وضع الفاطميين لم يستقم في المدينة بسبب تعلق سكانها ببني مرداس (491)، وكراهيتهم للجند المغاربة الذين يخالفونهم في المذهب الديني ، هذا الى جانب نشاط الأحداث (492) . وظهور قوة الاتراك السلاجقة (493) . ومعنى ذلك أن نتيجة الصراع بين ولاة الفاطميين ، وأمراء العرب ، كانت سلبية ، بالنسبة للطرفين ، اذا لم ينتج عنها أي تغيير اقليمي ، أو فكري ، أو أي مكسب آخر ، الا اذا اعتبرت خسائر كليهما ، وضعف مركزيهما ، أمام القوات الخارجية التي توسعت على حسابهما معا ، مكسبا لأنها خلصتهما من تركات ثقيلة ، ووضعت حدا لصراعهما الذي اثر على المنطقة كلها ، حتى جعلها عرضة للمغامرين ، ولأعداء الاسلام وهم الروم البيزنطيون.

---

487 ـ ابن القلانسي : المصدر السابق 74 ـ 78 ، ابن خلدون : العبر 4 ، 129 ـ 130 ، ابن الأثير : الكامل 9، 187 ، ابن العديم : المصدر السابق 1، 261 ، ويشير الى صراع عنيف نشب بين المغاربة والحلبيين انتهى بقتل عدد كبير منهم .

488 ـ ابن العديم : المصدر السابق 1 ، 265 ، ابن ميسر : اخبار مصر 2، 13 وفيه ورد جعفر بن كلشيد .

489 ـ نفسه 1، 266 ، ابن القلانسي : المصدر السابق 85 .

490 ـ ابن القلانسي . المصدر السابق 86 . المقريزي : اتعاظ الحنفا 2، 235 .

491 ـ نفسه 90 .

492 ـ نفسه 92 ـ 93 .

493 ـ ويبدو أن سياسة المرداسيين في عصري الظاهر والمستنصر ، كانت صورة مطابقة لسياسة الحمدانيين تجاه الخلفاء الفاطميين منذ ان تم فتح مصر الى نهاية عهد الحاكم بأمر الله ، طابعها العام التقلب والذبذبة ، وموالاة اعداء الفاطميين والاستكانة الى البيزنطيين ، انظر ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق 27 وما بعدها ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 1، 98 وما بعدها ، ابن الأثير : الكامل 8، 78 وما بعدها ، جمال سرور ، النفوذ الفاطمي في بلاد الشام 48 وما بعدها .

وكان هؤلاء قد استقروا فى أنطاكية ، وضيقوا على حلب ، وقاموا بنشاط عسكري ضد بلاد الشام واصبحوا عنصر قلق واضطراب ، بسبب أطماعهم وتأيدهم للثوار ونجدتهم لكل من يظهر العصيان ضد الفاطميين .

* * *

وغدت أنطاكية نقطة انطلاق للجند البيزنطيين ، ومركز جذب لكل ثائر ضد السلطة الفاطمية ، من أمراء العرب وبقايا الحمدانية ، الذين رضوا بالتعاون معهم ، ليحافظوا على استقلالهم فى حلب ، واستفاد منهم افتكين فى تصفية نفوذ ابن الماورد ، وعنصر الأحداث (494) ، ولم تنجح مساعي منجوتكين للنيل من الروم واسترجاع انطاكية بسبب موقف الحمدانية (495) كما أن محاولات العزيز للخروج بنفسه للحد من خطرهم ، فشلت بسبب موته المفاجيء ، فى بلبيس (496) ، وقد استنصر بالروم بعض ثوار مدينة صور وهو العلاقة ، فنصروه (497) ، وقد نزلوا حصن افامية ، ولهذين الفرضين أخرج جيش بن الصمصامة (387 هـ) وقد لقي توفيقا فى أسر ثائر مدينة صور ، واحباط مساعي الروم فى نجدته ، كما أنزل بالدوقس هزيمة كبرى ، وشتت شمل جنده ، واقتفى اثرهم حتى انطاكية ، ثم رجع الى دمشق (498) .

ويبدو أن نصيحة ابن كلس للعزيز بالله « سالم يا أمير المؤمنين الروم ما سالموك (499) طبقها باخلاص وصي الحاكم بأمر الله برجوان الصقلبي الذي أرسل الى باسيل الثاني المقدوني ، يعرض عليه الصلح ، فاستجاب لذلك ، وارتبطا بالهدنة مدة عشر سنوات ، استغلت فى ضبط شؤون مصر والشام وبرقة (500) . ويبدو أن هذه الهدنة جددت فيما بعد ، اذ تشير بعض النصوص ضمن أحداث 318 هـ / 1027 ـ 1028 م الى هدنة مع الروم فى عصر الظاهر لاعزاز دين الله ، حيث خطب

---

494 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،220 ـ 221 . ابن القلانسي : المصدر السابق 12 ـ 13 .

495 ـ نفسه 1 ، 270،275ـ276،281ـ282،285ـ286 .

496 ـ نفسه 1 ، 287 ـ 291 .

497 ـ ابن القلانسي : المصدر السابق 50 .

498 ـ نفسه 51ـ52 . المقريزي : اتعاظ الحنفا 2،18ـ19 .

499 ـ نفسه 32 .

500 ـ نفسه 54 ـ 55 ، المقريزي : المصدر السابق 2،18،34، ابن الأثير : الكامل 9 ، 45 .

له فى المساجد التابعة لنفوذهم فى الشام ، كما أعيد بناء الجامع فى القسطنطينية ، وسمح فيه بالآذان ، ونتيجة لهذاه الامتيازات ، أعيد بناء كنيسة القيامة بالقدس ، وتركت الحرية لكل من يريد العودة الى دير النصرانية ممن أسلموا فى الفترة السابقة (501) وقد جددت هذه الهدنة أيضا سنة 427 هـ لمدة عشر سنوات (502) ، وبقي الأمر بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية فى اطار الهدنة حتى سنة 447 هـ ، حيث توترت العلاقة فجأة بينهما بسبب سماح الامبراطورة تيودورا بالدعوة للقائم بأمر الله العباسي على منبر جامع القسطنطينية (503) .

ويبدو أن ميل الخلفاء الفاطميين الى سياسة السلم مع الروم ، كان قدرا مشتركا بينهم (504) ما عدا فترات كانوا يميلون فيها الى اظهار قوة دار الاسلام (505) ، ومع ذلك فلم يتمكنوا من استرجاع انطاكية ، أو من ازالة امارة حلب الحاجزة ، وبقي الوضع مجمدا ، حتى ظهر عامل جديد ، تمثل فى توسع السلاجقة فى شمال الشام .

ومن خلال التجربة الفاطمية فى حرب الروم كان دور جند كتامة وقادتهم ، وولاتهم مشرفا ، فهم الذين حاولوا استرجاع انطاكية بقيادة فتوح وعراس (506) ، فى عهد جعفر بن فلاح ، كما قاوموهم الى جانب

---

501 ــ المقريزي : الخطط 1،355 ، اتعاظ الحنفا 2،176 .

502 ــ نفسه ، اتعاظ 2 ، 182 .

503 ــ نفسه ، 2 ، 230 . وساءت العلاقة بين الدولتين بسبب رسالة القضاعي الى المستنصر بالله .

504 ــ نفسه 1 ، 208ـ209،214، حيث يذكر موقف المعز لدين الله من قاضي اذنة ، بسبب انه قال فى حضرة المعز عن رسول الروم « انه آفة على الاسلام والمؤذي للمسلمين والاساري » ولقد حظي سفير الروم بالتقدير ، فلما مات ارسل فى تابوت الى بلد الروم ، وعن وفادة رسولين آخرين لطلب الهدنة من المعز ثم من ابنه العزيز بالله . انظر المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،226،288 .

505 ــ نفسه 1،288 ، ويذكر رفض العزيز بالله لاقتراح الرعية بعدم الخروج لحرب الروم وعلل رفضه بقوله (انما اسير لنصرة الاسلام والذب عن بلدانه وصيانة اهله) . وقارن ذلك بما ورد فى اتعاظ الحنفا 2،228 وما بعدها حيث يذكر ان هدية الروم اذا وصلت الى دار الخلافة تقوم ويحمل اليهم عوضها بمقدار ثلثيها ، « ليكون للاسلام مزية عليهم بالثلث » وقد اشترط على الروم فى احدى الهدنات ان يقبلوا فقط قيمة النصف من مجموع ما يهادون به الخلفاء فوافقوا على ذلك .

506 ــ ابن ايبك الدواداري : الدرة المضية 6 ، 133 ، النويري : المصدر السابق ج 26 ورقة 41 ــ 42 ، يحي بن سعيد الانطاكي : المصدر السابق 350 وعن عمل مارق الكتامي فى منطقة حلب انظر ابن عذاري : البيان 1 ، 354 .

جيش بن الصمصامة (507) ، وكانوا عدة منجوكتين ، وبكجور ، من أقوى الفرق التي صاحبت العزيز بالله عند خروجه لحرب الروم ، اذ كانت أوامره بالنسبة اليهم تقضي بتخصيص خمسة آلاف من الخيل لفرسانهم من مجموع الخيول التي بلغت اثنى عشر الفا (508) .

ولهذا الاعتبار ، ولأنهم كانوا — من بين عوامل فشل تجربة الحكم الفاطمي فى الشام ، وشحت النصوص بأخبار ولاتهم واضطربت حول ترتيبهم ، يجب أن نقول كلمة حول هذا الموضوع .

* * *

ويلاحظ فى بدء الأمر ان عناصر من كتامة تواردوا على حكم بلاد الشام بوصفهم قادة للجند أو ولاة ، أو عمالا على بعض المدن الداخلية أو الساحلية، منذ أن فتحها الامير الكتامي ، جعفر بن فلاح وهو رأس اسرة عتيدة ، عرفت نشاطاتها فى مصر وبلاد الشام الى أن ضاعت الى الأبد على يد وال من هذه القبيلة ، هو حصن الدولة معلى بن حيدرة بن منزو بن النعمان ، الذي فارقها ، فى ضوء ظروفها الدقيقة .

وهذه الحقيقة توضح كيف ان رجالات كتامة ، نشروا النفوذ الفاطمي فى هذه البلاد وقاموا حراسا أمناء عليه وبسببه شرفوا وازدهروا ، ثم فرطوا فى أخريات حياتهم ، فضاع هذا النفوذ ، وزال بزواله مجدهم وانتهى دورهم فى هذه البلاد على غير الصورة التي ابتدأ بها .

ولا يفهم مما سبق ان جميع ولاة بلاد الشام حتى القرن الخامس للهجرة كانوا من بين قبيلة كتامة وان رجالها الذين عرفتهم هذه البلاد ، كانوا جميعا من نوع الولاة الحقيقيين ، لأن بعضهم لم يتجاوز نفوذه الاشراف على الجند ومساعدة الولاة المدنيين ، مثل أبي محمود ابراهيم بن جعفر ، وجمع بعضهم بين الاختصاصين ، مثل جعفر بن فلاح وابنه أبي تميم سليمان وجيش بن الصمصامة ، فى أخريات حياته السياسية والاثنان الاخيران كلف كل منهما بانجاز مهمات استثنائية ، فلما انتهت ، استقرا على رأس ولاية الشام .

---

507 — يحي بن سعيد : المصدر السابق 456 ط كراتشوفسكي — النويري : المصدر السابق 26 ورقة 52 ، ويذكر فتح انطاكية على يد جيش بن محمد .

508 — المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،287 .

ومن قادة كتامة من ظهر دوره فى بلاد الشام أكثر من مرة ، مثل علي بن جعفر واخيه سليمان وقريبه جيش بن محمد ، الذي استخلف ابنه محمدا بعد وفاته حتى يتبين رأي الخليفة الحاكم بأمر الله ، ولم يكن ولاة كتامة جميعا من نوع الولاة الشرعيين ، اي بتقليد الخليفة ، بل كان منهم المتغلبون على البلاد ، ومن هؤلاء حصن الدولة معلى بن حيدرة بن منزو ، وهو الاخير من بين أسرة كتامية عتيدة ، عاصرت الفوضى التي أدت الى سقوط بلاد الشام فى أيدي السلاجقة . ويعتبر هو وعبد الله بن نزال ، من بين ولاة الشام الذين استمروا على رأس الولاية أطول مدة ممكنة ، لأن قصر مدة الولاية ، يكاد يكون سمة واضحة فى ولاة كتامة وغيرهم فى بلاد الشام (509) ، بسبب تقلب سياسة الخلفاء ووزرائهم ، أو ضعف الولاة أو قسوتهم ، أو رغبة السكان فى التجديد ، وقد يكون لتطور الوضعية السياسية والعسكرية دورها فى تغيير الولاة .

ومن بين قادة كتامة الذين عينوا عمالا فى بعض المدن الشامية ، ابو الفتح ابن الشيخ الذي تولى الاشراف على صيدا ، وكان « رجلا جليل القدر » (510) ، وبقي فترة طويلة فى هذه المدينة ، امتدت حتى عصر الحاكم بأمر الله ، واشترك فيما جرى طيلة هذه الفترة من نضال سياسي وعسكري ضد المعارضين ، والروم البيزنطيين (511) ، ثم شجاع الدولة جعفر بن كليد ، وكان واليا على حمص (512) . ومنصور بن كراديس ، وكان عاملا على شيزر ، قرب حماة وفحل بن اسماعيل وكان واليا على صور (513) ، وصفي الدولة بن علي بن جعفر بن فلاح ، وكان شاعرا أديبا ، مثل جده ، وقد ولي حلب منذ شهر رجب 431 هـ / سبتمبر 1022 م (514) ، وبعد وفاته ، توارد عليها ولاة من أسرة ابن ثعبان الكتامية ، وهم سند الدولة ، وسديد الملك (515) ، كما ولي طبرية ، مجد الدولة فتاح فترة (516) . واشرف جيش بن الصمصامة فى فترة من حياته السياسية على مدينة طرابلس ، كما وليها قريبه علي

509 – زمباور : معجم الانساب والاسرات 1، 44–46 .

510 – ابن القلانسي : المصدر السابق 14–15 .

511 – نفسه 50 .

512 – ابن العديم : المصدر السابق 1 ، 265 ، ابن القلانسي : المصدر السابق 75 هامش 1 ، المقريزي ، اتعاظ الحنفا 2 ، 201 ط 1971 ، وتحتفظ مدينة دمشق باسم درب قليد ، فلعله يذكر باسم والد هذا القائد الكتامي انظر ابن عساكر : تاريخ دمشق ، مجلد 2 ، قسم 1 ، ص 73 .

513 – ابن القلانسي : المصدر السابق 43 ، المقريزي ، اتعاظ الحنفا 2، 17 .

514 – ابن العديم : المصدر السابق 1، 220–221 .

515 – نفسه 1، 222 .

516 – المقريزي : اتعاظ الحنفا 2، 142، 152 . وهنا ورد باسم جناح بن يزيد .

بن جعفر بن فلاح (517) . ثم ابو الحسن عبد الواحد بن حيدرة (518) وابن نزال (519) .

والظاهرة التي ميزت حياة كتامة فى بلاد الشام هي ظاهرة التنافر بينهم وبين سكان البلاد ، بسبب الخلاف المذهبي ، وميل الجند المغاربة الى الفوضي وكان رد السكان دائما اثارة الشغب ضد الولاة . وتنافر الحيين ، قضي على فرص التعاون بينهم ، وحال دون اجراء الاصلاحات اللازمة التي أراد تطبيقها بعض ولاة كتامة المصلحين ، ومنهم ابو تميم سليمان بن جعفر بن فلاح الذي « استقام له الأمر ، واستقرت على الصلاح الحال ، وصلحت أحوال البلد واهله ، بما نشر فيه من العدل ، وحكم به من الانصاف واحسنه من النظر ، فى أمور السواحل بصرف من صرفه من ولاتها الجائرين ، واستبدل بهم من شيوخ كتامة وقوادها (520) .

وكانت الأزمات تظهر فجاة ، وبدون مقدمات ، ويتكرر ظهورها حتى لاتفه الأسباب ، ويلاحظ بعض المؤرخين كيف أن الفتنة عادت الى دمشق، واضطرب البلد كله من أجل نزاع على صبي « فثار اهل الشر من الدماشقة ، وراس الشطار فيهم ابن الماورد بسبب منازعة أهل البلد مع مغربي بسبب صبي » (521) .

وهكذا ألف الناس الشغب ، وجروا على سياسة موالاة أعداء الفاطميين، سواء كانوا عباسيين ، أو مغامرين ، أو أعداء للاسلام مثل الروم البيزنطيين .

واحساس الخلفاء بهذا الاتجاه الخطير ، جعلهم أحيانا يطلقون العنان للولاة الذين استغلوا الظرف ، واستبدوا بالسكان ، وحكموا فيهم الجند ،

---

517 – ابن القلانسي : المصدر السابق 48 .

518 – نفسه 50–51 وكانت ولاية طرابلس من الاهمية بحيث اصبحت طريقا الى ولاية بلاد الشام كلها ، فاغلب من وليها من القادة ظفروا فى النهاية بولاية الشام ومن هؤلاء جيش بن الصمصامة وعلى بن جعفر بن فلاح وابن نزال .

519 – المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،269 . وقد وليها اخوه ايضا باتفاق السكان انظر 1،286 منه .

520 – ابن القلانسي : المصدر السابق 48 ، وممن عزلهم سليمان ، والي طرابلس جيش بن الصمصامة وهو ابن اخته .

521 – المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،211 .

ومن هذه الناحية ، يعتبر حكم بلاد الشام في أغلب الاحيان ، حكما عسكريا ، للجند فيه ، الكلمة الأولى .

ومن بين ولاة كتامة الذين اشتهروا بالشدة ، والعنف ، وسفك الدماء ، جيش بن محمد بن الصمصامة وعلي بن جعفر بن فلاح ، حتى أنكر عليه اخوه سليمان « احراق ما احرق ، وبلوغه في الفساد ما بلغ » (522) وحصن الدولة معلى بن حيدرة « الذي لم يلق أهل البلد من التعجرف والظلم والعسف بعد جيش بن الصمصامة ، في ولايته ما لقوه من ظلمه ، وسوء فعله ، وقاسوه من اعتداءاته ، ولؤم أصله (523) . أما اغلب لولاة ، فقد جنحوا الى العدل وايجاد الاستقرار ، والى التقريب بين الجند والسكان ، ومن هؤلاء جعفر بن فلاح ، وابنه أبو محمود ابراهيم الذي خاطب سكان مدينة دمشق في احدى فترات القلق بقوله « ما نزلت لقتالكم وانما نزلت لأرد هؤلاء الكلاب عنكم ، يعني أصحابه » (524) ، ورغم جهوده ، وجهود اخيه أبي تميم سليمان بعده ، فان سياستهم لم تنجح ، بسبب سوء الظن الذي استحكم بين الجند ، والرعية ، الذين وطنوا انفسهم على انكار كل مزايا الحكم انفاطمي ، والتربص به في كل حين ، ولذلك لم يستقر في أي فترة من الفترات ، حتى زال في نهاية القرن الخامس للهجرة ، وطيلة هذه الفترة كانت تجربة الحكم الفاطمي ، سلسلة من الاصطدامات ، والثورات ، والكوارث التي لا تنتهي واحدة منها حتى تتلوها اخرى ، يتصدر هذه الاشراف ، ويتزعم تلك « الشطار » او يشترك هؤلاء جميعا ، في التآمر ، أو في دعم حركات المغامرين ، القرامطة او أمراء العرب أو الروم ، ومهما كانت أسباب التآمر ، ومصدره فان النتيجة كانت دائما ، ضد الغالب ، والمغلوب ، تخريبا لمظاهر العمران وامعانا في زرع الفوضى ، وفي سفك الدماء واضعافا للطاقات الحية ، ومن ثم سهل على الروم البيزنطيين ثم السلاجقة والفرنج الصليبيين ، التسرب الى هذه البلاد ، التي أعياها طول الجلاد في غير ميدان الحرب الحقيقية .

* * *

---

522 — ابن القلانسي : المصدر السابق 47 .

523 — نفسه ، 95 .

524 — المقريزي : اتعاظ الحنفا ، 1 ، 211 .

وحول ترتيب ولاة كتامة في بلاد الشام (525) ، منذ الفتح حتى زوال النفوذ الفاطمي نلاحظ أن أول الولاة الكتاميين هو جعفر بن فلاح (526) ، الذي أشرف على شؤون البلاد ، وعلى حرب الثغور حتى قتل في الدكة على نهر يزيد ، فصارت البلاد تحت نفوذ القرامطة ، حتى انهزموا لآخر مرة أمام الخندق قرب القاهرة ، وانسحبوا فعين ابو محمود ابراهيم بن جعفر ، مقدما على الجند ، ليقطع أثرهم ويتعاون مع ظالم بن موهوب في تسيير شؤونها (527) . فاستقر بحي الشماسية واستعان بابن أخته جيش بن الصمصامة عندما فارقه ظالم بن موهوب ، فكانت هذه أول مرة يظهر فيها جيش في ميدان المسؤولية ، مساعدا لخاله وقد استقر في قصر الثقفيين في دمشق (528) ، وعندما فشلا في مواجهة المشاكل ، وكشف تحقيق ريان الخادم عن مسؤوليتهما فيما جرى ، أخرجا الى الرملة وبقي ريان مسؤولا عوضا عنهما حتى فارق دمشق تحت ضغط افتكين التركي (529) ، وقد ظهر دور أبي محمود ، وابن أخته في قتال افتكين ، ثم في مراقبة قسام التراب بعده واستقرا في دمشق من جديد (530) ، حيث انضما لسليمان بن جعفر الذي جاء لأول مرة ، للحد من خطر قسام التراب ، وقد بقيا في المدينة بعد صرف سليمان عنها ، بأمر العزيز بالله (531) ، وعندما توفي أبو محمود في صفر 370 هـ / اغسطس 980 ، خلفه في القيادة ، وفي تمثيل سلطة الخلافة جيش بن الصمصامة الذي انضم لقوات بلتكين التركي (532) . وفي الفترة التي آلت فيها

---

525 – من اهم المصادر واوثقها حول دور كتامة في الشام ، تاريخ ابي يعلى حمزة بن القلانسي الذي يعتبر بمثابة ذيل لتاريخ هلال الصابيء . وقد غدا ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي عمدة الباحثين القدماء والمحدثين خاصة في حوادث بلاد الشام في العصر الفاطمي ، يضاف اليه تاريخ دمشق لابن عساكر ، ثم امراء دمشق في الاسلام للصفدي . ص 1–85 .

526 – تحتفظ مدينة دمشق باسم حارة الفلاحين فلعلها تحمل اثرا من العصر الفاطمي ، وأسرة جعفر بن فلاح الكتامي . انظر ابن عساكر : تاريخ دمشق ، مجلد 2 ، قسم 1 ، ص 39 .

527 – ابن القلانسي : المصدر السابق 3–4 ، ابن خلدون : العبر 4 ، 105 وما بعدها ، ابن الأثير : الكامل ، 8 ، 230 – 231 .

528 – نفسه 10 .

529 – نفسه 11 ، 12 . ابن الأثير : الكامل 8،231 .

530 – ابن القلانسي : المصدر السابق ، 21 ، ابن خلدون : العبر ، 4 ، 110 ، زمباور : المرجع السابق 1 ، 44–45 ، ابن الأثير : الكامل 8،230 – 231 ، 252 – 253 ، الصفدي : امراء دمشق في الاسلام 25 .

531 – نفسه ، 23–24 ، ابن خلدون : العبر ،4،110 وما بعدها ، زمباور : المرجع السابق 1،44–45 . ابن الأثير : الكامل 8،253 .

532 – نفسه ، 25–26 . ابن الأثير : المصدر السابق 9،3 .

ولاية الشام الى بكجور ، ومنير الخادم ، استقر جيش بن الصمصامة فى مصر ، حتى سنة 385 هـ / 995 – 996 م ، حيث أرسل على رأس قوة كبرى الى بلاد الشام ، نجدة لمنجوتكين (533) ، الذي اصبح فى وضع دقيق ، بعد هجوم باسيل الثاني ، امبراطور الروم على بلاد الشام ، نجدة للحمدانيين حلفائهم (534) .

وكان خروجه مقدمة للمجهود الحربي الكبير الذي أشرف عليه العزيز بالله ، واستهدف فى النهاية خروجه بنفسه لصد خطر الروم (535) .

وقد استقر جيش بن الصمصامة فى مدينة طرابلس ، حتى طرد منها ، بواسطة خاله سليمان بن جعفر الذي جاء هذه المرة واليا على بلاد الشام ، عوضا عن منجوتكين ، الذي أظهر عداءه لكتامة ، ولأمين الدولة ابن عمار (536) . واثر التصفية النهائية بين عناصر المشارقة ، والمغاربة ظفر
(536) . واثر التصفية النهائية بين عناصر المشارقة ، والمغاربة ظفر
جيش بن الصمصامة بمكانة ممتازة وأعيد الى ميدان الشام للمرة الثانية الاخيرة ، وعندما انجز كلف به ، استقر فى دمشق واليا ، حتى توفي فى ربيع الآخر 390 هـ / مارس – 1000 م ، فخلفه ابنه محمد لفترة يسيرة كما أشرنا (537) ، حتى عين عامل مدينة صور ، أبو الحارث تميم بن اسماعيل الكتامي الملقب فحل ، واليا على بلاد الشام (538) . وعندئذ غادر ولدا جيش البلاد الى مصر ، حيث بلغا وصية أبيهما الى الحاكم بأمر الله (539) . كما أشرنا .

وعندما توفي تميم الفحل ، خلفه فى تسيير شؤون البلاد علي بن جعفر بن فلاح وتكاد تكون اختصاصاته قاصرة على الجند اذ لم تتضمن النظر

533 – المقريزي : اتعاظ الحنفا 1، 287 .

534 – نفسه ، 1 ، 285 – 286 .

535 – نفسه ، 1، 287 وما بعدها .

536 – نفسه ، 2، 8–10 وقد قرىء سجل تضمن لعن منجوتكين ومدح كتامة ، ابن الأثير : المصدر السابق 9، 44 .

537 – ابن القلانسي : المصدر السابق 48 وما بعدها ، ابن خلدون : العبر 4، 117 ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 2، 18 ، وقد رجع كل من علي واخيه سليمان الى مصر ، وقد توفي الاخير فى جمادي الآخرة 391 هـ ، انظر 43 منه ، ابن الأثير : الكامل 9 ، 45 .

538 – المقريزي : الخطط 2 ، 285 ، ابن القلانسي : المصدر السابق 57 ، النويري : المصدر السابق 26 ورقة 52 . الصفدي : امراء دمشق فى الاسلام 22 ، 65 .

539 – نفسه : اتعاظ الحنفا 2 ، 33 ، وابو عبد الله محمد بن جيش هو الذي تعرض لموكب الظاهر « وقد اختل عقله وحاله فوقف تحت القصر وشتم الظاهر اقبح شتم وبالغ فيما شتم به » فضرب واعتقل ثم افرج عنه . وكان من بين رجال كتامة الذين واجهوا الظاهر بصيحة واحدة « الجوع يا امير المؤمنين الجوع لم يصنع بنا هكذا ابوك ولا جدك ، فالله الله فى امرنا » وقد تضامن معهم سائر السكان ، انظر اتعاظ الحنفا 2، 164 – 165 ط 1971 .

فى الأموال والاقطاعات التي كان تدبيرها لكاتب نصراني هو ابن عبدون ، وهكذا اقام بدمشق غير منبسط اليد فى المال » ، حتى عين على دمشق وال جديد ، هو ختكين الداعي الملقب بالضيف منذ شهر رمضان 392 هـ يوليه 1002 م ، فاستبد بتسيير شؤون البلاد وضيق على الجند ، ومال للتوفير ، بالتحايل على ارزاق الجند ، فثاروا عليه ، وعلى كاتبه ابن عبدون ، ولما كان الضيف « قد منعهم واغلظ فى القول لهم » فقد قتلوه ، وصمموا على أخذ أرزاقهم كاملة ، والوقوف ضد كل من تحدثه نفسه بمعارضتهم أو معاقبتهم عما فعلوه « وتحالف المغاربة والمشارقة من المعسكر على أن يكونوا يدا واحدة فى طلب الأرزاق » ، وأيدهم قائدهم علي بن جعفر ، اقتناعا بمطالبهم أو خوفا من العاقبة ، ولهذا السبب عزل عن قيادة الجيش وكلف به ؛ وبتسيير شؤون البلاد مؤقتا ، أبو محمد تموصلت (طزملة) بن بكار والي طرابلس الغرب سابقا ، فلم يؤثر عليه أثناء حكمه غير تطويف رجل مغربي تنكر للاسماعيلية ، وقد شهر فى المدينة ونودي عليه « هذا جزاء من يحب ابا بكر وعمر » ثم أبعد الى الرملة ، وقتل هناك ، واثر صرف تموصلت عن الولاية فى ذي الحجة 393 هـ / اكتوبر 1003 م (540) وليها مفلح اللحياني الخادم ، حتى ربيع الأول 398 هـ / نوفمبر 1007 م حيث أرجع اليها علي بن جعفر بن فلاح ، جزاء له عما بذله من جهد فى قتل أبي ركوة (541) ، وكانت سلطته هذه المرة ، شاملة للحرب ، والخراج ، وقد استمر فى الولاية حتى منتصف رمضان 399 هـ / أفريل 1009 م حيث كلف بها أبو الحسن حامد بن ملهم (542) ، فترة يسيرة ثم آلت الى أبي عبد الله محمد بن نزال ، حتى منتصف رمضان 400 هـ / ابريل ــ 1010 م (543) ، ومنذ هذا التاريخ حتى جمادي الاولى 401 هـ / توارد على الولاية مجموعة من القادة حتى صارت من جديد الى ابن نزال حتى نهاية ذي الحجة 406 هـ / مايو 1016 م (544) ومنذ هذا الوقت ، لم يظهر من

---

540 ــ المقريزي : اتعاظ الحنفا ،2، 45ــ46، 48 . ابن القلانسي : المصدر السابق 57ــ58، الصفدي ، امراء دمشق فى الاسلام 21 .

541 ــ نفسه ،2، 63ــ64 .

542 ــ نفسه ،2، 71، الذهبي : تاريخ الاسلام 3 ورقة 254 ، ابن القلانسي : المصدر السابق 66 ، وقد عين ابن ملهم منذ اواخر شهر رجب 399 هـ .

543 ــ نفسه ، 83 ، وقارن ذلك بما ورد فى ص 89 منه ، عن توليته الشرطتين فى مصر سنة 402 ، ابن القلانسي : المصدر السابق 66، 69 .

544 ــ بن القلانسي : المصدر السابق 69 .

قادة كتامة ، من ولي الشام كلها ، حتى عصر المستنصر بالله ، حيث ظهر افراد من اسرة منزو بن النعمان الكتامي ، ويبدو ان ازمة كتامة فى عصر الحاكم (545) ، وبداية عصر الظاهر ، وتضييق الاخير عنهم ، حتى أصبح كثير منهم فى حاجة ماسة الى المال لسد الضروريات ، حتى ظهر ذلك علنا ، وتولوا الاعراب عنه أمام الخليفة نفسه (546) ثم ان الاشراف عليهم وعلى ديوانهم ، لم يبق بيد كتامى منهم ، وانما تداوله عدد من قادة الدولة وأمرائها ، منهم مسعود بن طاهر بن الوزان ، ثم عز الدولة معضاد ، ثم صدقة بن يوسف الفلاحي ، الذي أشرك معه فى النهاية صاعد ابن مسعود (547) . هذه العوامل كلها اثرت على الروح المعنوية عند رجال كتامة ، واضعفت طموحهم ، ونزعتهم العسكرية ، وكان لبعض الخلفاء رغبة فى أبعادهم واذلالهم .

وظهور اسرة منزو على مسرح الحوادث فى بلاد الشام ، سببه تطور الأوضاع فيها لغير صالح ولاة الخلافة ، وثورة السكان وانضمام أفراد هذه الأسرة اليهم ، وتأييدهم ضد بدر الجمالي ، ولم يكن للخليفة المستنصر ، قوة للقضاء عليهم فى هذه الفترة الدقيقة . وظهورهم بمظهر المخالفين للسكان وللاحداث ، ان كان يتضمن معنى الاحتجاج ، والثورة لرد الاعتبار لقبيلتهم ، فانه يشير الى تآلفهم مع سكان البلاد لقدم عهد أسرتهم بها ، حتى أن بعضهم التجأ الى الكلبيين تحت ضغط الظروف (548) ، وكان جلال الملك بن عمار فى مدينة طرابلس من أصهارهم ، وهو من أسرة عريقة .

واذا كان الغموض يحيط بنشأة ، وبدور جد الأسرة النعمان ، وابنه منزو ، فان حيدرة بن منزو وابنيه معلى ، وسنان الدولة ، أشتركوا فى مساعدة السكان ضد بدر الجمالي ، وقد توفي حيدرة فى مدينة صور أثناء

---

545 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 2،49 وفيه قوله : « خرج الكتاميون الى باب الفتوح فترجلوا وكشفوا رؤوسهم ، واستقالوا بعفو امير المؤمنين فاوصل الى الحاكم جماعة منهم فوعدهم » .

546 ـ نفسه 2 ، 155،ومما جاء فى خطابهم الخليفة قولهم « غير اننا قد هلكنا والله يامولانا، فقرا وجوعا ، وليس لواحد منا مال يرجع اليه » ، وقد أكد الكتاميون ذلك عندما جمعوا بقصد تجهيزهم للحرب ضد امراء العرب فى الشام ، وقالوا لعز الدولة معضاد « شغلنا الجوع وطلب الخبز عن هذا » ، انظر 158 ـ 159 منه .

547 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا ،2،141،152،156 .

548 ـ ابن الجوزي : المصدر السابق ج 12 ورقة 119ـ120 ، ابن القلانسي : المصدر السابق 96 ـ 97 هامش 1 ، الصفدي : امراء دمشق فى الاسلام 28،85 .

الصراع (549) . وعندما تبين لبدر الجمالي أثناء ولايته الاولى (456 هـ / 1063 ـ 1064 م) تعذر بقائه فى دمشق بسبب معارضة السكان له ، واصطدامهم مع الجند ، فارقها وانتدب لها : حصن الدولة معلى بن حيدرة ، منذ شهر رمضان 456 هـ ، فباشر تسيير شؤونها « فأمر ونهى على عادة أمثاله من الولاة لها » حتى عزله المستنصر بالله ، وعوضه بدري المستنصري ، الذي لم يلبث طويلا وصرف عنها الى الرملة (550) ، وتركها تعيش فراغا سياسيا ، وفى فوضى ، لم يتمكن من مواجهتها كل من بدر الجمالي أثناء ولايته الثانية (458 هـ / 1065 ـ 1066 م) وقطب الدولة بارز طغان منذ شهر شعبان 460 هـ / مايو 1068 م (551) وفى ظل هذه الظروف الدقيقة التي كانت تمر بها مدينة دمشق ، استولى حصن الدولة معلي بن حيدرة بمساعدة أخيه سنان الدولة على السلطة فى المدينة ، وفرض حكمه قسرا على السكان منذ شهر شوال 461 هـ / يوليه ـ 1069 م وقد اثر عليهم بتمويهاته ، « بحيل نمقها ، ومحالات اختلفها ولفقها » ، بقصد اقناعهم بأنه أمير بتقليد خاص من الخليفة المستنصر بالله ، الذي يبدو أنه اعتمد ولايته فى المدينة بعد أن تغلب عليها .

وقد كان حكمه صورة من حكم جيش بن محمد بن الصمصامة ، فاستبد بالسكان دون تفريق بين الأخيار والأشرار ، وصادر الأموال وحكم بطريقة ارهابية حتى اضطر الناس الى الهجرة والى مفارقة مزارعهم « فخلت الأماكن من قاطنيها ، والغوطة من فلاحيها » ، وتأثرت الحياة الاقتصادية انهارت الزراعة (552) ، وعندما شعر بتحفز السكان للثورة عليه ، وعزم الجند على الايقاع به ، خاصة وان ضغط الأتراك السلاجقة ، كان قويا منذ فترة ، غادر دمشق فى نهاية 467 هـ / 1074 ـ 1075 م ، الى بانياس التي استمر فيها حتى 472 هـ / 1079 ـ 1080 م ثم غادرها الى صور ، ومنها الى طرابلس حيث اقام ضيفا عند صهره جلال الملك بن عمار ، وفيها قبض

---

549 ـ نفسه ، 12 ورقة 120 ، ابن القلانسي : المصدر السابق 97 وهامش 1 .

550 ـ ابن القلانسي : المصدر السابق 91ـ92 ، الذهبي : المصدر السابق 3 ، ورقة 381 (احداث 456 هـ) ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 2،270 .

551 ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ، 93ـ94 ، الذهبي : المصدر السابق ، 3 ورقة 383 (احداث 458 هـ) وانظر ايضا ورقة 386 (احداث 460 هـ) .

552 ـ نفسه ، 95 ، الذهبي : المصدر السابق 3 ، ورقة 386ـ387 (احداث 461 هـ) ، ابن الجوزي : المصدر السابق 12 ورقة 120 ، ويشير الى ولاية اخيه سنان الدولة ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 2،296 ، زمباور : المرجع السابق 1 ، 46 ، الصفدي : امراء دمشق فى الاسلام 85 .

عليه وارسل الى مصر حيث اعتقل وعذب حتى توفي 481 هـ / (553) / 1088 - 1089 م .

وفراره ، ثم موته في مصر ، كان خاتمة مؤسفة لدور كتامة في بلاد الشام ، التي خضعت فترة يسيرة للجند المصامدة ، ومقدمهم : زين الدولة انتصار بن يحيى ، الذي استولى على السلطة « باغراء عصبيته ، وتشجيعها له ، مع أغلب سكان المدينة » الذين ارتضوا به ، ومالوا اليه لسداد طريقته ، وحميد سيرته ، وكونه أحسن فعلا ممن تقدمه واجمل قصدا ممن كان قبلـه » .

ومع استعداداته الطيبة ، ونبل قصده ، فان الضائقة الاقتصادية ، التي اشتدت بغلاء الأسعار وقلة المواد الضرورية للعيش ، وحدة الصراع بين المصامدة « وشطار دمشق » هيآ المدينة وسائر بلا الشام لاستقبال سلطة جديدة « والدخول في عصر جديدابتداء من شهر ذي القعدة 468 هـ / يونيه 1076 م حيث اقتحم اتسز (الاقسيس) دمشق بالأمان وخطب فيهـا للخليفة العباسي المقتدي بالله وقطعت الخطبة للمستنصر بالله الفاطمي . وفارقها انتصار بن يحيى الذي حظى باقطاع تضمن بانياس ويافا (554) . واسدل الستار نهائيا عما كان يسمى ولاية الشام الفاطمية أو « خط الدفاع الأول عن مصر » ، أو « القاعدة الامامية » لفتح العراق ، بل أصبحت مصر مرة أخرى هدفا للغزو، من قواعد الشام(555)، وتكرر هنا شبيه ما حصل من قبل مع القرامطة ، غير ان النتيجة كانت مغايرة تماما حيث فقدت بلاد الشام الفاطمية الى الأبد ، وضاعت جهود بعض خلفاء الفاطميين ، لارجاع نفوذهم خاصة في جنوب بلاد الشام ، اذ غدت منذ ربيع الأول 471 هـ / سبتمبر 1078 م جزءا من امبراطورية السلاجقة العظام وصارت دمشق

553 - نفسه 96 ، الذهبي : المصدر السابق 3 ورقة 386-387 ، المقريزي : المصـدر السابق 2،315 وهنا ورد تصحيفا حيدرة بن ميرزا ، ابن الأثير : الكامل ، 10،37 ، ويشير الى فرار معلي بن حيدرة في شهر ذي الحجة 467 هـ ، عبد العزيز سالم : طرابلس الشام 69-70 .

554 - ابن القلانسي 108 ، الذهبي : المصدر السابق 3 ، ورقة 406-407 ، (احـداث 468 هـ) ، ابن خلدون : العبر 4،136 . المقريزي : اتعاظ الحنفاء 2،315 ، ابن الأثير : الكامل 10،37، الصفدي : امراء دمشق في الاسلام 13 .
EI. Art Damas T. I p. 930

555 - نفسه 109 ، وما بعدها . الذهبي : المصدر السابق 3،ورقة 407 المقريزي : اتعاظ الحنفا 2 ، 317 ، ابن خلدون : العبر ،4،136 وما بعـــدها ابن الاثير : 10،38-39 .

مقرا لفرع سلاجقة الشام وراسهم هو تاج الدولة أبو سعيد تتش بن الب ارسلان (556) .

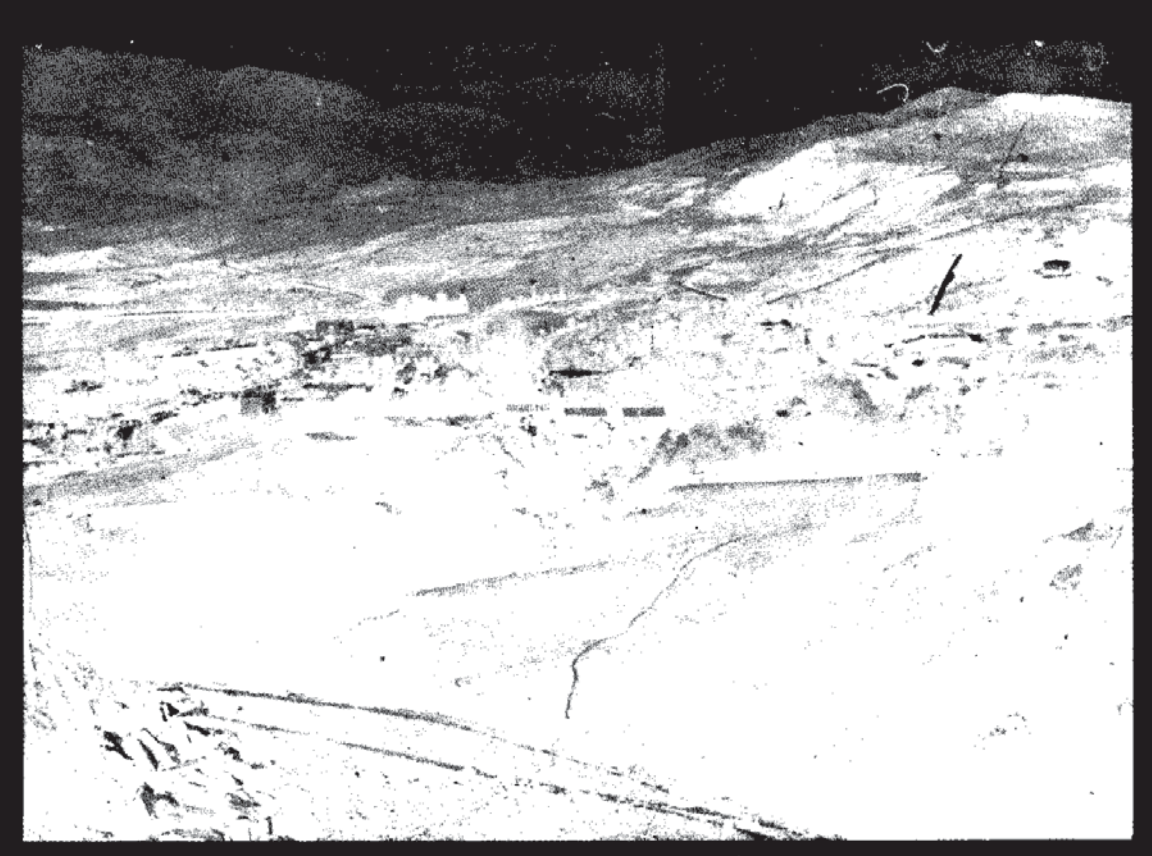
ويقيننا ان الصراع بين الفاطميين ، وسكان بلاد الشام الذي انتهى بالخاتمة الحميدة التي توخاها هؤلاء ، وهي أن تعود بلادهم الى وضعها الطبيعي ، عضوا صالحا فى الاسرة السنية ، التي تشرف عليها الخلافة الشرعية فى بغداد ، لم تقتصر عوامل النجاح فيه على ضعف مركز الخلافة الفاطمية ، التي كانت تعاني فعلا « أزمة حكم » ولا على ضعف عصبيتها التاريخية ، وهم كتامة الذين غدوا فى حالة ذلة وتشرد ، يعانون « ازمة ثقة » وانما كان لحركة النهضة ، ولمظاهر التجديد ، التي عرفها العباسيون ، فى ظل الاتراك السلاجقة دور كبير فى ذلك ، وفى اعادة الاعتبار لدار الاسلام ، وللخلافة العباسية التي استعادت دورها الهجومي .

وحسب كتامة — أنهم — فى عصر نهضتهم ، وعناية الدولة بهم — كانوا افضل بالنسبة للفاطميين ، من السلاجقة بالنسبة للعباسيين أي عاملا فى التوسع لاكتساب المجد وقوة دفع هائلة ضد دار الحرب ، وصمام أمن ضد الثورات والأخطار ، وأساسا قويا لعلاقات ايجابية مثمرة مع المشرق والمغرب .

وما قام به هؤلاء فى ميدان علاقات الدولة خاصة مع الزيريين فى بلاد المغرب منذ الفراق الأول — برحيل المعز ، الى عصر القطيعة المؤقتة ، بثورة سميه الصنهاجي فى القرن الخامس الهجري (11 م) يستحق توضيحا ، وذلك موضوع الفصل التالي .



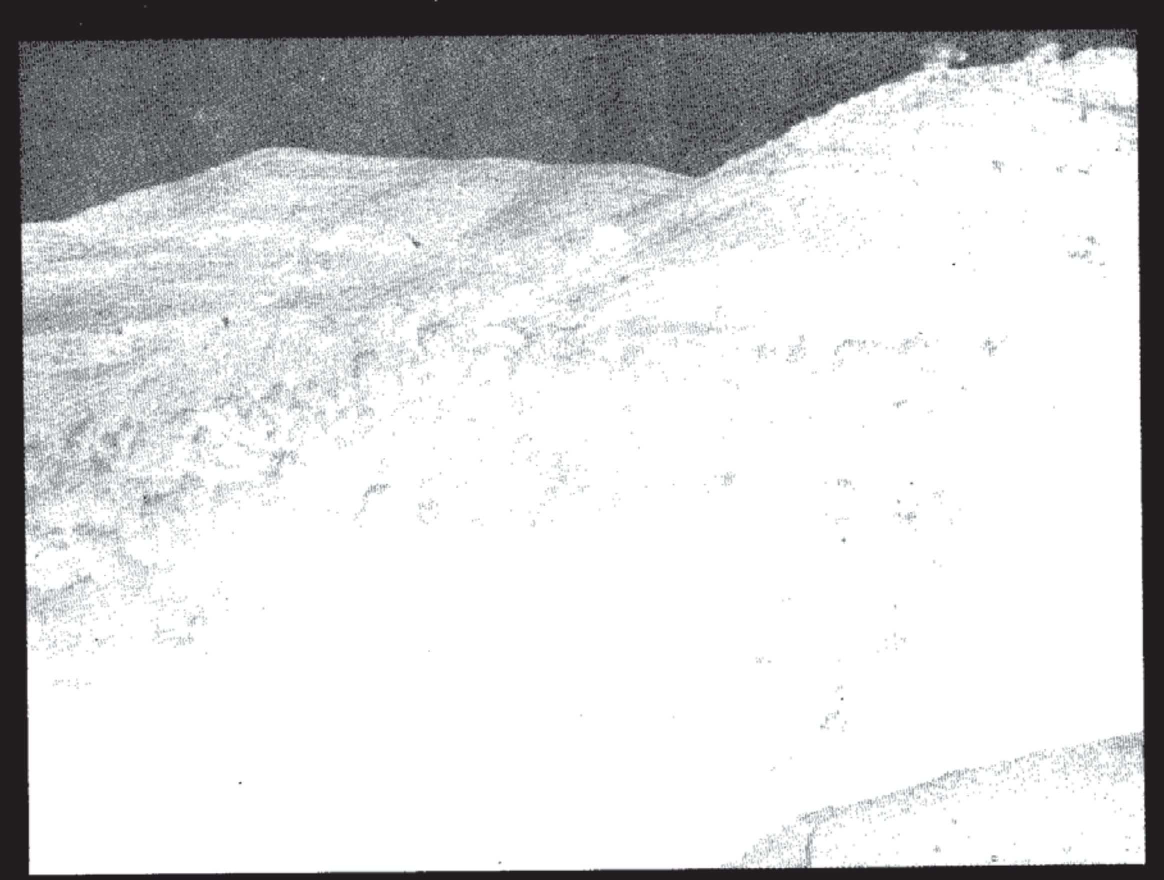
556 — نفسه ، 112 وما بعدها ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 2، 319 وما بعدها ابن الأثير : الكامل 10، 41 . ويشير الى رواية ابن عساكر التي تحدد تاريخ دخول تتش الى دمشق بسنة 472 هـ .



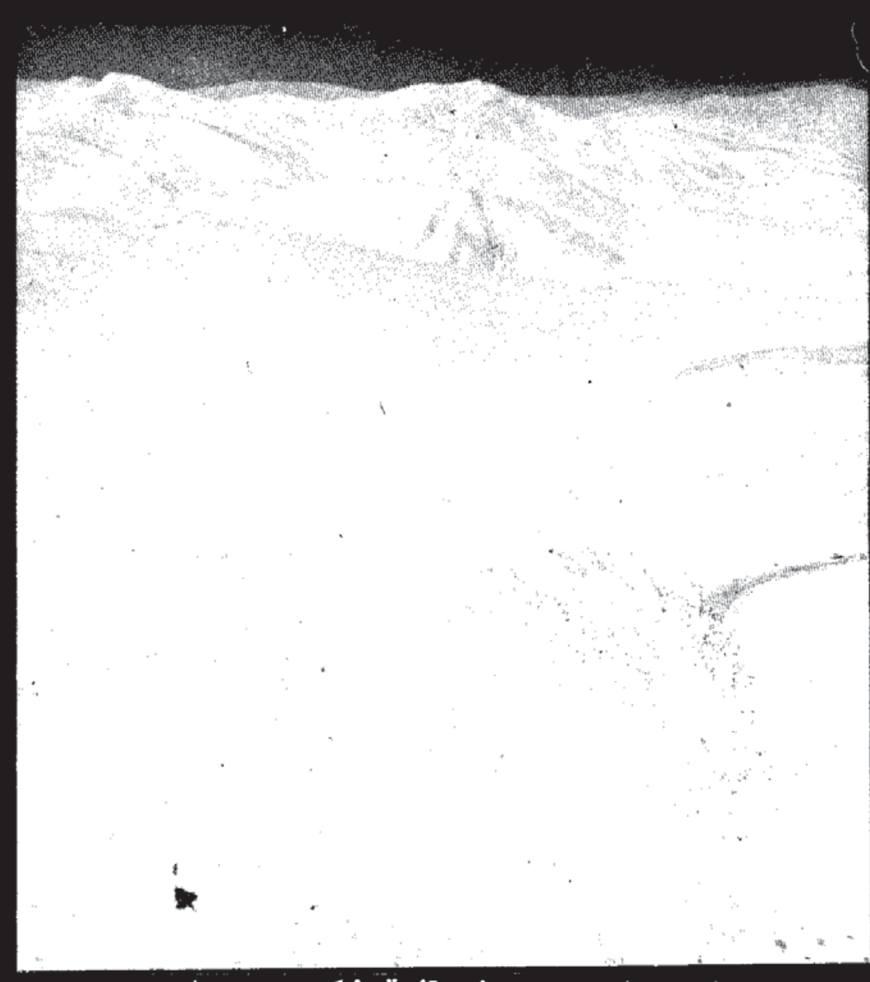
منظـــر عام لبني عـــزيز



سيـــــدي علي البصري



ضـــواحي بني عـــزيز



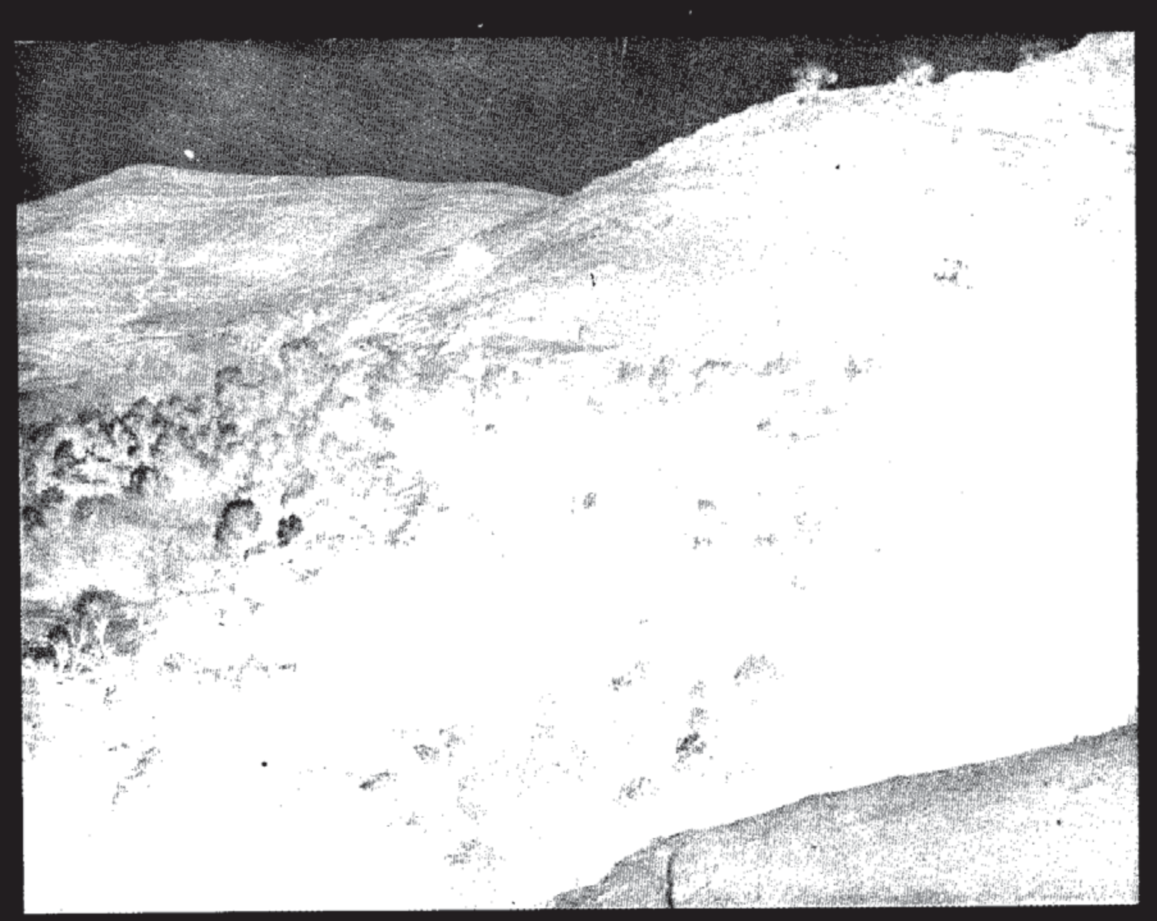
فجـــاج حـــول قلعة ايكجـــــان
(مرقب الطير)



قلعـــــة ايكجــــان



قلعـــــة ايكجــــان
(قـــرب بني عـــزيز)



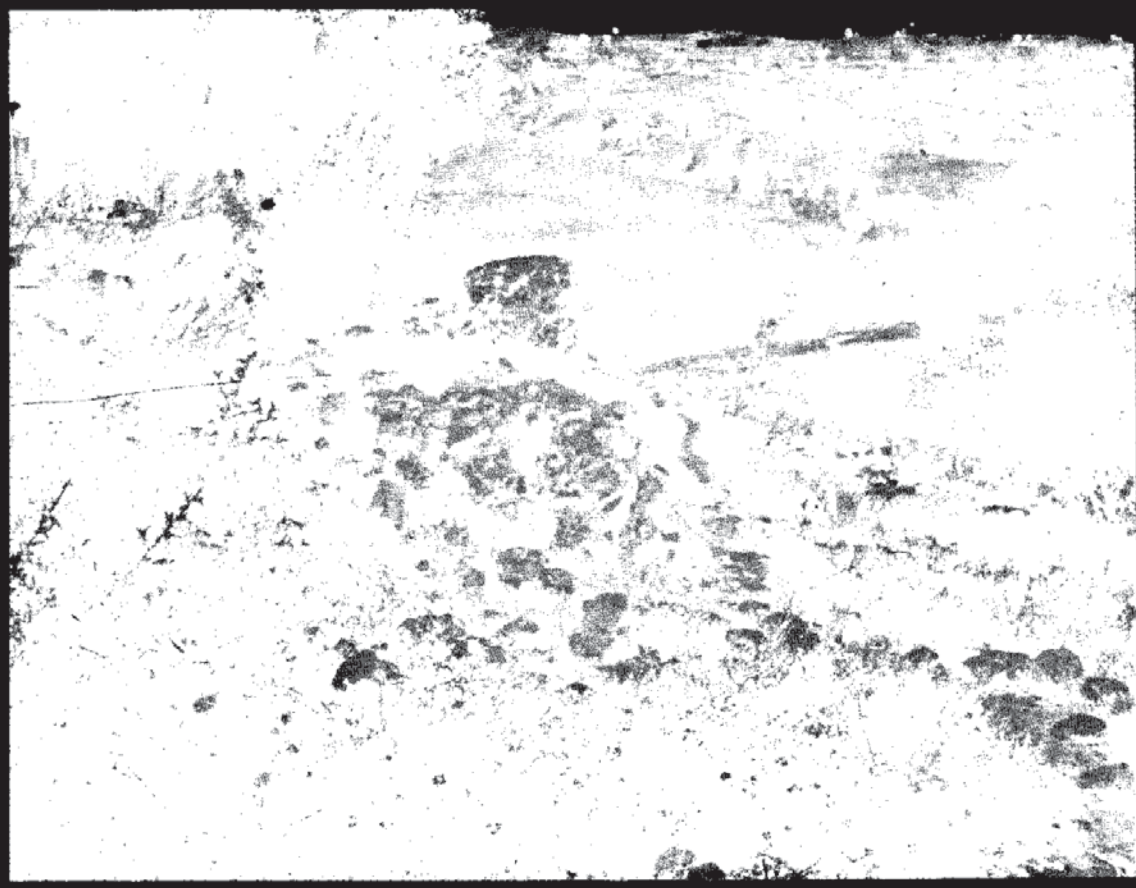
جميلة (جبـل بو عـزة)



سيـــدي علي ألبصــري



مقبرة سيدي علي البصري
(بني عـــزيز)



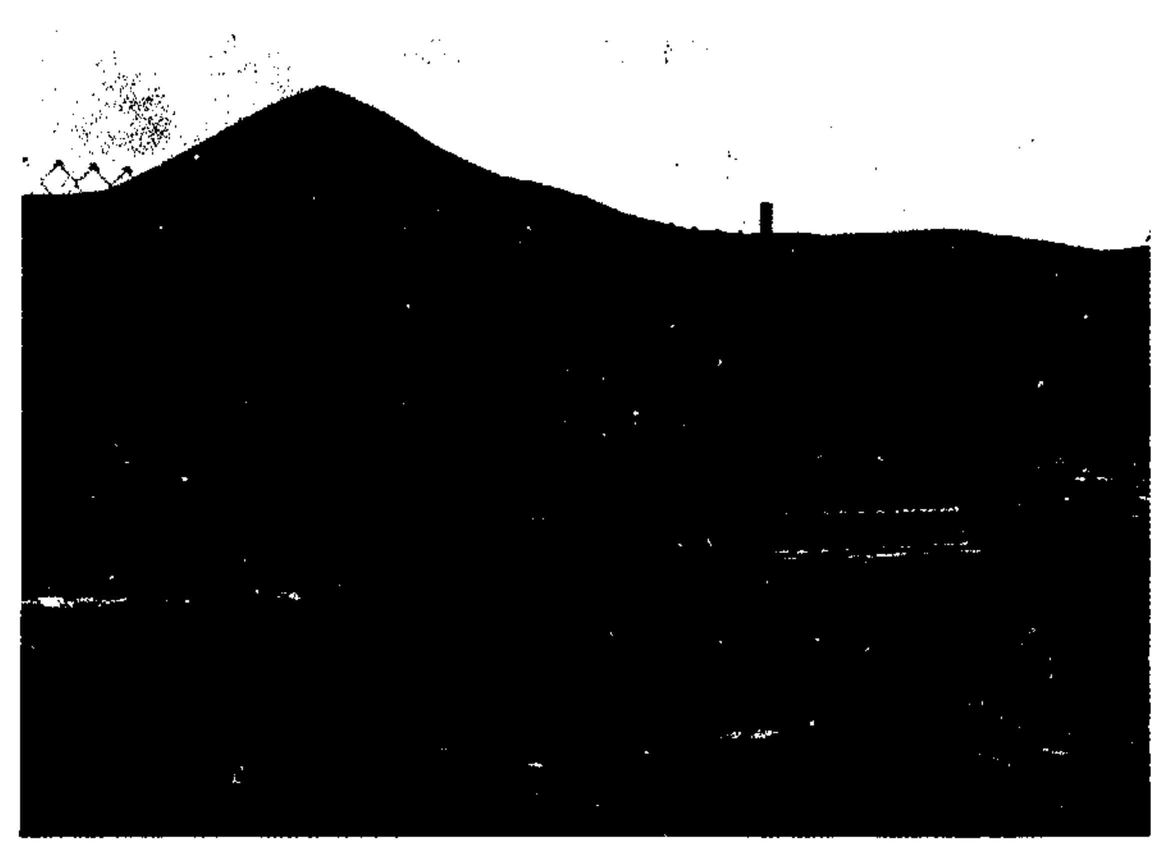
سيــدي علي البصـري



قجـــل (بجـوار سطيف)



قجـــل (بجـوار سطيف)



فج مزالة (مصـــالة)



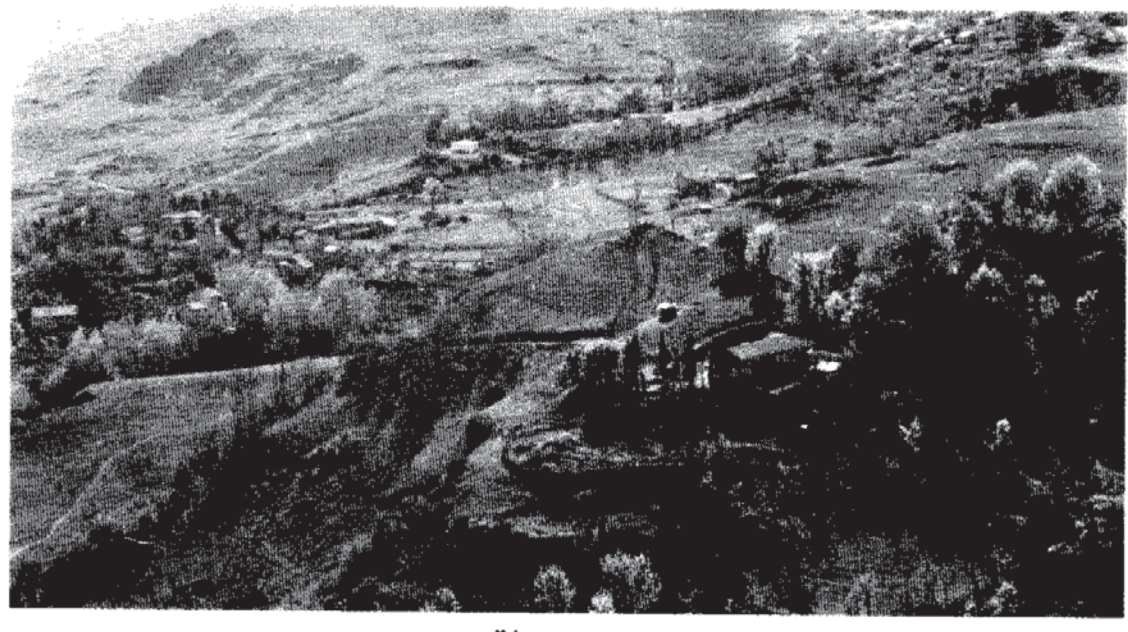
سيـــدي علي البصـري



فرجيـــوة (فج مـــزالة)



بوابـة مدينـة جيجـــل



جيمـــلة

الفصل الخامس

أثر كتامة في علاقات الخلافة الفاطمية خاصة مع الأمراء الزيريين

- ميدان العلاقات
- دار الاسـلام
- دار الحرب
- نظام الزيريين فى بلاد المغرب منذ رحيل المعز لدين الله الى مصر حتى منتصف القرن الخامس بعد الهجرة .

يمكن القول بأن ظاهرة التجزئة ظلت طابع الحياة السياسية والمذهبية فى بلاد المغرب الاسلامي منذ نجاح ثورة الخوارج الى نهاية القرن الثالث للهجرة .

والحادث الكبير الذي قلب الأوضاع السياسية والمذهبية وغير مجرى الحياة الاجتماعية والثقافية ، هو ظهور الدعوة الاسماعيلية فى المنطقة بين اظهر قبائل البربر ، وهم كتامة بواسطة دعاة مهرة ينتمون الى مهد التشيع القديم فى بيئة المشرق ، وقد وهب هؤلاء حياتهم وراحتهم وكرسوا جهودهم لضمان ولاء هذه القبائل ، الصعبة المراس التي كانت تعيش مغمورة فى ظل أنظمتها القبلية ، منبوذة من طرف الأنظمة السياسية المعاصرة وفى عزلة عما تموج به المنطقة من أحداث سياسية أو خلافات مذهبية كـان يغذيها منذ القدم جماهير السنة وطوائف الخوارج والمعتزلة والأسر العلوية .

ولئن كان اعتناق كتامة للمذهب الشيعي باشراف الدعاة الاسماعيلية يعتبر حادثا كبيرا فى حد ذاته ، فان حماس هذه القبائل لنشره ، بمختلف الوسائل او فرضه على مجموع سكان المغرب ، على اختلاف نحلهم المذهبية السابقة يعتبر هو الآخر من بين الأحداث الموجهة فى تاريخ المغرب الاسلامي .

وقد أسفرت الجهود الكبرى فى هذه الناحية عن نتائج هامة ، وفريدة يأتي فى مقدمتها :

ــ أن تصفية الأنظمة السياسية التي كانت سببا فى تجزئة المنطقة وتفتيتها هيأت لظاهرة جديدة هي الوحدة الاقليمية على مستوى المغرب العربي .

ـ ان مراقبة كتامة لسير الحياة القبلية وسيطرتهم على الاحداث فى المنطقة حد من ظاهرة تقليدية وهي الحروب المستمرة بين النزعات القبلية وبين الأمراء المحليين ارضاء للعصبية أو تحقيقا لمكاسب مادية وقد حلت محلها الحرب المذهبية الهادفة بين عناصر موالية وأخرى معارضة للنظام بصرف النظر عن ظاهرة الانتماء ، اذ أن الخلاف المذهبي قد يجر أحيانا الى حرب داخلية حتى بين عناصر القبيلة الواحدة .

ـ ومحاولة فرض المذهب الاسماعيلي على جماهير السكان فى بلاد المغرب والمشرق بدافع الرغبة فى تحقيق الانسجام ، وظاهرة الوحدة المذهبية ان كانت قد وضعت حدا لظاهرة الصراع المذهبي بين معتنقي المذاهب الاسلامية غير الاسماعيلية فقد فرضت على الدولة الفاطمية أن تواجه جمهورا سنيا متحدا حول مبدأ المعارضة للمذهب الاسماعيلي الدخيل .

ومن هنا نلاحظ ان متاعب الحركة الاسماعيلية ومشاكل الخلافة الفاطمية فى المغرب وفى المشرق جاءت من طرف هذا الجمهور الذي تناسى خلافاته وتناقضاته الداخلية ، واظهر طوائف المعارضة هم المالكية الذين تناسوا ان امام دار الهجرة ، تأثر فكريا بأقطاب الاسماعيلية وأثر عنه حب العلويين .

ولهذا يعتبر نجاح الخلفاء الفاطميين فى كسب ولاء وود فقهاء السنة من بين الأحناف والمالكية عملا كبيرا ترتب عليه اضعاف روح الوحدة والمقاومة بين جماهير السنة . ولعل أهم ما تمخضت عنه الحركة الاسماعيلية ثم قيام الخلافة الفاطمية هو بعث ظاهرة التكامل السياسي والمذهبي بين المغرب والمشرق واصبح المغرب وملحقاته صقلية وقوصرة وقلورية ثم مصر وملحقاتها وهي الشام والحجاز واليمن وحدة سياسية قاعدتها القاهرة المعزية .

وهذا العمل الضخم كان نتيجة جهد الطاقات الجديدة التـي كونتهـا الأحداث الكبرى فى بلاد المغرب فى العصر الفاطمي ، وعليهم اعتمد الخلفاء « المصريون » فى تصفية الأنظمة المستضعفة وحماية دار الاسلام بتنشيط حرب الثغور وازالة خطر الروم البيزنطيين والحد من جموح المغامرين وكان لخيرة من رجال الحرب والدعوة ، والسياسة من بين فروع كتامة العامة وهـم :

مسالتة ولهيصة واجانة وملوسة وجيملة ودنهاجة دور بارز فى ارساء قواعد الخلافة الفاطمية وفى نشر نفوذها السياسي والروحي كما كان لهم شرف الاسهام فى مشروعاتها الكبرى ضد الخلافة العباسية وضد الـروم البيزنطيين . وللمستشرق « ارشيبالد » رأي طريف (1) فيما نحن بصدده

1 ـ القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط (500ـ1100 م) 411 ـ 415 ترجمة أحمد عيسى ـ القاهرة 1951 .

يستحق التوضيح والتوجيه ، اذ يشير الى أن ظهور الفاطميين بتأييد قبائل كتامة فى المغرب تمخض عن تجزئة سلطان المسلمين فى البحر الأبيض المتوسط منذ القرن 11 م وانهم بتمسكهم بمذهب يخالف مذاهب اغلب المسلمين ، قد اضعفوا « دار الاسلام » وأساؤا الى الوحدة المذهبية على النحو الذي أحدثته المونوفرتيه او مذهب الطبيعة الواحدة (2) والحركة اللايقونية (3) فى الأمبراطورية البيزنطية .

ونلاحظ أن ظاهرة التجزئة كانت سابقة عن ظهور الفاطميين فضلا عن أن ظهورهم كان بحق قوة للجبهة الاسلامية فى ميدان البحر بسبب اهتماههم بشئونه واشرافهم على قواعد هامة فى الثاغرة توجد على شواطئه ، وامتلاكهم لأساطيل قوية تملك القدرة على المناورة وعلى مواجهة الحرب البحرية وقد اشتركت قواتهم فى ضم ما بقي من قلاع صقلية وفى اخضاع منطقة قلورية للجزية وفى دحر البحرية البيزنطية فى أكثر من موقعة ، وفى نجدة مسلمي اقريطش الأندلسيين الذين هددوا فى وجودهم وأهمل شأنهم المسئولون عنهم والمستفيدون منهم وهم الأخشيديون اتباع العباسيين .

وكانت دار الاسلام حتى قبيل ظهور الفاطميين تعيش خلافات مذهبية متنوعة لم تقتصر على ما كان بين المعتزلة وأهل السنة أو بين هؤلاء والشيعة والخوارج وانما كان هناك أيضا خلاف داخلي بين طوائف السنة انفسهم مثلما كان يوجد نظيره بين طوائف الخوارج والشيعة أيضا . وموقف غلاة الشيعة من الزيدية المعتدلين واعتبارهم رافضة مثل موقف الحنابلة المتشددين ، من بقية طوائف السنة ومثل موقف النكارية الاباضية من الوهبية وغيرها من نحل الاباضية وتنهض مواقف هؤلاء من أولئك دليلا واضحا على وجود الخلافات المذهبية الداخلية منذ قديم .

وكانت دار الاسلام فى الناحية السياسية تسودها حالة الفوضى والانقسام والانفصالية (4) ، قبل ظهور دولة الفاطميين حيث لم يكن للخلفاء العباسيين غير الاسم والشكل أما النفوذ الحقيقي فكان بيد قادة الجند الاتراك والامراء البويهيين وغيرهم من حكام الأطراف ، هذا بينما كان البيزنطيون منذ قيام الأسرة المقدونية (5) يعيشون نهضة سياسية وعسكرية ، ويتبنون سياسة

---

2 — سعيد عاشور : اوربا العصور الوسطى 1،46،95 .

3 — نفسه : 104 أو ما بعدها .

4 — عمر كمال توفيق : المرجع السابق 47 وما بعدها .

5 — نفسه : 6 وما بعدها رونسيمان : الحضارة البيزنطية 45-51 ترجمة جاويد ، مراجعة زكي علي — سلسلة الألف كتاب 1961 .

هجومية ناجحة ضد دار الاسلام ابتدات حلقاتها الأولى قبل ظهور الفاطميين في مصر واستمرت بعد انتقالهم اليها (6) . وما قام به الفاطميون بعد ضم بلاد الشام من جهود مشكورة ضد الروم وأحلافهم أمراء العرب في حلب ، وانطاكية يبرهن على أن ظهور الفاطميين في هذه الفترة كان عاملا حاسما ومفيدا لدا الاسلام المشرق مثلما كان مقيدا من قبل في المغرب ، ولم تقتصر الافادة على النواحي السياسية والعسكرية ، بل تجاوزتها الى النواحي الاقتصادية والثقافية وباعتراف هذا المؤرخ كان توسع الفاطميين يمثل فترة الرخاء الاقتصادي الذي شملهم وجيرانهم الأمويين والعباسيين ثم الازدهار الثقافي الذي عمت مظاهره بغداد وقرطبة والقاهرة .

ويعتبر المستشرق ارشيباند ظهورهم بعد اعتناق بربر كتامة للحركة الاسماعيلية احد ردود الفعل الناجحة للعنصر البربري ضد حركة الاستعراب التي ظهرت منذ عصر الفتح واستمرت بعد ذلك فلم تجد منهم غير الصدود والأعراض وظهر تعبيرهم عن معارضتها في شكل ثورات فاشلة قادها الخوارج الصفرية والاباضية ويفسر توسع كتامة في العصر الفاطمي ضد العرب في افريقية والمغرب ومصر والحجاز وبلاد الشام على أساس عنصري كالذي حصل من الفرس المستعربين تجاه العرب في العصر العباسي الأول حيث كان العرب هنا وهناك هم الذين اصطلوا بالحركة وواجهوا المحنة وكانوا ضحايا تطرف عنصر الموالي في المشرق وفي المغرب (7) .

ولتوضيح ذلك نلاحظ ان الحركة الخارجية وهي حركة اسلامية مذهبية مثل حركة الاسماعيلية لم يعتنقها البربر فقط ، بل ابتدأت تاريخيا وسياسيا حركة عربية قمة وقاعدة وانضمام غير العرب اليها كان في فترة تالية ولم تفشل مثلما لاحظ ارشيبالد بل نجحت منذ الفترة الأولى على الصعيدين السياسي والمذهبي وتم ذلك قبل ظهور الحركة الاسماعيلية في المغرب بفترة طويلة بل تركت جيوبا وآثارا حية لها تأثيرها في الحياة الاسلامية الحديثة لبعض دول المغرب والمشرق .

ولو انضم الى الحركة الخارجية كل البربر بفرعيهم البتر والبرانس لصح أن يقال انها ربما كانت حركة لا تخلو من نوازع عنصرية وأهداف « قومية » مثل التي كانت وراء حركة الفرس المستعربين غير انها كادت تكون حركة بترية في عمومها ولم تمس غير جيوب محدودة من فرع البرانس ،

---

6 ـ نفسه : 21 وما بعدها .

7 ـ ويلاحظ على مكي ان التشيع اتخذ صبغة معادية للعرب وللعصبية العربية في المشرق ثم في المغرب والاندلس ايضا انظر : التشيع في الاندلس 97 ـ 98 صحيفة معهد الدراسات ، مدريد ، مجلد 2 ، 1954 .

هذا عكس الحركة الاسماعيلية التي كادت تكون حركة برنسية فى جملتها ومن هنا يتضح سر مقاومة اغلب البتر خاصة زناتة ، للحركة الاسماعيلية كما وقف أغلب البرانس من الحركة الخارجية موقفا معارضا أو محايدا . وكان لبربر كتامة — من المبررات الأخرى غير الفارق العنصري ما يدفعهم الى الانتقام من عرب بني الأغلب الذين اعتمدوا فقط على عصبتهم وعبيدهم واهملوا شأن كتامة و نزلوا بهم الذل والهوان .

واسراع كتامة لاعتناق المذهب الاسماعيلي ولحاق عجيسة وزواوة وصنهاجة بهم كان سببا فى معارضة زناتة واغلب البتر للفاطميين وعلى ذلك فظاهرة العنصرية ان سلم بها ، هي داخلية أي فى صميم عنصر البربر اي بين فرعي البتر والبرانس واصولها بكل تأكيد ليست وليدة العصر الفاطمي .

ويبدو أن قياس نشاط بربر كتامة ضد عرب بني الاغلب على نشاط الفرس ضد العرب فى العصر العباسي لا يستقيم الا ظاهريا بسبب ان قيام الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب كان فى نهاية القرن الثالث للهجرة اي بعد أن استقر الاسلام فى المنطقة وطال عهد كتامة على عكس الفرس الذين كانوا حديثي عهد به نسبيا واعتنقوه ظاهريا ، وبقوا مشدودين لعقائدهم ونحاهم القديمة ومن ثم عوقب كثير منهم على الزندقة وعلى الشعوبية فى العصر العباسي ولم يكن لبربر كتامة الرصيد الثقافي والماضي الحضاري والقومية الواضحة التي كانت للفرس المستعربين الذين تصرفوا ضد العرب بوحي من تاريخهم العريق وحضارتهم المتفوقة وقوميتهم المتميزة عن العرب . وبينما كان هؤلاء يجهدون أنفسهم لتقصي عيوب العرب كان بربر كتامة يحرصون أشد الحرص على الحاق نسبهم بالعرب الخلص وهم عرب حمير، ونجد صدى هذه الرغبة فى كتب التاريخ والانساب وقد خلت النصوص التاريخية من الاشارة الى كتامة كعنصر شغب أو خلاف أثناء فتن الخوارج لذلك يلاحظ أن بربر كتامة لم يتوسعوا ضد العرب فقط بل كان لهم نشاط واسع ضد البربر أيضا من البتر ، والبرانس وضد بعض فروع كتامة المتمسكين بمذهبهم السني .

ويلاحظ هذا الباحث مدى استفادة كتامة وغيرهم بظهور الفاطميين حيث أصبح لهم شأن سياسي وحظوا بميزات اقتصادية وارتفع مستواهم الفكري والادبي وصاروا يشعرون بالسيادة فى كامل حوض البحر الابيض المتوسط وفى مقابل ذلك تمكن الفاطميون بواسطتهم من تحطيم وحدة الخلافة الاسلامية وأشاعوا جو الحرب والاضطهاد ضد المخالفين وهكذا أقام « الاضطهاد » فى الوسط بين الاسلام الاموي السني فى الاندلس ،

والاسلام العباسي السني فى الشرق دولة فاطمية خرجت عن الاسس التي قامت عليها الجماعة وحاولت فرض مذبها عنوة على رعية مغلوبة على أمرها تكره كثرتها ذلك المذهب (8) .

ونلاحظ ان الفاطميين لم يكونوا أول من تسبب فى ظهور حركة الاضطهاد المذهبي بسبب انهم كانوا ـ انفسهم وأسلافهم ـ من نتائج حركة الاضطهاد العباسي ولما كانت الخلافة الفاطمية هي ثمرة طيبة لغرس دعاة الحركة الاسماعيلية فى المغرب والمشرق وكانت لها اهداف محددة ومطالب تعتقد شرعيتها فقد اتخذ أول خلفاء الفاطميين لقب أمير المؤمنين وعرف أيضا بلقب المهدي وكان ذلك من وجهة نظره التصحيح العملي لأوضاع غير شرعية سادت فترة فى المغرب وفى المشرق على السواء .

ولا ريب ان جهاز التنفيذ لسائر مشروعات الخلافة الفاطمية كان يعتمد غالبا على عناصر كتامية تشربوا مبادىء الحركة الاسماعيلية وتأدبوا بآدابها وآمنوا بخلفائها فغدوا فى الدعوة وفى الحماس للحركة كما عبر المعز لدين الله اعلاما يهتدي بهم وسرجا يستضاء بنورهم وعلماء تقتبس الخلائق منهم (9) وفى ميدان الحرب « أسنة رمح » وفرسانا مظفرين وفى ميدان العلاقات رسلا ووافدين امناء .

ومنذ وقت مبكر كان لرجال كتامة نشاط ملحوظ فى ربط علاقات وثيقة بين ايكجان وسلمية مقر امام الزمان ثم سجلماسة بعد أن سار اليها عبيد الله المهدي واختارها مقرا مؤقتا له فضلا عن رصد حركات المعارضين والمحافظة على تماسك رجال الحركة الاسماعيلية فى المغرب وتبليغ إخبارهم الى امام الزمان .

وكانت « غاراتهم الى سلمية تهدف الى ذلك أو الى مصاحبة عبيد الله المهدي فى رحلته من المشرق الى المغرب اذ أرسل اليه أبو عبد الله رجالا من كتامة من المغرب ليخبروه بما فتح الله عليه وانهم ينتظرونه (10) .

وكان أعضاء الـ غارات الكتامية يؤدون واجبهم ، ينفذون ويبلغون المهمات التي كلفوا بهـ ويرجعون فى سرية تامة دون أن يشعر بهم الرقباء أو تنال منهم المراصد فى الطريق ولا سبب لذلك سوى مهارتهم فى التستر ،

---

8 ـ ارشيالد : المرجع السابق 411 ـ 415 .
9 ـ النعمان : المجالس والمسايرات 2،512،557 .
10 ـ نفسه : افتتاح الدعوة ورقة 108 ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 1 ، 60 ابن خلدون : العبر 4،70 ابن الأثير الكامل 8،13 .

وفى التظاهر بأنهم ضعفاء أو حجيج غرباء أو تجار عاديون حتى أقرب الناس اليهم كانوا لا يعلمون عنهم شيئا حتى يرجعوا الى بلدهم وبهذه الدقة والامانة والتزام الحيطة لم توفق الاجهزة المعادية للحركة الاسماعيلية فى كشف حال هذه السفارات ، أو القبض على بعض أفرادها سواء كان ميدان عملها فى المشرق او فى أقصى المغرب وقد عبر النعمان عن الضبط والربط اللذين أوجدهما الداعي فى كتامة وتحلى بهما رجاله بقوله « فاذا اختار لذلك من يختاره وانتخب له من انتخبه وأسر ذلك اليه ، لم يطلع عليه أحدا من أهل ولا ولد ولا يعرف أحد منهم حيث هو ولا أين توجه فلا يزال مفقودا عندهم حتى يأتيهم » (11) .

ومهارة رجال السفارات لا تبدو فقط فى تنفيذ المهمات انما أيضا فى تأجيلها اذا ظهر أن أخبارها تسربت وان تنفيذها سوف يؤدي الى تضحيات وخسائر ، ويبدو هذا واضحا فى محاولة الداعي قتل اليسع بن مدرار ، وتحرير المهدي من سجنه عن طريق خطة محكمة انتخب لها خيرة من فرسان كتامة بلغ عددهم مائة رجل ، وقد كلف كل واحد منهم بأن ينجز عمل مائة فارس ويبذل من الجهد ما يستطيع تحمله حفاظا على حياة امام الزمان ، وكان يمكن انجاز المهمة بسهولة ويسر بوصول هؤلاء الى سجلماسة وأن يكفوا الداعي مؤونة الحملة التي قادها فيما بعد ـ لولا تسرب أخبار عن مهمتهم وانكشاف أمرهم فى تاهرت ـ وذلك صرفهم عن قصد سجلماسة فرجعوا الى رقادة خوفا على حياة المهدي وابنه من حركات المعارضين لهم من قبائل زناتة ومكناسة (12) واذا كانت هذه المهمة قد أجلت فان سفارات كثيرة نفذت من ايكجان الى سجلماسة واتصل رجالها بوسائلهم الخاصة ، بامام الزمان وبلغوا أخبار الحركة ومراسلات الداعي وهداياه ومن ضمنها أموال المغانم التي كسبها رجال الحركة فى معاركهم ضـد بني الاغلب وأحلافهم (13) وما قام به الكتاميون وأحلافهم ، فى ميدان علاقات الدولة الفاطمية بالقبائل المعارضة واهمها زناتة وبرجال المذاهب غير الشيعية كان عملا هاما وقد تولى القيام به بعد هجرة كتامة الى مصر ، الامراء الزيريون، الذين أصبح من أكبر مهماتهم منذ عصر أبي الفتوح يوسف الى عصر المعز بن باديس ، الحد من طغيان زناتة والاحلاف البترية ، وفى بلاد المغرب وصقلية كما فى أرض مصر وبلاد الشام كان رجال كتامة يعتقدون انهم

---

11 ـ النعمان : افتتاح الدعوة ورقة 88 .

12 ـ نفسه : ورقة 89 .

13 ـ نفسه : ورقات 114 ، 143-144 المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،62 ابن خلدون : العبر 4،72 ابن الاثير : الكامل 8،14 النويري : المصدر السابق 26 ورقة 32 وهنا يلاحظ أن الداعي الشيعي كان يكاتب المهدي سرا .

أساس الدولة وعصبيتها وأنهم لذلك مسئولون قبل غيرهم على نشر المذهب وحماية الشرعية والوجود الفاطمي سواء رضي السكان أم غضبوا .

وبنفس الروح والعزيمة حاولوا أن يتدخلوا فى شؤون الاندلس وتسربوا اليه دعاة وفاتحين وكان أملهم أن ينتشر التشيع ويدين مسلمو الاندلس فى القرن الرابع الهجري بنفس ما دانوا به فى القرن الاول اثر انتشار الاسلام وحركة الاستعراب فى بلادهم عبر اراضي بلاد المغرب وبواسطة عناصر منها وكانت نظرتهم الى الأندلس تشبه نظرتهم الى جزيرة صقلية من حيث ضرورة تبعية كل منهما لأي نظام اسلامي مركزه فى بلاد المغرب بسبب السابقة التاريخية وظاهرة التكامل الجغرافي والاقتصادي .

ولا يستبعد أن يكون غرضهم من فتح الاندلس هو أن يكون مقدمة لاقتحام أرض أوروبا ، ولذلك سابقة تاريخية ترقى الى عصر الفتح .

ولعل الرغبة فى القضاء على ظاهرة تعدد الخلافة ، كانت وراء مشروع التوسع ضد الخلافة الاموية حتى تبقى الخلافة الفاطمية فى المهدية ، هي الخلافة الشرعية الوحيدة فى أرض المغرب والاندلس فى مقابل الخلافة العباسية التي يدين لها جمهور السنة فى أرض المشرق بحيث تصبح التصفية النهائية لاحراز السيادة العليا ، ولقب الخلافة بين فرعين من بني هاشم وهم العلويون فى المغرب والعباسيون فى المشرق .

وقد انصرف الفاطميون بعد استقرارهم فى مصر — الى العناية بهذه الناحية — ولم يعودوا يهتمون كثيرا بأحوال الامويين الذين تصدى لازعاجهم وحصارهم نوابهم الامراء الزيريون .

وكانت وسائلهم للوصول الى بغداد متعددة منها الاساءة الى سمعة الخلافة العباسية عن طريق بث الدعاة والمخربين والانتقاص من أطرافها ، وحصارها فى ركن قصي فى العراق والتأثير على أمراء بني بويه الشيعة وجلب بني حمدان ، وبني مرداس وأمراء العرب ثم سياسة التصالح والهدنة مع الروم وأخيرا تشجيع المغامرين وتدعيمهم لاسقاطها والدعوة للفاطميين فى العراق نفسها . وتشير النصوص الى مراسلات ودية بين العزيز بالله وعضد الدولة بن بويه (14) كما تشير الى قيام أحد رجال الخليفة بالمغامرة لأخذ تحفة خاصة كانت مثبتة على سفينة نهرية خاصة بعضد الدولة بن بويه (15) .

---

14 — الذهبي المصدر السابق 3 ورقة 210 وما بعدها .

15 — المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،261 الذهبي : المصدر السابق 3 ورقات 211 ، 214 ، 215 وقد وقع ما يشبه ذلك مع المعز بن باديس فيما بعد انظر : اتعاظ الحنفا 2 ، 213 ط . 1971 .

وقد قصد بالحادث الاثارة واقناع عضد الدولة صاحب مشروع التوسع ضد بلاد الشام ومصر ، بأن الخلافة الفاطمية قوية ويمكنها التحرك بسرعة وفى كل الجهات وعلى كل المستويات للدفاع عن أراضيها وحقوقها المشروعة.

وقد ارغم الفاطميون أمراء بني حمدان وبني مرداس على التبعية لنفوذهم وقد دعي للخلفاء الفاطميين على فترات متقطعة فى بلادهم حتى سقطت فى أيدي السلاجقة كما دعي للخلفاء الفاطميين فى عصر الحاكم بأمر الله فى الموصل والانبار ، والمدائن والكوفة بواسطة عرب بني عقيل وأميرهم قرواش بن المقلد الذي أمر أن يكون نص أول خطبة فى الموصل « الحمد لله الذي انجلت بنوره غمرات الغضب وانهدت بقدرته أركان النصب ، واطلع بنوره شمس الحق من الغرب » (16) ، وكانت الحركة من الخطورة بحيث أن الخليفة العباسي القادر بالله طلب من بهاء الدولة البويهي بسرعة التدخل لانهاء الانفصال كما أمر فى السنة الموالية (402 هـ / 1011 ـ 1012 م) بكتابة مختصر للطعن فى نسب الحاكم بأمر الله والخلفاء الفاطميين (17) ، وكان ذلك أول عمل فى هذا الشأن قصد به الرد على نشاط الفاطميين وافتتان بعض الامراء بهم . وقد جددت الدعوة للخلافة الفاطمية فى عصر الظاهر فى مدائن البصرة والكوفة والموصل وفى حي الكرخ ، فى بغداد (18) ونشط الخليفة الظاهر فى بث الدعاة فى هذه المدينة استغلالا لظروفها الدقيقة منذ سنة 425 هـ / 1033 ـ 1034 م (19) ، وأحيا المستنصر بالله صلات الخلافة مع أمير بني عقيل قرواش فأرسل اليه أعلاما وخلعا فاحتفى بها ولم يرجع عن الدعوة للمستنصر بالله الا بعد أن عاتبه الخليفة العباسي القائم بأمر الله (20) كما واجه المستنصر عصيان المعز بن باديس لأنه اعترف بالولاء للعباسيين .

وبسبب عجز هؤلاء عن تقديم العون اللازم لابن باديس . وعندما لم يجدوا وسيلة ينفسون بها عما فى أنفسهم تجاه حركات الفاطميين غير تجديد حركة الطعن فى نسبهم العلوي كتبوا محضرا ثانيا (444هـ/1052 ـ 1053م) تضمن القدح فى نسب المستنصر بالله وأسلافه الخلفاء الفاطميين (21)

---

16 ـ نفسه : 2،88 ابو المحاسن : النجوم الزاهرة 4،224 ـ 227 ابن الأثير : الكامل 9،83 (223 ط . بيروت) .

17 ـ ابن الأثير : الكامل 9،88 الذهبي : المصدر السابق 3 ورقات 265-267 العيني : المصدر السابق 19 (ق 4) ورقة 581 ابو المحاسن : المصدر السابق 4،229 ـ 231 .

18 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 2،168 .

19 ـ نفسه : 2 ، 181 .

20 ـ نفسه : 2،193 .

21 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 2،223 ويبدو من كلامه ان سبب المحضر هو « ما عمل مع الرسول المرسل من المعز بن باديس » س 5 ـ ابن ميسر : اخبار مصر 2 ، 6 .

واكبر نجاح تحقق للفاطميين فى عصر المستنصر بالله هو الدعوة اليهم فى بغداد والرصافة وواسط والبصرة اثناء نجاح البساسيري بمساعدة قريش ابن بدران العقيلي فى احتلال بغداد وطرد الخليفة العباسي القائم بأمر الله .

ولاول مرة تتحقق فكرة وحدة الخلافة على مستوى العالم الاسلامي وتصبح الخلافة الفاطمية هي الخلافة الوحيدة فى المشرق والمغرب بما فى ذلك الاندلس الذي كان يعيش فى عصر الطوائف ، وكان يمكن أن يستمر الوضع على هذا النحو ويسدل الستار نهائيا منذ منتصف القرن الخامس للهجرة عن قصة الخلافة العباسية لو ان المستنصر بالله ، دعم جانب ابى الحارث ارسلان البساسيري وحافظ على مستوى العلاقة معه واستجاب لرجائه ولم يستخذ لوزيره أبي الفرج محمد بن جعفر بن المغربي » وهو ممن هرب من البساسيري ، وفى نفسه ما فيها فوقع فيه وبرد فعله ، وخوف عاقبته ، فتركت أجوبته مدة ثم عادت بغير الذي امله ورجاه « (22) .

وكانت حركة البساسيري ، أعظم رد فعل فاطمي على دسائس العباسيين فى المغرب ، وآخر محاولة ناجحة للظفر بالسيادة العليا ، بعد ذلك طغت المشاكل الداخلية ، وازمة الحكم واستبداد الوزراء الذين فرضوا سلطاتهم على الخلفاء الفاطميين منذ عصر المستنصر بالله فأصبحوا « لا امر ولا نهي لهم » مثل ما وقع للعباسيين مع بني بويه والسلاجقة ولو أن حظ العباسيين مع السلاجقة السنيين كان أحسن من حظ الفاطميين مع وزراء السيف ، الذين كان اغلبهم صدى لنفوذ عنصره الاجنبي وعرف بعضهم بعدم الالتزام بمذهب الدولة الرسمي (23) ومن هنا كانت مضرتهم لنظام الدولة ثم لعصبيتها وهم كتامة تشبه ما حصل من مضرة لهؤلاء فى العصر الاول من طرف ابن كلس وابن نسطوريوس ، وبرجوان ومنجوتكين واينال الطويل ومعضاد الذي أصبح مسؤولا عن ديوان كتامة فى عهد الظاهر الفاطمي (24) .

---

22 ـ ابن الاثير : الكامل 9،239 ومابعدها ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 2،251 وما بعدها الخطط 1،356 ابن القلانسي : المصدر السابق 87 وما بعدها وعن ابي الفرج بن المغربي انظر : ابن ميسر : المصدر السابق 2،13 ابو المحاسن : المصدر السابق ج5، 6،11،62 المؤيد فى الدين سيرته 178 وما بعدها ، النويري : نهاية الارب ورقة 97 مجلد رقم 1760 ، المكتبة الاهلية باريس زمباور : معجم الانساب 1،21ـ22 المنياوي: الوزارة والوزداء 258 ـ 259 .

23 ـ عمارة اليمني : النكت العصرية 42ـ45 .

24 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 2،158ـ159 وانظر 303ـ309 منه عن حركة ناصر الدولة بن حمدان ضد المستنصر بالله التي يبدو وكانها رد فعل ناجح لحركة التآمر ضد الخلافة العباسية التي تزعمها أبو الحارث ارسلان البساسيري بتشجيع من المستنصر بالله .

وفى ميدان علاقات الدولة بدار الحرب ، نلاحظ ان قادة كتامة أسهموا بجهد كبير فى مد النفوذ الفاطمي الى ما وراء اقليم قلورية وانكبردة على حساب الروم البيزنطيين الذين منوا بهزائهم بحرية منكرة فى موقعتي رمطة والمجاز واستمر الكتاميون أساس الدولة الكلبية وعصبيتها وبفضلهم بقيت صقلية على ولائها للفاطميين حتى فترة متأخرة (25) .

ويعتبر نشاط كتامة فى شمال الشام ، ضد الروم واحلافهم بني حمدان والمرادسيين استمرارا للعمل الذي انجزوه فى بلاد المغرب .

ومنذ وقت مبكر تشير النصوص الى نشاط فتوح غلام جعفر بن فلاح ضد الروم فى انطاكية وانه لم ينسحب عن الميدان الا عندما ووجهت دمشق بزحف القرامطة (26) وكانت انطاكية قد تعرضت أيضا لأعمال هجومية اشرف عليها عراس الكتامي الذي أرسل ايضا من طرف جعفر بن فلاح(27) .

واما جهود مارق الكتامي ضد الروم فى المنطقة فقد وصلت أصداؤها الى بلاد المغرب مع رؤوس قتلى الروم فى أواخر 385 هـ/995ـ996م (28) وكان لجيش بن الصمصامة ولبني ثعبان وابن كليد جهود معتبرة فى قتال الروم ، وأشياعهم فى المنطقة .

ـ أما دور كتامة فى علاقات الخلافة بالمغرب فقد ابتدأ ايجابيا وتطور الى السلبية ثم انقلب فى النهاية دورا مشبوها .

وقد منح المعز لدين الله قبيل رحيله الى مصر ، من بقي من كتامة امتيازات وأتاح لهم فرصة التحرر من الوظائف المالية المقررة على غيرهم لخزانة الامراء الزيريين . وأشعر شيوخ كتامة بأنهم عصبية الدولة ، وعمدتها لحراسة الوضع وانهم غير مكلفين بأي التزام مالي أو سياسي تجاه أبي الفتوح يوسف ولذلك لم يحثهم على الطاعة والولاء له ، بينما أوصاه بهم وبسائر الحضر خيرا (29) ، لكنه لم يستثن اقليم كتامة ، أو

---

25 ـ نفسه 2 ، 221 ـ 222 وتضمن قوله « وقد بعثوا الى الحضرة يسألون ايفاد وال » فارسل اليهم صمصام الدولة بن لؤلؤ بقصد ضبط الأمن ، وتصفية نفوذ الكلبيين وارسالهم الى القاهرة وعندما وقف صمصام الدولة فى مهمته « استقام الأمر فى صقلية بخروجهم عنها » انظر احداث 443 هـ منه .

26 ـ نفسه 1،126 ط . 1967 يحي بن سعيد الأنطاكي : المصدر السابق 350 ط . كراتشوفسكي وفازلييف .

27 ـ ابن ايبك الدواداري : الدرة المضية 6،133 .

28 ـ ابن عذاري : البيان : المغرب 1،354 .

29 ـ المقريزي : المصدر السابق 1،101 عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين 242 .

يخصه بعمال مستقلين من القبيلة وامر الكتاب ان يكتبوا الى العمال ، وولاة الاشغال بالسمع والطاعة لابي الفتوح (30) بحيث كان موقف المعز لدين الله فيه قدر كبير من التناقض مأتاه الحذر من الانفصال .

ويبدو ان كتامة لم يقتنع زعماؤها ببعض تدبيرات أبي الفتوح لذلك شجعوا وايدوا ثورة خلف بن خير ، وانضم اليها بعضهم مع قبائل بني هراس اساس الثورة وقد اعتصم خلف باحدى القلاع وادار الحرب ضد ابي الفتوح (31) وكانت عنيفة استبسل فيها الفريقان غير أن نهايتها كانت سيئة بالنسبة لخلف وانصاره حيث حلت بهم الهزيمة واسر كثير منهم وقتلوا وأرسلت رؤوسهم الى القيروان والقاهرة ومن بينها رأس خلف بن خير (32).

واذا كانت النصوص لم تشر الى ردود الفعل من جانب المعز لدين الله أو من طرف كتامة في مصر أو في بيئتهم الاصلية . فان أبا الفتوح اقتصر على اخماد الفتنة واستخلص منها العبرة فلم يقم بأية حركة عدائية تجاه كتامة أو تجاه الفاطميين ، بل يلاحظ أن ارسال رؤوس الثائرين الى القاهرة فيه معنى التودد للخليفة ، والاخلاص لنظام الدولة . وداب ابو الفتوح على المبالغة في اظهار ذلك لأن النصوص تشير الى أنه عندما عزل صاحب الخراج « زيادة الله بن القديم » وأودعه السجن وأرسل اليه المعز لدين الله يأمره بارجاعه ويهدده بالعقاب الشديد ويخاطبه « أخرج ابن القديم فلوده الى النظر في الخراج على رسمه ، وامتثل جميع ما أمرتك به ولا تخالف شيئا منه » ، تأثر تأثرا بالغا وهم بتنفيذ الأمر ، لولا سماعه بنبأ موت المعز لدين الله وعندئذ تصرف على نحو جديد وصارح رسول المعز بقوله : « بعدت مصر عن المغرب وقد صار المغرب والله في أيدينا الى دهر طويل » (33) وعندما ورد كتاب العزيز بالله يعزيه ويجدد له العهد بالولاية على المغرب ، سر بذلك واتحف الرسول واستكتم (ابن اسباط) ما جرى في حضرته وأذن له بالعودة الى مصر (34) . وعلى الاثر (جمادى

---

30 ـ ابن عذاري :المصدر السابق 1، 326 ، لان أبا الفتوح « بقي اميرا على افريقية والمغرب كله » المقريزي : المصدر السابق 1، 100 ـ 101 .

31 ـ النويري : المصدر السابق 22 (قسم 1) ورقة 49 وقد تضمن كلامه ما يشير الى غضب كتامة وحسدها لابي الفتوح « فشق ذلك على الكتاميين وحسدوه وتكلموا عليه عند المعز وعابوه فلم يضره ذلك » .

32 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 1، 218، 223 وقد ورد اسم العشيرة بصيغة بني هواس اما اسم الثائر فورد بصيغة خلف بن جبر ، النويري : المصدر السابق 26 ورقة 50 ـ 51 ويستنتج منه ان ثورة خلف تعتبر ثورة كتامية صرفة .
H.R. Idris : Op. Cit., T.I p. 50-51

33 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 1، 233 ـ 234 وقد تنبأ المعز لدين الله بما حصل فعلا بقوله « فاذا تطاولت المدة سينفرد بالأمر » انظر 99 وما بعدها ابن أبي الضياف : المصدر السابق 1، 128 .

34 ـ نفسه 1، 235 .

الاخرة 365 هـ) فبراير 975 م جهز هدية سنية الى العزيز بالله شيعها بنفسه خارج المنصورية (35) ، ومع الرسول خطاب رد على ما جاء فى رسالة الخليفة العزيز بالله ومما جاء فيه : « واعوذ بالله أن أقول ما شنعه أهل الزور والجحود بل أنا عبد من عبيده » (36) .

وعندما تصرف عبد الله الكاتب نائب أبي الفتوح فى افريقية بقسوة مع السكان وصادر اغنيائهم ولم يستثن غير « الفقهاء والعلماء والادباء وأولياء السلطان » وجمع من ذلك أموالا كثيرة تولى أبو الفتوح لزالة الظلم عن السكان واطلاق سراحهم استجابة لرغبة الخليفة العزيز بالله كما أمر بأن ترسل الاموال المصادرة على شكل صرر وعلى كل صرة اسم صاحبها ليرى الخليفة رأيه فيها وقد اجتهد العزيز بالله وساعده ابن كلس ، فأرجعت بعض الصرر وابقيت الاخرى على أن يعوض أصحابها من بيت المال فى افريقية (37) .

كذلك استجاب ابو الفتوح لرغبة العزيز بالله فى العفو عن كباب ومفنيين اخويه اللذين فرا من السجن الى مصر فلم يتعرض لهما بسوء (38) ، وكان الخليفة العزيز قد استجاب لرغبة أبى الفتوح فى ضم طرابلس وسرت واجدابية الى نفوذه بعد أن أبعد عنها عبد الله بن يخلف الكتامي ، الذي استقر فى القاهرة كما استقر فيها بأهله ووالده قاضي المنصورية أبو طالب احمد بن أبي القاسم محمد بن أبي المنهال استجابة لرغبته ولعدم اعتراض أبي الفتوح يوسف على ذلك . لكنه استشار الخليفة فيمن يوليه القضاء ، فكتب اليه تطييبا لخاطره « قد رددت هذا الامر اليك ، فول من شئت » فاختار محمد بن اسحاق الكوفي وأخبر العزيز بذلك ، فأقر اختياره (39) وارسل اليه سجلا بولاية ابن اسحاق القضاء .

غير أن العزيز بالله لما ارسل اليه رسالة مع أخيه باديس بن زيري أواخر 371 هـ / 981 ـ 982 م وطلب فيها أن يقوم أبو الفتوح باختيار ألف فارس من اخوته وأقربائه أمراء صنهاجة وفرسانهم ويرسلهم الى القاهرة للاسهام فى حروب الدولة ، أوضح له بأن هؤلاء عدته فى حرب

---

35 ـ ابن عذاري : البيان : المغرب 1، 327 عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين 243 ابن أبي الضياف : المصدر السابق 1، 132 .
H.R. Idris : Op. Cit., T. I p. 50 Sq.
36 ـ المقريزي : المصدر السابق 1، 235 .
37 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1، 328ـ329ـ329 المقريزي : المصدر السابق 1 ، 247 ـ 248 .
H.R. Idris : Op. Cit., T I p. 52
38 ـ نفسه 1، 339 المقريزي : المصدر السابق 1، 253 .
H.R. Idris Op. Cit., T. I p. 53
39 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1، 329 المقريزي : المصدر السابق 1، 247 محمد السراج : الحلل السندسية فى الاخبار التونسية 1، 937 ط . تونس 1970 .

المعارضين للنفوذ الفاطمي فى المغرب وهم بنو امية وعملاؤهم فى المنطقة الذين اشاعوا دعوة المروانية « فان عزم أمير المؤمنين » على بعثهم اليه ترك الغرب وسار بنفسه فى جملتهم (40) .

ويبدو أن العزيز بالله كان يحس بازدياد نفوذ أبى الفتوح فى المغرب وبرغبته فى الاستقلال لذلك تحايل لاضعافه بتجريده من عصبيته قبل عزله عن شؤون المغرب فلما تفطن أبو الفتوح للتدبير وامتنع بطريقة لبقة ، انصرف عنه وكان ذلك فيما يظهر بداية لمرحلة جديدة فى العلاقة بين الفاطميين والزيريين استهلها أبو الفتح المنصور بخطاب صريح بانت فيه نزعته الى الاستقلال : « وما انا فى هذا الملك ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب ، لانني ورثته عن ابائي واجدادي وورثوه عن آبائهم واجدادهم حمير » (41). ومع ذلك فقد استمر على سياسة الولاء للخلافة الفاطمية وأرسل الى العزيز بالله ، كما جرت العادة هدية ثمينة مع زروال بن نصر قائد المهدية ، قيل انها بلغت « ألف ألف دينار عينا » (42) غير أن الخليفة لم يكتف بهذا القدر من الولاء وبقي مستاء من مقالة أبي الفتح المنصور ، ينتظر فرصة مناسبة لتأديبه ووضع حد لنظام الزيريين وقد مهد لتحقيق ذلك باعتماد عبد الله بن محمد الكاتب مشرفا على الدعوة الاسماعيلية (43) ، وأرسل فى بداية 376 هـ / 986 م داعيا فارسيا من خراسان ، يعرف بأبي الفهم حسن بن نصر ، مكلفا بالاستقرار فى اقليم كتامة وبالتعاون مع قبائله والتنسيق معهم ، لاثارة المشاكل ضد أبي الفتح تمهيدا لعزله عن نيابة افريقية ، وقد لقي هذا الداعي حفاوة وتكريما من طرف آل الكاتب خاصة من يوسف بن عبد الله نيابة عن أبيه وزود بالاموال قبل التوجه الى كتامة. وفى هذا الاقليم وجد ترحيبا كبيرا من بقايا كتامة ومن بينهم اقارب الذين يوجدون فى مصر فالتفوا حوله وأيدوه حتى عظم شأنه وشاع خبره فى افريقية بحيث أعاد تمثيل نفس الدور الذي قام به من قبل أبو عبد الله

---

40 ـ نفسه 1 ، 340 وحامل هذه الرسالة كلفه العزيز بالله فى نفس السنة بالاشراف على قافلة الحج ، انظر المقريزي : اتعاظ الحنفا 1،253 .

H.R. Idris : Op. Cit., T.I p. 53-54

A. Laroui : Op. Cit., p. 131

41 ـ نفسه 1،343 .

G. Mercais : La Berberie et l'Orient p. 159

H.R. Idris : Op. Cit., T. I p. 64

42 ـ نفسه 1،344 ، ابن الأثير : المصدر السابق 9،12 ، محمد السراج : الحلل السندسية 1،938 .

H.R. Idris : Op. Cit., T. I p. 67

43 ـ النويري : المصدر السابق 22 (قسم 1) ورقة 52–53 .

الشيعي (حتى صار يركب الخيل ويجمع العساكر ويعمل البنود ويضرب السكة) (44) وعندما وصلت حركة أبي الفهم الى هذا الحد واضطربت شؤون افريقية أرسل أبو الفتح الى العزيز بالله يصور له الوضع وكان قصده أن يعرف ميول الخليفة وعندما اتضح له أنه يؤيد الحركة وهي من وحيه وتدبيره رتواطىء آل الكاتب عبد الله وابنه يوسف (45) وتأكد ذلك لديه بوصول رسولي الخليفة وهما أبو العزم الكتامي ومحمد بن ميمون الوزان ، بما يفيد معارضة العزيز لأي تصرف أو حركة ضد أبي الفهم فى كتامة . وقد كان الحادث المثير انهما كلفا بالتبليغ ثم بالاتجاه نحو أبي الفهم فى معقله بكتامة لتبليغه أوامر الخليفة ولمساعدته فى هذه المرحلة الخطيرة من تاريخ الحركة . وعندما تأكد أبو الفتح ، أهان الرسولين وأغلظ الكلام لهما وفاه بعباراث ضد العزيز وتحفظ عليهما فى المنصورية حتى أتم استعدادداته الحربية وعندئذ صحبهما معه فى حركته ضد أبي الفهم وكتامة وكان هدف المنصور تعفية آثار حواضر كتامة التي آوت الداعي وناصره سكانها وقد اقتحم ميلة ، وقتل واليها مع كثير من وجوه كتامة والدعاة واكتفى بهدم أسوارها وتهجير سكانها الى باغاية وواصل حركته التخريبية ضد منازل وقصور ومدن كتامة حتى بلغ سطيف وهي « كرسي عزهم » ، وقد تحصن بها أبو الفهم . واثر هزيمته ، تركها الى جوار قبيلة بني ابراهيم فاحتمى بهم ، وكانت منطقتهم جبلية حصينة ، فتهددهم المنصور ، وطلب تسليم أبي الفهم ؛ فأبوا فى البدء على أساس أنه « ضيف لا يسلم » ثم تراجعوا وطلبوا من المنصور أن يرسل اليه من يتسلمه « ارسل أنت اليه فخذه ونحن لا نمنعه » وعندما صار أبو الفهم بين يديه ضرب ضربا شديدا ونتفت لحيته ثم قتل ومثل به تمثيلا غريبا وأصاب كتامة من جراء ثورته ، بلاء وذل وهوان بما حصل لهم فى مصر نتيجة دسائس ابن كلس (46) ثم برجوان فيما بعد وقد تمت حركة الانتقام منهم ومن أبي الفهم بمحضر رسولي العزيز بالله اللذين صرفا بعد ذلك الى مصر منزعجين وقالا للعزيز بالله « جئنا من عند شياطين يأكلون الناس »

---

44 — ابن عذاري : المصدر السابق 1،345 المقريزي : المصدر السابق 1،263 ابن الأثير : المصدر السابق 9،19—20 النويري : المصدر السابق 22 (قسم 1) ورقة 53 — 54 بيبرس الدوادار : المصدر السابق 6،ورقة 266 .
H.R. Idris : Op. Cit., T. I p. 75

45 — نفسه 1،346 — 347 ابن الأثير : المصدر السابق 9،34 وقد قتل كل من يوسف وابيه عبد الله الذي اتهم بانه تسبب فى ثورة الداعي أبي الفهم الخراساني وفى تفاقم امره عن طريق التصغير من شانه تضليلا للمنصور . وقد نشبت اضطرابات كثيرة اثر قتلهما .

46 — المقريزي : المصدر السابق 1،261 .

(47) وعلى هذه الصورة انتهت حركة أبي الفهم ، وكانت نهايتها انتصارا لأبي الفتح المنصور الذي دعم رايه وأنزل ضربة قاصمة بعصبية الدولة ودعاتها فى بلاد المغرب وبالتالي فشلت خطط العزيز بالله لاسقاط نظام الزيريين .

وتشير بعض النصوص الى سلبية العزيز بالله وتجاهله لما جرى فى بلاد المغرب ضد كتامة وأبي الفهم ، وآل الكاتب وأبي العزم والوزان رسوليه الى افريقية ، اذ أرسل الى المنصور هدية تطييبا لخاطره واستمالة له من جديد (48) .

وقد برهن فشل حركة أبي الفهم فى كتامة على عدم استطاعة الفاطميين فى المستقبل السيطرة على بلاد المغرب أو مراقبة ما يفعله الأمراء الزيريون بواسطة عصبيتهم الكتامية ، لأن كتامة ضعفوا وذلوا واستصفيت أموالهم وهجرت عناصرهم القوية الى أماكن بعيدة ولعل ذلك هو منشأ سياسة التركيز على عنصر المشارقة والاهتمام بشؤون المشرق وبداية تضاؤل شأن الكتاميين فى هذا العهد ولكن ذلك لا يعني ـ أن الفاطميين سوف ينصرفون عن سياسة الكيد للأمراء الزيريين بالاعتماد على عنصر كتامة أو بحركات تظهر فى منطقتهم ويكونون قوتها وأساسها لوضع حد لانفصال أبي الفتح المنصور ، اذ يلاحظ أن الأمر لم يطل عقب فشل ثورة أبي الفهم وظهرت حركة أخرى فى كتامة سنة 379 هـ / 989 ـ 990 م تزعمها داع اسماعيلي جديد يعرف بأبي الفرج وقد زعم أنه من نسل القائم بأمر الله الفاطمي ولذلك وجدت حركته تأييدا كبيرا من طرف كتامة الذين التفوا حوله ونصروه وهدفهم الثأر لما حل بهم وبأبي الفهم ، وكانت نتيجة تأييدهم له أن « اتخذ البنود والطبول وضرب السكة وجرت بينه وبين نواب المنصور وعساكره بميلة وسطيف حروب كثيرة ووقعات متعددة » بان أثناءها عجز ولاة الزيريين عن قمع الحركة فتصدى لها المنصور بنفسه وأنهاها بسرعة ، وقتل أبا الفرج شر قتلة » ونكب قبيلة كتامة وضيق عليهم ، ولم ينصرف عن بلادهم حتى نظمها تنظيما جديدا فأخضعهم للمغارم والجبايات لأول مرة لأنه « لم يدخلها عامل قبل ذلك » ، وهكذا كان تأييد كتامة لثورة أبي الفرج (49) سببا فى تجريدهم من امتيازاتهم القديمة .

---

47 ـ نفسه : 263،1 ابن عذاري : المصدر السابق 348،1-349 بيبرس الدوادار : المصدر السابق 6 ورقة 266 جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية 225 ـ 226 ابن الأثير : المصدر السابق 18،9 . H.R. Idris : Op. Cit., T. I p. 76-77

48 ـ ابن الأثير : المصدر السابق 18،9-19 .

49 ـ بيبرس الدوادار : المصدر السابق 6 ، ورقة 270 ، النويري : المصدر السابق 22، ورقة 54 وفيه « وقيل كان يهوديا » ابن الأثير 25،9 .

H.R. Idris : Op. Cit., T. I p. 78-79

G. Marcais : Op. Cit., p. 160

وكان موقف العزيز بالله هذه المرة شبيها بموقفه السابق ، تظاهرا بعدم الاكتراث لنتائج الحركة ، وارسل الى أبي الفتح سنة 382 هـ / 992 ـ 993 م سجلا يتضمن ولاية العهد لابنه أبي مناد باديس (50) وفى نفس الوقت حرص فى السنة الموالية 383 هـ / 993 ـ 994 م أثناء العرض العسكري الضخم الذي جرى بمحضر نائب المنصور ، واشترك فيه مائة وستون قائدا كل مع عسكره وحجابه وشاكريته ، أن يرى هذا الرسول مبلغ القوة والاستعداد فينهي أخبارها الى المنصور حتى يتـراجع عن اتجاهاته الانفصالية (51) وارسل اليه مع جعفر بن حبيب 384 هـ / 994 ـ 995 م هدية سنية ضمنها « فيل عظيم » (52) وعلى اثر ذلك وردت سفارة جديدة على أبي الفتح المنصور ، 385 هـ / 995 ـ 996 م اشرف عليها قاسم بن حجاج الذي صحب معه بعض رؤوس قتلى الروم فى منطقة حلب (53) .

وقد هيأ ابو مناد باديس بن المنصور هدية سنية مع جعفر بن حبيب وامر بأن يكون معها القاضي محمد بن عبد الله بن هاشم استجابة لرغبة العزيز بالله الذي الح فى ارساله رغم مرضه واستياء جمهور القيروان ، من ذلك لان نائب افريقية محمد ابن ابي العرب وجماعته فاجـــاوه و « هجموا عليه وحملوه ببساطه ، الذي كان مريضا عليه وفى ثيابه التي يلبسها فى داره » ولما وصل ما يفيد وفاة العزيز بالله صرفت الهدية الى مصر ، وأرجع القاضي الى داره « مكرما معظما » واصبح بسبب ذلك محل تجلة وتعظيم من طرف جماهير السكان الذين اعتبروا الأمر بمثابة نجدة غير متوقعة أو كرامة لهذا الفقيه المريض (54) .

وكانت حفاوة أبي مناد باديس برسول الحاكم ، القاضي الشريف الباهري الذي حضر من مصر فى ربيع الآخر 387 هـ / ابريل 997 م عظيمة اذ خرج لاستقباله بجميع رجاله وعساكره بحيث « راى مالم ير مثله » وكان الباهري يحمل ثلاث سجلات : سجل يتضمن تلقيب أبي مناد باديس بنصير الدولة واعتماده فى نيابة افريقية والمغرب وسجل عن ولاية الحاكم بعد وفاة العزيز بالله وفيه التعزية بوفاة أبي الفتح المنصور عدة العزيز بالله

---

50 ـ ابن عذاري : البيان : المغرب 1،352 .

51 ـ المقريزي : اتعاظ 1،279 ، وقارن ذلك بالعرض الثاني الذي اشترك فيه مائة قائد فقط ، انظر 284 س 1 .

52 ـ ابن عذاري : البيان : المغرب 1،353 .

53 ـ نفسه 1،354 وقد قتلهم مارق الكتامي ، وفى بداية 386 هـ توفي ابو الفتـــح المنصور .
H.R. Idris : Op. Cit., T. I p. 79

54 ـ نفسه 1،355 ـ 356 .
Ibid : 86-87

والسجل الثالث وهو أهمها كان يطلب بمقتضاه من نصير الدولة أن يجدد الولاء للحاكم ويأخذ البيعة له من زعماء صنهاجة وقد استجاب نصير الدولة وأخذ العهد بحضرة القاضي ثم جهزه بأموال كثيرة وهدايا واذن له بالعودة الى مصر ، ويبدو أن ـ الانطباع الحسن الذي نقله الشريف الباهري عن رحلته الى المنصورية كان سببا فى رضا أولي الأمر فى مصر عن نصير الدولة فأرسلوا اليه فى السنة الموالية (388 هـ / 998 م) هدية تشتمل على الجوهر والاعلاق النفيسة فتلقاها خارج المنصورية ودخلت بين يديه (55) . وهكذا استمرت العلاقة حسنة بين نصير الدولة والحاكم بأمر الله ، طيلة الفترة التي سيطر فيها الحسن بن عمار بوصفه وسيطا ، فلما آلت الوساطة الى برجوان الصقلبي تسبب بسياسته فى توتر العلاقة بسبب التدخل فى قضية طرابلس التي كانت منذ عصر العزيز امتدادا لنفوذ الزيريين ولم يكن دافعه لاثارة هذه المشكلة مصلحة الخلافة وانما كان يهمه أبعاد أبي الحسن يانس الصقلبي عن مصر الى برقة وطرابلس ، « لأنه كان ينافسه فى الرئاسة » (56) . ويلاحظ هنا أن نتيجة النزاع حول طرابلس كانت هزيمة مرة للخلافة الفاطمية ونجاحا كاملا لأبي مناد باديس الذي دعم مركزه فى طرابلس بعد فشل عسكر الخلافة وموت يانس وفشل ابن حمدون الأندلسي ، وتقلب بني خزرون الذين اعترفوا بالولاء لباديس بعد موت فلفل بن سعيد (ت 400 هـ / 1009 ـ 1010 م) ثم بني قرة الذين تآمروا على عسكر الخلافة واستمروا من هذا الوقت بسبب غدر الحاكم ببعض رجالهم عنصرا معارضا للخلافة الفاطمية ، وعونا لكل من وقف يناوئها فى برقة وفى مصر ومن أشهرهم الثائر أبو ركوة (57) .

وتولى الحاكم بأمر الله بعد قتل برجوان ، مهمة ارجاع العلاقة الى وضعها الطبيعي ، واقتضى الأمر المبالغة فى تكريم أبي مناد باديس وتوسيع نفوذه فى بلاد المغرب ، اذ تشير بعض النصوص الى هدايا جمة وصلت المهدية لنصير الدولة ولابنه المنصور (58) فتلقاها الأخير رسميا مع وجوه

---

55 ـ ابن عذاري : البيان : المغرب 1،356 ـ 357 ، محمد السراج : الحلل السندسية 1 ، 939 ياقوت معجم الأدباء 1،218 .

56 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 2 ـ 34 .

57 ـ نفسه :2،35،51ـ52 وقد سمح لتموصلت بن بكار بالاستقـــرار فى القاهرة ابن عذاري : المصدر السابق 1،368 ـ 369 ، 372 ابن الاثير : الكامل 9،58 ، عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين 245 ـ 253 جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية 226 ـ 227 .

58 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1،373 ، وقد توفي المنصور سنة 406 هـ انظر 378 منه .

مدينة القيروان فى قصر الماء ، بالطبول والبنود (59) وفى نفس الوقت ورد فى (403 هـ / 1012 ــ 1013 م) سجل على ابيه نصير الدولة تضمن اضافة برقة وأعمالها الى دائرة نفوذ الزيريين الذي اتسع من عدوة طنجة الى بربرقة ، وكان يحمل السجل عبد العزيز بن أبي كدينة الذي استقبل خارج المنصورية استقبالا رسميا حضره القضاة والاعيان وكان يـــوما مشهودا (60) وبقيت العلاقة ودية وتوطدت بنجاح باديس وأنصاره فى احباط مؤامرة أموية استهدفت نظام الزيريين وكان مقررا أن يتجمع الانصار والمؤيدون للامويين فى منطقة كتامة ابتداء من شهر صفر 404 هـ / 1013 م ليبدؤا الحركة ضد الزيريين (61) .

ومظهر حسن العلاقة وتبادل الثقة فى هذه الفترة أن الحاكم بأمر الله لما عزم على تحويل النص عن ابنه ، الى قريبه أبي القاسم عبد الرحمن بن الياس بن أحمد بن المهدي أرسل فى سنة 404 هـ سجلا بهذا المعنى الى نصير الدولة باديس فقرىء بجامعي المنصورية والقيروان ونقش اسمه على السكة واثبت على الطراز والبنود الى جانب اسم الحاكم بأمر الله ورغم أن نصير الدولة استاء من هذا التصرف المخالف للتقاليد الفاطمية ، ولخص رأيه أمام رجاله بقوله « لولا أن الامام لا يتعرض على تدبيره لكاتبته الا يصرف هذا الامر من ولده الى ابن عمه » (62) ومع عدم موافقته على الامر فانه تمسك بالطاعة الواجبة للامام المعصوم وجهز اليه فى سنة 405 هـ / 1015 م هدية جليلة « شيعها بالطبول والبنود » كما جهزت أخته أم ملال هدية مماثلة للسيدة الشريفة ست الملك أخت الحاكم بأمر الله وصحب الهدية ــ فى البحر يعلى بن فرج حتى سواحل برقة حيث سطا عليها عرب بني قرة وأخذوها ونجا يعلى بن فرج بنفسه وترك لهم

---

59 ــ نفسه 1 ، 374 .

60 ــ ابن عذاري : البيان 1،374 المقريزي : اتعاظ الحنفا 2 ، 99 محمد السراج : الحلل السندسية 1،939 عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين 253 جمال سرور : المرجع السابق 226 ــ 227 .

61 ــ نفسه 1،374 ولقد اشرف على حركة التآمر ثائر اموي اتخذ التعليم ستارا ومنطقة كتامة مركزا للعمل .

62 ــ ابن عذاري : البيان : المغرب 1،375 المقريزي : اتعاظ الحنفا 2،101 وورد اسمه هنا عبد الرحيم بن الياس بن ابي علي بن المهدي وقد امر الحاكم ان يسلم عليه بالعبارة التالية : « السلام على ابن عم امير المؤمنين ولي عهد المسلمين » وعين له مكانا لجلوسه فى القصر ونقش اسمه على السكة كما باشر الاشراف على النظر فى المظالم وولى دمشق سنة 409 هـ انظر 104،114 منه ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق 69 ــ 70 ، ويرد اسمه هنا «ابن الياس بن احمد بن العزيز بالله » ابو المحاسن : النجوم الزاهرة 4،235 النويري : نهاية الأرب 26 ورقة 75 ابن حماد : اخبار بني عبيد 57ــ58ــ60 عبد المنعم ماجد : الحاكم بامر الله 176ــ178 .

كل شيء (63) وقد كافأ الحاكم بأمر الله نصير الدولة فأرسل اليه مع عبد العزيز بن أبي كدينة خلعا وسيوفا وتشريفا « يحمل معنى الاذن بولاية المنصور ، الذي لقب عزيز الدولة (64) فلما توفي 406 هـ / 1015 — 1016 م ولحق به أبوه فى نهاية هذه السنة (65) وبويع المعز بن باديس على الاثر (66) ، اعتمد الحاكم ولايته وأرسل اليه فى سنة 407 هـ / 1016 — 1017 م سجلا تضمن « تلقيبه بشرف الدولة فاستقبل المعز رسول الخليفة استقبالا حافلا ضربت فيه الطبول واظهرت البنود (67) ، وقبيل اختفاء الحاكم وصل الى المنصورية من طرفه الى شرف الدولة كل من أبى القاسم بن البريد ومعه سجل تضمن تشريفا لم يصل لأحد قبله » وهدية نفيسة تضمنت « حلة من لباسه لم ير مثلها » وسيفا مكللا بنفيس الجوهر فاغتبط شرف الدولة بذلك واستقبل رسول الخليفة استقبالا حافلا وبرز اليه فى أجمل زي واكمل هيئة، ومحمد بن عبد العزيز بن أبي كدينة ومعه سجل آخر تضمن الشكر على اخلاصه للدولة بتسقطه أخبار الأندلس الأموية وتزويد الخليفة بها ، ليكون على علم بما يجري فيها ومع هذا السجل أرسل اليه هدية رمزية تتمثل فى خمسة عشر علما منسوجة بالذهب فاحتفل شرف الدولة بالهدية وطيف بها فى مدينة القيروان وخلع على رسولي الخليفة : أبي القاسم بن البريد ، ومحمد بن أبي كدينة (68) ، وهذا الاخير هو الذي رجع مرة أخرى من طرف الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله ، ومعه سجلات تضمنت اضافة لقب جديد للمعز بن باديس ، هو عضد الدولة ، وتشريفا ومدحا « ماوصل قبلها مثلها أجل حالا ولا أعلى مقاما » واخبارا عن ميلاد ابنيه : أبي الطاهر وعبد الله أبي محمد ، ومع كل هذه الالطاف أرسل اليه هدية معبـرة منها « ثلاثة أفراس من خيل ركوبه ، وخلعة نفيسة من نفيس ثيابه » وجرى استقبال الرسول والهدايا ، على ابهة عظيمة وقرئت سجلات الخليفة ، على شرف الدولة وعضدها « ثم قرئت فى جامع القيروان ، ونسخت منها نسخ أرسلت الى الآفاق ولقد عظم سرور شرف الدولة وعضدها بالسجل الاخير الذي ورد من مصر وتضمن انعاما جديدا عليه بلقب « الأمير »

---

63 — نفسه ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 2، 110—111 ولعل عدم ارسال باديس لهدية باسم ولي عهد السلمين كان مقصودا عبر به عن رايه الخاص فى قضية النص .

64 — ابن عذاري : البيان : المغرب 1، 376 المقريزي : اتعاظ الحنفا 2، 111 .

65 — نفسه 1، 378، 384 .

66 — نفسه ، 1، 386 .

67 — نفسه 1، 388 .

68 — نفسه 1، 389 ، المقريزي : اتعاظ الحنفا 2، 115 عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين 257 .
H.R. Idris : Op. Cit., T.I. p. 150.

وأصبح الرسم بالنسبة اليه أن يخاطب فى المكاتبات بلقب الأمير شرف الدولة وعضدها » (69) .

وقد عبر المعز بن باديس عن امتنانه لهذه الانعامات ، فجهز سنة 420 هـ 1029 — 1030 م هدية جليلة لم يسبق أن أرسل مثلها الى مصر وقد جلس الخليفة الظاهر فى « الايوان » على السرير الذهب ، ليسمع مضمون كتاب المعز بن باديس وليرى هديته ويبدو أن الخليفة سره ما سمع وما رأى ولذلك أتحفه بهدية عظيمة « من دق تنيس ودمياط وطرائف الهند واليمن وزرافة وبخت خراسانية تحمل قبابا فيها جواري وأشياء عظيمة » (70) .

ومع هذه المظاهر الودية بين الخلفاء والأمراء الزيريين التي بلغت غايتها فى عصر الظاهر والمعز بن باديس فالذي يلاحظ أن العلاقة السياسية والمذهبية كانت يشوبها الحذر وسوء الظن وترقب المكروه . فالفاطميون لم يجدوا بعد فشل جميع مخططاتهم لاسقاط نظام الزيريين بالاعتماد على كتامة ، بديلا عن الاحتفاظ بعلاقات شكلية معهم مظهرها ارسال السفراء والهدايا الجمة والانعام عليهم بالالقاب الشرفية الرفيعة بقصد ابقائهم فى دائرة النفوذ السياسي للخلافة الفاطمية وكان الزيريون بدون استثناء وحتى عصر المعز بن باديس يدركون نقطة الضعف فى جانب الخلفاء الفاطميين فكانوا يردون على الهدايا بمثلها وبما هو أعظم منها ويستقبلون سفراء الخلافة وانعامات الخلفاء استقبالا رسميا حافلا ويتظاهرون بالولاء لهم وبرعاية مصالحهم فى المنطقة فيقفون ضد أعوان الأمويين وينهون أخبار هؤلاء وأولئك الى الخلفاء فى مصر وينفذون مقترحاتهم الخاصة بالوضع الداخلي ان كانت لا تؤثر على هيبتهم ولم يقصد بها الأضرار بمصالحهم الأسرية .

واستمرت الخطبة والسكة والطراز على الرسم القديم تعكس النفوذ الفاطمي ، هذا بخلاف الخراج والقضاء اللذين أصبحا من اختصاصات الأمراء الزيريين منذ فترة طويلة (71) .

واقدام المعز بن باديس بعد فترة اعداد وتمهيد على تحويل ما بقي من مظاهر السيادة الفاطمية فى بلاد المغرب هو الذي كان وراء الأزمة الكبرى التي يعتبرها بعض المؤرخين قطيعة نهائية او طلاقا بين المغرب والمشرق (72) .

---

69 — ابن عذاري : البيان 1،392 المقريزي : اتعاظ 2،132 ماجد : المرجع السابق 258 .

70 — المقريزي : المصدر السابق 2،177—178 ط 1971 م .

71 — وقد أصبح ابو البهار بن خلوف منذ نهاية جمادي الاولى 414 هـ مفوضا فى شؤون الجباية والجند والعمال فرأى شرف الدولة من حزمه وكفايته وعزمه وشهامته ما لم يقم به غيره — انظر ابن عذاري 1،393 .

72 — عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين 258 الحاكم بامر الله 163 وما بعدها عبد الحميد يونس : الهلالية فى التاريخ والأدب الشعبي 64—65 .
G. Marcais : La Berberie Musul et l'Orient 136 Sq.

وقد سبقت الازمة بعدة تحركات واعمال يأتي في مقدمتها :

أ) اضطهاد الشيعة واقترن مباشرة بولاية المعز بن باديس وكانت فصوله المحزنة ما حصل في حومة درب المعلى بالقيروان ثم في المهدية وسائر النواحي وشمل الشيعة ، ومن اشتبه في أمرهم (73) لم يغن هؤلاء احتماؤهم بالمساجد أو بقصر الأمير خاصة بعد أن عثر في ديار المسالمة على بعض آثار الشيعة الغلاة كما لم يغن عنهم فرارهم من حواضر السنة الى المهدية كمرحلة أولى للاتجاه الى صقلية فقد قتل كثير منهم في قرية كامل واعتدى على شرف نسائهم (74) كما قتل منهم نحو ثلاثة الاف في موضع القيروان بقي يعرف حتى القرن السابع الهجري ببركة الدم (75) . وعندما نجا كثير من الشيعة بأنفسهم وتحصنوا في مركز نفطة في أقصى الجنوب ، شدد الحصار عليهم وقتلوا عن آخرهم (76) ويبدو أن اعتصامهم بنفطة كان مقدمة لحركة لأن هذه المدينة عرفت بأنها معقل هام للشيعة في افريقية . ولا يستبعد أن والي المدينة لم يشتد معهم في بدء الأمر ومن ثم تشير بعض النصوص الى نكبته ، في سنة 439 هـ / 1047 – 1048 م على يد المعز بن باديس الذي طالبه بمال كثير وانزل به الذل والهوان كما نكب قاضي قفصة أحمد بن حجاج فافتدى نفسه بمبلغ مالي ضخم (77) وهكذا كانت حركة اضطهاد الشيعة ومن أظهر عطفا عليهم ، ذات صبغة شاملة ، عبر عنها مؤرخ اندلسي بقوله « وصاح بهم في ذلك الوقت صائح الموت فقتلوا في سائر بلاد افريقية » (78) .

وهذه الحركة تتجاوز في ابعادها مجرد محاولة لارضاء المالكية والسنة الذين اضطهدوا في عصر سيادة الشيعة في افريقية أو حركة رد فعل لما وقع لهؤلاء في مصر على يد الخلفاء الفاطميين لا سيما الحاكم والظاهر لاعزاز دين الله ، الى ناحية أهم من ذلك وهي احساس شرف الدولة بأن الشيعة في

---

73 ـ ابن عذاري : البيان 1،387 النويري : المصدر السابق 22 (ق1) 60 ح حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس 109–111 .

74 ـ نفسه 1،388 .

75 ـ نفسه 1،395 حسن محمود : محنة الشيعة بافريقية 94 وما بعدها مجلد كلية الآداب القاهرة ، مجلد 1ـ2 ديسمبر 1950 ابن غليون : التذكار 20 ط . الزاوي .

76 ـ ابن الاثير : الكامل 9،160 .

77 ـ ابن عذاري 1،399 .

78 ـ نفسه 1،395 وهو ابو الصلت امية بن عبد العزيز (529ـ135 1 م وقد عاصر ثلاثة امراء زيريين هم يحي وعلى والحسن ولاخير الف كتابه التاريخي « كتاب ـ الديباجة في مفاخر صنهاجة انظر ياقوت معجم الادباء 7،64 .

بلاد المغرب عيون عليه وعقبة في سبيل تحقيق مشروع الاستقلال السياسي والمذهبي وان ولائهم انما هو للخلفاء الفاطميين في مصر (79) الذين يرتبطون بهم روحيا وليس للامراء الزيريين في افريقية .

ولذلك شجع على استئصالهم وتظاهر أمام الخلفاء بأنه يحاول الحد من تطرف المتطرفين . وفي هذا الظرف ، رجع بعض مهاجري صنهاجة من الأندلس الأموية ينزعمهم زاوي بن زيري بعد غيبة استمرت أثنتين وعشرين سنة فاحتفى بهم المعز وأنزلهم المنصورية (80) ، ولعل ذلك كان عنوانا على علاقات جديدة بين فرعي الأسرة الزيرية الفرع السني في غرناطة والفرع الشيعي في بلاد المغرب .

ب) **التحالف مع المالكية** ومنذ وقت مبكر وقع المعز بن باديس تحت تأثير زعماء المالكية فكان أداة طيعة في يد معلمه المالكي أبي الحسن علي بن أبي الرجال الذي « أدبه ودله على مذهب مالك وعلى السنة والجماعة » ، فأصبح المعز بسبب ذلك يتودد الى زعماء المالكية ويحرص على ارضائهم وتقريبهم قدر حرصه على معرفة آرائهم حول موقفه من الشيعة وتشجيعه الجماهير على التنكيل بهم (81) .

ومن بين الشخصيات المالكية الذين احتكوا بالمعز بن باديس وتحايل ليعرف آراءهم حول الوضع : أبو بكر احمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الخولاني ثم أبو عمران الفاسي .

فقد كلف المعز بن باديس من يسأل الخولاني عن صحة الصلاة بثياب عليها طراز الشيعة الفاطميين فكان جواب الشيخ مباشرا وجافا « هذا سؤال أحمق أخرق قليل المعرفة » أما رفيقة الفاسي الذي عرض عليه السؤال أيضا فقد كانت اجابته معبرة وفي نطاق التأدب مع مقام الأمير ومنها « انما يجب على من بسط الله يده أن يمنع من ذلك » ولأن الأمير لم يتوقع اجابة الخولاني ، وتأثر لها فقد أراد التحقيق من دوافعها وارسل الى الفقيهين يطلب حضورهما وفي المجلس أوضح الخولاني بأن اجابته فيها معنى التنبيه

---

79 ـ وكانت سياسة الخلفاء نحو المالكية في مصر استمرارا لسياستهم في المغرب فقد ضرب رجل وطيف به في القاهرة 381 هـ اي في عصر العزيز بالله لانه يحتفظ بموطأ مالك ابن انس (اتعاظ 1،273) . اما الحاكم فقد اضطهدهم ثم قربهم وامر بتدريس مذهب مالك (اتعاظ 2،119) واشتد الظاهر في سياسته فنفاهم من مصر مع غيرهم من اهل السنة وامر الدعاة بتلقين الناس كتابي الدعائم والرسالة الوزيرية ثم بالتعدي للمناظـــرة حول المذهب مثلما حصل من قبل في بداية قيام الدولة في المغرب (اتعاظ 2 ، 175) .

80 ـ ابن عذاري 1،389 .

81 ـ نفسه 1،395 ابن الأثير : الكامل 9،87ـ88 محمد السراج : المصدر السابق 1،940 وفيهما أن مذهب أبي حنيفة كان غالبا حتى عصر المعز بن باديس .

على بقاء مظاهر أهم من ذلك تعكس النفوذ الفاطمي ومنها السكة والبنود ، وعندما أوضح المعز بن باديس بأن السكة انما أبقيت لمصلحة الحجاج والمسافرين وانه أمر بقتل الشيعة واضطهادهم وتأييد السنة وأراد الخولاني التعقيب على كلامه منعه من ذلك وعندئذ تصدى أبو عمران الفاسي وأيد كلام الخولاني فى ضرورة محو بقية مظاهر التشيع وتساءل أمام الأمير لم لم تكتب بمنع ذلك ؟

وكان هذا الاستفهام يعني رفضا لحجة الأمير والمطالبة بالتعجيل بالانفصال السياسي والمذهبي (82) .

ج) الوفاق مع كتامة : ولادراك المعز بأن مشاكل أسلافه سببها كتامة وزناتة وان حركاتهم سوف تؤثر على مخططاته وتعوق جهوده فى الانفصال ، مال الى سياسة اللين والوفاق معهم وقبل عروض الصلح التي تقدمت بها وفودهم ، منذ سنة 417 هـ / 1026 ـ 1027 م وتقضي بأن يضعوا حدا للحركات العدائية ، ويعترفوا بنفوذ شرف الدولة ويراقبوا الأمن فى الطرق التي تمر عبر بلادهم أو بجوارها . وقد حظي وجوه قبيلتي كتامة وزناتة باستقبال حافل من طرفه كما حملهم بالهدايا والتحف قبل عودتهم الى مناطقهم (83) . وبينما التزمت كتامة بفحوى الاتفاق فلم تثر قلاقل ولم يؤثر انها اشتركت فى حركة ضد نظام الزيريين ، تمردت زناتة من جديد وعادت الى العمل الحربي ضد صنهاجة ونظام الزيريين فى الوقت الذي كان فيه شرف الدولة يواجه مشاكل خطيرة سببها انفصال حماد بن بلكين فى القلعة منذ زمن طويل . وان خطورة حركات زناتة والحماديين لتكمن فى كونها تعكس الصراع السياسي والمذهبي ويتجاوب معها جمهور السكان فى بلاد المغرب وقد صارت الحرب سجالا بين الفريقين وتمكن شرف الدولة وابنه نزار من الحصول على انتصارات ضد جموع زناتة (84) ، كما حاصر شرف الدولة قلعة بني حماد طيلة الفترة ما بين 432 / 1040 م و 434 هـ / 1042 م وشدد عليها وأخذ بمخنق حماد فيها « ويبدو أن ظروف الحرب ورغبة المعز فى تملق مشاعر أهل السنة فى القلعة لكي ينهي المعركة ضد حماد هي التي دفعته الى اظهار الولاء للعباسيين منذ 433 هـ / 1041 ـ 1042 م وهو المبرر الذي يتمسك

82 ـ الدباغ : المصدر السابق 3 ، 209 وعن حياة الفاسي فى القيروان وخروجه الى الحج سنة 425 هـ ووفاته بعد عودته من المشرق سنة 430 هـ انظر ابن عذاري 1 ، 396 ـ 397 .

83 ـ ابن الأثير : الكامل 9،13،133 (أحداث 417 هـ) .

84 ـ ابن عذاري : البيان 1،396ـ397 ابن الأثير : الكامل 9،141،168 .

به حماد للبقاء على وضعه الانفصالي (85) ، واستمرت المشكلة حادة حتى وفاة حماد بالقلعة أواخر 441 هـ / 1049 – 1050 م (86) .

د) التفتح على العالم الخارجي : ومظهره استقبال سفراء وهدايا من عدة جهات منها السودان وبيزنطة ، ودانية ثم بغداد .

ففي سنة 423 هـ / 1031 – 1032 م وصلت هدية ملك السودان وفيها رقيق كثير وزرافات وأنواع من الحيوان غريبة ، وبعد ثلاث سنوات وصلت المعز هدية الأمبراطور البيزنطي « ولم ير مثلها فى كثرة ما اشتملت عليه من أمتعة الديباج الفاخر » (87) . كما استقبل سفارة من أمير دانية وجزر البليار وهو الموفق مجاهد العامري (ت 436 هـ / 1045 م قام بها قاضيه ابن أبي ريال ثم اقبال الدولة) (ابن مجاهد (88) .

ومن دون شك انطلقت سفارات الأمير الزيري الى بغداد منذ وقت سابق على سنة 439 هـ / 1047 – 1048 م وكانت مهمتها استطلاع راي الخليفة العباسي ، ومدى استعداده لاحتضان الدعوة الجديدة فى بلاد المغرب ، واستجابة الخليفة القائم بأمر الله لرغبة المعز وارسالـه الهدايا والتحف والألوية والبنود السوداء والتقليد بولاية المغرب وما ينضاف اليه بواسطة ابي الفضل محمد بن عبد الواحد التميمي الذي لم يصـل الا بعد أن عانى محنة الاعتقال والتشهير واحراق ما معه من خلع وبنود فى القاهرة ، هي التي فجرت الأزمة .

هـ) **التدخل فى ميدان صقلية** : وهنا يلاحظ أن المعز بن باديس رغم أن تدخله فى القضية كان بحسب الظاهر لفائدة سكانها المستضعفين فان مبادرته بذلك دون تكليف أو استئذان من صاحب السيادة العليا تعتبر غير شرعية

---

85 – نفسه 1،197 وقارن بما جاء فى المقريزي : اتعاظ 2،190 حيث يلاحظ بدء الدعوة للقائم منذ 435 هـ .

86 – نفسه : 1،403 .

87 – نفسه : 1،396 ويبدو انه ميخائيل الرابع (اتعاظ 2،182) وهنا يلاحظ ان النصوص لا تشير الى غضب الظاهر من هذه الحركة لان المعز لا بد ان يكون قد رد على هذه الهدية بما هو افضل منها ، هذا بينما اشارت الى انكـار المستنصر بالله علي كمال بن صالح المرداسي ارساله هدية الى امبراطور الروم سنة 446 هـ اي بدون اذنه وعن غير طريقه فتحير الامير واعتذر (اتعاظ 2،229) .

88 – H.R. Idris : Op. Cit., T. I p. 176-177
ومن دانية واسرة مجاهد العامري انظر :
EI. Art Denia T. I p. 963

وهي في حقيقة أمرها توسع وحركة عدائية لأنها تمت وهو في وضع المتآمر ضد الخلافة في مصر وأوليائها في افريقية (89) .

و) وتشير بعض النصوص الى علاقة مودة وصداقة كانت تربط المعز بن باديس بأبي القاسم علي بن احمد الجرجرائي ، أساسها اتفاق في الراي حول نظام الخلافة الفاطمية ، وأن الامير أرسل اليه يظهر مودته وأن بقاءه على الولاء للخلافة انما كان بسبب ذلك فانزعج الجرجرائي وكان قد تعرض لعقاب الحاكم من قبل وخشي أن يكون ذيوع هذه الرسالة سببا في نكبته من جديد ، ولذلك تبرأ من علاقته بالأمير الزيري وعملما وسعته الحيلة على تبرئة نفسه ولو بتوريطه (90) .

ويبدو أن هذه العلاقة تغيرت فيعصر البازوري بسبب ميل المعز بن باديس الى التهوين من شأنه فلم يخاطبه حسب الرسم المعهود (91) ولم تنجح جهود اليازوري عن طريق نائب المعز في القاهرة وهو أبو القاسم ابن الاخوة لارجاعه الى جادة الصواب أو لاقناعه بمعاملة الوزير بما يليق به بصرف النظر عن مركزه الاجتماعي القديم وكل حيل الوزير بقصد التأثير في موقفه زادته اصرارا وعنادا (92). والهدف من هذا لتصلب واضح في بقية تحركات ابن باديس التي مهد بها للازمة واتخذ توتر علاقته باليازوري سببا مباشرا للانفصال السياسي والمذهبي عن الخلافة الفاطمية في القاهرة ولاعادة بلاد

---

89 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا 2،221 حسن حسني عبد الوهاب : جزيرة قوصرة 61 ارشيبالد لويس القوي البحرية 363 وما تضمنه كل من المقريزي (اتعاظ 2 ، 214) وابن ميسر (أخبار مصر 2، 5ـ6) من تحديد الثورة ضد الفاطميين بسنة 443 هـ انما يشير فيما يبدو الى المرحلة الحاسمة التي ظهر أثناءها الروم عنصرا ايجابيا لفائدة الفاطميين بسبب ارتباطهم معهم بسياسة الهدنة .

90 ـ ابن غليون التذكار ورقة 11 ، خ رقم 889 المكتبة الاهلية ، باريس (22ـ23 ط . الزاوي) ومما ردده في أحد مجالسه قوله (لا تعجبوا من هذا الأمير صبي مغربي بربري) يحب ان يخدع شيخا بغداديا عربيا ، ابن عذاري 1،398 المقريزي : اتعاظ 2،190 هامش 4 .

91 ـ ابن خلدون 4،131 وكان يخاطب الجرجرائي ومن سبقه بعبده . اما اليازوري ـ فخاطبه بصنيعته عبد الحميد يونس : المرجع السابق 66 .

92 ـ المقريزي : اتعاظ 2،212ـ213 ، وامام كل هذا خاطب البازوري نائبه في القاهرة بقوله « اكتب الى هذا البربري الأحمق وقل له ان عقلت واحسنت ادبك والا جعلنا تاديبك بهذه » (أي نعل المعز المسروقة) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين 263 ـ 264 الميناوي : المرجع السابق 189 سرور : سياسة الفاطميين الخارجية 227 ـ 228 .

المغرب الى حظيرة الأسرة السنية التابعة للخلافة العباسية فى بغداد منذ 440 هـ (93) / 1048 – 1049 م .

وبدأ التعبير عن الانفصال فى عدة مظاهر هي :

ـ اظهار التبعية للخلافة العباسية والدعوة للعباس وللخلفاء الاربعة ولبقية الصحابة العشرة الذين كانوا محل لعنة فى العصر الشيعي ، ثم دعى للقائم بأمر الله فى مرحلة تالية وأسقط اسم المستنصر بالله ولعن هو وبقية الخلفاء الفاطميين فى خطب الجمعة والأعياد فى المنصورية والقيروان ، ثم فى سائر حواضر بلاد المغرب وتكفل أبو الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي بقراءة صيغة اللعنة فى المنصورية ومنها « اللهم والعن الفسقة الكفار ، المرائين الفجار ، أعداء الدين وأنصار الشياطين المخالفين لأمرك والناقضين لعهـدك » (94) .

ـ ومنذ شهر شعبان 441 هـ / ديسمبر 1049 م ضربت سكة جديدة ليس فيها شعار الفاطميين وسبكت جميع العملة القديمة وأمـر جميـع السكان بازالتها (95) ، وحظر المعز التعامل بها فى العلاقات التجارية وهدد المخالفين بالعقوبة الشديدة (96) ، وكان من قبل قد أزال أسماء الخلفاء من الرايات والبنود باحراقها (97) .

ـ وفى 442 هـ / 1050 – 1051 م أعلن ولاية العهد لابنه الأمير أبي الطاهر تميم ، ويبدو انه أوعز الى الخطيب بأن يدعو اليه بلقب جديد هو السلطان لاول مرة وقد كان دعاء الخطيب له ولابنه معبراً عن الوضع الاستقلالي لدولة الزيريين « اللهم اصلح عبدك ووليك » الظاهر تميما بن المعز الطاهر من كفر معد بن الظاهر (98) .

---

93 ـ ابن عذاري 1،396 س 2 ، 399 س 5 المقريزي : اتعاظ 2،216 س 13 الدباغ معالم 3،241 وما بعدها الذهبي 3،347 ابن الأثير 9،195–197 وما جاء فى ابن ميسر 2،5–6 ، المقريزي : اتعاظ 2:42 عبد المنعم ماجد : المرجع السابق 259 ، ويلاحظ ان تعدد التواريخ تعكس ظاهرة التدرج فى العداء .

94 ـ الدباغ : المصدر السابق 3،241–245 ابن عذاري : البيان : المغرب 1،401 عبد المنعم ماجد : المرجع السابق 260–261 .

95 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1،402 ويشير الى ضرب دينـار جديد عـرف بالتجاري .

96 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1،403 .

97 ـ نفسه 1،399 .

98 ـ نفسه 1،404 نقلا عن ابن شرف(ت 460 هـ) ، شاعر المعز بن باديس ومرافقه له كتاب «الذيل» وقد اتم له تاريخ افريقية والمغرب للرقيق القـيرواني انظر :
H.R. Idris : Op. Cit., T. I p. 15

ـ وفي جمادي الآخرة 443 هـ / اكتوبر 1051 م أشرف المعز بن باديس على احلال شعار السواد محل البياض فأحضر الصباغين وأعطاهم اقمشة بيضاء وكلفهم بصبغها بالسواد ، ثم فصلت أثوابا ووزعت في حفل عام جرى بالقصر على الفقهاء والقضاة والمؤذنين وخطباء المساجد ثم نزلوا بأزيائهم الجديدة في شبه عرض عام وتوجهوا نحو مسجد القيروان حيث دعى للخليفة العباسي القائم وللسلطان المعز بن باديس ولولي عهده تميم وصبت اللعنات على الخلفاء الفاطميين (99) . وفي نفس السنة انضم سكان برقة الى الثورة فدعوا للقائم العباسي ولعنوا الخلفاء الفاطميين وأحرقوا المنابر والرايات القديمة بحيث شمل الانفصال بلاد المغرب كلها من برقة حتى عدوة طنجة (100) .

وبينما كان ابن باديس « اللعين » يدعم مركزه ويرسي قواعد حركته الاستقلالية كان هناك في مصر خصم عنيد عاهد نفسه بدافع شخصي وتحت ستار الدفاع عن حقوق الخلافة على الثأر لشرفه وكرامته ، غير ان اليازوري وقد تفتقت ذهنيته عن مشروع خطير لحل مشاكل الخلافة مع الاعراب الرابضين على حدودها عن طريق تنظيمهم وحل خلافاتهم الداخلية والتنسيق بين زعمائهم وتجهيزهم ماديا وتحويلهم الى قوة هجومية دفاعا عن حقوق الخلافة في ميدان المغرب (101) ، الذي عاني سكانه طويلا من حركة الدمار والتخريب والفوضى التي رددها المعاصرون في نغمات حزينة (102) قد تجاهل :

ـ انه تصرف في القضية على غير سابقة تاريخية أو مثال قديم .

ـ وانه بالغ في الاساءة الى الثقة التي أودعت فيه وفي استغلال السلطة التي خولت له من طرف الخليفة ، كما أسرف في حركة الرد على اهانة ابن باديس الذي لم يقتصر العذاب عليه وعلى أسرته ، وانما عم المنطقة بما فيها

---

99 ـ نفسه 1،405 .

100 ـ نفسه 1،416 أرشيبالد لويس : القوى التجارية والبحرية 363 ـ 364 .

101 ـ المقريزي : اتعاظ الحنفاء 2،216 ـ 217 ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 418 ، ابن ظافر : اخبار الدول المنقطعة ورقة 68 ـ 69 ، ابن الأثير : الكامل 9 ، 195 ـ 197 عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين 265 ـ 267 جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية 228 ـ 229 .

102 ـ ابن عذاري : المصدر السابق 1،417،423 نقلا عن ابن شرف وعن محمد بن سعدون (ت 485 هـ) في كتابه « تعزية اهل القيروان» الذي عرف ايضا بتعزية اهل الايمان .

من مظاهر حضارية ، وعمرانية وبمن فيها من عناصر بشرية لا دخل لها في كل ما جرى (103) .

ـ وأن ميدان المغرب رحب فسيح وأن سكانه سوف يجدون بعد ذهاب اثر المفاجأة حلا مناسبا للازمة ، على نحو يجعل هذه التغريبة عنصر قوة وتطعيم ومددا جديدا وجسرا لربط العلاقات من نوع جديد ومن ثم فلا طلاق ولا قطيعة نهائية لأن سيل الهجرات استمر ، كما أن العلاقات الشكلية بين الخلافة الفاطمية والأسرة الزيرية عادت سيرتها الأولى وتمثلت في هدية جمة أرسلها المعز بن باديس 452 هـ / 1061 م الى المستنصر بالله تضمنت درقة مرصعة بالجواهر كانت للمهدي (104) ، وعندما توفي الأمير الزيري 454 هـ / 1062 ـ 1063 م خلفه أبنه تميم دون صعوبة (105) ، الا من جهة شيوع ظاهرة نزعة الطائفية في نواحي المغرب التي تسبب فيها الاعراب (106) وقد أرسل الآمر سنة 505 هـ / 1111 ـ 1112 م هدية جليلة مع رسوله سوار الى يحي بن تميم بن المعز . الذي استقبل الهدية والرسول استقبالا فخما ، شيعه الى مصر ، بهدايا مناسبة وأصحبه من الدخائر ، والالطاف ما لا يحيط به الوصف (107) وقد رد الآمر عليها بهدية أخرى أرسلت سنة 511 هـ 1117 ـ 1118 م الى علي بن يحي بن تميم ، (108) وتلقى الحافظ لدين الله هدية من الحسن بن علي بن تميم الذي أحبط مناورة قصد بها افساد العلاقة بينه وبين الخليفة ، لفائدة التقارب مع العزيز بن المنصور الحمادي صاحب بجاية (109) وهكذا استمرت العلاقة الشكلية مع الأجزاء الشرقية من بلاد المغرب أما الأجزاء الغربية فقد تدعم فيها الانفصال لفائدة الخلافة العباسية بنهضة صنهاجة الجنوب وقيام دولة الفقهاء والمرابطين .

أما الذين أعادوا الى المغرب وحدته الشاملة واعتباره الأدبي كمركز للخلافة فهم الموحدون الذين لم يرثوا فقط حقوق فرعي صنهاجة في الجنوب وفي الشمال وانما أصبحوا بانتحالهم للمهدية وللقب أمرة المؤمنين ورثة لامتيازات الخلافتين الفاطمية والعباسية .

---

103 ـ المقريزي : المصدر السابق 2،218 وفيه قوله « فخربت افريقية باسرها وصيروا البربر لهم خولا وقارن بما ورد في ابن عذاري 1،422 عن معاملتهم للاهالي ، فلم يطلقوا أحدا الا بالفداء ، مثل اسرى الروم . واما الضعفاء والمساكين فامسكوهم لخدمتهم » عبد الحميد يونس الهلالية في التاريخ 70 وما بعدها وقد لاحظ سيطرة بني هلال وقوة آثرهم الاجتماعي .

104 ـ نفسه 1،261 .

105 ـ نفسه 1،263 ابن عذاري : المصدر السابق 1،428 ـ 429 ، 431 .

106 ـ نفسه .

107 ـ ابن عذاري : البيان : المغرب 1،439 G. Marcais : Op. Cit., p. 231

108 ـ نفسه 1،442 .

109 ـ نفسه 1،450 ـ 451 .

وهنا يتساءل الباحث ، أين أولياء الفاطميين ؟

ولماذا ركدت ريح كتامة ؟

الم يكن ميسورا تنظيم ثورة فى اقليمهم ضد ابن باديس ؟

او ارسال عناصر منهم ومن بقية اجناد الخلافة فى المشرق لوضع حد لانفصاله مثلما جرى ذلك من قبل ضد بني الجراح فى فلسطين وبني مرداس فى حلب . ولماذا قبل المستنصر بالله الاستعانة بعرب بني هلال (110) وهم عناصر فوضوية وسنية ولم يوص زعماءهم بأن ينسقوا مع بقايا كتامة فى المغرب بل اعطى قسنطينة وعمالتها وهي من مضارب كتامة وحواضرها الى الحسن بن مسرة من زعماء الأعراب ؟

ولتوضيح ذلك لابد من الاشارة الى أن عوامل كثيرة تحالفت ضد كتامة فأضعفتهم وانزلت بهم الذل والهوان ، وصيرتهم فى هذا العصر فى المغرب وفى المشرق « من الرعية » وأوزاعا بدون زعامات وكانوا ينطوون على غضب شديد ، ولهذا لم يكن سهلا أن يطمئن المستنصر الى جانبهم فى مصر فضلا عن أن يرسلهم الى الآفاق المغربية لمواجهة عناصر من بيئتهم وقد عبروا أكثر من مرة عن سخطهم ازاء سياسة الخلفاء الفاطميين العزيز والحاكم والظاهر ولا يستبعد أن يكون صدى ثورة ابن باديس حسنا فى نفوسهم للثأر لكرامتهم وللشماتة فى الفاطميين الذين وقفوا سلبيين ازاء حركة اذلال كتامة فى المغرب على أيدي الزيريين الذين وجدوا من الخلفاء كل تكريم وحفاوة .

وقد أصبح اقليم كتامة بعد فشل الثورات السابقة ــ يعاني الفقر والخراب والحرمان والاحكام الجائرة والارهاق فى الجبايات فلم يبق عند سكانه قدر كبير من الحرية والحركة . ولأن الولاء للخلافة أضرهم ولم يقدم لهم الحماية ، فقد مالوا الى السلم والموادعة مع نظام الزيريين وارتبطوا مع المعز بن باديس منذ 417 هـ / 1026 ــ 1027 م ، بسياسة الوفاق لأن امكانياتهم لم تكن

110 ــ وقد شاع هذا الاسم على مجموعة القبائل التي هاجرت الى بلاد المغرب او بقيت فى الشرقية وبالصعيد وذلك لغلبة فرع هلال واستبداده بالرئاسة علي بني سليم وغيرهم ممن ينتمي الى قيس عيلان .

وقد تضمنت التغريبة الهلالية عناصر من عرب الجنوب ايضا . ومع ان عرب بني هلال تمكنوا من السيطرة على الحياة السياسية فى بلاد المغرب فانهم لم يتمكنوا من تاسيس نظام سياسي مستقل وقار . وظلوا على تقاليدهم القبلية يتقلبون بين أصحاب السلطان . طلبا للنفع المادي دون ارتباط باتجاه سياسي أو مذهبي معين ــ انظر عبد الحميد يونس الهلالية 12، 62، 70، 76 .

تسمح لهم فى هذه الفترة بأية مخاطرة أخرى لفائدة الخلافة حتى لو طلب منهم ذلك رسميا .

واحساس الخليفة بهذه الاتجاهات التي تسببت فيها سياسة أسلافه هو الذي صرفه عن فكرة تدبير ثورة جديدة فى كتامة واكتفى بالموافقة على الاستعانة باعراب بني هلال على أن تكون لهم أرض المغرب بما فيها مضارب كتامة التي كانت تابعة لسلطة الزيريين (111) .

واذا كانت الفتن قد انجلت ، واستقبل سكان المغرب بعد فترة اضطراب عصرا جديدا ، فان ما بقى من هذه العهود هو رصيد العداء لكتامة لتبنيهم الحركة الاسماعيلية واضطهادهم أهل السنة ، ويصور ذلك فى عهد متأخر شيخ المؤرخين عبد الرحمن بن خلدون بقوله « ونسب كتامة لهذا العهد بين القبائل المثل السائر فى الذلة ، لما انكرتهم الدول ، من بعد الاربعمائة سنة ، لانتحالهم الرافضة ومناهجها الكفرية ، حتى صار كثير من أهل نسبهم يفرون منهم ، وينتسبون فيمن سواهم من القبائل ، فرارا من هجنته » (112) . بحيث كانت نتيجة جهودهم على مدى أكثر من قرنين شتاتا لعنصرهم فى بيئة مصر ، والشام ، وعودة الى حياة الذلة والعزلة فى بيئة المغرب .

---

111 — المقريزي : اتعاظ الحنفا 2،218 عبد الحميد يونس : الهلالية 113 . ويذكر هنا بناء على ما تضمنته « السيرة الهلالية » أن ابا زيد الهلالي وذيابا بن غانم قد سيطرا على مجموع قبائل المغرب بما فى ذلك زواوة .

112 — العبر 6،307 — 308 .

الخاتمة

ويتضح مما سبق :

ـ ان كتامة البرنسية ليست قبيلة فحسب بل حلفا كبيرا يشمل كتلة زواوة وتنتشر فروعه فى مناطق مختلفة من بلاد المغرب ، ولها مراكز هامة وحواضر عظيمة بعضها باق حتى اليوم مثل سطيف ، وجيجل وبعضها اندثر مثل ايكجان وتازروت .

ـ ولقد اخذ الكتاميون بالاسلام قديما وتمسكوا به ولم يشتركوا فى الفتن ، ولم تنتشر بينهم النحل المتطرفة الا ندورا ، واستمر ذلك حتى القرن 3 للهجرة .

ـ ومع ان شهرتهم منذ هذا القرن الذي تبنو فيه الدعوة الاسماعيلية قامت على أساس انهم طبقة عسكرية ، فان الذي يلاحظ ان نشاطهم بعد ذلك لم يقتصر على الميدان العسكري بل كان لهم اسهام معتبر فى ميادين الفكر ، والثقافة والادارة فى بلاد المغرب ، فكان منهم الدعاة والسفراء والقضاة والولاة ، وفى مصر وبلاد الشام حيث احتفظوا لفترة طويلة بالمراكز القيادية واهمها « خطة الوساطة » ، ونبع منهم مثقفون وفنانون . ومن اسرة ابن فلاح وحدها ، نجد ثلاثة شعراء : هم عميد الاسرة جعفر ، وابنه أبو تميم سليمان وحفيده صفى الدولة ابن علي بن جعفر .

ـ وهؤلاء وامثالهم من القادة المثقفين ، هم الذين قادوا المعركة السياسية والمذهبية ضد العناصر المعارضة ، عن وعي وادراك لاسباب التضحية واهداف العمل ، ونموذج هؤلاء القادة هو الذي يتوخى حاليا فى الحروب القومية .

ـ وكان دور كتامة فى تاريخ الفاطميين ، مزدوجا : سياسيا ومذهبيا وشاملا للمغرب وملحقاته ، « ولشا مصر » ، وملحقاته .

ـ ولم يكن تأييد بعض فروع حلف كتامة للدعوة الاسماعيلية نابعا عن اقتناع وعقيدة بقدر ما ارتبط فى جملته بظاهرتي الولاء للحلف أو للعصبية الكتامية الخاصة أو البرنسية العامة ضد البتر والعرب أيضا .

وقد بقيت جيوب كثيرة على ولائها للمذهب القديم وناضلت فى سبيله وهاجرت جماعات منهم الى مناطق بعيدة حفاظا عليه ، وتدل على ذلك مجموعات كتامة السنية فى شمال المغرب الاقصى ، ومجموعات سدويكش وصدغيان الاباضية فى جزيرة جربة .

ويبدو أن ظاهرة المقاومة للحركة الاسماعيلية هي التي استمرت بعد قيام الخلافة وظهرت على فترات متقطعة فى بلاد المغرب ، والمشرق على السواء .

وظهور الحركات الثورية المضادة للخلافة الفاطمية بين عناصر كتامية او اشتراكهم فيها وهم الاسماعيلية الذين يعرفون مبدأ وجوب الطاعة المطلقة للامام المعصوم من عترة النبي ، وعصبية الدولة واساسها ليحمل معنى هو أقرب الى التناقض الصريح فى مواقفهم ، والاضطراب فى علاقاتهم التاريخية بالدعوة الاسماعيلية وبنظام الخلافة الفاطمية .

وقد طبعت مواقف الخلفاء الفاطميين ازاءهم بالتناقض أيضا ولا مبالغة اذا قلنا بأنهم بقدر ما سخروهم فى أغراضهم واستفادوا منهم فى كثير من مشروعاتهم بقدر ما أخسروهم لفائدة عناصر جنسية أخرى . فلقوا من الذل والمهانة والسخط وحركات التصفية فى المغرب والمشرق من الخلفاء ما لقوه بعد على يد أعدائهم فى عصر نهضة السنة بحيث لم تلق اية مجموعة قبلية أخرى ، ما لقيته مجموعة كتامة رغم عملهم الجاد ، وأهمية دورهم لفائدة هؤلاء وأولئك .

ــ فلقد عبد الكتاميون الطريق لسيادة العنصر البربري فى بلاد المغرب الذي أصبح بدوره سيد مصيره فتعاقب على الحكم فرعا صنهاجة ثم تسلمه منهما حلف مصمودة بعد نضال عنيف .

وكان عصرهم هو عصر الوحدة المغربية التي عمرت طويلا وارتبطت بشا مصر برباط السياسة والمذهب وبفضلهم استمرت ظاهرة الوحدة ركيزة للانظمة السياسية بعدهم ، واذا كان الموحدون هم التعبير الشامل عنها فى اطار المغرب ، فان فضل الكتاميين انهم وسعوا أفق التجربة فكان عملهم بحق افضل مما تحقق على أيدي الموحدين فى المغرب وافضل مما تحقق على ايدي الايوبيين والماليك فى ميدان شا مصر أيضا .

ــ وكان الكتاميون هم حراس النفوذ الفاطمي فى بلاد المغرب التي بقيت طويلا على ولائها للخلافة ولا سبب لذلك غير ضغطهم وخوف الزيريين من حركاتهم الثورية .

وقد اعطى حلف كتامة للمغرب والمشرق أيضا ، دماء جديدة ففي مرة واحدة دخل رقادة مع ابي عبد الله الشيعي منهم نحو ثلاثمائة ألف ، ودخل مصر صحبة جوهر وحده نحو مائة الف هذا عدا من ورد نجدة له مع كل من سعادة ابن حيان والحسن بن عمار ، أو رافق المعز لدين الله أو لحق به فيما بعد بحيث استمر سيل الهجرات هذه المرة على نحو غير مألوف . وبقاء اسم كتامة وآثارهم فى مصر يحمل دلالة قوية على كثرتهم ومجدهم .

ومع انه يؤخذ على كتامة غلوهم وتطرفهم وان عصر نهضتهم كان فاتحة لفصل حاد فى ظاهرة الصراع المذهبي الذي ترتب عنه حركة اضطهاد المخالفين فانه يلاحظ ان ظاهرتي الصراع والاضطهاد قديمتان ، وأن ما نتج عن حركة الصراع من آثار فكرية شيء هام استفادت منه الحضارة الاسلامية ، واستوعبه الفكر الاسلامي كما ترك نشاطهم الجم آثارا وتقاليد طيبة ، لم يألفها فى غير عصر الفتوح الاسلامية واهمها : الجهاد من اجل العقيدة والشهادة من أجل الراي .

ولم ينج الكتاميون من سياسة الاضطهاد بعد أن ذلوا وانحط شأنهم بنهضة السنة وغدا تقليدا للأنظمة السياسية فى المغرب والمشرق فالمرابطون نكلوا بزناتة رغم وحدة المذهب وترفقوا بالزيريين . والموحدون عفوا على آثار المرابطين والزيريين واعتبروا المرابطين مجسمة وملحدين . والأيوبيون قاموا بدور مشابه فى مصر والشام بالنسبة لبقايا التشيع والشيعة .

وظاهرة التطرف والغلو التي تميزت بها عناصر كتامة فى مصر والشام ونضالهم ضد المذاهب غير الشيعية وعداؤهم للمالكية لم تكن وليدة البيئة الجديدة وانما كانت استمرارا لما ألفوه فى البيئة المغربية وكذلك سياسة الخلفاء المصريين لم تكن الا استمرارا لسياسة أسلافهم فى الدور المغربي تجاه عناصر المالكية .

وموقف كتامة المعادي ، لحركات العامة ويمثلهم الأحداث ولحركات الطبقات العليا يمثلهم عنصر الأشراف فى مصر وبلاد الشام صورة من موقفهم من جماهير السكان فى حواضر افريقية السنية ومن الأسر المغربية المشهورة . ومع ذلك فقد تطورت علاقة كتامة بالسكان فى مصر والشام ، ولم يبق طابعا عدائيا فى كل الأوقات وانما تخللتها فترات سلم وتعاون وثيق واندماج .

فقد ساند الكتاميون جماهير السكان فى الفسطاط أثناء حادث حريقها الذي دبر فى عهد الحاكم بأمر الله ونفذه عبيده (1) ، وتعاونوا مع الأتراك ومع سائر المعارضين للعبيد وأوقفوهم عند حدهم .

واثناء صراع الأجناد ونزاع الكتاميين والأتراك فى عصر الظاهر لاعزاز دين الله سنة 420 هـ / 1029 ـ 1030 م انضم السكان الى الكتاميين وايدوهم وبفضلهم انتصروا على أعدائهم .

وان بقاء اسم كتامة وآثارهم فى القاهرة ، وفى بعض الأقاليم حتى وقت متأخر ليبرهن على تطور علاقتهم بالسكان من الجفاء والعداء الى التعايش والآخاء والود .

اما فى بلاد الشام فقد اندمج الكتاميون « البلديون » مع السكان فى الفترة الأخيرة من الحكم الفاطمي وبدرجة ان أشهر اسرهم وهي أسرة ابن منزو أصهرت الى اعرق الأسر الشامية فى مدينة طرابلس وهي أسرة جمال الدولة بن عمار ، وقد تعاون أفراد هذه الأسرة فى فترات مختلفة مع عرب بني كلب ومع سكان دمشق ضد بدر الجمالي .

ونظرا لطول العهد ، وبحكم الجيرة اكتسب الكتاميون صفات البيئة التي وجدوا فيها فأصبحوا من نوع « البلديين » واشبه بالعرب الذين عرفتهم حواضر افريقية والمغرب والأندلس بعد انتهاء حركة الفتح واصبحوا يعرفون بعنصر « البلديين » . ومثلما كان حال العرب البلديين لم يفقدوا صلاتهم ببيئتهم القديمة بقى الكتاميون أيضا ، مشدودين لأصالتهم القديمة حتى فى شكل أسمائهم وألقابهم . وهكذا نلاحظ أسماء كليد ومنزو ، وملامان ومحساس وينوط وعراس وابن الشيخ وغيرها مما هو دارج بعضه فى بيئة كتامة حتى وقتنا الحاضر .

---

1 ـ ويرى عبد المنعم ماجد ان رواية حريق الفسطاط لا تخلو من اضطراب ، خاصة وأن سبب الحريق قد يكون اما الرد على سخرية السكان منه ، أو الانتقام منهم لما تضمنته اشعارهم من اتهامه بالكفر لمجرد آنه دعاهم جبرا الى الاخذ بمذهبه الاصلاحي الجديد . ويلاحظ ان الحاكم تبرا من فعل العبيد وكان حريصا على بعث الطمانينة فى نفوس السكان كلما ظهرت اشاعة حول ما يعتزم القيام به من اعمال انتقامية . وقد كان تدخله حاسما فى ايقاف العبيد عند حدهم ولعل القصة قصد بها المبالغة فى الاساءة الى سمعته ومن ذلك شبهة ادعائه الألوهية التي وردت فى بعض النصوص السنية : انظر الحاكم بأمر الله الخليفة المفتري عليه 49 وما بعدها .

ومن خلال الدراسة تتضح :

1 ـ مزايا الاقليم وفروع حلف كتامة وبقاياهم ورجالاتهم وأهم مراكزهم خاصة التي ارتبطت بها نشأة الحركة الاسماعيلية مثـل تازروت وايكجان وقد حدد موقع القلعة الأخيرة وهي دار الهجرة الشيعية الكبرى فى المغرب ، وصورت بقاياها حيث هي بجوار قرية بني عزيز الجزائريـة .

2 ـ عدم صحة الشبهة التي الصقت ببعض فروع كتامة خاصة فى الميدان الاجتماعي .

3 ـ واهمية دور كتامة فى ميدان العلاقات الخارجية للخلافة الفاطمية . وقد مكن الكتاميين وجودهم فى بلاد الشام ـ وكانت بحق ميدانهم الذي فتحوه وبقي مسرحا لنشاطهم حتى نهاية النفوذ الفاطمي ـ من تمثيل أدوار بالغة الخطورة ضد الروم والخلافة العباسية وعناصر المعارضة الداخلية ومنهم عنصر « الشطار » الذين أخذوا حيزا من العناية لأهميتهم وعلاقتهم مع عنصر الأشراف .

ولا مبالغة اذا قلنا بأن عمل كتامة من موقعها فى بلاد الشام كان التطبيق العملي لما تضمنه بيان القائد جوهر ، خاصا بالجهاد المقدس ضد الكفـرة والنضال لحماية الضعفاء والمستضعفين ، وبالتالي فهو المبرر لمد النفوذ الفاطمي الى هذه البلاد .

ولقد احتفظ الكتاميون بأثر من نفوذهم فى المغرب وفى المشرق حتى القرن الخامس الهجري الذي حمل معه نذر الشر ، وعلامات الانحطاط والتدهور لهم ثم للنفوذ الفاطمي فى المغرب ، والمشرق .

ولقد يوحي تاريخ كتامة ، وتجربتها الفريدة الرائدة فى ظل الخلافة الفاطمية بأن ما أمكن تحقيقه فى العصور الوسطى ، بالاخلاص والتعاون والتنسيق يمكن انجازه فى عصرنا ، بكل يسر ، ان توفرت الشروط واهمها : أن تضم جهود بلاد المغرب لجهود مصر وبلاد الشام وسائر المشرق الاسلامي من اجل دفع عجلة الاحداث .

الخلفاء الفاطميــون

خلفاء الدور المغربي 297 — 361 هـ / 909 — 972 م

ـ ابو محمد ـ عبيد الله المهدي 297 ـ 322 هـ / 909 — 934 م

ـ أبو القاسم ـ محمد (عبد الرحمــن) القائــم بأمر الله
322 —334هـ / 934 — 946 م

ـ أبو الطاهر اسماعيل ـ المنصور بنصر الله 334 — 341 هـ / 946 — 952 م

ـ أبو تميم معد ـالمعز لدين الله 341 ـ 361 هـ / 952 — 972 م

الخلفاء المصريون ـ الدور المشرقي 361 — 567 هـ / 972 — 1171 م

ـ أبو تميم معد ـ المعز لدين الله 361 — 365 هـ / 972 — 975 م

ـ أبو منصور نزار ـ العزيز بالله 365 — 386 هـ / 975 — 996 م

ـ أبو على المنصور ـ الحاكم بأمر الله 386 — 411 هـ / 996 — 1020 م

ـ أبو الحسن علي ـ الظاهر لاعزاز دين الله 411 — 427 هـ / 1020 — 1035م

ـ أبو تميم معد ـ المستنصر بالله 427 — 487 هـ / 1035 — 1094 م

ـ أبو القاسم أحمد ـ المستعلي بالله 487 — 495 هـ / 1094 — 1101 م

ـ ابو علي المنصور الآمر بأحكام الله 495 ـ 524 هـ / 1101 — 1130 م

ـ أبو ميمون عبد المجيد ـ الحافظ لدين الله 524ـ544هـ/1130ـ1149م

ـ ابو المنصور اسماعيل ـ الظافر بالله 544 ـ 549 هـ/1149 — 1154 م

ـ أبو القاسم عيسى ـ الفائز بنصر الله 549 — 555 هـ / 1154 — 1160 م

ـ أبو محمد عبد الله ـ العاضد بالله 555 — 567 هـ / 1160 — 1171 م

* * *

بعض قادة كتامة فى مصر وبلاد الشام

أ ـ أسرة ابن فلاح (358 ـ 414 هـ) = 968 ـ 1024 م .

فـــلاح

↓

جعفر (ت 360 هـ) = 971 م

↓

على (ت 409 هـ) = 1019 م سليمان ت 391 هـ ابراهيم (ت370هـ) الفضل (ت 358 هـ) .

↓

صفى الدولة (ت بعد 414 هـ)

ب ـ أسرة ابن الصمصامة (361 ـ 416 هـ) = 972 ـ 1026 م

الصمصامة

↓

جيش (ت 390 هـ) = 1000 م

↓

ابو عبد الله محمد (ت بعد 416 هـ) ، 1025 م

جـ ـ أسرة ابن ثعبان ـ ق 5 هـ / 11 م

ثعبــان

↓

سنــد الدولة ولي افامية وحلب (ت 415 هـ) = 1024 م

سديد الملك (ولي تنيس وحلب) (ت بعد 416 هـ) = 1025 م

د ـ أسرة ابن منزو ـ ق 5 هـ /11 م

النعمان

↓

منــزو

↓

حيــدرة (ت فى صور 458 هـ) = 1066

سنان الدولة

معلى (ت 481 هـ) 1089 م

أ ـ ... (358 – 414 هـ) = 958 – 1024 م

م 971 = ...

... (400 هـ) = 1019 م

... (414 هـ) ...

... (416 – 501) = ... 1108 م

... (390 هـ) ...

الملاحم

... (5 ... / 11 م)

... (415 هـ) = 1024 م ... 1024 ...

... (5 ... / 11 م)

(458 هـ) = 1066 م

... (481 هـ) = 1089 م

ملحق (1)

الحسنيون وجعفر الصـادق

ارسل أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق الى عبد الله بن الحسن وسائر بني عمه كتابا يعزيهم عما صار اليه حالهم عندما حملوا خارج الحجاز بأمر الخليفة العباسي أبى جعفر المنصور (1) نصه :

« « بسم الله الرحمن الرحيم ، من جعفر بن محمد الى الخلف الصالح ، والذرية الطيبة ، من ولد أخيه وابن عمه ، أما بعد فان كنت تفردت أنت واهل بيتك ، ممن حمل معك ، لما اصابكم ، فما انفردت بالحزن والغيظ والكآبة واليتم ، ووجع القلب دونى ، ولقد نالني من ذلك من الجزع والقلق ، وحر المصيبة مثل ما نالك ، ولكن رجعت الى ما أمر الله ، وعزى به المتقين ، من الصبر ، وحسن العزاء حين يقول لنبيه : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت» ، وحين يقول لنبيه حين مثل بحمزة، «وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين »، فصبر رسول الله طى لا نسألك رزقا نحن نرزقك ، والعاقبة للتقوى » ، وحين يقول « الذين اذا اصابتهم مصيبة ، قالوا انا لله وانا اليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » ، وحين يقول « انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب » ، وحين يقول عن لقمان لابنه « واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور » (17) وحين يقول عن موسى « قال موسى لقومه : استعينوا بالله واصبروا ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ، وحين يقول « الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » ، وحين يقول « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ، ونقص من الاموال ، والانفس ، والثمرات ، وبشر الصابرين » وحين يقول « واصبر حتى يحكم الله ، وهو خير الحاكمين » ، وأمثال ذلك من القرآن كثيرة ، واعلم أي ابن عمي أن الله عز وجل ، لم ينل بضر الدنيا

---

1 ـ انظر : أبو الفرج الاصفهاني : مقاتل الطالبيين ص 142 ـ 158 ، وقد حبسوا في الهاشمية ، وانزلت بهم صنوف الذل والمهانة ، وقتلوا بضروب من القتل . الطبري : المصدر السابق ، ص 7،539 وما بعدها .

لوليه ساعة قط ، ولا شيء أحب الى الله ، من الصبر والجهد ، والأذى مع الصبر ، وانه تبارك وتعالى ، لم ينل بنعيم الدنيا لعدوه ساعة قط ، ولولا ذلك ما كان اعداؤه يقتلون أولياءه ، ويخنقونهم ، ويمنعونهم ، وأعداؤه آمنون مطمئنون عالون ، ولولا ذلك لما قتل زكريا ، ويحي بن زكريا ظلما وعدوانا ، في بغي من البغايا ، ولولا ذلك لما قتل جدك علي ابن أبي طالب ، لما قام بأمر الله عز وجل (7ب) ظلما ، وعمك حسين بن فاطمة الزهراء عليهما السلام ظلما ظاهرا ، وعدوانا ، ولولا ذلك ما قال الله عز وجل فى كتابه « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ، ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا ، وسررا عليها يتكئون وزخرفا » . ولولا ذلك لما قال الله فى كتابه « أيحسبون انما نمدهم به من مال ، وبنين نسارع لهم فى الخيرات ، بل لا يشعرون » ولولا ذلك لما جاء فى الحديث « لولا أن يحزن المؤمن لجعلت للكافر عصابة من حديد ، فلا يصدع راسه أبدا » . ولولا ذلك لما جاء فى الحديث « أن الدنيا عند الله ، لا تساوي جناح بعوضة ولولا ذلك ما سقى كافر منها جرعة ماء » ، ولولا ذلك لما جاء فى الحديث « لو أن مؤمنا على قلة جبل لبعث الله اليه كافرا أو منافقا يؤذيه » ، ولولا ذلك لما جاء فى الحديث « اذا أحب الله عبدا ، أو حرا ، صب عليه البلاء صبا ، فلا يخرج من غم الا وقع فى غم » ولولا ذلك لما جاء فى الحديث « ما من جرعتين أحب الى الله عز وجل أن يجرعهما عبده المؤمن (8) جرعة كظم غيظ وجرعة مصيبة عند حزن صبر عليها بحسن عزاء واحتساب ولولا ذلك لما كان اصحاب رسول الله يدعون على من ظلمهم بطول العمر ، وصحة البدن ، وكثرة المال والولد، ولولا ذلك لما بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا خص رجلا بالترحم عليه والاستغفار الى الله عز وجل استشهد . فعليكم يا عم ، وابن عم ، وابن عمومتي واخواني بالصبر ، والرفق والتسليم ، والتفويض الى الله عز وجل والصبر على قضائه ، والتمسك بطاعته ، والنزول على أمره فرغ الله علينا وعليكم بالصبر ، وختم لنا ولكم بالسعادة ، وانقذنا وأياكم من كل هلكة بحوله وقوته ، انه سميع قريب ، وصلى الله على صفوته من خلقه محمد النبي ، وأهل بيته » .

انظـــر :

زين الدين علي بن احمد العاملي (ت 954 هـ) التنبيهات العلية على وظائف الصلاة القلبية ، على مذهب الشيعة الاثنى عشرية : خ خ . مكتبة حسن حسني عبد الوهاب ورقات :6ـ8 ويوجد ضمن مجموع رقم 18335 بالمكتبة الوطنية (العطارين) تونس .

ملحق (2)

افتتاح مدينة تيجس (1) صلحا

وكان قد صار الى أبي عبد الله جماعة من هوارة أوراس الفحص ، من بني معاد ، وكان فيهم تشيع قديم ، كان منهم اسماعيل بن نصر المعادي لحق بالحلواني ، واخذ عن أصحابه ، واتى الى أبى عبد الله ، ودعا هو وجماعة من اهل بيته ، وجاء من أهل تلك الناحية جماعة الى أبي عبد الله ، وكان فيهم حمزة الملزي ، وكان فيهم فارسا جلدا جسورا ، فاجتمع مع قوم من اصحابه ، فأداروا بينهم رأيا أن يخرجوا فى جريدة خيل يغيرون على نواحي بلدهم ، حيث يعرفون ، واستأذن حمزة فى ذلك أبا عبد الله ، فاذن له ، فأحجم عنه أصحابه ، وبدأ لهم بما عقدوا عليه معه وخافوا .

فمضى حمزة وحده مع غلام له متسللين فوافيا بفج العرعار رفقة ، قدمت من القيروان الى باغاية ، وفيها فرانق ، معه كتب من زيادة الله ليلا ، فهجما فيها — وقتلا جماعة من أهلها ، واخذا ما أصابا مع من قتلاه من المال ، وما قدرا عليه من المتاع ، وقتل الفرانق ، فيمن قتلا ، واخذا كتبه ، وقدما الى أبي عبد الله ، فسره ذلك ، وكان سروره بالكتب وعلم ما فيها أكثر ، فلما نظر الى ذلك أصحابه ، الذين كانوا يختلفون عنه ، تسارعوا فى ذلك ، فكانوا يضربون على نواحي باغاية الى تيجس ، وكانت لزيادة الله بتيجس رابطة خمسمائة فارس مع عبد من عبيده يقال له « يحفور » ، وكان ابن ركاب رئيسها قد سأل ذلك فأعطيه ، فلما رأى ، ورأى أهل تيجس ان الغارات صارت تجاور بلدهم ، وتضرب فى نواحيهم ، وان المدائن كلها التي تليها قد افتتحت خافوا على نفوسهم فكاتب ابن ركاب أبا عبد الله وسأله اخراج عسكر اليه ، ليجد السبيل به من أهل الرابطة التي عندهم ، فأنفذ اليهم أبو عبد الله عسكرا قدم عليها مكداس الجميلي فنزل عليهم ،

---

1 — انظر عنها : اليعقوبي : البلدان 102 ، ابن حوقل ، صورة الارض 84 ، 87 ، البكري : المغرب 53 ، 63 الادريسي : وصف افريقية 87 وتيجس بقرب مدينة سوق اهراس ، وكانت قديما من عمل باغاية ، ومن مضارب نقزة ، وموضعها اليوم عين البرج .

فلم تجسر خيل الرابطة أن تخرج اليهم فاحتصنوا فى الحصن وهو منيع ، ولم يمكن ابن ركاب فيهم شيء ، فأقام مكداس أياما وانصرف ، ثم أرسل أبو عبد الله عسكرا ثانيا ، وقدم عليه يوسف بن سكلة الغيتمي ، فنزل على تيجس فحاصرها ، وصالحه أهلها على أن يدع العرض للرابطة التي عندهم ، وقالوا : هم أضيافنا ، ولا يمكننا أن نخيس بهم فأجابهم يوسف على ذلك ، وخرجت خيل الرابطة بجميع ما لها ، فنفذت الى زيادة الله ، لم يتعرض لأحد منهم فى قليل ولا كثير ، ودخل الأولياء تيجس صلحا ، فلم يعرضوا لأحد من أهلها بمكروه وانصرفوا ، فمضى الى أبي عبد الله ، ابن ركاب ، وجماعة من وجوهها ، فدخلوا الدعوة ، وانصرفوا الى بلدهم ، ووصلت خيل الأمان ، وشاع ذلك فى أهل افريقية ، وقد كان يشيع عندهم على أبي عبد الرابطة ، الى زيادة الله ، وأخبروا بما كان من خبرهم ، وبما وفى لهم من الله وأصحابه الغدر والقتل ، وانهم يؤمنون الناس ثم يقتلونهم ويعطونهم العهود ثم يخفرونهم فأكذب ما كان من فعلهم فى الرابطة الذين كانوا بتيجس ، ما شنع من ذلك عليهم وأخبروا بذلك من اذاعة وكانتفى ذلك عن أبي عبد الله وأصحابه عند العامة بافريقية اخبار صالحة وسكنت انفسهم اليهم ، ومالت نحوهم قلوبهم بعد أن كانت القلوب منهم نافرة لما كانوا يوصفون به عنهم واضطربت افريقية وكثر خوض الناس بها ، وتوقعوا قدوم أبي عبد الله اليهم .

النعمان : افتتاح الدعوة : ورقة 120–123 .

ملحق (3)

بيان زيادة الله الأغلبي للحد من أثر التوسع الشيعي

بسم الله الرحمن الرحيم ،

« من الأمير زيادة الله بن عبد الله الناصر لدين الله ، القائم بسنة رسول الله المجاهد لأعداء الله ، الى جماعة المسلمين ، بمدينة كذا ، وبواديها ، سلام عليكم ، فان الأمير يحمد اليكم الله الذي لا اله الا هو ، ويسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله . اما بعد فان الله تبارك وتعالى اسمه وعز وجل اله قد تكفل بالفتح والاعزاز ، لأهل دينه ، والذابين عن رسوله على من ناواهم ، والتمكين ممن انتصب لهم وعاداهم ممن شاق ، ونصب له ، وبدل دينه ، وغير سنن أنبيائه وقد انتهى اليكم معشر المؤمنين عن هذا الكافر الصنعاني ، المبدل لدين الله المحرف لكتابه المستحل دماء المسلمين ، بغير حقها ، المبيح للفروج بخلاف حلها ، مرتكب المحارم فيها ، الاكل أموالهم مستلبا لها ، ما قد عرفتموه ، فما انتهى اليكم عنه ، وأنه آوى الى كتامة بربر اغتام وجهال طغام فاستنزلهم واستهواهم ، واستقر بهم واستغواهم فدعاهم الى تبديل دين الله فأجابوه وتحريف سنة رسول الله فأطاعوه بجهلهم بالدين والسنة ، وما أراده عز وجل من الشقوة والمحنة ، ولأنهم بمنزلة الحمر النافرة والأنعام السائمة ، فما زخرف لهم قبلوه ، وما رتبه لهم اتبعوه ، وكل من كانت لهم مسكة ، أو علم شيء من الكتاب والسنة لم يجد غير الهرب الينا منه بدينه ، والمقام على حربه منتجزا وعد الله في هلاكه وقطع شافته كعادته في أمثاله ، ومن أسير ما يظهر من كفره ، وينشر من قبيح انتحاله وأمره وفشا عنه وعرف به أطبق عليه دعوة من اتبعه اظهار لمن ابي بكر وعمر صاحبي رسول الله ، صهريه وخليفتيه ، وضجيعيه ، وعثمان ذي النورين ، زوج ابنتيه وطلحة والزبير وحوارييه ، وجماعة من أخيار صحابته ، ويزعم أن عليا كان يرى ذلك فيهم ، فيذهب اليه من أمرهم ، وقد براه الله من ذلك بحسن الصحابة لهم ، وجميل العشرة أيام حياتهم ، واتفاقه معهم على ما أرضى الله عنهم ثم زعم الفاسق أن من لم يدن بذلك ويراه ويقوله ويعتقده ويتبرأ من أصحاب رسول الله السابقين ، فهو خارج من جملة المسلمين ، حلال دمه وماله وسبي ذراريه ثم سن شريعة غير شريعة الاسلام ، واستن سنة غير سنة محمد (ص) كتمها واسر امرها ، واخذ العهود والمواثيق على من أطلعه عليها في كتمانها وترك التفوه بها وما يدل عليها ، لئلا يظهر الى

المسلمين فيستحلوا جهادهم عليها ، وافترض على كل امريء دخل أمره ، دينارا سماه دينار الهجرة ودرهما زعم أنه درهم الفطرة وجعل للنفر حقا واجبا فى أموال الأمة ، وهدم المساجد وقطع الصلاة واستخف بحرمة الدين ، وبان من جماعة المسلمين ، وقد رأى الأمير زيادة الله ابن عبد الله رغبة فى ثواب الله جهاد الفاسق بنفسه ، والقصد اليه بحماه ، رجاله وانصار دولته ، وانتهاز الفرصة فيه ، قبل أن يسبق اليه خبره ، الى الأمير أن أمير المؤمنين المكتفي بالله أطال الله بقاءه ، لما انتهى اليه خبره ، أمر باخراج العسكر اليه من قبله مادة للامير زيادة الله بن عبد الله ، وتقوية له ، والامير يرجو أن يظفره الله بالفاسق من دون ذلك ويجعل له سببا للظفر به ، وفخره ، وثوابه واجده ، ويجعل ذلك ما يسره ويجمع ذكره مع فخره لأمير المؤمنين بحسن نيته ، والامير زيادة الله بن عبد الله سهم من سهامه ، وشهاب من شهبه وما اظهره الله عليه ، واظفره به فهو منسوب الى امير المؤمنين ، وسبب من سببه ، وقد انتهى الى الامير ، ما انتشر قبلكم وفشا فيكم من الاشانيع عن أقوال المرجفين ، وزخارف المشنعين ، وتهويل المهولين أمر اللعين الفاسق ، لما بلغهم انصراف الجيوش عنه ، وتغلبه على ما دنا وقرب منه ، وزاد فى ذلك المرجف والمهول ، وتشنع به الكذوب المبطل ، ولم يكن أكثر ما قالوا ، ولا بعض ما أرجفوا به وهولوه ، ولابد فى الحرب من الكرات والاقدام والهزائم والاحجام فقد قيل، الحرب سجال مرة لك ومرة عليك ، وقد انهزم أصحاب رسول الله فى غير مشهد وأحجموا فى غير موقف ، ثم كانت العاقبة للمؤمنين كما وعدهم الله فى كتابه المبين فليحسن بالله ظنكم ولتطمئن بما وعدكم قلوبكم وليظهر من قلة أكترائكم بأمر هذا الفاسق ما يكون دليلا على ثقتكم بربكم وانفروا اليه خفافا وثقالا كما امركم الله وجاهدوا بأموالكم وانفسكم كما افترض عليكم وادفعوا عن اباحة مهجكم ، وانتهاك حريمكم ولا تفتتنوا فى دينكم ، وكافحوا عنه من بدله ، وتبرؤوا ممن أحدث فيه وغيره وفقكم الله لما يحب وما يرضاه ويزدلف به اليكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

النعمان : افتتاح الدعوة ـ ورقات 123-127 .

ملحـق (4)

افتتاح مدينة الأربس ، وانهزام ابن أبي الاغلب

« ولما دخل فصل الربيع وطاب الزمان جمع أبو عبد الله العساكر ، واحتفل واستعد ، ثم زحف يريد ابن الاغلب بالارس ، فخرج من ايكجان أول جمادى الآخرة سنة ست وتسعين ومائتين ، فنزل مدينة باغاية ، وعرض من معه واحصاهم فبلغوا مائتي ألف فارس وراجل وكان زيادة الله قد حشد وبذل العطاء ، وأوعب ، وأرسل الى ابن أبي الاغلب عساكر ، فاجتمع بالارس ، من العساكر ما لا يحصي عدده الا الله . وسار أبو عبد الله من باغاية حتى انتهى الى مسكيانة ، فأخذ مع الوادي حتى خرج الى وادي مجانة ثم خرج الى مرماجنة الى وادي الرمل (1) فنزل عليه ، وأخرج خيلا الى منيولة يوم الخميس لثمان بقين من جمادى الآخرة . فانهبوا منيولة ، ثم أصبح من غد يوم الجمعة فأخرج خيلا الى سقيتارية ، فوافتها قبل منتصف النهار ، فقاتلوهم الى وقت العصر ، ثم نزلوا اليهم على الامان وأتوا برجال من وجوههم الى أبي عبد الله وكان أبو عبد الله قد أخرج ذلك اليوم جرائد الخيل فضربت جريدة منها الى بني جودان فوافتها خيل كثيرة لابن ابي الاغلب فقاتلوهم ، فأسر رجل من الكتاميين فأتوا به ابن أبي الاغلب وعنده محبوب بن عبدون ، فسأله فيه فأبى ابن أبي الاغلب الا أن يقتل فغضب ابن عبدون ، وقام عنه ، وامر ابن أبي الاغلب بقتل الرجل فقتل ، ثم أصبح أبو عبد الله يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة ، فميز العساكر وعبأها فجعل فى الميمنة بني بنطامين ، وفى الميسرة بني بيناوة ، وفى القلب ملوسة ومسالته ، وانتقى عشرة آلاف فارس من الدعاة ووجوه القبائل ، وأهل النكاية فجمعهم معه ، وزحف الى الاريس فأصاب ابن ابي الاغلب قد عبأ عساكره ، فالتحم القتال ، ووقف أبو عبد الله بالعشرة آلاف فارس على كدية مطلة على المدينة وانتشب القتال فى الفحص ، واخذ الناس بعضهم وكانت معركة عظيمة ومواقفة شديدة وقتل من الفريقين خلق كثير ، وأقام القتال بينهم من أول النهار الى وقت صلاة العصر . وكلح أصحاب ازاي ابن أبي الاغلب ولم يكن بقي بافريقية ونواحيها واطرافها من عربها وبربرها ورجال زيادة الله أحد مذكور،

---

1 ـ يقع على بعد اربعين ميلا من القيروان : البكري 149 .

الا وكان مع ابن ابي الاغلب ، فنظر ابو عبد الله اليهم قد شقوا على أصحابه واحس من اصحابه بعض الفشل وخاف عليهم الهزيمة ، فقال لمن حوله من المشائخ انتقوا من الرجالة من قدرتم عليه من خيارهم وابعثوهم يأخذون المسيلة ، مسيلة تعرف بالمغارة ، ويستقرون فيها حتى يضربوا فى الخيل فلعلهم ان يحركوهم فانتقوا من الرجالة خمسمائة وخمسة وسبعين رجلا ، من أشد من قدروا عليه ، فتعروا عراة ، واخذ كل واحد منهم رمحين ودرقة ومشوا فى تلك المسيلة . واتفق أن كان ابن أبي الاغلب قد رأى مثل ذلك الراي ، ودبر مثل ذلك التدبير واخرج رجالة من قبله فى تلك المسيلة ، فوافق بعضهم بعضا فى موضع يعرف بالغزة البيضاء على طريق الارس الى شقبنارية ، فوافق أول رجل طلع من الكتاميين لقى رجلا من أصحاب ابن ابي الاغلب ، وتناشبا بالرماح ، وحمل كل واحد منهما على صاحبه فقتل الكتامي الخارج اليه من أصحاب ابن ابي الاغلب ، وحمل أصحابه على رجالة ابن أبي الاغلب ، فانهزموا وقامت الصيحة فيهم فانهزمت عساكر ابن أبي الاغلب وداخلت خيلها رجالة أبي عبد الله ، وحملت خيله عليهم فولوا منهزمين وقصد كل قوم منهم الى جهة بلدهم ، وأخذ ابن أبي الاغلب ومن معه من رجالة زيادة الله وأهل افريقية على جبل الحراقين واخذت لواته وكزناية وملكاته على طريق (حشر مسن ؟) واخذ عامة العبيد وخلط الناس من أهل افريقية طريق القيروان ، واخذ محبوب بن عبدون مع هوارة ونفزة على بني بشير ، واتبعهم الاولياء بكل ناحية يقتلونهم ويأسرونهم ويغنمون ما معهم وقصد قوم منهم الى المدينة فقتلوا بها من وجدوه وانتهبوا ما قدروا عليه الى أن غربت الشمس ودخل الليل فانصرفوا الى مناخهم ، فناموا فيه ، وأصبح أبو عبد الله فأمر بقصد مدينة الارس ، وذلك أن أهلها أضرموا نارا وأصروا مع ابن أبي الاغلب فدخلها الاولياء بالسيف فقتلوا بها من الخلق مالا يحصى وانتهبوا ما بها ، واقاموا بها يوم الاحد وانصرف أبو عبد الله بجميع العساكر يوم الاثنين فأخذ على دقة (2) يريد الى فموده ، والناس يقولون يريد قسطيلية » .

النعمان بن حيون : افتتاح الدعوة . ورقات 146ـ149 خ مكتبة الجامعة رقم 24088 .

---

2 ـ مدينة اثرية قديمة بجمهورية تونس على بعد ثلاثة اميال ، جنوب غربي مدينة تبرسق .

ملحق (5)

ظروف سقوط الامامة الرستمية في تاهرت ، وموقف الطوائف المذهبية وتحرير المهدي وحصار بني وارقلان من خلال رواية أبي زكريا يحيى بن أبي بكر في السيرة وأخبار الائمة

خروج الحجاني (1) لعنه الله من كتامة

حدث بعضهم أن الحجاني لما وصلته رسل سيده بالكتب متواترة أن يخرج اليه بمن أطاعه من الناس وقد علا الحجاني في نفس كتامة ، وعظمت درجته عندهم ، وكان ذا علم عظيم بحساب النجوم ، وكانت حاله عندهم مرضية ، لا يأمرهم بشيء الا فعلوه وبلغنا أنه تعلم عنده من فتيان كتامة نحو من اربعمائة غلام ، قال : فمكث في ذلك الى أن قال لهم يوما من الايام ، لعامة من علمه من فتيانهم ، ليس مرادي التعليم ، وانما مرادي الملك ، قال : فأجابوه لذلك واتبعوا على قوله ، فلما تمكن أمر بالخروج الى سجلماسة واظهر لهم من نفسه أنه وجد في العلم أنه سيلي سجلماسة وانه سيغلب الامير الذي كان عليها . فخرج متوجها يريد سجلماسة . وحدث بعض أصحابه أن دوسرا بنت يوسف بن محمد بن أفلح بن عبد الوهاب رضي الله عنهم ، لما قتل أبوها وغدره بنو يقظان . خرجت متوجهة الى الحجاني مع أخ لها فلما وصلته اخبرته بقصة أبيها وما انتهك من حرمته ، فلم يشتغل بها ، فلما رأته كذلك وعدته من نفسها ان هو أخذ بثارها أن تزوجه من نفسها . ثم ان الحجاني ، أخذ في طريقه الى تاهرت . فلما كان بالقرب منها خرج اليه وجوه أهلها من المخالفين والشيعة والواصلية ومن الصفرية ، وتلقوه وشكوا اليه امارة يقظان ، ووعدوا له العون من أنفسهم على جميع الرستميين ، وامروه باستئصال شأفتهم ، وتوهين شوكتهم . فأرسل الحجاني رسله الى يقظان وبنيه أن أخرجوا الي ، فلما وصلت رسله الى يقظان خرج وبنوه ، فتلقوه على مسيرة أميال من تاهرت فلما قدموا عليه سأل الحجاني يقظان عن اسمه فقال له اسمي يقظان ، فقال له الحجاني بل اسمك حيران . فكيف قتلتم أميركم وسلبتم لانفسكم ملككم ، فأطفيتم نور الاسلام والقيتم الينا بأيديكم بغير قتال ولا حصار ؟

1 ـ يقصد به أبو عبد الله الداعي .

فامر به وبنيه فقتلوا عن آخرهم ، فلما ايقنت دوسرا بنت يوسف بقتلهم تغيبت وهربت من الحجاني مخافة ان يتزوجها وطلبها حتى عيى فلم يقدر عليها . ثم ان الحجاني دخل المدينة وانتهبها وانتهك حرمتها واجلى كثيرا من اهلها وجعل اعزة أهلها اذلة وكذلك يفعلون . وذكروا انه وجد بها صومعة مملوءة كتبا ، فاستخرجها كلها واقتنى منها كل ما يصلح للملك والحساب ، واضرم النيران فى بقيتها ، وذكر بعض أصحابنا أن يعقوب ابن أفلح لما سمع باقبال الحجاني خرج من تاهرت متوجها الى وارجلان ..

ثم ان عبيد الله انتخب من عسكره أولى القوة والعدة وانفذهم الى بمن معه من عساكره يريد عبده الحجاني والرسل تختلف بينهما بالكتب . فلما قرب التقاء العسكرين أرسل الحجاني الى عبيد الله ، أنا اذ التقينا بالغد فاخرج الي من صف العسكر ، واخرج اليك واذا التقينا نزلت وقبلت يدك . فاتفقا على ذلك ، فلما كان بالغد تراءى العسكران وتدانى بعضهم من بعض ، فخرج الحجاني الى عبيد الله من الصف فنزل عن دابته وقبل يده وركبته فتحامت لذلك كتامة . فقال لهم الحجاني : انه مولاي وسلطاني وسلطانكم ومن ذرية علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : لا نعرف لأنفسنا سلطانا سواك فقال لهم : هو سلطاني ومولاي فسمعوا له وأطاعوه فالتأم العسكران لعبيد الله .

ثم ان عبيد الله انتخب من عسكره أولي القوة والعدة وانفذهم الى وارجلان فتوجه بهم العامل ، فلما وصل الى وارجلان ، وقد سمع أهل وارجلان باقباله توجهوا الى (كريمة) وهي كدية عظيمة لا ترام فحفروا فيها مواجل للماء فملاءوها فلما وصلهم حاصرهم اشد الحصار .

السيرة واخبار الائمة
خ خ ـ ميزاب ـ ورقة 32 ـ 33
انظر خ دار الكتب رقم 9030 ح ، ميكروفيلم
رقم 1655 .

ملحـق (6)

المعز لدين الله وكتامة فى مجلس خاص

بعد أن انتهت أيام الختان (1) ، استقبل المعز لدين الله جماعة من كتامة وخاطبهم بقوله : « والله ما فوق محلكم عندي محل ، وما أحد من ولدي بأحب منكم ، الا من جعل الله الخبيئة فيه منهم ، وأن ذلك مما يوجبه ما جرى لكم معنا من صحبة الاجداد للاجداد ، وصحبة الآباء الآباء ، والابناء للابناء ، وانتم خاصتنا وبطانتنا وأحب الخلق الينا لو أعنتمونا بسمع وطاعة ، وامتثال أمر ، وان كنا لا نشك فى حسن اعتقادكم لولايتنا وصفو نياتكم لنا ، ولكن الدنيا ربما استمالت كثيرا منكم بحطامها والحمية والهوى ربما مال بكثير منكم عن أمرنا ، لاسيما ما يعتري بعضكم لبعض من الحسد والمنافسة حتى تصبروا فى مواضعكم الى الحروب والقتل وهتك الحريم ، وذلك وان يشفي به بعضكم من بعض فانه مما يغمنا وينكينا فيكم وكان الواجب عليكم أن تدعوا ما تحبونه من شفاء غيظلكم وبلوغ شهواتكم لما نحبه من حقن دمائكم وصلاح أموركم ، وبقـاء نعمة الله عليكم ثم ما تصنعونه من انفسكم لمن لم يجعل عليكم حكما ، ومن أنتم أفضل منه ممن يدعي انه يستعطفنا عليكم ويستدر احساننا اليكم ، ويتقرب بذلك اليكم ، ويمن به عليكم ، ويستطيل . والواجب عليكم وعلى جميع من أنتم بنا ، وعرف فضلنا أن يكون نظره واعتماده على أمرنا فمن قدمناه عليه ، وأمرنا باتباعه وطاعته ، وضع له خده تسليما لأمرنا وطاعة لنا ، ومن لم نرفعه ، ولم نقدمه عليه ، لم يلتفت اليه ، ولم يوجب له ما لم نوجبه ، ولم يتخذ دوننا ولائح ، فوالله ما احوجناكم الى أحد ، ولا يعلق منكم أحد علي بأني أحوجته الى أحد غيري ، ويرى أنه ينفعه ، أو يضره عندي ، حتى يتحمل له ما كان يتحمله كثير منكم لمن غضب الله عليه ولعنه (يعني اللعين قيصر) ، فيروح ويغدو اليه قبل الغدو والرواح الينا ، فكأن ذلك هو الفرض عليه ، ونحن النافلة عنده ، وما وصل اليه من فضلنا رأى انه انما وصل اليه بدوننا ، عسى أن يعطيه دوننا خيانة وسحتا يملكه به ،ويعظم له

1 ـ بدأ هذا الحدث فى شهر ربيع الاول 351 هـ . وعنه وعما صرف فى ايامه ، وانفق من اموال . انظر ، النعمان : المجالس والمسايرات 2 ، ورقة 654 وما بعدها ، المقريزي : اتعاظ الحنفا ، 1 94 . ط 1967 .

صدره ويتسع فضلنا عليه ، والله للدرهم نعطيه أحدكم فيأخذه منا بشكر لأعظم فضلا وبركة وأزكى عند الله من الدنيا بما فيها ، من غير وجهها مع ما فى ذلك من سرور الانفس وكرم الاخلاق ، وقد اتصل بنا بعض مشائخنا المستجيبين لدعاتنا أنه كان يجرى عليه من قبل داعيه فضل يصل اليه منه ، وأن بعضهم لقيه يوما فذكر له أنه عرض بذكره عند ذلك الداعي، فأمر له بشيء كان يجريه عليه فقال : وقد بلغت مبلغا لا اذكر فيه ، حتى تذكرني أنت ، لا أبقاني الله الى يوم أكون منسيا فيه عندي ، أرجوه الى أن يذكرني غيري ، فهكذا اريد أن تكون أنفسكم وهممكم بقدر مكانكم مني ومحلكم لدي ، اني أحب أن اباهي وأكاثر بكم فى الدنيا والآخرة ...

وما احب ان يأتي امثالي لقوم صالحين وآتي انا لقوم لا خير فيهم » .. فسكت القوم ورأيت (النعمان) أن ذلك قد خفض منهم ، فقلت قد وعظ امير المؤمنين عبيده وابلغ فى الموعظة ونبههم وتفضل عليهم ... فقال : انهم لو لم يكونوا عندي بمحل من نحب صلاحه ونشتهي رشده لم أقل لهم مثلما قلت ، ولولا ما أخشاه عليهم لمعرفتهم مكانهم عندي وكيف محلهم من قلبي ، ولو أشاء لعاقبت المذنب عقوبة مثله ، ولقتلت من نحن فى صلاح الدولة قتله ، وأبقيت من ينتفع فيها به ، ولكني حملت الامر على ما أوجبه الزمان لي ، وجرت به عادة الله الجميلة عندي ... ولقد سبق من آبائكم من الآباء ، وأجدادكم مع الاجداد ، من يقول للناس : انهم بسبقكم افضل منكم ، ما أقول أنا الا انكم افضل ممن تقدمكم بما فضلكم الله به فى أيامي ، ورحمتي وحياتي ، وان كان من تقدم من الآباء لم ينالوا احسانا وفضلا ، لمن كان فى عصرهم ، وان كان ما كان منهم اليهم من التأدب لما فيه صلاح جميعهم ، فلكل زمان رجال ...

فاعرفوا قدر ما من الله عليكم به ، واشكروه يزدكم من فضله . فقال بعض من حضر وكيف لنا بشكر ما أولاه أمير المؤمنين ؟ فقال : « ان الذي أولى الله عباده أجل وأعظم فأخلصوا نياتكم ، وما يريد منكم الا الاخلاص » . فقبلوا الأرض مرارا بين يديه وشكروا بما قدروا عليه ، وانصرفوا ، فخلع يومئذ على جميع من حضر المجلس خلعا رفيعة وكان يوم سرور ختم أيام الطهور .

النعمان : المجالس والمسايرات 2 ، ورقة 665 وما بعدها .

ملحـق (7)

المعز لدين الله يوجه شباب كتامة بقوله :

« أما والله لو تعلمون ما لكم ولجميع أوليائنا عندنا من الرضى والمحبة لاستفزتكم المسرة وما نعرض عمن نعرضه منكم ، ونعاقب من نعاقبه ، الا تأديبا وتقويما ، لكي يزدادوا من الفضل والخير ، ولو علم آباؤكم ومن مضى من أسلافكم قبل أن تموتوا ما لحقهم فيكم من بعدهم لتمنوا الموت فى أيام حياتهم لما تطيب به انفسهم لكم من بعدهم ، اذ كانوا فى دون ما أنتم فيه فى أيامنا ، وان كان الائمة لم يتركوا فى الاحسان اليهم ، فلم يبلغوا معهم ما بلغتم انتم معنا ، ولكل زمان حال توجبها الحكمة ، وتجري فيها بالعقوبة والرحمة انا والله ان قتلناكم فما نريد بكم الا الحياة الدائمة اذ أوجب تطهيركم بالقتل فى العاجلة وان عاقبناكم بدون ذلك فما نعاقبكم حنقا عليكم ولا مقتا وبغضا لكم ، ولكنا نفعل ذلك بأيدينا تطهير لكم ، وان عفونا عنكم ، وأحسنا اليكم ، فنحن أهل العفو والاحسان ، فأنتم والله معنا فى كل الاحوال وعلى جميع الأمور كيفما تصرفتم ، وجرى تدبيرنا فيكم على سبيل نجاة وخير وسلامة وغبطة ، فاعرفوا حقنا وفضلنا وسلموا لحكمنا وأمرنا ، ولا ترتابوا فينا ولا تشكوا فيما نأتيه ونذره من أمركم كيفما جرت الاحوال بكم معنا تسلم صدوركم وتظفروا بحظكم فى دنياكم وآخرتكم .. فشكروا له بما قدروا عليه ، وقبلوا الارض بين يديه وقالوا : نحن يا أمير المؤمنين عبيدك وصنائعك والمعترفون بفضلك فما أصبناه بتقويمك وتأديبك وما أخطأنا فيه فنحن نرجو فيه رأفتك ورحمتك فقال (عم) يعصمكم الله من الخطأ بتأدبينا وتقويمنا ، اذ لا نرى لأحد منكم زلة الا نبهناه ، ولا غفلة الا أيقظناه ولا تخلفا الا حركناه ، ولا تقصيرا الا وعظناه فليس يهلك مع هذا الا الشقي الذي غلبت عليه شقوته ، والله يعيذكم من الشقوة بولايتنا وجميل رأينا فيكم ان شاء الله تعالى » .

النعمان : المجالس والمسايرات 2 ، ورقة 584 وما بعدها .

ملحــق (8)

اخلاص شباب كتامة وشيوخها كما عبر عنه المعز لدين الله

« والله ما يتخالجني الشك فى اعتقاد صغيركم وكبيركم وحرمكم وعبدكم وذكركم وأنثاكم ولا يتناول اجتماع قلوبكم على محبتنا على ذلك ، نشأ صغيركم وعليه كبيركم قال أحدهم والله لو قد يسمع مولانا ما يلفظ به نساؤنا وعبيدنا وصبياننا من القول بولايته والمحبة له ونشر فضله لعلم أنهم على ما ذكره فيهم ، فقال المعز :

منا الحظ الأوفر فى المحبة لهم ، والاشفاق عليهم ، والمودة لصغيرهم وكبيرهم وما لم يكن لهم مثله من أحد من أبائنا مع ما وهب الله لهم فى أيامنا من المعز والأمن والسعة والسلطان وعلو الكلمة ما لو ادركه من مضى من اسلافهم ، ثم أمرناهم أن يلجوا النار بين أيدينا لولجوها ، فرد أحدهم : « انا لنقول ذلك ، ونتمنى لمن مات من آبائنا واخواننا أن لو مد فى أعمارهم حتى يكونوا بلغوا هذه الايام وأروا هذه النعم وشملهم هذا الفضل ، لقد كان مما يزيد فى بصائرهم وتعظم به نعم الله عليهم على أنا لا نرى بمن بقى منهم تقصيرا فى الولاية والطاعة .. فرد المعز : « لا والحمد لله ما بهم فى ذلك تقصير ، وانهم فى الثبات لعلى أفضل حال ممن مضى من سلفهم ولكنهم ربما ارادوا رضانا بالشيء فأخطؤه وربما تعلقوا بمن دوننا ليجعلوا ذلك وسيلة الينا ، لا والله ما جعلنا لأحد عليهم فى ذلك من سبيل ، ومن مثل هذا دخل ما دخل على من مضى من أسلافهم .

النعمان : المجالس والمسايرات I ، ورقة 154 وما بعدها .

ملحـــق (9)

ثناء المعز لدين الله على كتامة لميزات خاصة بهم

« هؤلاء اولياؤنا وخالصتنا ، هؤلاء حزبنا وزمرتنا ، هؤلاء أتباعنا وعمدتنا هؤلاء خاصتنا واهل مودتنا ، هؤلاء الذين يكونون فى الجنة معنا ، كما كانوا معنا فى الدنيا ، ما أسرني بهم ، وأبهجني برؤيتهم ، وأحسن فى عيني منظرهم، اني لأرى جماعتهم ، وكانهم عندي صورة واحدة قد تساووا فى الجمال الهيبة والبهجة حتى اذا خالطوا الناس من غيرهم ، فالواحد منهم متى رأيته بين الجماعة من غيرهم كان عندي كالعلم السني ، والسراج المضيء ، أما اني لأقول فى نفس كثيرا ، اذا رأيت ذلك منهم أن ذلك لفرط محبتي لهم ، فلذلك اراهم كذلك ، فقبلوا الأرض بين يديه وقالوا : « يقول مولانا ما يقوله بفضله علينا ، فأما نحن فى موالاتنا اياه ، ومحبتنا له فلانفسنا سعينا ، ورضى ربنا بذلك أردنا ، وما ذلك منا بالتكلف ، ولا بشيء نكره أنفسنا عليه ولا نرى عليه مشقة ، ولا كلفة فيه ، وما ذلك فينا دون بنينا وخدمنا وعبيدنا ، والله ما يحلف أطفالنا وخدمنا الا بحق مولانا وفضله ، ولا على ألسنتهم ولا لهم غيره ، ولا يعرفون لهم مولى سواه وما نشأ منا ومنهم من نشأ الا على ذلك وعليه يموت ان شاء الله والله لقد حاز العدو أيام الفتنة من حاز ، وأمن النساء والأطفال ، ولقد كانت وصاياهم وكتبهم تأتينا يأمروننا بالصبر مع ولي الله ، وان لا نعطي لمكانهم الدنية لأعداء الله ، فصبروا على السراء والضراء ، والسبي والأسر حتى أظهرنا الله تعالى بوليه واستنقذناهم قسرا بحول الله وقوته » .

النعمان : المجالس والمسايرات 1 ، ورقة 150 وما بعدها .

ملحــق (10)

المعز لدين الله وتطور الدعوة الاسماعيلية فى شبــه جزيرة الأندلس

من خلال « وثيقة الأتهام » التي تضمنت صورا من شهادة جمهور غفير ، ضد أشهر دعاة الاسماعيلية فى قرطبة . وهو أبو الخير ، تتجلى حقيقــة الصراع المذهبي الحاد بين الاسماعيلية وطبقة الفقهاء المالكيــة والصراع السياسي بين الخلافتين الفاطمية والأموية فى عهدي المعز لدين الله والحكم المستنصر الاموي . وقد روي ابو الأصبغ عيسى ابن سهل بن عبد الله الأسدي (1) (ت 486 هـ / 1093 م) فى « الاعلام بنوازل الاحكام » قصة مواجهة أبي الخير بأقواله التي ادت الى قتله وصلبه على النحو الآتي :

« شهد عنه قاسم بن محمد صاحب أحكام الشرطة بقرطبة ، وقاضي كورة استحله وقبره محمد بن عبد الله التجيني أنه سمع أبا الخير يسب أصحاب النبي (ص) أبا بكر ، وعمر ، وغيرهما وسمعه أيضا يقول : أن عليا بن أبي طالب كان أحق بالنبوة من محمد النبي (ص) ويرى الخروج على الائمة رضي الله عنهم وسمعه أيضا يقول : ان الخمر حلال ، وانه أتاه الى السوق فقال له محمد بن عبد الله : ان السلطان ظل الله فى الأرض ، يأوي اليه كل مظلوم وقال أبو الخير : ما كان أملي من الدنيا الا خمسة آلاف فارس أدخل بهم الزهراء وأقتل من بها وأقوم بدعوة أبي تميم ، وكذلك يكون ، فقال له محمد بن عبد الله : ليس انت من الاسلام فى شيء ، لأن النبي (ص) يقول : من اظهر علينا السلاح ، فليس منا ودفعه عن نفسه .

وشهد محمد بن أيوب بن سليمان بن ربيع أنه سمع أبا الخير يقول: الناس كالعشب رطب ويابس ، ثم لا حساب عليهم ولا عقاب ، فقال له محمد بن ايوب: فأين قول الله عز وجل؟ فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون،وقوله تعالى : فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير ، فقال له أبو الخير : بعض

---

1 ـ من فقهاء المالكية المحققين ، ولي خطة الكتابة للقاضي ابي زيد الحشا فى طليطلة ، ثم لابي بكر بن منظور فى قرطبة التي ولى فيها خطة الشوري ، فترة ثم تقلب بين قضاء العدوة ، وغرناطة ، وبها توفي معزولا سنة 486 هـ ـ 1093 م . انظر ابن بشكوال الصلة ، 2 ، 415 ، ترجمة رقم 942 ، وقد غدا كتابه « الاحكام الكبرى » مصدرا اعتمد عليه الونشريسي فى كتابيه الولايات ، والمعيار المعرب انظر :
Lévi Provençal : Op. Cit., T. III p. 116 n° 2.

القرآن خرافة ، وبعضه لا شيء وانما الصيف يضم الناس الى الاقرار بهذا ، وسمعه يطعن على أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، ويطعن فى خلافة امير المؤمنين الحكم أعزه ويقول : لو كانت تسعة أسياف لكنت العاشر وعدد عليه شرب الخمر فقال له أبو الخير : هو أجل من الماء للشرب والطهور .

وشهد حسان بن محل انه سمع أبا الخير يقول : الخمر حلال فى كتاب الله عز وجل ، ويحتج بقوله « تتخذون منه سكرا ، ورزقا حسنا » فمن قال غير هذا فهو كاذب ، ويعرفه تاركا للصلوات الخمس فى المساجد ، وتاركا لحضور الجمعة ، وشاربا للخمر محللا لها وسمعه أيضا يقول فى الملائكة انهم بنات الله .

وشهد علي بن عبد الله الحجري انه سأل أبا الخير عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فقال دعها فعليها لعنة الله ، لقد كانت من شدة احتراقها وافضح اقبح من هذا القول فيها وفى رسول الله ، حتى يصلي الصبح فى الضحى ، واجتمع به فى مقبرة معه فقال له شهدت علي قال نعم فقال له أبو الخير مستهينا بشهادته وشهادة من شهد عليه : اسمع ما أشهدك به على نفسي اني أزني والوط ، وأشرب واسمع العود ثم قال له وقفني على هذه متى أحببت فاني أخذت بهذا عن نفسي كما أخبرتك .

وشهد أحمد بن سعيد بن بشر الأموي انه يعرف أبا الخير هذا من أهل الطعن على السنن واهلها كادسا فيها ، لا يرى امامة أحد من ائمة المسلمين هازلا بكتاب الله عز وجل طاعنا فيه .

وشهد سليمان بن منبه انه يعرف أبا الخير من اهل المروق والتهتر فى الدين وسمعه يقول : لله درقرش عفر هذه الوجوه المنتنة بابلتراب، وسمعه أيضا يمدح الخمر ويقول : « لقد ظلم محمد فى تحريمها ولقد أحل أشياء كانت الخمر خيرا منها » .

وسمعه محمد بن عمر بن محمد بن عذرة فى انصرافه من تشييع خال له خرج الى الحج ولقيه ببلاط مغيث وسأله من أين اقباله فأعلمه فقال أبو الخير : ما أحمق الذين يتعبون أبدانهم ويخرقون ثيابهم ويقصدون حجارة صمـاء ! !.

وشهد مسعود بن عمر بن خيار الانصاري انه سمع أبا الخير والناس يصلون وهو يقول : القوم يرفعون أستاهم ويخفضون رؤوسهم .. وسمعه يتأول حديث النبي فى السواك يقول : فى هذا الحديث معنيان أحدهما ظاهر والآخر باطن ، فأما الظاهر فهو سواك الفم والثاني فيمـا أستر الله يعني الفاحشـة .

وشهد محمد بن يحيى الحضرمي انه سمع أبا الخير يقول فى النبي (ص) أن عليا كان أحق بالنبوة منه وأن محمدا غصبه اياها وأن محاربة بني أمية احق من محاربة الشرك .

وشهد عبد الله بن بشر القشيري ، انه سمع أبا الخير هذا وهو يتكلم مع نصراني فى لحم الخنزير ويسأل النصراني ان يأتيه به فقال وكيف تأكله ؟ فقال له أبو الخير : لست على دين محمد ولا أعتقده وسمعه سمى الجامع دار البقر ويحل الخمر .

وشهد اصبغ بن عيسى العيني انه سمع أبا الخير هذا يقول : لو استطعت أن أقلع الكعبة وأترك المسلمين بلا قبلة لفعلت .

وشهد محمد بن أحمد بن الحداد القروي انه يعرف أبا الخير هذا مستهزئا بديانة الاسلام ، يزري على سلف هذه الأمة وخلفهم ويقول ليس فى جملة الصحابة الا ستة : عليا وعمارا ، والمقداد ، وانسيت الثلاثة وغيرهم على ضلال ، وانهم أرتدوا وعادوا كفارا ، وجميع من تبعهم من جملة المسلمين هم معهم على ضلال وباطل ورايت له كتابا جاوز فيه حدود الاسلام الى معاني التعطيل ، وذاكرته ما بلغني عنه من ذلك ، وأشباهه فاقر بجميعه ، ثم اظهر بعد ذلك النسك فى أطمار صوف يطلب الصدقة ، ولم يمض به عام أو نحوه حتى اتصل بي عنه شرب الخمر ، والبهتان العظيم ، والنفاق ، وافعال الفساق فأجتمعت به فى طريق فقلت له يا أبا الخير ، ما هذا الذي أنت فيه ويلغني عنك ؟ أين التوبة ؟ وما كنت تظهر من الزهد والتوبة فقال : انما تبت تقية وخوفا ، ولو امنت لناظرت على أكثر مما كنت قلت ولأتممت الحجة فى ذلك فقلت له ليست هذه ديانة ، ولا فعل من يؤمن ببعث ولا حساب ، فقال لي هذه الاخبار الباردة ، وهذا المحال أخرجك من بلدك فقلت له أخرجني الهروب ، من الكفر وطلب السنن من أهل السنة فقال لي : الذين خرجت عنهم كانوا أهل الحق والسنة ، لا الذين أنت معهم لأن أولئك أهل السبت ، ولا ينجيك الفرار منهم .

وشهد عبد الرحمن بن سعيد الانصاري انه سمع أبا الخير يسب أبا بكر وعمر وأصحابهما وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ويرميها بالبهتان ، ولما قدم عبد الرحمن بن سعيد هذا من المشرق سأله أبو الخير من اكثر بالمشرق العلوية ، أو العثمانية ، أو البكرية ، فقال له لقد ظهر الآن العلويون فقال له أبو الخير : هذا الحق ، كأنك ترى الالوية خارجة من داري .

وشهد أبو حفص الرعيني انه سمع أبا الخير يقول لو كانت تسعة أسياف لكان سيفي العاشر ثم أضع سيفي من باب القنطرة فلا تبقي أحدا .

وشهد يوسف بن سليمان بن داوود الأموي انه يعرف ابا الخير هذا وضع كتابا رد فيه على أهل السنة ، يعلنها فى كتابه وأقر عنده بالكتاب .

وشهد أصبغ بن عبد العزيز انه اجتمع بأبي الخير هذا فى سبته فسمعه يقول بانكار الشفاعة وتخليد المذنبين من الموحدين فى النار .

وشهد عبد الله بن حرب الله السكسكي انه يعرف ابا الخير هذا بشنتمرين، وسمع رجلا استفتاه فى جارية عنده رهينة ان كان يحل له وطؤها . فقال وطؤها حلال فكذبته .

وشهد معاوية بن مسلمة السبائي انه سمع أبا الخير هذا يقول بمذاهب المشارقة عليهم لعنة الله وغضبه ويذهب مذهبهم وان الملحد الشيعي أمير المؤمنين وفخر عليه ان جراية الشيعي عليه وعلى اصحابه جارية .

وشهد رشيد بن بخت انه سمع ابا الخير هذا فى بعض المجالس وقد دارت بينهما مناظرة فقال له أبو الخير اين تلتزم فى السوق ، وما هو متجرك ، فذكر له رشيد موضعه ومتجره فقال له أبو الخير : للسلطان اليكم سبيل فقال له رشيد : بلى فقال له أبو الخير : انت ممن يقرأ القرآن فقال له بلى فقال له / الم تسمع الله تعالى يقول : ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار فرضيت بأن تكون من أهل النار ، فرد عليه رشيد فى ذلك بما استطاع من الرد فقال له أبو الخير : ليس هو من الائمة الذين تحق امامتهم ولا معاملتهم ولو استطعت محاربتهم لجاهرتهم وكان جهادهم عندي افضل من جهاد العدو وكذلك فقهاء هذا الزمان بهذه الصفة عندي .

وشهد بدر مولي أحمد بن خيار انه سمع ابا الخير اذا خرج من الطبق ، يقول وقد سمع صباح صبيان ، ما كنت اشتهي الا أن أخرج بسيفي هذا ، السيف كان معه ، فأقتلهم صغارهم وكبارهم الى باب القنطرة وترجع بدر على ما كان من جوهر من أهل فاس ، فقال أبو الخير أما تقرأ القرآن : « اذا جاء نصر الله والفتح » فهذا نصر الله قد جاء الى المغرب ، والفتح يأتي بعده .

وشهد عبد الله بن عمران انه سمع أبا الخير يحل الخمر ، وقال لقاسم بن محمد ، صاحب الشرطة ، اسحاق بن منذر بن السليم « تثبت من آثار ابي الخير هذا فانه أبو الشر ، فاتق الله فيه وأنا شريكك فى ترابه ، وان شئت ان تفردني بالثواب فافعل ، فاني أتولى صلبه بيدي « واثمه فى عنقي ». وكانت شهادة جميع الشهود المسمين فى هذا الكتاب على عين أبي الخير وبمحضره ، وعرفوه حين شهدوا عليه بما ذكر عنهم من شهادتهم فى هذا الكتاب ، فقبل صاحب الشرطة شهادة ثمانية عشر شاهدا من هؤلاء واجازها لمعرفته بهم ... فقال الفقهاء قاضي الجماعة منذر بن سعيد واسحاق بن

ابراهيم وصاحب صلاة الجماعة أحمد بن مطرف وغيرهم ، نرى والله الموفق للصواب أنه ملحد كافر قد وجب قتله بدون ما ثبت اليه ، من أن يعذر اليه فيمن قبلت شهادته بعد أن نهي ذلك الى امير المؤمنين أعزه الله ، وأشار عليه بعض من حضر من أهل العلم بأن يعذر اليه في ذلك فأخذ الناظر في أمره « قاسم بن محمد » يقول : من رأى أن يقتل بغير اعذار اليه ، اذ كان ذلك رأيه أيضا ومذهبه منه وأنهى قاسم بن محمد الى أمير المؤمنين « الحكم المستنصر » أعزه الله جميع ما نظر به من ذلك فرأى أمير المؤمنين أصلحه الله : أن الحق والصواب في قول من أشار بقتله بلا أعذار لما استفاض من الحاد هذا الملحد ، وانتشار ذلك عنه ، فأمضى ذلك فيه ، وأمر بصلبه غضبا لله عز وجل ولكتابه العزيز ولرسوله (صلى الله عليه وسلم) ليكون تشديدا لمن ذهب الى مذاهبه أو ثبت عليه سبب من أسبابه التي ثبتت على أبي الشر هذا لعنه الله ، وكتب أمير المؤمنين أعزه الله الى الوزير (عيسى بن فطيس) كتابا :

بسم الله الرحمن الرحيم ، يؤخذ برأي القاضي واسحاق ، وصاحب الصلاة ، فجازاهم الله عن الدين والذب عن السنة خيرا . وقد صرفت الوثيقة لتكون في البيت ورأيت هذا الأمر قد كثر وكان ممنوعا مطروحا فتقدم الى القاضي والحكام بالأخذ على ايدي الناس في هذا فمن خالف مذهب مالك بن أنس رحمه الله بالفتوى أو غيرها ، وبلغني خبره أنزلت به من النكال ما يستحق ، وجعلته سدادا ، وقد اختبرت فيما رأيت في الكتب أن مذهب مالك وأصحابه أفضل المذاهب ولم أر في أصحابه ولا فيمن تقلد مذهبه غير السنة والجماعة فليتمسك بهذا ففيه النجاة . ولما نفذ عهد أمير المؤمنين بصلب أبي الشر هذا ، ظهر من سرور العامة والخاصة بذلك ما لم يظهر فيهم الا يوم أصبحوا الى خلافته أعلاها الله .

الاعلام بنوازل الاحكام ، وفقر من سير القضاة والحكام ، ويعرف أيضا بالأحكام الكبرى . خ خ . مكتبة حسن حسني عبد الوهاب .

انظر عنه حوليات الجامعة التونسية عدد 1 ، 1964 م ص 61 وما بعدها . ويوجد المخطوط في المكتبة العامة بالجزائر تحت رقم 1332 .

ملحق (11)

يشير النعمان بن محمد الى وصول سفير امبراطور الروم واقتراحه مبدا اقرار الهدنة المؤيدة على اساس الجزية على أهل قلورية والى رفض المعز لدين الله لذلك ، على اسس دينية واضحة بقوله :

« وقدم اليه (ص — ع) بطريق من بطارقة الروم واشرفهم رسولا عن طاغيتهم صاحب القسطنطينية بما أوجبه على نفسه ، من مغرم الجزية عن أرض قلورية ، كما يبعث ذلك لكل سنة ، وجاء منه بهدايا كثيرة ، من آنية الذهب والفضة مرصعة بالجوهر ، وديباج ، وحرير ، وبرذون ، وغير ذلك من نفيس ما عندهم ، وبكتاب من مرسله، يخضع فيه اليه، ويرغب ويسأل، ويطلب الكف عن حربه ويسأل الموادعة وبعث بعدد كثير من اسارى أهل المشرق ، ما لم يكن قط قبل ذلك طاغية الروم بعث بمثلهم ، الى ملك من ملوك المغرب ولا الى احد من مضى من الائمة قبل المعز ، ولا أن طاغية الروم يؤدي خراجا ولا جزية عن أحد من أهل ملته الى غيره ، فقبل ذلك الرسول الارض مرارا بين يدي المعز ، ومثل قائما بين يديه فأدى اليه رسالة مرسلة، ودفع اليه كتابه واستأذنه فى ادخال هديته ، وذلك بعد أن وصل مال الجزية ، الى عامل صقلية ، على الرسم المقدم الجاري ، فأذن له امير المؤمنين فى ادخالها ، واسعفه بقبولها ، وكان اكثر ما ادى اليه الرسول عن طاغية الروم وما جا فى كتابه اليه سؤاله الهدنة مؤبدة على ما أجراه من الخراج والجزية على أهل قلورية وبأن رسولا من قبله ، ليسر بذلك ، ويفعل فيه ما يجب على مثله لمحبته بزعمه وميله فأجاب المعز رسوله عن ذلك . بأن الدين والشريعة يمنعان من الذي سأله من الهدنة المؤبدة ، لأن الله انما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم وأقام الأئمة من ولده ، يدعون الى دينه ، ويجاهدون من خالفه حتى يدخلوا فيه و « يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » داخلون فى حكم أمام أهل الاسلام وذمته ، وان الموادعة انما تجوز لمدة معلومة ، على ما يراه امام المسلمين ، صلاحا لهم وللدين ولو كانت مؤبدة لبطل الجهاد المفروض على العباد ، وانقطعت دعوة الاسلام وخولف حكم الكتاب ، وعرفه أنه مما ينهض لمثل من كان فى محل ملكه الذي ارسله الا يغيب عنه مثل هذا من شريعة من يخاطبه ، ويكاتبه ، والا يسأل ما لا توجبه الشريعة ، لما سأله فاعترف العلج بذلك على

مرسله ، وسال الزيادة فى مدة الهدنة عنه له ، فقال المعز : جواب هذا فى كتابنا المقدم معك ، قبل اليوم اليه ، انه ما دام على ما شرطناه عليه ، واوجبه لنا على نفسه لم نبداه ... حتى ننبذ اليه عهده ، أو بعد أن تنقضى مدة الموادعة ، بيننا وبينه لا نخفر ولا نغدر ، كما تخفرون أنتم ، وتغدرون ، وعدد عليه اشياء من ذلك فعلوها ، فاعتذر منها من ملكه ، بأن ذلك لم يكن من فعله وانه انكره وطالب من فعله فقال له المعز : فاذا كان الامر على ما تصفه من ملكك انه يغلب على امره ويعجز عمن خالفه وغلب عليه من أهل ملته فأي فائدة فى موادعته ، اذا كان عاجزا مغلوبا ؟ ولكن هل لك وله فى أن أعقد له ما يتفق معه على ما عقده على من يرى أنه فى غير مملكتي ممن يقابله من جهة المشرق كابن حمدان وغيره ، فان خرجوا عما أعقده عليهم ، فلا عقد بيني وبينه ، فأما من حوته مملكتي وحدود طاعتي فقد علم وعلمت أنهم أقدر على أهل دينه ومملكته وبلده لو ارادوا الخفر والغدر كابن حمدان ، فهل بلغه أو بلغك أن أحدا منهم تصدى لي فيما جعلته له أمرا ، وخالف شيئا منه ، فجعل العاج يعترف بذلك ، وبالفضل لولي الله ، ويسأل ويرغب اليه ، فاعرض المعز عن جوابه عن ذلك ، وجعل يسأله عن كيفية الحال بينهم وبين اهل طرسوس ، وابن حمدان فى حروبهم ومعاملتهم اياهم ، فى حديث اطاله . وكل ذلك والعلج يجيبه عما يسأله من ذلك عنه فنظر بعض من فى المجلس الى بعضهم كمن لا يدري ما معنى السؤال عن ذلك . والمفارقة فيه ؟ . ثم عاود العلج فى سؤال رسول يرسله الى الملك ، وذكر له تواتر رسوله عليه وعلى آبائه ، من أفضى الله بالامر اليهم وانه لم يمض رسول منه ، ولا منهم اليه . فقال المعز : ان احدا من الناس لا يرسل رسولا الى أحد الا لحاجة له اليه ، أو لأمر يجب له عليه ، ونحن نحمد الله فلا نعلم أن لنا الى صاحبك من حاجة ولا له علينا امر واجب ، فلماذا ترسل اليه ، اللهم الا أن يكون امر من امور الدين ينبغي لنا مراسلة ومفاوضة فيه وهو من المباح فى دينه ولكن نظن انه يكبر عليه ، فان نحن أرسلنا فيه اليه فعلمت انه يجيبنا فيه سهل عليه أن يرسل اليه رسولا كما سأل وسألت عنه ، فلولا أن ذلك لله ولدينه لم نفعل ذلك له ولا ينبغي لنا أن نفعله الا بعد أن يتحقق عندنا انه يجيب عليه ، لانا لا نرى أن نسال أمرا ، وان كان لوجه الله فنجيبه فيه ، ولأن ذلك لو كان لكانت سوء عاقبته عليه ونحن لا نلزمك الجواب فى ذلك عنه والقطع فيه عليه ، ان ذلك مما لا يلزمك ولا ينبغي لك ، ولكن تأمر ؟ بذكر ما نريد ذكره لك وتنصرف وتقف على ذلك منه ، فاذا علمت منه بالحقيقة انه يجيب اليه عرفتنا ذلك عنه فيسهل علينا أن نرسل اليه ولو كان ذلك فيما حوته الدنيا بحذافيرها او اشتملت عليه بأقطارها لما سهل علينا أن نرسل فيه رسولا من قبلنا ، ولكنه لما كان لوجه الله وابتغاء ثوابه سهل علينا ووجب لدينا ، فاستعظم العلج القول فى ذلك ، واقبل على أمير المؤمنين بالمدح والشكر حتى خرج فى قوله ذلك الى الكفر والتشبيه الذي

يعتقده ، فرد ذلك المعز عليه وتواضع لله كما يجب أن يتواضع له ، وعرفه ذلك ليعلم أنه لم يرضه من قوله ، وان كان عند نفسه انما قصد به تعظيمه ، ورأى أن ذلك مما يجوز عنده ، ثم أمره بالانصراف الى المكان الذي انزله فيه ، فانصرف ثم عطف على من كان فى المجلس كأنه اطلع على ما كان فى قلوبهم فقال : لعل بعضكم أنكر ما أطلنا بسؤاله عنه عن أمرهم مع أهل المشرق ولم نرد بذلك منه الحديث والمذاكرة ولكني علمت أنه رسول قد لقن ما يقول واوقف عليه وعلى ما يجيب فيه فلعل من أرسله علم أنه سيسأل عنه ، فأتيناه من مكان نعلم أنه لم يتقدم اليه فيه ، ولم يعلم مرسله انه يسأل عنه ، حتى أخذنا من قبله ما تقوم به حجتنا عليه من وجه كذا ، ووجه كذا ، وعدد وجوها كثيرة مما سمعناه جرى بينهما لم ندر أن فى ذلك حجة حتى ذكره فاذا فيه حجة وكيدة .

النعمان : المجالس والمسايرات 244،1 ـ 254 .

ملحق (12)

الحاكم بأمر الله والقرامطة

تتضمن رسائل حمزة صيغة لرسالتي تهديد احداهما : وجهها زعيم القرامطة الى الحاكم بأمر الله والثانية تمثل رد الحاكم بأمر الله على أمير القرامطة :

ونص رسالة القرمطي : (1)

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد

فقد وصلنا بالترك الخراسانية والخيل العربية والسيوف الهندية والدروع الداوودية ، والدرق التبتية ، والرماح الخطية ، وقد خف الركاب ، فتسام البلد ، وتكون آمنا على النفس والمال والأهل والولد والسلام .

وكان رد الحاكم عليه :

أما ما ذكرته من خفة ركابك ، فذلك من قلة صوابك ، وذلك لأمر مختوم في كتاب معلوم ، لأننا قد نظرنا في الكتاب المكنون ، والعلم المخزون ، أن أرضنا هذه لأجسادكم أجداث وأموالكم وأماكنكم لنا ميراث فيجب أن تعلم أن قد أحاط بك البلاء ؛ ونزل بك الفناء فما أنت جئت بل الله جاء بك ، ليظهر معجزة فيك ، وفي أصحابك ، وأنا حامد الله على ما منحني من

---

1 ـ نص الرسالة كما جاء في مخطوطي تونس ودار الكتب مطابق لما نقله دي ساسي عن مخطوط المكتبة الاهلية في باريس في كتابه « الانيس المفيد » . وقد ناقش عبد المنعم ماجد قضية « رسائل الدعاة » فاثبت أنها ملفقة ، ومدسوسة لاعتبارات منها ، تنافر المعنى واختلاف اشكال الحبر الذي كتب به المتن والهامش ، وتحمل بعض الرسائل تواريخ متاخرة عن وفاة حمزة الهادي ، فضلا عن ان بعضها كتبه بعض الدروز الذي تحول الى المسيحية ، وما قيل حول مضمون هذه الرسائل من طرف مؤرخي السنة لا يعتد به لمظنة الهوى . انظر الحاكم بامر الله الخليفة المفتري عليه 122 وما بعدها .

اخذكم على مضي ثمان ساعات من نهار يوم الاثنين ، حتى لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار . والسلام على من اتبع الهدى وخشي عواقب الردى ، وخاف الله في الآخرة والاولى وهو حسبنا وكفى واليه يشير كل من دعا .

انظر : سجلات موحدية . خ تونس رقم 8289 (ورقة 23–24) لم من كتاب الدروز 2 ، 81–82 ، وقد نشره دي ساسي ضمن « كتاب الأنيس المفيد للطالب المستفيد وجامع الشذور من منظوم ومنثور » ، رسائل الحاكم .. « عقيدة الدروز » ورقة 9 ــ 11 ، خ دار الكتب رقم 133 ــ الكلام والنحل الاسلامية .



المصادر والمراجع

أ ـ مخطـــوطـــات

ـ أحمد بابا الارواني ـ السوداني :

السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تمبكتو البهية : مخطوط خاص أطلعت عليه في دائرة الطباعة والنشر بالشركة الوطنيـــة بالجزائر (S.N.E.D.)

ـ الاسحاقي ـ محمد بن عبد المعطي بن ابي الفتح المنوفى ت . بعـــد 1033 هـ ـ 1623 :

لطائف اخبار الأول فيمن تصرف في مصر من ارباب الدول . خ دار الكتب رقم 2269 وبالمكتبة الأهلية باريس رقم 1839 وبمعهـــد المخطوطات بالجامعة العربية رقم 1949 .

ـ ابن الانبيري ـ ت . بعد 1277 هـ ـ 1860 م :

علاج السفينة في بحر قسنطينة . خ . بمكتبة بلدية قسنطينـــة ، وتوجد منه نسخة عند ابى القاسم سعد الله في جامعة الجزائر ، وهي التي اعتمدت عليها .

ـ الباجي المسعودي ـ أبو عبد الله محمد .ت. 1297 هـ ـ 1879 ـ 1880 م :

الخلاصة النقية في امراء افريقية . خ . بمكتبة العطارين ـ تونس تحت رقمي 459 ـ 16041 .

ـ لمجهـــول :

برنامج فيما بمدينة سوسة من الجوامع والاولياء والمعاصر والديار . خ . حسن حسني عبد الوهاب ، وقد آل الى مكتبة العطارين بتونس ويوجد تحت رقم 18669 .

ـ ابن الجوزي ـ شمس الدين ابو المظفر يوسف غيزاوغلي التركي الهيبرتي المعروف بسبط ابن الجوزي ـ ت. 654 هـ ـ 1257 م :

مرآة الزمان في تاريخ الاعيان : خ . دار الكتب المصرية رقم 551 ، وقد استشرت الجزئين : 11،12 منه .

ـ الجودي محمد :

قضاة القيروان : مخطوط مصور على الورق بمكتبة العطارين تونس رقم 18397 .

ـ حمزة بن علي ـ (وآخرون) ت 411 . هـ ـ 1020 م :

سجلات موحدية . خ ـ بمكتبة حسن حسني عبد الوهاب ، وآل الى المكتبة الوطنية (العطارين) . تونس رقم 18289 ونظيره يوجد فى دار الكتب المصرية بعنوان (رسائل الحاكم و « عقيدة الدروز ») تحت ارقام مختلفة منها 20 علم كلام الشيعة . و 133 الكلام والنحل الاسلامية .

ـ الدرجيني ـ أبو العباس أحمد بن سعيد ت . بعد 650 هـ ـ 1252 م:

طبقات المشائخ . خ بمكتبة العطارين تونس رقم 2524 ويوجد بميزاب وغيرها وقد رجعت الى نسخة تونس ثم نسخة خاصة على ملك أحد بني ميزاب .

ـ الذهبي ـ شمس الدين محمد بن احمد ت 748 هـ ـ 1347 م :

تاريخ الاسلام : مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 396 تاريخ . وقد رجعت الى الجزء الثالث منه ، ويتناول الأحداث ما بين (350 ـ 500) هـ .

ـ ابو زكرياء ـ يحي بن ابي بكر الورجلاني ق 5 هـ ـ 11 م :

كتاب السيرة واخبار الائمة . خ بميزاب ، ويوجد فى دار الكتب تحت رقم 9030 ح ميكروفيلم رقم 1655 ـ وقد ترجم الى الفرنسية على يد مسكراى ثم لوتورنو ، وهادي روجو ادريس فى المجلة الافريقية .

ـ السلمي ـ يوسف بن علي :

عقد الدرر فى اخبار الامام المنتظر . مخطوط بمكتبة حسن حسني عبد الوهاب وآل الى المكتبة الوطنية تونس رقم 16050 .

ـ ابن سهل ـ ابو الأصبغ عيسي ت 486 هـ ـ 1093 م :

الاعلام بنوازل الاحكام وفقر من سير القضاة والحكام ـ قطعة منه استخرجت من مخطوط حسن حسني عبد الوهاب . نشر القطعة باذن منه فرحات الدشراوي . مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر رقم 1332 .

ـ الشرقاوي عبد الله ت 1227 هـ ـ 1812 م :

تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين . مخطوط مكتبة جامعة القاهرة رقم 21432 .

ـ لمجهـــول :

شرح لمعة من اخبار المعز لدين الله وتسييره عساكره الى مصر . خ مكتبة جامعة القاهرة رقم 24022 .

ـ صالح عبد الحليم ـ ابو علي :

كتاب الانساب . خ بالخزانة العامة بالرباط رقم 1275 ك . تحت عنوان الأنساب لأبي حيان .

ـ ابن ظافر ـ جمال الدين ابو الحسن علي ت 623 هـ ـ 1266 م :

اخبار الدول المنقطعة : خ بدار الكتب المصرية رقم 890 تاريخ .

ـ ابن ظهيرة ـ جمال الدين محمد ـ ق 10 هـ ـ 16 م :

الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة . خ بدار الكتب المصرية رقم 5560 .

ـ العاملي ـ زين الدين على بن احمد ت 954 هـ ـ 1547 م :

التنبيهات العلية على وظائف الصلاة القلبية على مذهب الشيعة الاثنى عشرية خ بمكتبة حسن حسني عبد الوهاب . وآل الى المكتبة الوطنية تونس رقم 18335 .

ـ العيني ـ بدر الدين محمود ـ ت 855 هـ ـ 1451 م :

عقد الجمان فى تاريخ اهل الزمان : خ بدار الكتب رقم 1584 تاريخ وقد استشرت الجزء 19 بأقسامه المختلفة .

ـ القضاعي ـ ابو عبد الله محمد بن سلامة القاضي ـ ت 454 هـ ـ 1062 م :

عيون المعارف وفنون اخبار الخلائف . خ بدار الكتب رقم 1779 تاريخ .

ـ ابن الكردبوس ـ ابو مروان عبد الملك التونسي ـ من علماء القـرن السادس الهجري ـ 12 م :

الاكتفاء فى أخبار الخلفاء • خ بمكتبة العطارين تونس رقم 18593 وبمعهد المخطوطات بالجامعة العربية رقم 900 (ميكروفيلم) وقد صور على نسخة الشيخ الشاذلي النيفر من علماء جامع الزيتونة .

ـ المقريزي ـ تقي الدين أحمد بن علي ـ ت 845 هـ ـ 1441 م :

المقفى الكبير • خ بدار الكتب المصرية رقم 5372 تاريخ . وهو فى اربعة أجزاء وقد صور على أصل يوجد تحت رقم 1366 بالمكتبة الأهلية بباريس •

ـ ناصر خسرو ت 481 هـ ـ 1089 م :

رحلة ناصر خسرو فى مصر : خ بمكتبة جامعة القاهرة رقم 9393 ـ ترجمها الى العربية يحي الخشاب ـ القاهرة 1945 م •

ـ النعمان بن محمد بن حيون التميمي ـ ابو حنيفة . ت 363 هـ ـ 973 م :

افتتاح الدعوة وابتداء الدولة • خ بمكتبة جامعة القاهرة رقم 24088 •

وقد نشر اخيرا فى بيروت 1970 ، بعناية وداد القاضي . انما بدون أن ترجع الى نسخة مكتبة الجامعة ، وهي تحتوي على 207 ورقات .

ـ **المجالس والمسايرات** خ بمكتبة جامعة القاهرة رقم 26060 :

ـ النويري ـ شهاب الدين احمد بن عبد الرحمن ـ ت 732 هـ ـ 1332 م :

نهاية الارب فى فنون الادب • خ بدار الكتب المصرية رقم 549 معارف عامة ، وقد رجعت الى الجزء 22 بقسميه ، ثم الى الجزء 26 ، وتوجد نهاية الأرب فى المكتبة الأهلية بباريس تحت أرقام 1574 ، 1575 ، 1576 وغيرها •

ب ــ مطبوعات عربية او معربة

ــ ابن الابار ــ أبو عبد الله ــ ت 658 هـ ــ 1260 م :

الحلة السيراء ــ دراسة ونشر الطباع ــ بيروت 1962 ونشرها حسين مؤنس فى جزءين ــ القاهرة 1963 وقد استشرت الطبعتين معا .

ــ ابراهيم العدوي ــ دكتور :

بلاد الجزائر تكوينها الاسلامي والعربي ــ القاهرة 1970 .
المختار من كتاب ((الولاة والقضاة للكندي)) .

ــ ابراهيم جـــلال :

المعز لدين الله الفاطمي وتشييد مدينة القاهرة ــ سلسلة (1000) ألف كتاب . القاهرة 1963 .

ــ ابن الأثير الجزري ــ عز الدين ابو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني ت 630 هـ ــ 1238 م .

الكامل فى التاريخ ط . بولاق 1874 م وطبعة حديثة مصورة عنها ــ بيروت 1965 ــ دار صادر .

ــ **الباهر فى الدولة الاتابكية بالموصل** ــ تحقيق عبد القادر طليمات ــ القاهرة 1963 .

اللباب فى تهذيب الانساب . ط . السعادة ــ القاهرة 1356 ــ 1357 هـ .

ــ أحمد المكناسي :

اهم مصادر التاريخ والترجمة فى المغرب من القرن العاشر (هـ) الى النصف الأول من القرن الحالي ــ تطوان .

ــ احمد فكري ــ دكتور :

مساجد القاهرة ومدارسها ج 1 ــ العصر الفاطمي ــ القاهرة 1965 .

ـ ابن الاخوة ـ محمد بن احمد القرشي ـ ت 729 هـ ـ 1329 م :
معالم القربة فى احكام الحسبة • نشر روبن ليفي ـ كمبريدج 1938.

ـ الادريسي ـ ابو عبد الله محمد ت 560 هـ ـ 1164 م :
وصف افريقية الشمالية والصحراوية ـ قطعة من نزهة المشتاق نشرها هنري بريس . الجزائر 1957 .

ـ ارسطـــو :
كتاب السياسة . تعريب ـ الأب بربارة اوغسطين ـ بيروت 1957 .

ـ الاسحاقي ـ محمد بن عبد المعطي ـ ت بعد 1033 هـ ـ 1623 م .
لطائف اخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من ارباب الدول ط 1 ، 1341 هـ .

ـ لمجهول ـ عاش فى اواخر القرن السادس بعد الهجرة ـ 12 م :
الاستبصار فى عجائب الامصار ـ حققه ونشره سعد زغلول عبد الحميد الاسكندرية 1958 .

ـ اسامة بن منقد ـ مؤيد الدولة ابو المظفر بن مرشد الكناني الشيزري ت 584 هـ ـ 1189 م :
كتاب الاعتبار ـ حققه ونشره فيليب حتي برنستون 1930 .

ـ اسماعيل سرهنك ـ الاميرلاي ـ ت 1924 م :
حقائق الاخبار عن دول البحار . ط الاميرية 1312 ـ 1341 هـ .

ـ ارشيبالدلويس :
القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (500 ـ 1100م) تعريب احمد عيسى ومراجعة شفيق غربال ـ القاهرة 1951 م .

ـ الاصطخري ـ ابو اسحاق ابراهيم بن محمد المعـــروف بالكوخي ت 346 هـ ـ 957 م :
المسالك والممالك ـ نشر محمد جابر عبد العالي الحيني ومراجعة شفيق غربال القاهرة 1961 .

ـ الاصفهاني ـ علي بن الحسين ـ أبو الفرج ت 356 هـ ـ 916 م
مقاتل الطالبيين . ط . النجف 1353 هـ .

ـ اماري ميخائيل ـ ت 1889 م ـ 1307 هـ .

المكتبة العربية الصقلية . ط . ليبسك 1857 ، و ط . مصورة عنها نشرت فى بغداد ـ المثنى .

ـ امين واصف :

الفهرست ومعجم الخريطة التاريخية للممالك الاسلامية ـ القاهرة 1916 م .

ـ الانطاكي ـ يحي بن سعيد ت 458 هـ ـ 1066 م :

ذيل تاريخ سعيد بن البطريق (ت 328 هـ) نشرة كراتشوفسكي وفازلييف فى مجموعة : Patrologia orientalis

ـ ابن اياس الحنفي ـ محمد بن احمد ت 930 هـ ـ 1523 م :

تاريخ مصر المعروف « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ط 1 بولاق 1311 هـ .

نبذة من نشق الأزهار فى عجائب الاقطار . نشرة لانجلس ـ باريس 1807 م .

ـ ابن ايبك الدواداري ـ أبو بكر بن عبد الله صاحب صرخه ت : 736 هـ ـ 1336 م :

الدرة المضية فى اخبار الدولة الفاطمية ـ وهي الجزء السادس من **كتاب كنز الدرر** . نشرها : صلاح الدين المنجد . القاهرة 1961 م .

ـ الباجي المسعودي ـ أبو عبد الله محمد، ت 1297هـ ـ 1879 ـ 1880م
الخلاصة النقية فى امراء افريقية ط 1 ، 1283 هـ .

ـ الباروني النفوسي ـ سليمان :

الأزهار الرياضية فى ائمة وملوك الاباضية ـ القسم الثاني منه ط . الأزهار ـ القاهرة .

ـ البرغوثي ـ صالح :

الوزير اليازوري ـ دار الفكر . القاهرة .

— بروكلمان ـ كارل :

تاريخ الشعوب الاسلامية . تعريب منير البعلبكي ونبيه فارس . بيروت .

تاريخ آداب اللغة العربية ـ تعريب منير البعلبكي ونبيه فارس . بيروت .

— بريس ـ هنري ـ دكتور :

المستحسن من البدع ـ نصوص مستخرجة من كتاب « المعيـــار المعرب » للونشريسي . الجزائر 1946 م .

وصف افريقية الشمالية والصحراوية « من » نزهة المشـــتاق للادريسي . الجزائر 1957 .

— البرادي ـ أبو القاسم بن ابراهيم الدمري ت بعد 792 هـ ـ 1390 م :

الجواهر المنتقاة فيما اخل به صاحب الطبقات . ط . الأزهـــار الرياضية البارونية ـ القاهرة 1302 هـ .

— ابن بسام الشنتريني ـ ابو الحسن علي ت 542 هـ ـ 1147 م :

الذخيرة فى محاسن الجزيرة . القسم الأول من المجلدين 1 ، 2 تحقيق ونشر عبدالحميد العبادي ، وعبدالوهاب عزام ـ القاهرة 1939 ـ 1942 م .

— ابن بشكوال الخزرجي ـ خلف بن عبد الملك بن مسعود أبو القاسم ت 578 هـ ـ 1183 م :

الصلة ـ مجلدان ـ نشرة عزت العطار القاهرة 1955 م .

— بطليموس القلوذي :

كتاب الجغرافية ـ الترجمة العربية قاعة الـدراسات الشرقيـة بمكتبة جامعة القاهرة .

— البغدادي ـ ابن عبد المؤمن ت 839 هـ ـ 1338 م :

مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع . ط حديثة فى 3 اجزاء .

ـ البكري ـ ابو عبيد الله بن عبد العزيز ت 487 هـ ـ 1094 م :

المغرب فى وصف بلاد افريقية والمغرب ـ وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ـ نشرة البارون دوسلان ط 2 ، الجزائر1911 م . و ط 3 باريس 1968 م .

جغرافية الاندلس واوربا ـ منه ـ حققها ونشرها عبد الرحمن الحجي بيروت 1968 .

ـ البلاذري ـ أحمد بن يحي بن جابر ت قبل 302 هـ ـ 914 ـ 915 م :

فتوح البلدان . ط . القاهرة 1959 .

ـ شارل بلا ـ دكتور :

وصف المغرب ـ مستخرج من كتاب « أحسن التقاسيم للمقدسي » الجزائر 1950 .

ـ بلاشير ـ ريجنسنت ـ دكتور :

منتخبات من آثار الجغرافيين فى القرون الوسطى باريس 1932 م

ـ البيدق ـ ابو بكر الصنهاجي ـ ق 6 هـ ـ 12 م :

اخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ـ نشرة ليفي بروفنسال باريس 1928 م .

ـ تاج الدين بن محمد بن حمزة بن زهرة الحسيني :

غاية الاختصار فى اخبار البيوتات العلوية المحفوظة من الغبار ـ ط . بولاق 1310 م .

ـ تامر عارف :

خمس رسائل اسماعيلية ـ سلمية سوريا 1956 م .

ـ تشركوا كيليا سارانللي ـ دكتورة

مجاهد العامري قائد الأسطول العربي فى غربي البحر المتوسط فى القرن الخامس الهجري . القاهرة 1961 .

ـ التميمي ـ أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم . ت 333 هـ ـ 944 م :

طبقات علماء افريقية ، نشرة ابن شنب الجزائر 1914 م ونشر حديثا بتونس 1968 بعناية نعيم اليافي وعلي الشابي .

ـ التمبكتي ـ أبو العباس أحمد بابا بن احمد الصنهاجي السوداني . 963 هـ 1555 م :

نيل الابتهاج بتطريز الديباج ـ وهو على هامش الديباج المذهب لابن فرحون ط 1 ، القاهرة 1329 هـ .

ـ توفيق المدني :

المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا ط . الجزائر 1934 م ط 2 . صقلية 1970 .

كتاب الجزائر ط 2 الجزائر 1963 م.

ـ الثعالبي ابو منصور عبد الملك النيسابوري ، ت 429 هـ 1037 م :

يتيمة الدهر . ج 1 ، ط القاهرة 1934 م .

ـ ابن جرير الطبري ـ ابو جعفر محمد 311 هـ ـ 922 م :

تاريخ الامم والملوك ـ ط الحسينية 1326 هـ ، و ط دار القاموس بيروت وهي مصورة عنها .

ـ الجنحاني ـ الحبيب ـ دكتور :

القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الاسلامية في المغرب العربي . تونس 1968 م .

ـ العزيزي الجوذري : ابو علي منصور ق 4 هـ ـ 10 م :

سيرة الاستاذ جوذر ـ تحقيق ونشر محمد عبد الهادي شعيرة ، وكامل حسين دار الفكر القاهرة 1954 .

ـ جولد زيهر ـ اجناس :

العقيدة والشريعة في الاسلام ـ تعريب محمد يوسف موسى بالاشتراك . القاهرة 1946 .

- جوليان ـ شارل أندريه :

تاريخ افريقية الشمالية ـ تعريب محمد مزالي وابن سلامة تونس 1969 .

تاريخ افريقية ـ تعريب عوضي اباضه ـ مراجعة عبد المنعم ماجد سلسلة (1000 كتاب) 1968 .

- جوتييه ـ اميل فيلكس :

الصحراء . تعريب احمد كمال يونس ـ ومراجعة كمال دسوقي سلسلة (1000 كتاب) القاهرة 1957 .

- الجيلالي ـ عبد الرحمن :

تاريخ الجزائر العام . ط 2 بيروت 1965 .

ابن حجر العسقلاني ـ شهاب الدين ت 853 هـ ـ 1449 م .

رفع الأصر عن قضاة مصر ـ القسم الثاني منه ـ نشرة حامد عبد المجيد وراجعه الابياري القاهرة 1961 .

- ابن حزم الظاهري ـ ابو محمد على بن احمد ت 456 هـ ـ 1064 م :

جمهرة انساب العرب ـ نشرة ليفي بروفنسال القاهرة 1948 .

الفصل فى الملل والأهواء والنحل ـ فى مجلدين ط . بيروت وبهامشه : الملل والنحل للشهرستاني .

نقط العروس فى تواريخ الخلفاء ـ رواية الحميدي ـ نشرة شوقي ضيف مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مجلد 13 ج 2 ديسمبر 1951 .

- حسن محمود ـ دكتور :

قيام دولة المرابطين ـ القاهرة 1957 .

- حسن ابراهيم حسن ـ دكتور :

تاريخ الدولة الفاطمية ط 3 . القاهرة 1964 .

عبيد الله المهدي ـ بالاشتراك ـ القاهرة 1947 .

المعز لدين الله بالاشتراك ـ القاهرة 1963 .

النظم الاسلامية ط 3 ، القاهرة 1962 .

ـ حسن حسني عبد الوهاب ت 1968 :

ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية . 3 اجزاء تونس 1965 ـ 1966 .

مجمل تاريخ الادب التونسي ط 3 . تونس 1968 .

خلاصة تاريخ تونس . ط 3 تونس 1953 .

ـ حسن الباشا ـ دكتور :

الالقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ـ القاهرة 1957 .

ـ حسين الهمداني (بالاشتراك) دكتور :

الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ـ القاهرة 1955 .

ـ ابن حماد ـ ابو عبد الله محمد بن علي القلعي ت بعد 628 هـ ـ 1231 ـ 1232 م .

اخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ـ نشره فوندرهايدن ـ الجزائر 1927 .

ـ ابن حوقل النصيبي ـ أبو القاسم محمد ت بعد 367 هـ ـ 977 م .

كتاب صورة الأرض ـ ط . بيروت 1962 ، المكتبة الجغرافية ـ بريل ، ليدن 1967 .

ـ ابن خرداذبة ـ ابو القاسم عبيد الله قاسم بن عبد الله ، ت 272 هـ ـ 885 م :

المسالك والممالك ـ المكتبة الجغرافية ـ بريل ـ ليدن 1967 .

ـ الخشني ـ أبو عبد الله محمد بن الحارث بن أسد ت 361 هـ ـ 971 ـ 972 م :

قضاة قرطبة وعلماء افريقية ـ نشر ، عزت العطار . القاهـــرة 1372 هـ .

ـ ابن الخطيب السلماني ـ لسان الدين ت 776 هـ ـ 1374 م :

الاحاطة فى اخبار غرناطة . نشرها عبد الله عنان ـ القاهرة 1955 .

رقم الحلل فى نظم الدول ـ ط . تونس 1316 هـ ـ 1899 م .

اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ـ القسم الثالث منه ، نشره مختار العبادي ، وابراهيم الكتاني . الدار البيضاء 1964 .

ـ ابن خلدون ـ ابو زيد عبد الرحمن ت 808 هـ ـ 1405 م :

المقدمة . ط 3 بيروت 1900 م ، و ط عبد الواحد وافي .

كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر ، ط . بولاق 1284 هـ وبيروت 1958 م .

تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب ـ جزءان ، هما 6 ، 7 من كتاب العبر فى ط بولاق . نشره وترجمه الى الفرنسية : البارون دوسلان الجزائر 1847 م .

ـ ابن خلكان ـ شمس الدين احمد بن ابراهيم الشافعي ـ ت 681 هـ ـ 1281 هـ :

وفيات الاعيان وانباء الزمان ط 1892 م ثم ط محي الدين عبد الحميد 1948 .

ـ خليل ابن ايبك الصفدي ت 764 هـ ـ 1362 م :

امراء دمشق فى الاسلام ـ نشره صلاح الدين المنجد . دمشق 1955 م .

ـ الدباغ ـ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ت 696 هـ ـ 1296 ـ 1297 م :

معالم الايمان فى معرفة اهل القيروان ـ 4 اجزاء فى مجلدين . تونس 1902 م ـ 1330 هـ .

ـ ابن دقماق ـ ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي ت 809 هـ ـ 1407 م :

الانتصار لواسطة عقد الامصار ـ الجزءان 4 ، 5 ط . الاميرية بولاق 1309 هـ .

ـ الدوري ـ عبد العزيز ـ دكتور :

مقدمة فى التاريخ الاقتصادي ـ بيروت 1969 .

ـ ابن ابي دينار الرعيني ـ محمد بن ابي القاسم من علماء القرن 12 هـ :
المؤنس في اخبار افريقية وتونس ط 3 . تحقيق ونشر محمد شمام تونس 1967 .

ـ ذو النون المصري :
عمارة اليمني ـ القاهرة 1966 م .

ـ ابن رستة ، ت بعد 290 هـ ـ 903 م :
الاعلاق النفيسة ـ ليدن ـ 1891 .

ـ ابن رسول ـ الملك الأشرف عمر بن يوسف الفساني :
طرفة الاصحاب في معرفة الانساب . نشرها ترستين دمشق 1949.

ـ رشيد رضا .
السنة والشيعة : القاهرة 1347 هـ .

ـ الرقيق القيرواني ـ أبو اسحاق ابراهيم بن القاسم ت بعد 418 هـ ـ 1027 ـ 1028 م :
تاريخ افريقية والمغرب ـ قطعة منه ـ نشرها المنجي الكعبي ـ تونس 1968 .

ـ ريزيتا نوامبرتو :
تاريخ الادب العربي في صقلية ـ عمان 1956 .

ـ الزاوي ـ احمد الطاهر :
تاريخ الفتح العربي في ليبيا ـ القاهرة 1963 .

ـ الزركشي :
تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية : نشره محمد ماضور ـ تونس 1966 .

ـ الزركلي ـ خير الدين :
الاعــــلام ط 2 ، 1954 ـ 1959 .

- ابن ابي زرع الفاسي ـ ت بعد 724 هـ ـ 1324 م :

الأنيس المطرب بروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب ، وتاريخ مدينة فاس . ط . حجرية ، فاس 1303 هـ .

- زكي حسن ـ دكتور :

الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ـ القاهرة 1945 .

- زمبـــاور :

معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامي جزءان ، تعريب زكي حسن ، وحسن محمود القاهرة 1951 .

- الزياني ـ أبو القاسم ت 1249 هـ ـ 1833 م .

الترجمانة الكبرى فى اخبار المعمور برا وبحرا ـ نشره عبد الكريم الفيلالي ، الرباط 1967 .

- ابن الساعي البغدادي : على بن انجب ت 674 هـ ـ 1275 ـ 1276 م.

مختصر اخبار الخلفاء . وهو فى مجلد واحد مع كتـــاب « غاية الاختصار » لتاج الدين الحسيني ط . بولاق 1310 هـ .

- السخاوي ـ محمد بن عبد الرحمن ت 902 هـ ـ 1496 م :

الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ـ نشره القدسي ، دمشق 1930 م .

- سركيس ـ يوسف اليان :

معجم المطبوعات العربية والمعربة مصر 1928 ـ 1929 .

- سرور جمال الدين ـ دكتور :

النفوذ الفاطمي فى بلاد الشام والعراق فى القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة ط 2 ، القاهرة 1959 .

مصر فى عصر الدولة الفاطمية سلسلة (1000 كتاب) القاهرة .

سياسة الفاطميين الخارجية ، القاهرة 1967 .

الدولة الفاطمية فى مصر : سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة فى عهدها . القاهرة 1970 .

ـ السراج ـ محمد بن محمد الأندلسي . ت : 1149 هـ ـ 1736 ـ 1737 م :

الحلل السندسية في الأخبار التونسية ـ نشره محمد الحبيب الهيله ، تونس 1970 .

ـ سعد زغلول عبد الحميد ـ دكتور :

تاريخ المغرب العربي ـ 1965 .

ـ ابن سعيد الأندلسي ـ علي بن موسى ت 673 هـ ـ 1275 م :

المغرب في حلى المغرب ـ نشره شوقي ضيف بالاشتراك . القاهرة 1953 .

ـ سعيد عبد الفتاح عاشور ـ دكتور :

مصر في العصور الوسطى ـ من الفتح العربي حتى الغزو العثماني ـ بالاشتراك ـ القاهرة 1970 .

تاريخ اوربا العصور الوسطى ج 1 ط 1958 ، وط 5 ، 1971 .

السيد احمد البدوي شيخ وطريقة . سلسلة اعلام العرب رقم 58 القاهرة 1966 .

ـ السلاوي الناصري ـ ابو العباس احمد بن خالد ت 1315 هـ ـ 1897 م :

الاستقصاء في اخبار دول المغرب الأقصى 4 أجزاء ط . 1305 هـ ثم ط . الدار البيضاء في 9 أجزاء سنة 1954 .

ـ السمعاني المروزي ـ ابو سعد عبد الكريم ت 562 هـ ـ 1167 م :

كتاب الانساب ـ نشره مرجوليوت وليث ـ ليدن 1912 و ط . حديثة بمطبعة المثنى ـ بغـداد .

ـ ابن سوده ـ عبد السلام :

دليل مؤرخ المغرب الأقصى ط 2 في جزئين ـ الدار البيضاء 1960 .

ـ سيدة اسماعيل كاشف ـ دكتورة :

مصر في عهد الأخشيديين ، القاهرة 1950 .

ـ السيوطي ـ جمال الدين عبد الرحمن الكمال ت 916 هـ ـ 1505 م :

تاريخ الخلفاء ـ مجلد واحد ط 1308 هـ .

حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة ـ ط . القاهرة 1321 هـ .

لب اللباب في تحرير الأنساب . ط . المثنى ـ بغـداد .

ـ أبو شامة عبد الرحمن بن اسماعيل ـ ت 665 هـ ـ 1267 م :

كتاب الروضتين في اخبار الدولتين : القاهرة 1287 هـ .

ـ الشرقاوي ـ محمود :

البحرية الأندلسية ـ رسالة ماجستير 1938 .

ـ الشرقاوي ـ عبد الله : ت 1227 هـ ـ 1812 م :

تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ط 1281 هـ
وطبع على هامش كتابي لطائف أخبار الاول للاسحاقي وفتـوح الشام للواقدي .

ـ شعيرة محمد عبد الهادي ـ دكتور :

المرابطون ـ تاريخهم السياسي ـ القاهرة 1969 .

ـ الشماخي ـ أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد ت 928 هـ ـ 1521 ـ 1522 م :

كتاب السير ط 1301 هـ .

ـ الشهرستاني ـ أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ت 548 هـ ـ 1153 م :

الملل والنحل ـ وهو على هامش كتاب الفصل لابن حزم ط .بيروت، في مجلدين .

ـ الشوكاني ـ الامام محمد بن علي ـ ت 1250 هـ ـ 1834 ـ 1835 م :

قطر الولي على حديث الولي ـ تحقيق ونشر ابراهيم هـلال ـ القاهرة 1969 .

ـ الشيال ـ جمال الدين ـ دكتور :

مجموعة الوثائق الفاطمية م 1 ـ القاهرة 1958 .

تاريخ مدينة الاسكندرية في العصر الاسلامي ـ القاهرة 1967 .
ابو بكر الطرطوشي ت 520 هـ ـ 1127 م القاهرة 1968 .
سلسلة اعلام العرب .

ـ الشيرزي ـ عبد الرحمن بن نصر الدين عبد الله الشافعي ـ ت 589 هـ ـ 1193 م :
نهاية الرتبة في طلب الحسبة . تحقيق ونشر الباز العريني ـ القاهرة 1946 .

ـ صالح عبد الحليم ـ أبو علي :
نص جديد عن فتح المغرب الأوسط ، نشر ليفي بروفنسال . تعريب حسين مؤنس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية ـ مدريد ـ مجلد 2 سنة 1954 .

ـ ابن الصغير ـ من علماء المالكية في نهاية القرن الثالث بعد الهجرة :
اخبار الائمة الرستميين ـ تحقيق ونشر موتلنسكي ـ اعمال المستشرقين ـ 14 لسنة 1905 ، مجلد 3 القسم الثاني .

ـ ابو الصلت ـ امية بن عبد العزيز الاندلسي : ت 528 هـ ـ 1133 ـ 1134 م :
الرسالة المصرية ـ ضمن سلسلة نوادر المخطوطات ـ تحقيق ونشر عبد السلام هارون ـ القاهرة 1951 .

ـ ابن ابي الضياف ـ احمد ـ ت 1291 هـ ـ 1874 ـ 1875 م :
اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الأمان ـ ج 1 ط تونس 1963 .

ـ طالبي محمد ـ دكتور :
تراجم اغلبية ـ مستخرجة من ترتيب المدارك لعياض ، تونس 1968 .

ـ ابن طباطبا ـ فخر الدين محمد بن علي المعروف بابن الطقطقي ـ ت 709 هـ ـ 1309 ـ 1310 م :
الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية .

ـ الطرطوشي ـ أبو بكر محمد بن الوليد ـ ت 520 هـ ـ 1126 م :

الحوادث والبدع ـ تحقيق ونشر محمد طالبي ـ تونس 1959 .

ـ ابن طولون ـ شمس الدين محمد ـ ت 953 هـ ـ 1546 م :

الشذرات الذهبية فى تراجم الائمة الاثنى عشرية عند الامامية . تحقيق ونشر صلاح الدين المنجد ـ بيروت 1958 .

ـ ابن ظهيرة : جمال الدين محمد ق 10 هـ ـ 16 م :

الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ـ القاهرة 1969 بعناية فؤاد المهندس والسقا .

ـ عادل العوا ـ دكتور :

منتخبات اسماعيلية ـ دمشق 1958 .

ـ عبد الباقي اليماني ـ تاج الدين :

تاريخ اليمن المسمى : بهجة الزمن فى تاريخ اليمن ـ تحقيق ونشر مصطفى حجازي مطبعة مخيمر القاهرة 1965 .

ـ عبد اللطيف البغدادي : موفق الدين ت 629 هـ ـ 1231 ـ 1232 م :

كتاب الافادة والاعتبار فى الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض مصر . ط 1 ـ وادي النيل 1286 هـ .

ـ عبد الرحمن فهمي ـ دكتور :

موسوعة النقود العربية وعلم النميات ـ القاهرة 1965 .

ـ عبد الحميد يونس ـ دكتور :

الهلالية فى التاريخ وفى الأدب الشعبي ـ القاهرة 1956 .

ـ عبد الرحمن زكي ـ دكتور :

القاهرة تاريخها وآثارها من جوهر القائد الى الجبرتي المؤرخ . القاهرة 1966 .

ـ عبد الرحمن بن زيدان : ت 1946 م :

اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس ط 1 ، الرباط 1932 م .

ـ عبد الحميد العبادي :

المجمل فى تاريخ الاندلس ـ القاهرة 1958 المكتبة التاريخية .

ـ ابن العبري ـ أبو الفرج غريغوريوس الملطي ـ ت 685 هـ ـ 1286 ـ 1287 هـ .

تاريخ مختصر الدول ـ نشره أنطون صالحاني ـ بيروت 1890 .

ـ ابن عبد الحكم ـ عبد الرحمن بن عبد الله القرشي ت 257 هـ ـ 870 ـ 871 م :

فتوح مصر والمغرب ـ القسم التاريخي ـ تحقيق ونشر عبد المنعم عامر ـ القاهرة 1961 .

ـ العبدري ـ محمد بن محمد بن علي بن مسعود ـ بدأ الرحلة سنة 688 هـ ـ 1289 م :

الرحلة المغربية ـ تحقيق ونشر أحمد بن جدو ـ مط . البعث . قسنطينة 1964 .

ـ عبد الفتاح عبادة :

سفن الاسطول الاسلامي وانواعها ومعداتها فى الاسلام ـ مطبعة الهلال ـ بالفجالة 1913 م .

ـ عبد المنعم ماجد ـ دكتور :

نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر . جزءان ـ القاهرة 1953 ـ 1955 .

السجلات المستنصرية ـ نشر وتحقيق ـ القاهرة 1954 .

الحاكم بامر الله الخليفة المفترى عليه ـ القاهرة 1959 .

العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ـ بيروت 1966 .

ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ـ القاهرة ـ دار المعارف 1968 .

مقدمة لدراسة التاريخ الاسلامي ط 2 ، 1964 .

الأطلس التاريخي للعالم الاسلامي ـ بالاشتراك ـ القاهرة 1960 .

ـ عبد الله رجراجي وعلوش :

فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة بالرباط ـ باريس 1954.
اشراف ليفي بروفنسال .

ـ عبد العزيز سالم ـ دكتور :

المغرب الكبير ج 2 ـ العصر الاسلامي ـ القاهرة 1966 .

ـ عبد الجليل الطاهر ـ دكتور :

المجتمع الليبي ـ دراسات اجتماعية واقتريولوجية ـ بيروت 1969 .

ـ عبد الوهاب بن منصور :

قبائل المغرب ج 1 ـ الرباط 1968 .

ـ ابن العديم ـ كمال الدين أبو حفص الحلبي ـ ت 660 هـ ـ 1261 ـ 1262 م :

زبدة الحلب في تاريخ حلب ـ تحقيق ونشر سامي الدهان ـ دمشق 1951 .

ـ ابن عذاري ـ أبو عبد الله محمد المراكشي ـ من علماء نهاية القرن السابع بعد الهجرة 13 م .

البيان المغرب في اخبار المغرب ـ جزءان ـ ط . المناهل . بيروت 1947 ـ 1950 .

ـ عريب بن سعد القرطبي ـ كان موجودا سنة 331 هـ ـ 942 ـ 943 م:

صلة تاريخ الطبري ـ وهو الجزء 12 من كتاب تاريخ الامم للطبري ـ ط . دار القاموس ـ بيروت .

ـ ابن عسكر ـ محمد بن علي بن مصباح. ت 986هـ ـ 1587 ـ 1588م

دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشائخ القرن العاشر
فاس 1309 هـ :

ـ ابن عساكر ـ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ت 571 هـ ـ 1175 م :

تاريخ دمشق . مجلد 2 من القسم الأول نشر وتحقيق صلاح المنجد دمشق 1954 .

ـ العقاد ـ عباس محمود :

فاطمة الزهراء ـ دار الهلال ـ القاهرة ـ دون ذكر تاريخ الطبع .

ـ على ابراهيم حسن ـ دكتور :

تاريخ جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله ـ ط 2 القاهرة 1963 .

ـ على باشا مبارك ـ ت 1311 هـ ـ 1893 م :

الخطط التوفيقية الجديدة ج 1 . ط . بولاق 1306 هـ :

ـ عمر بن محمد الكندي ـ كان موجودا في النصف الثاني من القرن الرابع بعد الهجرة .

فضائل مصر ـ تحقيق ونشر ابراهيم أحمد العدوي وعلي محمد عمر القاهرة 1971 .

ـ عمارة اليمني ـ نجم الدين ابو محمد بن أبي الحسن ـ ت 569 هـ ـ 1174 م :

النكت العصرية في اخبار الوزارة المصرية ج 1 ، تحقيق ونشر درنبورغ ـ باريس 1897 .

ـ عمر كمال توفيق ـ دكتور :

مقدمات العدوان الصليبي على الشرق العربي ـ ط 2 ، القاهرة 1967 .

ـ ابن العماد الحنبلي ـ ابو الفلاح عبد الحي ت 1089 هـ ـ 1678 ـ 1679 م :

شذرات الذهب في اخبار من ذهب ـ القاهرة 1951 م

ـ العمري ـ ابن فضل الله : ت 749 هـ ـ 1349 م :

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ـ نشر وتحقيق أحمد زكي باشا ج 1 القاهرة 1924 .

ـ عنان ـ عبد الله :

الحاكم بامر الله واسرار الدعوة الفاطمية ـ القاهرة 1937 .

مصر الاسلامية وتاريخ الخطط ـ ط 1 ، القاهرة 1936 .

ـ عياض اليحصبي ـ القاضي أبو الفضل السبتي ـ ت **544** هـ ـ 1149 م .

ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك . 4 اجزاء في مجلدين نشر وتحقيق احمد باكير محمود ـ بيروت 1967 ومنه استخرج محمد طالبي كتاب « تراجم أغلبية » .

ـ ابن غازي العثماني ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد المكناسي ت 919 هـ ـ 1513 ـ 1514 م :

الروض الهتون في اخبار مكناسة الزيتون ـ تحقيق ونشر عبدالوهاب بن منصور ـ الرباط 1964 .

ـ الغبريني ـ أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله ت 714 هـ ـ 1314ـ 1315 م :

عنوان الدراية فيمن عرف من علماء المائة السابعة ببجاية . تحقيق ونشر ابن شنب الجزائر 1910 ط 2 ، بيروت 1971 .

ـ الغزالي : أبو حامد ت 505 هـ ـ 1111 م :

فضائح الباطنية ـ تحقيق ونشر عبد الرحمن بدوي ـ القاهرة 1964 .

ـ ابن غلبون ـ أبو عبد الله محمد بن خليل ت 1133 هـ ـ 1720 ـ 1721 م :

التذكار فيمن ملك طرابلس ، وما كان بها من الاخبار المسمى تاريخ طرابلس الغرب . تحقيق ونشر الطاهر احمد الزاوي . القاهرة 1930 .

ـ فؤاد سيد :

فهرس المخطوطات المصورة بالجامعة العربية ـ القاهرة 1959 .

ـ فازيلييف :

العرب والروم ـ تعريب محمد عبد الهادي شعيرة ـ دار الفكر العربي .

ـ فانيان :

فهرس المخطوطات العربية بمكتبة الجزائر ـ باريس ـ 1893 م .

ــ الفتح بن خاقان ــ أبو نصر القيسي ــ ت بعد 529 هـ ــ 1134 ــ 1135 م .

مطمح الانفس ومسرح التانس فى ملح أهل الاندلس . ط . الحوائب القسنطينية 1302 هـ .

ــ أبو الفداء ــ عماد الدين اسماعيل بن علي بن محمد صاحب حماة ت : 732 هـ ــ 1331 م :

المختصر فى اخبار البشر ــ ط 1 ــ الحسينية 4 أجزاء فى مجلد واحد ــ ثم طبع حديثا اعتمادا على الطبعة الاولى .

ــ ابن فرحون اليعمري ــ ابو الوفاء ابراهيم بن علي بن محمد ــ 799 هـ ــ 1396 ــ 1397 م :

الديباج المذهب فى معرفة اعيان المذهب . ط 1 ، السعادة . القاهرة 1329 هـ .

ــ فلهوزن يوليوس :

تاريخ الدولة العربية منذ ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الاموية ــ تعريب أبو ريده القاهرة 1958 .

ــ ابن الفقيه الهمداني ابو بكر احمد بن محمد ــ ت بعد 290 ه / 902 ــ 903 م

مختصر كتاب البلدان ــ المكتبة الجغرافية ط ابريل ــ ليـــدن 1967 .

ــ ابن قتيبه الدينوري ــ أبو محمد عبد الله بن مسلم ت 276 هـ ــ 889 ــ 890 م .

ــ كتامة الامامية والسياسية . جزآن .

القزويني ــ زكرياء بن محمد ــ ت 682 هـ ــ 1283 م .

آثار البلاد واخبار العباد . ط . بيروت . دار صادر 1960 م .

ــ ابن القلانسي ــ ابو يعلى حمزة بن اسد ــ ت 555 هـ ــ 1160 م :

ذيل تاريخ دمشق ــ تتلوه نخب من تواريخ الفارقي وابن الجوزي والذهبي ط . بيروت 1908 تحقيق ونشر امدروز .

ـ القلقشندي ـ ابو العباس احمد بن علي ـ 821 هـ ـ 1418 م .

نهاية الأرب فى معرفة انساب العرب ـ تحقيق ونشر ابراهيم الابياري ط 1 ، القاهرة 1959 .

قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان ـ ط 1 ، تحقيق ونشر ابراهيم الابياري . القاهرة 1963 .

صبح الاعشى فى صناعة الانشا . ط حديثة مصورة عن الطبعة الأميرية . دار الكتب 1915 م .

ـ ابن القيسراني الشيباني ـ أبو الفضل محمد بن طاهر ت 507 هـ ـ 1113 ـ 1114 م :

كتاب الانساب المتفقة فى الخط المتماثلة فى النقط والضبط ـ وبه تذييل لأبي موسى الاصفهاني ـ تحقيق ونشر دي جونج ط بريل ـ ليدن 1865 م .

ـ كامل حسين ـ دكتور :

طائفة الاسماعيلية ـ المكتبة التاريخية ـ القاهرة 1957 .

فى ادب مصر الفاطمية ـ ط 2 ـ القاهرة 1970 .

المجالس المستنصرية للداعي ثقة الامام علم الاسلام ـ سلسلة المخطوطات الفاطمية دار الفكر .

ـ المؤيد فى الدين داعي الدعاة الشيرازي .

ـ سيرة المؤيد فى الدين داعي الدعاة .

ـ ابن كثير الدمشقي ـ أبو الفداء الحافظ ـ ت 774 هـ ـ 1372 ـ 1373 م .

البداية والنهاية فى التاريخ . 14 جزءا فى 7 مجلدات . ط 1 ، بيروت 1966 م .

ـ الكرماني ـ احمد حميد الدين حجة العراقين ت 411 هـ ـ 1020 ـ 1021 م :

المصابيح فى اثبات الامامة ـ تحقيق ونشر مصطفى غالب ـ بيروت 1969 .

الرسالة الواعظة فى نفي دعوى الوهية الحاكم بأمر الله ـ نشر وتحقيق كامل حسين ـ مجلة كلية الآداب . مجلد 14 لسنة 1952 .

ـ كراتشوفسكي ـ اغناطيوس ـ 1370 هـ ـ 1951 م :

تاريخ الأدب الجغرافي ـ القسم الأول ـ تعريب صلاح الدين عثمان هاشم ـ الادارة الثقافية ـ القاهرة 1963 ـ 1965 .

ـ الكعاك عثمان :

مراكز الثقافة في المغرب من القرن 16 م الى القرن 19 م ـ معهد الدراسات العربية القاهرة 1958 .

الحضارة العربية في حوض البحر الابيض المتوسط ـ القاهرة 1965.
موجز تاريخ البربر ـ تونس .

ـ كنار ماريوس ـ دكتور :

نخب تاريخية وادبية جامعة لأخبار الامير سيف الدولة الحمداني . الجزائر 1934

ـ الكندي ـ ابو عمر محمد بن يوسف ت 350 هـ / 961 م .

كتاب الولاة والقضاة ـ تحقيق ونشر روفي جست بيروت 1908 م ومنه استخرج ابراهيم العدوي مجموعة تراجم للولاة والقضاة في مصر في العصر العباسي (1)

المؤيد في الدين ـ داعي الدعاة الشيرازي ـ ت 470 هـ / 1077 ـ 1078 م .

سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة ـ ترجمة حياته بقلمه ـ تحقيق ونشر كامل حسين القاهرة 1949 .

ـ لقبال موسى :

الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي ـ نشأتها وتطورها ـ الجزائر 1971 .

ـ المالكي ـ أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله ـ من مؤرخي المغرب في القرن 5 هـ / 11 م .

رياض النفوس ج 1 تحقيق ونشر حسين مؤنس ـ القاهرة 1951 .

ـ مبارك الميلي ـ الهلالي :

تاريخ الجزائر في القديم والحديث ط 2 ـ بيروت 1963 .

ـ ابو المحاسن ـ جمال الدين بن يوسف بن نغري بردي ـ ت 874 هـ / 1469 م .

النجوم الزاهرة فى اخبار ملوك مصر والقاهرة ـ ط . دار الكتب 1932 ، وط . حديثة مصورة عنها .

ـ الجيلدي ـ ابو العباس احمد بن سعيد ـ ت 1094 هـ / 1682 ـ 1683م

التيسير فى احكام التسعير ـ تحقيق ونشر موسى لقبال ـ بيروت 1970 .

ـ محمد بن عبد القادر الجزائري :

تحفة الزائر فى مآثر الامير عبد القادر واخبار الجزائر ـ جزآن فى مجلد واحد ط 2 تحقيق ونشر ممدوح حقي ـ بيروت 1964 .

ـ محمد بن الشحنة الحلبي ـ ابو الفضل :

الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب نشره يوسف سركيس ط . بيروت 1909 .

ـ محمد النيفـر :

عنوان الاريب عما نشا بالمملكة التونسية من عالم اديب ـ جزآن ط 1 تونس 1951 .

ـ مختار باشا : اللواء :

التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنجية والقبطية ـ ط 1 ، بولاق 1311 هـ .

ـ محسن الامين :

اعيان الشيعة ـ تحقيق ونشر ولده حسن الامين ـ عدة أجزاء بيروت 1960 .

ـ ابن مريم ـ ابو عبد الله محمد بن محمد الشريف المليتي التلمساني ت بعد 1014 هـ / 1605 ـ 1606 م .

البستان فى ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان ـ تحقيق ونشر محمد بن شنب ـ الجزائر 1908 م .

ـ مرتضى العسكري :

ابن سبأ ـ القاهرة .

ـ المسعودي ـ أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ت 346 هـ / 957 ـ 958 م .

مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ ط بولاق 1283 هـ و ط حديثة مصورة عنها .

ـ ابن مسكويه أبو علي احمد بن محمد ت 321 هـ / 1030 م :

تجارب الامم ـ تحقيق امدروز ـ ط القاهرة 1915 .

ـ مشرفة مصطفى مشرفة ـ دكتور :

نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين ـ ط 1 ، القاهرة 1948 .

ـ مصطفى غالب :

اعلام الاسماعيلية ـ بيروت 1964 .

تاريخ الدعوة الاسماعيلية ـ ط 2 ، بيروت 1965 .

مفاخر البربر ـ لمجهول ـ الفها سنة 712 هـ ـ 1312 م .

تحقيق ونشر ليفي بروفنسال ـ الرباط 1934 ـ مطبوعات معهد الدراسات العليا ـ المغربية .

ـ المقدسي ـ شمس الدين أبو عبد الله محمد ـ ت 387 هـ / 997 م .

احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ـ المكتبة الجغرافية ط ، بريل ليدن 1967 .

ومنه استخرج شارل بلا منتخبات بعنوان وصف المغرب .

ـ المقري ـ أبو العباس ـ ت 1041 هـ / 1631 ـ 1632 م .

نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وفى اخبار شاعرها لسان الدين بن الخطيب ـ ط دار المأمون 1936 ، ثم ط محي الدين عبد الحميد .

ـ المقريزي ـ تقي الدين احمد بن علي ـ ت 845 هـ / 1442 م .

اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفاء ـ ج 1 ، تحقيق ونشر جمال الدين الشيال 1967 ، وج 2 ، تحقيق ونشر محمد علي حلمي ـ تحت رعاية لجنة احياء التراث الاسلامي ـ القاهرة 1971 .

الخطط . ط، حديثة فى مجلدين ـ مصورة ثم ط، القاهرة 1325 هـ .

البيـــان والاعراب عما بارض مصر من الأعراب ـ تحقيق ونشر عبد المجيد عابدين ـ القاهرة 1961 .

شذور العقود فى ذكر النقود ـ نشر تشن .

اغاثة الامة بكشف الغمة ـ ط دار ابن الوليد حمص ـ سوريا 1956 .

ـ ابن منجب الصيرفي ـ امين الدين تاج الرئاسة ابو القاسم علي ـ ت 542 هـ / 1147 م .

الاشارة الى من نال الوزارة ـ 1 ـ القاهرة 1924 .

ـ المنجد صلاح الدين ـ دكتور :

مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالة ـ منتخبات ـ بيروت 1967 .

ـ المنياوي ـ محمد حمدي ـ دكتور :

الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمي ـ القاهرة 1970 ـ دار المعارف .

ـ ابن منظور ـ جمال الدين ت 711 هـ / 1311 ـ 1312 م :

لسان العرب ـ ط حديثة مصورة عن ط بولاق ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة .

الموسوعة الميسرة ـ لمجموعة ـ باشراف شفيق غربال ـ القاهرة 1965 .

ـ ابن ميسر ـ محمد بن علي بن يوسف بن جلب ـ ت 677 هـ / 1278 م .

اخبار مصر ـ ج 2 ، تحقيق ونشر هنري ماسية القاهرة 1919 .

ـ ميتـز آدم :

الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع (هـ) ترجمة عبد الهادي أبو ريدة القاهرة 1940 .

ـ نبيلة ابراهيم ـ دكتورة :

سيرة الاميرة ذات الهمة ـ القاهرة دون ذكر تاريخ الطبع .

ـ ابو النصر :

تغريبة بني هلال ـ ط 2 ـ القاهرة 1960 .

ـ النشار ـ علي سامي ـ دكتور :

نشاة الفكر الفلسفي فى الاسلام ـ ج 2 ، نشأة التشيع وتطوره ـ ط 4 القاهرة 1969 .

ـ النعمان بن محمد أبو حنيفة (ت 363 هـ / 973 ـ 974 م) .

الهمة فى آداب اتباع الائمة ـ تحقيق ونشر كامل حسين ـ القاهرة دون ذكر تاريخ الطبع .

تربية المؤمنين أو تاويل دعائم الاسلام ، ضمن «منتخبات الاسماعيلية» لعادل العوا ـ دمشق 1958 .

الرسالة المذهبة ـ ضمن « خمس رسائل اسماعيلية » عارف تامر سلمية 1956 .

نقولا زيادة ـ دكتور :

الرحالة العرب ـ سلسلة (1000 كتاب) بالقاهرة 1956 .

ـ نور الدين عبد القادر :

صفحات فى تاريخ مدينة الجزائر ـ نشرة كلية الآداب جامعة الجزائر 1965 .

ـ النيسابوري ـ أحمد بن ابراهيم ـ أواخر القرن 4 هـ / 10 م .

استتار الامام ـ تحقيق ونشر ايفانوف . مجلة كلية الاداب ـ القاهرة مجلد 4 ج 2 ـ ديسمبر 1936 .

ـ هويدى ـ يحيى ـ دكتور :

تاريخ فلسفة الاسلام فى القارة الافريقية ـ ج 1 ـ فى الشمال الافريقي ـ القاهرة 1966 .

ـ هيرودوت ـ أبو التاريخ :

تاريخــه ـ ج 1 تعريب حبيب افندي سيترس ـ بيروت 1886 ـ 1887 م .

ـ الواقدي ـ محمد بن عمر ـ ت 207 هـ / 822 ـ 823 م .

فتوح افريقية ـ ط تونس 1315 هـ ، طبعة حديثة فى جزئين على على نفقة الصناديلي .

ـ الواسعي ـ عبد الواسع بن يحيى ـ من علماء القرن 14 هـ .

تاريخ اليمن (فرحة الهموم والحزن فى حوادث تاريخ اليمن) القاهرة 1946 المطبعة السلفية .

ـ الورقلاني ـ أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم ـ ت 570 هـ / 1174 ـ 1175 م .

الدليل لأهل العقول لباغي السبيل بنور الدليل ـ تحقيق مذهب الحق بالبرهان والصدق . مط البارونية 3 اجزاء فى مجلد واحد ، القاهرة 1306 هـ .

ـ وداد القاضي :

رسالة افتتاح الدعوة ـ للنعمان ـ بيروت 1970 م . نشر وتحقيق .

ـ الورتيلاني ـ الحسين بن محمد ت 1193 هـ / 1779 ـ 1780 م .

نزهة الانظار فى فضل علم التاريخ والاخبار المشهورة بالرحلة الورتيلانية ـ تحقيق ونشر محمد بن شنب ـ الجزائر ، مطبعة فونتانا 1908 م.

ـ ابن الوردي ـ أبو حفص زين الدين عمر ـ ت 749 هـ/1348 ـ 1349م.

تاريخ ابن الوردي المعروف بتتمة المختصر فى آخبار البشر ـ مط الوهبية 1285 هـ

ـ الونشريسي ـ ابو العباس احمد بن يحيى التلمساني ـ ت 914 هـ / 1508 ـ 1509 م .

المعيار المعرب والجامع المغرب فى فتاوي اهل افريقية والاندلس والمغرب ـ ط فاس 1314 ـ 1315 م ومنه استخرج هنري بريس ، « المستحسن من البدع » .

ـ اليافعي ـ ابو محمد عبد الله بن أسعد بن علي اليمني ـ ت 768 هـ / 1366 ـ 1367 م .

مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة حوادث الزمان ـ المعروف بتاريخ اليافعي ط بيروت 1970 . 4 أجزاء .

ـ ياقوت الحموي ت 626 هـ / 1229 م :

معجم البلدان ـ ط 1906 .

ارشاد الاديب الى معرفة الاديب (ـ معجم الادباء) ط ، القاهرة 1906 م .

ـ يحيى بن الحسين بن علي ـ ت 1100 هـ / 1688 ـ 1689 م :

غاية الاماني فى اخبار القطر اليماني ـ تحقيق ونشر سعيد عبد الفتاح عاشور ، مراجعة مصطفى زيادة ـ القاهرة 1968 .

ـ يحيى بن حمزة العلوي ت 745 هـ / 1344 م .

الافحام لافئدة الباطنية الطغام ـ تحقيق فيصل بدير عون ، ومراجعة النشار ـ الاسكندرية 1971 .

ـ اليعقوبي ـ أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح ـ ت 284 هـ / 897 ـ 898 م .

البلدان ـ ط . 3 النجف الاشرف 1957 .

تاريخ اليعقوبي : النجف 1358 هـ .

ـ اليماني ـ محمد بن محمد ـ كان موجودا فى أواخر القرن 4 هـ / 10 م .

سيرة الحاجب جعفر بن علي وخروج المهدي من سلمية ووصوله الى سجلماسة وخروجه منها الى رقادة ـ تحقيق ونشر ايفانوف ـ مجلة كلية الآداب ـ القاهرة مجلد 4 ، ج 1 مارس 1936 .

ج ـ مراجـع اجنبيـة

BASSET R.

Art Ketama — dans l'Incy — de l'Islam, p. 909.

BEL A.

La Religion musulmane en Berbérie. Esquise d'histoire et de sociologie religieuse. T I. Etablissement et développement de l'Islam en Berbérie du VIIme au XXme siècle, Paris 1938.

BENACHENHOU A.

Hassan Ben Mohamed El Ouazzane dit Léon l'Africain, l'Algérie en 1515. Alger 1969.

BENCHENEB MOHAMED

Art. Ashir, E I T I P 489-490. Ibn Muti. T II. P. 431.

CARRA DE VEAU B.

Art Dai. E I T I. P. 918-919.

Cahen. (CL) Art. Ahdath EI. T. I p. 264 Nouvelle Edition 1965

COURTOIS Chri.

Les Vendales et l'Afrique. Paris 1955.

DACHRAOUI F.

La Captivité d'Ibn Wasul.

Le rebelle de sidjilmassad après le cadi An-Numan.

Cahiers de Tunisie, 1956. T IV. N° 15.

Tentative d'Infiltration, site en Espagne musulmane sous le régne d'Al Hakem Revesta Andalus. T 33, 1958.

DEMOMBINES G.

Art Aghlabides E I. T I. P. 185-186.

DIEHL et G. MARCAIS.

Histoire du Moyen Age. T. III, le Monde Orientale de 395 à 1081, Paris 1936.

CAHEN (C.L.).

Exposé de la Religion des Druzes, T I, Paris 1964.

Christomathie Arabe ou extraits de divers ecrivains arabes tan en pose qu'en vers 3 V, Paris 1826-1827.

DE SLANE (Le Baron).

Histoire des Berbères et des Dynastie Musulmane de l'Afrique Septentrionale. Nouvelle édition publié sous la direction de Paul Casanova. 4 V, Paris 1925.

DESPOIS (J.).

L'Afrique Blanche française. T I, l'Afrique du Nord. Paris 1949.

DOZY (R.).

Supplément aux Dictionnaires Arabes. 2 éditions, Paris 1927.

EVER (G.).

Art Djidjelli, E I T I. P. 1073-1074.

Art Bougie E I T I. P. 785-786.

Art Djerba E I T I. P. 1066-1068.

Art Bône E I T I. P. 761-762.

Art Zeb T 4. P. 1246-1247.

FERAUD (L.).

Histoire des Villes de la Province de Constantine, Bougie, Jijeli, Philippeville, Sétif, Constantine 1869-1875.

FYZEE (A.).

Art Al-Numan, E I T 3. P. 1019-1020.

GAUTIER E F.

Le Passé de l'Afrique du Nord, les Siècles Obscurs. Paris Payot 1942.

GABRIELLI (G.).

Manuale di Bibliographia Musulmana. Rome 1916.

HUART Cl.

Histoire des Arabes. T I. Paris 1912.

HOUTESMA M th.

Art Abu Abd-Allah. E I T I. P. 76.

IDRIS H. R.

Une des phases de la lutte du Malikisme contre Siisme sous les Zirides, Cahiers de Tunisie. T 4, N° 16, 1956.

La Berbérie Orientale sous les Zirides X - XIIme siècles. 2 Vol. Paris 1962.

La Chronique d'Abu Zakaryya (2 partie) traduction annotée. Revue Africaine T C V, 1961.

Encyclopédie de l'Islam, ancienne et nouvelle édition.

JULIEN Ch. A.

Histoire de l'Afrique du Nord. T 2. 2me édition. Paris 1961.

LAROUI — A —

L'Histoire du Maghreb, un essai de Synthèse Paris 1970.

LEON L'AFRICAIN J.M. 944 H/1537.

Description de l'Afrique 2 Vol, nouvelle édition par E., Epaulard. Paris 1956.

LE TOURNEAU — R —

L'Occident Musulman du Milieu de VII^e siècle à la fin du XV^e siècle — Annales de l'Institut d'Etudes Orientale TX VI, 1958.
La Chronique d'Abu Zakaryya, al-Warglâni traduction annotée Revue Africaine T C V 1961.

LEVI PROVENCAL — E —

Histoire de l'Espagne Musulmane 3 Vol. Paris 1950-53.

Art Zlrides E I, T 4. P. 1299-1300.

Art Ziyani E I, T 4 P. 1269-70.

MARCAIS (G.).

Art Rustomides E I T 3 P. 1270-71.

Art Zenata E I T 4 P. 1270-71.

Art Les Rébats de Sousse et de Monastir, Cahiers de tunisie T IV N 13. 1956.

MAGUED A.M.

Le personnel de la Cour Fatimide en Egypte, Annales, faculté des Lettres. Université d'Ain Chams Vol. 3. 1955.

De quelques juridictions Fatimides en Egypte. L'Egypte contemporaine n° 266 janvier 1960.

Art Al Hafiz, E I, nouvelle édition T 3 P. 56-57, Livraison 41-42.

MASQUERAY — E —

Chronique d'Abou Zakariyya livre des Beni M'Zab. Alger 1878.

MOTYLINISKI (A. de).

Chronique d'Ibn Saghir sur les Imams Fustemides de Tahert dans Les Actes du XIV[e] congrès Internationale des Orientalistes. Alger 1905 3[e] partie P 3 Sqq Paris 1968.

Art Abadites E I T 1 P. 3-4.

Art Abu — L. Khattab T 1 P. 98-99.

Abu Hatem T 1 P. 94-95.

MASSIGNON (L.).

Les Sept Dormant d'Ephèse en Islam et en Chritienté.

Revue des Etudes Islamiques année 1954.

NEGRE — A —

La fin de l'Etat Rustemides Revue d'Histoire et Civilisation du Maghreb n° 6-7 juillet 1969 - Alger.

PEARSON (J.D.).

Index Islamicus 1906-1955 Cambridge England 1958.

SAUVAGET.

Introduction à l'Histoire de l'Orient Musulman 2[e] édition par Claude Cahen. Paris 1961.

TALBI — M —

L'Emirat Aghlabide, Histoire Politique. Paris 1966.

VONDERHEYDEN M.

La Berbérie Orientale sous la Dynastie des Benoû L-Arlab, Paris 1927.

WIET — G —

Histoire de la Nation Egyptienne, l'Egypte Arabe T 4 Paris, 1937.

YAHIA EL KHACHAB

Nasiré Hosrow, son voyage, sa pensé religieuse, sa philosophie et sa poèsie (thème principale) Le Caire 1940.

ZABY M.H.

Les Tulumides, étude de l'Egypte Musulmane à la fin de IX^{e} siècle 868-905 Paris 1933.

د ـ الدوريـــات

ـ ابراهيم احمد العدوي ـ دكتور :

الحمام الزاجل فى العصور الوسطى ـ المجلة التاريخية المصرية مجلد 2 عدد 1 مارس 1949 .

إقريطش بين المسلمين والبيزنطيين فى القرن 9 الميلادي ـ المجلة التاريخية المصرية مجلد 3 عدد 2 ـ اكتوبر 1950 .

تبادل الاساتذة بين الجزائر ومصر فى القرن 15 م ـ مجلة كليـة الآداب جامعة الجزائر عدد 2 سنة 1970 .

ـ الاهواني ـ عبد العزيز ـ :

سيرة جونر ـ صحيفة معهد الدراسات الاسلامية مدريد مجلد 1 : عدد 3 سنة 1955 .

ـ بدوي جلـول :

ابن حماد الصنهاجي ـ مجلة الأصالة ـ وزارة التعليم الأصلي ـ الجزائر عدد 1 ـ مارس 1971 .

ـ ابن تاويت الطنجي :

دولة الرستميين اصحاب تاهـرت ـ صحيفة معهـد الدراسات الاسلامية مدريد مجلد 5 عدد 1 ـ 2 سنة 1957 .

ـ التازي عبد الهادي :

تاريخ بناء جامعة القرويين ـ المجلة التاريخية المصرية مجلد 8 سنة 1959 . وانظر ايضا مجلة كلية الآداب ـ الاسكندرية مجلد 16 سنة 1962 .

الامام داوود بن ادريس من خلال الوثائق ـ مجلة كلية الآداب ـ الاسكندرية ، مجلد 15 ، سنة 1961 .

ــ جمال الدين الشيال ــ دكتور :

نظام الوزارة فى العصر الفاطمي ــ مجلة الثقافة عدد 638 مارس 1951 .

الصلات الثقافية بين المغرب ومدينة الاسكندرية فى العصر الاسلامي مجلة كلية الآداب ــ الاسكندرية مجلد 15 سنة 1961 .

ــ حسن أحمد محمود ــ دكتور :

محنة الشيعة فى افريقية فى القرن الخامس الهجري ــ مجلة كلية الآداب ــ القاهرة مجلد 12 ج 2 ، ديسمبر 1950 .

ــ حسن امين ــ دكتور :

تاريخ العراق فى العصر البويهي ــ مجلة كلية الآداب ــ الاسكندرية مجلد 17 سنة 1963 .

ــ ح ح . عبد الوهاب :

قصة جزيرة قوصرة العربية ــ المجلة التاريخية المصرية ــ مجلد 2 عدد 2 اكتوبر 1949 م أعماله بقلمه ــ حوليات الجامعة التونسية عدد 6 سنة 1969 .

ــ حسين مؤنس ــ دكتور :

غارات النورمان على الاندلس بين 229 و 245 هـ ــ مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مجلد 2 عدد 1 مارس 1949 .

الجغرافية والجغرافيون فى الاندلس ــ صحيفة معهد الدراسات الاسلامية ــ مدريد مجلد 7 ــ 10 من 1959 ــ 1961 .

ــ الدشراوي فرحات :

اقريطش فى عصر المعز لدين الله ــ وهو نص من نسخة خطية .

للمجالس والمسايرات . توجد فى مكتبة حسن حسني عبد الوهاب ــ حوليات الجامعة التونسية عدد 2 سنة 1965 .

ــ زاهر رياض ــ دكتور :

اتجاهات مصر الافريقية فى العصور الوسطى ــ مجلة كلية الآداب القاهرة ، مجلد 20 ، ج 1 ، سنة 1958 .

ـ سعد زغلول عبد الحميد ـ دكتور :

فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية والاسطورة الشعبيـة ـ مجلة كلية الآداب . الاسكندرية مجلد 16 سنة 1962 .

ـ سعد الله أبو القاسم : دكتور :

علاج السفينة في بحر قسنطينة ـ مجلة كلية الآداب الجزائر عدد 2 سنة 1970 .

ـ سعاد ماهر ـ دكتورة :

جامع الاولياء بالقرافة الكبرى ـ الاهرام 27 / 10 / 1971

ـ شعيره محمد عبد الهادي ـ دكتور :

الممالك الخليفة ، وممالك ما وراء النهر والدولة الاسلامية الى ايام المعتصم ـ مجلة كلية الآداب ـ الاسكندرية مجلد 4 ، سنة 1948 .

ـ الشاذلي بويحي ـ دكتور :

شعر ابن رشيق ـ حوليات الجامعة التونسية عدد 6 سنة 1969 .

ـ عبد الوهاب حمودة :

نظرية الأنساب في الميزان مجلة كلية الآداب القاهرة سنة 1952 .

ـ العبادي مختار ـ دكتور :

سياسة الفاطميين في المغرب والاندلس ـ صحيفة معهد الدراسات الاسلامية مدريد 1957 .

ـ عبد الرؤوف علي يوسف ـ دكتور :

خزافون في العصر الفاطمي واساليبهم الفنية ـ مجلة كلية الآداب القاهرة مجلد 2 ج 2 ديسمبر 1958 .

ـ عبد العزيز سالم ـ دكتور :

طرابلس الشام تاريخها وآثارها في العصر الاسلامي ـ مجلة كلية الآداب ـ الاسكندرية مجلد 16 لسنة 1962 .

ـ عبد الكريم حليم :

من هو مؤسس مدينة فاس ـ مجلة المغرب ـ عدد 2 ـ 7 ديسمبر 1967 .

ـ عبد المنعم ماجد ـ دكتور :

اهداف السياسة الحربية للفاطميين ـ مجلة المجاهد الثقافي ـ عدد 7 الجزائر 1968 .

اصل حفلات الفاطميين بمصر ـ صحيفة معهد الدراسات الاسلامية مدريد مجلد 2 سنة 54

موقف المصريين من حكم المماليك في العصور الوسطى ـ مجلة كلية الآداب جامعة عين شمس عدد 12 سنة 1969 .

النقود الفاطمية حوليات كلية الاداب ـ جامعة عين شمس مجلد 2 ، سنة 1953 .

ـ الغنيمي أبو الوفاء ـ دكتور :

الطرق الصوفية في مصر ، وفي آخره كتاب « الطرق الصوفية بالديار المصرية للبكري » ـ مجلة كلية الآداب ـ القاهرة مجلد 25 ج 2 ديسمبر 1963 .

ـ محمود علي مكي ـ دكتور :

التشيع في الاندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الاموية ـ صحيفة معهد الدراسات الاسلامية ـ مدريد مجلد 2 سنة 1954 .

ـ تعليق حول : ثورة غلام العطار المعروف بالفصيح ـ صحيفة معهد الدراسات مدريد ـ مجلد 9 ـ 10 سنة 1961 ـ 1962 .

ـ محمد المنونـي :

المصادر الدفينة في تاريخ المغرب ـ مجلة البحث العلمي عدد 10 السنة الرابعة يناير ـ أبريل 1967 عدد خاص ـ الرباط .

ـ محمد اليعلاوي :

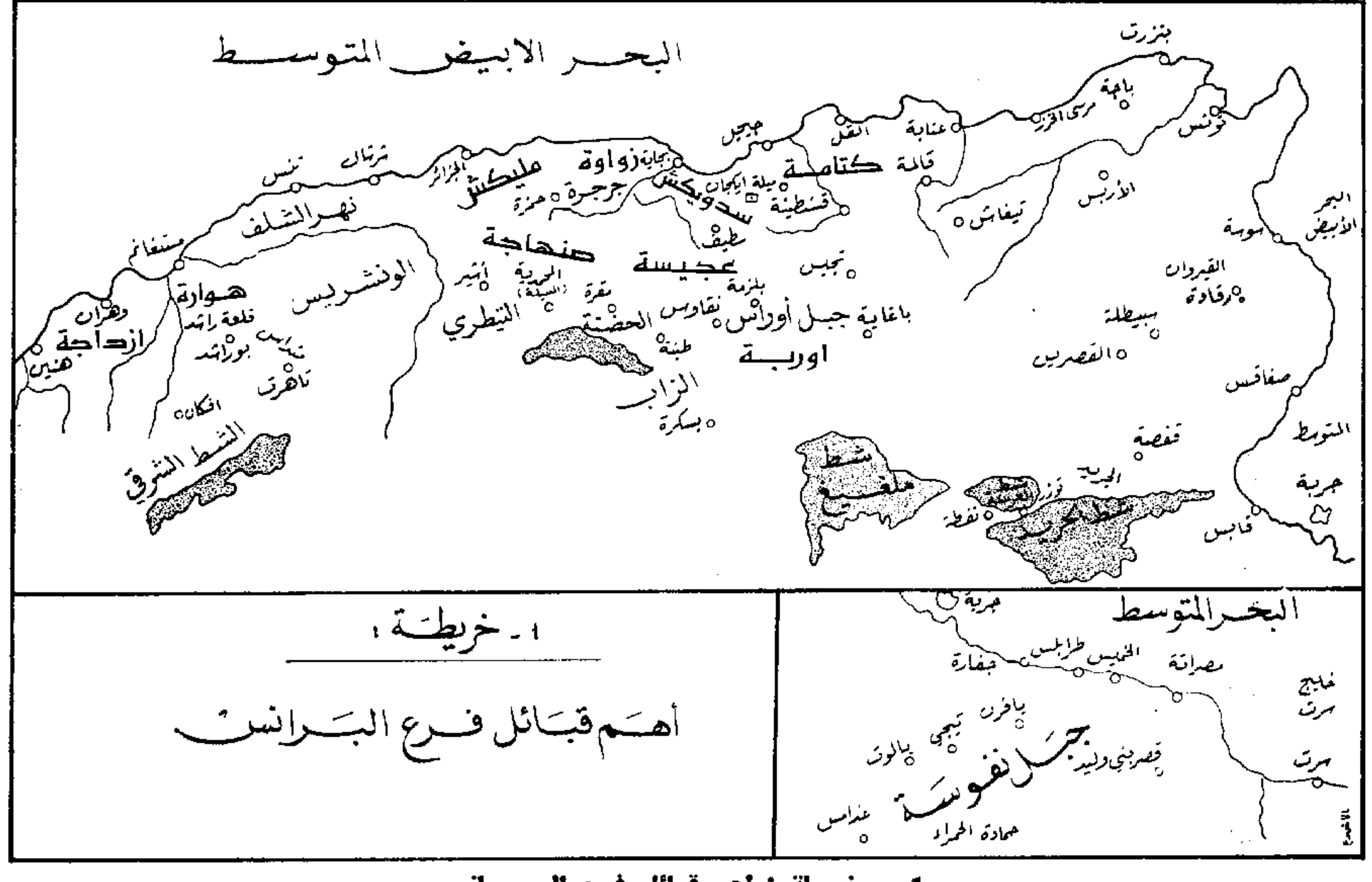
قصائد لابن هانيء ـ لم تنشر ـ حوليات الجامعة التونسية عدد 6 سنة 1969 .

ـ محمد عبد الله ماضي ـ دكتور :

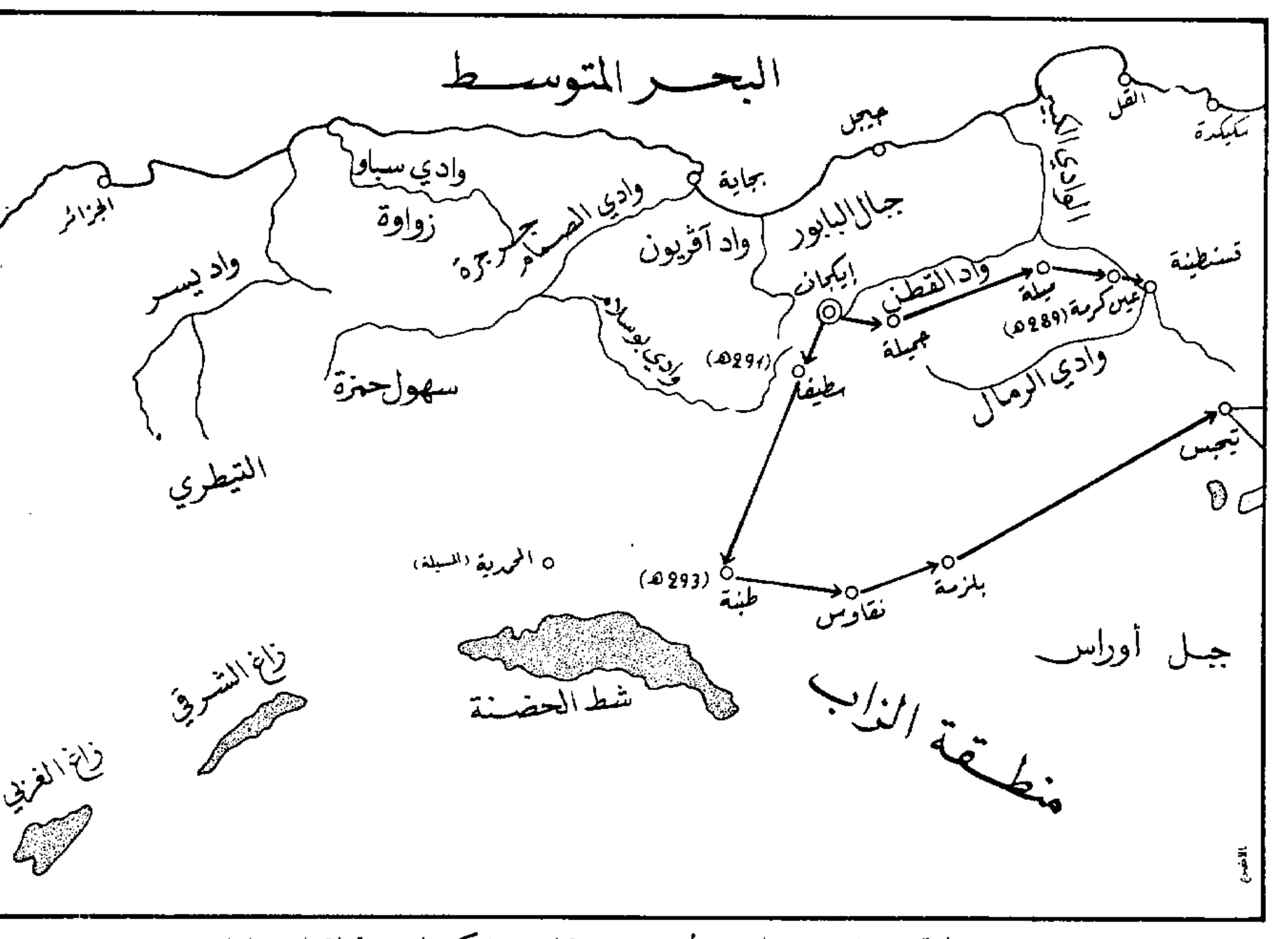
دولة اليمن الزيدية نشاتها وتطورها ـ علاقاتها ـ المجلة التاريخية المصرية مجلد 3 عدد 21 مايو 1950 .

ـ **المؤيد فى الدين** ـ داعي الدعاة الشيرازي ـ 470 هـ / 1077 ـ 1078 م .

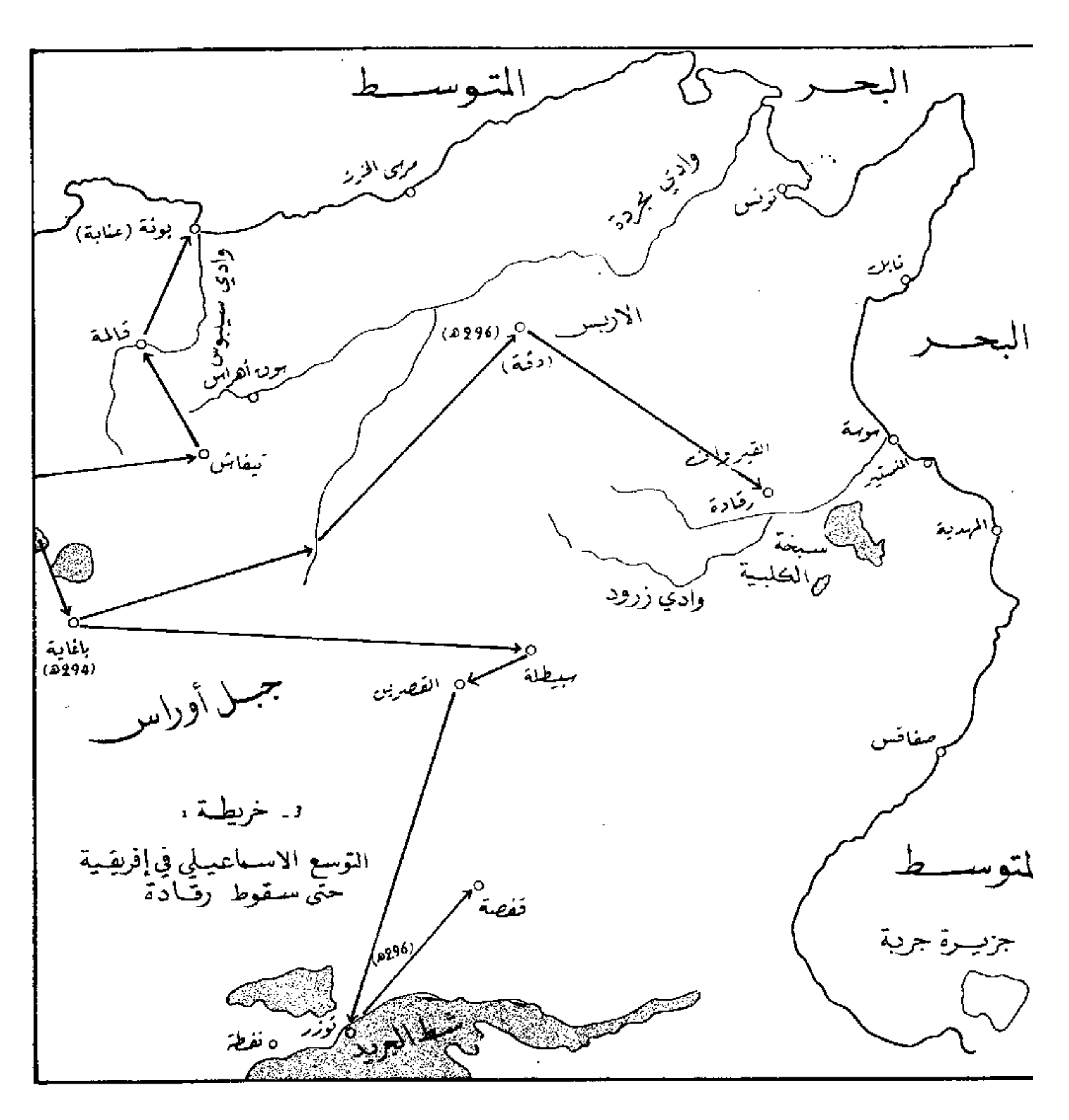
ـ **سيرة المؤيد فى الدين داعي الدعاة** ـ ترجمة حياته بقلمه ـ تحقيق ونشر كامل حسين القاهرة 1949 .



1 ـ خريطة : أهم قبائل فرع البرانس



٢ ـ خريطة : التوسع الاسماعيلي من قاعدة إيكجان في اقليم الزاب



3 ـ خريطة : التوسع الاسماعيلي فى افريقيا حتى سقوط رقادة

سبتة
طنجة
نكور
تلمسان
فاس
برغواطة
تاهرت
قسنطينة
القيروان
رقادة
سوسة
المهدية
صفاقس
طرابلس
جبل نفوسة
ورقلة
سدراتة
سجلماسة
(الصفرية)

الدولة الاغلبية
الدولة الرستمية
الادارسة
الامارة الصفرية
جيوب خوارج

4 - حواضر المغرب الاسلامي في القرنين 3 و 4 هـ

فهرس الأعلام

– ا –

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ث ـ

ـ ج ـ

ـ ح ـ

ـ خ ـ

ـ د ـ

ـ ذ ـ

ـ ر ـ

ـ ز ـ

— غ —

— ف —

— ق —

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

ـ ن ـ

ـ ق ـ

ـ ي ـ

فهـرس الامـاكن والبلـدان

ـ ا ـ

– ت –

– ج –

– ح –

– خ –

ـ د ـ

ـ ر ـ

– ش –

– ص –

ـ ط ـ

ـ ع ـ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

– و –

– ي –

فهرس الموضوعات

ابي عبد الله الشيعي ـ الشيعي وكتامة في مكة ـ الشيعي في قلعة ايكجان ـ الشيعي في تازروت ، تنظيماته الخاصة . مشاكله ـ حرب الحلفاء ، حصار تازروت وفشله ـ سقوط ميلة وردود الفعل الخارجية ضد الداعي : جهود الاحول الاغلبي ضد تازروت وميلة وآثارها : ايكجان دار هجرة جديدة . ايكجان قاعدة انطلاق ضد حواضر كتامة والزاب ، سطيف ـ حملة ابراهم بن حبشي ضد ايكجان ـ معركة كينونة نتائجها : ولاء قسنطينة ، ضم طبنة بلزمة ـ تيجس ـ تيفاش ـ باغاية ـ باغاية انطلاق وسطى ضد قسطيلية وقمودة وقصور قفصة ـ ردود فعل اغلبية ناجحة ضد تيفاش ـ معركة دور مدين ـ تمرد القبائل ضد الداعي ـ حركة اغلبية ضد باغاية ، موقعة الاربس ونتائجها ، فرار الامير الاغلبي زيادة الله وسقوط الامارة الاغلبية اجراءات سريعة وهامة قبيل تحرير عبيد الله من سجنه في سجلماسة ـ اجراءات عبيد الله بعد وصوله الى رقادة ـ قيام الخلافة الفاطمية في المغرب ـ آفاق الفترة التالية .

الفصل الثالث

كتامة وحركة التوسع السياسي ، والصراع المذهبي ، منذ قيام الخلافة الفاطمية حتى اواخر القرن الرابع بعد الهجرة 331 ـ 456

مسؤوليات جديدة للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب ـ حركة التوسع في المغرب ـ تصفية الامامة الرستمية في تاهرت وآثارها ـ مقاومة زناتة ، تصفية امارة بني مدرار الصفرية في سجلماسة وآثارها في تاريخ الخلافة الفاطمية ـ تصفية نفوذ الادارسة في المغرب الاقصى ومواجهة حركات الروانية وعملائهم ـ حركة الداعي ابن الخير في قرطبة وغيرها ، قمة نجاح للخلافة الفاطمية في عصر المعز لدين الله ـ حركة التوسع في الشرق ، صقلية والنشاط الثغري ضد الروم ـ طرابلس وبرقة ، والنشاط الثغري ضد العباسيين في مصر ـ كتامة والصراع المذهبي في بلاد المغرب ـ التشيع واساليب نشره ـ الجدل ـ الدعوة ـ القوة ـ محنة السنة والمالكية خاصة عصر الشهداء ـ المالكية حلفاء ابي يزيد النكاري شيخ المسلمين ـ آثار الحلف الجديد ـ وضع كتامة ورجالاتهم في نظام الخلافة في الدور المغربي حتى عصر المعز لدين الله ـ كتامة الجيل الثاني ، وفتح مصر ، جعفر بن فلاح ـ عنوان عصر ذهبي لكتامة .

الفصل الرابع

كتامة والنفوذ الفاطمي في مصر وبلاد الشام منذ الفتح الى نهاية القرن الخامس بعد الهجرة 457 ـ 576

الوجهة الشرقية للحركة الاسماعيلية ـ المحاولات السياسية والعسكرية ضد مصر حتى 358 هـ ـ قادة الحملة الكبرى (358 هـ) . جوهر الكاتب ، شخصية جعفر بن فلاح ـ كتامة والادارة المدنية والعسكرية في مصر ـ كتامة والخلفاء المصريون ـ آثار وبقايا كتامة في القاهرة وفي الاقاليم ـ كتامة وميدان الشام ومشاكل الحكم الفاطمي فيه ـ القرامطة ـ الشطار ـ عرب الشام وأمراؤهم الولاة الكتاميون في بلاد الشام منذ الفتح حتى ظهور قوة الاتراك السلاجقة في نهاية القرن الخامس بعد الهجرة .

* * *

تم بحمد الله

وحسن عونه

رقم النشر : 847 / 80

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

3 شارع زيغوت يوسف – الجزائر

(طبع بمطبعة زبانة)



كتامة ، هي احدى القبائل الكبيرة التي شكلت مضاربها جزءا هاما من هذا الوطن ، وساهمت بقسط وافر فى صنع احداثه وتوجيه تاريخه . .

فعلى أكتافها قامت دولة الفواطم ، وبفضل سواعد أبنائها اتسعت وامتدت شرقا وغربا .

فتحت لواء المذهب الاسماعيلي تحركت هذه القبيلة فى حركة توحيدية للدويلات الاسلامية التي كانت منتشرة على امتداد العالم العربي . .

ان هذه الدراسة الجادة هي اول دراسة من نوعها باللغة العربية عن هذه القبيلة ، متتبعة لأصولها ، ملاحقة لفروعها ، مقومة لجهودها ، جامعة لشتات اخبارها ، مشيدة بأعمال أبنائها .

السعر فى الجزائر : 75 د.ج